الأعمال الكاملة: خيرى شلبى

٤

الأمالى

لأبى على حسن : ولد خالى

سيرة ذاتية شعبية فى ثلاث أجزاء

- أولنا ولد
- وثانينا الكومى
- وثالثنا الورق



الهيئة المصرية العامة للكتاب

الأعمال الكاملة..

خيرى شلبى

(٤)

الأمالى

لأبى على حسن : ولد خالى

سيرة ذاتية شعبية فى ثلاث اجزاء

١ ـ أولنا ولد

٢ ـ وثانينا الكومى

٣ ـ وثالثنا الورق



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٧

تصميم الغلاف:

الإخـراج الفنى: هاشم الأشمونى

أولنا ولد

البسملة

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين. أما بعد فهذه أمالى الحاج «حسن أبو على» ولد خالى «عبد الباسط عواد»، الشهير بابى ضب. أملاها علىّ فى بضع ليال ونحن جلوس على مصطبة من الحشيات الثمينة المبطنة بالفرو، ومن خلفنا المساند القطيفة الملونة، فى شرفة شقته المقامة فى الدور السابع فوق سطح عمارته المهيبة الواقفة كالعروسة الحورية فوق أعلى قمة من جبل المقطم الأغر، حيث يتربع «حسن أبو على» ولد خالى فى غاية من الأطمئنان بعد اذ لم يعد مطلوبا منه أى شىء على الاطلاق، وبعد أن تغلغل فى كل شىء فى البلاد، وبات حاكما بأمره يخطب الجميع ودّه ويتملقونه ويمسحون له الجوخ فى كل مكان، وبعد أن زهد فى كل شىء منذ أن توفرت له كافة السلطات، ولم يعد يطلب من الله غير الستر ومغادرة هذه الحياة الفانية فى سر هادىء يمكنه من النظر فى أمر الحياة الباقية، تلك التى لم يعطها من قبل نظرا على الاطلاق الا فى أواخر ايامه.

القاهرة الكبرى تبدو امامنا كاطلال مدينة خرافية تهدمت ولم يبق منها سوى أورام كالحة في النهار كئيبة في الليل رغم بريق الأضواء المنبعث من خلال الهديم. وقد ضمن ولد خالي لأولاده كل شيء وأطمأن إلى أن مستقبل البلاد كله سيظل في أيديهم لقرون طويلة من الزمن قادمة.

وكنت مشغوفا بالفرجة على التليفزيون الملون المفتوح دائما في صدر البهو الكبير يعرض اذرعا وسيقانا وخصورا ورقصا وغناء وتهريجا ونواحا. ولكن ولد خالي كان يسخر مني دائما وينهاني عن الفرجة.

قلت له: ياولد الخال لماذا لا تتركني أتفرج على ما فيه من أفلام وتصاوير؟

قال: ولماذا الأفلام والتصاوير ياولدي؟ أنا عندي لك من الأفلام والتصاوير ما هو أحسن من هذه وأنفع!

قلت له: يا ولد الخال ولكن الحكاوى التي ستحكيها لي ليس فيها تصاوير اللحم الأبيض المخروط في قوالب زبدة وقشطة!

قال بعفوية دون أن يدري: عندي من هذا اللحم أكثر مما يشتهي الخلق كلهم، نشبع لحما وزبدا وقشطة!

ثم بان الغضب اللطيف على وجهه فجاة، وبرق في عينيه ذلك البريق اللاهب. ولو لم أكن أعرف طبع ولد خالي لظننت

من هذه الغضبة الصامتة انه سيفتك بي لا محالة. نفس الخديعة التي يقع فيها كل من يرى هذه النظرة في عينيه وهذه الشدة علي وجهه لأول مرة.

فوجهه مثلث الشكل منحوت يشبه مبخرة فخارية، يشبه الجوافاية المتقيحة الناشفة. عيناه ثقبان عميقان يندفع منهما بريق حاد كعمودين من الضوء مفتوحين على الشمس. في عينيه الف قتيل وقتيل دفنهم ومشى في جنازاتهم باكيا بحرقة بدهاء ملفوف في براءة تصل إلي حد البلاهة أحيانا. لا يستطيع مخلوق - مهما كان اريباً ذكيا ابن حرام - ان يفصل بين المجرم العتيد في ولد خالي وبين بلاهة الصعيدى القحف. العشرة الطويلة وحدها هي التي تستطيع أن تريك الرجل الطيب في ولد خالي. شيئا فشيئا سيقل رعبك من شخطته ذات الرنين الخشن القاسي، ويخف انزعاجك من التواء الشر في ملامحه ولهيب النار في عينيه. ستتجاوز عن تشويحة ذراعه في وجهك بيد واصابع سرحة وذراع تتبختر وسط فتحة كم عريضة. لن يغرنك طوله الشامخ حين ينتفض واقفا ليؤنب في غضب جريح أو يصرخ في رثاء الأدب والأخلاق والرجال وأهل زمان.. لسوف تعرف أن هذه الفزعة الجبارة هي آخر ما تبقى له من سلطاته القديمة التي نبذها غير آسف عليها، وآخر ذبالة من ضوء سيادته التي اطفاها بنفسه زهدا واحتقارا منه لشأنها.

أشد حالات هياجه وعراكه ينهيها اذان الصلاة، حيث يضطر هو إلى الاستجابة الفورية بالرد على صوت المؤذن صائحا: الله اعظم والعزة لله.. ثم يصلح عمامته الصعيدية الصغيرة كأنها البرام الأبيض، ويولى هامته العالية نحو المسجد رافعا حاجبيه عن نظرة ثاقبة تتلصص تتدبر هى نظرة ولد خالي «حسن عبد الباسط» الشهير بأبى ضب، نظرة تريد أن تخترق النفوس لتعرف ما بداخلها على وجه الدقة واليقين. فإذا رأى كوب ماء في يد أحد ساعة الاذان انقضت يده عليه فرشف منه وتمضمض ثم واصل الاندفاع نحو المسجد. وعند خروجه من الصلاة يترك مسجد السلطان برقوق ويدخل المقهى الذى تعود أن يلتقى فيه بصحابه الحجاج عصر كل يوم ليدخنوا لهم ما يربو على خمسمائة حجر من الحشيش على قارعة الطريق، وربما وجد من كانوا يتعاركون معه قبل الصلاة جالسين، فإذا هو يجلس بينهم يبادلهم الحديث بود عميق كان شيئا لم يكن.

وأما انا فلست أستطيع بل لست أملك أن أرفض لولد خالي طلبا. لقد كان هو الحافز الأكبر لأبى وأمي بأن يربياني على التعليم لعلني اعيد إلى الوجود شهرة أخوالي الفقهاء. فالحقني ابى بالكتاب في بلدتنا «كوم سعيد»، فحفظت القرآن وجودته ثم التحقت بالمعهد الدينى فى أسيوط ثم جئت أخيرا لأتعلم فى الأزهر الشريف مثل رفاعه الطهطاوى ومحمد

عبده وطه حسين وأخـوالي. وهكذا قدر لى أن انتقل من «كوم سعـيد» بالغنـايم قبلى إلى الأزهر الشـريف طالب علم، أسكن في دار ولد خالي ولا غـرو. وقد رحب بى أيما ترحيب، فـأفرد لى شقـة خاصة أرتع فـيها وحـدى كأولاد البـاشوات، وتكفل بمصاريفي وكسوتي حتى بات أهلي لا يعرفون عني أى شيء وإن رأوني فـقد لا يعـرفونني من فـرط ما طرأ على من نعـيم مـقـيم، يكفـى أنني أذهب إلى الأزهر كـل يوم في سـيـارته المرسيدس وسائقه يوصلني بحقيبة الكتب حتى محل الدرس، ويعود ليحملني إلى الدار، أقصد القصر المنيف.

ولقد بات ولد خالي يجد لذة عظمى في توجيهي والاشراف على واستحثاثي على الجد والاجـتهاد باخلاص عميق لا أظنه يتـوفـر في أبي نفسـه. ثم أنني درست ولد خـالي عـجنتـه وخبزته. عرفت عنه الكثيـر مما تقشعر منه الأبدان لكنني مع ذلك أحبـبتـه. وكلما ضـقت به وباشرافه وثرثـرته تذكرت أن الواقع دائما في صفه. والغريب أنني كلمـا دققت في الاستماع إليـه وجدت حكـما خطيـرة وجنيت فـوائد جـمة لا تـحـصى. بصـراحـة وجـدته على حق، اذ أطلت المكوث أمـام الشـاشـة الملونة فاصـابني التكرار بالكآبة والرغبات السـفلية، ونظرت في كتب الدراسة فـما وجدت إلا علوما تتقعر فـى الفراغ بعيدا عن مـجـريات الحيـاة، علوم هذه الكتـب كلها تسـيـر في واد وتسير حـياتنا في واد آخر، وليس ثمة من صلة بيـنهما على

الاطلاق فكل يمضى في فلكه بعيدا عن الآخر، والناس في بلادنا يتخرجون في الجامعات والمعاهد والأكاديميات ليصبحوا في النهاية مجرد موظفين ينفق عليهم أمثال ولد خالي. وقد تبين لي خلال سنوات التحاقي بالتعليم العالي واحتكاكي بالقاهرة أم الأعاجيب أمثال ولد خالي «حسن أبو علي»، أن أمثال ولد خالي هؤلاء هم دائما وجوه المجتمع الحقيقيين بل هم أصلابه أصحاب رأس ماله وعمائره السكنية ومحلاته التجارية الكبرى وأعضاء مجلس شعبه وتاجرو مخدراته. أمثال ولد خالي «حسن أبو علي» هؤلاء هم الفائزون على الدوام، وليس يصيبنا من التعليم سوى النفقات والعناء الشديدين، ولا أظن أن أحدا يمارى في أن مجتمعنا لا يطلب منك شروطا على الأطلاق لكي تصبح أحد اثريائه في شهور قليلة، أو أحد ملوكه أو رؤسائه في قفزة واحدة يصبح من حقك أن تتحدى كل شيء وتحصل على كل شيء وتشترى بنقودك بقوتك ما تشاء وتهوى.

لكل هذا فأنا أستمع - وأدون - كل حكاوى ولد خالي «حسن أبو علي»، التي طقت في مخه فجاة فطلع في دماغه أن يمليها على كصفحات من بطولاته الخارقة. وقد أملاها على في استمتاع شديد، ودونتها في استمتاع أشد. ولم أضبطه متلبسا بالكذب في كلمة واحدة، حتى لقد أعطاني درسا في

الصفاء والتجرد والجرأة على الاعـتراف والمكاشفة بما يشيب له الولدان. لقد أدلى بشـهادته كاملة غير مـنقوصة لما رأى أن الجمـيع فى هذه الأيام يهتمـون بكتابة شـهاداتهم، كل من هب ودب يتطوع بالادلاء بشـهـادته.. فـأراد ولد خــالى أن يلقنهم درسا فـى نوع الشهـادات التى يجب أن تكتب اليوم، فـإذا هو يكشف عن الجانب الدقيق المخفى من حياتنا المتعتقة فيعترف بكل مدهش ومثير، وإذا هى شهادة جـديرة بأن يحملها ضمير الأمة كما قال.

وبعـد فليس لى أى فضل سـوى تسطيـر أماليـه هذه على الورق، لعل من يهمـهم معرفة جوهر الحـقيقة ـ كـما قال ـ أن يفـتحـوا أعيـنهم ذات يوم. فإذا كـانوا قـد ظلوا طول عمـرهم يقرءون شهادات المثقفين، فلعله قد آن الأوان لأن يستمعوا إلى شهادات العامة من افواه المواطنين، أو كما قال «طبق الاصل».

الفاتحة

الله لا يعيدها من أيام. الفقر وحش ياولدى وأكل العيش مر، والبطن لا ترحم. وهى ليست بطنا واحدة، خذ عندك أمى، وأربع بنات كبار، وطفل ملامحه كنت أشاهدها الخالق الناطق على وجوه أعمامى الفقهاء المحترمين، وأتعجب: كيف يصير هؤلاء محترمين هكذا؟ وأبى على باب الله يعيش على ذراعه يشتغل يوما ويبطل عشرة، حتى ليمشى يعرض الخدمة على الناس يتطوع بالمساعدة دون أن يدعوه أحد، أحيانا دون لزوم. أنت وغيرك تتصور أن المسألة مجرد شهامة من رجل يبدو محترما غير أجير، فتكتفى برفع ذراعك فى الهواء بالشكر والتحية مثلما تشكر أعيان الناس بينما تعطيه ظهرك متكلا على الله. واقعتك سوداء لو فعلتها ربما مشى خلفك فى هدوء شديد ليجذبك من أى مكان فى متناول يده الغليظة الخشنة، ذراعك أو خناقك أو رقبتك نفسها لا يهم: تعال هنا.. حمار أنا يعنى أشتغل لله من غير أجر؟! حتى الحمار يعلفونه وينفقون عليه!..

الكل ياولدى كان يتقى شره، يتركونه يساعدهم راغبين. لم تكن المصادمات تحدث بينه وبين أحد الا أيام السوق، حيث ينخدع

فى شكله الغرباء، يرون فى وجـهه صلاح أعمامى وطيـبة قلوبهم ورجولتهم، بعدها هو وبخته، حسب نوع الناس الذين يرمى بجثته عليهم، مع أنه أزرق الناب، علـيه رحمة الله كـان يعرف الناس من أقفيتهم، ومنها يتوسم فيهم الخير أو كلاحة الوجه. العبد منا ليس معـصوما من الخطأ، ويرحـمه الله كان يضـرب فى قلب السوق ينظر حواليـه وعينه لائذة بكل شىء، يرى جـماعـة ينزلون أجولة الحبـوب عن الركائب يعـدون الفرش، يراهم فى حـاجة حقـيقـية لمساعدته لكنه يعطيهم ظهره وينصـرف، ليساعد بائع العجوة فى نصب خيمته واعداد موازينـه وبعدها يقف يتلكأ فيفهم البائع هذه الإشارة يطبق يده على الواحد بأربعة أو القرش على سبيل الهدية أو الحسنة الـتى يسره أن يقبلهـا ذلك الرجل الطيب المحتـرم لعله يكون بركة، أما تجار الحبوب فانهم كانوا سيسخرونه فى تفريغ وتكيـيل وتحميل طـول نهار السوق وفى الـنهاية لن يأخـذ سوى القرشين!..

أتممت فى الشـهر الفائت أربعة وخمـسين حولا بالتمام والكمال ومازالت أيام كان يتركنى أشبط فى ذيله فأمضـى معه يوم السوق كله، كان يعرق بحق، يصعب على، من فرش إلى فرش يحمل يعتق يفرغ يجـر المربات يتعـارك فى اليوم مـائة عركة، فى كل عـركة يضرب وينضرب حتى يقع مغشـيا عليه وولد خالك يصرخ لله ما يغيـثه من كثـرة الخوف على أبى الذى أراه يموت أمـام عينى فى اليوم الواحد عشرين ثلاثين مـرة على الأقل! أتعجب فى كل عركة كيف كان يستطيع النهوض بعدها متجها إلى فرش آخر يبحث فيه

عن مساعدة يقدمها لأصــحابه، إن لم تكن موجودة أختلقها، لربما فـوجئت به يكنس أمـام دكانك ويرش، مـا يجـعلك تنتبـه إلى أنك بالفعل كنت مـحتاجـا لمن يكنس لك المكان ويرشه ليـصير نظيـفا هكذا، أو تراه قد تسلـل إلى فرشك وراح يرتب أجولتـه وموازينه من الفوضى التى أحدثتها معـاينات الزبائن وفركشاتهم للبضـائع، مما يجعلك تنتـبه إلى أنك بالفعل كنت مـحتاجا لمن يقـوم لك بهذه المهمة، ولربما فـوجئت به واقفا أمـامك ماثلا رهن الاشارة فى أن تكلفه بشىء أو تطلب منه طلبا أو تأمره بأمر، ومن هنا كانت تكثر خناقاته يا ولدى، وكان رأس ولد خالك الصغير أيامها لا يمكن أن يخطر له أن أبى هو الذى يسعـى إلى العركة سعـيا. كنت أستعـيذ بالله ويدب الرعب فـى كلما بدأ صـوته يعلـو فى الكلام وترتعش شفتاه وتبرق عيناه، أروح أقول لنفسى ياسابل الستر استر يارب، رمشة عين والأخرى تكون الخناقة قامت والضربة دوت على وجه أبى، تتبعها الشلاليت والبونيات وأبى يفلفص بين جمع من الناس يلتم عليه فجأة ليخلصه ولكن بمزيد من الضرب، بعدها يقف بعيدا ويأخذ فى الصياح والاحتجاج على ضربه وهو ابن الناس الطيبين واخوة له فقهاء مشهورون، فيتحرج الذين ضربوه، يبعثون له من يصالحه، يراضيه بقرش يزيد عما كان سيأخذه بدون عراك!..

ولد خـالك لم يعـد يخاف. فـهـمت أن أبى يفـعل ذلك من أجل زيادة الرزق قرشا أو قرشـين. فى يوم السوق لابد أن تطبخ كافة الدور، الدار التى لا يتـصـاعد منـها الدخـان ليلة السـوق هى دار اليتامى، ولابد أن يوقد الكانون فى دارنا ويرسل دخانه ولهذا كان

أبى ـ بعد كل هذه البهدلة والضرب المميت ـ يبدأ فى الابتسام منذ انصــرافه من أمام «ســيبــة» الجزار، حــيث يكون قد تأكـد من أن اللحم صــار أخيرا فى يـديه تنام اللفة الورقـية الحـمراء التخـينة المبقـعة بالدم على صدره وهو يركض مـترنحا ذات اليـمين وذات اليـســار كـالسكران النشـوان يلقى الـسلام عـلى الناس بكل ود، فيـردون عليـه بكل احتـرام للورقة النائمـة على صدره يقـولون: تفضل يا أبو عـواد، فيقول: عـشت عشت، وتزداد الابتســامة نورا على وجهــه كلما اقـترب من حارتنا، فـاذا يبدأ فى دخـول حارتنا يأخذ شكل الرجل المحـترم يبدو بالفـعل نسخة من وقار أعـمامى الفقـهاء فى مـشيـتهم لا فـرق سوى الجـبة والقـفطان والعمـامة والعصا. ولم أكن أعـرف لماذا يفعل هذا فى هذه الحارة بالذات مع أننى أعـرف أن أناسا كـثيـرين من أهل حارتنا هذه شـاهدوه فى السوق وهــو ينضرب بالصــرمة القديـمة، هم أيضا كـانوا يردون عليه السلام بكل احترام قائلين: تفضل يا أبو عواد، فيقول: عشت، ويدلف إلى دارنا، من خلفه أنا، متفاخرا، مـحشو الجيوب بالعجوة والبـرتقال والـيوســفندى والفـول السودانى. يـنشرح وجـه أمى وأخوتى من منظر الورقة. أمى تسمى بالله قـبل أن تفتحها، تقلب فيها قائلة لأبى وهى تشوح بيدها فى وجهه بحب: ان شاء الله ما اشتهيك، تذهب إلى الكانون المشـتعل تكاد تزغرد من الفرح. أنسى فى الحـال كل مـــا أصــابنى من بكاء وصــــراخ ونكد، أوزع على اخـواتى وأمى وأبى كل واحد بلحـة عـجوة وفص برتقـال. يكون

ريقنا قد بدأ يجرى والفرح يعمنا كلما طلعت رائحة اللحم المسلوق من تحت غطاء الحلة مع الدخان..

خالك، يرحمه الله، اشتغل فى أشغال كثيرة. الشغلة الوحيدة التى كنا نحبها ونتمنى لو دامت هى شغلة الخفارة، حيث خفرنا ما كينة مياه كبيرة كانت لرجل من الأعيان طيب القلب مثل حالاتك وحالاتى، كان له ثلاثمائة فدان تسهر عليها ماكينة المياه ونحن وأبى نسهر عليها وعلى الأرض طول الليل. أقمنا دارا لنا بجوار الماكينة وأقمنا فيها، فبقيت دارنا تقطع المسافة بين البلدة والجبل، إلى الجبل كانت أقرب، وكل العصابات التى تختبىء فى مغارات داخل الجبل كانوا أصحاب والدى وكانوا يستريحون عندنا أثناء تسللهم من الجبل ليلا إلى البلد أو تسللهم من البلد إلى الجبل. «على السايح» نفسه، الذى هرب من السجن والقيد الحديدى فى يديه، كان يستريح عندنا، ولقد سحرنى هذا الرجل مثلما سحرنى الجبل، هو الوحيد الذى بهرنى بعد الجبل وأوقف شعر رأسى من الرعب والحب لهؤلاء الذين يدوخون البر كله يحتضنهم هذا الجبل المهيب المخيف المليء بالمغارات..

أتعرفون كيف هرب «على السايح»؟ تراك أنت وجيلك لم تسمع به. وهل رأيتم أنتم شيئا؟ انكم جيل الفقر والحروب وعسكر الاحتلال واحتلال العسكر، فمن أين تجيئكم المرجلة عدم المؤاخذة؟ من السمن الهولندى والقمح الأمريكى المدفوع فيه شرفكم؟ أم من الفراخ الفاسدة ولحوم الكلاب المفرومة التى يوردها عبد الحى وعبد الميت؟! أم من الماء العكر المختلط بماء المجارى والهواء المختلط

بعادم المكن والمواقد؟! عليه العوض ومنه العوض فيكم ياولدى! فى هذه البلاد شىء كبير غلط لا أحد يدرى ما هو لكننى أقول أنه ندرة الرجال!.

«على السايح» كان محكوما عليه فى أربع تأبيدات كلها اعتداء على الحكومة وقتل أعيان من رجالها، مع أن الحكومة هى التى كانت تبدأ دائما بالعدوان، هل هناك من يتعدى على الحكومة من الباب للطاق؟ .الناس تعتدى على الناس، وهيهات أن تجىء الحكومة فى الوقت المناسب، الميت يبقى فى مكانه ثلاثة أيام ربما عشرة فى انتظار تشريف وكيل النيابة إلى أن تتعفن جثته ولايستطيع مخلوق فى أن يقترب منها. وحتى لو جاءت النيابة فماذا ستفعل؟ محاضر وأقوال؟ طبيب شرعى يبيع التقارير بتسعيرة كبيرة ؟! وحقوق تضيعها المحاكم بين قضاة يعوجون الطربوش على ناحية ويحكمون بأربع وعشر ومؤبد وهم لا يعرفون أصل الحكاية من فصلها ولا ظالم من مظلوم ؟ ! ومحامون متكلمون يختلقون الأوراق ويولدون الكلام كلاما ومخارج وأوهاما تصفى دم الغلابة ؟! ..

ياولدى الناس طول عمرها تعرف أن الحكومة لا ترد لأحد حقوقه ولا تقتص من أحد لصالح أحد! أنها لا تدخل إلا لفض المعارك والفتك بالجميع. ولهذا تعودنا فى الصعيد أن نجنب الحكومة، فما تبدأ معركة إلا وتكون أول خطوة فيها هى قطع أسلاك التليفون حتى لا تأخذ الحكومة علما، لكى تتسع الفرصة

لأن يأخذ الناس حقوقهم بأيديهم يابوى، يقتصون لأنفسهم بأنفسهم يابوى، أمال يابوى ! أتظنون أنفسكم رجالا ؟! ..

«على السايح» يرحمه الله كان يتعارك عراكاً بريئا مع نفر من عائلته: ازدادت المعركة اشتعالا بعض الشيء، تطوع أبناء الحلال فسافروا إلى بلدة مجاورة لبلدتنا وأبلغوا الحكومة من تليفون عمدتها، فهبطت علينا العسكر والهجانة من كل مكان واشتغل الضرب فينا عمال على بطال. دخلوا دورنا يابوى كما كان يفعل الفرنساوية والمغول الذين يحكون عنهم فى الراديو والتليفزيون ساعات. صاروا يمزقون الثياب عن النساء بحجة أنهن ربما يكن رجالا من الهاربين متنكرين، ويفتحون حواصل المعيشة فيدلقون السمن والعسل واللبن على الأرض يدهسونه بالأحذية الميرى، وبأقدام الخيل وحوافر الجمال وعجلات البوكس فورد يدهسون بطون الحوامل والأطفال والعجائز. فمن يرى هذا يابوى ولا يغلى دمه؟!..

كنت طفلا صغيرا أيامها وكان ذلك حوالى سنة ألف وتسعماية وخمسين أو قبلها بسنوات قليلة، ولازلت حتى هذه اللحظة أسمع الصراخ والصويت الساكن فى أذنى من يومها. بعينى هاتين ـ قادر أن يخرسنى لو كذبت ـ شاهدت اندفاع عسكر الحكومة بالمدافع الرشاشة يحصدون كل من فى طريقهم، ضرب عميانى. الدار المجاورة لدار «على السايح» ليس لها دعوى بأى شيء، لكن العسكر أخذوا يصوبون نحوها مدافعهم

ويضربون. خرج لهم من شباكيها فتى وفتاة من عائلة «الجناينة»، الفتى اسمه «جنة» وعمره حوالى سبعة عشر ربيعا، والفتاة اسمها «جنينة» وعمرها حوالى خمسة وعشرين عاما. أخذ كل منهما يدافع عن داره وأهله مطلقا رصاص المدفع الرشاش على العسكر والجانة فقتلوا منهم جملة، وكلما وقع منهم واحد زغردت الأم فى الداخل، إلى أن اندفعت رصاصة من مدفع أحد الهجانة فى رأس الفتى «جنة»، كانت عنيفة حتى نترته من الشباك وألقت به خارج الدار فى الارض، فما كان من أخته «جنينة» الا نزلت من الشباك ولفت من الحوش لتفتح باب الشارع كى تجىء بجثة أخيها. وكان العسكرى الهجان الذى ضرب أخاها قد نزل عن جمله وجاء نحو الفتى ليأخذ منه مدفعه الذى كان لا يزال يحتضنه، فعاجلته الفتاة «جنينة» مفرغة فيه كل حشو خزينة مدفعها، وجرجرته حتى عتبة الدار، وبحد الفأس قطعت رأسه وذراعيه وقدميه وصارت تفتت لحمه كأنه الردم!!..

كل هذا و«على السايح» طائح فى الهجانة والعسكر بفرسه ومدفعه الرشاش وسيفه وخنجره ونبوته حتى قتل منهم جملة وأصاب مجملهم اصابات خطيرة، وحين فوجئنا بمجىء الجيش المصرى بعرباته المصفحة ومدافعه وخيوله ليخمد المعركة وجدها قد أخمدت تماما ولم يبق منها سوى «على السايح» وحده، الذى صعب عليه أن يهرب والجبل على بعد رمحتين بالفرس الأشهب وجثث أهله وجيرانه وأصهاره مرمية على الأرض فى كل ناحية..

تسلمته الحكومة وحده فخرج مكبلا بالحديد فى يديه وقدميه ولكن تشيعه الزغاريد! التى طغت على اصوات الثكالى وجعير اليتامى!..

رحلوه إلى النيابة ثم محكمة جنايات أسيوط فحكمت عليه بالتأبيدة الرابعة، فقط لأن محاميه «عبد الفتاح باشا الطويل» أثبت أنه عند اشتعال المعركة كان هو مقبلاً من عند أخواله فى نجع حمادى مجاور لبلدة «أولاد إلياس» وأنه وصل بعد انتهاء المعركة ولهذا لم يشارك فيها ولوشارك لكان أمامه متسع للهرب كما أنه ليس لدى الحكومة شهود لا من رجالها ولا من أهل البلدة لأن الجميع كانوا قد ماتوا فى المعركة وعددهم جميعا حوالى مائةوستين فردا من الطرفين حكومة وأهالى!..

عند انتقال «على السايح» من المحكمة إلى السجن تكفل بنقله أربعة عساكر أشداء وضعوه فى «البوكس فورد» مقيدا بالحديد من يديه وقدميه. وفيما «البوكس فورد» يمتطى الطريق الزراعى أشار «على السايح» نحو نجع أخواله وهمس فى آذانهم بجدية وصدق كبيرين - (الله يرحمه كان مهيبا) - قائلا أنه يدفن فى هذه الناحية ألفى جنيه فى الأرض، وهو الآن ذاهب إلى السجن المؤبد وخسارة طبعا أن تأكل الأرض هذا المبلغ، حرام، ليكن لهم ألف وله ألف يصرفه فى سجنه اذا هم مروا به على هذا المكان حيث يشير لهم من قعدته هذه على موضع النقود فيفتحون بأنفسهم ويستخرجونها. صنف عسكر الشرطة أدنياء وأن تظاهروا بالعفة

الشـــديدة بل هم كـــذلك لأنهم كـــذلك.. وهكذا بـدا عليـــهم أنهم استحسنوا الفكرة ووافقوا عليهـا، فألف جنيه على أربعتهم ليست مبلغـا بسيطا بالنسـبة للقحط الذى يعـيش فيه خـدم الميرى ومن يتـمرغـون فى ترابه. أعلنوا مـوافـقتـهم بجـسـارة خاصـة أنهم مسلحـون وهو أعزل مقيـد فضلا عن أنه بعيـد عن بلده وأعوانه. وبعـد أن انحرف «البـوكس فورد» عن الطريق والتـحم بالمنعطف الواصل إلى الغنيمة همس لهم «عـلى السايح» بأن منظر «البوكس فورد» سـوف يلفت النظر ويثير الشـبهة فـيلتم الناس ويعطلونهم عن كشف الدفينة وربما ادعى البعض أنه صاحـبها! واقترح عليهم أن يركنوا «البـوكس فـورد» فى دروة آمنـة فى سـفح الطريق ثم يركبـوا سيـارة أجرة على حـسابه توصلهم إلى مكان الدفـينة ثم تعود بهم إلى مركن أجرة على حـسابه توصلهم إلى مكان الدفينة ثم تعود بهم إلى مركن «البوكس فورد» بعد انتهاء مهمتهم..

ركب هو بجـوار السائق ليرشـده على الطريق. سـائق الأجرة عرفه فى الحال وسلم عليه لكنه قفل مـلامح وجهه أثر غمزة قوية من أصابع «علـى السايح». المقصـود، ظلت السيـارة الاجرة ترمح بين الحقول فى طرق ضيقة حتى توقفت أمام دار تغطس ـ وحيدة ـ وسط قطيع من النخيل والجزورين والكافـور وتحدها من جميع الجهـات مساحـات شاسـعة من الأراضى الزراعيـة التى هى ملك أخوال «على السـايح» وهذه دارهم. خرج منهـا ثلاث رجال يهـتز من وقع خطوهم المهـيب جبيـن الارض لتقول هزاته لـهؤلاء الذين نزلوا من السـيارة الأجـرة أن اخضـعـوا فانتم أمـام أسيـاد هذه

الأرض، لكل منهم شارب يؤكد لك أن العـيب كل العيب يكون عليه لو لم يصدق صـاحبه فى كلامـه، وعصا من الشـوم تؤكد لك أن الويل ملاقيك لا مـحالة أن أبديت لجاجة أو غبـاوة، ووجه بشوش باسم عن سعة يؤكد لك أنك بالكرم الغـزير موعود، وأنك، بحسن التصرف واللباقة ـ من ها هنا ـ مولودا!..

وهكذا فوجئ العسكر الأربعة أنهم قد أحيطوا بالكرم والاحترام على أكمل وجه. غـداء سريع شـهى أعقبه شاى ثقـيل. وقبل الغداء بقليل استـأذن «على السـايح» من أخـواله فى فأس فـجئ له به فـأصطحب اثنين من العسـكر ومضـى بهـما خلف الدار مـسافـة طويلة حـيث توقف عند بقـعة مـعينة طلب الـفحت فـيهـا ففـحت العسكريان حـتى عثـرا على الدفينة بالفعل مـلفوفة فى قـماط من جلد حـذاء قديم، فلمـا عاد ورأى العـسكريان الآخران البـشاشـة والرضا فى عينى زمـيليهما شملهم الاطمـئنان وجلسوا للغداء فى قليل من التـردد والترقب، لكن كـوبة الشاى الثـقيلة تكفلـت بعدل أدمغتهم على الصهللة الزاعقة والانشراح المجلجل بروقان الأفيون المزروع خلفـهم مباشرة على مـساحـات لا يحدها البـصر، لهـذا سمحوا لعلى السـايح ـ عن أريحية وطيب خاطر ـ أن يدخل ليسلم على زوجة خاله خلف باب الدار مباشرة..

زوجة خاله كانت فى انتظاره داخل حوش الدار الواسـع البعيد. بالفأس الصـغـيرة كسرت أقفـال قيوده، سلمتـه الحصان والمدفع الرشاش وصـاحت فيـه: انطلق. فاندفع من البـاب الخلفى لا ينظر

خلفه قاصداً الجبل، ولو رفع العسكر رءوسهم وتلفتوا حولهم لرأوا فارسا متكورا فوق حصان يشق الريح مندفعا نحو ركن بعيد من السماء، لكن العسكر لم يرفعوا رءوسهم لأن مخدر الأفيون القوى الذى شربوه مذابا فى الشاى بكمية كبيرة كسر رقابهم فارتمت رءوسهم على صدورهم كرءوس العصافير الذبيحة فلم يشعروا بأنفسهم الا وسائق الأجرة يجر جثثهم واحدا وراء الآخر عند «البوكس فورد» ويتركهم واقفين متهدلين يتطوحون، لينطلق هو إلى سبيله مثيرا سحب الغبار خلفه..

ان حلفت لك بالله العظيم أننى جلست مع «على السايح» هذا تقول عنى كذابا. الوكيل ربنا، لقد ربت بيديه على رأسى وكتفى فيما هو يستريح فى دارنا مع رجاله. كانت أمى تخبز عيشا ليكفينا جمعة بحالها فيأكل رجاله الخبزة كلها وتضطر أمى للخبيز ثانية من صبيحة ربنا وهى فى غاية الانبساط لأن الذى أكل خبزتها هو «على السايح» ورجاله. غير أن سعادة أمى كانت تجىء من ناحية أخرى، إذا كانت تعرف أن «على السايح» يتلكأ فى الطريق حتى يغمق ستر الليل ليذهب إلى داره كى يجامع زوجته ويستحم ويغير ثيابه ليعود إلى الجبل، وكانت تعرف أن رجاله البالغ عددهم عشرين والذين يأكل بعضهم خبزتها الآن سوف يحوطونه طول الطريق أن هناك مثلهم أكثر منهم عددا يتراشقون بالارض فى طول الطريق من الجبل إلى الدار يؤمنون له الطريق يصنعون من أنفسهم ستارا فوق ستار الليل ولا

يبدءون فى مغادرة مواقعهم الا بعد أن يروه مارا عليهم فى طريق العودة!..

العمـدة كان ابن عم «على السايح» وكـان ينوب عنه فى رعاية مصالحـه فى غيبتـه. فى يوم من الأيام ذهب أولاد «على السايح» إلى عمهم العمده يطلبون قمحا لغذائهم، فقال لهم فى جفاء:

ـ هل خلفتكم ونسيتكم؟ روحوا لأبيكم!

ذهب الأولاد إلى أبيهم فى الجبل فقـالوا له نص الكلام، فحمل «على» رشـاشـه ونزل من الجـبل إلى دار ابن عـمـه فرآه واقـفـا فأسرع العمدة باغلاق الباب ولكن الضرب استمر فاذا بقفل الباب ينخلع من .. مكانه ويدخل فى صدر العمـدة، مع ذلك تمكن العمدة من شد التليفون للمـديرية، فلحق به العسكر وهو خارج من البلدة فى طريق الجبل بين رهط من أعـوانه، هجموا عليه فـراح يبادلهم اطلاق الرصاص حـتى كومهم جـميعـا ماعدا اثنين حـاصراه من الخلف وصوبا عليه حتى جعلا جسده كالغربال!..

بموته تسوح أبى، خاف من الخفارة، أصيب بالتعنية والرطوبة، جاءه والعـياذ بالله «فكر» فى رأسه جفف عـوده وكسر شوكـته، فاشتغل مع عمال الكهرباء فى مـعسكر ستة وعشرين الانـجليزى، فلم يمض حول واحـد حتى وقع عليه المقص الكبيـر الذى يركبون من فوقه المواسير، فمات فى الحال. مات يابوى وتركنا ياحسرة لا وراءنا ولا قدامنا.

الله واحد
أمى هى المبتدأ والخبر

شهـور طويلة ونحن جـوعى، أى والله يابوى ان قلت لك ثلاثة شهـور تقول كـذابا. الحق أنها كـانت ستـة، بمائتى ليلة ويوم إلا عشرين، الذى نبيت فيه نصبح فيه. كل فتلة خيط كل قطعة خشب كل شىء فى حـوزتنا يصلح للبـيع بعناه بغـدوة بعـشوة نحـزم البطون بعدها أياما وليالى..

تقول أعمامى الفقهاء؟ لقد فعلوا الواجب طبعا كتر خيرهم، أكلنا على حسابهم أياما لكـنهم هم أنفسـهم كانوا محتاجـين للمساعدة. كلنا على باب الله العبـد وسيده معـا، لم يكن بقى منهم سوى عم واحـد ضرير، بـعد أن كـانت صـينيـة الشاى والقـهـوة تمر على ضيوفه أكثر من مرة أصـبح لا يقدم لهم حتى جرعة ماء، بل كان يتركهم يجلسـون كيفما اتفق، بل كان ينتظر منهم غـمزة يد دافئة بالحـسنة عند انـصرافـهم وكـان يـوحى لهم بحـركـات يديه أن يفعـلوها فاذا فـعلوها بحسن نيـة غضب واهتـاج هياجـا عاصـفا ينتهى بأن يعطيـهم درسا فى احترام العلم ومن يحـملونه! فالعلم

رسالة سماوية وليس هو الا مكلفا بها والاجر على الله يقبضه منه سبحانه عاجلا أو آجلا وكلما تأجل الأجر عند الله زادت قيمته!! نفس الكلام الذى كان يقوله للعامة أيام كان الخير يجرى فى يديه!..

المقصود، تكومنا فى الدار لا يعرف بلوانا إلا ذو الخيمة الزرقاء التى تظلل كل عباده. أمرأة خالك ياولدى قلبها سخن دائما، ودماغها ناشف لا يستطيع الزمن كسره ولو كان حديدا.. تذهب تساعد بعض الجارات فى بعض الأشغال، فى الخبيز لقاء بضعة أرغفة، فى الطحين لقاء حفنة من الدقيق، فى الذبح والطبخ لقاء طبق من الطعام، كله ينفع، ولكن لوقته فحسب، فما العمل يابوى؟.. البنات عندنا لا تشتغل، نموت جوعا ولا نعرضهن للبهدلة ساعة واحدة عند الناس. أخى الوحيد طفل رضيع ياكبدى. الدور والباقى كله على أنا، هذا ما كنت أقوله لنفسى وأنا أتكور على نفسى منحشرا فى القاعة بين اخوتى..

أثنا عشر عاما كان عمرى وقتها، طويلا كنت كما ترى والبس فوق رأسى لبدة مقصوعة للوراء وأبدو رجلا لا ينقصنى من صفات الرجال شئ لكى اشتغل مثلهم وأشقى مثلهم، ولكن فيم أشقى وأتعب؟ لقد كان أبى رحمه الله يملك القوة ويلف يبحث عمن يستأجرها لقاء سيجارة. ها أنذا - أيضا - أملك الشباب ولا أعرف كيف أملأ بطنى وحدها فمن ياترى يملأ هذه البطون التى ضمرت فينا وسحبت البصر والضوء من عيوننا؟!..

امرأة خالك تدفعنى فى كتفى قائلة فى غيظ: انزاح، وليس من مكان انزاح اليه، لكننى أعرف سر غضبها فأقول: حاضر، ثم أهب واقفا، فأراها تشوح فى وجهى قائلة: ألا تتحرك ياولد؟ ألا تفعل ما يفعله الرجال؟! ماتفيدنا حشرتك الآن بيننا؟! يا أخى اسرح على باب الله فكل الرجال يسرحون كل يوم ويعودون بخير كثير! اسمع ياولد! أرض النصارى قريبة من هنا وفيها زرع كثير! اذهب إليها وهات منها شيئا نأكله! إنها مزروعة قمحا! خذ القفة واملأها عن آخرها بالسبلات وتعال! واحذر أن يراك أحد وأنت تفعل هذا! لا يهم أن يراك وأنت مقبل بها المهم ألا يراك وأنت تسرق! فاتكل على الله ياجدع! اتكل على الله!».

هل اغشك؟ اتكلت على الله، حملت القفة وخرجت، قصدت بلدة «ابو حجر» القريبة من بلدتنا قرب الأنف من الفم، كل أهلها من النصارى زرعهم واسع، لا تحده حدود، يستأجر الأنفار للزراعة ولديهم ماكينات المياه تروى. الخفراء معدودون لا يستطيعون حصر هذه المساحات الشاسعة فى عين حتى ولو كانت بنظارة معظمة. اخترت منطقة مقطوعة منزوية عن الطريق، أخذت أحصد السبلات وأعبئ القفة حتى ملأتها لتمها، خرمت عائدا إلى دارنا، أفرغت القفة فصنعت كومة كبيرة شكلها مفرح. قالت أمى مشيرة إلى القفة املأها مرة أخرى. قلت: حاضر ياأم، وانطلقت متأبطا القفة، ومن منطقة أخرى ملأتها وعدت، فلما أفرغتها استدرت من الفرح عائدا لأملأ القفة مرة ثالثة. بعد المرة الرابعة صار لدينا حصيدا يصلح طحينا لخبز عائلة، مع ذلك قالت أمى: اذهب مرة

خامسة. وكنت قد تعبت، فقلت لهـا: كفى ياأم. فجعلت تتحايل على وتقبلنى وتستحلفنى برحـمة أبى وأنا أقول من الضيق: كفى ياأم. لكن الذى طلع عليـها هو مرة خـامسـة. فقلت: أمرى للـه، وحملت القفة وخرجت. الدار المجاورة لنا مبـاشرة لدى أهلها كلبة شرسة مخيـفة ولذا يغلقون عليهـا باب الدار بأستمرار ولا أحـد يستطيع دخول الدار إلا إن امسك أحد أهلها بالكلبة من جنزيرها. وضعتنى الخطوة الثانية أمـام بيت الجيران الذى كان مفـتوح الباب فى هذه اللحظة. مـا أدرى الا والكلـبة قـد هجـمـت على بالفـعل وأطبـقت أسنانها على يـدى اليسرى وأخـذت تجرجرنى وأنا أصـرخ حتى خلصـونى منها بالعـافيـة وخرجـت أمى تلطم وجهـها قـائلة: أنا السبب! أنا السـبب! آه من فراغة العـين!.. ولم تقل أمى أن السبب هو الحرام الذى شجعتنى اليوم على ارتكابه!..

رقدت بهذه العضة شهـرين كاملين يابوى لا حقنة ولا برشامة ولا أى شىء سوى البصلة فوقـها حتى طابت ولكن آثارها لاتزال فى يدى مخلفة عاهة مستديمة..

طاب الجرح لكن جـرحا فى داخل النفس لم يـطب، خرجت إلى الحقول من جديد أطلب الرزق فى غلس الظلام وألقى به فى حجر أمى أقـول لها: كلى ياأم أنت وأخـوتى فالمهم عندى رضـاءك ياأم. لكن أمى بدأت تخـاف علـى، وأنا أيضـا بدأت أخـاف على نفـسى صحيح أن ربك يكرمنى ويعيـدنى إلى أمى واخوتى سالما ولكن ما كل مرة تسلم الجرة على رأى عمى الفقيه الضرير..

فى يوم كنت أرتب لسرقة مخزن غلال فى داير الناحية بجواره مندرة حولها صاحبها لقعدة تبيع الشاى والسكر والدخان والحلاوة الطحينية والخيط والابر، يجلس فيها الرجال يشتركون فى زردة شاى ثقيلة، الواحد بقرش تعريفة، لكن لا يجلس فى هذه القعدة يابوى الا من لديه قرش تعريفة، القرش لا يوجد إلا فى حنك سبع ممن عندهم أراض أو من قطاع الطرق..

عيل مثل حالاتى لو جلس معهم يخدمهم طول القعدة اذا نابته شفطة شاى من الدور الثالث تبقى بركة. هدفى لم يكن شفطة الشاى هذه. ولا قعدة الرجال، أنما كنت أتسقط أخبار المخزن من صاحبه الذى يجلس فى هذه القعدة على الدوام، كنت أريد أن أعرف أن كان نقبى سيجىء على شونة تبن أم بضاعة ثمينة يمكن بيعها أو أكلها، ولقد عرفت أن فى المخزن الكثير يابوى وأننى سآكل الحلوى والشهد لو وفقنى الله، والمسألة بسيطة، فهذه القعدة جزء من مندرة بقطوع مبنى، وبقية المندرة هى المخزن، وبينه وبين القعدة باب خشبى لو دقرت فيه كتفى دقرة واحدة لانفتح، حينئذ أدخل فأحمل تليسا من القمح أو البرسيم، التليس كما تعرف زكيبة مصنوعة من صوف الماعز تسع ثمانى كيلات، وكل الناس عندها تلاليس، وليس يعرف أحد تليسه من تليس الآخر، سأحمله وأخرج من باب هذه القاعة المطلة على الشارع بعد فتحه من الداخل حيث أننى لو نزعت الشناكل الداخلية لا تسعت الفجوة بين لسان القفل وبيته فى ضلفة الباب، فينفتح الباب، مهمتى إذن هى أن أبقى جالسا هكذا حتى نهاية السهرة وأتسلل

قبل الاغلاق لأنام بين الاجولة فى ظل التلاليس داخل المخزن، فيغلقون الباب على وينصرفون، وقبل أذان الفجر بقليل أفعل فعلتى، ومن يدرى؟ ربما تمكنت من العودة إلى المخزن مرتين أوثلاثا قبل أن ينتبه أحد لأى شئ!..

تذكرت يابوى أن الرجل صاحب المخزن مسيحى، وكل مسيحى فى بلاد الصعيد لابد له من «بدوى» يحميه، حتى لو كان المسيحى رجلا أبهة من ذوى الأملاك الواسعة و «البدوى» جربوع شحاذ حافى القدمين. طلعت على الدنيا وأنا أرى هذا النظام فى كل بلد من بلادنا، وكنت أحلم أن أكون ذات يوم «بدويا» لواحد من المسيحيين الأغنياء، فهو العمل الوحيد الذى ليس عليك أن تتعلمه يكفى أن تكون ولدا بلطجيا قتال قتلى ولك سمعة واسعة فى السفالة وقلة الأدب أو فى الشهامة والجدعنه والرجولة، ففى الحالتين ستجد من يسعى إليك لتكون بدويه يطعمك ويكسيك ويعطيك مصروف يد وجعلاً معينا من المحاصيل، وليس المطلوب منك أن تفعل يابوى، يكفى أن يعرف الناس أنك بدوى فلان الفلانى لكى يتجنبوه ويتركوه فى حالة، أو يكون المعتدون أقوى منك فيفعلوا ما يشاءون تحديا لك وللمسيحى الذى يتحامى بك!. المسيحيون عضمة زرقاء يابوى فبهذه الطريقة امتنعت خناقاتهم مع الناس المسلمين من أهالى البلد! الخناقات تحدث بسببهم فحسب ولكن بين المسلمين وبعضهم فحينما تكون أنت بدويا لأحد المسيحيين وأجيء أنا فاسرق داره أو زرعه أو ماشيته أو أتعرض

له فى الطريق بأى سوء فإن هذا لن يخلصك بالطبع وسوف تشعر أن العدوان موجه إليك وحدك ولسوف تنتقم منى شر انتقام ما فى ذلك شك خصوصا عندنا فى الصعيد!..

دورت فى دماغى فعرفت أن «بدوى» هذا الرجل صاحب المخزن هو أغرب رجل فى «كوم سعيد» بل فى الغنايم كلها: عم «عسران زهران» الذى لا شغلة له ولا مشغلة هو فى طول عرق الخشب يابوى، وفى تخن تليس ملآن، يقول الكبار والعجائز عنه أن عدد قتلاه فى عدد شعر رأسه الغزير المهوش تحت تلفيعة جرباء حيث لا لبدة ولا طاقية تستطيع أن تلمه تحتها، غير أنه اهتدى فى أواخر أيامه منذ أن اختاره المعلم «ميخائيل بطرس» بدويا له، اذ بسطه وخصص له جلبابين فى العام واحدة للصيف وأخرى للشتاء كما خصص له دخان سجائر يشربه وتلاليس قمح وذرة يأكلها هو وأمه وشقيقته العاجزة. شغلته طول النهار أن يجلس تحت قرص الشمس فيفلى ثيابه من القمل والبق والبراغيث المختبئة فى خياطة الثياب ورقعها. عم «عسران زهران» هو تسلية كل عيال البلدة، يجيئون له من أقصاها إلى أقصاها ليتفرجوا على.. أيده!!

اى نعم يابوى، فقد كان لعم «عسران زهران» أير عجيب مبروم كنخلة صغيرة وكان عم «عسران» يضطر للمشى مفرشحا يظل عم «عسران زهران» مرميا على الأرض وأيره مرمى بجواره طول النهار عاطلين، ذلك أن عم «عسران زهران» لم يتزوج قط،

لأن فتاة من فتيات البلدة لم ترض به يا بوى. جرب حظه فى بلاد أخرى، لكن دخلته على الناس فى دورهم على هذا المنظر كانت تثير فزع الرجال وتذهب عقول السيدات، ليس بمعقول أن يرضى به رجل زوجا لابنته، فخير للرجال أن يظل هذا الاير العجيب خبرا يتناقله الناس من أن يكون حقيقة قريبة منه يمكن لحريمه رؤيته فى أى لحظة، أن أى رجل يابوى لابد أن يخجل من أيره اذا رأى اير عم «عسران زهران» ولهذا طارده الرجال فى كل زيجة حاولها حتى عقدوا نفسيته، فيربت عليه بحنان شديد قائلا: «معلهش لك رب يسمى الكريم!»، وتبدو الدموع فى عينيه حقيقة تكاد تطفر!.. أى والله يابوى قادر ربنا يخرسنى لو كنت أكذب!.

كنا نتذكر يابوى أن نصف قتلاه من النساء فوجىء الناس بجثثهن مرمية على الطرقات وفى الحقول عاريات ممزقات، فنرتعد ونكاد نقع من طولنا. نتذكر أيضا أن عم «عسران زهران» اشتغل فى كامب الانجليز سنوات طويلة بايره، لم يكن يعمل أى عمل، إنما عليه أن يجلس فى مكان ما فى الكامب معريا ساقيه ليظهر ايره منحمصا، وكانوا ـ يسألونه اسئلة كثيرة ويجاوب عليها ويأخذ نقودا فى نهاية الأمر. تلك كانت أحسن أيامه أشدها رواجا ولايزال الناس يتكلمون عنها على أية حال فإن عم «عسران زهران» كان دائما ينهى كلامه بأنه أحسن من كافح الانجليز وحاربهم ونكل بهم إذ هو لم يقتلهم فحسب بل هزأ برجولتهم.

عم «عسران زهران» يابوى ليس له فى الخناق ولا العراك رغم ضخامة جسمه، كل الناس فى الغنايم قبلى يعرف أن عم «عسران زهران» أقوى ما فيه ايره رغم أنه لم يستفد منه فى الناحية التى خلق لها أصلا. والمعلم «ميخائيل بطرس» حين اختاره بدويا له كان ذلك لخوفه من ايره: أن يفكر عم «عسران» فى استخدامه ضده خاصة أن المعلم ميخائيل واسع الذرية معظمها فتيات يقلن لستنا «مريم» العذراء قومى لنقعد مطرحك ليس المعلم «ميخائيل بطرس» وحده من كان يعمل حسابا لاير عم «عسران زهران»، إنما البلدة كلها والبلاد المجاورة كانت تخشاه، ليس لعدم ثقتهم جميعا فى حريمهم بل لعدم ثقتهم فى أنفسهم، فلو أراد عم «عسران زهران» أن يكيدهم مر الكيد فأنه ـ فقط ـ يمشى مشوارا فى شارع داير الناحية وما يتفرع عنها من حارات، يمشى فتراه وهو مقبل حيث يغوص الهواء بجلبابه بين ساقية مجسداً ساقه الثالثه المبتوره عند الركبتين فيصيبك بالجنون ان كنت شابا حرا، سوف يكون أول شعور يدهمك لحظتها أن هذا الفحل الجاموس جاء يتحدى أنوثة حريمكم وذكورة رجالكم على السواء !..

صدقنى يابوى أن بعضهم فكر فى قتله، لكن أغلبية كبيرة اقنعت الجميع أن قتله خسارة! فهو شىء يستحق الفرجة ولكن فى مكان منعزل.

صراحة يابوى كنت معجبا بهذا العم «عسران زهران» اعجابا شديدا. كان ثانى رجل بعد «على السايح» يخلب لبى ويستولى

على كل جوارحي وخيالي، الأول لأنه قاوم الحكومة وقتلها، والثاني لأنه قاوم الانجليز بايره. لكن لما تذكرت أنه البدوي الخاص بالمعلم «ميخائيل بطرس» صاحب هذا المخزن خفت منه، إذ هو لابد أن يعرف يابوي، لأن «عسران زهران» يسهر في قعدته بين المخرن ودارنا، يعني لابد أن أمر عليه من هنا ومن هاهنا ذاهبا أو آيبا، وهو رجل عكروت وضرس، لو كان في عز الشخير ومر بجواره من يحمل شيئا أي شيء فإنه يصحو في الحال وينظر فيه، ولابد أن يعرف من هو وما الذي يحمله ومن أي مكان هو قادم وإلى أي مكان هو ذاهب، وان كان غريبا عرفه في التو واستوقفه بشخطة واحدة. ويسألون عم «عسران زهران» كيف يتأتى له الصحو المفاجيء عند مرور من يحمل شيئا ؟! فإذا هو يقول: أعرفه من وقع خطواته على الأرض! فمن يحمل شيئا تكون خطواته أثقل ودبها على الأرض أشد وقعا وصوتها أكثر رنينا في أذني التي أضعها فوق الأرض بدون مخدة! .. فكيف أنجو من هذا الرجل يا بوي إذا وفقني الله وسرقت المخزن ؟! هل أقتله وهو نائم ؟! لا أريد بل لا أستطيع!..

دماغي أخذ يذهب ويجيء يا بوي، وإذا برجل قادم من عند دوار العمدة يقول أنه سمع الراديو يقول أن الملك فاروق الأول ملك مصر والسودان تنازل عن العرش لولي عهده «أحمد فؤاد» الطفل وأن الجيش المصري حكم عليه بمغادرة البلاد قبل الساعة السادسة وأن هذا الكلام فات عليه أكثر من جمعة ونحن لا نعرف يابوي.

بقينا أياما طويلة نجرى على الراديو فلا نسمع إلا غنوة : «ع الدوار ع الدوار .. راديو بلدنا فيه أخبار»..

وأخيرا وصلت الأخبار يابوى، عرفتها ممن يفهمون كلام الراديو. أخبار مفرحة يابوى وفيها أشياء لا يصدقها المرء، حيث أن البلد انقلبت جمهورية وجاء العصر الذى ينفع الفقراء، لم يعد هناك باشا ولا بك ولا اقطاع، فلما سألتهم : «اقطاع يعنى ايه يابلدينا؟» قالوا لى : يعنى أرض النصارى وأمثالهم من المسلمين ولسوف توزع على الفلاحين الذين يزرعونها !! وقالوا كذلك أن التعليم صار بالمجان وأن كل الناس مثل بعضهم أمام مراكز البوليس والمحاكم والحكومة!! قلت يا أسيادنا قولوا كلاما غير هذا يصدقه المرء ! قالوا : كنت بهيما وأذن الله أن تصبح آدميا فأفهم يابجم. القصد أنى بقيت شهورا طويلة لا أصدق هذا ، فى كل يوم أزداد جرأة فى الهجوم على الحقول وزرائب المواشى وقطعان الغنم فلا أجد من يردنى، بل كان يصادفنى من يرانى عائدا بالسرقة مضطرب الخطوات مبعثر النظر فلا يهتم بى. قد ينظر لى نظرة ذات معنى ثم يحول وجهه عنى ويمضى فى حال سبيله..

وسمعت أن ملاك الأراضى يوزعون أراضيهم على أولادهم وأقاربهم كتابة على الورقة فحسب حتى لا يزيد ما يملكه الفرد عن مائة فدان. قلت : حلو. ثم لاحظت أن أولاد الأغنياء والباشوات والبكوات انكسرت شوكتهم والتوت وجوههم وهجر الابتسام شفاههم فقلت: يظهر أن كلام الناس صحيح وأن الله قد أذن بقيام العدل فى هذه الدنيا على أيدى هؤلاء الذين يسمونهم بالثورة.

إلى أن جاء يوم رأيت فيه بعض الخدم يصمون آذانهم عن نداءات أسيادهم! وبعض الفلاحين يتبجحون فى مواليهم! وبعض الغلابة يرفعون وجوههم وربما السنتهم فى وجه عسكرى البوليس بعد أن كانوا يلمعون له أزرار سترته! وبعض التلاميذ الفقراء يتعاركون بجرأة مع أولاد الذوات ويشتمونهم ببساطة!.. فقلت فى نفسى: الأمر اذن صحيح ياولد. ومن يومها شعرت أن الدنيا قد اتسعت أمامى والدار التى نسكنها بغير سقف صارت قصرا. صرت أفعل مثلما يفعل الخلق من أمثالى، أتباهى بأننى فلاح ابن فلاح وأننى صعيدى، أليس عبد الناصر كله من بلدتنا؟..

الذى جاء فى دماغى أيامها أنى يجب أن أسافر إلى مصر، ولم اكن أعرف يابوى أن اسمها القاهرة، لكننى منذ جعلت أهتم بسماع الراديو كلما تواجدت بجواره، كنت أسمع المذيع وليس فى فمه سوى كلمة: هنا القاهرة! هنا القاهرة! هنا القاهرة!. قلت وما القاهرة هذه ياجدعان؟ قالوا أنها مصر يابهيم! التى فيها سيدنا الحسين والهرم والسيدة زينب والإمام الشافعى والأزهر الشريف!. صحت قائلا: الذى تخرج فيه أعمامى وأخذوا شهادة العالمية؟ قالوا: نعم. قلت: والله لأسافرن. قالوا: تسافر أنت إلى مصر ياحسن ياولد حميدة؟! قلت: أعمامى من قبلى سافروها. قال «برعى» ولد الفرطوس: مصر لو رأتك انزاحت عن مكانها ورحلت. وقال «هادى» ولد «مخيمر العيان»: والله لتغرق. فضحكوا حتى فرجوا على الخلق. قلت لنفسى! وهل هذه مشكلة؟ وتركتهم

وانصرفت، ولكن صوت المذيع بقى فـى أذنى ليل نهار يصيح فى تفاخـر كبـير" هنا القاهرة! فـأكاد أضع ذيل جلبـابى بين أسنانى وأقلع عليهـا .. لكن ذلك أخذ منى وقتا، ذيل جلبـابى موضوع بين أسنانى على الـدوام وكنا فى مـوسم القطن، أهجم على مـفـارش الجمع فأدحـرج زكيبة إلى مـخبأ آمن ثم أحملهـا وانطلق: أو أملأ حجـرى مرات عديدة. أكـرمنى الله وحوشت مـايزيد عن قنطارين وفى احـدى الليـالى جـئت بتـاجـر من بلدة بعـيـدة عـاين القطن واشتـراه بمبلغ حلو أغرانى بشراء محـفظة بسلسلة مشبـوكة فى عروة الصـديرى، فرحت بهـا أعظم الفرح وقلت لهـا: ان شاء الله تظلين عامرة، وقلت لنفسى: شـىء ممتع أن يكون فى جيب الواحد مـحـفظة والأمـتع أن يكون فى المحـفظة نقـود، وكل الناس فى جيـوبهم محافظ ولكن مـا كل المحافظ فـيها نقـود، انما النقود فى أكيـاس التجار، ومفـروطة فى جيوب ملاك الأطيـان، ومكومة فى خزائن تحت الأرض!..

جاءنى الهـاتف أن لى لقمة عيش مـقسومة فى مصـر القاهرة التى فيها الثورة والجيش وفيها الخير كله والنعيم كله. دخلت على أمى قلت لها: كم يكفيك ياأم إلى أن يخبز الله لى عيشا فى مصر؟ قالت: يكفينا مـا يرزقك الله به قل أو كثر. أخرجت المحـفظة فمدت أمى كـفهـا وسحـبت زغرودة افـزعتنى وفـرحتنى. اخـرجت من المحفظة جنيـها مددته نحوها واثقـا أنها سترقص فـرحا به وحده مـعـتبرة أنه فضل وعـدل. نظرت فى عينيهـا فرأيت هذا فسـحبت

الجنيه الاخر وشرعته نحوها: مالوش تاني. قالت باسمة: الجنيه؟ قلت ضاحكا: بل الله ياوليه. ورحت أعد حتى خمسة: كفى هذا يا أم؟. بسطت ذراعيها رافعة كفيها نحو السماء صائحة: ان شاء الله ما اشتهيك! الاهى يكتب لك فى كل خطوة سلامة ياحسن يا أبن بطنى! الاهى مايشمت فيك عدو ولا حبيب! الاهى يرزقك برزق اليتامى ويوقف لك ولاد الحلال! خد من قلبى وصر!..

شعرت يابوى كأن بدنى كله يرتعش ودمى يفور صاعدا نحو السماء براسى. اخوتى البنات تحلقن حولى صرن ينظرن لى فى فرح وبهجة وفى عيونهن رغم ذلك حزن كبير يابوى. أخى الرضيع يتسلق أكتافى يهبشنى بأصابعه الطرية ذات الرائحة اللبنية الحلوة فأخذت أقبله فى فمه فصار يعضعض فى أنفى بضراضيره فشعرت كأننى الأب وهم جميعا أبنائى ففاضت الدموع من عينى فمسحتها ضاحكا بصوت عال وقلت: لأمى خذى يا أم! ليس خسارة فيك ولا فى أخوتى!.. صرت أعد حتى أكملت العشرة جنيهات، وتركت المحفظة تتدلى من سلسلتها كرأس ذبيحة ذليلة، ورفعت ذراعى وقلت لها ما كنت أسمعه دائما من عمى الأكبر الشيخ «عجلان»: اليد العليا خير من اليد السفلى يا أم! هذا كل ما معى من نقود وهى لك، لقد رزقك الله بها وكنت أنا مجرد وسيط وهاأنذا قد سلمت الأمانة وما عليك الآن يا أم سوى أن تعطينى أجرة السكة الحديد لاتوكل على الله من غد إلى مصر ان أحيانا المولى الكريم وأعطانا عمراً. فتحت أمى فمها وصارت

تفكر ومن فرحتها لم تدر ما تقول. وكانت أختى الكبرى «سلمى» جالسة ناسية نفسها فبان جزء كبير من وركها فرفعت عينى عنها منتفضا فسقط بصرى على جذعها الممتد وصدرها العريض الممتلىء فوقف بداخلى مارد من الخوف. نظرت برغمى إلى أختى الثانية «مندوهة» فرأيتها هى الأخرى عروسا تكاد تتفوق على «سلمى» وإلى الثالثة «سعدية» فرأيتها تملأ القلل واقفة وتميل بالكوز لتغرفه من الزير فتبدو وكأنها تشاغب خراط البنات الخبيث الذى يشكل مؤخرتها فى كل ميلة باستدارة جديدة وينحت خصرها فى كل استدارة بسحبة تفرق المسافة بين خصرها وصدرها النافر ويطيل من رقبتها السرحة المبرومة ويدهن وجهها البيضاوى كما ندهن وجه الفطير بالزبد والقشدة ويوسع من عينيها السوداوين تحت العصبة المشغولة بالفل والترتر. وبحثت عن أختى الرابعة «هندية» فوجدتها قابعة قرب الباب منهمكة فى صنع عرائس الطين. وكانت الدموع تريد أن تضغط على عينى يابوى، لكن ولدخالك سيد من يكتم الدموع. اعتدلت أختى الكبيرة «سلمى» وقالت لأمى: اعطه خمس جنيهات بحالها ياأم! فسوف يتغرب وليس له من سند غير الله والقرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود وليس أسود من أيام الغربة ياأم! وقالت أختى «مندوهة» بصوتها الناعم الدافع إلى البكاء باستمرار دون أن يبكى: ليس خسارة فيه ياأم! انه الرجل وهو الذى يأتى بها. وقالت أختى «سعدية» بصوتها الرجولى الجميل ومن بين شفتيها الغليظتين: ربنا يخليه! لسنا نطلب من الله غير صحته

ونفسه فى الدنيا. أما أختى «هندية» فـقد استدارت نحـونا عائدة تمسح يديها فى ثـوبها ووجهـها كله عبـارة عن بسمة لاهيـة كأن شيـئا لا يدور حولهـا ولكن فى عينيـها بريق الانتظار لأى خـدمة نطلبها..

يومـهـا أكلنا ذكـرا من الأوز الـمزغط من شـهـر مـضى. ومن صبـيحة ربنـا صررت هدومى كلها فى جـعبة مـن الورق مكتوب على وجهها شاى زوزو ولها مساكة من الطرفين من خيط مبروم ملون يمر خـلال كبسـولات، كنت قد اشتـريتها مـن مولد القنائى بقرشين من خمسة وعشـرين قرشا نشلتها من فلاح شارد ذاهل داخل الملاهى. غمـزتنى أمى بجنيهين مطويين أربع طيـات وقالت لى: ربنا مـعـاك ياولدى، ثم أحـتـضـنتنى وقـبلتنى. قـالت أخـتى «سلمى» وهى تدارى الدموع فى عينيها وتتمخط فى ذيل جلبابها: خل بالك من نفسك ياخوى! لاتخـتلط بأولاد الحرام وأهل السوء! فقلت لها كله على الله ياأختى، ثم احتضنتها وقبلتها. وقالت أختى «سـعـدية»: بالسـلامـة ياخـوى ترجع لنا غـانما ثم احـتـضـنتنى وقبلتنى. وقـالت أختى «مندوهة» وهى تعـتقل صـوتها وكلامـها خوف الانفراط فى البكاء: مع السـلامة ياخوى، وأغمضت عـينيها وتركتنى أقبلها على جبينها. وحملت أختى «هندية» جعبة الخلقات وقالت وهى لاتـزال تبتسم: سـابقاك على المحطة ياخـوى. فنزعت الجعبة من يديها قائلا: والله ما يكون أبدا! ان مـحطة السكة الحديد بعـيـدة فى بلدة أخـرى ولـست آمن عليك الرجـوع وحـدك، ثم

احتضنتها وقبلتها، ووليت وجهى نحو الباب وخرجت، وبقيت عيناى مسلطتين على الهواء فى الطريق لا ترمشان خوف انهمار الدمع، لكننى كلما صادفت أحدا فى الطريق رفعت ذراعى بالتحية دون أن أنظر اليه صائحا: أشوف وشك بخير، فيقول لى: مع السلامة ربنا وياك.

ألقيت نفسى على كرسى القطار بجوار الشباك وجعبة الهدوم على ركبتى، فلما صفر القطار وزحف، وزحفت إلى الوراء كل معالم البلدة انهمر الدمع غصبا عنى، فأغمضت عينى وتركته يسح كيف يشاء، حتى نمت، وكلما فتحت عينى ورأيت الأرض وأعمدة التليفون والشجر يتراجع خلفى دخت وغطست فى النوم من جديد حتى صحانى واحد من الصعايدة قائلا أننا صرنا فى باب الحديد. قلت وما باب الحديد هذا ياولد بلدى؟ قال: بوابة الدخول إلى مصر من المحطة. قلت: هل وصلنا اذن إلى مصر؟ قال: حمد الله على السلامة. صحت قائلا من فرحى: هنا القاهرة. ضحك كل من فى عربة القطار وراحوا يتساقطون على الرصيف ويدفعوننى بينهم وسط زنيط هائل وأرصفة عديدة وسقف من الحديد والجملون وكمسارية وشيالين وباعة جرائد وفول سودانى وحلويات وشاى وكازوزة وماسحى أحذية وزيطة وزنبليطة. فلما صرت فى الخلاء كانت يدى قد أمسكت بالورقة المكتوب فيها اسم رجل بلدياتى يعمل مقاولا للأنفار هاهنا ومقر عمله جبل المقطم.

ما له من ثان

الأولة ـ مقابلة شخصية مع الدنيا

دلنى أولاد الحلال على جبل المقطم ولكن أحدا لم يستطع أن يدلنى على بلدياتى. أننى وأنا أسأل عنه بين المعلمين عثرت على بلديات آخرين كثيرين، منهم رجل من بلدة «أولاد الياس» شغلته تكسير الجبل بالديناميت. قال لى: «تريد تشتغل؟». قلت: «نعم». قال: «كم تطلب أجرا؟». قلت: «لا أعرف». قال: «أعطيك عشرة قروش بحالها». قلت: «تشكر». قال: «تعرف هذه الشغلة؟» قلت: «أتعلم». قال: «شغلتك معى أن تحمل قطع الحجارة فى قفة وتنقلها إلى بعيد!». قلت: «ماشي! ربنا يعيننى!»..

دور فالثانى فالثالث فالرابع عشر، جاءت الظهيرة وتدلدل لسانى من العطش، وصرت أجرجر قدمى وأتألم من ورم يبقبق على سطح دماغى، والرجل ينظر لى ضاحكا. هات يدك ياولد عمتى، تحسس هذه البقعة فى راسى، هذه، ضع أصبعك مكان أصبعى هذا فوق قمة رأسى بالضبط، فما هذا الذى تلمسه يدك؟ أنها دمامل متجمدة فوق رأسى أليس كذلك؟! أنها من أثر الشيل

فى يوم واحد هو ذلك اليوم الذى أنهيته بالضالين، ورحت أشرب جرعة ماء من عند رجل آخر مجاور، شغلته نفس شغلة صاحبنا. قال لى: أنت منين ياشاطر؟ قلت: من الغنايم ياآبا. قال: أحسن ناس! تجيش تشتغل عندى؟ قلت: وهذا الرجل الذى اشتغل عنده؟ قال: لا يهمك منه! سأعطيك اثنى عشر قرشا فى اليوم ولن تحمل دبشا! ستمسك لى الفتيل أثناء ما أشتغل. قلت: ان كنت تحمينى من الرجل الآخر أهلا وسهلا. قال: خليـّها على الله. المقصود، نمت فى محجره ذلك المساء، فى الصباح اشتغلت معه، يوم يومان جمعة شهر أربعة أشهر، أرى بين يدى مائة وخمسين قرشا أرقص من الفرح إلى مكتب البريد أرسل المبلغ لأمى..

غير أن الرجل تملعن يابوى وساق اللؤم على، بدأ يشيلنى قفف الدبش هو الآخر حتى انعجنت رأسى. الرجل كان يسكن فى حى اسطبل عنتر بجوار دار السلام على خط المعادى من الطريق الزراعى، وقد أحس أننى أنوى التملص منه فأراد أن يستبقينى بصنعة لطافة، قال لى: أليس لديك نية فى السكن ياولدى؟ قلت. لدى. قال: تسكن فى اسطبل عنتر؟ قلت: أسكن فى أبى زيد الهلالى نفسه. قال: اليوم تذهب معى إلى البيت..

فى حارة تبعد عن الحارة التى يسكن فيها بحوالى خمس حوارى فرجنى على عشة مدفونة بين صف من العشش مليئة بالخروم والشروخ ايجارها خمسون قرشا فى الشهر، قلت: بركة ورثى، ونقلت اليها جعبة هدومى، وفى الصبح اشتريت حصيرا

ومخدة وبطانية جيش قديمة وقلت لنفسى هاأنت قد أصبحت ذا بيت فى مدينة الحسين والأزهر والسيدة.

كل يوم أفوت على عربة من عربات الفول «أشمط» ثلاث أربع أرغفة مع طبق الفول أبو زيت حار وحزمتى البصل فيخيل لى أننى قد صرت أبا زيد الهلالى سلامة، وأتكل على الله صاعدا الجبل لأتقابل مع الشمس فى فتحة المحجر. وفى طريقى كل يوم أمر على الكورنيش لكى أتفرج عليه فأرى السماكين فى مصر القديمة يفرشون بأسماكهم صانعين سوقا كبيرة منظرها يفرحنى. وكانوا كلهم يبيعون: وكنت فى الأساس أفكر فى شراء سمك آكله، لكننى صرت أدمن الفرجة ولا أشترى أبدا، إلى أن وقفت ذات صبيحة اتفرج على رجل وهو ينقل زنبيل السمك إلى عربة نقل وكان يحمل وحده فلما رآنى قال: بأيدك معاية والنبى يابلدينا. فشمرت ثوبى وحملت معه الزنبيل، ثم ساعدته فى غيره وغيره حتى انبسط منى وقال لى: تشتغل معى؟ قلت: تعطينى كم؟ قال: أعطيك ريال فى اليوم، قلت: قليل قال خمسة وعشرين قرشا ولا مليم بعدها. قلت: على بركة الله. قال: فاركب. فركبت بجوار السائق وانطلقت بنا السيارة إلى المعادى، حيث يوجد لهذا الرجل محل كبير يبيت فيه الأسماك..

لص أنا قيراط، أما هو فأربعة وعشرين قيراطا فى اللصوصية أى والله ياخال. تعلمت منه الكفت ياخال. مهمتى كانت الجلوس أمام حوض السمك الذى يشبه قاربا من الألمونيوم، أتبصص على

الزبائن وهم ينتقون الأسماك ويضعونها فى القراطيس قبل الذهاب إلى الميزان الذى يقف المعلم قصاده. وكنت أظن أن واجبى نهر الزبائن ومنعهم حين أراهم ينتقون السمكات الصاحية كلها فى قراطيسهم، حيث أصيح فيهم قائلا: ومن الذى سيشترى هذا السمك الصغير بعد نقاضته البيع عندنا كله فى رقاب بعضه الكبير يزن الصغير. فبعض الزبائن يصيح فى محتجا، وبعضهم لا يسأل فى وينتهز فرصة الصياح فيملأ قرطاسه بأطيب ما فى الحوض من سمك، فأصرخ فيه منبها أننى لست نائما على عينى، وأقف مسرعا فآخذ القرطاس منه وأدلقه فى الحوض. حاجات طريفة ومسلية كانت تعجبنى فأفعلها بلذة كبيرة. هنا يشخط المعلم فى - لزوم الصنعة واتقان المعلمة - يأمرنى بأن اترك كل واحد ينتقى على كيفه، صحيح اننا سنبيع السمك المتبقى بالخسارة ولكن الزبائن فى النهاية هم زبائننا والمحل محلهم!..

شيئا فشيئا بدأت أغفل عن الزبائن وأنتبه إليه هو، أراه ينتقى للزبون بنفسه ما يختاره الزبون، ويأخذ القرطاس ويستدير معطيا لنا ظهره العريض واضعا القرطاس على الميزان، فاذا به رغم امتلائه يحتاج لسمكة صغيرة حتى يكتمل الرطل، او معها اخرى كبيرة مغرية ليصير الوزن رطلين ونصفا فى حين أن الزبون طلب رطلين فقط، لكنه اكراما للسمكة الكبيرة يقبل الزيادة. يعطينى المعلم القرطاس لأضع عليه ورقة أخرى وأطوى عليه حوافيه أنظر فى القرطاس فلا أجد السمكات الكبيرات الكثيرات

التى رأيت الزبون يحشرها فى القرطاس حشرا، فأتمخول ويروح مخى يضرب يقلب.

المعلم لم يجد مفرا من تعليمى سر المهنة لكى أتصرف اذا ذهب هو إلى السوق وقضاء المشاوير. تعلمت منه أن أول شىء أفعله بمجرد دخول الزبون، أن أسارع ببرم قرطاس كبير واسع. ثم أقف أمام الميزان الموضوع على بنك عريض وحوله الصنج، أترك الزبون ينتقى بيديه ما يشاء من الأسماك الكبيرة، وبخفة يد الحاوى أكبش جانبا كبيرا من الأسماك الصغيرة الميتة وأملأ بها قمع القرطاس جاعلا رءوسها فى القاع وذيولها فى الخلاء، واذ يقول الزبون: كفى، أستدير نحو الميزان معطيا للزبائن ظهرى فاردا كوعى قدر ما أستطيع، وفى لمح البصر تكون يدى قد سحبت السمكات الكبيرات من رءوسها وتركتها تتسرب إلى برميل كبير موضوع تحت البنك. أعرف طبعا أن الزبون عندما يصل إلى داره ويرى السمك سيرتاع لأنه لن يجد سمكة واحدة مما انتقاه. فاذا فكر فى الرجوع لى فلن يخلص منى، خذوهم بالصوت لئلا يغلبوكم، أصرخ فيه الهيه وأدهيه افرج عليه أمة محمد، مذكرا اياه بأننى وزنت ما أعطاه لى بنفسه. هو فى الغالب لا يرجع، وبعضهم قد لا يلحظ. وأن تكشف لى أن الرجل الذى استكردته مهم ويملك قدرة الاضرار بى فاننى بصنعة لطافة أبيعه وأشتريه، أغسله واكويه، ولكن بالأدب كله بالأدب ياآبا، أمال. تقول لى كيف أنشره وأطويه أغسله وأكويه أبيعه وأشتريه؟!.

الأمر بسيط يابوى، سر النجـاح هو الأدب حتى لو كان أدبا مزيفا لا أصل له ولا فـصل: نعم ياسـعادة البـيـه! أنا مـتأسف خـالص ياأفندم! لعله قرطاسك تاه فى قرطاس آخر فضل طريقه إلى فارغ عـين رضـى به على عـيـاله!.. وفى هذه المرة أزن له مـا يخـتـاره بالفعل وأعيد فـحصه عليه واحدة فواحدة ومع السـلامة ياسعادة البيـه ألف ألف سلامـة ياأفندم دا محلك وأنت تأمر والـغالى يطلع لك!.. سواء لدى أن فهم سيادته أننى آكل بعقله حلاوة أو لم يفهم فـإنه فى النهـاية يؤكلنى عـقله بارادته بمزاجـه ويكون على قلبـه أحلى من العسل، البرايز والشلنات تتدافع نحوى بغير حساب فى كل مـرة يجىء فـيـهـا وأنا نازل فـيـه أكـلا بـالطول وبالعـرض وبالناكوسى قبة ومساحة!! إن أعطيـته ثمينتين اثنتين شيلته على شرفهما خمسة ستة أرطال سمك لا يمكن بيعه وحده ولو بالمجان مع أننى بعتـه له بسعر الثـمين الغالى يدفـعه صـاغـرا وهو يقول سبـحان الله والحـمد لله!.. الدنيـا يابوى تحب الشطارة والأونطة وهنا ما بان لى فى القاهرة فآه منها ومن أهلها آه!..

تعـرف؟! هذا الدرس ـ صدقنى ياخـال ـ هو الذى حبـبنى فى هذه البلدة وكتب لى عيشا فيها. أنه درس غويط ياخال، غويط من هنا لحد الصباح، فهمـته وحدى، بالفهلوة قل بالبركة والتكال على الله يجوز، إنما وجدتنى ذات ليلة مكفنة بالضباب الأسود الغطيس، وأنا داخل فى عـشـة فى اسطبل عـنتر. عـلى مـرسى النيل تبـيع الشاى والدخان المعسل، وكنت أشـد النفس من الجوزة بعمق حين

برق الدرس فى دماغى كأنه المعنى كأنه الآية المنزلة، وصوت كأنه صوتى يغمزنى فى جنبى قائلا: الحياة لم تتغير ياأبا على! لا تظن نفسك انتقلت من حياة التشرد واللصوصية إلى حياة التحضر والمدنية والثورة الاشتراكية المباركة لا! لا يا حسن وألف لا! ان الحياة هى الحياة فى الصعيد أو فى القاهرة، بل انها فى القاهرة أفظع، السرقة فى الصعيد تتم فى ستر وتكتم وبقسوة تهدر فيها الدماء وتطير الرقاب!! أما فى القاهرة فالسرقة تتم فى وضح النهار عيانا بيانا على عينك ياتاجر ـ أقصد يابوليس! غير أن السرقة هنا فى القاهرة ياخال سلاحها الأونطة والنعومة والميوعة! الخشونة لا تنفعك هنا؟ سوف تجرح الآخرين وأنت تنفذ بينهم إلى اغراضك فليفظونك أو يضغطون عليك يغطسونك! نعومتهم كنعومة جدران المعدة قوية تهضمك تحولك إلى خراء يتبرزونه فى المجارى والطرقات وهلف آخر مثلك ينظف وراءهم!..

ولد خالك ياولدى ابن ناس طيبين كما تعرف، لا يغرنك أنه طول يده على بتاع الناس وسرق من غيطان الصعيد الطافحة بما يستحق أن يسرق. أنا فى النهاية ابن أعمامى الفقهاء وفى عروقى وقلبى الكثير منهم، أعرف الله مثلهم وكنت صبيا أسرق وأنا صائم فى عز الحر، وأصون الأمانة والله ياخال، المعلم السماك يترك لى محله اليوم بطوله وحين يجىء يفرغ الحصالة فى جيوبه وينصرف. واع حضرته، يعمل على واعيا! إن كان واعيا قيراطا

فأنا أفـهمهـا وهى طايرة. والأمر على هذا النحو ياخـال: ما الذى يدعو رجـلا كهـذا لأن يثق فى كل هذه الثقة مـع أنه لم يعرف أى شىء عن حيـاتى؟ إنما هو يضرب عـصفورين بحـجر واحد كـما يقول عـمى الكبيـر، يوهمنى أنه يعطينى الأمـان لأكون محـل ثقة ويوهمنى من ناحية ثانية أنه لا يعد ورائى فـيغرينى أن أستغفله. حضرته لم يكن يعـرف أننى موقن من أنه ينزوى فى ركن قصى ويفرغ جيـوبه ويعد الغلة بالمليم، مثلما أنا موقن من أنه سـيجدها بالمليم كما حسبها..

ذات يوم جبرنا الله وشطبنا فى بحر ثلاث ساعات، جاءت الغلة بغلات وفيرات وبقى من السمك حوضـا صغيرا اعتبره المعلم زائد عن الحـاجـة بيـع أم لم يبع. فـانصـرف المعلم إلـى بعض شـأنه وأوصانى بأن أتصـرف فى هذه الأسماك كـيفمـا اتفق بأى ثمن، فإن تم لى ذلك أغلقـت الدكان وانصرفت قلت: الله مـعى. جلست. هب للنبى هجـمت الزبائن هجمة ثانيـة: عبىء ثلاثا! عـبىء أربعا! عبىء خـمسـا!.. أخذت أبيع بنفس الطريقـة التى علمنيهـا صاحب الدكان، بنفس الـسعر الذى بعنا به الثـمين فى مطلع النهـار، حتى ادخرت فى النهاية حوالى عشرة أرطال من سمك متنقى جاءت من نصيب امرأة غندورة سحرتنى بعينيها فأبرزت لها ما أخفيه تحت ورق الشجـر الأخضـر، تجاهلت يدها المـلاءة فانفرطـت عن قوام كالفـرس لهلبنى فكشفت الورق الأخضر فـبانت طبقـات الأسماك

مرصوصة بعناية كالموج المتلاحق قالت: بكم؟ قلت: بالصلاة على النبى. قالت: اللهم صل وبارك عليه. وكطفل يخشى من لمس لوحة معروضة فى معرض مدت اصبعها خلسة ولمست احدى السمكات لمسة سريعة وقالت زن.. فوزنت، وأعطتنى ما طلبت وتركت القروش المتبقية. إلا وصاحب الدكان قد أهل داخلا، كانت نقود المرأة لا تزال فى يدى حين دخل صاحبنا إلى الحصالة، اذا به يفرغها فى جيبه ويمضى قائلا: يلا شطب بقى واقفل. غلى الدم فى عروقى. وضعت نقود الولية فى جيبى وقلت: استنى عشان تاخد مفتاح دكانك. قال دهشا: مش حتفتح بكره؟. قلت: ان أحيانا ربنا ورائى مشوار لحد الصعيد. وأغلقت الدكان وسلمت له المفتاح ومضيت..

فى المساء جاءنى فى المقهى التى يعرف أننى بدأت أجلس عليها فى اسطبل عنتر. صاحبها من بلدة مجاورة لبلدتنا ويعرف أعمامى منذ صغره، وكانت خطابات أمى تجيئنى على هذه المقهى، وهى مقرى الذى يسأل فيه الناس عنى ويستدلون منه على أصلى وفصلى. أول ما شفت المعلم السماك مقبلا قمت إليه وطلبت له الشاى والذى منه ثم قلت له: «شوف ياحاج! واجبك تاخده لكن شغل عندك تانى لا». لماذا ما السبب؟ قلت: «هكذا! أنا الآن خاضع للشيطان الآمر بعدم الشغل وأى كلام فى أمر الشغل لن يفيد». فسلم على وانصرف.

جلست منجعصا يابوى وأنا فى اتم سعادة. وضعت رجلا على رجل أخذت أطرحها فى وجه الزمن. سرح دماغي لطشه الهواء نعنشه شعرت بلذة كبيرة تخلصت من هذا الرجل اذ هو لص وحلوف . لكن ماذا سأفعل غدا؟ هذا ما لا يريد دماغي أن يكلمنى فيه الان!. عاندته، قمت من لحظتى إلى محل شكله خواجاتى فى حارة قصية من حوارى مصر عتيقة، أشترى منه زجاجة صغيرة يسمونها الخمسينة وفيها خمرة يقال لها الكونياك، وعدت بها إلى بلدياتى حيث لزمت الظلام المكتوم في أقصى الرصيف فى دورة كشك السجائر، جلست منجعصا وكل حين أفتح الزجاجة وأرشف منها رشفة وأقزقز الفول السودانى. مادريت كم الساعة حين انتهيت إلى أن الزجاجة الفارغة قد أخذت تكر على الأرض رائحة جائية حسب اتجاه الريح، كنت سكرانا بحق ولكننى منتبه إلى كل شيء، أردت أن أؤكد انتباهى ويقظتى فنهضت واقفا ومضيت بضع خطوات وأمسكت بالزجاجة فوجدتنى أقف بها حائرا فى وسط الطريق، فالقيت بها إلى بعيد وهدفى أن تسقط مباشرة باحكام النشان في قلب صفيحة قمامة معلقة فى عامود نور من خلف هديم، الا أنها اصطدمت بالعمود وهوت على الأرض هشيما فجلست ارتعش كطفل صغير أتى ذنبا عظيما. لحظتها رأيت المعلم «شندويلى» صاحب المقهى يرص كراسيه فوق بعضها استعداد للتشطيب. وكنت قد رأيت السماك أثناء انصرافه قد انتحى به ركنا وراح يحدثه في أمرى وهو يهز رأسه. فلما لم يعد سوى الكرسى

الذى أجلس عليه سحب هو كرسيا وجلس بجوارى ومد يده لى بسيجارة، تقبلتها شاكرا وأشعلت له ولى. شعشع النفس فى دماغى، عاجلت المعلم «شندويلى» بقولى: «ألست بلدياتى يامعلم شندويلى؟» قال: «نعم». «هل فى هذا شك يا أبا على؟» قلت: «تحب لى الخير؟» «تعرف أننى ابن ناس طيبين أم لا؟». قال وهو يغمزنى بعدساية أفيون: «ربما لا تعرف أهلك أكثر منى.. اسألنى أنا عنهم». قلت: «يعنى اذا ميلت عليك ذات لحظة وقلت لك يامعلم شندويلى سلفنى عشرة جنيهات فهل تأتمننى وتفعل؟». قال مشوحا فى وجهى: «لو عيل من عيالى ياأبو العم». قلت ـ ولولا شعشعة الخمر ماجرؤت: «أنا يا أبو العم محتاج لسبوبة». دب يده الخشنة فى جيب المريلة ـ التى لم تكن تليق على شكله وقوامه الصعيدى أبدا ـ فأخرج ورقة بعشرة جنيهات لكزنى بها صائحا بصوت جهورى: «على بركة الله لعلك تسكر بها مثلما أنت سكران الآن». فأفقت فى الحال يابوى واعتدلت، قلت له: «من غلبى ياأبو العم.. لكن أطمئن على». قال: «أنت حر»، ثم أردف: «كل انسان فى هذه الحياة معلق من عرقوبه». قلت: «نعم كالذبيحة». قال: «براوة عليك مادمت تفهم هذه وحدها.. عرقوب البنى آدم هو آخر عضمة فى كعب القدم.. وأنت بكعب قدمك تصل إلى مكان الخطاف.. افهم دى جيدا ياأبو العم وبعدها توكل على الله». وكنت قد فهمتها بالفعل حق الفهم.

فى الفجر كنت واقفا فى وكـالة السمك بغمرة. تسوقت تشكيلة ثمـينة من البلطى والبـورى والبيـاض والقرامـيط. ملأت سلتـين وضعتهما فـوق بعضـهما، استأجرت ميزانا بصـنجة وضعته فوق السمك. حملت ذلك فوق رأسى مضـيت أبحث عن مركبة توصلنى إلى الضـواحى والمناطق البـعيـدة مـثل المعـادى وحلوان ومصـر الجديـدة وجاردن سيـتى والهرم، أخـتار الشـوارع النظيـفة ذات البيوت المهيـبة: «طازج ياسمك».. هكذا أروح أنادى. يطل على هذا ويتـوقف ذاك. أوزن ياعم.. أوزن ياعم أوزن ياعم جبـرنا والحمـد لله..

احلو الحـــال ياخـــال. أخـــذ المعـلم «شندويلـى» جنيـــهـــاته العشرةعـرفنى معلم فى الوكالة يدعى «الحبـاك»، صار يمدنى كل يوم بما أشاء، على أن أعود إليه عصر كل يوم لأحـاسبه مختصرا عرقى ورزقى. كل شىء نصيب يابوى، كنت ماشيا فى شارع من شوارع المعـادى المتشابهـة لا اسم له بل له كالمساجـين رقم معلق على صدره بفانلة زرقاء أيضا. وكان الله قد جبرنى ولم يبق معى سوى حوالى عشرة أرطال صممت عل بيعها بالسعر الذى أبيع به لسكان الفـيللات والـسرايـات، السـعـر «القـرسطقـراطى» للحى «القرسطقـراطى» هكذا أفهمنى المعلم يـابوى. طازج ياسمك.. هكذا كنت أواصل الصياح بصوت عال متحـمس لا يغيظنى فيه غير أنه صوت صعيدى لا يزن كأصوات العيال البياعين أولاد البلد، المهم، مادريت الا وبواب أسـود مهيب يتكفن بالأبيض الشـفاف الناصع

ويتـواجد البيـاض بين شفـتيـه وفى عينيـه صاح بى وهو يقـبل نحوى: «تعال ياولد». ظننته يبغى الشراء فهرولت نحوه ثم أقعيت كاشفـا الغطاء عن السمك، فاذا هو ينهـضنى بيد غليظة ويسلمنى لأفندى أجـعد الشـعر أشيب أصـفر الوجـه والعينيـن ذى شارب كـثيف مـتعـجرف. قـبض على كـتفى وراح يطوحنى فى الهـواء صـاءحا: «ايه اللى جـابك هنا يا ابن اللى واللى والـلى»، شتـيمـة منتـقاة يابوى من بئـر الوساخـة النتنة لا أتوقع أن أسـمعهـا فى الحى «القراسطقـراطى» هذا. صرت خرقـة فى يديه يفعل بهـا ما يشاء وأنا أصفق كفا على كف وأقول: «ماذا فعلت بحق الله يارب.. فـيه ايه ياسـعـادة البيـه.. أنا غلطان ياسـعـادة البيـه حـقك على ياسعادة البيه». وسعـادة البيه النتن رأسه وألف سيف أن يسلمنى إلى البوليس! العـفريت الذى طلع عليه: البوليس!. أبكى أنـا بحرقة وهو يصيح فى البواب بغلظة: «أطلب البوليس قلت لك»!!..

الله وكيل يابوى. ماكـدت أتمها إلا وانفتح شبـاك مواجه أطلت منه سـيدة جمـيلة تطل من عـينيهـا شخصـية قـوية ذات سطوة صاحت فى الأفـندى والبواب: «سيـبوا الراجل فى حـاله»، فكأنما قولها أمر حاسم مجاب، انفكت قبضة الأفندى عن كتفى، وكسكس البواب مـتواريا عن الأنظار. رحت أعـدل ثيابى وألم بضـاعتى، إلا والسيدة تصيح بى: «تعال هنا يا راجل انت.. لف وتعال»، فنظرت إلى حـيث أشـارت فـتـعـين على أن أدخل مـن باب الفـيللا وألف فأصعـد السلم البعيـد على اليمين. صرت على بـاب كبير مـفتوح

والمرأة واقفة فى فتحته تبارك الخلاق فيما خلق، جعلت أنظر إليها فى بلاهة البهيمة تفاجأ أمامها بوليمة تبدو مباحة، نظرت هى فى عينى فكسرت نظرتى. قالت: «أنزل». فأنزلت حمولتى وكشفت الغطاء عن السمك. زامت فى رقة ثم قالت: «بكم؟». قلت «بكذا.. ولأجل خاطرك بكذا». قالت: «زن». فوزنت كل ما معى فأخذته وغابت فى الداخل، ورحت أرقب ظهرها ياخال وهى تمشى، الفتنة تمضى على قدمين ياخال. فقلت لنفسى عساها تكون النداهة التى أسمع عنها فى الحواديت تنادى الناس بأسمائهم فى الليالى الحالكة متنكرة فى شخصيات معروفة لهم لكى توردهم موارد الهلاك؟ ثم قلت لعلها الدنيا الفاتنة تزمع أن ترينى نفسها بعد مر الشقاء!! ثم رفرف قلبى ورقص عاليا لكنه خفق واهتز مع خاطر يقول لعلها العاهرة التى تطلع للصعايدة فى المدينة لتشترى ذكورتهم الفتية بكنوز الدنيا كلها!.. أى وحق الله يابوى ما ظننت أن امرأة فاتنة كهذه تطلع لى من تحت طقاطيق الارض لتنجينى من خطر قابض على وفوق ذلك تشترى كل ما معى بالسعر الذى طلبته!.. ظللت أتوقع مفاجأة عظيمة وهى تقبل من الداخل حاملة ورقة مالية كبيرة، فلما رفعت عينى عنها تأدبا اصطدم بصرى على الحائط المواجه بصورة كبيرة فى برواز كبير لجمال عبد الناصر وأخرى مثلها لعبد الحكيم عامر وتحتهما صورة لضابط بالملابس العسكرية لم أتعرف عليه ولكن على صدره وكتفيه تعاليق وتزاويق وضبابير ونجوم كثيرة.. فرفرف قلبى من جديد

كالطـائر يستعـد لهبـوط على عشــه الآمن، تناولت الورقة المـالية الكبيرة غـير منتبه إلى أن المرأة تقـول لى: «خذ ياراجل ولا تجىء هنا ثانيـة»!. قلت: «حاضـر ياست هانم»، وكـان يداخلنى شعـور يقـين بأن هذه المرأة تتكلم لمصلـحتى. أخـرجت كـيسـتى القـذرة الزفـرة وفـردتهـا وجـعلت أبحث عن فكـة، لكن المرأة مـدت يدها البيضـة المتخـتخـة الحافلة بالأساور والخواتم نحـوى قائلة: «مش مهم! مش مهم!». رفـعت بصرى إليها محـاولا التلكؤ، قلت: «كيف ياست هانم! الحق حق وحضـرتك تستحـقين ثلاثة أربعة جنيهات» شوحت قائلة: «مش مهم! خليهم علشانك بشرط ألا تجىء هنا مرة أخـرى». حارت نظرتى والـله ياخال تحـاول اخـتراق عـين المرأة ومعرفة القصد الحـقيقى من هذا الحادث المهول. ولابد أن منظرى لحظتها كان مضـحكا، حيث اشتعلت البـسمة على شفتيها فاضاءت كـالكلوب على وجهـها الجـاد الحاد النـاعم المنتفض. لمت نفـسى بسرعـة وصرت أخطو خطوة وأنظر ورائى منتظراً أن تغـير المرأة الفـاتنة رأيها أو يـنقض على شرطى. صـرت والله أجـر خطواتى على السلم كـأن قوة تشـدنى بالأوناش إلى الوراء، فلمـا سمـعت الباب يغلق من ورائى ضربت جبهتى بـقبضتى وأيقنت أنها الدنيا وقد أقبلت على بالفعل طبقـا للحلم لكنها فرقت بنطا واحداً انحرف شىء فى الزمن فى الأمر لا أدرى ياخال! لماذا غـيرت الدنيا الفاتنة رأيها فى آخـر لحظة بعد أن نادتنى بنـفسهـا بعلو حسـها طاردة عنى الوحـوش المؤذية فتحت لى بابـها على وسعـه أرتنى لحمـها

المقدس عاريا تحت غطاء شفيف أى على أهبة اتخاذ الخطوة الأخيرة التى كان يتعين على وحدى أن أخطوها برفع هذا الغطاء الشفيف والدخول إلى المدائن المسحورة لكننى من غباوتى وتخانة مخى لم أفعل!! ألهذا صغر شأنى فى نظرها فاحتقرتنى وردتنى عن بابها بلطف وأكتفت بجبر خاطرى مصحوبا بتحذيرى من الحومان حول سورها ثانية؟! مخى تبرجل يابوى! لابد أنها كانت تنتظر منى أن أدخل وراءها بجرأة أريها حقيقة نفسى التى تحت هذه الخرق الزفرة، لم لا يكون لا؟! لم لا يكون نعم؟! ؟! فالدنيا فاتنة، وكل فاتنة غانية، وكل غانية دواؤها قوة الذراعين والشكيمتين والعينين، ان توفر ذلك فى رجل مثلى استطاع أن يلوى خزامها يركبها. الدنيا مهرة شرسة ان لم يكسر شراستها ركيب حقيقى فارس حقيقى سابت وانطلقت تبحث عمن يلوى منها الحزام ينفصها لا يتركها الا مصاصة قصب..

صدقنى ياخال أننى حتى هذه اللحظة لازلت بكل نفسيتى وكيانى وربما جسدى واقفا على بوابة الفيللا معطيا ظهرى للسلم الصاعد إلى شرفات النعيم أخاير ذهنى ويخايرنى فيما يجب أن أفعله، ولكن أفعل ماذا يابوى؟ إن صوتها الأمر الناهى يمنعنى من أى فعل.

اخترت جانب الأمان بالطبع، حرمت على نفسى السير فى مثل هذا الشارع ثانية.

الثانية ـ كيف شردتنى التسعيرة ؟!

فى صبيحة يوم بعد انصداد نفسى عن العمل أياما يممت شطر حلوان بحمولة كبيرة بسفر. أقمت فرشا على تخوم سوق مجاورة لمحطة المترو. فردت موازينى، فحضرت الزبائن وبدأت وفودها تتلكأ عندى وبدأت أزن وأقبض والحال آخر سبهللة، المفروض أن أبيع ـ حسب التسعيرة ـ الرطل بثلاثة عشر قرشا ونصف للبلطى الكبير، وتسع قروش للمتوسط، لكننى كنت أبيع بخمسة عشر قرشا، فى رقاب بعضه الكبير يسند الصغير..

رن الكف على مقربة منى فارتعب قلبى، عرفت من صوت الرنين انه سقط على قفا واحد من بنى عمومتى، فمثل هذه الرنة لا يصدرها الا قفا من اقفيتهم! سبحان الله! اللهم اجعله خيراً!. سربت عينى إلى جوارى خلسة، رأيت معاون الشرطة والمخبرين يحيطون ببائع الفاكهة المجاور لى والمعاون لايجد لغة للتفاهم مع الفاكهى سوى الضرب على القفا بكل هذه القوة. لو كنا فى الصعيد ورن هذا الكف على قفا أى مخلوق لطارت فيه رقاب وقامت قيامات اما هنا فالدنيا كلها تنقلب عليك فى لحظة

وتحاصرك الدبابات لو جحرت فى وجه الحكومة. نظرت للزبائن الواقفين أمام فرشى ورجوتهم بحق الديانة والأمانة أن يقولوا للمعاون اذا سألهم أنهم اشتروا بثلاثة عشر قرشا ونصفا حسب التسعيرة فهزوا جميعا رءوسهم وقالوا فى ثقة واطمئنان: «دع عنك لا يهمك!». الا والمعاون زاحف نحوى بموكبه الشعنون. «بكم تبيع ياولد»؟ قلت: «بثلاثة عشرة قرشا ياسعادة البيه حسب التسعيرة». فرن الكف من جديد على قفاى هذه المرة ساخناً لاهبا تطايرت له شرارات النار من عيني. صحت دامع العينين: «كيف تضربنى هكذا ياسعادة البيه؟». زغدنى رجاله ،صاح هو قائلا: «بع بتسع قروش ياأبن الكلب». قلت: «حاضر يابيه». ماكدت أتم كلمتى حتى كان الزبائن قد هجموا على السمك فعبأوه فى قراطيس صنعوها لأنفسهم بأنفسهم ووزنوها على هواهم وراح معظمهم يرمي لى بضع قروش وبضع شلنات مقابل خمسة أرطال! فى لمح البصر كان «بتاع الناس» قد انتهى، صرت أصرخ وأمسك فى خناق المعاون والمخبرين «بتاع الناس ياولاد ديك الكلب! هاتولى بتاع الناس! خربتو بيتى ياكفره!»، وهم جميعا يضربوننى بالعصى والأحزمة والشلاليت حتى سوونى على الجنبين وتركونى جثة تفشخ حنكها باكية وأمامها بقايا متاع وبضع قروش وأطلال فرش وصنج بعشرته الأقدام فى زحام السوق!!..

عدت إلى مسكنى فى اسطبل عنتر، حصرت خسائرى فوجدتها افدح مما تصورت. لقد أخذت من المعلم «الحباك» بضاعة بستة وثلاثين جنيها والغلة التى معى كلها تسعة عشر جنيها الا قروش فمن أين لى بالباقى؟ ومن ذا الذى سيستطيع اقناع المعلم «الحباك» بأن الحكومة هى التى بعثرت رسماله على الرصيف وأباحت سلبة فبأى وجه أقابله؟! لابد أن أختفى عن أنظاره نهائيا فلا أراه أو يرانى الا وفى جيبى حسابه بالتمام! أما متى يتوفر لى مثل هذا المبلغ الكبير فأمر يعلمه الله وحده.

القصد يابوى، حودت على محل كان قائما على الكورنيش فى مصر العتيقة فيه بار وشرب خمر وأكل. قلت لنفسى: ضرب الأعور على عينه قال خسرانه خسرانه، وتوكلت على الله فدخلت هذا المحل، طلبت دجاجة وطبقا من الأرز وآخر من الخضار مع تلك المسماه بالخمسينة. أيقظت بطنى ورحت اعطيها وأدلق فيها كل ذلك حتى قمت فى النهاية مدووشا أمشى كالطاووس مع أن البكاء كان قد جفف عينى ودماغى، والضرب فصص عظامى دهسها دفعت ثلاثة جنيهات فى صمت وهرعت إلى مقهى المعلم «شندويل» فطلبت قهوة وجلست أدخن فى ركن الظلام. الا وكاتب المعلم «الحباك» يهبط على كأنما سقط من السماء، اذ كنت سارحا فى ملكوت الله متمددا على كرسيين وميلت لأرمى عقب السيجارة فوجدته قد جلس بجوارى! منذ متى جلس والله ما أدرى! لكننى حين نظرت فى عينيه خلل الظلام المترقق لقينى احساسه بالفرح

لأنه استطاع أن يقبض علي. أخيرا صرت مجرما وهناك من يتعقبني للإيقاع بي. اعتدلت على كرسي واحد وقلت: «أهلا وسهلا». قال فاشخا حنكه: «ماجيتش تحاسب المعلم ليه؟ خير؟ أنت سكران ولا ايه؟». قلت باحثا عن صوتي «سكران نعم.. سكران من فعل الضرب والشتم والبهدلة». قال وقد ظهر من صوته أنه لن يصدقني في أي كلام أقوله: «ليه كفى الله الشر حصل ايه؟». انتفضت واقفا ونزعت الجلباب كشفت عن جسدي قائلا: «شوف ياخي.. الحكومة كسرت عضامي يابوي بعثرت البضاعة يابوي.. سابت الناس تهجم عليها وتنقيها بالتسعيرة الجبرية». أخذ يتفكر ثم زام وقال: «يعني ضاع بتاع الناس؟!». قلت: «الله وكيل!! الذنب ليس بذنبي». فمد يديه وتحسس جيوب صديري أخرج محفظتي وفتحها أخرج كل ما في جيوبها، عده فاذا به ثلاث خمسات وبضع قروش وضعها في جيبه وصار يلوح لي بإصبعه في تهديد شرس : «اعمل حسابك!! رجلك ماتخطيش ناحية السوق بحاله!! المعلم ممكن يضربك بالرصاص ويتاوي جثتك ولا من شاف ولا من دري!»، ثم انصرف.

أروح فين ياولدي؟ أعمل كيف؟! جاءت صورة أمي وهي تودعني عند السفر قائلة: «إلهي ربنا يحبب فيك المخاليق ورفاق الطريق». فاقشعر جسمي، وهتف صوت في دماغي: لسوف يحلها الحلال. وبالفعل، حمل المعلم «شندويلي» همي. أخذني إلى مقهى كبير في مصر القديمة عليه وارد يحتاج لأكثر من صنايعي. قال

المعلم «شنـدويلى» لصـاحب المقـــهى الكبيـر: «هذا الـولد يصلح نصبـجيا نظـيفا وهو من بلدياتى وعلى ضــمانتي». قـال صاحب المقـهى الكبيـر فى هدوء: «ومـاله.. رزقـه ورزقنا على الله.. خش ياولد وربنا شطارتك». وكانت رأســه غليظة منتفخة كـرأس ثعبان ابتلع بطيخة، ألا أن الطيبة كـانت بادية على ملامح وجهه. شمرت ذراعى وفـردت المريلة التى أعـارها المعلم «شنـدويلى». لبسـتـهـا فـبـدوت كأنـنى أقوم بـتسـمـيع الحـركـات التى يفـعلهـا المعلم «شندويلـى» فى شـغله والتى يـظن من يراها أنه أمـام صـنايعى قرارى نشيط مـفتح، لكن المعلم ابتسم ابتسامـة لم أرتح لها وقال: «وماله برضـه .. كل شىء ييجى بالتمرين أن شـاء الله». يوم بعد يوم تعلمت الصنعـة، عـرفت أن كل شىء بالفـعل صنعة لهـا أهل ورجال. نجـحت كعامل نصبـة أصنع فى الساعة ألف كـوب شاى وألف كنكة قهوة بدون عناء. لكن القروش التى يدفعها لى صاحب المقهى آخر النهار لا تسـاوى العرق الذى ينشال منى طول النهار، أعيش على البقشيش وأجمد اليومية فى الحوالة البريدية كل شهر لأمى. شخط فى المعلم مرة فـشخطت فيه بالمثل فشـتمنى فخلعت المريلة رميت بها واتكلت على الله إلى اسطبل عنتر.

قال المعلم «شندويلى» وهو يغمزنى بعـدساية أفيون: «اسمع يا أبو العم! أنت ابن حـلال مـصـفى. وهذا هو بركـة دعـاء الوالدين وبركة اعمـامك الفقهاء الطيبين». قـلت: «صدقت والله ولكن بختى كمـا ترى غير موات!». قـال وهو ينقر بأصابعـه الطويلة الخشنة

فوق ساعدى: «الدكان المجاور للعجلاتى على الكورنيش يريد صاحبه تأجيره وهو دكان يصعب أن يستنفع به شخص غريب! مارأيك لو أجرناه لك وفتحته قعدة شاى مختصره على قدها؟!». قلت: «بوفيه تقصد؟». قال: «عليك نور!! إيه رأيك؟». قلت: «يادار مادخلك شر». قال: «معك كثير؟». قلت: «سبع جنيهات وستين قرشا سأرسل منها حوالة بست وأصرف على الحوالة من الستين قرشا». قال: «لا حوالة ولا غيره هات مامعك!! حوله على أنا». فدفعت إليه بالمبلغ.

الحق لله تعب الرجل معى آخر تعب، استأجر لى الدكان واتفق مع البناء الذى أقام النصبة بالأسمنت والقيشانى، وخطفنا أرجلنا إلى السوق فاشترينا ثلاث أربع دست من الأكواب والبراريض والغلايات والكنك، وأعارنى ثلاث ترابيزات وعشر كراسى على سبيل الايجار بمائة وعشرين قرشا فى اليوم. هب للنبى فتحنا. من صبيحة ربنا حتى ما بعد منتصف الليل لا أفرغ من صنع الطلبات وتوزيعها. لكننى كنت أتعب يابوى، يجىء الليل على فانكفىء من الاعياء مستندا على النصبة لساعات طويلة.

الا وجاءنى ذات ليلة أربع رجال أفندية آخر وجاهة تحلقوا ترابيزة رخامية وقالوا: «عندك كوتشينه ياحاج؟ قلت: «عندى». قالوا: «هاتها». وكانت جديدة فقالوا فى نفس واحد: «فل» ومال أحدهم على قائلا فى بساطة: «شوف ياعم الحاج.. حنلعب عشرتين ثلاثة - وغمز بعينه غمزة ذات معنى - ولك ياعم على كل

دور عشرين قرشا أجـر ترابيزة عندك مانع؟». قلت: «لا»، فانبرى يفنط الورق فى حماس ويطلب المشاريب.

احلوت اللعـبة يابوى، ساعـتان أو ثلاث فى أواخر الـليل بمقام شغل جـمعيـة بحالها، حـتى صرت يابوى من فضل الله وكـرمه أرسل لأمى كل أسبـوع حوالة وأدخر حـوالة. أهملت أمر القـهوة والشاى وطال ابتعادى عن جحيـم النصبة اذ لابد أن أكون جالسا بجـوار اللعب أراقب الأدوار وأقـبـضـهـا. هات واحـد شـاى ياعم حسن.. قم انت عـدم المؤاخذة وأعـمل لنفسك شـايا ثقيلا كـيفـما تهوى. الشعب المصـرى شعب مهاود يابوى، كالبوصـة الخيزران تطويها دائرة فى أصـبعيك فتـتخيل أنه ـ أقصـد أنها ـ ملك يديك، فاذا ما غـفل أصبعك برهة وجيزة اندفـع الطرف وارتدت البوصة عصا مـستقيمة كـأن شيئا لم يكن. هكذا كان يقـول عمى الضرير لجـلاسه فى مندرتنا، وكـلما دعكتنى الحـيـاة فى مدينة القـاهرة إحسـست أننى يجب أن أكون مثل البـوصة الخيـزران لكى أعيش فى هذه البلدة دون مـشاكل ووجع دماغ وكـراهية. طب مـاقولك يابوى أننى كنت أرسل هذه الكـلمة كلمـة «قم اعمل لنفـسك» إلى رجال مـحـترمين جدا والمفـروض أن أقف أمامهم خاشـعا مكسور الجناح، كنت أقولها فى تهيب شديد أول الأمر، ثم على هيئة مزاح، ثم بت أطلقهـا بلهجة أمر غليظ: قم إعـمل لنفسك.. فيقـوم سعادة البيـه ويعمل لنفـسه دون غضـاضة على رأى عـمك الضرير، أى والله يا أبو العم.

تفرغت لقبض الريالات المنهالة على كل مساء من التاسعة مساء حتى الرابعة صباحا. لم يعد يعنينى راحة أى زبون، بل أصبحت أجد لذة فى إهانتهم تزداد نشوتى منها كلما رأيتهم جميعا يقابلون إهانتى لهم كأنها أمر طبيعى! أصبحت أعمل على طرد خمائرهم ابتداء من بعد صلاة العشاء..

غير أن الطوبة ليست تقع فى المعطوبة كما يقول المثل بل تقع دائما فى السليمة. وهى طوبة تصيبنى دائما كلما جرت النعمة بين يدى. دخل الضابط علينا فجأة وخلفه رجاله، كان أفنديا وهم كذلك لكننى عرفت الضابط من دخلته ذات النفخة الكدابة ومن التفافه حولى فى ثقة ثم إحاطة رجاله بنا. ليلتها حملت الترابيزة فوق رأسى والكوتشينة فى يدى ونقود القمار فى جيبى تقلنا عربة الشرطة الزرقاء إلى قسم مصر القديمة حيث أشبعونا ضربا وتلطيشا مما يحبه قلبك عدم المؤاخذة، حرروا لنا محضر، وبعد أربعة أيام أفرجت النيابة عنا بكفالة عشرة جنيهات لكل واحد. فى اليوم الذى خرجنا فيه اتجهت من فورى إلى المحل ففتحته وكنسته ورششته بالماء وبخرته ثم أشعلت النار تحت الرمالة وجعلت أغسل الاكواب أقصد الكريم مستفتحا بواحد شاى لى. مع حلول المساء رزقنى الله بالعشاء فى الموعد اليومى المعتاد جاء الصحاب الاربع لا يبدو على وجوههم أثر لما حدث بل لايبدو عليهم أنهم يعرفوننى أصلا، كأننا لم نكن سويا فى الحجز منذ

ساعات قليلة. سلام عليكم ياحاج، قلت عليكم السلام. أردت أن آكل البصرة منهم بأن أرد عليهم فعلهم، قلت بمجرد جلوسهم كأنهم أغراب عني: «تشربوا أيه؟». قالوا كوتشينة طبعا. استأنفنا اللعب من جديد. ما كادت النعمة تسرى بين أصابعى حتى كبست علينا الشرطة مرة أخرى، فى هذه المرة شمعوا الدكان بالشمع الاحمر. أما نحن فقد دفعنا كل ما كان معنا لأمناء الشرطة ومع ذلك لم ننج من ركوب الصينية التى يفرزون فوقها من يتحرون عنه لمعرفة إن كان من أرباب السوابق أم لا، الحمد لله كشفت الصينية أننا جميعا بلا سوابق وأفرجت النيابة عنا على ذمة أن تطلبنا المحكمة بعد حين.

قلبى شال من المنطقة كلها ياخال، أصبحت لا أطيقها واسودت الدنيا فى وجهى فقلت فى نفسى ليس لك عيش فى هذه المنطقة يا أبا على! إن الشمع الأحمر الذى ربط باب دكانى فى الأرض هو الإنذار الإلهى الذى يقول لى إبحث لك عن باب آخر فى جهة أخرى.

فوالله ما كذبت خبرا، كان المعلم شندويلى يفتح مقهاه عقب صلاة الفجر مباشرة ويبدأ فى رص الكراسى ورش الأرض ففوجىء بى آتيا من مسكنى أحمل جعبة الورق التى فيها خلقاتى كلها، وكانت منتفخة. صباح الخير يامعلم شندويلى.. صباح النور ياحسن أمسافر ياترى؟ قلت: «حاجة زى كده». قال: «كيف؟ قلت:

«سأقلب عيشــى فى عتبة أخرى فى منطقة أخـرى غير هذه» قال: «من ورائى ياأبو العـم؟». قلت: «يمـين الله مـا أعـرف حـتى هذه اللحظة أين ترسو بى المركب ولا فى أى مكان توجد لقـمة عيشى قال والخواتم الـفضية تتـماوج فى كفيـه: «عليك بحى الزيتون لا تذهب شمـالا أو يمينا». قلت «خـير إن شاء اللـه ما الذى فى حى الزيتـون يامـعلم شندويـلى؟». قـال: «تركب أتوبيـس نمرة كـذا يوصلك إلى مـحطة باب الحديد تسـأل عن قطار كوبرى الليـمون يدلونك على محطته تقطع تذكرة من الشباك تركب القطار توصى الكمـسارى أن ينزلك فى مـحطة الزيتـون! تنزل فى المحطة تنزل الرصيف عائدا إلى الوراء حتى المزلقـان! تجد قهوة المعلم ظريف! أسأل فيها عن المعلم أبو القاسم شعيب تجد ألف من يوصلك اليه! إنه مقاول قد الدنيا وكل بلدياتك يتوجـهون إليه مباشرة وإن شاء الله سـيكتب لك الـله لقـمـة عيـش عنده! فـعنده أنواع شـغل من الفواعلية إلى كل ما تريد وما تتـخيل! يعنى لابد أن يجد لك شغلا على قـدك بـالضـبط». قلت: «ابن أصـل صـحـيح والله يـامـعلم شندويلى! من الآن أى جـواب يجىء بأسـمى احفظه عندك حـتى أعود». قال مـشوحا: «ولماذا أحفظه؟ سأضـعه فى مظروف جديد وأرسله اليك طرف المعلم أبو الـقاسم شـعيب». قلت: «على بركـة الله». عانقتـه وبكيت فبكى هو الآخر ومد يده فى جيبـه فأسرعت ممسكا بها قائلا: «مستورة والحمد لله»، ثم تركته ومضيت.

العدد ثلاثة

الأولة ـ عرسان وعرايس

مـا أن وقع بصـرى على باب الحـديد حـتى هاج صـدرى من سبعة أركـان. ما أدرى الا وأنا أقطع تذكرة إلى الصعيد فـسبحان الله إنها إرادته..

القطار يدب ساعات طويلة يابوى ومخى يضرب يقلب: ما الذى سأفعله فى الصعيد؟ ما الذى أقوله لأمى؟ أفى إجازة أنا أم أن هذه هى الأوبة الأخـيرة؟ أسـتـفـرح أمى بذلك أم ستـقع من طولهـا؟ سطلنى الهواء فنمت من التعب، وقد هيأ الله لى من يصحينى عند كل محطة لينبهنى..

يابو .. و .. و.. ى .. على الفـرحـة التى التقـانى بهـا الأهل من أول الحـارة حـتى دارنا. لم أفـرغ من السـلامـات والأحـضـان والدعوات حتى صنعت مـهرجانا ورائى. أول شىء مفرح التقـيته اننا قد صار لنا دار مسقوفـة كلها، ذات أبواب وشبابيك جديدة .. فاحـسست بكل الأمان، وقلت فى نـفسى: رعاك الله يا أم فـها هى ذى نقودى التى أرسلها لك بالحوالة البريدية قد نفعت الآن وصار

لنا بيت بحق وحقيق استطيع الجلوس فيه واستقبال الرجال بلا حرج!..

ها هى ذى العائلة بربطة المعلم تطل خارجة من باب الدار، أمى تجرى نحوى مهرولة ومن خلفها «سلمى» و«مندوهة» و«سعدية» و«هندية» التى أصبحت عروسنا الرابعة فى زمن غيبتى جاءت هى الأخرى بعزم المشوار نحوى لترتمى فى حضنى، خلفها أخى «محمود» الذى كان رضيعا خرج يحبو على قدميه يحاول أن يصلب حيله يبكى منزعجا من هذا الانقلاب المفاجىء، فكدت والله اتركهم جميعا وأجرى اليه لولا أننى لم اتمكن من نقل خطواتى، حيث تعلقت أمى بحضنى وهات يابوس وضم وبكاء، فى حين تشعلقت «سلمى» برقبتى و«مندوهة» بكتفى أما «سعدية» فوقفت متدللة فى انتظار أن أذهب اليها واخصها بالسلام والتقبيل وأما «هندية» فتعلقت بذيل جلبابى، وصوت بكاء «حموده» يتصاعد ويطغى على ضجيجنا ولولاه لبقينا فى الشارع هكذا وقتا طويلا..

اللقاء بعد الغيبة حلو يا خال، لا مثيل لحلاوته، ولو ثوقل هذا اللقاء فى كفة بمليون جنيه أكسبها من الغربة فى كفة مقابلة لاخترت اللقاء اذ أننى واللقاء فى كفة واحدة. صار الرجال يأتون للسلام على وصرت أحس بأننى محترم فى وسطهم فشعرت بحلاوة الصعيد وكرهت القاهرة كره العمى، وقال هاتف لعله من طرف الملاك المنوط بتسجيل الحسنات على أحد كتفى: «أنا هنا رجل بحق وحقيق رب أسرة وصاحب بيت يؤمه الزوار أما فى

الغربة فأنت ريشة شريدة فى مهب الرياح». قلبت هذا الصوت فى دماغى فحصته وقلت لأنظرن فى هذا الأمر.

لكننى نظرت ذات لحظة بعد خفوت دوشة مقدمى، وكانت صينية الطعام الكبيرة مفروشة على الطبلية ونحن نتحلقها فى حوش الدار ومن حولنا بط وأوز ودجاج ومعيز وخير كثير، فرأيت أختى «سلمى» و«مندوهة» و«سعدية» و«هندية» قد صرن حريما بمعنى الكلمة، أى قد صرن فى حاجة إلى ظل رجل يحميهن من طمع ذوى النفوس الوسخة. ارتعد قلبى والله ياخال وانتفضت الملعقة فى يدى فتساقطت الشوربة على ثوبى، لمجرد تخيلى لرجل من المطاريد معدوم التربية يقتحم دارنا هذه لخلوها من الرجل ويستبيح كل هذه الكنوز الغالية: أيجيئك قلب يا حسن لتترك هذه الجواهر الملعلطة تنوء بها أمك وحدها؟! «سلمى» و«مندوهة» و«سعدية» و«هندية» يهون عليك فتتركهن شهورا أخرى وربما سنوات؟! كيف ياولد فكرت فى هذا من الأول؟! ألا قاتل الله الفقر. استحليت البقاء لمصلحة رجوليتى قبل مصلحتهن، استرحت لهذا فأكلت بنهم حتى شبعت وانجعصت متكئا على مسند صلب وجعلت أدخن السيجارة باستمتاع شديد وأمى متربعة جوارى، أختى «سلمى» تسوى الشاى على ركية نار متبقية من الكانون، جاءت «سعدية» بصينية الشاى عليها البراض والأكواب الزنك فوضعتها أمامى فأخذت أمى تصب لى الشاى الثقيل فى الكوبة قائلة: «بالهنا والشفا ياخويه»، جعلت أرشف.

مـيلت أمى على أذنى وهمـست: «أرأيت نورك كيف مـلأ الدار؟ قلت مداريا دمـعى الوشيك: «أنت صاحبة كل فـضل يا أم». قالت: «لماذا لم تحدثنـى عن أحوالك ياولدى؟». قلت: «بخـير والله يا أم» الولية لم تصدقنى فى هذه الكلمة! لم تصدق أن حالى بخير، قالت وهى تربت على كتفى: «أعرف أنك تتعب ياقلب أمك!» قلت محاولا اعتقال دموعى: «كـله يهون من أجلك أنت وأخوتى يا أم! فمن لكم غـيـر الله وغـيـرى؟ من أجلكم أقطع مـن لحـمى وأرمى فى حلة الطبـيخ». ربتت على كتـفى مرة أخـرى ومرات ثم بدأت تتـثاءب وانخرطت ترقـينى وتملس على جسـدى بورقة: «رقيـتك من عين الحسود يندب فيها عـود ومن عين المرة تنقلع بشرشرة ومن عين الراجل تنـقلع بمناجل ومن عـين كل اللى شـافـوك ونـضـروك وماصلوش على الحبيب النبى». وجـاءت أختى «سلمى» بمنقد فيه البخـور يتصاعـد دخانه ذو الرائحة الـزكية وصـارت تلف يديها بالمنقد حـول رأسى حتى صبرت أنا الأخر أتثـاءب ووضعت أمى الورقة التى كـانت تملس بها على جسـدى فى نار المنقد وتركتـها تحـترق علـى مهل ثم قـالت لى: «شف ياولدى ان كـان القـرش يجيئك فى الغـربه من حلال فالغربه محتـملة إلى حين أما إن كان القرش فيـها من ...». فقاطعـتها مرتشعـا: «أقول لك الحق ياأم؟ أن الحلال فى الغربة غيـر مباح! يا أم لا تندهشى! ان البلد التى كنت فيهـا يسمونها الـقاهرة أى أنها تقهـر الناس من سكانها وكل من يلجئون إليها فى طلب! تقهـرهم على فعل الحرام عينى عينك وفى

كل خطوة! ومن لم يقدر على فعل الحرام تمرغ أنفه فى الطين وتفضح حرمته!. صدقينى يأم أن الحرام الذى كنت تدفعينى لارتكابه هنا أخف بكثير من الحرام الذى يغرق أهل ذلك البلد! ان حرامنا بسيط لن يحاسبنا الله عليه يأم! سوف يغفره لنا سبحانه على أساس أنه لعب عيال! نحن هنا نفعل الحرام الصغير فتقشعر أبداننا خوفا من الله من عذاب يوم القيامة أما أهل القاهرة فإنهم يفعلون الحرام الكبير دون أن يشعروا أنهم يرتكبون الحرام! لو قلت لك أنهم يتفاخرون ويتفشخرون بفعل الحرام تقولين كذابا!!»..

أخذت أمى تفك الطرحة وتعيد لفها حول رأسها عديد من المرات، فتخيلت كأنها ترمم دماغها خوف الانهيار، قالت كأنها تختم الصلاة: «على كل حال جئت فى وقتك! الدار هنا محتاجة لك تنتظر دخلتك يديمها الله علينا، وراحت تصب لى الشاى الدور الثانى. فيما أرشف الشاى كانت هى شاردة سارحة فى الملكوت ولكن ظهر على وجهها أنها تدخر لى خبرا أشعر أنه شغلها بل انه هو الذى جعل مسألة سفرى أو بقائى فى المرتبة الثانية من اهتمامها. بعد برهة ميلت رأسها صائحة: «اذهبى ياسلمى ونيمى البط والفراريج.. وأنت يامندوهة قومى تربى للمعيز واحبسيها.. وياسعدية اذهبى فنيمى هندية ومحمود». لما اطمأنت إلى أننا صرنا وحدنا ميلت على قائلة فى غبطة: «صابر ولد صفوان أبو

عدس تعرفه؟». قلت: «طبعا». قالت في نبرة مرعوشة بالبهجة: «ما قولك فيه؟». قلت: «لى عشر سنوات لم أراه ياأم». قالت: «إنه معك في مصر.. هذه البلد التي كنت تحكى عنها الآن .. يسرح فى الشوارع يبيع الفانلات والسراويل والملايات ومعه قرش ومبسوط وكل بضع سنوات يجىء ليشترى قراريط الأرض!». قلت: «ماخبره ياأم». قالت: «يدور على أختك سلمى! يرسل نسوان دارهم ليخطبوها منى! سيعيشها فى مصر ويستتها! سيشترى لها قرطا وكردانا ومشخلعة وخلخالا وينغنغها فى العز!». سرح خيالى برهة فى اللاشىء وما لبثت حتى ارتعش قلبى من الفرح ياخال أو من الخوف لا أعرف، لكننى قلت: «ما رأيك أنت ياأم؟». قالت: «الذى أراه أن الولد شارى! بعث لنا ثلاث مرات وجاء بنفسه مرة! وطلب منى أن أبعث لك جوابا لتحضر أو أعطيه عنوانك فى مصر ليقابلك ففضلت ألا يراك فى بلاد الغربة وكنت سأكتب لك جوابا بالمجىء ولكن الله أرسلك! انه سبحانه يعرف بخت البنية ولسوف يعجل بسترها!». قل: «على بركة الله ياأم! على بركة الله! انه طول عمره ولد طيب ابن حلال وجدع». قالت أمى كأنها تعلن موافقتها النهائية: «ربنا يكتبها من نصيبه!».

المسألة جاءت سهلة يابوى ومثل العسل، لم تستغرق والله شهرا قرأنا فيه الفاتحة وعقدنا القران وسافرت أختى «سلمى» إلى مصر فى زيطة وزمبليطة كبيرة، وكنت معها وأنا وأمى

وأخواتى حيث اطمأنت نفوسنا وتأكدنا أن لابنتنا دارا وعفشا وسترا، وعدنا إلى الصعيد بعد يومين اثنين.

صرفنا القرشين وبقينا كما خلقتني يارب ترزقني. سبحان الله يابوى، ففى نفس الشهر جاءنا من يخطب «مندوهة»، هو الآخر ولد يعيش فى مصر منذ بضع سنوات ويشتغل نفس الشغلة ولكن فى وكالة البلح، حيث يجلس بعربة يد صغيرة يصنع منها دكانا متنقلا يتسع بكثرة تصريفه فى البيع اسمه «نصر الأقرع» وأعرفه ولدا أجدع من سابقه، فقلت: «على بركة الله». عقدنا القران فى انتظار أن ينتهى العريس من بناء شقة يتملكها على أرض يضع يده عليها فى منطقة مهجورة خلف صحراء المماليك من جبل المقطم. فى شهر واحد لعلعت فى دارنا الزغاريد مرتين وأضيئت شموع الفرح مرتين وجلس على كرسى الكوشة عروسان مزوقتان إحداهما سافرت والأخرى على وشك السفر.. «عقبال سعدية وهنومة وأمسح لهن جميعا دماء شرفهن وخلاصهن وغائط أولادهن! اللهم اسعدهن! اللهم استر عرضهن! وبلغهن كل أمانيهن! اللهم ارض عنك ياحسن ياولد بطني!»..

هكذا راحت أمي تبتهل بصوت مخيف راعش، رافعة وجهها نحو السماء باسطة يديها. أخذت والله أحبس دموعي حبسا.

الثانية ـ بصرة بالبنت

قلت لأمى فى لحظة صـفاء: «يظهر أنه مكتـوب لنا لقمـة عيش فى مصـر ياأم! ولابد منها!». قـالت: «يفعل الله بنا مـايشاء فنحن أولاده وهو مـسـئول عنا! ولـيس هو سبـحـانه بالذى يفـرط فى المسـئولـية! حـاشـا لله ياولدى! لاتكفـرنا!». رحت أتفكر فى أمـر العـودة إلى القاهرة، مـخفـفا وقع الأمـر على نفسى بأن اللـه قد ساعدنى من حيث لا أدرى فخلصنى من نصف المسئولية ولا بأس من الغربة سنين أخرى، فاذا بأمى تـقول: «من غد تتوكل على الله ياولدى فتبحث لنا عن رزق نعتمـد على الله وعليه مدة سفرك إلى أن يكرمك الله وتبعث لنا بالحوالة». قلت: «فـعلا ياأم! صدقت! غدا يحلها الحلال الذى لا يغفل ولا ينام!..

الليل بطوله وأنا مـفنجل العـينين ياخـال، مخى يضـرب يقلب، هاتف جوانى يقـول لى: قم الآن يامغفل واسـرح فى هذه الخلسة قبل خروج المصلين من صلاة الفجر وأنت ونصيبك فالله لن يردك خائبا!! وهاتف لـعله من السماء يزعنى قائلا كـيف بعد أن صرت رجلا محترما يوقرك الناس تفعل أفاعيل كهذه؟! افرض أن الطوبة

جاءت فى المعطوبة وضبطوك متلبسا فماذا تفعل أمام فضيحة بجلاجل؟! وهاتف ثالث يقول لى تعقل ياحسن فأنت غائب عن الصعيد لك مدة كبيرة وقد صرت كالغريب أعمى ولو كنت بصيرا.. الله أكبر نطق بها صوت المؤذن فدوى من خلفه صوت أمي زاعقا يرج الأرض من شدة ما فيه من ترج واستعطاف: «الله أعظم والعزة لله.. لا اله الا الله محمد رسول الله». فتأكد لى والله يابوى أن الله لابد قد تأثر من ضرعة أمي هذه بصوتها هذا الذى يفتت الحجر. تقول كافر لو قلت لك أننى قد رأيت الذهول ينشق فى دماغى فجأة بشرخ سرعان ما اتسع وبرزت خلاله دموع تتساقط من عين مجهولة فى العلو على خد يشبه سحب السماء الصافية!..

سحبت جلبابى الكشمير فارتديته ومضيت نحو الباب. تقلبت أمى، قالت: «رايح فين ياحسن؟». قلت: «أصلى الفجر ياأم». قالت كأنها قد أحست أن صلاة الفجر هذه مجرد اسم لمشوار آخر أنوى القيام به: «الله معك ياولدى! ادع لنا بالستر!». قلت: «يحصل باذن الله»، وخرجت، فقامت هي وأغلقت الباب من ورائى بالترباس.

شققت طريقى إلى المسجد الذى لم أكن دخلته فى حياتى من قبل رغم أنه على مبعدة ذراعين من دارنا. خلعت صرمتى القديمة ودخلت فتوضأت واندسست بين صفوف المصلين فجاءتنى راحة كبيرة، هبط الغليان فى صدرى، تيقنت من أننى قد وكلت الله حقا

فى التصرف فى أمرى. الله وكيل يابوى ما فى ذلك شك أبدا. فوانحن نختتم الصلاة لاحظت أن رجلا محترما يطيل النظر إلى من تحت لتحت يتأملنى حتى أوشكت على الخوف منه، فلما سبق من يجاوزنى إلى الانصراف تزحزح هو جوارى حتى حاذانى ومد لى راحة يده قائلا: حرما، فلامستها براحتى قائلا: جمعا ان شاء الله، وقبلت راحة يدى. قال الرجل: «ألست حسن ولد أبو ضب؟». قلت: «صدقت». قال: «فكيف لا تعرفنى ياولد؟». قلت: «العتب على النظر». قال: «أنا الحاج دعدور صاحب الجناين». صحت قائلا: «يه.. يه.. أبى كان يخفر لك ماكينة المياه». قال: «والجناين كلها.. رحمه الله كان شديد الحب للعمل». قلت: «خلف لك طيلة العمر.. لقد كنت أيامها طفلا صغيرا فاعذرنى». خرجنا معا من المسجد وقد بدأت أنتشى لظهور شدة الشبه بينى وبين أبى رحمه الله. كلمة منى وكلمة منه، أنت فين وأخبار الشغل ايه، وحمد الله على السلامة ومبروك ما عملتوا. لم نكد نصل إلى نهاية الشارع حتى كنا قد اتفقنا على أن أخفر له الجناين لموسم العنب فى مقابل ثلاث تلاليس من الذرة العويجى، خلاف كسوة وأكل وشرب لمدة ثلاثة أشهر. بالصلاة على النبى طلعنا من المسجد على الجناين فتسلمتها وتممت عليها وعلى المكان الذى سأبيت فيه وفهمنى أن من بين عملى إلى جانب الخفارة أن أجلس أمام الجناين بفرش كبير يضم أقفاص مملوءة بالعنب الفرط المطلوب بيعه وأكله فورا قبل فساده.

الجناين قديمة، لكن المبانى زحفت عليها حتى باتت الجنانين كأنها فى وسط البلد. قصادها مباشرة دار صغيرة محندقة فيها فتاة جميلة تقول للقمر قم لأجلس مطرحك، ويقول لى قم فلا تجلس أبدا. ذهبت بعقلى ياخال، تقول سحرتنى! برجلتنى! لخبطت غزلى! أنستنى الخفارة وكل شىء! الملعونة بنت الملعون تقف أمامى تتركنى أبصبص لها فاعلا بعينى الأفاعيل! ولربما ينبهنى المارة إلى أن المعيز والدواب الفائتة قد حودت على أقفاص العنب ونزلت فيه أكلا على راحتها فيما أنا المنسحر مسمر فى مواجهة الفتاة اللعوب ذات الوجه الوردى والبدن المتلعبط كالبلطية تحت ثوبها الواسع! كانت تتعمد برجلتى واللعب بمخى إذ هى تكثر من المرواح والمجىء على الدوام تتقصع تتلوى تشد كل العروق فى مفاصلى، فأروح أنادى على العنب واضعاً فيه كل الصفات الحميدة أبثه لواعجى وأشواقى أعتب عليه تعذيبه لى وثقله على وتأريقى فى أنصاص الليالى.

المضروبة لم تهدأ. فوجئت بها ذات عصرية تدخل على الحاج «دعدور» حاملة قفة كبيرة. ظننت والله أنها دخلت تدس فى حقى لديه وتشكونى، فتسللت وراءها بصنعة لطافة وتلكأت بجوار الحاج دعدور. فاذا بالبنت تطلب من الحاج دعدور أن يبيعها خمسين رطلا من العنب على أن تدخل هى وتنقيه. قال لها الحاج «دعدور» وهو يضع النقود التى أخذها فى محفظته: «أدخلى فانتقى كيف تشائين ولكن هل تجيدين قطف العنب؟ والا انفرط

منك». قـالت البنت: «ابـعث مـعى بهـذا يقطع لى»، وأشـارت إلى، فرقص والله قلبى من الفرح ووقفت أنتظـر، فصاح الحاج دعدور: «أدخل معـها ياحسن وخـذ معك المقص الحامـى». قلت فى أمتنان شديد: «حاضر ياحاج»، وأشرت إلى الفتاة أن تتبعنى ظللت أمشى داخل الجناين أكثـر من ثلاثة كيلو متـرات، اختفى الحـاج دعدور وصرنا وحـدنا لا عين ترقبنا سـوى عين الله. توقفت الفـتاة عند تكعيبة مـثقلة بالطيب الناضج وقالت: «اقطف لى من هنا.. واقطف لى من هنا»، فـأشرعت المقص ورحت أنـتقى من التكعـيبـة أطايب العناقيـد فأقطفهـا بحكمة وأرصها فى القـفة وهى واقفـة ترقبنى وتكتم ابتسامة شـقية بين شفتيهـا. صدقنى ياخال أننى لم أعرف حتى الآن سر هذه الخيبة التى حطت على! لقد كنت أنشال وأنحط فى سبيل أن تحن على بكلمة أو تنفرد بى لحظة فى مكان! فما بال ولد خالك يقف هكذا كاللوح اللطزان بعد أن جاءته الفرصة وصار معها فى خلوة بعيدة!. كل مـا أدريه أن سهم الله قد أصابنى فشل حركـتى وأعجـز لسانى وحول عـينى فاندمـجت فى قطف العنب ورصـه بحمـاس وجـدية، فلما أمـتـلأت القفـة أمـسكت بطرفهـا وشيلتها، فما استوت القفـة على دماغها حتى نظرت لى نظرة فيها الهـزء كله والسم كله، فـانخـفض بصـرى إلى الأرض، فـاذا هى تلفظها، تلك الكلمة اللعينة التى لم أكن أتوقع أن تنطقها: «... أمك»، ثم دفعتنى بيـدها دفعة واحدة تهاويت منها مـتطوحا أتساند على الهواء. لحـقت بها جريا وأنا أصيـح: «الله.. الله.. طب حقك على..

تعالى.. تعـالى بس»، لكنها لم تـلتفت إلى ومضت تتـبخـتر تحت القفة الثقيلة ومضيت أجرجـر أذيال خيبتى ولو كان معى مسدس فى تلك اللحظة لأطلقت كل رصـاصه على نفـسى. من تلك اللحظة انزرعت هذه البنت فى قلبى ولم تـفارقه ليـلا أو نهارا كـأن بينى وبينها ثأرا لابد من تصفيته!.

انتهى موسم العنب يابوى، وأوشكت التلاليس على الإنتهاء هى الأخرى. هم يضـحك وهم يبكى!! تصور أننى وقـد صرت عـاجزا عن شراء ورقة دخان لف أفكر فى خطوبة هذه البنت؟! يظهر أننى من لخمتى وصلت متأخرا، الأيام التى مرت لم تكن طويلة، لاتزيد عن جمعة، غبتها فى مشوار أحصل من ورائه لقمة عيش، حيث قد لجأ إلى نفر من المطاريد فى أن أساعدهم على بيع زريبة مسروقة قوامهـا جاموسة وبقرتان عـشار. وفقنا الله بفضله وفـضل العبد لله فى تسـريب البيـعة إلى بلد بعـيد بسعـر مربح للطرفـين ولى بطبـيعة الحـال، أخذت حـقى من الطرفين ورجـعت عامـر الجيب والقلب تداخلنى ثقة فى أننى سأجرؤ على تخطى عتبة دار الصبية لأجلس فى حوشهم طالبا القرب من أبيـها، ومكسبى من السريقة المباعة ليس بالـذى يمكننى من قراءة الفاتحة وابتيـاع هدية ثمينة للعـروس والوعد بمـا لذ وطاب لكنه كـان مجـرد عتـبـة أتخطاها ولسوف أعـود من أجل خاطر عـيونهـا إلى مصر راغـما صـاغرا وعلى قلبى أحلى مـن العسل. لبـست جلبـابى الكشـمـير واللبـدة الجديدة والمركوب الوردى اللون، وزودت علـبة دخانى بكيف يزن

أوقية، وذهبت أخطر نحو دارها آملا فى تلقفــها وتبليغها أنى قادم لخطوبتــها فعليــها أن تمهـد لى الطريق إلى أبيهـا. لكننى فى ذلك اليوم لم أصادفها فى الشــارع. تلكأت فى كل مكان ظننتها تتواجد فيه، كـدت والله أطرق الباب وأنادى عليها بصوت عـال وبلا حياء صائحا: افتحى ياحنة - ذلك أن اسمها «حنة» - بل كدت والله ادفع الباب وأدخل كما فى المواويل قائلا أنا قتيل المحبة..

تنطعت متـوقفا جـوار باب دارهم تحت شباكـهم كأننى انتظر رســولا منهم وكـأننى فى نفس الـوقت أقف فى شــارع الله الذى يحق لكافـة الخلق الوقوف فـيـه. لففت أكـثر من خـمس سجـائر دخنتهـا فى عجلة وعصبـية ونسيان، أذنى قـد غادرتنى وتربعت صحن دارهم من الداخل لعلها تلتقط لى من بين الأصوات صوتها فلم يبلغنى طوال وقـوفى أى صوت، وعينى منـتزعة من مـرقدها تحت جبهـتى وراحت تمتد فى كل مساحة خاليـة تبحث عن طيفى فكأنما نظراتى اشعـاعات كشاف ترنحه الرياح، فلمـا لم يعلق بها طيفــها انطفأت خـزيانه حسيـرة. وهكذا أغمضت عـينى وأشعلت سيجارة وأخذ دماغى يسترد نفسه ليفكر بهدوء فى الأمر. دهمنى والله احساس مفاجىء بأن الشؤم قـد حالفنى اليوم معها! اذ أننى لم اكن أصــدق أن تختـفى فـجاة هكذا يـا خال، وهى التى كـانت تروح وتجىء فى الدقيـقة الواحـدة ستين روحـة وجيئـة وكانت تبـقى موجـودة فى الشارع كـله حتى وهى داخل دارها. جـاءنى احـساس بأنهـا الآن لابد أن تكون فى خلوة مع أحـد، ففـار دمى

فـورانا، وأوشكت أجرى فى الخـلاء بنبـوت أشج به رأس كل من يلقانى. لم يسعـفنى الا طفل صغير من أبناء جـيرانهم رأيته يلعب بجـوارى، لاطفتـه سرحت به، عـرفت منه أن «حنة» انتـقلت هـى وأمها برفـقة أبيها إلى بلـدة «أولاد إلياس» المجاورة حيث سـتبقى هناك طويلا إلى أن يعود العمدة!..

سـبحـان اللـه يابوى. خطر فى بالى أن «حنـة» هى إبنة «أبو سكين» الخفير الخصوصى والمرافق للعمدة أينما ذهب. والعمدة له زرع عريض فى النجع القـريب منا، يحلو له أن ينقل محل اقامـته إلى هناك ليكون سـاهرا بحق على رجـاله. لما تذكـرت ذلك خـفت لبرهة ثم حـمدت الله أن نزل على سهم الله حين انفـردت بها فى الجناين. ثم قلت: مـا من بد، فلا بد أن أراها، ولآخذن مـعى واحدا من صحـاب عمـرى القديم أو بالأحرى من صـحاب أبى ونقـصد الكريم إلى دارهم..

فى الصباح بحـثت عن أحد يذهب معى فلم أجد. فـاغتظت أيما غيـظ: فلأذهبن وحـدى بنفسى من أجل نفـسى ألست رجلا يـملأ العين؟ وقد كان.

أدركني الضـحي على الطريق وأنا أتنـسم ريح «حنة» وعطرها كلما اقـتربت من حدود «أولاد الياس». الى أن امـتلأت خياشـيمي برائحتها النفاذة، فتلفت حـولي، فاذا بـ «أبو سكين» الخفير يخرج من غيط القطن المجـاور لى، والعمدة يتحنجل أمـامه متقـافزا فوق

الزراريق منفوخا يكاد الكبر يفرتكه، وكان الشر باديا عليه حين أرسل نظرة سيئة إلى جوارى فنظرت فاذا بولد صغير قد سرق ملء حجره قطنا وها هو ذا يقف مشلولا بسريقته يتلبسه الذعر. انقض عليه العمدة فأمسكه من كتفه وهزه بعنف ولعن آباء الذين خلفوه، رمى به إلى «أبو سكين» الخفير. ضربه «أبو سكين» بالكف على وجهه ونزع ما معه من قطن ثم تركه نظرت فى الولد فعرفته وعرفنى، انه ولد غلبان وعلى قد حاله ولكن يكفيه صيتا أن «عبد الرحمن ملك الموت» عمه لزم..

عم الولد اسمه «عبد الرحمن» على اسم سيدنا عبد الرحمن عزرائيل الذى يقبض الأرواح بأمر من الله جلت قدرته. ولأن عبد الرحمن كان قويا كحصان فتى عملاقا كمئذنة ضخما كفيل شرسا كحوت فانه كان اذا ضرب واحدا براحة يده فقل عليه يارحمن يارحيم فما بالك لو ضربه ضربا حقيقيا؟ اذا نزل فى عركة فلن يجرؤ مخلوق مهما كان جعيصا أن يقف قبالته. كان منظره يفض الخناقة في عزها، يكفى أن يعلن انحيازه ـ ولو بكلمة ـ لأى طرف، فعلى الطرف الآخر أن يجمع رجاله وحطام خسائره ويفضها. «عبد الرحمن ملك الموت» كان جبارا مكارا خبيثا غبيا، يبيع نفسه بيعا وعلى المكشوف، ياويلك لو خلفت معه اتفاقا تم بينكما باللسان لن يجدك أهلك ذات لحظة بكل بساطة، واذا كانت الحكومة شاطرة تجىء بأى أثر لأى جريمة. وقد عجبت والله يابوى كيف نسى «أبو سكين» كل هذا فى هذه اللحظة؟! كيف

تهور وضرب الولد على وجـهه بقسوة؟! قلت فى عـقل بالى: حق أن الخـادم المذعور من سطوة سـيده يـبقى سـلاحا أعـمى فى يد سيده. عذرت الرجل لما رأيت سحـابة خوف وندم تمر على وجهه، وقلت: ربنا يستر.

ألهـمنى الله بكلمتـين طيـبتـين هدأت بهمـا العمـدة وانتهـزت الفرصـة فسلمت عليه وعـلى الخفيـر فكرتهما بأعـمامى الفقـهاء ومضيت خلفهمـا حتى ماكينة مياه العمدة تحت مجمـوعة متكافئة من أشجـار التوت والجمـيز والصفـصاف والكافـور، حيث جىء بكرسى من حظيرة منزوية جلس فوقه العمدة، وأقعى الخفير «أبو سكين» تحت قـدمى العمـدة على الأرض. رميت السـلام وشرعت أنصرف فـقال العمـدة على سبيل المجـاملة: «أقعد أشـرب الشاى ياأبو العم». قلت فى امـتنان: «تشكـر ياعمـده كلك واجب». وقـال «أبو سكين» فى ود صـادق: «اسـتـرح ياأبو العم فـالطريق طويل قلت: «أبو الله حق الله»، ثـم اقعـيت بجوار الخـفـير تحت قـدمى العمدة منكسا رأسى فى الأرض صامـتا. صرت كالغريق فى بحر ياخال، عقلى يقول لى تكلم ياعبـيط هذه فرصتك جاءت لحد عندك ومن حسن حظك أن العمدة حاضر ومـحضره قد يجىء خيرا لك. لكن عـقلى يرجع فـيقـول لى اعقل يـاولد! فضك من شـغل الحب والغرام ولعب العـيال! أمعك شىء حتى تتشـملل وتجىء لتخطب! وابنة أبو سكـين الذى يسـتطيع بقـربه مـن العـمـدة أن يضـرك

ويمشيك على هواه؟! وعلى فرض أنه وافق فمن يضمن لك إن ظروفك ستعينك على تنفيذ ما تتفق عليه مع الرجال؟ أحمد الله أنك لم تتكلم ولم يصدر عنك شيء يفضح صغر عقلك!..

لحظتها ياخال، زحف أمام عينى المنكستين طيف على شكل ظل ملأ الدنيا برائحة اللقاحُ والبذور ورائحة الحنطة! فى أسفل ظل كعبين مستديرين كالريال الفضة يتسحبان على الأرض ويختفيان مع ظل الطيف، الا والعمدة يقول: «كتر خيرك ياحنة» انتفضت كالطفل الصغير يسمع زمارة بائع الحلوى، ورميت بعينى فى كل اتجاه لعلنى أراها، لكنها كانت قد اختفت. خفت أن أكون فضحت نفسى فنكست رأسى من جديد فاصطدمت عيني بصينية الشاى النحاسية عليها كوبات الشاى..

يمين بالله ياخال ماكدت أضع كوبة الشاى على شفتى حتى سمعت دبيبا عفيا فوق الارض أرجف الكوبة بين اصبعى، فرفعت رأسى، فتلبسنى الذعر فى الحال ياخال، اذ رأيت «عبد الرحمن ملك الموت» مقبلا يمسك بنبوته الشهير يجر خلفه الولد الذى انضرب. الناس فى بلدتنا اذا رأوا «عبد الرحمن ملك الموت» ماشيا بنبوته أيقنوا أن طلعته لن تخيب أبدا ولابد أن تسفر عن قتيلين أو ثلاثة فى لمح البصر!..

دخل «عبد الرحمن ملك الموت» نحونا فكأن الدنيا قد غيمت قال فى أريحية وبكل ود وطيبة: «السلام عليكم ياعمدة»، ثم أقعى

بجـوارنا، ونظر لولد أخيـه المضـروب قائلا بابتـسامـة تشجـيع: «شوف يـاولد من فى هؤلاء ضربك» وأشـار نحونا. كـيف تم كل ذلك فى لمح البصر ياخال؟ يعلم الله كيف ولكننى فوجئت بنفر من ولد أخ «عـبد الرحـمن ملك الموت» قد صـاروا واقـفين بالنبـابيت حولنا من كل جـهة. أشار الولد الصـغير إلى «أبو سكين» الخفـير وكانت البـندقية الميـرى لا تزال معلقـة فى كتـفه، فإذا بالنـبابيت تنهال عليه كالمطر ياخال. فلفص الخفير وانطلق يجرى فى الطريق والولدان يجـرون خلفه يلاحـقونه بالـنبابيت كلمـا طالوه، إلى أن سبـقهم بمسـافة واستـدار رافعـا البندقية فى وجـوههم ثم أطلق عليـهم الرصاص فأوقع بـثلاثتهم عـلى الأرض قتلى غارقـين فى دمائهم.

«عبـد الرحمن ملك الموت» رأى جثث ولد أخـوته مجندلين على الطريق فانتفض واقفا يبغى اللحاق بالخـفير، فإذا بالعمدة ـ وكان هو الآخر غبيا كبغل استرالى ـ يطبق فى «عبد الرحمن ملك الموت» يطوقه بذراعيه بكل قوته فصارا يهزان بعضـهما كجبلين ملتحمين والخفـير واقف منـهما علـى مقربـة لا يعرف ماذا يـفعل، العـمدة يصيح به: «اقتله! اقتله هو الآخر ياعبيط». وكان «عبد الرحمن ملك الموت» قـد بهدل العـمـدة وأوشك يمرمغ بـه الأرض، وكل منهمـا يدور بالآخر فى دوامـة، والخفـير يصوب مـاسورة البندقـية فى جنب «عبد الرحمن ملك الموت» ويضرب، فـتخرج الرصاصات من

الضلع الآخر مخترقة صدره بالعرض. وهنا تركه العمدة فوقع، لكنه نهض فى الحال، اندفع يجرى خلف الخفير والدم ينزف من جنبيه ولا أعرف كيف التقط نبوته ثانية وأغلب الظن أن نبوته هو الذى طار اليه، وكان العمدة يجرى خلفه ليحول بينه وبين الخفير الذى تعثر فوقع فى المصرف. بحركة بهلوانية استدار «عبد الرحمن ملك الموت» مرتدا فى قفزة واحدة حيث هوى نبوته على رأس العمدة بضربة واحدة سقط العمدة بعدها وشظايا من مخه تتناثر فى الهواء كزبل الحمام. ثم أن «عبد الرحمن ملك الموت» قفز قفزة أخرى نحو المصرف مباغتا الخفير بضربة أخرى فوق أذنه، وكان لحظتها يحاول تخليص البندقية من طين المصرف فسقط وأياها فى الطين جثة هامدة، فوقها سقطت جثة «عبد الرحمن ملك الموت» هامدة، أما نبوته فكان من عزم الضربة وانفكاك اليد قد طار بعيدا ليصيب العمدة بضربة أخرى - عفوية هذه المرة - فى صدره!!..

واه يابو.. و.. ى.. واه، ست جثث مرمية على الطريق وفى المصرف الراكد تنتظر قدوم النيابة أربعة أيام بخمس ليال تضرب فيها الشمس حتى تعفنت. يمين الله ياخال ان الرائحة الكريهة بقيت كاتمة على أنفاسنا جميعا سنين طويلة، والخوف كله بات ساكنا عند ماكينة مياه العمدة وعفاريت القتلى تتسلق الأشجار والحظيرة تكيد للبشر ليل نهار!..

اندفنت الجثث، والنيابة التى يهمها التصريح بدفن الجثث لم يعد يهمها الإمساك بأحد ممن يعتصمون بالجبل، كأنما الجبل يخرج عن حدود مسئوليتها، والواقع يابوى أنه يخرج عن حدود طاقتها وقوتها. وكان العمدة قد تكفل بتهريب زوج الخفير وابنته. أهل الموتى دفنوا موتاهم فى صمت كأن شيئا لم يكن، حتى بدا كأنهم سلموا أمرهم إلى الله بعد سقوط زعيمهم. سبحان الله ياخال، على خطورة هذا الحادث الكبير فإنه مر كما يمر أى حادث، نسيه الناس فى بحر أيام قليلة!..

ما أدرى إلا والعمدة الجديد ابن عمه يبعث خفيرا محترما فى طلبى أتيت بقلبى من بين ساقى وقلت لابد أنه ينوى أن يستشهد بى ويجرجرنى فى محاكم ونيابات وأنا جسدى متلبس بها من حاله فلا يطيق منظرها. فكرت أننى لابد لى من الهرب يابوى! أيضيق بى الصعيد هو الآخر واضطر للهروب منه؟! لم يعد امامى أنا الآخر سوى الجبل أعتصم به! ولكن هل أنا قد الجبل؟ طب وأمى وأخواتى يابوى من يرعاهم؟! وما لزوم الجبل؟ وما لزوم الهرب؟! الصراحة حلوة! الكلمة الطيبة أحسن! أحلى! كلمة حاضر ليس أريح منها! قل حاضر لمن يلح عليك وأفعل ما يحلو لك بعدها فى السر أو فى العلن فلن يعترض أحد!!..

بحلقت فى عينى الخفير فلم أجد فيهما عكارة تشى بأن فى الأمر ضررا، فتوكلت على الله وذهبت معه. خير ياعمده؟.

لدهشتى سلم على يدا بيد وقال: «اجلس»

فأقعيت على الأرض بجوار الكراسى الخالية..

قال: «ياحسن ياأبو ضب»..

قلت: «نعم ياحضرة العمده؟»..

قال: «ما بقى فيك من لبن أمك؟!»..

قلت: «كله بعون الله ياعمدة»..

قال: «أعرف والا مابعثت لك!»..

صار قلبى كالمشبوك فى خيط مطاط يلعب به صبى. لكننى استطعت أن أقول: «ملك يمينك ياعمده»..

قال: «بحثت فى البلدة كلها عمن يكون قد بقى فى بدنه شىء من لبن أمه فلم أجد فبعثت لك.. هات شايا ياخفير»..

قلت لنفسى أهلا وسهلا، وتوقعت أن يكلفنى بقتل أحد الأشقياء، وبدأت افكر فى حيلة اخرج بها من المزنق. دخل الخفير بالشاى فى الحال، للعمدة ولى..

وقال العمدة وهو يشفط: «شف ياحسن.. الحكاية وما فيها اننى ابحث عمن يخفر ماكينة المياه طول الموسم.. وكل من عرضت عليه الأمر يخاف من عفاريت الجثث!!»..

قلت باسما وقد هان الأمر على نفسى: «معهم حق ياعمده فماكينة المياه مسكونة». قهقه العمدة ضاحكا وقال مشوحا فى

وجهى: «عـفاريت إيه يارجل! أنت رجل ميـت القلب وأبوك أحسن من خفر المكن.. اسـمع.. لسوف أجعلك مبـسوطا على الأخر طوال الثلاثة أشهر مدة الموسم»..

فى هذه الـلحظة يابوى، الـله وكـيـل يابوى، طقت الفـكرة فى دماغى لا أعرف كيف! قلت له: «رقبتى فداؤك ياعمده لكن لى طلب واحـد فقط لو نـفذته لى..». فـهـز رأسه فى قـبـول حسن وقـال مشجعا: «قل عليه». قلت: «أريد أن أتزوج حنه بنت أبو سكين»..

انقلب وجهه فى الحال يابوى، وظهر عليـه الغضب الكبير حتى خلت أنه سـيرفـسنى فى وجهى بقـدمه، إلا أنه تلطف فـى الحال قـائلا « زواج مـاذا يابو العم؟! نحـن فى جناز! هل هذا وقـتـه بذمـتك؟!». خـجلت من نفـسى والله ياخـال، ومـادت بى الأرض، فقلت: «معك حق ياعمده! كـان يجب أن أميز!». قال: «سأعطيك فى الثلاثة الأشهر ثمانية تلاليس من الذرة!»..

ثمـانيـة تلاليس يابوى، كـميـة كـبـيرة والـله يابو العم، أربع وستـون كيلـة تستـر جوعنا وعـرينا زمنا طويلا، فقلت: «مـوافق ياعمـده! وربنا معى بإذن اللـه!». نادى على خفيـره أن يرسل فى أعـقابى أربعـة تلاليس من الذرة العـويجى إلى دارنا مـقدم أجـر أحصل على باقيها قرب انتهاء الموسم.

الثالثة ـ عصف الريح

الليالى طويلة ياخال، والشجر أشباح مقيمة تضاعف من عمق السواد الكاحل، وقلبى واقف بين جنبى ياخـال، فلا أرى الا شبح «حنة» محـفوفا بعـفريت عبـد الرحمن ملك الموت الذى يتمـها فى ضربة متـهورة غشيمة، أهو الشـؤم أم قلة البخت؟ أم أنه موعظة من الله يسـوقهـا لى كى أتعظ وأصـرف نظرى عن «حنة»؟! وهل الأمر بيـدى يابوى؟! لو كان غـيرى فى مكانى لضـرب هذه البنت بالصرمة القديمة ورفض الزواج منها، لقال أنها سهلة المنال ترمى نفسـها تحت أقدام من يرغبـها وليس بالضـرورة أن ترغبه!! عقلى يقول لى هذا الـكلام دائما، وأراد عليه مـصدقـاً له، مع ذلك ما أن تخطر «حنة» على بالى فجـأة حتى ينتفض قلبى كعصـفور معلق فى خـيط من المطاط. تقـول عنى كـاذبا مـجنونـا لو قلت لك أنى دخلت الحظيـرة التى كـانت تعـيش فـيـهـا «حنة» قـبل الحـادث فتنسمت رائحـتها قوية نفاذة مريعـة ياخال. قل عنى ما يحلو لك لكننى لم يكن يهنـأ لى نوم إلا فوق مـصطبة تخـيلت أنها كـانت تبيت فوقها!!.

انتهى الموسم علـى خير وبركـة، ورزقنى الله بحفنة جنيـهات بعت بها سـواقط من زرع العمـدة، وعمرت الدار بخـزين يكفيـها شهورا، وعمر جيبى بمدد يكفينى للسفر..

رات أمى أن تعـد لى لـقـمـة طرية آكلهـا فى الـطريق أو بعـد وصولى، مـا كان لهـا لزوم ولكن هل أقدر أن أقـول هذا لأمى؟!.. بالأمس أجلت سفـرى حتى تغسل لى ثيابى، واليـوم تؤجله حتى تصنع لى لقمة وغـدا يعلم الله أى سبب جديد يطرأ عليهـا فتؤجل السفر من أجله!!.

قمت أمشى فى البلدة قليلا أملأ منهـا خواطرى قبل أن أودعها. كنا فى الضحى والجو كئيب ملىء بالرياح المتربة رأيت جماعة من الرجال يجلسون على مصطبة بجـوار دكان الخياط. سلام عليكم، عليكم السلام.. جلست جوارهم. كان الـراديو يرفع عقيرته بالغناء الحماسى، وكل الاغـانى تقول: مصر مـصر مصر مصـر. وكلاما كثيرا غريبا. قلت: «ما هذه الاغنيات؟». قالوا: «مالها؟». قلت: «فيها جر شكل كـبير». قـالوا: «سمعنا الراديو مـنذ برهة يقول أن ثلاث دول كبيرة هى فرنسا وبريطانيا ومن تسمى باسرائيل قد هجموا على مدينة بور سـعـيد ـ الباسلة ـ وأن الله نصر أبو عـبد الناصر عليهم». وكـان صوت «أم كلثـوم» يغنى قائلا: صـوت السلام هو اللى كان والليل حكم!.. قلت: «يه. يه.. يه مصر اذن بخير يعنى أم لا؟». قـالوا: «العلم عند الله». قـلت: «مسـافـر أنا اليـهـا فى

الغد». قـالوا: «سلم لنا على ولد ابو عبد الناصـر».. قلت كأننى سأفعل: «يوصل». ثم خـفت يابوى، قلت لابد أن طيبة قلب أمى هى التى عطلتني من أجل فائدة لى! فهل من المعقول أن ينتصر «عبد الناصر» على ثلاث دول؟! أمـا اسرائيل هذه فلم أكن سمعت عنهـا من قـبل يابوى. وأمـا فرنسـا وبريطانيـا فـأعـرف أننا كنا واقـعين تحت احـتلالهم حـتى مـجىء «أبو عبـد الناصر» الجـدع الأميـر! هو صـحيح جـدع وأمير وبطل، ولكن هل من المعـقول أن يحقق مثل هذه المعجزات يابوى؟!.

عصـفت الريح فـجأة وأهالت علينا تلاليس تـراب، فأحسـست والله أن الجو ينذر بالخطر. مر اثنان من عـائلة «عبد الرحمن ملك الموت» يضعان يديهمـا فى فتحتى الجلابيه، وكانا مـسرعين يبدو عليـهما الاضطـراب والبرجله، لم يلقـيا السـلام علينا، فنظرنا إلى بعضنا وقلنا: «استـر يارب» ذلك أن مشيتهم ذكرتنا بمشـية «عبد الرحمن ملك الموت». بعدها بقليـل فات علينا اثنان آخران من نفس العائلة يمـشيان نفس المشـية الملهوجـة ولكن فى الاتجاه العكسى. في أعقابهـما فاتت امرأتان تتدثران فى ملسـين أسودين ولا يبين من جسديهما أى شىء، وكان يبدو من شكلهـما أنهما غريبتان عن البلدة.

تابعناهما بعيوننا حتي اختفتا فى حودة الشارع. كفت الأغنيات فجـأة وخرج من الراديو صوت «عبـد الناصر» بذات نفسـه يهدر

بكلام كثير حلو فهمت منه أنه يوجد فى مدينة السويس قناة حفرها آباؤنا وكانت فرنسا تضع يدها عليها وتبيع المرور فيها لخلق الله بأموال طائلة وأن «أبو عبد الناصر» الجبار أخذ منهم هذه القناة قائلا: جحا أولى بلحم توره. فصفقت والله لهذا الكلام ولما فهمونى معناه على الحقيقة تفجرت صياحا مع هدير السامعين، هتفت: يحميك!.. يحميك ياأبو عبد الناصر ياجمال..

إلا وصياح شديد يجيء من يميننا ويقترب، إذ نحن كلنا وقوف ننتظر. وإذا برجل يجرجر جسد امرأة على الأرض وخلفه بضع رجال وأطفال يصيحون ويزآطون ويجعرون فلما اقتربوا منا تبين لنا أن المرأة المجرجرة على الأرض هى احدى المرأتين اللتين مرتا علينا من قبل، وأن الرجل الذى يجرجرها هو احد رجال عائلة «عبد الرحمن ملك الموت» الذى مر علينا من قبل، وكان يصيح من أعماقه: قل أنا امرأة يا ابن الكلب. والله ياخال لم تمض دقيقة حتى امتلأ الشارع عن آخره بناس من عائلة «عبد الرحمن ملك الموت» وأقاربه، راح كل منهم ينزع عن هذه المرأة شيئا حتى عروها كما ولدتها أمها فإذا بالصياح يرتفع ساخرا مستنكرا واذا بنا ننظر رجلا كامل الرجرلة واذا هو «عجرود» ابن العمدة كان متنكرا ليهرب من البلدة قبل أن يفكر ولد عم «عبد الرحمن ملك الموت» فى اصطياده، ولم يكن يعرف أنه خرج من جحر الدار إلى المصيدة نفسها. و.. يازين صلى!!..

مجزرة يابوى؟ جهنم الحمـراء انطلقت؟ فئوس وكريكات وبلط وسكاكين ومخارط ومناشير، غير العصى والنبابيت.. كل ذلك راح ينهال فوق جسـد «عجرود» ابن العمدة الوحيد ورفـيقه الذى كان مـتنكرا فى رحلة الهرب.! النـاس يابوى رأت المنظر هكذا فأخـذت تنصرف من كثـرة البشاعة، حيث سقط جسـد «عجرود» المسكين على الأرض رأسه مـفتت كـرأس الذبيحـة. جاءت نساء مـن عائلة «عبـد الرحمن ملك الموت» يجـرين نحو الجـثة، ملن عليـها ورحن يشربن من دمها كما يشربن عـصير القصب، ويقمن يمسحن الدم عن شفـاههن، ونساء أخـريات مررن فوق الجـثة سـبع مرات، ثم انهالت السكـاكين والبلط تقطع فى لحم عـجرود ورفيـقه وترمى للكلاب التى تكاثرت وانسعرت. ووالله لم يتبق من جـثتهما سوى بقايا عظام وأظافر، وحصيرة دم راحت الكلاب المستضـعفة تلعقها فى سأم!!..

كل ذلك ونحن جلوس فـى أماكننا يـابوى. فى العـصر جـاءت عسكر الحكومـة واستجوبت من لقـيته من الناس، فلم يفـتح أحد فمه بكلمة، فانصرف العـسكر دون أن يقبضوا على أحد مروا فى طريق عـودتهم بـدار تنبـعث منهـا الزغـاريد الـعـاليـة والطبـول والدفـوف الراقصـة، ولو سـألوا عن الدار التى ينبـعث منهـا هذا الفرح لقيل لهم أنها دار «عـبد الرحمن ملك الموت»، ولو فكروا فى الفرجـة على هذا الفرح لرأوا صيـوان العزاء قد أقـيم.وبدأ الرجال

يرشون الارض ويرصون الكراسي ويعدون الميكروفون.. فاليوم فقط يحق لهم تقبل العزاء فى فقيدهم.

امتلأ جو البلدة بالغبار المسود، ولم تتمكن أمى من صنع لقمة طرية أو فعل شيء بعد الذى رأيناه رؤية العين فى قلب شارعنا فى قلب الظهيرة والشمس مخترقة سقف السماء. وجاء خبر الحرب فى بور سعيد فكسر مقاديفي يابوى وصور لى مصر القاهرة كأنها ماسورة مدفع كبير قل أن يدى تطاولت على أجرة السكة، أخذت منها ثمن ورقة دخان لف، وفى ثانى يوم ورقة ثانية، وثالثة فى ثالث يوم. آخر قرش اشتريت به سيجارتين مكن فرطتهما ولففت خمس سجائر رفيعة وجلست فى حوش دارنا أفكر فى «حنة». قلبى هذا العلق اللعين يريد أن يربطنى بمصيرها! لا يريد أن يبرح البلدة ويتركها أجد نفسى جالساً فى عز الليل وحدى أقول لنفسى ما الذى ستفعله هذه المسكينة الغلبانة التى لم يعد لها أحد فى هذه البلدة؟! هل يعوضها العمدة المنكوب فى أعز مخلوقين لديه؟! هل يستطيع أى عوض أن ينسيها بشاعة ما حدث لأبيها؟ صدقت ياخال اذا قلت لك أننى الوحيد الذى يستطيع أن ينسيها لو أخذتها معى إلى مصر بعيداً بعيداً وأريتها من فنون العشق والجنون الكامن فى مصر ماينسيها أهلها وحتى اسمها. آه ـ فقط لو أراها!!.

الأيام تجر بعضها ومزاجى معكر يابوى، ليس فى جيبى سيجارة ودمى السخن يمسكنى عن طلبها من أى خسيس. دخل

علينا شهر رمضـان، أهلا وسـهلا شـهر مبـارك، هو ونصيبه. أول يوم كنت جالسا ساعة العـصر أفكر فى ما عسى أن تكون أمى قد أعـدته لنا فـى الإفطار فى شـهـر رمـضـان عنـد الإفطار تخـرج الصوانى من دور كل فروع العائلة لتمـتد فى المندرة، حيث يتجمع رجال الـعائلة ويسـتقـدمون مـعهم من يلقـونه فى الطريق أو من يعزمـونه من قبل أو من يشدونه عنوة للافطار من أبناء السـبيل. دارنا هى آخر دار فى الصف منعزلة قليلا لكنـها ـ شأن بقية دور العـائلة ـ متـصلة بالمندرة، فاذا كـنت جالسـا فى مندرتنا ساعـة الافطار تلاحظ أن للمندرة بابا داخليـا يفتح على دهليز مـستطيل كأنه شـارع داخلى تحفـه الجدران وتفتح عليـه أبواب الدور على الجنبين..

تخـيلت نفسى جـالسا فى المندرة بين الرجـال أرقب الصينـية القـادمة من دارنا أتخـيل منظرها ومـا سيكون عليـه من تعاسـة. توهت نفسى بعيـدا عن شارعنا، عامدا متعـمدا، حتى أدركنى أذان المغرب فى جامع فى ناحية أخرى من البلد.. فأمسك بى رجل كنت أعرفه من زمن ولم أكن قـابلته منذ سافرت إلى المخـروبة مصر!. رأسـه وألف سـيف أن أذهب للإفطـار مـعـه. ذهبت يابوى، فـاذا بالرجل يقدم الصينيـة أمامى عليها فضلة خـيرك أربع فردات من الحمـام السمين وسلطانيـة الشوربة التى لا مثـيل لها فى تعمـير الدماغ. بالهناء والشفـاء أكلنا وشربنا الشاى والذى منه ثم اتكلت على الله مروحا إلى دارنا..

ثانى يوم فى رمضان عدى على خير هو الآخر واستقضيته كلشنكان. ثالث يوم فات هو الآخر لا أعرف كيف. رابع يوم كان يوم اثنين وهو يوم سوق بلدتنا. فى يوم السوق لابد أن تشتغل الكوانين فى كافة الدور حتى دور الغلابة والأرامل، فالشحاذ نفسه لابد أن يستقضى فى هذا اليوم لحما ويطبخه، والبلدة كلها من أجعص جعيص لأفقر فقير لا تأكل اللحم الا فى يوم السوق هذا اللهم الا بعض الايام المفترجة وهى لحسن الحظ معدودة على الاصابع كل عام، وفيما عدا ذلك من أيام فلا أحد يذبح أو ينصب سيبة لحم..

فى الضحى دخلت على أمى: «معك نقود لنشترى لحما ياأم»..

قالت: «لا.. ولا مليم»..

انكسفت وسكت، ثم خرجت. صليت العصر وضيعت وقتا عند دكان الخياط، إلا وصاحبى الذى عزمنى على الإفطار أول يوم مقدما لى الحمام يلتقى بى وجها لوجه على غير انتظار. اندفعت بحماس أعزم عليه أن يتفضل اليوم للإفطار عندى، شددت فى العزومة فاستنام مرة واحدة ولم يترك لى فرصة للتراجع، بل مضى جوارى نحو دارنا. تركته وحده فى الحوش ودخلت على أمى، وقفت فى عرضها:

- «دبرينى ياأم.. احفظى لى ماء وجهى.. الرجل جالس فى الحوش بالفعل ولا مفر من تناوله الفطور معنا!»..

لوحت أمى بكفيها فى يأس، قالت فى شفقة:

- «ربى اقطعنى.. والله ياولدى ما أحتكم فى دارى الا على سمن وبيض.. أن شئت ملأت لكما الطاسة بيضا فى السمن مع جبنة قديمة ولفت وفجل وجرجير»..

أمسكت بطوق جلبابى استعداد لشقه من فرط الشعور بالعار قلت وأنا على وشك البكاء:

- «بيض ولفت؟! الرجل يؤكلنى حماما.. وأنا أعزمه على بيض ولفت؟! ياللهوان!»..

قالت أمى بكل بساطة:

- «كل واحد على قد حاله ياولدى».

شددت طوقى حتى تمزق بالفعل مقدار عقلة أصبع، وصحت صيحة مكتومة من الغل:

- «اليوم سوق! وكل شحاذ يطبخ اليوم لحما! وأنا أقدم لضيفى بيضا مقليا ولفتا؟! أين أضع وجهى ياأم؟!»..

تحيرت أمى، وفى تسليم بالهزيمة فكت عقدة منديلها المحلاوى الصدىء عن اثنى عشر قرشا حلفت بالختمة الشريفة أنها لا تحتكم من حطام الدنيا سواها كانت تدخرها لأمن ذى خطر. لهفت القروش منها وجريت متشمما أنفاسى، معى ثمن رطل من اللحم نحمد الله عليه فضل وعدل. يممت نحو السوق فلم أجد سوى

بقايا عظام وفضــلات فروشات الباعة. عدت كـاسف البال ياخال. لففت على دور الشارع دارا دارا أسأل صاحبة كل دار: «عندكيش حمام ياخاله؟»..

- «لا والنبى يابنى»..

فعدت إلى الدار اجـرر ساقى. جلست بجوار ضيـفى كأنى فى محزنـة أتلقى العزاء، فتارة يخـيل لى أن جلبابى مثقـوب من فوق مؤخـرتى بالضبط، وتارة يتـخيل لى أننى قـد تبولت على نـفسى فجأة، وتارة ثالثة أتخـيل أن ضـيفى قد رأى كل شـىء وأحس بكل شىء. الأرض راحت ترتفع أمـام عـينى وتنخـفض يابوى، وتلف، فرأيت من مكانى فى الحوش نسـوان الدار وقد انتهين من المندرة ووضع المسـاند وتجـهيـز الطبـالى وطشوت الغـسـيل والأباريق النحاسية والفوط جوارها وصوانى القلل، والشمس صرفت لونها الاصفر ولبست الأحمر المشتعل وهاهى ذى قد بدأت تتفحم وتذبل جمرتهـا المتقدة، وأخذ ضـيفى يبسمل ويحـوقل فى انتظار صلاة المغـرب. خـلاص يعـنى؟ سـأقع فى هذه الوحلة يـارب!.. تخـيلت نفـسى ساحـبـا ضـيـفى داخـلا به المندرة على الرجـال والحيـرة تغـرقنى تلخمنى لا أعـرف من شدة الحـرج على أى طبليـة أحود لنتطفل عليـها معـا متجـاهلين طبليتى!!.. فكادت الدمـوع تفر من عيـنى، وسمـعت صوت الطشطشـة فتـيقنت أن أمى قـد سيـحت السمن وطقشت البيض وقلبته فيه. شىء إلهى ذكرنى بابنة خالتى «نميسة» وهى امرأة تحـبنى وتعزنى كثيرا لأننى أحـمل شبها من

أمها المرحومة، وهى متزوجة فى قبلى البلد وكلما رأتنى عزمتنى على الإفطار وهددتنى بالغضب إن لم ألب دعوتها وكنت ـ تهربا من إلحاحها ـ قد حلفت لها لأحضر ذات لحظة طالبا الافطار بنفسى.

الله وكيل! ما أن تذكرتها حتى رأيت ابنتها الصبية مقبلة علينا توسع وربة الباب بردفها وتدخل صائحة: «سالخير ياخالتى». فنهضت مسرعا اليها. كانت تحمل على رأسها سلة كبيرة من البوص مغطاة بشاش، ميلت نحوى قائلة: «أمى تسلم عليك وتقول لك ما دمت لا تريد أن تجىء لتفطر معنا فافطارك يجىء لحد عندك». وتركت السلة فى يدى وانصرفت. قلت: «ياما انت كريم يارب»، ودخلت أجرى إلى أمى. رفعت الشاش فرأيت حلة كبيرة، فتحتها وجدت فضلة خيرك لحوما وطيورا وأرزا فأخذت السمن المقدوح من يد أمى ودلقته فوق الشوربة وقلت لها: «جهزى الصينية ياأم»، وعدت إلى الحوش وقد أحسست أن قامتى قد انعدلت ياخال، وجرت الدماء فى لحمى الناشف، وقلت لضيفى بكل ثقة: «تفضل معى إلى المندرة»، ومشينا فى الدهليز المستطيل نحو المندرة أكاد أقول ياأرض اشتدى ما فوقك قدى.

فى تلك الليلة ظللت ساهرا حتى شروق الشمس ياخال، غير أنها أشرقت على فى الطريق وأنا متوجه إلى مصر بدون نقود لتذكرة وبدون أى شىء. وكنت واثقا والله ياخال أننى سوف أصل بسلامة الله، كيف.. لا أدرى.

الجهات أربع

الأولة ـ فى الليل البهيم

شريط السكة الحديد يخترق بلدتنا يفصل الغرب عن الشرق. الغرب فى بلادنا أقوى من الشرق، لكن الشرق أغنى من الغرب. السبب أن أهل الشرق مجاورون للنيل مباشرة، يزرعون الارض أكثر من زرعة، وهى أجود أرض فى الناحية كلها، طما، باقور، ساحل سليم، المطيعة، أبو تيج، النخيلة، شو ضب، أولاد إلياس، البارد، المعصرة، العصاره، البدارى، كوم المغربى تحت الجبل الشرقى، وغيرها يابوى أرض يحلف الزرع بحياتها، وأهلهم كلهم مبسوطون وعال العال. الدور والباقى على أهل الغرب مثل: صدفة، ادرونكا، الزاوية، المسعودى، الزرابى، المشايعة، الدوير، كوم سفحت، أبو حجر، كوم سعيد، الوعاضل سلامون، الشناينة، النجع، الرياينة، البرية، العامرى، العزايزة، الغنايم، دير الجنادلة، كردوس، بنى فين، القطنه.. بلاد كلها يكثر فيها الفقر كلما كثر عدد الرجال وما أشد ما يكثر يوما بعد يوم، فكل بضع سنوات

تمتلىء البلاد برجـال جدد، بلا عمل ولا أمـلاك ولا أى شىء، فمن أين تأكل يابوى!؟

أراضى الشرق ومـلاكها يستخـدمون البعض بـتراب الفلوس أنفـارا وتملية وخـفراء وزرايبـية، وبـاقى الرجال يعـيشـون على الخطف والنهب والسرقة والاغتـصاب. شىء فظيع ياخال، لم ينقذ بلادنا كلهـا من جحافل الـصعيـد الزاحفـة سوى بدء السـفر إلى البـلاد العربيـة، حيث هاجـر إلى السـعودية والكويت والامـارات وليبـيا والعراق أعـداد لا حصر لهـا من المتعطلين الذين يشيـبون ليالى الصـعيد ويهزونهـا. كانوا يثيرون الرعب المتـواصل فى عز الظهـر الأحمـر لكنهم ـ صدقنـى ـ كانوا يؤنسـون وحشـة الليل. آلاف المتـعطلين المجـرمين تقـذف بهم البطون الخـصـبة والدمـاء الساخنة فى الصـعيد! بلادنا تحب سيـدنا محمد وتريده يتـباهى بهم يوم القيـامة بحق!. وإن شاء الله يوم تقوم القـيامة الحقيـقية ياخال فسوف تكون فى مصر!! فمنذ طفولتى وأنا متأكد أن الناس ستـأكل بعضهـا بعضا فى يوم قـريب صار على الأبواب! مـثلما حدث ذات يوم فى بلدة «بنى فيز»، حيـث تقاتل رجالها حتى أفنوا بعضـهم فناء تاما!!..

يبدأ مـوسم الخطف حينمـا تكبر الذرة فى الغـيطان. كل واحد يخطف له خطفة واحدة كبيرة يعـيش عليها بقية العام إلى أن يدبر لخطفة جـديدة. تجىء له جواسيـسه من الشرق قـائلة له أن فلان

الفلانـي من ذوى الأملاك سوف يـخرج فى السـاعة الفلانـية فى اليـوم الفـلانى متـوجـها إلـى المكان الفلانـى. لا يقع تحت طائلة الخطف الا الناس المهمـون التخاين، الذين يجىء من ورائهم خـير كثير مضمـون. يكون الرجل ماشيا فى حاله تحت جنح الظلام أو رداء القمـر لا يهم، فإذا بالأشبـاح تخرج له من بين عـيدان الذرة منقضة عليه ممسكة به تحت وابل من الرشاشات الهوائية المرعبة. ان كان في حراسة أحد فإن مصـيره معلق بنفاد الذخيرة من أحد الطرفـين، وان كان وحـده فانه سـيسلم نفسـه حتى لو أصـاب رصـاصه. يتكلون به على اللـه إلى مخـبأ بعـيد. يرسل الخـاطف واحدا من طـرفه يبلغ عـائلة المخطوف بشكل ملفوف، كـأن يكون هذا المرسل بائعا سريحا مثلا ويقول أمام رهط من القوم أنه سمع كذا وكـذا فى البلدة الفلانية. أهل المخطوف مـا أن يسمعوا الخـبر حتى يتكتـموه ويكفون فوقـه ماجورا، واذا ما سـألهم أحدهم عن مخطوفـهم فانهم يزعمون أنه مـسافر فى مشـوار وسـوف يعود، إنهم بالطبع لا يجـرءون على تبليغ البوليس، لأن الخـاطف بمجرد مـا يبلغه جـواسيـسه أن الخـبر وصـل إلى الحكومة يكون عليـه العوض فى المخطوف، سوف تختفى جثته فى مكان لا يعرفه أحد. ومن هنا فأول شىء يفعله أهـل المخطوف أن يبدءوا فى البحث عن أحـد يعرف الخـاطف لكى يتـفاهم مـعـه. كل مخطوف على قـدر مسـتواه تقـدر ديته.. مطلوب ألف، ألفـان، ثلاثة عشـرة.. يأخذها الخاطف حتى يطلق سراح المخطـوف، فى لحظة يختارها الخاطف،

يفاجأ أهل المخطوف بمخطوفهم يدخل عليهم الدار ذات لحظة، وان سألوه فلن يستطيع أن يصف لهم أى شىء عن المكان الذى خبىء فيه ولا وجه أى أحد، لأنه من لحظة اختطافه للحظة الإفراج عنه يظل معصوب العينين مكتوف اليدين يدخل له بالطعام والشراب أطفال صغار مجهولون في أماكن مجهولة، وقد يحدث الاتفاق على الإفراج فى بلدة غير التى تم الخطف فيها، وقد يتم الافراج فى بلدة أخرى بعيدة فى ساعة دامسة الظلام!..

مثل كل الأمهات فى بلدتنا كانت أمى تحفزنى دائما للمشى مع هؤلاء الولد، تقول لى:

- «قم فامض معهم مشوارا أو مشوارين بدلا من قعدتك هذه يكرمك الله بالعشاء».

ولم أكن جربت المشى معهم من قبل ياخال. وكنت أمشى قاصدا المحطة أركب منها القطار إلى مصر ولم يكن معى نقود أركب بها لكن عشمى فى الله كان كبيرا، أن أنحشر فى الزحام، ففى الزحام تتحرك يدى بكل حرية والناس ملهية فى كتمة الزحمة. دخلت محطة القطار، انحشرت بين الواقفين أمام شباك التذاكر كأن معى ثمن التذكرة. لمحت رجلا عفيا يمسك بيده جنيها كاملا، يدفع الناس بقوة لطيفة يزيحهم من أمامه يتقدم نحو شباك التذاكر يكاد يلامسه التصقت به مباشرة يابوى كأننى بقيته، ما كاد يصير أمام فتحة الشباك حتى ناداه ولد عمه من بعيد، وكانت

ذراعه لحظتـها قد تسربت بالـفعل من فتحـة الشباك راميـة ورقة الجنيه على الرخامة فى حين اسـتدار هو ليتكلم مع ولد عمه الذى راح يأخذ ويـعطى معه فـى الكلام. لحظتهـا كنت قد صـرت أمام الشبـاك مباشرة ورأسى الصـغيرة تطل على موظف التـذاكر من خلال الفـتحة، الذى نظر لى وللجنيـه المرمى أمامه قـائلا: «فين؟» قلت بسرعة: «سـيوط»، فقطع التذكـرة وجاء ببقية الجنيـه أزاحها أمامى فأخذتهـا وزرقت من بين الأفخاد والأرجل وانطلقت أجرى كـالريح. وكـان الزحام قـد لفظ صـاحب الجنيـه فـصار يحـاول الدخول فيـه من جديد والوصول إلى الشـباك ثانية، فيمـا يصيح جاعرا: «تلاته سيوط يابيه وبقية الجنيه! تلاته سيوط يابيه وبقية الجنيـه!». قلت لنفـسى: فـرجت ياولد، وفـتـحت رجلى فى المشى متدحرجا نحو سفح الطريق.

الثانية ـ الوقوع فى عرين النار

غصبا عنى وجدتنى بحذاء الجبل. كنت خرمانا فاشتريت ورقة دخان وتشوقت لكوبة شاى، فقلت للرجل الذى باعنى الدخان: «ألا يستطيع المرء أن يشرب كوبة شاى فى هذا الطريق الفقر؟». فنظر فى عينى مباشرة وراح يتفحصهما، ثم قال بهدوء العاهر: «يستطيع! طالما فى الطريق ناس فإنك لابد أن تجد فيه ماتحتاجه!». قلت: «ربنا دائما يوقف لنا أولاد الحلال!». قال: «تفضل! لف وادخل!»..

وكنت أظن أن العشة المربعة التى يجلس فيها على الطريق ويبيع السكر والشاى والدخان وابر الوابور والخيط والحلوى هى مجرد هذا المربع الصغير، فلما لففت فى الاتجاه الذى أشار لى عليه وجدتنى فى دار أخرى يابوى، بل وجدتنى فى مملكة: مثلث كبير من الارض فى منحدر خادع، مسور بالحديد والسلك أرضه تأخذ فى العلو كلما اقتربت منها. فلما دخلتها خيل لى أننى أدخل تحت الطريق فى سرداب متصل بالجبل الشرقى يمر من تحته لمسافة طويلة لابد أنه يكون من شق الفراعين أنفسهم ولا أحد سواهم يفوت فى قلب الصخور هكذا. ثم فوجئت بأننى فى مغارة

محفورة فى جذر الجبل على شكل فسقية مهولة تصلح أن تكون سامرا تحت الارض وتصلح أن تكون مدفنا للقوم كلهم. عشرات الرجال والنساء رأيتهم يجلسون جماعات أو اثنين يشربون الشاى والقهوة والقرفة العطرية ويدخنون الحشيش على الجوزة، وثمة من يقوم بخدمة هؤلاء جميعا من ولدان متحركين نشطين. ما هذا المولد يابوى؟. الرجل الطيب ظن بى خيرا، لابد أن منظرى خدعه فتصور أننى أريد ما يريده هؤلاء! أين أنا من هؤلاء يابوى؟!

استقربت صخرة مربعة جلست فوقها، رحت أتأمل فى هذا الخلق الذى لم أكن رأيته من قبل أبدا يابوى ولم أكن أعرف أنه موجود فى هذا المكان. جاءنى أحد الولدان: ساالخير ياأبو العم مساء النور أهلا وسهلا. تشرب ايه؟ قلت: كوب شاى من فضلك واحسانك. ما مرت دقيقة إلا وجاءتنى الصينية عليها براد خارج لتوه من صهد الرمل تفوح منه رائحة شاى طازج ومعه كوبة مع قطع من السكر وضعت القطع فى الكوبة وصرت أدلق من البزبوز فى الكوبة فوق السكر وأعود فأدلق فى البراد وأكرر حتى صار الشاى مربوبا مرغيا وآخر حلاوة. صرت أشرب وأدخن ونفسى مفتوحة لنفسين من الحشيش الذى بدأ يدخل فى نخاشيشى وينملها. شفطة شاى والثانية ورأيت ظلا يقف على دماغى ويصيح: «حسن ولد أبو ضب» فزعت ناظرا إليه، قلت: «خدامك.. أهلا وسهلا.. ياثلثمائة مرحبا». جلس بجوارى. منظره جدع محترم، يلبس الكشميرة والصديرى الشاهى، من الواضح أن جنبيه منتفخان بالمسدس وخزينة الذخيرة والمحفظة، عمامة كبيرة

بشال ناصع البياض حول طاقية بيضاء، جبين عريض مبيض وجهم، شارب مستنفر على الدوام باصبعين يحركهما فوق شفتيه الرفيعتين باستمرار قلت:

- «من الكريم؟»..

قال:

- «تهت عنى ياحسن ياولد أبى ضب».

قلت:

- «العتب على النظر! لا تؤاخذنى!»..

- «محسبوك زناتى»..

صحت فيه مقاطعا:

- «ولد مخيمر أبو ناهيه»

تبسم قائلا:

- «براوه عليك»..

قلت:

- ««أجاويد بنى فيز»..

قال:

- «الله ينور عليك.. كيف حال الجماعة؟!»..

قلت كأننى الماكينة:

- «بخير»

ثم تذكرت أن الجماعة الذين يقصدهم هم أولاد عمى الكبير، اذ أن «زناتى» هذا ولد عم زوجة عمى لزم، صببت كوبة شاى قدمتها له: «تفضل الشاى». فأمسك الكوبة بيد كبيرة تلمع فى أصابعها الخواتم الذهبية وقال: «تشكر يا أبو العم»، ثم شفط وهز يده الكبيرة باسما فيما يقول:

- «لكن كيف وصلت إلى هذا المكان ياابو العم؟! انك اذن لشقى خطير!!».

رفعت كفى مشهدا الله صائحا:

- «مظلوم والله.. إنما حودت لأشرب كوبة شاى وهذه أول مرة أخطو هذه العتبة! صدقنى ياأبو العم!»..

قال ضاحكا:

- «طبعا طبعا.. والا كنا رأيناك وعرفناك!!».. ففهمت أنه من أعيان هذه القعدة، وأخرجت علبة دخانى وقدمتها له قائلا: «لف لك واحدة»، فتناولها، ولاحظ أن شيئا كان لصيقا بها قد وقع منها على الأرض بجواره فمال وأخذه، فاذا هو تذكرة القطار. نظر فيها وقدمها لى قائلا:

«كنت مسافرا سيوط ولا ايه ياأبو العم؟»..

خفق والله قلبى ياخال، قلت بلجلجة:

- «لم يحصل نصيب ياأبو العم.. قطعت التذكرة وجريت لكن القطار كان أسرع منى وما نابنى إلا أن انطرشت فى الأرض!. فحلفت الا أسافر اليوم!»..

قال مشوحا بيده فى بساطة:

- «ولد عمى عـمل مصيـبة اليـوم من أجل تذكرة كهـذه .. كاد يروح فيها قتـيل لولا أن ربنا سلم! » .. زلطة خشنة انحشرت فى حلقى يابوى، وأنا أحاول أن أندهش قائلا فى استنكار:

- «اليوم اليّوم !!» ..

قال:

«منذ دقـائق!.. جـاءنا الخـبـر أنه يتـعـارك فى المحطة.. جـئنا نجرى.. لم نـجده.. لكننا وجـدنا جثة وهبه أفندى مـوظف التذاكر بالسكة الحـديد.. ممددة على رصـيف المحطة مـشـجوجـة الرأس مـتورمـة الوجـه تئن تتـأوه بين الحيـاة والموت.. وبعض رجـال آخرين من زملائه منهم من تهشمت أضلاعه ومن تكسرت أسنانه ومن جدع أنفـه ومن انفتح حـاجبـه!!.. سألنا مـا الأمر ياناس؟.. قالوا أن ولد عـمى أعطى جنيهـا لوهبه أفندى وطلـب ثلاث تذاكر لأسـيوط ويزعم وهبـه أفندى أنه لم يعطه شـيـئا.. كلمـة من هنا وكلمة من هـنا.. هاج ولد عمى واشتـغل ضربا فى الجـميع ونط هاربا نحـو الجبل.. فظننت أنه ربما يكون قـد جاء إلى هنا فـجئت أسأل عنه!!»..

غاص قلبى فى ضلوعى ياخال، صغر وتلاشت دقاته، قلت فى صوت مرتعب فى ولوله:

- «يه.. يه.. يه.. لا حول الله.. له فى خلقه شئون»..

وصرت أتصيد عين محدثى باحثا عن شىء فيها يكون قد وشى بى، فلما رأيته يستغفر معى فى واد بعيد عنى وجدتنى أقول:

ـ «أمن المؤكد أنه قد يجىء إلى هنا للآن!! أم تراه يهرب فى مكان بعيدا!؟».

قال ناظرا إلى كأنه يستعبطنى ولكن بلطف:

ـ «لا مكان للهرب سوى هنا يا أبو العم!»..

قلت برعدة خفيفة:

ـ «نحن إذن فى قلب الجبل الآن!!»

قال كرجل يعلم ابنه خطوط الطريق:

ـ «نحن الآن فى مقهى الجبل.. هذا هو المكان الوحيد الذى يعيش فيه المطاريد حياتهم الطبيعية بعيدا عن الأعداء!.. هذا المكان الذى يشبه الفسقية بسراديبها هو الخلاء الذى يعيش فيه المطاريد بحريتهم.. هو مكان اللقاء المضمون بين المطاريد وحريمهم وعشيقاتهم ومصادر دخلهم وتموينهم.. أصحابه المطاريد أنفسهم وكل الولاد المشتغلين ها هنا من أبناء المطاريد ولدوا هنا وربما ألقيت بذرتهم ها هنا أيضا ذات فجر بعيد!!.. وليس لغريب أن يقتحم حصار هذا المكان مهما كانت قوته ودباباته وطائراته، لأن المكان له عشرات السراديب السرية لا يعرفها إلا عدد محدود من عتاة المطاريد المعتقين فى الجبل، وليس كل من يعرفها يستطيع أو يجرؤ على السير فيها وحده لأن بعضها يشبه بطون ثعابين

خرافية متعرجة لا نهاية لها!. بعضها موصل إلى خلاء بين سفوح وبعضها موصل إلى عنق زجاجة مسدودة حيث لا سبيل للتقدم أو للقهقرى!. وأما إدارة المكان فيتولاها عشرة من عتاة المطاريد يصرفون عل مونتها ويتقاسمون غلتها!. يرأسهم عن جدارة ذلك الرجل صاحب كشك البيع الذى دلك على هذا المكان!.. لقد أرسلك وهو واثق انك صيد ثمين لأتباعه الجالسين ها هنا!!.. فكل من يجلس أمامك وحواليك الآن هم من عتاة المطاريد!. رجالا ونساء!.. هذه الحورية الملفوفة فى جلباب أسود وطرحة سوداء أكبر مهربة مخدرات فى الصعيد الجواني وهاربة من أحكام تصل إلى قرابة مائة عام!. وهى تعيش حياتها ها هنا على أكمل وجه وتدير أملاكها وريع أراضيها على أتم ما يكون!. لا ينقصها من متع الدنيا أى شيء!. وبعد قليل سوف تنصرف من هنا إلى عشة مجهولة بين سفوح الجبل الشرقى تفوق سرايات الحكام فيها مراتب وألحفة ووسائد وأسرة ودواليب وأرائك وأطباق وحلل ونار ولحوم دواب!.. وهؤلاء رهط من رجالها أما زوجها فعضو فى البرلمان يزورها كلما أكله ايره!.. وكل من يجلس ها هنا بينه وبين الحكومة ثارات لاتنتهى!.. حتى أنا نفسى كما لعلك تعرف لى بين المطاريد مكانة سوف تلمسها، فلقد هربت من السجن ثلاث مرات بثلاث جرائم قتل وفى كل هروب قتلت حارسا!.. أمك والله داعية لك!.. لعله كرم أعمامك الفقهاء هو الذى ألقى بى فى طريقك قبل أن يكتشف أمرك ها هنا فيجردوك من كل شيء ويحكموا عليك بالسجن فى الجبل مدى الحياة يسخرونك لخدمتهم تحت

حراستهم فإن تمردت قتلوك أو توهوك فى الجبل شريدا لا تعرف لك رأسا من ذنب حتى تأكلك الوحوش والطيور الجارحة والحشرات السامة أو يلتف حولك ثعبان من ثعابين الجبل المتوحشة!!»..

اعطنى عقلك يابوى، فان عقلى قد ذهب. لا ادرى كم لبثت من زمن غائبا عن الوجود يحملنى صوت «زناتى» يشيلنى ويحطنى ويبعثرنى فى شعاب الجبل تدوسنى أقدام ثقيلة تطحننى ضروس بعد تمزيق أنياب. لكن «زناتى» حين لكزنى فى كتفى بعلبة دخانه المعدنية الثمينة شهقت كأننى استرددت نفسى وعدت روحا فى جسد. ضحك «زناتى» وغمزنى بالعلبة آذنا لى أن ألف لنفسى سيجارة، وكان يضحك قائلا فى سخرية:

- «هم يضحك وهم يبكى.. واحد يقتل من أجل تذكرة قطار.. وواحد يرمى بنفس التذكرة نحن ندفع عمرنا ثمنا لتذكرة كهذه قد لا توصلنا إلى أى جهة.. على الإنسان أن يمضى فى هذه الحياة بغير تذكرة!. لا فى القطار ولا فى الهباب!. حين يزنقك الحق ادفع وتخلص من الزنقة والسلام!. ما بال الواحد منا يضيع وقته فى قطع تذكرة!. المهم أن تلحق بالقطار ياأبو العم!. وما تنفع التذكرة من فاته القطار!»..

وجاءنا براض شاى جديد لم نطلبه. أخذت أتلفت حوالى كأننى أخشى مقدم الموت. وحقا نطق المثل: من خاف من الذئب يطلع له، فاذا بالعملاق الذى سرقت جنيهه يدخل علينا كالهول.

الثالثة ـ المطاولــة

نهض «زناتي» فاستقبل ولد عمــه العملاق. أما أنا فلم أقو على النهوض ياخال..

تخشـبت مفاصلي، صـرت أرتعش كأني في مهب ريح عـاتية ياخال، أتوقـع أن يهجم على يبرمني كما يبرم المرء لقمة من رغيف ويحـشرني فــي حنكه يفرمــني بأسنانه. على أنه جلس بجـوارنا وجعل ينظر في وجهي متفرسا كالمتوجس، ووجدتني أقول له:

ـ «هدىء أعـصـابك ياخـوي.. الدنيـا لم يعـد فـيهـا ذمـة ولا ضمير!!»..

فشوح في غضب صامت كأنه يقول: «دعنا من هذا الأمر ومال على ولد عـمه، فـعـرفه ولد عـمه بي، فنظـر لي من تحت جبـينه مغتصبا ابتسامة مـرهقة وقال: «أهلا وسـهلا بيك»، فقلت بحماس شــديد: «ياتلتـمــائة مـرحبــا»، وهززت يدي جـوار رأسـي ونحـو صدري عدة مرات في امتنان شديد.

نظر «زناتي» إلى أحـد الولدان بطرف عـينه، فلم تمض دقـيقـة حتى جاء بالجـوزة والحجارة المرصوصة بالدخـان المعسل. أخرج

زناتى من جـيبـه قطعة حـشيـش وراح يوقع منها بإبهـامه فـوق الحجـارة، والولد يسقينا، مـا هذه الأبهة ياولد؟ ومـا هذه الحلاوة وهذا الروقان؟ هكذا رحت أسأل نفـسى وأردد مستعبـرًا: صحيح والله قوله تـعالى «وفى السمـاء رزقكم وماتوعـدون». ولقد والله تخيلت أننى صرت ملكا يجلس على صـخرة العرش. مال «زناتى» على ولد عمه وقال مشيرا إلى:

ـ «مكتوب له لقمة عيش فى مشوارنا»..

خفت وانبسطت فى نفس الوقت. وقال ولد عمه:

ـ «كل شـىء نصيب»..

فقال «زناتى»..

ـ «لقد سـاقه الله إلينا.. ما عليك الا أن تتـفرغ لقطع الطرق إلى البلد!»..

جاء الولد بحـجارة جديدة ونار وجـوزة جديدة فكف «زناتى» عن الكلام وأخـذ يرص الحـشـيش، وأخـذنا نشـرب فى صـمت، ومخى سارح فى خبر هذا الكـلام الذى سمعته الآن من «زناتى». فلما انصرف الولد ليـغير ماء الجوزة والحجـارة ويجدد النار مال «زناتى» نحوى وقال:

ـ «فيك من يكتم السر؟..

قلت:

«فىّ»!.

قال: «أعرف أنك رجل ولد رجل»..

قلت: «تشكر.. من أصلك!»..

قال: «أوراءك شغل من هنا لحد الغد؟»..

قلت: « من هنا ليوم القيامة!»..

قال: «حلو»، ثم تمهل برهة وأضاف:

ـ «مشوارنا فى بلدة أبو حجر.. نريد أن نخطف قسيسا فلاحا!.. هو تقريبا أغنى قسيس فى البلدة!»..

قلت:

ـ البلدة كلها قسس.. وكلهم أغنياء!»..

قال:

ـ «القسيس بنيامين أغنى أغنيائها»..

صحت قائلا:

ـ «بنيا.. و.. ى.. ين.. يه يه يه.. أما وجدتم غير بنيامين تخطفونه ياأبو العم؟!.. انه حويط جدا يا أبو العم.. لا يخرج من البلدة أبدا.. ليلا أو نهارا.. واذا مرض فالطبيب يجىء لحد عنده!!»..

قال زناتى: «لكنه يخرج ويتحرك داخل البلدة»..

قلت وقد هالنى والله قوله:

ـ «كيف ياأبو العم تخطفونه مـن شوارع بلدته؟! أن البلدة كلها من الأقبـاط فردا فردا.. ليس فـيها مسلم واحـد.. حتى مواشـيهم وكـلابهم ودوابهم هى الاخـرى تدين بدينـهم وتحـمل شـكلهم وطبيعتهم!! صحـيح أنها بلدة تعيش بمفردها معزولة وسط دائرة كلها من المسلمين.. ولكن ما تـنسى يا أبو العم أنهم أقباط أقوياء!. عندهم سلاح كبير وذخيرة كثيرة وكهن أكثر ولؤم شنيع!!»..

ابتسم «زناتى» وقال:

ـ «غدا أنسب يوم لتنفيذ خطتنا.. فـرجال البلدة كلهم يسرحون إلى الغيطان لجـمع القطن ولن يبقى فى البلدة طول النهـار سوى الحريم والعجائز تخيفهم بضع طلقات!!»..

ميلت رأسى على خدى ورحت افكر فى كلام «زناتى»، ولم أكن وصلت إلى شاطىء أستقر عليه بعد حين عاجلنى:

ـ «معنا بإذن الله ياحسن؟»..

خـفت حـدّة التردد، وأيقنـت أنه قد يقـتلنى اذا انسـحبت من الموافقة، فقلت:

ـ «الله معنا جميعا بإذن الله»..

ولقد شعشع والله الحشـيش فى دماغى وصور لى أن «طلعة» كهذه تجىء لابد بملبغ كبير محترم. دخل فوق المساء مساء جديد، وفوق السـهرة سهرات الـمـع وأعمق حيث أمتـد أمامنا خيـر ،نعيم

كثير من مأكل ومشرب وتفكير فى الخطة المرسومة مرات ومرات ومرات نعدل فيها ونعدل التعديل ثم نعود فنلغى التعديل من أساسه ثم نعود فنعتمده بعد تعديل بسيط. كنا سبعة رجال: اثنان بالمدافع الرشاشة على مدخل البلدة، اثنان فى الشارع العمومى بالمدافع الرشاشة أيضا، ثلاث بالمدافع الرشاشة يهجمون على دار القسيس «بنيامين» الفلاح، مهمتهم انتزاعه منها بالحيلة أو بضغط السلاح اذا اضطرهم!!..

القسيس «بنيامين» الفلاح عجوز زكى، قصره محاط بحديقة ذات سور مبنى تحتوى على حظيرة كبيرة للمواشى والدواب، وهو يخرج من القصر ليتمشى فى الحديقة الواسعة يعنى بشئون مواشيه يقلم الأشجار يروى الزرع والورد، لا يقترب من باب سور الحديقة ألا ليفتح الباب لأحد من خدمه أو فلاحيه، ولا يفتح الباب الا بعد أن ينظر من خرم دقيق فى حديد الباب السميك ويطمئن إلى أن الحارة كلها أمامه خالية الا من الطارق الذى يعرفه، ولن يفتح إلا اذا عرف من تصادف مروره بالحارة لحظة الطرق وقد لا يفتح إلا بعد أن تفرغ الحارة تماما الا من الطارق، ثم أنه لا يخرج من الباب إلا مخفورا بحراسة أشد من حراسة العمدة، أما الذين يعملون فى معيته فكلهم من المقربين إليه جدا وممن تربوا على يديه وآمنوا بالمثل القائل: من يأكل من خبز اليهودى يضرب بسيفه، وبعض هؤلاء يحمل فى جيبه نسخة من مفتاح باب سور الحديقة المطل على الحارة!!..

ذلك ما كنت أعرفه عن القس «بنيامين» وسمعت من زناتى» ورجاله ما عرفنى به أكثر. ألهمنى الله بفكرة طيبة ياخال، قلتها لـ «زناتى».

ـ «سمعت من ناس كثيرين فى بلدة أبو حجر أن امرأة خفير القسيس تدخل الحظيرة صبيحة كل يوم لتحلب الماشية.. وتفتح باب سور الحديقة بمفتاح تحتفظ به مربوطا فى ضفيرة شعرها.. فعلى أحد منكم أن يتصيد امرأة الخفير هذه وهى خارجة من دارها فى الصباح فيكتفها ويكمم فمها ويأخذ منها المفتاح ويخفيها هى فى مكان بعيد!!»..

وصمت ناظرا فيهم لأرى وقع الفكرة على وجوههم، فاذا بى أرى اعجابا واستنكارا معا نظرة واحدة، وابتسم «زناتى» وقال:

ـ «فكرتك حلوة ياأبو العم ولكن فيها معيلة عدم المؤاخذة!.. المرء لايبدأ العملية بالضرب من أولها والا جلب على نفسه الخطر وباظت عمليته!.. نحن يا أبو العم لا نريد الطخ واصل.. نحن لانطخ الا عند الاستغباء.. انما ياأبو العم دعنا نحلى فكرتك هذه.. فنرسل النداهة من هنا لزوجة الخفير!!»..

وقف شعر رأسى، قلت:

ـ «النداهة!! الجنية؟!»..

قال ببساطة واثقة:

ـ «نعم.. النداهة التى يخيفونك بها!!»

قلت ببساطة:

ـ «أعندكم ها هنا نداهة؟!»

قال مشوحاً نحو الفراغ الممتد فى سقف الجبل:

ـ «عندنا كل عفاريت الأرض!!»

اعتدلت فى قعدتى قائلا:

ـ «عال! عال! منصورة بإذن الله!»

واعتدل «زناتى» هو الآخر وقال:

ـ «النداهة تذهب بعد دقائق إلى دار الخفير وتنادى على زوجته باسمها.. تدحلبها وتخدرها وتسرق المفتاح من ضفيرة شعرها وتلففها بعض أماكن غريبة وتعود بها إلى دارها فتبقى نائمة حتى العصر نكون قد انتهينا من شغلنا!!»..

استحسن الجميع الفكرة، وواصل زناتى موجها الكلام إلى أنا:

ـ «ونجىء لك بثوب كثوبها.. تلبسه وتدخل الحظيرة كأنك هى.. تبدأ فتحلب الماشية.. وحين يجىء القسيس بنيامين ليتمم على الحليب تمسك به وتكتفه وتسلمه للثلاثة الواقفين بالباب يدا بيد!».

تململ ولد العم ونطق بعد صمت طويل لكن فى ضجر:

- «مادام المفتاح يصير فى يدنا.. ما الداعى لمسألة أن يدخل الحظيرة ويحلب المواشى؟!.. فلندخل عليه ونمسك به من قلب فراشه ونتكل على الله!!».. لكزه «زناتى» فى جنبه بقوة، وقال:

- «مجانين نحن! نرمى بأجسادنا فى مخدع الذئب! من أدرانا؟ انه لابد مستعد لأن يغلق علينا الباب فنأكل العلقة المودية إلى الموت! الأفضل يابو العم أن يفعل حسن ماقلناه بالحرف الواحد!»..

ومن فوره قام، استقضى لى ثوبا نسائيا أسود وشالا أسود، وفى الحال ذهبت «النداهة» إلى ماكينة القس «بنيامين» التى يسهر خفيره عليها طول الليل، فأغرته بنفسها حتى اندلق على صدرها، فخدرته وتركته سطيحة تحت تعريشة تبعد عن الماكينة بمسافة هائلة. ثم ذهبت «النداهة» لدار الخفير فنادت على امرأته وأخبرتها أن زوجها يطلبها الآن لأمر ضرورى يتعلق بخير جاءهما يريدها أن تحمله معه إلى الدار. فخرجت معها الولية فعلا، فصارت تسليها بالكلام وتشممها المخدر حتى وصلت إلى ماكينة المياه جثة تتطوح فى الهواء. نيمتها «النداهة» بجوار الماكينة وفكت المفتاح من ضفيرة شعرها وعادت به إلى «زناتى» والشمس لم تطلع بعد.

الرابعة ـ المحاولة

انطلقت أجرى بالمفتاح ومن خلفى ـ على مـبعدة قليلة ـ الثلاثة المدججون بالسلاح، الذين سيقتحمون الدار لدى صيحتى. وصلت الى دار القسـيس «بنيامين»، فـتحت الباب، تسـللت إلى الحظيرة، ولكن مـا كدت أقـتـرب من المواشى لأحلبهـا حـتى ضجـرت منى ونفرت وصـارت تكسكس كلما لمستـها وتنزاح هنا وهناك وتلغط بالنعـيـر، وكنت أعـرف أن هذا سـوف يحـدث لأن المواشى تشم رائحة من يعتـاد حلبها ولا تحن الا اليه، الا اذا كان الآخـر حريفا، لكننى لم أكن أتصـور أن هذه الحركة الـبسيطة سـوف تلفت نظر «بنيامـين»، اذ أننى رأيت خيالـه يقترب من باب الحظيـرة قبل أن ألمس الماشية بيدى، ثم اذا به يتوقف في الحال عندما سمع صخب الماشـية المعـبر عن عـدم ترحيبـها بى مما أكـد لـ «بنيامـين» أن شخصـا غريبا قد اقـتحم الحظيرة، ورأيت خيـال يده وهو ينكسر ممتدا في جيبـه وخيال كتلة «المسدس» تعبر فـوق الارض مسرعة لتسـتقر بجوار قـدمه، فانكمـشت على نفسى تحت أقدام الماشـية أخذا وضع الاستـعداد لأى شىء. رأيت دماغ «بنيامـين» يميل عن

المحتـجب وينظر داخل الحظيرة متلصـصا، وقعت عـينه فى عينى مباشرة فأصابه الهلع واسـتدار على الفور يجرى. اندفعت أجرى وراء مـحاولا اللحـاق به. كان أسـرع منى ياخال، فـدخل القصـر وأغلق الباب وراءه، واذا بمـن يخفرنى من الخلف ينشـن على قفل الباب بطلقـتين أصابت احـداهما القسـيس فصرخ فى حـين تهتك مكان القفل وانفشخ البـاب ورأينا القسيس جريحا يجرى مـتقافزا على السلم الخـشبى العريض ممـسكا بموضـع الجرح بيـده وباليد الأخرى يسـتدير خطفا ليطلق تجـاهنا بعض الطلقات حـتى نفدت ذخيـرته، وفوجئنـا به يتسلل عبـر شرفة السلـم فى الدور الثانى ليحتمى بدورانها، فحاصره رصاصنا داخل هذه الشرفة، وطلقات الرصاص ترد عـلينا من جمـيع انحاء البلدة على سـبيل التـهديد، وأراد القسـيس أن يعبر الـشرفة من الخـارج إلى شرفة الحـجرة المجاورة ولهـا هى الأخرى افريز من الحـديد المشغول، قفـز، كاد يهوى، أمسك بحديد الافريز وصار مـعلقا فى الهواء، فاندفعنا اليه وجذبناه من قدمـيه بقوة فهوى بين صـدورنا، فانطلقنا نجرى به تحت وابل من الرصـاص المتطاير مـن أماكن مـجـهولة. وكـانت الركائب فى انتـظارنا على أول الشارع فاقلتـنا مسرعـة فى اتجاه مكان مجهول من الجبل حيث اختفى «بنيامين» وأفقت على أننا قد عدنا نجلس فى المغارة ضاحكين كـأن شيئا لم يكن. وفى عز الليل أعطانى «زناتى» عشرة جنيهـات بكاملها وقال لى: «اتكل على الله أنت.. لا شأن لك بما حدث ولا بأى شـىء آخر»..

فعرفت أنه يأذن لى فى الانصراف، فمضيت حين أحسست أنه يريد أن ينصرف إلى شأن من شئونه الكثيرة. وكنت فرحا غاية الفرح، ليس بالجنيهات العشرة يابوى، ولكن للعملية فى حد ذاتها ياخال. وكنت أود البقاء مع «زناتى» فى هذه المملكة الساحرة، ولكننى مع ذلك سمعت صوتا بداخلى يقول لى أننى لابد من سفرى إلى مصر قبل ضياع هذه الفرصة. واتخذت طريقى نحو محطة السكة الحديد.

فى عين العدو خمسة

الأولة ـ صورتان ليستا على الحائط

عند مزلقان محطة الزيتون سألت عن قهوة المعلم «دحروج السنطاوى» الشهير بظريف، فدلونى عليها، فاذا هى أشبه ما تكون بزنزانة غرقانة فى أرض حتى الحزام، ومدخلها من وراء سور المحطة خبط لزق.

يه.. يه.. أهذه هى قهوة ظريف؟ يمين بالله أن عشة النقطة الثابتة التى يبيت فيها الخفير النظامى على مفارق الطرق لأحسن منها. غير أنه الصيت ولا الغنى.

جعلت أهبط الدرج وقلبى منقبض والله يابوى، كأننى أدخل فسقية للدفن. وقد عجبت والله لناس محترمين كالمعلم «فرهود رمضان» ورجاله كيف يجدون هنا راحتهم. مقاول غير الذى أخبرنى عنه «شندويلى»، يلعب فى زكائب من البنكنوت، كيف يجعل من هذه المقبرة مقرا له، يلتقى فيه برجاله وأنفاره ليقبضهم أجورهم ويوزع عليهم العمل؟.. وأنا مالى يابوى؟. فليجلس حتى على كوم السباخ ما دامت المياه البنكنوت تجرى فى يمينه

وشمالـه. هذا ملك نظمه سيده سـبحانه وتعالى، فـاللهم اكتب لنا لقمة عـيش من يد المعلم «فرهود رمضان» مـثلما كتبـته لولد عمى وأهل بلدى، كل واحـد قابـلته قـال لى: عليك بالمعلم فـرهود! وكل عـاطل من بلدتنا يـقولـون له: اجـرى إلى المعلم فـرهود لا تعـود خائبا!.. قلت: فلأجرى أنا الآخـر اليه ولابد أننى واجد شغلا لديه، اذ هو يأخذ مقاولات كثيرة من الجيش المصرى ومن الأهالى ومن كل الشركـات والهيئـات والوزارات، فالشغـل عنده اذن لا يتوانى وكل طالب نوعا من الشغل يجده عنده.

بالصـلاة على النبى خـيـر باذن الله وفـيهـا عـيش. هكذا قلت لنفسى حـينما لمست قدمى قطعة خـبز مرميـة على الأرض بجوار العتبة، ملت عليهـا فالتقطتها فقبلتها ثلاثا ملامـسا بها جبهتى فى كل مرة ثم وضعتها فى جيبى.

النصبة كانت فى مواجـهتى مبنية بالقيشانى ورخامـتها نظيفة لامعة وكذلك الحوض والصنبـور النحاس والأكواب التى انكفأت. خلف النصبة لم يظهر أحد. أما المقهى فمستطيلة من الداخل تتسع لمائتى شخص بالراحة، والـترابيزات العتيقـة بعوارضها الخشـبية الكالحـة، الطقاطيق الملتـوية الأقدام المهـيضـة المفعصـة، الكراسى المصنوعـة من الخـشب والقش متـسـاندة من فرط الـتهـالك على الحوائط وعلى بعضها البعض، كلها كلها متناثرة هنا وهناك وليس من أحد يوحد الله اللهم الا قطة شقيانة كحيانة رقدت على كرسى فاردة جسمها عن آخره ومستغرقة فى نوم عميق.

رقص قلبى ياخال وانتفض بشدة، فقلبى دائما يرقص وينتفض هذه الانتفاضة التى لا أعرف ان كانت فرحا أم خوفا، عندما أجدنى فجأة فى محل ناس آخرين وليس معى أحد، اذ يشرع دماغى فى الحال فى التنشين على أثمن شىء موجود يمكن أن ألهفه بسرعة وأختفى فى الحال قبل أن يدركنى أحد. تطايرت بصاتى مبحلقة فى كل شىء بسرعة رجفانة، أخذت الرعشة تمشى فى ساقى كالعادة. لم يكن ثمة من شىء ها هنا يستحق أن يسرق على كل حال سوى بعض الأكواب والبراريض، أما الحوائط فكانت عارية الا من بياض الجير الكالح الخشن، وعلى الحائط الخلفى للنصبة صورتان مما يباع مع المجلات بالألوان واحدة للرئيس ابو عبد الناصر والأخرى للمشير أبو عامر، الرئيس ينظر نظرة ناشفة مرعبة لشخص مجهول لعله العدو الصهيونى البريطانى الذى يحكون عنه فى الراديو والجرانين، شاربه تحت أنفه المستطيل يتكتم بين شفتيه سرا شنيعا.. أما المشير فإنه يبتسم ابتسامة سبهللة وفى عينيه نظرة دبلانة نائمة متساهلة مليئة بالود المشكوك فيه ياخال كأنها تقول لك أفعل من وراء ظهرى ما تشاء وابسط نفسك كيف تشتهى فأنا عارف ومتغامض لكن اذا استغفلتنى مصيبتك سوداء. خيل لى والله ياخال أن سعادة المشير يكاد ينطق قائلا لى: الهف ما تشاء واجر وان لم تجد أمامك شيئا يستحق اللهف فابحث تحت النصبة لعل وعسى. كدت أفعل والله ياخال لكن نظرة أبو عبد الناصر كانت تسمرنى فى مكانى وترعشنى وتكاد تنطق هى الأخرى قائلة لى: اياك اياك

وبتاع الناس فاحترم نفسك وابق بأدبك تأكل عيشا بعرق جبينك أو فانصرف محتشما بدلا من التهزىء وقلة القيمة.

أما عقلى فقد قال يابوى: ياولد انت قادم تبحث عن لقمة عيشك فلماذا تفكر هذه الأفكار التى تغضب الله؟ اللهم أخزك ياشيطان.. ثم صحت: ياأسيادنا ياللى هنا! ياخلق! ياملايكه! فاذا بصوت يرد فى جفاء وخشونة:

ـ «عايز ايه ياجدع أنت؟»

ارتعدت ياخال، لففت حول نفسى باحثا عن مكان الصوت فلم أجد أحدا. قلت لنفسى: ليس من المعقول أن الملائكة هكذا تقول: شكل للبيع. وقلت مازحا:

ـ «أظهر وبان عليك الأمان».

عاد الصوت مرة أخرى يرن رنينا عميقا:

ـ «عايز إيه وبلاش غلبة؟»

آثار النوم كانت عالقة بالصوت. جلست على أقرب كرسى وقلت:

ـ «عايز واحد شاى»

فإذا أنا بمارد يتمطى متسللا من تحت النصبة يدعك فى عينيه يتثاءب بصوت كالعواء. سحب السخان الكبير من فوق الرمالة، عدل كوبا وضع فيه قليلا من السكر وصب فوقه الشاى، أشار لى

بذراعه الطويلة قـائلا: «اتفضل»، ولكن بلهجـة من يقول: «اطفح». نهضت واقفا وذهبت إلى النصبة لآخذ الشاى فنظرت للرجل جيدا فرأيتـه طويلا نحيفـا، وجهه مـستطيل ملىء بالأخاديد المشـحونة بالقهر والشقاء وكبر السن، لكن فى عينيه طيبة شديدة ويكتم بين شفتيه الرفيعتين خفة دم ظاهرة.

لامـست الكوب بأصابعـى فوجـدته ساخنا فـتـركتـه منتهـزا الفرصة للوقوف مع الرجل. كان معى سيجارتان معوجتان فعدلت واحدة وقومتـها وأعطيتها له، ووضعت الأخرى مـعوجة فى فمى. قلت له: ـ

ـ «مش دى قهوة المعلم دحروج السنطاوى برضة»

أشعل ورقـة من تحت الرمالة أشـعل بها سيـجارته ثم قـربها منى قائلا من خلال الدخان:

ـ «أنا المعلم دحروج السنطاوى يلزم خدمة؟»

ضـحكت كأننى لا أصدقه:

ـ «المعلم فرهود رمضان يقعد هنا؟»

قال:

ـ «عايز منه إيه؟»

قلت:

ـ «عايز أشتغل»

قال مشوحا بكوب الشاى كأنه يطردنى:

ـ «تجىء له هنا بعد صلاة المغرب»

جعلت أشرب الشاى فى غيظ. قال الرجل بعد برهة كأنه صار من الآن مسئولا عنى:

ـ «عندك مكان تبيت فيه؟»

قلت على الفور:

ـ «لا والله يا أبو العم.. أنا من الغنايم قبلى وقادم لتوى ولا أعرف أحدا هنا»

هز رأسه فى يأس من سمع هذه القصة آلاف المرات، ثم شخط فى صائحا:

ـ «ماعلينا.. ماذا ستفعل؟»

شوحت قالا فى ضيق:

ـ «أرض الله واسعة ياأبو العم.. ومن يقصد الكريم لا يضام»

صب لنفسه كوبة شاى صغيرة كالكستبان شفط منها شفطة ومن السيجارة شفطة، رفع ذراعه اليمنى مشيرا إلى اتجاه المزلقان خلف المقهى:

ـ «هنا شادر بطيخ صاحبه الحاج رفقى وهو طيب وصعيدى مثلك من قديم الأزل! ينام عنده ولد عمك وبلدياتك الصعايده وكلهم ممن لا أقارب لهم! ستراه قاعدا أمام شادر البطيخ حتى

الصبح! قل له انك تشتغل عند المعلم فرهود وأعطه خمسة قروش فيدعك تدخل وتنام داخل الشادر! وإن دفعت له قرشين اثنين يدعك تنام بجواره فى الخلاء ويحرسك هو حتى الصبح».

أحببت الرجل يابوى، شكرته على هذه الخدمة الكبيرة ورحت أشرب الشاى على مهل طامعا فى خدمة أخرى كهذه تقع من الرجل أمامي فانتفع بها. لكن طفلا صغيرا صاح من أعلى السلم طالبا ستة شاى فى الأجزخانة. فاستدار المعلم «دحروج» وصب الشاى فى الأكواب الستة. فبسرعة قمت أنا بسحب الصينية ورصصت فوقها الأكواب ثم ملأت كوبين بالماء ووضعتهما على الصينية قائلا: «أوديهم أنا». فابتسم قالا: «أنت قهوجى؟».

قلت: «تعلمت من المعلم شندويلى». قال: «بتاع مصر القديمة؟».

صحت فى فرح شديد: «تعرفه؟». قال فى فرح أشد:

ـ «عشرة عمر! اشتغلنا سويا فى الفاعل وفى كل بلوى»

قلت:

ـ «عال! عال! كسبنا صلاة النبى!»

وأحسست بأننى سيكون لى عشرة طيبة مع المعلم «دحروج» فسحبت الصينية بالأكواب وشرعت أمضى قائلا: «فين الاجزخانة؟».

قال: «هنا»، وأشار إلى جانب المقهى، فحملت الصينية ومضيت حتى أوصلتها إلى الأجزخانة وعدت، لأجد المعلم «دحروج» يلف

سيجارة وضح لى أنه يحشوها بالحشيش، ففرحت كل الفرح يابوى، قلت له: «مساء الفل يامعلم». بص لى من تحت جبهته المنكسة قائلا: «تشربه؟». قلت: «أشربه». فأشعل السيجارة وجذب منها نفسين عميقين ثم قدمها لى، فسحبت نفسين أعمق، وأعدتها اليه، وهكذا راحت تنتقل بيننا الأنفاس العطرة حتى انتهت السيجارة بنغمشة فى تلافيف مخيخى فعرفت أن المعلم «دحروج» حشاش قرارى وصاحب قرارى أيضا. قضيت معه أحلى عصرية، دار بيننا الكلام الطلى لا يقطعه إلا خروجه لتوصيل طلب، عرفت المعلم «دحروج» كأننى تربيت معه وهذا أحلى ما فينا يامصريين يأولاد العرب: المعلم «دحروج» له أربعة ولدان صبيان موظفون فى الدولة أحدهم وكيل وزارة العمل وأمين وحدة الاتحاد الاشتركى عن الحى، وخمس بنات متزوجات من كبار التجار وكبار الموظفين، له أربع عتبات ملكا، كل عتبة تفتح على خمسة أدوار وسبعة أدوار وكل دور يفتح على أربع شقق وخمس، كما أن له ـ فضلة خيرك ـ أرضا زراعية فى بلاد الأرياف نواحى بلدته السنطة فى الوجه البحرى.

عرفت بين ما عرفت أشياء كثيرة عن الحاج «فرهود رمضان» أشهر مقاول عمومى فى هذه الناحية كلها: هو فى الأصل لم يذهب إلى مدرسة، اشتغل عتالا فى ميناء «أثر لنبى» أيام كان قائما على شط نيل مصر القديمة، اشتغل مع «الأورنس» فى «كامب الانجليز» موردا للأنفار ثم قائما ببعض العمليات الصغيرة من بابها، جمع مالا كبيرا وخبرة واسعة، صار يأخذ عمليات

كبيرة للجيش البريطانى، بناء ثكنات عنابر مكاتب، مصنوعات ومفروشات وأدوات وكل شىء تطلبه منه ينفذه لك وكله بحسابه. فلما قامت الثورة كان الحاج «فرهود» قد صار كبيرا يابوى، صارت لديه شركات كثيرة للنقل والشحن والتوزيع والبناء والتخطيط واستصلاح الأراضى، كل ذلك والحاج «فرهود» لا يعرف أكثر من فك الخط بإمضاء عاجزة لكنها بصمة لا يمكن تقليدها، يشتغل عنده ناس من كبار القوم يابوى مصروف عليهم ثقلهم ومن أرباب المراكز العالية يذهبون إلى مكاتبه كل يوم بمرتبات كبيرة ينخفض منها السمع، ويلبسون الملابس بالشىء الفلانى ويركبون الأوتومبيلات ذات الأجنحة كالطيارات، أما هو فلم يخلع الجلباب يابوى، لا ولا العباءة والعمامة الصعيدية الكبيرة حتى اليوم، وكل يوم يجىء بنفسه إلى قهوة المعلم «دحروج» ليحاسب العمال بنفسه ويوزعهم على العمل. لكنه إن دخل على أتخن تخين فى البلاد ينتفض له قائما يقدم التحية والاحترام، مرسال منه إلى قسم البوليس يفرج عن المحتجز فى التخشيبة، كارت باسمه له إعتباره عند وكلاء النيابة ومديرية الأمن، تليفون منه إلى شخص تتحرك البضائع المتعثرة فى جمارك الموانىء والمطارات وتنفرج كثير من الكروب عن كثير من الرجال هنا وهناك، ربنا يعطيك ويعطينا فهى الدنيا ان أرادت تعطى قالت خذ عندك وما عليك إلا أن توسع لها، قيراط حظ ولا فدان شطارة يابوى. اعطنى حظا وارمنى فى البحر بدون عوم. إنما الحاج «فرهود» مع ذلك شاطر قوى يابوى، مفتح وشهم

وجدع يعجبك، راضع من بز أمه لا أحد يستطيع الوقوف قصاده، لكن كله بالطيبة والأخلاق وحسن المعاملة.. والأهم من هذا وذاك دعاء الوالدين.

ازددت يقينا بأنني سأجد شغلا وراحة لدى الحاج «فرهود» فما كاد المساء يغمر جو المقهى مبكرا حتى أضيئت لمبات النيون كالعصى الممدودة على الحيطان وفى السقف. بدأت قوافل الأنفار تجيء فترمى بخلقاتها على الأرض بجوارها وتنحط على الكراسى بوجوه كالحة معفرة بالتراب متشققة، لكن أصواتهم الحبيبة ملأت المقهى دفئا حيا وحلوا ياخال، عملت زيطة وزنبليطة كأنها الفرح، هم ولد بلدى يابوى يحل الفرح أينما حلوا، الفرح فى أعقابهم أسرح من طلقة رصاص الثأر.

لغليغة كبيرة يابوى شملت الدنيا، عراك ما تدرى فرح ما تعرف، وأصل الحكاية أنهم يتحدثون فحسب، ينادون بعضهم بعضا يتفقون يتعاتبون يتواعدون. ثمة من يقوم فينضم إلى طابور صغير أمام حوض الحنفية ليسلم رأسه ويديه ورجليه للماء يتوضأ ويعود ماسحا أطرافه فى أطراف ثوبه وما يلبث حتى يقيم الصلاة فى ركن مفترشا منديله المحلاوى أو لاسته أو تلفيعته. المعلم «دحروج» يصيح فى هذا ويشخط فى ذاك بأعلى صوت، فيردون عليه بصوت أعلى مشوحين بأذرعهم السرحة المعروقة فى الهواء وعروق رقابهم تنتفض حتى لتكاد تطرقع، وما الأمر فى النهاية إلا مجرد زعيق.

الطريف يابوى أن المعلم «دحـروج» كمـا لاحظت كان فـى أشد السعادة بهذه الزيطة. أقطع بأن زعيقه المتواصل هذا، وشخطه فى كل من صادفـه، إن هو الا تعبـير عن فرحـته ياخال، فـهؤلاء هم مـصدر رزقـه الوفيـر. يوم الجـمعـة من كل أسـبوع يتـولى هو محـاسبة الحاج «فـرهود رمضان» نيابة عنهم ليحـتجز حقـوقه طرفهم. هكذا قال لى قبل مجيئهم، وأخبرنى أنه فى الصبح يصنع فولا مدمـسا شهيا لا نظيـر له فى مصر القاهرة كلها ويقـدم معه بصلا أخضر وجرجيـرا ومخللا بالمجان للآكلين. وفى المساء يقدم وجبة عشاء قوامها عـدس وبصل أحمر ومخلل. من جمعة لأخرى يجدد العـشوة بطبق من المسـقعة أو البـصارة الطيـبة. إنه يابوى يتحدى أن يجلس مخلوق أمام طعامـه دون أن تفتح شهيته ويأكل أصابـعه، وهو ينسى طبـعا يابوى أن الذين يجـيئـون للأكل عنده يكونوا فى الأصل واقـعين من الجـوع، والجوع غمـوس كمـا قال سيدنا «عبد الرحيم القنائى» طيب الله ثراه وأرضاه.

أحلف اليـمين يابوى أن «دحـروج» كـان صادقـا فيـما ظننتـه يسرح بعقلى كى أندب أنـا الآخر مثلهم فأسلمه يومـيتى على ذمة أكل، كله أونطه فى أونطه، وهل أنا عبيط يابوى حتى أعطى الأمان لأبناء المدينـة حـتى ولو كـانوا مـن أبناء الريف سـابقـا؟ صنف أصحاب المحلات الذين يبـيعون الناس أكلا مطهوا جمـيعهم خربو الذمة لا يكلفهم الطبق مليما ويبيعـونه بخمسة وعشرين، مالى أنا والأكل المطهو؟ ابن ذوات أنا يابوى؟ ما عيب الرغـيفين والبصلات

مع طبق من الفول أشتريه أنا من عربة جوالة مملوء لحافته لو كان عند «دحروج» وأمثاله يقسمه على أربع أطباق ويسمى كل منها واحدا.. هذه الأكلة في الصباح ودمتم على ذلك حتى صباح اليوم التالى اذ أننى جئت إلى هنا كى أرسل الحوالة البريدية لأمى كل بضعة أيام لا لكى يجزرها المعلم «دحروج» أو غيره من الدحاريج الأخرى بجميع أنواعها.. عبيط أنا يابوى؟!

صدق من سماه «دحروج»، اذ أنه تدحرج إلى قلبى شيئا فشيئا حتى تملكه وتمكن من الضرب فى قلعة مخى المنيعة الصلبة العنيدة، عزمنى على العشاء بالمجان، أى والله يابوى غير أننى لم أكن أظنه يقصد ذلك حقا فى أول الأمر. ذلك أننى فوجئت بسيدة شابة من بنات الحارات الفاتنات تلبس فستانا أسود يظهر شدة بياضها الآسر، ويظهر جسما مخروطا على قالب ملىء بالأبراج العالية والقباب تطير عليه كل أبراج الدماغ قبل الحمام، وآه ياخال، حافية القدمين بكعبين كريالين من الفضة وسمانتى قدمين كشهدتين طائبتين، ممتطة الجذع بارتفاع صدرها الناهد مع ذراعيها وكتفيها تسند بيديها حلة كبيرة: ثمة من يتطوع ليحمل عنها الحلة قبل وصولها السلمة الأخيرة، وهى تصيح فيه بصوت كالغنج اللاهب: «حاسب! حاسب أحسن دى سخنه». الكل يريد التطوع بسند الحلة للاحتكاك بالمرأة ما أمكن، مداريا نواياه الخبيثة بطيبة مفتعلة فى قولهم: «على مهلك يا أم حنفى! كيف حالك يا أم حنفى! وحشتينا يا أم حنفى» وهى لا تنى ترد على كل

واحد بلهجة بين الجد والمزاح لكنها إلى الجد أميل بحدة، مما دلنى على أنها فى جوانيتها التى لا يعلمـها إلا الله امرأة بحبوحة هازلة إلى حد كبيـر. يابوى وأنها تخشى ضياع هيبـتها تماما بين الناس فتفقد بذلك لقمة عيشـها: «يسعد مساك ياخويه! ماتشوفش وحش ياضنايا! ربنا يعطيكم الصحة والعافية ويقدركم على شقاكم!».

عـرفت بالفـهـلوة يابوى أن «أم حنفى» هى التـى تتـولى طبخ العشوة لحساب المعلم «دحروج» فى منزلها وتأتى بها إلى هنا فى يوم معلوم. قلت لابد أنها تقوم أيضا بتدميس الفول عندها وتجىء فى الصباح تملأ به «قدرته» النحاسية اللامعة. وقد صدق حدسى يابوى، وهمس لى ولد مـن بلدياتى بأن «أم حنفى» هى السـاعـد الأيمن ـ والأمين ـ للمعلم «دحروج» منذ سنين بعيدة مضت، وكل شىء يتم فى منزلها الكائن فى حارة سد ضيقة من حوارى حلمية الزيتـون، إذ كان زوجهـا بوابا لعمـارة كبـيرة واسـعة مبنـية فى بواكير نشـأة الزيتون. للعمارة منور كبـير واسع تطل عليه أبواب ثلاثة من غرف البـدروم كان صاحب العمارة يسـتخدمهـا مخزنا لبضائعه من زيوت طعام ومواد غذائيـة بجميع أنواعها إلى حبوب ومحاصيل وخـمور وما شئت، لذا فقد لزم أن تكـون غرفة البواب هى الباب الرابع المـطل على فسحـة هذا المنور الكبيـر الذى تسقط إليه الشمس والأمطار عابرة عشرة طـوابق من الشبابيك الصغيرة وبسطات سلم الخدم الحلزونى الذى لا يستخـدمه أحد. وقد خدم البواب ـ «أبو حنفى» لدى الزيات ـ صاحب هذه العـمارة ـ مايزيد

عن عشرين عامـا حتى مات بفعل الشيخـوخة والمرض، مخلفا «أم حنفى» وخمسة عيال زغب الحواصل هم «حنفى» وأربع بنات.

الولية صعيدية يابوى، مـحكومة، شابة لاتزال، لكن أكل العيش مر، والشـاطر من يحلى مرارتـه، يحليها بـالشقاء الزائد والـتعب والعـرق، أمـال يابوى، بدلا من التـفـريط فى الشـرف وتعـريض النفس لسـؤال اللئيم. كل شـىء فى الدنيا قـد يتضح أنه عـيب إلا الشغل عداه العيب وسافر. اشتغل يابوى واشتغل تذوب فى حنكك مرارة المالح وتجد نفـسك فى نهر الحياة مرتـويا بالعزة والكرامة والمهابة. هذا مـا صرت أقـوله لنفسى يابوى مقـتديا بهـذه الولية الغلبانة الجدعة «أم حنفى». التقطها المعلم «دحروج» ـ كما يزعم ـ بنية أن يساعدها على المعايش ويوفر لها رزقا. وواقع الأمر يابوى ـ يقول ولد بلدى من حولى ـ أنه يستـغلها أشنع أستغلال يابوى، يتخذها خادمـة تقوم وحدها بما يطلب من مجموعـة عمال، خلاف اسـتغـلاله لمنزلها، الذى هو عـبـارة عن غرفـة واحدة تنام فـيهـا بأطفالـها تزاحمـهم فيـها أجولـة الفول والعدس وبرامـيل الزيت. ولولا أن سكان العمارة كلهم يتعاطفون معها لضايقوها.

«أم حنفى» غـابـت ثم ظهـرت ثانيـة فى فـراغ البـاب تحـمل صندوقا كـبيرا جدا، مـا أن وضعناه على الأرض حتى تبينت فـيه تلالا من الأطباق البلاسـتيك والألمونيوم الصغيرة، يتـخللها أكوام من البصل الأحـمر وصفيحـة ملآنة بالباذنجان تفـوح منه رائحة تقـول لك كلنى أنا وحدى فى التـو، نفس الكلمـة التى يقولهـا لك

جسد «أم حنفى» بمجرد ما تراه، خاصة إذا طلع صوتها بالغنج الذى لا افتعال فيه. تطافسنا فمددنا أصابعنا خلسة لتخرج بنسيرة من الباذنجان نلتهمها والمعدة ترقص. شخطة المعلم «دحروج» هى التى أوقفتنا عن التهام الباذنجان كله. مرة ثالثة ظهرت «أم حنفى» تحمل طاولة عليها تلال من الخبز الساخن، تركتهما على رخامة النصبة وانصرفت. تقدم المعلم «دحروج» وصار يتناول الأطباق فيملأها بالعدس مرشوشا على سطحها حفنات التقلية. ولد بلدى يتزاحمون عليه، وكل من حصل على طبق مال نحو الصندوق فانتخب بصلتين كبيرتين وانتخب باذنجانة كاملة ثم عرج على طاولة العيش فانتقى ثلاثة أو أربعة أرغفة. خلال ذلك عادت «أم حنفى» بطاولات جديدة من الخبز عدة مرات متلاحقة. حتى إذا ما انقلبت المقهى كلها إلى ناس منكفأة فوق الكراسى وعلى الأرض، والأيدى كلها متصلة بين أطباق عديدة من العدس والخبز وبين الأفواه، مكن شغال يقرقش البصل يطحن فى لذة وانشغال عظيمين مهيبين يابوى كأنهم يؤدون أعظم وأقدس عمل فى الوجود يابوى.

كنت الوحيد الذى لا يشترك فى هذه العملية، أجلس وحدى فى ركنى هذا منذ بداية تفريق الأطباق، إذ أننى فى الحق لم أكن أنوى أن أدفع «خمسة تعريفة» فى واحد عدس كهذا فوق قرش للرغيفين الذين أحددهما لنفسى فى الطقة الواحدة ثم أن كل ما معى من قروش لا يسمح لى بهذه الرفاهية، ربما لا ينفع ثمنا لهذه

العشـوة وحدها فأنـا لم أشتغل مـثلهم بعد ولم يجـر القرش فى يدى. راقبت المعلم «دحروج» وهو ينظر خلفـه فى انتظار أن يتقدم منه أحد يطلب طبـقا، شمل الجمـيع بنظرته تأكد من أنهم جمـيعا مندمجون فى الأكل، مسح يديه فى خـرقة مبللة ثم جفف يديه فى جوانب جلبابه البوبلين الكالح ذى الياقة والأساور المشمرة، مضـى يجر ركبتيه نحو النصبة، ما أن وصلها حتى صب لنفسه كستبان شاى ثم أشعل سيجارة نفث دخانها فى الهواء ناظرا هنا وها هنا، وقعت نظرته على فـيما أنا متكور فى ركنى أقـول يا أرض انشقى وابلعينـى، أحاول إبعاد عـينى عن الآكلين بأى شكل إيقافـا لريقى الجـارى مع مـضـغـهم، كـسـرت عـينى هربا من نـظرة المعلم «دحروج»، لكن بعـد أن تأكدت من أنه رآنى ياخال، تأكـدت أيضا من أنه قد فوجىء وقد اندهش، ففرحت وارتبكت معا يابوى، خفت أن يجـرنى فى السؤال حـتى يضطرنى إلى الاعـتراف أمـام الذى يسوى والذى لا يسوى بأننى ليس مـعى نقود، ورحت أدبر كلاما أرد به اذا ما سـألنى: لماذا لا تتعشى؟ لكننى أحـسست به يرشف الكوبة كلها بسرعة، وبظله يخرج عن حدود النصبة يتجه إلى حلة العـدس الكبـيـرة فيكـشف غطاءها، يتناول طبـقـا من الصندوق، بالمغرفة الكبـيرة راح يقلب العدس المتبقى فى قـعر الجلة ثم جعل يغرف ويضع فى الطبق عدسا تخينا يتـصاعد منه الدخان ورائحة التقلية ثم يتناول طبقا آخر، رشقه بين أصابع نفس اليد ثم انتشل من الصفـيحة أربع باذنجـانات كبار سليـمة وضعـها فى الطبق،

ووضع فوقها أربع بصلات كبيرات، وعرج على الطاولة فانتخب تلا من الخبز يزيد عن ثماني أرغفة حلوة التقاطيع حمراء الخدود خفيفة الدم، أي والله يابوي هكذا بدت لي ساعتها. ما أدري إلا والمعلم «دحروج» مقبل نحوي بهذه الوليمة العظيمة، ثم تربع على الأرض متأوها، رص ما معه على الأرض، شور لي نحو الأرض قائلا: «إنزل يا أبو العم». وأنا ما كان مرادي أن يصل الأمر إلى هذه اللحظة لكن صوت الرجل كان حادا قاطعا وبسيطا في نفس الوقت ينذرني بالقطيعة إن تمنعت يعلن على الخسة أن نشفت مخي ياخال، وعلام نشفان المخ يابوي! لكنني ربت على صدري قائلا: «كتر خيرك يا أبو العم! تشكر تشكر! ألف هناء وشفاء!». شخط بحدة كأنني عبده الذي يشتغل عنده ويأمر بقوة: «إنزل يابو العم قلت لك!»، وأحسست أنه يعلق أبو العم هذه ويمطها بغيظ كما لو كان يذكرني بأنه يتفضل على بهذه اللفظة والمفروض أن يناديني بسواها، وتأهبت لأغضب وأعملها زعلة ولكنني ألهمت أن لاداعي لتنشيف المخ أكثر والا انكسر وتفتت، غير أنني إرتبكت يابوي، صرت أردد ألفاظا من قبيل: «أصل.. أنا.. كنت.. إلخ إلخ» في حين لا أقول شيئا، فبدا على وجه الرجل تصميم ينذر بفضيحة لو أنني سقت الدلع أكثر من هذا، كدت أميل على أذنه هامسا: «أصلي ممعييش فلوس!». لكنه كان أسرع مني، إذ شور لي ناظرا في قلب عيني نظرة جادة: «إنزل إنزل! على حسابي!»، تململت قليلا ثم نزلت متربعا قصاده وفي نيتي أن أنقنق بمضغ لقمة أو لقمتين إكراما للرجل، فما كدت أمد يدي وأسحب الرغيف

حتى لامس ركبتى بأصابعه علامة تنبيه. فنظرت فيه بأهمية فنظر فى باسما يقول: «بس العزومة دى الليلة دى وبس! إوعك تاخد على كده! اللى أوله شرط آخره نور ياابو العم!». ثم ضحك وضحك الجميع فضحكت معهم مضطرا. لكن، ما كدت أشرع فى تغميس اللقيمات بالعدس والباذنجان والبصل حتى فقدت الوعى والله يابوى، فصرت أطوح فى فمى بلذة فائقة والرجل ينظر لى من حين لحين مبتسما كأنه يذكرنى بتحديه السابق عن مذاق أكله.. لا أذكر عدد الأرغفة التى مزقتها وبرمتها وطوحتها فى بالوعتى، لكننى أذكر أن الرجل جاء بتل آخر من الأرغفة وأعاد ملء الطبق مرتين وهو يقول: «معلهش! غلطتى وأستحق التربية! ما كان مالى! ما الذى دهانى فدعانى لأن أقطع أملك فى تذوق طعامى مرة ثانية بدون نقود!»، وحين أخرج أمامى آخر بصلة ونفض آخر ما فى الحلة صار يعشمنى قائلا: «لا تصدقنى يا أبو العم! لسوف تأكل عندى وقتما تشاء دفعت أو لم تدفع!».

ثم أنه اتجه إلى النصبة فملأ براض العمال ولقمه بالشاى وصف الأكواب منعدلة فيما هو يدخن بلذة فائقة. ثمة خاطر يحول فى دماغى بأننى سأكون حتما من زبائن الأكل عند المعلم «دحروج»، وأننى لا محالة تارك له يوميتى يجزر منها الحساب الذى يحدده هو وذمته!.. صار يصب الشاى فى الأكواب ويريحها بعيدا وكل واحد ينهض فيجىء ويأخذ كوبا ويمضى. قمت بدورى فأخذت كوبا، فنظر لى قائلا: «على حسابى برضه؟». قلت: «لا..

على حسابى أنا! والأكل أيضـا على حسـابى! عزومـة هذه الليلة بالذات على حسابى ياأبو العم! ويبقى لى عندك عزومة!». إرتفعت أصوات الشفط فـصنعت جوا لطيفا، راح المعلـم «دحروج» يفر فى دفتر ممزق سحبه من تحت النصـبة، بقلم جاف أخذ يدون حساب كل واحد منهم، ثم صاح تجاهى ويده على صفـحة جديدة بيضاء: «اسـمك ايه يا أبو العم؟». صـحت قـائلا: «حـسن ولد أبو ضب». كتبه، ولا أدرى ماذا كتب أمـامه من أرقام، لكننى فى الحال فتحت دفترا فى دماغى وكتبت فيه ما أخذته اليوم بالمليم.

إلا والحاج «فـرهود رمضــان» داخل علينا، حوله أربعـة رجال أشداء وجهاء بعمائم صعيدية كـبيرة وجلاليب من الصوف المعتبر وعباءات من الجوخ على أكتافهم. كـانت شخصية الحاج «فرهود» أوضحهم، يتقـدمهم، قصير القامة نوعـا، عريض الكتفين، ممتلىء الوجـه بالدماء والعـافـية، غليظ الملامح، تـخين الصـوت أجشـه، يرتدى مثلهم نـفس الثياب ولكن العـز والفخفـخة ناضحـان عليه، ومن فتـحات الثيـاب تتدفق النعمـة فى ملابس داخليـة ثمينة، من الواضح أنه يستـحم ويحلق ذقنه كل بضع ساعات، وبيـده العصا الابنوس العوجاية.

كل من معه تأففـوا من الكراسى ونفضوها بأطراف ثيابهم الا هو جلس على أقرب كرسى كيفما اتفق. فلما اندهشت أخبرنى ولد بلدى أنه على هذه الحال منذ مـا يزيد على عشرين عامـا ولم يشأ

أن يغير عاداته بعد أن أكرمه الله وصار من الأثرياء، بل فضل إن يظل يباشر عمله الأصلى فى المقاولات البسيطة بنفسه، تاركا شركاته الكبيرة لموظفيه الكبار يديرونها بالطريقة التى يعلمونها تحت إشراف وحراسة أبنائه وهم أفندية كبار متعلمون..

ثمة رجال آخرون كانوا خارج المقهى بالمئات صاروا يتدفقون علينا. فبعضهم جعل يقبض أموالا كبيرة سيقضى بها مصالح عاجلة، وبعضهم يقبض أموالا صغيرة، والبعض الثالث يتلقى بعض الأوامر والتوصيات وينصرف. فوضح لى أن الرجال الأربعة الجالسين هم أربعة رؤساء كل واحد منهم مسئول عن حوالى مائتين أو ثلاثمائة نفر يعملون فى عملية معينة فى مكان ما تبع الحاج «فرهود». فلما لاحظت أن الزحام بدأ يخف ويتلاشى تقدمت من الحاج «فرهود» وقلت له: «اتمسى بالخير ياحاج». قال: «مسا النور.. تحب تشتغل فى إيه؟». قلت والبشر يطفح منى «أنا أحب أن حضرتك تشوف لى شغلة على قدى!». نظر فى متأملا ثم قال: «إنت كنت بتشتغل ايه قبل كده؟». قلت: «سماك.. وقهوجى». أعاد النظر فى وزام مفكرا ثم قال: «أما السمك فلم نشتغل فيه بعد! وأما القهوة فأمر فيه نظر». قلت محننا قلبه: «ربنا يخليك! ويزيدك من نعيمه». أعاد نظره فى ثانية وقال: «أنت منين ياأبو العم؟». قلت بسرعة: «من الغنايم قبلى! كوم سعيد! من ولد أبو ضب! أعمامى المشايخ الكبراء! يمكن

تسمع عنهم!». انبسط وجهه فجأة قال: «بقى أنت ولد أبو ضب! دا الشيخ أبو ضب الكبير كان الفقى بتاعى ياولد! كنت تلميذا فى كتابه وأنا طفل صغير! ووالله ما نفعنى فى الحياة حتى اليوم سوى ما تعلمته منه فى ذلك الزمن! رحمه الله!». انفشخت يابوى على الآخر وكبرت قامتى أمام الخلق، ونظر هو إلى واحد بجواره وقال: «ياريس حمدون! خذه معك إلى المعسكر باكر! فإننا نحتاجه!»، ثم نظر لى قائلا: «باكر قبل طلعة الشمس تكون هنا منتظر الريس حمدون لتركب معه وتروح المعسكر الهايكستب!». قلت بقليل من التوجس: «حاشتغل أيه فى الهايكستب ياحاج؟». شوح قائلا: «باكر سأريك ما تفعله». ثم حول نظرته عنى مرددا فيمن حوله: «حد تانى عايز أى حاجه منى؟». فلما لم يتقدم أحد بحاجة نهض متكئا على العصا قائلا: «توكلنا على الله». فنهض الجميع فساروا خلفه وانصرفوا.. فحل بالمقهى هدوء شديد شديد خفتت له الأضواء فى اللمبات.

الثانية ـ سقف العراء!

شادر البطيخ كبير جدا يابوى، يشبه دوار أكبر عمدة فى البلاد كلها. يتهامس ولد بلدى قائلين العجب: هو ثروة كبيرة فى يد صاحبه الحاج «رفقى»، الذى استولى على هذه المساحة الشاسعة بوضع اليد منذ سنين طويلة ثم أجرها من البلدية ثم آلت إليه ملكيتها فى النهاية بثمن بخس طلع عليه مصاريفا نثرية. شادر البطيخ اسم فحسب يابوى، والبطيخ كله لا يزيد عن كومة صغيرة مرصوصة فوق بعضها على باب الشادر. أما الشادر نفسه ـ الممتد على مساحة فدان! أو أكثر، والمبنى بجدران طينية ومسقوف بمشمع الخيم ـ فإنه ملآن بعربات اليد الصغيرة مجنزرة بأقفال فى صفوف طويلة من أول الشادر إلى آخره، وبقية من أرضه ملآنة بأجساد مرصوصة جوار بعضها، منهم المغطى ببطانية جيش قديمة، والمغطى بحرام صوفى عتيق، والمغطى بجوال مخرق، والمغطى بجلباب قديم متهرىء. أما الحاج «رفقى» نفسه فإنه ـ تحلف اليمين ـ لا يساوى تعريفة، كرش هرمى قاعد على الأرض، له ما يشبه راس الإنسان، فتحة طوق جلبابه مفشوخة

وفتلة من الدوبـارة المتينة مربوطة فى عـروة الصديرى وطرفـها الآخر مـربوط فى محفظة جلدية كـبيرة جـدا ومنتفخـة فى جيب الصديرى، وجهه كالبطيخة بالضبط يابوى، لونه ـ تحلف اليمين ـ بين السواد والخضار، منتفخ العينين يملأ العماص جفونه..

رحت وجئت من أمامه عدة مرات ومرادى أن أكشف عن زاوية بعيدة منه أرمى فيها جثتى سواد الليل دون أن أدفع شيئا، فعراء بعراء وخلاء بخلاء ولا داعى إذن للخسارة قرشين. كنت أظنه لا يلحظنى يابـوى، لكن اللعـين شعـر ـ وهو فى مكانه ـ بمـلامسـة جلدى لجدار الشادر المخفى عن نظره، إذ ما كدت أتقرفص مرتكنا للحائط كأنى سأستريح برهة وجيزة حتى سمعت نحنحة بصوت عال وبنغمة ذات معنى. وما كدت أتمدد واضعا ذراعى تحت راسى حتى جاءنى صوته راعدا كصـوت العواء المقبـض: «أنت ياجدع أنت! هى وكـالة ولا إيه؟!». فنهـضت فى الحـال جالسـا، أظهـرت نفسى مقبـلا نحوه: «سـاالخير يا حاج رفقـى». وضـع كفه كالتندة فـوق عـينيه صـاح بغـيـر ود: «سـا النور ياخـويه! انت من اللى بيترموا تحت الجدران ولا إيه؟!». تبسمت رغما عنى قائلا: «لا! أنا من رجـالة الحـاج فـرهود! وراجل أعـجـبك! بـس الزمن هو اللى قاسى!». إغـتصب إبتسامـة خشنة، قال: «طب ومـاله!. بس تيجى تمسى علينـا الأول واحنا نشـيلك على راسـنا!» قلت: «عـاوز أبات للصـبح!» قـال: «جـوه ولا بره؟». قلت: «جنبك هنا!». قـال: «نص

افرنك». قلت: «والحاج مالوش إكرامية؟». شوح قائلا: «الحاج قدام نص افرنك؟ دا حتى يبقى عيب!» ثم أشاح عنى كأنه أنهى المقابلة. مددت له يدى بالقرشين والغيظ يفريني، وقلت لنفسي: صحيح أنها مصر أم العجائب! عشنا وشفنا من يبيع لنا النوم في العراء بقرشين! حار ونار في جتته.

استرطبت بقعة مجاورة له تماما وتمددت طاويا ذراعي تحت راسي. وقلت له قبل أن أستغرق في النوم: «والنبي تصحيني بعد صلاة الفجر على طول!». قال «طيب». غفوت، ثم صحوت، ثم غفوت ثالثة، وكلما صحوت لأعتدل على الجنب الآخر رأيت صف الأجساد المتمددة بجواري يصل إلى آخر جدار الشادر من كل ناحية.

الثالثة ـ نهارك أبيض!

من شاهدني لحظة عشوة العدس بالأمس لا يشاهدني صباح اليوم، وقد اندمجت في الرجال حول قدرة الفول ورحت أصيح مثلهم بلهفة واستعجال: «شوية زيت حار هنا! بصلة يامعلم! بدنجانه تانية!». أكلت حتى امتلأت صحة وصرت بفعل الفول والبصل يابوى مستعدا لضرب الحديد بقبضتين.

تسلطنت أمام كوب الشاى الساخن وكان معى سيجارة مكن هليود قطمتها نصفين شبكت أحدهما فوق أذنى وفرطت الآخر فى ورقة بافرة برمتها وأشعلتها وتأملت لون الدخان فرأيته ارتوازيا فى لون الصباح أبيض القلب ياخال. كنت قاعدا على الرصيف خارج المقهى فى انتظار الريس «حمدون». وقعت عينى ـ سامحها الله ـ على نافذة بيت فى مواجهتى على الرصيف الآخر تشبه طاقة مستديرة مغطاة من الخارج بشبكة سلكية، وثمة وجه آدمى يحاول النظر من خلالها من الداخل. كانت الحائط من الخارج مبلولة بالرطوبة وفيها مواسير للمياه مما جعلنى أفطن إلى أن هذه النافذة فى حمام البيت يابوى. فأصابنى هياج كبير يابوى، وأنا ما

كان مرادى أن أنظر يابوى لكنه الشيطان قاتله الله، هو الذى أقامنى من قعدتى فعبرت الطريق إلى الرصيف وفي ظنى أن الذى يحاول النظر من النافذة من الداخل لابد أن تكون امرأة، لعلها «أم حنفى» أو من تشبهها، ولابد أيضا أنها تطلبنى لشىء أو ترغب فى مساعدة، وإلا مابقيت تواصل النظر هكذا يابوى ولابد كذلك أن الله جعلنى انتبه إليها يابوى لمصلحة لها أولى. ما أن وصلت إلى النافذة حتى توقفت مرتعبا وقلبى ينتفض. شببت على أطراف أصابعى، فتبينت الرأس المشعر واقفا لايزال خلف الشبكة السلكية. ثم قفزت فى الهواء أمام النافذة ملقيا بصرى فى الغرفة فاصطدم بظلام دامس. مخ صعيدى يابوى صدق من أسماه. صممت على رؤية هذا الشخص والتأكد من أنه امرأة تناديني من خلف الحجاب لتتواعد معى على شىء ووعد النساء دائما بهيج ياخال.

فى قفزة عالية قلت للرأس الواقف خلف الشبكة: أنا خدام. فى قفزة ثانية قلت: آامرى وأنا أنفذ. قفزة ثالثة قلت: أى خدمة. فى قفزة رابعة سقط جسدى بين أيدى ثلاثة من الرجال الأشداء، كتفونى، وخذ عندك.. فين يوجعك: زغد وتلطيش وتشليت وسب أم وكل ما لا قلبك يحبه. إذا بهم مخبرون سريون، وإذا بهذه الغرفة هى غرفة الحجز التابعة لقسم الشرطة الذى يطل على الشارع الجانبى. أخذونى إلى القسم يابوى وأنا أصيح لله مايغيثنى حتى تحطمت قواى قبل أن يبدأ النهار، فياله من نهار شؤم كانت بدايته نافذة السجن يابوى.

ولد أعمـامى وبلدياتى لمحونى، فصـاروا يضحكون يصيـحون فيما أنا واقف أمام الضابط والضـرب شغال على قفاى. سألنى ما الذى كنت أفعله مع المساجين؟ فلم أعـرف جوابا قط سوى قولى: والله ما أعرف أنه سـجن. الذى طلع على ساعتهـا قولى: والله ما أعـرف أنه سـجن. إلا والريس «حـمدون» مـقـبل علينا كـالأسـد يضـحك. نهض له الضابط وسلم عليه باحترام كبير ـ طبعا يابوى. قال الريـس «حمدون»: عـمل ايه الولد ده! عملت ايه يـاولد؟». قال أحـد المخـبـرين: «ضـبطـناه ينط على منور الحـجـز ويـتكلم مع المحـتـجـزين. رحت أبكي وابكي، قلت: «أبدا واللـه! أنا كنت ألعب شوية رياضة وعمال أتنطط». قال مـخبر آخر وهو يركز بصره فى عـينى: «يارجل اتق اللـه فى دينك! بطل كـدب!». وضـحـك الريس «حـمدون» وقـال: «تتنطط ليه يـاولد؟ إنت مجنون ولا إيه! داهيـة تسـمك!»، ثم لطشنى هو الآخـر كـفـا تخـينا على صـدغى حـتى اصطدم خاتم فى أصـبعه بضرس فى فـمى فصرخت فزعـا. قال الضابط: «حضرتك تعرفه؟». قال الريس «حمدون» وهو يبدو عليه أنه تأثر من ضـربى: «أيوه دا من أنفـارنا! دا ولد عـبيط وغلبـان وابن ناس طيبـين! يلا قدامى ياولد!». نظرت إلى الضابط، فـأشـار لى بيده قائلا: «غور من هنا واوع أشوفك تانى!». فاندفعت أجرى إلى المقهى، لأجد مـا تبقى من الزملاء يضـحكـون ولكن فى شعور بالخـوف والشـفـقـة على حـالى يابوى. فلمـا لحق بى الريس «حمدون» أشار قائلا: «يلا يا ولداركب انت وهو!».

كانت عربة اللورى واقفة تشبه عربات الجيش أو الشرطة الخالق الناطق غير أن هذه مكتوب عليها: «فرهود». ركبناها، وركب الريس «حمدون» بجوار السائق. مضت العربة فاخترقت «عين شمس» حتى وصلت إلى الهايكستب فانفتحت أمامها البوابة فمضت في الداخل مسافة طويلة حتى انتهت بنا إلى قرب محطة تسمى «المصحة» هى آخر محطة للقطار الذى يصل من باب الحديد إلى هذه المنطقة وجنود الجيش يخرجون من المعسكر إليها بعد مشى طويل ليأخذوا منها القطار إلى باب الحديد عند سفرهم فى الإجازات، وبالطبع ينزلون فيها عند العودة.

توقفت العربة عند بنايات متقابلة بسقف جملون، وقيل انزلوا. فنزلنا، ساقنا الريس «حمدون» خلفه فمشينا بين هذه البنايات الظليلة وقلبى منقبض غاية الانقباض ياخال. لست والله أعلم السبب، ربما كان بسبب الضرب الذى نلته اليوم على ريق الصباح، وربما التشاؤم من تنطيطى أمام غرفة السجن بكل سعادة وغشم، ربما يابوى كل هذا ولكن السبب الذى كنت أحسه قاطعا فى نفسى هو منظر الرءوس المطلة من شبابيك هذه البنايات وفوقها الكاب الأحمر والاخضر والأزرق، ومنظر النجوم والضبابير اللامعة وهو مشهد يلقى الرعب فى قلبى وحده ياخال، لست أحب مشاهدته أبدا، إذ أن أمى طول عمرها كانت تسعى لاعفائى من الجهادية بأى ثمن، ولولا رهافة قلبها لفعلت بى ما يفعل غيرها بأبنائهم إذ يكسرون له أصبعا أو يختلقون فى جسده

تشوها لكى يسقط فى فرز النظارة ولا تأخذه الجهادية. لكن أمى طول عمرها ونحن كلنا طول عمرنا نكره هذه الكابات وهذه الضبابير والنجوم والشرائط كراهيتنا للإنجليز فكيف أجىء لهم بقدمى يابوى؟! ندمت والله على أننى وافقت بالأمس على المجىء إلى هنا، كان الواجب أن أقول: لا، حينما جاءت سيرة المعسكر والهايكستب، لكنه قدر الله يابوى. وعلى كل حال فلابد أن أتصنع النوم حتى يفقد الريس «حمدون» أمله فى شغلى فيستبعدنى عن هذه الفرقة وبعدها يحلها الحلال يابوى. إنهم بالطبع يعرفون أننى أكلتها اليوم أزواجا وأفرادا، ولابد أنهم سيصدقوننى إن زعمت المرض.

انفصلنا عن البنايات وصرنا نمشى فى عراء الشمس مسافة طويلة إلى أن صادفتنا بنايات أخرى على صفين متقابلين لكنها متهدمة. عندها توقف الريس «حمدون» فتوقفنا. لحظتها فقط انتبهت إلى أن الأنفار كلهم يحملون معهم فئوسا وكريكات ومقاطف وقصاعا وأشياء من هذه الا محسوبك لا يحمل شيئا. قلت: حلو، سوف يكتشف الريس «حمدون» هذا فيزجرنى ويطردنى فأتكل على الله إلى محطة «المصحة» عائدا إلى باب الحديد ومنها إلى باب الله. الريس «حمدون» شاهدنى ولكنه لم يفعل شيئا، وقف يوزع الأنفار على الجدران المخرقة ليحولوها إلى هديم وأنقاض. ذلك أن هذه هى إدارة المطار الذى دمرته طائرات العدو، سوف نعيد بناءه من جديد على نسق آخر. هكذا قال الريس

«حمدون». كان ثمة عسكرى كالحارس يجلس على مقربة من الهديم وبجواره راديو ماركة صوت العرب مفتوح عن آخره وصوت «محمد عبدالمطلب»يصدح مغنيا: ياسايق الغليون عدى القنال عدى.. وقبل ماتعدى .. خد مننا وادى.. ده اللى فحت بحر القنال جدى.. عدى.. عدى.. ياسايق الغليون. تلاشى صوته تحت صوت أم كلثوم يغنى: صوت السلام هو اللى ساد واللى حكم. ثم تلاشت هى الأخرى ودخلت المجموعة تصدح بجعير يفزع القلوب حماسة: الله أكبر! الله أكبر!..

قلت فى نفسى: ما للإذاعة اليوم زائطة هكذا والكل عمال يدخل فى بعضه يريد أن يغنى فوق الآخر بالعافية فمال على أذنى قائلا: «أما علمت»؟ قلت بلهفة: «ماذا»؟ قال: «هجم علينا ثلاث دول هى انجلترا وفرنسا واسرائيل». قلت: «هجمت علينا كيف ياأبو العم؟!» قال: «على بور سعيد! ودار القتل فى الشوارع والبيوت وطال الضرب مصر القاهرة من الجو وهذه نتيجة الضرب هم يهدمون ونحن نبنى». صرخت فيه: «لماذا فكرتنى بالضرب ياشيخ! لعن الله الضرب والضاربين حتى يجربوا عذاب المضروبين!» حينئذ لكزه زميله، فتركنى وجرى بفأسه ومقطفه.

كل الأنفار توزعت وبدأ الشغل فى الحال الا أنا يابوى، ظللت فى وقفتى ميهضا أنتظر المصير. فلما اطمأن الريس «حمدون» إلى أن الشغل يمضى على بركة الله، استدار نحوى كأنه فوجىء بى. يبدو أننى صعبت عليه يابوى. تذكر الكف الذى رزعنى به، فإذا

هو يضع يده برفق شديد على كتـفى ويربت، واذا هو يستدرجنى فى المشى بجواره واضعا يده على كتفى كأنما ليصالحنى، وإذا هو يقول: «تقول أنك فى الأصل قهوجى؟». استدركته مصححا: «أقول أننى اشتغلت قهوجيا ذات يوم». قال مبتسما: «يعنى عندك فكرة». قلت: «عندى وأفهم فى هذه الصنعة جيدا». ربت على ظهرى قائلا: «حلو! الناس بلدياتك هؤلاء طول النهار بودهم لـو يشربوا الشاى عاملين الـشاى حجـتهم فى القـريفة خصـوصا بعـد الغداء! وهذا معسكر! ليس فيه كـلام من هذا! ما رأيك لو جئت لك بوابور وعدة نصـبت هنا نصـبة شـاى وقهـوة جنب الأنفـار وربنا يرزقك من ورائهم! أمـا المعسكر فليس لك شـأن به فلن يتـعرض لك أحـد ما دمت أنت فى منطقـة بعيـدة عن الخطر! هم أيضـا يحبـون شرب فنجان من القهوة وواحد شاى عند العصارى! سترزق من ورائهم أيضا»..

لم أدر والله ياخـال الا وأنا منهال على يدى الريس «حـمدون» بالتقبيل والشكران. تفاءلت خـيرا بهذه الشغلة التى لم تكن تخطر لى على بال ياخال، حـيث لا يتحكم فى أحـد ولا يثقل كتـفى حمل قلت للريس «حمدون»:

ـ «هذه الشـغلة هى عـين المرام! ولكن أنا مـا مـعى نقـود الآن اشترى بها العدة والمونة فما يكون الرأى؟»..

قال: «أنا أعطيك سلفة تشتـرى بها لوازمك وعندما يكرمك الله ردها». وفى الحال نقدنى خمسين جنيها بالتمام والكمال اهتز من

لمسـهـا بدنى كله ورقص قلـبى ولولا خـوفى من رهبــة الريس «حمدون» وقوة الحاج «فرهود» لأخذتها ووليت عائدا إلى الصعيد وبارك الله فيمـا رزق، إلا أننى كنت قد نويت لله خيرا واستـقامة، ووجـدتنى أقـول فى غـبطة: «وهل أنا سـأقـدر على رد هذا المبلغ ياريس حـمدون؟». شوح بخـاتمه فى وجهى قـائلا: «ياخى.. بكره تسقينى بيهم شاى وقهوة».

قلت: «أبدأ من غد». وكان قد مضى خطوات فـاستدار صائحا: «بل من الآن! فـمـا وراءك الـيـوم؟». قلت: «كـيف ياأبـو العم والمواصلات كلهـا.» قاطعنى: «عربات المعسكر طول النهـار رائحة جائية إنزل فى واحدة وارجع فيـها أو غيرها المهم أن تشعل نارك اليوم وتسقينا شايا بعد الغداء إن الرزق يحب الخفية يابو خاله!». ثم تركنى ومضى. قلت والله لأفعلن.

تسلقت عـربة جـيش نازلـة. ألقت بى فى الزيتـون وأوصـيت السائق أن يمـر على فى قهوة «دحـروج» ليشرب شـايا ويأخذنى فوافق وأوصـانى بدوره أن أشتـرى له علبـة سجائر ورطـل موز فـوافقت ـ المعلم «دحـروج» فرح لما أخـبـرته الخبـر، تمنى لى كل خيـر، زودنى بالنصائح عن أسـعار السـوق وفن الشراء وعن أن أجود الوابورات البريموس وأجـود الكوبات ياسين وأجود الشاى البنت الفـلاحة وأجود السكر الخـرز يفرط مـعك ويحلى. كل ذلك فيما هو واقف معى على الباب. دعوت له بالستر ومضيت، قصدت

المحل الذى وصف لى مقره، إشتريت منه الأدوات كلها من إبرة الوابور حتى البراريض والملاعق وفناجين بأطباقها للضباط والكابات المزينة بنسور ثقيلة. لف البائع لى كل ذلك لفة واحدة فى صندوق كرتونى كبير متين مبطن بالقش والورق حملته فوق راسى ومضيت. قصدت دكانا آخر وصفه لى المعلم دحروج أيضا فاشتريت منه شايا وسكرا وبنا وبسكوتا وجبنة وحلاوة وكركديها وكبريتا. هو الآخر لف لى كل ذلك فى رباط متين حملته فى يدى ومضيت إلى مقهى المعلم «دحروج». مررت بقسم الشرطة فوجدتنى أتلكأ فى السير أكاد أزحف كأننى أكيد له أريه إلى أى حد أنا رجل محترم ومعى نقود تشترى أشياء كهذه. أمال يابوى. بجوار المقهى حودت على كشك للسجائر فابتعت منه علبتين هليود صغيرتين واحدة لى والأخرى للعسكرى سائق العربة. ولم يكن قد بقى من الثروة كلها سوى ورقة بعشرة جنيهات صحيحة صعب على أن أكسرها بشراء الموز، والقروش المتبقية معى تكفى للنوم على باب الشادر وتذكرة قطار كوبرى الليمون. إستدرت فوجدت العربة واقفة على مبعدة والعسكرى جالس على باب المقهى يشرب الشاى فى انتظارى. فلما رأى منظرى بالشيلتين وحرصى على شراء السجائر شفط الكوب كله ونهض يحمل عنى فأعطيته الصغيرة ومضيت بالكبيرة فوضعناهما فى أرض العربة واستدرت صائحا: «الشاى عندى

يامعلم». رد قائلا: «ماشى يابو العم». فانتشى فؤادى وفهمت مزية أن يكون لك دفتر حساب عند الناس وأن يستروا كرامتك أمام الناس فى لحظات كهذه. ركب السائق وأدار المحرك العربة عدة زعقات متوالية كأنها تنذرنى بأن أتذكر شيئا أكون نسيته قبل الرحيل وكنت أرى الموز على مقربة منى لكننى اعتمدت على أن زعقات العربة استعجلتنى فقفزت شابطا فى الباب المجاور للسائق ودلفت جالسا بجواره جاذبا الباب معى نشوة أنست ضلوعى وجع الشلاليت المؤلم. مؤخرتى ياخال كانت هى الأخرى تنضح بألم الشلاليت تقرصنى كلما حاولت الجلوس. احتوتنى شلته الكرسى فغفوت لمدة جزء يسير من الثانية، أى والله يابوى، تحلف اليمين اننى مادريت بشىء البتة، إلا أننى فتحت عينى فجأة فوجدت العربة معتدلة على الطريق الطوالى نحو المعسكر. فدب فى أوصالى الانتعاش وفنجلت عينى كأنى صحوت بعد نوم طويل وها قد أصبح الصباح فاذا بى على غاية واضحة ومستقبل فيه العشم الكبير.

قال السائق: «صح النوم». قلت: «صح بدنك ياوحش!»، وأخرجت علبة السجائر فمددتها نحوه قائلا: «دى هدية منى لك! ولكن لاتؤخذانى نسيت الموز! يظهر إنك استعجلتنى! لكن!». قاطعنى: «لقد اشتريت»، وترك عجلة القيادة مسنودة بطرف اصبعه، وسحب سباطة موز نزع منها ثلاثة أصابع رماها فى

حجرى قائلا: «قشر وكل!». ثم نزع ثلاثا أخرى رماها فى حجرى قائلا: «وقشر لى». تراقصت من الفرح وقشرت له وقربت الأصابع من فمه فالتهم والتهم. وقشرت لنفسى والتهمت فنزل طعم الموز فى جوفى بردا وسلاما يابوى، صرت ادعو للولد بالستر أشكر الله على عظيم نعمه وفضائله، فما انتهيت من مضغ الأصبع الثالث حتى كان الولد العفريت قد فك سلوفان علبة السجائر وفتحها ونزع منها سيجارتين قدم لى واحدة ووضع الأخرى بين شفتيه ثم أخرج مشط الكبريت فأشعل عودا صنع لشعلته بكفيه قبة تحميها من الهواء وقربه منى فأشعلت سيجارتى باستمتاع وأشعل لنفسه ورمى بقايا العود فى الهواء بعد أن أطفأه ثم أخرج من جيب صدره شلنا ورقيا رماه فى حجرى قائلا: «ثمن علبة السجائر». قلت صائحا: «لا.ياوحش! هى هدية منى لك!»، ورددت الشلن لكنه ضغط على يدى بعنف قائلا: «هديه إيه يا أبو العم! أنت رجل على باب الله تستحق المساعدة!»، وظل قابضا على قبضتى بأصابع حديدية حتى تألمت فصحت: «خلاص! خلاص!»، وخلعت قبضتى من قبضته ووضعت الشلن فى جيبى وقد أحسست نحوه بمشاعر الأخوة والصداقة. انفتح له قلبى يابوى، نسيت به كل وجع فى، رحت أواصل الدعاء له بالستر وهو يتابعنى مرددا: «آمين يارب العالمين إحنا وإنت والسامعين!»، حتى صرنا فى قلب المعسكر.

استقبلني ولد بلدى بزيطة كبيرة، صار بعضهم يساعدنى فى فك اللفتين، والبعض يصنع لى مـركزا على مبعدة قليلة، اذ جىء ببـعض عـروق الخـشب المتـخلفـة عن الأنقـاض، وبعض الألواح العـريضة الكثـيرة المتـراكمـة هنا وهناك، وألواح الصـاج وأعواد الحـديد. من كل ذلك تشكل ـ فى دقـائق معـدودة والله يابوى ـ كهف جمـيل راكع على الأرض فتح فكيه كالتمـساح المحنط، فإن دخلته وجدته ممدودا، وكلما امتد ضاق مـجاله حتى يلتقى سقفه بأرضه فى انبـعاجة وضعت فيـها صفائح المياه الحلوة للشغل، وأقـمت طاولة عالـية ووضـعت الوابور فى مكانه والأكـواب فى مكانها ولم يبق أمامنا سوى إشعـال النار. صار الجميع فى أشد الشوق لسماع صوت الوابور بل أن الـعساكر المراسلة جاءت من المبانى البعيدة تسأل اذا ما كان الوقت قد حان لفنجان قهوة على الريحة بسـرعة؟.. غيـر أننى كنت كالأهبل فى الزفـة. سامح الله المعلم «دحـروج» ذكرنى بـكل شىء الا شراء الجـاز، إلا أن ولدا بحراويا من سلاح الاشارة غاب قليلا وعاد حاملا زمزمية كبيرة ملآنة بالجاز فاستبشرت خيرا. إن هى إلا ثوان قليلة حتى صهلل الوابور وتوج رأسه بالبـراض العمال الكبـير كعـمامة الصـعايدة لكن زرقـاء. كانت أمـتع لحظة أن رأيت الجـمـيع مصطفـا أمامى فى الكهف وخارجه ممسكين بالأكواب الممتلئة بلون غروب ذلك اليوم.

وكنت أشرع فى إطفـاء الوابور وجمع العدة استـعدادا لمغادرة المعسكر مع زملائى الأنفار حين جاءنى الولد البحراوى وقال أننى يحق لى المبيت هـا هنا حيث أنه قد جـاء لى بتصريح من القـيادة حيث أنهم رحبـوا جميعا ببقـائى فى الليل. قلت: فرجت. جىء لى بصندوق خشبى فارغ وكبير من صناديق الذخيرة قلبته على فمه جعلـت من قعره سـريرا. أما الأكل والشـرب فمـيسـور أمره فى المعسكر وأما الطلبات الأخرى فطريقها معروف وسيارات المعسكر لا تكف عن الرواح والمجىء، ناهيك عن سيارات «فرهود».

الرابعة-بل القراقيش

طابت لى الحياة فى المعسكر يابوى، جرى القرش فى يدى والأشياء صارت معدن وآخر فل بالصلاة على الحبيب النبى: هات واحد شاى ياحسن.. هات خمسة قهوه ياحسن.. ياحسن ياحسن ياحسن صرت أشهر واحد فى الهايكستب كله، الضابط قد لا يعرف بعض جنوده لكنه يعرفنى حق المعرفة. صرت كل بضعة أيام أنزل إلى المدينة لأتسوق المونة، وكل من أراد طلبا من سكان المعسكر يؤجله لحين نزولى. قرش من هنا على قرشين من ها هنا تتجمد الجنيهات، فقبل أن يذيبها دفء ضلوعى أرحلها إلى البلد بحوالة بريدية لأمى.

فى ليلة من ذات الليالى كنت أتأهب لإنزال الباب والنوم، وصوت الوابور كان يون فى بطء شديد لهث يدعونى للتشطيب بسرعة، وكانت يدى قد وصلت بالفعل إلى المحبس لإفراغ الهواء حين دخل على عسكرى صعيدى يحمل لفة مستطيلة. إرتمى على الصندوق قائلا: «واحد شاى ياحسن قبل ماتطفى». صببت له واحدا وبقى فى الكنكة قليل من الشاى، فلما رأيت الولد العسكرى

يلوح بورقة سلوفان فيها عدساية أفيون كبيرة أفرغت بقية الشاى فى كوبة صغيرة لى قائلا للولد: «ليلتك فل». اقتسم الولد عدساية الأفيون معى وجلسنا نشرب الشاى. الساعة فى معصم الولد كانت تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل. الولد العسكرى هذا يابوى، بلدياتى، تعرف على منذ أول يوم، فكرنى بنفسه وفكرته بنفسى وبان أننا كنا أصحاب أيام طفولتنا فى كوم سعيد فى الغنايم قبلى، لولا هذا ما كنت آمنت له. لم أكن أدقق معه فى شيء، مرة يحاسبنى وعشر مرات يشرب ويمشى، لكنه بين وقت وآخر يفاجئنى بهدايا لطيفة، حتة حشيش كبيرة، عدساية أفيون، علبة بولوبيف مبرشمة، علبة سجاير أجنبية، طبق من قطع اللحم المسلوق، أرغفة صابحة مع طبق أرز. ذلك أن هذا الولد يابوى، يشتغل فيما يسمونه بالكانتين وفوق ذلك هو واد ملقط وابن زانية، مفتح على الآخر، جدع، خفيف الدم مفعص الوجه له عيون مثل عيون الكلب ساجية على الدوام وسنتان بارزتان وفك طويل وأذنان طويلتان مما يجعلنا نتصور أن أمه لابد أن تكون قد بنت بكلب وأنجبت منه هذا الولد واسمه «قرقوشه».

كان من الواضح أن الولد «قرقوشة» مسطول على الآخر. قلت له: «إنت جاى منين ياولد؟» سقط الخبث من عينيه إلى شفتيه فتهدلتا بابتسامة مرتجفة. كأنه أراد أن يخلص من النق عليه راح يدعبس فى جيب الأفرول ثم استخرج قطعة حشيش تصلح خمس ست سجائر بالراحة. أغلقت الباب علينا وأشعلت الوابور لكى

تغطى رائحة الجـاز على رائحة الحشيش ورحنا ننسـجم بشراهة كبيرة. فنجلت عين «الواد قرقوشه» فكان لابد أن أسأله:

ـ «إلا قل لى يا واد ياقرقوشه! إنت بتجـيب الحشيش والأفيون ده منين!؟».

قال ضاحكا:

ـ «من باب الله! بيـجـينى لحد عندى من غـيـر ما أدور عليـه! المعلمين الصعايدة يا آبا! قرايب صاحبك! كلهم معلمين كبار قوى! يعجبوك قوى قوى!».

اندهشت والله يابوى، قلت له:

ـ «وإنت إيه اللى وداك حداهم يا قرقـوشه! ولا إيه اللى جابهم حداك! دول ناس شياطين ياوله! وانت راجل على باب الله زينا!».

ضحك الولد الملعون وشد نفسا عمـيقا تبعه بشفطة شاى وقال ببساطة:

ـ «هم كل يوم والتـانى هنا! ومنا عـسكر كتـيـرون يشتـغلون عندهم مراسلة وحرسا وكل ما شئت من شغل!».

اندهشت أكـثر يابوى، تلعـبك دماغى وزغولت بـطنى وصرت أقول:

ـ «هم رتب فى الجيش!؟».

شوح بقبضته السوداء في وجهي غامزا بشفتيه:

ـ «أنت عـدوك أهبل؟! كل واحـد من أقـربائه هو الآخـر له محـاسيب! هي لعبـة ولا إيه! كله ياابني بتاعـه هنا وهناك! أمشي وراه تكسب وتاكل الشهد!».

تحلف اليمين يابوي أن صدري تقـاربت ضلوعه وكبست على أنفاسي يابوي. شيء إلهي قال لي أن الولد «قـرقوشه» وراءه سر غير طبـيعي، انه ولد واعر يابوي، ولا يصح أن تصـدق من كلامه شـعرة واحـدة، وكل من يتلصـق في كبـيـر أو غيـره من الكبـار المهـابين لابد أن يكون ـ من أسـاسه ـ نصـابا مـحتـالا، أو يكون منصوبا عليه مثل ولد بلدي هذا..

كنت لا أزال محـيرا في هذه اللفة التي جاء بهـا معه ووضعـها بجواره على الصندوق، إلى أن نهض واقفا وقال:

ـ «مش عايز أي حاجه من البلد؟ أنا مسافر في قطار الصحافة ثمانية وأربعين ساعة!».

قلت:

ـ «عايز سلامتك! سلم لنا على البلد وكل من تراه».

فمضى نحو الباب يتلصص ويقول مشيرا إلى اللفة:

ـ «خلي دي بقى هدية مني ليك!»

بسرعة امتدت يدى وامسكت باللفة فإذا هى بندقية آلى ملفوفة فى خرقة. كدت أصرخ فيـه يابوى، والذى دار فى دماغى ساعتها أننى يجب أن أصـرخ وألم عليه الدنيـا تبرأة لنفـسى، فلربما يكون وراءه من يراقبنا، لكننى تذكـرت أنه بلدياتى وولد جدع وأننى لم أفعل معه الا كل خير، صحت فيه بفحيح يمزق القلب:

ـ «فى عرضك ياقرقوشه! أنا راجل عندى عيال! عيلة كاملة فى رقبتي! نريد نأكل عيشا فلا تودى بنا فى داهية! الله لا يسيئك!».

الملعون ضحك ضحكا مكتوما وزغدنى فى صدرى برفق قائلا: «ماتبقاش صعيدى مقفول وعبيط!» ثم همس قائلا:

ـ «خير تعمل شر تلقى! الحق على أنا أردت خدمتك! هذه يمكن أن تبيعها بمبلغ حلو! خمسين سـتين جنيها! لست أطلب منك شيئا غير الكلمة الحلوة والعلاقة الطيبة!».

تحلف اليمين يابوى أننى صرت كـالفأر فى المصيدة، أنظر هنا وهناك، أفتح الباب وأخرج وأعود، لأقول له:

ـ «أعمل مـعروف يا ابن الناس! خـذ هذه المصيـبة وارحل عنى بعيدا! الله الغنى!».

إبن الكلب لم يهتز حتى وهو يرانى أرتعش وأكاد أبكى. بل كان يبتسم والفجور يطل من بين أسنانه. ضـغط بيده على كتفى حتى أقعدنى فى هدوء وراح يقول:

ـ «أنت تتفتش حين تخرج من البوابة؟».

قلت:

ـ «لا يابو العم! أنا الوحيد الذى لا يفتشه أحد على البوابة!» إذا به يبتسم قائلا:

ـ «إنهم يفتشونى دائما ومع ذلك لابد أن أهرب كل مرة حتتين وثلاثة!».

قلت:

ـ «كيف يا أبو العم؟».

قال:

ـ «شطارة!».

قلت:

ـ «عجايب والله! وكيف تتصرف فيها ياولد؟!»

قال:

ـ «ألف من يشترى فى الصعيد! وألف من يبيع!».

صرت والله أرتجف من جميع أنحاء جسمى، الا وصوت أقدام مقبلة نحو كهفنا من بعيد، فانخلعت كل مفاصلى وقلت جاءك الموت ياتارك الصلاة. لكن الولد اللعين قبض على كتفى قائلا:

ـ «متخافش! متخافش! على كل حال خليها عندك لحين رجوعى من السفر! فسوف أقابل خطيبتى هذه المرة من بعيد لبعيد».

واذا به يرفع الصندوق قليلا ويسربها تحته ويقوم ليفتح الباب ويمضى مخلفا اياى كومة من الثلج السائح. سمعت فى الخلاء من يؤدى التحية ويسلم على بعض الناس باسمهم، وبقيت فى تكومى أنتظر من القادم أن يدخل فيحملنى ويفتشنى ويضع الحديد فى يدى. القادم كان أحد الضباط ومعه بعض الأمباشية: مساء الخير يابو على.. مساء النور يافندى.. فقمت أشعلت الوابور صنعت لهم شايا وظللت أرتجف خلف النصبة إلى أن حيونى وانصرفوا.

مضى حوالى شهر يابوى والولد لا يرينى خلقته. فقلت والله لأجربن هذه الشغلة. كنت نازلا لشراء التموين فأخفيت البندقية تحت ملابسى فى الحزام من الجنب وخرجت من البوابة دون تفتيش، فأسرعت الخطى إلى محطة «المصحة». وقبل ذلك بحوالى جمعة كنت فى المدينة فخطفت رجلى إلى المعلم «شندويلى» فى مصر القديمة وفاتحته فى هذا الأمر سألته إن كان يستطيع تصريف بندقية؟ فقال: «هات بدل البندقية مائة! هات ماتقدر عليه وخذ منى أربعين جنيها عن كل واحدة». سألته أين ستصرفها يامعلم شندويلى؟ فقال أنه على علاقة طيبة بتجار السمك الكبار كلهم - وكلهم من «كوم سفحت» نواحينا - ومعارك الثأر قائمة بين عائلاتهم لا تنتهى ولا يفرغ لها ضرب نار! غير أن المعلمين الكبار هنا متفقين مع بعضهم إتفاق شرف أن يتم التقتيل فى البلد والا يتعرض أحد لأحد هنا، وما عليهم هنا إلا توريد الأسلحة لذويهم فى البلد!.

كنت أثق فى المعلم «شندويلى»، فاتخذت طريقى إليـه مباشرة، سلمته البندقية فداراها فـى عبه، ثم انصرف وغاب حوالى نصف ساعة عـاد بعدها قابضا على أربعـين جنيها مطوية ووضـعها فى يدى فقلت: «واكراميتى؟!». نظر فى وجهى مترددا ونزع من جيبه جنيهين وضعهما فى يدى قائلا: «مش خساره فيك! بس إنت هات كتير وخلى بالك من نفسك كويس!!.

ثم.. ثم أننى استحليت اللعبة يابوى.

الخامسة ـ حلاوة النـار

كل بضـعة أيام يجيء الولد «قـرقوشــة» منتفخ الصــدر غليظ الجنبـين، فـمـا أن يطمـئن إلى أننا وحـدنا حـتى يرفع الصندوق ويسـحب مـن عبه فـردة أو فردتين وبعض علب ذخـيرة يسـربها تحت الصندوق ويجلس فوقه كأن شيـئا لم يكن. أحيانا لا يجدنى فى الكهف فيفـعل فعلته وينصرف ليعود ثانيـة يعطينى خبرا. أنا أيضا تعـودت كلما غبت عن الكهف وعدت أرفع الصندوق تلـقائيا وأمرر يدى تحتـه بحثا عن الأمانة، وفى العـادة أجد خيرا كـثيرا. تحلف اليـمين يابوى أننى حـتى هذه اللحظة لم أعرف سـر الولد «قرقوشـة» العجيب. لقد حيرنى يابوى وبعثر دماغى فى كل ناحية فمـا نجحت فى فهـمه وما اسـتطعت أن أعيد لم دمـاغى ثانية. اذا فـرضنا ياخـال أن هذا الولد يسـعى لجـمع النقـود من وراء هذه الشغلة فما باله لا يطلب منى نقودا أبدا؟! كلما عزمت عليه بالنقود أبى كل الإباء! غيـر أنه كلما واتته فـرصة السفـر إلى بلده استلف منى شيـئا، من خمسـة جنيهات إلى عشـرة، وفى العادة لايـردها ولا يفاتحـنى فيها. كثـيـرا ما يسـألنى عن حجرين من الحشيش

أو بوستة أفيون فيجدني أدخر له شيئا منه. أتراه ولد عبيط ياخال؟ أم أنه يدبر لتوريطي في عملية كبيرة؟.

غصبا عني أنهيت شغلي بهذا الأمر وركنته في منطقة خفية من دماغي. صرت أتسبب إلى الكسب، وفي كل مرة أقول لنفسي: تكن هذه آخر مرة أتوب بعدها. لكن التوبة ليست سهلة أبدا يابوي، دائما تمنعها ظروف حرجة عن الوصول إلى صاحبها في مواعيد مبكرة، والإنسان في العادة يهرب من التوبة دون أن يدري. في كل مرة خرجت فيها بفردة جديدة وتوبة جديدة أفاجأ بأن سعر الفردة قد ارتفع من تلقاء نفسه عشرة جنيهات دفعة واحدة. ثم أنني رأيت عجبا يابوي، صدق من قال أن من عاش يرى كثيرا ومن لف ودار يرى أكثر. كل معلم من الصعايدة ذوي العمائم الكبيرة الذين صرت أوصل لهم البنادق يدا بيدا أخبروني أن لهم أولادا كثيرين مجندون في الجيش يمدونهم بكل أنواع الأسلحة والذخائر ويرزقون. هم طبعا يغرونني بالإكثار من جلب السلاح لهم حتى لا أخاف.

زهزهت لي الحياة يابوي حتى صرت قادرا على تحقيق كل مطلوب ومرغوب. إلى أن تغلب الوعد والمكتوب، وآن الأوان ليظهر الصحيح من المعطوب، والغالب من المغلوب، والأصيل من المقلوب. ولكن ربك ـ في النهاية ـ رب قلوب.

كان معي فردتان وأربع علب للذخيرة تشبه علب السكر القوالب، فوضعت هذه الأخيرة في جعبة ورقية من جعب

الفكاهانية ووضعت فوقها خلقات قديمــة، أما الفردتان فحشرتهما بالطول تحت تكة السروال وداريتــهما بالجلباب ومن فــوقه لبست بالطو من بلاطي الجيش وخرجت كالعــادة من البوابة دون تفتيش ومضــيت مبسوطا أربعــة وعشرين قيــراطا أغني وأضرب بالموال، حتى وصلت إلى مــحطة «المصحة» فوجــدتها كالعادة خــالية. كنت سائرا فــوق الفلنكات بين القضبــان أبغى الوصول إلى السلم الذى أصــعــد عليــه إلى الرصــيف، إذ أنني مــا قدرت علــى القفــز فــوق الرصيف لأن الفردتين حالتا دون رفع ركبتي، فتفطنت لذلك يابوى ونويت الانتباه جيدا حتى لا أكــررها والا برز بوز البندقية مرفوعا تحت الثيــاب. بقيت ماشــيا ياخال وقد وقــر فى ذهنى أننى خلقت هكذا مصلوب الحيل لا أتعوج ولا أنــحنى. وكان سلم الرصيف قد لاح على بعد فركة كعب، ولاح مــعه ثلاثة من البوليس الحربى من ذوى الكاب الاحمر، وشــخصية الضابط واضحــة عليهم من نظافة السراويل والسترات واتــساقها عليهم. ضربت صفــحا عنهم، مالى بهم؟ قدرت أننى مــا رأيت شيئا يابوى. حــدثتنى نفسى بأنهم ربما يعرفوننى اذ أنــنى مشهور لدى الكبيــر والصغير وعــموم العسكر وحينئذ قد يستوقفوننى ويسلمون على هذا ليس من مصلحتى فى شىء فملعون أبوهم وأبو سلامهم لست منه فى عوز.

تملكت سلم الرصــيف وجــعلت أصــعد فى ثبــات حــتى تملكت الرصــيف نفــسه. وكــانوا هم واقــفــين فى انتظار القطار فــمنعت البصر عنهم ناظرا نحو غرفة شباك التذاكر تحت السقف الجملون وأمامــها الأرائك الخشبــية الخضــراء التى ما أن رأيتهــا حتى طب

قلبى حين تذكرت أننــى لا يجب أن أجلس أو أحاول الجلوس أمام أحد لأن طرفي الفردتين سييرزان فوق صدرى لا محالة.

هى خطوة واحـدة خـطوتهـا يابوى، واذا بواحـد مـن الثـلاثة الواقفـين يتبعنــى مناديا: «خد ياولد». فانحط على قـلبى جبل من الجرانيت الاسـود ياخال، لكننى تجاهـلته على اعتـبار أننى لست ولدا. إذا به قد صار واقفا أمامى واضـعا كفه على كتفى ناظرا فى عينى قائلا: «إنت رايح فين؟». قلت بكل ثبات: «رايح أركب القطار! نازل البلد بإذن الله!». قال: «أنت مجند؟». قلت: «لا! أنا حسن بتاع الشاى! جوه المعسكر! تبع الحاج فرهود المقاول!». زام قائلا: «وإيه اللى مـعاك ده؟». مددتهـا نحوه قـائلا: «خلقاتـى! سوف أعطيـها لامرأة تغسلها! وسوف أشـترى المونة!». لكن يده ـ تستحق القطع ـ كانت أسـرع من جوابى، اذ أمسكت بالجـعبة فـكأنه قبض على قلبى والله ياخـال. فتـحهـا وأمسك علب الذخـيرة مطلقـا من بين شفتيـه صفيرا حادا مخـيفا: «أضبط»، ثم أشار إلى زميليه فلحقا بنا وهم من الاندهاش والفرح فى حال. صار يعرض عليهم العلب. ألهمنى الله بكلام صرت أردده:

ـ «والله والله ياسعادة البيـه أنا لاقيه فى السكة دلوقت ورايح أسلمه لادارة المعسكر!».

زغدنى فى صدرى:

ـ «انت كداب! انت لسه قايل أنك نازل البلد!»

ألهمنى الله من فضله وكرمه:

ـ «ياسعـادة البيه أنت حـضرتك شايفنى عـلى رصيف القطار اللى طالع عـلى المعـسكر! يعنى لازم أروح المعـسكر الأول أسلم الامانة دى وأرجع!».

فما دخل عليه هذا الكلام طبعا. ضحك:

ـ «انت تسـتغـفلنا! أنت تركب من هنا كى تجـد مقعـدا خالـيا! وترجع مع القطار قبل هجمة العساكر على المقاعد!».

صار كل واحد منهم يسألنى سؤلا، كل سؤال يودى إلى داهية كبيرة. والذى طلع على لحظتها: «أنا لقيته وكنت رايح أسلمه! غير كده مـا أعرفش!». من أعطاك من لاقاك من سواك من سـخمطك؟. ما أعرف ما أعرف ما أعرف.

جاء القطار فـدفعنى نحوه وقالوا أركب. قلت: حـاضر، ورفعت قـدمى لأصعـد سلم القطار، فـأرتفع فـخدى، فـبـرزت ماسـورة البندقية تحت الثياب. فعبطوا فى، صـاروا يتحسسون جسدى من كل ناحية وهم يصيحون فى استهوال: مهرب! مهرب!. لم يكن فى القطار غيـرنا فحمدت الله على انحـصار الفضيحـة. عادوا بى إلى المعسكر ظلوا يمشـون بى بين البنايات وقتا طويلا، وعند كل بناية يتوقـفون بى ويدخل واحد منهم فـيغيب دقـائق ويعود وفى أثره عـشرات من الأشـباح الصـفـراء برءوس حمـراء وزرقاء تتـسلل وتتبـصص وتمصمص بالشفـاه وتبصق فى اتجاهى لحظتـها لم يكن فى راسى غيـر أمى وأخوتى والمعلم شندويلـى. ولم يرعبنى فى كل ذلك ـ صدقنى يابوى ـ سوى البنت «حنة»، وماذا ستقوله

عنى لو رآتنى الآن فى هذه الوحلة الشنيعة والعياذ بالله. البصقات ترجمنى فى قفاى إلى أن سهل الكريم فدخلنا فى بناية فيها غرفتان متقابلتان، دخلوا بى إلى الغرفة التى على اليمين فقلت بشرة خير أن جاء كتابى بيمينى فلسوف ينجينى الكريم بإذن الله من هذا المنقلب. دفعوا بى فوق بساط وردى مستطيل تحفه قصارى الزرع من الجانبين استوقفونى. فرفعت وجهى عن الأرض فاذا أنا أمام مكتب يلمع كالذهب، والقطيفة الخضراء تكسو سطحه، وفوقه أوراق وتماثيل وطفايات وعلب سجائر، يجلس خلفه رجل عتل غليظ العنق كبير الوجه كرأس أبى الهول فيه الكثير من تقاطيعه، ثقيل الحاجبين أسودهما بارزهما، ومن تحتهما عينان لا تكفان عن التحديق فى وجهى، عريض الكتفين بارز الصدر كبوابة مسجد. كان يتكلم فى التليفون وكلما سمع كلمة بحلقت عيناه فى بغيظ، فلما وضع السماعة واعتدل ظهر على وجهه أنه قد عرف كل شىء ولم يعد فى حاجة للسؤال عن أمرى. خرج صوته كالزئير تحلف اليمين يابوى أن جنينة حيوانات بحالها فى صوته المخيف: «ايه حكايته بالظبط الولد ده؟!». حكوا له ما حدث بالضبط، وبالملى. خفت أن يظن هذا الدرفيل أن سكوتى إعتراف منى بالجريمة، فبكيت صائحا: *«ياسعادة البيه! ربنا يخليك ويستر عرضك! أنا مظلوم».* ما كنت أظن أن الدرفيل الجبلى يمكن أن يبتسم مثل خلق الله يابوى، أو تبدو عليه مثل هذه الطيبة التى كدت والله أن أصدقها وآكل الطعم الذى فيها، قال فى صوت لا أدرى من أين واتته كل هذه الحنية..

ـ «معلهش! معلهش! إذا كنت مظلوما تأخذ حقك أربعة وعشرين قيراطا!»على كل حال سيبك من الناس دول»

صفق بيديه نحو الواقفين يهشهم، فأدوا له التحية العسكرية واستداروا منصرفين، وبقيت وحدى أمام هذا الرجل التخين، الذى مد بوزه نحوى فى ود كبير، فدهمنى صوت كالريح العاتية: «خد سيجارة»، وأشعلها لى، وصاح: «هات له واحد شاى». وقدم نحوى فلوسا كانت على مكتبه قائلا: «مش محتاج فلوس؟ إطلب مايهمكش! ده احنا بلديات والواجب فوق كل اعتبار!». إنبريت أقول: «تشكر ياسعادة البيه تشكر!» وجذبت نفسا، وحضر الشاى فسمعت صوتا يقول: «إجلس»، فانتبهت ناظرا فى الرجل فاذا هو يقول بالفم المليان: «إجلس»، فترددت كثيرا حتى سمعت الأمر للمرة الثالثة فجلست على طرف الكرسى خشية أن يتلوث جلده من وساخة ثوبى وخشية أن يلتصق ثوبى بالقروح الملتهبة النزنازة فى ظهرى من أثر الضرب بالكرباج والشلاليت والشوم، وتأوهت ياخال من شدة الوجع وانهمرت دموعى ياخال تحلف اليمين كأنها المطر، والرجل يطيب خاطرى ويقول: «إشرب الشاى! إشرب الشاى! قال متخافش! اللى ضربك حياخد عقابه!». وكنت منكسا وجهى فى الأرض لكننى كنت ألمح الناب الأزرق يفح سما فى صوته يؤلمنى يقول لى لا تنخدع يا حسن وإياك إياك. شربت كم شفطة من الشاى وكم نفس من السيجارة ومسحت دموعى بكم جلبابى، فأشعل هو الآخر سيجارة وقال لى:

ـ «إيه بقى الحكاية يابو على؟ قول كل حاجة بكل صراحة! إنت شخصيا معليكش أى مسئولية بس الجدعنه بقى تنورنا بالحقيقة! عشان نبقى عارفين! إنت خايف الخوف ده كله ليه؟!».

قلت:

ـ «أصل الحكاية ياسعادة البيه أننى كنت ماشيا قاصدا محطة المصحة لأركب منها إلى المدينة كى أشترى التموين وأعود! فصادفتنى هذه البلية مرمية فى الأرض وأنا رجل غشيم! لم أعلم أن هذه صناديق ذخيرة لأنها مغلقة بالشمع! وبعدها بخطوات وجدت البندقيتين مرميتين على الأرض ويظهر أن أحدا كان سارقها ورمى بها! قلت فلأسلمها لادارة المعسكر! ولهذا طلعت على الرصيف الذى فى طريق المعسكر! فشاء سوء بختى أن يصادفنى البكوات على الرصيف ولم ينتظروا سماع قولى قفشونى وانهالوا على بالضرب وجرونى إلى هنا بالعافية وأنا ما أستطيع أن أفتح فمى بكلمة!».

أشعل الرجل التخين غليونا من الغلايين الكثيرة المتكومة أمامه، ولاح أنه لم يرض بالاستماع لكلمة واحدة مما قلت فكأننى ما تكلمت. مال نحوى وهبت رياح صوته تحاصرنى من كل مكان:

ـ «شف ياولد! إذا قلت لى من الذى أعطاك هذه الاشياء فسوف أتركك! تعود فى الحال إلى بلدك وأهلك! سنكتفى بحرمانك من الشغل فى المعسكر! فاسمع كلامى أنا ولا يهمك من أى أحد آخر غيرى! فما أقوله لك أنا هو الذى ينفذ!».

قلت بصوتي الغرقان في البكاء:

ـ «والله والله ياسعـادة البيه يمين أحاسب عليـه في نار جهنم أنني أتكلم الصراحة ولا أعرف غير ما قلت!».

فأشعل الغليون ثانية ياخال، وأحمر وجهه، وهدر:

ـ «اذا قلت لي من أعطـاك هذه الاشيـاء لن تكـون متـهـمـا بل شاهدا! أفهمت؟!».

قلت:

ـ «لا إله إلا الله مـحمـد رسـول الله! وحق جلال البـارئ في سماه أنني كـنت ماشيا قاصـدا المحطة فالتقيت هذه البلـية فذهبت لأسلمها فالتقاني البكوات فأعدموني العافية وجاءوا بي إلى هنا!».

أشعل غليونه مرة ثالثة ياخال، نفث الدخان قال كأنني لم اتكلم من الأساس:

ـ «إذا قلت لي مـن أعطاك هذه الاشـيــاءفـســوف أتركك في الحال!».

بحلقت فيه بيأس، قلت:

ـ «يعني إذا قلت لك عليه تتركني حقا!؟».

فاعـتدل ياخال وتضـاعف حجمه وصـار وجهه كسلة البيض ولمع الناب الأزرق في بياض عينيه المصفر، وصاح:

ـ «طبعا!».

فأشرت إلى العسكرى الواقف ببابه وقلت:

ـ «هذا العسكرى هو الذى أعطاها لى!»

انتفض الولد العسكرى صارخا ياولداه وكاد يقع من طوله وهتف فى فزع:

ـ «أستغفر الله! أعوذ بالله! أعوذ بالله!»

حينئذ ـ وبكل هدوء ياخال ـ ضغط الرجل التخين على زر بجواره فدخل العسكرى السابق فابتدره قائلا:

ـ «العروسة!».

فاختفى العسكرى فى الحال كأنه تلقى أمرا بالفرح يابوى، وعاد بعد برهة كأنه الفرح نفسه صحبه اثنان يحملان العروسة. تقدم العسكرى منى وطرح العروسة على وشرع يكتفنى فيها ويتعمد أن يجذبنى نحو مكان بعيد عن المكتب، ثم اذا به يعطى ظهره للرجل التخين ويهمس فى أذنى:

ـ «إياك أن تعترف على أحد حتى لو قطعوا جثتك للكلاب! إننا فى حالة حرب ولابد أن يضربوكما بالنار أنت ومن تعترف عليه!».

شكرته بنظرة عرفان، لست أملك غيرها. إنتهى من مهمة تكتيفى وتركنى للآخر.. وعينك ما تشوف إلا النور يابوى.. فين يوجعك ياحسن ياولد أبو ضب، الكرباج طويل اللسان يابوى وفيه

نار الله الموقدة يلتف حول ضلوعي يمزقـها. يتعب الضارب وتنهد قواه فـيتوقف متـشربا أنفاسه فـيبدأ الوجع الحـقيقي ينتبـه إليه جسدى، ويبدأ صوت الرجل التخين:

- «إذا قلت لى مـن الذى أعطاك هذه الأشـيـاء ترحم نفـسك وتنعتق من الضرب!».

فأرد عليه بنفس الكلام حتى تـعبوا من ضربى يابوى ولم يبق فى جـثتى جلد يتلقى لسع الـكرباج فتـزاحمت عليـه ألسنة اللهب الحمراء فوق بعضها كالجبل والهضاب فوق جسدى. وسلم الرجل التخـين بأنه لا فائدة تـرجى من ورائى، فكتب كلامـا كثيـرا على ورق كثيـر وشوح به نحوى. فاندفع بضع رجال أشـداء يلبسون الأفرولات فدفعونى مقـيدا، ألقوا بى فى عربة البوكس فورد، التى مضت تنهب الطريق نهبا حتى وصلت إلى مصر الجديدة وتوقفت عند منزل فـخيم قـيل لى أنه سـراى النيابـة. دخلناه، مشـينا فى طرقات وصـعدنا سلمـات ومررنا على غـرف، دخلنا غرفـة فيـها أفندى مهيب صغير الدماغ مفلوق الشعر فى الوسط من رأسه كما الممثل «عماد حمدى» ولد الحلويات ذاك الذى يطلع فى الأفلام كان شبهـه الخالق الناطق تقول هو بعينه. ظهر على وجـهه انه مرتاح من منظرى يابوى، وانه - تقـول - مـستـاء لما حل بى وبآدميـتى. فلما دفـعونى أمامـه بعنف كاد يكفـئنى على وجهى صرخ فـيهم: «ماهذا؟». صحت باكـيا: «أنا أطلب الطبيب الشرعى ياسعـادة البيه

أنا واقع فى عرضك ياسعـادة البيه لقد شرحـونى ولسوف أموت بعد هنيهة قليلة». ورفعت ثيابى فعريت جسدى وصرت ألف حول نفسى أمـامه وكان القمـيص يابوى قد التصق بجـروح الجلد فلما رفعته نزع سلخات من جروحى المتقيحة فصار منظر جلدى عجبا والله يابوى. ولما واجهـت الرجل وجدته مبـعدا رأسه إلى الناحـية الأخرى لاويا ملامحه من التألم مـداريا عينيه بكفيه. قادر ربنا أن يخـرسنى لو كنت كـاذبا، كـانت هذه أول مرة أشـعـر فـيهـا أن الحكومـة يمكن أن يكون لهـا قلب وهذا مـا لم يكن يدور لى بخلد على الإطلاق يابو العم.

بسرعـة شديدة تنـاول الرجل الورق وأشر عليـه قائلا كـلاما فهـمت منه أنه لا يقبل أن يتـسلمنى. فنظروا نحوه بغـيظ أشد ثم دفعونى زغدا وتلطيشا تحت الحزام، عادوا بى إلى العربة، انطلقوا عائدين إلـى سراية أخرى فى مـصر الجـديدة، فتلقـانى شاب فى مثل عمرى وتفحصنى جيدا وعلى وجهه كثير من الزعل الحقيقى، ثم أمر بإحـالتى إلى المستشـفى العام. واه وا.. أ.. ه يابوى. مكثت فى المسـتشـفى العام أربعـين يوما مـدة استـمرار الحـبس. ومن المستـشفى رحلونى إلى السـجن رهن الجلسة التى سـأمثل فيـها أمام المحكمة بعد بضعة شهور.

أيام الخلق ستة

الأولة ـ مدرسة الظلام المستنير!

من لم يدخل السجن لم يعرف من الحياة كلها الا نصفها يابوى صدقنى والله، ولم يعرف من طبيعة الخلق الا ربعها بالكثير. أنت يابوى عدم المؤاخذة لا تعرف شيئا وان كنت لفافا ودوارا وما أدراك. لكن تأكد يابوى من شىء هام جدا: اذا لا قدر الله دخلت السجن لسبب من الأسباب فأنت داخل إلى المدرسة الحقيقية التى ربنا ما يكتبها عليك، تغور بكل ما ينتج عنها من معرفة. لكن اذا كان ذلك قدرا مقدورا عليك، ففتح عينيك جيدا والا ضعت فى الأقدام، تفتح عينيك تصبح أستاذا كبيرا فى الحياة، وتخلص من الجنون، تسوق الغباوة، تصبح ممسحة للأقدام..

أيام كانت مريرة ياخال ومليئة بالسواد والهم المقيم. كل المساجين تجيئهم زيارات الا العبد لله كالمقطوع من شجرة. كل المساجين لديهم داخل الزنازين أشياء تخصهم الا أنا ليس يخصنى شىء ولست أحتكم على شىء، فالنقود التى كانت معى صادرها عساكر الشرطة من أول علقة ولم أجرؤ على أن أفوه

بكلمة. مرادى أن أتكسب فى السجن مثلما يفعلون يابوى، فالسجن سوق أشد من أسواق الحرية، بائع الحشيش المسجون شغلته فى السجن بيع الحشيش أيضا، تاجر العملة كذلك، مزيفوها، لاعبو الثلاث ورقات، كل صاحب مهنة قبل الحبسة يشتغل فى الحبس شغلته. التموين يدخل السجن برضاء العسكر وفوق أنوفهم أحيانا ومن وراء مؤخراتهم أكثر الأحايين لكنهم جميعا مرزقون مسعدون ومع ذلك هم يشددون الحراسة على الآخر. عسكر من وبتاع من يابو العم؟! إياك تظن أن فى بلادنا بالذات شيئا يمكن أن يمنعه الحراس، أو عملا يمكن أن يخلصه المستوظفون بدون أن تعطيهم عن يد وأنت صاغر، وطالما أن جميع القائمين على الشغل فى بلادنا يمدون الأيدى حتى وإن لم يخرجوها من جيوبهم فإن ماتسمونه القانون والضمير والعدل مجرد كلام فى كلام يابوى. خذ هذا الكلام من أخيك حسن ولد أبى ضب وقلبه فى دماغك وأنت تعرف أنه حقيقى، اسأل نفسك هل استطعت طول عمرك أن تقضى أى مصلحة بدون أن تبرطل عليها وترشو؟.. فماذا تفعل لو كنت مثلى سجينا وليس فى حوزتك أى شىء ترشو به السجان. معلمو السجن العتاة من فتوات المجرمين والنصابين تجار المخدرات والقوادين أولئك هم حكام السجن يابوى صدقنى والجميع خدم عندهم بالأجر، كل ما يريدون فعله يفعلونه والقرش هو الذى يتكلم، وأنا نفسى محتاج للقرش كى أبر به جسدى المنهوك فماذا أفعل يابوى؟.

قلت : لا عليك يا ولد إن اشتغلت خادمـا لهؤلاء الحكام الفتوات إتبع الحاكم الفعلى يابوى إن كنت ضعيفا مثلى فى موقف ضعف، ووالله كـانت أحلى فكرة: الفـتوة جـالس فى مكانه وأنا أغـسل له ثيابه أطبخ أنظف الزنزانه أسقيه الحشيش أقضىْ له الطلبات، وما المانع ياخـال، اذا كـان من هم أفضـل منى ممن علمـهم أهلهم فى كبريات المدارس وعالى المعاهد يخدمونهم بأمـوال كبيرة فلا ضير على أن خدمـتهم باكلى واصـبح فى حمايتـهم. وهكذا ولفت على المعلم «طريشه»..

تاجر حشيش كبير قـوى يابوى، يخرج من الحبس الاحتياطى ليعود إليـه كل بضع سنوات. تجارته شغالة فى حى الـباطنية من وراء الجامع الأزهر، كالعادة لم تتعطل ساعة واحدة، تموين شربه يجىء اليـه كل يوم فى الحبس فى عـامود الأكل السـاخن نفتـحه يابوى فنجـد المحـمر والمعـمـر والخضـار المطبـوخ والأرز المفلفل والكنافـة والمهلبيـة، كل يوم والله يابوى تحلف اليـمين كـأنه فى المصيف لا ينقـصه إلا أن يجىء البـحر تحت قدمـيه مسـافرا من رأس البـر، فى أيام الزيارات الرسـمية تجىء السلة مـلآنة بما لذ وطاب من فواكـه وسجـائر وحشيش وأفـيون، كل ما تـبحث عنه خارج الحبس فلا تجـده بأى ثمن تجده فى الحبس بأقل ثمن. هذا بالطبع يتكلف تكلفـة كبيـرة يابوى تصل إلى مئات الجنيـهات كل يوم والحدق يفهم..

قل أن هذا الرجل المجدع أعجبنى، أحبـبته والله حبى لكل رجل يكسر أنف الحكومة ويذلها بأى شكل، إنه يشفى غليلى وينتقم لى يابوى. قلت: لابد أن أكـيفـه على الآخر فـالحشـيش لا يسلى ولا يكيف. جئت بكوز صفيح كان فى الأصل علبة عصير وجئت بلبابة العيش الساخن وهى نصف نـاضجة فعجنتهـا ثانية مضيفـا اليها قليلا من التـراب صنعت منها خمس حـجارة من حجـارة الجوزة وبوصـتين قـصيـرتين تركتـها حـتى نشفت تصلبت صـارت لو خبطها فى جـبهة رجل تبطحه. وكنت إنتـزع نتفا من قطن المراتب وحشيات الكراسى أصنع منها أشرطة مبـرومة أغمسها فى الجاز ثم أخفـيهـا فى مكان خفى من الزنزانة مـع غيرها من المـنوعات الصـغيـرة الحجم، أمـا الممنوعات الخطرة كـالحشـيش والأفيـون والنقود الكبيرة التى يبيع بها المـعلم حشيشه فى السجن فكنت أنا مخـزنها، أبرم ورق النقـود مع الأشيـاء فى خوابيـرمدكـوكة فى بعضـها جـيدا وملفوفة ببلاستيك الأكـياس الناعم الأملس حتى إذا ما لبستـها فى مؤخرتى انسابت بسـهولة إلى الداخل وأن حـزقتها تزفلطت خـارجة بكل رقـة، كنت ألبس أكـثر من خـابور، ثلاث أو أربع أدوار فوق بعضـها وأكون عارفا بأن الحـشيش فى الخابور الاخير ليسـهل إفلاته كلما احتجنا لتعمير الدماغ، إذ نفرك السجائر أو الدخان المعسل فوق حجر الجوزة ونشعل الشريط ونمرره فوق الدخان المزوج بالحشيش ونشفط بمزاج كأننا نشرب على أحسن جوزة لدرجة أن المعلم «طريشه» نوى أن يأخذ هذه العدة معه عند خروجه من الحبس..

بهذه الطريقة وحدها يابوى استطعت أن أمكث فى الحبس الاحتياطى كل هذه الشهور، وأنا كل بضعة شهور أمثل أمام قضاة المحكمة فأظل فى القفص الحديد من باكورة الصباح حتى آخر الجلسة إذ يؤشر القاضى على أوراقى قائلا: يعود كما كان.. فأعود كما كنت يابوى ولا أحد يسأل فى صحة سلامتى والمعلم «طريشه» يصبرنى قائلا إن الله معك، ويعشمنى أنه حين خروجه من الحبس وخروجى بإذن الله سوف يأخذنى لأشتغل عنده نفس هذه الشغلة التى أشتغلها له فى الحبس. إلى أن جاءت إحدى الجلسات ذات يوم فمثلت أمام القاضى حتى انتهت الجلسة فنادوا على فدخلت الغرفة التى يدخلها القضاه فور إنتهاء الجلسة كالخائفين المذعورين من أهل التقاضى. واذا بى أمام ثلاثة من الأفندية كل منهم يكفى لتخويف بلد بحالها وكل منهم راح ينظر فى عينى يقلبنى من فوق لتحت. قال الجالس فى وسطهم وقد ظهرت عليه الطيبة: «ياولد أنت». قلت: «نعم ياسعادة البيه». قال: «أنت لقيت هذا السلاح وكنت رايح تسلمه مش كده؟». صحت على الفور قائلا: «مظبوط ياسعادة البيه! أنا لقيت هذا السلاح وكنت رايح أسلمه!». فظهر الانتصار على وجهه وتراجع منجعصا للحائط صائحا فى الكاتب الجالس بجواره: «اكتب: لقيت السلاح ـ وكنت ـ رايح أسلمه!»، وضغط على كلمة كنت ضغطا طويلا ممطوطا ألقى به الرعب فى قلبى فلم أستطيع فتح فمى بكلمة. وإذا به يطوى أوراقه قائلا: «يعود كما كان».. فعدت كما كنت يابوى وقد أيقنت أننى مكتوب لى لقمة عيش طويلة الأمد فى الحبس،

والمكتـوب ما منه مهـروب. يوم ذاك جاء المحـابيس يزورون المعلم «طريشه» فى زنزانتـه فتكلموا جميـعا فى موضوعى، إنهم فـقهاء فى القـانون يابوى أحسن من الـقضـاة والمحامـين يابوى بل هم أذكى من واضع القـانون نفـسـه. ليتـهم مـا تكلمـوا يابوى، لقـد كسحـونى، كسروا مقـاديفى كلها، أفتوا كلهم أن عـقابى فى هذه القضية لن يقـل عن خمس سنوات، نعم يابوى خمس سنوات هـى براءتى فى هذه القضيـة كما يقولون أما حكمـها الحقيقى فـالعياذ بالله منه.

الثانية ـ زائر الفرج

.

لكنها الدنيا يابوى أحوالها عجب فى عجب!..

فى ذات ليلة كنا جالسين كالعادة نشوف مزاج المعلم، إلا وصوت الأقدام يقترب من الزنزانة، فانتبهنا، فما كدنا نشعر بالمفتاح يوضع فى قفل الباب حتى دارينا كل شىء بكل سرعة وتمطرقنا على الأرض كأن شيئا لم يكن. ما أن انفتح الباب حتى اندفع نحونا شاب أشقر الشعر أبيض الوجه مستطيل طويل القامة يبدو أنه ابن ناس وابن مدارس ومن الواضح أنه لم يتعود على الإهانة. انغلق باب الزنزانة فى الحال فبقى الشاب واقفا فى منتصف الزنزانة كى تتعود عيناه على محتوياتها، ثم استدار نحونا متطوحا كالسكران المجهد قائلا: «مساء الخير»، ثم ارتمى على الأرض متربعا بجوارنا، فكشفنا عن العدة من جديد وشرعنا نشوف مزاجنا بعد هذه الخضة الجامدة. وكنت مترددا فى الكشف عن العدة خوفاً أن يكون ضيفنا هذا من المباحث المدسوسين علينا وعلى أنا بالذات، لكن المعلم «طريشة» قرأ فى وجه الشاب أنه متهم بالفعل فى قضية وليس يمثل دورا، ثم أنه

راح يتابعنا فـي انبهار شـديد ولم يمتنع عن الشـرب حين ناولناه البوصة بل أمسكها بحرفنة واشتياق..

حجر فالثانى فالثالـث فالعاشر أنهى علينا الشاب حكايته من طقطق لسلامو عليكم. اسمه «وائل عـثمان» وشغلته ويا للعجب - إمـسك رأسك يابوى - وكـيل نيـابة، وتهمـتـه تزوير فى أوراق رسمـية خاصـة بجوازات السفـر وهو فى الحقيـقة مظلوم فيـها ولسـوف تنكشف براءته بسرعـة. هو بالفـعل طيب وبرىء. هكذا قـال المعلم «طريشـة» من أول مـا بدأ الشـاب يحكى، والمـعلم «طريشـة» لا يخطىء النظر أبدا، إنه يعرف ابن الناس الـبرىء من المجرم من كـلامه سلوكـه طريقة جلوسـه نومه أكله شـربه. كان «وائل عـثمـان» يظل طول الليل يفكـر فى قضـيـته وفى القـانون والسيجارة الأجنبية - أليس ابن ناس؟ - مصهللة بين أصبعيه على الدوام. الزيارات تجىء له بشكل متواصل فيها أطايب الأكل يفرده أمامنا كله. لقد أحبه المعلم «طريشة» كما أحببته وصرنا مشغولين بقضيته أكثر من شغلنا بقضيتنا. لكنه ذات ليلة شرب معنا حجارة كـثيـرة وبدت عليه عـلائم الانبسـاط فـراح يستـمع إلى حكايتى بشغف، كاملة هذه المرة بعد أن كان يستمع إليهـا نتفانتفا صغيرة. فلما أنهـيت كلامى ضحك من كـثرة السرور وخـبطنى بكفه على كتفى قـائلا والإشراق كله فى وجهه: «أنت قضـيتك سـهلة وبراءة مائة فى المائة». قـلت أنا والمعلم «طريشة» فى نفس واحـد: «كيف

ياراجل؟». قـال: «وأنت في المعـسـكر! هل كـانوا يفـتـشـونك في الدخول وفي الخروج؟». قلت: «لا يابوي! أنا لم يكونوا يـفتشوني لأنهم عرفوني ووثقـوا في». قال: «أنت لا تقل هذا! إذ أن المفروض أنهم لابد أن يفتشوك وأنت خـارج من المعسكر!». قلت فرحا: «نعم ياخال!». قال مشـوحا بيده: خلاص! انتهت القضـية». قلت: «كيف ياراجل؟» قال: «إنهم فتشوك عند خروجك من البوابة! وهذا معناه أنك لم تسرق سلاحا من المعسكـر! إذ لو أنك سرقته لضبطوه في البـوابة عند تفـتـيـشك! ومـعنى هـذا أنك لقـيت هذا السـلاح في الطريق».

تحلف اليـمـين يابوي أن هـذه الكلمـة نورت في دمـاغي مـثل الكلوب في الفـرح قلت: «والله أنهـا فكرة كـبيـرة يا بوي! من أين جئت بهـا يا ابن الناس الطيبـين!». قال باسمـا: «تراك تستطيع أن تشرح هذا للقاضي؟». قلت مرتعشـا بالفرحة المنملة: «ربنا معي». قال: «مـعك محـام؟». قلت: «لا والله يابو العم! محـامي هو الله!». قال كأنه يسـرح بخيالي: «لا عليك! إن المحكمة ستنتـدب لك محام يدافع عنك بالمجان! وسأكـتب لك مذكرة قانونية تعطيهـا للمحامي أول ما تراه!». قلت وأنا في غـاية العجب: «الله يكرمك ويوقف لك أولاد الحلال! الله يفتحها في وجهك دنيا وآخره! الله لا يوقعك في ضيـقة ويفـرج عنك ما أنت فـيه!». فـصار يربت على ظهـري في حنان وصرت أبكي في غزارة..

«وائل عثمان» إبن أصل صحيح يابوى اللهم زد وبارك. ظل أسبوعا بحاله يطلب ورقا أبيضا وأقلاما وكتبا بعينها يحدد لزواره أماكنها فى دواليب بيته، وأسبوعا بحاله يكتب فى هذه المذكرة كل يوم يكتب صفحة، إلى أن حان موعد الجلسة فأخذت هذه الأوراق معى إلى المحكمة، ووقفت فى القفص الحديدى إلى أن نودى اسمى فصحت كالموج قائلا: «أنا أطلب المحامى الذى تندبه المحكمة للدفاع عنى من فضلها وكرمها علىّ!» - وكان «وائل» قد لقننى هذه الصيحة - فانسلخ عن مقاعد المحامين رجل عجوز تبدو الطيبة على وجهه، وتقدم منى قائلا أنه محامٍ، فدفعت إليه بالورقات فذهب يقرأ فيها طالبا إرجاء القضية حتى آخر الجلسة، فاستجابت له المحكمة، فجلس منخرطا فى القراءة باهتمام وتقرفصت داخل القفص أتابعه بقلب واجف وهو يقلب الصفحات واحدة بعد أخرى حتى أتمها ورفع وجهه عنها وبدا متحمسا للكلام. ونودى اسمى من جديد فانبرى المحامى يدافع عنى بكلام من دماغه يشبه الكلام الذى يقوله «وائل» بالضبط وقد أكرمه الله من أجلى فانطلق لسانه فى كل واد وقال كلاما كبيرا يابوى رقص له قلبى من الطرب، شرح للمحكمة حالى وغلبى وطيبتى واستحالة أن أكون ذلك المجرم الذى يتراءى للمحكمة الموقرة.. وفى النهاية يابوى لم أصدق نفسى وأنا أسمع صوت الحكم علىّ: سنة مع الشغل! لم أصدق الا بعد أن بارك لى الحاجب والمحامى فرفعت ذراعى صائحا: يحيا العدل!.

الثالثة- فولة فى قلب غولة

حاجة تهوس يابوى، الدنيا أمورها عجيبة ولها فى كل يوم تصانيف من تصاريف لا تخطر للبنى آدم على بال. أنا مثلا يابوى خرجت من الحبس يامولاى كما خلقتنى يارب ترزقني، لا قرش ولا عشرة، الثوب الكشمير والآخر البوبلين والقميص والسروال تسلمتها من عهدة الحبس فلبستها ومضيت فى شوارع مصر المحروسة أتنسم عبير الحرية أتمنى أن أكون فى عشرات الأماكن فى وقت واحد وأرى عشرات الناس فى لحظة واحدة. كنت جائعا فشبعت وتعبا فاسترحت ومريضا فشفيت كل ذلك من هواء الشارع فحسب، أى والله يابوى، وبالأمارة كان يخيل إلى أن كل من يلقانى يجب أن يقف ليسلم على وأسلم عليه فى اشتياق ولست أفهم من أين جاءنى أن كل أهل المدينة كانوا على علم بمجيئى وأنهم تبعا لذلك لابد أن يفاجئوا من رؤيتى فى الخلاء طليقا، إن هو إلا إحساس عجيب قاتله الله يابوى، إحساس بأننى قد صرت مبصوما ببصمة السجن حتى وإن صرت حرا..

غير أنني ما لبثت حتى جعت وصرت هفتانا أتطوح فى مشيتى كخيال المآتة المخلوع من الأرض تلعب به الرياح مشــتهاها. شبعت من اللف فى شوارع المدينة وحـواريها التى كانت أوحـشتنى وفى النهاية صــرت أتمنى رقعة من الأرض أتوسد فيـها ذراعى وأسلم روحى للكريم الذى لا يغـفل ولا ينام، حـيث لا يصـحينى بالأمـر سجان ولا يتـأمر على جاويش أو خفـير أو ديدبان. لكن أين هذه الرقعة يابوى؟ هـذا حلم كبير جدا يابوى، فى هذا البـلد لا يتحقق مثل هذا الحلم، إنه لا يتحقق الا فوق مصطبة دارنا فى بلدتنا حيث أمى وعين الله ساهرة..

«الرجل تدب مطرح مـا تحب» هذا مثل من الأمـثال شـهدت به أرجل البشــر على مدى الأزمان ياخـال. الذين قبلنا قـالوا وقولهم حق مدون فى صحائف الأيام يابوى. أنا مثلا، ما الذى عاد بى إلى حوارى مصر القـديمة رغم أننى لاقيت فيها الهـوان وشربت منها كاســات الذل والمرار. المؤكد يابوى أننى لـى فيهـا ضلع كبـير هو المعلم «شــندويلى» أحب أن أراه ويرانى، ولى فـــيـهـــا أيام حلوة وليالى أنس وأن كانت قليلة فإنها لا تغيب عن البال أبدا..

أمر عـجيب والله ياخـال، لقد كنت مـقبلا على مـصر القـديمة وكلى ســرور وابتهـاج كأننى فــى سكة المرواح إلى بلدى وأهلى، ففى أول النـهار كنت أسيـر بلا هدف أترك الحوارى ترفـعنى إلى الشوارع والشــوارع تدلقنى فى الميادين والميادين تدهورنى وقـتا لتسلكنى بعـده فى اتجاه غيـر مقصود. أمـا مصر القديمـة فإننى

قصـــدتها قــصدا دون أن أدرى وترســمت طريقــها حتى أشــرفت عليهــا قبيل العــصر بقليل.. فمــالى كلما اقتــربت منها ودخلت فى عمق حواريها ينقبض قلبى كأن يد مارد شيطان تفعصه..

وا.. ا.. ه يابوى، أنا أقول لك الســبب ولكن، لا داعى، فضك من هذا السبب فــربما أكون كاذبا فــيه، فليس يعلم بسر القلوب غــيره سبحــانه وتعالى، إنما الذى أنا متأكد منه ياخال أن حــوارى مصر القــديمــة وشوارعــهــا راحت تلقى فى وجــهى بالليــالى الســوداء الكالحة جماعات وفــرادى كلما أوغلت فى دروبها طلعت على سود الليالى تفح فى شحوب المساء تذكرنى بنفسها يابوى تتعرف علىّ، تكاد الأحــجار المرمــية على نــواصى الحارات تهب واقــفة وتقــبل نحوى مــسلمة ومعانقــة بالأحضان تقول لى أيش حــالك يا حسن ليس على وجــهى سوى ابتــسامــة أشعر أنهــا جفت من طــول ما أومأت لليــالى السود الكالحة مذكــرا إياها فى رقة بأننى هو، نعم أنا هو، ذلك الذى أحــبك بمآسيك وبلاويك وفــضائحك وشــقاواتك المعــذبة. المصيــبة ياخال أن لــيلة من كل هذه الليالى التى تعــرفت عليها وتعرفت على بين حوارى مصر القديمة وشوارعها لم تتكرم وتدعونى للبقاء فى حجــرها حتى الصباح يابوى، لم ينطق صوت واحد يقول تفضل ياحسن على العــشاء أو حتى على شرب الشاى أو حتى تفــضل ولو على سبيل برو العــتب.. رضينا بالغلب ولكن الغلب لا يرضى؟!.

قلت والله لا أرضى بذل أبدا، ومضيت لا ألوى على شيء حتى خلفت مصر القديمة وراء ظهرى وصرت فى إسطبل عنتر. تذكرت فجأة أننى ما مررت على المعلم «شندويلى» وكان الواجب أن أمر يابوى فالمعلم «شندويلى» كله واجب، وهو القلب الحنون الذى كنت أضمن عنده غدوة كبيرة ونومة خلية البال هنية لكنه المخ الصعيدى يابوى، تربس تربسة شديدة ولم يشأ أن أعود كل الطريق الذى مشيته. يخيل إلى يابوى أننى صعبت على نفسى أن يرانى وقشف السجن على وجهى وكل جسدى وعلى لسانى. ثم طرأ الخاطر الكبير على دماغى يابوى قائلا: وما الداعى ياأبا على أن يعرف المعلم «شندويلى» أنك كنت فى السجن أصلا، لو علم ربما يستقلك فى نظره ولا يعتمد عليك فى سر، وقد يتسرب الخبر منه فيعلم به ولد بلدى وتكون الفضيحة فى بلدتنا. قلت: ياما أنت كريم يارب، ومضيت أخترق شوارع اسطبل عنتر..

فى اسطبل عنتر مقهى صغير خفيف الدم يقع على ناصية صغيرة لكنها بارزة، صاحبها يرص كراسيه القش المفعصة ودككه الخشبية الملفقة فى أرض الشارع الذى لا تسير فيه الناقلات، يجلس فى هذه المقهى خلق كثيرون من باعة السمك السريحة وأنفار شغل الفاعل والشيالين والتباعين. لى فيها ولد صديق يمسح الأحذية فى الشوارع بصندوق صغير ويتخذ من هذه المقهى موطنا ليليا حيث يلعب القمار مع شلة من أصيع خلق الله. مثلى اسمه «حسن»، غير أن أهله يدلعونه فيطلقون عليه أسم

«ميمي». دلع الفقارة يفقع المرارة كما يقول المثل والاسم غير راكب عليه لكنه يركب عليه فقط في قهوة «بعره» هذه وفي العشش التي يسكن مع أهله في واحدة منها على بر الجيزة نحو جزيرة الذهب، حيث كل سكانها معفرين صدئي الوجوه وبينهم «حسن» هذا أبيض الوجه على جبينه خصلة شعر كأولاد الذوات. له ثلاثة إخوة صغار يشتغلون مثله في مسح الأحذية ولا يرجعون الدار إلا لَمَماً. وإني لأحب هذا الولد لأن فيه لطشة الجدعنة يفعل أشياء يعجز عن فعلها رجال بشوارب غليظة وحافظات نقود منتفخة، لا يهمه أي شيء. هو الآخر يحبني لله في لله وكان يتعارك من أجلي مثلما أتعارك من أجله اذا وجد أحدنا الآخر في زنقة.

الولد نط من الفرح بمجرد أن رآني والله يابوي وشالني عن الأرض: «أزيك يا حسن أهلا وسهلا عاش من شافك». جاء الشاي فشربناه وحدنا على كوعة الرصيف المقابل وقام «ميمي» فاستلف علبة سجائر صغيرة وضعت بيننا. قال: «أنت قادم من البلد؟». قلت: «أنا قادم من السجن مباشرة إلى هنا!». نهض واقفا في الحال يقول: «طب يلا بينا»، ثم سحبني إلى كورنيش النيل بعد ميناء أثر النبي، فعبرنا النهر بالمعدية ومضينا على الشاطيء قليلا حتى وصلنا إلى عشة بين حوالي مائة عشة مبنية بالطين والبوص على مساحات عريضة بين عشب وأشجار كثيرة.

الرابعة ـ عيان يضاجع ميتا

فى وسط دارهم البرحة حكيت له حكاية السجن من طقطق لسلامو عليكم. احتفت بى أمه العجوز لما علمت بالحكاية وذبحت لنا بطة كبيرة سلقتها فى الحال مع حلة أرز ومرق. أمه كانت طيبة وتشبه أمى لحد كبير يابوى، قالت وهى تضع الأكل أمامنا بحب: «اقلع هدومك أغسلها لك وأزيل عنها رائحة الأيام المشئومة». خلعت ثيابى وخلع ابنها ثيابه، وبقينا فى السراويل فحسب متحررين من الخشية على الثياب فنزلنا على الأكل حتتك بتتك، شفطنا من المرق ما كان يتصبب فى الحال عرقا لذيذا. مصمصنا عظام البطة حتى لم تعد للقطط والكلاب بعدنا أى بركة تراجعها. وبعد الأكل شربنا الشاى دورين وأتينا على بقية علبة السجائر. تمطرقنا على الأرض نستشعر الرخاوة نستكمل بقايا الكلام حتى سطلنا الهواء الخريف فغطسنا فى نوم عميق، حتى الولية هى الأخرى..

لولا أن البول حصرنى فحلمت أننى أتبول ما كنت صحوت كانت الدنيا تبدو لى لحظتها وكأننا فى منتصف الليل، وأنوار

مصـر تلعلط من كل ناحيـة فوقنا وتصب فى حـوش الدار شيـئا قليلا من لآلئها. لكزت «ميمى» فتقلب وفتح عينيه قائلا كأن الكلام لم يتـوقف بيننا بعد: «هــيه! ويعــدين!». قلت: «أريد أفك حصــرا». أشار إلى تعـريشة فى ركن الحـوش البعيـد فعرفت أنهـا الكنيف فـاتجهت اليـها فـقضـيت حاجـتى واسـترحت وبحثت عن عـقب سيـجارة أشعلـه فوجدت «مـيمى» يحتـفظ بسيـجارة قدمــها لى مـشتـعلة فتـربعت لبـعض دقائق وبضـع أنـفاس ثم طلبت ثيـابى لألبسها فذهبت الولية لتـأتى بها من على حبل الغسيل فلم تجدها، لم تجد لمحـتويات الدار كلها أثرا، حـتى الحلل والوابور والأكواب. صوتت الوليـة بكل عزمها، فـأيقنت أنه النحس يابوى قد لحق بى فى هذا المكان الهادىء. صرنا جميعا فى ربع هدومنا بل فى كامل عرينا، إذ ليـس من خيط فى إبرة يستـر عورتنا اذا أردنا مـغادرة عتبة الدار، وقلت لابد أن شيطانا يترصدنى يابوى.

شىء إلهى قال فى نفسى: كـفاك هذا يا حسن وتأدب وقم من هذا المكان. شعـرت بالرعدة فى قلبى والله ياخـال، فطويت وجهى عن السمـاء وقفلت جـسمى على نفـسه كـأن السجن قـد تقاربت جدرانه على حتى الـتصقت بجسدى وتشكلت بعـريه وقلت للولية فى صوت يقطر البكـاء منه: «والله ياولية اننى لا أعرف مـا أفعله الآن فدبرينى». طوت الولية وجهها عنى ومسحت دموعها الهاطلة وتمخطت ثم قالت: «تدبرها الطاهرة أم العواجز أم هاشم ابنة بنت

رسـول الله». صـحت جـاعرا كـأننى أشـتم وأردح: «مـدد ياست زينب! ورينا شطارتك! أكـيد لك الدلال على ربنا!». نهـضت الولية بقلب كـسيـر وصارت تروح وتجىء حـائرة تشد فى ذيل ثوبـها وتستنزل اللعنات على من فـعل هذه الفعلة الـخسيـسة فينا: «إلّهى ما يوعـى يبات! إلا هى يتـقطع جسمـه تحت عجـلات قطار! إلّهى يصرف أضـعاف أضـعاف ثمنهـا على الحكماء ومـر الدواء وشر البلاء!»..

استوقفتها قائلا كأنهـا المسئول الأكبر عن زنقتى هذه الشنيعة: «كل هذا لن ينفع ياخـالة فـدبرينى!»، فـأشاحت فى أسف. وبعـد صمت طويل كظيم نهـض «ميمى» ومضـى خـارجا بطريقة فـهمت منها أنه سـيبحث عن اللص ويجـىء به من تحت طقاطيق الأرض. لكنه غـاب يابوى. وطال صـبـرى وأنا أجلـس تارة وأنهض تارة أخرى كـالسبع الهائج أريد أن أفتـك بالولية وأهدم هذه الدار على نافـوخها الـنحس، وهى فى كل مرة تنجح فى تهـدأتى بسـياقـها للنبى وللولى وآل البيت كلهم مما يعجزنـى عن التمادى فى الهياج خشية الغلط فيهم هم الآخرين وهم شفعائى عنده سبحانه على ما صدر منى تجاهه من لحظة فائتـة. لكننى ياخال كلما تذكرت أننى خرجت اليـوم من الحبس إلى حبس من صنف جـديد تغلى الدماء فى عـروقى كـيفـمـا يغلى الماء فى براض الشـاى ويتـفـرتك من الغليان..

غابت الولية قليلا ثم عادت وفي يديها كوب شاي ثقيل رغم ضيقي الشديد بمنظره فإنني انشرحت قليلا لمرآه، الخاطر الذى جاءني لحظتها أن أطيح به وبيديها في الهواء فليحرقها الله. قالت الولية أن الجيران سمعوني وعرفوا كل شيء وحزنوا من أجلي وأن أبنها هناك يتباحث معهم فيمن يكون السارق الجبان، وانحنت ووضعت كوب الشاى بجواري. منظرها صعب على يابوى فسكت. وبعد وقت قصير وجدت يدى تمتد. على كوبة الشاى فإذا للشاى طعم عبقرى يابوى، سرى منه الخدر فى أعصابى فشعرت أننى استرحت. بحثت بعينى عن الولية فلم أجدها، فقمت أتمشى من جديد ولكن فى هدوء هذه المرة، أحاول الوصول إلى بر ولكن بدون فائدة يابوى، لا طريقة ولا حل والدنيا مثل خرم الإبرة وأنا الخيط يريد أن ينفذ منه فى حلكة الظلام. الدموع تهطل مدرارة على خدى وأنا أحس من لهيب غليانها أن الله غاضب على هذه الأيام وأنها أيام نحوس بالنسبة لى ولن يرضى عنى سبحانه إلا بعد زوالها وهو وحده يعلم متى تزول لكن العشم فى رحمته قريب. إذا بالولية داخلة تحمل بين يديها خرقة كالحة تقترب بها منى قائلة أن الجيران ناس على باب الله مثلنا وقد فتشوا عن ثوب قديم عندهم يمكن الاستغناء عنه فلم يجدوا لأن كل ثيابهم فى الأصل قديمة ومعظمها خليع مما استغنى عنه آخرون لكن أمهم الطيبة دخلت القاعة فرأت عجينها مغطى بهذا الثوب فنظرت فيه فوجدته لا يزال صالحا لتغطية الجسد ففرطت الأم فى عجينها

واستغـنت ـ كتر خيـرها ـ عن هذا الثوب فعسـاه ينفع أو يقضى مصلحة.

غصبـا عنى تناولته يابوى، رحت أقلب فيه وأتحـسر على حكم الزمن الجبان وفعل الأيام فى. الثوب خشن يابوى، ملىء بحبيبات قطع العـجـيب الناشف ورائحـة النخـالة والتـراب وخـراء القـمل والبراغيث والصراصير الا أنه متماسك النسيج وليس به إلا رقعة واحـدة من ناحيـة الكتف وبقـعة عـريضـة جدا من زيت الطعـام شربت من الوسخ والتراب ما شربت ولا يزال ملمسها طريا كجلد الأفاعى. لكننى لبسته يابوى، وضعـته على كتفى وأدخلت أكمامى فيه وطرحـته على بدنى فاستـقام كاسيـا حتى ما فوق الركـبتين بقليل. قلت: نحـمد الله على ذلك، وقلت للولـية: سأرجع بعـد قليل وقولى لابنك ينتظرنى فسوف أبيت عندكم سواد الليل.

الخامسة ـ الله أكبر لكن الليل كافر!

أخذت الباب فى وجهى ومضيت..

تملكت شاطىء النيل وبقيت ماشيا لا أعرف لى وجهة أخرى، حتى لاح لى من بعيد ضوء خافت محمر، كان يزداد احمرارا وتالقا كلما تراجعت بيوت المدينة وأحاط الظلام كل شىء. قد عرفته يابوى، تذكرت أننى أعرفه، أعرف أن هذا الضوء يقوم أمام خص على هذا الشاطىء يسكنه خفير وأولاده، إذ أن هناك من يملك هذه الأفدنة الكبيرة من طرح النهر قد زرعها أشجارا صغيرة لا أحد يدرى ما هى بالضبط حتى خفيرنا، وجاء لها بماكينة مياه وبهذا الخفير يحرسها، تذكرت أن اسمه «عم دهب» وأنه يخفر هذه الأشجار وهذه الماكينة منذ سنوات، فى النهار تراه متردداً على أسواق السمك والفاكهة يداعب التجار ويتحدث معهم حديثا وديا طيبا، وهو مشهور بينهم. قلت: لا مفر ياعم دهب! أنت الآن الذى أمامى وقد جاءت الطوبة فى المعطوبة هذه المرة ولكن ماذا أفعل! أنت على الأقل تستطيع التصرف أما أنا فلا أستطيع شيئا مطلقا! فدعنى أسرقك بالطيبة أو بالغصيبة بدلا من قتلك أو قتل روح أخرى!..

أخذت اداري نفسي وأظهرها كلما اقتربت من خص الرجل. كان صوت أم كلثوم يصدح مغنيا هلت ليالي القمر ـ مع أن الظلام كان دامسا. فلما حاذيت الخص من جانبه الأيسر داريت جسدي في ضلعه ونظرت فإذا بالراديو ماركة صوت العرب معلق في مسمار في جدار الخص، وإذا بـ «عم دهب» وزوجه وأولاده نائمون على الشاطيء أمام الخص كالسطيحة ،هم يتبارزون في الشخير كأنهم يهزءون بصوت أم كلثوم، همست قائلا: معلهش ياسيدة الغناء ياآنسة فلسوف أثأر لك الآن. ومددت يدي فأغلقت الراديو، فساد سكون كبير سرعان ما احتلته أصوات الضفادع والصراصير وصوت الشخير. تحسبا للموقف صفقت بيدي تصفيقة واهنة قائلا بصوت أشد وهنا: ياجماعة ياللي هنا. فلم يجاوبني سوى الشخير، فتسللت على أطراف قدمي ودخلت الخص، لأرى ثياب الرجل وزوجه وأولاده معلقة على مسامير في الحائط فلممتها كلها ولففت فيها الراديو وكل شيء وجدته. وتسللت خارجا أمشي على الشاطيء في هدوء وسرعة شديدين وأنا اقول: استر يارب.. حتى وصلت إلى دار صاحبي «ميمي» والفجر يقول: الله أكبر.

في دخلتي كان صاحبي يتعارك مع أمه يوبخها على نومها والولية لا تزال تستنزل غضب السموات كلها على الذين فعلوها وعيشوها هذه الليلة الكحلاء النحس التي دخل الحرامي في أعقابها ففتشهم تفتيشا. طرقت الباب ففتحت لي وشهقت لما رأتني: «لقيت الحرامي؟». قلت: «نعم!». فهب صاحبي وأقبل

مهرولا: «كيف؟». دفعتهما معا إلى صحن الدار مغلقا الباب خلفى بالترباس، وقلت للولية وأنا أفك الصرة الكبيرة: «هذه حلل وأطباق ووابور بدلا من الذى ضاع منك ياخاله! لعل النحس يزول عنك! وهذه ثياب لك أحسن مما سرق! أما أنت ياصاحبى فهذا ثوب لك أجدد من الذى سرق! وهاك فانلة صوفية بأكمام جزاء لك على كرمك معى! أما هذا الجلباب الصوفى المعتبر وهذا الثوب البوبلين الفخيم وهذا الصديرى الشاهى - بكل ما فى جيوبه - وهذه الفانلة القطنية وهذا السروال وهذا الحذاء وهذا الراديو فإنها جميعا لى ياخال! الله الله على الجد! والجد الله الله عليه!»..

قال الولد وأمه فى نفس واحد: «حلال عليك ياعم! والله إنك لتشكر!». ونظر الولد فى عينى قائلا بلهجة موروبة غير سالكة: «عملت كيف يا ابو على؟». حاذيت ظهر كفى بفمه وشطخت فيه: «لا شأن لك! أشغل أم بحلقة!». إعتدل الولد قائلا: «شغل طبعا! شغل!»، ثم نهض من فوره فارتدى الفانلة والجلباب فظهر كأولاد الناس وإتفق فى الحال على أن تقطبها أمه من الذيل والجنبين مقدار ثلاثة قراريط، ثم خلعه ورمى به لأمه، التى تلقفته وفى الحال راحت تبحث فى عقدة منديل رأسها عن ابرة الخياطة، وعاد صاحبى يثقب الصديرى بنظرات كالحة صايعة، خاصة بعد أن سويت الصديرى على ضلوعى فكأنه على مقاسى بالضبط.. ولقد راح قلبى يرقص تحت ثقل المحفظة الكبيرة التى كانت فى جيبه يابوى، أشبه بمحفظة تجار الحبوب والأقطان يابوى، وكنت أؤجل فتحها لا أعرف لماذا ياخال. بسرعة سويت الجلباب البوبلين على

جسدى ومن فوقه الجلباب الصوف ثم الحذاء فبدوت كشهبندر التجار في زمانه، رحت أخطو وأعود مجربا المشى رافلا فى ثمين الثياب فوجدته غاية المراد من رب العباد حقا يابوى، وعذرت الناس فى تكالبهم على ذلك وتذكرت قول أحد الأئمة لعله «أبو حنيفة» إذ يقول على لسان عمى الفقيه الكبير: «تقمشوا بثمين الثياب يحترمكم الناس!»، يومها قال أحد المعترضين الأذكياء على عمى الفقيه: «دعك من هذا ياسيدنا فأبو حنيفة كان يروج للقماش باعتباره تاجر أقمشة بالوراثة!»، وشخط فيه عمى الفقيه وطرده من مجلسه.. طب ما قولك الآن يابوى فى أننى قد صرت متحيزا لأبى حنيفة فى هذا القول؟ صحيح أن الإمام أبا حنيفة لم يحل لنا مشكلة الفلوس التى سنشترى بها هذا القماش الثمين ولكن الذى صار مؤكدا لى الآن هو أن لبس القماش الثمين هو رفل النعيم حقا، فاللهم اوعدنا به..

قطعت الحوش فدخلت التعريشة الكثيفة موهما أننى سأفعل مثلما يفعل الناس، وجلست، وجلست فعلا على الملاقى بعد أن حللت سروالى فاذا بى بالفعل كنت أريد ذلك فمضيت افعل ثم انتهزت الفرصة وأخرجت المحفظة بقلب واجف ويد منتفضة كأننى أسرقها الآن فقط، فتحتها وانتهكت جيوبها بسرعة فاذا هى تحمل خمس ورقات بخمسين جنيها وسبع جنيهات فكة وخاتم فضى مكسور وبعض أوراق صغيرة مطوية. خرجت يدى بثلاث جنيهات مطوية ثم أطبقت المحفظة فطرقعت كبسولاتها بلذة

وأعدتها إلى جيب الصـديرى. لمحت ظل صاحبى يتلصص على من خلف باب التعـريشة الصفيح، وبحـثت عن ماء فلم أجد فمـسحت مـؤخرتى بطوبة ونهـضت رابطا سـروالى وخرجت إلى الحـوش ملاحقا صاحبى الذى كان يسرع لينفى عن نفسه شبهة التجسس على، قـبضت على ذراعـه وبالأخرى عرضـت له الجنيهـات قائلا: «وجـهك فقـر! هذا كل ما وجـدته! خـذ»، وترعت جنيهـا أخضـر سمهـرى القوام عريض المنكبين يقف على صـدره وجه أبو الهول فما رآه صاحـبى حتى وقع مغشيا عليه من الفرح، فـصرت أدفعه ببوز الحذاء فى جبينه وذقنه ليـفيق وهو مندمج فى التمثيل يرمى جثتـه يمينا وشمالا ويشهق شـهقة طلوع الروح كلما فـتح عينيه ورأى ورقة الجنيـه فى يدى. دفعت بالجنيـه فى صدره ومـضيت قـائلا: «دعني الآن أذهب إلى حـال سبـيلى قـبل أن يطلع النهـار فـتحـدث فى الأمور أمـور!». فـمضى مـعى نحـو الباب بالفـانلة والسـروال وعـانقنى، فـحضنتـه، ولحـقت الوليـة بى عند البـاب فاحتضنتنى وقبلتنى فى جـبينى قائلة: «مع السلامة يا ولدى! الله يسـهل لك ويفـتـحـهـا فى وجـهك ويبـعـد عنك أولاد الحـرام!». فاستـهدى قلبى خيـرا بهذا الدعاء، وقلت والله أنها دعـوة تساوى عندى أضعاف ما أعطيته لها.

وخرجت، فـمضـيت أخرم فى طرقات مـتوغلة فى بر الجـيزة أمـشى بخطوات ثابتة واثقـة وإن كـان قلبى فى صدرى كـبندول ساعة المسجد ياخال.

السادسة ـ الهروب من قرص الشمس!

أدركتني الشمس واقفا على محطة الجيزة فى انتظار قطار الصعيد. فبقيت نافرا من قرص الشمس مزورا عنه أحاول أن أتلاشى رؤيته لوجهى. حتى جاء القطار فركبته فظل القرص يطاردنى من شباك القطار يترصدنى من سمائه ويسرع فيسبق القطار بأميال، وينتظره ليشده، فكأنه يبحث بين عموم هؤلاء الركاب عنى وحدى، يشدد لهيبه، يظهر أنه سيستندل معى ويشى بى للركاب، يفضحنى الفضائح السبع كلما أفحمته بإغلاق هذا الشباك يابوى هب هلف من الجالسين أمامى وطلب رؤية المزارع والخلاء والضوء الصباحى الدافىء الحلو، يعطينى الهلف دروساً ومواعظ فأفتح الشباك رغما عنى وشىء الهى فى نفسى يقول ياولد إقصر الشر ولا تتشابك فى خناقات على الصباح فاخز الشيطان وأوصل إلى أهلك على خير. أغمضت عينى فى وجه الشمس وتذكرت الراديو ففتحته فانطلق صوته برقصة ساحرة كأن الكون بجميع أركانه يرقص ويمزك مع شادية وهى تغنى: «يانور عينيه وأكتر وأكتر شويه يا أغلى عندى م الدنيا ديه» فتطلع وراءها الموسيقى هاتفة مشخللة ودماغى سابح فى بحر

ذاك وأمى تحضننى مغنية نفس الكلام على نفس الموسيقى، ثم تمنيت لو أن البنت «حنة» بنت أبى سكين هى التى تغنى لى هذه الغنوة وصوت الكمسارى يدخل فى هذه المزيكة صائحا فى غلظة: «أنت ياخويه ياللى هيمان فى الخيال تبتسم! النبى تبسم! لكن فين التذكرة!»، فصحوت مبتسما ووضعت يدى فى جيب الصديرى الصغير المعد للساعة فأخرجت التذكرة جديدة خضراء سميكة فأخذها الكمسارى وقرضها بالكماشة وأعادها إلى فأعدتها إلى نفس الجيب وقد داخلتنى نشوة إذ أدركت حلاوة أن يكون للمرء صديرى كهذا لأشياء كهذه فيا للأبهة يا ولد يا ولد أبى ضب والله صرت الآن رجلا محترما ولو على قفا الآخرين يهز لك الكمسارى رأسه بالتحية. ثم أن الكمسارى دخل مع الهلف الجالس قبالتى فى كلام وحديث فهمت منه أن هذا الهلف لم يقطع تذكرة ويريد قطعها الآن ويناكف الكمسارى ويساومه والكمسارى يقول له يا بجم. تكيفت يابوى من حلاوة أن يكون مع المرء نقود يهينها بدلا من أن تهان نفسه... عندئذ يا بوى سخرت من قرص الشمس واقتنعت أن له مهمات أخرى كثيرة وأننى لست فى حسبانه فاضطجعت ممددا منصتا إلى صوت الراديو. وكان فى جيب الصديرى علبة سجائرها مفعصة هى بقايا سجائر «عم دهب»، وكانت بعض سجائرها مقلوبة على وجهها فرجحت أنه يميزها عن غيرها إذ هى محشوة بالحشيش لابد، غير أننى لم أتذكر ذلك ولم أنتبه اليه إلا بعد أن دخنت آخر سيجارة من المقلوبة، سرح

دماغى مع الراديو، شىء مليح والله يابوى، مليح قوى قوى، هذا الشىء المسمى بالراديو، يصدح بالغناء والكلام والموسيقى والقرآن والتشخيص والمسخة وكل شىء، قال الرسول عليه الصلاة وأتم السلام: من علامات الساعة أن ينطق الحديد وها هو ذا الحديد قد نطق وملأ الدنيا زيطة وزمبليطة ولم تقم الساعة بعد فمتى تقوم القيامة؟ وما المقصود بهذه الساعة يابوى؟ إنها ساعة القيامة بالطبع ياخال، وما القيامة ياخال؟ ما القيامة التى ينتظر أن تحدث ويكون نطق الحديد علامة من علاماتها؟ عقلى يحدثنى يابوى أنها قيامة الخلق! يقومون ليفعلوا شيئا كبيرا ياخال! يقلبون الدنيا مثلا فيجعلون أعاليها أسافلها لتتنفس خلق طال انكتام أنفاسهم وليجرب آخرون انكتام الأنفاس!؟ وإن من يكتم أنفاس الخلق يقوم الخلق عليه ذات يوم فيفكوا قيود السجن عن الهواء الذى استلبه فيمرح الهواء فى فراغاته الحميمة يعانق الخلق ينبت الزرع ترقص فروع الشجر تتبختر الأنفاس تنزل غيثا يهمى على الخلق بالحياة!! فى ظنى يابوى أن الرسول عليه السلام قد صدق وأن القيامة سوف تقوم حتما قسما عظما لكن حين يؤون الأوان لينطق الحديد ـ هذا الحديد الناطق ـ بكلمة السر الحقيقية! التى لست أعرفها بالضبط يابوى!.

شيئا فشيئا راح صوت الراديو يشحب وينداح ويهزل، فتذكرت أنه يعمل بالحجارة البطارية مما يباع لدى البياعين فى سوق العتبة وسوق غزة والدكاكين البندرية. اغتممت لما تذكرت أن

حجارة البطارية هذه ستكلفنا كل يوم والثانى، وازددت غيظا لما تذكرت أننى لا أعرف كيف تنزع البطارية القديمة وتركب الجديدة. خفت أن تنفد البطارية قبل وصولى إلى العيال فيصير الراديو مجرد صندوق غير ذى قيمة. أغلقته وركنته فى حجرى محلقا عليه بيدى واستسلمت للأفكار: ماذا ستفعل يا ولد؟ غدا أو بعد أن تنفد وتبقى أنت على الحديدة وتعود ريمة لعادتها القديمة. شىء إلهى قال لى: يا ولد سلمها لله فليس من المعقول أن يعمل هو عقله بعقلك الصغير ويمسك لك على الواحدة، إنه الأب الحنون ولابد أن يرضى عنك فى يوم من الأيام ولكن بشرط أن تقدم أنت فروض الطاعة والولاء يا حسن كما يقول عمى الفقيه الكبير، وعموما فأنه سبحانه يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الملك وإن شاء أن يعزك فسوف يفعل أو يذلك فالأمر بيده، ولكن، معلهش يارب.. معلهش يعنى بس فى ذى الكلمة التى أوجهها اليك الآن بقلب صاف ونية خالصة: كيف أتوب يا بوى والفقر والعوز يلاحقانى أينما سرت؟! مر الفقر والعوز أن يحلا عنى ويرحلا من تحت أقدامى! أو فمر أمى واخواتى أن يقفلوا بطونهم ويدفنون عريهم تحت التراب الوجيع! اصدر أمرك إلى كل ثقب إبرة فى جسدى أن يتنازل عن كل مطلوب وكل مرغوب! حينئذ ـ يارب ـ يصبح فى مقدورى أن أقول لك أن توبتى نصوحا ونهائية عن كل فعل يغضبك أو يؤذى عبادك الصالحين! أننى واثق يارب أنك سبحانك قادر على كل شىء وما أظن أن هدايتى أمر يصعب على قدرتك لكنه مفتقر إلى مشيئتك..

الدموع صارت تنهمر من عينى يا خال، انهمرت كما المطر حتى ارتجفت من شعور بالبرد القارص رغم اشتداد صهر القيظ الماشى لصق شباك القطار. كلما جففت الدمع يزداد انهمارا كأنه البئر الزلال كلما أخذت منه يفيض ويمتلىء. شىء إلهى فى نفسى يقول: ابك ياولد مشتهاك ولا تترك فى مخازن الدموع قطرة واحدة دع كل المواجع التى ادخرتها فى الحبس أمام الرجال وفى التلطيم فى سود الليالى تنز وتعصر كل قيحها فلربما يسكن الوجع إلى حين أو إلى الأبد..

وهكذا ياخال بدأ غسيل عينى يجف شيئا فشيئا وبدت الدنيا أمامى زاهية مخضوضرة عليها يلمع الندى.. فشعرت أن أرض الحبايب قد هلت منذ بضع محطات سابقات فصرت أستنشق ريح محطة «صدفة» التى تحمل فى ثناياها ريح دارنا وأمى وأخوتى. قمت فسويت طوقى وأصلحت قفاى ونفضت حذائى وسحبت من الرف جعبة ورق مطوية على خمسة كيلو من فاكهة مصر الطيبة اشتريتها من فاكهى فى قفا المحطة فملأت الجعبة بعنب ورمان وخوخ وتفاح مما يشتهى العيال ويسمعون. تأبطت الجعبة برفق ياخال، تماسكت فى عامود الباب أترقب رصيف محطة «صدفة» وهو يزحف داخلا تحت سلم الباب كأن الرصيف هو الذى يجرى. لم أكن لأطيق صبرا حتى يقف القطار نهائيا، فما صدقت أن هذا لهاث الرصيف وتثاقل زحفه حتى رميت بنفسى مقلدا أولاد البندر، حين يفعلون ذلك يجعلون وجوههم فى اتجاه سير القطار

حتى يمكنهم التماسك فى الأرض، لكننى لحظتها كنت معلقا على سلم الباب ملقيا ببصرى فى الاتجاه المعاكس الذى يخلفه القطار وراءه إذ أن عينى كانت ترقب الطريق الزراعى الذى سأرجع كل هذه المسافة لأسلكه إلى بلدتى «كوم سعيد»، فلما ألقيت بنفسى على الرصيف دفعنى الهواء المواجه بشدة وعنف فألقى بى فى الهواء بعيدا، لأفاجأ بنفسى منطرحا على ظهرى على مبعدة من سور الرصيف رافعا ساقى فى الهواء ممددا ذراعى والألم فى رأسى وظهرى لا يطاق ياخال. صرخت من عزم ما بى وقلت آه ياعمرى. لكنى لا أدرى كيف نهضت مسرعا كلمح بالبصر، لأرى الأرض مبذورة عنبا ورمانا وخوخا وتفاحا، وليس ثمة من راديو..

أخذت ألطم وجهى وأشد فى طوقى وأولول وأهلوس أصرخ لله ما يغيثنى. جاء نفر من الركاب يهرولون نحوى بكل لهفة وبقايا صراخ وصياح، فلما رأونى واقفا على حيلى ظهر الاطمئنان عليهم وصاروا يجمعون ما يمكن جمعه من فاكهتى وقد صارت كالكنافة يابوى، كنافة معجونة بعيد عنك. حاولنا وضعها فى الجعبة لكن الجعبة كانت تفتقت وتهرأت. بحثوا عن جرنان مع أحد فلم يجدوا فكوموها أمامى على الأرض وانصرفوا، ووقعت عينى فجأة على الراديو عند آخر الرصيف وقد صار إلى ثلاث قطع منفصلة وإن اشتبكت فى بعضها البعض بأسلاك وبدت السماعة كقبضة العجين سوداء مخرمة مليئة بالغموض واللمعان

كوجه النحوس التى تتصدى لى هذه الأيام ظلما وعدوانا والله يابوى. وليت نحو حطام الراديو فرأيت جوارها خرقة بالية كالحة سرعان ماتعرفت عليها فاذا هى الثوب الخلق الذى سبق أن جاءتنى به الولية أم صاحبى «ميمى» من جارتها وكان غطاء للعجين، اذ أننى حين خلعته فى دار صاحبى احتفظت به بغرض الانتفاع به فى لف شىء. قلت: ياما أنت كريم يارب، وانحنيت فجمعت اشلاء الراديو ووضعتها فى الخرقة وقد داخلنى شعور بأن أعرض أمره على سمكرى البلدة عله يتمكن من إعادة لحمه وتشغيله وعدوت على بقايا الفاكهة فجمعتها لففتها مع أشلاء الراديو فى الخرقة التى كان مقدرا لها أن تلف جسدى نفسه فى زنقتى ولكن ها هى ذى تلف أشلاء ذنبى تزفنى إلى الأهل خائبا أقول ياسابل الستر كفانى ما لحق بى من الكسفة والمذلة واشملنى برحمانيتك الواسعة.

من حسن الحظ يا خال أن أحدا لم يتعرف على فى الطريق والكل يرد على سلامى كالماكينة: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته اتفضل يا أبو العم. الوحيد الذى تعرف على حقا هو أمى يا بوى. فتحت لى الباب فشهقت فدبت صدرها بالحيل صائحة باشد عزم فى قلبها ولدى. فرميت بنفسى فى صدرها عابس الوجه كظيما. فما أن ردت وراءنا الباب حتى تفجرت باكيا، كأن كل بكائى داخل القطار كان الزلازل تسبق انفجار البركان الذى ينعطف على الأرض الملائمة. لم أكن أدرى أبكائى هذا أم بكاء

امي.. لكننى كنت أوقن يا بـوى أن صـخـور الحيـاة وكلاكـيع المر المتكورة بأحشائى وفوق صدرى قد انصهرت وذابت من لحظة ما لامس خدى صدر امي. بكيت نيابـة عن كل الحواديت المرعبة التى وددت لو أحكيـهـا لها ياخـال، وعن كل الأخـبـار المؤلمة التى طالما استـشـعرت لذة حـين أرى حالها إذ تعـرفها. كـان كل ما أريد أن أحكيـه لها كـثيرا يا بـوى، معقـد ومؤلم، فـاكتـفيت بالبكاء كلـما تصيدت أمى مناسبة تجرنى فيها للحديث عن مصابى وغيابى كل هذه الشهور بدون حس ولا خـبر. كنت فى بعض اللحظات أشرع فى أن أحكى لهـا يابوى، لكن عبـرة البكاء تكتفنى عن الـكلام فلا أكمل ولا أتكلم من الأسـاس..

إلى أن جاء يوم تأكـدت فيـه أن أمى قد تمكنت من ترجـمة كل دمعة دمـعتها ياخال، وباتت تعـرف عنى كل شىء دون أن أحكيه لها بالكلام. ولما تأكدت هى أن مخـزون الدمع فى عينى قد نضب، بدأ دورها هى فى البكاء وما أفظـع بكاء الأم عندنا ياخال، أمى أنا بنوع خاص ينبـوع بكاء، لم أر لبكائها ضريبـا فى البر كله، تبكى اشهـور وسنين خلت كان حالى فيـها ـ وحالهم ـ يسـتحق البكاء الأليم. تحلف اليـمين ياخـال أنها لم يشـغلها عـن الاستمـرار فى البكاء سـوى نجاح السـمكرى العفـريت فى لحم صندوق الراديو وتجميع عدته والعكرشة فى أسـلاكه حتى وش ونطق وصار عال العـال ولكن بشـرط أن نضـع حجـارة الـبطارية من الخـارج فى

صندوق صغير خاص بها وموصول بالعدة بسلك ومربوط فى صندوق الراديو بحزام من الأستك. بات فرجة حقيقية نفخر بها على أهل الشارع كله ونلقى من أصواته العجائب والمدهشات، حتى أن سحنة وجه أمى قد تغيرت والله ياخال وانشدت بعد تهدل وكرمشة امتلأت بدم الحياة من أنفاسى فى الدار بعد جفاف وتحرق. صارت كل يوم تتنازل عن شىء من همومها وتخشبها حتى جاءت لحظة صارت تتمايل فيها مع موسيقات الراديو الراقصة، ولولا الحياة لهزت جزعها، لكن الحياء والحق يقال يا خال لم يكن يمنعها من أن تغنى أحيانا مع المغنى. تحلف اليمين ياخال أننى انحرق قلبى حزنا عليها وعلى نفسى من أجلها. أيقنت أن الولية ـ أمى ـ فى نفسها الفرح على أشده، وأخوتى البنات يعرفن ذلك ويحسبنه حتى شوشة الدماغ.. فمن تراه يكون ذلك الشيطان الرجيم الذى يحكم علينا جميعا بأن نتوق للفرح ونشتهيه حتى الحزن الأليم حتى صار الحزن طبعنا وغيرنا فى ملذات النعيم غارق يلهو. قلت فى نفسى: والله لأفرحنك يا أم ويا أخوتى مهما كان الثمن باهظ التكاليف، سوف أفرحكن أشد الفرح ولو على جثتى وجثة الشيطان نفسه..

سلسلة أعمال خيرى شلبى

الكتاب الثانى

(الكومى)

وثانينا الكومى

أيام الأسبوع سبعة:

الأولة ـ هلت ليالى القمر

نجحت أمى ذات ليلة فى أن تتصيدنى فى حالة رائقة، إذ أن الأمر الذى ودّت أن تحدثنى فيه قد يسعدنى فأطير فى الهواء فرحا، وقد يصدمنى فأشكمها فى وجهها بقبضة يدى. لكنها أمى يا بوى ولا كل الأمهات، حويطة أشد من حوط المشير ولد أبو عامر يا بوى، تصيدت روقان مزاجى وضحكى على الفاضية والمليانة فصارت تحكى نوادر وأخبارا ونكتا تمثل خلالها أدوار الهتماوات والأطفال والمخنثين وسباع الليل ـ أى الكلاب، حتى ضحكت وصفّيت الغم كله، وقلت:«كفاك يا أمّ لقد أوجعت بطنى من الضحك». فسرعان ما أمرت إخوتى البنات بأن يفضضبنها سيرة ويقمن لتلصيق (الجلة) وتبييت الفراخ والتتميم على الأرانب وسد هواء الباب الكبير وخروم العشة حتى لا تجد العرسة منفذا تنفذ منه للدجاج، والحذر من الثعبان الساكن بجوار العشة فى أمان لا يؤذى إلا من حاول إيذاءه، إلى أن يأذن الله باستقدام أحد الرفاعية للقبض عليه يدًا بيد فى صنعة لطافة.

. داخلنى الاطمئنان يا بوى وحدثت بقلبى «نغمشة» مفرحة فى انتظار لخبر طيب، وقبل أن أتهيأ لاستماعه يا خال كانت أمى قد

رمت به فى جملة واحدة كأنها لاتزال تحكى النوادر والأخبار والنكت. التهيت برهة ثم انتبهت فجأة فصحت فيها: «ماذا قلت يا أمٍّ؟» قالت كأنها تخشى من ترديد الخبر مرة أخرى «ألم تسمع؟»قلت:«أحب أن أتأكد»، قالت بكثير من الحرج وقليل من الفرح المضمر، مشوحة:«يو..و..ه .. قلت: إن خرابة يدوّر على أختك سعدية!».

رجعت بدماغى إلى الوراء يا بوى، اعتدلت فى قعدتى عدة مرات، شوك فى كل موضع صار يشكنى فى قلبى، صارت كل الدماء فى عروقى أسنان شوك تسعى فى عروقى تشعل النار فى حلقى فى رأسى فى عينى. ربنا ما يوقعك فى ضيقة كهذه يا خال، تحلف اليمين إنها ولا ضيقة القبر!..

«خرابة»؟! «خرابة» بذات نفسه يا بوى؟! يدّور على أختى «سعدية» يريد أن يخطبها ويتزوجها، وهو الذى يستطيع بإشارة أصبع أن يخطفها ويستحلها كخليلة، كجارية دون أن يجرؤ على اعتراض طريقه نفر واحد لا من الناس ولا من الحكومة من التخين للجعيص فيها. أما أنا فلست سوى قشة. ريشة إذا تمطع ونفخها طيرها الريح بددًا. الحكومة بجلالة قدرها لم تجرؤ على اعتراضه يا بوى ولم تفلح فى الإمساك به يا بوى، فهل أقدر أنا يا غلبان يا مسكين أن أعترضه أو حتى أعترض عليه؟! هذه والله محنة جديدة منيت بها ياحسن يا ولد أبى ضب فهل لم تجد المحن فى الدنيا هدفا تستضعفه سواك؟! لولا تأكدى من حب أمى لوثقت أنها دعت على بألاً يجبرنى الله ويجعلنى أبد الدهر فى قلق ووجع دماغ!..

- ٦ -

هى برهة واحدة يا بوى، سرعان ما رأيت نفسى بعدها قد تحسنت وصرت فى آخر روقان، اختلست البصر نحو أمى فوجدتها مطرقة إلى الأرض وجهها ملفوف برداء أحمر وليس أسود كالعادة - توحى لى به أنه من علامات الفرح والموافقة عندها، فقلت لنفسى ولماذا لا توافق يا ولد أبى ضب؟ لقد كان بإمكان «خرابة» أن يفعل ما يحلو له لكنه استرجلك واعتبرك وعمل لك حسابا ووقارًا فجاء يدخل البيوت من أبوابها، رغم أن دخول البيوت محرم عليه منذ سنوات وسنوات باعتباره أحد ستة مطاريد يحكمون الجبل يتسلطنون عليه. قل يا بوى: إننى شعرت بالعزة مقدما، انتفخت فى قعدتى وانتويت الحديث فى المهمات على أرض الموافقة. لكن خاطرا ملعونا جرى كحشرة البرص فى رُكن من دماغى، فاقشعر جسدى من نعومته وزفلطته واختراقه نخاعى: كيف تأتّى لخرابة أن يرى أختك «سعدية» يا ولد وهو الذى لا ينزل البلدة قط إلا بتدبير يتم على مدى أيام، ومراقبة مستمرة على طول ليال وفى لحظة لا يعرفها أحد، حتى من رجاله المرصوصين على امتداد الطريق الذى سيرتقيه رائحا غاديامن

الجبل إلى داره ومـن داره إلى الجبل والبنادق والمدافع الرشـاشة مخـبأة فى أعـشاشـها داخل الثـياب كـالدجاج الراقـد على بيض يتكسـر، والقذائف الـعمـياء على أهبـة الانطلاق بدون تفـاهم مع الصـدور أو الأكتـاف أو الأدمـغـة أو القلوب فإن نـفد الرصـاص فالخناجـر والسكاكين والسيـوف مربوطة على السيـقان والزنود والسـواعـد غيـر بائنة، هـكذا هو كلمـا نوى رؤية أولاده فى يوم موسم أو يوم عيد أو ليلة مفترجة وهكذا زوجته هى الأخرى كلما نوت أن تأتيـه فى مربضــه السرى بالجـبل تحت نفس الحـراسة المشددة!..

فـ «خـرابة» يا خال مطرود منذ مـا يربو على عشـرين عـاماً، ومحــكوم عليه بمائة وخـمســة وسبـعين عـاما من السـجن المؤبد والأشـغـال الشاقة المؤبدة مع أن عـمره كله لم يبلغ الأربعـين بعد، حيث إنه قتل أرواحـا لا حصر لها، فى معـارك مع أولاد عمه ومع الحكومة، نـجح خــلالها فى ترحيل أبناء عـمومتـه إلى بلدة أخرى، مكتفين شــره بالبعاد، ونـجحت الـحكومـة فى أن تسكنه الجبل إلى الأبد كبديل عن السـجن. لكنها ـ لزناخة مخـها، لم تفطن إلى أنها عينتــه إمبـراطورًا على الجبل وعلى البلدة كـلها. فمن يتـحكم فى الجبل يتحكم فى البلدة. على الدوام: حـاكم الجبل هو حاكم البلدة، وإن كان لها عمدية وخفـراء يسندهم عسكر ومآمير وحكمداريون ومخاليق لا حصر لهم، البلدة، والبلاد المجاورة كلها تحب «خرابة» لأنه حماها من لصوص ومن عائلات متجـبرة كثيرة كبيرة فطارد

اللصـوص حتى مـحاهـم، واستـبقى أرجلهـم، فتـوّبهم وضمـهم لرجاله، فصاروا من خـلصائه، أما العائلات المتجبرة فـكسر أنفها، وفرض عليها الفرضة تدفعهـا عن يد وهى صاغرة: تقول سبحان الله والحـمد للـه. اسمـه «خـرابة» لكنه سخى جـواد على رجـاله يخطب لهم أجمل الفتيـات وأغنى السنابير يكلف لهم ولهن أعراسا داوية حافلة يرقص فـيها الخيل ويرتع القـوم على المزمار والطبل البلدى ليالى بطولهـا حتى الصباح، لهذا تمنـى كل شبان البلدة أن يكونوا من رجاله يا بوى، ولو جئت للحقـيقة لقلت إن شبان البلدة كلهـا بالفعل مـن رجاله، يخـدمون تحـت إمرته أو إمـرة زوجتـه، أولاده صـحـابه، حتى مـن يشاع عـنهم أنهم من رجـاله، لهم فى صدور الناس مراتع وفى قلوبهم مدافئ وفى رحابهم خيرات. ويل لمرشح الدائرة، إذا لم يتصل بـ «خرابة» وينسق معه كل شئ، على المرشح أن يتنكر حتى فى زى امرأة خلبوصة ويسلم نفسه لرجال «خرابة» ليـجد نفسـه بين يوم أو أكثر قـد التقى بامرأة مـثلها أو كهلا طيب القلب أو شحـاذا غلبـانا أو درويشًا أبله يتكلم معه باسم «خرابة» كلامـا لا ترد فيه سيـرة «خرابة» على الإطلاق ولا شىء يتعلق بأمره. إنما هو كلام عن الانتخابات والعائلات والأحزاب مما يتكلمه عمـوم الناس فى كل مكان دون أن يثيروا شبـهة ولا قيلة، ولكن المرشح يعرف بعد لحظة الانفـضاض والانصراف أن هؤلاء الذين قابلهم كانوا«خرابة» بذات نفسـه، والمرشح مهما كان شريرا لن يكون غبيـا أبدا فيبلغ عسكر الشـرطة والمباحث ليقيمـوا كمينا للقبض علـى «خرابة» لأنه لو فقـد عقله، ففـعل ذلك، فإن مـذبحة

سيعلو أوارها فى الحال، يكون هو أول ضحاياها من أول بادرة شك تُشتمّ ريحتها فى المحيط الجبلى كله. ولماذا يفعل المرشح ذلك وهو يمنى نفسه برضاء «خرابة» ليفوز بالتزكية، فلو فاز ـ ولابد أن يفوز ما فى ذلك ريب ـ فـآه ثم آه على النعيم الذى يحل على كليهما ويفيض على أهل الدائرة، النائب يتعهد بينه وبين نفسه بالعهد الذى قطعه على نفسه تلميحا أو تصريحا مع «خرابة» بأن يظل يحمى أهل الدائرة، فكيف يحميها يا بوى؟ يعنى أن يظل يحاجى عليها ويمنع أرجل الحكومة من النزول إليها أو إقامة نقط ومراكز فيها، ومهما كثرت القرى وتغولت المدن يظل كل مركز شرطة يحتوى على مجموعة كبيرة من البلاد يحار فى حكمها الفرس والروم يا بوى، وتظل المدارس مقصورة على المدن البعيدة، حتى لا تصيب القرى بكثيرٍ من المتلامضين المتفلحسين جلأبى المشاكل ووجع الدماغ، هذا هو عين ما كان يطلبه المرشح لكى تبقى دائرته مجرد ضيعة يتملك ثلاثة أرباعها على الأقل. فمعظم الناس عنده إذن أجراء، وكان «خرابة» يعرف دائما أن المرشح يخدعه بطلاء القول فكان يلف عليه من وراء لوراء ويطلب وساطته لإدخال أبناء الناس الموسرين سلك المدارس، وثمة شبان كثيرون فى الدائرة يدينون لـ «خرابة» بفضل إلحاقهم بكلية المحامين وكلية الدكاترة وكلية المهندسين وبالوظائف:

تومرجية فى المستشفيات وكتبة فى التفاتيش وملاحظى أنفار فى الوسايا، هذا كله لخرابة وحده فما بالك بخمسة مطاريد آخرين عتلاّت من حكام الجبل؟!..

«خرابة» هذا كله يا بوى، جاء يخطب أختى «سعدية» فيا لها من أملة كبرى، ولكن كيف بالله يا مسلمـين عرف «خرابة» أن لى أختا واسمها «سعدية» بالذات، وأنها جميلة لدرجة تستحق أن يتزوجها على زوجـته أمّ أولاده المجدع التى لـم تفرط فى عرضـه قط، ولم تكن أقل شـهامة منه! دعنا مـن هذا، ولكن لا تدعنا من هذه النقطة التى ربما كـانت ثقـبـا غـائرا يا بوى: كـيف تعـرّف«خـرابة» على أختى؟!..

وهنا غـاضت الدماء فى وجـهى وارتفع دق الطبـول فى قلبى، لكن أمى كـانت أسرع من دقات قـلبى، إذ قالت:«كان خـرابة نازلا فى العيد الفـائت فى دُغَيشة الفجر مـتنكرا فى زى درويش عبيط، فرآهـا خارجـة من الدار إلى الترعـة تملأ البلاص وهـى تتـدلع فى المشى على راحتـها ظنا منها أن الطريق خـالية، فرآها، فسـحرته، فسأل عنها، فدلوه، فبـعث يطلب منا عنوانك فى مصر ليفاتحك فى أمـرها، فاسـتمـهلناه بعض الوقت زاعـميـن أنك عائد فى القـريب العاجل!».

الصـدق كـان واضـحـا فى نبـرة الوليـة يا بوى، فلم أشـأ أن أصدقـها أو أكذبهـا، لكننى قلت على سبـيل الاختبـار وإطالة مهلة التفكيـر: «وهل توافقين يا أم على أن تـزوجى ابنتك على ضرة!» . شوحت بيدها قائلة: «يا خويه! الـنبى عليه الصلاة والسلام أتجوز أربعـة، واحنا فى ديك السـاعـة! لما نبـقى من عـيلة خـرابة! وفى عـزوته!» وجدت نفـسى أقـول لها: «على بـركة الله يا أمٍّ مـادمت

تريدين هذا فلا يحق لى أن أمانع! مبروك على سعدية هذا العريس التخين! ولكننى يا أمّ لن أكون من رجاله فى يوم من الأيام؛ فما أظن أن لى لقمة عيش فى الجبل بعد أن شفت بعينى حلاوة الدنيا فى البندر». قالت الولية بفروغ بال أفزعنى والله يا بوى: «ياعالم! يا ترى من يعيش!» لكننى صحت من ورائها فى ورع «على رأيك! يا ترى من يعيش!» ووالله كنت فى قرارة نفسى قد بدأت بهذا النسب التخين.

الثانية ـ عُرْس القمر

تحلف اليمين يا بوى أن مخى يتبرجل كلما تذكرت أن «خرابة» سيصبح زوجا لأختى «سعدية». الخوف كان يجرى فى مفاصلى، فهذا رجل من عتاة المطاريد، فكيف يتهيأ له أن يقيم فرحا لنفسه كعريس لابد أن يحضر زفته بنفسه أمام القوم كلهم، أنا طبعا لست أقبل أن يدخل على أختى بدون فرح حتى لو وافقت الولية، دخول العروس بدون فرح يحضره الجميع هو سبى واغتصاب وعار، ستكون الفضيحة بجلاجل وشخاليل، ستقول ألسنة السوء إن فى الأمر سرا آخر، ولسوف يؤلفون من عندهم ويتلمسون الأعذار لـ «خرابة»، ولكنهم فى نفوسهم، لن يصدقوا أعذارهم. لا، لا، لا، يا خال، كل شىء فى بلدنا مقبول ويمكن تبريره إلا العرس بدون فرح تلعلع فيه الزغاريد وتنقش الطبول صفحة السماء بالنقر ودوائر الأنغام..

لكنه «خرابة» يا بوى والأجر على الله، فالرجل الذى دوخ الحكومة وهزمها لن يعجز بالطبع عن إقامة عرس له. صدق أو لا تصدق يا بوى أن عرس «خرابة» على أختى «سعدية» لم يكن له

ضريب في البـر كله، لقد رأيت من الأعراس كـثيرا، فلم أجـد لهذا العرس أخـا. إذ خرجت الوفـود من لدن «خرابة»في السـر إلى كل أصدقائه ومعارفه وعملائه وكل من يفرض عليهم حمايته وإتاوته، فأبلغـوهم خبر الزفاف وموعـده بالساعة والدقيـقة: ولم يكن من بين كـافـة المدعـوين وغـيـرهم من يـجـرؤ ـ أو يقـبل ـ أن ينبئ الحكومـة حتى يبـقى العرس في نظر رائيـه مجـرد عرس كـبيـر والسلام..

يوم العرس اصطحب رجال «خـرابة» من أول الجبل حتى قلب البلد فأحاطوا بدارنا ودار «خرابة» وساحة العرس إحاطة الأسورة للمعصم وأحيط دوار العمـدة وداره من غير أن يشعر هو بشيء، وقطعت أسلاك التليـفون على الطرقات ليصبح الـتليفون في دوار العمدة جثة هامدة لا نفع فيهـا، واتخذ رجال آخرون مواقعهم على كل السكك ومداخل البلدة من جميع الجهات، كل هذا حدث في أول النهـار فمـا كـاد العـصر ينطق حـتى وافـانا أهل المزمـار والطبل البلدي، ثم أهل الفراشة، فنصـبوا السرادق الكبير المهـول، وأقاموا منصة لرقص الغوازي بعيـدا عن ساحة رقص الخيل، عند خروج الناس من صلاة العـصر فوجـئوا بزيطة وزمبليطة في الوسـعاية أمام دار«خرابة» وأمام دارنا، الطبل يصدح والمزمار يزأر والخيول الأصيلة ترقص تحت الرجال تفعل الأعاجيب. أما دارنا فقد امتلأت لتمـتها بالنساء، وكـانت الماشطة قد جلت أختي «سـعـدية» وجعلت منها عروسـا بحق وحقيق، زادتها جـمالا حتى خيل لي أنهـا فتاة

أخرى قادمة من البندر، ولحظتذاك استخسرتها فى «خرابة»، ثم عدت فقلت لنفسى: إنه رجل وهى تستاهل!..

راحت طلقات الرصاص تدوى محلقة فى سماء البلدة كأسراب العصافير المضيئة، وكان العريس ذاهبا يستحم فى دار خاله قبلى البلد وطلقات الرصاص تزغرد له طوال الطريق بعد صلاة العشاء، انطلق موكب الزفة من دار الخال فلف البلدة كلها ساير داير، تتقدمه المزيكة، وتتقدم المزيكة طلقات الرصاص، «خرابة» فى قلب الزفة كالبلية لا يكاد يبين، إذ هو قصير القامة، نحيف الجسد كنصف فرع يابس ورأسه كرأس الهدهد مستطيل مدبب، والعمامة الكبيرة حول اللبدة فى عرض كتفيه، ووجهه يطل من تحتها مجرد عينين صقريتين تطلقان رصاصات مشتعلات، ومن تحتها أنف صغير دقيق كبز متكلس فوق راحة يد، والجلابية الكشمير تحتها القطنية، فالصديرى، فالفانلة ذات الأكمام، والعطر يفوح من صدره. فإذا رفع يده بالتحية وجدتها صغيرة كيد طفل صغير تكاد لا تبين فى فراغ كمه الواسع، تنسدل ثيابه حتى الأرض فتخفى قدميه الصغيرتين..

كانت هذه ثانى مرة أرى فيها «خرابة». أما الأولى فكانت قبل ذلك ببضعة أسابيع، يوم جاء إلى دارنا بليل كى يخطب «سعدية» منى ومن أولاد أعمامى الفقهاء، ويقبضنا مهرها: مائة وخمسين جنيها أخضر من أهيف القد ممشوق القوام. وفوق ذلك، يأمر واحدا من رجاله بتشغيلى حارسا لواحد من معارفه القبط فى

بلدة «أبو حجر»، فنفذ أمره ثانى يوم، واستلمت الشغل والعربون، فكان ذلك شيئا جميلا من «خرابة»، جعلنى أحبه وأعرف أن الرجال كرامات وعقول وليست أجسادًا وأموالا..

خرجت «سعدية» من دارنا فى زفة كبيرة تتقدمها الدربكة والمغنية، وهذه تتقدمها الزغاريد منافسة لعلعة طلقات الرصاص، حتى وصلنا بها إلى دار العريس التى ابتناها خصيصا فى بضعة أيام، أجلسنا العروس فى الحوش فوق كرسى عال وبجوارها شقيقتها «هندية»، التى بدت أخطر منها. وبجوارها، من الناحية الأخرى، شقيقتها التالية، وبجوارها ابنة خالتها «فوقية»، وسط حشد من النسوة ترش عليه الملح فلا تسقط منه حبة واحدة على الأرض. والمغنية شغالة والنقوط يرف عليها من كل امرأة وصبى. فى نصف الليل وصل العريس فدخل على عروسه والفرح شغال فى السرادق رقصا ومغنى ونمرا متوالية من كل صنف ولون. أولاد عمى والبنات يقفون تحت شباك العريس، وأيديهم على قلوبهم، يتعجلون خروج الماشطة بالمحرمة البيضاء، وقد تبقعت بدم الشرف الغالى. صار أولاد عمى الأشقياء يغنون ساخرين «إن كنت غشيم اطلع بره» فما كادوا يتمون غنوة استحثاثه، حتى دوت صرخة سريعة مفاجئة مقطومة، دوت فى أعقابها الزغاريد، وانفتح الباب، وخرجت الماشطة فاردة المحرمة بين يديها كالعلم، فانبرى النسوة يغنين: قولوا لابوها الدم بلّ الفرشة! قولوا لابوها يروح بقى يتعشى!».. بعدها خرج العريس لتحية المعازيم وحصر

النقوط، وكـان القادمـون من صلاة الفـجر العائـدون من العرس فيسلمون على بعضهم البعض فى فرح.

عدّت الليلة على خـير يا بوى، وفى اليوم التـالى وضعنا أيدينا على قلوبنا وبقيت موضوعة هكذا شـهرا كاملا يا بوى و «خرابة» مختف فى داره الجديد يعتصر نفسه داخل عروسه ويعلمها نفسه على حقيـقتها، وكلما ارتفع صيـاح فى أى مكان فى البلدة، جرينا نسـتطلع الخبـر، وفى يقـيننا أن الحكومـة وصلت وقبـضت على «خرابة» من حضن عروسه فلمـا أصبحنا ذات يوم، ذهبنا كالعادة للصباحية على العروس وجدنا «خرابة» قد رحل. فدخل الاطمئنان قلوبنا وأيقنا فى ستر الله.

الثالثة ـ زمن الولاد

جرى القرش فى يمـينى يا خال وطابت لى الحياة فى الصـعيد حيث الرجل الذى أخدمه يكرمنى أشد الكرم. ولست أعرف إن كان إكرامـه لى انبساطا منى أم خـوفا من «خرابة». لكننى مـشيت فى البلدة مرفوع الرأس منفوخ الصدر يا خال، الناس يشيرون نحوى من طرف خفى قائلين: هذا صهر «خرابة».. فيعتدل السامعون فى الحـال يغيـرون نظرتهم لى، يخـتلف تعـاملهم مـعى، سـعى إلى مصـاحبتى خلق كـثيرون، أصبـحت أنعزم على الغداء، والعـشاء، والأفراح كل يوم فى كل مكان، لا أدخل إلا بعد صلاة الفجر..

من بين من صـاحبـونى على حس «خرابة» ولد مـجدع اسـمه «هليِّل» وأبوه فـلاح من ذوى الأملاك يدعى «يوسف النجـار» حلو التقاطيع كابنه مسمسم الملامح، عشرى اللسان رقيق الكلام. الولد كأبـيه، ولا خـلاف بين الإثنين حتى فى مظهـر العـمر؛ إذ أنَّ الأب يبـدو فى سن ابنه مع أن الولد فـى العشـرين من عـمـره باليـوم والساعة والدقيقة ـ كـلاهما يرتدى ثياب الآخر، ولا يمكن لأحد أن يفرق بينهما سـواء فى الصوت أو فى الشكل أو فى طريقة الكلام،

الوالد يضع يده على مساحات كبيرة من أراضى طرح النهر فى أزمنة الفيضان، يسهر على زراعتها ليل نهار، وما على الولدإلا السعى فى بيع المحاصيل وطلوع الأسواق للمتاجرة فيها وفى المواشى الصغيرة السن نتاج زريبة كبيرة أنشأها الوالد من شطارته. ولد: ولا كل الولدان يابوى، كريم، سخى، جواد، يكسب كثيرا مع أنه زاهد فى الدنيا، قليل النفقات على نفسه وملذاته، إلا حين أكون معه، فحينئذٍ يصرف بلا حساب، وهو فى غاية الاستمتاع لرؤية الصحاب مسرورين بسببه، كان مؤمنا يؤدى الفرض بفرضه، يفكر فى طلوع الحجاز غير أنه يؤجل السفر إليه حتى يئون الأوان، كما يقول، والأوان فى نظره، أن يكون هو نفسه قد أصبح يثق فى أنه قادر على احتمال مسئولية الحج، التى هى ليست لعبة يشتريها كل من معه المال: تعلمت الصلاة تقليدا له لا خوفا من الله، وواظبت عليها حبا فى أن يربطنى الناس بصاحبى «هليّل» حين يمتدحونه، وما أكثر ما يفعلون.. فكانوا يروننى معه كلما ذهب إلى المسجد لأداء الفريضة، ويرونه معى كلما ذهبت للسهر فى مكان بعيد أشرب فيه الحشيش، غير أنه كان لا يشرب إلا خطفا لأنفاس سطحية لا تستمر فى الدماغ..

بفضله ـ هليّل يا بوى ـ انتقلت دارنا من حال إلى حال، حيث أصبحت طواجن الحليب تعرف طريقها إلى دارنا صباح كل يوم، تحمل سخونة الضروع، حتى صرنا كالفلاحين أصحاب المواشى: ندخر الحليب ليروب، فنحصل على قشدة، وزبد، وسمن، وجبن قريش وكذلك نصنع الفطير المشلتت. قل يا بوى إن صحوبيتى لـ

«هليّل» ولد «يوسف النجار» صارت حديث الناس كلهم، وغطت على خبر زواج «خرابة» من أختى «سعدية»..

من طيبة قلبى يا بوى لم أفهم إلا مؤخرا، كنت كالأطرش فى الزفة أندهش من اندهاش الناس فهذه الصحوبية إذ كانوا يفتشون عما يكون وراءها من غرض، أما أنا فأسخر من زناخة مخهم، وأقول فى كل مناسبة إن الحب نفسه غرض، حب الإنسان لآخر هو فى حد ذاته شىء يقوم فى النفس من غير أن تعرف النفس لماذا قام..

إلى أن جاء يوم ظهرت فيه الحقيقة يا بوى، إذ فوجئت بصاحبى «هلّيل» يعزم نفسه ـ وأباه ـ على العشاء عندنا فى يوم أختاره أنا قلت مندفعا بكل حماسة: «ولماذا لا يكون ذلك الآن يابو العم؟ تظن أننا نعطى نفسنا مهلة نستعد فيها لضيافتك! واه ياخال! طلاق بالثلاثة من ذراعى لتجيئن اليوم أنت وأبوك وكل من تهواه مرافقا من العائلة!»: قال «انتظرنا ليلة الخميس القادم بعد يومين»: قلت:«وماله! يا تلتميت مرحبا!» أنبأت الولية أمى بالخبر فاشترت جديا صغيرا نحرته وشوته، واشترت قفصا من الفاكهة من سقط الجناين، وبعد صلاة المغرب يوم الخميس طرق بابنا، ودخل صاحبى «هليّل» ساحبا أباه «يوسف النجار» خلفه، فلم نعرف من فيهم الأب ومن الابن. كنا قد فرشنا وسط الدار كله بالحصير والمساند، فجلسنا جميعا نتحدث فى أمور الدنيا وأحوالها. جاءت الطبلية فتوسطتنا، من فوقها الصينية النحاسية الكبيرة ـ صينية العشاء ـ وتوالت أطباق الشوربة، والثريد،

وأكوام اللحوم المسلوقة والمشوية والمقلية فى السمن، فأكلنا حتى بشمنا من التخمة، وجيء بالطست والإبريق، اللذين استعارتهما أمى من دار عمى الشيخ الكبير فى آخر الحارة، فاغتسلنا وحمدنا الله، وقبلنا أيدينا ظهرا لبطن شكرا لله على نعمته، وجيء بالوابور وبعده الشاى، وجعلنا نفرقع السجائر، ونشرب الشاى، ونقول النكت والنوادر نضحك على الفارغة والملآنة، ومحسوبك، يلهو وفى الباطن، لا حد لانشغالى وقلقى من سر هذه الزيارة فى الظاهر وكانت الولية أمى، لذكائها، تروح وتجيء من بعيد لبعيد، تتسقط الأخبار، تتعجلها، كلما أحست أننا رأيناها، وقفت وتكلمت بعض الكلام عن الستر، وأولاد الأصول، وحسن التربية، ففهمت أن أمى فقست الفولة، وفسرت هذه الزيارة بأن «يوسف النجار» جاء بولده «هليّل» للحديث فى أمر ترفع له الزغاريد مدوية. عندئذ، بدأ الموضوع ينور فى دماغى يا بوى، قلت لنفسى: أقطع ذراعى إن ما كان «يوسف النجار» قد جاء يخطب أختى «هندية» لابنه الوحيد «هليّل» صاحبى العزيز، وتذكرت أننى فى حضور سابق للصعيد زوجت اثنتين من إخوتى دفعة واحدة، زغرودة فى ذيل زغرودة، فتيقن قلبى فى الحال أن هذه الفرحة ستتكرر اليوم أيضا، وأننى فى هذه الحضرة سأستمع إلى الزغرودة الرابعة فى حوش دارنا، ولن يبقى فى الانتظار لأمى سوى زغرودة لى بعد وقت يعلمه الله، حسب شروط القسمة والنصيب يابوى..

رقص قلبى والله من الفرح. لأننى رأيت الولد والبنية لائقين على بعضهما آخر تمام. ثم زعلت بينى وبين نفسى يا خال: الولد

إذن كان يصاحبنى من أجل «هندية» وليس حبا فى شخصيتى!! كاد الغضب يعصف برأسى، فجاءنى خاطر خبيث يوزنى على رفض طلبه ـ إن طلب ـ احتجاجا على عدم اعتباره لى، حيث كان يجب أن يكلمنى من الأول ليعرف رأيى قبل المجىء ليخطب. غير أننى لم أقدر يا بوى، فأنا أحب الولد، وما صدقت أن عثرت على صاحب مثله يعزنى ويودنى ولا يبخل على بشىء..

ـ وأخيرا تكلم يا بوى فإذا به صامت من فرط الخجل..

واعتدل فى قعدته، وأطرق برأسه إلى الأرض، فبدت عليه الحيرة الكبيرة، وفى كل مرة: يشرع فى الكلام، ثم يسكت، ويختلق موضوعا آخر يهرب إليه. فلم أطق صبرا يا بوى، وإذا بى أبادره قائلا مع ابتسامة مرتعشة: «نفسك فى كلام تود قوله؟» فإذا به يرفع رأسه صائحًا:«نعم والله! عندى كلام مهم جئت من أجله!».

صحت فيه بدورى:«قله يا بو العم وإلا فقعت مرارتى!» فاعتدل قائلا فى خجل:«أصل! صراحة! أنا مكسوف!». رقص قلبى من الفرح، والشك. فشوحت قائلا:«إذن دع والدك يتكلم نيابة عنك يابو العم!لماذا جئت به إذن! أليس ليتكلم نيابة عنك يابو العم!»..

إذا بالولد «هليّل» يكتم ضحكة فى صدره، وإذا بأبيه يبدو عليه الخجل كالفتاة، قال صاحبى:«شف يا أبو على يا صحبى!الآن تنعكس الآية! افهم قولى! يعنى أنا الذى جئت لأتكلم بالنيابة عن أبى»تحجرت الابتسامة على شفتى، ونشف ريقى، قلت: «كيف يا

خال!» قـال صاحبى بشـجاعة سـريعة:«صراحـة يابو العم! أصل الحكاية أن أبى يطلب القرب منك فى أختك هندية!». تنفست قائلاً: «أهلاوسهلا! يا مرحب بيه! نوديها لحد الدار!». فانتفض الرجل يا بوى كالملسوع من عقرب، كاد يتنطط كالأطفال، يملأ الدنيا زئيطا، ثم قال: «إذن أسمعونا الفاتحة!».

قلت:«إهدأ قليلاً! فالعـريس نفسه ليس فرحـا هكذا مثلك!» فإذا بالرجل يـنهـد حـيله فى الحـال وتنقـبض مـلامـحـه، وإذا بصـاحـبى«هليل» يشـوح فى وجـهى بجـدية كبـيـرة: «افـهم يا صاحبى! إن العريس هو أبى»..

تخشـب قلبى يا بوى، قلت: «أبوك! بذات نفسـه! إذن! هو الذى يريد أن يتزوج من أختى هندية!». رد بكل بساطة وقد ازداد جرأة: «وماذا فيهـا؟ سيدفع المهر الذى تطلبون بدون مـساومة!». أخذت، والله، أنظر فيهما معا، نظرة عليـه، وأخرى على أبيه، فلا أكاد أميز فرقا بين الوجهين، اللهم إلا بـعض تجاعيد بسيطة لا يراها إلا من يدقق فى وجـه الأب، فصـرت من شـدة اللخمـة والحرج أضـحك بصوت زاعق، فلما رأيتهما ينظران لى فى كثير من الغضب، خفت أن أخسر صاحبى، فـصرت أردد: «وماله! دحنا يزيدنا شرف! عن إذنكم خمسة!»..

قـفزت داخـلا على أمى المتقـرفصـة خلف باب القـاعة تسـمع الحديث. فلمـا انفردت بها، انفـجرت أضـحك فى عبى، حـتى كادت روحى تخرج من الضـحك. فزغدتنى الولية، وقالت بفحيح غاضب:

«بتضحك على إيه يا ولد؟!». قلت: «إنك لم تعرفى الخبر يا أم!» قالت مشوحة: «عرفت كل شىء وسمعت كل شئ!». مسحت دموع الضحك وقلت: «فما رأيك إذن يا أم!». تحلف اليمين يا بوى أن الولية كادت تطيّر برجا من دماغى، إذا بها تقول بكل بساطة: «خير وبركة! هل نطول يا ولد! رجل غنى وملء هدومه كهذا لا نرضى به؟! فبمن نرضى إذن؟!». فكرت قليلا وقلت: «يا ولية إنه كبير فى السن، وابنه رجل كبير!» قالت الولية: «النبى محمد عليه الصلاة والسلام تزوج ستنا عائشة وكانت سنها تسع سنوات وهو فى بحر الخمسين! هذا الرجل لن يزيد عن الخامسة والثلاثين! لقد تزوج وهو صغير فأنجب وهو صغير إنه الآن فى عز شبابه ورجولته! تعرف يا ولد! لو كان الذى سيخطب ابنتى هو صاحبك هليّل ما فرحت كما فرحت الآن بأن يخطبها أبوه لنفسه! صاحبك طائش مهما صلى وصام! قد يتزوج عليها بعد حين، أما أبوه فعاقل وحكيم يفهم قيمة البنت! سيضعها فى عينيه ولن يتزوج عليها أبدًا! افهم كلامى ولا تجعله يخرج من هنا إلا مجبور الخاطر!».

طب ما رأيك يا خال أننى قلبت كلامها فى دماغى بسرعة فوجدته حكيما موزونا مقنعا؟ أى والله يا بوى، هذا ما شعرت به فى كلام الولية، فقلت لها: «صدقت والله يا أم». وطلعت على الضيوف أبتسم بصدق هذه المرة قائلا: «مبروك عليك يا عم! عشنا وشفنا الأولاد يخطبون لآبائهم!»، وصعرت خدى نحو صاحبى راميا إليه بنظرة غدارة ماكرة وقلت: «أنت إذن كنت تصاحبنى من

أجل هذا الغرض يابو العم! تشكر على كل حال! ميلتنى لكى ينط أبوك على ظهرى فيدخل دارنا يتزوج أعز بناتنا! طب يا أخى كنت تعال دوغرى من الأول! ما كان هناك داع لأن تلف على وتصاحبنى فأتوهم فى نفسى أننى واحد جدير بالصحوبية». فهرب صاحبى من نظرى وغرق فى بحار من الخجل، والعرق، والاحمرار صارت الابتسامة الخجولة ترتفع وتنخفض على ثغره كصور التليفزيون على أيامكم هذه حين يصيبها الرعاش، وصار يقول: «أبدا، والله، يابو العم! أنت أعز صاحب لى! العكس ما حصل، والله، يا خوى! أبى هو الذى ميلنى ونط فوق ظهرى من لحظة ما علم أننى صاحبتك، صار يشجعنى ويغرينى ويمدح لى فيك وفى أعمامك الفقهاء الكبار حتى صورك لى ملاكا نازلا من السماء فأحببتك كل هذا الحب يا حسن! هذه كل المسألة والله على ما أقول شهيد!».. فانبسط قلبى من هذا الكلام يا خال، وانفتح للولد أكثر وأكثر، كدت أنهنه باكيا، إذ إننى لم أكن صادقت فى حياتى من يحبنى لله مثل هذا الولد. ولما شعرت بسخونة الدمع تنحدر على خدى مسحتها بكم جلبابى مبتسما أقول:«خلاص يا عم! براءة! براءة. براءة.». انبسط الرجل هو الآخر آخر انبساط، صار ابتسامة كبيرة تبك الدم وقال: «أتراك وافقت إكراما لى أم للولد الذى جاء معى!؟».

أعتقتنى أمى من الرد، إذ بانت قائلة: «من أجلك طبعا يا زين الرجال! يا أصيل! يا سيد الناس!». أسرع الرجل قائلا كأنما

يخشى أن نرجع فى كلامنا: «أسمعونا الفاتحة من أجل النبى!».. فرفعنا أكفنا جميعا، واندمجنا فى قراءة الفاتحة بفرحة صادقة.. صدق الله العظيم. حينئذ مال «يوسف النجار» نحوى هامسا: «شف يا ولدى سأدفع مهرا ضعف ما دفعه خرابة مرتين! افهم كلامى! لست أتحدى خرابة فهو حبيبى! إنما أنا أحب العروس وأعرف قدرها!». قلت مع أمى فى نفس واحد: «يكفينا شخصك يا رجل! نحن لا نتاجر ببناتنا!»..

وكان عرس «هندية» أشد من عرس «سعدية» بكثير يا بوى، حضره كل من يمشى على الطريق. وبقى هذا الزواج حديث البلدة شهوراً طويلة يا بوى، وحياتك جاءت أختى «سعدية» لتحضر عرس شقيقتها «هندية» كانت حاملا وبطنها كبيرة، وحينما ذهبت أختى «هندية» لتحضر ولادة شقيقتها «سعدية» كانت حاملا وبطنها كبيرة. أما أنا فقد بت أمشى فى سبهللة بكامل حريتى، أضرب عصاى، وأجرى وراءها، شاعرا بأننى، أخيرا قد تخلصت من جبل من الهموم كان يكتم أنفاسى، وبأننى قد آن لى أوان النعيم.

الرابعة ـ يوم الهول

قلت إننى لن أكون من رجال «خـرابة» ذات يوم، وقد شـهد الله على قولتى يا بوى، فبقيت مصمما عليها، فأنا أحب الحرية يابوى، وأتعشـقها كـالعصافـير تتعـشق البراح، تذوب فى هواه، أنا غـير «خرابة» يا بوى «خـرابة»، فى الأصل، يعشق الجبل عشـقا، ومنذ كان طفلا صـغيرا وهو يهرب من أهله إلى الجـبل، فى الجبل يجد متسـعا لمضاجعة النساء والفـتيات الساقطات وإخفـاء المسروقات وكل شىء. كان يخدم المطاريد خدمات كـبيرة، فيكون لهم مرسالا إلى نسائهم، أو عشيقاتهم، أو رجالهم المحبوسين فى دوار العمدة، يشـترى لهم الـطلبات فـلا يطلب أجـرا على أى خدمـة، فـأحبـوه ونشروا عليه حمايتهم. قل إن «خرابة» نشأ وتربى فى الجبل، فلما كتـب عليه الحظ الأغـبر أن يكون منفـيا مطروداً من الحكومـة فى الجـبل لم يكن فى ذلك أى عـقاب له، بل إنه لـو سجن لهـرب من السجن إلى الجـبل، بل لو تركوه حرا فى البلاد لهـرب من الحرية وجـاء يسكن الجـبل، نعم يا بوى، فـالجـبل غرامـه الأوحـد، وهو يعرف كل شبر فيـه. يعرف كيف يدخل من هنا، ليخرج من هناك، دون أن يدرى أحد من المراقبين، يعرف كيف يتّوه مطارديه توهانا

لا فـوقان منه ولا اهتـداء إلى الأبد.بعض مطـارديه من المخبـرين السريين وضباط المباحث المغامـرين ظل يغريهم بمطاردته، مسهلاً لهم أمـر القبض عليـه بعد خطوات قليلة حـتى دحلبهم إلـى عمق سحيق فى الجـبل يبدو كأنه المغارة وهو مجـرد طريق إليها طوله أفدنة، وتتخلله صـخور كثيرة من كل حجم وأتربة، فـصخرة لابد من صعودها، وكومة أتربة لابد من خوضـها وصـخرة أخرى تسد الطريق تاركة منفذا كـالبرزخ لا يعبره إلا من كان جسـمه كجسم العرسة. لكن «خـرابة» يسلك فيها كلمح البصر، أمـا مطاردوه فقد اعتـراهم الصرع والصراخ والحمى والخـوف فرجعوا يتـخبطون شهـوراً، يتعـذبون فى السراديب، حـتى ماتوا، وتعـفنت جثـثهم، وأكلتها ذئاب الجبل وطيوره الجارحة..

ذمة ودين يابوى، لقد ماتت الحكومـة كمداً، وسلمت أمرها لله، وحرمّت ارتكابها لهذه الفعلة الحمقاء مرة ثانية كل هذا و «خرابة» أيامها مـجرد شـاب صغـير السن لم يقو فى الإجـرام بعد، كان لا يزال مجرد واحـد يعشق حياة الجـبل بين المطاريد الذين يخلبونه ويأسرون قلبه بشـجاعتهم وتحديهم للحكومة وللعـائلات الكبيرة العفية. لم يكن محتاجا يابوى. وهذا هو العجب. ذمة ودين يابوى، أن أهله ناس مـبسوطيـن كل الانبسـاط. والعمدة كـان منهم ذات يوم. العمـدة كان عمـه لزم، وكان «خرابة» مـرشحا للعـمودية إذا مات عـمه. تشاء الصـدف أن يموت العم مـيتة ربانيـة و «خرابة» سارح فى الجبل لا يعلم، فلما وصله الخبر بعد يومين، كانت لعبة العمـودية قد طبخت فى المديرية لتأكـلها عائلة شيخ البلد الكبـيرة

العدد والأطيان والدواب.. فما كان من «خرابة» إلا أن ركب حصانه الذى يسميه الأدهم ـ على اسم حصان «عنتر بن شداد» ـ وتمنطق بسيفه وخنجره وبندقـيته التى هى فى العادة من آخر طراز وصل إلى الجيش المصـرى، إذ أن سماسرة السلاح وجـلابه لا يهدأ لهم نشـاط مـا بقى فى الجـيش دُفع من المجـندين أيديهم قـريبـة من مخازن الأسلحة. نزل «خرابة»، يومها من الجبل يتبختر فوق ظهر الأدهم، وخلفه أربعـة رجال شبـاب على أربعة أفـراس شداد، كل رجل بفرسه جـاء من طرف أحد المطاريد الكبار مجـاملة «لخرابة» ومساعدة له على اسـترداد حقه فى العمدية ـ كان قـد سبقهم ولد من الأشقياء، قام بقطع أسلاك التليفون من مكان بعيد. الوقت بعد صلاة العـشاء، وقد كـمن الناس فى دورهم منكمـشين فى الدفء وكان العـمدة الجديد ـ شيخ البلدة سـابقا ـ قد نقل التليـفون الأم من دوار عم «خـرابة» إلى دواره، وجلس بين رهط من أصـحـابه وأبناء عـمومـتـه يشربون الـشاى ويتـحـدثون فى أمر جـوهرى بالنسـبة لهم كـعائلة، إذ إنهم عـائلة ثقـيلة الدم يا بوى، لو جلس واحد منهم علـى جبل لتفـتت غيظا ونكالا، وهم يعـرفون ذلك عن أنفـسهم حق المعـرفة يا بوى، وهم أول من يدركـون أن خلق الله، كلهم يتمنون زوالهم من الـوجود، غير أنهم لا يبـينون ذلك، ولهذا كان حـديثهم تلك اللـيلة ينصب على هذه النقطة وحدهـا، يوصون العمدة الجديد بأن يستـقوى ويجمد قلبه وإلا هزأت البلدة به وبهم وضاعت منهم العـمدية هدرًا وكان العمدة الجـديد يجيب على ذلك

فى تلويح واضح بأن الله يفعل ما يريد. إلا وصهيل الأفراس يجلجل فى الخلاء أمام الدوار، فتزعزعت القعدة وتكومت فوق بعضها تتشاور، وقفز منها من يرى الخبر. ثم عاد، وقال إنه «خرابة» يطلب مقابلة العمدة الجديد ليبارك له. فلما سمع العمدة ذلك استقام عوده من جديد، ومشى الدم فى عروقه، فنهض واقفا مظهراً علامات الترحيب والسعادة، ونهض من خلفه بقية الرجال ومضوا وراءه نحو باب الدوار، فاجتازوا الحوش الواسع إلى باب الشارع حيث يقف «خرابة» ورجاله بأفراسهم راكبين. ربك والحق استاء العمدة وانكزر فى نفسه من أن «خرابة» لا ينزل عن الحصان فى مواجهته لكنه ابتلع غصته وقال:«أهلا وسهلا اتفضل يا رجل واشرب الشاى أو تناول العشاء». فقال «خرابة»: «أما الأكل والشرب فقد ملأت به بطنك فى غيبتى! وظننت أن الطبخة فى المديرية وشرفها الحكمدار بتخريط البصل وغسل اللحم وعصر الطماطم يمكن أن يجعل الأكلة شهية! أو أن ينجيك الله من صاحب الحق الذى أكلت لحمه! لكننى، وحق سكناى فى الجبل، لن أدعك تهضم هذه الأكلة الدسمة! فأنا البقية الحية من اللحمة التى أكلتها اليوم مطبوخة! ولو لم تكن غدرا لعفوت عنك وباركت لك حقا! لكنك أثبت غدرك ولؤمك فلم تصبر على جثة عمى حتى تترطب من سخونة الموت فى قبرها! فنقلت التليفون إلى دارك، وهو الآن جثة هامدة! وإننى لأعرف أنك تعرف أننى رجل ولا كل الرجال! فكيف إذن تجرأت على خيانة الميت وتتجرأ على خيانتى وأنا حى؟!»..

وقع العمدة من طـوله يا خال، صار ينظر حواليه يـستنجد بأى واحد، ارتفـع صوت برطمـة وهلضمة وصـوت زعيق وتهـديد من داخل الدار، ورأى «خـرابة» شـبح بندقـية ترتـفع ماسـورتهـا من منطقـة مظلمة فى حـوش الدار تسـتعـد للتنشـين عليه بعـد برهة قصـيرة فسـحب فى الحال مدفـعه الرشاش ونشن على مـاسورة البندقية بطلقة طيرتها فى الهواء بددًا، وطيَّرت خلفها صراخا هائلا، ثم حول وجهـة المدفع نحو صدر العـمدة فأفرغ فيـه، وإلى صدور الذين حـوله فأفـرغ فيهم. صـارت الجثث تتـساقط وهو يـخوض بفرسه فـوق الجميع رائحًا غـاديا والمدفع الرشاش يصب النار فى كل اتجاه، ومن خلفه الفرســان الأربعة يصولون ويجولون فى كل من يأتى من عـائلة العـمـدة. فلمـا نفـد منهم الرصـاص، جـردوا سيوفهم، وانـهالوا فوق الرقاب تقطيعا وتمزيقـا. كانوا يفعلون ذلك وهم يلوون أعناق الافراس لتمضـى بهم فى اتجاه الجبل، حتى إذا ما تملكوا الخـلاء، انفردت أرجل الأفراس عن آخـرها تسابق الريح طائرة، حتى اختفت تماما فى الجـبل، وفى تلك الليلة حصرت عائلة العمـدة خسائرها فكان عـدد الموتى عشرة رجـال أشداء من بينهم اثنان من أولاده وثـلاثة من أولاد أخـيـه والبـاقى من مـؤيديه وخفـرائه، أما الجرحى وفاقـدو الأطراف وذوو العاهات المستـديمة فكثير عددهم، وكلهم من عائلة العمدة شيخ البلد سابقا.

خَلِّ بالك: «خـرابة» كان يعلم ويثـق أن البلدة كلها سـتكون فى صفه كـرها فى هذه العائلة وحبا فى شـجاعته وهيبـة أهل عائلته. وكان واثقا لذلك أن شيئا لن يحدث له فى هذه المعركة..

خذ عندك أياما وأصبحت الجثث متكومة تنتظر مجيء النيابة والحكومة. بعد دفن الجثث والتحقيق مع بعض الخلق ممن شهدوا الواقعة، انطلقت مجموعة من سيارات عالية يسمونها الجب تزعق بشدة وتتسلق صخور الجبل كالقطط المفترسة وأهل البلاد من فوق أسطح الدور يتفرجون على السيارات وهى تغوص فى أحشائه فتختفى فى سفوحه وتظهر ثانية على صخوره ومنحنياته يوما كاملا من الصباح إلى المساء دون طائل، فبعضها عاد إلى البلدة لاهثا وبعضها لم يعد نهائيا وقد شهد معظم أصحاب السطوح العالية أن ست عربات دخلت الجبل من كل الاتجاهات فلم يعد منها سوى أربع. وبقيت الحكومة شهورًا تطلق عصابات من الراجلين والراكبين والكلاب الشمامة تلف الجبل تدخله شقا شقا وفى النهاية عادت كلها بخسران كبير مبين مؤكدة ـ ويا للعجب ـ أن الجبل ليس يسكنه أحد، لا من البشر ولا من الحيوانات، كيف يا بوى؟ حقيقة الأمر يا بوى أنهم حكموا على الجبل من مظهره الجوانى أقصد من طرقاته السالكة الواضحة أما سفوحه وشعابه وبحاره الجافة وشقوقه ومغاراته السحرية وقلاعه المنحوتة فيه من أيام الفراعين فليس يفطن أحد إلى مواقعها وإن فطن بالصدفة فليس يجرؤ على الاقتراب منها، وإذا كان معهم كلاب شمامة ففى أعماق الصخور المضمومة كلاب أباؤها ذئاب لا تعرف ربنا، أما إذا هيأ لهم جنونهم إطلاق الرصاص فسينهال عليهم وابل من النيران من أماكن خفية فى قلب الصخور..

ذمـة ودين يا خـال أن العـربات الجب التى لم تعـد من الجـبل يومذاك بحثت عنها عصابات الأهالى المتصلين بحياة الجبل فعرفوا أن المطاريد قد اعـترضـوها وأسروها وخبـئوها فى أمـاكن سرية ليـستـخدمـوها فى أغراضـهم الخـاصة تنفع فى جلب المخـدرات وتوصيل الطلبات والحرب مع الحكومة.

قل إن الأوضـاع اسـتمـرت على ذلك حـوالى الحـول يا بوى. وكانت عمدية البلدة قد انتقلت إلى «هريدى» ولد عم العمدة القتيل، فبدأ يسايس الناس، يأخذهم باللـين، يقضى لهم مصـالحهم، بدون مقابل، لكن أهل الـبلدة، مع ذلك، كانوا يتحسبـون للنذالة المتأصلة فى نسله، فلا يصدقونه، ولا يقـتنعون به. ولقد ذهب المرسال إلى «خرابة» فى الجـبل بأن العمدة الشـاب يسايس الناس فى الظاهر، ويدعى الأمانة أما فى الباطن فإنه لشـر متأصل فيه ينوى الإيقاع بالبلد كلها فى قبضة الحكومة، يجعل الحكومة هى اليد التى ينتقم بها، إذ هو يسـتقـبل كل يوم ضيـفا أفنديا يقوم هو بـإطلاقه على الناس متـكلما كلامـا غامـضا عن «المال» والمكوس» و «السـخرة» و«الجهـادية»، وعن أشياء تنوى الحكومـة أن تحفرها وتبنيـها، أو تشقها، ويلزمها، تبعا لذلك، أعداد وفيرة من الرجال، ومبالغ طائلة من الأموال.. فيرتعد الخلق ويدفعون تبرعات ويبرطلون دفاعا عن أولادهم وممتلكاتهم، ودرءا لتـهم غـامضـة قـد يتعـرضون لهـا.. والعمدة الشاب - حامل ابتـدائية الأزهر - فرح بهذه المناظر تحدث أمام دواره، وبمناظر الخلق يقـعون من طولهم أمامه رعـبا ورهبا، يتحولون إلى عبيد، يتوسلون ويستجدون الرحمة والرأفة من هذه

الطرابيش المعووجة على ناحية والمستعدة دائما للحكم عليهم بأربع سنين فى الزنازين يا خال.

لم تمض ثلاثة أيام على وصول هذا المرسال إلى «خرابة» فى الجبل، حتى تهيأ للنزول فى اليوم الرابع، فملأ جيوبه كلها بالطلقات النارية، وحمل بدلأمن السيف سيفين وخنجرين وربط كل ذلك فى ثيابه المحكمة حول جسده رباطا وثيقا لكل شيء جرابه المخصوص. ومثله فعل الفرسان الأربعة الذين باتوا من رجاله بعد أن تنازل عنهم أصحابهم كهدية منهم لـ «خرابة»، الذى سبق له أن خدمهم جميعا خدمات كبيرة يا بوى، ونفذ لصالحهم عمليات لم يكن سواه يستطيع تنفيذها مهما كان جبروته نفذها «خرابة» بقلبه الجامد كأنه يمر على قارعة الطريق للتخلص من ضرورة. الفرسان الأربعة أحبوا «خرابة» حبا شديدا وسهروا على حياته وملذاته بإخلاص، ودربوا له عشرات من الولدان لا حصر لهم جيء لهم بخيول مسروقة فور ولادتها ومرباة على الغالى فى اسطبلات الجبل العريضة بلا حدود، أما هو فقد أسكن الولدان فى دور فى البلدة وفى قصور منحوتة فى الجبل حسب درجاتهم فى القوة وفى الصفاء والإخلاص المتين، بفضلهم كان «خرابة» يتعالن النزول أحيانا إلى البلدة كل سوق ليمشى راكبا فرسه الأدهم مخترقا جمهور الباعة فى صلافة وكبرياء لا يهمه أن يخوض الفرس فى سبوبة بائع لحمة أو يدفع لكعيا متطاوسا فيرميه على الأرض مفلقسا، ولو قام وشتم فإن عشرات من أولاد الحلال المشفقين عليه سوف يسارعون بإغلاق فمه وتنبيهه بصنعة لطافة إلى الدواهى الخطرين السائرين خلف «خرابة» على الدوام على

شكل باعة سـريحة وناس عـاديين طيبين لكـن آه لو احتكوا بك أو احـتككت بهم يا بوى: قـرصتـهم والقبـر والعـياذ بالله يا خـال ـ بفضلهم كذلك يا بوى كان يذهب مسـافرا إلى مصر المحروسة فى مولد الحـسين بن على سيـد الشـهداء وإلى طنطا فى مـولد البدوى شىء لله يابو عرب وإلى دسوق فى مولد الدسوقى شىء لله يا أبا العينين. يمكث فى المولد أسبوعه كله على هيئة واحد من الدراويش الصالحـين لا يساورك الشك فى منظر وجهـه البرىء المشع وذقنه النظيفـة والمسبـحة المتدليـة بين يديه كأسلاك الاتصـال بينه وبين الذات العلية، شـيخ ومن حوله دراويشه يرتعـون فى معيته، رجل هو ـ أحـيـانا ـ من المجـاذيب السـابحـيـن فى الملكوت لا بأس. إن المطاريد لا تنقصـهم الحيل يا بوى، وحـيلهم كلها خطيرة، ولهم فى تجمـد قلوبهم وبرود أعـصابهم بلاط ثابت يمـشون فـوقه بـعزم شديد، دون أن يطرف لهم جفن يا خال.. اسألنى أنا عنهم يابوى.

كان «خرابة» قد ركب فرسه الأدهم وتلبسـته شخصية عنترة بن شداد، فأخذ يصـيح ويجعر ويتحسس الحصـان فيبرطع فى المدى المتـاح من الجبل ثم يرتد عـائدا ويتنطط بحـصانه كـلاعب الكرة يسخّن قبل نزوله الملـعب. أما الفرسان الأربعة فقـد ركبوا هم الآخرين وأخـذوا يصيحـون فى الولدان الذين سيمـشون فى الطليعـة راجلين أن يسرعوا فـالوقت قد حان، والشمس لحظتـئذ كـانت تلهث فى مـحاولة لانـتزاع قـرصـها الأحـمـر الواقع بين سنامين متجاورين على ظهر الجبل مـتعاليين متحديين والقرص يصرخ بأعلـى ألسنة اللهب، والأفق برمتـه يكاد يتفحـم بالسحب

السوداء، ومع ذلك فشرخة الهلال كانت كأصبع الموز واقفة على مبـعدة قـليلة فى بطن الأفق البعـيد وكـان يتحـرك فيـبدو مـثل الكتكوت يبـزغ شيئـا فشيـئا وقـشر البيـضة كتـل من السحب المبيضة المغبرة المتكسرة. لحظتها صاح «خرابة» قائلا: «قدامى يا رجـال». فـهـبط فـريق من الولدان المسلحـين بـالمطاوى والسنج والقضبـان الحديدية مهمتـهم فتح الطريق واستكشاف غـوامضه وأسراره للمسارعة بإبلاغ القادمين وراءهم ليسرعوا بدورهم فى الارتداد، هؤلاء الولدان مدربون على اكتـشاف المؤامرت والكمائن والخـيانات يا بوى، ولد زوانى يابـوى أجارك الله منهم، يقـدرون على التـصـرف النهائى عنـد اللزوم، إنهاء حـيـاة رجل أو رجلين مصدر شك أهون عليهم من الرجوع خطوة واحدة إلى الوراء.

إن هى إلا برهة وجيزة وهبط فريق من الولدان راكـبى الحمير والبغال الحـمولة والخيول السريعة الـعدو مهمتـهم حـمل الذخيرة الاحتياطية وحمل الرسائل الفورية عند تلقيها فى منتصف الطريق من الراجلين المتقدمين، فيكون سهلا على الخيول أن ترتد مسرعة لكى تعطل «خـرابة» عن النزول، تحيط به، تسربـه من مكان خفى إلى مكان أخفى، دقـائق معدودة وهبط «خرابة» يحـوطه الفرسان الأربعـة، اثنان على يمينـه ويساره، وواحـد أمامـه والآخر خلفـه مباشرة يتلقى عنه أى غدر محـتمل. دقائق أخرى معدودة وهبطت فرقة من الخيالة بالكرابيج المخفية أما الطريق من مهبط الجبل إلى المكان المقصود فـمحفوف بالعرس المسلـح فى مظهر خفى. وصل «خـرابة» إلى دوار العـمدة فـوجـده قـاعدا بيـن بعض الطرابيش

المعووجة على ناحية وبينهم ثلاثة من الفلاحين، لم يكن «خرابة» يعرف أن هؤلاء الذين يجلس العمدة معهم هم المحضر التابع للمحكمة جاء يحجز على أحد الفلاحين وفاءً لضريبة أو اظنها غرامة من غرامات الحكومة التى لا تفرغ على الدوام تكبل خلق الله بالقيود تحرمهم نسمة الدنيا ياخال. أما الطربوش الثانى فإنه مهندس الرى الذى جاء يعاقب بعض الناس على اعتداءات وهمية على أراضى الحكومة. وأما الطربوش الثالث فإنه لواحد مجهول من عباد الله تعرف به المحضر على مقهى مجاور للمحكمة فى المدينة فاصطحبه فى هذا المشوار الرسمى، إذ إن وجود أفندى آخر معه يقوى موقفه فى نظر الناس ويجعل البرطيل مضاعفا لقسمته على اثنين، باختصار جاء به المحضر لينصب به على الناس لكن سوء الحظ جمع بينهم فى تلك اللحظة من أجل قدرهم.

دوار العمدة كانت شبابيكه مفتوحة على البحرى، لذا فقد كان «خرابة» وهو مقبل نحوهم ينظر إلى وجوههم ورقابهم. وعلى مبعدة قليلة أعطى الأمر لرجاله بالتوقف، وبأمر آخر توزعوا على الشبابيك بسرعة، ومن خلل قضبانها الحديدية المتشكلة على هيئة مربعات ودوائر ومستطيلات متداخلة، نشنت أرواح البنادق على أرواح الجالسين من رقابهم وانطلقت الأعيرة النارية متتالية متضاعفة كالمطر ينصب نيرانا متلاحقة كبرق الرعد المخيف، فسقطوا جميعا جثثا هامدة: العمدة والثلاثة الطرابيش وخفيران وتملى غلبان ونفر أجير، قبل أن تفيق سماء البلدة من دوى الانفجارات النارية كانت الخيول ارتدت مسرعة تكاد حوافرها لا تلمس الأرض، ومن خلفها يلتئم الطريق شيئا فشيئاً فيتدفق فيه

العوام ويتعرف الحرس على بعضهم البعض يدفعون عن بعضهم البعض ما قد يلحق بهم من عدوان متوقع، ثم إنهم صاروا يذوبون فى الطريق، بدأ الطريق يصفو من عكارتهم وتأهبت عائلة العمدة للطم الخدود والصراخ وإرسال المراسيل هنا وهناك.

مثلما حدث فى القتلة الأولى حدث هذه المرة: حضر طاقم من العربات الجب والخيول والرجال والكلاب طافوا بأطراف الجبل وبعض أحشائه المتاخمة للعمران شهورا طويلة دون أن يكشفوا عن شىء دون أن يطرأ على خيالهم أن فى قلب الجبل سوقا شعبية كاملة كبيرة وثابتة تباع فيها جميع السلع والمطالب من المآكل والمشارب والملابس والنساء الفاتنات فإنها سوق السهوى والمتع وكل ما لا يوجد فى أى سوق فى أى بلد من بلاد القطر يا خال.. إسمع ما أقوله لك وصدقنى بدون كلام! احذر أن تنبس بحرف، أوصيك والزمان يوصيك أن تمنع نفسك من الدهشة عن الدهشة حتى لا يصيبك الخبل. إعلم يا بوى أننى رأيت كل ذلك بعينى رأسى ولمسته بيدى وجنبى وبطنى وظهرى ودماغى وكل عرق فىّ والله على ما أقول شهيد.

الله وكيل يا بوى، لم يعد من هذه الفرقة المهاجمة سوى نفر قليل. بعدها كفت الحكومة وهمدت، وجاءت الأخبار بأحكام بالأشغال الشاقة المؤبدة وبالإعدام فبقيت مجرد حبر على ورق سوف تأكله الفيران حقا فى دواليب الحكومة فى البدرونات الرطيبة التى تندفن فيها بعونٍ ربك كل القوانين التى تصدر فى مصر المحروسة، نعم يا بوى، فليس يسرى القانون فى ديارنا إلا

على الغلابة والمساكين وأبناء السبيل، هي هكذا ديارنا منذ عهد آدم وحواء: حاميها حراميها.

عائلة العمدة يئست من العمدية كرهتها حيث لم يعد في رجالها من يصلح لحماية العمدية طلقة لطلقة ورجلا لرجل وجيلا لجيل، فإذا بهم يتقاعسون عن السعي وراء العمدية.. فقفزت عائلة «خرابة» فاستردتها بفضل جهود من «خرابة» بذلها في اختيار واحد من عائلة أخواله في بلدة «دير الجنادلة»، وهي عائلة غنية مرهوبة الجانب، لكنها والحق يقال في حالها دائما، ولا تتدخل في شئون أحد، اختار «خرابة» خاله «عبدالكريم أبو هميلة» وضغط عليه حتى أرغمه على ترشيح نفسه في البرلمان عن دائرة البلدة، وكان الشيخ «عبد الكريم أبو هميلة» مستنيرا وورعا وفيه تقوى حتى لقب بالشيخ مع أنه لم يتعمم في حياته ولم يدخل الأزهر وإن قرأ القرآن وخطب في المسجد مثل فطاحل الشيوخ والخطباء، وكان الرجل يأنس في نفسه القدرة على النجاح في الانتخابات لحسن سمعته وجانب عائلته المرهوب لكنه كان عازفا عن الدخول في معارك من أي نوع، ويعمل حسابا لوصية تركها جدهم القديم - الذي قيل إنه كان من مماليك السلطان الغوري - يوصيهم فيها بأن يبتعدوا عن سوق السياسية فلا ينزلوه طوال عمرهم، لكن الشيخ «عبد الكريم أبو هميلة» تحت ضغط «خرابة» المتواصل قرر ترشيح فسه بالفعل، بالفعل فاز بالدائرة بجولة انتخابية واحدة قام بها رجال «خرابة» وصبيانه برسائل شفوية لرءوس العائلات، وكل رأس من هذه الرءوس يعلم علم اليقين أنه معرض للخطف ذات يوم،ولهتك الحرمة حتى يدفع الفدية، ولذا ما إن يلتقيه رسول «خرابة» حتى

يلتقيه الفزع والمتعة فى نفس الوقت، إذ إنه سيكون سعيدا غاية السعادة بتلقى رجاء «خرابة» وسيكون أكثر سعادة بتنفيذه.

بين يوم وليلة صار الشيخ «عبد الكريم أبو هميلة» نائبا عن الدائرة وارتمت العمدية تحت أقدام «خرابة» فشاطها بقدمه إلى أعلى كالكرة ثم تلقفها بيديه وسلمها لابن عمه فى حفل كبير، فلقد حضر بنفسه حفل تنصيب ابن عمه «عبيدة» على العمدية، وللعلم يا بوى، هذا الحفل شرفه بالحضور طرابيش تخينة من طرابيش الحكومة لم يفطن أحد منهم ـ أو لعله لم يعلم أصلا ـ بأن هذا الولد المجدع الجالس بينهم ملء هدومه وقعدته رغم نحافته هو «خرابة» صاحب أكبر صيت بين مطاريد الجبل. ولم يكن أحد منهم ـ فضلا عن ذلك يابوى ـ يعرف أو يخطر على باله أن «خرابة» هذا الولد المفعوص هو الذى سيدير العمدية والدائرة الانتخابية من الجبل ولسوف يصل صوته إلى البرلمان وربما إلى «أبو عبد الناصر» نفسه فهكذا الحكام دائما يا بوى يحاربون اللصوص الكفرة الفجرة، لكنهم فى داخلياتهم فى ذوات أنفسهم يحبونهم ويتمنون أن يصيروا من رجالهم، ألم تسمع بذلك اللص الظريف الذى أحبه السلطان وحاربه فلما لم يقدر على هزيمته أتى به وعينه رئيس شرطته؟ جاء السلطان بلص يحارب به اللصوص، والسلطان يحسبها لنفسه قائلا: ليسرق رجل واحد هو رئيس الشرطة خير من ألاف السارقين، وغاية الأمر يابوى أن كل سلطان يريد أن يؤمن ظهره بقوة وهو لن يجد هذه القوة وهذه الحماسة إلا عند عتاة اللصوص والمجرمين ممن يقدرون على سفك الدم دون أن يطرف لهم جفن يابوى. هذه هى الحقيقة يابوى فدعك من أى كلام آخر.

الخامسة ـ يوم الفزع الاكبر

ها هو ذا «خرابة» قد صار فى عـز مجده يا بوى، وفى مقدوره أن يتزوج ابنة أحـد الباشوات المصاحـبين لخاله «عـبد الكريم أبو هميلة». لكنه ـ وياللعجب ـ تقـدم ليخطب شقيقتى «سـعدية» ولقد اتضح لى وياللعـجب أيضـا ـ أنه خطبـها إكـراما لـنسل أعمـامى الفقهاء أولا، ولجـمالها الفريد ثانيا، حيث إنهـا كانت ذات بشرتين على وجهها يابوى فـتحت بشرتها الخمرية القمحـية بشرة أخرى حمراء كلون الورد تنضح على البشرة القـمحية على الدوام. وقال لنا «خرابة» بالحرف الواحد يوم الخطوبة إنه خطب «سعدية» لأنها تجـمع بين كرم الأصل وجـمال الخلـقة وحـسن الخلق، والسلوك والسمعة وهذا ما يضمن أصلا كريما لنسله القادم.

وبالفعل يا خال، أكـرم الله شقيقتى «سعـدية» فأنجبت له ولدا وبنتا جميلين تبارك الخلاق فيمـا خلق. كما أكرم شقيقتى «هندية» فأنجبت لزوجها ولداً فرح به صاحبى «هليّل» كأنه ابنه هو.

وقـد بات من الواضح لنا وللبلدة كلهـا يا خـال أن الحيـاة فى حـضن شقـيقـتى «سعـدية» قـد طابت لـ «خرابة»، فـركن إليهـا

واستحلاها إلى آخر الحدود، فبات لا يغادر حضنها إلا فى أوقات معينة تستلزم وجوده فى الجبل، أو حين يبلغه البريد أن فى الجو غيامة.

إلى أن كان يوم لا رده الله ولا أرانا وجهه ثانية أبدا..

كنا فى ساعة القيالة و «خرابة» راقد فى حضن زوجه القديمة مدخرا الليل كالعادة لحضن زوجه «سعدية»، إذ جاءه البريد بأن أقداما غربية وطأت أرض البلدة متوجهة إلى دوار شيخ البلد وهومن عائلة أخرى بعيدة.. فلماذا لم يتوجهوا لبيت العمدة؟ الأمر إذن فيه سر غامض وعلى «خرابة» أن يتخذ كامل احتياطاته. فما كان من «خرابة» إلا أن سحب نفسه من حضن زوجه واغتسل بسرعة ولبس ثيابه وأرسل فى الحال نفرا من الخفراء النظاميين يتسقط الأخبار خلسة من دوار شيخ البلد.. فعاد رسولهم لاهثا يبلغ «خرابة» أن خبر استقراره فى البلدة قد وصل إلى الحكومة وأن المباحث جاءت تسأل فقط عن حقيقة الأمر لكن من الواضح أنهم جاءوا للقبض عليه بدليل وصول عربة سوداء محملة بالجنود المدججين بالسلاح!!..

كان «خرابة» يتلقى هذا الخبر وهو راكب فرسه وراء باب الحوش ومن حوله الفرسان الأربعة راكبين، فما إن سمع الخبر حتى أزاح الباب وغمز الحصان فانفلت به خارجا وانفلتت وراءه خيول مرافقيه فتملكوا الطريق المتجه إلى خارج البلدة..

وا..ه يا خال! واه..

أدركتـه عربة الشـرطة السوداء يا خـال، التى اتضح أنها غـير الواقـفة عند دوار شـيخ البلد وأنهـا كانت كـامنة فى مكانهـا هذا تحسبا لخروجه . الجنود كانوا خائفين فأطلقوا على الخيول وابلا من الرصـاص، فـسقطت بعض الخـيول على الأرض ومن بينهـا الأدهم حصان «خرابة»، فنزل «خرابة» على الأرض يجرى متخفيا من حلاوة الروح، فظل يجـرى وبعض الجنود وراءه وهو يضللهم ويزوغ منهم فى الحوارى الضـيقة وبين النخيل حتى وجـد أمامه قمـينة مبنـية حديثـا وطوابق الطوب لا تزال خـضراء لم تشـتعل تحتها النيران بعد..

شاهده الجنود المطاردون وهو ينحـرف مستترا بهـذه القمينة، فلما لاحـقوه، وجـدوا ثلاث قمـائن متجـاورة، تفصل بينـها طرق ضيقـة، لا تتسع لمرور شخص بينها. وكان مـن الصعب عليهم أن يعرفوا أى طريق سلك، فـلابد إذن أن يكون قد ذاب فى الهواء، أو ابتلعـته الأرض هكذا صاروا يقـولون يابوى، وهم يصفـقون كـفا على كف..

انشـغلوا به فلم يتمكـنوا من القبض على أحـد من صحـابه إذ هربوا جمـيعا يا بوى. لكن أمر «خـرابة» كان مثيـرا للغيظ يا بوى وكانوا جـميعا كـأنهم حيكوا من الخلف، فصـاروا نسوانا، وهكذا انتشـرت فرق من العـسكر راحت تفتش القنوات والتـرع وجذوع النخيل، ويقف على كل قمينة طوب نفر من العسكر، وراح نفر آخر يفتش دور البلدة كلها داراً داراً وخُنا خناً وصندوقا صندوقاً حتى غطيان الحلل المقلوبة على الأرض رفعوها ونظروا تحتـها مفتشين

عن «خرابة»، أى والله يابوى فالحكومة حين تخيب تصبح أعبط من الخواجة «ينى»، الذى جاء يوما ليبيع الماء للصعايدة فى زجاجات، لم يسلم صاحب دار أو أحد المارين فى الشوارع من ضربهم، كانت مجزرة والله يابوى، ضرب فى ضرب فى ضرب، بدباشك البنادق وبالكرابيج والمساوق والجزم الميرى، ضرب غبى أعمى لا يرحم عجوزا ولا يشفق على مريض، والسؤال يتكرر مع كل ضربة: خرابة فين يا ولد؟ والجواب أيضا يتكرر: ما اعرفش!.. ما اعرفش! ما اعرفش انضربت البلدة كلها ضربا مبرحا لم ينج منه النساء ولا الفتيات ولا الأطفال..

عند قمائن الطوب أمسك العسكر بأحد أصحابها وظلوا يضربونه وهو يقول: ما اعرفش، حتى تعبوا من الضرب، فكتفوه وانهالوا جميعا عليه حتى لفظ أنفاسه، فانتقلوا إلى رجل آخر من أصحاب القمائن وانهالوا عليه بالكرابيج السودانى وهو يقول: ما اعرفش، فلما أوشك يلفظ أنفاسه هو الآخر جاء طفله الصغير يصرخ ويلطم خديه قائلا للضارب: «اترك أبى وأنا أريك مكان خرابة». فتركه وتقدم الطفل فأشار إلى قمينة الرجل الميت وقال: هنا فصار العسكر ينظرون إلى قمينة الطوب من كل ناحية فإذا هى مجرد بناء مسدود بالطين من كل ناحية، فتعجبوا من إشارة الطفل، وظنوه محتالا صغيرا يسرح بعقولهم شخط فيه أفندى متقمط بالأحزمة: «فين يا ولد؟»، فأشار الطفل مرتعشا إلى طاقة صغيرة مسدودة بالطين وقال: «هنا!». أخذ الضابط يتحسس الطاقة فوجد طينها طريا، فأشار إلى بعض الرجال أن يزيلوا هذا

الطين، فتقدم نفر من العسكر ونخروه فانفتح في القمينة ثقب كبير يتسع لجسد كجسد «خرابة»، وتبين لهم أن «خرابة» لحظة أن كان يجرى لحق به الرجل الميت فأمسكه وسرب جسده كالثعلب من الخلف فإذا هو في سرداب طويل معد لحطب النيران التي ستشتعل تحت هذا الطوب، ثم إن الرجل الميت أغلق عليه بالطين في لمح البصر تاركا ثقوبا خفية يدخل منها الهواء.

نظروا جميعا في ثقب السرداب فرأوا جسد «خرابة» ممدداً كالثعبان، فجروه حتى أخرجوه، وفي الحال كتفوه، وهم يزغردون كالنساء، في مقابل صراخ منتحب يرتفع أواره في سماء البلدة ـ شحنوه في عربة الشرطة وجروا به إلى دوار شيخ البلدة الذي كان منذ شهور قليلة قد نجح في أن يركب لنفسه تليفونا خاصا من حر ماله ـ البلدة كلها من خلف العربة تلطم الخدود وتصرخ وتقذف العسكر بالطوب والحجارة وأقراص الجلة الطرية والشتائم المقذعة، والعسكر يهددونهم بإطلاق الرصاص في الهواء فيزداد روع الناس وينهالون عليهم بالطوب حتى نفدت ذخيرة العسكر فاستعملوا العصى الغليظة والكرابيج.

في دوار شيخ البلدة وقف الحكمدار كالزعزوع الأجرودى يروح ويجئ في فرح شديد، وجهه أصفر كالليمونة وعلى شفتيه الدقيقتين شارب تركى غشيم، العسكر وضعوا «خرابة» أمامه مكتوف اليدين والقدمين فبدا صغير الحجم بشكل لم يتوقعه أحد، بدا صبيا صغيرا غرا. نظر إليه الحكمدار بغيظ قائلا في سخرية: «إنت بقى خرابة؟! إنت؟!». فرد عليه «خرابة» قائلا: «ولسه خرابة!

وسأبقى خـرابة!». فما كـان من الحكمدار إلا أن بصق فى وجـهه يابوى، وقال بغيظ: «ماتردش على يالوطى يا ابن القحبة!» فإذا بـ «خرابة» يرد عليه البـصقة بأشد منها حتى مـلأت وجه الحكمدار، وقال: «اللوطى هو أنت والقحبة هى أمك!». الحكمدار صار ينتفض كالجدى المذبوح يقول فى شعـور بالخوف: «تشتمنى وتبصق فى وجهى يالوطى؟» ـ رد «خرابة» على الفور: «ما لوطى إلا أنت».

ثمة غفير نظامى كان يقف بجوار «خرابة» حاملا بندقيته ذاهلا لا يعرف ماذا يفـعل، وإذا بالحكمدار يصرخ فيه قائلا: «أفـرغ فيه الرصاص ياخـفير!» فوقف الخفـير ذاهلا يابوى، فتح فـمه مردداً كالأبله: «هه!»، فى حين يـنتفض الحكمدار مواصلا الصـراخ فيه: «إنى آمرك أن تفرغ فـيه الرصاص». تلجلج الخفـير المسكين، ماذا يفعل يابوى؟ صار كالفأر فى المصيدة يلتفت حواليه يستغيث بالله فى صمت، وأخيرا خلع البندقية من كتفه وتقدم بها نحو الحكمدار قائلا:

«لا أقدر ياسعـادة البيه! هذه بندقيتكم، فـخذوها! وهذه لبدتكم أيضا.فخذوها!» ووضـعهما على الترابيزة ومضى، فصار الحكمدار يضـرب فى «خـرابة» ببوز حـذائه قـائلا: «تشـتـمنى يا كلب!» و «خـرابة» يرد عليـه قـائلا «مـاكلب إلا أنت وأبوك» طاش صـواب الحكمـدار يا خال، نزع مـسدسـه من خـاصرته، وأفـرغ فى قلب «خرابة»ست رصاصات كومته على الأرض قتيلا.

واه يابوى علـى منظرك يا خـرابة وأنـت تنتـفض فى قـيـدك كالذبيحة من حلاوة الروح والدم ينزف منك على الأرض..

الجنون أصاب الناس كلهم يا خال، فاندفعوا صارخين مولولين، واندفع شيخ البلدة فأمسك بالتليفون وصاح في كل ذعر: «يامديرية! أنا قبضت على الشقي المعروف خرابة ولكن سيادة الحكمدار قتله الآن بست رصاصات! إلحقي بي يا مديرية قبل أن تقوم المذبحة!» فقفز الحكمدار وانتزع منه السماعة وصار يجعر فيها: «أنا الحكمدار! أنقذونا حالا! أرسلوا لنا قوة كبيرة! البلدة كلها هائجة علينا تضرب فينا بالرصاص! حتى اسمعوا!»، وصار يضرب الرصاص بمسدسه في الهواء.

هاج الناس يا بوي هيجانا كبيرا وكانوا يلتمون أمام الدوار في قوة متزايدة. من بين هذا الموران والفوران لفظت الجموع من بينها رجلا رفيع القوام ملثما يضع يده في فتحة سيالته، اقتحم حجرة الدوار ونزع من جنبه من تحت ثيابه مدفعا رشاشا صوبه بسرعة مذهلة في صدر الحكمدار وصب عليه النار فأرداه قتيلا في الحال يتخبط في دمائه، ثم اندفع يجري داخل الدار ليوهم أنه سيختفي في قاعاتها الداخلية وهو في حقيقة الأمر سيهرب من بابها الخلفي المطل علي جرن موصول بالحقول البعيدة المتاخمة للجبل.

العسكر هاجوا وماجوا وتدفقوا جميعا على الحجرة ينظرون في أمر حكمدارهم ووابل من الرصاص ينهال عليهم من كل فتحة في الحائط حتى تكومت جثثهم فوق بعضها بما فيهم شيخ البلد الخائن. أما نحن أهل «خرابة» ونسبه فقد جرينا هنا وهناك نبحث عن ذلك الرجل العظيم الرفيع القوام الملثم الذي أوقع بحكمدار الحكومة وشيخ بلدها وبعض الضباط والعسكر في مقابل «خرابة». لففنا حول الدار، ففوجئنا بفارس يمتطي ظهر جواده

يقف قـرب البـاب كأنه ينـتظر أحدا ثم فـوجـئت بعـد برهة ـ ويا للعجب ـ بامرأة تخـرج من الباب الخلفى منكوشة الشعر مـصفرة الوجـه تكاد من فـرط الاضطراب تنكفـئ على الأرض يا بوى، بل إنها انكفأت بالفـعل ونهضت بسرعة تجـرى نحو الفارس الواقف بعيـدا بحصانه. شئ إلهى جـذبنى إليهـا يا خال، فجـريت نحوها كـاشفـا وجـههـا فـإذا هى أخـتى «سعـدية»!! واه يابوى، أخـتى «سعدية» كانت هى الرجل الملثم الذى أوقع بالحكمدار؟! واه يابوى كيف أصدق هذا؟ أفـيك هذه الشجاعة كلها وهذه المـرجلية كلها يا سـعدية؟! الله يخـرب عقلك يـابنت! هل ورثت ذلك من أهلنا أم أن خرابة عصر فيك رجولته عن حق؟!..

لحقت بها ياخال وأنا من شدة إعجـابى بها وشدة خفقان قلبى خوفا عليها أكاد أقبل الأرض التى تجـرى عليها. حين وصلت إليها عند الحصـان استصـغرت نفـسى جنبها والله يـا بوى ووجدتنى أتلجلج ولا أعرف كيف أتكلم معهـا. وحق النبى أشرف خليقة الله لقد غاب صوتى كما يغـيب لحظة أتكلم مع رجل واعر كبير المقام. وكانت هـى ـ شأن كبـار المقام ـ قـد أسلمت يديها للـفارس الذى أركبها خلفه. وقد ظهر لى أنها ستتجاهلنى وتمضى غير عابئة بى، فـصـرخت بكل عـزمى: «سـعدية! رايـحه فـين!» قـالت: «الجـبل ياروحى! لم يعـد لى مكان سواه! سـوف أحتل مكان خرابـة حتى آخذ بثأره كاملا ممن وشـوا به! لا تخشوا على من شئ فأنا رجل كمـا تعرف والآن صـرت أرجل مما تعرفون!»، ثم هزت سـاقيـها تستحث الحصان على المشى فحـركه الفارس فانطلق يسبق الريح فى اتجاه الجبل.

السادسة ـ يوم الطوفان

كالنسوان هرولت جزعا مولولا أشق الثياب أصوصو فى الشوارع المبذورة كلها بخلق الله، المنذهل الصارخ المولول، فما يدرى أحد علام يصرخ جاره وعلى من يولول: تقول قامت القيامة يا بوى وتحقق قول عمى الفقيه، إذ انذهلت كل مرضع عما أرضعت. أطفال صغار يزحفون على الأرض يصرخون لله ما يغيثهم يا خال، أقدام الذاهلين تدوسهم تعجنهم وتمضى متعثرة فيضيع صراخ اللحم المدهوس فى صراخ عمومى آت من عموم النواحى فيه النواح والصوات والعراك والضرب والرصاص. خلق كثيرون يروحون ويجيئون فى كل مكان من كل مكان إلى كل مكان ولا أحد يعرف ماذا يفعل ماذا يحدث ماذا تخبئ الأقدار. لو رأيتهم ظننتهم جماعة كثيرة وهم كل واحد منهم فى واد يصطدم بأخيه بالحائط بالسائر يدوس فوق ابنه وفراخه وهو لا يدرى ماذا يفعل. من حين لحين يدب فيهم ذعر مفاجئ وكبير فإذا هم طوب يجرى يتقاذف يتصادم. إذا بعربات الكميون والكافورى تدخل البلدة مشحونة بالعسكر المسلحين بالعصى والدروع والقنابل والبنادق. وحيث أنت ذاهل فى طريقك ناسيا ماذا أنت

وماذا كنت فيدهمك وقوف العربة وتقافز العسكر منها كالقرود المتوحشة تتجمع فى سرعة الطيور تهجم عليك صفا واحدا بالعصى والقنابل والرصاص، كل واحد من الخلق وحظه يا خال. منهم من مات برصاصة، ومن لم يمت بعشر رصاصات، ومن مات بزغدة بوكس فى الجنب، ومن مات من الخضة.

هاجت النساء يابوى وازدحمت السماء بالأصوات يا بوى، بدوى الزلازل يا بوى، نبحت الكلاب فى عواء صارخ يا بوى، انذعر الحمام واليمام والغربان والحدآت. لعلعت طلقات المدافع الرشاشة تحلف اليمين يا بوى أنها صبغت السماء بلون جهنم وارتفعت ألسنة اللهب فى كل الأركان البائنة من خيمة السماء وكانت أسراب الحمام الملتاث - بنفس النبالة المعروفة عنه يابوى - تتكفل بنقل بريد اللهب على جناحيه إلى أحمال القش والحطب، وأقراص الجلة فوق أسطح الدور، وفى الأجران، وعلى شواشى النخيل الجاف، والأشجار اليابسة.. وكان صوت طقطقة النيران يبتلع كافة الأصوات يعزل البلدة عن رحمة السماء حتى صرنا داخل كرة من النيران الحمراء تنتظر وصول معجزة إلهية يا خال، والواحد منا ماشى يطوح وجهه يمينا وشمالا كالفقيه عندما يقرأ تحاشيا لألسنة النار الصغيرة التى كانت تتطاير فى الهواء بسرعة مذهلة كالريش الملون كحلوى غزل البنات إن تفاديتها بوجهك علقت بخلقاتك التى تلبسها يابوى.

الله وكيل يابوى، الخلق أفاقت مرة واحدة، كيف يابوى؟ أشهد يابوى والله وكيل أننى ما كنت أراهم يفيقون إلا حينما يتمكن

واحد من خناق عسكرى، واه يا بوى مما يجرى لحظتها تقول كلبا أمسك بقطعة عظم وقبض عليها فصارت هى وعمره سواء؟ هذا وحق الله ما رأيته ياخال، كل الذاهلين ما إن يروا عسكريا فى قبضة الأهالى حتى يفيقوا فجأة ويرتموا فوقه نهشا وتمزيقا، يظهر يا خال أن الأهالى حين ذاقوا طعم لحم الحكومة وجدوه لذيذا فأصابهم السعار وركبهم جنون الفوقان أو قل فوقان الجنون وقالت أنيابهم هات يا حكومة لحمك الطرى المعلوف من دمنا لنأكله ونمرمشه، هات لحمك يا حكومة هات فجحا أولى بلحم ثوره.

تحلف اليمين يا خال، أن جميع ما كان فى أيدى العسكر من سلاح خطفته الأهالى - أما جثث العسكر فواه عليها وعلى ماجرى لها، يعز على الفائت أن يرى جثة بثياب صفراء دون أن يمزقها، ولم يعد يميز جثث الأهالى من جثث الحكومة سوى الجزمة الميرى فى الأرجل، فكل من وجد الأهالى فى قدميه جزمة ميرى حملوه وألقوا بجثته فى الحرائق التى صارت متجاورة مندلعة لا أمل فى مقاومتها.

الله وكيل يا بوى، لو كنت مكانى فى قلب هذا الأتون لأيقنت أن البلدة فانية حيث الكل فى غيبوبة يائسة. ولابد أن ملائكة من السماء اخترقت خيمة الجحيم ونزلت بخراطيم المياه والبلاليص حتى أطفأت النيران كلها، لكننا عدنا من تشردنا الطويل فى البلاد والغيطان المجاورة لنبحث تحت أنقاضنا عن بقايا متاع، فلا نجد إلا بقايا لهب مشتعل وركام سواد متفحم.

السابعة - يوم الطلوع من الهديم

الناس أصبحوا يعثرون على ذويهم بالصدفة والله يا بوى. يتصادف أن يكون العجوز ماشيا فى ذهوله منذ بضعة أيام، لا يعرف أين يذهب بل لا يعرف نفسه فإذا بابنه أو أحد أقاربه يلتقيه على الطريق فى بلدة بعيدة فيأتى به، أما أنا فحينما أفقت وانمحت من رأسى ومن عينى خيمة الجحيم الحمراء المغبرة بدخان أسود، وبدأ الهاتف يجيئنى ويقول لى إننى لى دار وأهل يجب أن أسأل عنهم وأعرف المصير الذى آلوا إليه. كنت لحظتها كمشانا فى حضن الجبل السفلى بين عشرات من العرايا المجروحين المليئة أجسادهم بالقروح واللهاليب. وكنت أتذكر أننى شاركت فى إطفاء الحرائق التى لابد أنها نشبت فى دارنا هى الأخرى، زعلت من نفسى آخر زعل والله يابوى، جاءنى وازع يوزنى على قتل نفسى فى التو واللحظة قبل أن أعرف أى خبر، تذكرت أن العسكر حين طاردونا جريت مع الذاهلين حتى وصلنا إلى أطراف البلدة فقطعت علينا الحرائق طريقنا من كل ناحية، فطردت هذا الهاتف وقلت لنفسى إذا كانت أختى «سعدية» هجمت بمفردها على الحكومة وجندلت حكمدارها بمدفع رشاش فإننى يجب أن أختشى على

دمى وأكـون رجـلا يسـتطيع الوقـوف أمـام الحرائق والأخـبـار المؤسـفـة. كنت أجـرى نحـو الدار والطريق يـلخـبطنى ويلخـبط اللخبطان فأعود إلى الوراء فأتلخبط أكثر فأعود ثانية لأدخل حارة يتضح بعد برهة أنها ليست حارتنا..

مكثت على ذلك من الضحى حتى أذان العـصر أخبط فى البلدة تخبـيطا دون أن أعثـر لحارتنا على أثر. منظـر البلدة قد تغـير يا خـال إذ أن دوراً احتـرقت بكاملهـا على الجانـبين وغـيرت وجـه الشارع، ودوراً انهدمت فوق دور فسدت الشارع، حوارى انسدت من ناحيـة وتم فتحهـا من نواح أخرى فنشأت حـارات جديدة لم نكن نعرفها، حوارى أخرى كان بينها وبين بعضـها مسافات كبيرة نمشيها فى تلت ساعة أصبحت داخلة فى بعضها. التقانى صاحبى «هليّل» أجـر خلقاتى مـعفـرا ذاهلا وكان هو يجـر بعض الجـمال المحملة بالطوب، فتركها تمضى إلى وجهتها المعلومة وجرى نحوى يأخـذنى بالحضن يقـول: «دوختنـا يابو العم الآهى ربنا يدوخك! يومان ونحن نسـأل عنك فى كل مكان! خفنا أن تـكون ضعت فى النيران مع الذين التـهمتهم الحـرائق! أو دفنت تحت الهديم! وقلنا لعله هرب مع الذيـن هربوا من مدافـع العسكر وقـنابلهم إلى بلاد بعيدة!»..

قلت وأنا أبكى من كل عـين حـفان: «مـضـى على الحـريق إذن يومان ياخوى!». قال: «سلامة عـقلك! مضـى يومان وليلتان! تعال! تعال!». قلت ذاهلا وأنا أمـضى معه كطفل عثر علـى أبيه فى غربة

موحشة:«ألا تعرف أين ذهبت دارنا يا هليل يا خوى!» ضحك بعين دامعة وأشار نحو كومة هديم على بعد حارتين بين بضع جدران تقف وحدها عريانة وقال: «هذه داركم فلا تأمل فيها الآن! خللي عوضك على الله! لابد أنه سيعوضك! فكن صادق الإيمان ولا تحزن على ما حدث!». وقعت من طولي يا خال، رميت نفسي على الأرض، صرت أمرمغ رأسي في التراب وأصرخ بعزم ما في من ألم: «أمي! أخي! أمي! أخي». قبض «هليّل» على كتفي ورفعني صائحا: «امسك نفسك يا جدع فأمك بخير وأخوك أيضا بخير وهما عندنا الآن في دارنا! كان أبي عند الحريق قرب داو حماته فحود ليختبئ من النيران! فلما شبكت النيران في داركم كان هو أكبر المطفئين وكنت وحدي أطفئ النار التي شبكت في دارنا من الناحية البحرية ولم ينفعني سوى الطلمبة في حوش الدار! هندية بالطشوت والحلل! في ظرف ساعات تمكنا من إزالة أحمال القش والحطب على سطح دارنا ودور الجيران التي لم تلحقها النيران! ولولا أننا هدمنا الجدران فوق الخشب والحطب المحترق ما نجونا! ولقد عاد أبي بحماته وأخيك إلى دارنا! وأنا الآن ذاهب بهذا الطوب لترميم الجدران المتهدمة ترميما مؤقتا!»..

تلقف قلبي هذه الكلمات يا يوى، كما تتلقف الأرض الشراقي قطرات الغيث، فاستكن قلبي في صدري قليلا، لكنني بقيت أولول وأشد خلقاتي أكاد أمزق ما بقي فيها، فلكزني «هليّل» قائلا: «لماذا تبكي يا جدع مادام الله نجاك ونجى أمك وإخوتك!» قلت

باكيا:«الدار يا هليّل! كيف أبنيها من جديد بعدما انهد حيلنا!». قال «هليّل» بكل بساطة: «مثلما بنيتموها فى الأول تبنيها ثانية بإذن الله!». جعرت من جوف بطنى: «كيف يا هليّل كيف! من يده فى الماء ليس كمن يده فى النار!» قال «هليّل» وهو يغمزنى فى كتفى: «الحكومة سوف تساعد الخلق يا جدع! أتظن أنها تتركهم هكذا بعد أن بهدلتهم كل هذه البهدلة! الحكومة يجب أن تدفع الطاق عشرا!». شوحت فى وجهه بغيظ: «حكومة ماذا يابو العم! الحكومة التى تحرقنا لا تساعدنا على القيام ثانية!». قال: «الحكومة لم تحرقنا يا جدع! أقصد أقول لك أن الحكومة لم تحرقنا وحدها! الذى أحرقنا بحق وحقيقى هم أهل المشير!». تسمرت فى الأرض مرتعشا يا خال! أهناك مشيراً غيره!» ووضع يده على كتفي يستحثنى على المسير قبل أن تتفرق الجمال وتضيع من النظر..

لكننى - تحلف اليمين يا بوى - تسمرت فى الأرض وشعرت أن شواكيش غليظة تدق فوق رأسى تريد ألا تكف عن الدق إلا بعد أن تغطس رأسى كلها فى الأرض كالمسمار فى الخشب. قلت لصاحبى بفحيح مرتعش ينتفض بالخوف والذعر: «ما دخل أهل المشير فى هذه المسألة يابو العم! هل داست لهم بلدتنا على طرف!» قال صاحبى: «اتضح يا جدع أن الحكمدار المقتول أصله من بلدة المشير وعلى صلة قربى متينة به! ولهذا كان الحكمدار منفوخا وفعل ما فعل فى خرابة وفينا!»..

يوه يوه يوه! المسألة هكذا إذن يابوى!.. قلت وقد اقشعر بدنى من الرعب «المسألة مادامت هكذا فإننا بعون الله مقضى علينا قل علينا يا رحمن يا رحيم! وهل نحن على مقاس المشير يابوى؟ إن مأمورا في مركز يستطيع أن ينيمنا من المغرب لو أراد ويعدمنا العافية! فأين نروح من المشير يا بوى ومع أهله الذين طلعوا من المنيا وضموا الصعيد كله تحت يمينهم؟»..

أردت أن أمشى مع صاحبى لكننى لم أستطع نزع قدم واحدة من الأرض، فصحت فى صاحبى بشئ من القوة كأننى اكتشفت أمرا خطيرا غاب عن بال صاحبى: «كيف يا خوى تقول هذا الكلام! ألسنا نحن الأسايطة تبع الريس أبو عبد الناصر يا خوى! هل يتجرأ المشير على أهل الرئيس! كيف يابو خاله!» إن المشير له عائلة كبيرة فى المنيا وفى كل مكان فى الصعيد! أما الرئيس فليس له عائلة! لا فى أسيوط ولا فى أى مكان غير إخوته الذين يعيشون على مقربة منه!». قلت مشوحا فى وجهه أنا الاخر: «كيف يابو خاله! إننا كلنا أهل الريس وعائلته! مصر كلها أهله وعائلته! وهو لا يرضى أن يحصل ما حصل لنا!». شدنى صاحبى من ذراعى فى استحقار واستصغار لشأنى: «رد هذا كلام الجرانين ياجدع! فضك منه! فأبو عبد الناصر مسكين مثلنا كان الله فى عونه! ألم تسمع ما يقوله بعض الناس فى نواحينا أن المشير هو الذى يسند الريس! ويستطيع نزع المريسة منه وقتما يشاء! لكنه لن يفعل لأنه والريس أصدقاء عمر طويل وبين أولادهما حب وغرام!».

قلت: «نعم أسـمع! لكن الذى يقـول هذا الكلام يقـوله من تحت لسـانه ولا يجرؤ علـى التصـريح به! نحن لا نعـرف غيـر الريس وحـده يا أبو خـاله! نشكو إليـه حـالنا ومـا حل بنا من خـراب!». شدنى «هليـل» صاحبى بقـوة قائلا: اشـتكى لله فلن يغيـثك أحد سواه! لو كانت الشكوى لـغيره تفيد لتـغطت جثث ووجوه الحكام كلهم بورق الشكاوى!إمش ياجدع إمش وخليك عـاقلا! فأيام الملك والإنجليز لم تذهب ولكن اسمها هـو الذى تغير! الأمر لله من قبل ومن بعد!»

قلت وأنا أنخلع من الأرض بسهولـة: «عيب الشكوى لله أنها لا تأتى بنتـيـجـه يا أبو خـاله! إن الله عـادل وعظـيم أى نعم ولكن المصيـبة أنه يؤجل كل الحـسابات إلى يوم القـيامـة! فالواجب أن نأخـذ حـقنا بأيدينا يا أبو خـاله! هل نعـصى الله! إشـمـعنى هم عصوه! أقول لك! فلنـفعل أفاعيلهم! وحينما نمثل يوم القـيامة أمام الله نقـول له يامـولانا هم فـعلوا بنا كـذا وكـذا فكان لابد أن نرد عدوانهم بمثله على الأقل وهم أقوياء عنا يامولانا ومهما فعلنا بهم لا نفعل ربـع مافعلوه بنـا! فإذا لم يصدقنـا حلفنا له بالله العظيم وبالقرآن المجيد أننا لم نكذب عليه!»

غمزنى فى ذراعى غمزة مفاجئة وقال يستحثنى على المشى : « أهم شئ الآن هو أن تراك أمك وتطمئن عليك أختك هندية!».

مضيت مـعه ياخال؛ وجاءنى الهاتف فصـحت بسرعة : «أولاد خرابة! ماذا حل بهـم!» . انفجر صاحبى «هليّل» فـى الضحك كمن

يرى أمامه مسخة. قلت مغتاظا: «علام تضحك يا بو العم!» قال وهو يطبطب على ظهرى بحنو وفى صوته شفقة كبيرة على حالى: «لا حول الله يارب! حدث لعقلك شئ يا حسن! جسمك سليم فهل شبكت النار فى صندوق دماغك الجوانى! » قلت فاغرا فاهى من الدهشة: «كيف يابوى!» قال بجدية تقدر تقول لى أين كنت طول هذا الزمن! قل لى من الذى كان يحكيلك فى الجبل أو فى مكان بعيد كل هذا الوقت! كيف تنسى الأمانة التى أوصتك بها أختك سعدية ساعة نحسها وحين قالت لك خَلِّ بالك من العيال!».

حرقنى الكلام يابوى فى قلبى عينى تكب الدمع مدراراً على صدرى، ولسانى العاجز عن النطق يتلوى فى حنكى قائلا ـ أقصد محاولا أن أقول: «معك الحق ياهليّل! معك الحقَ وحق هذه الليلة ومساها أننى لا أعرف أين كنت ذهبت! ماذا فعلت! كل ما فى دماغى الآن أننى كنت فى قلب حريق يزحف بى من مكان لمكان! عقلى الآن يكاد يكون مشى من دماغى! ألا تعرف أين ذهب ياهليّل يا خوى! أيكون قد وقع منى فى قلب الهول الكبير ياهليل! قلبى يحدثنى أن القيامة قامت ياهليّل وأننا من أهل الجنة الحمراء! قلبى يحدثنى أننا ناس طيبون ولهذا نجونا من الهول ونذهب الآن إلى موضع الموازين ليعرفوا ماذا بقى علينا لله من ديون فندفعها أو نأخذها مصاريف حبس فى أحد السجون الواقعة فى المنطقة الفاصلة بين جهنم والجنة الفيحاء!».

قال هليّل ببساطة وثقة : «عقلك الآن مدفون تحت هديم داركم!»، ومصمص بشفتيه متصعبا ثم سحبنى فمضينا صامتين

لبرهة طويلة ثم دهمنا الهول المفاجئ: عربات مصفحة وعربات إسعاف وزمامير وأجراس تصلصل وخيول يركبها عسكر بطرابيش وبرانيط وطاسات نحاسية. أراد «هليّل» أن يطمئنني فسحبني قائلا: «الحكومة تنقل الجثث من تحت الأنقاض ورماد الحرائق تذهب بها إلى كردون نصبوه خارج البلدة لفرز الجثث! فالجثث التى تفحمت وتمزقت يكومونها على جنب! والجثث التى بقى فيها شئ يدل عليها على جنب! هكذا يفعلون من صبيحة ربنا وهذه الإسعاف طلبوها من البارحة من أجل ناس كانت لا تزال فيها الروح! زمانها الآن قد فارقتهم! ولن ينوب أصحابها من عربة الإسعاف إلا البهدلة والغربة! وقانا الله شر فظاعة غربة الجثة! فهى أشد والله من غربة الروح يا جدع!» وتصعّب «هليل» ومصمص بشفتيه قائلا: «ولكن بالله يا جدع! مع من ستحقق الحكومة الشاطرة هذه! الحكومة أم الطرابيش والأقمطة الصفراء! مع من ستحقق هذه الحكومة التى تعوج الطرابيش على ناحية وتحكم بأربع سنين! أخذوا جثة حكمدارهم وجثث عسكرهم كلها البارحة ولن يتعرفوا على باقى جثث العسكر التى أكلتها النيران!».

الدموع رجعت تهطل من جديد يا خال فيما صرت أردد: «ما قلت لى أولاد خرابة أين ذهبوا ودارهم ماذا دهاها» . مسح دموعه بكمه الواسع وحضننى قائلا: «إهدأ وسأقول لك كل شئ!» ثم تحدرت كلماته تحكى لى العجاب: «النار - تخيل يا جدع - ماجرؤت على الاقتراب من دار خرابة ولابد أنها هى الأخرى

تخاف ولهذا خشيت بأس خرابة! فـاحترمت دياره! وألقت بنفسها بعيدا عن الجـدران الواطئة! التى كانت شواشـى القـش على رأسها تصطدم بطلقـات الرصـاص! والحمـائم المشـتعلة تهـوى فـوقهـا موهوجـة! وديار خرابة كما تعلم يحـميها ظهـر الجبل! إذ هى تقع خلفه بين صـحبة من الدور بناها أصـحابها من عـائلة خرابة على مشارف أراضيهم الزراعية فكان الجبل يصد اللهب بصدره! وحين همدت النيران تماما صباح ذلك اليوم! وبدأت السماء تغسل نفسها من بطع الجحيم! وسـحب الغبار والدخان المحترق! حـيث ساعدت الأشجار العالية التى لا نهاية لهـا! والزروع الكثيرة على استنشاق أنفاسها وصار من الممكن أن يمشى الناس فى الطرقات! كان القلق قد وصل بـأمك إلى منتهـاه فراحت تصوت وتـلطم وتجعر طـالبة خـبـرا عنك وعن أولاد خـرابة إذ أن الحـريق فـى نظرها شب من لحظة ما وصلها خبر القبض عـلى خرابة أما لحظة أن وصلها خبر مصرعه فكانت لحظة الموت للعالم أجـمع! ولقد ماتت بالفعل مرات عديدة! وردت فيها الروح طالبة أولاد خـرابة! فذهبت بصحبة أبى إلى ديار خرابة وصبـاح اليوم عن الشروق فالتقـتنا زوجة خرابة الأولى فى احتفال كبير وأكرمـتنا آخر كرم وغادرت جميع النسـاء المعزيات خارجة إلينا متعصـبة بالشاش الأسود غارقة فى السواد إلا وجهـها الكبـير الأبيض كـالرغيف الفـلاحى المرحرح! بعـينين واسعـتين زرقاوين فى قلبـهما كرتان ضـئيلتان من سـواد الثوب والشاش والليالى التى قضاها خرابة بعـيدا عنها فى أعماق الجبل! كانت جـميلة كـالبدر ليلة تمامه! قـوية كثور مـعلوف! مسـترجلة

كشيخ قبيلة! قالت لأمك بكل هدوء واتزان ـ ناسية أنها أم ضرتها ـ ورطوبة الدمع فى عينيها وشفتيها كأوراق الورد تشربت قطرات الندى لتوها : «إن سعدية قد أصبحت اليوم فى مركز خرابة بالنسبة لأهله والعائلة كلها! إنها هى التى سبقت كل رجال العائلة وفتياتها لتمسح عن العائلة عارا لم تكن لتمحوه السنوات وإن طالت! وكتب على هذه العائلة أن تبقى إلى نهاية العمر مسموعة حاضرة فى الكبيرة والصغيرة! سعدية حقنت عيالنا كلهم بحقنة الرجولية والشهامة والفداء ستظل فى دم العيال تصرخ فى العروق إذا كانت امرأة جدكم خرابة قد ثأرت له من الحكومة نفسها فى عقر دارها فى أجعص جعيص فيها فماذا ينتظر منا نحن يا رجال ويا شباب ! هى قد فاجأت العائلة كلها بهذا الفعل العظيم وإنى لموقنة أن زوجى خرابة حين أحبها وتزوجها فوقى إنما كان ذلك بوحى إلهى!إن خرابة ليس يختار أى أحد! من يتزوجها خرابة لابد أن تكون داهية من أعظم الدواهى! إن سعدية لم تحدثكم عن شروط عقد الزواج الذى تم بينها وبين خرابة وهو عقد آخر غير الذى قرىء عليكم ليلة العرس! فمن بين شروطه الاتفاق على تنفيذ الثأر فى حموتها فى الحال وأن من تواتيها فرصة المبادرة بالعملية عليها أن تلبس ثياب خرابة وشخصيته أبد العمر ولها أن تحتل مركزه تحمل مكانته تحل محله فى الجبل!إننى ضعفت لبرهة قصيرة باعتبارى أم تعز أولادها وإنى لنادمة عليها الآن كل الندم! إنى لأحسد سعدية قدر ما أحببتها! لقد سرقت مجدى الذى قضيت العمر أحلم به! أن

أكون أول امرأة تمتطى صهـوة الجبل تسكنه بين المطاريد الرجال! سعدية الآن هى الرجل وعيالهـا فى عهدتى أنا! هى أمانة لن أفرط فيها لأى سبب من الأسـباب! إنهم لابد أن يكون عيال خرابة بحق وحقـيقى ولن يكونوا كـذلك إلا إن تربوا فى عهدتـى تحت رعايتى أسقيهم أباهم! وأهلا وسهلا بك أنت الأخرى يا أم الغالية! والله لو أكرمـتنى يا أم الغالية وأكـرمت زوج ابنتك تحت ثراه لبقـيت معنا فى هذه الدار أنت وابنك إلى آخر الأيام!».

فلمـا سمع «هليّل» وأبوه هذا الكلام الطيب انـصرفا علـى وعد بإحضار جدة الأولاد لكى تراهم وتطمئن بنفسها.

ثم قال «هليّل» وهو يحود بى وراء الجمال إلى الكوعة التى هى دارهم الكبيرة:

- «وعلى كل حـال فالحـمد لله أنك ظهـرت لتذهب مـعنا لرؤية أولاد أختك!».

وكان واضـحا أن دارهم هى الأخرى قد تغيرت.

أبواب الجنة ثمانية

الأولة ـ قِيام العَجَل

استقبلتنا «بهانة» زوجة «خرابة» الأولى ففتحت لنا المندرة الكبيرة وتربعت أمامنا تستقبل وفودًا من الرجال والشبان من العائلة والعائلات المجاورة. جئ بالغداء خروفا مذبوحا لتوه، فصرنا نأكل ونتفرج على أولاد أختى يمرحون فى الدار لاهين، غير عابئين حتى بوجودنا فاستعجبت والله يا خال، واستعجبت أمى، كما استعجب «مليّل» وأبوه من الولاد الذين قتل أبوهم منذ أيام ونفيت أمهم طريدة إلى الجبل، ومع ذلك يمرحون، مع الأولاد يلعبون يغنون، وأمى ترى ذلك فتزداد إشفاقا عليهم، وتسح من عينيها الدموع، لكنها فى النهاية مسحت دموعها وصارت تتكلم مع «بهانة» فى أمور الدنيا والدين، وأفاعيل الزمان، ونذالة الأقدار، وغدر الأيام، وعندما أذنت العشاء قامت لتصلى، فقامت «بهانة» لتصلى خلفها، وقمنا نحن لننصرف فحلفت «بهانة» بطربة العزيز الغالى، أن أمى لا ترجع معنا وأنها تظل مقيمة فى ديار «خرابة» حتى ننتهى من بناء دارنا على الأقل من مهلنا.

«بهانة» شخصية ليس من السهل تضييع حلفانها يا بوى، كما أنه ليس من الصواب تضييعه وليس من العقل مجادلتها فى أمر

قفلت دماغها دونه. فسلمت عليها ومضيت فسلمت على أمى وشعرت وأنا أطيل السلام عليها أننى أودعها لغيبة طويلة لا أعرف عنها شيئا بعد لكنى سوف أغيب، قلت لها باكيا : «ادع لى يا أم». فانبرت تدعو وهى تقيم الصلاة فى نفس اللحظة وتخلط كلام الدعاء بكلام الإقامة.

فى طريق العودة، ونحن نلف حول جذع الجبل فى سفحه السحيق كان القمر يشجع نفسه على الظهور شيئا فشيئا، ويتسحب من فوق شواشى السحاب، لينظر متلصصا، ويعود فيتخفى وراء موجات من الدخان الشبيهة بالجبال الرمادية، فلما لم يجد القمر أخطارا فى سماء البلدة، أظهر جزءاً كبيرا من كتفه، فصرنا نرى القنيان الرفيعة، والصخور المتخفية، والحفر المتنكرة. والد «هليّل» استنظف صخرة كبيرة كأنها أصبع فى قدم الجبل، وجلس فوقها، فجلسنا جواره ووزع سجايره، وجعلنا ندخن فى صمت. وقتها كنت أشعر أن الدنيا تجر أنينى وتدخل معى فى هزار ماسخ ثقيل الدم وأن أياما من النحوس تريد أن تتحالف معى على العيش والملح، وكانت الشرخة المتقوسة من كتف القمر تريد أن تواسينى وتكلمنى بطالعة نازلة مع أمواج السحاب، تخيلتها والله تقول لى: عيشك مقطوع ها هنا يا حسن يا ولد أبى ضب فارحل فأيام النحوس لن تنى تطاردك فى هذا البلد وليس أمامك سوى الجبل وأنت يا حلو لست فى مقاسه أما مصر المحروسة فهى واسعة لك فيها مخارز وفسح للشقاء فارحل إليها ولج بنفسك.

ميلت على صاحبى «هليّل» وقلت له إننى نويت السفر فى أول قطار يقف على محطة «صدفة». شهق صاحبى واندهش أبوه وشوح بيده فى وجهى غاضبا : «أجننت يا ولدى! خلّيك معى يا ابن الناس ! تشتغل مع أخيك هليّل! إنه يحتاج لك فى شغله ورزقك ورزقه على الله! بدلا من الغربة فى بلاد الله». رفعت ذراعى قائلا بصوت قاطع: «والله والله ! لن أبقى فى هذه البلدة الخراب ساعة زمن واحدة! وإن كان ولدك ياصاحبى حقا فليسلفنى أجرة السكة أردها إليه بعد أيام! وإذا لم يفعل فإننى سأركب القطار بدون تذكرة فوق سطحه!». فقام هليّل وحضننى وبكى. كان يعرف أن مخى ناشف كالزلطة، وأنه سيتعب من الكلام معى، فقال : «خلاص يا عم !لكن أتسافر هكذا!» وأشار إلى خلقاتى البالية المصبوغة بالفحم والوسخ. قلت : «لقد انهدمت دارنا فوق حوائجنا!». قال: «وثيابك أليست ثيابى! فثيابى إذن ثيابك!» قلت: «طبعا! طبعا» قال: «قم معى لحد الدار!» ذهبنا معا إلى الدار فأعطانى ثوبين وقميصين وسروالين وبلغة صفراء عتيقة ولبدة جديدة وخمسة جنيهات بحالها وأوصانى بعدم قطع الجوابات فعاهدته على ذلك وحضنته ثم حضنت والده وأختى «هندية» ومضيت فمضى خلفى «هليل» عازما ألا يتركنى وحدى فى هذه الساعة المقطوعة .. وكان شبح ذراعه المرفوع بالتلويح يتراجع فى ظلام الرصيف المنسحب تحت شباك القطار.

الثانية ـ الحضور المباغت

صـدق من قال إن الأرض كـروية يابوى ، وأن الدنيـا دواررة. فمن الذى جاء بالواد «بربش»رفـيق القمار فى «مصر عتـيقة» أيام كنت صاحب مقهى إلى قطار الصعيد فى محطة «صدفة»؟! ماكدت أجلس والقطار ينسلخ من بيـوت البلدة ويرتع فى مـزارعهـا حتى سمـعته ينادى علىّ من الكرسـى الملاصق للشباك المقـابل. يخرب مطنك يا بربش من الذى جاء بك هنا يا ولد ياشقى؟ تعال أقعد هنا جـوارى. لم أكن أتوقع أن يجىء لكنه جـاء ترك كرسـيه المجـاور للشباك وجاء ينحشر بجوارى. كنت أظنه سيتكبر بحكم هذه البذلة الفخـيمة التى يلبسـها أو على الأقل سـيستـاء من قولتى «يا ولد» أمام الخلق من الركاب، بدون أن أحترم بذلته ورباط عنقه المحبوك وشعره المصفف الناعم اللامع كحذائه الذى لابد أنه لاشغلة له غير تلميعه. سرى فى عروقى شـعور متأسف يقول لى إننى كان يجب علىّ احترامه أمام الخلق فأكلمه مثلما كنت أكلمه فى «مصر عتيقة» قائلا له يا وحيد بيك ـ (الاسم الذى دخل به علىّ أول يوم ويناديه به الرفاق دائما)، لكننى عدت فـشعرت بالخوف يابوى، شئ إلهى فى نفسى قال لى: خل بالك منك ياحسن.

فربما مراده يلعب عليك لعبته بهذا الود وهذه النعومة لينشل ما معك أو ينصب عليك نصبة، خصوصا أن قرصته والقبر فأنا أعرفه ولدا يلعب بالبيض والحجر وكان هو الذى يتحدث دائما باسم رفاقه ويرسم لهم ما يفعلون وفى النهاية يسرقهم فى لعب القمار بخفة يد فيها ألف حاو شاطر، وكان يزعم لى أنه صعيدى الأصل. غير أننى لم أكن أصدقه أبدا، لأن وجهه نحيل، أبيض، طويل الأنف، ثقيل الحاجبين، أزرق العينين، مهيب الطلعة، لسانه طرى ناعم، وصوته رنان مرن، كابن مدينة من ألف جيل، فكيف يابوى أصدق أنه صعيدى، وليس فيه من المرجلية قلامة ظفر؟! خذ منه كلاما حلوا من هنا لحد الصبح يملأ دماغك فتصدق أنه «بيك» فعلا، وهو فى حقيقة أمره لم يفطر بعد، ولم يذق طعم الزاد من أيام عديدة، ولحظة أن تصدقه يكون على الله العوض فيما معك من نقود وجواهر وأشياء ثمينة تستحق البيع أو الرهن، إذ أنه سوف يقودك إلى دارك تخلعها له عن طيب خاطر بل ربما استأذنته برهة تذهب خلالها إلى دارك لكى تحضر له نقودا كبيرة قد يحتاجها. ذلك هو «بربش» الجبار المسجل خطرا فى دفاتر الشرطة.

ورغم أنى عرفت حقيقة أمره بعد ثلاث قعدات فى مقهاى تلك المزعومة بـ «مصر عتيقة»، وجئت بداغه، إذ عرفت اسمه الحقيقى، وحارة درب عجور التى ولد وتربى فيها، لأب ماسح أحذية، وأم تعمل بلأنة، فإنه مع ذلك، كان كثيرا ما يحاول أن يبيع لى

البكوية، وأن يلبسنى الطرطور، يقرطسنى، لكى أعطيه وضعه أمام الخلق، حتى يتمكن من النصب عليهم على راحته.

ذلك يا بوى كان أول شلة «مصر عتيقة» التى بسببها أغلقت المقهى أما «غزولى» ـ ثانى واحد فى هذه الشلة ـ فإنه من الصعيد فعلا والصعيدية واضحة عليه وفيه، برغم أنه أوجه من بربش»، وأجمل وأأنق، يتصوره المرء مثلا من أهل السينما، يغير ملابسه باستمرار، فيجئ كل يوم ببذلة جديدة نظيفة. بعكس «بربش» الذى لديه بذلة واحدة يعتنى بها جيدا، ويحافظ على نظافتها. و «غزولى» كبير الدماغ يابوى، غليظ الملامح، واسع العينين كبيرهما كأنهما لوزتى قطن، تطل منهما نظرات صعيدية، تتلصص، تلبد فى حقول الذرة، تهجم عليك أثناء الكلام معك، يطق منها الشرر. إذا تكلم فبصوت عال رنان، يطلب منك أن تجعل بالله معه لحظة واحدة فإن مللته بعد لحظات تعارك معك. فإن تعارج هاج، وأرغى وأزبد، وبرطم وهلضم، وبوظ دور اللعب، وربما دفع الورق فبعثره، أو الترابيزة فقلبها، ولسانه الصعيدى المعووج المطوط لا يكف عن البرطمة والجعجعة، تحلف اليمين أنه فلاح صعيدى يتعارك عند الساقية، لكن سريعا ما يهدأ يا بوى أما إذا عرفت خلته، فصرخت فيه بعنف وأظهرت زعلك، فحينئذ يعتذر بنفس الصوت العالى ويطيب خاطرك مردداً: «خلاص يا بوى! خلاص يا بوى! حقك علينا!». وكان الظن عندى، أنه ربما يكون من عائلة صعيدية غنية ترسل له النقود بغير حساب، يلعب بها القمار، يشترى فاخر الثياب، يفنطز كل هذه الفنطزة. مخى أنا صعيدى

أكثـر منه يا بوى، ويقع فى المطبـات بسرعـة، لكننى أعرف كـيف أخلع قدمى فــى الحال يا بوى، قبل أن تتنفـرز فى الوحل أو أنكفئ على وجـهى. قعـدتان ثلاثة جمـعت فى دماغى بعـض كلام مـعا يتبادلونه مع بعضـهم بطريقة السيم المكشوف، فهمت منها أنه ولد مخـربش هو الآخر. والمخـربش يأتى بالنقود من جـميع الأبواب، غيـر أننى لم أكن عـرفت بالضبط مـاهى هذه الأبواب يا بوى، إنما عرفت أنها كـثيرة أمام الولدان المخربشـين الذين لا يتقون الله فى أنفسـهم أو فى دينهم.

الدور والباقى على «بســبوسة»، ثالث واحـد فى هذه الشلة إنه اسم على مسمى والله يا بوى، أقصرهم قـامة، طوله مثل عرضه، مرغدد، ملظلـظ، كبير الوجه، يمـتلئ وجهه بالدم، إلى حد اخـتفاء الخدود بين المـلامح، إذ تزحف خدوده على عـينيه، ويضـيع أنفه الدقيق فى حنك واسع، غليظ الشفتين، عارى الرأس، شعره قصير واقف، لكنه مصــفف، مدهون بالزيت، ومعـووج قليلا على الجنب اليمين. هو الوحـيد فيهم الذى يلبس جلبابـا، وجلبابه دائما نظيف وتطبيـقة المكواة مرسـومة عليه، تفـوح منه رائحة خزائن الثـياب، مزيج من الـطيب والنفتـالين، ياقة الجلبـاب كبيـرة وواقفـة حول رقبته التخينة الغليظة، للـجلباب جيب على الصدر، فيه على الدوام نقود كثيرة مطبـقة فوق بعضها، فوقها عـلبة سجائر هليود لارج، وفى بنصره الأيمن خاتم ذهبى كـبير بفص فيروز أزرق، وفـتحة الجلباب طويلة واصلة إلـى ما فوق الصرة بقليل، فـانلته البيـضاء

ظاهرة من فتحة الجلباب، نظيفة، يظهر من قطنها الشفاف ثديان كبيران كثديي امرأة نتاية، لدرجة أن القناة الفاصلة بين الثديين كانت تتوهنى أحيانا فأظنه امرأة. وكان هو بطراوة صوته، ونعومة حركاته، وذبول نظراته، يؤكد لى من طرف خفى أنه بسكويته، وأن هؤلاء الولد يأكلونه يا بوى. عن شغلته يقول إنه «معلم»، معلم ماذا، فى سوق الخضار مثلا، صاحب محل؟ هو معلم والسلام، معلم معلم، كن عشرين معلما فى بعض، مالى أنا؟ المهم أن تدفع لى ما يصير من حقى طرفك. فى هذه الناحية لم يكن يعيبه شئ بصراحة يا بوى، هو الوحيد الذى لم يكن يجادلنى فى الحساب، إذا قلت إننى أطلب كذا، وكنت أستطيبه، لكننى كنت نافرا من طيبته هذه، وكان الشيطان يصور لى أن هذا الولد يقف فى صفى لغرض فى نفسه.

الوحيد فيهم الذى كنت أحبه بحق وأراه محترما بحق هو الولد «هندى». كان أرجلهم يابوى، وبوادر الرجولة تظهر فى صمته الدائم الذى بلا نهاية، حيث ينام شاربه الخنفساء على شفتين رفيعتين خلقتا للانطباق على بعضهما، كفتحة الكيس، ولولا الشارب الأسود الثقيل ما ظهر له فم، من كثرة انطباق الشفتين يتمدد ذقنه داخل الفكين. من فوق الشارب، يستقيم أنف رفيع مدبب، ملتحق بجبهة ضيقة، يكاد شعر رأسه يغطيها من أعلاها ومن جنبيها فلا يبقى منها إلا مساحة عارية. كقطعة الجبن السمبوكسة التى يسمونها الفلمنك. إن ضغطت عليها يغوص

أصبعك فيها يلمؤها بالتجاعيد. كانت هذه الجبهة تبقلل تكاد ترسل بقـابيق الرغوة الملـونة حين يغـضـب، أو يتـوتر من اللعب، أو من كـثـرة الكلام الفـاضى مـعه، إذ تتـزاح هذه الجـبـهـة إلى الوراء مسطوحة، لتصعـد من تحتها عينان ذكيتان، ليـستا فى حاجة إلى لسـان يتكلم، إذ همـا تقولان كـل شئ، بغيـر لتّ ولا عـجن. كنت أعرف أنه ماء مـن تحت تبن يا بوى، وداهية من دواهى الزمن، هو أصغرهم سنا، لكن دماغى حكم حـال رؤيته أول مرة بأنه أكبرهم عقلا، أشـدها نصاحة، أكثرهم فـصاحة لهذا يا بوى كنت أحـترمه أكثر منهم جـميعا وأراعى شعوره عند الكلام مـعه، وأراعى كذلك الحد والمصـلحة، وقلبى يحـدثنى أن هذا الولد ربما يكون لى مـعه شـأن ذات يوم، وربما اتخذته صـاحبـا وفـيا لى فى هذه الغـربة البعـيدة، والذى يزيدنى احتـراما له يا بوى أنه كان الوحـيد بينهم صاحـب عمل واضح، يمكن لك أن تزوره فـيه، وتراه وهو يـعرق مـثل خلق الله العـاملين، شغلـته فـحام، له فـى الفسطاط ورشـة يصنع فيها الفحم على يديه، لكى يبيـعه للمقاهى ومحلات الكباب، بأسعار مـريحة على قد فحمهـا الجيد، الذى يشيعـون أنه يشتعل بعود الكبريـت وهو يكسب كثيرا من هذه الورشـة، ويتحول طول النهار إلى عـبد متفـحم الوجه، لا يسـاوى خـردلة، لكنه فى المساء يخرج من الحمام أفنديا معتبرا، تهفهف الثياب الثمينة على جسده، ليصرف كل ما كسبه طول النهار فى قعدة القمار.



الثالثة ـ التقاء الزبانية

علبة سجائر بلمونت كبيرة مبططة زغدتني في صدري برفق، فانتبهت إليها، فرقص قلبي لمرآها، وسكرت رأسي من رائحتها المعطرة. كانت يد «بربش» ـ أو سعادة البيه ـ ممدودة بالعلبة، فلمحت في أصابعه الخواتم الذهبية، فتفاءلت خيرا يابوى، وقلت الحمد لله لن يورطني في أى نصبة، إذ أن حالته متيسرة. سحبت سيجارة ومددت يدى لإخراج علبة الكبريت، فأسرع هو مشعلا ولاعة ذهبية، خضني صوتها، وسحرتني تكتها واتساق شعلتها، كورقة ورد مستطيلة، أشعلت السيجارة، واستوعبت دخانها في نخاشيشي بلذة كبيرة، وقد بدأ الخوف يتسرب مع الدخان. شئ إلهي في نفسي يوعز لي أن مثل هذا الشخص كلما ازداد كرمه كان ذلك مؤشرا على أنه يحكم حولك شباكه الخطيرة. لكن صوتا يشبه صوت أبي صاح في دماغي ساخرا إيش تاخد الريح من البلاط! قلت في نفسي صدقت والله يا من قلت هذا، فإن كان «بربش» ريحا كانسة فأنا البلاط ولن ينوبه مني شئ. ركنت إلى هذا الصوت، فوضعت ساقا على ساق، وصرت أدخن في لذة، ثم تذكرت، فابتدرته: «قلت لي ما الذي جاء بك في القطار الصعيد!»

قال باسماً: «لكى أجعلك تصدق أننى من الصعيد الجوانى!» قلت بلهجة ذات معنى غطيته بالطيبة: «كنت فى زيارة أم فى مهمة!». لكزنى بكوعه فى جنبى لكزة موجعة وقال: «ذى! وذى»، وكانت لهجته كأنه يقول لى: «إسكت ساكت!»..

سكت بالفعل يا بوى. فلما فات بائع السميط اشتريت سميطة وقطعة جبن رومى، وبيضة مسلوقة، وعزمت على صاحبى فقال إنه شبعان ولكن لا مانع من لقمة صغيرة يغير بها ريقة، ثم طوح بثلاثة أرباع السميطة فى فمه، وبقطعة الجبن الرومى كلها، فأطبقت بيدى على البيضة، حتى طويت اللقمة فى فمى، وطوحت بالبيضة كلها وراءها، وقلت الحمد لله على ذلك، وأشعلت سيجارة لف من علبتى، ومن شدة غيظى على الحركة التى فعلها لم أعزم عليه بسيجارة، فأخرج علبته وأشعل واحدة. وفجأة مر بائع سريح يبيع الخوخ فى سلة، فاستوقفه «بريش» واشترى منه ملء كيس من الخوخ، وضعه فى حجرى قائلا: «كل يا أبو على»، ثم حاسب البائع وصار ينتقى ويقضم بشراهة ويستحثنى على القضم، فصرت أفعل مثله وأنا نادم على حركتى الناقصة تلك..

جاءت محطة فوقف ناس وذهبوا نحو الأبواب، فخلت معظم الكراسى من حولنا، فانتقل «بريش» إلى الكرسى المواجه لى، دقيقة واحدة مرت وفوجئت بالولد «غزولى» يجلس جوارى مطبقا على كتفى قائلا «إزيك يابو على! والله زمان!» ماذا أقول يا خال، فرفرت فى الأرض من الدهشة: «غزولى» هو الآخر هنا فى قطار

الصـعيـد؟ كيف يابوى! هو صـعيـدى الماركة نعم لكن رؤيتـه هو الآخر الآن أمر لم يجئ على بالـى أبدا. صرت أقول هذا ناظرا إلى «بريش» وإليه فأراهما يبتسمان لبعضهما، لم يكن أحدهما قد سلم على الآخر يابوى، فـلابد إذن أنهما مع بعضهـما من الأول يابوى. أنا مثلهـما ولد مخـربش ومتلطم وناصح. صـوت فى رأسـى قال: ولكن غزولى ركب من هذه المحطة! صوت آخر رد قـائلا: هما معا فى مشوار واحد يلزم أن يركب كل واحد من مـحطة. نظرت فيهما من جديد وقلت: «عـال! عال! الحالة رائجة كمـا يبين لى!». لطمنى الولد «غزولى» بكفه فوق قناعـية رأسى بمزاح قائلا: «طول عمرها رائجة معنا ياصعيدى يـاقفل!». تلقيت اللطمة ضاحكا وقلت: «على خيرة الله! ربنا يوفقكم». صارا يبتـسمان،فأحسست أن وراء هذه البسمة شراً لم ينكشف لى بعد من ولد الفرطوس هؤلاء.

محطة أخرى جـاءت فغربلت القطار ممن فيه وألقت فـيه بحفنة أخـــرى من الخلق. وإن هى إلا برهــة، حـتى فـــوجـئـت بكل من «بسبـوسة»و «هندى» مـقبلين نحـونا، صائحين فـى نفس واحد: «أهلا أهلا أبو على! والله مـامعـقـول!». وقفت على حـيلى رافعـا ذراعى صائحـا وقد ركبنى فرح مـفاجئ: «والله ما معـقول صح! والله صح ما معقول! إيه ياولد الأبالسة! أين كنتم تفعلون فى بلاد الصعيد! ألا تعرفون أننى عمـدة الصعيد! وكان الواجب أن تأخذوا الإذن منى قـبل أن تفعلوا».أخـذت الولدين بالحضن وأجلسـتهـما جوارى، فصرنا جمعا، وصرت فى قلـب «مصر عتيقة» فى الدكانة التى كنت افتتـحها مقهى، وهؤلاء الولد يلعبـون القمار عندى، وأنا

أراقبهم لقبض الكـرتة على كل دور يلعبونه. انمحى الزمن يابوى، واختفت اللحظة التى كنت فيهـا، وحضرالماضى كله، لكننى طويته بمسحة من يدى على راسى، وبهرشة عابرة فظننت إلى أن أربعتهم كانوا فى مـشوار يسـترزقون مـنه، وسرح خيـالى بعيـدا، صار يتـخبط فى نواح كـثيـرة، وفى النهايـة اغتظت من نفـسى ومنهم يابوى، قلت لنفـسى هذه: نحن فى قلب الصـعـيد لانعـرف نكسب مليمـا! وسكان مصر القـاهرة يجيئـون للتكسب من الصـعـيد؟ ألا لعنة الله علىَّ وعلى حظى الـنتن، هؤلاء الولد لابد أنهم أشطر منى يابوى، وأنا معترف بهـذا، ولهذا تمنيت بينى وبين نفسى أن أكون فى رفقتهم علنى اعرف كيف أسرق من مصر القاهرة، فمن جاور السعيد يسعد.

جاءنى صوت الولد «هندى» من آخر الكرسى يقول: «إيشحالك يابو على؟ مـاذا تشتغل الـيوم؟» انشرح صـدرى والله يابوى من هذا السـؤال وأجـبت «هندى» إذ يـسـأله، وقلت: «واللـه ياهندى ياخوى أنا الآن أمـر والعيـاذ بالله بأيام نـحوس كـثـيبـة الخلقة! لا داعى لذكرهـا فالشكوى لغيـر الله مذلة!». قـال «بسبـوسة» وهو يتحسس ثدييه الكبيرين برخاوة وطراوة صوت: «فإلى أين تسافر اليوم ياترى! وراءك مـشوار معـين؟». قلت: «لا والله يابسبـوسة! إننى قاصـد وجه الكريم ومن يقـصد وجه الكريم لا يضـام!» قال «غـزولى»: عندك مكان سـتـتـوجـه إليـه؟». قلت: «مـاعندى والله ياغزولى سـوى الستر». قـال «بربش»: «عندك مكان تبيت فـيه؟». قلت: من أين يابربش ياخوى؟ لقد تركت الغـرفة التى سكنتها فى

اصطبل عنتر منذ بضع سنين! ظننت أن الله لن يكتب لى عيشا فى مصر القاهرة ثانية! لكن العبد فى تفكير والرب فى تدبير! وها أنذا عائد إليها رغم أنفى!».

نظروا جميعا إلى بعضهم البعض وقال «بربش» فى ثقة حاسمة: «خلاص! خليك معنا ورزقك ورزقنا على الله!». قلت: «أنا معكم من شوشة راسى لحد أظافرى!». قال «بربش» وهو يلوح بيديه فى نزق كبير «يلزمنا أولا أن نعرفك على رجل مثل السكرة! يعجبك هو ويملأ دماغك!». قلت مشوحا بيدى: «عرفنى على الجن الأحمر! الجن الأزرق لو أحببت!». قال: «هو جن أى نعم مافى ذلك شك! أحمر على أخضر! الأحمر له والأخضر لنا!». ثم ضحك فضحكوا كأنهم فهموا، أما أنا فإن الكلمة لعبكت مخى يابوى وعجزت عن فهم مقصده بالفلهوة، فقلت حانقا: وما الأخضر! وما الدنيا وما الدين! قال «بربش» اللعين «ما الأحمر هو هذا» - وأخرج من جيب صدره ورقة بعشرة جنيهات حمراء الوجه قانية - ثم أضاف: «والأخضر هو هذا» - ونزع من جيب البنطلون ورقة من فئة الجنيه خضراء مزرقة مبهجة يا بوى.

رقص قلبى ورفرف كالعصفور بجناحين كبيرين، فشوحت قائلا فى طرب ونشوة: «أنا مع الأحمر والأخضر والأزرق وكل الألوان الحلوة بالصلاة على حضرة النبى!».. فضحكوا جميعا. وكان القطار يدخل بناء محطة الجيزة، والمدينة تتلبسنا شيئا فشيئا، فلما نزلنا على الرصيف سرت فى أثرهم لاهثا، أخشى أن يضيعوا منى فى الزحام فتضيع الفرصة من يدى. لم أكن قد

صدقت بعد كل ما قالوه وظننته فك مجالس فجعلت كعبى فى كعبهم حتى غادرنا الرصيف وصرنا فى الشارع الموازى له، فإذا هم يتجهون نحو عربة كبيرة كانت راكنة بجوار الرصيف، فتحوا أبوابها وركبوا فاندسست بجوارهم متوقعا أن يضحكوا فجأة من سذاجتى ويأمروننى بالنزول، بعد برهة جاء سائق عجوز من مكان ما، فركب وأدار المحرك فنطقت العربة وسارت، وقال «بريش» بلهجة آمرة «مصر عتيقة يا اسطى»، لكن شيئا إلهيا حدثنى بأن السائق يشتغل معهم وأنه كان فى انتظارهم حسب موعد هذا القطار، لكن «بريش» لا يزال يعتبرنى غريبا عليهم فيلبسنى العمامة، يقرطسنى. لحظتها اعترفت لنفسى أن «بربش»ولد حويط بالفعل ويجب أن أحسب له حسابا، كى لا يوقعنى فى شر أعمالى...

صارت العربة الأجرة ذات اللونين الأسود والأبيض تخبط يمينا وشمالا، والسائق كالبهلوان يتلوى بها وبنا يتعوج، ينخطف يخطف، ولا يستعمل زمارة التنبيه، كأنه يخشى من لفت النظر إلى العربة. شئ إلهى أرعشنى وقبض على قلبى بكلابات من حديد، وقد وقر فى ذهنى أن العربة لابد يكون فيها ممنوعات خطيرة، أى ممنوعات، وهذه الممنوعات لابد أن يكون هؤلاء الولد قد جاءوا بها معهم من بلاد الصعيد. ظنى يقول لى إنها مخدرات، ومخى الصعيدى يقول إنها أسلحة وذخيرة جاءوا بها أو بثمنها من بلاد الصعيد. الكذب خيبة يابوى، فأنا لم أر معهم شيئا يمسك باليد، غير أننى لم افتش ثيابهم يابوى،ولم ألحظ فيها جعببة أو انتفاخا،

فلما انتبهت إلى ذلك صرت أتحكك فيمن يلتصق بى، فأيقنت أن جنوبهم صلبة يا بوى وفيها دخائل كبيرة، قلت: ربنا يستر، ورميت عن نفسى كل قلق، نفخت صدرى وأشعلت سيجارة. وكانت «مصر عتيقة» تدخل فى خياشيمى وتزحف على صدرى بقراطيس من الضوء المغمض العينين، مراده بعث النكد فى روحى غير أنى لما نظرت من شباك العربة ورأيت الخلق يسيرون كالقرود مهانين متشعلقين فى أبواب الأتوبيسات قلت لنفسى: حظك من السماء ياولد أبى ضب، مكتوب لك عيش فى «مصر عتيقة» رغم أنفك وأنفها، آه يامصر عتيقة، دخلتك بالأمس مهيض الجناح أمشى على قدمين دائختين واليوم، أدخلك راكبا سيارة بعيدة عن شوارب عمدة بلدتنا، وفى عزوة من الصحاب، وغداً أحيكك فى مؤخرتك يا بلدة كلها قرع وطبيخ من كل لون.

الرابعة-الباب المنهوب

على مشارف الفسطاط، هدأت السيارة، ثم ركنت على الرصيف، بجوار شادر كبير يمتد على مساحة لا تقل عن ثلاثة أربعة أفدنة بالراحة يا بوى.

نزل السائق، ونزل الصحاب، فنزلت معهم ومضيت خلفهم بجوار تيل السرداق المفرود على عواميد من الخشب. فلما وصلنا إلى نهايته دخلنا، لأفاجأ بغابة هائلة، جدرانها وسقفها من قماش الخيم، ومملوءة لتمها بضروب من أنواع البراميل، بأشكالها وأحجامها، والحديد الخردة بأنواعه، وحديد التسليح بكميات كبيرة، ومراتب عالية، من رصات شكائر الأسمنت كهرم سقارة المدرج، ورصات أخرى من شكائر الدقيق، وغيرها من أجولة الأرز والسكر، ورصات كالعمائر الشاهقة من صفائح السمن والزيت والجبنة والزيتون، وأشياء أخرى كثيرة ليس عندى دماغ لحصرها، يستغرب المرء كيف توجد كلها، مع كل هذه المنقولات، فى شادر كهذا يابوى. وكل ذلك مغطى بأحمال القش والخيش والمشمع، لكنه نوع من التغطية يظهر المغطى أكثر مما يخفية. حين ضاعت عيونى وضاع قلبى فى هذه الغابة المملوءة بكل هذا الخير

الوفيـر، رن فى صدرى صوت يقول إن صـاحب هذا الشادر لابد أن يكون الحكومة نفسها، أو أحد مشايخ المنسر الكبار ولا غير ذلك يا بوى، إذ كيف يمكن لرجل بعينه أن يمتلك مخزنا شديد الوعورة كهذا المخزن يا بوى؟، وعلى عينك يا تاجر هكذا يابوى؟..

على أن الولد «هندى» ما أحلاه من رجل، غمزنى فى جنبى غمزة فهمت مقصدها ومشيت بجواره وقد لمت عينى عن البحقلة، ومضيت أعتقل الرعشة فى ساقى، إذ أيقنت يا بوى أننى موشك على مقابلة داهية من دواهى الزمن وآفة من افاوية الكبرى: ظللنا ماضين مسافة داخل الشادر، ضعف المسافة التى مشيناها بجواره، فإذا بى أرى باب دار على غاية من الرشاقة والأبهة، مطرزا بالمشغولات والمعشقات والمقرنصات والدوائر والمثلثات. الباب يفتح على الشادر،وسقف الشادر ملتصق بسقف أول تراسينة فى الطابق الثانى. لما وصلنا إلى هذا الباب صفق «بربش» على يديه صائح: «يا حاج!» .. فجاءنا من الأعلى صوت رقيق، رفيع ناعم،ملىء بالورع، تعود على التسبيح والتهجد، قال:«خشوا يا أولاد». نظرت إلى فوق، فإذا فى الترسينة رجل يتسربل بجلباب أبيض نظيف جدا، وطاقية بيضاء من نفس قماش الثوب، الذى بدا أنه من الحرير يهفهف يتطاير حوله، ذقنه طويلة واصلة إلى آخر صدره، لونها ضارب إلى الصفرة ،البياض والرمادى تشبه بقايا شاطىء من حلفاء محترقة، وجهه سُفَيِّف، ضئيل القسمات كرقعة من جلد غير مدبوغ، ملىء بالتجاعيد، والشعر المهوش، المتشعث، القادم من خلف صلعته وفوق حواجبه، ضيق

العينين جدا، لكن شعاعا وامضـا على الدوام ينطلق منهما، ليثقبنى فى كل بقعة فى جسدى، أما فمه فلا يكف عن البسملة والبسبسة، من خلال ابتسامة ذابلة، تلمع تحتـها أسنان ذهبية وبلاتينية. كرر فى سماحة، مع هزات من رأسه: «ادخلوا يا أولاد! ادخلوا».

دخلنـا يا بوى، فـإذا نحن فى دهلـيـز دار من الـدور الأثرية العـتيـقـة، كنت أرى مـثلهـا فى مقـابر الفـراعنة،ملئ بالمصـاطب الحجرية البازلتية، وينفـتح فى قلبه منور مخروطى، يشدك للنظر إلى أعلى، فإذا طيرت بصرك شاهدت شبابيك ومشربيات الطوابق العليا كلها ولقد فعلت، فخيل لى أن عيونا من وراء هذه المشربيات ترقبنا. دخلنا بابا واطئـا فى آخر الدهليز فإذا به باب سلـم جميل غـاية الجمـال يابوى، يهـون عليك أن تفـرش وتنام على درجـاته الرخامية النظيفة اللامعة كأنهم يغسلونها كل يوم باللبن والعطور. ما هذا العز كله يا بوى؟ مـا الذى يفعله ساكن هذه الجنان لله كى ينعم عليه بكل هذا النعيم يابوى؟..

صعدنا بضع درجات، حودنا على بسطة عريضة مربعة، يحفها درابزين من الخشب المشغول بالمخرطة على هيئة سيقان وخصور مـبرومـة، لكن بدون نساء. وقـفنا على هذه البـسطة قليلا، حـتى انزاح باب قـصـيـر القـامـة عـريض من الخـشب الثـقـيل، عليـه مسـتطيلات ومـربعات تشـبه شكل صـفحـة المصاحف بالضـبط يابوى، الخـالق الناطق، حـتى الذى يشبـه الفـوانيس على هوامش الصـفـحات كـان مـرسـومًـا أيضـا على البـاب، ونفس التكورات

المرقومة، التى تفصل بين آيات المصحف. فلما دققت النظر يابوى، وجدت أن سورة يس كلها مكتوبة على ضلفة الباب، من أوله إلى آخره، من أولها إلى آخرها، وعلى سلخ الهامش مكتوب ـ بالحفر كذلك ـ أسماء الله الحسنى. أعمامى فقهاء يابوى ، وأنا مع ذلك تعلمت فك الخط من الولد وكيل النيابة الذى كان مسجونا معى فى زنزانة واحدة فى سجن مصر القلعة، وبينى وبين صفحات المصاحف سابق معرفة. ارتعش قلبى فى الحال، رقص، وقع فى حبائل شبكة من المشاعر الغامضة، لست بالله أعرف إن كانت هذه الرعشة التى سربلتنى أساسها سورة يس والقرآن الحكيم وأسماء الله الحسنى، أم أساسها ذلك الرجل الذى انزاح عنه الباب فظهر مقبلا نحونا يغوص شبشبه الزنوبة فى وبر السجاجيد الكثيف الشعر، ويخطر حاملا مسبحته اليسر الطويلة السوداء بين بوفيهات وشوفنيرات وبوريهات وترابيزات من كل شكل وكل جسم وكل لون، مبذور فوقها تماثيل صغيرة من الذهب والفضة والعاج والحجر والنحاس، لأشباه رمسيس ونفرتيتى وشيخ البلد، وأخرى لسباع وثعالب وذئاب ووطاويط ونسور وجعارين، وميداليات وأساور، وعلب صغيرة كالتحف، كل ذلك مفرودة على الترابيزة والمسطحات. أما الحوائط كلها فمغلفة بالمرايا البلچيكية التى تعكس كل ذلك. ومن السقف تتدلى تعاليق كثيرة، بسلاسل رفيعة، فيها زخارف ولبات على شكل بلحات، ومنجايات وكمثريات، وعناقيد عنب..

ركبني الرعاش ثانية يا خال، فوقفت متسمرا في مكاني، وصحابي يدخلون بجرأة قائلين: «ادخل يا راجل!». فبدون أن أشعر خلعت البلغة وطويتها تحت إبطي مثلما أفعل عند دخول المسجد، فضحك الصحاب وضحك الرجل حتى اهتز جسده وكاد ينكب على الأرض، ثم سحب من صدره نفسا وقال:«كويس! كويس! عملت الواجب!». استدار ومضى أمامنا ونحن من خلفه نتعثر في وبر السجاجيد الناعم ونخوض في رسوماتها المزركشة، فوق ميادين ومآذن وإيوانات ودوائر، وقد عجبت والله يا خال كيف يهون على المرء منا أن يدوس فوق هذه النعمة بأقدامه!؟ وقلت لنفسي: ما الذي بقي من الجنة لم يستحضره هذا الرجل إلى هذا المنزل العامر!؟ ماذا أبقى هذا الرجل للجنة يا ترى!؟ والجنة علام تكون إذن بعد كل هذا؟! هناك إذن خلق من عباد الله أمثالنا أولاد تسعة أشهر، يغتصبون الجنة من الله، ويركنونها على الأرض في السر، مثل هذا الرجل العجيب الشأن.. هكذا قلت لنفسي وأنا ماض في ذيلهم، ونظري معلق على مصحف كبير جدا، مفتوح، ومركون فوق بوريه كبير بعرض الحائط فوقه مرآة، وفيها يمتد المصحف بمصحف شقيق وصفحاته ذات الهامش الوردي المشغول بالزخرفة ومتنه الكريمي اللون بأحرف سوداء منقوشة فوقه كالمصابيح، ما إن لامسته، تبركا به، حتى تكشفت أنه من الخشب لمصحف مفتوح على آية الكرسي، وبجواره برواز كبير يلف صورة الرجل سمح الوجه بلحية طويلة، بيضاء متسقة، جميلة الشكل، وزبيبة الصلاة على جبينه تحت حافة الطربوش

القصير الغامق تخطف البصر من لمعانها، والابتسامة على الشفتين تكاد تناديك لتكلمك، لدرجة أننى ظللت عاوجا رقبتى نحوها، فى انتظار أن تكلمنى حتى نبهنى الولد «هندى» إلى أننى لو كسرت شيئا هنا ولو صغيرا فعمرى كله لن يساوى ثمنها، فاعتدلت وجعلت عينى فى وسط رأسى ومشيت فى ذيلهم، نخرج من صالة إلى غرفة، ومن غرفة إلى ممر، ومن ممر إلى سلم ضيق نصعده إلى صالة أخرى، نقطعهما إلى ممر، فسلم آخر، نهبطه إلى بهو طويل، نعبره إلى باب تحيط به الستائر طبقات فوق بعضها، يزيحها الرجل بحركة من أصبعه فتجرى للوراء: ز.. ز..ز .. ى .. ز. لنجد أنفسنا فى باحة مطلة على السماء المليئة بالمآذن والقباب والأبراج وأشباح الأشجار، وبسيف عريض النصل يلمع فى مدى البصر يترجرج لمعانه تكاد صفحة النصل تتدهور تحت هبوب الرياح لكنها ما تلبث حتى تستقيم حادة، كعلم من الحرير يتراقص بنشوة فوق وفود الرياح.. فتلذذت من هذا المنظر يابوى، تمنته منسحرا يابوى، فعرفت أنه نهر النيل، فتلذذت أكثر يابوى وقلت لنفسى: هذه هى الجنة من غير إحم أو دستور يابوى، وما علينا الآن سوى انتظار بنات الحور والولدان المخلدين، وأباريق الخمر والعسل المصفى.. وإذا نحن فى برج فوق سطح المنزل يا خال، مربع محندق كالعلبة، له سقف جملون، وحيطانه من الداخل من الخشب السميك، مزركشة بالزخارف بالألوان الساحرة، كل حائط نصفه شباك مفتوح فأنت ترى أربعة أركان الدنيا، من هنا نخيل، ومن ها هنا مآذن، ومن هنا أبراج، ومن ها هنا موكب

النهـر، الآتى من الشـلال البـعـيـد يسكب عـرق جـبـينه على كل الأراضى لتنبت خيرًا ينعم به الخلق، أمثال صاحبنا هذا الذى يحفر على جـبـينـه زبيـبـة الصـلاة، هذا الذى صلى مـن أجل أن يطبع السجـود هذه الزبيبـة على جبينه، حـتى خفت أن يصـيرنى هزأة أمام الرجل، فـانكمشت على روحى،والضـحك يَزُزُّ على لا يريد أن يتركنى فى حالى يا خـال، لكنهم جميعا انفجـروا ضاحكين فقلت: ضحك بضحك، فصرت أقذف الضـحكات الصاعقة، وهم يرددونها خلفى كالمغناطيس، حتى انهد حيلنا جميعا، وصرنا من فرط الجهد والانبساط نتمايل على بعضنا تـتساند، بما فينا لحية الرجل، التى صارت فى متناول يدى عدة مرات، أعـبث بها كيف أشاء لو أردت لولا أن جسمى كان يقشعر منها، إذ هى تذكرنى بفلقة عمى الفقيه وخيزرانته اللاسعة، كما تذكرنى بملمس الزواحف الخشنة..

دهورنا التعب يـابوى، فرمينا جـثثنا فوق شلـت منجدة بريش النعام مـشغولة بالحـرير المزركش بالزخرفة. شىء يتـوه العقل يا بوى، شىء لاينسى العطار خرجه بل ينسى الخرج عطاره. الرجل تماسك نفسه، ومسح عينيـه بمنديل حرير هفاف، ونسى فجأة أنه منذ برهة كـان ذلك الطفل العكروت الشقى، الـذى لا أمان لمقالـبه، فنظر فينا بجـدية شيخ فى الثمانين مـن عمره، وقال: «تتعـشوا يا *اولاد؟*» ثم نهض *فى الحال* كأنه لا ينتظر *منا اى* رد، كأنـه سيغير رأيه، إذ التفت نحونا بعد أن لبس الشبشب الزنوبة وقال من جديد كـأنه يقرر هذه المرة: «تـتعـشوا طبـعـا.. وجب!»، ومضى ظهـره

النحيل المحدودب قليلا عند القفا ـ من فرط الخشوع لله فقط! ـ وساقاه الرفيعان من خلل الجلباب يخطوان فى نزق متعقل، متوازن، وأساور الكلسون القطنى تحبك على رسغى القدمين الطويلتين.. فلما غاب عن نظرنا سمعنا أبوابا تفتح وتنغلق، ووقع خطوات تهبط ثم تصعد، ثم تهبط على السلالم خشبية جعجاعة، يتداخل وافد طنينها فى أصداء سالفه. حينئذ قام كل واحد منا فانعطف على شباك ركن إليه، وبعثر نفسه فى الريح فى الخلاء الفسيح. زاحمنى الولد«هندى» على شباكى، لأنه فيما قال يحب نهر النيل مثلى ولا يمل من النظر إليه ويتمنى لو يقضى عمره فيه ولو غريقا.. فلكزته بكوعى فى عشم وقلت فى حسد حقيقى:«نيل إيه وبتاع إيه يابو العم!؟».. قال «هندى» إن دوام الحال من المحال كما قال أهل زمان، فانزغد قلبى زغدا نفذ من صدرى إلى الخلاء، وسألته ما هذا الرجل النادر المثال فى هذا العصر والأوان من طقطق لسلامو عليكم.

فى فحيح يتخلله حروف واضحة كتكتكة التلغراف تفهمها فهامة مجهولة فى دماغي، قال لى إن هذا الرجل إن لم أكن أعرفه هو «*الحاج أحمد نورالدين السنى*»، تاجر خردة فى الأصل والأساس، لكنه فى العرف ابن سوق بشكل عمومى، يتاجر فى المواد الغذائية لا بأس، فى العملة نفسها لا مانع، فى البني آدم لا يضر، كله ماشى عنده، وربنا ـ يقول هندى ـ رضى عنه آخر رضا، إذ ملكه ثروة لا حدود لها، من بينها هذا المنزل الأثرى، عن أبيه الذى كان من الأعيان الكبار، عن جده الذى كان قاضيا

للقضـاة، عن جده الأكبر الذى كان هـو الآخر قاضيا للـقضاة فى الفسطاط القديمـة أيام لا أدرى مَنْ منَ السلاطين والملوك، على أن «الحاج أحـمد نور الدين السنى» وهبه الله قـبولا حسنا عند كـافة الخلق، يمـسك الحديد والصـفيح بيـديه، فيـحوله إلى ذهب، قلـبه جامد، يشتـرى خرج البيوت، ومخلفات الأسر الـكبيرة، التى أذلها الزمن النـذل وأجلى عنهـا الحظ. بحكـم أن «الحـاج السـنى» فى الأصل من هؤلاء القوم يابوى، فإنه يفهم قـيمة هذه المخلفات التى يتخلى عنها أهلها، لكنه يشتريها بتراب الفلوس. هو يعرف يا خال أن هذه الممـتلكات الثمـينة الأبهة، إن لم يحـمهـا رصيـد كبيـر من البنكوت الأحمر، تقل قيمتها، وتصبح كعدمها، فيسهل التخلى عنها أمام احتياجات الجسـد والبطون، كما وأن «الحاج أحمد نور الدين السنى»، رغم أنه من علية القوم قبل أن يصـبح تاجر خردة وتاجر التجار، فـإنه قد نزل عن حياة طبـقته ظاهريا، ليعـيش بين الرعاع والزعـر والحرافـيش والجـعيـدية من الصـياع والجـرابيع وأبناء السبـيل، والمخربشـين، وحقـيقـة الأمر يابو العم، أنه بات يـعيش حـياتـين، يعرف أحلـى ما فى عليـة القـوم من النظام، والأخـلاق وترتيب الحياة وتدبير أمورها، وأمور الفنطزة فيها، ويتعيل عليها، وعندما يدخل المزاد ليشـترى مخلفاتهم الثمـينة، فى حالة عوزهم، فإنه يدخل فى هـيئة مـعلم جاهل خشن الطـباع لا يفقـه فى أمور التحف الثمينة شيئا لا يعى من أمور الفن ولوحاته ومشغولاته أى شىء، لكى تريح نفسك من أى كلام تقوله بشأن قيمة هذه الأشياء وجوهر أصالتها،، سيـقول لك بصريح العبارة، أنه لا صالح له فى

هذا الكلام، ولا قدرة له علـى فهمـه، إنما هو يشترى منك الأشـياء باعتبارها أشياء من المخلفات المستعملة، وكل مخلف مستعمل فهو خـردة، بدون زيادة أو نقـصان، وأنه فـى الأصل طهقـان ضـيق النفس مما أنت فيه من عوز، ربنا يستر علينا وعلى ولايانا، خذ ما أنت فى حاجة إليه بدون بيع ولا شراء عندما يكرمك الله رد لى ما أخـذت. وأنت تجـد أنه قـد شـفع القـول بالفـعل، إذ دس يده فى سيالته الكبـيرة وأخرجها برزمة كـبيرة مطوية من ورق البنكنوت الأحمـر القانى، يأخذ فى فـرها بسرعة، ليـتوقف عند عدد مـعين ينزعه من الرزمة هو على التحـديد المبلغ الذى قدره ثمنا لأشيائك، يطويه على بعـضه، يخفـيه فى راحة يده، يقـدم لك كفـه مقلوبة، قائلا:«بركـة بالصلاة على النـبى!». لا تـحاول أن تفتح مـا أعطيت لتعده، وإلا جلبت على مظهرك المهانـة، ثم إنك لن تفلح فى تعتعته عن هذا المبلغ شعرة واحدة، حتى لو مدحت بنت برى، سيقسم لك بالأيمان المـغلظة وبحق صلاته وصـومه وفجـره وابنته الوحـيدة التى يتمناها من الله أنه مكارمك ومعطيك فوق ما تسـتحقه البيعة بكثير، وإنهـا ليست بيعة ولا حاجـة إنما هى بركة منك وهذا المبلغ بركة منه، وهو ونصيبه فـقصده، وحق جلال الله، شريـف، إذ هو يريد ـ فقط! ـ أن يفك عسرا، جـعلنا الله ممن يفكون عسر الناس، العسر عذر ومن فك عذر الناس فك الله عذره، قل يا رب، رح إلهى ربنا يفتـحهـا فى وجهك ويرزقك برزق أولادك، لا تغـرنك الأزمة فهى مؤقتة، وهى امتحان من الله يا رجل.

ضاقت فلما استحكمت حلقـاتها .. فرجت وكنت أظنها لا تفرج

وهكذا يأخذك فى عشرة دروشة، أونطة، فى غنوة، فى حدوتة، فى كانى فى مانى، تكون عرباته قد حملت الأشياء وربطتها ووقف السائق فى انتظاره، زمارة والأخرى من السائق يكون هو قد مد يده مستدرًا بها يدك غصبا عنك، ليسلم عليك ويشد على يدك بقوة صلبة كقوة فارس صنديد على المعاش، وبيده الأخرى يربت على ظهرك مطيبا خاطرك، متمنيا لك صحة وعافية راجيا أن يراك ليطمئن عليك، وعلى أحوالك، وما يهمكش، أى خدمة فى أى وقت أنت تأمر، ورقبتى سدادة، لا يغرنك تمسكى فى مسائل البيع والشراء فذى نقرة وذى نقرة!..

أفقت يابوى لبرهة، فانذعرت، إذ وجدت أن الصحاب كلهم ملتمين فوقنا يتبادلون معنا الحديث فى نفس الشباك.. فما عرفت والله يا خال متى جاءوا ولا كيف عرفوا أننا نتكلم عن صاحبنا «السنى» ولا كيف اشتركوا فى الحديث، إذ كل ما أذكره لحظتها أننى و«هندى» كنا نتهامس فى سيرة الرجل، فمتى صرنا نتكلم عنه كلنا هكذا بصوت عال؟ هذا ما يكاد يلحس مخى والله يابوى. «بربش» وزع علينا دورا من سجاير البلمونت وأشعلها لنا قائلا فى صوت خفيض: «على فكرة! الحاج السنى من الإخوان المسلمين! ولهذا فأهل المدينة كلهم يحبونه! إذ هو رجل يعطف على الغلابة والمساكين! يوزع الزكاة بالهبل! ويشاع أنه من زعماء الوفد الكبار! وهو لا ينفى ذلك بل يتفاخر به كثيرا إذا ما سأله أحد! أما الآن فهو عضو فى الاتحاد الاشتراكى على مستوى المحافظة! وعضو

كذلك في مصائب ودواهي كبيرة كثيرة! إنما هو محبوب يا أخى ومشهور كفريد شوقي والمليجى وزكى رستم! مشهور كالخط كريا وسكينة! فى الصبح قد يجلس في غرزة الحشيش بين السوابق من اللصوص والنشالين والهجامين يبادلهم بوصة الجوزة نفسا لنفس! لكنه مع ذلك لا يتحرج! فهو معروف لكل الناس! ولن يقبض عليه الضابط إذا هاجم الغرزة! وفى الظهر قد يجلس مع المحافظ على سفرة الغداء يتباحثون فى أمور البلد وسلع تموينها وشوارعها ومجاريها ومساكن إيوائها ومستوطنى مساجدها والمعجونين فى أوتوبيساتها الخربة! وفى المساء قد تراه فى حفل أم كلثوم أو فى دارها وربما فى داره هو! إن عبدالحليم حافظ صديقه وقد زرناه كثيرا معه وزارنا هناك وكنا نخدم عليه وقد غنى فى عيد ميلاد شيماء ابنة الحاج! أنا مرة رأيت عنده الكاتب الصحافى المرحوم كامل الشناوى وكان يسهر عند الحاج كثيرا يلعب الكوتشينة ويقول الشعر ويمسخر فى خلق الله! مرة رأيت عنده ـ فى هذه القمرة التى تقف فيها الآن ـ مصطفى أمين وهند رستم وحسن الإمام وجليل البندارى! ومرة أخرى إحسان عبدالقدوس ونادية لطفى! إنه رجل جامد! وكل هؤلاء يقصدونه فى خدمات يؤديها لهم! أن اتصالاته كبيرة وجامدة! أنا مرة أرسلنى إلى المطار لإحضار هدية جاءت له من الملك فيصل! والملك الحسن ملك المغرب يبعث له السلام فى جوابات وكروت المعايدة! وله أصدقاء فى أمريكا وروسيا وفرنسا وألمانيا وسفند القرود! والسياح يجيئون للسؤال عنه فيسألهم عن صحة أولادهم

وأصهارهم وأهلهم! كنت أظنهم يجيئون للفرجة عليه وعلى شكله التحفة لكننى فهمت بعد ذلك أنه متكلم حريف يسحر السامعين! وهو عفريت يا جدع! أسمعه يتكلم فى التاريخ فأنسحر مثلهم من وفرة المعرفة إشى فرعونى واشى قبطى واشى رومانى وإشى إسلامى! ساعات يظهر أمامى كالمجنون المخرف حين يتكلم عن الحميرى والمسمارى والبابلى والآشورى والبلاء الأزرقى! ففهمت أن السياح يتعشقون كلامه خصوصا وهو يمشى بين الممرات التى مشيت فيها منذ قليل يا صعيدى يا قحف! لقد دست على سجاجيد يقول الحاج أن السلطان الغورى هو الذى اشتراها ولم يسعده الحظ بأن يعيش حتى يدوس عليها!»..

وهنا قاطعه «بسبوسة» قائلا بصوت طرى من خلل ضحكات متقطعة مصوصوة، لا نعرف إن كانت ضحكات أم تأوهات صارخة: «ألا تعلمون أنه من عائلة المشير؟!» ضحكت رغما عنى قائلا فى انفعال:«كيف يابو العم؟ ما الذى جاء بعائلة عامر الصعيدية إلى عائلة السنى المصراوية». قال «بسبوسة» مستدركا:«أقصد أنه صهر لعائلة المشير! فابن بنت خالته متزوج من عائلة المشير! والله أعلم كلها إشاعات فى إذاعات ولكن الغريب أن الحاج لا يكذب ما يسمعه أبدًا». شوح«غزولى» فى وجوهنا بأصبعيه اللذين يسندان السيجارة وقال بثقة تامة: وحق من جمعنا من غير ميعاد أنكم جميعا أقفال ترابيس! لا تفهمون شيئا! الحاج السنى يا هبل ليس اسمه السنى! إنما السنى هذه فوق اسمه

تدارى لقب جده!». تقرفص «هندى» هامسا: «ليكن الجن الأزرق! إنها دنيا ملآنة بالعجب! المهم أننا أقل خلق الله عجبا! إننا بالنسبة لهم ملائكة أطهار!». وقال «بسبوسة»وهو يتحسس بطنه وثدييه: «سمعته مرة يقول إنه من أصل مغربى!». فقال «غزولى» متعجبا:«كان قبل ذلك من أصل يمنى!» شوح «هندى» قائلا بلهجة فلفوس كبير: «الحاج السنى لو سرح بك فى سرحة مزاج متجلية سيثبت لك أنه يمت بصلة قربى إلى ربنا شخصيا! ولو انشرح صدره قليلا فسيجىء لك بشجرة العائلة العتيقة المبروزة بإطار من الذهب المشغول! يريك صورة منها بحبر حديث مضافا إليها بخط يده خطوط تشبه أوراق الشجر فيها أسماء مكتوبة حديثا يعقبها لقب البيك والباشا والعالم العلامة والإمام! يريك كيف أن هذا الفرع تزوج من العائلة الفلانية، فخلف هذه الأوراق وهذه الأوراق كونت هذه الفروع! يسمعك أسماء فى الوريقات تسمعها فى الراديو وتقرؤها فى الجرانين، يوضح لك أن فلان هذا يقول لأبيه يا ابن عمتى، وأمه - أم الحاج السنى - تقول لأم عدلى يكن يا ابنة خالتى!»..

تحلف اليمين يابوى أن دماغى صارت كالكرة التى كانت من قبل فارغة من الهواء فجاء من نفخ فيها بمنفاخ آلى حتى تحجرت وصارت على وشك أن تتفرتك من بعضها. أمسكته بيدى حتى لا ينفرط. تنهدت من قعر بطنى الدفين، قلت:«أهم من كل هذا يا أبو العم! ماذا يربطكم بهذا الرجل؟!»..

تبســموا جمـيعــا يابوى، ثم ضـحكوا يابوى، وانتــهى ضـحكهم بشـخـر وغنج يابوى.. فكأن صفـائح ميـاه ساقعـة انهمـرت فوق جسمى. قلت بـاسما كالأهبل فى الزفة:«عـلام تضحكون يا ولْد!». قال«بـريش» فى لهجـة غيـر مريحة فـيهـا غمـز ولمز:«هذا الرجل صاحـبنا! حبـيبنا!يحب قـعدتنا ونحب قـعدته!». قلت:«عـال! عال! كسبنا صلاة النبى!». قال «بسبوسة» مقلدا لهجة الأفلام:«إنه أبونا الروحى يا جـدع!»، ثم قطم ضـحكتـه المائعـة فـصـارت ترن فى صدره فـيهتز وتتـدفق أثداؤه. شعرت أن الشك يثـقب كرة رأسى بسن الدبوس، ولم أفـهم مـعنى غمـزة «بسبـوســة» فاغـتظت من نفسى والله يابوى، لكننى قلت: «كسـبنا صلاة النبى! نحن نهارنا فل بإذن الله!». وقـال «غـزولى» وهو يشعـل سيـجـارة: «يقصـد بسبـوسة أن يقول لك أن الرجل أخ كـبير لنا! يوجـهنا! ويعاوننا! ويساعدنا على المعـايش!»قلت:«ربنا يساعدنا جميعـا! من قدم خير بيديه التقاه». غـير أن «هندى» تربع قائلا فى غمز كغـمز السنانير فى الميـاه:« الله يكرمــه! إنه يروق بالنـا ويبل ريقنا!ولكن بعـد أن يكفرنا من الشغل والتلطيم فى المشاوير!»..

ضحك الصـحاب وضحكت أنا الآخـر يابوى، فعـاودتنا كريزة الضـحك من جـديد يابوى، صــرنـا ننشـال وننخـبط كـالمجـانين السائبـين والله يابوى، إلى أن سمـعنا وقع أقدام، فكفكـفنا دموع الضحك ورحنا نفرغ أصواتها فى صدورنا نهتز بعنف شديد. فلما اقترب وقع الخطى، جلسنا محترمـين متزمتين كل فى مكانه فوق

شلتته كما التماثيل، وكانت الخطى كثيرة ومتواصلة، تنقطع برهة لتتصل من جديد فتتزايد وتتزايد. ثم انفتح الباب يابوى، ليدخل خادم يرتدى جلبابا أبيض كجلباب الحانوتى ويتلفع بحزام أحمر ويلبس طربوشا على رأسه ويحمل طبلية مهولة الحجم لم أر مثلها فى حياتى عند أوسع العائلات. فوسعنا لها ما أمكن فلما وضعها صرنا كالفراخ حولها لا تظهر سوى رقابنا بأكتافنا. تبع الخادم خادم آخر يحمل صينية نحاسية أوسع من دائرة الطبلية فوقها نقوش ورسوم بالألوان مطعمة بالأحجار الكريمة كالعقيق والفيروز والمرجان وعين القط، وضعها فوق الطبلية. تبعه سيل من الخدم والولدان يحملون أطباقا وقوارب وسلطانيات وأكواب وأباريق وملاعق وشوكات مع سكاكين كثيرة لامعة بمقابض مطعمة بالعاج فعرفت أنها جميعا من الفضة وأن معلقة واحدة من هذه تساوى الشيء الفلانى، منظرها تحفة يابوى تحب الفرجة عليها وهى طول الأصبع. طست وإبريق من النحاس استقر عند العتبة. ثم توافدت الروائح يابوى، مشويات ومقليات وتخديعات ومحشيات. الولدان كالفراريز، فى لمح البصر زحموا الصينية بوليمة تاهت عقولنا فيها يا خال. فى أعقابهم وصل الحاج «أحمد نور الدين السنى»، فاقعى بجوار الباب برهة نزع فيها الأغطية عن بعض الأطباق هاتفا فينا:«بسم الله يا أولاد!».. فإذا بخيرات الله كلها مرمية أمامنا يابوى، ومتاحة، ما عليك إلا أن تمد يدك وتشيع إلى فيك تحشر فى بطنك، وأين هى البطن التى ستتسع لكل هذا النعيم؟ حمام ودجاج وبط وكفتة وكباب وشرائح لحم محمرة،

ومهرجانات من سلاطات الخضار والباذنجان والطحينة ناهيك عن الأرز والمعكرونة بأنواعها. كُلْ يا ولد أنت وهو بغير كسوف فالدار داركم كما تعملون، هب للنبى، نزلنا على الأكل حتتك بتتك حشرنا البطون كالزنابيل كالتلاليس، والحاج «السنى» لا ينى ينتقى ويقتطع ويرمى أمام ملاعقنا وأيدينا وأحيانا فى فمنا، رغم ذلك لا ينقص الخير فى الأطباق، فيالها من بركة كبيرة. ثم أخذ ضرب الملاعق فى ترسانة الأكل يخفت، وقلاعه تسلم واحدة وراء أخرى، إلى أن سمعنا قولة الحمد لله تطن من حولنا فتذكرناها فرمينا الملاعق ورددناها متراجعين إلى الخلف بظهورنا، وأيدينا مكتفة بجنوبنا لامعة الأصابع بإدام الطعام الدسم. نهض الحاج قائلا: تفضلوا فنهضنا جميعا ومضينا خلفه إلى خلاء السطح، فوجدنا حفنة من الولدان واقفين بالطست والإبريق، راحوا يصبون الماء على أيدينا ورحنا نغسلها، نمسحها نجففها بالفوط، نتكرع بصوت عال فنقول: الحمد لله..

فى لمح البصر كانت الأطباق قد رفعت والطبلية قد أجليت عن المكان، وتمددت الشلت على راحتها من جديد فتمددت سيقاننا لكن الباب انفتح من تلقاء نفسه، وزحفت ترابيزة زجاجية جميلة على عجل، يدفعها ولد حلو التقاطيع، بهرتنا وبهرنا ، فنظرنا فيها فإذا عليها براريض الشاى والأكواب والسكريات جعلها الولد فى وسطنا تماما وتركها وانصرف.. ليدخل فى أعقابه ولد آخر يحمل قطعة مشمع مطوية، سرعان ما فرشها بجوار الباب وخرج.. ليدخل ثانية بعد برهة حاملا طبلية صغيرة محندقة، يضعها فوق

المشمع، يلحق به ولد ثالث فى يده وجـاق نحاسى كبير فـيه فحم مشتعل مصهلل، وضعه فـوق الطبلية وخرج، ليعود بجوزة عبارة عن جوزة هند كـبيرة لهـا بخش وبوصة من أعواد الورد المجـوفة من الداخل، وضعهـا مغموسة في قلب دلو كـبير ملئ بقطع الثلج. ثم دخل ولد آخـر يحمل صـينيـة صغـيرة عليـها أكـوام من الموز والبرتقال والتفاح والعنب، وضعها فى الطابق الثانى من الترابيزة الفضيـة أم عجل، ووضع فوقهـا حزمة من الشوكـات والسكاكين أغرانى منظرها بإخـفاء ثلاث منها، لولا الرقـابة الشديدة علىّ من زملائى، ذلك أننا جميعا كنا نراقب بعضنا البعض بكثير من الشك والريبة، وكل منا يريد أن يدفع الشك عن نفـسه بأى شكل، تعلقت نظراتى بالفاكـهة برهة طويلة أخاير نفسى بأى تفـاحة أبدأ تذوق النعـيم، فلما انتـبهت وجـدت بجوارى مـباشـرة دلوا آخر مـلآنا بحجارة الجوزة المرصوصة بالدخان المعسل..

ما كدت أمـسك بالتفاحة حـتى كانت بوصة الجوزة قـد أكملت دورتها لحـد عندى. وكان «الحـاج السنى» قد رمى أمـام «بربش» بقطعة حشـيش فى حجم كف اليد قائلا: «قـطع»، فصار «بربش» المفترى يقـتطع إمضاءات كالملاليم الحـمراء الكبيرة يفـرشها على الحـجر يغطيـه، يرص حـوله النار كالحـمص، إن كـان فيك حـيل فاشـفط وأرنا كيف تسفح هـذا الحجر، إن فـعلت فسيـضيف لك «زميـة» كحبـة الحمص فوق نار الحـجر المشـتعلة. إنه مفـتر فى الشرب كـما أعـرفه لكن اتضح لـى الآن أن «الحاج السنى» أكـثر

افتراء، إنه ليس يشرب بحماسة شهوانية يابوى، بل إنه يغالط فى الدور أيضا يابوى، ويزعم بشقاوة أن دورًا فاته لم يولع فيه حجرا كما ينبغى، ويتصادف أن يكون لحظتها قد أسلم البوصة لجاره لتوه، مع ذلك يثير جدلا كبيرا وربما يتعارك ولا يهدأ إلا إن ولع حجرا زيادة، ولربما زعم أن الحجر كان مكتوما، أو مخنفسا، أو مطفأ النيران، حتى يقول له الولد الساقى بسماحة نفس زائدة:«خذ غيره يا حاج»، فيربت على ظهر الولد فى امتنان شديد ورقة زائدة قائلا وهو يتلقف البوصة باليد الأخرى:«أيوه يا ابنى الله يكرمك ويعمر بيتك! روح إلاهى يكفيك شر المرض!»، وينفث الدخان من فمه ومنخاريه فى تباطؤ ولذة مكملا: «روح إلاهى يفتحها فى وشك دنيا وآخره!».

بعد حجارة لا حصر لها، وأصابع موز انسلخت بلا عدد وبرتقالات وتفاحات، وعنبات، ووريت فى البطون بغير وعى، وأكواب شاى اندلقت فى الحلوق الصادية.. بعد كل ذلك اعتدل«الحاج السنى» مرتكنا بظهره للحائط ممدًا ساقيه مطرقعا عروقهما قائلا: «يعنى ما عرفتونيش بالرجل الطيب ده!»، وأشار بكفه نحوى، فهتف «بربش» مشيرا بكفه نحوى:«هذا هو حسن أبوضب! صاحب المقهى التى كنا نلعب عليها القمار أيام كانت تمسكنا الحكومة عنده!». صاح «الحاج السنى» فى غبطة صبيانية طريفة كأنه يعرفنى معرفة الأخ لأخيه:«يه.. يه.. يه.. إزيك يا ولد يابو على! يا تلتميت ألف مرحبا! كنت فين يا ولد من زمان!»..

حكيت له أمـرى من طقطق لسلامـو عليكم، فاسـتمع لى كـما القاضى يـستمع للأبوكـاتو فى هدوء، ثم ابتسم قـائلا: «على كل حال أنت حظك من السما! أنت الآن بين إخوتك! غدا تصير الأشياء معـدن والحال عال!». ونزع من سيـالته بضـع ورقات من الأحـمر القانى وقال:«خـذ! خل هذا المبلغ معك حتى تتيـسر لك الأحوال!». تلكأت قليلا وانكمشت على نفسى كما العلق، صرت أقول:«تشكر! تشكر يا حـاج! ربنا مـا يحرمناش!». فـشـخط فى بشدة:«خـذ!»، ولكزنى الصحـاب كلهم من كل ناحية:«خذ يابو علـى! إسمع كلام الحاج!» .وقال الحاج:«صـرنا الآن إخوة! ألم نـأكل من طبق واحد! لابد أن نصون العـيش والملح!». قلت:«طبعـا!طبعـا!» ومددت يدى فأخذت النقود، ودسـستها فى المحفظة، فى جيـب الصديرى، غير مصـدق أن الدنيا ترمى بنفسـها فى حجرى، هكذا مـرة واحدة يا خـال. غيـر أن صـوت «الحاج السنى» زحف مـتلويا كـالثـعبـان يقرصنى فى أذنى بكلمات تقول:«أكلنا عيـشا وملحا معا يا حسن! فهل تعـرف عقاب الله لمن يخـون العيش والملح!». قلت:«هو عـقاب كبيـر يابو العم!». قال: عودنى المولى الكريم أن يعـجل بعقاب كل من يخون العيش والملح معى! فليس من أحـد خان عيشى وملحى أو فكر أن يخون إلا وكان عقابه فوريا بفضل المولى العزيز الجبار عز وجل!»..

لعب الفـأر فى عبى يابوى، شـىء إلهى فى نفسى قـال لى إن الرجل العكروت يهددك من وراء ضلفة البـاب، فماذا، ياترى ينوى

أن يفعل بك، وكيف لى أن أخـون عيشه وملحـه؟ يعنى ماذا! كيف تكون هذه الخـيانة ياترى ومع من ؟ ذهب الشـتات بعـقلى يابوى، فـشعـرت أننى سـأسـقط من الجنة إلى النار مـرة واحـدة تحلف اليمين يابوى أن بطنى كركبت وسمعت لها دويا كالرعد القاصف، وزغولة تشبه سيفون دورة الميـاه حينما يشدون سلكه فيهدر الماء فى فـتـحـة الكنيف، كـمـا تهـدر بطنى الآن. رن فى أذنى صـوت أمي:«مـاحـلاوة بغـيـر نار»، فنظرت إلـى «الحـاج السنى» وقلت له:«اطمـئن من جهـتى يا حـاج! فأنا ولد أعـجـبك! أصون العـيش والملح! أحفظ السر! لا أنجس الماعون الذى آكل فيه! ولا العتبة التى أطؤها! كـما أنى لا أعض اليـد التى تطعمنى!». وكنت أراقـب وجه «الحاج السنى» وهو يستمع إلى هذا الكلام، فأجده مرتخى الملامح مـبـتسـم الفم والنظرات، والسـرور باد عليـه من كـلامى، ثم إنه قال:«أنت على كل حـال فى مقام ابنى! وأنا أحـببتك وشـعـرت أنك أهل للثـقة! أحب أن تعـرض علىّ كل مشكلة تـصادفك! لأسـاعدك بعون الله على حلهـا! وأوصيك بالصدق والصـراحة معى قـدر ما تستطيع! فـبالصدق والصـراحة تكسبنى غـير أنك بدونها تخـسر نفسك كلها!»..

ارتعبت مرة أخرى يابوى وتمغمص بالى وقلت لنفسى ما الذى يريده هذا الرجل منك يـا ولد أبى ضب؟ هل يشـغلك عنده فى هذا الشـادر؟ هل يرسلك فى تنفـيذ مهمـات؟.. انتظرت أن يبوح الرجل بشىء يريح بالى فلم يفعل يابوى، فكركبت بطنى من جديد وصار

الطعـام كـحجـر الرحى فـوق صـدرى، فخـفت أن أتكلم حـتى لا أخطرف، فـسكت تاركا دمـاغى يستـريح على عنقى، وليس يدور فيه غير صورة أمى، وأخى الصغـير، وأختى «سعدية»، و«خرابة» و «هلال» و«بهـانة»، يدخلون كلهم فـى بعـضـهم كـالعـجـينة، ويخرجون من بعضهم واحـدا وراء الآخر. أفقت على الضحك من حـولى و«هندى» يلكزنى فى جنبى صـائحا:«ياجـدع بطل شخـر! الرجل يكلمك وأنت نازل فى الشخـر! فضحتنا يا جـدع!»، فرفعت وجهى كالأبـلة محملقا فيـهم، وهم يتقافزون فى الـهواء من شدة الضحك. عندئذ نهض«الحاج السنى» واقفا يقول: «النوم وجب من بدرى!». فقـمنا جمـيعا ومـضينا وراءه والولد«هندى» مـحدق بى يسندنى ويسنـد نفسـه من الضـحك الخـفى، الذى يرجـه رجـا، فمـازلنا فى خطو، وصعـود فهـبوط، وهبوط فـصعـود، ودخول وخروج، حـتى وجدت أننا صرنا فـى قلب الشادر، فبـدأت أتذكر الطريق الذى جـئنا منه، وبدأ وجـهى من جـديد، يصـافح لفح الجحيم.

الخامسة ـ الباب المضمون

لما خرجنا من فتحة الشادر إلى الشارع العمومى الكبير لفحنى الهواء فانسطلت فوق انسطال، وتذكرت العربة الأجرة التى كانت قد جاءت بنا من المحطة فلم أجدها. تحلف اليمين يا بوى أننى انخطف قلبى من صدرى من أول ما مشيت فى الشارع. جاءنى هاتف يقول إننى خرجت لتوى من الجنة إلى جهنم خبط لزق. وجاءنى هاتف آخر بعده يقول إننى لم أكن منذ دقيقة فى قلب الجنة بنفسها كما وصفها الله فى كتابه العزيز وأن ما كنت فيه هو حلم الفرخة الجائعة بسوق الغلال، سألوا الأعمى بماذا تحلم؟ قال: بقفة عيون، وأنا قد حلمت الليلة بالجنة حتى دخلتها لكننى طردت منها بغير أسباب وصاحب الجنة لم يقل لى ما هى الشجرة المحرمة، وها أنذا ياخال قد عدت أمشى شريدا فى شوارع «مصر عتيقة». سألت نفسى: أين تبيت بقية ليلك يا ولد أبى ضب؟ أتذهب إلى صاحبك «ميمى» ماسح الصرم؟ أم تذهب إلى المعلم «شندويلى» وتتركه يغلق عليك المقهى؟ لكن المعلم «شندويلى» زمانه الآن فى سابع نومه.

يدى كانت فى جيبى رغم أن الدنيا حر، وسألت نفسى لماذا وضعتها فى جيبى؟ ثم أخرجتها فإذا هى لاتزال قابضة على الأوراق الحمراء، تحسستها فاقشعر بدني وتأكدت أن الجنة لم تضع من يدى بعد، وأنني يمكن أن أرجع إليها وقتما أشاء إذا أنا دهنت نفسي عسلا أمام هذا الرجل وتركته يذوقني بلسانه الأريب، إن كان هذا الرجل هو بواب الجنة فإنى إن لم آكل بعقله حلاوة أكون مغفلا كبيرًا يا بوى، إنه لن يكون فزورة أعصر دماغي في فك عقدتها، سوف أعرف كل ما يرضيه لأفعله وكل ما يغضبه لأمنعه وأعرف مواضع الأكلان التى يستحلى الهرش فيها من جسده فأهرش له فيها بأظافر حنون رقيقة حتى يغيب من النشوة، ذلك لن يكلفنى شيئا يا خال، فليس على الكلام جمرك يدفعه المتكلم وإلا يولد الرجال خرسا من الأصل، وليس على أفعال الإنسان من رقيب سواه هو نفسه يفعل ما يشاء.

دهمنا صوت «بربش» صائحا فى خلاء الشارع العريض: «وحدو.. و.. و.. ه». هدرنا جميعا فى صوت واحد يهزه الخوف والخشوع: «لا إله إلا الله». وضغط «بربش» على كتفى قائلا: «حتبات فين يا بو على؟». قلت: «والله ما أعرف يا خال». لطمنى على كتفى:«تعال معى». فقال «هندى»: «خليّه لى فأنا أعزب وأقيم وحدى أما أنت فأمك وإخوتك ليس ينقصهم من يزاحمهم فى الجحر الذى تسكنونه فى حى السيدة زينب!». قال «بربش» «حين نصل يكونون قد أخذوا كفايتهم من النوم! فننام أنا وهو!». قال

«هندى»: «دع الناس فى حالهم» قال «بربش»: «وبالمرة سأكلم حسن في الأمر!». انشدّ قلبي نحوه بخطاف، وطار النوم من عيني، صرت ملهوفا على معرفة هذا الأمر واستحسنت فكرة الذهاب معه رغم أن نفسى تفضّل الذهاب مع «هندى» قال مشيرا لي: «سأكلمه أنا فى كل شيء أحسن منك! غر فى داهية ومع السلامة!» وشوح للجميع وهو يضع يده على كتفي:«مع السلامة يا أولاد! نتقابل فى الميعاد بكرة على القهوة!» وسحبني ومضى بي نحو مجرى العيون، فدخلنا فى إحدى العيون بين أكوام متراكمة من الدور ذات الطابق الواحد والطابقين، يستطيع المرء أن يسلم ـ وهو فى الشارع ـ على من يقف فى شباك الطابق الثانى، أما الجدران فمائلة وغائصة فى الأرض الموحلة الرطبة المليئة بالحفر والمجارى الضاربة (أبحرا وقنوات وبركا) تلتحق بعتبات البيوت.أكوام الدور يقسمها شريط مترو حلوان إلى ضفتين من الهديم والركام تتضح فيها شبابيك وأبواب، من الصعب على العين أن تميز بين الجدران وأكوام الهديم، فكلها متشابهة متضافرة يتساند بعضها على بعض ويخفى بعضها على البعض، ويختفى معظمها فى أكوام الزبالة المالئة المكان ريحا نجسة خبيثة.

مشينا كثيرا بجوار شريط المترو ودخلنا فى حارة من الحوارى الضيقة التى لا تتسع إلا لمرور شخص واحد فقط وربما شخصين. لحظتها كان لون الصباح يتسلق أكوام الزبالة ويختلط بألوانها وينشر فى الحوارى رائحة الفول المدمس الطائب مع رائحة دخان

مخـزون فى هذه الكهوف. قلت لـ«هندى» مـستغـربا: «تسكن فى هذه البلـدة يا هندى؟». قـال: «يا ريـت!». إنفـرط قلبـى، قلت: «يا ريت!! تقول يا ريت!!». التـفت نحوى مـؤكدا: «طبعـا يا جدع! من يسكن هنا يعـتـبر فى قـلب مصـر ويسـتغنى عـن الأنتحـار فى الأتوبيـسـات والقطارات يروح أى مـشـوار على رجلـيـه! وكل الأسواق من حوله قريبة!».

تصدع دماغى يا خال كـأن «هندى» خبطه بدبشه، والذى غطى وطى أنه قال: «الخلوات جـاءت إلى هنا يا حسن! فلا تستـهزىء بهذه البيوت! لو كنت رجـلا تعال أسكن هنا فى أى عشة بدون أن تدفع ألفـا وألفين وثلاثة! أنا أجـرت ورشتى فى الحـارة الجائـية بخلو رجل قدره ألفـين! وكانت كبيـرة وعالية فقـسمتها نـصفين بالطول جعلت نصفها للورشة والأخر للمعيشة والبيات! ومن يوم أن سكنتها فتح الله علىّ! بعـد أن كنت أضيع النهار كله فى تنطيط من أتوبيس لأخر دون أن الحق بشىء!». ثم إنه توقف عند دار من طابقين خـفيفـة الدم يابوى كأمرأة سـمراء بنت بلد بغـمازات فى خديهـا، واجهـتها مـدهونة بالجيـر ومكتوب عليـها: لا إله إلا الله مـحمـد رسـول الله، ولهـا بابان رفيـعـان من الخـشب، أحدهمـا بضلفتين مقفولتين وفوقهما درفيل من الحديد بقفل كبير، والآخر بضلفة واحدة، وكلاهما مدهون بالزيت الأزرق. أشار «. ندى» إلى هذه الدار وقال: «ما رأيك فى هذه العـروسة؟». قلت: «آخر تمام!». أخرج مـفتاحا طويلا من جـيب بنطلونه ففتح به البـاب ذا الضلفة

الواحدة ودفعه، فظهر فى مواجهتنا سلم واقف مبنى من الأسمنت. مد يده فى صدغ الباب من الداخل وأضاء النور وقال: ادخل. فدخلت صاعدا الدرج، ودخل هو ورائى وأغلق الباب وراءه بترباس سميك متين، وصعد خلفى حتى لحق بى على البسطة، وأخرج مفتاحا آخر فتح به بابا خشبيا ودفعه، فإذا بنا فى حجرة كبيرة مدهونة بالجير السماوى ومزدانة حوائطها بصور نساء عارية بالألوان وصور للراقصات والممثلات والمطربات وكل نجوم السينما..

فى الحجرة سرير سفرى نظيف فوقه ملاءة مربعات كالمناديل المحلاوى، بجواره دولاب طويل بضلفتين من دواليب اللوكاندات وترابيزة مستديرة من الجريد، وثلاثة كراسى من الخيزران، على الحائط المواجه للسرير تسريحة كبيرة على شكل البيضة. على الأرض كليم مصنوع من بواقى قصاصات الخياطين مما يباع بثلاثين قرشا للواحد بالتقسيط المريح. فوقه وابور (وبراض) وبضعه أكواب وحلة من الألمونيوم وطبقين من الصاج ومعلقتين ومغرفة، وعلى درج التسريحة راديو من البلاستيك الأخضر ماركة صوت العرب. أول شىء فعله «هندى» حين دخولنا فتحه فصار يوش إلى أن وفدت من بلاد بعيدة جدا موسيقا تشبه موسيقانا، فتركها ومضى يترقص فى الغرفة على واحدة ونص وبدون مبرر، فصرت أصفق له وأضحك لكنه بعد برهة شهق وتوقف مستنكرا يقول: «بس! بس! أحسن الجيران فى عز النوم».

ثم سحب كرسيا فجلس بجوارى واشعل سيجارة ورمى بالعلبة نحوى فأشعلت أنا الآخر واحدة.

أنجعص «هندى» ممدا ساقيه على كرسى آخر، ونفث الدخان بلذة الخرمان الكبير، وقال: «شف يا حسن يا خوى! أنت وافقت على أن تشتغل معنا! ونحن رحبنا بك لتأكل عيشا معنا! «ثم صمت ليشد نفسا من السيجارة، فسحبت أنا الآخر نفسا وقلت: «طبعا يا هندى يا خوى! ربنا يوفقكم جزاء جميلكم فىّ ! المهم أن يكون الحاج السنى قد انبسط منى!». شوح بالسيجارة بجوار رأسه، وظهر عليه الاستغراب وهو يقول: «الحاج السنى ماله ومال شغلنا؟! أنت تشتغل معنا لا مع الحاج السنى!» قلت منذهلا: «كيف يا بوى! أنتم قلتم لى من المبتدأ أنكم ستعرفوننى على هذا الرجل فى الأول قبل أن أشتغل أى شغل!». شد «هندى» نفسا عميقا ضيق له ما بين حاجبيه فى خبث واعر، وقال: «نعرفك به لأنه رجل طيب وناصح! ويعرف الناس من وجوههم! ولو قال لنا إنك لست محل ثقة لما شغلناك معنا!»..

كلام موارب يا بوى أليس كذلك؟ هذا ما شعرت به على كل حال، فأحسست أن الصقيع يطبق فى خناقى، صرت أطوح أصبعى يمينا وشمالا بحركة نفى واعتراض مع تأتأة متتالية، و«هندى» نظر فى مندهشا يقول: «ما تقصد بهذا؟». قلت :«إن رباطكم بالحاج السنى أمتن من هذا يابو العم! إننى ولد لاقف ودائر كما تعرف يا هندى! أفهمها وهى طايرة!». قال هندى: «فعلا

يا جدع! وهل تقول فيها!إن الحاج السنى بكل صراحة يعاوننا على المعايش! إن احتجنا نقودا يسلفنا ونردها له بعد ميسرة! وإن توفر معنا شيء يصعب التخلص منه باعه لنا بواسطته أو اشتراه! المهم إنه يفرج عسرنا والسلام! هو كما قلت لك رجل طيب وجده كان قاضى قضاة أحد السلاطين! ومن هنا فإنه يفهم فى المنازعات وفضها وفى أمور المحاكم وقعدات الحساب والمصالحات! إنه خبير فى توقيع الجزاءات وإرضاء كافة الخصوم على الوجه الذى يريحهم جميعا! إنه يفصل بيننا فى كل نزاع يقوم بيننا وبين الناس وبيننا وبين بعضنا! باختصار هو يحمينا من أشياء كثيرة! ويسعى للإفراج عنا إذا حكم علينا بالمبيت فى الأقسام! ويضمننا عند الحاجة إلى الضمان».

تحلف اليمين يابوى أننى أغمضت عينى وفتحتها فى دماغى فلم أر لهذا الكلام قدمين يمشى عليهما، إنه فى الظاهر كلام زين، لكنه يذكرنى بشرائح الخشب التى يلصقها النجار فى بعضها بالغراء صانعا منها لوحا عريضا لايظهر موضع اللحام فيه، لكنك لو ضغطت عليه ينكسر.. هذا كلام ملتصق فى بعضه بالغراء يا بوى، لكننى مضطر لتصديقه، وإنى لمتأكد من أنهم جميعا يعملون عند الحاج «أحمد نور الدين السنى» من الباب للباب، فقلت:«خلاص يا هندى خلاص! هذا كلام مليح وإننى موافق على ما تقول!». قال «هندى» وهو يطفئ السيجارة فى غطاء علبة ورنيش معدة لهذا الغرض: «ربنا يخبز لنا العيش جميعا! قم لننام

حتى نقوى على العمل!». تعجبت والله يا خال وتبرجل مخى وتلعبك، وظننت أنهم ينوون الذهاب بى إلى الموريستان، شوحت قائلا: «يا هندى ياخوى! أنت للآن لم تقل لى ما العمل الذى سأشتغله معكم!». قفز عن السرير منبها، مشوحا بيديه: «صدَق من سماك صعيدى قفل! تظن أننا سوف نجلسك إلى مكتب بفنجان قهوة وجريدة صباحية وساع تتأمر عليه طول النهار! يا بنى أدم أنت الآن تعتبر فى الشغل! نحن الآن نشتغل! وأجرك محسوب! قالوا يا خبر بفلوس! قل غدا يصير بالمجان! فاصبر قليلا ترى نفسك فى قلب الشغل دون أن تدرى!» قلت: «ها أنى صابر يا خوى!». قال: «قم فنم لك ساعتين!». قلت «سأنام على الأرض ها هنا!». شوح متمددا: «نم والسلام فى أى جورة تعجبك!»..

لقيت صرة خلقاتى بجوارى، فتعجبت والله يابوى كيف افتكرتها وجئت بها معى رغم أننى كنت ناسيها، تبسمت راضيا عن نفسى ورميت صرة الخلقات فوق الكليم وهبطت وراءها فجعلتها مخدة ركنت فوقها رأسى وانبريت اقرأ الفاتحة طلبا للنوم ينجينى من ظلام الاعتكار الذى غير مزاجى مرة واحدة وصدع رأسى. ظل النوم يحاورنى وأحاوره ولو كنت أحفظ القرآن لتلوته كله عليه، لكننى ظللت ساعات طويلة أتقلب على جمر النار، حتى فتحت عينى فرأيت «هندى» يحلق ذقنه أمام المرآة واقفا بالفانلة والسروال ـ سروال المنامة، فتكورت جالسا، فأشار لى

خياله فى المرآة إلى كوعة فى آخر الغـرفة لم أكن تنبهت لها ساعة دخلنا، فقمت ذاهبا إليها فـإذا هى فتحة باب، يليها على الجنب باب قطوع، تطل منه فتحة الكنيف، ثمـة حوض من الأسمنت مبنى فى الحـائط تحت صنبور، دخـلت الكنيف، فصـفـيت بطنى من ولائم الأمس واسـتعـدلت ثم قـمت فطسست وجـهى بالماء من صنبـور الحوض، فحـينما لامسنى الماء وتفكرت فى أننى مـتوكل على الله خطر لى أن أتوضـأ. شىء إلـهى فى نفـسى قـال: توضـأ يا ولد وصل ركعتين لله يوفقك فى طريقك ويرجعك مجبور الخاطر..

أنهـيت الوضوء وعـدت إلى «هندى» فوجـدته قد ارتدى كـامل ثيابه النظيفة وحذاءه فظهـر أفنديا ولا البكوات. سألته: «ألا يوجد عندك حصيرة صلاة؟!». وضع كفـه تحت أذنه صائحا فى اهتمام شديد «ماذا قلت؟!». كررت قولى: «حـصيرة صلاة!» قال: «لمن؟!» قلت: «لى». قـال فى اسـتنكار بالغ:«أتصلى؟!» قلـت «لا! ولكننى أريد الآن أن أصلى!». قال بنغمة الشـخر:«الآن فحسب؟!قلت نعم! لعله تعـالى يوفقنا!». انفـجر «هندى» فى الضـحك والشخـر حتى صار كالمجنون وصار يغنى: «صلى وصـام لأمر كان يطلبه! فلما انقـضى الأمـر لا صلى ولا صـامـا!» ثم سـحـبنى من ذراعى كالمقبـوض على قائلا: «يا جدع لا تكن عـبيطا! أتظن أن الله تدخل عليه هذه الألاعيب! أتظن أنك تضحـك عليه وتأكل بعقله حلاوة! يا لك من بارع! يالك من ولد مفـتح! إمش يا جدع ولا تجعله يعـاقبك بالعنيـة!» ودفعنى من فـتحـة البـاب، فنزلت أكر على السلم. بعـد دقـيقـة كنا فى الشارع. نـظرت فى باب الورشة فـوجدت أرضـه

نظيفة، فتيقنت أن بابها ذاك لم يفتح منذ شهور طويلة، وأنها مجرد مكان يستتر به الولد نفسه أمام الخلق حين يقول إنه فحام صاحب ورشة..

وكانت الشوارع الضيقة الملتوية مضاءة بمصابيح الجاز المعلقة على أصداغ الدور على النواصى والحواديات ـ حاذينا شريط المترو، خرجنا من العين، كسرنا الخطو ماشين بحذاء مجرى العيون، ثم كسرنا إلى شارع الجيارة، ومضينا إلى مقهى المعلم «سحتوت»، لنشرب لنا حجرين لزوم الاصطباحية. وقال «هندى»: «الساعة الآن الثامنة بعد العشاء! موعدنا مع الصحبة فى العاشرة!». قلت: «ألا نشق ريقنا بلقمة صغيرة نشرب عليها؟». قال إن مطعم الفول والطعمية مجاور للمقهى.

وصلنا إلى المقهى، فأوصى «هندى» صاحب المطعم بأن يرسل لنا صينية فول عليها طلبان، فما كدنا نستقر على الكراسى القش فى الحارة حتى جاءت الصينية وفوقها طبقان من الفول وطبقان من الطعمية وأربعة أرغفة وطبق سلاطة خضار وطبق ريحة الطحينة. تاوينا كل ذلك فى دقائق، وطلبنا الشاى. وكان «بسبوسة» أول القادمين بجلبابه المكوى، ما إن جلس حتى طلب الدخان فجئ به وبالجوزة والنار والولد الذى سيسقينا. صار «بسبوسة» يرص الحشيش من قطعة فى راحة يده مخفية. وصرنا نشرب إلى أن جاء «غزولى» من بعيد يأكل فى رغيف محشو بالكبدة ذات الرائحة النفاذة ويتبادل الشتائم القبيحة مع

كل من يصادفـه فى الشارع من رجال يعـرفهم ويعرفـونه، حتى بعض النساء كن يدخلن معه فى قافية للتنكيت.. ثم جلس بجوارنا يلعن صبيان المقهى وأمهاتهم البغايا، وهم يحتملونه فى الظاهر ثم مـا يلبثـون أن يردوا له الصاع صـاعين. بعـد ذلك مبـاشرة جـاء «بربش» وقد تغـير شكله من بيك مـحترم إلى مـجرد رجل يلبس قميـصا وبنطلونا، بمجيئـه اتسعت القعدة، فنزلت حـجارة المعسل ترف بالعـشرات حـتى نسفت رءوسـنا نسفـا. ونظر «بربش» فى ساعة يده القـديمة الصدئة، وقال «الساعـة الآن منتصف الليل!».. فخيم على الـقعدة دخان القلق وسمـعنا صوت مزمار عـربة تشبه زمارة الخطر.. فنهضوا كلهم ونهـضت معهم، وقال «بربش»: «لقد وصل!». وذهب «بسبوسة» يحاسب صـاحب المقهى، ومضينا إلى الشـارع العمـومى فى اتجاه عربة كمـيون كبيـرة واقفة تسد فـتحة الحارة. نظرت فـيها فرأيت على أبوابـها وصندوقها من كل ناحـية كتـابة ميـزت فيـها رقم العـربة وحرفـين هما: ق ع فلم أعـرف ما معناهما يا بوى لكن «بربش» قال: اركبـوا، فركبنا، هو و«بسبوسة» بجوار السائق وأنا و«هندى» فى قلب الصندوق المستطيل...

انطلقت العربة يا بوى، حودت واسـتوت على طريق الكورنيش، فملت على «هندى» وسألتـه إلى أين نذهب الآن يا هندى يا خوى؟ قال «نتـوكل على الله لنشتـغل!». قلت «أى شغل يا جـدع؟» شوح قائلا فى فروغ بال: «ستعرف حالا».



السادسة ـ ليلة قاف عين

خرّمت العربة على بر الجيزة، وصارت تضرب فى طرق بعيدة حتى اقتربت من عواميد خرسانية تقف فى العراء وحولها أكوام كبيرة من حديد التسليح والطوب الأحمر. دخلت العربة بحذاء الحديد وحضّنت عليه ثم توقفت. فنزل «بربش» و«بسبوسة» والسائق، فنزلنا معهم، فجأة هجم كل من «بربش» و«بسبوسة» على خفير عجوز ينام على شكائر الأسمنت وفى حضنه نبوت. كتفاه بالحبال ولثماه بلاسته، ونزع «بربش» من حزامه مسدسا رماه لى قائلا: «هذه مهنتك يا بلدينا! قف أمام هذا الخفير! إذا أظهر أى حركة أو كلمة أوصيحة اقتله فى الحال!»..

ارتعت يا خال، لكننى نفذت يا خال. أمسكت المسدس بيدى فرحا به، وزارت فى الخفير أن يكتم أنفاسه، بينما انصرف كل من «بربش» و«بسبوسة» و«هندى» والسائق يرفعون أسياخ الحديد حزمة حزمة، ويعبئون صندوق العربة الكميون حتى امتلأ عن آخره بحوالى عشرة أطنان، وركبوا. فلففت حول العربة وشبطت فى جدار الصندوق الخشبى فلحق بى «بربش» وشدنى من ثوبى

قائلا ببسـاطة: «ستبقى أنت هنا! فسوف نجيء مـرة ثانية وثالثة ورابعة!». تطلسمت عـينى يا بوى، وداست قدم غليظة فوق قلبى، فجاءنى إحساس بأنه سينقطـع من عروقه فصحت من غيظ ومن وجع: «كيف يا بوى أبقى هنا؟ أهو الملعوب إذن!». فلطشنى بظاهر كفه فى نـرفزة وضيق هامسا: «هـندى» سيبقى معـك فى حراسة الخفير لحد عودتنا». خفت القدم الثقيلة ثقلها على قلبى فاسترحت بعض الشىء إذ إنهم لن يضحوا بحبيبهم «هندى» من أجل ملعوب يلفقونه لى. مـخى صعيدى يا بوى ولابد أن يتعـبنى قبل أن يفتح لى أبوابه ومخـازنه، هو يفتح لى أبوابه حسب مزاجـه الخاص يا بوى، وقسما بالله العلى العظيم يا بوى إننى مـا حاولت فتحة مرة وانفـتح، بل إنه ليـحـيرنى ويـتفنن فى تـطليع دينى يهـزأنى بين الخلق، وحينما يتـجمع خلق كثيرون لفتحـه، لا تنفع طفاشات ولا مـفاتيح كـأنه شـغل بره يا بوى، لا يمكن فـشـه بسهـولة بحـيل اللصـوص لصوص المدائن، لكن المضـروب مـا يلبث حتى ينفـتح وحده ذات لحـظة فيـبين لى الحق من البـاطل، وذلك عندمـا أكون رائق البال، ولا أكـون رائق البال إلا عندما أكـون رائق المزاج، بعد أن أشرب لى حجرين من حشيشة نظيفة طيبة الأصل..

شـعرت أن مـخى سـينقفل مع «بربـش» وهو إذا اتقفل يهـدد بفضـيحة قـد نذهب كلنا فى رجيلها.. فلحـقت بشجاعـتى قبل أن تهرب منى وصالحت نفسى عليهـا ووليت ظهرى للعربة عائدا إلى الخفير. فلمـا رأيت «هندى» مرابطا بجوار الخفير واثـقا من نفسه

يروح ويجئ حول الخفير واضعا يديه فى جيبى بنطلونه ضاربا الدنيا صرمة كأنه يتنزه، اقتربت منه وسحبته إلى بعيد وهمست فى أذنه «بتاع مين الحديد ده يابو العم؟». همس فى أذنى بهزة من كتفيه: «مش عارف والله يا حسن! لكن الظاهر إنه قاف عين!». قلت فى غيظ «قاف عين يعنى أيه يا بو العم؟ تتكلمون معى بالسيم والفوازير ينقفل مخى ويزرجن! كتم الولد العكروت ضحكة وهمس فى أذنى: «يا بنى آدم قاف عين بتاع الحكومة! بدال ما يقولون قطاع عام اختصروا وسموها قاف عين!».

تلعبك مخى أكثر والله يا بوى، صار مثل الكنافة يستحيل تسليك خيوطه من بعضها. لكن عجلة مخى أسرعت تدور وتدور مفكرة وتقول: «كيف يابو العم! عربة قاف عين تسرق متاع قاف عين!». الولد العكروت أخذ يضحك ضحكا مكتوما ويشخر بصوت عال، وفى النهاية شوح بيده نحو رأسه مرسلا لى نظرة فيها نفاد صبر وتهديد وضيق: «شف يا بلدينا! إذا كان مخك الصعيدى النير سينفتح على هذا النحو! فالأفضل أن تقفله قفلة مسوجرة! إن شغلنا يحب الستر يا صاحبى ويحب تفتيح المخ! والصعيدى حين يفتح مخه يجىء لأهله بمصيبة ثقيلة! إذا كنت تريد أن تشتغل معنا يا صاحبى فالواجب أن تقفل مخك وحنكك هذا تخيطه بالدوبارة! ولسانك تقطع منه ثلاثة أرباعه! ما يجرى علينا يجرى عليك! وحقك تأخذه بالرضا والتسليم دون أن تفتح فمك وإلا ضعت! إسمع كلامى فأنا أحب مصلحتك وأعرف طيبتك وسلامة نيتك!

لكن الشغل معنا كالحمّام دخوله ليس كالخروج منه! إن بقيت معنا على الوضع الذى قلته لك الآن تخرج من الحمّام مستحما نظيفا لابسا ثيابك النظيفة منتعشا! وإن فتحت مخك الصعيدى التخين على هذه الطريقة الصعيدية التخينة ستطرد من الحمّام عاريا مسلوخا من جلدك تتمنى الموت في كل لحظة! وعلى كل حال يا صاحبى أنت مازلت على البر لم تدخل فى الغويط فإن كنت غير واثق من أنك تفعل ما طلبته منك فإننى يمكننى أن أعاونك على أن يذهب كل منا إلى حال سبيله دون أن يصيبك أذى! وتستطيع أن ترد للحاج السنى فلوسه التى سلفها لك!»..

تلخبط غزلى يا خال، لم أعرف كيف أرد على الولد «هندى» وقد شعرت أن مزيكة الصدق فى صوته، قلت له : «تشكر يا هندى يا خوى! والله عداك العيب وسافر حتى الشلال! أنت الآن نورتنى وأنا ح أبقى معكم أو انصرف لحال سبيلى». ولحظتها كنت أجمع فى دماغى الكلام الذى سأقول له به إننى سأختار الانصراف إلى حال سَبيلى وليوفقكم الله ويوفقنى كل فى طريق... لكن لا أعرف يا بوى من الذى صحى صورة أختى «سعدية» لحظتئذٍ فى دماغى فصار قلبى ينتفض راقصا من الطرب أم من الاضطراب لا أدرى ، لكن «سعدية» مشيت فى دماغى لحظتها حاملة المدفع الرشاش تردى به الحكومة قتيلة فى لمح البصر تنط كالفارس على ظهر حصان «خرابة» لتنطلق مثله إلى الجبل طريدة تصبح مثلما كان شوكة فى جنب الحكومة

دامية.. ففى الحال صحت فى الولد «هندى وقد جمد قلبى: «أنا معكم يا هندى يا خوى حتى نهاية العمر بإذن الله! ولن أفرط فى صحبتكم أبدا!» فسحبنى الولد تحت إبطه وطبطب على كتفى وقال: «ربنا معاك ومعانا!»، ثم حاصرنا الخفير من كل ناحية.

دقائق وبرقت فى حلكة الليل أنوار مقبلة فسحبنى الولد «هندى» برفق وتسللنا على أطراف أصابع أقدامنا كى لا يشعر الخفير بانصرافنا فيصيح. دارينا أنفسنا خلف العواميد منبطحين بين شكائر الأسمنت نستلقط الأخبار، ويدى على الزناد مستعدة للضرب فى المليان فلما اشتد النور فجأة، انطفأ فجأة، وكف هدير العربة، وجاءنا صوت بابها وهو يفتح ويغلق، وصوت «بربش» يتنحنح. فنهضنا وجرينا إليهم، لأقف بجوار الخفير واضعا فوهة المسدس فى ظهره وينصرف «هندى» للمشاركة فى التحميل، حتى امتلأت العربة لتمها، وكان لابد أن أبقى ثانية، وفى هذه المرة كنت أكثر شجاعة. وفى المرة الثالثة كنت أتنزه رائحا غاديا كأننى الخفير الحقيقى. وفى المرة السادسة كنت أنا الذى يصبّر «هندى» ويهدئ أعصابه القلقة إذ أن الفجر كان على وشك أن يشد خيوط النهار وكانت أعصاب «هندى» تنفرط كلما ابيض وجه الصباح. فى هذه المرة يا خال وسعت العربة آخر ما تبقى من أسياخ الحديد فى قعر صندوقها، وفوقه رصات من شكائر الأسمنت تعلو فوق كابينة السائق بأمتار. وكان علىّ أنا و«هندى» أن نتمدد فوق رصات الأسمنت، فأخذنا نترفق بالعربة من التسلق خوفا أن تميل

وتسقط فى ناحية. وقف السائق ليفعل مثلما تفعل الناس بجوار الخفير المتمدد فوق بعض الشكائر الفارغة مكتفا ملثما، سرت عدوى البول فينا جميعا، فتجمعنا بجواره صفا واحدا وأخذنا نبول فى ثقة واطمئنان، وقال «بربش» مشيرا برأسه إلى الخفير: «الراجل ده ما صيَّحش ولاعمل أى حاجة؟!»، قلت متذكرا: «تصور يابو العم أنه لم يفتح فمه!» . قال «هندى» مؤمنًا على كلامى: «ولم يتحرك من الخوف!» قال السائق وهو ينفض قضيبه لينثر عنه آخر قطرات البول: «رجل طيب ويستحق أن نعطيه حسنة وعلبة سجائر!». قال «بربش» فى كرم ظاهر: «يا ريت». ثم مد يده فتناول مسدسه منى فشعرت كأننى قد صرت فى الريح عريانا، ونويت أن يكون معى واحد على طول الخط إذ موضة المطاوى بطلت هذه الأيام.

انحنى «بربش»على الخفير وزغده ببوز المسدس فى كتفه قائلا: «إنت ياحاج!» فصار الخفير يهتز تحت زغد المسدس. فمد السائق يده وأمسك برسغ الخفير وتحسسها ثم أخذ يدمدم: «يا خبر أسود! الرجل مات!»..

انبرينا نتحسسه من كل ناحية، ونضع أيدينا على فمه وقلبه ونبضه وندعك فى قضيبه حتى ينكسف إن كان يمثل الموت ولكن لاحياة لمن تنادى. راح السائق يفك عنه الحبال شيئا فشيئا ويتوقف عند فك كل عقدة لينظر ما إذا كان الخفير يخدعنا،

و«بربش» شاهرا مسدسه فى وجه الجثة ليردعها به فى الحال إذا ما تخادعت. لكن الحبال كلها انفكت ورمى بها السائق على سطح العربة والخفير جثة هامدة لا حراك فيها. فنزعنا عنه اللاسة ومددناه وفردناها عليه كما كان فى وضع نومه قبل مجيئنا، ثم تسلقنا العربة. وفى أسرع من البرق كانت العربة تنطلق بنا فى الطريق، وأنا و«هندى» مسطوحان كل منا غائب فى ملكوته. إلى أن توقفت العربة، ونزلوا، فنزلنا، ففوجئت بأننا أمام شادر الحاج «أحمد نور الدين السنى»، وثمة رجال من ولد عمومتنا يكتفون بالخيش، قد هرعوا لتعتيق هذه الحمولة، وكان عرق تعتيق الحمولات السابقة يغمر أجسادهم ويتناثر مع الندى على أسفلت الطريق.

العملية طلعت أخر أنس يا بوى، وأخر فرفشة، نظاكة ما بعدها نظاكة، ولم يكن قبلها بطبيعة الحال. الولاد - ربك والحق - عاملونى بالحد والمصلحة لم يطمعوا فى عرقى وشقاى. نادوا على أمام الحاج السنى ليرينى - مادمت أفك الخط - حسبة الموازين التى أجراها لهذه «البضاعة» التى اشتراها منا، فلما قال كلمة «البضاعة» التى قيل إنه سيشتريها منا لحساب جمعية خيرية تبنى فى سبيل الله مساجد ومعاهد نظرت فى وجهه جاعلا من عينى مخرازين يخرمان عينيه، لعلنى أجد خلف هذه البسمة الشقية شيئًا يدلنى على الحقيقة الكامنة وراء إنسانى عينيه هاتين، وعيناه يا بوى تقول بلورتين صغيرتين لا يمكن النفاذ منهما ولا يمكن سحقهما بل والله ياخال كنت أحس أن بصرى ينزلق على

زلطتين صلبتين ولست أشك يا بوى أنه قد شعر بتعبى من جراء وضعه فصرف عينيه متعمدا ووضعهما فى الورقة التى أمامه، وخط بالقلم الكوبيا خطا تحت المجموع الثلج عن حمولات ست جاءت بها العربة، وتحتها مجموع وزن شكائر الأسمنت. ثم غرز القلم الكوبيا تحت طاقيته الشبيكة وطوى الورقة قائلا:

- «شوفوا يا أولاد! أنا ما عندى مانع فى التعامل معكم بسعر السوق السوداء! لكن ذا يبقى كثيرا عليكم! يجوز أن أظلمكم! ويجوز أن تظلمونى! السوق السوداء كما تعرفون مجنونة بطبيعتها! يفوز بجنونها قلة من التجار الجشعين! ويضار منها التجار الشرفاء! من أجل هذا يا أولادى لا أجد طريقة أتعامل بها معكم أنسب من طريقة الشراء بالعرق! يعنى نتعاهد بقراءة الفاتحة أن تقولوا لى عن السعر الحقيقى الذى اشتريتم به بضاعتكم! وفى المقابل أعطيكم عشرة جنيهات عن كل طن جزاء تعبكم وعرقكم فى تسويق البضاعة وجلبها! فماذا تقولون!»..

تحلف اليمين يا بوى أننى سابت ركبتى كالواقف أمام ثعبان ساقط عليه من السقف. لم أكن أعرف أن الولد «غزولى» حويط يا بوى لهذه الدرجة، وفهلوى كبير يا بوى، تقدم من «الحاج السنى» وعلى هيئته سمة التاجر الشريف الشقيان الأمين على بتاع الناس وقال:

- «وكيلك ربنا يا حاج! نحن والله واسطة خير بينك وبين صاحب البضاعة! نحن ناس غلابة على الله! لا نطلب أكثر من لقمة

العيش الشـريفة بعرق الجبـين! أما أنت وصـاحب البضـاعة فناس مقتدرين! يزيدكم الله من نعيمه! ولكن ارفقوا بحالنا ولا تتشطروا علينا! وصاحب البضاعة قد اتمننا عـلى بضاعته ولم يقيد علينا أى ورقة سـوى ورقة وزنهـا فقط ليـحاسـبنا بها! هو رجل طيـب ما يتخير عنك يا حـاج! لذا فنحن لا نقدر أن نفرط فى مليم واحد من أمانته! أنت تقـول إنك تعطينا عشرة جنيهـات عن كل طن! وتعرف أننا خمسة رجـال! وعربة لها مصاريف ضعف مـصاريفنا وعرق أغزر من عرقنا! فلو قسمنا هذا المبـلغ علينا فماذا يصيب كل واحد منا!؟ لو بعنا التـرمس والفول الحراتى نجـمع فى ساعتـين اثنتين أضعاف هذا المبلغ! وأنت تعرف أننا نعطيك بضـاعة شحيحة نادرة فى السوق والطرناطة مـنها فى حنك سبع وأنت أيضـا تعرف أننا ضـحينا بحياتنا من أجل لقمة لا من أجل سُفرة!»..

«الحاج السنى» تابعه بنـفس البسمة الشقيـة فى العينين وعلى الشفـتين لا تنقص ولا تزيد. وتابعتهـما كلاهما وقـد انفرط قلبى وانفرطت أعصابى ولـم يعد فىّ حيل والله يا بوى، لم يبق فىّ مخ ينفتح، ولم أعد أصدق شيـئا مما يحدث أمامى. فى نفس الوقت يا بوى لم أعـرف أن أكذب شيـئا مما يحـدث أمامى، فـهل نكون فى مسـرحيـة تمثيليـة كل واحد فـيها يمـثل على مزاجـه الدور الذى يعجبه؟ العجب العجاب يا خال أننى وقدشاركت «غزولى» وصحبه فى سلب هذه الحمـولات بعربة قاف عـين من مخـزن قـاف عين، وشـاركت فى تكتـيف الخـفيـر وإرعـابه حـتى الموت، رأيت أننى

أصدقه كل التصديق وهو يحكى لـلحاج«السنى» ما حكى، كأن ما حكاه حقيقة واقعة، كـأننى شاركته فى فعل كل ما حكاه مع أن ما حكاه لم يحدث، شىء يمخول العقل يا بوى، حاجة تهوس والله.

لما رأى «بربش» لحظة الصـمت قد طالت وأن خطبـة «غزولى» ستـفقد حرارتهـا، تدخل قائلا وهو يشوح بيـديه ورأسه وكتفـيه ورقبته:

ـ «على كل حال شـوية عليك وشوية علينا يـا حاج! أنت مهـما كـان خيـرك علينا! ومصلحـتك أولى عندنا من مـصلحة صـاحب البضاعة! ولكن خل عليك قليلا وراع مصلحتنا والتعب الذى تعبناه يا حـاج! لقـد حـملـنا النار بأيدينا يا حـاج! إنـهـا أشـد من حكم المخدرات يـاحاج! وهى كلهـا خيـر وبركة يا حـاج! وربنا يزيدها بركة يا حـاج ويجعل سوقـها أحلى منها! ولـكن نحن أبناؤك وما عندنا لا يضيع يا حاج!»..

البـسمـة الشقـية ارتعـشت على شفـتى الحاج وترقـرقت فى زلطتى عينيه العسليتين، وشوح قائلا لـ «بربش»:

ـ «خلاص يا بربش! عـشان خاطرك جـعلنا العرق اثنى عـشر جنيـهـا فى الطرناطة! يبـقى لكل واحـد منكم جنيـهـان بما فـيكم العربة!»..

«غزولى» رفع ذراعـه الغليظة زامًا شفـتيه وراح يهزها عـلامة «ما ينـفعش»، فتـزحزح «بسـبوسـة» وتحسس ثدييـه من فتـحة الجلباب مجففا عرقه وقال باسما بسمة أنثوية بغمازتين:

- «على كل حال يا حاج! خذ لك عظة من تمسكنا بالمبلغ الذى سنأخذه عرقا لنا! فهذا التمسك دليل على أننا سنصدق معك فى قول السعر الحقيقى الذى حملنا البضاعة على أساسه من مكانها!»..

شوح له الحاج بمسبحته فى فروغ بال قائلا:

- «على كل حال السعر معروف وليست هذه مشكلة! وعموما فأنا إكراما لكم ولأنكم أولاد حتتى وجيرانى! وقلبى دائما عليكم! فإننى لن أدفع أكثر من خمسة عشر جنيها للطن الواحد لو نطق الحديد! وإذا لم يعجبكم السعر فأنتم أحرار!»..

كشر «غزولى» فى وجهه تكشيرة أظهر فيها - عن عمد - قليلا من قلة الأصل، لكنه أذابها فى كوب من السكر بالليمون حين قال:
- «إحنا أحرار يعنى إيه؟! يعنى نشيل البضاعة ونرجعها تانى؟! لكن يا حاج! ما أظن أنك تفعل هذا ونحن أبناؤك! عموما خذ البضاعة ووصل ثمنها يا حاج! طلاق بالثلاثة يا حاج أننى أتكلم الجد!»..

هنا وقف «الحاج السنى» ونزع القلم الكوبيا من تحت طاقيته وشرع يحسب فى الحال قائلا:

- «يبقى الحساب على ثمانية عشر ولا أحد منكم يفتح فمه بعد الآن!»..

ومضى يخط على الورق. فصمت «غزولى»وصمت الجميع، ومطوا بوزهم ولووا أعناقهم علامة على الرضا الاضطرارى. ونظر الحاج من فوق الورقة قائلا:

- «الأصل كذا طبعا!»..

صاحوا جميعا:

- « حرام عليك يا حاج! إنه يباع رسميا بكذا! فما بالك بالسوق السوداء!»..

أضاف الحاج مبلغ جنيهين قائلا:

- «يعنى كذا؟»..

فحدجه «غزولى» بنظرة جريئة حسدته عليها، ثم أضاف خمسة جنيهات قائلا:

- «بل يعنى كذا!»..

رماه الحاج بنظرة حمراء وقال:

- «أنت سفاح! منك لله!»..

وشرع يحسب بناقص جنيهين عما قال «غزولى» وهو واثق أن أحدا منا لن يعارضه. وبالفعل لم يعارضه أحد بمجرد رؤية الأوراق الحمراء القانية وهى تترادف على يدى «غزولى» واحدة وراء الأخرى، والدنيا كلها ترقص من حولنا طربا على حفيفها.

نابنى من هذه الغنيمة شىء كبير يا خال. أتدرى كم؟ أم أقول لك: لا داعى لإفشاء الرزق؟.. اسمح لى يا خال، فاللقمة التى تتفتش لا تؤكل.

السابعة-ليلة النتاية المحرقة

الغرزة التى كانت تلمنا هى غرزة صفصف، منها غرزة ومنها مقهى. حين يهفنا المزاج لشرب حجرين من الحشيش ندخل المقهى بجوار النصبة، نرقع مائة أو مائتى حجر على مصفاة واحدة، إذ ترف حجارة المعسل عشرا عشرا، وتوضع الجوزة البرطمان فى جردل الجون، ليؤخذ غيرها نظيفة بمياه ساقعة تجلجل تحت أنفاسنا الجاذبة، فإذ نفرغ من ذلك نخرج إلى الرصيف لنكمل السهرة فى قلب الحارة.

هى حارة عجيبة ليس فيها باب واحد، غير باب المقهى، كلها جدران متصلة، فيها بعض النوافذ الصغيرة. وهى - الحارة - مكسورة بعد المقهى بعدة أمتار نحو اليسار، مما يخيل للقادم أنها حارة سد، أما الذى يعرفها فإنه سينكسر مع الجدار ليستدير مع الحارة النافذة إلى خرطة «أبو السعود» وحدود الجيارة. لذا، فلا تمر إلا سيارات أبناء المنطقة المدربين على القيادة، ويتوقف مرور السيارة فيها بعد العشاء مباشرة، فيباح للزبائن زحزحة الكراسى إلى منتصف الحارة والجلوس على الصفين طول الليل، خاصة فى ضوء القمر.

صـاحب هذه المقـهى ولد واعـر يا بوى، أقـوى شـخص فى الحـارة، إذ هو بلطجى كبـير، وخـارج من عشـر سنوات أشغـال شـاقـة، ظل يرفع المطواة فى وجـه كل مـن يدوس له على طرف، حتى ترك فى الجميع جروحا وقروحـا، فتركوه فى حاله، وتركته الحكومة يطغى ويتـجبر، ويقتنى عـشرات الصبيان، يوقـفهم على النواصى بأكـياس الحشـيش الفاخـر يبيـعونه بأغلى ثمن، عـينى عـينك، لكل عربة مـلاكى تقف على ناصـية الحـارة، ولكل أفندى يجلس على المقهى. أما هو فبعيد عن الإمـساك بالنار، مهمته شغل الحكومـة والتفـاهم معـها، بالـهدايا أو بالمحـاكم، أو بالتهـديد، أو بالبلطجة، أو بالسـلاح كله ماشى، كل حالة حسب وضـعها، وهو المنتصر دائما، ودائما لا يمكث صبـيانه فى الحجز أكثر من سواد الليل. هو البـاقى فى بـلادنا والحكومـة متـغـيـرة، والقـرش باق والنفوس أيضا متغـيرة المهم أن «صفصف» يعيش فى هذه البلدة ولا كسـرى أنو شـروان صاحب التـاج والإيوان الذى يحكى عنه شاعـر الربابة لكنه ربك والحق ولد ذوق مع الذوق، فـواحشى مع الفواحشى؛ إن أعطيته ريقا حلوا أعطاك نهرا من العسل، وأنت لابد أن تعطيه الريق الحلو غـصبا عنك لأنه يبدأ دائما بـتحلية ريقك إن جئت مقهاه شاريا فى الصباح؛ حيث ترى ولدا طويل القامة نوعا، نحيف الجسـد صلبه أبيض البشرة لكنها ملوحة بالـشمس؛ شعر الذقن كفـرشاة سمراء خـصلة شعر مـهملة على جبـهته الضيـقة تختفى تحتها عينان ضيقتان معشيتان على الدوام؛ يرتدى قميصا وبنطلونا كـالحين؛ وصوته غليظ خـشن؛ يمر على الجـالسين فى

مقهاه واحدًا واحدًا، يوزع عليــهم قطع الحشيش بالمجان، كل قطعة تســاوى نصف، ربع قرش عـلى الأقل يرصـهـا الزبون خـمســين حجرا أو أكثر، فإن طاب لك أن تشــترى منه بعد ذلك أهلا وسـهلا، وإن اكتـفيت بذلك أهلا وسهلا أيضـا، لكنك إن اشتريت فـلا تفتح حنكك بأى كلمـة وإلا كان نهـار الأبعد أسـود من قرون الخـروب ترى نفسك فى الشارع مضطجعـا تحت عجلات السيارات وأقدام المارة وحينئذ لن يبين لك أصحاب.

نحن وكل الناس نحب الجلوس فى قهوة «صـفصـف» كما نحب الشراء منه ونثق فى حشيشه، فندفع فى القرش اثنى عشر جنيها فى حــين يباع عند غـيـره بثلاثة جنيــهـات فقط، لكن الفـرق بين حشيشه الغالى والحشيش الرخيص فرق السما عن الأرض، إسأل مجربا ولا تسأل طبيبا خـاليا من التجربة. و«صفصف» يعرف أنه محـبوب الحشــيش من الناس فيتـدلل عليهم ولا ينزل عن الســعر مليما واحدًا، ولا ينزل كذلك عن مـستواه حتى لو توقف عن البيع بسبب تشـاحح الصنف الجيد. أما الـقهوة فإنه يرفع سـعر الطلب فـيهـا ثلاثة أضعـاف سعـره فى المقـاهى الأخرى، وكـذلك سعـر حجارة الدخان، إن كان يعجـبك فاجلس، وإلا فلترنا عرض أكتافك، بهذا نظفت المقـهى واقتصرت خـدمتها على مـجموعة منتـقاة من الزبائن يدفـعون بدون فـصال ولا يعـلو حاجب واحـد منهم على حاجب المعلم «صفصف» ولا كلمة على كلمته..

قـد يخيل إليك من رؤيتـه لأول مـرة أنك لو ضربتـه كفـا على وجـهه ســتـرميـه فى الأرض طريحـا، لكن إياك وهذا الظن؛ فـإن

أجعص منك دفعوا ثمن هذا الظن غاليا مع أنهم كانوا أقوياء معتدين بأنفسهم؛ فإذا هم يلمون أشلاء نفوسهم من الأرض ويقفون فى بلاهة غير مصدقين أن هذا الولد السفروت فى جسمه كل هذه القوة الناشفة؛ وكلهم فى آخر المتمة يمنعون أنفسهم بعدها عن التلسين فى حقه أو التعرض له بأى شىء..

على حسه يدور دولاب العمل فى غير وجوده؛ إذ هو يختفى عن منطقة المقهى بعد صلاة العشاء؛ ويقول صبيانه إنه يقطع الليل كله فى مشاوير فى بلاد الشرقية والغربية والمنوفية يزور بيوتا على الطرق الصحراوية يلتقى بالمهربين يتفق معهم على البضاعة يعاينها؛ لا يعود إلا قرب الفجر يتطوح؛ إذ أن «صفصف» رغم أنه تاجر حشيش وأفيون وبرشام وهيروين وكوكايين وكل مسحوق وماكسل، فإنه خمورجى من الدرجة الأولى؛ وهذا شىء يطقطق الرأس يا بوى! فكل تجار المخدرات الذين عرفتهم يعشقون الخمر عشقا، ويشربون مع ذلك الحشيش فنطزية والأفيون لزوم مسك الدماغ وشد العصب، ولأن ألف امرآة وفتاة فى هذا الحى وهذه البلدة تتمناه وتخطب وده إذ أنه ولد كسيب وشاطر؛ فإنه له جحور كثيرة يسعى إليها فى سهراته بين الخمر والنسوان والدخان ولزوم ما يلزم، صبيانه يحكون لنا هذه الحكاوى ونحن مساطيل آخر الليل؛ ويقولون فى نهاية الكلام إنه متزوج من حورية سنيورة كالفل، كل أهل المنطقة يعرفون أن «صفصف» مليونير حافى القدمين يملك عتبات كثيرة فى مصر الجديدة والجيزة وحلوان، لكنه حويط لئيم لا يكتبها باسمه ولا يبيت فيها؛

بل إنه لم يغير سكنه القديم فى حجرة فى حارة من حارات هذه المنطقة لا يعرفها إلا صبيانه المقربون؛ وإذا داهمته الحكومة فى هذا المسكن - وهى كثيرا ما تداهمه - لا تجد فيه شيئا بطالاً، ولا أى شىء يزيد فى مظهره أو مخبره عن حالة رجل على باب الله صاحب قهوة بلدى..

ليالى كثيرة ونحن نتلاقى على هذا الرصيف فى هذه الحارة دون أن نفعل شيئا يا بوى؛ والهبرة الكبيرة التى هبرها كل واحد منا فى تلك الليلة السابقة ضاعت؛ أنا مثلا أرسلت هبرتى كلها إلى أمى فى البلد لعلها تتمكن من إعادة بناء دارنا، لم يبق معى إلا حفنة برايز وشلنات لا تودى ولا تجيب، ولولا أن الولد «هندى» رضى أن أسكن معه فى غرفته لكنت الآن بلا مكان أبيت فيه، فى كل ليلة نسفح قطعة حشيش كبيرة ونحرق حجارة معسل عدد الحصى، ونشرب شايات وحاجات ساقعة وننصرف آخر الليل صارفين من لحم الحى، وقد خشيت أن أتكلم فى هذا الأمر حتى لا أثير غضبهم على وتشاؤمهم منى، فقلت فى نفسى: ما يجرى عليهم يجرى علىّ، ولم أكن أعرف أن الفلس قد أتعبهم أكثر منى يا بوى؛ إذ قال «هندى» وهو يفرق علينا ورق الكوتشينة فى هذه العشرة الجية التى نلعبها مرابعة:

- وبعدين يا اخونا! عايزين نشتغل بقى! خلاص فلسنا!».

فهرشوا كلهم فى رءوسهم؛ وظهر على وجوههم أن هذا الطابق هو آخر طابق فى هذه العشرة الكوتشينة سواء انتهت أو لم تنته،

وقــال «بربش»: «اهرش فى دماغك يــا غزولى!». فـقال «غـزولى» وهو يعـبث بأصـابعه فــى شواربه مفكـرا: «الفرخة لم تبـض بعد! فلى إخوان فى هــيئة قــاف عين يشــتغلون الآن فى ترتيب عـملية طيـبة سـتعم علـينا بالخيـر إن شاء الـله! وأنا كل يوم أتصل بهم أســتعــجلهم! وهـم يقـولون لى اصبـر على الأرز حـتى يستـوى! فأستحسن كلامهم وأنصرف»..

وهنا قال «بسبوسة» وهو يدلك فى ثدييه الكبيرين:

ـ «ويظهر أنك تستحسن حالة فقرنا أيضـا!»..

وقال «هندى» وهو يزيح الورق من أمامه فى سأم

ـ «نريد عملية تعدينا من الفقر!»

ألهمنى الله قولا:

ـ »ربنا يقول اسع يــا عبد وأنا أســعى معك! فمــا يمنعنا من أن نقوم الآن لنسعى» ونحن ورزقنا»..

بحلق «غزولى» فى عينى بنظرة ثعلب داهية.

ـ «هذا شغل الحرامية الجربانين!»..

جاراه «بسبوسة» قائلا:

ـ «جئنا لشغل النتانة! لم يبق إلا أن ننشل فى الأتوبيس!»..

قلت:

ـ «وما العجب يا بسبوسة؟ ربما تقع اليد على هبرة كبيرة!»..

شوح «بسبوسة» بخبرة معلم كبير:

ـ الهبرة الكبيرة لا تركب الأتوبيس! فلا ينوب النشال غير اللعب فى الصغير! اللعب فى الصغير يقود إلى الحبس وخراب البيوت بلا ثمن! إن سرقت أسرق جملا يا بقف!»..

نقر «بريش» بخاتمه على الترابيزة قائلا:

ـ والله حسن كلامه معقول! ومخى يحدثنى الآن بأن نقوم ونبحث عن الرزق ونحن ونصيبنا!»..

ثم وقف فى الحال يا بوى، فوقفنا كلنا! وجمعنا من بعضنا أنصبتنا من مصاريف القهوة! وتولى «غزولى» دفع الحساب والبقشيش، مضينا نحو كسرة الحارة حتى خرجنا إلى الخلاء وسرنا خلف «بربش» إلى مساكن الفسطاط القديمة.

هواء الفسطاط نعنشنا! فانقلبنا ضاحكين بغير وعى، كنا فى بحر القمر غرقى، والدور من حوالينا رابضة فى سفح الطريق وفوقه يعلم الله وحده ما يدور فيها مع أنها تبدو غارقة فى الصمت اللانهائى، وكان الهواء يشاغب ويلاعب ستائر كالحة خلف بعض الترسينات والشبابيك! فيجعل الدور تبدو كأنها تتنفس وصدرها يعلو ويهبط، قلت فى نفسى إنها تدعونا للتعجيل بالفعل الذى سنترسمه، فهذه هى اللحظة المناسبة وكنت أنوى التكلم فى هذا معهم؛ لكن عينى وقعت على أكثر من حبل غسيل مزدان بالملابس المغسولة كحبال الباعة فصار قلبى يخفق بشدة وتمنيت لو أننى وحدى الآن لقطعت كل حبل بالمطواة من الناحيتين

ولمته فى حضنى ثم انصرفت متعشيا؛ إلا أننى قلت لنفسى: يا ولد أنظف وأكبر على حبل الغسيل واللعب فى الصغير كما ينصح بسبوسة..

أنتبهت فإذا بنا جالسين على صخرة من الأسمنت فى سفح الطريق؛ أمامنا «الجيارة» و «مصر عتيقة» على اليمين، والفسطاط القديمة على الشمال، فبحلقت فيهم وقلت إن ثعبان الليل أخذ الآن فى سحب ذيله الطويل، ولابد أن نفعل ما سنفعل قبل أن يدخل الذيل فى جحره وينطبق عليه جدار النهار، قال «بربش».

ـ « يا أخى طوّل بالك! أننى أتذكر الآن دكان بقالة فى الفسطاط متريش وملأن بالخيرات! وصاحبه ابن قحباء ذمته واسعة!».

قال بسبوسة مسلك هو ام مسيحى

قال بربش

ـ « مسلم وموحد بالله! له ذقن طولها متر ومسبحة وطولها متران!»..

قال «هندى»:

ـ «أليس يزكى على ماله وبضاعته؟!»..

قال «بربش» بعد أن أرسل شخرة سريعة خاطفة أضاف إليها:

ـ «أحّه: أقول لك ذمته يجرى فيها القطار!»..

قال «غزولى».

ـ « ليس لنا شأن بذمتــه الآن! ليكن ما يكون! نحن لن نصاهره ولن يصاهرنا! نحن لسنا المختصين بحسابه! فالملكان ينتظرانه فى قبـره فى الآخرة وهذا يكفيـه! والذى يهمنا الآن هو خـزنة النقود! هل يفرغها فى جيوبه قبل إغلاق الدكان؟»..

قال «بربش»:

ـ «راقبته كثيرا عند إغلاق الدكان بنـية أن أتتبعه فيما هو سائر إلى داره لأخلص معه! فـما رأيته يأخذ معه نقودًا قـط! لأنه يعتمد على أن باب دكانه يحميه درفيل من الحديد المضلع العريض وقفل مسوجر لا يمكن فشه بطفاشة!»..

رفعت ذراعى صائحا فى وجه «بربش» قائلا:

ـ «يا عم بربش يا خـوى! هل هذا الرجل صـاحب الدكان يبـيع بالشكك؟!»

قال «بربش» ضاغطا بأسنانه على لسانه المذكور فى غيظ:

ـ «ابن ميتين كلب! لو مت أمامه على رغيف وقطعة جبن لا يرق قلبه عـليك! إلا إذا هرشت له بالفكة! مع أنه يعطى السجـائر شكك لأفندية خولات يعرفهم!»..

قال «هندى»:

ـ «سوف لن يجد فى قبره من يسقيه!»..

صحت قائلا بصوت عال ولهجة حاسمة:

ـ «يبقى لابد أن نحرق قلبه! فإنه يستحق الخسران الوبيل! صنف الذى يمنع عنك اللقمة وهو موسر وأنت معذور اقطع رقبته! دس فوق رأسه فإنه ثعبان سام! فوالله لابد أن يكون الله بعثنا الآن نفكر فى أمره! لتكون كسرته على يدنا بإذن الله! وتوفيق منه!»..

قال «بربش»:ـ « لابد أنك تكون انقرصت منه يوما! فليس من واحد عاش فى هذه المنطقة إلا وتوسم فيه الخير فلجأ إليه فى طلب شكك! وارتد فى النهاية خائبا مكسور الخاطر!».

قلت مشوحا بذراعى صائحا:

ـ «أظنك تقصد البقال الذى على ناصيتى حارتين وعنده التموين وبرميل الزيت وأجولة السكر واسمه الحاج لولى!؟»..

هز رأسه قائلا:

ـ «هو بعينه! الوحيد بين دكاكين البيع والشراء كلها ليس عنده دفتر للشكك! حتى دفتر التموين لا يراه أحد! أهل حوارى الفسطاط كلهم لا يتوفر معهم ثمن التموين الذى يبلغ من ثلاثة جنيهات إلى عشرة! بعضهم يشترى جزءًا صغيرا منه ويوقع باستلام الكل! بعضهم لا يأخذ منه شيئا فيسقط حقه بمضى الشهر! وحاج «لولى يبيعه لهم بعدها بالقطاعى بسعر السوق السوداء الحرة!»..

أنهى «غزولى» برم سيجارة حشيش أشعلها ليستدعى بها ما طار من دماغنا من سطل فى هبوب الرياح، وقال:

ـ «ما رأيكم أننى فعلا قـارش ملحة هذا اللولى من زمان! وأود أن أغدره وأذيقـه العذاب ألوانا! لقد فكرتنى يا بربش بحـركة كنت نسيـتها من سنين طويلة! كان هـذا الخنزير قد فعلها مـعى! حين طلبت علبة سجـائر هليود وفتحـتها وأشعلت منها سـيجارة وكلى عشم فى أننى لـو قلت له أعطيك ثمنها غدا فـسيـقول لى لا عليك! لكنه أخذ منى الـعلبة مفـتوحة وقـال غدا تعال حـاسبنى على هذه السيجـارة التى أشعلتها! فوالله العظيم لأحـاسبنه الليلة على حق! ابن ديك الكلب هذا يجب محاسبته! نريد الآن عتلة ومرزبة!»..

قال «بربش»:

ـ «باب الدكان خشب بضلفتين لا تنفع فى فتحه العتلة!»..

قال «غزولى»:

ـ «سـأصدّر العـتلة فيـما بين مـفصـلات الباب والجـدار! هى ضـغطة واحـدة بإذن الله أدفـعـهـا بصـدرى فى العـتلة! تفـصل المفصـلات بحالها عن الجـدار! فيتـسع المجال أمام الضـغلة المعلقة فيها حلقة الدرفيل! فينفصل الدرفيل وينفتح الباب على مصراعيه! ويمكن أن ندعه مـقفولا كـما هو ونتسلل من فـتحة نوسعـها بين صدغ الباب والحائط! مكان الحصالة معروف! والسجائر والأشياء الثمينة كلها متجاورة!»..

قال «هندى

ـ «يلزمنا عربة نصف نقل!»..

قال غزولى

ـ «هذه عليك يا حدق! تسرقها من الموقف أو من الجراج الكبير المتطرف! ثم تعيدها بعد أن تخلص من مهمتها! أو ترميها فى أى مكان قريب!»..

سحب «هندى» بقايا السيجارة المحشوة ليسلب بقايا نفس وهو يقول:

ـ «بسيطة! ما أكثر العربات! لو طلبتموها الآن حالا أجيئكم بواحدة محترمة!»..

قال «بربش»:

ـ «خل ذلك للغد! فلابد لنا من عتلة! وهذه لا توجد الآن فى مكان قريب!»..

صحت قائلا:

ـ «إذن فدعونا بقية هذه الليلة نفرفش ونهيص! كل واحد يروح لحال سبيله!»..

وكان فى نيتى أن أفوز بغنيمتى الصغيرة وحدى يا بوى،أن أجمع ثلاثة أو أربعة حبال من حبال الغسيل هذه التى يخفق من رفرفتها قلبى، وغدا يمكننى أن أبيع فى سوق العصر بعض ثياب تستحق البيع ولو بثمن الدخان. لكن «غزولى» شوح قائلا:

ـ «لا ياحدق! قم بنا الآن ندور حول الدكان نعرف دخلته من خرجته! صدغه من قفاه! فلربما يلهمنا الله طريقة سهلة لفتحه!»..

استحسنا جميعا هذه القولة وتحمسنا لها، فما ندرى إلا ونحن نتخبط فى حوارى الفسطاط الضيقة الملتوية، التى صارت أشبه بسراديب من الظلمة تحت خيمة القمر، وصلنا إلى ذلك التقاطع الذى يتملك دكان «الحاج لولى» ناصيتيه، تحسسنا بأيدينا الباب والدرفيل والقفل والصدغ والمفصلات وكل شىء، إلى أن قال «غزولى» بثقة:

ـ «بالعتلة وحدها ينفتح الباب!».

ثم مشينا ندخن ونتهامس بالإشارة وهزة الرأس حتى صرنا فى شارع الخلاء البعيد المطل على! اسطبل عنتر، على يميننا صف واحد من الدور الواطئة، وعلى شمالنا الخلاء، كلها دور من طابق واحد أو طابقين، بالكثير ثلاثة، لكن الرجل منا لو مد ذراعه عن آخرها يطول آخر الطابق الثالث، «بربش» و«غزولى» كانا سارحين ببعضهما فى الكلام يبعدان مسافة طويلة، و«بسبوسة» و«هندى» مشيا معا على مسافة طويلة منهما يتكلمان، وعلى مسافة طويلة منهما مَشيت وحدى سارحا بنفسى، مخى يوجهنى نحو حبال الغسيل. وقلبى يؤجل إخراج المطواة، فلما اختفى الصحاب فى حوادية بعيدة، خفق قلبى لشعورى بالوحدة المفاجئة، وكنت أحس أننى أريد أن أتخلص من ضرورة، فصرت أتمسح بالحوائط بحثا عن حائط رطب ووسخ أرسل عليه ضرورتى، فاجتذبنى شباك قريب إلى الأرض مدهون باللون الأزرق دهانا جديدا، وضلفتاه، منقسمتان من عرضهما إلى قسمين أحدهما سفلى وهو الأطول

ومغلق من الداخل، والثاني علوى وهو الأقصر ومفتوح على مصراعيه والضوء يعبره إلى الخلاء فيرسم على التراب شبكة من ظلال أعواد الحديد المتجاورة.

هى العادة الذميمة يا خال، أبدًا ما قدرت على الخلاص منها، إذ بى قد حاذيت الجدار وقربت رأسى من فتحة الشباك محاولا النظر فى داخل الغرفة، وإذا أرى الهول يا بوى، وقعت عينى أول ما وقعت على سرير بعمدان نحاسية بدائر حريرى مكرنش، وبلا ناموسية، ومنظر الملاءة فوقه نظيف غاية النظافة يرسل رائحة معطرة، والسرير كان خاليا، ونسمة هواء تراقص كورنيش دائره العلوى، فبدا لى يا خال كأنه يتأهب لتلقى موقعة سخنة يشيب لهولها الولدان.. فما دريت إلا بنفسى أحاول لصق نفسى فى الحائط، وقد بدأت جيوش من النمل تنتشر فى كل عروقى تريد أن تخرج كلها من ذلك الخرطوم المنتفض بين ساقى يا بوى، منظر السرير لخبط غزلى يا بوى، قلب كل كيانى، ذكرنى أننى لم أكن رأيت سريرا بهذه النظافة من سنين طويلة، فلما رأيته طار النوم من عينى واشتد عزمى. وقفت على مشطى قدمى ورفعت عقبى وجمعت الغرفة كلها فى نظرة واحدة، رأيت دولابا بضلفتين فى مواجهة السرير، بجواره كنبة عربى، يتمدد عليها رجل سفروت نابت اللحية والشارب أشقر الشعر، بحلقت فيه، فإذا هو مستغرق فى النوم كالقتيل العدمان العافية، منطرح على ظهره فاتحا فمه عن آخره فجأة زادت رائحة العطر فى خياشيمى وأخذت تقترب أكثر وأكثر مع اقتراب خفيف بجوار باب الحجرة الذى يفتح على

دهاليز شاحبة الضوء، أبعدت رأسى عن الشباك برهة، وقلبى أخذ ينتفض، عدت فسللت عينى من بين أعواد الحديد، فإذا بى أراها يا خال، اللهم عفوك ورضاك، يا أرض احفظى ما عليك؛ امرأة فاتنة، ترتدى قميصا من النايلون بحمالات رفيعة على الكتفين، كل جسمها بارز من خلال القميص الشفاف، طويلة فارعة، عريضة الكتفين، ينطرح شعرها الأسود على ظهرها شرائح فيصل على ضفتى قناة الظهر إلى هضبة عالية، تنحدر نحو ساقين مبرومتين، تنتهيان بسمانة كالشهد، وكعب كالريال الفضى كانت تمسك يديها الممدودتين بذراعين عاريتين كوبا من الشاى، فلما استدارت رأيت وجهها كأنه البدر فى يوم التمام، بعينين واسعتين كحيلتين، رموشها مستطيلة، وبجبهة كالبللور تميل من فوقها جدائل الشعر الغنى، أما خدودها فتفاح طايب، وأما صدرها الناهد ففحلا رمان وأما بطنها فطيات طيات، وأما خصرها فنحيل كجذع النخلة تحف به سوّة كالعجين الخمران، ازداد التصاقى بالحائط وقد تصلب مسمارى يا بوى وأوشك أن يخرق الحائط لينفذ إليها، انحنت هى على الكنبة، فارتفعت قبة المؤخرة وبان لى كل شىء، فكدت أصيح يا وعدى، وكان قلبى قد فارقنى وحط على هذه القبة وصار ينزلق فوق قناة الظهر واصلا إلى الرأس دافنا رأسى بين جدائل الشعر، وخرج صوتها يا خال تقول قطة تطلب الحلال منادية داوووود، غير أنها كانت تنادى: صفصف! صفصف! الشاى أهه يا حبيبى!..

لم يرض قلبى أن يصدق حكاية الشاى هذه شاى؟! شاى ماذا يا بوى؟ وهل ينادى المرء لشرب الشاى بكل هذه الرقة وهذا

الرجـاء الأنثوى الحـار؟! لا يا بوى، أنها تقـول له بصريح الفـتنة والعبارة: قم وخذنى فى حـضنك، وكلنى أكلا، حتى لا تترك منى فتـفوتة واحدة،عـادت فاعتـدلت واقفة فـخيل إلىّ أن لحمـا صلبا يقـبض على مـسمـارى هى وضـعت كوبة الشـاى على ترابيـزة صغيرة، والتفتت، فمدت ذراعـها تحت دماغ النائم ورفعته، فصار وجهه يرتفع نحوى، لأراه بكل خلقته.

وا..ه يا خـال.. واه.. تزلزل كـيـانى يا خـال وكـركـبت بطنى، وانعوج مسمارى مـن الرعب، إذ إننى تأكدت أن الراقد على الكنبة جـثة هامـدة هو بذات نفسـه المعلم «صـفصف» صـاحب القهـوة الغرزة، الذى يلقى الرعب فى قلوب المدينة كلهـا.. فأيقنت أنه عائد لتوه من رحلة الليل اليومية مـهدود الحيل من كثرة ما تكلم واتفق وتحـاسب وسكر ونصب واحتـال على نسـاء وبغايا ورجـال من الحكومة وصبيان الباعة!..

هل تقتنى هذه المـهرة المتعة يـا «صـفصف» وتنظر إلى غـيرها؟ إنك إذن لدنىء طفس، فـارغ العـين، أعرف أنـك طول الليل تسكر وتعربد وتبـرشم الكوكايين وتفعل فى نفسك البـدع لكى تضاجع امـرأة ساقطة أو راقـصة من شـارع مـحمـد على، هاك الآن هذه المهرة يا بقف لا تـكسر بخاطرها، كن قـادرا عليهـا وحدها تدخل الجنة يا بقف، وحق سيدى عـبد الرحيم القناوى لو أن عندى هذه ما نظرت إلى غيرها وبقـيت طول العمر خادما مخلصـا لهذه القبة الثمـينة القائمـة بين الفخدين تطلـب الامتلاء فى الحـلال إلى مالا

نهايـة، أما أنت يا «صفـصف»، يا صاحـب القهوة الغـرزة، يا من تتـشطر علينا جـميعا وتذيـقنا العذاب ألوانا وتظـهر علينا قـوتك ورجولتك، فإنك الآن فى وضـع لا تحسد عليه، آه لو رآك واحد من الزبائن وأنت كـالخـرقـة البالـية أمـام هذه المهـرة الوادعـة، التى اخترقت سـخرنتها حائط الداروسيحتنى..

رأس «صـفـصف» ينعـوج على ذراع المرآة مـتـهدلا كـالفـرخ المذبوح... والمرأة الحورية تهزه من ذقنه بأصـابعها قائلة فى حنان لا مثيل له يا خال «صفـصف! الشاى أهه! اشرب الشاى!».. ولكن «صفصف» من يا بوى؟ إن «صفصف» ليس هنا وليس له ثمة من وجود.. والمرأة التعـيسة تظل مسندة رأسه بذراعـها لبرهة طويلة، تنظر فيـها نحو السرير شـاردة حزينة يتطاير الشرر من عينـيها، لكنها لا تلبث حـتى تعود فتـهزه من ذقنه بأصابع كـأصابع الموز البلدى قـائلة بكثيـر من الرجـاء وقليل من اليأس: «الشـاى أهه يا صفصف! » اشرب الشاى بقى أحـسن دا برد خالص! اعدل نفسك بس!». ثم إنهـا عـدلتـه جـالـسـا، وأسندت رأسـه علـى المسند، واستـدارت لتجئ بكوب الشاى بين أصـابعها، فـما كادت تتـركة حتى تهاوى من جديد مستويا على الكنبة..

استدارت إليـه المرأة، تركت كوب الشاى، أنهضت الراقـد عدلته جالسا، ضاربة خديه بكفها فى مداعـبة خشنة حتى يفيق، صائحة بعصـبيـة: «صفـصف! ما تصـحى بقى تشرب الشـاى! إنت مش طلبت الشـاى؟ مـا تصحى بقى يا أخـى!». وهو يهمـهم مـبربشـا

برمشـيه قـائلا: «آه! طيب!» ثم لا يلبث حتى يغـلق عينيه ويـكسر رقبـته، الحـورية المسكينة أسندته على صـدرها جالسـة بجواره، وتناولت كـوب الشاى وقـربتـه منه، فإذا هو قـد هوى واستـوى ممددا على الكنبـة.. وإذا هى بكل غيظ.. وبكل قـوتها، تشـيع كوب الشاى إلى الحائط المواجه: طرأ.. ا.. ا..خ.. فـجاء الكوب إلى ستين حـتة، وانحـدر الشاى سـائلا على الحائط، تتـصاعـد منه خيـوط الدخـان، ورمت بنفســها فـوق السرير كـالذبيحـة الفطسـى، فكاد السـرير ينفرط من شـدة الرجة، وإذا بى أصـيح من شدة الغـيظ دون أن أشعـر بنفسى: «اتفوه عـليك راجل مره!». وأما المرأة فـقد دارت وجهها بيديها وانخرطت فى البكاء والنحيب.

وصارت تشد فى شعرها وتخربش وجـهها بأظافرها فى غيظ كبير، وتنتحب، كل ذلك وصاحبنا يغط فى النوم حتى هيج غيظى، ولو كان مـعى مسدس لأفـرغت فى صدره كل رصـاصه انتقـاما لهذه الولية الغلبانة المحرومة من نسيم الدنيا يا بوى.

ربك والحق صعبت الولية على، وتمزق قلبى من أجـلها فحقدت عليها وعلى الناس كلها، وغرزت مـسمارى فى الحـائط حتى المنى، ولم أكن أدرى أننى أخـذت أواسى الولـيـة قائـلا: «الله يكون فى عونك». فـإذا هى تنتفض قـاعدة على حيلهـا ناظرة نحوى ملقـية عينيـها فى عينى تشـهق ضاربة صدرها بكفـها، فلما رأتنى غـير خائف ورأسى كـاد ينحشـر بين أعواد الحديد، نزلـت عن السرير مقتـربة نحوى والغضب يطق الشـرار من عينيها، أول شئ فـعلته كان بصقة شيعتها إلى وجهى، فلم أتحرك من مكانى، فمدت يديها

بضلفتى الشباك لتغلقه، فمنعتها بأصابعى هامسا فى وجهها: «ما الداعى لكل هذا وليس يرانا الآن أحد سوى الله! وأنا شعرت نحوك بالحب وكل أملى أن أروقك آخر روقان! تعالى وأنا أطفئ نارك المشتعلة إن الله ساقنى الآن إليك لأطفئ لهيبك بدلا من هذه الجثة الهامدة!»..

كنت والله غير دار بنفسى، ولا كيف تفوهت بهذا الكلام، والذى كنت واثقا منه لحظتها أن خوفى من المعلم «صفصف» قد نزل إلى الصفر ولم يعد ذكر اسمه يرعبنى، ومع أنه لو سمعنى تلك اللحظة وأحس بوجودى، لقام ولحق بى وقطعنى إربا، فإننى كنت واثقا من أن الخمرة التى هو مغرم بشرب كل أنواعها كالسلاطة فى كأس واحد تكبس الآن على نافوخه كالجبل، ولن تحل عن صدره قبل ظهر اليوم التالى، وعموما فعلى سبيل الاحتياط فإن مطواتى قرن الغزال مبرومة فى دكة سروالى، ولا بأس من أن يكون السلاحان مشهرين معا أحدهما لك والآخر لهذه الجثة إذا تحركت.. هكذا قلت للحورية وهى تبحلق فى عينى المفنجلتين - بينى وبينك كان لى عينان ساحرتان فى شبابى - وكان من الواضح أنها بدأت تنسحر بعينى بعد كلامى، لكنها مدت ذراعيها فأمسكتا بضلفتى الشباك، فتلقفت يديها بيدى وقربتهما من فمى وصرت أنهال عليهما بالقبلات الساخنة حتى تراخت أعصاب المرأة وأشارت برأسها أن: لف من الباب، فانسحبت عن الشباك نحو الباب وقلبى فى مداسى، أكاد أفرمه ليفضحنى من الخوف. إذ

كنت على استعداد، لحظتها، لأن أطبق فى زمارة رقبه الأسد نفسه إذا حاول منعى من دخول الجنة هذه التى دعتنى الآن لولوجها بسماحة وهى على أحر من الجمر..

سمعت تكة خافتة خلف الباب انفتح بعدها ربع فتحة، فدفعت جسدى فى ظلام الفتحة وأغلقت الباب من ورائى فى رفق، وارتميت فى حضن المرآة شابطا فى خصرها بكل قوة، صرت أعضها فى كل مكان فى وجهها وأضغط عليها بكل عنفوان مجنون، إلى أن شبت النار فى عروقى، فأدرت المرأة وكسرت ظهرها وسللت مسمارى ورفعت ذيل قميصها، ودككت الحصن المنيع دكا حاميا، نزلت عزقا فى عزق، فما يكاد سن الفأس يرفع قبضة من اللحم حتى ينسد مكانها، فأعود للطعن، ثم الطعن، ثم الطعن، والدم هربان منى يا خال، حتى سخسخت المرأة بين يدى وتهاوت كعود القصب الممصوص، فما تركتها حتى نزفت روحى فوق صدرها، ثم استرحت يا خال، ولم أصدق أننى فعلت شيئا من هذا،بل كان مجرد حلم لذيذ. لكننى حين توجهت للباب خرج صوتى من تحت أكوام التراب يهمس للمرأة قائلا: «مبسوطة يا حرمة؟». هزت رأسها بابتسامة قائلة: «أراك كل يوم هنا فى ساعة كهذه؟». قلت: «يحصل لى البركة يا هانم». ووربت الباب فاندفعت خارجا أجرر ساقى وألم دماغى المبعثر النشوان، ولم يكن يدور براسى أننى أبحث عن صحابى، لكنى فوجئت بأنى قد صرت قريبا من «قهوة صفصف» بابها نازل والنور ينبعث من تحته،

فعـرفت أن بعض الزبائن ساهرين، فـنقرت على الباب بـأصابعى، فنظر الولد من خرم الباب وتعرف علىّ فرفع الباب قليلا، فانحنيت داخلا، لأجد الصحاب كلهم جالسين يندفعون صائحين: «كنت فين يا بو العم؟». جلست بينهم قائـلا: «أحوجتنى الضرورة للقـرفصة ورفع الثيـاب فى ظلام الخلاء». فضــحكوا، وطلبت شايا وعـشرة حـجارة عـلى حســابى.. وكـان يخـيل إلى أن أحـدًا من صـبيـان «صفـصف»، وربما «صفصف» نفســه لن يستطيع فتح عـينيه فى وجهى بعد الآن.

الثامنة ـ ليلة البلول السكر

بنى آدم منا ليس أجبن منه فى الدنيا والله يا بوى، وإلا فمن كان يتخيل أننى أكف عن الذهاب إلى غرفة «صفصف» حيث تنتظرنى حورية سخنة شاربة من آبار العسل والسمن، فى الأول قلت إنه الشيطان الرجيم والواجب على أن أفقأ عينيه وأطرده من دماغى إذا كنت أنوى الاستقامة والمشى فى الحياة بالحد والمصلحة، وحقيقة الأمر يا بوى أننى كنت خائفا من جنون المعلم «صفصف»، الذى إن إمسكنى متلبسا فمصيرى الموت تمزيقا بالمطواة ويضيع دمى هدرًا، وكلما فكرت فى ذلك الذى حدث منى ترتعب روحى وتنكمش فى صدرى ويرتجف بدنى، ويجيئنى اعتقاد بأن الذى فعل ذلك الفعل الجرئ شخص سواى لا أعرف عنه شيئا، لكننى يابوى لا أقدر على دفع هذا الفكر عنى، حتى تخليت من شدة الخوف والارتعاش الدائمين أن «صفصف» قد بات يعرف كل شئ، وأنه يدبر لى تدبيرا حكيما ينهى به حياتى وحياة حرمته الفاجرة، فصرت والله أهرب من «قهوة صفصف». ولو كان الود ودى ما عتبتها قط، صار الخوف والرعب يهيآن لى

تصاوير عجيبة كلما نظـرت فى وجهه ـ وجه صفصف ـ إذ يخيل إلى أنه قـرفان منى لا يطيق رؤيتــى، لهذا لم أكن أترك عـينى تقع فى عينيه أبدًا.

إلى أن سحـبنى الولد «هندى» من ذراعى وانزوى بى فى ركن من الحـارة وقال: «يـظهر أن المعلـم صفـصف زعـلان منك! زعل خفـيف يعنى!». قلبى يا بوى وقع بين ســاقى ضئـيلا كـعود من الحطب والله يا خـال. بصقت فى عـبى من الرعدة، قلت: «خـير يا رب! اللهم اجعله خـيرا!». ضحك الملعون «هندى» وهددنى بـحركة من يده وقــال: «المعلم صفـصف كلمنا بالأمس عنك حينمــا ذهبت تفعل مـثلما تفعل الناس!». جئت بصــوتى من بين ساقى مهـيضا وقلت: «ماذا قــال يا بوى؟». قال «هندى»: »يقـول إنه مندهش من نظرة فى عينيـك بدأت تظهر له وهى تشبــه نظرة الإحتقــار! كأنك من غيـر مؤاخـذة لا تـحترمــه!». ثم ضحك «هندى» فـضحكت أنا الآخر مـتنفسا الهواء، لكننــى سمعت صوتا بصـدرى يقول: آه يا حسن هذه هى العلة والبلوى فماذا تفعل فى عينيك؟! الأوفق لك ألا تجئ هذه القهوة وإن جئتها فلا تنظر فى عينى «صفصف» أبدًا.

ليلتهــا كنا متــواعدين على سرقــة دكان «حــاج لولى». وكانت العتلة المطلوبة موجـودة تحت ثيابى تضايقنى تمنعنى من الجلوس والشرب براحتى، كنت أشتريها اليوم من وكالة البلح كما نصحنى «غزولى». وكان طولها ذراعا، فلمــا انصرف «صفصف» إلى حال سبيله فى أول السهـرة.قلت: وعرفت أنه هو الذى يضايقنى وليس

العتلة الحديد النعنشة ركبتني في الحال فصرت أضحك بصوت عال، على الفاضي والمليان، لكي أمنع دماغي من الوقوف عند الذي سنفعله الليلة بعد ساعة زمن، إذ كلما هوب دماغي نحوها ركبني الرعب يا خال، وتحول عود الحديد من مكانه إلى مكان آخر في جسدي لا يطيق مسمارًا علّه يطيق عتلة كهذه، صرت أتمنى أن نقوم ونعجل بالفعل حتى نخلص أو أتخلص أنا من عود الحديد اللاهب، لكن صوتا يشبه صوت أبي قال لي: اعقل يا ولد وخليك ثقيلا راسيا، إذ نزلت في بحر كهذا فلا ترمي بنفسك من الضيق في قلب الماء حتى لو كنت عالما بالسباحة، بل انتظر حتى يرسو بك القارب على شط، حتى ولو كان هذا القارب قطعة صغيرة من الخشب، لا تنزل إلا على بر، وفي الحال وجعتني نفس الزغدة التي كان يزغدها لي في جنبي كلما اضطررته للخروج عن صبره والإدلاء بنصيحة كبيرة كهذه، فاقشعر بدني، وانتفضت متوجعا، فضحك الأولاد كلهم من فزعتي هذه مع أنني غطيتها بـ وحد الله، قالوا ساخرين إنني ـ قد اتضح الآن ـ أركب الهواء، فلأكن ما يظنون وما يشتهون فليس على الكلام جمارك، وكل واحد يقول ما يعجبه، «غزولي» قال للحاج «السني» ما يعجبه، والحاج «السني» يفعل ما يعجبه و «صفصف» كذلك يفعل ما يعجبه وحتى حوريته المصونة هي الأخرى تفعل ما يعجبها، فكيف لي يا بوي أن أحاسب أحدا على ما يقول أو يفعل؟! إذا كان أحد لا يحاسبنا على ما نفعل؟ أنا وهؤلاء الولد نفعل ما نفعل من شدة العوز، ومن غير

حيـاء تفعل حورية صفـصف المصونة، إذ ما أشـد عوزها لشئ لا يستطـيع المال أو الذهب أن يعطيه لهـا، أما الحاج «السنـى» فلماذا يفعل ما يفعل يا خال؟ هذا هو الوحـيد الذى يفعل ما يفعل لأنه لم يجد مـن يحاسبـه، لأن الذين فى يدهم أمـر الحساب لا يشـغلون أنفســهم إلا بنا يا خال، نحن الغلابـة الذين يحبســهم القانون بدلا من المجرمـين العتاة. العـدل فى بلدنا يضرب تعظيم سـلام للحاج «السنى» وأمثاله أما نحن فيضربوننا بالصرم القديمة على دماغنا وبالشلوت فى مـؤخراتنا يبـصقـون فى وجوهنا، ألا قـاتلهم الله، اللهم أعم أبصـارهم عـنا وأنزل على سـمـعـهم وعلى أبصـارهم غشـاوة حتى نجـهز على رسمـال ذلك الرجل الأريب الذى ينصب عليك سبحانك ويؤكلك الأونطة بذقن وَزَبِيبـة صلاة كورقة الدمغة يستغفل بها الناس ويستلبهم.

نهض «غزولى» قـائلا: «بنا؟». نهضنا فى الحـال ونحن نقول: «ع الظالم». حاسـبنا القهوجى، وتسـرسبنا خارجـين واحدا وراء الآخر، حيث كانت العربة التى سـرقها «هندى» من جراج بعيد من مدينة نصـر، واقفة فى حارة أخـرى من حوارى الجيـارة المظلمة، كانت تشبه عربة الشرطة المسماة بالبوكس فورد الزرقاء..

يخـرب بيتـك يا هندى» يا ابن الكلب، كـيف عثـرت على عـين المرام؟ قـال: اركبـوا، وجلس إلى عجلة القـيادة وأدار المحـرك فى الحال فـإذا صوته هاديً وناعم فاسـترحنا لذلك وقلنا: كـفاك هذا اليوم يا «هـندى» لتقعـد ناعم البال ونقـوم نحن بكل شـىء، ثم إن

العـربة خَرمت فى الحـوارى المظلمة على مـهل شديد، حـودت من أضيق الحودايات، بدربة وحكمـة لا يتأتيان إلا من «هندى» شارب الحشـيش البريمو والأفـيون الصافى، ولقـد تمكن من ركن العربة أمام الدكان مباشرة، فسد الشارع وصنع دورة للفاعلين.

نط «غزولى» على الأرض فلم نسـمع له صوتا، فقـفزت وراءه، وهبط إلى الأرض قاعـدا على قرافيـصه، سرب سن الـعتلة المبطط المدبب وحشره بيـن الجدار ،والضلع الخشبى للبـاب، وظل يحشر ويحشر ويفرز الخشب، إلى أن دخلت العـتلة حتى ربعها، ثم عدل نفسه مثـبتا مؤخرته فى الأرض جاذبا العتـلة نحو صدره بكل ما فيـه من قوة، وصـوت الخشـب يطقطق، والضلع يسفـسف ترابا كثـيرا، حتـى نجح «غزولى» فى فصل الضلـع عن الجدار من هذه الناحية، فانتقل إلى الناحيـة الأخرى وفعل نفس الفعل وحقق نفس النجاح، فأعجبنى هذا الولد يا بوى ثم إنه صدّر العتلة بالطول فيما بين الجـدار والضلع، فـارتفـع البـاب كله بضلعـه مـوسـعـا من الناحـيتين حـارة يُزْرق منها رجل بكل سـهولة، وكنت قـد خلعت خلقانى وصرت بالفانلة والسروال، وكان «بربش» هو الآخر لابسا عفريته زرقاء.

زرقت داخلا يا خال، وبعدها بسملت مسـتعيذا بالله من الظلمة لكننى كنت أعرف مكان زر النور، فزحفت متـحسسا جسد الظلام حتى أدركـته فلمسـته فانبـعث الضياء ووضح كل شئ، فـسحب «غزولى» العتلة تاركا الباب يهـبط على صدغه، صعد «بربش» فى

الحـال إلى سطح البنك فنزل أمـام الحـصـالة فانتـزع من جـيب سحـرى فى العفريتـة مطواة أخذ يعكرش بها فى درج الحـصالة حتى فتـحه ووقف يرقص وينظر متلصـصا حتى خبلنى، فـقفزت إلى جواره ونظرت، فهالنى منظر النقـود يا بوى، بسرعة أخرجت منديلى المحلاوى، فردته على البنك، صرت أغترف الرزم المؤستكة وأرص على المنديل أكـواما أكوامـا، حتى عقـدت أطرافه بصـعوبة شديدة، وجعلت أحشر الباقى فى كـل جيوبى، ثم إننى قفزت نحو الباب، فدفعته بيدى، وسربت المنديل إلى «غزولى» فجذبه، بسرعة شديدة، أشار لى «بربش» على جوال فارغ، أمسكته فتحته، صرنا نقذف فيه بكل علب السجائـر والدخان والشاى والصابون الفاخر والسردين والسلمـون والبولوبيف وكل مـا على الرفوف من علب وصناديق أفـرغناه فـى عـدة أجولـة، حـتى خلت الرفـوف تمامـا وظهرت الحـائط كمنديل مـحلاوى لم يتـوسخ إلا فى خطوط هذه المربعات الغـامقة، صـرت أعقد الأجـولة وأسربهـا من تحت الباب فيـتلقفـها «غـزولى» ويرصهـا فى صندوق العربة بـدون صوت، اسـتدرنا إلى صنف من العلب الـكرتونية المبـرشمـة بورق لاصق سميك، اختـرقنا بعضها بسن المطواة فوجدناهـا تحوى قمر الدين والتيـن والزبيب.. فصـار «بربش» يقذف لى بالواحـدة فأسـربها بحـذر من تحت عقب البـاب لـ «غزولى»، فـيرمى بهـا لـ «هندى» الذى يرصهـا فى أرض العربة، هكذا حـتى أتينا على تلال كبـيرة نقلت بكاملها إلى الـعربة، تعثرنا فى حـارة من الصفائح الكبـيرة

مـرتصة بجـانب وفـوق بعضــهـا، كنت أعـرف أنها ســمن وجبن وزيتون، كانت أكثر من أربعين صفـيحة حولناها كلها إلى العربة، ثم إننا اسـتـدرنا إلى صنف من الأجـولة المفـتـوحـة تمتلئ بسكر وعدس وأرز ومكرونة وفاصوليا وبازلاء، وأخرى تمتلئ بأصناف العطارة من فلفل وكـمون وشــيح وحناء، كل هذا صُـعب علينا أن نتركه، فصرنا نحزم الجـوال ونعقده ونسربه، إلى أن فرغ الدكان إلا من براميـل زيت كبـيرة لا نسـتطيع حملهـا أو دحرجـتهـا من الباب، بعد ذلك دفـعت الباب وخرجت، ومن ورائى، «بربش»، الذى حـرص على أن يطفئ النور. كـانت العربة دائـرة، فتـمددت فـوق البضاعة وانطلقت العربة تشق طريقها كالثعبان إلى أن خرجت من الحوارى وإتخذت الطريق الطوالى نحو شادر الحاج السنى.

حاجة تـهوس يا بوى. الحاج السنى ثانية؟! الحـديد وقلنا يقدر على تسويقه، فكيف يـقدر على تسويق هذه التشكيلة العجـيبة من البضائع؟! فلمـا رأيت من حولى أشباها كثيـرة لها قلت لنفسى. لا تستـغرب يا ولد، وانبـريت أرفعَ البضـاعة وأرصـها على الأرض، يشاركنى «غـزولى» و«هندى» و«بربش» كلهم ملهوجين، عـيونهم لائذة ببجيوبى، وعيـوننا كلنا لائذة بصرة المنديل البارزة فى عب «غزولى». فلما فرغنا نظرنا فى الحمولة فوجدناها سمينة يا بوى، فابتـسمت عيوننا لبـعضها البـعض، ونظر «غزولى» إلى «هندى»، وقـال: «أنت وبربش تتخـلصان من العـربة، ورسم لهـما طريقـة التـخلص منـهـا: «هندى» يركب العـربة ويمـضى يتـلكأ بهـا فى

الطريق، حتى ينجح «بربش» فى إيقاف عربة أجرة خالية من الزبائن، فيركبها قائلا للسائق: على طول يا أسطى، فيمضى السائق فى نفس الطريق، ويظل سائق الأجرة ماضيا طالما عربة «هندى» ماضية، إلى أن يجد «هندى» حارة مناسبة فى حى بعيد فيركن العربة فيها بكل عناية وينزل منها ويغلقها ثم يمضى لحال سبيله كأنه صاحبها سيعود ليركبها بعد قليل، فى هذه الأثناء تكون العربة الأجرة قد وصلت بالقرب من هذه الحارة، ويطلب «بربش» من السائق أن ينتظر برهة حتى يتأكد من عنوان، ويستخرج من جيبه ورقة فيقرؤها وينزل فينظر فى أرقام بعض البيوت ويترقب أى شخص ليسأله عن أى عنوان وهمى، حتى يكون «هندى» قد خرج من الحارة ماشيا على قدميه فيتقدم منه «بربش» ليسأله عن العنوان الوهمى فيخبره «هندى» أن العنوان فيه خطأ، ثم يتركه ويسأل سائق الأجرة إن كان يوصله لمصر عتيقة، فيقول له «بربش» أن طريقه العودة إلى مصر عتيقة، ويرجعان معا.

تحلف اليمين يا بوى أن هذا كله تم فى ثلث ساعة زمن مادخنا سيجارتين، وكان «غزولى» صاحيا فلم يدعنى أفلت من بين يديه برهة واحدة، وكنت صاحيا للمنديل فى عبه فلم تفلت حركة يديه من عينى برهة واحدة وكنت لا أدعه يضع يده فى جيبه قط إلا وراقبت حركتها، فلما وصل كل من «هندى» و«بربش» اقتربا منا قائلين فى نفس واحد: ما الحال؟ تذكرنا أننا أرسلنا خفير الشادر

ينادى الحـاج السنى من لحظة وصـولنا فـذهب ولم يـعد، فـقـال «هندى» متـفاخرا: «ذهبنا إلى روض الفرج وعـدنا وذهب المرسال مسافـة خطوتين فلم يعد!».. فإذا بصوت الخفـير يدهمنا من خلف ظهورنا: «ومن أدراك أنى لم أعد يا بقف؟!». ما هذا يا بوى؟ نظرنا خلفنا بعـد أن بصـقنا فى عـبنا من الرعب، صـحنا: «كـيف هذا يا بوالعم؟ ذهبت تنـادى الحاج فـعـدت فى السـر ولم ترد علينا؟!». وكان حـضرته جـالسا على باب خُـصُّه فى الظلام يرقـبنا ويرانا دون أن نراه، ثم إنه مـا صدق أن كـشف عن نفـسـه حتى أشـعل سيجارة وقال وهو ينفث دخانها ببرود ساخر، «تظنون أننى طول هذا الوقت عنـد الحـاج؟! إن عـدوكم أهبل! إننى لا أعـطى ظهـرى لواحـد يدخل هنا ولو كـانت زبيبـة الصـلاة فى جبـينه أطول من لحيته! هل يتـصور عدوكم الأهبل أننى أترككم أنتم بالذات كل هذا الوقت وحدكم! وأنا أعرف من أنتم؟!..

ثم انفجر ضاكحا كقصف الرعود، ومسح على شواربه الطويلة أثار الضحك وقال: «لا تنتظروا الحاج قبل صلاة الفجر! فإنه وهو قـائم يصلى يلاقـيكم فى الطريق! وسـوف يمـهلكم بالطبع حـتى يصلى فى جامع عمرو ابن العاص ويعود!». وجدنا كلامه صـحيحا فجلسنا فوق الـصفائح والأجولة نتسلى بأكل الـزبيب وقمر الدين والتين المجفف حتى صاح الخفير: «أمـا تبعثوا شيئا مما تأكلون؟». فقـال «غزولى» ملوحا بيـده: « ما خدمـتنا خدمـة تستحق عليـها شيـئا». وقال «بربش» ليكسـبه: « وأنت أما تسـتطيع المجئ لتأكل

معنا؟»، فانبرى «هندى» يسأل الخفير :»لديك رغفان؟». قال: «عندى». قلنا جميعا: «هاتها وتعال». وزحزح «هندى» بعض الصفائح وانتقى واحدة مفتوحة وقال: «هات معك طبقا» أتى الخفير من داخل الخص بطبق كبير من الألومنيوم وأربع رغفان كبيرة بعرض المطرحة مما تخبزه زوجه الصعيدية فى فرن تقيمه لها خلف الشادر من ناحية المقابر، تخبزه لا لتأكله فحسب، بل لتبيعه للفواعلية الصعايدة والأفندية الذين يحششون فى غرز بين المقابر.

فتح «هندى» صحيفة ودب يده فيها فأخرجها بخرطة جبن تزيد عن أقة، وضعها فى الطبق، وفتح صفيحة أخرى فأخرج حفانا كبيرا من الزيتون الأسود، دلقه فى الطبق فوق قطعة الجبن قائلا: باسم الله كان منظر الجبن لامعا براقا وطعمه سائغا، فأكلنا خرطتين كبيرتين وجعبة زيتون وستة أرغفة، وكافأنا الخفير على أرغفته ببقية صحيفة الجبن المفتوحة فكاد يجن من الفرح والدهشة، لم يصدقنا إلا بعد أن تاواها فى خصه وعاد.

أعوذ بالله من قولة أنا معجب بمنظر الفرحة إعجابى بالفرح نفسه، أى والله يا بوى، إن الفرح عندى هو منظر الفرحة على وجه أحد من الناس لا سيما إذا كنت أنا الذى تسبب فيها، فلما رأيت الفرحة بصفيحة الجبن كبيرة على وجه الخفير اللئيم وعرفت أنه سيبقى شهرا بطولة لا يشترى جبنا من الدكان فرحت لفرحته وجئت بالعلب الكرتونية المفتوحة وجسستها فوجدت ما

فيهـا قليلا، ففرطت كـل ما كان فيهـا من زبيب وتين ومشمـشية وقمر الدين، فـملأ علبة واحدة لتـمها ، فأعطيـتها للخفـير قائلا له على سـبيل التـفكة: «إملأ لنا سلـطانية من بلولهـا!». فاحـتضنهـا الخفـير، وبقفـزة واحدة صار فى الخص، بعـدها سمـعنا عكرشة داخل الخص، أدركنا منها أنه يخفى هذه الغنيمة حتى يوزعها على أولاده بالعدل والقسطاس، وقال «غـزولى» فى تريقة نواتها صدق حقيقى: «طول عمرك لم تذق الياميش يا سنطاوى! فادع للذين بلوا ريقك به!»..

ظهر «سنطاوى» الخفير ممسكا بحلة صغـيرة، والبندقية معلقة فى كـتفـه، وهو مـحنى القـامة، يقـول : «يا مـيش يعنى إيه يا بو العم؟!».

ضحكنا يا بوى، شخرنا رغما عنا، فانزعج «سنطاوى» وسحب البندقية علينا صائحا: «الدار فيها حريم يا ولد الفرطوس! فأحتشم أنت وهو!». ثم أرجع البندقية إلى كتفه، وعاد يسأل : «يا ميش إيه اللى كنت عـمتـقول عليـه ده يا بو العم؟!». فقـال «هندى»: «يعنى الزبيب والقمر الدين والتين والخـير اللى انت رقعته دلوقت».. رفع الخفير أنفه ومسح شـاربيه وصاح فى استكشـاف: «ها..آ..ه.. بقى كده يـا بوى.. اسمـه يا ميش طب عـال.. آدى كلمة جـديدة أتمقلت بيها على الولية اللى فاكرانى مـا عفهمش!». وصار يؤتى بحركات راقصة علامـة على فرحه واغتباطه، فلمـا ترقص شعرنا أن الحلة ثقيلة فى يديه وهو يهزها ويبـرمها فى الهواء، وصوت خـشخشة

ورقرقـة ينبعث منهـا، ثم أقتـرب، فظهر أن الحلة مـلآنة بالزبيب والقمر الدين لتمها، وهو يفرك فيـها بملعقة كبيرة ثم يذوق شفطة صغيـرة ويتلمظ مرقصـا شاربيه، وسلم الحلة والملعقـة لى قائلا: «خذ نصيبك وكلك نظر!». فأمـسكت بالحلة والملعقة وصرت أطوح فى فمى زبيبا وتينا، ورأيت المعلقة لا تسـعفنى فى الشرب فرفعت الحلة إلى فـمى وشفطت نفـسين مـضبـوطين ثم سلمت الحلة لـ «غزولى»، ففعل مثلما فـعلت، وسلمها لـ «هندى»، ففعل هو الآخر ثم سلمها لـ «بربش» فأتى على ما فـيها فى شفطتين، وهنا صاح الخفير فى ذعر، «مانابى»، شوح له: «مـا تبقاش طماع!» فاختطف الخفير الحلة بغيظ، وغاب فى الخص يعكرش، فبان أنه يبل لنفسه كـميـة أخرى، وفـعلا يا بوى، ظهـر ممسكا بالحلة يديرها ليـذيب سكرها وهو واقف علـى باب الخص علامـة أنه سـينفـرد بالحلة وحده، وصـار يشفط ويمـضـغ قائلا فـى غبطة: «قـبل ما العـيال يصحـوا وأروح بلاش». قال «بربش» للخفـير وهو مستـغرب من فـجعـتـه: «الحاج السنـى لم يؤكلك حاجـات من هذه أبدا؟!. قـال الخفير وقد نضحت فى صوته فـرشة صدق: «عمره ما فعلها رغم اننى أشتـريتهـا له من الدكان كـما أشتـرى خضار الـسلاطة فى رمضـان! أخرطهـا وأضعـها مع البلول فى المـشربية لحـين أذان المغرب! فلا يفكر المديوب فى أن يرسل لنا مـا تبقى منه! تعرف يا بوالعم؟ مرة أحبـبت أن أقلده فاشتريت خضار سـلاطة وخرطتها وحضرتهـا لنفسى! وحين صلى هو المغرب فى عـمرو بن العاص

وجاء يجرى! فات من أمـامى ونحن نفطر أمام الخص فاندهش يا بو العم من طبق السـلاطة! وبعد أن مـضى خطوة رجع ونظر فى طبق السـلاطة وفى عينيـه نار تقول لى: من أين لك بهـذا الطبق؟ لابد أنك سرقته أو سمسرته من البـضاعة وأنت تشتريها! المهم يا بو العم حـرمت من يومهـا أن أشتـرى له شيـئا أو أخـرط شيـئا! اكتـفيـت بالخفـارة وحدها!!». علّق «هندى» قـائلا: «هو بصراحـة رجل لا يسـتحـق البل! ربما استـحق التـخـريط!». قال «غـزولى» مشـعلا سيـجارة: «لأوذقنة وشواربه مـثل الجرجيـر تبقى حلوة تفـتح النفس للأكل!». رمى الخـفـيـر بالحلة على طول ذراعـه فى الخص وشـوح بقـرف: « يا بوى هو رجل طعـمـه مـزز يصـد النفس!». واقترب نحـونا مهرولا: «هاتوا سيـجارة». لا أعرف لماذا أسرعت يدى فأخـرجت له علبة سجائر وينجـز كبيرة أعطيـتها له قائلا: «حلال عليك يا عم!». فاحـتج «غزولى» صائحا ولكن بمزاح: «وهذا ليس مال أبيك تفنجر منه!». وقـال «بربش»مقلدا الصعايده: »اللى يفندر يفندر من جيبه»، فصـاح الخفير وهو يدس العلبة فى جـيب البـالطو المتـرهل كالجـوال: »ربنا يجـعل جـيـوب المؤمنين عمارًا!». ثـم تدقلج حتى الخص، فتقـرفص على بابه وصار يدخن فى استمتاع.

الفجـر قال: الله أكبـر، وسمعنا ترباس البـوابة من الداخل يتك بشدة، وصـوت باب صغيـر فى وسطها ينفـتح ويدلف منه الحاج السنى كشبح أبيض فى أبيض، تتدلى من يده مسبحة طويلة، وهو

يبســمل ويحوقل إلى أن حــاذانا فلم تبـد عليه الدهشــة من وجود ناس غرباء فى شادره وأمام بوابة داره، بل اكـتفى بأن فات رافعا كفـه بحـذاء أذنه قائلا: الســلام عليكم، ومضـى غـير عـابئ بردنا عليه..

دخل الصـبح علينا من خلل مشـمع السرادق عـند كبـسولات الحبال المربوطة، وظهرت من الباب عباءته الزرقاء الغامقة المبيضة قليلا، وظهرت من بعيد أصوات أقـدام وهمهمة المصلين الخارجين من جامع عمرو بن العاص، سمعنا صوت الحاج السنى فى الخلاء يتكلم مع بعـض الناس فى أمور الـدين والمواعظ وختـام الصــلاة وكيف تكون،فحسدته والله على طول باله، وخفت أن يجره الكلام فيأتى معه بأحد يرانا على هذا الوضـع فتكون بداية الفضيحة لكنه أخيرا دخل يبســمل فلما اقترب منا قال: «صـباح الخير يا أولاد!». ثم أخذ يجس العلب الكرتونية والصفائح والأجولة، بسرعة امسك «غزولى» بالجوال الـكبير ودلق ما فيـه فوق الأرض، ونقض علب السـجائـر كلها فكومـتـهـا على جنب قــائلا: «هذه لنا سنفـرقهـا علينا!».وأزاح بقية محتـويات الجوال نحو الحاج السنى، الذى مال عليها وفحصها فحصا جيدا، ثم عاد ففتح كل الأجولة، وفحص ما فيــها، ثم ســمى بالله الرحمن الرحـيم وأخرج من سيـالته دفـترا مطويا بالطول، نـزع من قلبه الـقلم الكوبيـا، واتجه نحـو الميـزان المتربع قرب بوابة الدار، تبعناه نجرجر الأجولة والصفائح والعلب ونضعها على طبلية الميزان، والحاج يزن ويدون فى الدفتر، ويضع

أمام الأرقـام أرقاما وعـلامات، ويطرح ويجمع ويضـرب ويقسم، وفى النهاية قـال: «هذه البيعـة كلها فى رقاب بعـضها بثـلاثمائة جنيه ولا مليم فـوقها! وأنا ونصيـبى فيهـا! فإنها بضاعـة خاملة تمكث شهورا طويلـة! يعنى أن الثلاثمائة الجنيه فى جـيبى أحسن من بضـاعـتكم هذه فى مكتـبى! لـكننى وحق صـلاتى لا أريد أن أكسفكم لكن قولوا لى من أين جئتم بهـا؟!». فقال «غزولى» كلاما متناثرا مـعناه أن هذه البضاعة تخص جـماعة من البمـبوطية ممن أصدقائه وقد قصدوه فى بيعهـا لحسابهم وهنا قال الحاج: «طبعا هم يسرقونهـا من السفن العابرة أو الواقفـة!». قال «غزولى»: «لا وأنت الصـادق هم يأخـذونها عـلى سبـيل الهـبـات من أصحـاب المراكب، بالمراكب المحـملة بالتـمـر تعطى تمرا! والمحـملة بالبـصل تعطى بصـلا! وكلهـا تعطى علب السـجـائر! وهم يجـمعـون هذه الهبات إلى أن تصـبح كميات صـالحة للبيع فيكلفـون واحدًا مثلى ببيعها!».

كانـت فى عينى الحـاج السنى نظرة بعيـدة الغور تقـول بالفم المليـان أن كلام «غـزولى» المسوى هذا رغم مـعقـوليتـه لم يدخل دمـاغه ولم يـأكل منه بمليم. ومع ذلك قـال: «على بركـة الله! على بركة الله!». كذلك كانت عين «غزولى» تقول بالمفتشر إنه يعرف أن الحـاج «السنى» لم يصـدق من كلامـه حرفـا، ومع ذلك رد عليـه قـائلا: «كله من فضل الله! كلـه من فضل الله!». كـدنا ننفجـر من الضحك يا بوى، لأن «غـزولى» لحظتهـا كان يتكلم بصوت وهيـئة

الناس الأتقياء الذين لابد أن تصدقهم، حتى أن الحاج «السنى» نظر إليه من تحت نظرة مذهولة متشككة، فسرًها العبد لله!». بأن الحاج كاد يصدق «غزولى» فحدثت له هذه الهزة إلا أن الحاج طوى نظرته وأخرج من سيالته رزمة النقود المطوية، فتحها بين أصابعه وصار يعد العشرات المجمدة حتى عد ثلاثين منها طواها وقدمها لـ «غزولى» وهو يتناول النقود: «كام دول؟». فقال الحاج وهو يمضى خطوة ثم يتوقف: «أنا ما أبغى وجع الدماغ! هذا هو الجمل وهذا هو الجمال! لا تضيعوا النوم من عينى!». قال «بربش» وهو يشير إلينا بالنهوض للانصراف: «خلاص! نعوضها فى بيعة أخرى! ليلتك فل يا حاج!».

مضينا نترنح فى الطريق مثل السكارى، وكانت علب السجائر مصرورة فى خرقة قديمة استلفناها من «سنطاوى» الخفير، قال «هندى» فى حسم:«نذهب إلى بيتى»، لم نرد، لكننا حودنا تلقائيا نحو بيته، تلك الحجرة الكائنة فى حارة من الحوارى المزنوقة تحت بوابة من بوابات مجرى العيون، افترشنا الأرض يا خال، ونفض كل منا جيوبه يا خال: بربش وغزولى وأنا.. فإذا أمامنا كومة من النقود كأننا البنك الأهلى، أحصيناها فوجدنا ثلاثة آلاف جنيه ومائتين، نحينا المائتين جانبا ووزعنا الباقى علينا بالعدل والقسطاط، وكذا فعلنا بالسجائر، وبقينا مسندين ظهورنا للحائط كالملوك الأكاسرة، وقال «غزولى» وهو يطوى المائتى الجنيه الباقية: «هذه لابد أن نفنطز بها اليوم فهيا نبدأ بالإفطار». قلنا:

«وجب»، وقمنا فنزلنا وقد نفى النوم من دماغنا وتفنجلت عيوننا بالفوقان، وكانت الشمس في انتظارنا حمراء ذهبية وشكلها غاضب ونحن غير قادرين على النظر فيها، فمشينا حتى باب اللوق، أفطرنا فولا وطعمية عند الدمياطى، ثم عدنا إلى قهوة «صفصف» حيث طرقعنا حوالى مائتى حجر، وكانت الظهيرة قد عمت الكون فقال «غزولى»: «ما رأيكم الآن فى الغداء كبابا عند أبى شقرة؟». قلنا: «مثل الناس الطيبين؟». قال: «نعم!». قلنا: «إلى هناك نسير حالا!». كنا أول من دخل المحل يومها، فحالا جاءت السلاطات التى قلبك يحبها، وانزل يا ولد حتتك بتتك، كل منا رقع كليو كباب وكفته وحمدنا الله على ذلك، وكل ذلك لم يتكلف أكثر من خمسين جنيها عشنا بها بكوات وباشوات لمدة خمس ساعات.

قلت لـ «غزولى»: «كفانا هذا ووزع بقية المبلغ علينا بالتساوى». فقال «بربش»: «يستحسن! إذا إننا لابد أن نختفى من المنطقة كلها شهرا على الأقل لانظهر مجتمعين أبدا!». قال «بسبوسة» ملوحا بكفه المتختخة: «أنا مسافر إلى دمياط غدا لشراء جهاز عروسة!» قلنا جميعا: «لمن يا بسبوسة؟!». قال باسما: «لى!». صحنا فيه باحتجاج «أنت متزوج منذ مدة يا ولد! تتزوج ثانية؟!». قال محتجا على احتجاجنا:» «ما غلطت يا أسيادنا! العروس هى زوجتى بعينها! بنت الناس تزوجتها على حصيرة وكانت راضية! فيكرمنا الله ونقل أصلنا معها؟ حلفت ألا أجهز لها

عفشها إلا من دمياط مثل بنات الناس الأكابر!». شوحنا قائلين: «حلال عليك يا عم!». وقال «بربش» كأنه يكلم نفسه: سأسافر غدا إلى الإسكندرية يومين أو ثلاثة». قال «غزولى» كأنه يرد عليه وحده:«وأنا سأدخل زوجتى مستشفى الدمرداش لتجرى عملية من أجل الخلفة عسى أن يكرمنا الله بولد أو حتى بنت تحفظ نسلنا!». قلت: »معك الأن مبلغ ينفعك فى العملية آخر فل!». قال: »إنه من حسن حظ الولية الغلبانة! ربنا أكرمنا بهذه الشغلة! ولولاها ما حلمت الولية بإجراء هذه العملية أبدا!». ـ وكان صوته فى منتهى الطيبة والله يا بوى، ثم إنه وزع المبلغ الباقى علينا وانصرف لا تسعه الدنيا من الفرح، فدعونا له بنجاح العملية، وانصرف «بسبوسة» هو الآخر، فدعونا له بجهاز مستريح الثمن، ثم انصرف «بربش» فدعونا له ببحر معتدل الجو وسر هادئ المزاج، بقيت أنا و«هندى» واقفين. قال «هندى» إن النوم كابس عليه بشدة ولهذا سيذهب لينام. فقلت إننى ذاهب إلى مشوار بسيط وسوف ألحق به، ومضيت إلى مكتب البريد لأرسل لأمى أكبر حوالة بريدية تتلقاها فى حياتها. كنت أمشى منفوخ الصدر أطير طيرانا، فما أن وصلت مكتب البريد يا بوى حتى رأيت رجلى تلفان على بعضهما من دوار الخوف، تحلف اليمين أننى عجزت عن مد القدم من الأرض إلى رصيف المكتب، بعيدا عنك وعن السامعين حصل لى ما يحصل للمشلول قبل أن يصيبه المذكور والعياذ بالله بدقيقة واحدة..

رَنَّ في دماغي صوت يائس حران يقول: « بس! وقعت في غضب الله يا حلو! وها هوذا يرزؤك في جسدك عقابا سريعا على ما فعلت!». وسمعتني أرد على هذا الصوت بقولي: «لا إله إلا الله محمد رسول الله! نذرا عليّ والله يا رب إن رأفت اللحظة بحالي ولطفت بي وبأمي لتكونن الفعلة الأخيرة في حياتي وبعدها يحق لي أن أطلب رضاك ومغفرتك باقي عمري!».

سني وقتها لم يكن سن الشلل يا بوي، ولكن السهر والتعب والحشيش والخوف وأقسام الشرطة وقلة النوم كل ذلك يعطل ما كينة الجسد ولو كانت جديدة بشمعها وورق بياعها كل شيء له حدود يا بوي، وكل مرينة لها حمولتها، ركنت رأسي على شباك مكتب البريد حتى همدت الدوخة واضمحلت وعادت مكنة الجسد للشغل من جديد، ويظهر أن رايشا في معدتي أو في دماغي كان يسد منافذ الماكينة، ويعطل سيرها، وقد انزاح بعون الله وفضله، النفس أمارة بالسوء يا بوي، فيدي التي تنقطع هذه، لم يهمها الدوخة التي كنت فيها منذ برهة، فامتدت وأشعلت سيجارة في فمي الشابي أدوخ ثانية، لكنها دوخة لذيذة، وسرعان ما تنبهت فتبين لي، بجوار رصيف المكتب، ولد يقيم نصبة شاي وقهوة، فملت عليه وركنت إليه مستظرفا مكانه الفسيح تحت ظل شجرة عتيقة، على كرسي من القش جلست واضعا رجلا على رجل وطلبت فنجان قهوة على الريحة، من رائحة القهوة والولد يدلقها من الكنكة في الفنجان بدأ الفوقان؛ فما أتممت شربه حتى صرت

فى الروقان الشديد؛ واستمعت لصوت يشبه صوت أبى يرن فى دماغى قائلا: «حوالة ماذا يا عبيط يا أهطل هذه التى جئت ترسلها لأمك فى الغنايم فى كوم سعيد؟! ألا تعرف يا خائب يا صاحب النوائب أن مبلغا كهذا مع ولد شكله شكلك لابد أن يبحلق فيه الناس؛ فتصير هدفا للبحلقة حتى تتعرى من ثيابك فتنكشف عوراتك؟! وكيف بأمك،هل تراها تقدر على استلام مبلغ كهذا من طواف البريد؟! سوف يتعين عليها أن تسافر لتقبض المبلغ! حقا إن الصعيدى إن تمدن يجىء لأهله ببلوى؛ وأنت الآن تسعى لوضع يديك فى الحديد!».

رددت عليه بسحائب من دخان السيجارة قائلا: «ولكننى لا أقدر أن أمضى بهذا المبلغ فى هذه المدينة يا بو العم! إننى أعرفها إنها مدينة كافرة فاجرة! والدليل على ذلك كثرة الجوامع فى كل حارة وكثرة الحجاج وراء لافتات الدكاكين العامرة! لو ضبطوا المبلغ معى أساق أنا للشنق بتهم ارتكبها مئات الحجاج ومئات الأفندية ممن بيدهم مفاتيح المخازن وأدراج الأوراق وأبواب المصالح!»..

رَنَّ الصوت من جديد فى جدران دماغى، تحلف اليمين يا بوى تقول إننى تصدعت من رنته، التى صدمتنى ضاحكة ساخرة: «ومن قال لك أن تمضى هنا يا ابن اللبؤة؟! ما الذى يقعدك هنا بالنقود وبينك وبين النجاة بها سبع ساعات سفر لا غير فى قطار الصعيد؟!»..

هنا يا خال، تمطعت ناهضا عن نـفسـى الكسل؛ قلت: «معك حق والله يا هذا»؛ وحاسبت الولد على ثمن القهوة وفاصلته فى القرش والمليم؛ ليس بخلا والله يا خال؛ ولكن نكاية فى ولد بلدنا السابقين الأغبياء الذين ظهرت سرقـاتهم الكبيرة من غباوتهم فى المصاريف الكبيرة فى محلات اللهو واستصغار شأن النقود أمام الباعة وأهل الحرف، أما النقود الكبيرة فكانت مربوطة فى حزام حول وسطى، وليس فى جيبى سوى بضع ورقات بعشرات صاغ لزوم الصرف والمعـيـشــة والفنطزة إلى أن يـأذن الله برزق جـديد؛ وحـتى هذه الورقـات مع بضع جنيـهات وأنصـاف جنيـهات وأرباعـها كـانت مـخبـأة. مصـرورة فى منديل مربوط حـول زندى تحت الثيـاب؛ وأبحت لنفــسى حـرية التـصـرف: فى بضع شـلنات؛ وأنصـاف فرنكات من الفضـة المضلعة.

رميت نفسى للريح؛ جرجـرتنى حتى أوصلتنى حجرة «هندى» فضــربت زر جرس على البـاب فى الشارع، فنظر «هنـدى» خلسة من وراء شيش الشــباك: «ســأرمى لك المفتاح وتـدخل» صحت به قائلا: «لا تفعل! فـأنا سأخطف رجلى إلى البلد! وسأعود بمشـيئة الله بعد يومين بالكثير ثلاثة! «قال: «تعود بالسلامة»، ثم لوح بيده واختفى من الشباك؛ فاندفعت بين الحوارى الملتوية كالفأر فى شق طويل متعرج؛ فما صدقت بأنى قد امتلكت الشارع العمومى حتى شبطت فى ســيارة توصلنى إلى مـحطة الجيزة؛ لأركـب منها إلى محطـة «صدفة» على خـط أسيوط، لأكـون مع طلعة الشــمس فى كوم سعيد بالغنايم.

ورقة الناسك: تسعة
الأولة ـ ع الأصل دور

الناس أجناس يا خال؛ ومن كـانت أمه داعيـة له فى ليلة القدر، يكرمه الله بصحاب من جنس أصله طيب..

وبفـضل دعاء الوالديـن يا بوى عوضنى اللـه خيـرا فى «هليّل» صاحـبى، وبالأكثـر بعد أن تزوج أبوه «يوسف النجار» بـشقيـقتى «هندية»، تحلف اليـمين يا بـوى أننى ما وجـدت لى فى البلدة أهلا سواه؛ فدارنا مهدودة من يوم ما حلت ببلدتنا غـضبة عائلة المشير؛ ودور أعمامى قد باتت لا تستقبل إلا أولاد المدارس والمعهد والأزهر الذين هـم أنداد وزمـلاء لأولادهم وهم فى الأصـل ـ أعـمـامى وولدانهم ـ لا يسألون عنى ولا يتذكـرون أننى من دمهم، أنا الآخر ألهتنى الحـياة فلم أتعـجب فلم أسأل، ولم أسأل فـلم أتعجب. وأمى راكنة فى دار «خرابة» ضيفة معززة مكرمة.. فإلى من أذهب؟! ..

ذهبت بالطبع إلى أمى، فـفرحت بحضـورى كما فـرحت زوجة «خـرابة»، وأكـدت لى أن أمى مـسـتـريحـة فى دارهم، وأنهـا لن تبارحها حتى لو بنينا دارنا من جديد. وآه! كيف الكلام ذا يا بوى؟

قالت الولية: «مسكينة أمك يا حسن يا خوى! فمن يخدمها فى داركم وهى لوحدها؟!». قلت ضاحكا: «فهل يا ترى نترك الدار هديما ونستريح؟!» .صاحت هى وأمى معا: «فال الله ولا فالك الدار مالها ولبقاء أمك هنا؟!» . قلت: «هل أبنيها إذن!». قالت أمى بفرحة طاغية: «طبعا يا ولدى! إن أعطاك الله فابنها اليوم قبل الغد!» . قلت باسما من النشوة: «حاضر يا أم! سوف أبنى فى الحال!». وقدموا لى لقمة سريعة طرية فأكلتها جبران خاطر، وشربت الشاى وقمت. «أين تروح يا ولد؟» قالت أمى: «تبيت فى غرفة الولاد معهم طالما أنت هنا» وقالت زوجة خرابة ذلك أيضا. قلت: «لا .. أنا سأبيت عند صاحبى هليِّل حيث الوسع والراحة». قالت: «أنت وراحتك». وقالت أمى كالمعتذرة لها: «إنهما صحاب بحق وحقيق». قالت: «أعرف يا خاله». ثم إننى نثرت على الولاد كلهم عدداً كبيراً من البرايز والشلنات وأرباع الجنيهات بمنظر ذهلت منه الولية وبان فى عينيها قليل من الحسد، أما أمى فارتاعت وكادت تقع من طولها وتقطع شفتيها من العض عليهما، وعيناها تغمزان لعينى تنبيها واستغاثة بأن أكف عن هذا الجنون الذى أفعله، وقد أعماها الذهول عن حصر ما فرقته على الولاد، ولو علمت أنه اقترب من الجنيهات الخمسة لوقعت ميتة بما يسمونه السكتة القلبية فى الحال .. أمال يا بوى. إنها ولية شقيانة طول عمرها من يوم أن خلقها الله ترفع أحمال الطين وراء مليم قابع تحتها، وقد علَّم فيها الفقر وعلمها كم للقرش الأبيض من نفع عظيم فى اليوم الأسود. قلبى يرق لها والله دائما يا خال، سلمت

عليهـا وقرصت على يدها قرصــة خفيـفة أنبهـها قائلا فى حـبور وابتسام: «ولا يهـمك يا أم! فخير الله كثيـر»، وعرجت على زوجة خرابة فـسلمت عليهـا واستكثـرت لها الخـير من الله .. ومـضيت موليا نحو كوم سعيد ..

فى مدخل البلدة واجهنى فانوس مشتعل، يلقى على الأرض ظل صورته العتيقة بأضلاعها الشبيهة بشكل الكأس. توقعته، فإذا هو بالفعل: عم «صــهيب» المتـصوف، الذى يقضى نهـاره عاكـفا على العـبـادة فى خلوته وليلة مـتنقـلا بين أضـرحـة الأوليـاء فى كل البلدان، يزورهم بأكـيـاس من فاكـهة القـرآن الكريم ينثـرها على أعتـابهم ثم ينصرف. ها هو ذا يقبل نـحوى بشكله الأزلى الذى لا يتغيـر: رأسه الصغيرة المتعـصبة بمنديل رفيع أخضـر كالح، فوق بقايا طربوش مغـربى اسود احمراره، وقامتـه المديدة المحنية قليلا إلى الأمام بفعل الكهـولة والسجود والخشوع للـه، يتسربل بخَلَق مرقع تفوح منه على الدوام رائحة المسك، يتأبط مخلاة من المشمع مجهولة المحـتوى، يمسك الفانوس بيمناه، والعصـا بيسراه، يجيل بصره الحائل فى الطريق، مغمغما بصلوات وتسبيحات غامضة ..

تذكرت يـا خال أن عم «صـهـيب» هذا هو جد صـديقى «هلّيل» يعنى «يوسف النجـار» ابنه، إذ إن عم «صــهيب» كـان فى الأصل نجارا للسواقى منذ زمن بعيد مجهول. مسيت عليه فغمغم بالرد .. واتخذت طريقى إلى داره حيث يقطن صديقى «هليّل»، وفى دماغى خاطر يقول لى أن «هلّيل» مصيره سيكون كجده هذا بإذن الله، ثم ضحكت عاليا ..

الثانية ـ قلب الراعى

يا بو .. و .. و .. و .. ى على تلك الفرحة التى لقينى بها صاحبى «هلّيل»، كادت والله تنسيه عقله، فصار يهذى بكلام الشوق والحب والغربة والوحدة وصار من عناقه الطويل لى يحرم أختى ـ زوج أبيه ـ من فرصتها فى عناقى. وصرت من عناقى له أحرم نفسى من فرحة عناق أبيه. لحظة من لحظات الجنة كانت والله ياخال. بعدها نحرت السكين فراخا وبطا وحماما، وامتلأ وسط الدار بدخان كبير له رائحة مسكرة، حتى إذا ما جاء المغرب توسطنا وسط الدار على مقربة من الكوانين المشتعلة، المحاطة بحلل كثيرة، نفترش حصائر من السمار الملون، تحتنا المساند، وإذ تحلقنا الطبلية وفوقها صينية العشاء حافلة بما لذ وطاب مما حرمته فى طول الغياب، صرنا نشفط فى تتابع صوتى ونتصبب عرقا، ونضرب بالملاعق فى أكوام الفريك المكومة فى الأطباق نهدها نطوح بها فى الأفواه والجميع يفسخون الطيور المحمرة ويرمون شرائحها أمامى وفى يدى وفى فمى، وأنا لا أرد لأحد طلبا ولا أكسر له خاطرا، ومكنة الطحن شغالة على سنجة عشرة، وكلما ازدحم حلقى بوارد البلع سلكته بشفطات المرق الساخن فتنفذ التقلية فى دماغى تعمره، وفى عينى تفنجلها، وفى

عروق جسدى تزيده النصف. ولم يكن ذلك التوفيق إلا لأن نَفَس أختى ـ وهو مندوب عن نفس أمى ـ كان يعطر هذا الطعام..

ثم إن «هلّيل» دعانى لغسل يدى ولدخول الحمام بالمرة، فلم أكسفه بالطبع. وجدت فى انتظارى ثيابا نظيفة من ثياب «هلّيل» فى رائحتها نفس أختى كذلك، فلبستها على جسد نظيف، فشعرت والله كأن الروح قد ردت فى من هذه اللحظة فحسب. وكان الخلاء الرحب فى شوق إلينا، فطلعناإليه نلتقيه ويلتقينا. عند هديم دارنا وقفنا، وشرعت أكلم «هلّيل» فى موضوع بنائها، فقال: «على الأقل تقيم الجدران». شوحت بملء صدرى قائلا: «نبنيها على أحسن وضع! الخير كثير والحمد لله!» نظر فى عينى مستفهما عن آخر مدى لهذا الخير. قلت: «مستورة والحمد لله! كله من نعيمه يا هليّل يا خوى!» هز يده ليستزيد التأكيد: «تبنى بناية ! بناية !». قلت بنفس التأكيد: «طبعا بناية بناية! ودورين لو أحببت!». قال بفرحة: «إه! علي بركة الله! من غد نتوكل على الله!».

لم نكذب خبرا. الولد «هلّيل» ما أجدعه. مشوار بسيط لحد البناء فى آخر البلد، مشوار أبسط لحد بائع الطوب، فركة كعب لحد دار واحد يكرى لنا أنفارا تزيح الهديم وتفحت للحديد، بضع جنيهات نثرتها كعربون.. فوا الله ما أتى الصباح بنوره الوضاح إلا وفى دارنا أنفار تشتغل وطوب ينزل ومونة تصعد فى القصاع. بناء بالأسمنت يا ولد. أربع أيام والله يا بوى صارت الدار بعدها واقفة على أساس متين ومستورة بسقف مسلح بالحديد والبتن.

ثم بدأ شغل الخشب، فما مضـى أسبوع إلا وكانت مفاتيح الأبواب والشبـابيك في يدي. ولم يبق إلا الفرش الذي سـأشتـريه غدا من أسيوط. الناس في بلدنا كثـار يا بوي وأجرة عرقهم أرخص شيء في الدنيا، الواحـد تشتريه طول اليوم بأكله وشـربه وكسوته. لو مكث في خدمـتك حولا كامـلا ما طالبك بشيء آخر. الأشـياء هي الأخـرى كثـيرة لا تجـد من يشتـريهـا، ولكن لأن من هي عندهم يستغنون عن بيعها فهي مسجونة حتى يظهر من يبز بالقرش.

على أسيـوط سافرنـا أنا و«هليّل». فاشتـرينا عفـشا من كنب وسرير ودولاب يصلح شوارا لعـروس بنت العمدة؛ ولكنني نويت أن أجعل من دارنا دارا بحق وحقيق ذات مندرة يجتمع فيها القوم بكل احترام ومعزة، كنت ألمح في عيون «هلّيل» كلاما كبيرا يود لو ينفلت. ليلت ويعـجن معي فـيه، ليـعرف من أين جـاءتني كل هذه الثروة في زمن قليل؟! فلم أصرح له أبدا، غـير أنه لم يتركني؛ قال فيمـا نحن نشد نفسين من الحشـيش، في غرزة في مسطاح النيل: «المهم يا بوعلي أن يكون ما صـرفته على داركم فلوسـا حلالا!».. فشوحت له بيدي قائلا: «دعـك من مسـألة الحلال والحرام هذه يا خوي! فواحق مخرج الصـباح من الليل ومشرق الشمس أن البلدة كلها تعيش حـراما في حرام! وسحتا في سـحت! ونهبا في نهب! وبلطجة في بلطجة وتهليبا في تهليب! صـدقني يا خوي! حاميها حرامـيها يا خـوي! صرت أعتـقد أن الله لا يبـارك إلا في الحرام! ويحـمي أهل الحـرام ويرفع قـدرهم في الدنيـا صـحـيح أن الله

سيعذبهم في الآخرة ولكن كيف أعيش أنا فى الدنيا طاهرا من الخطيئة معدما من القوت فى نفس الوقت؟! سأفوزبالآخرة؟! مت يا حمار حتى يجيئك العليق! عقلى الصعيدى لا يفهم كيف يحرمنى الله فى الحياة من نسمة الدنيا ويمتع غيرى بالجنة؟! إنك يا هلّيل يا خوى لوشفت الحياة التى يعيشها ناس مصر المحروسة لوقعت من طولك ميتا! اسكت يا هلّيل يا خوى فقد أصبحت والله أكره الكلام فى شغلة الحرام والحلال هذه! أكره أيضا شغلة الثورة هذه ! أتمنى زوالها من الوجود! حتى أبو عبدالناصر نفسه بلدينا نفسه صرت لا أحبه! صار قلبى ينزعج كلما سمعت اسمه! دعنا يا هلّيل نعيش لنا يومين قبلما تأكلنا الذئاب! إذاً كنت تعيش بين اللصوص والحرامية فلابد أن تكون أحرف منهم حتى تعيش بينهم! عمرك رأيت جديا صغيرًا يعاشر الذئاب ويعيش فى سلام ؟! حلال ماذا وحرام ماذا يا هليّل يا خوى؟ لقد خربت الدنيا! أهل الثورة سرقوا أراضى الناس ورأسمالهم الذين لموه بعرق جبينهم ثم وزعوه على أهل لهم! وحرسوا عليه اللصوص والمغفلين ومن جاء فى ركبهم!»..

الحق لله يا بوى لم يراجعنى «هليل» فيما قلته، ظل ينظر فى وجهى ويشرب بعمق ويكتم نفس الدخان فى حلقه ليسربه من أنفه ويختزنه فى دماغه فبدا كأنه يحاول تسليك مخه ليفهم كلامى الكبير الذى قلته الآن، لكنه قال وهو يلقط بقايا النفس: «على كل حال! كن بصيرا على نفسك فى الغربة! ضع عينيك فى

وسط رأسك!». قلت: «هذا ما أنا فيه بالفعل فلا تقلق». قال : «كم صرفت حتى الآن؟». هززت يدى ورأسى مبتسما فى سعادة وقلت: «تصور يا هلّيل أن كل ما فعلناه لم يتكلف أكثر من ثلاث مئات؟! بما فى ذلك مصاريفنا ومصاريفى من ساعة ما جئت!». قال: «بركة! بركة!». قلت: «كله من خيرك يا هليل يا خوى! لولا جملك وحمارك وصحاب أبيك ما فعلنا شيئا حتى الآن». قال: الفضل فضل الله! فهل بقى معك شيء من القرشين؟». قلت باسما: «كثير يا ولد! كان مع أمى الكثير مما أرسلته لها! وسآخذ منه معى عند عودتى لمصر!». أزاح الولد لبدته علامة الانبساط وقال: «وماذا ستفعل بها ياولد؟!». قلت: «سأضعها فى دفتر التوفير» لكزنى فى جنبى قائلا: توفير ماذا يا عبيط! هاتها أشترى لك بها ماشية نربيها ونبيع ولدها ونأكل سمنها ولبنها!»..

تحلف اليمين والله يا خال أننى من فرحتى نطرت نفسى واقفا وصرت أحضنه وأقبله لأنه افتكر هذه الفكرة، قلت فى فرحة: «والله لأفعلن!». بالمصادفة كان الغد يوم سوق فى «صدفة» وهى بلدة سوقها كبير، فذهبنا إليه من الفجر واشترينا خمس رءوس صبية ورأسين وراءهما عجلين واشترينا حوالى عشر رءوس من الغنم وحمارًا ينتفع به «هلّيل» فى خدمة هذه الرءوس وأستخدمه عند وجودى فى البلد.

قلت: «يا هلّيل يا خوى أنت عليك التربية والتسمين وأنا على أن أقتسم الربح معك بالنصف وتبقى البهيمة الأصلية ملكى أنا

وحـدى!». قـال: «ياجـدع فـضك من هذا الكـلام فـلا فـرق بيننا! وسأبعث لأمك بنصيبك من الألبان كل يوم بيومه وسأكون حارسا لك على هذه الأمـانة حـتى يأذن الله لك بـالاستـقـرار النهـائى!». لحظتـها رن هذا الكلام فى دمـاغى فقلت لنفـسى: صحـيح يا ولد لماذا لا تستـقر الآن فى البلد وتبعد عن وجع الدمـاغ مادام أن الله قـد أكـرمك بدار أبهـة وبهـائم وأغنام تعـيش من ورائهـا؟! إنه لا ينقـصك الآن سوى البنت «حنة» فـأين هى الآن يا ترى؟! لكن هذا الكلام حين أدرته فى دمـاغى عصلج وأتعبنى ولم يدر بالمضـبوط فعرفت أننى غير مرحب بالبقاء فى البلدة الآن على الأقل، فالخفراء والعمـدة هنا سيـجعلونـنى سلوتهم وكلما وقع فى البلـدة حادث يجروننى إلى دوار العمدة، ولابد أنهـم يطقسون حول بنائى للدار بالبتن، وحول رأسـمالى من الماشـية الذى لابد سيـظهر، سيـقول الجميع: من أين له هذا وهو كحيت لا هنا ولاهناك؟!..

اقتنعت أن ابتعادى عن وجوههم سينسيهم أمرى وسيتركوننى فى حالـى، وعرفت كذلـك أن حياة المديـنة قد سحـرتنى وفتـحت مخى، وفيهـا متسع كبير لأن يسرق الجمـيع الجميع، ولما كان من المستحيل أن تقبض الحكومة على الجـميع فإن الجميع يعمى عينه عن الجـميع «ويطرمخ» عـليه، والأمـور ماشـيـة بالتكال، ثم إننى انقضضت على الحشيش. كالشهوان يشرب فى آخر زاده، ونفسى تطلب الحلاوة الطحينية. ضحك «هليل» قائلا: «أنت الآن لست على بعـضك فمـا الأمـر؟». وبرقت فى عـينيه نظرة خـبيثـة شـقيـة،

فتجاهلتها قائلا: «لاشيء! لا شيء». قال في خبث: «يعني ليس وراءك أي مشاوير الليلة؟!». ضحكت رغما عني وترددت، خفت إن قلت لا، أن يبقى معي ويعطلني، إذ إنني ورائي مشوار بالفعل. نظرت في عيني «هلّيل» ثانية فوجدت فيهما كلاما وحديثا، وقال: «ألم تشبع في مصر من هذه الشغلة؟». انفجرت ضاحكا، وتذكرت أن «هليل» يعرف أنني الليلة على موعد مع «كاملة»، حيث إنه شاهدني وأنا أكلمها، وسمعها وهي تتواعد معي أثناء وقوفنا في السوق على جنب.

«كاملة» هذه يا بوي امرأة فاتنة تلهي الشيخ عن صلاته لو مرت صورتها في دماغه أثناء الصلاة. هي مشهورة في البلدة كلها بالجمال والدلال وحسن الوصال. وربما كان في البلدة أجمل منها، ولكن الفقر وحده هو الذي أبرز جمال «كاملة» للجميع، فليس عندها سوى جلباب واحد ممزق عند صدرها فتظهر نهودها مثل شهدتين من كوز العسل يتمنى المرء أن يقرمها بأسنانه حتى يشبع. الجلباب ضيق من الوسط من كثرة ما خيطت رقعه، فظهر لها خصر نحيل وكفل مثل كثيب تحت قضيب، وقد قصر الجلباب من كثرة ما تآكل ذيله، فظهرت سمانة قدميها مثل سوة فتاة صبية، ومنديلها أبو أوية متآكل وهي مهملة، فشعرها دائما مطروح على ظهرها فاحما كظل صفصافة على قضيب القطار. أما وجهها يا خال فمثل رغيف الخبز العلامة الخارج لتوه من الفرن موردًا يبك الدم فيه، عينان واسعتان كعيني البقرة مكحولتان

كحلا طبيعيا، لا ينظر فيهما مخلوق إلا ويتوه ويتأكد أنها بحر يطلب الرى من ماء الحياة بغير حدود..

هذا الجمال كله يا بوى متزوج من رجل هلف مسن، لا شخصية له ولا وقار، اسمه «سعداوى»، يعمل سقاء! بالسنوية، يحمل القربة على ظهره يملؤها من النيل يلف بها على البيوت يفرغها فى الأزيار حتى تمتلىء، فى مقابل حزمة قمح أو برسيم أو بضعة كيزان من الذرة أو حفنة قطن يأخذها عند الحصاد، أو لا يأخذها لا يهم. هو ضعيف مثل كلب جربان فى حى غريب. أنت وغيرك يشخط فيه ويضربه بكف اليد على وجهه فلا يرد ولا يفعل شيئا أكثر من الجعجعة والبرطمة، وينتهى الأمر عند هذا الحد.

ولا أحد يعرف كيف تزوج هذا الجرو العجوز من هذه الحورية الطرية الشهية، لكنها عجائب الزمن وما أكثرها فى بلادنا يا خال. غير أن الجميع يثق ثقة كبيرة أن هذه المرأة المسكينة غير شبعانة من ناحية الجماع، وبعضهم يطمع فيها ويستغفر الله له ولولاياه، وبعضهم يأتيها فى السر، وكل مار من أمام دارهم - إن كان من حى آخر - لابد أن يكون قادما لـ «كاملة» أو من عندها. وهى تسكن مع زوجها «سعداوى» فى دار فى نهاية حارة ضيقة مستطيلة. ومن حسن الحظ أن الدار المجاورة لها مباشرة يسكن فيها رجل من عائلة طيبة اسمه «خربوش»، كان يسرح فى الليل لاصطياد رزقه وتلقيطه من غيطان الناس. وكنت كثيرا ما أضبطه

فأساعده ولا أفتن عليه أبدًا، كنت أيضًا أحب شرب الشاى معه فى داره كلما عزمنى لكى أتفرج ـ فقط ـ على هذه الحورية الضالة.

إلى أن منَّ الله علـى بمقابـلتهـا وحـدها فى السـوق تشـتـرى حاجات لناس طيـبين تخدم عندهم. فأخذتـها على جنب وعرضت عليها الخدمات وقلت: «أنا طالب القرب!»، فقالت: «يا مرحبا!» قلت: «أين؟!». قالت: «أنا لا أخرج من دارى! ولا أعـرف مكانا! فإن كنت تقدر على المجىء لى فى الدار فتـعال!». قلت: «وزوجك؟!» . قالت: «سيكون نائـما بجوارى ولن يحس بشىء». قلـت مشوحـا: «فإن أحس أخـذته بالبـونية على بوزه أخـمـد لك أنفاسـه!». فـجلـجلت ضـحكتهـا ولكزتنى فى صدرى. قلـت: «يعنى هل أجىء الليلة؟!». قـالت فى دل:«تقـدر؟!». قلت: «طبـعا». قـالت: «خـلاص! تنط من الجـدار تجـدنا فى حوش الـدار نائمـين على الحـصيـرة! فـتنام بجوارى تحت الغطاء! وأنا أنام دائما فى الطرف اليمين والباب فى ظهـرك!». قلـت وأنا منتـصب القـامـات : «والله لأجـيـئـن الليلة فـأنتظرينى بعد نصف الـليل!». فهـزت رأسـهـا موافـقة ومـضت، ومضيت، ولكنى أيقنت أن ولدانا كثيرين من حارتها رأونا نتواعد، وواجهونى بنظرات مسمومة، بل وتحـسسوا شواربهم متوعدين، علامـة على أننى لن أنجح فى الوصـول إليها طالما شـواربهم هذه قائمة فـى وجوههم. وعرفت أنهم سيـرابطون لى طول الليل حتى يمنعونى، فصممت على أن أفعل مهما كان الأمر.

قلت لـ «هليِّل» وأنا أشفط آخر نفس فى الحجر «الحوحو» ـ أى الأخيـر: «يكفى هذا فقـد صرت على سنجـة عشـرة!». زغدنى فى

جنبى وقـال بلهجة ذات مـعنى: «لماذا لا تخزى الشـيطان وتمضى معى إلى الدار فتنام فى أمان الله؟!». قلت: «شف يا هلّيل يا خوى! لو لم يكن ولاد حارتهـا راونى وتحسسوا شواربهم كـنت سمعت كـلامك الآن وجـئت مـعك من سـكات! أمـا وقـد برمــوا لى فى شواربهم فإننى لابد لى الليلة أن أحيكهم جـميعا! أعرف أنهم الآن ينتظروننى علـى رأس الحارة! وسـأدعـهم ينتظرونى هكذا حـتى الصباح فيـما أكون راكبا أنهى مهمـتى بسلام!». قال «هلّيل» وهو ينظر فى وجهى بـاستخـفاف: «كيف يا بوى؟ ولد فـتوات أنت؟ أم لعلك ولد عفاريت!» . قلت: «سـترى فى الصبح!». قال وهو يدارى وجهه بكفـيه من شدة الضحك: «مادمت قلـت هذا فغالب ظنى أنك لن تجىء بهـا البـر يا حسن! تظن نفسك خولى الجنينة لكى تظفر بالغنوة على كل لسـان؟ إخـز الشيطان يا حـسن فـالغنوة تقصـد حسنا آخر غيرك هو خولى الجنينة بتاع زمان!».

تغيظت منه والله يا بوى، وصرت مـوشكا على الغلط فى حقه، لولا وثوقى من حبـه لى، ووجدت أن خيـر الكلام ما قل ودل على رأى ذلك الصحافى المشـهور الذى لا أعرف اسمه، فنهـضـت واقفا وقلت لهلّيل: «سأنام فى دارى هذه الليلة وفى الصبح أجىء لأفطر معك» قـال هلّيل: «مادمنا فى دارك الآن فسـأنتظرك هنا فوق هذه الكنبـة حتـى تخلص من مهـمـتك المجنونة وتعـود!». قلت: «أهكذا رأيت؟». قال: «دعنى أكون أول من يفك بوش هذا الكنب لأجربه لك فى النوم!». قلت: «يزيده شرف! ولكن أحـذر أن تفعل فوقه شـيئا

على حس المهمة التى أنا ذاهب لأدائها الآن!». ضـحك حتى استوى جالسـا فوق الكنبة وقـال: «وهل أنا متأكد أنـك ستقوم بهـا حتى أبنى عليهـا؟» أوشك الغيظ يركبنى ركـوبا تاما، فلم أضحك مـعه، إنما رأيتنـى أقـول له بضـيق: «أنـت إذن تشك فى رجـوليـتى يا هلّيل!». فشوح قائلا وهو يعـود للتمدد على الكنبة: «إذهب! إذهب! كان الله فى عونك!»..

وذهبت يا خال.

ثالثا-خطبة الوداع

الحارة مـحتجـبة وراء خرطة نخـيل كبيـرة. من يقف فى قلب النخيل ويرسل البصر بالطول يـستطيع رؤية الحارة على طولها ، ويرى كل من يدخل ويخرج منها أو يولى ناحيتها،يرى الحارة بابًا بابًا. وكنت قادرًا على الوصول إلى الحـارة من دارنا بفركة كعب، غـير أننى فى هـذه الحالة لابد أن أمـر على الولاد الساهرين فى انتظارى، فـيحـصل الاحتكاك بينى وبينهم، فـتجئ المسألة غـير ظريفة من بدايتهـا ثم إن هدفى شئ آخر غير العـراك، ولهذا لففت لفـة كبيرة من وراء البلدة حـتى سـقطت داخل النخيل مـباشـرة وجعلت أترقب الولاد مـن بعيد فى جـوف الظلام، النخيل كثـير يا بوى، وكـثيف، يطرح فـوقى ظلامـا على ظلام، لكننى بعـون الله رقدت فى مـطرحى مداريا جسدى فى جذع نـخلة كأننى مـجرد انتفـاخ فى الجذع، وأرسلت بريق عـينى إلى مساحـة من الشارع العـمومى المحـاذى للنخـيل حيث تسـقط منه الحـارة إلى الداخل، فـرأيت أربع ولدان شـداد يتـملكون نواصى الـنخـيل، واثنين من اليمـين وآخرين من الشمال، يتـوقعون قدومى من جـوف النخيل لأسقط مباشـرة على الحـارة.

كـان «مخـتار عـريبى» الولد الصابع سـاكن أول دار فى هذه الحارة قـد فرش جوالا على مدخل الحـارة بالعرض ونام متـغطيا بجوال آخر كاشفا دمـاغه، وحين وصلت كان الأربعة يتكلمون مع «مختار عـريبى» كلاما لا أتبينه، لبعـد المسافة بينى وبينهم، فكان الكلام يضيع كله فى حفيف النخيل مكثت متقرفصا ألف السجائر وأشعلها من بعضها، مداريا شـعلتها عند الجذب بكفى المضمومة، مضى حوالى نصف السـاعة، كف بعدها صوت «مخـتار عريبى»، وصـاروا ينادونه فلا يرد عـليهم إلا بشـخـير النوم، إننى أعـرف أصواتهم جميعـا، ومن أصواتهم أعرف أنهم الولد «صـابر» والولد «زيدان» والولد «سماعين» والولد «شحـتة»، وهم كلهم عيال تملية لكنهم أشداء، لو هاجوا فى بلدة لأخمدوها..

مـضى نصف ساعـة آخـر، كف بعدهـا صوت الولد «صـابر» وصاروا ينادونه فلا يرد عليهم، فبقى الثلاثة يتكلمون ويضحكون ويتثاءبون، وبعد حوالى عشر دقائق كفوا عن الكلام تماما، فارتفع صوت نقـيق الضفادع يقول يا أرض اشـتدى ما فوقك قـدى، أما قلبى فـصار يدق بـصوت أعلى من صـوت النقـيق، إذ فكرت فى القيام، والاقتراب أكثـر من الحارة، كنت مشمرا ذيل جلبابى، لكى لا يصدر عنه وشيش ينبهم إلى وجودى، ولم أكن أمشـى، بل كنت أمد سـاقى على وسعهـا، حتى تستـقر قدمـى على الأرض، فأنقل السـاق الأخرى، وبعـد برهة أمدهـا نفس المدة، حتى صـرت على مرمى حـجر من الحارة، فـتقرفـصت، فارشـا عينى على الأرض، حتى مـيزت أشباح الولاد، مـتمددة فى أمـاكنها المتباعـدة، وكانت

أنفاسهم قد راحت تنتظم، ويتصاعد شخير مجلجل، ووضح أنهم قد استغرقوا فى النوم، ما عدا «شحتة»، الذى كان فى آخر حدود النخيل، حيث نادى عليهم واحدا واحدا فلم يرد أحد، فتمدد وتقلب، معطيا وجهه للنخيل..

زحفت متقرفصا، شيئا فشيئا، حتى صرت بين «زيدان» و«سماعين» الراقدين، لا يفصلنى عن كل منهما سوى بضعة أذرع من اليمين ومن الشمال، بقيت هكذا برهة، ثم خشيت ـ اى والله يا خال ـ أن يسمعوا دقات قلبى من شدة علو صوتها، فنهضت واقفا، وعلى أطراف أصابعى قفزت، وهى القفزة، كنت أقدر على أن أدوس بقدمى فوق صدر «مختار عريبى» الراقد يسد الحارة بجسده، لكننى تخطيته، فلما صرت فى الحارة خفت فجأة من فكرة الحصار، فارتددت مذعورا، وخطوت من فوق جسد «مختار عريبى» ثانية، ومشيت فى قلب الحارة لباب «كاملة»، أمسكت فى صدغه هذا، وشبطت فى طوب الجدار دافعا نفسى إلى أعلى، فتمكنت ساقى اليسرى من الاشتباك بطوب الجدار، حتى استويت بكلى فوقه، واعتدلت، ورميت بنفسى فى حوش الدار على أطراف أصابع قدمى.

هدأت دقات قلبى لما رأيت أننى قد نجحت فى الوصول، ولما لمحت الأجساد متمددة فوق الحصيرة ومغطاة بالبطانية قلت لنفسى: صبرت ونلت يا حسن، تذكرت قول «كاملة» بأنها تنام فى الطرف الأيمن. هى إذن هذه التى تنام على مقربة منى. وا..ه..

يا بوى واه.. خطوة واحدة وأصير فى حضنها، لكن يجب أن أنتظر برهة، فربما يكون زوجها أو ابنها صاحيا، بقيت متقرفصا فى مكانى يا بوى، كاتما أنفاسى، حتى تأكدت أنهم جميعا فى أحلى نومة ويأكلون الأرز باللبن مع الملائكة، كل الأمور عال العال يا بوى، وآخر تمام، واه ، واه من وساخة النحس يا بوى، الولية يا بوى لم تكن تعرف أن عمتها أخت زوجها ستتعارك مع زوجها فى هذه الليلة بالذات، وستغضب وتجىء لتبيت عند أخيها سعداوى» السقاء، والولية ـ كاملة يعنى ـ لم تقدر على أن تبعث لى مرسالا يبلغنى بما حصل، فسلمت أمرها لله، ورقدت بجوار زوجها كالعادة، وجاءت عمتها هذه فرقدت بجوارها فى الطرف الأيمن، وجئت أنا بسلامتى وتمددت بجوارها متسللا تحت البطانية، فلفحنى ريح غريب ليس هو ريح «كاملة» ولا عطرها، قلت لنفسى: لعله ريح النوم. ومددت ذراعى وجعلت أحتضنها، فإذا بالولية تنتفض مذعورة وتملأ الليل صراخا مجنونا، وإذا بالقيامة تقوم، صاحت الأصوات الغامضة فى كل مكان، ونبحت عشرات الكلاب الشرسة المربوطة خلف الأبواب، وملأت الدنيا زئيطا، وتيقظ كل الرجال فى كل الحوارى، وصارت الأصوات تتجمع أمام باب الدار والنبابيت تدق فوق الباب طالبة تسليمى لتقطيع جثتى، و«سعدواى» السقاء من شدة هوله وذهوله صار يشتم فيهم: «يا ناس حرام عليكم! يا أنجاس يا كفره! أنتم تنطون على فى دارى! إنى سأشكوكم للعمدة الليلة قبل الغد!» أما أنا يا بوى فقد صرت كالفأر فى المصيدة أبحث عن خرم إبرة أخرج

منه، والكلاب جوار الباب تفزع، تريد نزع نفسها بالقوة من سلاسلها للانقضاض فوق رائحتى، إذ أنا متكور على نفسى فى ركن قصى مظلم، إلى أن لاح الخلاص كشمس الصباح بعد برهة قصيرة، كأننى سقطت خلالها فى فوهة قبر وخرجت منه فى الحال.. ذلك أننى رأيت كومة من تراب هديم بجوارى، فأدركت فى الحال أننى لو تسلقتها صرت بقفزة واحدة في دار صاحبى «خربوش»..

واه يا بوى على فرحتى لحظتذاك، من كثرة اللذة بالراحة تلكأت فى التنفيذ، حيث رقدت على بطنى، وصرت أزحف كالثعبان فوق كثيب التراب، حتى صرت على سن الجدار، فاعتدلت، وقفزت ساقطا فى قلب دار صاحبى «خربوش»، بجوار فراشه بالضبط، إذ هو يفرش وينام فى الحوش بجوار هذا الجدار، تحسبا لفعل كهذا من أولاد الحرام الذين ينطون على «كاملة» فى دارها، وقد تعود أن يربط السكين الكبيرة على زنده ملفوفة فى جراب وأربطة بحيث يسهل نزعها عند اللزوم، وإعادتها إلى وضعها فى لمح البصر..

انتفض «خربوش» قاعدا، ويده على زنده تنزع السكين فيما يصيح: «ليلتك أسود من شعر رأسك يا بوديل نجس!». وهم بالانقضاض على، لولا أن صحت فيه بسرعة لاهثة: «أنا حسن ولد أبو ضب يا عم خربوش!». أعاد السكين وتلقانى بالحضن: «يخرب بيتك يا حسن! كنت عند كاملة!». قلت: «إن الله حليم ستار!». قال باسما: «طب اجلس! نم بجوارى ،لا تفتح فمك!»..

تكرمشت بجواره مثل الكتكوت العريان تحت وابل من المطر فصار يهدؤنى ويكتم ضحكته قائلا فى همس: «تعمل سبعا ثم تكتكت يالصغر الرجال!» فحاولت التمدد، والإيهام بأننى سأتهور بفعل مجنون تحلف اليمين أنه كان يعرف أفكارى، فضغط على كتفى قائلا بسخرية: «اعقل يا مجنون! وإلا دشدشت النبابيت رأسك الناشف ذا! هو لا يستحق الدشدشة أى نعم! لكنه صالح لها من كثرة نشفانه هذا! ثانى مرة تبقى تسقيه شيئا من ماء العقل حتى يلين! والآن اسكت حتى نعرف ماذا يحصل فى الحارة.

بقينا منصتين وقتا طويلا، وهياج الرجال يزداد حدة، ويتسع ثم يتلاشى قليلا ثم يعود أكثر حدة فيتسع كأن الكون كله يشارك فيه، واسمى يتردد من حين إلى حين، ولكن صوت العقل كان ينزع وسط الضجيج قائلا: «يا جماعة لا تظلموا الجدع ولا تظلموا أحدا ما دام لم يخرج من الدار أحد!».فيجاوبه صوت التكبر قائلا: «إن الفاجرة تحتجزه بالداخل حتى الصباح خوفا من الفضيحة!». وتعلو نتفة بعيدة من نفس الصوت: «الفضيحة حدثت وانتهى الأمر!» تعلو نتفة أخرى: «تحتجز عشيقها خوفا عليه من القتل!»، فيعلو الهياج من جديد وتنبرى النبابيت تدق فوق الباب طالبة ذلك النجس الذى بالداخل، فيجاوبهم صوت «سعداوى» باللعن والصراخ والبكاء والتهديد بالعمدة.

ثم سمعنا باب داره ينفتح على مصراعيه، وصوت «سعداوى» يصرخ، لأول مرة فى حياتى أراه يصرخ ويتنحرر كالرجال، بل

إن صوته كان جعيرا مليئا بالرجولية والهيبة والوقار، فتعجبت والله يا خال غاية التعجب: كيف يخفى هذا الرجل هذا الكنز الذى فى صوته؟ وهو الذى لو كشفه من أول لحظة لحظى بمكانة كبيرة فى البلد. إنه صوت من قبيلة الباشوات والبكوات والعمد وملاك الدواير لكنه ضل طريقه،فبدلا من أن يضرب الناس بالكرباج ويمص دمهم، صار سقاء يزودهم بالماء صبح مساء، لقاء أجر مؤجل، والبلغة القديمة فوق رأسه، غير أن هذا كان من الأول يا «سعدواى»، وهيهات أن تستخدم صوتك وحده فى صنع هيبتك، ثم إن اسمك «سعداوى» وليس هذا الصوت بالذى يليق على هذا الاسم، فأنت إذن هزأة مع احترامنا لصوتك المهيب هذا ولكلامك المنفعل هذا»: «أيها الناس الجبناء دونكم دارى هذه فادخلوها وفتشوا فيها عن ذلك العشيق الذى تدعون وجوده! هاكم بابى مفتوح فادخلوا واهتكونى وانهشوا عرضى أكثر! قربوا أنيابكم من اللحم المسكين المستباح! يا كفره يا من تدعون النخوة والشرف والدفاع عن العرض! قسما بالله ما أفعالكم هذه سوى الحصرم الذى تأكلونه فتضرسون! إنها الغيرة تأكل مؤخراتكم وأصرامكم! كلكم تطمعون فى عرضى فتنطون على فى قلب دارى!ولابد أن الله يصليكم بنار جهنم الحامية! فوضت فيكم أمرى إلى الله! حسبى الله ونعم الوكيل!»..

ثم سمعنا صوت الباب وهو يغلق. وصوت الكلاب يستلم الهواء، سكت الهياج شيئا فشيئا، وانسحب صوت العقل أسفا

يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ويستغفر عن سوء النوايا، ويبقى صوت الحكمة واضحا، يبلغنا بلا حول ولا قوة إلا بالله، باكيا على فضح خلق الله، مبررا الصراخ بأن الولية كبس عليها كابوس من كثرة ما تكلم الناس في حقها ونهشوا في عرضها، لقد باتت تحلم بأشباح تهجم عليها في عز الليل. ثم إن الصوت نفسه قد راح ينسحب هو الآخر عجوز كانت تصلى الفجر أمام دارها بين النخيل، وصار في مقدورنا أن نعرف أن ما بقى من جمع الرجال قد صفصف على أبناء الحارة، وأن جمعهم قد اتجه زاحفا وهم يتكلمون، بما يشبه الاعتذار مرة، والتأكيد على وجودى مرات، حتى شحب صوتهم عند آخر دار في الحارة، ثم اختفى تماما مرة واحدة، فعرفنا أنهم دخلوا دار «مختار عريبى» ليكملوا الكلام.

عندئذ نهض «خربوش» ومضى بخفة نحو الباب، فأزاح الضبة بهدوء دون صوت، رغم أنها كبيرة وذات جرجرة، ثم وارب الباب قليلا ونظر في الحارة، فتأكد من خلوها، فاندفع خارجا كالفهد العجوز بلا حفيف، بعد أن رد الباب خلفه وعاد بعد برهة قصيرة، فدفع الباب، وتسلل داخلا، وقال إنه خطف رجله لحد دار «مختار عريبى» وتأكد أنهم جميعا هناك، وأن «مختار عريبى» أشعل الوابور يصنع شايا، وسحبنى من يدى، فخرجنا وأغلقنا الباب، بخطوتين اثنين صرنا في الشارع العمومي، منه بقفزة واحدة صرنا في قلب النخيل، نضرب بخطى سريعة، حتى لاح لنا

الطريق الزراعى المحاذى للترعة فانسللنا من بين النخيل وامتطينا الطريق الزراعى، فانحرفنا مع المدخل الرئيسى للبلدة، فدخلنا فصرنا فى حكم القادمين من خارجها، من الحقول مثلا، أو من عند ماكينة المياه، التى كثيرا ما أخفرها أو يخفرها «خربوش» حتى لقد ارتبط اسم كل منا بها..

أخذنا نتلكأ فى السير، وندخن السجائر، ونتكلم ونتبختر فى سيرنا، حتى وصلنا إلى الحارة بعد لفة طويلة، يتقدمها ضوء الشروق الفتاح، «خربوش» رغم صياعته وشقاوته من عائلة كبيرة، وله أن يتحرك على راحته، ويفعل ما يحلو له، فلن يجد من يدوس له على طرف حتى لو ضبطه بسريقة، وهكذا أقلبنا على الحارة نتبختر، فوجدناهم جميعا قد خرجوا وتربعوا على مدخل الحارة، يتكلمون ويسعلون، وبعضهم يفلّى نفسه ،وثيابه من القمل والبراغيث، وكان من الواضح أن حزنا شديدا وعميقا جدا يخيم عليهم، والدموع لاتزال تنحدر من مآقيهم، وكانت دار «سعداوى» مفتوحة، وعلى بابها يقف ناس كثار، ومن داخلها يجئ صوت بكاء ونواح، صاح أحدهم لما رآنا، وبدا من صوته أنه يعمل حسابا لـ «خربوش» فحسب: «يا جماعة! يا جماعة! لقد ظلمنا حسن ولد أبو ضب! وها هو ذا قادم من عند ماكينة المياه! ياه! ياما فى السجون مظاليم!»..

فنظروا جميعا فينا، مبهوتين، وبدا عليهم الأسف الشديد، بل قل الخزى يا خال، مع ذاك كان فى عيونهم بريق خبيث، يحوم حولى بالشكوك، ويتحسسنى فى كل موضع، والأنوف تريد أن

تقفز، وتسقط فى عبى، لتتشمم رائحة الخيانة تحت لباسى، وقال «خربوش»، كأنه لا يعرف شيئا مما حدث: «ما الأمر يا رجال؟!». فحكوا له الأمر من طقطق لسلامو عليكم. حينئذ صاح «خربوش» مصفقا كفا على كف: «لا حول ولا قوة إلا بالله! الرجل معى من المغرب عند الماكينة وجاء يوصلنى فعزمت عليه بالشاى! أنتم والله ظلمة ولابد أن تستغفروا وتتأسفوا لحسن! هل هو وجه ذلك؟! إنه ابن ناس طيبين وأعمامه شيوخ سجادة فحرام عليكم! كل منكم يحمى نفسه وكفاه ذلك فضلا! بدلا من التعدى على حرمة الناس!»، فصمتوا جميعا ولم يردوا، وعادت الدموع تنهمر من عيونهم، مع ارتفاع صوت النواح القادم من دار «سعداوى» السقاء زوج «كاملة». فشوح «خربوش»نحو الدار قائلا: «ولكن ما هذا؟!». فلم يردوا. وبعد برهة نطق أحدهم من خلال بكائه: «البقية فى حياتكم! سعداوى مات منذ ربع ساعة!!»..

مات؟!! وشهقنا معا كأن سهم الله نزل علينا، ولم أدر إلا وأنا أنفجر فى البكاء وأستدير ماضيا نحو دارى ومن خلفى «خربوش» يهدئ من بكائى تارة ويلعننى تارة أخرى. ولقد عزمت فى هذه الصبحية المرخية أن أهجْ من البلدة قبل أن تصبح سيرتى على كل لسان تقابلنى فى كل مَكان.

الرابعة ـ المساخيط إخوتى

وحق هذه الليلة ومساها أن الولد «بربش» كاد يقع من طوله لما أن فوجئ بى أهبط عليه كالقضاء المستعجل فى قطار الصعيد، مرتان يا «بربش» أضبطك فى قطار الصعيد صدفه؟! ألم تقل إنك راحل إلى الإسكندرية لكى تتوه فيها من نفسك بعض الوقت؟ تكون الحكاية وردا وفلا إذا بأن لى أنكم جميعا ستظهرون الآن فى قطار الصعيد كصدفة من غير تدبير، وفاتكم أن الصدفة نفسها تخلى بكم وتوقعكم فى المكشوف.

وصرت أضحك يا بوى وأعزم عليه بالسجائر المكن وأشترى شيئا من كل من يمر حاملا شيئا يؤكل أويشرب، وغرضى أن أخفف عن «بربش» هول المفاجأة، إذ راح ينظر لى فى بلادة طرية بعض الشئ عزوتها إلى كنكة حشيش يكون قد تجرعها ولم تشتغل بعد أو ربما كانت كاتمة عليه بعض الشئ، فأنا يا بوى أعرف هذه الكتمة ومقروص منها كثيرا، صرت أطلب شايا ساخنا لزوم التسييح، وأرقبه وهو ياكل فى السيجارة أكلا، فيما يرمقنى بشئ من الغباوة، فتفكرت قائلا لنفسى لعل وراءه أمر يكدره هكذا، ولكن شيئا إلهيا ضرب فى صدرى، قائلا إنه يتغابى علىّ،

ظنا منه أننى كنت أتعقبه، فانبريت فى الحال شاكرا لله على هذا الفتح، ورحت أحكى لبربش حكايتى مع السفر من طقطق لسلامو عليكم، حتى أنه ابتسم هذه المرة عن حق، وجرع كوب الشاى فى لذة، وعزم على بالسجائر المحشوة، وغمز لى بأن أجعل ذراعى بالسيجارة خارج شباك القطار، حتى تضيع رائحة الحشيش فى الغيطان، التى تجرى أمامنا وخلفنا. وقلت له: «ماذا يكدرك يا بربش؟ فمن واجبى أن أسال عن أحوالك! وأنت قلت لنا إنك مسافر إلى الإسكندرية! فإن كانت فى الأمور أمور جدت على غير حساب فإن رقبتى سدادة كما تعرف! وإن لم تكن وثقت فىّ بعد فيمكنك أن تعرف الآن رجولية أخيك الجالس أمامك! ماذا وإلا فأنت تتكدر فى وجهى بالعنية! ومحسوبك ليس بالذى يتكدر فى وجهه أحد يا بربش يا خوى! أنا لست تلقيحة بل إننى فى المحطة القادمة سأنزل تاركا لك القطار كله مضحيا بتذكرة جديدة فى قطارآخر!».

عليها وضحك العكروت، تحلف اليمين إنه أفاق من سكرة غاشية إلى صحوة رائقة. حضننى وطلب لى شايا، ودعبس فى جيبه فأخرج منه شيئا مثل «الشكلاطة» قضم منه قطعة كبيرة غمزنى بها، فما إن قربتها من أنفى حتى زكمتنى كرفة الحشيش الزاعقة، فطوحت بها فى فمى متلمظا، حتى ذابت فى لمح البصر، وملأت فمى بنكهة الحشيش بالشكلاطة، لاذعة، تجلد الأنف وسقف الحلق، وصرت ألحف فى طلب الشاى وإشعال السجائر، وصار الهواء يلفح «قناعية» رأسى بغزارة، كأنه دش المياه فى

الحمـام الذى لم أعرفه بعد، فـإن هى إلا محطة أو محطتـان، حتى انخلعت دمـاغى عن راسى، وطارت؛ وصـرت لا أستطيع اللحـاق بها؛ فـصرت أضحك على الفاضى والمليـان؛ وأشقى فى استبـيان بعض كلام يـحكيه «بربش» عن مشـواره المفاجئ للصـعيـد حيث بعث له «الحاج السنى» مرسالا فـى عز الليل «يقع فى عرضه» أن يذهب إلى هذا المشوار يسـتقضى فـيه أمانة من طرف أحد أعـيان الصعيد الجوانى، لكى يعود بها للحـاج السنى، أه مشوار فيه لقمة طرية والخائب من يرد رزقا جاءه لحد عنده..

وكـاد دماغى يـتعب من الرمح فـى الريح، فيـرد إلى ويلتـبس مكانه من رأسى، فأفـيق لبرهة، فأسأل «بربش» مـا عساها تكون هذه الأمانة يا ترى؟ فيقول إنها مـجرد قرشين، شئ إلهى قال لى إن هذا البـربش يكذب على، ويسـرح بى، يريد أن يأكل بعـقلى حلاوة، لكننى نسيته ومـضيت أضحك، وأحكى حكايات مضحكة، لكننى لا أذكر شـيئا مما دار غيـر الضحك، فلما فوجـئت بالركاب كلهم وقوفا نهضت واقفا مثلهم؛ ورأيت المدينة تقذف بنفسها شيئا فشـيئا، فى أحـضاننا؛ إلى أن صـرنا فى رحمهـا، بين رصيـفين تحـدهمـا البنايات من كـل مكان، فـصـرنا ندفع بعـضنا بعـضـا للوصول إلى بـاب القطار، وقد ارتفع الزئيط فـجأة، وصرنا كـما يوم القيامـة بالضبط، ومع ذلك انتبهت، فـإذا «بربش» يسحب عن الرف حقيـبة كبيرة، بدت للأعـمى، وهو يسحبها ثـقيلة ثقلا ينوء بحمله حمار. قلت: «هات يا بربش أحملها لك» فأخر ذراعه بها فى تصمـيم أكيد قـائلا: «لا! لا! إنها خفـيفة فـخلٍّ عنك أنت!» وكانت

الحقيبة تأخذ كتفه وتنزل به إلى الأرض؛ فأقسمت يمينا أحاسب عليه فى نار جهنم، أن هذه الحقيبة مملوءة بالمساخيط والأحجار المنقوشة مما يسمونه بالأثريات، تلك التى تلدها بطن الأرض فى الصعيد بلا حساب ياخال، مخى ناشف كما تعلم؛ لهذا تلكأت فى النزول، تحككت ساقى بجسم الحقيبة، وتأثرت ملمس الحجر، ورائحة بطن الأرض كرائحة بطن الأم، يحملها الوليد ولو كان حجرا أصَمًّ..

الله وكيل يا بوى، لقد شعرت والله بحقد شديد على «الحاج السنى» وعلى «بربش» معا؛ وحقدت على نفسى كذلك والله يابوى؛ كرهتها، لشدة خيبتها، وتحركت الدماء فى قلبى، وقلت لنفسى: كيف يتاجر أبناء الزوانى فى إخوتى وأنا واقف أتفرج؟!.. نعم! نعم! فإن هذه المساخيط، وهذه الأحجار المنقوشة بالذهب، هى إخوتى، ولدتهم بطن أرض الصعيد، كما ولدتنى، فكيف ينزعها أولاد المخاريق ويبيعونها بالذهب، وأبقى أنا خداما لهم على طول الزمان؟! هذه الأرض والله لم تعرف العدل طول حياتها؛ لا تعرف إلا النصب والاحتيال به علينا فقط؛ مدارسها تعلم لنا العدل دروسا نسمعها ولا نرى منه شيئا فى الحياة، مخروقة أم كل من يتفلحس ويكلمنى عن العدل، والحق، والضمير والذمة، وكل هذا الكلام الفارغ، الذى نأكل به الأونطة، وغيرنا يأكل الشهد المصفى!.

لم أكن أدرك لحظتذاك والله ياخال، أننى وضعت «الحاج السنى» فى رأسى وقلت إننى لابد أن أجئ بداغه فى يوم قريب.

الخامسة ـ البساط الأحمدى

ما إن خرجنا من محطة الجيزة حتى بان لى أن «بربش» يريد أن ينسلت وحده؛ بل إنه وقف مادا يده قائلا: «أفوتك بعافية» قلت بلهجة ذات معنى: «وماله!» وعانقت يدى يده، تجاهل غمزتى وقال: «ربما أشوفك الليلة فى القهوة! وربما لا حسب الظروف!» هززت راسى قائلا فى عشم: «وماله برضه! ربنا معاك ياولد!».. وتركته ومضيت.

وليّت وجهى نحو دار «هندى» فى حوارى فم الخليج. فلما وصلت ضربت الجرس كثيرا، فلم يرد أحد؛ فأبقيت أصبعى فوق الزرار مدة كبيرة، وصوت الجرس يزعق ويجلجل فى قلب الحجرة، ويسمعه الرائح والجائى.. فعرفت أن «هندى» يشوف حاله فى الشوارع؛ فوليت نحو «قهوة صفصف» وقد شعرت أننى خرمان، ونفسى تطلب الشاى والدخان، الله وكيل يابوى؛ عينى ونيتى كانت على «قهوة صفصف»؛ لكننى وجدت نفسى أمشى بحذاء شادر «الحاج السنى» دون أن أدرى؛ مع أننى والله يابوى ما فكرت فى الذهاب إليه ولا خطر فى بالى أن أمر من جواره؛ وحتى لم أكن أدرى أننى أمر بجوار الشادر أصلا؛ لكننى لحظتها

وجدت نفسى واقفا فى الخلاء الفسيح بعد انفلاتى من الحوارى الضيقة الملولبة؛ والنور الساطع كان يغمر الخلاء ويدهنه بلون صفار البيض، ودماغي غير موجودة على كتفي يا بوى، تحلف اليمين أننى ما كنت أجد لها أثرا على كتفي، وإلا كنت تفطنت إلى أننى فى رحاب جامع عمرو بن العاص، الذى أعرفه ويعرفنى حق المعرفة، كان الظن لحظتها أننى نسيت دماغى تائها فى الهواء الشديد، فى الحقول التى اخترقها القطار؛ وعجبت كيف استطعت الوصول إلى هذا المكان بدون دماغى! وسألت نفسى لبرهة سريعة: أين كنت قبل هذه اللحظة مباشرة؟ فما ظفرت بجواب؛ وبقيت حائرا لوقت طويل كأن طائرة «هالوكبتر» رمتنى من السماء فى هذا المكان وولت! حتى قباب جامع عمرو كانت مزهزهة على غير العادة، مطلية بالغموض، تذكرنى بأننى رأيت مثلها ذات يوم، غير أنى لا أذكر أين ونظرت فوجدت أمامى طريقا يمتد فيه النور إلى مالا نهاية، وبجوارى طريق يتقطع فيه النور بعد بضعة أمتار، حيث يختفي بصيص الفوانيس فى هضاب من الظلمة مدببة، تشبه سنام الجمل، سرعان ما فطنت إلى أنها القرافة، وأن هذا الرصيف هو نفسه الذى يقع عليه شادر «الحاج السنى»، ذلك الشادر الذى مررت بجواره عدة مرات، وفى كل مرة أتصور أن مأتما كان مقاما هاهنا وانفض؛ وتبعا لذلك فلابد أننا الآن فى منتصف الليل؛ إلا وصوت الآذان ينطلق من فوق مئذنة جامع عمرو، فاستهدت أذنى صوت المؤذن فتعرفت عليه ولكن كأنه الحلم، ورأيت الحركة تدب فجأة والناس يهرولون نحو

الجامع، وولدان يجرون بطاولات العيش؛ فلما حاذيت الشادر، ونظرت الدور المجاورة له، ووجدتها صاحية وصوت الراديو والتليفزيون يعلوان فيها على كل الأصوات، تفطنت إلى أن الأذان هو آذان العشاء؛ وتفطنت إلى أن الذى يفعل لى كل هذه الأفاعيل هو قطعة «الشكلاطة» بالحشيش التى أعطاها لى «بربش»، فصرت أضحك وأتطوح كالسكران، وألعن أبا خاشه، وإذا بصوت ضحكات عالية تنطلق من وراء ظهرى، فتفزعنى فأتلفت حولى مرعوبا وكركرة الضحك مستمرة، بربشت بعينى فى الضاحكين، فوجدت أنهما «بربش» والخفير، وقال «بربش» وهو يخرج من ظلمة الشادر ليسندنى «مالك يا متنيل على عينك! رايح فين؟» قلت: «منك لله يا بربش يا مفترى! أنت الذى فعلت بى كل هذه اللخبطة!» قال: «كنت تمشى ورائى؟!» قلت: أبدا والله! إنما كنت أسال عن هندى فى داره فلم أجده! فقلت أذهب إلى القهوة أنتظرك حتى تجئ! فلم أدر إلا وأنا ماش من هنا غصبا عنى! وها أنذا كما ترانى تلخبط غزلى والسبب أنت»..

والعكروت يضحك ويتمايل ويتطوح من شدة الضحك، والخفير هو الآخر يحفر في الأرض من الضحك؛ حتى تعبت من الوقفة ومن الضحك، فتقرفصت على الأرض، وأشعلت سيجارة، ثم تذكرت، فوزعت عليهم السجائر؛ وحلفت بالله أن الخفير يكون جدعا بحق وحقيق لو عمل كوب شاى ينوبه ثواب، الخفير ما صدق أن سمع الكلمة ونهض قائلا: «دانا حتى عايز أشرب شاى! وأنت كمان يا بو على خيرك علينا لسه فيه منه عندنا!» ودخل

يعمل الشاى وبقيت شاردًا فى ملكوت الله وحدى، و«بربش» يضحك ويعاكسنى بحصو من الطوب يرميه بجوارى حتى أفزع وأخاف؛ إلى أن جاء الخفير بالشاى فقبضت على الكوب بيدى، وشفطت منه شفطات ساخنة وراء بعضها فى لذة كبيرة، حتى شعرت بأن عينى صحت من النوم ومن الغشلقة، فصرت أتكلم بوعى، وفى انبساط لا مثيل له، فى أمور كثيرة نسيتها؛ لكن «بربش» والخفير كانا يصيحان بين وقت وآخر قائلين: «يا سلا ام..يا سلام على الحكم والكلام اللى زى العسل!».

وفيما أنا مندمج فى الكلام الذى هو مثل العسل، مادريت إلا وأنا واقف أواصل الكلام والكوب فى يدى، وأنا أشوح وأمثل، وأهرج؛ وإذا بـ «بالحاج السنى»مقبل من الجامع بين جمع من الأفندية المحترمين يتكلمون فى حديث نبوى شريف يقول «تنكح المرأة لمالها وجمالها وحسبها ونسبها» ولا أدرى لماذا أيضا وكان بعض الأفندية يشير بأصبعه فى نفى وتصميم قائلا إنه حديث مدخول، والحاج السنى يقسم إنه صحيح وأنه قرأه فى البخارى ومسلم عن ، وصار يرص أسماء مثل قلاقيل الطوب كأنه ألفها من دماغه، والأفندية يصلون عليهم طالبين رضا الله عنهم وعنهم أجمعين، مما يؤكد أنهم يعرفون هذه الأسماء، مع أننى لم أسمع بهم قط فى دار عمى الفقيه الكبير؛ ولكن، ليس كل من يستحق الصلاة على النبى ينالها.

صرنا جميعا وقوفا فى استقبالهم، صامتين، إلى أن يفرغوا من الكلام، فتقدمهم «الحاج السنى» قائلا: «تفضلوا»، فمشوا وراءه

فى صمت؛ وإذا هو يـتأملنى برهة ويقول: «الواد حسن أبو على! إيه اللى جابك دلوقت يا عكروت؟ جئت فى وقتك والله! تعال! تعال!»، وسحبنى من أذنى قائلا: «تعال ورائى! فلك الليلة عوزة» واستدار قائلا: «مع السلامة أنت يا بربش وتعال قابلنى هنا بعد باكر بعد صلاة العصر!» فقال «بربش» بصوت غير منبسط: «حاضر ياحاج»،ثم أضاف: «أشوفك الليلة ياحسن؟» قلت «ما أعرف» قال الحاج: «لا تنتظره الليلة!» قلت لنفسى: «بشرة خير يا ولد! جاءك الفتح على الطبطاب!» ومشيت خلفهم مانعا دماغى من التفكير فى الأمر الذى يطلبنى من أجله الحاج حتى تكون المفاجأة طيبة.

قلب الإنسان دليله يا بوى، خاصة إذا كان إنسانا طيبا مثلى وعلى نياته، وقد دلنى على أن هؤلاء الذين يمشون أمامى مع الحاج، هم من علية القوم ذوى المهابة؛ إذ هم يتحركون فى صيغة أمر ونهى، حتى ولو لم يفعلوا غير الابتسام وحنى الرأس فى تهذيب، ولما صار قلبى يرتعش فجأة، ويدق فى صدرى كالطبل البلدى، فهمت أن هذا الدق بالذات لا يدوى إلا لحظة مصادمة الخطر الحقيقى الذى أصير فجأة فى قبضته، آه من هذا الدق يا بوى، أعرفه جيدا يا بوى، عمره ما خاب أبدا فى أى إنذار وجهه لى بهذا الطبل الذى يهزنى، إنه يشبه النفير النحاسى والذى يجعر كالجاموسة، علامة على مجئ المآمير والضباط والناس الأبهة، وأيقنت أن الملامح التى رأيتها على وجوههم فى ضوء الشارع الشاحب، سبق أن رأيتها بنفسها مرة، بل مرات فى مكان بل

أماكن كثيرة لست أدريها الآن بالضبط يا بوى، لكننى أدرى - وقلبى دليلى - أن هذه الأجسام المهيبة بنظراتها وملامحها وابتساماتها وانحناءة رءوسها المهذبة مربوطة فى قلبى بالغلب والرعب والضياع، ومربوطة فى نفس الوقت من طرف مقابل بالله فى سماه مستويا على عرشه يرانى ويرى كل شىء ولابد أن يعذرنى ويقف فى صفى، وإلا فهل رأيت عمرك أبا يقف فى صف أعداء ولده مهما كان عاقا؟ هكذا يا بوى كلما دقت طبول قلبى أرعدتنى وفتحت مخى على عرش السماء، فى الحال أتمنى رؤيته لتقبيل أعتابه.

توكلت على الله ومضيت فتخطيت البوابة الصغيرة التى تتوسط البوابة الكبيرة، وغاصت قدمى فى السجاجيد من أول خطوة؛ حتى السلم عليه سجاجيد محندقة. قطعنا نفس الرحلة السابقة صعودًا وهبوطًا ومرورًا فى ردهات وممرات حتى صرنا فى غرفة البرج، حيث الشلت والبفات والحمير الخشبية المنجدة. فتحها الحاج وقال: «تفضلوا»، ثم إنه أردف قائلا: «أحضر لكم جلاليب خفيفة؟ يستحسن طبعا!» فحلفوا جميعا فى نفس واحد ألا يتعب نفسه؛ وشرعوا فى خلع أحذيتهم والجلوس على الشلت المريحة، متأوهين من فرط التلذذ. حينئذ طوقت عينى وجوههم واحدا واحدا؛ ومن واحد إلى واحد تنتقل الرعشة من قلبى على نغم الطبول إلى ساقى. فصرت فى وقفتى المتخشبة أرقص رقصة الفزع؛ رقصة الدجاجة بعد ذبحها؛ بل إننى صرخت فعلا يابوى، ولكن من قرصة دامية فى كتفى تقول إنها كلابات من الحديد يا

بوى؟! إذا بها أصبعى الحاج السنى وإذا به يريد أن يغمزنى مجرد غمز. هكذا قال وهو ينتفض من الضحك كطفل عابث جرىء، والضيوف يضحكون لضحكه ولفزعتى. أفيك كل هذه القوة الجسدية الجبارة يا مديوب؟ لابد أن يقيم المرء حسابا لهذا. ثم إنه غمزنى ثانية غمزة أخف قائلا: «خل بالك مع هؤلاء الرجال على قدر ما تستطيع! هم حبايبى وإذا لم ينبسطوا سأقطع رقبتك!». قلت ـ مع أننى لم أعرف بعد كيف سأبسطهم يا بوى: «رقبتى للبهوات! إن شاء الله يكونوا مبسوطين آخر انبساط!». فقال: «أريد أن أرى شهامة الصعايدة! هم بلدياتك على العموم!» ، ثم سحبنى قائلا: «عن أذنكم»؛ فمضيت تحت إبطه كنعجة منجذبة بأعواد خضراء.

عند آخر السطح من خلف البرج وحواليه بنايات منفصلة، لم أكن رأيتها فى المرة الأولى، إذ هى فى أسفل البرج، مشينا قليلاً فى مربع كبير مسقوف بألواح الزجاج الجملون كالهرم. نزلنا حوالى أربع درجات سلم، وكأننا نهبط داخل البرج نفسه لنحود بعد ذلك يمينا أو شمالا حسبما نهوى، حودنا يمينًا فيمينًا؛ فإذا بنا فيما يشبه المطبخ، كل جدرانه بالزليزلى والقيشانى وفيها رفوف كثيرة كبيرة من الرخام، ودواليب بيضاء، وثلاجات ومواقد وأفران؛ وفيه من خيرات الله مالذ وطاب، تحلف اليمين ولا معرض من معارض عمر أفندى وشركة بيع المصنوعات، أربعة رجال يلبسون الطراطير والجلاليب البيضاء، منهمكون فى غرف

وشوى وقلى وتخريط وتوضيب وتصفيف، ورائحة الأكل تضرب فى الحجرة تقلبها.

فتح «الحاج السنى» بابا أسفل رف رخامى؛ فكأن الحائط انفتحت بضلفتين. حاجة تهوس يا بوى؛ وإذا الفتحة مليئة بعشرات الأحجام من الحلل. مد ذراعه ودعبس فى الداخل وأعاده بكيس كبير من أكياس الفاكهة منظره كالح وعليه بطش الهباب، وتطل منه البوصة الطويلة ورقبة البخش، أعطاه لى؛ فقلت لنفسى: «ليلتك فل يا ولد الحرام وأنت لا تستأهل لكل هذا النعيم من الله ولابد أن تصلى له منذ الآن!» زحف الحاج نحو باب آخر تحت رف آخر، فتحه ونظر فى الفتحة، وشوح بالمسبحة فى وجهى قائلا: «اترك هذا! اترك هذا!»؛ فأعطيته له، فركنه ، وسحب حقيبة من حقائب الخضروات من المشمع، فيها جوزة هند كبيرة كاملة، وحزمة من البوص الاحتياطى الذى هو عبارة عن أعواد من شجر الورد مجوفة من الداخل كالبوصة، وحوالى أربعين حجرا من النوع الجيد المزلط، ووجاق نحاسى مشغول بالنقوش الأثرية، وبضع ماشات من معدن مصقول بأحجام مختلفة. حاجة تهوس يا بوى؛ مد ذراعه فانتزع الجوزة وقال: «طلع دول فوق وتعال!» قلت: «حاضر»، وفعلت؛ ونزلت؛ فأعطانى مشمعا مطويا أمرنى بفرشة فوق؛ وأمرنى بأن أسيخ الجوزة وأعمرها بالمياه المثلجة وأضبط إيقاعها جيدا، ففعلت، وفتح بابا من عشرات الأبواب فى الحوائط، اخرج فيتة معسل مزاج كامل كبيرة فيها عشرون باكو،

سلمها لى قائلا: اطلع، فطلعت، لأجد السفرجية قد مدوا طبلية طويلة وسلموا كل واحد فوطة نظيفة فردها على ركبتيه؛ وشرعوا يجلبون الأطباق المحملة بالأطايب الساخنة. فتسللت عائدا إلى المطبخ، وقلت للواقف فيه: «عشينى يا خوى قبلما ندخل فى شغل الغويط! وإلا حملونى من هنا على القرافة طوالى!». قال الطباخ: «نعشيك يا بو العم! اتفضل اقعد!»، وسحب ضلفة من الحائط فإذا هى ترابيزة كاملة استوت واقفة على الأرض موصولة بالحائط،وسحب كرسيا مستديرا وقال: «اقعد»؛ فقعدت؛ فصار يغرف ويضع أمامى حتى امتلأت الترابيزة بالأطباق؛ وحرت بين الأصناف لكننى أكلت منها كلها كفايتى، وتركتها فارغة توحد الله لا تبغى غسيلا. ونهضت؛ فقال الطباخ باسمًا: «لسه! الحلو!». قعدت مصفقا بيدى فى طرب: «ما أحلى منك». فوضع أمامى مجموعة أخرى من الأطباق فيها مهلبية بالفسدق واللوز والجوز والبندق وفيها كل ما ذكره لى الطباخ من الأصناف التى لم أكن سمعت بها من قبل أبدا. حاجة تهوس يا بوى. أكلت من كل ذلك كفايتى وقد انفتحت نفسى، ونسيت أن بطنى لها وسع محدد.نهضت متلمظا فقال الطباخ: باسما: «لسه الفواكه!». قلت جالسا: «لم يعد فى بطنى خرم إبرة!». قال: «مطها يا بو العم!»؛ وفى الحال رفع هذه الأطباق ووضع بدلا منها أطباقا كبيرة، عليها برتقال مشقق وتفاح وخوخ ورمان وتين وعنب، وحديقة كاملة بأصناف لا نراها عند الباعة فى الأسواق. أكلت منها هى الأخرى كفايتى، حتى وصل الأكل إلى حلقى. وتذكرت أن عمى الفقيه قال

ذات مرة إن الجمل يختزن الطعام فـي جوفه لوقت جوع لا يتوفر فـيه الطعـام فيـجيئ به من بطنه ويمـضـغه ثانيـة ليـعيش عليـه. فانبـسطت على الآخـر لما تذكرت هذا القـول، وقلت: فلأكن جـملا يخزن الـطعام لوقت جـوع قريب، وهو على كل حـال مهـما زحم معدتى وأتعبنى فإنه إلى زوال. عزمت على الطباخ بسيجارة فأبرز لى علبـة أجنبيـة وقال: «مـاباغـيرش! خـذ أنت واحدة نظف بهـا صدرك!». فأخذت يا بوى، وبالفعل أحسـست بنفسها الرطب ينفذ فى خياشمى وصدرى ناعما كـالنسوان الخواجات. ثم مضيت إلى فوق أجرر ساقى. وكان الرجـال يقابلوننى عائدين بالأطباق تلالا فوق بعضها.

الضيـوف كانوا متـقرفصـين أمام البرج يغـسلون أيديهم فى الطشت الـنحـاسى والولد يـصب على أيديهم من بـزبوز الأبريق النحاسـى المشغول بالنقـوش الأثرية. اتخذت طريقى إلـى المشمع فرشـته فى الركن، وفـردت عليه العـدة، وملأت الوجاق بـالفحم، جاءنى ولد بقطع من الفحم المشتعل وضـعتها فى الوجاق وصرت أمروح علـيها بذيـل جلبابى حـتى صهلل الوجـاق بالنار. انعطفت على الحـجارة فـجلعت أنظفـها وأضع فـيهـا الحصـو وأحشـوها بالدخان المعسل وأرصها بجوار بعضها؛ وعينى لا تكف عن التأمل فى الضيـوف وتفحص كل ضيف، لكن واحـدا منهم هو الذى كاد ينسف أبراج دماغى كلها من أساسـها، إذ أننى أراه كثيرا ولكننى لا أذكر متى وأين أراه، ولولا أنه يرتدى الجلبـاب البلدى والطاقية

ويمسك بالعصا الأبنوس ويقول له الحاج يا أسطى، لولا ذلك لقلت إنه أنور السادات بعينه الخالق الناطق حتى في الصوت والكلام والنظرات. أخرج أحدهم من جيب صديريه علبة ذهبية كعلبة النشوق، فتحها ونفض منها قطعة حشيش مدملجة صار يرص منها تعامير في حجم المليم الأصفر يضعها على ظهر علبة سجائر مارلبورو. بعد برهة فوجئت بالحاج السني يرمي في حجرى خلسة قطعة حشيش لا تقل عن أوقية، وأشار لي بغمزة أن أرص منها برحمة. ففعلت. ثم بدأت معمعة الشرب يا بوى؛ أدور عليهم بالجوزة وأسحب البهريز من وراء شربهم وفوق ذلك آخذ دورى في توليع حجر مثلهم. صهلل الجميع وتفككوا من ثيابهم، وخرجت أصواتهم المحتبسة منطلقة تتكلم بصوت عال، تروى النكت الإباحية والسياسية وينفجرون في الضحك.

حجر وراء حجر ودور في أثر دور، نجحت دماغي في معرفة كل هؤلاء القوم واحدا واحدًا يا خال، تيقنت من شخصياتهم يا خال؛ فيما عدا ذلك الرجل الأسمر الوجه الذى يقلد أنور السادات ويتلمظ بشفتيه مثله وعند الحديث يواوئ مثله. أما بقية القوم يا بوى فإنهم كلهم ممن حققوا معي يوم امسكوني أهرب الأسلحة. هذا الذى يجلس بجوارى تخين الفخذين كبير المؤخرة ممدود الكرش قصير الرقبة تخينها ووجهه كالأوزة المحمرة، بشفتين غليظتين وعينين براقتين تلمع فيهما الشتائم على الدوام حتى ليظهر كأنه يشتمك وإن كان صامتا.. هذا الرجل يابوى هو أول

من تلقـاني يوم أمـسكوا بي. أمـا هذا الأفندى الجـالس بجـواره، المحبوك حتـى وهو مشمر أكمامـه موسع ربطة العنق فاكك زراير الصديرى، بشبابه الطالع نحو الخمـسين من عمره، وجهه الأبيض المحمر الشـبيه بفردة حمـام زغاليل، بضيق عينيه وصـغر رأسه، والشـعر الخفـيف المبيض المـتناثر حولهـا، وشفـتيه الـرهيفتـين المزمومتين حتى وهو يتكلم، وحتى ليحار مـستمعه فى معرفة من أين يطلع هذا الكلام الواضح المرتب المـمتلئ بعـبارات مثـل «حيث إنه» والأمر يتـوقف» و «القانون لا يحمى المغفلين»، بـصوت قوى رنان، ويغمـره الوقار الشـديد حتى وهو يقول نكتـة على الرئيس أبو عـبدالنـاصر. هذا الرجل الملـعون يا بوى هو اللـى حقق مـعى تحت وابل من الكرابـيج. حاجـة تهـوس يا بوى؛ سـبحـان الذى أجلسنى بجواره الآن حـجرا لحجـر، تخرج البوصة من فـمه إلى فمى. ياللعز الذى أنا فيه الآن. أما هذا الرجل الثالث، النحيف، الذى تميز عن الجـميع بأن أخذ راحـته على الآخر، فـمدد ساقـا وعوج الأخرى دون أن يقـول دستوركم، بل وانعـوج متمددًا على فـخذه الأيمن منشغلا فى العبث بمؤشر راديو صغـير جدا فى كفه، حتى إذا جـاءته بوصـة الجوزة مـد بوزه الرفـيع الشـبـيه بـ «عقـدة وشنيطة» وصـار يشـفط الأنفاس بهـدوء وروية حـتى يأتى على الحجر ثم يضع كفه المستطيلة بأصابعـها السرحة على فمه وأنفه تاركا لدخان يعـود من جديد إلى فمه وأنفـه تدمع لدى ذلك عيناه، فيمسح على جبهته الضيقة ورأسه الشبيهة بأصص الزرع، غزيرة الشعـر قصـيرته، قـصيـر السوالف، وخط تصليح الحـلاق لامع

بوضــوح شديد حــول أذنيه وعلى قــفــاه المخطوط بالمسطرة. هذا الرجل يا بوى آه منه؛أعرفــه ولا أعرفه، أرى صـــوره فى الجرانين المفرودة عند بائعى الطعمــية وماسحى الأحذية والحــلاقين، يظهر والله أعلم أننى رأيت صورته ذات مرة بالبذلة العسكرية فى برواز على الحائط فى منزل لا أدرى من، إنما أدرى أنه منزل كبــير، فهو إذن لابد أن يكون رجلا تخــين المركز يا خــال؛ والحاج السنى هذا الملعون لا يريد أن يبوح باسمه، ويكتــفى أن يناديهم جميعا بــ «يا سعــادة البيه»، ويا أفندم، ويا ســعادة الباشــا، وحين يكون الكلام عن نفسه يقول: خادمكم المطيع أحــمد السنى يقول لكم بعد إذنكم كذا وكذا.

دماغى لفت يا بوى، تحلف اليمين أن البرج الذى كنا نجلس فيه صار يطيــر فى الهواء. الفجــرقال الله أكبــر ونحن نطفئ النار فى الوجاق ونلم العدة والضيوف يلبــســون أحذيتهم ويزررون ثيابهم ويشربون بعض المياه المثلجة قبل حروجــهم للهواء. سبقهم الحاج السنى نحــو الباب ملتفــتا نحــوى آمرا بأن ألم العدة كــلها وأكنس المكان جيدا وأطلب من الخادم أن يوصلنى إلى باب الخروج حينما أنتهى من مهــمتى، وإننى لأكون جدعا بصحيح لــو غسلت أرضية الغرفــة بالماء والخيــشة. وكنت أظــنه قد رأى النوم مــعششــا فى عينى، لــكننى تأكدت أن النوم فى عــينيه هو ســيمنعــه من صلاة الفجر على النحــو الذى يهواه.. لكنه مضى أمام الضيــوف فهبطوا السلم، وابتــعدت أصــواتهم، ثم اختــفت، ثم ظهرت من جــديد، ثم ابتعدت، لتختفى نهائيا.

السادسة : الطريق الملكى

تسلقت الشباك ونظرت فى الشارع، فرأيتهم جميعا يمشون نحو جامع عمرو، فنزلت، وجعلت أمشى هنا وهناك. رأيت الولد الخادم متكورا خلف البرج فى الطراوة، مستغرقا فى نوم عميق يأكل الأرز باللبن مع الملائكة. أسرعت بتنفيض الفرشة والأرض بصنعة لطافة، حتى نظفتها جيدا فى دقائق معدودة، وحملت العدة إلى المطبخ، فوضعتها فى نفس الدولاب وخرجت. وبدلا من أن أستدير يمينا استدرت شمالا، ومشيت قاصدا الباب الذى منه أصعد إلى البرج لأوقظ الولد، كى يفتح لى باب الشارع لأخرج..

فإذا بى قد صرت فى ممر ضيق مضاء بلمبات سهارى صغيرة، ومفروش بالسجاد فوق أرض من الخشب، ترن فوقها الخطوات، حوائطه جميلة الشكل، مزدانة باللوحات الملونة، المبروزة، والأنتيكات وبين كل بضع خطوات تبرز من أحد الجدارين حنية متكورة، أحود عندها يمينا، وأحيانا شمالا. وفى كل حنية عدة طاقات فوقها زهريات ورد يتضوع منها الضوء الوردى الخافت عبر مصابيح على شكل أيقونات ومساخيط..

السطّل يا بوى هيأت لى أننى ماش فى قصر من قصور الجنة لا يعترض طريقى أحد فلابد إذن أن يكون رضوانها الخفير مسطولا هو الآخر حتى نام يأكل أرزا باللبن مع الملائكة. صوت إلهى جعل يرن فى صدرى قائلا: إرجع يا ولد قبل أن تتوه ولا تعرف كيف تعود. وصوت آخر حاد لعله صوت أبى يزغد هذا الصوت الإلهى قائلا: إمش ياولد ولا يهمك اضربها طبنجة فلن يحدث لك إلا ما هو مكتوب عليك، تفرج على هذه الأبهات التى لم ترها فى حياتك من قبل، شف كيف الأغنياء اللصوص يعيشون يتمتعون بجنات النعيم فوالله يا بوالعم لا يحظى بهذه الجنان سوى فجرة اللصوص أما نحن فتعال قابلنى يوم القيامة لو شفناها؛ إننا فى فقرنا وعجزنا نسبّ الدين، نسرق، نقتل، ولن نحظى بالجنة فى الآخرة مهما تبنا ـ وهل سنتوب؟..

انتبهت إلى أننى مع مغادرتى لكل حنية يتعين على أن أنزل درجة سلم صغيرة، فأتبين على أثرها أن كل حنية فى الممر هى عبارة عن عامود من الأسمنت المسلح المدهون بألوان الزيت، لاحظت كذلك يا بوى أن بعض الشبابيك فى أحد الجدارين قد تحولت إلى نوافذ دائرية صغيرة كنوافذ السجن فى أعلى الجدار، ثم إنها اختفت تماما بعد عدة سلمات هبطتها على امتداد ذلك الممر الدائرى العجيب. إنه يتسع لشخصين اثنين بجوار بعضهما لا غير وبالكثير ثلاثة، رفيعين مزنوقين..

على بعد قليل كانت ثمة حنية جديدة تقترب، فأخذت استعد لنزول درجة السلم التابعة لها حتى لا أتعثر. هى الأخرى محفور

فيها طاقة مبطنة بالخشب من رفين منقوشين، على أحدهما زهرية ورد مضيئة وعلى الآخر مسخوط من الفضة اللامعة. وإذا بالهواء يكثر فجـأة، كالمطر يتدفق من السماء، وسمـعت أزيزا يشبه الأنين ويشبه زيق صدور المدخنين ويشبه كذلك الصريخ المكتوم. توقفت متجمدا من الرعب ياخال، باحثا عن مصدر هذا الهواء من أين جاء وهذه الأنات من أين طلعت. ثم إن الممـر انفـرش فـجـأة بالنور الرباني السمـاوى، فصرت أنظـر فى السقف، فرأيت ناروزة فـيه، عبارة عن فتحة مستـديرة فى سقف مقبب يتسـاقط منها الضوء والهواء. جعلت دماغي تحت الفتـحة مباشرة وتربعت فوق الأرض ناظرا فى عمق الفـتحة فوجـدتها غريبـة مظلمة من الداخل، فنمت مسطوحا على الأرض ناظـرا فى الفتحة محـاولا رؤية السماء فلم أقدر، لأن الـفتـحة كـانت تحتـوى عينى، فكأننى أنظر فـى جوف مئذنة منبـعجة بعدة أدوار مقبـبة، تنتهى فى شاهق البصـر بعمة تشبـه عمـة الجيلاتى فـوق كأس البـسكويت. قلت: لا إله إلا الله، واعتدلت جالسا ثم واقفا، وقد أحسست بدوخة كبيرة لا أعرف من السطل أم من الخوف أم من التـعب؛ فتسـمرت فى مكانى يا بوى، وأخذ الهواء يشتد فجـأة، ويسكت فجأة؛ لكنه كلما اشتد أو سكت، ارتفعت معه الأصوات التى تشـبه الصريخ والأنين؛ فصرت أبحلق فى كل شىء فى الممر؛ فـخيل لى أن الحنية التى تبعـد عنى مقدار ثلاثة أمتار تهتز وتتحرك..

قلبى راح يزعق ـ أقـصـد يـخفـق بشـدة: عـامـود من المسلح يتحرك؟

لابد أننى مسطول سطلة الجنون، فها هو ذا عامود الحنية يقف من جديد ثابتا فى مكانه.. ولكن، ها هو ذا يتحرك ثانية، بل إنه يقبل نحوى، يكاد ينخلع من الجدار، ينكسر، يقبل نحوى، وا..ه.. يابوى..وقعت أنا فى قمقم العفاريت بدون شك. شئ إلهى نطق فى صدرى قائلا: إجمد يا ولدى وكن رجلا. فصرت أتحرك نحو الحنية فى شجاعة مرتعشة، وفى نيتى أن أمسك العامود بيدى؛ لكننى ما كدت أقترب من العامود خطوة واحدة، حتى رأيته ينفصل عن الجدار ويقبل نحوى مندفعا هذه المرة كالرياح النافرة المباغتة، يهبد فى الحائط المقابل ثم يبقى مستكنا تماما. وبذلك انسد الممر تماما بعامود من الأسمنت المسلح ذى رفوف عليها ومساخيط ينبعث منها الضوء الملون. لحظتئذ ظهر لى بشكل قاطع كأن الممر لم يكن مفتوحا من قبل، وأنه مسدود بهذا العامود ذى الشفة العريضة من عهد بنائه، أى والله يا خال قادر ربنا يخرسنى لو كنت أكذب. اقتربت من العامود الذى صار فى هذه اللحظة مرادفا لعقلى. وضعت يدى عليه، فأحسست بنعومته وثقله ..دفعته، فإذا هو ثابت ثبوت الجدار فى الجدار، دفعته بقوة، فإذا هو يهتز قليلا، فدفعته بقوة أشد، فإذا به ينزاح ببطء؛ ليرتد آخذا مكانه السابق؛ وإذا الممر ينفتح من جديد..

نزلت السلمة المعتادة عند كل حنية؛ وجعلت أنظر فى أمر هذا العامود أتحسس طرف شفته التى التحمت بالحائط فكادت معالمها تختفى. أدخلت أطراف أظافر أصابعى بينها وبين الجدار وشددت

بقوة؛ فـإذا بالعامـود كله ينشد مـعى ببطء أول الأمر ثم بسـرعة ينجذب إلى الناحية الأخرى قافلا الممر من جديد. رأيت وراءه فراغ فـتـحـة باب، فـإذا هو عـامود وبـاب فى نفس الوقت، إذا التـحم بالحـائط لا يسـتطيع الغـريب عن هذه الدار اكـتـشـاف أنه باب. ونظرته من ظهـره فإذا فيـه «شنكل» سحرى، فـى مكان غامض، يمكن فتحه بمد اليد من الطاقـة تحت الزهرية مباشرة، حيث تدفع اليد رقعة صغيرة من الخشب دفعة تلقائية، لتنزاح، فيصطدم كف اليد بالشنكل، فيفتحه أو يغلقه..

رأيت هذا الباب السـحرى يفضـى إلى سلم غائص فى الأرض؛ فصار قلـبى يزعق من جديد فى ضرباته، يهزنى كـأنى ساقع فى بئر غويط. مع ذلك شمرت ذيل جلبابى، ونزلت.. أمال يا آبا.. الرب واحد والعمر واحد.

السابعة : الإمبراطور

الفتحة من أساسها فتحة بئر، ومن حقى أن أخاف يا بوى، فالعمر ليس بعزقة بصرف النظر عن الجراءة. أما السلم الهابط فيه فمثل الزنبرك، يدور حول نفسه. حاجة تهوس يا بوى. ما هذه الدماغ الرائقة، التى حفرت هذا البئر الصخرى فى هذه الأرض وحفرت هذا السلم فيه، وجعلت له ـ شف الفجر ـ ـ درابزينا من حديد ناعم، عبارة عن مثلثات كالأهرامات، واحد معدول، يجاوره آخر مقلوب؛ مشدودة بين قضيبين، أحدهما ثابت فى الدرج والآخر مطلق السراح يتلوى ويتعوج هابطا فى حوض البئر إلى عمق غويط جدا..

رجلى تخشبت على أول درجة، وقبضتى استماتت على حديد الدرابزين، وقلبى يرقص كأوزة ذبيحة. العجب يا خال أن صدرى كان منتفخا كأننى فرعون بذات نفسه. يظهر والله أعلم أن درجات السلم معمولة بالعنية كى تجعل من راكبها هكذا قلت فما بالى ارتعش هكذا وكأننى مجبر على نزول القبر حيا؟ قلت: لأننى لست بفرعون صعيدى أنا وأعرف مقابر الفراعين معرفة ديارى، كما

أعرف أصالة المساخيط من زيفها معرفة الأخ لأخيه ولو بعد غياب مائة عام؛ وأعرف منها مالو عرفته الحكومة لاحتلت الصعيد كله ولكن هيهات، ولرحلت عنه سكانه ووضعت بدلا منهم خفراء بنبابيت وأفندية من هيئة الاثار، كذلك أعرف المقبرة من المغارة من السرداب من المتاهة من الشرخ الجبلى الواسع، ليس هذا فقط يا بوى؛ بل إننى لأعرف مقبرة الأمير من مقبرة الفقير، مثلما أعرف جحر السحالي من جحر الثعابين لست في ذلك فارسا، خل بالك من هذا؛ إنما هى خبرة توارثتها عن أهلى، وتأكدتها من سعيى على ظهرها؛ أقصد الأرض، بل أقصد هى، المقابر؛ فالأرض هى المقابر والمقابر هى الأرض؛ والواحد منا يا خال مذ يفتح عينيه يرى الأرض مباشرة، وتظل عينة قريبة منها مهما اسذ ن قامته؛ ولا وسيط، لا عازل بينه وبينها؛ يده فى أحشائها، كما أن أحشاءها في جوفه على الدوام. ولذا فالواحد منا يا خال ـ أقصد الجنوبيين ـ قد رزقه المولى الكريم عينا نطاطة، تحط على هامات الجبال، وفى سفوح الأرض. ومحسوبك بالذات ـ بفضل هذه العين اللعبية ـ عاش حياة الطيور وحياة الحشرات معا تحلف اليمين ـ لا كذب ولا ميْس ـ إننى أحمل فى صدرى وقعر دماغى ذكريات الحشرات وذكريات الطيور معا، وأقدر على أن أفكر كأننى حشرة، وأفكر كأننى طير.. لأن حياتى الفائتة كلها لم تكن غير يومين اثنين، يوم كحشرة، ويوم كطير...

إن كان على المقابر فياما نزلتها فى أنصاف الليالى؛ لأخفى بداخلها مسروقاتى، بجوار هشيم من عظام الموتى؛ بل إننى أيام

شـعورى بغلـظ الصوت وطلوع العـانة ورمى النعـمـة فى الحلم، شعللنى الجنون، فاسـتدرجت امرأة عبيطة ضـالة؛ ونيمـتها بجوار الهشيم، وشرعت أتأكد من رجولتى. فما دريت إلا والميت يزغدنى بكف مـتخـشبـة فى جنبى زغـدة مؤلمة ويقـول بصوت مـسلوخ كصوت صرخة النار المكتومة: «يا أخى اختشى وخل عندك ربابة! بقى راجل أنت؟!» أما العـبيطة الضـالة فـانفجرت ضـاحكة بصوت هائج؛ وأما أنا فقـد اندفعت خارجا أعوى، والشـرر الأحمر يتطاير من عينى، بعد إذ اصطدمت جبهتى بسـقف باب الفسقية، وما كان صراخى وعوائى خوفـا من الميت الذى نطق، بل خوفا من «زقلط» قاطع الطريق، الذى نعرف جميـعا أنه يخاوى جنية تؤويه فى دار لهـا تحت الأرض؛ ولم يكن يخـطر لى فى بال أنه يسـتـوطن هذه الفسقية بالذات.

حضرتنى هذه الواقعـة وأنا فى وقفتى على أول درج من سلم البئـر. فصرت أضحك بشـدة، أى والله يا بوى؛ وهتف بى هاتف: إخز الشـيطان وارجع يا حـسن فهذه المقـبرة الفـرعونيـة مقـبرة ملوكية مائة فى المائة، وهذا البئر ليس مـحفورا بل مبنيا بالصخر حـول هذا السلـم اللولبى، الذى لو تكسـرت أصـابع الأمـريكان والألمان والبريطان وكـل المتفرعنين علينـا هذه الأيام، لا يخرج من يدها سلمة واحـدة منه. المقابر الملوكـية خطر يا خـال، كلها خطر، هى الخطر بذات نفسـه، هى مـخـزن لعطر الموت يا خـال رشـه الفـرعـون قـبل دفنه فـيـه بغـاز يبـقى أبد الدهـر فى مكانه، من يستنشـقه يمـوت حتمـا. أهلنا القدامى كـانوا فى غاية النصـاحة،

يعرفون أن لصوصهم مهما عبدوهم لا يصدقونهم، ولا يخافون من أبيهم الله، الذى يقول فرعون إنه ابنه، ولسوف يتسللون لسرقة ما تحويه المقبرة من جواهر وأموال؛ ومن هنا يا خال، لجأ أهلنا الملوك إلى حيل جهنمية، منها تسميم الهواء. لا أقول هذا من دماغى يا بوى؛ ولكنه شئ جربناه، ودفنا موتانا فى الكتم، ومع ذلك لم نتوقف عن نزول المقابر والإتيان بكنوزها، لكى يغتنى بها ضلالية كبار مثل الحاج السنى وغيره من لصوص البر العظماء. لكن قولوا لى بالله عليكم كيف جاءت هذه المقبرة إلى دار السنى؟ المؤكد أن دار الحاج السنى هى التى بنيت حولها منذ زمن سلطانى بعيد..

حلو! حلو! مادامت هذه المقبرة فى دار مقصوف الرقبة هذا، فلابد أن النزول إليها شغال على الدوام؛ وهاهى ذى بقايا وساخات الأقدام، وليس من المعقول أن أعقاب السجائر هذه من منذ أيام الفراعنة، أم تراهم كانوا يعرفون السجائر أيضا؟ ربما يا بوى، محتمل، فقد عرفوا كل شئ فى الدنيا والآخرة. والدليل على أن النزول هنا شغال هو وصولى إلى هنا فى حد ذاته يا بوى، إذ يوجد طريق معلوم وباب مرسوم، ومن حسن حظى أنه كان مفتوحا مما يؤكد أن أحدا كان هاهنا منذ وقت قريب، ومن لهوجته نسى أن يغلق باب الممر. النكتة لو أنه قد ترك الباب اعتمادا على أنه قريب من هنا وسيعود بعد برهة، أو لعله موجود الآن داخل المقبرة وسيطلع منها بعد قليل..

حاجـة تهـوس يا بوى؛ الرعشـة فككت تيبس قـدمى، فلانـتا، وتحركت يمناى نحو الهبوط؛ فـقلت: والله لأنزلن، فى البئر شفاط قوى، مـادريت إلا وجسدى كـريشة تهـبط فوق الدرج مسـحوبة بالشفط برهة طويلة مـرت كسياحة فى حـلق الثور حامل الأرض على قرنه. وإذا بى فوق أرض مـبلطة بالنقوش والرسوم والألوان الثـقيلة اللامـعة، كـأرض حمـام فى سراية مـشغـولة بالموزايكو. مـضيت أنظر فى هذه الأرض، فـإذا بإمكانى المشى فـوقهـا تحت سـقف تتدلى منه لمـبة كـهربيـة من أيامنا، وإذا مـساحـة الأرض عريضة توازى مساحة البيت المقام فوقها. فى الأركان لمبات أخرى مـضـاءة كـالبلح الأبيض. رأيت فى الركن البـعـيـد بابا كـأبواب الأضـرحه. خطفت رجلى إليـه، دفعـتـه، فانفـتح، فإذا بسلم آخـر أمامى وفمـه مفتوح، كـفم تمساح جوفه مظلم، لا يلمع فـيه سوى أطراف الدرج كالأنيـاب المخيفة. جاءنى هاتف يقـول إننى سأرمى بنفسى فى جوف التمـساح لو نزلت هذه المرة لكن الدماغ الناشف ناشف يابوى، صـرت أتحسس الحيـطان بيدى، فتـلاقت بزر نور آخر لمسـته فأضىء السلم كله فـإذا هو قصيـر لا يزيد عن خمس درجات فى مـواجهـتها باب. إه، العـمر واحـد والرب واحد، نزلت مـددت يدى متـحـسسـا جـدار الباب السـفلى، فلمـست زر نور فأضيئت الدنيا كلها أمامى..

صدق أو لا تصدق يا خـال، الدنيا كلها كانت أمـامى. باحة من باحـات الجنة، حيطـانها حـمراء وزرقـاء، وعلى كل لون، رسـوم

ونقوش لا مـثيل لهـا. على الأرض قواعـد رخامـية، يقف ويقـعد فـوقهـا تماثيل عظيمـة من الرخام والـحجر الصـوان؛ ومسـلات صغيـرة وكبيرة من الرخـام عليها نقوش ورسـوم. صادفنى باب على اليمـين، فتحـته، عبـثت يدى فى الحائط بحثـا عن الزر، فلما لمسته أضيئت الحجرة، فإذا بها تمتلئ بالصناديق المشغولة بالذهب والأحجـار الكريمة؛ بعـضها مـغلق وبعضـها مفـتوح؛ والتـماثيل الذهبية والفضية والبرونزية والـنحاسية مرصوصة فى كل مكان. ارتعت يا بوى؛ انسرعت؛ صرت أحشو جيوبى بالتماثيل الذهبية، وأحشر فى دكـة السروال، حتى صنعت خصرا سمـينا، ومؤخرة كبيـرة؛ وقلت: والله ليكونن لى نصيب فى هذه البـقية مهـما كان الأمر..

طلعت أجرى على البـاحة. دفعت بابا آخر، وأضـاءت النور، فإذا بى فى حجرة مليئـة بالفتارين، والدواليب الزجاجية العتـيقة، كلها مـلآنـة بالحلى وأدوات الزينة والـغوايش والخـواتم والأقـراط والعصى والمنشات ومراوح اليد والنيـاشين حاجة تهوس يا بوى، صرت أكـبش وأضع فى عبى، بعـد أن حزمت وسطى جيـدا بدكة السروال، حتى انتـفخ جسمى كله. طلعت أجـرى كالمجنون. دفعت باب الحجـرة الثالثة، فـانفتح؛ فإذا بهـا تمتلئ بأنواع من الكراسى والأسرة الذهبـية، لها أرجل كـالحيوانات المفتـرسة بعيـون تبرق بالأحجار الكريمة والذهب. ارتفعت دقات قلبى كدبدبة الخيول على الأرض، وهتف بى هاتف يضـحك، ينبـهنى أن الشـخص الذى من

المفروض أن يعـود زمانه الآن قد عـاد، وقد يغلق الباب الفـوقانى بالقفل، فأنحبس هنا إلى أن يبين لى أصحاب..

دورت على قلـبى بين ضلوعى فلـم أجـده، حـينمـا دلفت إلى الباحـة الكبيرة، فإذا هـى قد تغيرت؛ فـالباحة التى دخلتـها لحظة قدومـى كانت حـوضا من حـيضـان الجنة، على حيطانهـا كتـاب النقوش الحاوى من كل نوع ولون، حتى لكأنك وسطها فى سراية جـدرانهـا من الزهور: أين ذهبـت التـصـاوير يا بوى؟ تظل آلاف السنين عالقـة بالحائط؛ الحائط نفـسه مشكول بهـا، فما بالهـا قد اختفت فى لمح البـصر مسافة ما دخلت الغرفـة وخرجت؟ كيف يا بوى؟ أنا مهما أنسطل من شرب الحشيش لا أغيب عن الوعى أبدًا، فـالسطل هى مزاج المسـامرة وليـست بنج العـمليات. هذه باحـة أخرى غير التى دخلتها عند نزولى من السلم مباشرة!..

صار قـلبى مثل الدلو يغـوص فى بئر قـدمى، وصرت أشـده بحبال تتقطع لهـا أنفاسى؛ وصار الرعب ينشف قدمى من كل دم، تحلف اليمين يا خال أننى شعرت ـ خل بالك من كلمة شعرت هذه ـ أن جثتى كلها أبت إلى عرق من الخـشب اليابس، ليس فيه قطرة ماء توحد ربها. انشللت فيـما يظهر! ولكن حد علمى أن المشلول لا يقدر على التـحرك ومد اليد والقـدم، والتنفس، وها أنذا قادر على هذا، وها هى ذى حـبال النفس التى أشـد بها قلبى من بئـر قدمى تقـوى، وبكرتهـا تكر فى سـلامـة،ومكنة الجـسم شغـالة أربعـة وعشرين قـيراطا. لكننى ـ فيمـا يخيل إلى أيضا أشعـر كأننى لو أردت رفع يدى ما قدرت، أو مد قدمى ما تمكنت..

الذى طرأ على دماغى لحظتها يا خال أننى وقفت مسمرا، أضع ذراعى بجوار جنبى، وقد نسيت تماما كل ما تحت جلبابى من كنوز مخفية؛ بل والله وبالله نسيت الدنيا وما فيها، تقول يا خال إننى شارب لتوى ألف حجر من الحشيش المعتبر مع سنّه جليلة القدر من الأفيون الخام؟ حاجة تهوس يا بوى! وكنت أذكر فقط أننى جعلت أنظر كيف دخلت هنا ومن أى باب، وأحاول استذكار الخطوات التى اتبعتها منذ نزولى خطوة خطوة، فلا ازداد إلا تأكدا بأننى تهت، إذ ـ لابد ـ دخلت من باب سحرى موجود وليس موجودا فى نفس الوقت.. ثم فوجئت بأننى ـ صدق أو لا تصدق يا بوى ـ قاعدًا القرفصاء على الأرض مثل تمثال شيخ البلد؛ الأكادة أننى ولست أذكر كيف ولا متى جلست القرفصاء، مع أننى منذ برهة كنت واقفا مسمرا أنقل البصر فى الحيطان بحثا عن الباب الصحيح الذى دخلت منه لكى أخرج منه فى الحال. لكن، لم يكن ثمة من باب سوى الباب الذى خلف ظهرى والذى من المفروض أنه يفتح على غرفة الأوسمة والنياشين والعصى والجعارين والسبح الذهبية والخواتم والحلى على شكل صلبان وقباب وعقارب وحيات. هذا الباب الذى خلف ظهرى ـ إذن ـ يجب أن يفتح على هذه الغرفة وعلى الباحة، التى يطل عليها مجموع أبواب الغرف المطلة عليها. أين بالله ذهبت بقية الأبواب إذا ما اعتبرت أننى الآن فى الباحة العمومية؟! وأين الحوائط المنقوشة بالألوان؟! وأين السلم؟!..

يا ربى، ما نهاية هذه القعدة المتقرفصة التى وجدتنى فيها كأننى صرت تمثالا حجريا. هكذا قلت لنفسى فجأة وقد بدأت أسمع دقات قلبى بعد غياب طويل. وقالت نفسى: متى أنهض لأرجع إلى هذا الباب خلف ظهرى؟لعلى أكتشف أن دماغى هو الذى فى رأسى. إننى ما دمت وأنا قاعد الآن أتذكر نفسى واقفا فإننى أستطيع تبعا لذلك أن أقف ثانية؛ وأن أستدير خارجا من الباب أو داخلا منه إلى الغرفة التى كنت فيها؛ وأن هذا يجب أن يحدث الآن فورا، إذ أن خاطرا فى دماغى أنبأنى بأنى قد تهت فدخلت غرفة الدفن لابد، أو الغرفة الملاصقة لها، أو التى تفضى إليها بباب سرى لست أراه وليس يكشف نفسه لمثلى، إنما هو يستلبنى إليه فحسب!..

صدق أو لا تصدق يا خال أننى كنت لحظتها أشعر بغاية البهجة والراحة النفسية، لا يداخلنى أى ذرة من خوف أو رعب، بل تشوقت لرؤية الجثث التى هى مدفونة ها هنا، بل صرت أشعر بالحنين لأن ألتحم بها وأمضى فى عروقها وأتركها تمضى فى عروقى؛ أى والله يا خال ما هو بميس ولا فلحسة افتخار..

واضعا كفى على ركبتى ظللت متقرفصا أنظر فى فراغ الباحة، غير قادر وغير راغب فى تحريك أى عضو من أعضائى. حاجة تهوس يابوى؛ دماغى - مع ذلك - لا يتوقف عن الشغل فى ملكوت أفكار تغوص تحت الأرض وتتطلع منسلتة من بين الفجوات، تتسلق الآبار، لا تريد أن تبارح هذا المكان أبدا، لا تريد طعاما ولا

شرابا ولا نوما ولا هواء ولا غطاء ولا شمـسا ولا قمرا؛ فكل ذلك موجـود الآن بوفرة بين هذه الجـدران الأربعة تحت هذا الـسقف الجيـرى الأبيض، الذى اتضـح لى الآن أنه مقـبب كسقف الجـبانة بعد أن كان مـسطحا مستـويا منذ برهة. ولكن أية برهة؟! إننى لم أعد أذكر متى جلست القرفـصاء هكذا فى هذا المكان؛ فمن فرط ما مـر على دماغى من الأفكار والمرئـيات ها هنا لابد أن أكـون مكثت فى قعدتى عشـر سنوات على الأقل، ولابد أن أهل الكهف والرقيم الذين نامـوا فى كهفـهم مائة سنة عـددا إنما كان نومـهم من هذا القبيل الذى أنا فيه الآن نوما صاحيا وصحوا نائما.. حاجة تهوس يا بوى!!.

الخيال الذى رأيته يزحف أمام عينى جاثيا من خلفى كان خيال حيوان غليظ الحجم، تبينت فى شكله ثورا بقرنين نافرين، ولحظة انتبهت إلى شكله كنت قد صرت فى قـعدتى القرفصاء تحت بطن هذا الثور الضـخم، وهى تضغط بكلكلها فوق دماغى؛ لكننى كنت ـ مع ذلك ـ قـادرا على تحريك رأسى. الدليل على ذلك يا خـال أننى التفت مـذعورًا إلى اليـمين وإلى اليسـار. فلما رأيت ظل الفـخذين الاخيـرين للثور تمران بجـوارى أذن شعرت أن.. أن .. إحـليله قد تصدر كالمسمار فى قناعية رأسى؛ أى والله يا خال، فحنيت رأسى إلى الأمـام بفـعل ضـغط الإحليل الحـديد عليـه، فشـعـرت بذيل يلفحنى، يلسعنى، تلاته بالله العظيم يا خال تحلف اليمين أن قفاى كله أخذ يلتهب ويوجعنى. هنالك شعرت بغاية الرعب يا خال. فلما

فطنت إلى أننى أشعر بالرعب أيقنت بأننى مازلت حيا، وحينئذ جاءنى الفرج يا بوى؛ نفضت نفسى قائما فى الحال واقفا، وصرت أنكت جثتى نكتا وأهزها هزا. وحينئذ انتبهت إلى الأشياء التى أخذت تتساقط من بين خلقانى؛ فأيقنت بأننى قد أفقت تماما، وعدت إلى الصواب؛ فرحت أجمع ما تساقط منى وأعيده إلى خفائه. وكان ثمة باب وحيد أمامى، انتبهت إلى أن شكله ليس كشكل الأبواب، إنما هو إلى الممر أقرب، مجرد فراغ بين حائطين محكومين بأرض وسقف. دلفت منه. واجهنى حائط، كسر وجهتى، فوليت يسارا بين حائطين، فى ممر طويل كالسرداب لكن أرضه مرصوفة بالزلط والحصباء، وسقفه كذلك، واللون البرتقالى يلعب فى السقف والأرض والحائطين بكل درجاته..

بعد سير طويل فى هذا الممر البرتقالى، فطنت إلى أنه ضوء الشمس قد شرّف قادما من نهاية هذا السرداب على مبعدة خطوات قليلة. هممت بالجرى؛ ولكن جثتى كات ثقيلة كالرصاص يا خال، تحلف اليمين أننى كنت أحتاج لمن يحملها عنى. عافانى الله فرأيت الضوء البرتقالى يتسع شيئا فشيئا ويعمل بحرا كبيرا. سبحان الله يابوى كلما أوشكت على نهاية الممر واقترب الضوء شعرت بالبرود والارتجاف؛ وأخيرا فوجئت بأننى صرت فى منور كبير دائرى الشكل كمئذنة كبرج عال كبير، أرضه مسفلتة، وسقفه شمس وسحاب، وجدرانه الأسطوانية أطول من قامة ثلاثة رجال يقفون فوق بعضهم، ورابعهم هو الذى إن تساند فوقهم

يتمكن من حافة الجدار، ليروعه عمق الهاوية السحيقة خلف الجدار..

أخذت ألف فى فراغ هذا المنور يا بوى كلعبة الحلقة البلقة، أكاد يصيبنى لطف والعياذ بالله من حائط المنور الدائرى يعتقل قبسا دائما من مراسيل الشمس والقمر والهواء والمساء والمطر.. يالك من فرعون ابن فراعين يا من بنيت هذا هكذا. دورية الجدار فيها فجوات عديدة على شكل مربعات ومستطيلات ومثلثات، لا تتمكن العين من حصر عددها، صغيرة وكبيرة ومتجاورة ومتباعدة، وكلها فجوات فارغة يفح منها الظلام. إلى يسارى كانت فجوة، على شكل فتحة باب لا تعبرها قامة الإنسان إلا محنية..

قلت: لأعبرنها. مخى ناشف يا بوى؟ طب ماذا أفعل غير هذا يا بوى؟ خلها توهة بتوهة، حتى نصل إلى منفس رحمته. ما إن أحنيت قامتى ودلفت على عتبة من الحجر الأملس كحجر الجدار التخين المزوق بخطوط دقيقة، هى المسافات الفاصلة بين حجر وحجر؛ انجذبت لسلم حلزونى من الحجر، يدعونى للصعود. إه، يادار ما دخلك شر. درجة فدرجة، بسطة وراء بسطة، حودة إثر حودة، انحناءه قامة عقب استقامة خاطفة، يعقبها رفع صدر تواتيه وفرة من الهواء. وكنت أرى على يمينى وعلى يسارى كثيرا من هذه الفتحات المختلفة الأشكال التى رأيتها فى دورية الجدار قبل أن أدخل البرج. بعضها يجلب عواميد من الشمس؛ وبعضها يسرب كتلا من السحاب فحسب. بصصت من فتحة واجهتنى، فوقعت بصتى على أرض المنور وقد غاصت فى قرار مكين.

بصصت مـرة أخرى،فرأيت سـماء مشمـسة شاسـعة تنكفئ على أرض خضـراء تتاخـمها ـ على البـعد ـ أبنيـة كثيـفة؛ كـما رأيت شريطا يلمع كرقـبة نوبى متطاولة متلوية، سـرعان ما فطنت إلى أنه نـهر النيل الحـبيب يجثم فـوق جناحه جامع عمـرو بن العاص بجـلالة قدره كـفيلق من طائر أبـى قردان يحط على شطه لبـرهة وجيزة ولن يلبث حتى يحلق فى الهواء. حاجة تهوس يابوى..

واصلت صعود الـدرج؛ وكم صادفنى فى الصعود من فـتحات كبيرة تفـضى إلى ممرات وأبهاء يجرى الخيل فيهـا لفرط براحها؛ كيف يا بوى؟ من أين جاء كل هذا الوسـع وكل هذا التأسيس؟ وقد خامرنى والله خـاطر للدخول فى كل فتحة على حدة؛ ولكـن شيئا إلهيـا كان يدفعـنى إلى تسلق الدرج فى سمت السـحاب، الذى بدأ يظهر متكررا على الدرج الحـجرى. ثم ما لبثت السمـاء كلها حتى بانت شبكة حديدية مـستلقية فوق فتحـة دائرية، تظللنى طاولتها؛ وصار بإمكانى أن أتبين أنها مثبـتة فى السقف بعاشق ومعشوق؛ عاشق ثابت فى السقف ومعشوق فيها، يتثبت فيه العاشق..

صدٍّرت فيها رأسى يا خال، وكفى وكتفى، حتى نزعتها، وكانت ثقيلة جدا يا خال، وسبحان من يخلعها يا خال، لولا حدوث ذوبان وتهتك وتشعث فى حجر السـقف. انخلعت يا خال؛ إذ إن معاشيق كثيـرة خرجت بمعشوقاتهـا عن ثبت السقف؛ مما أتاح لى أن أدفع جسدى كله فيها؛ لأقلبـها على ظهرها، وأخرج إلى السقف يا خال واه واه وا..ه يابوى، مما رأيت: السقف كان ملتـحقا بسقف الدار،

بل ها هى ذى الحجرة القمرة التى كنا نحشش فيها مع ضيوف الحاج وعدت فنظرت فى فتحة البرج الذى صعدت من جوفه فعصف بى الخوف والرعب من العمق السحيق الذى خيل لى أنه يشدنى إلى القاع.فما كان منى إلا أن غطيت الفتحة بكل قوتى حتى رجع الغطاء كما كان..

رجع لى قلبى يا خال، وسمعت وقع خطواته فى صدرى، لكننى وقفت مطرحى، أفكر فى كيفية الخروج من هذه الدار وحدى بدون أن أتعرض للتوهان مرة أخرى. درت حول الحجرة القمرة مرتين، ثلاثا، وبدنى كان يرتجف. أسندت مرفقى على حافة جدار سور السطح المرسوم على شكل تاج ملكى. ورأيتها يا خال؛ نعم رأيتها، فرقص قلبى من الفرح. إنها المجارى التحتية الصاعدة حتى أعلى السطح ملتحقة بدورة مياه الحجرة القمرة. عافرت فى جدار السور حتى تملكت الماسورة وحضنتها فى صدرى، محوّطا عليها بذراعي، وتركت جثتى تهوى إلى الأرض بكل سهولة..

استقرت قدمى على الأرض، فأخذت أمشى فى هدوء وترو خلف دار الحاج السنى، متجها نحو عشش الجيارة. وكان بعض الأطفال قد رأونى وصاحوا صاخبين، لكننى سرعان ما اختبأت منهم فى إحدى الحوارى الغويطة، لأرى نفسى متجها نحو بوابة الحديد بغير إبطاء وفى عزمى الرحيل إلى البلد، لأتاوى هذه الثروة فى أرض دارى.

الثامنة: خطبة على قبر أبى

ما أحلاها يا خال حين تكون مواتية وجائية على الكيف، أقصد الظروف الحلوة، ظروف الإنسان الشقيان يتخبط فى بحر من التعاسة. ألا قاتل الله أيام النحوس يا خال، إنها خسيسة خبيثة هذه النحوس، لا تستضعف إلا طيبى القلوب الأبرار الأبرياء، ذوى النفوس الحسنة والصدور الطاهرة والأيدى العفيفة؛ تستكردهم يا خال، تضربهم على أقفيتهم بالصرمة القديمة، لعلمها أنهم بلا خرابيش ينشبونها فى وجوه حاسديهم وعزالهم. ووالله إنها لنحوس وأى نحوس، تلك التى تتحكم فى رقاب البشر الضعفاء؛ تخلقهم على مزاجها يا خال من قبل أن يولدوا. طبعا يا بوى؛ وإلا فما معنى أن يكون رجلا شرموطا كالحاج السنى يفعل كل الموبقات من وراء لحية ممدودة ومسبحة مطرودة ومائدة منضودة وحدائق موروودة وسيرة محمودة وفى باطنها مندودة.. أليس ذلك يدل على ظروف فى الأصل مجدودة وخيراتها غير محدودة؟!..

رُدَّنى يا خال إن كنت ترانى جمحت، فلست والله براكب فرسا غير فرسى فما أنا الآن بجامح أبدًا خصوصا بعد أن رأيت ما

رأيت وفهمت مــا فهمت وعرفت ما عـرفت من أسرار فى هذا البلد يشيب لهـولها الولدان. حقــا حقا هذه مـصر أم العجـائب يا خال ولن أمل من تكرارها. هذا والله ليس مثلا يقصد به التندر، ولا هو من قبيل الهتافات والعصبية، فلو قدر لك أن ترى ما رآه العبد لله وتشقى شقاءه وتعرف ما عرف، لأيقنت أنه قرينة صدق لايجيئها الباطـل من أى مكان فيــها. والحاج السنـى أحد هذه العجـائب يا خــال، إذا قدر لك نزول هذه الـبلد لاتنسى أن تمر عليـه وتتفـرج؛ دعك من الأهرامـات وأبى الهـول وسـقـارة،بل دعك مـن البطلمى والقـبطى والإسـلامى والمـملوكى وكل ما تلـوكه ألسن المرشـدين السياحيين؛ وانظر فى عجيبــة الحاج السنى وحدها، ففيها ـ أقصد فيه ـ كل الأزمنة والأنـتيكات؛ عافاه الله وأعطاه طول العـمر حتى يتـمكن من مص كل مــا فى العـروق من دم، ومــا فى الأرض من رحيق، وما فى السماء من ماء، وما فى الجو من هواء يقتل الفجر فى كل يوم ويمشى فــى جنازته محنى الرأس من فرط الخـشوع والتقوى، وتباركه الشمس صباح كل يوم، تبرم فى عوده وتصلبه كعود الخيزران..

شف يا خال؛ خذها من العبد الفـقير إلى ربه تعالى «حسن أبو على» ولد أبى ضب: هناك مـصران: يا ولد العم لامصـر واحدة: مصــر الصـعيـد والوجه البحـرى، ومصر الـقاهرة وحدها، عليـها اللعنة إلى يوم القـيـامة. شف يـا خال؛ لست مـتـعلما وإن كـان أعمامى من الفـقهاء النبهاء؛ إنما أستـطيع أن أقول لك بالفم المليان أن مصر كنانة الله، التى ورد ذكرها فى كتـابه العزيز هى الصعيد

والوجه البحرى؛ هى مصر ذلك الزمان، التى تعهد الله بحمايتها من كل شر وخراب ومن كل معتد أثيم؛ أما مصر القاهرة هذه، استعنت عليها بالله أن تجيئها شوطة تأخذها إلى غير رجعة بكل ما ومن فيها، وأن يجرى الزمان بقيام عاصمة جديدة فيها عالم نظيف طاهر اليد..

مصر القاهرة هذه يا بوى هى التى ابتناها علية القوم من الفاتحين الأجلاء - شف الأكادة - فمن الفسطاط إلى العسكر إلى القطائع إلى القاهرة المعزية - الحسينية والجمالية - إلى قاهرة الإفرنج من تخوم الأزبكية حتى ميت عقبة.. هذه كلها كانت مجرد سكن للحاكم الجديد ولأسرته وعلية القوم وأتباعه وعائلات خدمه وحشمه. هذا ما تعلمته من أولاد الحلال القارئين، ومن وكيل النيابة الذى كان مسجونا معى، حتى بربش وهندى وغزولى وبسبوسه يعرفون هذا من غير قراءة فى الكتب. وحيث يسكن الأمراء والحكام والمرفهون لابد أن يعف على مساكنهم ذباب كثير، حشرات من كل نوع تتغذى على حسابهم.. الكل عبيد ولا أخلاق للعبيد وإن لبسوا فاخر الثياب من خلع أسيادهم وأكلوا شهى الطعام من فضلاتهم. ومهما تقلد العبد خطير المناصب أو جليلها يظل العبد الذى فى داخله يسبح بحمد سيده، يوجه كل همته فى تقوية سلطانه وتعلية جبروته وتثبيت طغيانه، حتى ألفوا مثلا سيئا يقول: من أكل خبز اليهودى يضرب بسيفه. إسمع كلامى يا بوى وصدقنى أن اللص فى مصر القاهرة هو السيد الحقيقى

مهما تفه شأنه وقل نفعه، والكل يسرق على قد حجمه ومركزه يا بوى، هو وشطارته، ولربما يقع فى قبضة الحكومة فى كل يوم، ويمثل أمام المحاكم كل أسبوع، وكل ذلك يصبح مجرد رياضة ونزهة يقوم بها، فهو واثق أن الدينار سيد الأخلاق. إفعل ما بدا لك فى هذه البلاد يا بوى، فأنت لن تستطيع رؤية الدينار وهو يغادر يد الفاعل داخلا فى ذمة الحارس. أنت يا بوى فى هذه البلد لاتستطيع أن تحكم بالقانون؛ ووالله لو وضعت على رأس كل فرد قدمى شرطى مدجج، بل وحتى لو وضعت فوق رأس كل شرطى قدمى شرطى آخر، إن الفساد ضارب فى كل النفوس يا بوى، البذرة نفسها مسمومة من الأساس فكيف يتم إصلاحها يا بوى؟ إنهم قوم لاينفع معهم وعظ ولا إرشاد ولا ردع، لأن الوعظ والإرشاد والردع عندهم فى حاجة إلى وعظ وإرشاد وردع فكيف يتم ذلك يا بوى؟ كيف يا بوى حفظك الله؟ تحلف اليمين يا خال أنهم قوم يشجعون اللص وينفخونه ويمكنونه من كل المنافذ حتى يتمكن منهم أنفسهم ويمص دمهم بصنعة لطافة أو بخشونة العافية؛ ويا حلاوة اللص فى نظرهم لو كان ظريفا؛ إنه والله ليوشك أن يكون نبيا بينهم..

أنا لم أقرأ الكتب يا بوى؛ ولكننى عن خبرة وتجربة مريرة أقول لك إن بلد الألف مئذنة هذه تحوى من دود الأزقة والخنازير الوضيعة والخنافيش العتيقة ما لا يمكن أن تسمع به فى مكان آخر. واه يا بوى واه، تحلف اليمين أنها مخزن للدعارة والإفك والزور والبهتان رغم مظهرها الوديع ولحيتها الطويلة الساجية

ورغم رائحة بخورها وحلاوة نسوانها وطراوة رجالها هؤلاء الذين يعيشون يا بوى ويطالبون بكل شئ فيحصلون عليه بالطيبة أو بالغصبية ، ألم أقل لك إن الدينار سيد الأخلاق وأنه مفتاح مخك الذى يجب أن ينفتح لأى تفاهم حول أى شئ عن أى شئ؛ ستدفع كم؟ والكل بأريحية وعن طيب خاطر، لأن الجميع يشفطون ويهبرون ويبيعون كل شئ يخطر على بالك؛ وما دام قد أصبح للذمم أسعار فقل على الدنيا يا رحمن يا رحيم. الأكادة أنهم يفعلون كل ذلك يا بوى، فى سهولة تامة يا بوى؛ وتمضى مع ذلك الحياة هادرة كأن شيئا لم يكن: الذى تعرف ديته اقتله؛ هكذا يقول المثل عندهم يا بوى!!..

أفتعرف يا بوى من هو الذى يقتل كل يوم وكم عدد القتلى ؟ بالطبع لاتعرف يا بوى. أما أنا فأعرف؛ وجوابى أنك تستطيع أن تعرف بسهولة كم يزداد عدد القتلى كلما رأيت شخصا يضحى بالمال أو بالكرامة فى سبيل مغنم شخصى؛ ولاتنسَ أن تضيف نفسك فى عداد القتلى يوم تضبط نفسك متلبسا بفعل كهذا مما تضطر لفعله كل يوم كى تبقى ـ فقط ـ على قيد الحياة يا بوى!!..

أفتنتظر منى يا بوى أن أعيش بين هؤلاء القوم دون أن أكون مثلهم؟ كيف يا بوى؟ أتلقينى بين الثعابين السامة وتطلب منى أن أكفيها شر أذيتى لها والأذية ليست متوقعة إلا منها؟ كيف يا بوى؟ ألست أنت يا بوى القائل دائما فى كل وقت: إن لم تتذأب أكلتك الذئاب؟ وأن هذا مثل وارد فى الكتب مثل الآيات القرآنية؟ هاأنذا أعمل بنصيحتك وأتأكد أن البركة فى هذا المثل، وعما

قريب أغدو أذاب واحد فى البشـر. هاأنذا يا بوى أتطبع بشخصية الحاج وأتخلق بأخلاقـه، وأحوى بعض صفاته، حـتى أكملت منها وجههـا وبقى الوجه الآخر. أما وجه الحـرفنه فى السرقة والنهب والتهلـيب والتهريب فـإن لم أفعله كلـه فإنى مؤنس فى نـفسى القـدرة على أشـنع منه منذ أن كـشـفت أسـاليـب الحـاج السنى وغيره. أما الوجه الآخر، وجه اللحية والمسبحة، والرفول فى ثياب سمـعة جيدة تجـتذب علية القوم والحكام وتوسـع من العـلاقات وتقوى من النفوذ، أما هذا الوجه فأنا بسبيل تأسيسه وبحث سبل الوصول إليه بكل هدوء واطمـئنان بال. كل ما هنالك ـ وادع لى يا بوى ـ أن يقـينى الله عقوبة الـسجن إلى الأبد، فالسـجن ليس اللص الكبير فى بلادنا يا بوى؛ إنه عقوبة اللـص الصغير فحسب، كلما تفهت مـسروقاته عظمت عقوبتـه. لهذا أعدك يا بوى أننى لن أكون هذا اللص أبدًا؛ إنما سـأكون ذلك الكبيـر الذى يعلو بنفوذه فلا تطاوله هامة القانون، ولاتعرف طريقه عربات العسكر.

التاسعة: حساب على تخوم الجحيم

ذلك ما حدث لى فى جوار قبر أبى؛ وهذا كل ما دار فى خاطرى من حوار أمام شاهده. كيف يا بوى مررت على هذا القبر وأنا ملغم بالممنوعات وليس من الصواب أن يرانى أحد أو يحتك بى أحد، فكيف جئت إلى هذا القبر لأقرأ على روحه الفاتحة؟ أنا الذى جئت من تلقاء ذاتى أم أنه ناداني فجئت مزدجرا؟ أذ بينما أدخل البلدة كانت الشمس خارجة ورقبتها دامية على أطراف سكاكين السحب البيضاء المرتدة الزاحفة نحوها كالغول يوشك أن يبتلع بقية الرأس الصغير لنغيب كلنا فى جوفه المظلم. مع المغارب تيقظت الليالى الفائتة التى تركتها على هذا الطريق بين هذه الحقول والجبل بشقيه. خيل لى والله يا بوى أن أبى طالع من الخص الذى يخفر فيه ماكينة المياه يستعجل قدومى فى قلق. شعرت والله بالحنين إليه، الدم يحن يا خال. قلت: لقد طلبنى إذن ولأكونن نذلا وابن حرام إن لم ألبه فاتحا أحضانى، هى تخريمه قصيرة عبرتها إلى سفح الجبل فصرت أمام المقبرة. وشعرت والله أننى كنت فى حاجة إليه ينصرنى فى هذه العملية الكبيرة

التى عملتها، وعملتــها فى من؟ فى سبع من سباع الكهن واللؤم واللصوصيــة وله بين كبار الحكام أرهاط من الأصــدقاء والخلان والعشاق والمسامرين، وهو الباذل فى كل حال هدايا من الأنتيكات والأثريات وفلوسا رخيصة يذبح بها ذمما وضمائر لا حصر لها.

وبعـد أن جـالت كل هذه الخـواطر برأسى ولـعـبت فى بطنى تذكرت أننى لم أقرأ الفاتحة بعد، فقرأتها على عجل. ثم تأبطنى الليل حـتى وصلت إلى دارنا والناس كلهم مـشغولون فـى صلاة العشاء فلم يحفل بقدومى أحد. فلمــا فتحت الباب ودخلت وأغلقته من ورائى بسر هادئ أيقـنت أن روح أبى قد حضــرت وباركتنى فـعافـانى الله إكرامـا لخاطرهـا؛ إذ هى منذ لحظة صعـودها إلى بارئها ـ كـما يقول عـمى الفقـيه دائما فى كل مـأتم ـ صارت من جـديد نفسًـا بريئةً طاهـرة فى رحاب الرحـمة الواســعة. الفـأل الحسن يمـضى حسنا إلى النهاية، هكذا يبـدو الجواب من عنوانه. على ضوء عود الكبريت رأيت لمبة الجاز نمرة عـشرة متربعة فوق رفهـا الخشـبى يغطيـها التراب ولـكن الجاز فـيها واضح حـتى منتصفها. الحمد لله، خلعت خلقانى كلها؛ نفضت جسدى من كل ما خبأته فيـه من تـحف ثمينة وكنوز نفيسة؛ غطيتهـا بحلة كفأتها فوقها. ثم جئت بكريك ومنقرة صـغيرة، وجعلت أحفر فى الأرض بصبر وقوة حتى لا أصدر صوتا ينبه إلى وجودى؛ إلى أن وفقنى الله فـاصطنعت بئرا صــغيـرا مـحندقا مـربعا فى حـجم صندوق جدتى. يامـا أنت كريم يا رب، هذه شـكارة أسمنت باقـية من أيام

البناء؛ عجنتها بالمونة؛ وليست البئر من جميع الجهات تلييسًا جيدا كـأننى صنعت له حوائط بالبـتن. تركتـه حتى يجف، ثم اخـتلقت لوحا كبـيرا من الخشب سويتـه على قد حلقه. صار مـؤكدا أننى فى الصـباح ســأدفن ثروتى فى هذا البـئر المربع الكبـير وأغطيـه بلوح الخـشب هذا وأردم فـوقـه مـسـويا به الأرض وفى الآخـر وضعت السرير فوقه فى هذا الركن ليختفى البئر عن الأنظار تماما وينجـو من تحسس الأقـدام الفضـولية. صـار بإمكانى أن أرتمى فوق السـرير متـمنيا على الله ألا يـحس بوجودى أحد حـتى أتمم العملية فى أمان الله..

مسيت على المصباح، فلمَّ خيمة ضوئه وابتلعها، تاركا بصيصا يدل عليه. مادريت إلا وعمى الفقيه الـكبير المتوفى قاعد على تخوم الحائط المجاور للمـصباح بكامل هيئتـه. ارتعت يا خال؛ يدى تكاد تمتد لتـصافحه. غـير أنه لم يكن ينظر لى أو يشعـر بوجودى، بل كان كعـادته مستـغرقا فى حديث العـشاء الذى يعظ به الناس كل يوم فى دارنا عقب صلاة العشاء. كان يقول عن يوم القيامة كلاما عجيبا يا بوى؛ ما سمعته منه إلا وشملتنى رعشة الخوف من يوم الحساب فى الآخرة: إنه يوم بشع يا خال والعـياذ بالله، وسبحان المنجى من عـذابه الأليم: يوم تكون كل الأجـسـاد التى على ظهـر الأرض قـد فنيت وباتت ترابـا فى تراب ولم يبق من الجـسـد إلا فسفـوسة كالسمسـمة كامنة فى أسفل العمـود الفقرى للبنى آدم فوق الذيل مباشـرة واسمها عضمـة الذراع؛ حينئذ ـ خل بالك يا

بوى وفتّح مـخك ـ تبدأ هذه الفـسفوسـة تنبت في جوف الأرض ولكن إلى الداخل، حيث ينمو عودها فى بطن الأرض قدر ما ينمو؛ وإذ ينادى المنادى لحظة المثول أمام الخالق فى ذلك المشهد العظيم، تنفلت كل هذه العيـدان النابتة الطائرة فى الهواء ذاهبـة فى سمت النداء. هذا إذا كانت في الأصل لمخلوقات من ذوى الأصـول الطيبة والأعـمال الحـسنة ممن هم بلا ذنوب يا بوى. فـأما المذنبـون فى الدنيا فآه على محنتهم وما يجرى لهم يا بوى؛ تظل العيدان المذنبة تحاول نزع نفسـها من باطن الأرض الملتهبة دون جدوى، فـتبقى هكذا يسفعها الريح واللهب إلى أجل غير معلوم..

خفت يا بوى؛ وسـحقنى الخوف فى جوف الفراش فلم تقو على احتوائى، بل ضاعفت خوفى. دفنت رأسى فى ثنية المخدة، وألقيت بنفـسى عنوة فى قلـب الظلمـة المدلهـمـة، لا أبغى رؤية شئ ولا التفكيـر فى شئ.صرت أقرأ الفـاتحة مرة بعد مـرة، وسورة يس، وأية الكرسى، حـتى انقطع سـياق الآيات فـجـأة وكف طنينه فى دماغـى؛ وقد انجابت الـظلمة فـجأة، فظهـرت السماوات، وظـهر الضوء والدنيـا أمامى سـداح مداح، لا بناء لازرع لا ماء لاشـجر لاطيـر لابشر لا حـشرة، لاشئ سـوى الضـوء والفراغ والرمـال والرعب الهائل العظيم. أنا ـ آنئذ ـ مربوط من مؤخرتى فى مرتفع من الأرض، كأن مـسمـاراً بقلاووظ قـد ثبت فى مؤخـرتى أسفل الذيل وفى جوف الأرض ومربوط من الطرفين بصامولة حديدية قابضـة. بكل ما فىّ من جهـد وقوة جعلت أعـافر وأعافـر، أحاول

نزع نفسى من الأرض بدون جدوى، وروحى متعثرة متحشرجة فى حلقى، لاهى تعـود إلى صدرى ولاهى تطلع نهائـيا وتريحنى؛ حتى الصراخ يـرتفع داخل جمجمتى ولا أقـوى على إطلاقه؛ ومن حوالى ومن كل ناحيـة أرى عشرات المئات من الأجســاد كالأعواد تنخلع بسرعة هائلة عن الأرض؛ فتطيـر فى الهواء نشوانة فرحانة فى سمت النداء. وقد ظهـر لى كأن الأرض كلها لم يعد فـيها نبت معـذب سواى يا خـال، فصــارت نفسى تتـمزق، وصــرت أحاول وأحاول حتى كفـفت عن المحاولة درءًا للوجع العظيم الذى يمزقنى من المعافـرة. كنت أزفر فى صيحـات استغاثة ذليلة: رحـمتك يا.. رب.. عفـو.. ك ور.. ضاك يا.. ر.. ب. حـتى استجـاب سبـحانه لدعائى؛ إذ مـا كدت أشرع فى المعـافرة من جديد حـتى وجدتنى منتزعا من الأرض غيـر أننى لم أطر، بل صرت أمشى على الرمال وحـيدا، حـيث لا شئ حوالى أو أمـامى. كنت مـتيـقنا بينى وبين نفسى أن لامفر من الحـساب، وأنه لم يبدأ بعد، وأننى ذاهب الآن إليه. وكنت أتعشم أن الله سبحانه لابد أن يدخر لى رحمة، إكراما لخاطر أعمامى الفقهاء مثلا، أو تقديرا لظروفى يا بوى. فجأة وقع بصرى على بـنايتين متـجاورتين على طراز يشـبه المسـاجد لكنه ليس بمسجد، البـناء جديد ولامع ومهيب إحدى البنايـتين تمتد إلى الأمام بضعـة أمتار عن الأخرى؛ ولهـما بابان يفتـحان فى إتجاه واحد. جعلتهما قبلتى يا خـال؛ فلما اقتربت منهما تبينت أن البناية المتقدمـة لها باب عتيد كأبواب السـجون الحديدية العتيقـة المقرحة بلون الصدأ والرطوبـة؛ شكله والعياذ بالله مـخيف مرعب. أمـامه

تبينت ناسـا كثـيرين لاحصـر لهم يقفون فـى ساحة قـاحلة أمام البوابة فى حالة انتظار. أمـا البناية الثانية فقـد ظهر لى أن شكلها فـخـيم، وليس لهـا باب يغلق؛ وحـبـال الورد الخـضـراء تتـدلى بورودها على الحائط ظهـر أنه سور عظيم يا خـال. ولم يكن أمام هذه البناية ثمة من أحد، فتقـدمت من بابها، وهممت بالدخول فإذا بجـسد غليظ ضـخم يظهـر مائلا من وراء الجـدار، فيـعتـرضنى بعـينين مـا كرتين قـائلا: رايح فـين؟! قلت مـرتجفـا: تسـمح لى أدخل؟! فأشار بيده نحو البناية الأخرى قائلا: شوف اسمك هناك. فأخـذت أنفض نفسى فى الأرض يا خـال، أصرخ صراخـا لله ما يغيثنى، أصـوات كالنساء كالحيوانات يا خال؛ وكلـما اتجهت نحو طابور الحشـر ارتددت مصوتا فـزعا ألطم وجهى وركـبتى بكفى، والدموع والعرق يبللان جسدى كـله طار صوابى يا خال؛ فصرت أجرى مبتعدا وأنا متيقن من أنه لامفر من الحساب، يعنى بالعربى لهم حقوق عندى لابد أن يأخـذوها؛ وليس هناك مكان أهرب إليه . لكن البنايتين اخـتفتا وعـادت الدنيا سداح مداح كمـا كانت: رمل وسمـاء ودخان قـاتم، إلا ويظهر أمـامى نهر عـريض فيـه قارب كبير. جـريت نحو القارب أصيح مشوحـا بكل عزمى. النوتى كان رجلا طيـبا؛ حَرف بوز القارب نحـو الشاطئ واقتـرب منى؛ فإذا فوق القارب جمع كبير من الناس لكنهم منكمشون فى بعضـهم من شدة الريح. والـنوتى رفيع ممصـوص يوحوح قائلا وهو يـمد لى سقالة أتشعبط فيها: تعال دفينا يابو العم. ورغم أننى لم ألمس الماء فقد شعرت بخلقاتى غرقـانة فى المياه ثقيلة على كتفى. فلما ركبت

واعتدل القارب وصار فى وسط النهر يضربه الموج والريح من كل مكان؛ كنت واثقا أننا ربما نكون ذاهبين بهذا القارب إلى المنطقة التى يتم فيها حسابنا وتسويتنا على الجنبين؛ إذ لابد أن يكون كل ما هاهنا يعمل لحساب الحساب، فنحن الآن فيما لاح لى فى منطقة الحساب وأينما توجهت تتلقفك أيد تجرك إلى الحساب.

اللهم اجعله خيرا، لم أدر أننى كنت لا أزال فى قلب سريرى إلا حين وقعت منتفضا فوق تراب الحفرة، وكان الضحى لحظتها يركب الحيطان. لقد أفزعنى منظر الحفرة يا بوى؛ تخيلتها قبرى الذى انفتح لأطلع منه إلى الحساب؛ فنكت جسدى فى الحال ونزلت؛ دفنت الغنيمة كما رسمت لها؛ وضعت فوقها لوح الخشب؛ ردمت لوح الخشب بالتراب سويته بالأرض. بعدها غسلت وجهى وسويت الخلق على كتفى، وطلعت أسأل عن صديقى «هليّل» وعلى إخوتى البنات وعلى أمى.

على أن قلبى - تحلف اليمين يا بوى - كان يتلوى بين جنبى ويزعق فى صدرى من شدة الألم. ذلك أننى مررت بجوار غابة النخيل فى طريقى إلى «هليّل». ولدار «هليل» طريق آخر من وسط البلد عبر حوار ودروب ضيقة وخلال بيوت خربت من أيام الحريق ولم يقو أصحابها على إعادة بنائها لضيق ذات اليد، غير أننى لا أدرى لماذا نفرت من هذه الطريق نفرة شديدة ووليت نحو الغيطان ملتفا حول البلدة، لعلنى كنت مشتاقا للمرور حول البلدة ورؤية الناس، ولكن يبدو أننى كنت أضمر الفوت على دار «كاملة». بمجرد اقترابى من غابة النخيل تذكرتها، فانقبض قلبى

وشعرت بالرجفة، وأسرعت خطواتى حتى لا أطاوع قلبى المجنون فى الذهاب إليـهـا. مع خطواتى حـاولت أن أنسـاها، وأنسى أننى كنت السـبب فى مـوت زوجـهـا يـاخـال. كـرهت أن أراها أرملة، وكرهت أن ترانى هى، فندمت على الفوت من هذا المكان..

ولكن هيهات، لقد رمى بها الله فى طريقى غصبًا عنى؛ بعد أن كنت قد جـاوزت النخيل كله وصـرت على مقـربة من دار «هليّل» مخى الصـعيدى لم يكن يعـرف أن «كاملة» موضـوعة فى طريقى وليس فى مكنتى أن أزيحها..

كانت قادمـة من بعيد حاملة زلعة المياه فـوق رأسها، وفى ذيل جلبابها يتعلق طفلان صغيران. تحـلف اليمين ياخال أننى عرفتها من خيالها يزحف على الأرض متميزا عن خيال النخيل، كظل نخلة آدمـية ممشـوقـة القد عـلى صدرها عـرجـون بلح يتـهدل يبـغى الوصـول إلى فم الآكلين. سـمعت قلبىَ يرتـعش وأوصالى كلهـا ترتجف، تحلف اليمين ياخال أننى ليلة اقتحـمتها فى عقر دارها ما كنت خائفا هكذا..

وا..ه ياخـال، كيف باللـه كانت هذه الغـزالة الوديعـة الحانيـة بظلها على الأرض تنام فى حضن سقاء محنى القامة طول عمره، قد رطبته مياه القـربة حتى بات ـ يقولون ـ يحيض كالنساء؟ حظ أعمـى بعيـدًا عنك. ولكن، لولا أن هذين الطفلين يشـبهـان أبيهـما السقـاء ما ظننت أنه اعـتلاها مرة واحـدة؛ إذ يقول جـسدها ذلك ياخال، ويقول بكل طلة من عـينيها أنها لاتزال عذراء لم يخـترقها

أحد وإن كـانت قد حـملت وولدت مرتين. حـقدت والله على أبيـها ذلك الحمار التخين المخ، كيف رضى أن يزوج ابنته هذه من السقاء المضعضع، الذى لا وراءه ولا قدامه؟! أكان يرمى ابنته رميا؟! أكان كافرًا بنعمـة الله هكذا فيتركها ليدوس فوقـها الكافرون الشرهون وإن كنت منهم؟! واه ياخـال؛ لقد مـات عائلهـا وتشردت بسـببى، دون أن أذوقها ولو بقـبلة، بضمة واحدة، كل صيـاع البلد ركبوها فى أمان الله وأكلوا من العرجون حتى شـبعوا فلم يشعر بهم أحد ولا غلت عليـهم ظرف سخـيف طارىء. أمـا أنا فلا، إننى أعـرف حظى المهبب يابوى؛ ما أكاد أصل إلى قطوف الجنة حتى يطلق الله على كلبا يفزعنى أو ينهشنى فأرتد محرومًا أطلب السلامة مغنما. الكل يركـبون وأنا أحـزن وأتحمل الـوزر، فلابد أن يكون للمـولى الكريم حكمة فى ذلك ياخال؛ وكـيف يكرمنى ولو بلحسة من هذا الطعام الجـيد المستبـاح وأنا دائم الخناق معه ولا أفـعل حتى الآن شيئًا يرضيه؟ إن الله ليس غافلا ياخال؛ وهو سبحانه أراد أن يَكيد لى ليلة زرت «كـاملة»؛ ولسـوف يكيـد لى على الدوام كلمـا أردت ارتشاف العسل قلبى يحدثنى الآن ياخـال أن أعانده كما يعاندنى، أن أفعل مـثلما فعل جـدى البعيد آدم علـيه اللعنة، أن آكل من هذه الشجرة المحرمة؛ وإلاركبنى الجنون ومشى عقلى إلى غير رجعة ـ طيب يارب، أنت سبـحانك حرمتنى منهـا وفشـختهـا لأصيع خلق الله وبعضـهم أعرف أنه خنثى..

يه.. يه.. يه.. الآن فـقط فـهمت قـصـدك يارب. صـدقنى أننى فـاهمك وفاهم ألاعـيبك مـعى بالخـصوص فى هذه الشـغلة. أنت

سبحانك تلف على لكى تجمـعنى عليها فى الحلال، على سنة الله ورسوله؛ أليس هذا ما تقصده بذمتك يارب؟! شف يارب، لف عليّ كمـا يحلو لك، ولكننى أعـرف أن هذا ما تدبره لى؛ تظننـى مادمت صعـيديا يعنى مـخي مقفـول؛ تمشى وراء أولاد القحـباء من أهل مصر القـاهرة الذين يشيعون عنا سخـيف النكت والإشاعات، طب والله والله، يمـين أحاسب عليه فى نار جـهنم أنك دبرت لى هذه الشغلة فى ضربة مـعلم مضبوطة لا تخر منهـا المياه جعلتنى أقابلـها فى سوق بلـدة (صدفة)، ونطس فـى بعضنا من غـير أن يسعى أحـدنا إلى الآخر؛ وجـعلتنى أدخل عليها بـجرأة فأكلمـها فتـواعدنى بكل بساطة مع أنـنى أسمع أنها تدوخ الرجـال قبل أن تؤامن لهم وتواعدهم، وقـد وضعت فى قلبى الشجاعـة والمرجلية حـتى قويتنى على نط جـدار دارها والنزول إليـها لأصـير قـاب قوسين أو أدنى من حضنها، لتفاجئنى بالفضيحة الكبرى وتوشك أن تقتلنى؛ لكنك برحمتك هزأتنى فحسب، ونجيتنى لحكمة تريدنى أن أعيهـا، وها أنذا الآن قد وعيتـها ولن أنساها، ثم إنك سـبحانك نفخت فى جســد السقاء فعـاش رجلا لمدة عشر دقائـق فى حياته كلها ومات بعدها. أنت سبـحانك تريد أن تميته فى الأصل، لأدخل أنا وأحل محله نـهائيا من أجل هذه الوليـة الغلبانة المحـرومة من نسمة الدنيا سنين طويلة مع السقـاء. جعلتنى سببا لموته، حملتنى الوزر؛ ووضـعـت مـحـبــة الوليـة فى قـلبى فـوالله والـله والله لأتزوجنها، حتى يعجبك يارب.. نعم سأتزوجها، هل أحد شريكى؟ هذا ما نويتـه وعزمت عليـه ولن يردنى عنه مخلوق. لقـد فهـمتك

يارب حق الفهم، وسوف أؤدى لك هذه الخدمة؛ فأنت وحدك الذى سيقـدرها حَق قدرها، هذا جميل أتعشم أن تذكـره لى كلما رأيتنى واقعا فى ضيقة. أنا يارب سأتزوج هذه الولية الغلبانة لأمنعها من فـعل الحرام، سـأرويهـا أنا؛ دع هذه المهـمة لى فـأنا النهـر الذى سيغرقـها حتى لا تبص لأحد غيرى؛ سـألمها من الشـارع؛ وهذان الطفلان سأكون لهما أبا؛ فمن أجل الورد يسقى العليق..

مسحت على وجهى بيدى كأننى أوقع ببصمتى على هذا العقد الذى أبرمته لتوى مع الله، وشعرت فى الحال أنه سوف يسامحنى على كل مـا ارتكبته فـىَ حقه من لبط، تـهيأت للوقـوف فى طريق «كاملة» ومـفاتحـتهـا فى هذا الموضوع من غـير لف ولا دوران، لكننى حين رفعت كفـى عن وجهى لم أجدها يابوى، كأن الأرض انشقت وابتلعتها، تمخولت، صرت كالطفل الذى تاه من أمه؛ ودخل فى روعى أننى لن أراهـا ثانيـة، فـبـقيـت فى مكانى ألف وأدور وأرسل البصـر أكاد أجعـر باكيا، خطوت مـسرعا حـيث كانت من دقيقة؛ أطلقت عيونى بين صفوف النخيل، فرأيتها تدخل دار المعلم «جـرجس غطاس»؛ فـعـرفت أنهـا تعـمل فى شـغلة زوجـهـا؛ وتقـرفصت بين جـذوع النخيل انـتظرها، جعلت ألف سـيجـارة مخلوطة بالحشيش وجعل قلبى يسـتريح لما انتويته، وحين سرى دخان الحـشيش فى مـخى تيقنت أن الله قـد أكرمنى بالسـريقة الأخـيرة ونجـانى من خطرها إكرامـا لهذه الولـية والمؤكـد أنه سـبحـانه جـر رجلى إلى البلدة لكى أكـفِّر عـن ذنوبى وأفعل مـا سأفعل.

إلاّ وهى قادمة، والبلاص ممدد فوق رأسها، وكان واضحًا أنها قـد تخلصت من طفليـها حـتى تسرع فـى جلب مزيد من الميـاه، ولابد أن الطفلـين انشـغـلا بالحلوى الكثـيـرة فى دار المقـدس «جـرجس غطاس»، إذ إنه صـاحب دكـان بقـالة كـبـيـر فى بلدة «صدفة»، وله دكـان آخر فى قلب السوق على مقـربة منّى توقفت كالمذهولة، فنهضت واقفا: «إزيك ياكـاملة» فظهر عليها الفرح رغم الحزن الكبير فى عينيها وكانت النضارة فى وجهها تؤكد للأعمى أنها بدأت تأكل الوجبات الثـلاث كل يوم، وثمة شىء لا أقدر على وصفه كان فى وجهـا وهيكلها يوحى لى أنها قد نظفت من شـغلة اللبط التى كانت مـاشية فيها، وجـاءنى يقين بأنها التحـقت نهائيا بخدمة المقدس «جرجس غطاس» وأنه اشترط عليها حسن السمعة؛ وأنها رحبت بذلك لعلها تجد عريسـا يعوضـها ما فات وتتوب على يديه هزت يدى بحرارة وهى تقول: «إزيك ياحـسن وازى مصر!» ثم غالبت الدموع فى عـينيها ببسمـة أجارك الله من لسع نورها، وقالت: «من يوم المرحوم ما حـدّش شافك!» قلت وصوتى يرتعش وليس فى اسـتطاعتى له: «أنا جـئت اليوم من أجلك وحـدك!» بدا كأنها توقعت منى شيئا يغضب الله حيث قالت: «كفاك ما حدث أنا الآن واحدة أخـرى غير التى كنت تعـرفها إسأل عنى لو أحـببت! وحل عنى الله لا يسيـئك! أنا باشتغل عند ناس طيبـين لا يبخلون على بخيرهم! فإن كنت تخشى الله فلا تسبب لى فضيحة جديدة! أنا ما صـدقت أن البلدة نسيت مـا حصل» قلت وقـد أوشكت على العيـاط: «حتى ولو كنت أطلبك عـلى سنة الله ورسوله؟!» شـهقت

الولية ياخال؛ ارتاع وجهها، فارتد البلاص للوراء وقالت كأن بصة نار لسعتها: «إيه! أنت صاح لنفسك؟!» قلت بكل حرارة: «وحق من جمعنا على غير ميعاد أننى نويت أن أتزوجك على سنة الله ورسوله! عندى هنا دار مبنية بالبتن كدار العمدة! وأقدر أن آخذك معى إلى مصر وأستأجر لك دارا!»..

وا.. ا..ه يا خال؛ ما كل هذه الدموع التى انهمرت على وجه الولية؟ لقد وقفت مذهولة لاتنطلق واستعجلتها الرد قائلا: «قلت إيه يا بنت الناس؟ أنا أحبك وأريد أن أصلح غلطتى معك! وسوف أهنيك وأستتك؛ وشرطا سأنفذ كلامى فى الحال!».

شوحت الولية بيديها فى يأس قائلة: «هل يوافق أهلك؟ وأمك» قلت مشوحا: «أنا أزعق صوتى من دماغى! ليس لأحد كلمة على! وإذا وافقت أنت فإنى من الليلة سأصحب الرجال إلى أبيك لأخطبك منه»..

فما نطقت بهذا إلا وانفجرت هى تبكى من كل عين حفان، فتذكرت سبب ألمها يا بوى. نعم، فإن «كاملة» لم يعد لها أب؛ فقد مات أبوها وهى طفلة، فربتها جدتها لأمها؛ ولما كان «سعداوى» السقاء يمت بصلة قربى لجدتها لأمها؛ فإنه تقدم للزواج منها فوافقت جدتها وبعد زفافها على السقاء بشهور قليلة توفيت جدتها، تذكرت هذا فبكيت أنا الآخر، أى والله يا خال بكيت أشد منها، وقلت لها: «أنا إذن أخطبك من نفسك!» قالت وهى غير واثقة: «إن كنت تريد تتزوجنى حقا فإنك تقدر أن تخطبنى من

المقدس جـرجس! إنه الآن ولى أمرى! قلت بكل حماسـة: «وماله! غدا أجىء بالرجال وأفعل!» قالت وهى تنصـرف: «أفوتك بعافية!» ومضت..

بقيت فى مكانى، وحتى لا يرانى أحد أمشى، وراءها، تقرفصت حتى تخـتفى هى، لففت سـيجارة أخرى مـحشوة بالحشـيش، ما كدت أشعلها واستمخ من أنفاسها حتى طلعت الشمس تمشى على قدمـين، قادمـة وسط النخيل، حـاملة على رأسـها حزمـة حطب، ارتعت ياخـال فانتـفضت واقـفـا، وبلا حيـاء وضعت نفـسى فى طريقهـا، محـاولا معرفـة هذا القمـر الذى لم أعرفه مـن قبل فى بلدتنا..

شهقـنا معا، بل صرخنا فى نفس واحـد: «أهو أنت؟!»كيف هذا يابوى؟ من يصدق هذا؟ «حنة» بنفسـها؟ بعد كل هذه السنين وكل هذا العذاب فى انتظارها، أفاجأ بها هكذا أمامى بكل هذه البساطة؟ لقد كنت مستعدًا أن أسـافر إليها فى الهند والسند لو قالوا لى إنها هناك، قلت: «كيف حـالك ياحنة؟!» قالت: «بخير! الحـمد لله» قلت: «أين أراضيك؟!» قالت: «أشتغل فى دار المـقدس ميخائيل إبراهيم» قلت: «تزوجت أم لا؟!» قـالت: «مـازلت أنتظر ابـن الحـلال! ربنا يسوقه!» قلت فى الحال دون أن أدرى «لقد ساقه بالفعل ياحنة!». تلفتت حواليـها ضاحكة فى خجل، قائلة: «أين هو؟!». قلت مـشيرا بيـدى إلى صـدرى: «ها هو واقف أمـامك! هو أنا!». قالـت غيـر مـصدقـة: «أنت!!» قلت: «ومن غـيرى؟ والله لـن يقرب منك أحـد

سواى!». قـالت باسمـة كأنها غـير مـصدقة: «ربنا يعـمل ما فـيه النصيب!». قلت: «والـعمدة؟!» قـالت متنهدة: «أولاده افـتروا عليّ! لمنّى المقدس مـيخائيل! أخدم نسوانه وداره! ويحـوش لى الماهية كل شهر! ويطعمـنى ويكسونى!» قلت: «هل أخطبك منه؟»، قالت: «لا أحـد غيـره!». قلت «إذن! كلمـيه فى الأمـر!». فهـزت رأسـهـا موافـقة، ثم مضت وبعـد خطوات أدارت رأسهـا نحوى ونظرت، فابتسـمنا، وقلت لها: «لا تنسى ما قلته لك يـاحنة!» هزت رأسـها تحت حزمـة الحطب، ومضت تتلعـبط كالبلطيـة فتقـرفصت من جديد أدخـن السيجـارة وقد ذاب مـخى فى الفراغ بين النـخيل؛ وصـرت لا أعرف مـاذا أفـعل؛ لكننى نهـضت مـتوجـهـا إلى دار صـديقى «هليل» وكنت أجر دمـاغى كـأنه مربوط بسـلاسل فى قدمى، غـير أننى حـين تملكت الطريق، لم أدر إلا وأنا متـوجه إلى محطة «صدفة» لأركب القطار عائدًا إلى مصر القاهرة.

عـجلة الـحظ عشرة

الأولة ـ بركة دعاء الوالدين

ربنا سـهل، وتم كل شئ على التـمام كـما رسـمت له يا بوى؛ وعدت إلى هذه الملعونة ـ أقصد مصر ـ أقصد مصر القاهرة ـ من جديد، لا من شاف ولا من درى. عـينى كانت قوية يا بوى؛ ويعلم الله إن كـان ذلك من وحى مـرآى الـبنت «حنة» بعـد طول سـهـر والتيـاع، وللمرأة السيالة «كـاملة» بعد طول تمن واشتـياق.. أم أن الأمـر راجع إلى قرة عـينى من الأصل؟ الله أعلـم، لكننى كنت فى حالة فرح واغـتباط لا مثيل لهـما فى حياتى؛ فغـدا أو بعد غد أنام على سرير ذى جناحين، على يمينى «حنة»، وعلى يسارى «كاملة» ولقـد حلفت برأس أبى لأجمـعن بينهمـا فى سرير واحـد. نعم يا خـال، إذ لا مفـر أمـامى غـير هذا الحل إنهـاء لوجع الدمـاغ؛ وإلا فـدبرنى يا خـال؛ لو كنت مكانـى على رأى مـا يجئ فى الراديو، تقول إننى يجب أن أكبر مخى فأجـعل لكل واحدة يوما معلوما أو جمـعة مـعروفة، حـتى يتجـددنى الزمن ولا أقع تحت طائلة الملل؛ فبدلا من أن يكون لى بيت واحد يكون لى بيتان ، أزور هذا وأعّرج على ذاك عودا على بدء؛ وأحيط كل واحدة بخميلة.. الخ..

أنت ـ لابد ـ تقول لى فى نفسك هذا. هذا ـ لو صدقتنى ـ صغر مخ يا بوى عدم المؤاخذة، والناس إلى ذلك يقولون: من يتزوج اثنتين فهو إما قادر وإما فاجر، ومن يتزوج ثلاثة أو أكثر فهو قادر وفاجر معا، والأمر أبدا ليس هكذا يا بوى، فى نظرى على الأقل يا بوى، الأمر أبسط من ذلك بكثير؛ غير أنه الغشم وتخانة المخ يجعلاننا نفتح بيتين، لنخلق لأنفسنا جبهتين تتنازعاننا تنهشاننا حتى النخاع وفى النهاية تتعاركان حول عظامنا النخرة، كل واحدة تتوهم أن وراء العظام النخرة سرا دفنته الأخرى، تفتح بيتين يا بوى توزع نفسك بالعدل والقسطاس ولن تعجب مع ذلك هذه أو تلك؛ ستبقى الواحدة منهما طول عمرها تعتقد أنك تعطى الأخرى زيادة عنها فى الخفاء الذى لاتراه هى، وستبقى تبعا لذلك تضمر لك مؤامرة سرية غامضة تنوى بموجبها الاستيلاء على أكبر من بقاياك، مجنون أنا يا بوى كى أفعل هذا؟ ! إن المرأة كائن عظيم الشأن ما نقول فى ذلك شيئا، لكنه يحتاج لمعلمنية فائقة الحد فى معاملته؛ إنه كالقط يألف الدفء يركن إليه يطلب المزيد وفوق ذلك يفرض حصارا على ركنه عشه؛ ويل لقط عابر يقتحم عشه ؛ أنظر إليه يا خال وهو ينتفض وينقض عليه صارخا، ذعرا ما تعرف أو فروسية ماتعرف، لكنه ربما مزق لحمة إربا ورماه من النافذة..

العبد الفقير ليس معلما ولادياولو؛ إنما أنا شقيان، ومع ذلك شرقان، روحى من الحرمان متشققة طافحة بالرغبة؛ وليس فى

مكنتى أن أفتح دارين فى البلدة، وفى نفس الوقت أقيم في مصر القاهرة؛ كيف يا بوى؟ لسوف تنتقلان معى إلى مكان رزقى؛ وتبقى الدار فى البلدة نزورها كلما هفنا هواء الذكريات النقى، أى أننى مجبر على دار واحدة فى مصر؛ جبر بجبر فليكن للسرير الواحد جبران خاطر هو الآخر؛لأغرق أنا فى المعمعة كيفما اتفق؛ ليكن سباقا بينهما فى عدل مزاجى وتكييفى على الجنبين؛ ومن تستأثر بى منهما تكون جدارتها حافزا لإبداع الأخرى،، أو كاسرا لعينيها، تلكما اللتان لن تريا سوى حصحصة الحق الصراح..

أحلام يا بوى، ولكنها وقود تغذيت به، طرت على جناحيه حتى أننى من فرط السعادة نسيت عملتى المهببة، فاتجهت إلى سرادق الحاج السنى مباشرة. كنت ناسيا كل شئ كأنه لم يقع؛ وكانت شهقتى المفاجئة بعمق النسيان حين انقض على نافوخى ذكْر الحادث فجأة. زلزلنى التذكر المفاجئ فكدت أولى الأدبار، لولا أن عين خفيره كانت قد وقعت فى قلب عينى مباشرة، فيما هو جالس بجوار الباب من الداخل يرقب الطريق بعينى الصقر الواقف لابد على شاربيه..

شئ إلهى قوًى عزمى فى الحال، وألقيت بنفسى فى حالة السرور التى كنت فيها، ووسعت من بسمتى كبرقية تحية أرسلها للخفير الذى سبق وكنت جدعا معه؛ ثم عبرت عن اشتياقى فجعلت آخذ سمتى نحوه، فلمحت على وجهه شيئا من الترحيب استشعرت على البعد صدقه ـ ما أنا إلا ولد زوانى أيضا يا بوى

كما تعرف ـ فخطوت نحوه بلهفة أشد؛ فما إن شمله ظلى حتى هب واقفا: «أهلا! أهلا! فينك يا بو العم!». وكانت الحرارة فى قبضة يده، فقلت له بهدوء شديد «في الدنيا!» ثم عزمت عليه بسيجارة فأخذها وسارع فأشعل لكلينا اقعد يابو العم، هكذا قال؛ فجلست فى الحال يا بوى بكل كلاحة ودون أن أتردد، لكننى شعرت بخفقة قوية فى فؤادى إثر خاطر مفاجئ بأن الخفير يدبّر لى كمينا أنحبس فيه حتى يجئ سيده فيقبض علىّ بكل سهولة. تحلف اليمين يا خال أننى لاحظت الرجل فشعرت أنه قد تورط من استجابتى الفورية للقعود، فصار يتلفت حواليه مرتبكا؛ فلما لاحظ أننى لاحظت ربكته خشى من ثبوت تورطه، فاستدار نحو خصه صائحا: «اعملى شاى يا مرة! بس بسرعة واخلصى من اللى فى إيدك!» ثم استدار نحوى: «شرفت يا بو العم!»: «عال! عال كيف حال الحاج!». قال: «بخير!»، وأضاف: «جاى منين ورايح فين؟». قلت: «كنت فى مشوار بسيط! وذاهب إلى بلدياتى المعلم شندويلى!» فأضاف: «فى مصر عتيقة؟». قلت : «نعم»، ثم هممت بالنهوض خوف اللت والعجن فيما قد لاتحمد عقباه؛ فإذا هو يقبض على ذراعى بقوة فيعيدنى إلى قعدتى فوق صفيحة مقلوبة فوقها جوال مطوى. الرعب دوى فى مفصلى يابوى، فتشككت فى حلفان الخفير؛ والله ما تمشى قبل ما تشرب الشاى، ثم عزز حلفانه صائحا: «*الشاى.. ياولية!*». فجاء صوت *الولية* واهنا من الداخل: «هو على النار!». ويظهر ياخال أنه فهم من لهجتها هذه شيئًا؛ فدلى أذنيه فى الأرض، وما كاد يرانى أنهض ثانية حتى

نهض هو الآخر قائلا: «طب مع السلامة! يظهر إن الولية ملخومة جوه!». فقلت باسما: «كان الله فى عونها!»، وعزمت عليه بسيجارة أخرى؛ فتلقفها بين أصبعيه قائلا: «كتر خيرك يابو العم!»..

الدماء جرت فى عروقى ياخال، وصرت أكاد أتنطط فى مشيتى من السعادة والفوقان. صرت أضرب الخطوات كيفما اتفق؛ أو هكذا خيل إلىّ، لكننى وجدتنى بعد قليل أمضى داخلا مقهى المعلم «شندويلى». وكانت الأيام التى لا أذكر لها عددًا قد مرت دون أن أرى المعلم «شندويلى». وكنت أرانى بالفعل مشتاقا إليه والله يابوى؛ وصرت أؤنب نفسى على عدم السؤال عنه فى الزمن الفائت. المعلم «شندويلى» كان أكثر اشتياقا منى؛ طول عمره جدع يابوى. ما أن لمحنى من بعيد وهو خلف النصبة ماثلا لم يتغير ولم يتبدل، حتى خرج عن النصبة فاشخا حنكه المخرب فاردا ذراعيه المعروقين صائحا: «وشك ولاّ القمر يابو العم! فينك وفين أراضيك!». لحظتها كنت فى حضنه أقبّله فى قفاه ذات اليمين وذات اليسار: فلما انفلت قلت: «واحشنى قوى قوى يابو العم! والله ما تعرف معزتك عندى!». جلست على أقرب كرسى مجاور للنصبة؛ أما هو فتركنى وجاس بين النصبة، فصب واحد شاى على مياه بيضاء، وجاء فجلس بجوارى متجاهلا نداء جرسونه، قال وهو يقلب لى الشاى: «غيبة طويلة قوى يابو العم! إيش أحوالك!». قلت: «بخير والحمد لله! الأشيا معدن!». ثم أخرجت علبة سجائرى البلمونت العشرين ـ التى اشتريتها خصيصا من

أجل هذه الزيارة، وقدمتها له فأخذ واحدة وأشعلها من بقايا سيجارة كانت بين أصبعيه. قال وهو يشد النفس في اشتياق وحرقة: «تأخذ لك سنَّة أفيون؟». هتفت: «أحب النبى!» من خلف أذنه جاءت أطراف أصابعه بورقة سلوفان صغيرة مطوية، فكها ونزع بظفر إبهامه حمصة بنية اللون، قربها من فمى فتلقفتها بطرف لسانى وقد تغير مزاجى فى الحال فصار أعلى مما كان درجات كثيرة. قال المعلم «شندويلى» وهو يلقى فى فمه بملحقة جديدة من الأفيون ويتلمظ فى تلذذ مرير: «بتشتغل فين دلوقت يابو العم؟».. قلت: «على باب الله! لكنها مستورة والحمد لله! مانعوزه نلقاه!». قال:» فأين تسكن يابو العم؟» قلت: «مع صاحب لى! ولد عترة! يسكن فى شقة صغيرة محندقة فى كيمان مجرى العيون! هو يتركنى أبيت معه بدون مقابل!» قال فى جدية كبيرة بلهجة من لا يعجبه الحال المائل: «كيف يابو خاله! دا كلام؟! إذا كانت مستورة معك كما تقول بعين قوية فلم لا تدور لنفسك على مطرح! الجدعنة ليست فى الشغل ولا فى المكسب يابو العم! الجدعنة أن يكون لك مطرح تبيت فيه! لا يتحكم فيه أحد غيرك! من ليس له مطرح فى هذه المدينة يلقى الهوان! لا تغرنك كثرة المآذن ولا براح المساجد ولا فخامة القباب فليس تحتها من شىء سوى الرميم المسحوق! ينتهك عرض الشريد وهو نائم حتى ولو كانت على رأسه ريشة الذهب! شف لنفسك مطرحًا يابو العم! اطرد نفسك قبل أن يطردك الغير بنذالة! إن كنت تنوى الشغل هنا فالمطرح أهم من الشغل بكثير!»..

ثم قام فاتجه إلى النصبة، فأعد كمية من المشاريب المطلوبة؛ رصها على الصواني، ضغط على زر الجرس مناديا للجرسون؛ كل ذلك في ثوان قليلة، ثم عاد مقدما لي سيجارة مواصلا كلامه: «ميتك كام يابو العم؟! تقدر تدفع كم؟ أنا سوف أعاونك على حل هذه المشكلة! أحب أن أفعل الخير دائمًا مع بلدياتي بنوع خاص كما تعرف! إنهم عزوة لي في غربتي في هذه المدينة لولاهم ما فلحت بين أولاد القحباء من دود الأزقة ممن هم من سلالة الذين استعمرونا على الدوام!». الحقيقة أنت هكذا بالفعل يامعلم شندويلي، أشهد لك بذلك وأختم بالعشرة وأنت لست محتاجا للقول.. هكذا قلت في نفسي وأحسست ياخال كأن الدنيا تنفتح أمامي على وسعها. صحيح قول المثل: العبد في التفكير والرب في التدبير؛ والمعلم «شندويلي» هذا فيه شيء لله يابوى وأنا لم يكن يخطر ببالي أن أسأله عن مسكن رغم علمي أنه من النوع الذى يمكن أن تسأله عن أى شيء فيقضيه لك في بساطة مذهلة. وإذا بي كنت قادمًا لآخذ نصيبي الذى جهزته لي المقادير وقادتني إليه بدون أن أدرى. قلت: «والله يامعلم شندويلي ياخوى أنا وقعت من السماء وأنت تلقيتني!». شوح لي كأنه يختصر الأمر قائلا: «معك ألف جنيه؟! لو معك ألف جنيه فقط يابو العم تصبح من غد واحدًا من البكوات!». قلت دهشا بعد أن فات أوان الشهقة من هول المبلغ المطلوب: «كيف يامعلم شندويلي؟!». قال: «تسكن في شقة على النيل مباشرة في الدور الرابع! أربع غرف كبيرة وصالة يجرى فيها الحصان ولها بلكونات من ثلاث واجهات تطل كلها على النيل

وكل بلكونة تتسع لقعدة عائلية كبيرة! عز يابو العم! آخر عز! لو يملكها لص من لصوص المدينة يبيعها بالشيء الفلانى! وإيجارها ستة جنيهات فقط!»..

مخى دار يابوى كالزنبلك؛ ظننت أن المعلم «شندويلى» يقول ذلك من باب الخيال؛ على أساس أن المبلغ المطلوب لا يقدر على دفعه سوى لص مقيم وراسخ القدم أو واحد من العائدين من بلاد المال ـ لكننى ـ من باب الخيال كذلك ـ قلت له: «وأين هذه الشقة يابوى؟!». قال ببساطة: «عندى أنا! فى عمارتى! ألم تعرف يابو العم أننى هويت بناء العمارات فى الزمن الأخير! وقد أصابنى الكار لحسن الحظ فاشتريت عمارة على النيل! أشهر وأحلى عمارة على النيل! لو قابلتنى قبل اليوم بفترة لكنت سعدت! كنت أشطب فى عمارتين على قد حالهما فى بولاق الدكرور وأرض اللواء! أجرتهما لبلدياتى بملاليم! كل ما هنالك أنهم شطبوها على نفقتهم! أصلهم كلهم من العائدين المعاودين! وعلى العموم فأنا قد أحببت اللعبة! أشترى الأرض فى كل مكان وأنساها! طول عمرى فىّ هذه الخصلة! وحينما أرى العمار قد بدأ يتحوط أرضى أسرع فى بنائها! الأرض كانت بالتقسيط المريح وأما البناء فبالمجان لم أدفع فيه مليما من جيبى! العمارة تسكن بجميع شققها قبل أن أخط فيها طوبة واحدة! من يكتب عقدًا يدفع خلوا أكبر من ثمنها لو بيعت له! البركة فى العائدين يابو العم! وأنا رجل بتاع ربنا لا أحب الخلوات! إننى أخصم ثمن تكاليف البناء والأرض فقط!

والباقى يسكن به! كل العمارات سهل ربنا بها وأنا واقف خلف هذه النصبة! فالمقاولون كثار! والأنفار أكثر! كل بلدياتى أنفار! والمونة متوفرة طالما القرش صالب حيله! القرش هو الرئيس الأعلى فى هذه المدينة! نعود إلى هذه العمارة التى لو كانت أمك داعية لك فى ليلة القدر لسكنت فيها! لقد اشتريتها من أجل شقة أحببت أن أسكنها! تلك هى التى سأمنحها لك هدية! لكن الرياح دائما تأتى بما لا يشتهى السفن يابو العم! الدور الذى فيه هذه الشقة، والذى تحته تسكنهما طائفة من المومسات والقوادين والمشتغلين فى شارع الهرم مع أن أشكالهم آخر بكوية وآخر أناقة! غير أنهم جميعا من البلطجية واللصوص! إننى أقول لك الصراحة يابو العم! اشتغلوا لى فى الأزرق وفى أمور البلطجة! خفت أن يفسدوا لى أخلاق العيال! وخلفتى كلها بنات ما عدا ديك واحد صغير أعطاه لى الله مؤخرًا! المهم يابو العم أننى أرحت نفسى واستأجرت شقة فى مصر الجديدة بين جيران على مستوىً كبير! دفعت فيها مبلغا جامدًا! وأما هذه الشقة فقد حلفت لأجيئن لجيرانها الحوش هؤلاء بولد يكسر أنفهم! وأنا مرادى أن تشكم لى هؤلاء الجيران وتذلهم أشد الذل! أنا أستطيع أن أبيع هذه الشقة بآلاف! لكننى لن أخذ منك سوى الألف الواحد إكراما للعشرة القديمة وأملا فى أن ترينى هؤلاء الوحوش مكسورة نفوسهم!»..

قلت وأنا فى غاية النشوة: «عرفت تختار يامعلم شندويلى! ثلاثة بالله العظيم لأرينك مؤخراتهم عارية وأجعلك تبصق فيها

على كيفك! لسوف أجعلهم يرحلون فى عز الليل تاركين الشقق فى سبيل النجاة بحياتهم! اتكل على الله يامعلم شندويلى! هذه الشقة لن يسكنها سواى! اكتب عقد الآن وأنا أسدد لك المبلغ على ثلاثة مرات بالكثير أربعة! وإن شئت السرعة فإننا نكتب الآن جوابا لصاحبى هليّل فى البلدة وشريكى فى سبوبة تدر دخلا ويمكن أن يرسل لنا أى مبلغ نطلبه!»..

شوح صائحا: «أكتب ما تشاء! ولكن هاك مفتاح الشقة! اذهب ونم فيها وأقم كيف تشاء! وحين يجيئك المبلغ هاته وتعال نكتب العقد والذى منه! وعلى فكرة! فى الشقة عفش استغنينا عنه!! تستطيع أن تشتريه وتضيف ثمنه للمبلغ! هو يساوى ألفا ولكنى أبيعه لك بثلاثمائة لا غير! أنت ياما خدمتنى!»..

كدت والله أقبل يده وهى تقترب منى بالمفتاح. لكننى اكتفيت باحتضانها قائلا: «سأبقى طول عمرى خادمك يامعلم شندويلى!». ربت على كتفى بيده؛ وجعل يصف لى مكان العمارة وموقع الشقة منها؛ وجعلت أدعو له بالستر، وشعورى يقول إن ما حدث الآن هو بركة دعاء الوالدين، وشعور آخر يقول بل هو بركة البنت حنة التى ستنقذها من الوحلة، وبركة الولية كاملة التى ستقيها شر الترمل بين الوحوش الكاسرة. فأرحت نفسى وقلت: هى بركة الجميع، ومضيت أجرى إلى العمارة أقول: ياأرض اتهدى ما فوقك قدى.

والثانية: العتبة العالية

هذا هو الجنون بعينه يابوى. أنا حسن ولد أبى ضب الذى كان غاية مـا يتمناه عشة يسكنهـا فى حارة، أو بالكثير شـقة فى بيت هرم، أسكن فـجأة فى هذا القصـر المنيف؟ أنا أدخل هذه العمارة يابوى كل يوم؟ ربما ارتاب سكانها فى أمـرى، ربما منعنى البواب، وإن البولـيس نفسه ـ لـو استعـان به البواب ـــ لن يصـدق أننى يمكن أن أسكن فى عمارة كهذه وأنا الكحيان الشقيان..

مـا هذه الأبهة ياخـال؟ بلكونات على الـكورنيش؟ حلم أم علم هذا؟ ومـا هذا البراح يابوى؟ وهل هـذه حيطان شـقة أم حيطان مـسـجـد أم حـيطان من الجنة؟ كلهـا مـدهونـة بالرسـوم الملونة بالمشجر والمزخرف؛ وفى الحمـام «دش» يابوى، أخيرا سأستحم يابوى، سـأفتح هذا الدش هكذا، لتـدفع قذائف المطر الغـزير هكذا. فلأجـربن، خلعت مـلابسى وزحفت تحت الدش، وتركت الشبوة البالغة تنصب على رأسـى من «الدش». ثم ما هذا ياخال؟ لابد أنه ما يسمونه بالبانيو؛ إنه حوض ينام فيه المستحم. فلأجربنه، ملأته بالماء ونمت فيه. كان فى الحمام بقـايا صابون بريحة، وبقايا فوط قديمة، وبعض شباشب متهرئة النعل..

لبست ثيابى وخرجت على غايـة من الفوقان. نظرت فى الغرفة المجـاورة، هذا مطبخ له صندرة يتـصاعـد منها بقـايا روائح ثوم وبصل وأصناف عطارة. فـعـلا فعـلا ياخـال، هذا مطبخ يليق بـ «كـاملة»، وهذا حمـام يليق بـ «حنة»؛ وهذه دار تليـق بهمـا معـا. يرعـاك الله يامـعلم شندويـلى؛ ولكن، الخـوف أن يكون الملعـوب مـرسومـا على قد المهـمة: أضـايق له السكان وأنتـقم منهم وفى النهـايـة يقـول لى مع الســلامــة. قلبى راح يقــول لى أن المعلم شندويلى لن يفعل، وأننى يجب أن أعتبر الشـقة شقتى. وأنا الآخر سأورطه، ســأذهب لأقيم فرحى فى البلد وأجىء بالعروســين قبل أن يرجع فى كـلامه، وبعـون الله سأضىء له أصــابعى العـشرة كالشموع حـتى يرضى؛ سأقتل نفسى فى خدمتـه مقابل أن يترك لى هذه الشقة؛ والله لن أتركها إلا على جثتى يابوى..

تجولت فى الصــالة البرحة؛جلـست على كل كرسى واختـبرته فتـيقنت أن عَمْرَة بسـيطة عند النجار، وأخرى عند المنجـد، تصبح هذه الصالة بعدها كصــالة البكوات الذين كنت أبيع لهم السمك فى المعادى. ثم دخلت على حجرة مجاورة؛ فـإذا فيها سرير قديم، لا ينقصه سوى دهن وتنجيد فرش. بجواره دولاب مفصص وبعض ضلفـه مخلوعـة ومركـونة بجواره، تتـصاعـد منه روائح العطور العتـيقـة والصابون والنفـتالين. وهذه مـرآة ذات كومـدينو على اليمين وآخر على الشمال، ولهـا كرسـى تجلس عليه المرأة لتتزين. كســبنا صلاة النبى، بشرة خيـر يابوى؛ ضمنا شوار العـروسين،

فكل هذه الأثاثات يمكن علاجها وتجديدها بكل سهولة. دخلت الغرفة الثانية فوجدت بها ترابيزة وسط دائرية؛ حولها بعض الكراسي الجلدي.التربيزة سليمة أما الكراسي فكلها عاهات، بعضها منفجر البطن وبعضها مهيض الساق وبعضها قعيد وبعضها هشيم؛ هي الأخرى يمكن علاجها بتراب الفلوس. عافاك الله يامعلم شندويلي؛ لو تطلب الأمر قتل واحد من خصومك فسأفعل. دخلت الحجرة الثالثة، فإذا هي خالية تمامًا، إلا من بعض أوراق جرائد قديمة وهلاهيل لمسح الأرضية. دخلت الحجرة الرابعة، فإذا بعض الكراكيب والروبابيكيا. قلت: حلو. وإذا بالشبابيك المطلة على البلكونات تناديني؛ فجعلت أنظر من كل شباك نظرة، وأطل في كل بلكونة طلة؛وأتلكأ كلما رأيت جيرانا في الشبابيك والبلكونات المقابلة ينظرون فيّ، فحينئذ أنتفخ كأني أشعر بأنني البيك الجديد الذي سكن هذه الشقة..

رحت وجئت عشرات المرات ياخال، فتحت أبواب الغرف وأغلقتها عشرات المرات. عقلي يكاد يشت. في المطبخ وجدت رفوفا رخامية مثبتة في الحوائط، وسبرتاية نحاسية قديمة. ووجدت تحت الرف وابور جاز محترم؛ قلت: طبعا لقد تقدم المعلم شندويلي وأصبح يشتغل بالبوتاجاز..

خفت أن يصيبني الجنون في الشقة وحدي ياخال؛ فخرجت، وبكل لذة أغلقت بابها بالمفتاح، وصرت أتنحنح وأتلكأ في مشيتي على السلم وأثير ضجيجا هائلا أتحدى به أي كلب من سكان

الدورين تسول له نفسه الاعتراض. لكن أحدا لم يعرنى التفاتا. صادفنى على السلم كثير من الخلق صاعدين وهابطين؛ فإذا هم أشد منى ضجيجا وصخبا وجلبة.. رميت بنفسى فى الشارع. وأول خاطر داعب أعطافى هو أن أخفى أمر هذه الدار عن كل من أعرفهم من الخلق بلا استثناء. ثم طغى على ذلك الخاطر خاطر أقوى؛ هو أننى لابد لى من الشروع فورًا بالبحث عن المبلغ المطلوب للمعلم شندويلى؛ بل لابد أن يتوفر بين يدى ثلاثة آلاف جنيه على الأقل حتى أستطيع دخول هذه العمارة بعين قويةوكان الشوق للولد «هندى» قد برح بى، فاتخذت طريقى إلى داره فى كيمان مجرى العيون. وكان الليل داخلا على البلدة كأحلى ما يكون، ونور القمر يخسف نور الكهرباء ويسحقها حتى فى الحوارى الضيقة. سبحان الله يابوى؛ عمرى ما أحببت هذه الحوارى فى الليل، فما بالى أحبها اليوم؟ مالى أحب البلدة كلها وتنتابنى الخشية عليها كأننى قد صرت من بين المسئولين عنها..

وصلت إلى دار «هندى»؛ مددت أصبعى لألمس زر الجرس فإذا بالباب ينفتح قبل أن ألمس الزر؛ وإذا بـ «هندى» لابس خلقاته النظيفة كأفندى معتبر من علية القوم؛ مصفف شعره على سنجة عشرة، ورائحة العطر تفوح منه؛ فعرفت فى الحال أنه ذاهب للشغل لا للفسحة ذلك أن «هندى» ولد مكار يابوى، حصيف وناصح؛ وهو صاحب النصيحة المشهورة التى زودنى بها ذات يوم ولم أستفد منها بعد ولكننى فخور بمعرفتها. وسبب النصيحة

أن «هندى» انسطل ذات يوم وشعشع فلما أبديت إعجابى يومها بشعره قال «غزولى» بغمزة من عينيه إن هندى له فلسفة فى تسريح الشعر تعتبر من اختراعه؛ وطلبت من هندى أن يشرحها لى. فامتثل هندى يومها وقال فى جدية: «أعلمك وآكل من بيتنا! اعلم أن تنظيف الشعر وتسريحه وتلميعه كله فوائد! ولكننى لست أعتنى به من أجل هذه الفوائد! مع أنه ينير الوجه! ويروق المزاج! ويمنع الحشرات! ويعجب الفتيات! إنما أنا أعتنى بشعرى فى مشاوير الشغل! إذْ أننى بتسريح شعرى أخطف الكاميرا من عين الحكومة والمباحث! فإنهم يعرفون المتشرد المشبوه من شكل شعره! وضابط المباحث ينظر أول ما ينظر فى رأس البنى آدم ليرى حال شعره! ربما يراه مشعثا أكرت فيتجاوز عنه لأن شعره مشعث نظيف أو أكرت مصفف! أما الشعر الذى يتراكم عليه التراب والوسخ حتى يتجلد منظره كلحية المجذوب الفاقد العقل فإن ضابط المباحث يقفشه! يعرف أنه لا ينام فى مكان به ماء! فهو إذن أفاق! وليقفشه الضابط ليتحرى عنه! لن يخسر شيئًا! لكنه قد يكسب قضية لم تكن على البال! ومعظم اكتشاف المجرمين الأذكياء وقع بهذه الطريقة! أما أنت ياصعيدى ياقحف فإن كنت تريد أن تصرف عنك عين الشرطة فنظف لبدتك هذه على الدوام! أو البس عمامة بشال أبيض تجعله نظيفًا دائما حتى لو غسلته كل يوم!»..

دفعنى «هندى» بصدره وهو يقفز إلى الشارع ثم تلقانى فى حضنه وسلم على وقبلنى وقبلته، وسألنى عن غيبتى فقلت إننى ذهبت لزيارة عم لى يرقد مريضا فى مستشفى أسيوط وإننى

مكثت بجواره حتى طاب قليلا. ولم أعرف إن كان قد صدق كلامي أم لا، حيث إنه لم يعلق؛ وإنما قال لى «وراءك شيء الليلة؟»، قلت: «لا!»؛ فأشار بيده أمامه أن اتبعني؛ فحاذيته؛ ومضينا عبر الحوارى والدروب.وكنت ألاحظ أنه يختال كالولد الشلبي؛ فأتعجب من كلاحة اللص في مصر القاهرة. لقد بت ياخال أعتقد أن الإنسان فى مصر القاهرة يستمد فخاره وكبرياءه وشرفه من لصوصيته؛ فكلما كان ولدا حريفا في السرقة واللعب بالقانون وتضليل ذمم الموظفين الصغار وشراء ذمم الكبار كلما انتفخ فى مشيته وأصبح له المقام الرفيع في البلاد. قلت لنفسي: وأنا مالى ياعم، ثم تبسمت، ثم تذكرت نفختي أنا الآخر ومشيتي بروح أقوى من روح المحارب المنتصر؛ فضحكت بعمق حتى تمايلت على هندى؛ فدفعني بكتفه قائلا: «اصطبحت مبكرا؟». قلت: «لم أذق حجرا واحدا بعد!». قال: «فلماذا فشتك عائمة؟». قلت: «من الخرم!». قال: «معك حجرين؟». قلت: «جيب السبع ما يخلو!». قال: «سأسقيك حشيشة كتكت التى هى أعلى من حشيشة صفصف! ينوى أن يبيع القرش منها بأربعين جنيها! هبرت منه هبرة كبيرة! كله بثمنه! نقلت له أقتين فى حقيبة خضار من بلبيس إلى مصر القديمة! أخذت حقي طبعا! جئت من بلبيس راكبا الأتوبيس وسط الناس وشنطة الخضار فيها برتقال وأوطة وجرجير وبطاطس! ستذوقها الآن !»..

وكنا قد صرنا أمام قهوة «صفصف» والشلة كلها متجمعة: «غزولى»، و«بربش» و «بسبوسة» و «صفصف» هو الآخر جالس

بينهم.. سـلام عليكم، عليكم السـلام، فـينك ياولد العم؟ ووصلت بوصة الجـوزة إلى يدى فأعفـيت نفسى من الرد ومضـيت أشعل الحجـر، فالكلام ملحوق عليـه أما الحجـر فيحـترق. بعد حـجرين آخـرين نهض صفـصف يجرر سـاقيـه متـأوها، وصوت طقطقـة ساقيه يتكسر خلف خطواته. لاحظت أن صفصف لم يكن على ما يرام، فمزاجه غـير معتدل، مع أن الحشـيش عال العال. قلت هذا بصـوت خفـيض، فهـمس بربش قـائلا إن البودرة التى يشـمهـا صفـصف قد تأخرت عليـه، وإنه قد أرسل فى استـعجال طلبـها مراسيل كثيرة. فـقال بسبوسـة وهو يتحسس ثدييه الكبـيرين: «ماله حق يـتعكنن! لو قال لـى من البارحة لأنقـذته الليلة بعـشرة جرامات بالأمس وقع تحت يدى ولـد نيجيرى معـه بطرمان كامل ويود بيـعه بسـرعة جربت مـنه شدتين خـفيـفتين فـتيـقنت أنه كوكايين أصلى وارد بلده! تركت الولد النيجيرى جالسا فى مقهى المالية وخطفت رجلى لحد الحاج على إبـراهيم فأريته العينة وبعت له وقبضت ثم عـدت للنيجيرى فزعمت أن التـجار كلهم لا يطلبون غير الهوريين والكوداـين أما الكوكايين فليس له سعر عندنا! قل إننى ساومـته على خـمسـمائة جنيـه فرق سعـر! وكنت أنوى أن أرسم عليه لعبة الحـكومة لأهف منه البطرمان كله بلا شـىء! لكنه ولد ملقط وابن جنيـة! المهم أننى فـزت بنصيب الأسـد! وعلى كل حال سأعمل الآن واجـبًا مع صفصف! إنه أخونا مهـما كان! معى حقى الناشف الذى اختلسته من البطرمان قبل تسليمه! مضافا إليه ما أخذته من صاحبنا حلاوة المشوار!»..

ووضع يده على جـيـبـه، وهم بأن يشـيـر بـالأخـرى مناديا صـفـصف، لكن يد غـزولى كـانـت أسـرع منه، إذ أمـسكت بيـد بسبوسة لتمـنعه؛ وهو يقول بصوت أجش: «دعك منه! نحن أولى بشم هذه الصفـقة! دماغنـا محتـاج لها! تروح تشتـغل وحدك من ورائنا ولا ينوبنا من العسل لحسه؟!». فانتبه بربش وقال مشوحا فى وجه بسبوسة بعدوانيـة آمرة: «هات ما معك كله دون أن تفتح فـمك!». وأيده هندى قـائلا: «دعكم من الشم والبـودرة! إنما نريد حقنا فيـما قبضه مـن فلوس! نحن تعاهدنا أن نمضى فى الطريق سويـة!». هنا قال بسـبوسـة وهو يلوح بكفيـه نحو صـدره: «أنا غلطان! أنا غلطان! كنت أمزح! لم يحدث شىء مما قـلته لكم!». غير أن غزولى كـان أسرع وأشرس مما ظننت؛ إذ هـجم على بسبـوسة فجأة، ودب يده فى جيبه كيـفما اتفق. وبسبوسة يتلعبط بين يديه مصوصـوا؛ إلى أن تمكنت يد غزولى من الجيب الذى فـيه البودرة فامتثل بسبوسة: «سأخرجـها!». وبالفعل أخرجها، فإذا هى ورقة كراسة ملـفوفة؛ فتحـها؛ فإذا فيـها ورقة مفضـضة من ورق علب السجـائر، تحوى حفنة صـغيرة من مـسحوق الـكوكايين. طواها بربش فى قـبضـته ونهض قـائلا: «تعالوا ورائى!». قـمنا وراءه. مشى حـتى دخل على صفـصف فرآه انتـحى ركنا قصـيا وسلم عينيه للفراغ كالغـارق فى بحرالهموم حتى الذهول. جلس بربش إلى جـواره، فجـئنا بالكراسى القش وتحلقـناهما. وأخـرج بربش علبـة سجـائرة البلمـونت العـريضـة، ونثر على سطـحـهـا أسطر الكوكايين متجاورة كزراريق الأرض، وضعها على الترابيزة وأتى ببريزة ورقية جديدة، فبرمهـا جيدًا، قدم كل ذلك نحو صفصف؛

الذى لمع الذهول فى عينيه حتى شله تماما عن الحركة. فلما تمعن فى الكمية وفدت على وجهه ملامح الطفولة الفرحانة فصاح باستهوال: «يابن ديك الكا.. ل.. ب!» وخشى بسبوسة أن ينسب فضله لغيره فصاح: «فضلة خيرك يامعلم! إنت لو شورت لى البارحة كان بقى مزاجك فل! لكن كل شىء نصيب!»..

تناول صفصف البريزة المبرومة ووضعها فى منخره الأيمن وشفط سطرا كاملا فى جذبة واحدة لم يترك منه شعرة؛ ثم نقل البريزة المبرومة إلى منخره الآخر وجذب سطرا آخر، فدمعت عيناه ونظر فى عينى بسبوسة كأنه يعيد النظر فيه: «تعرف طريق حاجة يابسبوسة؟» قال فاشخا حنكه عن أسنان لولية بيضاء منظومة: «بظروفها والله! ما كان قصدى وما كنت أبغى! لكن لقمة العيش المقسومة لك ترمى نفسها عليك حتى ولو كانت مع ولد نيجيرى يرطن بكلام غير مفهوم!». عند ذاك نظر إليه صفصف نظرة فيها الكثير من العتاب القاسى؛ وحوّل عينيه إلى العلبة فى يده؛ ثم جذب سطرين آخرين فدمعت عيناه أكثر واحمرت خدوده تقول تفاح يابوى؛ ووالله عادت إليه إنسانيته فجأة؛ وظهر يابوى كأنه أخيرا بدأ يجلس معنا، وقال لبسبوسة: «حاجة كهذه وقعت تحت يدك! هاتها وتعال! الأقرباء أولى بالمعروف! أتراك بعتها للحاج على إبراهيم! طبعا! قاعد هو للساقطة واللاقطة! على كل حال حصل خير! ثانى مرة لا تفعلها!»؛ وصاح مناديا: «هات دخان يابنى! دخان قص بتاع المعلم!»؛ ووزع علينا تمسية الأفيون كل واحد قطعة كبيرة؛ ورمى بربع أوقية حشيش أمام بربش وقال له: «رص!»..

مضينا نشرب يابوى كأننا نشرب فى آخر زادنا؛ وصورة صفصف وهو متهالك على الكنبة تحت قدمى زوجته كفأر الجبل لا تفارق دماغى؛ فيدخلنى يقين بأن صفصف المسكين ليلتذاك لم يكن شاما، ولهذا كان مفكوك العصب ككومة من اللحم لا تنفع ولا تشفع. لسانى الذى يستحق القطع تسلق على هذا الخاطر الخبيث وصاح فى بهجة: «لو كنت متزوجا بعد كل هذا الانبساط لذهبت إلى الدار من فورى!»، ثم انتظرت برهة وأكملت: «.. لكى أنام كالقتيل!»؛ فإذا بصفصف أول الضاحكين؛ وإذا به يعلق قائلا: «صدقت ياصعيدى! إن الانبساط يكون أحلى من كل شىء فى الدنيا!». فرأيتنى أنصت جيدا إلى قوله هذا ياخال؛ حيث قد عفقنى من جواتى كما يعفق عازف العود أوتاره؛ فإذا بى أصيح فى ألم: «أنا لن أصير كييفا لهذا الملعون أبدا! حد الله بينى وبينه هو والأفيون! إلا فى لحظات أنس كهذه كل حين وحين!». لكن صفصف أتى بأصبعه حركة بذيئة فى الهواء قائلا:«كداب ياخيشة! بكره نشوف!»؛ فأقسمت بالله العظيم بينى وبين نفسى ألا يصبح حالى كحاله أبدا.. وبقيت شاردًا طوال بقية السهرة حتى نسيت أننا سنطلع الليلة فى مشوار ندعو الله أن نعود منه مجبورى الخاطر. فلما تذكرت ذلك فجأة ميَّلت على هندى وسألته: متى نتوكل على الله؟ فقال هامسا: «بمجرد ما يجىء الدليل!»؛ ثم غمزنى أن أسكت فسكت..

وكانت ساعة الراديو تدق منتصف الليل حين دخل علينا شاب فى حوالى الثلاثين من عمره، نحيل القوام مستطيل الوجه أسمر محروق، قاسى الملامح رغم أن عينيه فيهما الكثير من تودد

العسل. مساء الخير يارجاله؛ هكذا قال بعد أن وقف. أهلا أهلا زردية؛ هكذا قال بربش، ثم أضاف مشيرًا إلى كرسى على مقربة: «إقعد يازردية!». فجلس. فتبسم صفصف قائلا: «الأخ ميكانيكى!». فقال الشاب بسرعة: «أخوك سباك! اسمى فيصل وشهرتى زردية! أصل الشهرة أن أى صواميل قديمة لا تعصلج معى! أفكها بعون الله من أول هزة! تحت أمرك فى أى وقت يامعلم!». فقال صفصف وهو يرمقه من تحت إلى تحت بنظرة نفاذة شكاكة: «ربنا يكرمك ياأسطى! ربنا يكرمك!». غير أن لهجته كانت كأنها تقول: «ابعد عنى ربنا يكفينى شرك!». وقال له بربش كأنه يعتذر عن معرفته لهذا الشاب: «عندنا عمرة فى مواسير البيت! قلت ما ينفع لها غير زردية! لكن لماذا تأخرت هكذا يازردية؟!» قال الشاب: «كل تأخيرة وفيها خيرة! فالشغل الدقى يلزمه الهدوء! والآن يمكن أن نقطع المياه على راحتنا والناس نيام!». قال بربش: «ماشى كلامك!» ثم راح ينظر فى طاقم الحجارة مختبرا عددها؛ ثم صاح فى طلب خشبة جديدة تحوى طاقما من عشرين حجرا؛ لزوم تحية الأسطى زردية. حينئذ نهض صفصف قائلا: «ليلتكم فل!»؛ ومضى نحو النصبة صائحا فيمن يقف خلفها: «أنا فى البيت الفوقانى ياولد!» ثم اختفى. وبعد لحظات سمعنا وابور عربته المرسيدس يزأر قبل انطلاقها به. دقائق أخرى مضت أجهزنا خلالها على طاقم الحجارة الجديد؛ فنظر بربش فى زردية وقال: «جاهز؟!» فقال الشاب: «جاهز!». نهض بربش قائلا: «بنا!» قلنا جميعا: «على الظالم!»؛ ومضينا خلفه نضرب فى حوارى مصر عتيقة.

والثالثة : صباحية مباركة

زردية إذن هو الدليل الذى كنا ننتظره. والصفقة كما حكاها لنا ثانية ونحن فى الطريق إليها؛ عبارة عن ڤيلا قائمة وحدها وسط المزارع والخضروات فى مدخل حى المعادى. صاحب هذه الڤيلا دكتور، لكنه دكتور فى الجامعة وليس ممن يداوون الناس. يعرفه زردية منذ سنوات طويلة، وقام بشغل السباكة فى هذه الفيلا مرات عديدة؛ حتى عرف كل شبر فيها، وكل مداخلها ومخارجها؛ وفى آخر مرة اشتغل فيها فى الفيلا كان يعرف أن لديه النية فى اقتحامها ذات يوم؛ فقام بإفساد نافذة المطبخ، وإفساد قفل باب المطبخ؛ أى أنه حين يتمكن من تسلق المواسير، سيدفع باب النافذة بدماغه، فينفتح بسهولة؛ فيدخل هو؛ يجلس أولا على حافة النافذة حتى يأخذ وضعه المستريح وبعدها يسقط فى قلب المطبخ؛ ومنه إلى الصالة ومن الصالة إلى قاعة النوم؛ حيث يعرف أن الدكتور يضع كل مدخراته فى دولاب الملابس، وقد رآها بعينيه كثيرا، فلوس بالبواكى مرصوصة كما خزينة البنك؛ ومجوهرات خاصة بزوجته الخوجاية المسافرة على الدوام. فإذا انتهى من جمع الفلوس والمجوهرات والملابس الفرو الثمينة استدار على

أجهـزة التسجيل والتليـفزيون وبعض السجـاجيد الصغـيرة التى يقال إن المتر مـنها يزيد ثمنه عن الألف جنيه؛ وعنده منهـا الكثير؛ ناهيك عن الـفـازات يابوى - والتـمـــاثيل والتـحف والأنـتـيكات الموضوعة على الترابيزة والدواليب..

الدكـتور - كـما يقـول زردية - مســافـرمنذ ثلاثة أيام؛ راقبـه زردية حتى تأكـد من ركوبه الطائرة. ومنذ ليلتـين وهو يمر على الفـيـلا فـيـجـدها مطفـأة تمامًـا ولا تـكاد تبـين بين الأشـجـار والحشـائش. وعندما اقتـربنا منها أوصانا زرديـة بأن نجعل بالنا جيـدا؛ وعيّن لنا أدوارنا علـى النحو التـالى: هو سيدخل، ويـفتح الباب من الداخل؛ لندخل نحن براحتنا، فـإن لم يستطع فتح الباب فـسيـربط الأشيـاء الثقـيلة بحـبل ويدليهـا من أى شبـاك واسـع؛ لنأخذها نحن، بحيث يكون بربش وغزولى فى كعـبه مباشرة؛ أما هندى وبسبـوسة فيتـولان تستيف الأشـياء ولفها وربطهـا. وأما العبد لله فمهمتـه الوقوف على الشارع العمـومى فى مكان خفى لمراقبة الطريق وإعطاء إشارة التنبيه..

رضينا بهذا التقسيم يابوى، واتكلنا على الله. غطسنا فى غبشة الظلام المتكاثف حول الفيـلا بفعل الأشجار والأعشـاب التى تلفها. وشمر زردية عن ذراعية وبنطلونه، وبصق فى كفـيه مسميا بسم الله الرحـمن الرحـيم؛ وقبض بيـديه على الماسـورة، وتخلص من حذائه مسلما إياه لغزولى، منبها عليـه أن يضعه فى جيبه، حتى لا

تضطرهم العجلة إلى نسيان فردة منه تقود إليهم. وضع قدمه على الماسورة ودفع نفسه بدربة هائلة يابوى كأنه القطة؛ صار يرتفع ويرتفع حتى صار مواجها لنافذة المطبخ؛ فمد يديه ممسكًا بإطار الشباك ليتمكن من نطحه برأسه. لكن الفضاء انشق فجأة عن صرخة مهولة ياخال؛ كأن حيوانا بريا قويا يجأر. ثم إذا برعد الصرخة يتبعه هزة أرضية خطيرة. وكان جسد زردية قد اندفع وارتمى بعيدا فى مكان خفى..

ركبنا الرعب ياخال؛ فصرنا نجرى هنا وهناك كالحيارى فى المصيدة، حتى اصطدمنا فى الظلام بجثة زردية ملقاة على الأرض بلا حراك. صرنا نتحسسها ونجس نبضها؛ فإذا بها قد فارقت الحياة يابوى. واتضح لنا أن الدكتور الخبيث قد كهرب شباك المطبخ وجميع الأبواب والنوافذ القريبة من الأرض..

وقعنا فى المحظور يابوى؛ لكننا لم نُضِعْ وقتا. حملنا جثة زردية وصرنا نجرى بها حتى غادرنا الفيلا؛ وصرنا على شاطىء ميناء أثر النبى فوضعنا الجثة وجلسنا فى مسطاح النهر نفكر فى الطلوع من هذه الورطة المهيبة. كنا صامتين كالموتى لكن الرعشة فى أوصالنا تربطنا ببعضنا. أشعلنا السجائر التى راحت تنتفض بين أصابعنا. قال بسبوسة: «حنعمل إيه فى الليلة السوده دى؟». قال بربش وهو ينظر فى مياه النهر: «والله ما أنا بعارف!». قال غزولى: «نرميه فى النيل ونخلص!»؛ فقال هندى: «لا تنس أن صفصف شافه معنا الليلة! وبعض الزبائن كذلك! فنحن مسئولون

عنه!». وهنا قال بربش فى حسم: «إذن فلنرجعه إلى مطرح ما وقع بالضبط! فى الصبح يعثرون عليه مرميا! ستحقق الشرطة فى أمره! وستعرف أنه كان يحاول سرقة الفيلا وأن الكهرباء صعقته!». قلنا جميعا: «والله فكرة!»؛ وحملناه من جديد، وأخذنا نجرى به، حتى وصلنا إلى حيث كان قد وقع؛ فمددناه فى مكانه وعدنا نجرى؛ حتى إذا ما وصلنا إلى شاطىء النيل صرنا نمشى فى تؤدة. ووالله لا ندرى كيف حط علينا كل هذا الضحك، الذى راح يغرقنا طول الطريق كأننا نتفرج على مسخة. وأغلب الظن يا خال أننا كنا نتخيل أننا نضحك، حتى لا نقع من طولنا، وحتى لا يتشكك فى أمرنا أحد.

الفجر كان بعيدا عنا بحوالى ساعتين؛ وقد صعب علينا أن نضيع الليلة هدرًا يابوى.. ألا نجىء حتى بمصاريف الشاى والمعسل الذى طفحناه اليوم؟ هكذا كان يبدو علينا جميعا ونحن ندخل مصر عتيقة من جديد. ولهذا رحنا نشمم كل خطوة لعلنا نعثر على بقايا خير منسى فى الشارع. رحنا ننظر فى كل شباك مفتوح على الشارع، مجرد نظرة ثم نمضى..

اقتربنا من شباك فى حارة ضيقة، بينه وبين الأرض بضعة أشبار. وكان مقسوما إلى نصفين بالطول؛ النصف الأسفل مغلق؛ أما الأعلى فمفتوح على مصراعيه. التصقت بالحائط وشببت على أطراف أصابعى، ونظرت فى الحجرة، وقع بصرى على سرير حديد بعمدان، وبجواره دولاب قديم مجدد، مفتوح على مصراعيه

هو والسرير مدهونان بالبوية حديثا ومنظر الملاءة والفرش يؤكد أننا أمام عريس جديد، هو على وجه التحديد ذلك الرجل الذى ينام وفى حضنه عـروسه. الاثنان عاريان تمامـا ومستغـرقان فى نوم عميق فخذ الرجل فوق بطن المرأة، وذراعها فوق رقبته..

جاء الصحاب فنظروا، فصـرنا نضحك ضحكا مكتوما، دون أن يدرى بنا أحـد، لدقائق طويلـة، قلت: «أكل العيش مـر، فلأجـرب» ودفعت البـاب المجاور للشباك فـإذا به ينفتح. فتـسللت داخلا إلى دهليز مـستطيل مظـلم. على اليميـن كان باب الحجـرة المطلة على الشارع، وكـان مواربا دفعـته ودخلت، والرجال مـن خلفى؛ بقيت واقفا لبرهة طويلة وتنحنحت؛ فلم يتحرك أحد، فتقرفصت جالسا أمـام الدولاب. وبجـوارى تقـرفص غـزولى؛ وفـى الدهليـز وقف هندى؛ وعلى باب الشـارع وقف بربش، وفى أعماق الحـارة جعل بسبوسة يروح ويجىء على ضوء اللمـبة نمرة خمسة المعلقة على الحـائط مددت يدى فى قـعر الدولاب؛ سـحبت مـحفظة كـبيـرة؛ سلمتـها لغزولى؛ فـدسها فى جـيبه. ثـم سحبت راديو بلاسـتيك أخضـر اللون ماركة صوت العـرب؛ وسـحبت علبة صـغيرة فيـها فرع وقرط وأسورة من الذهب؛ سلمـت كل ذلك لغزولى فدسه فى جـيبـه،ثم جـعلت أسـحب الملابس قطعـة قطعـة وأسلم لغـزولى؛ فيسلمها بدوره لهندى؛ الذى يـسلمها لبربش. وكان على الأرض نصف زجاجة خمر رديئة؛ صعب على أن أتركها فأخذتها فى يدى وأنا خارج؛ وصرت طول الطريق أعب منها...

قال هندى: «اطلعوا بنا على بيتى!» قلنا: «وجب!»؛ ومضينا بالفعل إلى بيته والفجر يقول: الله أكبر...!

* * *

فتحنا المحفظة فإذا فيها ثمانية جنيهات وبضع برايز وشلنات وقال بسبوسة أن الذهب يلزمه وأنه سوف يحاسبنا على ثمنه بالمليم. وأما الملابس فقد وزعناها وطلع الراديو من نصيب هندى. ما كاد النهار يطلع حتى استفتحنا الصائغ بعرقه المجزى فى مقابل أن يقدر لنا سعر الذهب؛ فقدره بثلاثمائة جنيه؛ دفعها بسبوسة محتجزا نصيبه منها، وعندما شرعنا فى الانصراف استبقانى بربش قائلا: «أعوزك فى موضوع!»؛ فاستأذنت من الصحاب ومشيت معه نحو شوارع فم الخليج..

استنظف مقهى حود عليه. جلسنا طلبنا الشاى بالحليب وعندما قاربنا الانتهاء من شرب الشاى مال بربش نحوى قائلا: «الطلب الذى أريدك فيه بسيط! ستأخذ عليه يوميتك جنيها كاملا يعنى أكثر من ماهية لوزير فى اليوم! لكن المهم ليس الأجرة على كل حال! المهم جدعنتك فى عمل ما سأطلبه منك على أحسن ما يمكن! أتعرف الرجل الذى يؤجر عربات اليد فى هذه الناحية؟!»، قلت: «أعرفه طبعا!». قال: «قم الآن واستأجر منه عربة ليوم واحد! وهاك ثلاثة جنيهات تشترى بها شروة بصل أو شروة أى شىء من السوق! تضعها فى العربة! وتسرح بها فى الحارة التى سرقنا منها ليلة البارحة! وكن بائعا بحق وحقيق!»..

الدهشة لعبكت وجهى كله؛ قلت «كيف يابو العم؟! ماذا يفيدنى لو فعلت هذا؟!» قال: «تدخل بالعربة حتى البيت الذى سرقناه! تقف عنده مناديا على بضاعتك! عندئذ ستستمع إلى الناس وهم يتكلمون عن السرقة! فتعرف بذلك الأخبار! وتجىء بها لى!» لمعت الفكرة فى دماغى ياخال، فقلت معجبًا: «يابن الجنية! ولكن ما فائدة كل ذلك يابو العم؟!» قال بربش: «من الذى أخرج المحفظة من الدولاب؟» قلت «أنا!» قال: «فتحتها قبل أن تسلمها لغزولى؟» قلت «لا!» قال: «راقبته وهو يضعها فى جيبه؟» قلت: «لا!» قال: «راقبته وهو يضعها فى جيبه؟» قلت: «لم أجعل بالى!» قال: «أليس يحتمل أن غزولى خنصر الفلوس من المحفظة؟!» قلت فزعا: «أيفعل ذلك؟!» قال: «ربما إنه صنف لا يؤتمن!» قلت: «أى صنف هو ياترى؟!» قال مستدركا: «لا! لا! أقصد صنف الحرامية! كلنا يعنى»! ربك والحق أحسست أنه غير صادق يابوى، فلعب الفأر فى عبّى من جهتهما معا، هو وغزولى؛ بل جاءنى هاتف يقول لى احترس ياواد من الاثنين وقلت لبربش: «ولكننى يابو العم منذ اشتغلت معكم والأمور تجرى بالبركة والصداقة! ولو دخلت الشكوك بيننا يابو العم ستتغير الصدور، فدعها لله!» وكان بربش يفتح ورقة سلوفان حمراء صغيرة ويمص أطرافها متلمظا، أزاح بظفر إبهامه سمسمة أفيون قربها من فمى قائلا: «ياصعيدى ياقحف! من قال لك إن الأمانة والصداقة والجدعنة معروفة بين الحرامية وبعضهم! إذا كانت هذه الأمور غير ماشية بين الناس العاديين! فكيف تكون ماشية بين الحرامية؟! تظنهم قرءوا القرآن

وأحـــاديث الرســـول وتزينـوا بمكارم الأخـــلاق؟! هذه أمـــور لا يعرفونها! ونحن لسنا إلا حراميـة! ليكن جدك شيخا وعمك قطبا! ولأكن أنا متـعلما فى المدارس! ليكن غـيرى ابن ناس أتقـياء! لكن مادمنا صرنا حرامية فنحن إذن حرامية وكفى! ليس هناك حرامى طيب وحـرامى شرير! حـرامى ابن حـلال وحرامى ابن حـرام!، الحرامى حرامى! لا يشفع له أهل ولا طيبة قلب! أنت مثلا سرقتك السكين ولهـذا تستعـجب الآن من كلامى! أنت تسـرق وفى ذهنك الله والرسول وشبح عمك الفقيه! ولاتزال تتصور نفسك مميزًا عن فئة الحرامية! تفعل أفعالهم وتتبرأ منهم! ولكنك لست وحدك هكذا! فأهل هذه البلدة جميعهم من كبيرهم لصغيرهم يسرقون بشكل أو بآخر كلهم يتـبرأون من الحراميـة فى سبيل أن يكونوا من كـبار كبار الحرامية! فالحرامى البسيط ياصعيدى ياقحف هو نحن! أنت وأنا وغزولى وهنـدى وبسبوسـة! حرامى من يعـرف أنه حرامى! ويسـرق من وراء سـتـار حـتى وإن كنا فى الليل! أمـا الحـرامى المركب فـأجارك الله منه لا يعـرف أنه حـرامى! لكن يعرف فـقط كيف يتـبرأ من الحـراميـة! كيف يرسم صورة الرجـل الشريف! كيف يعلن على الناس حجه كلما فات على مكة تاجرا ناهبا! وكلما كثر عدد الشرفـاء الذين هم من هذا النوع كلما كان ذلك دليلا على أن عدد الحرامـية فى البر يتزايد والسـرقات على ودنه! كل واحد فى هذه البلدة حـرامى على طريقته الخـاصة! وكل واحـد يخدع الآخر ليسـرقه على راحته! ولكن ميـزة الحرامية البـسطاء أمثالنا هى الوضوح! لـست أقصد وضـوح كل منا فى نظر البـاقين! إنما

أقصد بالوضوح أننا جميعا نعرف أننا حرامية ونتعامل مع بعضنا على هذا الأساس! والمشكلة أن الواحد منا ينسى أحيانا كثيرة أنه حرامي! ويتعامل مع الناس على أنه رجل شريف! حتى زملاؤه الحرامية يعاملهم هكذا أيضًا! ولأنهم ينسون مثله، فإن الأمور تمضى فلا أحد يحاسب أحدا! والإنسان يجب أن يتعلم ويتنور بالتجربة ليجيء يوم يصبح فيه لصا مركبا يحترمه الناس ويسلمونه ذقونهم! وعلى كل حال ياصعيدى أنت لو قمت بالعملية التى رسمتها لك فإنك ستتعلم وستعرف أشياء تنفعك عند اللزوم! ستعرف إلى أين اتجهت أصابع الاتهام فتتعلم حكمة بالغة ستعرف المساحة التى ستتحرك فيها المباحث والحكومة فتعرف كيف تتقيها! وعموما أنت حر انس ما قلته لك كأنك لم تسمعه!»..

ثم إنه أشعل سيجارة ووقف مصفقا للجرسون، الذى جاء مهرولا نحو ورقة ربع الجنيه المعلقة بين أصبعى بربش، ثم أخذها وصار يعبث فى الفكة فى جيب المريلة؛ لكن بربش - مثل البيك الكبير - أشاح بذراعه نحوه علامة أن: خَلِ الباقى ثم سلم على ومشى؛ فاستدرت أنا عائدا فى اتجاه فم الخَليج، وليس فى نيتى العودة إلى بيت هندى أو إلى بيتى. قلت: فلأذهب للمعلم شندويلى فى المقهى أعطيه ما تجمع معى من فلوس قبل أن تمتد عليها يدى أو يد الزمان، وهكذا شرعت أقف لأنتظر مسافة مناسبة بين سيارتين حتى أعبرها إلى الرصيف الآخر فى اتجاه مصر عتيقة لكن الخاطر تملكنى، ففوّت على فرصا كثيرة للعبور؛ وبقيت

مسمرا فى مكانى وقتا طويلا وصوت الهاتف يهتف بى: والله إنها لفكرة! لماذا لا أجرب هذه الشغلة التى أشار بها بربش؟ إنها والله شىء طريف مثير للخيال..

وفجأة رأيتنى أستدير عائدا نحو ذلك الرجل الذى يؤجر عربات اليد فأجرت عربة دفعت له رهنها. وذهبت فاشتريت شروة بصل كما أشار بربش، كومتها فوق العربة، وعبرت بها من فم الخليج إلى مصر عتيقة؛ وجعلت أمشى مناديا بصوت خافت، ولا أستجيب للبيع إلا قليلا حتى لا ينفد البصل قبل وصولى إلى الحارة المقصودة، فلما وصلت إليها بدأت أنتبه إلى أن الجو راكد وعلى غير ما يرام. وقفت بجوار مقهى على ناصية الحارة حينما لفت نظرى أن الجالسين عليها ليسوا فى حالهم كالعادة بل إنهم متجمعون حول بعضهم يتكلمون فى حماسة وحمية وحدة، فيما يبدو عليهم الاهتمام الشديد؛ وقلت لنفسى: بس! لابد أنهم يتكلمون فى حادث السرقة.. فإذا بالناس كلهم على المقهى مندمجين فى قول العجب: يقولون إن المشير عبد الحكيم أبو عامر قد مات!! مات؟! المشير أبو عامر مات؟! كيف يابوى رجل فى كل هذه الأبهة والعز،ويموت؟!..

تركت العربة وبصلها، واندفعت أسأل الجالسين كأن المشير من بقية أهلى: كيف يابو العم؟!..

رد أحدهم مغمغما من مناخيره: «نعم!» قلت «كلام جد يابو العم؟!كيف يابو العم؟!» فلم يرد على أحد. جلست فطلبت شايا

من الولد الجرسون وسألته ثانية فلم يرد، فلحقته وعزمت عليه بسيجارة فأخذها وقال: «المشير هو الذى انتحر! ابتلع حبوبا مخدرة بقصد الانتحار فمات!» هتف على لسانى صوت قوى «الأمر فيه إنَّهْ»، وعدت إلى العربة فجعلت أدفعها داخل الحارة مناديا على البصل بصوت عال..

قرب دار العريس المسروق تلكأت ثم توقفت مواصلا النداء «كيف التفاح يابصل» خرجت من الدار المجاورة امرأة سوداء الوجه ضخمة كالمحمل، صارت تزحف نحوى ببطء قائلة: «بكام البصل ياعم؟!» مع أننى فى عمر أحفادها. قلت: بتلاتة تعريفة!» قالت: «الاثنان بخمسة تعريفة ينفع؟!» قلت: «ينفع»، فمضت تقلب فى البصل وتنقى طالبة كفة الميزان. قلت: «لا يهمك! زنى عند أى بائع وتعالى! أنا راض بذمتك!» بعد برهة فاتت امرأة بملاية لف وسألت عن السعر؛ فلما وجدته أقل من السوق توقفت وراحت تنتقى. ثم جاءت امرأة ثالثة من دار العريس نفسها ووقفت تنتقى وجاءت وقفتها بجوار المرأة السوداء فتكلمتا معا بصوت كالهمس لكنه مسموع؛ عن المصيبة التى حلت فجر اليوم بدار ابن أختها «زينهم»، حيث سرقه اللصوص فقشselect وه، ونشلوا المحفظة وفيها ثمانمائة جنيه كان قد لمها فى الصباحية وكان ينوى أن يدفعها لتاجر الموبيليا.. هكذا كتب العريس فى محضر الشرطة التى جاءت وعاينت منذ قليل!..

طب ما رأيك ياخال أننى صدقت أن المحفظة كان فيها ثمانمائة جنيه! الله وكيل يابوى. أنا الذى تلقفت المحفظة وكانت خفيفة جدا

يابوى، صدقت أن فيها هذا المبلغ الكبير، ولو كان غزولى أمامى فى تلك اللحظة لطبقت فى زمارة رقبته وأكلتها، مع يقينى أن الفرصة لم تسنح لغزولى أبدا فى أن يستخرج المبلغ من المحفظة خلسة قبل أن يدسها فى جيبه، إنما بنى آدم يابوى؛ طماع؛ شكاك. وحين رأيت الشك ممسكًا بتلابيبى أيقنت بصحة كلام بربش وآمنت بأننى صرت حراميا رسميا أشك حتى فى نفسى وكاد هذا الخاطر يعمينى عن سماع بقية كلام المرأة وهو مهم يابوى؛ إذ راحت تقول إن العريس تعرف على الحرامى وأبلغ عنه؛ إنه ولد صايع زميل للعريس فى شغله تبع مقاول للبناء..

وحينما شعرت أن البصل قد انتهى وأننى عرفت ما يهمنى معرفته، دفعت العربة عائدا بها لكى استرد الرهن فورا. وما كدت أصل إلى آخر الحارة من الناحية الأخرى حتى رأيت فلاحًا غلبانا يحمل على كتفيه قفصا صغيرا من العنب ويمشى مناديا فى طلب الأكيلة. كان منظر العنب مشرقا ياخال، حتى أسال لعابى؛ فتوسمت أننى أستطيع أن أنفع هذا الرجل الغلبان بقرش زيادة ليعطينى أحلى عنقود فى القفص، ولسوف أتسلى بقزقزته مع رغيفين وقطعة جبن أبيض. وهكذا اقتربت من الفلاح الغلبان: «أرنى عنبك ياعم!». فحط القفص عن كتفيه وانتقى عنقودا عظيما لا يقل وزنه عن كيلو ونصف قلت «بكم الكيلو؟ قال «بالبركة» قلت «كيف يابوى؟!» قال باسما: «هات الشلن!» قدرت فى نظرى أن العنقود يساوى سبعة قروش؛ فدفعت إليه بالشلن قائلا: «معك ورق لف؟» قال بخشونة خفية: «طبعا ياصعيدى ياقحف! أنا المعلم

وتفوتني هفـوة كهذه؟!» ثم انتزع من تحت إبطه فـرخا من الورق لف فـيـه العنقـود بحرص وعنـاية. وأعطاه لى قـائلا: «اتكل على الله!»..

لحظتها كنت من الذهول أحاول انتقاء الكلمات المناسبة لكي أرد بها على هذا الفلاح القليل الأدب الذى يقول لى - من الباب للطاق - ياصعيدى ياقحف. وكـان الشر يطلع من عينى حتى أننى بدلا من أن أمسك لفـة العنب كورت قبضـتي وشيعـتها نحو وجـه الفلاح بحنق شديد. لكن يـده كانت أسرع منى يابوى؛ ابن مـدينة مدرب على الخناق، أمـسك رسغ يدى فلواه بـقوة حـتى كـسـرنى على ظهـرى، فصـرت أصـرخ وهو يهزنى قـائلا فى ابتـسـام مشـفق ودود: «ما تعرف من أنا ياصعيدى ياقحف؟!» عرفته فى الحال من بسمته يابوى. من عوجة شفتيه، فهتفت: «بربش! ياابن ديك الكلب! غلبتنى ياابن المدينة!» وتركـته ومضيت أدفع العـربة بيد، وأوحوح من وجع فى الأخرى.

الرابعة: المفاجأة

قال المعلم شندويلى وهو يطوى الجنيهات فى قبضته بإهمال شديد لا يليق بالعرق الذى سفحته فى لمها قرشا قرشا: «باقى عليك خمسمائة جنيه يابو العم! وخل بالك يابو العم - ابتسم فاشخا حنكه على الآخر - لن أكتب لك عقدا إلا بعد أن ترينى يوما فى السكان أولاد القحباء! مضى عليك حول وحول وأنا أمهلك فى الدفع وأضعك على كفوف الراحة وحتى الآن لم أسمع خناقة واحدة! أخشى أن تكون قد استحليت المرعى مع المومسات المجاورات لك فى نفس الدور! إنهن يبلفن أتخن شنب! أنت لا تحتمل منهن ضربة رمش! بعده تخر صريعا يابو العم! أنا نفسى كدت أقع! هل أكذب عليك يابو العم؟! النكدالذى عيشنى فيه أولادى من أجل البحث عن مطرح جديد لنا! إنما كان سببه خوفهم من أن أخر صريعا تحت شباشب القحباوات اللائى يشاركننا فى سكنى العلالى! ولو وقعت تكون قد طبلت! يصبح عليه العوض ومنه العوض فى مالى وصحتى وعيالى! ربنا والحمد لله نجانى يابو العم! حتى الإيجار يجىء به البواب لحد عندى غير أننى أتركه على سبيل الصدقة حتى لا أتلوث به وفى مقابل أن يجعل

البواب باله منى فى غيبتى ولا يجىء فى صفهن على طول الخط! إن كنت قد وقعت فى حبائلهن يابو العم وهذا منتظر فسامحنى إن قلت لك دع لى شقتى وخذ نقودك! أنت لست نبيا يابو العم ولابد أنك قد لحست من طبق الحلواء لحسة أنستك أهلك! إاللنى أنا! أنا المقروص باللحسة من قبل أن يخلصنى الله من الوصول إلى لحس القدم بدلا من لثم الشفاه والخدود وعنب النهود! وما أوفرها وأيسرها على السلم أو على السرير لا فرق لا مشكلة فكلاهما ميسور والمسافة بين السلم والسرير بمقدار طرفة عين! قشطة مهلبية بالعسل الأبيض بالهبل الأسود هى ملعونة والحمد الله خلصت منها وبقى أن أخلع جذورها من أملاكى مهما كلفنى ذلك من صبر! ثم إن لى معهن ثأرا لابد من تصفيته! لقد أهن زوجى وبناتى بالردح مرة وبالتلسين مرات! وبسوء سلوكهن على طول الخط! فلك أن تتصور حالى وشعورى حين أرى بنفسى فاجرا من زبائنهن قادما لهن يتمخطر على السلم كطاووس علق ولا يكفيه ذلك تفويرا لدمى بل يصطدم بابنتى على السلم فيماجنها ويتجرأ عليها بالقول والفعل! صحيح أنه لحس تراب الأرض ونقلته الإسعاف جثة مرخية من الضرب الذى أكله! لكن ما حدث حدث ولا أستطيع أو يستطيع غيرى مسح الجرح عن نفس ابنتى. إياك تظن أننى أسخرك للأخذ بثأر من ناس لم أقدر عليهم! إنما أنا يابن الحلال أتكلم لمصلحتك! نعم بالطبع ستتزوج وستنقل زوجك إلى هذه الشقة يابن الفقهاء الأئمة! كيف وهؤلاء جيرانك؟! إنك لابد أن تشكمهم يابلدينا قبل أن يذوقوا لحمك!فلو

ذاقوه فـإنهم كلاب مـسعـورة ستنهش فـيك وفي عرضك حـتى تمرمش عظامك! ها أنا قد نبهتك يابو العم وذنبك على جنبك!»..

قال هذا وشوح بذراعه في فروغ بال، ثم أشـعل سيجارة كأنه يضع خطا ثقيلا تحت كلامه. فجعلت أتأمل كلامه يابوى. فوجدت أنه عين العقل، ووالله لقـد أفلح المعلم شنديولى في أن يشعل النار فيَّ بهذه الـعبارة الأخـيرة يابوى؛ وتصـورت زوجتى الغلبـانتين وهما ذليلتـان تحت شباشب المومسـات؛ وقلت في عقل بالى: هذه الشغلة شغلتك يـاولد لا يهنأ لك بال حتى تتمها وإن ضـاع عمرك فـيهـا. فـشفطت آخـر شـفطة في كـوب الشاى ونـهضت قـائلا: «يساويها ربنا يامعلم شنديولى!». ومـضيت أضرب في الشوارع على غير هدى؛ إلى أن قادتنى قـدماى ـ دون أن أدرى ـ إلى قهوة صفصف. كنا في سـاعة أم كلثوم يابوى، سـاعـة شمس الأصيل دهبت خـوص النخـيل يانـيل. وكـان الجو رمـاديـا في لون النيل المخضـر المتمـدد ورائى على بعـد أمتـار معـدودة؛ وثمة أشـجار الزيتون متـراصة على الجانبين من كل الشوارع يلمع خـيالها في صفحة الأسفلت؛ الذى انحـرفت عنه قليلا بين السرايات والعمائر الفـخيـمـة، لأدخل بعـدها مباشـرة، في الحـوارى ذات البيـوت المتراكمة فوق بعضها كالهـديم، عبرت الهديم إلى قهوة صفصف، التى احـتلت حارة سـد مسـتطيلة عريضـة ترتص على جانـبيـها أشـجار الزيـتون الفاردة فروعهـا بأوراق الثمرة الحمـراء كمناديل بأوية مـعـروضة للبـيع فـوق الشـجر تلعلط بـالأحمـر والوردى

والبرتقالى على أديم أخضر، الكراسى القش تحت الشجر مرتصة، بعدها كراسى خيزران، تفصل بينهـا الطقاطيق النحاسية اللامعة؛ والأرض مرشوشـة بالماء حتى الغرق، مـا أحلاه من منظر يابوى؛ منظر يشرح القلب والله ياخال..

غير أن الجو كان ساكنا سكونا مريبا، على غير العادة فى مثل هذا الوقت، فسـاعة شـمس الأصـيل هذه فى قـهوة صـفـصف بالسهرة كلهـا فى مقاة أخرى، فليس فى الدنيا مكان سـاحر كهذا فى هذه اللحـظة يابوى، صـدقنى أن هناك أمـاكن تشـفـى العليل وهذه الحارة من هذه الأماكن؛ والدليل على ذلك أن الخلق يجيئون من آخر الدنيا للقعود فيها ساعات بالشىء الفلانى، فما بالها اليوم ساكتة ساكنة كأن ميتا مـدفونا لتوه فيها؟! أتكون الحكومة فاتت عليـها وعـملت اللازم حـتى تركـتهـا جثـة هامـدة؟! ولكن منظر الكراسى والأرض المرشوشة بعنـاية لا يدل على أن الحكومة مرت من هنا. قلت ياخبر بفلوس فلأجلس لأعرفه بالمجان..

جلست يابوى، ووضـعت ساقـا على ساق، وصـفقت فـجاءنى الولد كمـبر الصنايعى فى أدب مـصطنع، ووقف أمامى فى هيـئة إنصــات، فجـعلت أنظر فـيـه لعله يفـهم طلبى كـالعـادة، فطلبى معروف دون أن أتكلم لكن الولد بقى منصتا صامتا؛ فصحت فيه قائلا: «مـاتجيب يابو العم» فـتسـاءل متـجاهلا دهشتـى: «أجيب إيه؟!» قلت فى استنكار: «هات حاجة ساقـعة وهات دخان!» فقال فى كلاحة: «حـاجة ساقعة آه! دخـان لأ!» قلت «فى الأمر شىء؟!»

قال: «الجو ملبش» ثم تركني ومضى وبعد برهة قصيرة أفقت على صوت الفتاحة يطرقع رافعا غطاء زجاجة الاسباتس الخضراء المغبشة بالثلج؛ وضعها على الطقطوقة جوارى وانصرف..

حمدت الله أن جيوبى نظيفة من الحشيش؛ فمكثت جالسا أرتشف الاسباتس على مهل، والهواء يتساقط فوقى من غرابيل الشجر، وليس فى دماغى سوى شغلة المواميس الذين سينغصون على عيشتي. فجأة لمحت عربة البوكس فورد الزرقاء تعبر الشارع العمومى فى بطء وتمهل؛ ثم غابت عن ناظرى، فانشغلت فى إشعال سيجارة، ولما رفعت رأسى رأيت ثلاثة أفندية شبان متجهمى الوجوه يقبلون نحو المقهى فى خطوات ذات وقع حاد، وكان غزولى يمشى وراءهم هو وشخص آخر لم أكن رأيته من قبل، فما كان منى إلا أن وقفت صائحا فى فرح وابتهاج: «غزولى! يا»؛ لكن غزولى تجاهلنى يابوى، ومضى وراء الأفندية إلى داخل المقهى، فصحت ثانية بغيظ مادا ذراعى أكاد أجذبه: «إنت ياغزولى الكلب! ماسمعتش ولاّ إيه؟!» فإذا بغزولى يرتد نحوى فجأة والشرر يتطاير من عينيه الخبيثتين اللئيمتين؛ وبكل قوته يلسعنى براحة يده على وجهى شاخطا: «اقعد مطرحك».

فجلست مطرحى والذهول يكاد يعمينى عن كل شيء ياخال. رأيت كبير الأفندية يتقدم داخل المقهى، فيفتش فى أركانها، ويعبث بالأوانى وبالكراسى، ويتلصص خلف النصبة. فأيقنت أنها الحكومة يابوى، وأنها لابد قابضة ولكن ما بال غزولى ينبرأ منى

هكذا؟! إن أصابع يده صارت ترن على صدغي. إلا وأفندى منهم جعل يقبل نحوى مكشرا عن أنيابه، وغزولي يقف وراءه..

«بتشتغل إيه ياولد؟» هكذا سألني الأفندى، فوقفت متلجلجا ياخال، وحرت في النطق باسم شغلتي؛ وصرت من فرط الرعب والرعشة أنظر فى غزولي؛ الذى رأيته - وياللعجب - يقف معتدلا منفوخ الصدر كأنه بني آدم بحق وحقيق، كأنه هذا الأفندى الذى يسألني الآن ويرعبني، ثم إذا به - لا تتعجب ياخال - يقف بيني وبين الأفندى قائلا فى استعطاف: «هذا ولد غلبان ياسعادة البيه! على الله! نفر من نوع الفاعل!» قال الأفندى - وأعجب هنا ياخال غاية العجب: «فتشه ياغزولي!» فانبرى غزولي يتحسس جيوبى وتحت إبطى، ويرفع اللبدة عن دماغى، وأخيرا قال: «ما معه شيء ياسعادة البيه!» وكان الأفندى الذى وضح أنه كبيرهم قد جاء ووقف جوارنا، فقال فيمن حوله: «فين صاحب القهوة دى؟!» فقال الولد الصنايعى كالماكينة الدائرة: «مسافر ياسعادة البيه!»، ونظر إلى غزولي؛ فقال غزولي للأفندى: «أصله اليومين دول بيسافر كتير يدور على شغل فى الدول العربية! الحالة يظهر تعبانة معاه شوية!» فهز الأفندى رأسه وزام عدة مرات ثم استدار ومضى فمضوا جميعا خلفه وبقى الظلم فى عيني يابوى، وأصابع يد غزولي ترن فوق صدغي بألم شديد، وصوت واثق من نفسه يرن فى دماغي فوق رنين الوجع قائلا: إن غزولي ينصب نصبة جديدة محكمة الصنع، وإنه لابد أن يكون ولدا واعرا جدا يابوى،

حتى أنه يستطيع أن يؤلف بوليسا يهاجم به الناس والأماكن طمعا فى صفقة كبيرة إننى إذن بجـواره مجرد ولد ينضرب على وجهه بالقلم. هنا صعبت على نفسى يابوي؛ فـانهمرت الدموع من عينى كاللهب الكـاوى، حتى اغتـسلت عينى ونظرت الحـارة قد خلت من جميـع البشر، والريح تعبث بورقـة جرنان زفرة فتـرمى بها هنا وهناك وتعلقها فى الفراغ، وثمة كلب مقع على الأرض يتابعها فى انبهار ويتثاءب فى ملل.

جاء الولد كمبر الصنايعى وجلس بجوارى واضعا فنجان قهوة على الطقطوقـة؛ ثم نزع من فـوق حلمـة أذنه تحت شـعره ورقـة سلوفان فـيها قطعـة أفيون فى حـجم زرار البالطو، اقتطع ربعـها وقدمها لى باسمـا: «روق! روق! ولا يهمك!» تناولت قطعة الأفيون وقد أحببت الولد ياخال. ولم يكن يخطر ببـالى أن الولد كمبر فيه كل هذه الجـدعنة رغم أننى منذ رأيتـه لم أهضم منظـره، صحـيح ياخال: الواحـد لا يأخذ الناس بمناظرهم طوحت بالقطعـة فى فمى ومسـحت دموعى قائلا: «تشكر ياكمـبر» قال «اشرب هذه القـهوة على حـسابى» قلت: «مـا كل هذا الكرم ياكمـبر؟» قـال: «كله من خيـرك!» فجعلـت أرشف القهوة وأمـصمص الأفيـونة متـمنيا أن تذاب بسرعة. وقـال كمبر: «ما تأخـذ على خاطرك من غزولى! إنه أخوك!» قلت: «عمره ما فـعلها! لا أعرف لماذا عاملنى هذه المعاملة؟! وعلى كل حال! حسابه معى طويل» ابتـسم الولد كمبر قائلا: «خذ الأمر ببسـاطة! غزولى ضربك ونـجاك! فلولا هو لكـان الضابط قد أخـذك. للتحـرى عنك ولا تنس أنك غلـطان ـ وضـحك ـ أنت عـدم

المؤاخذة صعيدى مدب! كنت ستودى بالرجل فى داهية! هل عميت ياحسن؟! أنت تراه داخلا فى صحبة الحكومة تناديه؟! إنه فى حالة عمل وراسم نفسه أمام رؤسائه وحضرتك تقول له ياغزولى الكلب؟! لو كنت مفتحا لتجاهلته كأنك لا تعرفه! إنك اليوم ستجعلهم يشكون فى صدق عمله!»..

الأرض مادت بى ياخال، تحلف اليمين أننى رحت أثبت نفسى فى الكرسى خوف الوقوع؛ ودماغى كلها فى دوامة كالكرة تضربها قدم لتتلقفها أخرى: غزولى هو الذى نجانى؟! التحرى؟! عمله؟؟! رؤساؤه؟! ما كل هذا يابوى؟ لابد أننى من غير هذه البلدة من غير هؤلاء القوم ياخال. أيعقل أن أصاحب رجلا وأشتغل معه سنوات طويلة، ويتضح لى فى برهة سريعة أننى لست أعرفه حق المعرفة بل لست أعرفه أصلا..

قلت للولد كمبر: «ما كل هذا الذى قلته ياكمبر؟! إنك تقول العجب! أتقول الجد أم لعلك تهزل! ما دخل غزولى بالحكومة وعمل الحكومة؟!» وكدت أتسرع فأضيف قائلا: إنه حرامى رسمى ومعروف للدنيا كلها جربوعا حقيرًا بلا مبدأ، لكن الحمد لله يابوى أننى لم أقلها؛ لأن الولد كمبر كان أسرع منى قائلا فى استنكار: «ما خوف إلا أن تكون لا تعرف صاحبك! أنت عبيط ياحسن أم أنك تستعبطنى؟! ألست تعرف شغلة غزولى الحقيقية ياحسن؟! غزولى شغلته مخبر سرى فى الحكومة! تبع مكتب مكافحة المخدرات!!».

نط قلبى، قافزا على لسانى: صائحا «ماذا قلت ياكمبر؟!» ياجدع لا تقل هذا!». ثم خشيت أن يستعبطنى الولد ياخال؛ فتصنعت أننى أعرف هذا وأننى أنفيه حرصا على سمعة الرجل وعمله وأخذت أغالى فى نفى الخبر، والإيحاء للولد بأن غزولى دماغه ملعلعة حبتين ومخه نظيف يستطيع أن يفعل كل هذا، غير أن الولد كمبر زغدنى فى جنبى بلطف وود، وأفهمنى كل شىء، قائلا: إن غزولى ينفعهم كثيرا، فلولاه لأغلقت المقهى من زمن مضى؛ وذلك لأن غزولى يعرف مواعيد الحملات التى سيقوم بها مكتب مكافحة المخدرات بالساعة والدقيقة واليوم؛ فيلف على كل أحبابه من تجار المخدرات وأصحاب الغرز، فيبلغهم بمواعيد الحملة حتى يستعدوا لها؛فتجىء الحملة فى النهاية تأخذ ما تأخذه الريح من البلاط. والمكتب لابد أن يطلع غزولى على مواعيد حملاته، لأنه لا حملة بدون غزولى، إنه هو الذى يعرف الحوارى والأوكار والمخابىء، وهو الذى يجمع التحريات عن المجرمين والهاربين من الأحكام؛ وهو الذى يقود الضباط إلى المواقع؛ ولو كان المجرم الهارب واقفا بلحمه أمام الضابط وقال غزولى إنه ليس هو أطلق الضابط سراحه فى الحال: «اصح ياحسن ياخوى! وافهم» غزولى هو الآخر يغطى نفسه جيدا! يجمع مرتبات تصل إلى آلاف كل شهر! والمعلم وغيره يساعدونه على تغطية موقفه! يجلبون له بعض القضايا فى حضور الضابط! يسلمونه بعض الزبائن يدا بيد زبائن دعت عليهم أمهاتهم فقادهم سوء بختهم!».

تحلف اليـمين ياخـال أننى لن أعـد قادرا على الرغم بأننى مـا كنت أعرف أى شـىء من هذا. على أن الضربة القاتلة عاجلتنى بعد برهة وجيزة ياخـال، حين استطرد الولد كمبـر قائلا فى ثقة هذه المرة: «أظنك لا تعرف أن بسبوسة هو الآخر مخبر سرى! انتفضت واقـفا فى الحـال ياخـال، كمـن يقف على سلك كـهربى، وأخـذت أصيح: «بسبوسة هو الآخر مـخبر سرى؟! كيف يابوى؟! دفعنى الولد كمـبر برفق، فجلست؛ فـصار يبحث فى جـيبه عن سـجائر؛ فأسرعت بمد علبتى نحوه. فنزع واحدة بللهـا بشفتيه، ونزع عنها الشريحـة المبلولة، ثم نزع ورقة بافرة من دفـتر فى جيـبه؛ ونزع قطعة حشيش من خلف حلمة أذنه، فركـها على السيجارة وبرمها بسرعة، ثم أشعلها وجذب منها عدة أنفـاس متلاحقة، وقدمها لى قائلا وهو يكتم الدخان فى منـخريه: «بسبوسة مخـبر سرى تبع بوليس الآداب! وهذه الشـغلة تنغنغـه! لو اقتـصر عليـها وحـدها يأكل الشـهد يلبـس الحرير فى حـرير! وهو بالفـعل هكذا! هناك عمائر بكاملـها وسرايات فى مناطق نخاف نحن من المشى فـيها! لبسـبوسة مرتـبات ثابتة فيـها! العمـارة أحيانا تكون كلهـا شقق دعارة من أولها لآخرها! فكلها مؤجـرة مفروشـة! وإيجار المفروش هو الاسم الرسمى للدعـارة! نعم! وهناك سرايات أصحابهـا كانوا بشـوات ذات يوم وباتوا يتاجـرون فى اللحم واللبن! الحكومـة لا تعرف عنهم جمـيعا أى شىء إلا عن طريق بسبوسة! وهو كـثيرا ما يضـبط فى هذه الشقق بعض رؤسـائه ولكن فى زيارات ودية يقوم بهـا لقبض المعلوم ولتبليغ خـبر حملة! وكـان يجىء بعدها

فـيحكى لنا ولـلمعلم صـفـصف! بسبـوســة هذا كان زمـانه الآن مليونيرا كبيرا لولا مسماره! هو الذى يدوخه ويعذبه فى الدنيا! لا يشبـع ولا يكتفى! يقـول إن السبب ليس فى أنه ثور طلوقـة وإنما لكثرة الجميلات السائبات اللآئى يقعن تحت يديه مقهورات! منهن من تكون امرأة رجل كـبير ذى مـركز كبـير أو بنت ناس طيـبين ولكنها ضبطت متلبســة! ومادام قد صـار لها ملف فى الآداب فإن مسمارًا يرقعـه بسبوسة فيها خيـر لهامن المبيت كل يوم فى قسم الشرطة! الواحدة منهن تنام فى حضن زوجها متخشبة ولكنها فى حضن بســبوسة كالزنبـرك! هكذا يقول لنا! ياما جـاء هاهنا عقب خـروجـه من عند إحـداهن سكرانا طينة! فـيكشف عـنه ويريه لنا متـسلخا! وفى لحظات يختـبىء فى زقر مظلم فى الحـارة ويفعل العادة السرية ويعـود قائلا إنه ظل يرقع طول الليل دون أن ينزل منه شىء وقد أنزل الآن فاستراح! إنه ملعون فى الدارين بسبوسة هذا لكنه جدع! أجدع واحد فى شلتكم كلها! خـصوصا لمن يقصده فى خـير! هـن يحبـبنه ـ يقـول ـ لأنه يفـعل مـعهن مـا لا يفـعله أزواجهن تحرجا أو غشومية! بعضـهن حلفن له عند حدوث الشىء أنهن قـبل الآن لم يكن يـعرفـن شـيئـا عن هـذا الشىء رغم أنهن متزوجات ومـنجبات من سنين طويلة! كذلك يفعل معـهن حركات الجدعنة! إنه محظوظ ابن كلب هذا البسبوسة! أتخن شنب فى البلد وأحلى شاب فيـها لو نظر لواحدة منهن تنقلع عـينه قبل أن يطول منها نظرة لما هو معروف عنهن من العفة والـهيبة وكثرة المال! أما عند بسبوسة المعفن هذا فـإنها تخلع اللباس فى الحال وهى تقول

سبحان الله والحمد لله! وعلى فكرة! كل نسوان الكورنيش عفيفات شرفاء حتى يراهن بسبوسة! تنهار الواحدة منهن فى الحال وتنكسر عينها! أما عمارة الكورنيش فى مصر عتيقة! أكبر عمارة هناك! فإن بسبوسة يشتغل عليها آخر شغل! فيها خمس مومسات مقيمات لكل منهن ثلاث أو أربع صديقات! كل واحدة منهن تجيء بزبائنها الخصوصيين! وهم زبائن من أصحاب الرتب العالية والرأسمال الكبير! والجميع يقيمون السهرات الحمراء! ولعب القمار شغال طول الليل! الواحد منهم يشترى البنت ويلاعبك عليها شف الفُجر والعهر! شف المزاج العجيب الغريب! ديك أم هذا المزاج المهيب! إن غلبته أنت فى اللعب تقوم فى الحال أو عندما يطيب لك فتعتلى البنت فى الحجرة المجاورة حتى الصباح! يقول إن عنينا مرخيا يكسب باستمرار فى هذه اللعبة فيحتجز أحلى البنات على اسمه طول الليل والمغلوبون يتحرقون شوقا من حوله ويتعذبون فلا يرحمهم! أما إن غلبته أنت فإنه يدفع لك تكاليف أى بنت تختارها! إذ أنهن جميعا أمامك بقمصان النوم شاربات منتشيات بهن يحمى اللعب فيجعلنك تذهب لتجيء بكل ما فى بيتك من مال تدفعه لهن! شف العهر بتاع البلد ياسى حسن! وتقول لى نكسة؟! إنها بلد يلزمها الحرق يابوعلى!»..

وكف عن الكلام كأن الحشيش المتكلم فى دماغه قد نفد فجأة كما تنفد البطارية؛ فبقى شاردا يحدق فى الفراغ وقتا طويلا يدخن سيجارة عادية فى صمت كفيلسوف متهور؛ وموجات صوته

لاتزال موجودة فى المكان. أما أنا لا تسل عنى ياخال؛ تحلف اليمين أن يدا غليظة غسلتنى وعصرتنى. الأرض كروية يابوى، صدق من قالها، وبحر الأفكار واحد والخلق جميعهم يسبحون فيه، والواحد منا مهما شرق أو غرب فهو ماض تحت نفس الأمواج المتلاطمة؛ وها هوذا الولد كمبر يكلمنى فيما كان يشغلنى من أمر دون أن أساله أو أعرض عليه الأمر.. فياله من أمر يابوى!..

فجأة نطق الولد كمبر من جديد، فلم أدر إن كان قد استأنف بعد توقف أم أنه لم يتوقف أصلا؛ لكننى أفقت على صوته يتجسد فى أذنى بحدة وحقد شديدين: «المشير أصله ضرب مخ الجميع بمرض الفنانات! وأخر المتمة جاء ينتحر لى! فتك البلدة وانتحر! الله يكرمه عنده دم وانتحر! أما الآخر فقد نال أمنا وجاء يعتذر ويتنحى! بلد مسمومة ياجدع! الثورة تأكل عظمنا وباشوات زمان طفشوا بفلوسهم! والضباط صاروا باشوات أوسخ من الباشوات! وإسرائيل لابدة لنا فى حقول الذرة العالية! وحقول الذرة هذه هى أمريكا إن كنت لا تفهم! وخل بالك أننى عجوز أكبر من شكلى!»..

ثم عاد إلى صمته؛ وقام بعد برهة فاتجه إلى النصبة وراح يقلب ويعكرش تحت خشب أرضيتها وجاء بربع قرش ملفوف فى ورقة سلوفان حمراء، وجلس فانبرى يلف سيجارة.

* * *

أولاد القحباء - إذن - يعيشون فى حماية بسبوسة. لقد اتضحت الأمور تماما ياخال، وباتت غير محتاجة لأى تفكير. فما

الذى ترانى سأفعله مع بسبوسة ياخال؟! هل يعقل أن بسبوسة يبيعهم ويشترينى؟ هل يبيع مصدر رزقة فى سبيلى؟ لا أظن ذلك أبدا ياخال. وبهذا تكون المسألة قد تعقدت، ولن أفلح فى محاربة أولئك الموامس طالما أن مندوب الحكومة يحميهم. إن الموظف الصغير فى بلادنا هو الحاكم الأصلى كما علمنى ونبهنى أهلى، وكل الرؤساء الكبار لا يعرفون شيئا غير أنهم رؤساء وكبار والسلام؛ خاصة هؤلاء الذين جاءوا مع الثورة وهدفهم المريسة فحسب. على كل حال ياخال، هكذا قلت لنفسى يابو العم - فإن الولد كمبر يقول إن بسبوسة جدع، خصوصا لمن يقصده فى خير؛ وأظن ياخال أن مقصدى من تأديب الموامس خير. الأمر يلزمه تفكير عميق يابوى؛ فأنا الآن فقط صرت أتأكد من أننى بالنسبة لهؤلاء والولدان قشة فى بحر قراره عميق..

ورأيتنى أقول للولد كمبر: «خدمتى عندك ياكمبر أن يظل ما دار بيننا اليوم من كلام كأنه طوبة وقعت فى بئر مظلم!». فزغدنى كمبر بسيجارة ملفوفة وغمزنى بعينيه:» كم من السنين تعطينى عمرا ياحسن؟». قلت: «شىء وعشرون على الأكثر!» فابتسم وأخرج ولاعة البوتاجاز البلاستيك وارد غزة، والتى من المفروض أن يرمى بها فور نفاد البوتاجاز منها لولا أن المصريين اخترعوا لها طريقة لإعادة ملئها بالبوتاجاز. جعل يقرب شعلتها المستطيلة نحوى؛ فأشعلت السيجارة وجذبت نفسا عميقا، تبعته بأنفاس متلاحقة، وهو ينبهنى فى حرج: «الرحمة!»، فناولته السيجارة.

فَبإبهامه نفض عنها الزهرة المحترقة وكـانت أعماقها متصلبة دليلا على جـودة نوع الحشـيش الذى بدا كـأنه العامـود المسلح وسط الهديم المحترق. أبقى السيجارة بين أصبـعيه حتى تلتقط أنفاسها، ثم قال: «شـىء وعشرون تقـول؟! ربنا يجـبر بخاطـرك!»؛ وجذب نفسا عـميقا كـتمه فى منخريه عـينيه بالأحمر المرمـد؛ جعل يقول وبقايا الدخان فى حلقه تبعثـر حبال صوته وتغلظه: «فى رمضان القادم بأكمل الأربعـين من العمر!»؛ وجذب نفسا أعـمق من سابقه يابوى، نفـسا يليق بسن الأربعـين وسط غرزة فـيها الخـير غـير مقطوع ولا ممنوع. قلت: «ما شاء اللـه! ما شاء الله! لا يبين عليك والله ياعكروت!». سلمنى السـيجارة قائلا بصـوت متكتم: «عندى عـرائس مزّوجـات! ولى ابن مـجند فى الجـيش الآن! وآخر مـات بالنكسة! جاءته نكسـة قلبية فى سيناء فمات ولم أر جـثمانه حتى الآن ولم أعرف إن كـان قد دفن فى مـقابر الشهـداء حقـا أم أكلته الغربان والذئاب فى سيناء! أنا الآخـر كنت سأصاب بالنكسة وأنا هنا! لكننى رأيت أمه على وشك الوقوع صريعة مشنوقة بالطرحة السوداء والكفن الأسـود! فقلت ما يـصح أن تسقطا معـا! فأجلت وقوعـى حتى أقوى عـلى سند أمه المسكينة! إنهـا أهم منى بكثـير ياجـدع! لو ماتت الوص أنا بقـبـيلة من الأولاد لا نجد من يمـسح خـراءنا! لو مت أنا فـالله يرزقـهم عنى! أمـا هى فـإن الله ـ عـدم المؤاخـذة ـ لم يرزق أما ثانيـة للبنى آدم أبدًا! عمـرها ما حـصلت ياجدع! عـمرك شفت شـخصا ماتت أمـه وعوضه الله بأم غـيرها على الحقيـقة؟! إن قلت إنك شفت تبقى كذابا! حتى أم الأم نـفسها

رغم كثرة حنانها لا تكون هى الأم نفسها أبدا! إسألنى أنا فقد اكتويت ياجدع!»..

وتناول السيجارة منى ونظر فى عقبها محددًا عمق النفس الذى عليه أن يجذبه. فلما رآه لا يستأهل، رمى بالعقب فى بالوعة الماء تحت النصبة؛ ومضى يبرم سيجارة أخرى وقد تندت عينه بالدمع؛ وترطب «إننى لابن قحباء! صحيح!»؛ وضحك بصوت عال فى مرح حقيقى: «الذى مات مات! فى كسحة! المشير نفسه مات! والبطل واللوطى كلاهما يموت فى النهاية ويتساويان فى القبر والكفن! ومصر كلها ماتت من ضرب فيها وكأن شيئا لم يحصل! الراديو يذيع شنبه فى المصيدة عشية النكسة يعزينا بها فى موت عيالنا! شنبه من! كلنا فى المصيدة وتجىء تسوق التريقة علينا؟ معك حق طبعا! البلد فرحانه والكباريهات سهرانة والشقق المفروشة عمرانة! والغرز نارها والعة والحشيش للركب! ما يشرب الحسرة إلا نحن يامن فقدنا عيالنا! لكن لا داعى للنكد! معلهش ياحسن! أنا تصيبنى حالة النكد هذه كلما رأيت أحدا من الحكومة!»؛ ثم بلل الورقة البافرة ولصقها حول الدخان وكوربوزها وسوى عقبها ثم أشعلها وتركها موهوجة ملعلعة بأنفاسه المتلاحقة؛ أخيرا سلمها لى قائلا: «قصدى من الكلام كله أننى فى غير حاجة لنصائحك! أنا ولد يعجبك! أصادق الصغار والكبار معا! ينخدعون فى شكلى يتصورننى من سنهم! فأجد نفسى كبيرا عليهم! والكبار يتصورننى صغير السن فأجد نفسى مساويا لرءوسهم! هل رأيت المعلم صفصف يهننى فى أى يوم أو

يقل أدبه على كما يفعل مع الصنايعيه؟! هكذا أنا مع كل الناس! أحترمهم فأكيفهم فيحترمونني ويطلعوني على أسرارهم! وأنا ـ على فكرة ـ أستطيع أن أميز السر الحقيقي من السر المصطنع! أعلمك وآكل من دارنا! السر الذي يقال لك ليس بسرحتى ولو وصفه قائله لك بأنه سر! إنما السر هو الذي لم يكن صاحبه يود لك أن تراه أنت أو غيرك! تشرب شاي؟!». قلت:: «ما أحلاك ياولد!». فحود على النصبة وصب كوبين من الشاي الثقيل ذي الرائحة النفاذة؛ فأخذنا نشرب في صمت عميق ياخال؛ كأننا تعبنا من الكلام.! ارتكن هو بمرفقيه على رخامة النصبة شاردا، وكوعت أنا على الكرسي، وقد شعرت أن السيجارة الأخيرة لطشتني في مقتل ياخال، فصار دماغي يتبخر في الهواء. ومنذ صمتنا انبعث صوت تكتكة صار يقوى مع الريح المقتحمة من فذتين متواجهتين وكانت صورة جمال عبد الناصر المعلقة في برواز مذهب على الحائط قد صارت نهبا للريح مشبوكة في فتلة دوبارة دائبة؛ فأخذت تصدر هذا النقرزان العنيف، فقلت في عقل بالي: لعله دبور زن على خراب عشه.. فاقشعر بدني حينئذ ثم انفرد مرة واحدة في رعدة شديدة قلت على أثرها: حي! على الفلاح! واستسلمت لصمت عميق مخيف.

الخامسة ـ طلوع الشعرة من العجين

كنت أوقن أن كل شيء مصيره ينكشف، فطالما أنت زمار وأنا طبال فلابد أن الليل يجمعنا. إلا أن مخي الصعيدى الناشف أمرنى أن أختفى عن هؤلاء الأولاد؛ وأبعد عن الشر وأغنى له. ولقد مَنَّ الله على برجل طيب كان يعرفني من قهوة المعلم. هو من بلدة الصف اسمها «الودى»؛ وكان معروفا للجميع؛ اسمه الحاج وهدان؛ شغلته فى الأصل تاجر خضار وفاكهة؛ يوسق المراكب من بلدته ويجيء ليعتقها فى مصر عتيقة بدلا من روضِ الفرج، الذى تكثر في سوقه المعلمين ويضيع مكسب البضاعة بينهم. غير أننى عمرى ما رأيته فى حالة شغل أبدا؛ فدائما هو قاعد على المقهى يشرب الشاى مع الشيشة، ويستقبل الوفود الذى لا ينقطع هلولها طول النهار. كلهم أشكالهم غريبة يابوى؛ ومثله يرتدون الجلباب الكبير والعمامة الصعيدية والعباءة الجوخ على أكتافهم؛ وكلهم عيونهم لائذة، لا تكف عن التلفت فى حذر وحيطة وخفة. رآنى ذات عصرية رقيقة النسمات أجلس على رصيف المقهى وحدى. فمّيل نحوى ونادانى بإشارة من يده؛ فقربت كرسى منه مائلا بأذنى نحوه وضع كفه الكبيرة فوق كتفى قائلا فى ود

جميل: «بتشتغل فين يابو العم؟». قلت: «صراحة لا أشتغل هذه الأيام!». قال: «ما شغلتك الأصلية؟». قلت ـ ولا أدرى لم؟: «بياع متجول!». لوح بالخواتم الذهبية فى يديه وقال: «أظنك تقرب للمعلم شندويلي!». قلت: بلديات! وأسكن عنده!» صاح رغما عنه: «حلو!»؛ ثم عزم علّي بسيجارة بلمونت؛ فقبلتها: «كتر خيرك»؛ فقال وهو يشعل لي بولاعة بوتاجاز ثمينة: «عندى طلب بسيط! لو نفذته لك عشرة جنيهات!». قلت: «رقبتي سدادة!». قال: «سأعطيك شيئا توصله إلي مكان قريب!». ففهمت فى الحال، وقلت بحرفنه: «عشرة جنيهات على الأقة تقصد؟» فتبسم فى حذر وخبث، ثم قال: «على النقلة كلها!». قلت: «يفتح الله! إذا كان على الأقة الواحدة أهلا وسهلا!». فشخ حنكه وقال دون مواربة: «شف يابو العم! ست جنيهات فقط على الأقة! موافق؟!». قلت: «موتفق!». قال: «قم معى!». فقمت معه؛ فإذا هو يركب المرسيدس الراكنة بجوار المقهى، ويفتح الباب لأقعد بجانبه. ثم إذا بالسيارة تنطلق بنا كالعروس المجلوة ما صدقت أن تملكت الطريق السريع حتى نفخت جناحيها وطارت، صرنا فى بلدته بعد دقائق. فى الطريق اختبرنى، وزودنى بكثير من النصائح الثمينة، نبهنى إلى ركوب القطار بعين قوية حتى لا أثير الشبهة حول نفسى.. فإذا هو ياخال يكتشف أننى من أصيع خلق الله، أصيع منه ومن الضباط والمخبرين والكمسارية.

* * *

كـانت أيامــه فُلاً ابوى أنقل كل يـوم نقلة وزنهـا خمس أقـات بعشرين كيسا مبططا؛ أشترى لها جعبة من ورق الأسمنت وأغطى البضاعة بهلاهيل قديمة؛ وفى القطار أسندها على رف وأقف بعيد عنها بمقـدار طول العربة، يكون بينى وبينهـا باب، وأصب عينى عليها خلسـة كلما وقف القطار على محطة، حـتى إذا جاءت محطة السيدة زينب تلقفت الجعبة بسرعة وقفزت هابطا، لأذوب فى سيل النازلين منسلتـا إلى الحوارى الجانبـية فى لمح البصـر كفص ملح ذاب. الرجل المقصـود دائما فى انتظارى على ناصية أو مـقهى أو فى دكان صغير للبقـالة للعطارة للخياطة لأى شىء. قبض العرق يتم قبل الحـمل، يدفعه الممول على داير مـليم لكى يكسف شيطان الهرب الوسـواس؛ ولكن متلقى البـضاعة ينشكح لحظة وصـولها بسـلام وإن توترت أعصـابه وتغـير منظره، فـيـغمـزنى بما فيـه النصيب، وأحيانا: فوت بالليل اشرب قـهوة؛ فأفوت، وأشرب فوق القهوة ما يتْوِل الحيل من حشيشة المعلم المخصوصة وأقفل راجعا إلى الدار بوهبة من فلوس وحشيش وأفيون وبرشام.

الحـالة تمنجهت وبـاتت آخر نظاكـة؛ وأصـبحت أرمى بأكـوام الفلوس عشرات عشرات فوق بعضها فى أى مكان بجوار السرير، وصرت أدفع للمعلم شندويلى فوق الإيجار إيجارات وفوق القسط أقساط؛ حتى فاض الحساب عن دفاتر ذاكـرتى فصار شيئا كبيرا كبيرا، يصيبنى الدوار حين أشـرع فى حسبه فى جمعه. فوق ذلك صرت أبعث لهليل بالحوالات تلو الحوالات، ولأمى كذلك، والفلوس

مع ذلك لا تبتعد ولا تختفى أكوامها من فوق ذلك المسمى بالكومدينو المجاور لرأسى. ولم يكن الشغل يستغرق منى سوى أربع أو خمس ساعات؛ وبقية النهار مفتوحة، والليل كله تحت الركاب. ولقد تعلمت أكل الكباب والكفتة مثل الأكابر، والجمبرى والكابوريا مثل أولاد الناس. كما تعلمت النوم فى القيالة للسهر طول الليل فى بارات وسط البلد وحى العتبة وغرز الدرب الأحمر والسيدة زينب.

وكنت جالسا على مقهى الكلوب المصرى مرتديا الجلباب الكشمير والمركوب الأصفر، وأتلفع بلاسة حريرية سمينة اللون، أضع رجلا على رجل، وأمامى فنجان القهوة كالناس الأكابر لا ينقصنى سوى الجرنان والعصا أم عوجاته والمنشة.. حين جلس بجوارى رجل يرتدى جلبابا فوقه بالطو قديم كالح، وله شوارب متدلية. عرفت فى الحال أنه مخبر سرى فى الشرطة، فرجف قلبى. صرت أتفرس فى وجهه علنى أعرف سر هذا العشم الكبير الذى جعله يجلس بجوارى أنا بالذات من غير سلام أو كلام. كان هو الآخر يتفرس فى عينى ويقاوحنى؛ فاغتظت منه؛ مع ذلك قلت له باسما: «أهلا وسهلا!». قال: «حسن ولد أبو ضب؟!». قلت متحسبا: «خدامك ومحسوبك! تشرب إيه؟»؛ وصفقت فى الحال مناديا الجرسون، الذى جاء يهرول؛ فقلت له: «هات قهوة هنا!». قلتها كما يقولها الحاج وهدان بالضبط؛ لأنه هو الآخر يقولها كما البكوات الكبار. وهنا ضحك الرجل، فضحكت أنا الآخر، وأسرعت

فقلت: «أهلا وسهلا يابو العم! عدم المؤاخذة! العتب على النظر!»؛ وقربت علبة سجائرى البلمونت منه! انتزع منها واحدة بحركة سريعة، وعينه تبصبص للعلبة ولحركة يدى أينما اتجهت. وحين أشعلت له السيجارة بالكبريت كان الجرسون يضع أمامه فنجان القهوة؛ فانتظر هو حتى أعطانا الجرسون قفاه ومضى؛ ثم جذب من السيجارة نفسا يلمع من ورائه خبث شديد فى عينيه؛ وبعثر الدخان نحوى قائلا: «عدم المؤاخذة يابو على! عندى لك نصيحة!». قلت فى نفسى: «يافتاح ياعليم»؛ وأردف هو: «هما كلمتان: كفاك هذا!!». دبت الرعشة فى ساقى: «ما قصدك يابو العم؟ ومن تكون حضرتك؟!». أخرج من جيب صديره كارنيها قديما كالحا، قربه نحوى فى حركة مدربة وهو يقول: «سيد الشفتورى! مخبر سرى!». فأشحت عن الكارنيه وعنه؛ فأعاد الكارنيه إلى جيبه وهو يقول فى لهجة انتصار: «أنت تشتغل مع الحاج وهدان بتاع مركز الصف! وأنا عارف كل حاجة! تركتك تأكل عيشا وليس بقلاوة! واليوم رأيتك فرأيت أن أقدم لك واجبا لوجه الله! الجو هذه الأيام مقلوب! ومصيرك الوقوع فى الفخ!».

نشف ريقى ياخال؛ صرت أبلل شفتى بلسانى كى أقدر على الكلام. قلت: «أنت تشكر على كل حال يامعلم سيد يارجل ياأمير! ولكن أنا مالى أى دعوة بالشغل! ربما تكون رأيتنى معه أو عنده! والحقيقة أننى أعرفه من مقهى المعلم شندويلى! أما أنا فتاجر فاكهة! سمسار! ولست أعرف للحاج وهدان شغلة غير هذه أيضا!

فإن كنت تقصد أنه يخالف القانون في البيع والتسعيرة فأنا لا ذنب لي!». وكانت عينه الشبيهة بعين الثعبان قد انغرست في عيني وصارت تشرخ فيهما بمبارد من حديد مشتعل؛ فما كدت أنهي كلامي حتى شفط آخر شفطة من الفنجان ثم وقف خابطا يديه في ركبتيه علامة اليأس مني؛ ومضى قفاه يبتعد حتى اختفى.

بيني وبينك لعب الفأر في عبي. وكنت أتمنى لو أنني غمزته في جنبه بجنيه أخضر؛ إذن لا نحني لي شكرا وتركني في حالي مثلما يفعل زملاؤه الذين أراهم يسلمون على الحاج وهدان كالخدم الأذلاء. لكنني خفت أن أفعل مثله حتى لا أثبت التهمة على نفسي. انقبض قلبي وحط عليَّ نكد ثقيل؛ فحاسبت القهوجي ومضيت إلى الدار وقد خيل لي أن الحياة بدأت تقلب لي وجهها من جديد؛ وأنني يجب أن أتوقع أيام نحوس جديدة لست أقدر على دفعها إلا بالابتعاد عن خط الصف كله؛ ولكن كيف يابوي؟.. فلأعد للولاد ثانية لنشتغل في التشبيح ليلا كيفما نهوى. هكذا قالت نفسي لنفسي. وفي السرير تمدد الشيطان بجواري يقنعني أن «سيد الشفتوري» يسعى لورقة الجنيه وأن أمره بسيط ويمكن أن أتحدث بشأنه مع الحاج وهدان ليصرفه عني. وهكذا استطعت أن أغمض عيني قرب الفجر.

في الصباح طسست وجهي بحفنة ماء ونزلت من فوري متوجها إلى بلدة «*الودي*» لمقابلة الحاج وهدان. وجدته يجلس في

حوش داره بين مجموعة من أولاد عمه وصحابه. داره منفصلة عن البلدة، تختفى وسط جنينة كبيرة وارفة الأشجار. ولما نبحتنى الكلاب طلع من يهشها ويدخلنى. ولحظة دخولى كان الحاج وهدان يفرجهم على بضاعة جديدة؛ يحاول فتح صفيحة كبيرة كصفائح السمن. فلما نجح السنبك والشاكوش فى فك شمعها رفع غطاءها الكبير، فاندفعت رائحة الحشيش زاعقة مكتسحة مبهجة. ومد يده فاغترف بكفه حفنة صغيرة من بودرة صفراء؛ عرضها على الأعين المشرئبة، ثم أطبق كفه عليها. فانعجنت؛ وفك عنها قبضته. فإذا هى كرة من الصلصال كالبيضة. سحب سيجارة من علبة أمامه، غطسها فى الصفيحة ثم أخرجها وأشعلها وجذب منها نفسا عميقا. مررها علينا. ثم تابعها بواحدة ثانية، فثالثة، فرابعة، فخامسة. فإذا نحن جميعا قد احمرت عيوننا واحلوت الدنيا فى أنظارنا، وصرنا نضحك على الفاضية والمليانة.

صفق الحاج وهدان فجاءت أمه الحاجة «أبهة» لتأخذ الصفيحة. فى دخلتها جاءت عينى فى عينها مباشرة. فإذا هى تغمز ابنها قائلة فى تحذير بلهجة خطيرة وهى تشير إلىّ: «الولد ده ما يشيل بضاعة اليوم!»، وحملت الصفيحة ومضت كفتاة صغيرة. كل النظرات راحت تنصب على فى تشكك باسم، فصرت أحلف ستمائة يمين أننى طبيعى ما انسطلت بعد، كما أننى لست بالذى ينقلب من سيجارة واحدة حتى لو كانت محشوة بالبارود. ونظر لى الحاج وهدان نظرة تحذير أخيرة وقال: إنت حر على كل حال!

ذنبك على جنبك!». فضربت صدرى بقبضتى قائلا: «أنا تمام يامعلم! ما يهمك شىء!» فأشاح عنى كأنه استشف عدم قدرتى اليوم بالفعل؛ وقال مستدركا: «على كل حال يكفيك اليوم أقة واحدة! إن ضاعت فأمرها سهل!». قلت فى شىء من الانكسار: «اللى تشوفه يامعلم!». وبعد أن تغديت فطيرا مشلتتا مغمسا بالعسل النحل والجبن القديم وشربت شايا، ونفحنى الحاج وهدان عدساية أفيون؛ وكنت بالفعل أشعر أن الدنيا ليست هى الدنيا، إذ كل شىء قد زهزه فى عينى فجأة واكتسى لونا جميلا وصارت كل ملامح الناس باعثة على خواطر الضحك.. تحلف اليمين يابوى كأننى مخلوق لتوى. غير أن رأسى يتثاقل على ويخادعنى، يكاد يوقعنى، حتى لقد صارت أمنيتى الوحيدة فى الحياة أن أرقد على ظهرى وأنسلخ عن الوجود وأعيش وحدى هذه اللذة الكبيرة. إلا أن الأفيونة بنت الكلب سرها باتع يابوى. ما كدت أطوحها فى فمى بشفطة شاى ثقيل حتى انعدلت دماغى فى الحال، وصار بإمكانى أن أنهض فى طلب البضاعة والاتكال على الله..

ويظهر والله أعلم أن الحاج وهدان قد لمح الزعل فى عينى على نقص رزقى اليوم بتخفيض المشال إلى أقة واحدة. فإذا به بعد أن سلمنى الأقة يخرج من سيالته أربعة أكياس يضيفها لى قائلا: «هاك أقة أخرى! خل بالك من نفسك!». فحشرت الأكياس فى دكة اللباس وكسرت عليها الحزام ومضيت وأنا أقول: ياسابل الستر. لكن الخوف تصدر بين قدمى وبعث طائره السريع إلى دماغى

فذكرنى بسيد الشفتورى وما حصل منه على مقهى الكلوب المصرى. انتحيت بالحاج جانبا وهمست له بما حصل بالأمس. فوجئت يابوى بأنه لم يطرف له جفن، بل أطبق على سمانة ذراعى قائلا في بساطة: «لا يهمك منه! إنه كلب لا هنا ولا هناك! لو كلمك ثانية استغنى عن علبة سجائر تسد بها حلقه! وعلى كل حال أنت محمى هنا! فى حدود مركز الصف! إذا لا قدر الله قلت الحكومة عقلها وهاجمتك فإنك ستخرج من باب قسم الشرطة بعد ساعة واحدة! وتخرج البضاعة من الباب الآخر بعد ساعتين! أما خارج حدود المركز فاجعل عينيك فى وسط رأسك إذ أنت مسئول عن نفسك!» فقلت: «تشكر ياحاج!»، واتكلت على الله ثابت الوطء.

قرب محطة حلوان سمعت صوتا مألوفا ينادنى. تلفت مذعورا أبحث عنه؛ فإذا هو عم زعتر بائع الشباشب الزنوبة والأحذية المصنوعة من البلاستيك. كان سارحا فى شوارع حلوان يبيع ويتسوق معا. وكان يحمل على ظهره جوالا ملآنا بالشباشب والأحذية. أهلا عم زعتر! ومشينا معا حتى المحطة، فقلت له: «عنك! دعنى أشيل بدلا منك!». أنزل الجوال قائلا: «لا! بس ممكن تخلى بالك منه لحد ما اشترى طلب من الأجزاخانة!». قلت: «أشترى لك أنا!». قال: «لا! أريد أن أفك فلوسا كبيرة!»، ثم مضى..

وقفت بجوار الجوال أتلفت حوالى، والخاطر الوافد يكبر فى دماغى ياخال. قلت فلأجرب. فانحنيت على الجوال، ونزعت الأكياس وسربتها إلى الجوال فى قلب الأحذية. عم زعتر نظره

ضعيف، ويمكن أن أستغفله عند النزول. ساعدته فى حمل الجوال على ظهره، وتركته يمضى قائلا إننى سأشترى سجائر وأحصله، فقال إنه سيقطع لى تذكرة. جعلت أتلكأ حول أكشاك السجائر على باب المحطة مصطنعا أننى مشغول بشىء سأشتريه؛ وحقيقة الأمر أننى كنت شاعرا بالحرية بعد أن تخلصت من السجن فى جوال عم زعتر. أيقظنى صفير القطار من سرحتى فيممت نحو دكان اشتريت منه بضع قطع من الصابون صررتها فى منديل محلاوى ووليت إلى باب المحطة. ويالهول ما رأيت ياخال: سيد الشفتورى المخبر السرى واقف على باب الرصيف وحوله رهط من أهل مهنته، وثلاثة أفندية محترمون سمحو الوجوه. قلت: بس! رحت فى داهية! وصرت ألملم ركبى تحت الجلباب. من حسن الحظ أن أعطيتهم قفاى بسرعة قبل أن يرونى، وصرت أتحكك فى طابور التذاكر ممسكا بورقة الشلن حتى وصلت إلى عم زعتر قرب الشباك؛ فملت عليه وهمست فى أذنه بسرعة أن لا يكلمنى ولا يعرفنى الآن لأن المباحث واقفة بباب الرصيف تنتظرنى. عم زعتر سلمنى التذكرة ومضى بعيدا؛ فظللت واقفا لبرهة حتى رأيته قد عبر البوابة ودخل إلى الرصيف؛ ثم انضمت إلى آخر الطابور. ما كدت أصل إلى الحاجز الحديدى حتى تهلل وجه الضابط وانفرجت أساريره وصاح قائلا: «أهلا! أهلا! أهلا! إزيك ياحسن! معاك حاجة ياحسن؟ طلع إللى معاك طلع!». فوجمت. قلت: «ما معى أى شىء ياسعادة البيه! لا أفهم أى شىء تقصد؟». فنظر الضابط إلى سيد الشفتورى، فانبرى يفتشنى تفتيشا قاسيا

ومهينا للكرامة ياخال. وفى الآخر شوح للضابط فى مرارة وخيبة أمل قائلا: «ما معه شيء ياسعادة البيه» فأشاح الضابط وشوح علامة أن يفضه منى فيتركنى. وفعلا تركنى ياخال، فمضيت أجرر ساقى نحو القطار المترو، ورميت بنفسى على سلم أول عربة، متشبثا بحديدة الباب. صعدت، جعلت أمضى من عربة إلى أخرى بحثا عن عم زعتر، الذى وجدته فى العربة الثالثة واقفا بجوار الباب مسندا الجوال فيما بين ساقيه وصدغ الباب لم يرني بالطبع، فجاوزته إلى آخر العربة عند بابها الآخر. بعد برهة قصيرة رأيتهم مقبلين ياخال: سيد وحكومته فقلت: لابد أنهم يتتبعوننى ويصرون على الإمساك بى متلبسا، فسابت ركبى، وجعلت أدفن نفسى فى ركن الباب وظهر الكرسى ولكن عينى تتلصص عليهم.

المصيبة ياخال أنهم ركبوا وسط الزحام وبقوا واقفين فى أماكنهم حول عم زعتر. فجاءنى صوت يشبه صوت أبى يقول: إنزل فى المحطة القادمة! إنزل فى المحطة القادمة! إنزل فى المحطة القادمة!.. ومحطات كثيرة جاءت ومضت وأنا لا أفيق من شرودى إلا والقطار يهزنى لحظة استئنافه السير. وحقيقة الأمر يابوى أن البضاعة التى دفنتها فى جوال عم زعتر صعبانة على ولابد لى من استردادها بأى شكل. وعندما جاءت محطة الملك الصالح كنت فى فتحة الباب واقفا فى اطمئنان فى آخر عربة، وهكذا قفزت على آخر الرصيف مداريا نفسى فى زحام السائرين، وجعلت أتسقط عم زعتر فلما راق الزحام رأيته واقفا على الرصيف، وسيد

الشفتورى يساعده على حمل جواله، فيما صارت أبواب القطار تنغلق ببطء والعربات تزحف فوق الرصيف، أعطيتها ظهرى، ووليت نحو السلم، ثم أخذت أهرول شيئا فشيئا حتى لحقت بعم زعتر، فقلت له: عنك! وحملت الجوال ومضيت بجواره مفكرا فى طريقة استرد بها بضاعتى دون أن يلحظ هو أننى كنت أضع له السجن فى جواله. إنه لحسن الحظ يعرف أننى شريب للحشيش، قابلنى عشرات المرات فى غرز مصر عتيقة والفسطاط وأثر النبى؛ فهو الآخر حشاش بريمو. ولو فتشته فى أى لحظة فلابد أن تجد معه حشيشا لشربه، ومن أعلى نوع. أنا نفسى كثيرا ما أرضى بشرب حشيش كالجلة تمشيا مع الظروف والأحوال، أما هو فإن لم يتوفر له الزيت أو الهبو ذو الثمن المرتفع فإنه يبطل الشرب حتى تتيسر الأحوال، لكنه دائما أبدا يشيل فى لفائف عمامته المصراوية أكثر من قطعة جاءته من باب الله فركنها إلى أن يهديها لصاحب نصيبها.

وجدتنى أقول له: «معك حجران ياعم زعتر؟!». قال بشهامة: «معى لكن لن يعجبك!» قلت فى منتهى السعادة: «أما أنا فمعى أعلى حشيش بريمو! عمرك ما شربته!» وكان قد توقف وراح ينظر لى فى اندهاش رافعا حاجبيه، فأردفت: «إذهب فاشتر لنا ورقتين معسل قص! وسوف أعشيك لحما وفراخا مشوية! فأنا تفاءلت بك اليوم!» تردد عم زعتر قليلا: «ولكن! بدّى أستريح شيئا بعد مشوار اليوم!» دفعته بيدى قائلا بإغراء: «استرح عندى لو شئت!» الرجل لم يكذب خبرا، تركنى وانطلق يهرول نحو دكان

على الرصـيف المقـابل. أمـا أنا فـانزويت بجـوار سـور حـديقـة المستشـفى وأنزلت الجوال وانتزعت منه بضاعتى فحـشرتها فى ثيابى كـما كانت، ووقفت أنتـظر عم زعتر. وفيـما كان مقـبلا من بعـيد يتطوح مع الريح ممسكا بباكو الدخـان المعسل، تـذكرت أن ورائى موعـدا ضروريا مع زعـتر آخر هو زعـتر أبو كـرش تاجر الحشـيش فى حى فـاطمة النبـوية، وقلت: ما من المشـوار من بد! فالبضـاعة لابد أن تبيت فى بيت صـاحبها.

الله وكـيل يابوى، وهـو مـعى على الدوام؛ إلا وعـربة الأجـرة قادمة تقف أمامى لتنزل منها راكبة عجوز، فهتفت بالسائق قائلا: «النبـوية ياأسطى؟» قال فى تأفف: «اركب!» وكـان عم زعتـر قد اقترب، فصحت به وأنا أفـتح الباب: «اركب ياعم زعتر!»، ثم قذفت بالجوال. قـال زعتـر فى دهشة كبـيرة: «على فيـن ياجدع؟!» قلت «اركب بس!»، ودفعته برفق، فركب كالأهبل فى الزفة.

نزلنا على باب الحـارة بالضـبط، فـأنزلت الجـوال وحـاسـبت السـائق واندفعت أهرول فى الحـارة نحو ضـريح النبوية، حـيث كان التاجـر الكبير ـ وهو بعد فى ريعان الشـباب ـ ينتظرنى أمام عمارتيه الكبيرتين المجاورتين للضريح مباشرة.

ما إن رآنى حـتى تهلل وجهـه الأحمـر المستـدير المورد، وفرد صـدره متنـفسـا تحت القـميص الأبـيض المسـتورد المتـسق على جسمـه، سلم على فى حذر، وعيناه تمسحـان المكان من كل ناحية، ثم إنه تقـدمنى داخل الجاراج فى بدروم بحـجم العمارتـين، حيث

توجد حجرة مخفية فى الداخل، فتحها وأشار لى أن أفرغ البضاعة، فأفرغتها على كرسى، ولمّا أطمأن إلى عددها أمسك بعض الأكياس وفتقها وغرز أسنانه فى الحشيش ثم انتزع بظفره قطعة وداس بمشط قدمه على بلاطة تحت مكتب إيديال فى ركن الحجرة، فإذا ببلاطة بحجم أربع بلاطات ترتفع عن الأرض ليظهر من تحتها فراغ مظلم عميق، دلق الأكياس فيها وترك البلاطة تهوى إلى وضعها من جديد، وأزاح المكتب فوقها. وحين استدار وفوجىء بى انزعج وكاد يفتح كرشى بسكين، لكنه افتعل ابتسامة وخبط جبهته بكفه فى مرح، وتقدمنى حتى باب الجاراج المطل على الشارع. صفق بيديه، فجاء البواب يجرى، أمره أن يجىء بالكراسى ويشعل النار ويغير ماء الجوزة، ففعل البواب كل ذلك فيما لا يزيد عن خمس دقائق، كل ذلك وعم زعتر واقف ينتظر على باب ضريح النبوية، وجاء زعتر أبو كرش وهمس فى أذنى قائلا: «الراجل اللى هناك ده معاك؟!» قلت: «نعم!» إنه صديقى وقد نفعنى وجوده! وهو لا يعرف أى شىء عن أى شىء!» فهز رأسه وبعث البواب يناديه فلما جاء قال له زعتر أبو كرش إننى بلدياته وقادم له برسالة من البلد ولابد أن يكرمنى.

جلس البواب أمامنا على الأرض يرص الحجارة، وزعتر أبو كرش يوقعها بالحشيش البريمو، فات ولد نظيف المظهر، فناداه زعتر وأمره أن يسوى لنا ثلاثة كيلو كباب صافى. كانت عصرية لا تنسى ياخال، جديرة بأن تكون احتفالا بآخر نقلة أحملها فى حياتى.

السادسة ـ الفخ الجهنمى

شهورا طويلة يابوى أمضيتها بدون عمل، لكن العين والحمد لله ملآنة بالخير، فما تبقى معى من مال يكفينى لشهور أخرى مقبلة، وهليل موجود فى الصعيد لو أرسلت إليه لن يتأخر فى الرد. غير أننى صممت على أن أترك هليل فى حاله كأن ليس لى عنده شىء. تركتها على جناب الله يفعل بى ما شاء.

كنت قد صرت رجلا محترما يتقمش بالقماش الثمين كأكبر المعلمين. لبدتى تحولت إلى عمامة بشال حريرى حول طاقية رقيقة غالية الثمن. ومن سيدنا الحسين اشتريت عصا بعوجاية عليها القيمة. بات شكلى يليق بدخول هذه العمارة وصعود سلمها مع سكانها من البكوات الموسسات وأهل الرتب والنياشين.

صدقنى ياخال أن السكن المريح وما يتوفر فيه من وسائل الراحة كفيل بتغيير الإنسان إلى الزين. ما أحلى الاستحمام تحت الدش راقدا فى الحوض الرخامى تسبح فى رغاوى الصابون الزكى الرائحة، وأن تقوم فترتدى الكشمير والجوخ واللاسات الحرير والحذاء الاستك، وتنزل رائقا متكلا على الله.. لابد أن

يفتحها الله فى وجهك ياخال، لقد أعطانى ـ سبحانه ـ مرآة فى الدولاب أنظر فيها فأرى شخصا آخر يكاد ينافس هليّل فى النظاكة والوجاهة، وقد حلفت برأس أبى لأبقين على هذه الهيئة ما حييت، ولم أخلعها أبدا مهما كانت الظروف والأحوال. إن خلع الأبهة صعب ياخال على من ارتداها ولو بالصدفة، فى سبيل استمرارها سأشقى ولتنهد الدنيا بعد ذلك مثلما يعيش كل المعلمين سأعيش بهذه الهيئة والله لن يكسفنى.

وذات ليلة كنت نازلا على السلم مرتديا أبهتى على سنجة عشرة، فإذا برقبة بسبوسة تظهر من أسفل الدرج فى حنية السلم، ثم اتسعت رقبته بقفاه. ثم ما لبث أن واجهنى بكامله صاعدا، مرتديا جلبابا من السكروتة السمنى يهفهف حول جسده المرغدد، الذى بدا مجلوا كأنه صنفره بالصنفرة، والعطر يتضوع منه، حتى لقد حسدته وبيت النية فى السؤال عن اسم هذا العطر وشرائه. الملعون لم يعرفنى من أول نظرة، لكن الشك المروع أوقفه على البسطة فى مواجهتى، يحيطنى بنظراته من فوق لتحت ومن كل ناحية يكاد يفتشنى، لولا أننى لكزته فى كتفه صائحا: «شغل أم بحلقة؟!» فارتد بكتفه مقوسا ظهره كالأنثى اللعوب، ثم رمى بنفسه فى حضنى صائحا بصوته المسرسع: «إنت فين ياد يالوطى؟!» احتويته كأننى أحتوى حوتا مدكوكا باللحم العضلى، صرت أربت على ظهره قائلا «يابو العم! البعد عنكم غنيمة!» سحبنى من يدى قائلا: «تعال! أنت مقبوض عليك!»..

انصعت وراءه بدافع خفي دون مقاومة، لكنه توقف ناظرا في عيني بإمعان كأنه يتعرف علي شخص جديدعمره ما رآه من قبل. فلكزته ثانيا ليفيق، فإذا هو يرسم علي وجهه تعبير من لا مفر أمامه من الاعتراف بشخصيتي الجديدة، ويقول: «مبروك ياعم! شقة سقع!!» قلت والبسمة ترتعش على شفتي، من التشاؤم أم من الراحة لأنه عرف لا أدري: «إيش عرفك يابو العم؟!» فتراجع بعنقه وفي عينيه نظرة خبيثة ماكرة وزام: «إي.. ي.. ي!!» ورنت في أذني أصداء عبارة: «عليّ أنا الكلام ده؟!» ثم إنه سحبني من جديد قائلا: «تعال فرجني» انصعت وراءه قائلا لنفسي: لعلها فرصة للكلام في الموضوع وسبقته لأفتح الباب.

بسم الله الرحمن الرحيم.. هكذا بسمل وهو يدلف داخلا، مشمرا ذراعيه كأنه سيذبح خروفا، تقدم نحو الكراسي التي تم تنجيدها وفرشها ودهنها تقول أنا طالعة بشوكي من عند البياع. صاح بلهجة ممطوطة ذات معنى خبيث: «ما شاء الله! ما شاء الله!»، ثم جلس وفي عينيه بريق يكاد ينطق قائلا: «عاوزين حقاتنا! حلاوة هذه الصيدة السقع!» لكنه لم يقل هذا، بل قال: «يابن الكا..ا..ا لب!» ثم أردف قائلا: كأنه يعرف كل شيء عن الموضوع: «دفعت فيهاكم؟!» قلت: «بالبركة! صاحبها أصله قريبي! وقد تساهل معي!» ظهر عليه أنه غير مصدق يابوي، قال: «المعلم شندويلي يبيع أباه لقاء قرش تعريفه! فبكم باعها لك؟!» قلت: «بالصلاة على النبي! هو يبيع أباه أي نعم! لكنه لا يبيعني! أنا

واثق» هز رأسه ويديه فى حيرة: «لا تمكر على! فما قصدت سوى مصلحتك! صدقنى! لا تغتر فى البلدات والكلام الصعيدى الفاضى بتاعكم! المعلم الشندويلى هنا شخص آخر!»..

أحسست أنه يتكلم بثقة شديدة، لكننى مع ذلك بقيت متحوطا يابوى. إنه ولد عفريت يابوى، ومثلى لا يروح ولا يجيء معه، قلت: بلهجة عائمة: «يجوز! يجوز!» ظهر ياخال كأنه انشغل فى موضوع عميق، وظهر عليه الهم والكدر مال نحوى فانفلتت منه نظرة إشفاق أحسست بصدقها ياخال. لبرهة خاطفة يابوى برقت عين بسبوسة وطلع منها الملاك الطاهر مجسدا على ملامح وجهه، ثم قال كأب يستبصر ابنه فى هدوء وروية، وبصوت خافت كمن يخشى أن تسمعه أذن الجيران: «كتب لك عقدا؟!» ترددت برهة قصيرة ووجدتنى أقول: «الكدب خيبة! بصراحة لم يكتب لى عقدا!» شوح بيديه كالنسوان مولولا: «تأخذ منه إيصالا بالإيجار كل شهر؟!» قلت: «ماحصل!» فإذا به يسحب شخرة رنانة فاجرة أرعبنى صوتها والله يابوى، ثم جعل يأتى بحركة قبيحةفى الهواء المتاخم لأنفى قائلا فى حقد «خد دى! تعمل نفسك مفتحا وبرمجيا وأنت أغلب من الغلب!»، ثم إنه أشعل سيجارة ورمى بعلبته نحوى واعتدل نافثا الدخان فى لذة فائقة وقال:

ـ «شف يابقف! هذه العمارة لها قصة! إنها فى الأصل موضوعة تحت الحراسة! صاحبها رجل سيىء الحظ لعلك سمعت به وبأمره! الحاج إينال زلبطة! أشهر ورش ومحلات الأحذية فى

العتبة الخضراء ووسط البلد ومصر الجديدة وفروع الأقاليم مثل باتا! عمك إينال زلبطة كان متمعشقا فى الفن وأهله! فاشترى قطعة أرض فى الدراسة وابتنى فوقها دار سينما تعرض أفلام الدرجة الأولى!! وعشق راقصة فاتنة كالقمر كالرغيف البلدى الصابح! وابتنى هذه العمارة التى نحن فيها الآن على نيل مصر عتيقة ليعطى الراقصة شقة فيها بالمجان! تكون جرسونيرة خاصة به!! يكفيك الله شر النحس إذا احتال على رجل سعيد الحظ من الأساس!! أوسخ نحس فى الدنيا هو الذى يجىء لرجل سعيد الحظ من يومه! صاحبنا هجر أولاده القدامى وأقام نهائيا فى شقة الراقصة!! أولاده ثاروا ضده لكنهم كتموا فى نفوسهم! الراقصة فرحت به لكنها ـ به ـ ضاقت! إذ هى تريد أن تعيش على حريتها! من سوء حظه وربما حظها أيضا عشقها ضابط كبير! وظل يفتعل السفر له ولها ليلتقى بها منفردين فى أماكن بعيدة من الكرة الأرضية فى غابات أفريقيا وجبال سويسرا ولبنان! وفى النهاية جاء وأقام فى شقتها!! فى ليلة جاء صاحبنا ومد المفتاح فى ثقب الباب فطلع له من جوف الظلام أشباح عفية كتفته وكممته وألبسته قميص الأكتاف!! سيق إلى مستشفى المجانين لا من شاف ولا من درى!! انذهل أولاده وما أفاقوا من بعدها حتى اليوم ومعظم الظن أنهم لن يفيقوا!!، فكلما هدأت الدوخة جاءتهم صدمة أخرى من حيث لا يتوقعون تفقدهم عقلهم! فوجىء المساكين ـ ويللعجب ـ أن المستشفى تدخر لهم أوراقا بإمضائهم تجأر بالشكوى من جنون أبيهم!! ملف كبير من الأوراق تحكى قصته

وقصتهم معا من طقطق لسلامو عليكم! كل ورقة أنقح من أختها! هب! فوجئوا أن أموال أبيهم موضوعة كلها تحت الحراسة! وقد تعين هذا الضابط نفسه حارسا عليها!! الحاج زلبطة رحمه الله فمات في المستشفى! وحل محله ـ في نفس الحجرة في المستشفى ـ ابنه الأكبر الذي كان زينة الرجال!! ومنذ سنين طويلة وهو مقيم فيها لا أمل في شفائه! وأما الابن الثاني فقد شم رائحة الاعتقال في البلاد فصفى كل علاقاته واتكل على الله هاربا إلى بلاد بره! وكان للرجل ابن ثالث غاية في الصلاح قبضوا عليه ضمن الإخوان المسلمين فسجنوه وعذبوه حتى مات! وقال طبيب السجن إنه كان مريضا بالقلب!!..

«لم يبق من ذرية الرجل سوى بنتين متزوجتين من تاجرين كبيرين كانا من صبيان أبيهما في الورشة! لا تفتح فمك هكذا كالعبيط فمسلسل الذهول لم يخلص بعد! لقد أبرزت الراقصة عقد زواج شرعي مسجل وعليه شهود موثوق منهم! ثم أبرزت عقدا آخر عليه شهود.

كذلك ينص على أن الحاج إينال زلبطة قد باعها هذه العمارة في تاريخ معاصر لعقد الزواج!! وظل محاميها يرمح شمالا ويمينا حتى فك العمارة وحدها من الحراسة وجاء لها السمسار بالمعلم شنديلي الذي لم يستغرق من عيونها الساحرة سوى نظرتين ومن جسمها الملهب سوى هزتين وحكتين عفويتين! فاندب كالرطل واشترى العمارة بمبلغ كبير دفعه على داير مليم! وكان

الضابط قد غضبت عليه الثورة وطردته من حمايتها وحرمته من نعيمها فأخذ الراقصة وسافر إلى بلاد بره!! وبعدها بشهور طويلة عثروا عليه مقتولا في شقة في بيروت مذبوحا ذبح النعاج وبجوار جثته مليونا جنيه إسترليني!! وأما الراقصة فقد اختفت من الوجود تماما!! وقيل إنها بيعت كجارية لمليونير سعودي له علاقات واسعة النطاق بجهات دولية عليا وكلها علاقات مشبوهة!! لحد هنا زين؟!..

«يرجع مرجوعنا للمعلم شندويلي! لقد ذهب يسجل عقد بيع العمارة في الشهر العقاري ففوجيء بأن العمارة لم ترفع عنها الحراسة تماما! كل ما هنالك أن المحكمة صرحت للمدعية بتحصيل إيجارات شقق العمارة كمصدر ترتزق منه! من تاريخ رفع الدعوى إلى أن يبت في مسألة رفع الحراسة كلية عن أملاك المرحوم!! الراقصة إياها - ربنا يعطيها الصحة - باعت شقتها للماشطة التي كانت تشتغل عندها! وهي الأخرى راقصة قديمة ولكن في شارع الهرم! وهي الأخرى - أيضا - رفيقة ضابط آخر لكنه أصغر بكثير جدا - في كل شيء - من سابقه!. ليس فيه للنساء! إنما يحب الوظاويظ الصغيرة يلهو بها حتى يستريح لدقائق ويصبح آخر فل!! وهي تعرف هذا وتملأ الشقة منهن! وعلى حسه تقيم في الشقة أردغانة! لا أنت ولا أنا ولا أجعص جعيص هنا يقدر على فتح فمه بكلمة! إن الخوف كل الخوف دائما يأتي من صغار الضباط!! عمك المعلم شندويلي بسلامته أراد أن

يأخذ بحـقه حلفا! فكر أن ينوبه ـ على الأقل ـ مـن اليغمة لحـسة! بصراحة طمع فـي هذه الأرتيست الساكنة قصـاده! ظن أن الشقة مفـتوحة على البـحرى لكل من هب ودب! وربما كـان يستطيع أن يلهط القشطة كلها باعتبـاره صاحب العمارة لكنه أخطأ في الدخلة الخشنة الغلسة! جاءها من باب التهديد! فنال جزاءه! انضرب علقة ساخنة لحس فيها تراب هذا السلم درجـة درجة! وكان سينضرب في كل يوم علقـة مثلمـا لو لم يأخذها من قـصيره ويرحـل تاركا العمـارة بمن فيها! لـكنه قبل أن يرحل بعث بتهـديدات في السر خائبة! من قبيل أنه سيخرب بيتـهم جميعا وسيقصف عمر كل من اعتدى عليه! وها هوذا يريد أن يوحـلك في هذه الوحلة ياصعيدى ياقحـف!! اسمع كلامي يـاصاحبى لو كنـت جئت إلى هذه الشـقة قاصـدا كذا أو كذا فـإن نقبك على شـونة! ولن تخسـر إلا نفسك! ويكون المعلم شندويلى قد نهب مالك وحياتكَ! ما بك دفعت أموالك التي شقـيت بها في النار! وما بك خسـرت الجلد والسقط وطلعت من العملية كلها بلمـروطى!! صدقني لولا العيش والملح الذى بيننا ما صرحت لك بشـيء من هذا الكلام!!»..

الدنيـا لـفت بي يابوى، تحلف اليـمـين لو أنني رأيـت المعلم شندويلى لحظتـها لمزقت لحـمه ورمـيتـه للكلاب. المعلم شندويلى يفعل بي هكذا؟! كيف يابوى؟! إنني أشعـر الآن بصدق بسبوسة. فليس من المعـقول أن المعلم شندويلى يتنازل لى عن شـقة كـهذه بهذه السـهولة.

خدعنى إذن يابوى، صور لى الحكاية على أنها مجرد مضايقة لبضعة نسوان وضربهم علقة أو علقتين. أما أن تكون المسألة كما أوضح لى بسبوسة فإننى لا أستطيع الدخول فى حرب مع الدولة يابوى.

ويظهر أن بسبوسة رأى الغضب مضرما فى وجهى وعروقى، فجعل يهدىء من روعى قائلا:

ـ «اهدأ ياصاحبى! فالأمر محتاج لبعض الحكمة!! فأولا! احذر أن يعرف المعلم شندويلى أنك عرفت أى شىء مما قلته لك الآن!! كن عبيطا كما أنت وعلى نياتك!»..

قلت فى غضب: «وماذا يفيد الهدوء؟!». قال فى بسمة ساخرة: «ألم يعطك المعلم شندويلى أى ورقة؟!». قلت: «لا». قال: «إذن فهذه هى مهمتنا! علينا أن نأخذ منه ولو إيصال بإيجار آخر شهر!». قلت: «إنه لن يكتب لى أى ورقة! بكل صراحة يابسبوسة! إلا إذا عملت له شغبا فى العمارة وعاركت ناسا وعورتهم!». لمعت فى عينيه براكين مخيفة، سرعان ما انفجرت فى ضحكة عالية لا أعرف إن كانت سخرية أم عطفا على محسوبك، ثم قال: «ألم أقل لك؟! عيب ياجدع! أنا بسبوسة والأجر على الله!»، ثم رمى لى بسيجارة وأشعل لنفسه واحدة: «سأساعدك وآكل من بيتنا! حتى لا تستندل معى بعد الآن!! وعلى كل حال الذى عندك أحسن من الذى عند شندويلى! على الأقل أنت يمكن أن نقصدك أو نقصد شقتك فى طلب نطلبه!»..

ثم انتظر برهة معلقا عينيه فى عـينى كأنه ينتظر موافقتى على هذه الإشارة الأخيرة، لكنه أردف:

ـ «سـوف أذهب من ورائك إلى المعـلم شندويلى وأخـبـره أنك عملت مصيبـة سوداء فى الشقة وأنك عورت وبطحت وذهبت إلى قسم الشرطة مقبوضــا عليك! وبعدها بأيام تذهب أنت إليه مبهدلا مخربشا وتكلمه فى أمر الورقة!!»..

قلت: «والله رجل يابـسبـوسـة! ولكن هل الورقـة التى تقـول عليهاتكفى؟!»..

قال ضــاحكا: «ستثـبت أنه أجر لك الشـقة! وأنت بحكم وضع اليـد تظل مالكا لـلشقـة لحين الـبت فيـها! وسـواء آلت ملكيـتهـا لشندويلى أو عادت لوريثـها المقيم الآن فى بلاد بره فـإن أحدا لن يسـتطيع طردك منها! وعلـى فكرة! جيـرانك هؤلاء هم الأبقى لك! ولما تعيش معهم وتعاشرهم ستحبهم ويحبوك! مصيرك تعرف!»..

ثم غمزنى بسيجارة غمزة فهـمت منها أنها محشوة بالحشيش وأردف ضاحـكا فى مرح كـبيـر: «لكن قل لى! أكنت تتصـور أنك فعلا تستطيع الانتقام له ممن يسميهن بالموامس؟!»..

ضـحكت رغمـا عنى، تحلف اليـمين يـابوى أننى سمـعت فى ضحكتى صوت ضـآلتى، وقلت: «أنا ضحكت عليـه طبعا حتى آخذ الشـقة!». فـقال بـرنة لم أستـرح لهـا: «يالك من رجل طيب!». ثم جذب نفسا عميقا من السيجارة، واختفى بريق عينيه لبرهة طويلة

«تدفع كم لو أنا خلصت لك هذه الشقة تخليصا نهائيا؟! لو جئت لك بعقد إيجار وإيصال بآخر شهر! ولنصرف النظر عن المبلغ الذى دفعته له من قبل! ويكون العقد من أول وجديد من تاريخ كتابته؟!»..

فتحت فمى مذهولا: «تقدر يابسبوسة؟!». قال بكل بساطة: «هذه لعبتى! تدفع كم قلت لك؟! أنا شخصيا من مصلحتى أن تكون أنت بالذات ساكن هذه الشقة!». فكرت لبرهة طويلة فلم أهتد إلى تقدير المبلغ الذى ينفع، فقلت له: «رقبتى لك يابسبوسة! تريد كم؟!». قال: «يكفينى خمسمائة فقط! فى مقابلها أسلمك عقد إيجار قانونى سليم لا تخر منه المياه! وإيصال بآخر شهر!». قلت فى الحال: «والله ما أنزل عن كلامك يابسبوسة! حلال عليك!». قال وهو يناولنى سيجارة أخرى محشوة ثم يشعلها لى: «عليك إذن أن تختفى عن هذه الناحية لمدة عشرين يوما على الأقل! تعود بعدها مبهدلا فتجدنى قد جعلت لك الأمور ألسطة!». قلت وأنا أعيد له السيجارة: «من غد أغلق شقتى وأختفى شهرا شهرين لو أحببت!». سلمنى السيجارة وهو ينهض قائلا: «اتفقنا! والآن سأخلص منك رغما عنى! فورائى سهرة عند صحاب لى هنا! سوف أعرفك عليهم فى وقت قريب!». ولكزنى فى كتفى واتجه إلى الباب. فاتجهت وراءه وخرجنا. فنزلت أنا واستدار هو نحو الشقة المقابلة لشقتى، والتى لم أكن حتى الآن قد احتككت بأحد من زوارها.

السابعة: مغامرة عرب الحصار

لما فكرت طويـلا يابوى، تراءى لى أن مكانا وحـيـدا هو الذى يمكن أن يخـفـينى عن الأنظار، وفى نـفس الوقت يمكن أن أرزق منه. ذلك هو منطقة عرب الحـصار. وقلت لنفسى إن الحاج وهدان فيه البركة، وأنا خدمته بكل أمانة، ولم يحصل من جهتى أى شىء يجلب الشك فىّ. قل إنى أخذت بعـضى واتكلت على الله على بلدة الودى ومنها إلى نجع صغير قائم فى قلب الصحراء.

مجـموعة من الدور تجـمعهـا دار واحدة على مسـاحة كبـيرة تساوى عـشرة أفدنة أو أكثـر يابوى. دار يلف حولها المرء راكـبا جوادًا. لها باب واحد كبـير ببوابة حديدية مثبتة فى حـجرة كبيرة مربعة فيها مصاطب وكنب بلدى منجد. ولقد يظل المرء جالسا فى هذه الحـجرة زمنـا طويلا وهو يظن أن هذه هى الدار، لكنه حـين يألفها سيبين له باب جانبى فى نهاية الجدار. إن دخله وجد نفسه فى حـجرة أخـرى لها بـاب مخـفى على هيـئة ممر بين جـدارين متظاهرين يبدو من بعيد كأنه انكسار فى الجدار. لو مشى فى هذا الممر فبـعد مشى طويل يبدأ الزهق يعـتريه خوفا من ضـيق القبر الذى ينتظرنا فى النهاية. ولو أن أحـدا واجهك مقبـلا فى هذا الممر

فـلابد أن يستـدير أحدكـما عـائدا ليواصل الآخـر سيـره. ولربما حاولت الاستدارة فيمنعك عرض أكتافك. طوّل بالك وامض، فإنك فى النهاية آيب إلى فضاء من الضوء، وسرعان ما يقبل عليك فناء شاسع جدا كأنه الجرن وهو كـذلك، تطل عليه فراندات وشرفات بأعمدة: غرف وقـاعات تشبه القصور الزاهرة التى يقـولون عليها فى الكتب. يسكنهـا ولد الحـاج وهدان وولد إخوته وأخـواته. وإن مخـك لابد أن يطق ياخال إذا تذكـرت وأنت بين هذه القـصور أن منظرها من الخارج نجع مـبنى بالطين المخلوط بالتبن، إذ إن خلف هذه القـصـور والسـرايات غـرف مبنيـة بالطـين المخلوط بالتبن، يسكنها الخفراء والحـراس وعيالهم ودوابهم. وهم لابد أن يكونوا عبيـدا لهذه العائلة منذ أزمنة بعيدة حـتى يأمن لهم القوم مع أنهم مع ذلك لا يأمنون أحـدا مهمـا أظهروا الثقـة فيـه. ولولا أن الحاج وهدان عرفـنى وعرف حدودى جـيدا مـا تركنى أجىء إلى النجع أبدا، ولاكـتـفـى بمقـابلتى فى دواره فى البـلدة وهو الآخـر دوار معـزول مأمـون الجوانب. من يرى الدوار يظن أن الحـياة قـائمة هاهنا ليل نهـار، فى حـين أن العـائلة تعـيش حيـاتهـا فى النجع ومصـارينها كـلها فى النجع، أمـا الدوار فلاسـتقـبال الضـيوف والزبائن والحكومة فحسب.

كان الله قد أكرمنى فلحقت بالحاج وهدان فى الدوار فى البلدة. أهلا يابو على.. أهلا يـاحاج.. فـينك ياولد. حكـيت له ما كـان قـد حـدث لى فى محطـة حلوان. فضـحك حـتى احمـر وجـهه مـثل القوطاية، ومسـح شواربه الكبيرة قـائلا: «لا والله تصرفت زين!

براوه عليك!»، ثم ميل رأسه نحـو باب جانبى وصاح: «الغدا ياولد بسـرعة!»، وعـدل رأسـه نحـوى قائلا: «أنا فى الخـدمـة على كل حـال!». قلت «تشكر ياحـاج أنا الذى فى الخـدمـة! ومن أجل ذلك جئت!». شوح بكفـه الثمينة المليئـة بالشعر وقال: «نتـغدى ويحلها الحلال!»..

استـدارت الطبلية الكبـيرة أمامنا، واسـتقرت فـوقها الصـينية النحاسية العريضة، عليها طبـق من الصينى على هيئة قارب كبير، مملوء لتـمه بالأرز المعـمـر بالضأن، لرائحـتـه مهـرجان صـاخب فاضح، وطـبق آخر أكبـر منه عليـه الديك الرومى المكتف تحف به أفـراخ الحمـام المقليـة فى السـمن، ناهيك عن سلطانيـة الشـوربة المفعمة بالتقلية، وأطباق السـلاطة الخضراء ترتص فوقها أنصاف الليمون البنزهير المعتبر..

كُل يابو العم، هكذا أوحى لى الحـاج وهدان وهو يشمـر كمـيه وينقض على اللحوم تفسيخـا ورميا فى اتجاه ملعقتى، التى راحت تنتهك جـبال الأرز وهضاب اللحم، حتى تسـمرت فى مطرحى من التخـمة. تم رفع ذلك وجىء بالبـرتقال والبلح الحـيانى والجـوافة البلدى، وكله من جناين الحـاج التى تحف بالدوار إلى مالا نـهاية. ثم. ثم جىء ببراد الشـاى الثقيـل صارت معجـنة يابوى. بعد ذلك دخّنا السـجائر المكن، ونظر الحـاج وهدان فى ساعة جيبـه الذهبية ذات الكتـينة المربوطة فى عـروة الصديرى ثم نهض واقـفا وأقـام الصلاة فعرفـت أنه يصلى العصر، وأنه يستبطىء ويستـخير الله ويستفتى قلبه فيما إذا كان وراء قدومى المفاجىء من أسرار خفية

يدعو الله أن يكشفها له أو ينير بصيرته في الخلاص منها. صلى على مهل شديد وفي تؤدة كأنه يقرأ القرآن كله في ركعتين اثنتين وبعد التسليم أمضى وقتا طويلا في تسبيح وتهجد، أخيرا صاح مناديا: «ياولد!»، ومسح على وجهه بكفيه كأن كلمة ياولد كانت من كلمات الختام.

دخل عبد صبي لونه كالفخار المحروق وليس له ملامح على الإطلاق سوى عينين ككرتين من الضوء تدوران في كل اتجاه بسرعة مذهلة. وقف أمام سيده خاشعا، أخرج الحاج وهدان ساعته ونظر فيها مرة أخرى وقال للعبد مشيرا نحوي بيده: «خذ هذا الرجل وديه النجع». ونظر نحوي رافعا كفه يستحثني. فقمت واقفا في الحال دون أن أسأل عما سأفعله أو سيفعل بي في النجع. سلمت على الحاج وهدان وشكرته، ثم تبعت العبد كعبد له. فمضى بي في دهليز طويل حتى وصلنا إلى الزريبة الكبيرة، فوجدنا على بابها عبدا آخر في حوالي الخمسين من عمره لكن لوجهه ملامح وتجاعيد. قال له العبد الشاب: «هيك الرجل يروح النجع! عميقول سيدك!».

وجه العبد الكبير سمح يابوي، وباسم العينين، والطيبة تتدفق منهما وتسيل على خديه غير أنها طيبة شقية زاعقة الشقاوة. نظر في وجهي قائلا: «تعرف تركب الخيل؟!» قلت: «نص! نص!»، مع أنني لم أكن من ركاب الخيل يابوي. قال بنفس الطيبة الشقية: «تتعلم غصبا عنك! حتى لو لم تكن ركبت ستركب! على كل حال سأعطيك مهرا هادئ الطبع! هاك هو!»، وأشار داخل الزريبة إلى

مـهر مـهيب أبلق جـميل الشـكل، يقف بين عشــرات من الجيـاد العربية، الأصـيلة منظرها مرعب ياخال. أول ما وقع بصــرى عليها رأيت الحروب الصليبية فى فـيلم صلاح الدين الذى رأيته مرة فى سينما الكواكب بصحبة هندى وبربش، وخيل لى أن الفرسان الذى احتلونا قـد هجعوا الآن فى مـكان ما، يستـريحون بعدمـا ضمنوا الأمان. ولما عدلت وقفـتى رأيت صف الجياد المربوطة أمام المذاود يمتد على مشارف البصر، ليـبدأ صف طويل من الحمير والأبقار والجامـوس فى مقـابلها حظيـرة موازية عـرفت من منظرها ومن رائحتها أنها مراح للأغنام التى ترعى قطعانها الآن فى الحقول.

قال العـبد المسن الذى عـرفت أن اسمه سـعدون «ادخل وحل المهُر! واحذر أن يرفسك وإلا كنت أبغل منه! تعلم من الآن أن تفعل بنفسك مـا تريده وما يطلب منك! كل إنسان هنا على ركبـة جمله! يعنى أنت مـسئول عن نفـسك! وعلى كل حال تعـال ورائى وانظر كيف أفك الجواد من مـربطه! وكيف أسوسه حـتى يستكن ويدخل فى طوعى!». وكنا قد صـرنا بجوار البغل، فجـعل هو يفك الجواد بصنعـة وحرفنة، ويطبطب على ظهـره كمـا يفعل المحب العـاشق لمحبـوبه. ثم إنه سحبـه ومضى. فجعلت أفـعل مثلما فـعل، وأغدق على البغل من الحنان مـا كنت فى حاجة إليه من غـيرى. ولم أكن أعرف أن البغل غـير الجواد لا تفت فى عضـده مثل هذه العواطف الكاذبة الجيشان. إلا أنه مضى ورائى فى طواعية مدهشة.

تبعت العبد وجواده حـتى خرجنا من الباب الخلفي للدوار، فإذا بنا على الطريق المتـاخم للصحراء. وحـينئذٍ توقف العـبد برهة، ثم

قفـز معتليـا ظهر الجواد. وكـان لابد أن أفعل مـثله.. طب ما رأيك ياخال أنى فعلت مثله بالضبط كأنى من ركاب الخيل الأصلاء؟!..

كان جواد العـبد يمضى متـبخرًا فى سيـره، وكنت بالبغل أدبُّ خلفـه. ولم يـكن فى الكون كله سـوى الرمـال عـلى الجـانبـين، والشمس فى السمـاء، ووقع الحوافر. وقد طال بنا المسـير ياخال، حتى احمر وجه الشمس واحترق واسود الأفق شيئا فشيئا، صرنا نحن والرمـال بقايا زغب تحت صخـرة هائلة من الفحـم لا نهاية لمسيرنا فوقها وعند طلوع الفـجر لاح النجع فى البعيد كوشم على ظاهر الأفق. ثم صار يتسع ويتسـع حتى صرنا قطرة صغيرة فى بحره. كنا نقـبل على جدران صمـاء، لا شبابيك فيـها ولا أبواب. لكنا حين توقـفنا عند جدار معـين تبين لى فراغ غيـر مرئى على البعد، بين جدارين متظاهرين يبدوان على البعد متلاصقين. حودنا فى الفراغ بين الجدارين وسرنـا مسافة أمتار، لنجد بابا خـشبيا كبـيرا مغلقـا. ما اقتـرب وقع حوافر الجـواد منه حتى وورب من تلقاء نفـسه وأطل منه وجه عـبد كالبطيـخة النمس، وقال: «خـيرا ياسـعدون؟» فـقال العـبد: «خـذ هذا الرجل ضمـه إلى الجمـال!»، وأشار لى مـشوحا كأنه يدفـعنى للدخول. فلما فتح البـاب تماما ترجلت ساحبا البغل إلى الداخل، ومن ورائى العبد بجواده..

فناء الدار واسع تطل عليـه بعض الغـرف، وحيطان السـرايات الملونة تبدو من خلفها متخفـية تحت فروع الأشجار وأحمال القش والحطب. جـاء صاحـب الدار فاقـتـاد البغل والجـواد إلى زريبـة

صغيرة قال العبد سعدون: «ضع لهما طعاما يامهران!». قال صاحب الدار: «خير ربنا كثير!»، وأغلق عليهما باب الزريبة، واختفى قليلا من الوقت، فيما جلسنا على مصطبة فى الفناء. عاد مهران فجلس معنا مرحبا، وسرعان ما تصاعد الدخان من فرن الدار. بعدها بقليل امتدت الطبلية أمامنا وجىء بالفطير الذرة سايح ونايح، والقشدة الساخنة تطشطش فوق خدوده الوردية. ما كل هذا العز يابوى؟! كُل يابو العم واغمس الفطير المدهون بالقشدة الساخنة بقشدة صابحة وعسل نحل وجبن قريش. وبعد شرب الشاى نهض سعدون واقفا فطلب الجواد والبغل. سحبهما وخرج.، فامتطى الجواد واحتفظ بمقود البغل فى يسراه وأمسك مقود الجواد بيمناه. ومضى ساحبا البغل خلفه. فلما اختفى منظره فى البعد مال مهران نحوى قائلا: «جئت فى وقتك! اتبعنى!».

فتبعته. فمضى مسافة كبيرة حول النجع، ثم دخل فى فراغ آخر كالذى دخلنا منه قبلا. دخلت وراءه ياخال، فإذا بنا فى مواجهة باب كبير مفتوح عن آخره، وقد وقف أمامه ودخله عشرات من الرجال الأشداء الصلاب، على رءوسهم العمامة الجيزاوية المنعكشة خفيفة الدم. إن هى إلا برهة قصيرة صار الرجال بعدها يخرجون راكبين الجمال. غاب مهران فى الداخل قليلا، وعاد ساحبا جملا، عالجه حتى برك على الأرض. قال: اركب. ركبت وأنهضت الجمل فنهض، ومهران يتأملنى جيدا ليرى ماذا سيحدث لى حين ينهض الجمل رافعا خلفيتيه. فلما اطمأن إلى أنى ركيب جمال، طبطب على الجمل قائلا: بالسلامة. فتبعت الرجال.

صرنا كفلول ضالة فى قلب الصحراء، لا فرق بين لوننا جميعا ولون الصحراء المترامية بغير حدود يابوى. ما أوسع ملك الله حقا ياخال. يتقدمنا دليلان محترمان يركبان بغلين فارهين، وما على الجمال إلا أن تتسرب خلفها خطوة بخطوة وإلا غاصت أقدامها فى الرمال. كانت الشمس كالبيضة المقفوسة يسيل صفارها من قرص عسلى متجمد فى جانب من السماء. أخذ الصفار يبيض ويبيض، والقرص يصير فى لون الرغيف الطالع من الفرن، يواجهنا تارة ويجانبنا تارة أخرى ويقف فوق رءوسنا تارة ثالثة ثم يسقط خلف ظهورنا، والعرق يتصبب منا غزيرا على أكتاف الجمال. إلى أن لاح لنا فى الأفق البعيد كتل من الظل الرمادى كصخور ثابتة فى قلب الأرض. جعلنا نقترب منها، فإذا هى جمال باركة وحولها رجال باركون وواقفون وممددون. كان بينهم من يغنى يابوى، أى والله، يضرب بالموال الحزاينى الفرايحى معا، فأينما تواجد الصعيدى، وجب الغناء، وحيثما غنى تجمهر الحزن والفرح معا.

إلى جوارهم توقف ركبنا، بركت جمالنا فنزلنا وجلسنا مع الجالسين. وأنا كالأهبل فى الزفة لاعلم لى بما سيجرى بعد ذلك، هى سيجارة واحدة دخنتها يابوى، وفعلت مثلما يفعل الناس فى خلاء بعيد، إلا وأزيز يقترب فى السماء ويقترب ثم يزداد اقترابا، ومع اقترابه رأيت الجمع ينهضون واقفين وتحدث بينهم حركة استعداد وتأهب. نظرت فى السماء فإذا بطائرة

«هالوكـوبتـر» زعراء كـسـمكة مـوسى ذات بطن ضخـمـة هائلة وزعانف مـشرعـة وذيل دقيق، أخذت تهـبط شيـئا فشـيئـا حتى استقرت على الأرض، أى والـله يابوى قادر ربنا يخرسنى لو كنت أكذب. فلما استقـرت على الأرض الرملية الصلبة التى بان لى أنها معـدة لها من زمن مـضى، انفتح بابهـا ونزل منها أفندى هـضيم الوجه غليظ الشفتـين متهدل الشعر على الجـبين العريض الشاهق البيـاض، مع حواجب ثقيلة وعـينين سوداوين فى وجه مـستطيل يبدو مع ذلك جميلا. كان يبدو كـالأجانب الخواجات لكن الصياعة الكبيرة تطل من عينيه وشفتيه، مالبث أن صاح بلهجة شامية فيها بلطجة مصرية كبيرة يابوى: «سا الخـير ياجدعان!» فردوا جميعا كـأنهم فى الـصـلاة وراء الإمـام: «عليكم السـلام ورحـمـة الله وبركاته!».

برهة ونزل من الطائـرة أفندى آخر أصـغـر منه لكنه أجـمل بكثيـر ويبدو أنه ابن ناس. نظر فى جمـعنا نظرة متفـحصة فيـها كـثيـر من الود وقليل من الشك والخـوف والتشـاؤم. وقف برهة فأشـار له الأفندى الهضيم الوجـه برأسه، فعـاد الشاب إلى داخل الطائرة ثم ظهـر ساحـبـا جوالا. وضـعه علـى العتـبة وغـاب فى الداخل. قرأ عليـه الأفندى الهضيم الوجه كلامـا ثم صاح: «المعلم دياب مدكور!» وكرر الاسم بصوت أعلى. فانشق الزحام عن رجل جاء يهرول صائحا «أيوه». فلمـا صار أمام الطائرة تسلم الجوال، وسلم للأفندى مظروفا منتفخا بالأموال فتحه الأفندى وعد أوراقه

بسـرعة ثـم دسه فى عـبـه، ووضـع يده على جـوال آخر وصـاح مناديا: «المعلم فادى الحمادى!».

توالت نداءاته بـين كل جـوالين أو جـواليـن وربما ثلاثة، وهو يسلم ويقـبض، والرجال تحـمل على الجـمال وتربط إلى أن جـاء دور الحـاج وهدان، فـتـقـدم الاثنان اللذان كـانا على الجـوادين، وتسلمنا ـ لدهشـتى ـ أربعين جوالا!! ولقـد عجـبت والله ياخال كيف اتسـعت هذه الطائرة لكل هذه الجـوالات، كما عـجبت بغـير حدود من الطائرة نفسـها يابوى: من أين جـاءت ومن هو صاحبها ولحساب من تعمل؟ ومن أى جنس أو ملة؟غير أنى ـ تحلف اليمين ياخال ـ لم أعرف حتى الآن. وقد زعم آخر أنها لبنانية، وثالث أنها تبع الاستنزاف، ورابع أنهـا قادمة من السـماء نفسـها شخصـيا. فـضـحكنا فى عـبنا ومـضـينا إلى النجع، حـيث سلمنا الجـمـال بحمـولاتها لراكبى الجـوادين ودخلنا دار مهـران. ولم نعرف أين ذهب راكبا الجوادين بالجمـال المحملة بعشرات الجوالات بصنوف من الماركات الغريبـة، مثل ماركة: أنت عمـرى وماركة: هذه ليلتى، وماركـة المشيـر وماركـة الأطلال، وأشيـاء يطير لهـا المخ يابوى. تحلف اليمين يابوى أن قد أصابنى خبل، فلقد لمحت وجهى راكبى الجوادين، فراعنـى أنهما نسخة طبق الأصل مـن وجه رجل رأيته كثـيرا فى قـعدات الحـاج السنى، كـأنهمـا هو،ولو لم يكونا اثنين لألقـيت بنفسى فـى حضنه مـتأكـدا أنه هو. ولما كنت مـتأكـدا أن الإنسان لا يمكن أن يشطر نـفسه نسخـتين فإنى قـد تمخولت فى

الأمر بل فى صحة عقلى، وألقيت بثقلى على كتفى المثل القائل: يخلق من الشبه أربعين.. مع ثقتى التامة فى أن شبها من الأربعين شبه لا يمكن أن يكون مطابقا إلى هذا الحد يابوى.

قل إنى طرمخت على الأمر كله. فأبى رحمه الله كان دائم القول لنفسه وللناس: طرمخ تعش. قول لم أفهم معناه على الحقيقة إلا بعد أن أعيتنى الحيل يابوى، وأيأستنى التجارب، حتى تأكد لى أن لسان المرء هو قائده، فإذا لم يجد فى الأعماق حلوا يغترفه للسامعين فليبقه معلقا فى سقف حلقه. هذا أفضل شىء له ولك، وإلا فلسانك سوف يغترف من جوفك مصائب يرمى بها فوق رأسك أينما ذهبت فاحذر لسانك ياخال، إنه حصانك إن صنته صانك وإن أهنته أهانك.

وهذا ما فعلته يابوى. قضيت فى النجع بدلا من الشهر شهورا لا أذكر عددها، بل قل دهورا، فيها الفلوس كانت تجرى بين يدى كريق العسل لا تخلص أصابعى من آثاره بسهولة، حتى أنى والله ياخال كنت أدخرها فى بلاليص من الفخار مما يعد لتخزين السمن، مدهون جوفها بصفار البيض فكأنه الموزايكو الذى يقولون عليه فى المدينة. زلعة لخمسات الجنيهات وأخرى للعشرات وثالثة للخمسينات ورابعة للمئات، هكذا رأيتهم جميعا يفعلون فى النجع. والواحد منهم يفعل هذا أمامك وأمام الآخرين.

كنت نازلا فى خن صغير، كان معدا للدجاج والأرانب فى حنية مخفية فى مؤخرة النجع المطلة على الصحراء التى بلا نهاية، آثار

خراء الدجاج والأرنب لاتزال باقية على طزاجتها كأن سكانه السابقين سيعودون بعد قليل لمشاركتى المبيت فيه. أخشى ما كنت أخشاه أن يلبد ثعبان من ثعابين الصحراء فى جنة هذه الرائحة الشهية. فرشت مسحوق الشيح فى كل بقعة فيه، ونظفته آخر نظافة. ولكنى لاحظت أن الجدار الذى تستند عليه هذه العشة الكبيرة جدار من الأسمنت المسلح.. ففهمت يابوى أنى لصق قصر من القصور مباشرة لاحظت كذلك يابوى وجود باب متين موجود فى الحائط الأيسر للداخل، وآخر مثله فى الحائط الأيمن. معنى الكلام أنى محاط بجدار من الأسمنت وبابين لا يتناسب منظرهما مع عشة الدجاج والأرانب، إنما هى إلى أبواب حجرات القصور أقرب، إذ هى من خشب زان متقن الصنع حابك ومغلق من الداخل. الذى جاء فى بالى أنهما يفضيان إلى مخازن لألبان الأبقار وسمنها وأجبانها، إذ أن رائحة كل ذلك كانت تتصاعد من تخوم هذين البابين بشكل حارق ومتواصل، مما يؤكد أن ثمة أبوابا أخرى فى الداخل يدخلون منها لتزويد الخزين.

فى مبتدأ نزولى فى هذا النزل رمى لى مهران بحصيرة قديمة وبطانية نصف قديمة ومخدة محشوة بقش الكراسى أظنها شلتة مقعد سيارة قديمة. استقضيت فوق ذلك قلة ماء وزيرا أملؤه من فناطيس المياه التى تجىء بها السيارات إلى النجع كل يوم إضافة إلى القرب والبلاليص التى تحملها البغال والحمير كل لحظة من أماكن مجهولة، وأغلب الظن أن هذه السيارات والفناطيس وهذه القرب تقوم بغرض آخر غير المياه لأن العاملين عليها يرغدون فى

العيش، عرفت هـذا من منظر قربة يحملها أحـدهم والمفروض أنها أفرغت من المياه وكـان واضحا مع ذلك أنها ثقـيلة والرجل ينعوج تحت ثقلها.

كنت ممَدَبًّا حين حددت لنفسى مهلة شهر ياخال. كان يجب أن أعمل حساب هذه الورطة التى نزلتـها بقدمى، وبات الخروج منها كخلع الـضرس. فلو أردت الرحيـل عن هنا فلابد أن أقـابل الحاج وهدان شخصياواستسمحه فى الرحيل. غير أنى منذ جئت إلى هنا لم أر الحـاج وهدان ولم يرنى، إذ إن كل شـىء هاهنا يتم وحـده، والريس مهران يسلمنى أربع أو خمس أقات من الحشيش أوصلها لناس فى نجـوع بعيـدة وأجىء بثـمنها مـربوطا فى حزام حـول وسطى، أو لناس فى بلدان مـجـاورة كـميت رهينة والـبدرشـين وغيرها. أذهب على هيئة بائع سـريح يحمل «جنبة» سمك أوقفص مانجو تحـته قفص آخـر ملىء بالورق علامة أنى بعت محـتوياته، فى حين يقع الحشيش فى قعره.

كل بضع جُـمَع نقـوم بنفس الرحلة إلى حـيث تهـبط الطائرة لنعود بكميات من التموين تنتهى صلتنا بها بمجرد وصول القافلة إلى حدود النجع، ليتـولى الرجلان الشبيهان دفنهـا فى مخازن لا يعرفها غيرهـما. وكل مشوار له ثمنه، خلاف الكيف والمزاج، الذي يأتينا بغير حساب. فكل واحد فـينا يطلب من أخيه حجرين يعطيه ربع أوقية. أما الأكل فقد يتم جمـاعة فى نزل مهران أو غيره، وقد يجىء الأكل لمن لم يحـضـر ولمن يطلبـه فى نزله. خـرفـان تذبح

وعجـول وطيور تربيهـا نسوان الخفـراء وتبيعـها لمن يطلبـها منا بتراب الفلـوس. وكنت أخشى أن ألح فى طلب الحـاج وهدان حتى لا يضيق أو يضـيقوا بى ياخال. ولم أكن أجـرؤ على الذهاب إليه فى الدوار حـتى لا يغضب منـى أو يشك فى. وكانت الظروف قـد خدمـتنى مرتين ثلاثة فى مشـاوير إلى الدوار. وفى المرات الثلاث لم أجـد الحـاج وهدان هناك. فلمـا نكش القلق فى دمـاغى حـول موضوع الشقة والمعـلم شندويلى دبرت للزيارة. فبعد أن أوصلت طلبـا قـريبا من بـر الجيـزة قلت مـا من بد، وركـبت الأوتوبيس النهرى، فـصرت بعد دقـائق فى قهوة المعلم شندويلى فى مـصر عتيقة.

* * *

كـان المعلم شندويلى منحنـيا على النـصبـة يصب الشـاى فى الأكواب، حـين زحف على الأكواب ظل أزعـر خشن. فـرفع رأسه فرأى أمـامه شخصـا شقيا بينه وبين المتـسولين درجة قصـيرة: القشف علـى قفاه كـالصدأ كصـبغة الدخـان على واجهـات أفران الحـمامـات، يلبس جلبابا من الـصوف المتـهرئ أكل عليـه الدهر وشرب، ويبـدو كأن أحـدا أحسن به عليـه، حافى القـدمين وذلك الشقى لم يكن سواى.

وضـع المعلم شندويلى كفه على عينيه كالتندة. وأمعن النظر فى شخصـى جيدا، وهو لا يصـدق أنى ظهرت أخيرا على هذا المنظر، كان منظرى فعلا كالخارج لتوه من السـجن. ثم إن المعلم شـندويلى

تذكرنى، فبان عليه الأسف الشديد وصاح فى جدعنة: «حسن أبو ضب؟!ما معقول!!» وطلع عن حدود النصبة وأخذنى بالحضن وصار يطبطب على ظهرى قائلا: «قلبى عندك يابو على! إيش أحوالك؟!». قلت: «كما ترى! لقد طلعت رجلا بحق كما طلبت منى! ولو قلت لى إرم نفسك فى البحر لفعلت!». تبسم فى فرح وهو يجلسنى: «أعرف يابو على! أعرف! وعشمى فيك كبير!». قلت: «كسبنا صلاة النبى!». وضع كفه على ركبتى قائلا فى نبرة اعتذار:

- «لا تؤاخذنى يابو العم! لم أعرف أين كنت وإلا جئت لزيارتك! سألت عنك فى الحجز فقيل لى إنك رحلت إلى المديرية! وأخيرا بلغنى أنك فى سجن القلعة! هذا الخبر وصلنى يادوبك من يومين اثنين! جاءنى به واحد أعرفه! له يد كبيرة فى الحكومة! وكنت أدبر لزيارتك قبل دخولك الآن ببرهة قصيرة! ياه! القلوب عند بعضها حقا! إيش أحوالك؟!».

نهض واقفا متجها إلى النصبة، فصب لى (واحد شاى) على بوستة ثقيل، ونزع من خلف أذنه ورقة أفيون تساوى عشرة جنيهات، رمى بها فى حجرى قائلا: «روق مزاجك!». ثم مد يده تحت النصبة فسحب شيشة مخصوصة لها رنة عالية سالكة. قربها نحوى. سحب خشبة مرصوص عليها عشرون حجرا مملوءة بالمعسل. نزع قطعة حشيش هبو كان يلصقها فى حرف الرخامة من أسفل. جعل يوقع منها فوق الحجارة. وضع الخشبة

كلها تحت النصبة. سحب من الوجاق قطعة نار صاحية، فقشها على الرخامة وعبأها في المصفاة. ويازين صلى. منى له، صد رد، والروقان يزحف على بالى. لكن كلاكيع القلق واقفة خلف دماغى تريد أن تذوب وتنحل قبل أن أشوف مزاجى جيدا. ثم إنى لست الآن ملك نفسى، ولابد من رجوعى للنجع قبل حلول الظلام، بواسطة بغل سينتظرنى به سعدون عند نهاية الطريق الخارج من البلدة إلى مشارف الصحراء. هى خدمة يبلعها بمزاجه، إذ أن وظيفته توصيلى وتوصيل أى واحد كان فى مشوار ببضاعة خارج حدود البلدة. وهو يعرف أن حامل البضاعة ربما يقع فى ظروف غير مواتية تؤخره قليلا أو كثيرا، لكنه يعرف كذلك أن الواحد منا لابد أن ينتهز الفرصة ويتلكع فى الطريق يشبع من الناس ويشترى ما يشاء من أشياء. إنى واثق أنه سوف ينتظروني، ولكن الظلام إذا دخل قبل وصولى إليه ستحدث المصيبة، سيبلغ سيده فى الحال بعدم وصول القوات إلى قواعدها سالمة، أو قد يتهور فيبلغه أن العدو قد أصابنا فى المال والعتاد. إن عدت أنا بعد وصول خبر من ذلك إلى الحاج وهدان فإن الشك لابد أن يعصف بهدوئه وأنا لا قدرة لى على مناطحة السحاب ياخال.

لكن المعلم شندويلى صهلل، وغير الخشبة بخشبات وكان فى استمتاع كبير قد راح يحكى لى كيف بلغه خبر الشكلة التى تشاكلتها مع غرمائه الموامس فى العمارة:

بدا أنه يعرف رجلا متصلا بالحكومة من سكان هذه المنطقة له أفضال كثيرة على أهل الحتة، يفرج عن مساجينهم ويثبت أقدام أبنائهم فى محاضر الشرطة. وهو - بينى وبينه - يحب هذا الرجل، لكنه - الرجل - لا يجلس فى المقهى. إلا أن هذا الرجل مر عليه فى المقهى على غير انتظار، مما جعل المعلم شندويلى يتوجس ويلعب الفأر فى عبه. قابله بترحاب وقام معه بالواجب، فإذا به يهمس له: «هناك خبر لن يسرك!» ثم قال: «هناك ولد شمحطى! صعيدى بلطجى! دخل عمارتك واحتك بسيدتين من سكانها وانهال عليهما ضربا وتشليتا وتمزيقا حتى أحدث بهما عاهات مستديمة ونقلتهما عربة الإسعاف إلى المستشفى بين الحياة والموت! إذ إن الولد ضربهما بمطواة قرن غزال! واحدة فى بطنها والأخرى فى ثديها! وأما الولد فقد قبضوا عليه وسيق إلى قسم الشرطة فقال فى المحضر إنه ضربهما انتقاما لرجولته المهانة حيث شتمته إحداهن قائلة له: ياخول! وشتمته الأخرى قائلة له: ياعلق!ولما ذهبت الشرطة للسيدتين فى المستشفى ذكرتا فى المحضر أن هذا الولد من طرفك! وأنك حرضته عليهما واكتريته لقتلهما لخلاف قديم بينك وبينهما! وعند الرجوع للولد وسؤاله ما الذى أدخله العمارةمن الأصل؟! أدلى فى أقواله أنه يسكن فى العمارة وليس يمت إليك بصلة قربى! الحقيقة أنه ذكر فى كلامه كلاما كثيرا فى صفك يبعد عنك الشبهة! وأنا بالصدفة أعرف هذا الولد معرفة سطحية! ولكنى لما رأيت اسمك واردا فى المحضر -

وأنت رجل يعـز علىّ ـ قرأت المحـضـر وفلـيتـه حتى أطمـئن على موقفك! فهل الولد يسكن عندك حقا؟!»..

وهنا غمزه شندويلى بالورقة أم عشرة جنيهات قائلا: «دبرنى أنت فى هذه المصيبة! أنا لم أحـرض أحدا!» فقال له الرجل ـ الذى هو بسبوسة كما أعرف:

ـ «نصيحـتى أن تختفى بضعة أسـابيع عن الأنظار، لأن النيابة تطلبك للتحقيق! سيجىء المخبرون لاستدراجك لسراى النيابة! فإن كنت تحب أن أتفاهم لك معهم فـإنى أمنعهم من المجىء إليك! وأما عن أمر هذا الولد فإن كان ساكنا عندك حـقا فإنك يجب أن تكافئه على شهامته! وأما إن كان يكذب فى مسألة السكن عندك هذه فإن موقفـه وموقفك سيكونان فى منتـهى الصعوبة! ستعـامله النيابة على أنه ولد بلطجى مأجـور مدفوع للاحـتكاك بالسكان! لو ظهر كذبه يصـعب موقفك! ولو اتضح أنه يقـيم فى الشقة فقط مـجرد إقـامـة فـهـو إذن من طرفك وهذا يـجـعل النيـابـة تصـدق أنك حرضته!!»..

فقال شندويلى على الفور:

ـ «الحـقيـقـة أن هذا الولد سـاكن عندى بالفـعل وليس لى أى فـضل عليه حـتى يجـاملنى! بالعكس لقـد أخـذت منه خلو رجل أضعاف ما كان سيدفعه غيره!».

فقـال الرجل: «ولكن النيابة طالبـته بتقـديم عقد إيجـار أو آخر إيصال فلم يجـد معه أى ورقـة تثبت شخـصيتـه سوى بصمـته!

فأعطوه أربعين يوما استـمرار حبس لأن تلك المضروبة فى بطنها على وشك الموت!»..

فعض المعلم شندويلى على شفتيه: «الحـقيقة أنى لم أكن كتبت له عقدا! ولم أعطه وصلا! فالثقة بيـنا متبادلة! لأنه من أسرة طيبة أعرفها!»..

سارع الرجل قائلا: «عليك إذن أن تنجـيه من وحلته! على الأقل لتخفيف الحكم عنه! اكتب له العقد وإيصال الإيجار وأرسله له! وإن كنت تستطيع مساعـدته فى السر يكون لك الأجر والثواب! وأنا فى خدمتك إن أردت أن توصل له شيئا فى سجن الاستئناف»..

قال المعلم شندويـلى: «غدا تشرفنى بشـرب فنجان قهـوة معى فى الصبـاح أو فى العصارى فأعـطيك عقد الإيجار وإيصـال آخر شهـر! وسيكون العقد بتـاريخ استلامـه الشقة! ولو فيـها رزالة سـأعطيك بعض المأكـولات والمشـروبات توصلهـا له! إنه ولد فى النهاية محتـاج للعطف! وبخصوص المخبرين فهـاك ثلاثون جنيها وزعها عـليهم ولا تدع أحدهم يرينى وجهـه أبدا لأن منظرهم عدم المؤاخذة شؤم ولست أحب الفضيحة! ضرب ما ضربت وانتقام ما انتقـمت ولا ينوبنى سوى الفضـيحة والبـهدلة؟ هؤلاء سكان مع بعضـهم لا شأن لى بعراكهم! فليحرقوا بعضـهم بعضا!!».

قال الرجل مشيرا إلى عينيه: «من ذى! ومن ذى!»..

وفى عصر اليـوم التالى مر عليه الرجل بالفعل، وأخـذ منه عقد الإيجـار والإيصـال، وخرطوشـتـين من السـجائر، وبـاكو شـاى وخمسة كيلو سكر وثلاثة كيلو كباب ونصف أوقية حشيش.

وأنهى المعلم شندويلى حديثه قائلا: لعلك تكون مبسوطا ياعم! وتكون هذه الأشياء قد وصلتك!».

قلت مفتعلا التذكر والأسف: «آ..ه! هذا إذن هو الرجل الذى سأل عنى فى سجن الاستئناف! لقد أخبرنى زملائى المساجين! أصل الحكاية أنى قمت بأعمال شغب كثيرة فنقلونى إلى طرة! ومن طرة إلى بنى سويف! وفى بنى سويف تعرفت على حارس من الحراس يقرب لوالدتى! يحبنى ويثق فيّ! وطول الليل يبكى من أجلى ويوصى بى زملاءه فى الورديات! وقد علم أنى مساق إلى الجلسة غدا صباحا! فدبر خطة لتسريبى من السجن متنكرا! وجاء بى إلى هنا لكى أقابلك لأخذ العقد والوصل لأعرضهما على القاضى غدا!! والعسكرى يقف الآن بعيدا بلباسه المدنى حتى لا يلفت النظر! فى انتظار أن أعود إليه لنقفل عائدين إلى السجن قبل ساعة التتميم!»..

قال المعلم شندويلى والدموع تترقرق فى عينيه: ادعه يشرب القهوة ونعطيه حسنة!» قلت وأنا أنهض واقفا: «لا: لابد من الانصراف الآن! ولكن ماذا سأفعل فى هذه الورطة وأنا لا أعرف أين مكان هذا الرجل؟!»..

ويبدو ياخال أنى أتقنت الدور، إذا بى أنفجر باكيا بحرقة، وإذا بالمعلم شندويلى يتأثر جدا، ويشرد مفكرا لبرهة قصيرة ثم يصيح مبتهجا: «هو إذن لم يصلك ولم توقع عليه! تاهت

ولقيناها!»، وصاح «ياولد ياعوف! اشتر لنا عقد إيجار ودفتر وصولات!»..

راح قلبي يرقص من الفرح والطرب حين جاء الولد بالعقد مطبوعا من الدكان. وراح شندويلي بالقلم الجاف يملأ البيانات، وأضاف إليه شاهدين من صبيانه، وحرره بتاريخ استلامي للشقة، وحرر إيصالا بآخر شهر، ووقع بإمضائه العاجز وبصم. فعلت مثله، وطويت الورق في جيبي وحضنت المعلم شندويلي وبكيت مرة أخرى فبكى هو الآخر. ثم إني تركته واندفعت نحو الخلاء مهرولا، ومنه إلى محطة الأتوبيس النهرى. ووقفت برهة نظرت فيها إلى العمارة كأني أطمئن على شقتي فيها. وكانت صورة بسبوسة فى دماغي تنظر لى فى شقاوة جهنمية. وكنت ابتسم فى جذل حقيقي وأقول لصورته: والله يابسبوسة إنك لتستحق ألفا من الجنيهات، أنت رجل بحق ويجب أن أحبك، لتكن ما تكون فأنت اليوم أصدق أصدقائي وأجدعهم، رح إلهى ربنا يفتحها فى وجهك أيها الولد.

وقفزت إلى بر الجيزة لأدرك سعدون بعربة التاكسى والشمس لماتزل بعد حمراء الخدود من فرط الخجل قبل أن تحتويها نهائيا عباءة الفجر الرمادية.

* * *

نشوتى كانت فوق الوصف يابوى. تحلف اليمين تقول إنى شارب عشر زجاجات من ذلك المسمى بالويسكى، رغم أنى لم

أشـربه طول عمـرى يابوى. من فرط الـشعـور بالنشوة والفـرح عرفت أن النوم سـيخاصـمنى. فالنوم لا يخاصـمنا يابوى إلا عند الفـرح أو قلق الحزن اسـتقـضـيت جوزة هند برفـاص، وعشـرة حجارة، وباكـو معسل قص. وبعد أن رقـعت العشوة المعـتبرة مع رجال النجع أتينا فيـها على خروفين مشويين مـسروقين من راع ضال، أمـسيتـهم بالخير واتكلت علـى الله إلى حجرتى ـ عـشتى. فأغلقتها على نفسى وتربعت فى ضوء اللمبة نمرة خمسة. جعلت أشعل النار وأرص الحجـارة، وصـهد الأفيونـة يسوى دماغى على نار هادئة. حجـر فالثانى فالثـالث شعللت ركيـة النار فى دماغى وتحت كوز الشـاى، فانبعثت موسيقى الغليان تسكرنى.

فيما أنـظف الحجارة للمرة الثالثة مع كـوب الشـاى بدأت عينى ترى الحجـرة وتتجول بين جـدرانها. كنت مرتكنا لـلحائط المسلح ووجهى فى اتجـاه باب العشــة المطل على الصـحراء. تلـكأت عينى على الباب المجـاور لى على اليمين وقد تصــاعدت منه روائح اللبن الحليب الطازج والقشدة والسمــن المقدوح بشكل زاعق. وكان ثمة حركـة وكركبـة تجىء من وراء الباب، الذى أذهلنى أنه كان شــبه موارب، وخط من الضوء واقف بين خشب الباب وحائطه.. فانذعر قلبى يابوى. خفت، بقيت أرتعش فى قعـدتى، وقد تشبث بصرى بالبـاب مركـزا على خط الضـوء. راعنى أن خـيالا من الظل كـان يحجبـه لبرهة مصحوبة بـحركة خلف الباب مبـاشرة، مع صوت اندلاق اللبن من طاجن إلى طاجن،وصوت أوان تتـقارع. فإذا بى ـ

رغما عنـى والله ياخال ـ أتنحنح. ففى الحال اتسـعت وربة الباب وأطل منه وجه جنيـة تبارك الخـلاق فيمـا خلق. عينان واسعـتان ساحرتان، تنفرجان وسط جدائل شعر أسود منطرح. من فتحتى العينين ينزل خدان كـحبتى المشمش الطايب يسيل عنهـما خيالان على هيئة صدغين ينتهيـان بذقن صغير عليه طابع الحسن، فكأن وجهها رسم فى الهـواء. وكانت عليه ابتسامة كـأنها اعتذار، وفى عينيها نظرة تستهـين بكل شىء، شالتنى وحطتنى فى قعدتى عدة مرات. أما أنا فظللت مسمرا فى مـكانى ياخال. جعلت أقرأ الفاتحة فى سرى لعلها تصرف عنى هذه الجنية المخـيفة أو تقوينى عليها. قلت لنفـسى: لعلهـا تهيـؤات السطل والأفـيون وكـبسة الضـأن المسـروق، لكن الجنيـة أبت إلا أن تريني الفـرق بين الحـقـيقـة والخيال. إذا بيدها البضة العارية تخرج من الفتحة عن ذراع مملوء لمنتصفه بالأساور الذهبية على المعصم. وإذا بهذه اليد تشير لى أن تعـال، إشـارة آمـرة، تعـال يعنى تعـال. لـكن من ذا الذى يجىء؟ عـرص من يتحـرك من مكانه يابوى. من أين لـى بقوة تحـركنى يابوى؟ وإذا بصـوتها يطلع رنانا كـشخللة الذهب: «قم! تـعال لا تخف!». فقـمت فى الحال منتـفضـا، أعض على شفـتى وأقرص نفـسى لأتأكد من صـحوى. خطوة ونصف خطوة صـرت واقفـا أمـامهـا خـاشعـا أنتـفض. قلبتنـى بنظرة باسمـة: «ياعـينى على الرجال!» ضحكت. نظرت فى فتحة الباب من ورائها. رأيت حاصلا لجمع الألبـان يمتـد إلى بعيـد جدا، ويمتلىء بالطـواجن والأناجر والبرنيات والبلاليص، قالت فيمـا يشبه الاحتقار: «إنت! بتعمل إيه

هنا؟!». قلت: «الريس مهران أسكنى هنا!». هزت رأسها وزامت، ثم دفعتنى أمامها وخرجت ساحبة الباب خلفها..

الغزال الأعظم يقف الآن أمامي في قلب حجرتي، ترتدى قميصا من النايلون رهيفا لا يستر أى شىء فى جسمها الوردى، معلقا بحمالتين كالحبلين فى كتفيها، ومن فوق قميص مفتوح كالعباءة من نفس اللون. تحرك الفخذ السمهرى قليلا حتى الحصيرة. هوت عليها متربعة رفعت بصرها الساحر نحوى آمرة: «اقعد!». فقعدت متربعا قبالتها. قالت: «رص لنا حجرين!!». قلت «حاضر!». وجعلت بكل حماس أصحى النار وأرص الحجارة. قدمت لها البوصة فشدت النفس فشر أجدع حشاش فى البر كله. سحب الدخان تندفع من منخريها. قلت: «ماشاء الله! واحد آخر!» ولحقتها بآخر، وثالث، ورابع، حتى شربت وحدها عشرة حجارة، وبشهية فائقة، وأنا أمخمخ لها الحجر بالماشة، وأضع زنبة إضافية فوق النار، وهى تشرب، حتى اتسعت عيونها أكثر، ونشعت الحمرة فى بحيرة العينين، وقالت وهى تزيح البوصة: «إحك لى حكايتك!»..

فبصوت هامس حكيت لها حكايتى. فحكت لى حكايتها هى الأخرى:

هى بنت أخت الحاج وهدان شخصيا، وزوجة ابن أخته أيضا ـ أى ابن خالتها. كانت عروسا طازجة لم يمض على زفافها سبعة أيام حين هاجم البوليس زوجها يقود مركبا قادما من أسوان، موسقة بالمخدرات وقطع الآثار النادرة. كان يزامله فى المركب كل

من أبيهـا وأخيــها، آخــر من تبقى لها فــى الحياة بعــد موت أمــها وإخوتهــا الذين لم يكونوا معمــرين. سيق زوجهــا وأبوها وأخوها إلى محكمــة الجنايات، التى طسّت كل واحد منهم بـالمؤبد فى عين العدو. كـان ذلك منذ عام مـضى، ومنذ ذلك اليوم وهى حـبيـسة السرايا الصغيرة التى ابتناها خالهـا. كان زوجها هو ذراعه اليمين وقد حزن عليه حزنا يفوق الوصف. وحزن عليه النجع كله. وكلما اشتـد حزنهم عليـه نقمـوا عليهـا كأنهـا المسئـولة عن ضيـاعه، ووجهـها الشـؤم قد بات يلغى من العـيون كلهـا جمالهـا. فكانت تهرب منهم إلى العمل فى شغل الدار، ونسوان النجع كلهن عملنها حلوانة فى سلوانة فتركن لها كل شغل الدار المحتاج لمشقة وسهر. ومن جـانبهـا كانت تعـمل بلا كلل لعلهـا تنسى. ولقـد فكرت فى الهـرب، ولكنها مـوقنة أن خـالها سـيجىء بهـا من تحت الأرض. لكنهـا رغم ذلك لم تسـتطع نسـيان أنهـا عروس، وأن عـفـشـهـا وسريرها لاتزال فيـه رائحة الفرح زاعقة باتت تـتخيل كل ليلة ـ وهى وحدها فــى السرير ـ أن الباب سـينفتح لتـراه داخلا عليـها يكمل واجب العـرس يكمل تسليك الطـريق الذى خرم فـيـه ثقبـا، فبـاتت كل يوم بعد آذان المغرب تسـتحم وتلبس أحـسن ما عندها من القمصان الشفتشى لعلها تفاجأ به داخلا.

ثم وضعت يدها على معصمى قائلة وهى تنهض:

ـ «ألست تحب أن ترى سـرير الفـرح؟! تعال أريه لك!! سـوف تراه جديدا وورق المحل مـلفوف عليه! أمـا المراتب والألحفـة فمن الحرير الساتان! قم لأريك العفش الذى جئنا به من دمياط!!»..

لكنى تسمرت في مكانى يابوى، بل تجرأت وشددتها بقليل من القوة فأقعدتها كما كانت. ونظرت فى عينيها فوجدت تصميما أكيدا على طلبها، ممزوجا بدهشة واستغراب، وغيظ دفين. وفى الحال تفطنت، أيقنت أنها مجنونة أو على طريق الجنون. وقلت لنفسى: لابد من العقل والحكمة فى صرفها بصنعة لطافة وقلت لها وأنا أسرع برص حجرين:

- «ما تؤاخذينى ياأختاه! مجنون أنا حتى أدخل سرير معلمى الغائب فى السجن؟ أألقى بنفسى فى النار!»..

زحفت نحوى ضارعة: «من أجلى! لا تخف! لا تظننى مجنونة! ولست أنصب لك فخا لأختبرك! جميع رجال الدار ونسوانها ذهبوا لحفلة فرح في صحارى سيتى! قالوا لى تعالى معنا! قالوها من مناخيرهم! وأنا لم أرض! عملت نفسى مريضة وتعبانة! وحمدت الله أن تركونى وحدى!! البيوت كلها الآن خالية! حتى الخفر والحرس تسللوا إلى البلد ليقضوا مصالحهم! تعال وشف بنفسك!!»..

وقربت وجهها منى. فرأيتنى أترك ما فى يدى وأطوق رقبتها وأسحب رأسها نحوى، وأنقض على شفتيها لثما ومصمصة وعضا. صارت هى كالسمكة تنتفض فى شبكة الصياد. ثم لم أدر بنفسى بعد ذلك يابوى. ركبنى الجنون فلم أفق إلا وضوء الصبح يدخل من تحت عقب الباب، فإذا أنا عار تماما، وعلى الأرض حطام

امرأة عارية متفسخة كل عضو منها في ناحية، وقمصانها ملقاة هنا وهناك، وبطنها يعلو ويهبط، وهي غائبة في ملكوت بعيد..

أول شيء فعلته أن لبست ثيابي، وصرت أربت على وجه القتيلة وأدلكها في كل ناحية حتى أفاقت، ونهضت جالسة فألبستها القمصان ومخي مشتعل يكاد يغريني على إعادة الكرة من جديد. كانت شيئا لا يوصف ياخال. وكنت أستخسر أن أدعها تمضي، لكنني دفعتها دفعا للقيام. فقالت وهي تفتح باب الحاصل وتدلف داخله: «انتظرني غدا!» قلت: «حاضر!». وساعدتها في جذب الباب، ولما استدرت رأيت كل جدران العشة مخترقة بمواسير البنادق المصوبة على صدري. كدت أصرخ. جعلت أدعك في عيني، ثم فتحت باب العشة، لأفاجأ بالصحراء تنطرح أمامي بلا نهاية، وليس ثمة من أحد. ووجدتني ألم فلوسي وأحشرها في حزامي، وأتجه نحو الريس مهران مدعيا المرض والإعياء، طالبا منه أن يستسمح لي الحاج وهدان في إجازة أقضيها تحت رعاية أمي وأهلي. وكان عليّ أن أنتظر حتى الضحى لأرجع مع أحد البغال العائدة لجلب المياه. وحين وضعت قدمي على أول طريق القاهرة أيقنت أن الله قد نجاني من جنة في قلبها نار الجحيم، لكني كنت أنتفض وأنتفض من شدة الأسى كلما تخيلتها إذ تفتح باب الحاصل فلا تجدني.

الثامنة ـ مفاجأة غرزة المطار

ليس فى هذه الدنيا خيال يا خال، لا ولافيها مايسمى بالمستحيل. مستحيل ماذا يا بوى؟ البنى آدم منا فرعون ولاتقف أمامه سباع الدنيا ولا أسودها. أنا مثلا يا بوى، هل كنت تصدق أننى يمكن أن أتعلم القراءة مثل أولاد المدارس؟! بعدما شاب راح الكتّاب. المسألة كما اتضح لى كانت أهيف مما تصورت، أصل الحكاية أننى كنت تعلمت الهجاية من وكيل النيابة الذى رافقنى فى الزنزانة. ذات يوم بعيد وكتب الله لى النجاة على يديه إلهى ربنا يعافيه بالعافية إن كان لا يزال حيا ويطرح البركة فى خلفه فقد كنت واثقا من أنه مظلوم فلابد أن الله فك ضيقته من زمان. تعرف يا خال، لو كان به مس من النصب أو الاحتيال أو الزيف ما انعطف على حالتى ونسى حالته، علمنى حروف الهجاية ونطقها بعد تشكيلها وتسلى بمنظرى وأنا أنطقها شهورا طويلة؛ نقش أصوات الحروف فى قلب دماغى فباتت مسموعة على الدوام فى صدرى. ولما صرت الآن ولدا شلبيا ارتدى الكشمير والصوف والجوخ فى قفاطين وعباءات ومن تحتها الحرير والسكروتة، فضلا عن العمامة الكبيرة حول رأسى والمركوب النظيف فى

قدمى؛ رأيت نفسى لا شغلة لى ولا مشغلة سوى القعود على المقاهى ليل نهار. من حسن الحظ أنها لم تكن مقاهى كالتى يعرفها الناس وإلا انجرفت فيها إلى لعب الكتشينة؛ إنما هى غرز لتدخين الحشيش قد ولفت على واحدة منها فى حى فاطمة النبوية وراء جامع النبوية خبط لزق. مكان خفى غريب الشأن يا خال، لاسبيل إليه إلا بحيل متعرجة، لو أراد غريب أن يزورها أو يهجم عليها لاستحال عليه ذلك. دلنى عليها المعلم أبو كريشة حين اصطحبنى لشرب حجرين فى السر والكتمان؛ فدخلنا من باب بيت مفتوح ترتفع فى مدخله الواسع أدخنة الكوانين وترتع أسراب البط والأوز والدجاج، وأطفال صغار يزحفون فى الخراء يهرشون يجأرون بالصراخ، وطشوت غسيل متناثرة على الأرض فيها مياه غسل الهدوم مسودة ومزرقة، ونساء يجلسن أمام وابورات جاز مشتعلة تحت حلل الطبيخ. خرمت وراء المعلم أبو كريشة فى حرج شديد وسط هذا المدخل الواسع الذى تطل عليه غرف كثيرة؛ ثم حودنا شمالا حيث بدأت السماء تظهر؛ فإذا بنا بعد خطوتين فى حوش واسع، سرعان ما تبين لنا أنه بيت تهدم من سنين طويلة وما تزال بقاياه أنقاضا مرصوصة ومجنبة: عروق خشب كالح مسوس وشبابيك متقصصة وطوب وهديم، وحبال ممدودة منشور عليها هدوم مغسولة. ظننت أننا سنقعد فى هذا الحوش؛ لكن أبو كريشة ظل ماشيا نحو جدار مواجه هو جدار البيت الخلفى المجاور، وهو بيت من دور واحد؛ تحت الجدار أكوام من الهديم والقمامة المتجمدة؛ تسلقناها حتى صرنا فوق

سطح هذا البيت ومشينا على حافة الجدار يمينا؛ ثم هبطنا منحدرا من هديم آخر لبيت آخر، ثم صعدنا على تل من هديم لنجد أنفسنا بعد قليل قد صرنا فوق ربوة عالية وأمامنا الأرض صحراء مترامية فى السفح لكنها مسورة بالأسلاك الشائكة وقد تناثرت فوقها جرارات ولوريات على مسافات متباعدة بدت لنا كغربان باركة على الأرض؛ قيل لى إن هذه القطعة من الأرض من بين الأراضى الكثيرة التى يحتلها المقاول المشهور عثمان أحمد عثمان. مشينا فوق الربوة التى كانت عبارة عن أتربة تغطى مقلب قمامة اندكت فى بعضها وتصلبت. كانت تواجهنا، وتقترب منا، شرفة عظيمة مبنية بالحجارة على طريقة الهرم الأكبر؛ فلما اقتربنا منها وجدناها غرفة عالية جدا ومستديرة وذات عواميد وشرفات. دخلناها يا بوى، فكأننا دخلنا شرفة قصر من قصور الفراعين أو الخلفاء القدامى. على مقاعد من الخيزران النظيف جلسنا؛ أمامنا طقاطيق نحاسية لامعة، ومناضد من الفورمايكا. وعلى بعد كبير من الشرفة الجوانية عشة صغيرة مبنية حديثا لتكملة الفائدة، وضعت فيها نصبة الشاى والبوتاجاز، وبرميلا من الصاج ممتلئا بالتبغ المقصوص بحرفنة والمتخمر بطريقة مخصوصة ذات عطانة عطرية غريبة لكنها جاذبة، وبرميلا آخر مملوءا بالحجارة الفخارية المحترقة، وزيرا كبيرا ينضح بالماء الرطب وعددا من القلل النظيفة فوق صينية..

بمجرد قعودنا جاءنا براد الشاى مع الأكواب على صينية تفوح بعطر الشاى النفاذ، يحملها شاب سمهرى القوام حلو التقاطيع

أحمـر الوجه كـابن ناس، خجول مـؤدب؛ وضـع الصينيـة بعد أن نظف الترابيـزة بذيل قميصه الخـارج من حزام البنطلون الكاكى، قال: «مساء الخير يا مـعلم»، ورفع وجهه؛ ففى الحال تيقنت أننى رأيته فى السجن من قبل وبقى أن أتذكـر اسمه؛ قلت له: «استنى يا جدع!»، وأمسكت رسـغه؛ فوقف يحدق فى وجهى باسـما كأنه هو الأخر تذكر وجهى. قلت له: «إنت اسمك ايه؟». قال: «خدامك بلال!»؛ صـحت جـذلا: «بس!» وقـبلت قـبضـة يدى ثم فـردتهـا وصـفقـت بها فـوق كـفـه فى حرارة: «إزيك يا بـلبل! إنت طلعت امتى؟» فأعـاد النظر فى وجهى بتدقيق وتركيـز، قال: «العنبرة!»؛ قلت أنا حـسن بتـاع السلاح!»؛ فـارتمى فى حـضنى؛ والمعلم أبو كريشـة يرقبنا باسـما كأنه قـد وفق رأسين فى الحـلال يالها من عصرية هنيئة يا بوى؛ تحلف اليمين يا خال ما حششت فى حياتى بكل هذه الحـلاوة والصهللة. انجعـصت كأننى السلـطان برقوق، أرى الخلق يمـشون على مـسـافات بعـيدة جـدا كـأنهم الفئـران، والسيـارات تتدفق رائحة غـادية، فخبّل لى فى عـز الصهللة أننى أعيش فى جنة عـرضها عـرض السمـاوات والأرض فى مدينة لم أعرفـها من قـبل يا بوى؛ وعجـبت كيف أن فى هذه البلـدة ناسا لايجدون لقـمة خبز يتبلغـون بها وتحت بصرهم وسمـعهم ناس يرغدون فى النعيم بلا حسـاب دون أن ترتفع السيوف والخناجر لتطير الرقاب وتبقر بطون اللصـوص الذين سرقوا خبزهم. خفت لبرهة وجيزة لكننى تذكرت أننى فى مصر أم العجايب، التى تحمى كبار اللصوص بل تقدسـهم وترفـع مقامهم بقدر كراهيتها للجوعى

والمساكين وأبناء السبيل الذين هم فى العادة أغنياء عاجزون قليلو الحيلة قلم الإسلام أظافرهم وعشمهم بالحياة الآخرة. تحلف اليمين يا بوى انذهلت حين نبهني المعلم أبو كريشة إلى أن هذا الطريق الذى نراه من بعيد هو طريق صلاح سالم، وأن هذه البناية المجاورة لنا على بعد قليل هى القلعة التى بناها صلاح الدين الأيوبى؛ ذلك أن المكان الذى نجلس فيه هو برج الظفر، أحد أبراج سور القاهرة القديمة الذى انهدم ولم يبق منه سليما سوى هذا البرج ، ليخرج من السجن فيحتله ويحيله إلى غرزة تدر الذهب ليل نهار. ووالله لقد حسدته يا بوى، لكنى حمدت له شجاعته وذكاءه في الانتباه لهذا الموطن المجانى. قال أبو كريشة إن بلالا فعل ذلك بالاتفاق مع البوليس، ماذا وإلا عاد إلى نشاطه الإجرامى إذ أن قلبه ميت كما تعرف والقتل عنده كعمل واحد شاى؛ إنه باجس، يفوت فى النار والحديد، ليس يخشى على عمره أبدا؛ ما أبسط أن يطبق فى خناق أى ضابط، فكل الضباط تخشى على حياتها منه، يمكن أن يكسر رقبة الواحد منهم كالخيارة؛ مع ذلك فهو لطيف جدا معهم، ومؤدب، وخدوم، وشهم، ولذلك فهم يحبونه وفى نفس الوقت يتقون بطشه، يفوتون له بمزاجهم ثم إن أحدا منهم لايستطيع الوصول إلى هنا بسهولة، وحتى يصل يكون كل شئ قد صار على التمام فلا يجد الضابط شيئا يضبطه؛ والضابط فى النهاية محتاج لصداقة بلال، لأنه يدله على ألاعيب اللصوص وخفايا المجرمين لكن جدعنته أنه لايساعده فى القبض

عليهم ولايمكنهم من ذلك بل إنه حـريف فى تعطيل الحكومة حتى يهرب صديقه اللص.. ولد جدع بحق وحقيق.

فى تلك العصـرية الهنية رجع أبو كريشة إلى داره بـعد صلاة العشـاء وبقيت وحدى مـع بلال؛ فلما جن الليل فوجـئنا بطوائف من الأفندية المحـتـرمـين والمعلمـين الكـبار يـهلون علينا بفـاخـر الحشـيش والأفيـون والكباب المشـوى الساخن وعلب الكوكـاكولا والبيـرة. وحتى شروق الشـمس كانت الطوائف متـزال تنصرف، وقد عـرفت أن البيت الذى اختـرقناه لنصل إلى هنا هو بيت بلال، تسكنه عائلته، يعنى لاحـرج علينا إن دخلنا وخرجنا فى أى وقت. فى عتـبة هذا البـيت عجوز ضـامرة لم نرها عند دخـولنا، تتكور خلف الباب تفرز بفطرتها السليمة كل داخـل فتعرف إن كان باحثا عن مزاجـه أم يقصـد شرا بابن ابنها بلال؛ هـى بارعة فى إثارة الذعر إن تشككت فى الوافد الجديد، فبعد برهة قصيرة يكون بلال قد نط على صوتها فصار فى قلب البيت ليرى بنفسه جلية الأمر.

بلال مغرم بقراءة الصحف والمجلات والاستماع إلى الراديو إذ أنه من حـملة الشـهـادة الإبـتـدائيـة، ومـغـرم بقـراءة الروايات البـوليسـيـة التى كـان يدخرها فـى السجن ويحـدثنا عن المدعـو أرسـين لوبين والمدعو جـيمس بـوند. فى أصل المبتـدأ كان يقـرأ الجرائد بحثا عن الوظائف الخالية ثم بات يقرؤها ليقف على أخبار الحـوادث واللصـوص وكـيف خططوا ودبروا وهربوا من ثبـوت التهمة؛ أما الروايات فكانت غرامه الأكبر، يتعلم منها فنون الإجرام المتقن

أصبحت أذهب إليه في باكورة الصباح فلا أنصرف إلا إن كان ورائي مشوار مـهم. عز شغله في الليل؛ وفي النهـار يذهب لشراء المونة؛ ويكون نسوان الدار قد نشطن في تنظيف براميل الحجارة وتحصـيتهـا وتعسيلهـا، في مقابـل أجر معلوم. وقت العـصاري ووقت الليالي الخاملة نقضيه كله في القراءة حيث قطع على نفسه عهدا بأن يعلمـني القراءة كما أنزلت؛ وقد فـعلها يا بوي؛ أيقظ في صدري أصـوات الحروف وذكـريات الفتحـة والضمـة والكسرة والسكون؛ وأضاف لي قواعد النحـو والإعراب؛ وهذه الأخيرة لم افهـمها جـيدا لكنني في النهاية أصـبحت امسك بالجـرنان وأقرأ فأعـرف كل ما فيه، وأقـرأ الرواية فأفهم كل شئ فيـها. كل ذلك بفضل بلال في وقت لايزيد عن عام. كنت من جـانبي أساعده في الشغل وأحشش وأنبسط آخر انبساط بـل وأقبض بقشيشا ثمينا من الزبائن المتريشين.. طب ما قولك يا بوي أنني ولفت على بلال وبرج الظفـر حـتى صـرت لا أرى شـقـتي إلا عند النوم؛ وكـان عشمي أن يكون بلال سندا لي وعونا على إرهاب المومسات اللائي سكنت بجـوارهم. وطوال هذه المدة الطويلة لم أر الـبـوليس في الغرزة أبدا، لكننـي رأيت بسبوسـة مرتين، مرة حـين طرق الباب ذات ليلة ليبارك لي الشقة ويطلب حلاوتها، ومرة في الشارع وهو ذاهب لمشوار. قال لي وهو يسرع في المشي: «شلة النحس تسأل عنك ! حاول أن ترانا!». غير أنني كنت مـيالا لنسيان الشلة ووجع قلبـها، لكنني لم أكن أعـرف أني محـاصر بهـا يا خال. فـفي ذات عصـرية رقيقة النـسمات، وفيـما كنت وبلال نتبـادل القراءة في

رواية اسمها الكابتن مـورجان، إذا بِهَمٍّ الموت يهبط علينا، أى والله يا بوى؛ بربش وغـزولى وهندى، هكذا دفعـة واحدة؛ فجـأة رأينا خيـالهم يقترب منا. كـيف دخلوا؟ كيف صعـدوا ربوات الهديم؟ كـيف لم نشـعر بهم؟ هذا مـا لم نعـرفـه يا بوى. إنما أنا أول من رآهم، فتسمرت فى قعدتى مبهوتا لا أقوى على النطق بل إن قلبى سقط فى بئـر سحيق؛ ظننتـهم جاءوا للبـحث عنى يا بوى؛ سرح خيالى بعـيدا، تخيلت الحاج السنى وقد اكتـشف ضياع الآثار من مـقبـرته فحـقق وتحرى لهم: هاتـوا لى حسن من تحت طقـاطيق الأرض. أذهلنى أن الولد بلال ما إن رآهم حتى انتفض قائما فرمى بالكتاب وهات بالأحـضـان يا سلامات وتعالـى يا قبلات وروحى وجيـئى يا شتائم بذيئـة يقشعر منهـا البدن، فيـما بينهم وبينه. عجايب، أنتم تعرفـون بلال؟ هكذا قلت وأنا أسلم عليهم . فنظروا لى ساخرين وعيونهم تقول: أتعرفه أنت؟..

تكفل بلال بالجواب: «كنا زمـلاء فى المدرسة يا أبا على! بربش هذا زاملنى فى قـضـية شـيكات بدون رصـيد وشـركـة وهميـة لتشغـيل المصريين فى الدول العربية! غزولى كـان مكلفا بالقبض على فى قضية سرقة بالإكراه واعتداء على الشرطة! وكان غزولى يقابلنى كل يوم فـيقتـسم الغلة معى ويتركـنى أنام فى بيتى! هذا المفترى كثيرا مـادلنى على الضحـايا التى يجب أن نرزق سويا من ورائهـا!! أما هندى فـقد زاملنى سنتـين فى قضـية ترويج عـملة مزيفة! إنها عشرة عـمر يا أبا على!» عيش وملح السجن أقوى من

العيش وملح آخر وأنت أدرى طبعا!».. ثم استدار نحوهم" ": «وكيف حال بسبوسة ياشلة النحس والخربشة؟!». أشار بربش نحوى بلهجة ذات معنى: «اسأل أبا على! إنهما الآن حبايب سمن على عسل! يخدمان بعضهما خدمات كبيرة من وراء ظهورنا! هنيئا لهما على كل حال! نحن لانكره! ولكن كنا نتعشم أن تكون لنا الحلاوة ولو بسهرة صغيرة على القد! لكن هذه حال الدنيا! من يعلو يعلو وعلى الباقى السلام!». قلت مبتسما فى زهو: «ملحوق عليها بربش! أنا يا دوب سأفيق من وجع الدماغ! وعلى كل حال ها نحن التقينا وجاءت القعدة وحدها! أنتم الليلة ضيوفى!». كان الزهو يليق بى لحظتها، ليس لأننى تميزت عنهم بشقة ثمينة يحلم بها وكلاء الوزارات، بل لأننى صرت أعرف القراءة وإن كنت غير قادر على الكتابة إلا أننى أصبحت أفهم ماذا تقول الجرانين. قال غزولى: «العب غيرها يا حسن! الليلة نحن معزومون عند بلال منذ شهر مضى! لاتأكل بعقلنا حلاوة! وعزومتك لابد أن تكون كبيرة! لا أقل من خروف يذبح وزجاجة ويسكى تفتح وأوقية حشيش تحرق فى شقتك ومعنا بلال!». خفق قلبى يا بوى: «أنا تحت أمركم فى اليوم الذى يعجبكم ورقبتى بدلا من الخروف!». قال بربش: «نحن معزمون وأنت معنا يوم الجمعة القادمة عند الحاج أحمد نور الدين السنى بمناسبة عيد ميلاد ابنته! تصور أنه زعق لنا من أجلك؟ ظن أننا أسأنا معاملتك فابتعدت عنا وقال إنك أجدع واحد فينا فى نظره! قطيعة أنت وهوفى يوم واحد!».

ضحكت بغير اطمئنان؛ لكن صوتا فى رأسى قال: رح معهم ولا يهمك وضع أصبعك فى عين التخين ما دام حاميها حراميها..

في تلك الليلة سهرنا حتى شروق الشمس. ظهر لى بلال أجدع وأرجل مما توقعت؛ ذبح جديا صغيرا، واشترى زجاجتين من الكونياك، ونصف أوقية حشيش. جهز كل ذلك دون أن أعرف وجاء به في وقته؛ فكانت ليلة ولا كل الليالى.

التاسعة ـ الولاعة المنسية

صـرت أشـترى الجـرنان كل يوم؛ طبـعـا يا بوى، بل صـرت أحـرص على شـرائه وقـراءته من الأفـندية الذين يـتـأبـطونه ولايقرءون فـيه سوى اللافـتات الكبـيرة. أما أنا فـأفليه صفـحة صفـحة ركنا ركنا، سواء فـهمت أو لم أفهم؛ فلعـبة فك الخط نفسها لذيذة غاية اللذة يا بوى. ومن قال إنى لم أفهم؟ لقد عرفت أشياء يكاد رأسى ينوء بحملها، وأسمـاء ما كان لى أن أعرفها فى عمـاء الأمية رغم أنهـا الكلّ فى الكل فى حياتنا وأمـورنا، عرفت من يكون الوزير ومن يكون الخفير، وما الوزير ومـا الخفير؛ حتى الانتخابات التى كثيرا مادوشوا بها دماغنا فى البلدة وتقاتل القوم بسببـها عرفت حـقيقة أمـرها وعرفت الدار التى يجتـمعون فيـها ويتكلمـون فى أمور الخلق ومشـاكل البلاد لكى يحلوا فى الـنهاية مشـاكلهم هم. عـرفت ما مـعنى أمريكا وروسـيا ومـجلس الأمن والأمم المتحدة وجامعة الدول العربية. عرفت أننا والعرب أخوة فى الدم والعرق والأرض واللسان كمـا أننا نصلى لإله واحد ويهددنا عدو واحد قصير القامة لـكننا لانرى سوى ظله الشبحى مستطيلا إلى مالا نهاية. فلما عرفت ذلك اندهشت يا بوى: كيف يكون إخوة

بكل هذا العدد ودار بكل هذا الاتساع ويهددنا عدو جربان اسمه إسرائيل؟! تحلف اليمين يا خال أنني ما كنت سمعت عن إسرائيل هذه من قبل، أصلهم ما أدخلونا مدارس منهم لله؛ ووالله العظيم ثلاثا يا بوى غير حانث ولا آثم إنني انقبض قلبي لما عرفت الآن أن خمسة من ولد أعمامى ماتوا فى حروب معها هذه المدعوقة بجاز دون أن يعرفوا من هو العدو أو لماذا هذه الحرب!.. ما كنت أعرف شيئا من هذا يا خال، فمحمدين مات فى السويس وهذه بلدة نعرفها ولنا فيها أقارب؛ وعريبى مات فى سينا وهذه منطقة عربان ما كنت أعرف أنها تبعنا لأنى كنت أسمع الفقيه يقول إن الله كلم موسى فوق جبل الطور فى سينا وأن موسى هو نبى اليهود؛ وحسان مات فى الإسماعيلية التى كنت أعرف أنها بلدة البطيخ وعوضين مات فى العريش ولم أكن أعرف أنها من ضمن سينا، وصابر مات فى بورسعيد. ماكان أحد يقول لنا إن التى قتلت ولد أعمامى هى إسرائيل، حتى أيام كنت أبيع المشاريب فى المعسكر لم أكن أعرف شيئا من هذا، كل ما عرفته أننا فى حرب، وأى حرب لنا لابد أن تكون مع الإنجلين، طول عمرنا لانعرف لنا عدوا غير الإنجليز؛ الدور والباقى على هذه التى طلعت لنا فى البخت واسمها إسرائيل. سألت وأين يكون مكانها؟ قالوا فى فلسطين فى القدس الشريفة شخصيا. شوكة هى إذن وانغرست فى قلبنا. أول ما عرفت ذلك قلت من طيبتى: وايه يعنى! ننزعها ونرميها؛ الآن رجع لى عقلى فأيقنت أن نزعها يفرتك مطرحها.. فما العمل إذن يا بوى وأنا مرادى الآن أن آخذ بثأر ولد أعمامى؟

هذا ما يؤرقنى الآن يا بوى لكننى قلت لنفسى: هذا موضوع كبير عليك يا ولد أبى ضب فدعك منه حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا..

ــ «بنا يا رجال؟»

ـ «على الظالم!»

ثم وقفنا. لحظتها انتبهت إلى أن الحشيش البريمو قد سرح بدماغى ونحن فى جلوس فى قهوة صفصف نصطبح عصرا ونهيئ أدمغتنا قبل ذهابنا إلى حفلة عيد ميلاد ابنة الحاج أحمد نور الدين السنى. طويت الجرنان ووضعته فى سيالتى، ومضينا.. فى الشارع العمومى لقيت ولدا ينادى على جريدة المساء فاشتريت واحدة وجعلت أتطلع فى لافتاتها ونحن ماشون، وشلة النحس تتغامز علىّ وتضحك ملء الأشداق وأنا غير حافل بهم ولا بالسيارات المارقة من حوالى..

دهش الحاج أحمد نور الدين السنى حين رآنى، تحلف اليمين كأنه مشتاق وبه لوعة، بالحضن يا ولد، فارتميت فى حضنه شاعرا بالطمأنينة من ناحية خلقاتى النظيفة مثله وأكثر. صار العكروت يبعدنى عن صدره بيديه ويحدق فى وجهى وعينى بنظرات خبيثة ماكرة: «جبت الوجاهه دى كلها منين يا ولد؟ ما شاء الله! ما شاء الله! ربنا فتح عليك! أنت على كل حال تستاهل كل خير يا مقصوف الرقبة!». كان واقفا على باب الشادر ليستقبل ضيوفه؛ وثمة من يصطحب القادمين إلى الداخل. وكان

الشارع قد امتلأ بالسيارات المجنحة ذات المناظر الفاخرة اللامعة، بعضها بلوحات نمر زرقاء وخضراء وبعضها ترفرف على مقدمته الاعلام، ومنها ما يبدو أنه طالع لتوه من الفابريقة. وكان واضحا أن الحاج أحمد نور الدين السنى مشغول بمقدم ناس مهمين؛ إذ كلما هدأت سيارة تقدم ناظرا فى داخلها مستعدا للترحيب. طالت وقفتنا والحاج مبسوط بوقوفنا معه إذ نشكل وفدا بأس به فى استقبال الوافدين. ثم إن سيارة مجنحة مهيبة رست على الضفة المقابلة للشارع انفتح بابها ونزل منه سائق يرتدى بذلة سوداء، تقدم نحو كشك للسجائر وتكلم مع صاحب الكشك ولاحظنا أن صاحب الكشك يشير له نحو الشادر؛ فركب السائق ولف بالسيارة حتى حاذانا. السيارة بنمر قليلة العدد ومكتوب عليها: ملاكى أسيوط. هب الحاج للاستقبال صائحا: «يا مرحبا يا مرحبا!» فنزل السائق مسرعا وفتح الباب الثانى فنزلت منه سيدة ترتدى أفخر الثياب، وفرو الثعلب على كتفيها، راسها ملفوف بطرحة بيضاء من الحرير الشفاف يشى بوجه كالقمر، سمهرية القوام ممشوقة القد منضبطة الهندام والخطو كضابط أنيق مهيب. مدت يدها للحاج السنى، فسلم عليها بحرارة شديدة، وانحنى فقبل يدها. كانت عيناها تخترقان قماش الطرحة وهى تحط علينا واحدا بعد الآخر مع ابتسامة تحية، لكن عينيها عندما وقعتا على وجهى تلكأتا قليلا ثم بان فى نورها ما يشبه الدهشة أو المفاجأة، حتى أن العينين بعد أن تحولتا عن وجهى عادتا فنظرتا فيه من جديد بشىء من التأكد والاشتياق، ثم انصرفتا عنى نهائيا..

قلبى أكلنى يا بوى؛ فـهذه الـساحـرة المتنكرة فى ثياب الأبهـة تخفى وراء هذه الطرحة الحـريرية عهرا وصياعـة أكثر منى ومن عشـرين من أمثال بربش وغزولى وبلال. يبـدو يا بوى أن وحدة الصيـاعة والخربشة المطلة من عـينيها هى التى جـعلتنى أحن لها كأنها ممن يهمنى أمرهم. لست أعـرف من نظرتها تلك أهى تختبر خـربشتى أم هــى تصطادنى؟! أم أن مثـل هذه النظرة هى نظرة الولد المخربش تقع على مخربش حريف مثله فيتوقف دهشا لبرهة هى مزاج من الخوف وإرسال التحية. على أن الذى استقر فى قعر دماغـى يا خال هو أن هذه الحـسناء الساحـرة المتخـفيـة تريد أن تصطادنى. طبعا يا بوى، فما الذى يجىء بواحدة كهذه من أسيوط إلى هنا بصـحبـة سـائق خصـوصى إلا إذا كـانت دائرة على حل شعرها حاكمة بأمـرها، ولابد أنها فى حوزة عنين مكسور العينين مـهيض الجناح. أيًا مـا كان أمـرها يا بوى فـقد وجـدتنى أهرول خلفها مشدودا إليهـا بمقود خفى، والحاج السنى يحاذينى ويمسك خلسـة بأطراف أصـابعى هامـسـا فى تحـذير شـقى: «بالراحـة! بالراحة!»، فهدأت من خطوى، ولاح لى أن الحاج كان ينتظرها هى فلما وصلت عاد معها. كـان واضحا أنه قد تأدب وحط عليه وقار متقن كـأنه يمشى فى حضرة رئيس البلاد. ملت عليـه هامسا فى انبهـار: «من الأميـرة هذه يا حاج؟». فـمال على أذنى هامـسا فى جدية شديدة: «ذى هى الشيخة سعادة! من أعيان محافظة أسيوط لكنها معروفة فى كل مكان! صديقة للملوك العرب! لو كانت امرأة غيـرها فى مكانهـا لمشت فوق بسـاط من الذهب وما مـشت على

الأرض قط لكنهـا زاهدة! تكتفى من مـتاع الدنيـا بستر مظـهرها فقط!!». وغـمزنى لأسكت، فـقلت فى لجاجة: «لكن مـا شغلتـها يا بوى؟ أسـألك عن شغلتـها!». غـمزنى مـرة أخرى، قال فـى حدة: «عرافة! لامثـيل لها فى العالم كله! تقرأ للإنسان كـتاب حياته من طقطق لسـلامـو عليكم!»، ثم لكزنى وتـقدم إلى البـوابة الكبـيـرة ففتحها كى لاتنحنى الشيـخة سعادة فكأن بوابة الجنة قد انفتحت يا خال، بحر مـن الأضواء الملونة تسبح فى أعمـاقه ممرات وأبهاء ودرجات سلالم وحوائط مزدانة بلوحات جدارية، وتماثيل من كل الأحـجام مـعلقة. ألوان البـسط والسـجاجـيد حـدائق من الورود والرياحين والقباب والأبهـاء والإيوانات والجوارى يقدمن الكئوس ويعزفن على الآلات الموسيقية لمشايخ بلهاء بلحى طويلة وطراطير؛ كل ذلك مرسوم عـلى السجاجيد المنبـسطة على الأرض والجدران ودرجات السلم العريضة التى تئن تحت أقـدامنا أنينا عاهرا لوعها طول العمر. لم أعد أعرف فى أى طابق من الطوابق صرنا يا خال؛ لكننى أذكـر أننا صعـدنا طويلا يتقـدمنا الحاج السنى ومن خلـفه الشيـخة سعادة تخطر على الـدرج كالفراشة كـفرس النبى، ومن خلفى شلـة النحس التى صـارت تتكاتف وتـتـرادف، ويقـرصنى همسهم بأن الله قد نفخ فى صـورتى؛ وأنا أكتم الضحك وقد وقر فى بالى أننى لابد أن أكون محترما فى حـضرة الشيخة سعادة بأى شكل؛ لا أدرى يا بوى كيف جاءنى الوحى بهذا؛ تحلف اليمين أن الوحى قد عرفته؛ فما بين بسطة سلم والأخرى، وبينما تستدير الشيخة سعادة لتحود مـع انعطافة السلم كانت تدير رأسها ملقية

بنظرة مشـرقة ينجـاب فى ضوئهـا عن وجههـا قمـاش الطرحة البيضاء الحريرية فأرى على وجههـا سعادة فائقة؛ حقا صدق من أسماها الشيخة سعادة..

صرنا فى مواجهة بهو كبير ممتد كسرادق عظيم فخم، يحتشد بالأضواء الملونة الخافتة ينبعث منهـا الهدوء والدفء كأنها شموع خفـية؛ يحتشـد كذلك بطنين خافت لكنه عـميق تسمع فى أعمْـاقه دوزنة آلات موسيقية حبيـبة ودندنة أصوات سرحانة بنفسها. و.. ماكل هذا البشر يا خال؟! تحلف اليمين أنه قاعة السينما أو مسرح الريحانى؛ كلهم ينجعصون يتقلدون البكوية والبشوية؛ وثمة خدم يلبسون الطراطير والجبب المزركشة بالقصب يمرون بين الجلوس حاملين الـصوانى الملآنة بالكئـوس المترعة بجـميع أنواع الخـمر، ينعطفون نحو الجالسين فى حلقات جماعات جماعات أسر أسر؛ فإذا بكل واحـد من الجالسين يأخذ من فوق الصـينية صنفا مـعينا من المشـروب الذى تحفل الـصوانى بجـميع أنواعـه ألوانه ماركاته، نساء كجمار النخيل يا خال، ورجال كنوار القطن تنعكس عليهم الأضـواء بألوان خلابة؛ والـجـميع فى شـرب ولغو هامس وضحك رنان؛ ضحك النساء هو الأوضح كنقرات الإيقاع كشخللة الدفوف فى معزوفة همجية بهيـجة، تنبعث من كل خميلة شقشقة عصـفور أو عصـفورين. من الواضح يا خال أن مـحلا كبـيرا من مـحلات الخمور والأطـعمة والحلواء قـد تكفل بإحيـاء هذا الحفل الكبيـر أما المقاعـد والسجاجـيد فكلها ملك الدار وهى راسـخة فى

مكانها مفصلة على أماكنها؛ فهذه خميلة من الكنب البلدى الفاخر؛ وأخـــرى من الكنـب العـبـاسـى المطعم بالأصـــداف علـى شكل المشربيات؛ وثالثة من صالونات القصور المذهبة بمساند على شكل التاج الملكى؛ ورابعـة من أسرّة وأرائك فرعونيـة كالتى نراها فى صور تـوت عنخ أمون ولد بلدى؛ وخـامسـة من الشلت والبـفات الجلدية والحمير الخشبية المنجدة كالتى نراها فى معروضات خان الخليلى؛ وسادسة وسابعة وعاشرة على امتداد بهو طويل عريض تتخلله حواجـز رمزية من ستر وعمـدان وقوائم خشبية مـشغولة كالمشربيات متحركة..

جعـلنا نمشى كالبلهـاء نتصـادم فى الخدم والنـوادل، والحاج ماض أمامنا بـنفس مشيته التـى يمشيها وهو ذاهب إلـى المسجد، محنى القامـة قليلا مبرزا من بين كتـفيه ما يشبه القـتب الخفيف، واضعـا يديه خلف ظهره فـوق مؤخـرته تماما، والمسـبحة تـتدلى بينهمـا، وشفتاه تبـسبسان كـالعادة بكل ما غمض من التـسابيح والأوراد، ظلال لحيـته الطويلة ترتفـع وتنخفض صاعـدة هابطة فوق الأجساد والكئوس والأعمـدة. واجهنا مربع مـحدد بسور من الخشب يرتـفع عن الأرض بأرض خشبـية ارتفـاعا مـقداره ثلاث درجـات سلم، يجلس فـوقـه فـريق من الآلاتيـة والـفنانين. وفى المنطقة المجـاورة لهذا المربع تجلس وجـوه كثيـرة مشهـورة كلها ممن تنشـر الصـحف صـورهم. وكنت أعـرف أن وراء هذا المربع المسرحى غرفـا صغيرة كغرف الحـرملك، ومحلات أدب، ووراءها فراغ السقف كشرفات بتندات وأفاريز عالية مخروطية.

اقتادنا الحاج إلى أكبر شرفة، وهى خلف مربع المسرح مباشرة ويستطيع الجالس فى نهايتها قرب الخلاء أن يرى كل ما يدور على المسرح وفى بقية القاعة، عبر ممر فى عرض المسرح؛ فى حين أن الجالس فى القاعة قد لايتمكن من رؤية الجالس فى هذه الشرفة. أما الشرفة فمفروشة بمقاعد وأسرّة لا مثيل لها، لا أحد يعرف إن كانت من الخشب أم من الذهب، منجدة بالقطن أم بريش النعام. ثمة ناس كثار يجلسون متربعين كالعمد ومشايخ العرب، أمامهم الكراسى العباسية فوقها الصوانى الفضية تعج بالكئوس والزجاجات من كل الأشكال والألوان. ما إن رأوا الشيخة سعادة مقبلة عليهم حتى انتفضوا جميعا واقفين عابثين دخل عليهم أبوهم المرعب. توقفت الشيخة سعادة لبرهة طويلة؛ ثم تقدمت لتسلم على أقرب واحد؛ وصار الحاج من جوارها يبلغها اسم كل من تسلم عليه ووظيفته؛ وعند الوظيفة العظمى يمسك عن ذكرها ويكتفى بتنغيم الاسم وتفخيمه. فلما جاء عند الرجل الشبيه بأنور السادات الخالق الناطق أشار إليه برعشة خجل مصطنع كهين، قائلا: «محمد بك أبو شناف! طبعا تعرفينه!»؛ فهزت الشيخة سعادة رأسها وكررت السلام بحرارة: «أهلا! أهلا وهل يخفى القمر؟!»؛ فاستدرك الحاج: «.. ولما علم أنك ستشرفيننا الليلة كاد يرقص من الفرح! وقد شرفنا بالحضور وأمله أن تفتحى له الكتاب!». قالت الشيخة سعادة «ربنا يوفقنا فى خدمته! إن كتابه مفتوح وليس يحتاج إلا لمن يحسن قراءته!». ابتسم محمد بك أبو شناف عن حنك واسع وقال: «هذه إذن هى مهمتك!»، وبدأ

فى نبرة صوته كأنه يصدر أمرا بذلك؛ وكانت زبيبة الصلاة على جبينه المزرق تبدو كالمرسومة بهباب الفرن أو كحبة توت مشبوكة فى لحم جبهته المتثنية؛ أخذت تعلو وتهبط علامة المرح وهو يستدرك: «ولكن عفوا ست الشيخة! إن كتاب حياتى حافل وصعب ومكتوب بكل اللغات!». فقهقه الحاج السنى وبعض الحاشية، مما أغرى محمد بك أبو شناف بالقهقهة معهم كأنه قال دررًا نادرة، قالت الشيخة سعادة: «كتاب المرء مقروء إلا لعينيه هو نفسه! وندر من يستطيع قراءة نفسه!». الغمزة ثقبت الزبيبة فى جبهة محمد بك أبو شناف فأخذت تنتفض؛ فيما استدركت الشيخة سعادة بسرعة: «إنى على كل حال لست راجمة بالغيب! ولست عالمة به أو بأى شىء من أمره! إنما أملك مرآة ورثتها عن أجداد أجداد أجدادى! وقد وهبنى الله حاسة أرهف! ونظرة أعمق وأنفذ! وعقلا أقدر على ربط الأمور والأشياء ببعضها! قد أصيب وقد أخطئ! لكن الصواب والخطأ إنما يكونان على قدر ما فى نفس صاحب الكتاب المقروء من صفاء أو كدر! من روقان أو عبوس! من شفافية أو إعتام ! وفقنا الله ووفقكم إلى فهم أنفسنا على خير ما يمكن!»..

قالت هذا وهى مطرقة برأسها فى قليل من الحياء وكثير من الأدب؛ فيما كانت الزبيبة على جبين محمد بك أبو شناف قد تجمدت تماما فى مكانها، وصار فكه الأسفل يتدلى فيما لانعرف إن كان يبتسم أم يتلمظ؛ لكنه قال بشئ من الشهامة مشيرا إلى

مقعد بجواره «تفضلى بالجلوس!»، فاستوت الشيخة سعادة جالسة؛ وكانت قد خطفت قلبى بكلامها. ثم إننى تأهبت للانطلاق إلى الحفل، لكننى ما كدت أستدير فى الممر النازل إلى قاعة الاحتفالات حتى رفعت الشيخة سعادة ذراعها مشيرة لى: «تعال ياولدى! ما اسمك؟!». انتفضت من الفرح: «خدامك حسن أبو ضب!». هزت رأسها كأنها تقول: «أعرف!» وأحسست أنها تعتقل ابتسامة شقية بين شفتيها الدقيقتين؛ وتبسم الحاج السنى قائلا فى شقاوة صبيانية مرحة: «تعرفينه يا ست؟ أنتما بلديات على كل حال!». قالت: «أبغى مساعدا لى فى مهمتى الليلة! وقد توسمت فيه الطهر والعفة!». الصياغة كلها لمعت فى عينى الحاج السنى، فاندفع صائحا بلهجة حادة ذات معنى وهو يهزأ فى وجهى: «هذا ؟ آه من هذا !!». ألقيت إليه نظرة استرحام، لكن الشيخه سعادة ردت مسرعة: «أعرف! إنه ربما ارتكب بعض المعاصى تحت ضغط قاهر! لكن من المؤكد لى أن قلبه سليم! ودمه نقى! وصدره خال من الشوائب والأحقاد! وضميره مهيأ للصحو فى كل لحظة! لولا أن الحاجة أحيانا تكون أقوى منه! كفانا الله جميعا شر الحاجة والعوز! إن الله سبحانه وتعالى يغفر للمحتاج!». الولية تعرفنى إذًا يا خال، تحلف اليمين كأنها نشأت معى، لكنها يا خال تبدو كما لو كانت تقول كلاما حفظته من قبل ودربت على نطقه. قال الحاج بنفس الشقاوة: «هات كرسيا يا ولد واجلس بجوار الشيخة لاتبرحها! أو تعال فاجلس هاهنا مكانى!»، وتخلى عن حمار خشبى منجد كان يجلس عليه بالعرض، أما أنا فاستويت عليه

راكبـا بعد أن عـدلته لأتمكن من رؤية الفـرقة كلها؛ لكنـنى بعد أن جلست داخلنى الكثير من الكدر والضيق والندم؛ فمنذ هذه اللحظة قد حرمت على كل هذه الخـيرات المبثوثة هاهنا بغيـر حساب، وقد كنت أمنى النفس ببضـع كئـوس أرطب بها جوفى الصادى، فكيف أشـرب الآن يا بوى بعـد أن شهـدت لى الشـيخـة سـعادة بهـذه الأوصاف؟! الحق لله أن حالة من الرضـاء عن النفس رطبت جوفى يا بوى. أهكذا أنا إذن وأنا لا أدرى؟ كيف يا خال؟ لعن الله الشرب بعد الآن، ولكن لا، فلـتكن هذه الليلة هى آخر الليـالى التى أعصى فيها عصيانا بسيطا..

ثم ظهر الحـاج السنى مقبلا من شـرفة جانبية خلفـه سنيورة كـبنت من بنات الحـور اللاتى تحـكى عنهن الحـواديت: فـرع من الزان السرح، له بروزات شـيقة دقيقـة من الخلف والصدر، وعنق من المرمـر، ورأس مدبب الذقن كرأس نـفرتيتى، أى واللـه يا خال أميرة فرعونية من سلالة لم تنقرض بذرتها. تحلف اليمين يا بوى إن الحـاج السنى لابد أن يكون قد عـثـر عليهـا حيـة فى حفـرية فاقتناها والبسـها فوق لباس العصر حليهـا القديمة. قلت لنفسى: لايمكن أن تكون هذه هى ابنته صـاحبة هذا الحفل المهـيب البهيج؛ فى نفس الوقت لايمكن أن تكون من بيـن الفنانات المشتـركات فى الحفل؛ فـمثل هذا الجلف الصديْ لاتـخرج من صلبه هذه القـشدة الطازجـة؛ والفنانات عندنا ليس يعـرف عنهن هذا الوقـار الجمـيل وهذا الكبرياء الشـامخ الذى لاشك ورثته كأمـيرة من ظهر أمـير.

يا.. لهو بالي عليها، وهي تتقدم مقبلة، ورائحة عطرها القروستوقراطي يغطي على كافة العطور المندلعة في القاعة. اقترب الحاج السني من الشيخة سعادة وانحنى مشيرا إلى السنيورة الفارعة: «قوت القلوب! ابنتي!». فنهضت الشيخة سعادة وعانقتها وقبلتها في وجنتيها، والحاج السني يواصل الكلام في نبرة راعشة شجية ما عندى في الدنيا سواها! لا ولد ولا زوجة ولا أحد! منذ أن افتكر الله والدتها حرمت على نفسي الزواج ووهبت كل وقتي وحبي لقوت القلوب! مناي كله أن يأخذ الله بيدها ويفتح لها أبواب السعادة على مصاريعها! تعالي ياقوت القلوب وسلمي على عمك محمد بك أبو شناف!». فلمعت الأسنان المعدنية المحدودبة في حنك محمد بك أبو شناف وتراقصت الزبيبة على جبينه وهو ينتفض واقفا، ولولا الحياء من الشيخة سعادة لالتهم البنت في أحضانه ومصمصها بشفتيه هاتين الغليظتين الشهوانيتين يظهر يا خال أن البنت شعرت بالرعب لما واجهته، فتسمرت في مكانها برهة ثم تقدمت خطوة واحدة على حذر، وانحنت قليلا لتختصر المسافة بينهما، مادة أطراف أصابعها وهي تضحك في خفر؛ ثم اضطرت للسلام على بعض القريبين منه لأنهم تهيأوا للسلام عليها. قال الحاج السني: «تستأذن منك قوت القلوب ياستنا الشيخة لتحتفل بصاحباتها وفي آخر الليل تجئ لك لتنفردين بها على رواقة!». هزت الشيخة سعادة رأسها في أريحية: «ليلة سعيدة يا قوت القلوب! إن شاء الله نحضر في الليلة الأكبر! وإنها لقريبة بعون الله وفضله!»؛ فضحكت البنت في

خجل وتفاؤل، ثم هزت رأسها مستأذنة ومضت. تابعت مؤخرتها الساجية حتى اختفت فى ممر الشرفة الجانبية. أما الحاج فقد راح يتحكك فى الضيوف كالذيب العلق، ثم ما لبث حتى أختفى. إن هى إلا برهة حتى دعيت الشيخة للعشاء؛ فنهضت ومضت خلف الداعى فى ممر الشرفة الجانبية، فانتهزت أنا الفرصة وقمت أشوف حالى أبحث عن شلة النحس. مضيت فى نفس الممر، مررت بأكثر من شرفة، هبطت سلما إلى الدور الأسفل، فإذا أنا بقاعة تمتلئ بالموائد الحافلة، كلها مستديرة وكل مائدة يلتف حولها عشرة أشخاص، تقوم عليهم مجموعة خدم يرفعون الأطباق ويضعون غيرها حتى يجئ حلو الختام إيذانا لهم بمغادرة المائدة ليتم تنظيفها فى الحال ليحتلها عشرة آخرون. كانت شلة النحس منهمكة فى غسل أيديها؛ إلا بسبوسة، فقد كان قادما لتوه صاعدا من أسفل. احتضنته، ثم جلسنا معا على مائدة واحدة. جئ بسلطانيات الشوربة، ثم أطباق الخضار باللحم، ثم أطباق المحشى على مختلف ألوانه، ثم الشعرية بالفراخ، ثم أطباق الأرز بالضلع، ثم أطباق الفاكهة من برتقال وموز وتفاح وتين وبلح وهلم جرًا، ثم أطباق خبز حلو اسمه الجلاش، ثم المهلبية والأرز باللبن.. مسك الختام فانهض يا بوى. فى طريقى إلى دورة المياه لغسل يدى لمحت غزولى فى نهاية القاعة قرب السلم، فغمز لى بشفتيه وعينيه فى اتجاه الصعود؛ ولما رآنى تعثرت فى الفهم شوح بذراعه نحو غرفة البرج الفوقانية. هززت رأسى بالفهم والموافقة ومضيت فغسلت يدى بسرعة ثم اتجهت إلى السلم. لاحظت يا

بوى أن الرجل المديوب قد رفع كل التماثيل والتحف والأنتيكات التى كانت متناثرة فى كل مكان، لم يبق إلا على المحمية داخل دواليب زجاجية مغلقة بأقفال خفية. رجل كهين يا بوى وليس سهلا أبدا أبدا أبدا..

ظننت أن شلة النحس تريد أن تقيم لنفسها قعدة جانبية فى غرفة البرج تشوف مزاجها يا بوى، حقها. صعدت السلم يا بوى، مررت فى صعودى بضجة الفرح صاعدة من بئر السلم وقد بلغت الصهللة مداها يا بوى، وثمة مغنية من مغنيات الراديو تغنى: إيوه أه، وعشرات من الأكف البلهاء تصفق لها على الواحدة، وزغاريد. على السطح فوجئت بحفل آخر، نفس الأضواء، نفس التجهيزات ولكن بحصائر ملونة فوقها شلت، والجوز شغالة تبرق باللهب بين مجاميع متعددة؛ وكل من غزولى وبربش وهندى ممسكا بجوزة ومصفاة نار متوليا سقيا جماعة. كان بسبوسة قد لحق بى على البسطة الأخيرة للسلم وهمس فى أذنى قائلا فيما نتباطأ فى الصعود:

- «مثلنا لايجلس مع العظم الثقيل يا حسن! إنما مبرر وجودنا معهم أن نكون خدما لهم! خدم خدم المهم أن نذوق طعم الحلاوة! الحشيش البريمو العالى! الشمبانيا والويسكى والكرفوازية! هؤلاء الذين تراهم أمامك الآن بين برق الحجارة ولهب الكيف هم صفوة من يملكون الأمر والنهى فى البلاد!! ليسوا أصحاب مناصب ولا يحزنون! الصحف لاتعرف صورهم

ولا أسماءهم! كما أنهم لايدخلون معارك انتخابية ولا دياولو! يتركون غيرهم يقوم نيابة عنهم بتدبير المكائد ودس الدسائس ولبس الخوازيق النهائية وهم ـ هؤلاء ـ جالسون يحششون يسكرون يرضعون في أثداء الراقصات في أحلك الليالي في أشد الأزمات التي تمر بها البلاد! يقولون إن الثورة أممت الأراضي والشركات والمصانع وصادرت الباشوات والإقطاعيين! أما هؤلاء الذين يجلسون أمامك الآن فإنهم أمموا الثورة نفسها!! إنهم فتوات التنظيم ! ترى أبناءهم وألاديشهم يكتبون افتتاحيات الجرانين ويتكلمون بالإرهاب في الإذاعة ويخطبون بالحماس في سرادقات المحافل ويعيشون نفس الحياة التي كان يحلم بها الباشوات في عز ثرائهم! يلحقون أولادهم بالمدارس الأجنبية يستعيرون لهجة الميوعة والخشونة تقليدا لأبناء الباشوات! إنهم يملكون الأموال والنفوذ ويمولون كافة المعارك بجميع أنواعها ابتداء من معركة في حارة درب عجور بين اثنين من متسلقي الاتحاد الاشتراكي إلى معركة بين عبدالناصر وعبدالحكيم! ومنهم من يلبس ثياب الثورة وهو من ألد أعدائها! وقد سمعت الحاج السني ذات مرة يقول إنه لا يستبعد أن يكون هؤلاء لهم دخل في المعارك بين أمريكا وروسيا! وبين روسيا والصين! وهم وراء الموارنة والشيعة في لبنان! والأكراد في العراق! والبربر في المغرب! والجنوب في السودان! والإخوان المسلمين والمسيحيين في مصر! هكذا قال الرجل الكهين بعضمة لسانه عن هؤلاء!! رأيي يا حسن أن نبعد عن هذه المجموعة! فلو عرفوا أسماءنا

وشخصياتنا فلن نفر منهم إلى الأبد! سنبقى مدى الحياة خدما لهم! يغروننا بالفتات الدسم لكن أحذيتهم فوق رءوسنا!! دعنا نكون أذكى منهم فنلتقط الفتات من بعيد لبعيد من وراء ظهورهم! إنهم لابد لهم من إلقاء الفتات فى صفائح القمامة مالم يكن هناك من يلتقطه من تحت أقدامهم مباشرة!! غزولى وبريش وهندى أرباب سوابق فاقدين جعلوا من أنفسهم صفائح زبالة تلقى فيها كل الفضلات النتنة!! تعرف؟ وسمعت الليلة أنك ابن نسل طاهر طيب! وأنا أبشرك! من الليلة ستكون صاحب الحظوة عند الحاج السنى وكل أتباعه ومعارفه! هنيئا لك ياعم! فأنا إذن يحلو لى أن أنصحك نصيحة أخ غالية: ابعد عن شلتنا هذه نهائيا!! شلة النحس ما أقصد! أنت لست مثلى عدم المؤاخذة! أنا أعرف كيف أسلك معهم دون أن أتلوث بخرائهم!! ولكن تعال.. ففى غرفة البرج ناس أحلى من هؤلاء الذين يملئون السطح وأهم بالنسبة لنا ولابأس أن نكون خدما لهم! إن الخدمة عندهم شرف لنا يعطينا هيبة وأبهة ومهابة! محمد بك أبو شناف الشهير بسندرل نظرا لإفراطه فى الأناقة ولبس الشباب رغم أنه عجوز كركوب! ويحب الفتيات الصغيرات! رجل متصل بالرياسة شخصيا! لاأحد يدرى ما شغلته فى البلاد بالضبط لكنه وارد فى كل مناسبة واسمه مدرج فى كل مصيبة! يقال إنه المضحك الخصوصى للرئيس وأن الرئيس يعتمد عليه فى كثير من المهمات والمشاوير كما أنه سفير للرئيس فى كل مكان يتحرج الرئيس من ارتياده! هو رجل هزأة خل بالك! لكنه خفيف الدم مسخة! غير أن احترامه من احترام

الرئيس مع الأسف! وهو وزوجه دائران على حل شعرهما فى كل مكان لا تقف أمامهما حواجز أو سدود! كل واحد من ناحية! ولهما صداقات عالية المستوى فى جميع أنحاء الكرة الأرضية عقبال أملتك! تعال نقتحم مجلسهم لترى بنفسك!!»..

كان الكلام قد سرح بنا إلى حافة سور بعيد وقفنا مستندين عليه، ومصر عتيقة من تحتنا بسديم هديم ذو قباب ومآذن تسبح فى برك القمامة ومياه الصرف والكآبة؛ وعلى البعد تبدو القاهرة مثل جلابية أمى السوداء تبرقشها نقوش بيضاء وحمراء وخضراء وزرقاء. لحظتها جاءنى خاطر يقول لى: خير لك يا ولد أبى ضب أن تنسلخ عن هذه المدارات كلها وتبحث لك عن فلك جديد تربط نفسك فى مداره. وجاءنى خاطر آخر يقول: وهل تقدر على ذلك يا ولد أبى ضب؟ هاأنت ترى أن جميع المدارات تؤدى كلها إلى فلك واحد كما أن جميع الأفلاك والمدارات زفت وقطران. شعرت يا بوى بهذا الخاطر يقبض على ذراعى يكاد يقرصه بوجعه؛ فإذا هى قبضة بسبوبسة ممسكة بذراعى تسحبنى إلى غرفة البرج..

رأينا محمد بك أبو شناف جالسا فى الصدارة متربعا وسط مجموعة من أتباعه كالعمدة يرتدى جلبابا واسعا من الصوف بأكمام واسعة ومن تحته الصديرى الشاهى المعتبر، وفوق رأسه طاقية من الصوف، كالزعبوط، وعصاه الأبنوس أم عوجاية مركونة خلف ظهره. أما بقية الأتباع فيرتدون فاخر البذلات

ورباطات العنق المفكوكة قليلا كما أن أزرار الياقات الحريرية مفتوحة وفوقها الصديرات؛ أما السترات فمعلقة على مشاجب أنيقة مزروعة فى الحوائط. أمامهم الصوانى الفضية عليها الكئوس مترعة بجميع أنواع المشروبات. وثمة أفندى أنيق غاية الأناقة من الواضح أنه غرزجى أصيل رغم الوجاهة والأبهة قد راح يقوم بالواجب خير قيام، تحلف اليمين لا أنا ولا أجدع منى ينشط هكذا. وثمة أفندى آخر لايقل عنه شياكة ولا أبهة راح يوالى توليع النار وتكسيرها وتحضيرها فى المصفاة ليغترف منها بالملعقة ويضع على الحجر بحيث لاتتوقف الجوزة فى دورتها لحظة..

بدا أنه لا مكان لنا بسبوسه وأنا؛ شعرت أن وقفتنا على الباب سوف تبوخ، لكن بسبوسة بوجهه المكشوف دفعنى نحو الباب قائلا: سلام عليكم. فإذا بهم يردون السلام ويتبعونه بكلمة: تفضلوا.. فما أن دخلنا حتى تقدم بسبوسة دون إحم أو دستور نحو صينية النار، فتقرفص بجوار الأفندى ساحبا الصينية نحوه، ثم التقط الماشة مع المصفاة وورقة التهوية، ثم اندمج فى مباشرة العمل. فانزاح عنه الأفندى قائلا: «كنت فين من الصبح!». وكان علىّ أن أفعل مثل بسبوس، فحاذيت الأفندى الممسك بالجوزة ومددت يدى فوضعتها على الجوزة قائلا: بعد إذن سعادتك؛ فتركها لى فى الحال، فنزعت عنها الحجر المحترق ونفخت دخانها وسيّختها بسرعة ثم أفرغتها فى جردل معد لذلك وملأتها

من جردل آخر به ماء مثلج نظيف. كان الدور على محمد بك أبو شناف، فمددت له البوصة قائلا: مساء الخير؛ وأقعيت أمامه حتى يشرب براحته. فالتقط البوصة بأطراف أصابعه الطويلة السرحة، ووضعها بين شفتيه الغليظتين، وطقطق ثم شد نفسا واحدا كاد ينفلق منه الحجر؛ فعرفت أن أبخرة الويسكى وريق الأفيون يفتحان الشهية لدخان حامي الوطيس. أما الأفنديان اللذان كانا يتوليان أمر النار والجوزة فقد توليا أمر الزجاجات والكئوس نيابة عن آخرين كانا يقومان بنفس العمل من نفس المجلس. الأفندى القريب منى تكفل بى، والأفندى القريب من بسبوسة تكفل به. كأس وراء كأس وحجر يتلوه حجر صرت كأننى مجرد سحابة من هذا الدخان.. آخر تمام يا بوى.ورنت الساعة فى معصم أحدهم فنظر فيها قائلا: «ألن نرى الفرح؟!». قالوا جميعا: «وجب!»؛ وتأهبوا للنهوض..

كان علينا أن نبقى، بسبوسة وأنا، كى ننظف المطرح ونلم العدة. إننا يجب أن نعمل بأكلنا على الأقل يابوى. وهكذا نظفنا البرج ثم رتبنا حشاياه؛ وقد راعنى أن وجدت بين ثنيات المساند كنزا ثمينا، ولاعة ذهبية فى حجم علبة ثقاب ثقيلة، عليها رسوم ونقوش ملونة، مهيبة كأن رأس ملك الزمان شخصيا تطل من بينها، ومعها قطعة حشيش فى وزنها، مبرومة، بنية اللون كأصبع الملبن. قلت: أما هذه فمن نصيبى وأما الولاعة فلتعد لصاحبها. وضح لى فى الحال أنها تخص محمد بك أبو شناف

ولابد أنه خبطـها من أحد الملوك العـرب، وهى لن تفيـدنى، إذ أنها ستفضحنى لو استعملتها أو فكرت فى بيعها يا خال؛ المرء لابد أن يحسبهـا جيدا يا خال؛ وإن فرحة صاحبـها بعودتها ألذ عندى من فرحـتى بها يا بوى؛ لأن فـرحتـه هذه ستـعلن فى الحفل تأكـيدا جـديدا على طهارة عـنصرى الذى أعلنتـه عليـهم الليلة الشـيخـة سعادة. وهكذا اندفعت لاهثا أجرى كى أحظى بشرف التبليغ قبل أن يبعث هو من يسأل عنها ويركب على أكتافى. قال بسبوسة فى فضول: «ما وجدت يا أبا على؟!». قلت: «تعال!»..

هبطت السلم جريا إلى قاعة الاحـتفالات فى الطابق الثالث من الدار. كان الفرح حابكا، والجمـيع غائب عن الوعى، وراقصة لعلها سهير زكى، مدملجة مزلطة الجـسد كالرخام الشفاف تتلوى على المسرح كـعامـود من الضوء يتـصاعـد من حلة موسـيقيـة تغلى بالإيقاعـات الحادة الحراقـة فى نشوة بالغـة، فالجمـيع ثمل حتى سحب الـدخان المتصـاعدة من السـجائر والغـلايين. جنة هذه أم جنون يا خـال؟ وصلت إلى قرب المسـرح أتخبط كالدهـل الأعمى من فرط السكر والسطل والهـياج. صارت عـينى تقع على وجوه الجالسـين فلا تعرفـهم إلا بعد تدقيق وفـحص طويلين. تجاوزت المسرح إلى الشرفة الخلفية فمـا وجدت أحدا؛ فقفلت عائدا أبحلق فى وجوه الصـفوف القريبـة من معمـعة الرقص. ميـزت عينى عبـاءة تجلس فى الصدارة بيـدين تستندان على مـقبض العـصا، وبرأس من غير زعـبوط . خرمت عليه مباشـرة، فلما ازددت قربا

منه لاحظت وجود الشيخة سعادة بجواره. عجبت لأننى مررت عليهم من قبل وتوقفت أمامهم فلم أتعرفهم. تقدمت من محمد بك أبو شناف، شجعنى بابتسامة استهلال حذرة تشى بخوف غامض خفى من احتكاك أمثالى بمثل هؤلاء الأسياد خاصة إن كانوا أسيادا صياعا فى الأصل كمحمد بك أبو شناف؛ ولقد شممت رائحة خوفه تفوح من جوفه حين فوجئ بى أميل على أذنه ، التى ـ مع ذلك ـ سلمها لى فى طواعية، فهمست فيها بكثير من الحرج: «سعادتك نسيت شيئا فوق؟!» نظر فى وجهى بارتياب شديد؛ طاشت من عينيه طلقات كثيرة متوالية ترمينى بالشك والاتهام. فأصابنى الرعب يا خال، وكنت منحنيا تجاهه فخفت أن تصطك ركبتاى ببعضهما فشددتهما وشددت لسانى ليتحرك فى حلقى؛ قلت على الفور وأنا أبرز الولاعة الذهبية أمام عينيه: «قد وجدت هذه بين المساند!». فزوى ما بين حاجبيه متمعنا فيها دون أن يلمسها أو يحفل بها، ولوى شفتيه قائلا: «لا! لا شأن لى بها!»؛ فوضعتها فى جيبى. وكانت الحاشية كلها قد لاحظت كل شئ. مع ذلك تلكأت فى مشيتى فى انتظار أن يستوقفنى أحدهم قائلا إن الأمانة تخصه؛ لكن شيئا من ذلك لم يحدث يا بوى، فانسللت خارجا من إطار المجلس، أتعثر فى الأضواء والموسيقى المجنونة. و.. .. يا بوى واه؛ لقد حانت منى التفاتة عابرة نحو الشيخة سعادة، فتلامست نظرتى بنظرتها عبر الطرحة الحريرية البيضاء فأصابنى منها لسع حارق يا خال، تحلف اليمين يا بوى أنها بعينها نظرة أمى ولسعة البرق هذه لم أعرفها إلا في عيني

امي لحظة تضيق بأخلاقي وتيـاس من صلاحى. أرعبتنى يا بوى وكدت أقع من طولى؛ وقد داهمنى شـعور بالرهبة من أننى أتيت أمرا أغـضب الشيخـة سعادة. نعم يا بوى، لقـد خيبت ظنهـا بهذه العـمـايل التى عـملتـهـا في روحى يا بوى، شـعـرت أن الطريق مسـدود وأن لا أمل فى عفو الشـيخـة سعادة إلا بعـد لأى شديد. شعـرت كذلك أن أيام نحوس قـادمة سوف تـعترضنى لا مـحالة وحطت على كآبة ثقيلة يا خـال، وباخ الحفل في عينى، وتحولت الراقصة إلى حـية رقطاء تتلوى تبخ السم حيثـما ترنحت. لله در الخلق من نفوسـهم الأمارة بالسوء. وهكـذا يا خال رأيتنى أجلس في الشـرفة الخلفـيـة وحدى على يمـينى القـاهرة وعلى شمـالى الفـسطاط وتحت قدمى مـصر عـتـيقـة وأمامى منيل الروضـة والجـيزة، قـرط من الأضـواء الملونة تتـشـابك أقواسـه وتتنافـر وتتناثر، معلق في صدر معتمة، تلك العـتمة التى تبرك على كيمان من القمـامة والأسـرار المنتنة.. فمـا لى ضائق بذنبى البـسيط يا بوى؟!..

إلا وخطوات تدب من حـوالى تنتـزعنى من وحـدتى، كـانت الشيخـة سعادة مقبلة تعـدل هندامها؛ ومن خلفهـا موكب جعلت أتبين فـيه الحاج السنى ومـحمد بك أبو شناف وبقـية الحاشـية. كان الحاج السنى قد شرع يعدل الوسائد ويهيئ للشيخة مجلسا. أمـا هى فقـد بدا أنهـا تتـأهب للانصـراف؛ فهـا هى ذى تتـأبط حقيبـتها الثمينة المحندقة، وتلفـتت طالبة عم زهدى السائق، الذى

كان أطوع لها من لفتتها. وقف الحاج السنى محتجا بشدة: «ما ينفع هذا يا ستنا الشيخة! نحن لم نجلس مع بعضنا بعد!» قالت الشيخة: «ورائى سفر طويل كما تعرف! وعما قريب يكون لى الشرف بزيارة أخرى!». قال محمد بك أبو شناف: «وأنا ما مصيرى يا ست الشيخة! على الأقل خمس دقائق معى! إقرئى لى حتى العناوين الكبيرة من كتابى!». قالت الشيخة بكبرياء ولباقة: «كل العناوين تؤكد أنك الليلة غير مؤهل لقراءة أى شئ فلست وحدى التى ستقرأ كتابك! بل إنك الذى سيقرأ ولست إلا معاونة لك أنا والورق! لكننى أعدك يا سيدى الفاضل أنك لو قابلتنى فى حالة أصح وقلب أخلص ونزعة أطهر فإننى أعدك بأنك تفهم كتاب حياتك سطرا سطرا! وتستوعبه معنى معنى! خذ رقم تليفونى من الحاج واتصل بى وقتما تشغر فتحدد لقاءً ها هنا!» ثم إنها شفعت بابتسامة مهذبة، ثم استدارت إلى كأنها فى غير حاجة لرد محمد بك أبو شناف وسلطت على نظرتها قائلة: «أما أنت أيها الشقى التعس فلى حساب معك فى وقت يحين عما قريب!!»..

شعرت والله يا خال كأن الأرض تميد بى، لكننى شعرت مع ذلك أن فى أعماق صوت الشيخة نبرة عطف وأنها سوف تحنو على مادامت وصفتنى بأننى التعس، لابد أنها ستشفق لتعاستى، قالت ذلك ثم سلمت على الحاج وعلى محمد بك أبو شناف ثم الحاشية. وتوقعت أن تسلم على أنا الآخر ، وصدق توقعى يا بوى؛ فانتثرت على الأرض بددا صرت أقبل يديها فى طلب

العفو والسماح؛ فربتت بيدها الأخرى على ظهرى فى حنان حقيقى قائلة بصدق حقيقى استشعرته: «ربنا يهديك ويطرح البركة فيك! آمين يارب العالمين!». فإذا بالجميع يرددون خلفها مثل بطانة المغنى: «آمين يارب العالمين!»، فشعرت والله يا خال أنه سوف يستجيب لابد لهذه الصيحة الجماعية. وقد أصر الجميع على توديع الشيخة سعادة حتى باب السيارة، حيث راح الحاج السنى وأبو شناف يوصونها بتبليغ سلامهما إلى السيد المحافظ وشكرهما العميق؛ وكان عم زهدى السائق يهز رأسه كأنه المعنى بالشكر. كلمة من هنا وكلمة من هنا فهمت أن السيارة هى سيارة المحافظ، محافظ أسيوط والله يا خال، وأنه مجاملة منه للحاج ولأبى شناف تطوع باستدعاء الشيخة سعادة وتوصيلها إليهما بسيارته الخاصة.. حاجة تهوس يا بوى وحق الله. بعد أن تحركت السيارة شرعوا ينصرفون. وقبل أن أنصرف شدنى الحاج من كم جلبابى قائلا فى عشم ومودة: «خليك تحت عينى باستمرار يا ولد يا عكروت! لقد أوصتنى الشيخة بك كأنك منها بموضع الاخ الشقيق! فلا تجعلنى أسأل عنك بعد الآن!». قلت فى غبطة: «حاضر يا حاج!»، ومضيت أترنح لا أدرى كيف الوصول إلى أى شئ فى أى مكان.

العاشرة ـ طيف الخيال

العيال المفتحة ليست بالساهل يا بوى. ولد مثل بسبوسة هذا ملقط ابن ملقطة! يجمع المعرفة والمعلومات بكل سهولة ودون أن يبذل أى مجهود. ولقد يسعى الواحد منا لمعرفة أشياء بعينها أو معلومة عن شيء معين فيقضى فى ذلك شهورا وربما سنوات، وقد لا تجيء هذه المعلومة صحيحة بعد التعب. أما بسبوسة، عينى عليه باردة، يجيء لك بالخبر اليقين من أيما مكان تريد، هو ولد ناعم، جذاب يا بوى، يدخل فى الزوارق دون أن يسبب أى وجع لأحد، وينصت لكل شيء ويجعل باله من كل شيء. ولد واع بحق! مولود ليكون مخبرا، وعلى وجه الخصوص عن بيوت الدعارة، غير أنه يوسع دائرة عمله فيشمل بيوت الدعارة بجميع أنواعها؛ يجمع الأخبار لا ليبلغها للحكومة بل لينتفع بها عند اللزوم، هو خير من ينتفع بها؛ هو خبير بأمر إعلانها لا يكشف عنها إلا عند اللزوم، حيث يكون لإعلانها ثمن كبير، هو مع ذلك لا ينسى المعلومة حتى تتعفن وتصبح معروفة؛ فقبل أن تزمع الحكومة مهاجمة الجرسونيرة يكون هو أسرع ولو بدقائق تكفى لقبض المعلوم وتفويت الفرصة على الحكومة..

واه يا بوى؛ الكفت تعلمته من ولد الأبالسة هؤلاء، ليس المرء يكون ابن ليل لمجرد أنه يعاشر أولاد الليل أو يفعل أفاعيلهم. الشاهد يا بوى؛ قل إن الولد بسبوسة دخل على شقتى مبتسما ابتسامة ملونة يا بوى، قلت سترك يا رب، سحبته ورائى إلى المطبخ قائلا: «تعال أعمل لنفسك شايا»، وقف بجوارى يغسل الأكواب على رخامة الحوض وجسده كله يهتز ويترجرج من فوق لتحت ومن تحت لفوق؛ وإذا به يضحك ضحكا مكتوما معلنا فى نفس الوقت. قلت معطيا إياه ظهرى فيما أشعل عين البوتاجاز وأضع البراد فوقها: «مالشفتك عائمة يا ولد الفرطوس؟!». فكأننى أعطيته الإذن الشرعى بالانفجار فى الضحك يا خال، فصار يترنح ويتمايل من فرط الانبساط والسخسخة، وكان يتكلم خلال ذلك، لكن تحلف اليمين ما فهمت منه كلمة واحدة توحد ربها؛ إنما هو مندمج فى الهلفطة والفأفأة والبغبغة، كل ما فهمته من كلامه يا بوى أسماء الحاج السنى ومحمد بك أبو شناف والملك فاروق ورجال الثورة والعائلة الخديوية والدنيا والدين وزيطة وزنبليطة. واه يا بوى، ما الذى لمَّ الشامى على المغربى؟ وما الحكاية بالضبط ولد الفرطوس..

وكنت أظنها نكتة جاءنى الولد بسبوسة بها لنقضى على حسها عصرية ممتعة؛ فإذا به جاءنى ببلوى كبيرة يا خال، صرت أجمع نفسى على كوبة الشاى وأنا جالس معه فى الصالة لعلنى أفهم جلية الأمر، فلما كف عن الضحك مسح دموعه وبدأ يلخص الأمر

كأنه أضطر للكلام المباشر يأسا من غبائي: «يعني بالمفتشر! الكنز الذي عثرت عليه أنت ليلة ميلاد ابنة الحاج طلع على فاشوش! طلع له أصحاب! قل إنه بصريح العبارة لم يكن كنزا بل هو بلوى سوداء مسيّحة!»، قلبي راح يرفرف كطير مذعور في قفص من الجريد الخرع، من ريق ناشق كالعصا قلت: «كنز ماذا يا ولد الفرطوس؟! تظنني لقيت كنزا؟!» لكزني صائحا: «لا تستعبط على نفسك! إنني ما قصدت إلا مصلحتك يا صعيدى، يا صعيدى يا قحف! أنت تتلاءم علي؟! أما أنا فما قدرني الله على قوله في حقك قلته وأجرى على الله!!».وكنت أفهم ما قد بدأ يرمي إليه الحديث، لكنني والحق يقال تمسكت بالاستهبال لعلني أفهم أكثر دون أن أتورط في اعترافات تضع يدي في الحديد، ولد الفرطوس هؤلاء علموني أن أكون حويطا معهم؛ بسبوسة نفسه حذرني منهم، خفق قلبي حين تذكرت نصيحة بسبوسة المخلصة لي، زريت بنفسي على التلاؤم عليه، لمتها، لكن صوتا في نفسي رن قائلا إن تحذير بسبوسة لي من رفاقه لا يمنع من أن أستفيد به في التعامل معه أيضا؛ فهو في النهاية واحد منهم، ضوًا في خاطري إلهام بأنني مادمت قد فهمت ما يرمي إليه فخير لي أن تظهر صورتي بريئة كما قد أردتها في ليلة قوت القلوب، رن الصوت في صدري: لقد أظهرت براءتك أربعة وعشرين قيراطا؛ نزلت ومعك الولاعة وقطعة الحشيش وعرضتهما على الجالسين فلم يتعرف عليهما أحد، بل تجاهلوا الأمر من أساسه كأنه لا يخصهم، فلا عليك إذن. وعاد الصوت نفسه ليرن في صدري ثانية، ولكن

الولد بسبوسة ورطك الأن ولا يصح أن تظهر أمامه فى صورة من يريد أن يضرب العوافى على اللقية التى التقيتها..

وضع الولد بسبوسة ساقا على ساق، عوج رقبته نحوى قائلا فى لهجة ذات معنى: «هات نلف سيجارتين من الحلويات التى معك! أم تراك تلهطها وحدك؟! إياك تقول إنها نفدت! تكون أكبر مفترى لو قلت ذلك!». وركز بصره فى عينى بشكل جعلنى كالقرد المقيد بالسلاسل. حاولت الفلفصة فلم أقدر يا بوى، ثم إنه أسرع فأخرج علبة سجائره ودفتر البافرة وشرع يفرط السيجائر وينقيها من العيدان الخشنة ويشرشر ورق البافرة؛ فيما أتابعه أنا فى لامبالاة، فلما أنتهى من ذاك أبقى الدخان مكوما على ورقة البافرة ثم فرك أصابعه فى الهواء أمام عينى كأنما يقول: هات ما سنفركه، فلما أن تلكأت قليلا شخط فى مشوحا بذراع مبرومة لا شعر فيها كذراع الأنثى، قائلا: «ما تجيب يا لوطى!!» فبكل هدوء وبساطة قمت ذهبت إلى حجرة النوم فسحبت الحشيشة من بين الكراكيب فوق دولاب الثياب وأقتطعت منها قضمة لا بأس بها، ولففت بقيتها فرميت بها مطرح ما كانت؛ وعدت إلى بسبوسة، رميت بالقطعة أمامه على الطقطوقة؛ فانقضت عيناه انقضاض النسر على فريسة، ثم أمسكها بأطراف أصابعه قائلا فى غبطة شديدة: « يا بن الكا..ا..ا لب!! ذى حشيشة طيبة ما أنزل الله من مثلها فى الأرض!! شف أولاد الكلب والحشيش الذى يشربونه من دوننا!! أى عدالة فى هذه الأرض بحق الله؟! عدالة الشيطان

وحـدها هى التى تجـعل هـؤلاء القـوم وحـدهم يشـربون أجـود حشيش فى الدنيا ويضاجعون أحلى نساء البلاد ويفترشون ريش النعـام ويأكلون الدندى والجـمبـرى والكابوريا!! ونحن بعـد ذلك نحملهم حتى لا تتلوث أقدامهم بـالأرض!! ليتنا نحملهم إلى القبر! آه لو كنت أستطيع أن أصبح لصا محترفا! إذن لعرفت كيف أحكم هذا البلد!!».

وصار يتـحسس التعمـيرة ويفرك منهـا حبات سمـسم ينثرها فوق الدخان، ويلف السيجارة بحذق ومهارة وأعصاب رائقة، كأنه يتعبد فى جامع الكيف، وإذ انتـهى من لف السيجارة التى صارت تشبه القرطاس وضعها بين شفتيه بعناية ونظر لى محركا إبهامه فوق زناد وهمى! ففهمت أنه يطلب الإشعـال. سحبت علبة كبريت من جيبى وجعلت أفتـحها؛ فـصدنى بيده قـائلا من بين شفتـيه المضمومـتين على السيجارة، «لا يا حـدق! أشعل بالولاهة الذهب! خلهـا شبـرقة فى شـبرقـة بالمرة! إن هذه التـعمـيرة لا يليق بهـا الكبريت! مقامها الولاعة الذهب!»..

يا ولد الصـايعة؟! هكذا قلت فى نفـسى، ثم شوحت له قـائلا: «ليس معى ولاعات!». شوح قائلا كأنه يعـلن انسحابه من القضية كلها: «بلاش! الكـبريت أحسن!»، واخـتطف العلبة فـفتحـها وطش عودا صار يلوح بشعلته فى مقـدم السيجارة ويشرب بلذة فائقة، والسيجارة تنساب فى فيه منكمشة على نفسـها شيئا فشيئا، فلما شعر أنه قـضى وطره منها سلمها إلىّ كاتما دخـانها فى منخريه

وشــرع يبرم واحــدة أخــرى، وقد بدا أنه صــهلل من نفس واحـد صهللة كبيرة، قال وهو يشعل الثانية: «سأحكى لك حكاية بسيطة لكنها مـضحكة ومسلية وفـيها موعـظة!»، قلت بغيظ: «كلمنى أولا فـيمـا جئت تكلمنى فـيـه!»، قال: «لن أكلمك فى شىء إلا بعـد أن أحكى لك هذه الحكاية البـسيطة المضحكة!». قـلت بضيق: «احك!»، فأعـتدل فى قعدتـه قائلا: «لما قامت ثورتنا المبـاركة وطردت الملك فاروق ووضــعت يدها على العـرش! وضعت يدها أيضـا على كل مجوهرات العائلة المالكة! حلو؟!»..

قلت: «حلو!».

قال: «وكـلفت لجنة بجرد هذه المجـوهرات أعضـاؤها كلهم من الضباط الأحرار ومن مجلس قيادة الثورة! حلو؟!»

قلت: «حلو».

قال: «مــجوهرات العائلة المالـكة هذه ليست لعبـة! ففيـها تحف وحلى وتماثيل وأشياء لـلاستعمال كـالملاعق والأطباق والصوانى والسـاعات والولاعـات كلهـا من الذهب والفضـة بعـضـهـا مطعم بالأحـجار الكريمـة كالدر واليـاقـوت والماس! وكل هذه المقتنيـات تخص العائلة المالكة من عهد محمد على حتى الملك فاروق! منها ما صنع خـصيـصـا بتكليف ومنــها مـا أهدى إلى أحد ملوك العـائلة ومعظمها نادر لا مثيل له فى الدنيـا! كلها أشياء لا تقدر بمال، كلها أشياء سلطانية خطيرة؛ حلو؟!»..

قلت: «حلو!».

قال: «يتقول المتقولون فى البلاد فى الغرف المغلقة والمنشورات السرية أن اللجنة التى جردت ووضعت اليد على المجوهرات لتنقلها إلى مكان يتحفظ عليها فيه حتى يحين الحين لوضعها فى المتاحف! هذه اللجنة قد تبجحت فى الجرد حبتين! كلهم بالطبع أبناء ناس فقراء فى الأصل! بعضهم طمع فى قرط ذهبى ثمين فسربه إلى جيبه لزوجه!! ومنهم من تحفظ على فرع من الألماظ بعدة أنوار فواراه فى حقيبة يده! ومنهم من طمع فى خواتم وساعات! ومنهم من لم يتمكن لخيبته أو حسن أخلاقه من هبر شىء فاسترضاه الآخرون بهدية تملأ العين! جملتهم أرادوا شراء ذمم بعضهم بعضا وذمم بعض كبار القوم ممن بأيديهم الحل والربط فأرسلوا لهم بعض الهدايا النادرة ذات التاريخ لكى يسكتوا عنهم إذا بدر بادر! ويقال إن بعض أبناء علية القوم ضبط فى أوربا يبيع ماسة أهدتها ملكة إيران ذات يوم لملكة مصر! حلو؟!»..

قلت: حلو».

قال: «محمد بك أبو شناف من بين أعضاء اللجنة! وقد اختلس لنفسه وكبار وجوه عائلته بعض التحف الثمينة ومن بينها ولاعة من الذهب الإبريز الخالص المطعمة بالدر والياقوت! وكان الملك فاروق قد تلقى هذه الولاعة من شاه إيران! وقيل إن الذى تلقاها أبوه الملك فؤاد! حلو؟!»..

قلت: «حلو!!!».

قال: « الطريف يا جدع أن مـحمد بك أبو شناف هو الذى يتكلم اليوم كثيرا عن مجوهرات العائلة المالكة! وعن الذين نهبوها! يفرح غاية الفرح عندمـا تظهر إشاعة عن أحـد اكتشفوا عنده شـيئا من مـجـوهرات العـائـلة المالكة! وبعض الناس الأكـابـر الذين كـانوا جالسـين على السطح ليلة قـوت القلوب وقد حـدثتك عنهم ليلتـها يقولون إن شـيوع الإشاعـات حول بعض الناس يبـعد الشبـهات والأنظار عن محمـد بك أبو شناف وإنه لهذا يقف وراء بعض هذه الشائعات! حلو؟!»..

قلت: «حلو!!!».

قـال: «مـحـمد بك أبـو شناف ينسى نفـسه دائمـا ويضع هذه الولاعة فى جـيبـه ليتبـاهى بها أمـام بعض الناس الذين يحب أن يثبت لهم أن له صلات وثيقة بالملوك والرؤساء وكل الناس الأبهة! حلو؟!»..

قلت: «حلو!!!».قال: «ومن شدة هبل مـحمد بك أبو شناف ومن شدة سطله عـلى الدوام جاء بالولاعة مـعه إلى حـفل عيد مـيلاد قوت القلوب ولصق بهـا أوقية حشيش ليـصنع بهما مصـيبة فى قلب الحفل! شف وسـاخة الرجل! على فكرة! كل الوسخـين دمهم خـفيف ولا أعـرف السـبب فى هذا! البنت قـوت القلوب مـسكينة وقلبها أبيض ومحرومة من حنان الأم ولـهذا ربنا ستر ليلتها فلم يشعـر أحد بشئ سـوى نفر قليل! الحـاج السنى وأنا! أصلى على

علاقة، طيبة بالحاج دون شلة النحس كلها! أنا الذى عـرفتهم به! إنه يحبنى جدا ولا يقـدر يستغنى عنى! يحبنى أكثـر من المرحومة زوجته! بصـراحة إنه يتعشقنى!! ههأو أو! يظننى علـى جوه! خير وبركة! أنا أيضا أتركه يتـحسس أثدائى على سبيل المزاح؛ يطبطب علي إليتى من باب العـشم! يكلمنى بصوت متـهدج! لكن على من؟ إنه يبـوح لى بأخطر الأسـرار! لو طلبت عـينه لنزعـها فى الحـال وسلمها لى! لكنه إذا كان ولدا صايـعا فأنا أصيع منه! إنه لم يجر عاريا وراء عربات الرش ولم يبت فى الخرابات مثلى ولم يتشعبط فى سلالم الترامواى بحثا عن قوته! ولهذا فأنا أعرف كيف أستفيد منه! إنه سهل وصعب فى نفس الوقت! إنه كـالمال العام يسيل بين يديك لكنك تدخل الـسجن إن ضـاعت منك قطرة واحـدة منه! وأنا التصق بالحاج السنى لكنى لا أتركه يدخلنى! فلو دخلنى أو دخلته ضاعت حـياتى! فى كل يوم أرى فيـه موعظة! هل تتخـيل أنه كان على علم بالمصيبة التى يدبرهـا محمد بك أبو شناف فى منزله فى حفل ابنته؟! أخشى أن لا تصدقـنى إذا قلت لك أن الحماس لإقامة الحفل لم يكن عيد ميلاد البنـت فحسب، بل من أجل إتمام المصيبة! تصور يا ولد يا أبا على أن الشـيخة سعادة هى الـتى شعرت بأن فى الحفل جوا غـير طبيعى! الواضح أنها شـقية من قطاع الطرق! أقطع ذراعى إن ما كانت من مطاريد الجبل! عندهـا خبرة وموهبة فى معـرفة رجال الشـرطة السريين تشم رائحـتهم عن بعـد فلما شعـرت بذلك انصرفت قبل أن تقـرأ بخت البنت وبخت محـمد بك أبو شناف! إنها مـوهوبة ولديها كتـاب عتيق عجـيب ملئ بالصور

الغريبة الملونة كأوراق اللعب لكن كل واحد من بنى آدم يجد نفسه بكل مشاكلها وأوجاعه ملخصا فى صورة من صوره التى تقرأها الشيخة سعادة كالبلبل! ظهرت حديثا وقد سمع بها محمد بك أبو شناف والحاج عن طريق ناس من أعيان أسيوط فطلباها عن طريق المحافظ الذى تحرى عن مكانها فبعث فى طلبها وأرسلها مع سائقه الخصوصى!! المهم يا أبا على أن مصيبة محمد بك أبو شناف حين فشلت ولا بد أن تكون الشيخة سعادة قد قرأت تعزيمة أفشلتها ـ عاد محمد بك أبو شناف إلى منزله وطلب الحاج السنى بالتليفون ليقول له إنه نسى ولاعته فى غرفة البرج! شف العهر يا جدع!!»..

قلت فى غيظ: «اسمع يا بسبوسة: أنا أخرق عين التخين؛ فأنا الذى عثرت على هذه الأمانة وذهبت من فورى إلى حيث يقعد محمد بك أبو شناف وحاشيته وألاديشه! وعرضت عليهم الولاعة! بل قلت له بصريح العبارة. يا سعادة البيه هذه الولاعة ضاعت منك؟ أتعرف ماذا فعل يا بسبوسة؟ وطربة أبى نظر لى كأننى لص هجم عليه يسرقه؛ فكيف تجىء أنت الآن وتقول إنه كلم الحاج فى التليفون؟ حاجة من اثنين يا بسبوسة: إما أنك تختلق هذا الكلام بعد أن علمت بالخبر ممن رأونى أعرض الأمانة على البيك؛ وإما أن البيك أبو شناف واسع الذمة وقد طمع فى الولاعة مدعيا أنها ولاعته!!»..

انفرط بسبوسة من شدة الضحك يا بوى حتى لم يعد قادرا على أن يلم نفسه من جديد، فخيل لى أن رأسه فى مكان ويداه فى

مكان وكل جزء من أجزاء جسمه فى مكان حتى صوته كان مبددا هو الآخر فى ضـحك تتخلله حـركات بذيئة وشـخر وغنج، وكنت أوشك أن أتبدد مـثله؛ لكننى صحت فـيه بغيظ: «أمـا تثبت يا ولد الفرطوس؟!» فمسح دموعه بكم جلبابه وصار يعتقل الضحك بقوة قائلا: «أنت أصلك صـعيدى قحف! ياله من منظر! ألم تفـهم معنى الورطة التى أوقعت فيها محـمد بك أبو شناف؟!» نورت لمبة كبيرة فى دمـاغى يا بوى فى ضـوئها رأيت الورطة التى أوقـعت فـيهـا الرجل، لوحت بأصبعى تجاه موطن عقلى كأننى أحييه على نزوله إلى منطقـة الضوء؛ قـلت ضاحكا: «نعم نعـم يا بو العم؛ أنا فعـلا أحـرجت الرجل يا بو العم إهئ هئ! صـاحبنا وقـعت منه سريقـة مشهـورة؛ فجئت أنا بسـلامة مخى التخـين لأردها له وسط جمع غفـير فى حفل كـبيـر! لم يكن! ينقصنى سـوى أن أقول له بالفم المليان: خذ يا سعادة البيه الولاعـة التى كنت سرقتها سيادتك من مجـوهرات العائلة المالكة! هئ! كـلانا مثل الصـعيـدى الذى سرق الكلوب المشتعل بالضوء وراح يختبئ به فى مكان مظلم!!»..

وصرت أخبط بكفى على ركبتى فى اتعـاظ واستحسان كأننى فهمت شيئا كبيـرا يا بوى، تحلف اليمين يا بوى أننى فرحت فرحا غامضا، عـلى أن الولد بسبوسة الملعون عاد يسـتأنف الضحك من جديد أقـوى مما كان، وأنا أشاركـه الضحك حينا وأكـتفى بالنظر إليه حـينا آخر فـإذا هو خلال اندمـاجه فى الضـحك يبعـبص لى بأصابعه فى الهواء؛ ثم أعتدل فى قـعدته فلمّ جسده وأتخذ مظهرا

جديا. وانحنى فوق الترابيزة وراح يفرك السجائر على ما تبقى من قطعة الحشيش، فيما يقول بلهجة حميمة: «أنت غشيم يا حسن وعلى نياتك!»: ثم أشعل السيجارة واستطرد:

ـ تظن أنك فهمت حقيقة المنظر! ولو عرفت الحقيقة لضربت رأسك فى الحائط من الدهشة والعجب! محمد بك أبو شناف طماع ولص كما تقول هذه ليست محتاجة لتفتيح مخ! هو يا حدق ليس يغتاظ إن جئت أنت بسلامة نية ورددت له الولاعة! إن وجهه والحمد لله مكشوف على الدوام لفحه هواء العهر والتبجح حتى انحرقت دماؤه وتكلست عضلاته مثل القدم الحافية إذا مشت على الأرض بغير حذاء مدة طويلة صنعت لنفسها حذاء بكعب صلب لو خرطته بسكين يلتوى السكين ولا ينفذ فيه! هكذا وجه محمد بك أبو شناف! إننى أخدمه فى قعدات كثيرة من سنوات بعيدة عند الحاج السنى وغيره! كما قدر لى أن أعرفه منذ طفولتى قبل قيام الثورة حيث كان أبو شناف هذا يعمل فى مهن كثيرة! فمرة كان ضابطا فى الجيش المصرى ورفدوه! وقالوا إنه جاسوس ألمانى فاضطهدوه! أول ما تعرفت عليه كنت أسقيه الحشيش فى دورة فى مدينة السويس! كنت طفلا صغيرا وكان هو سواق عربة نقل كاميون مع شلة من السواقين زبائن المطرح! إننى من السويس كما تعرف ولم أستوطن هنا إلا أثناء الهجرة! الحكومة عينتنى فى الحكومة نظرا للظروف المؤلمة التى عشناها فى السويس! حيث فقدنا بيوتنا وإخوتنا وآباءنا وأمهاتنا وعقارنا وذكرياتنا وكل شئ

وأنزرعنا فى أماكن أخرى! ثانى مـرة تعرفت فيها على مـحمد بك أبو شناف اتضح لى أنه فى الأصل عـتال شغلتـه تحمـيل عربات النقل بالبـضائع والمنقولات ثالـث مرة كنت أسقـيه الحـشيش فى فيـلا فى مصر الجـديدة يملكها رجل كان أعلى رتبـة فى الحرس الملكى حيث كانت أمى تعمل دادة ومربية فى بيته فكنا أنا وإخوتى ننتهز الفرصة لنجد لأنفـسنا أعمالا فى البيت وسط العز والنغنغة! اتضح لى فى هذه المرة الثالثة أنه ضابط فى الجـيش حيث قد عاد إليه بعـد رفده. ثم بعد ذلك صـرت التقيه فـى أماكن كثيـرة فعن طريق صـاحب الفيـلا وخدمـتى لأصـدقائه وزواره تعـرفت على أجواء كـثيرة مـدهشة وانفتـحت لى بوابات لو دخلتهـا أنت لتهت فيها! من حسن حظى أننى رأيت ناسا كـثيرين قيل لى همسا إنهم من الضـباط الأحـرار لكن العـجـيب أننى كنت أرى الواحـد منهم واحديـن: أحدهمـا ضابط وهذا مـا لا أراه أبدا والآخر مـقاول أو تاجر تحف نادرة أو صـاحب محلات وإقطاعيـات وعزب! تعودت الا أندهش من أى شئ! تعودت كذلك الا أصدق القانون إلا إن كان فى مصلحتى! لم أعد أخدم الحكومـة وإن كنت أقبض منها ماهية! فآخـرة خدمة الغز علقـة! أنا أخدم نفسى أولا ثم أعطى مـا فاض منى للحكومة!! إذا كانـت الحكومة كلها غارقة لأذنيـها فى الفسق والعشق والعهـر فبأى وجه أروح لأقبض على بغى تعيسة الحظ ليس وراءها أو قدامها مـعين ولا سند؟ يا بخت من نفع واستنفع! أنا بصـراحة أجىء فى صف الناس فـأحذرهم من الحكومـة وهم فى المقابل يكافئونى بالحب والإغداق!!»..

وشد السيجارة من شفتيه وقدمها لى وقد احمرت عينه وانزرد وجهه، وبدا أن الحشيشة اللعينة قد سرحت بمخه فشردته وبعثرته فى كل مكان فصار يلقى ببقع من الضوء المشع فى مناطق متعددة من الأمور والنواحى، ولما شفطت النفيسات المتبقية فى السيجارة حتى الذبالة وتعشش الدخان فى جبهتى تذكرت أن أمر محمد بك أبو شناف لم ينته بعد، وأن الولد بسبوسة قد سرح بى وبعثر مخى أنا الآخر فى مكان ألقى عليه لمعة ضوء هذا ولد ساحر يا أبوى. هذا سويسى عريق كان يجب أن أعرف سويسيته قبل أن ينطقها يا بوى لكنى كنت مبسوطا ومشعشعا إلى حد بهيج يا خال؛ حتى فكرت فى التنازل عن قطعة حشيش أخرى تشعلل بها هذه الحالة التى صرناها؛ لولا أننى نظرت فالتقيت التعميرة قائمة ما تزال على الترابيزة بين بقايا ورق البافرة ونثارات الدخان مثل بلية كبيرة مزلطة لامعة كالمدهونة بالزيت. لافانى العكروت سيجارة ملفوفة، سحبت عدة أنفاس متلاحقة كتمت دخانها فى منخرى تاركا القليل منه يتسرب كأننى أجلو مخى من الداخل بالليفة الخشنة وقلت وأنا أرد له السيجارة متوهجة:

- « فتحت لى موال محمد بك أبو شناف فلم تتمه؛ أنت حين شرعت تتكلم أوهمتنى أنك ستقول شيئا عن محمد بك أبو شناف يبعد عن مداركى ومفهوميتى! ثم نسيت موضوع محمد بك أبو شناف وحكيت لى قصة حياتك!! أعرف أن التعميرة جيدة تسرح بالدماغ لكننى متفطن ما أزال!»..

فلمع الذكاء الحاد فى عينيه كبرق الشمس، فعاجلته قبل أن يسرح ثانية: «وقلت لى إن محمد بك أبو شناف دبر مصيبة فى الحفل ولم تقل لى ما هى هذه المصيبة والعياذ بالله!!» فخبا بريق الشمس تحت جفنيه وهو يغلقهما فى نشوة جذب الأنفاس؛ ثم قدم لى بقية السيجارة وقد ميل رأسه على كفيه تاركا سحب الدخان تهدر على صدره؛ ورفع رأسه قائلا من خلال أنف مزدحمة بالمخاط:

ـ «الأمر باختصار أن الورطة التى وقع فيها محمد بك أبو شناف كانت معقدة! لا أنت ولا غيرك لو كان جنا مصورا يستطيع أن يفهمها! محمد بك أبو شناف كان يريد أن يدس الولاعة مع قطعة الحشيش على واحد من الأفنديين اللذين كانا يتوليان السقيا قبل حضورنا! الأفندى الذى كان ممسكا بالجوزة! إنه ضابط مخابرات ويقال إنه ذو منصب مهم فى تنظيم لم نسمع به من قبل اسمه التنظيم الطليعى من داخل الاتحاد الاشتراكى كما أفهمنى الحاج السنى! يكرهه محمد بك أبو شناف لاعتقاده أنه مدسوس عليه لكتابة التقارير عنه والتسجيل له إن أمكن! ومحمد بك أبو شناف يقربه منه ليمص سمومه ويتمكن فى نفس الوقت من قطم رقبته!! تشاء الصدفة أننى حين نزلت بعدك من غرفة البرج العلوى اصطدمت فى زحام الحفل بهذين الأفنديين جالسين بين جمع من الفنيات المهلبية يسكرون ويدخنون السجائر الملفوفة والدنيا زئيط وكل واحد فى حاله؛ الأفنديان كانا يضحكان بعمق

ويشـــخران! توقـفت خلفهـما لعلنى أســتلقط من حديثــهمــا بعض الأخبــار عن البنات اللائى يجلسن معــهما خــاصة أن شكلهن ممن يقمن بأعمال لصالح المخــابرات! وكنت أرسـم على نفسـى هيئة من يقف رهن الإشارة لأداء الخـدمات باعتبارى من أهــل الحفل! فإذا بى أفهم مــوضوع حديثــهم وسخريتــهم! حكى الأفندى الذى كان ممسكا بالجـوزة أنه ضبط مــحـمد بك أبو شناف يســرب يده فى الخفاء ويسقط فى جيبه الولاعــة وقطعة الحشيش! فأحس بالذعر والرعشة خاصة أنه كــان علم من طرف خفى أن شيئاً يدبر له فى الخفاء! أيقن أن البــوليس واقف يترصده على عتـبة الباب لكنه مع ذلك لم يجرؤ على صنع فضيحة مزعجة فى الحفل! ولو أنه صاح ولفت الأنظار فـسوف يزعم مـحـمد أبو شناف بكل بـساطة أنه لا يعــرف شيــئـا عن الموضوع؛ مـا صــدق صاحـبنا أن نحـيناه عن الجـوزة حتى جلس مــتربــعا على الشلتــة وبصنعــة لطافة أخــرج المصيبــة من جيبه وصار يحــركها بيده خلسة حــتى حشرها بين المسند والشلتة خلف ظهر محمد بك أبو شناف مباشرة!!»..

تحلف اليمين يا خــال أننى شعرت كأن تركيبة الدنـيا كلها قد تفككت ولم يعـد فيــها ضلع يمــسك بالآخر، والهــواء يصفــر بين الشروخ صــفيــرا مرعدا مــزلزلا، أفى الحيــاة نحن يا بوى أم فى جهنم حمراء اللون كالدم؟ لابد يا خال أن محمد بك أبو شناف هو أحد الزبانية، أو لعله إبليس نفسه، ويبــدو أن منظرى كان متجمدا على الذهول كأننى انســخطت حجرا بملامح مـقفولة.. فــها هو ذا

الولد بسبوسة يغرق فى ضحك ماجن لبرهة طويلة فيما يشوح نحوى بيده فى غمز انعقد دماغى لبرهة أطول فشعرت كأنه يستجمع كل إدارته ومندوبيه ومراكزه ليعقد اجتماعا طارئا يدلى فيها كل بدلوه فى هذه الكارثة الكونية المسماة بمحمد بك أبو شناف إنه آفة من آفات الزمن وأسخم من الحاج السنى بطوفين، دماغى يا خال صار مزدحما بالخلق وبالأخذ والرد والغاغة والضجيج، ولحظة أن أوشك كيس دماغى يتفرتك ويضيع كل ما فيه سدى، طقت الفكرة فى رأسى. فوجدتنى أصيح فى بسبوسة واضعا ساقا على ساق: «لكن من الذى أخبرك يا حلو أن محمد بك أبو شناف كلم الحاج السنى فى التليفون ليخبره بأمر الولاعة؟!» نظر إلىّ الولد فى استهانة شديدة وشوح بجوار رأسه علامة على ضياع مخى، وقال: «تقولوا طور يقول احلبوه!». ثم انفجر ضاحكا وراح يمسح دموعه:

ـ «.. على كل حال الحاج السنى قلب عليك الدنيا! وأنت من يوم الحفل لم تره وجهك رغم أنه أوصاك بالمجىء! هو على فكرة مقتنع ببراءتك ومقتنع أيضا أن الولاعة فى جيبه لأنه واثق أنك لن تستطيع التصرف فيها بأى شكل!»..

وكان قد برم آخر سيجارة وقدمها لى لأفتتح اشعالها قائلا فى جدية كبيرة: «نشرب هذه السيجارة ونتكل على الله إلى عمك الحاج قلت فيما أجذب الأنفاس مغمض العينين: «وماله!» ثم سلمته السيجارة فعلقها بين أصبعيه حتى تسترد أنفاسها قائلا:

«لا تنس أن تجئ بالولاعة معك!». ولم استرح للهجته فى قول هذه الكلمة يا بوى. شئ فيها نخسنى كالدبابيس الدقيقة وقال صوت فى دماغى: إياك أن تذهب معه الأن يا حسن فأنت لو ذهبت معه الأن على هذه الصورة فسيظهر للحاج السنى أن بسبوسة هو الذى قبض عليك وجاء بك، ولربما تبجح بسبوسة وغمز للحاج بأنه لولا همته ما رأى الحاج وجهك، وجدتنى أرد على هذا الصوت: باه! أهطل أنا يا بوى؟ ولاد المدينة القحباء يستغفلون الصعايدة؟! كيف يا بوى؟!.. ثم قلت لبسبوسة بلهجة خشنة: «اسمع يا بسبوسة يا صاحبى! أنا أثبت نيتى وأمانتى! والأمانة فى الحفظ والصون! ولكن إذا تصورت أننى يمكن أن أذهب معك الآن يكون تصورك كعشم أبليس فى الجنة؛ أنا كنت سأذهب إلى الحاج تلقاء نفسى يا بو العم! لست منتظرا أن يأخذنى أحد من يدى ليسلمنى إلى الحاج! أم أنك تريد أن تصغرنى أمام الناس يا بسبوسة يا خوى؟ شف يا بو العم! إذا ما كان الحاج قد استغيبنى فوالله ثلاثة ما فضيت أهرش! اذهب أنت وسأكون فى عقبيك بعد نصف ساعة!».

رأيت الزعل الحقيقى ظاهرا فى عينيه؛ فصعب على والله يا خال فطيبت خاطره بأن أريته الولاعة. طارت عينه كالنسر وانقضت على الولاعة بركت فوقها جاحظة منبهرة منذهلة: «يا ابن الكا.. ل.. ب! جوهرة ثمينه لا تقدر بثمن!» وقبض عليها فى الحال بيديه فانضغط قلبى. صار يقلبها بتمعن يرسل اللعن

والاستحسان لدقائق طويلة كانت على شكل علبة مستطيلة مبططة تخينة تحوطها اللآلئ من جميع الأنحاء على أرض من الذهب البندقى الأحمر اللمع وكنت قد عالجت فتحها برفق حتى عرفت كيف يقدح زنادها، وإنه لعجيبة من العجائب يا خال فكل ما عليك أن ترفع غطاءها، ولكن عليك الأول أن تعرف أين غطاؤها، إذ أنه مندمج فيها سائح عليها وليس من خط فاصل يشير إلى الغطاء، فالصبر مع الشد والجذب فى كل أضلاعها إذا بالغطاء شريحة رقيقة فى تخن قطعة الشكلاطة، لا بس فى بدن الولاعة بأوصال خفية؛ ما إن تجذبه إلى أعلى حتى ترى الشعلة واقفة مزنهرة كأنها كانت قاعدة تحت الغطاء صاحية فإذ ينجاب عنها الغطاء تهب واقفة كجن الخاتم السحرى قائلة: لبيك ولقد ظلت ليلتذاك بطولها يا خال أفرج عن الشعلة ثم أغطيها حتى أحرقت خرطوشة سجائر، فلماكشفت سر اللعبة لبسبوسة ظل هو الآخر يفعلها بغير توان كأنه اكتشف سلوى جديدة رائعة صحت فيه: «احذر أن تفسدها يا بو العم أو ينفد ما لابد فى جوفها من غاز وحجارة! خير لنا أن نسلمها سليمة من كل عيب يا بسبوسة يا خوى!». وشفعت ذلك، بصنعة لطافة، بأن دحلبت يدى فقبضت على الولاعة وتاويتها فى جيبى، ثم ما لبثت حتى قمت إلى حجرة النوم فواريتها فى مكانها الخفى وعدت إلى بسبوسة، لأراه شاردا سابحا فى ملكوت الله ياخال..

جلست قبالته واضعا يدى على ركبتى كأننى أستحثه على النهوض لمغادرتى لكنه أشعل سيجارة وقال:

ـ « هذه بالفعل هدية ثمينة! ثمنها يعدينا جميعا من الفقر شرط أن تباع خارج البـلاد!! على فكرة! أنا أعرف عددا كبـيرا من تجار الآثار والعاديات بعـضـهم ذوو أسماء كـبيرة فى شغل الصـحافة ممن يسافرون كل يوم إلى بلد! جيوبهم عمرانة بالورق الثقيل! هم رجال بمعنى الكلمة! وخبراء يعرفون كيف يتصرفون فى مثل هذه الهـدايا الأثرية الثـمـينـة ! ولا يجىء من ورائهم لـبط! إذا أنهم يعرفـون طرق الأشياء!! يعـرفون من الذى تنقصـه هذه الهدية أو تلك فيذهبـون بها إليه فى خطة مدروسة يبتـزون بها ما يشاءون من قواه المادية! والأشيـاء تتسرب إلى من تليق بهم ويليـقون بها! بصرف النظر عن مصدرها! فلن يسألك أحد من أين جئت بها! ولا يعنيه هذا! كل ما فى الأمر أن شخصية البائع هى التى تحدد قيمة الشىء ومستواه! فلو ذهبت أنت مثلا أيها الصـعيدى القفل لبيعها فلربما طلبوا لك البوليس! غـيرك ربما أعطوه فيها بضعـة جنيهات وصرفـوه! وهناك من يعجز نهـائيا عن بيعهـا مهمـا كان مفتـحا! وهناك من يستطيـع بيعها فى غـيبتـها بالسعـر الذى يشاء! المهم الشخصـية! والشخصـية تكشف الشخصـية! يعنى لا أنت ولا أنا نستطيع الادعـاء بأننا شخصيـات مهمة! فـالحوائط التى سننطح فيها ستضحك من صراخنا بعد أول نطحة!!»..

طب مـا قـولك يا خـال أن ولد الفـرطوس قـد أثر على؟ تحلف اليـمـين إنه إبليس ونجح فـى الدخـول فى نخـاشـيـشى! لكننى انتـفضت فـجـأة ثم صحت: «أعـوذ بالله من الشـيطان الرجـيم!»

فضحك ولد الفرطوس، وأخرج من جيبه قطعة حشيش! اتضح لى فى الحال أنه كان قد خنصرها خلسة من حشيشتى وسربها إلى جيبه، ثم شرع يفركها على دخان السيجارة قائلا: «دع المشيخة الآن بحق النبى!» صحت فيه مازحا: «تريد وضعنا فى تأبيدة يا بسبوسة؟!» وشوح قائلا: «على فكرة أنا استطيع تخليصك كخروج الشعرة من العجين! أنت أصلا فى السليم! ألم تذهب بها إلى محمد بك أبو شناف وتعرضها عليه؟! إذن فقد أصبح معروفا للجميع أنك كنت تبحث عن صاحب ولاعة ضائعة!». ثم أستطرد: «سيسألك الحاج السنى: أين الولاعة التى عثرت عليها فى غرفة البرج يا حسن؟ تقول له بكل بساطة دون أى خوف: أخذها صاحبها يا حاج! صاحبها؟ صاحبها من يا ولد؟ هكذا سيقول لك! فتقول له: بينما كنت أعرضها قائلا يا من ضاع منه شئ ظهر لى أفندى فقال أنها ولاعته فأعطيتها له! سيجيئون لك بالأفندية يعرضونهم عليك! وأنت تستهبل! تزعم أن الأفندى ليس بينهم! فيعرفوا أنك وقعت ضحية نصاب! وأنا الذى سأتولى توزيع الأمانة فى السر ولا من شاف ولا من درى! فماذا قلت؟!»..

ولد الفرطوس لم يكن يمزح يا خال. تحلف اليمين أننى سمرت عينى فى عينيه بحثا عن ظل المزاح فلم أجد، ووجدت يا خال أن ما يشفى غليلى فيه أن أقوم فأضربه حتى يتخرشم ولا يعود يفاتحنى فى مثل هذا الأمر ثانية: لكننى اكتفيت بأن قلت له: كلها مسائل عفنانة يا بسبوسة يا خوى!»، فبعبص الهواء قائلا فى استخفاف وزراية:

ـ « خـذ!! إن ثمنها كـمـا قلت لك يعيـدنا من الفـقر فى خـبطة واحدة! إن ثمنها ليس ثمن ما فيها من ذهب حر! ولا ثمن الأحجار الكريمة من زمرد وياقوت وماس! ولا ثـمن الآلة الدقيقة الموجودة فى داخلها كل ذلك له ثمن أى نعم! ولكن لا تنس أنها منسّبة! ولها تاريخ وأصل وفصل! وهذا له ثمن كبيـر! إننا يمكن أن نخبط فيها فوق العشرين ألفا! والتاجر يمكن أن يخبط فيها مائة ألف بالراحة! أنا أعـرف رجـلا من زبائن الحاج يـدفع لنا فيـهـا مـثل هذاالمبلغ وأضمن أنه لا يأتى بسيرتنا فـى أى حديث! إنه دائما يوصينى إن وقعت فى يدى مثل هذه التحف أن أخش بها عليه مباشرة!!»..

قلت وقد بدأت أرتعش خوف الوقوع فى الموافـقة:» ربنا يغنيها بالحـلال ياولـد الفـرطوس! حل عنى يـا شـيطان المدينة يـا غليظ القلب! مـا كنت أظنك واعـرا هكذا!!» فـقـال بحـمـاس شـديد: «يا صعـيدى يا وجـه النحس! إن رجال الثورة الذيـن توزعوا فى كل مكان نهبـوا البلاد وباعـوا ما قدروا عـلى نهبه! الآثار يبـيعـونها! مجوهـرات العائلة المالكة يتصرفـون فيها على راحـتهم وكل يوم تظهر قطعة منها فى مكان مـا من العالم!! ولا أحد يحقق مع أحد! هذه فرصتنا الكبرى؛ ومحـمد بك أبو شناف لن يستطيع أن يفعل معك أى شئ! والبوليس إن تابعك فسـيعرف أنك لا شـأن لك إذ أنا المسئول فما خوفك؟!»..

سلطت عليه نظرة ثاقبة ذات مـعنى وقلت له: «بسبوسة! أتتكلم الجد أم تمزح؟! أم لعلك تريد الإيقاع بى فى شر أعمالى؟!».

قال بسبوسة: «أتكلم الجـد طبعا! ولابد أن تطاوعني الآن! فمن يدريك أن الحاج السنى أو محمد بك أبو شناف لم يبلغ الشرطة؟! وقـد أخـرج من هنا فـيطب عليك البـوليس من هنا ليـأخـذك بهـا متلبسا؟!» آلمتنى هذه الغمزة يا بوى، شعرت أنه يلوح مهددا بشئ كالذى قـاله؛ فتضايقت منـه يا خال، وأسرعت قائلا: «قـبل مجىء البوليس تكون هذه الأمانة فى جيب صاحـبها! وأحسن شئ تفعله الآن أن تتفضل من غير مطرود! فإن ورائى مشوارا مهما سأفعله قـبل ذهابى إلى الحـاج، ونهـضت، فـنهض على مـضض شـديد، ومضيـت أمامه نحو البـاب، فمضى فى تثاقل يكاد الغـيظ يفريه: «مع السلامـة يا بسبوسـة! أشوفك عند الحـاج بعد ساعـة واحدة «ومددت يدى أسـلم عليه، فـمد يدا باردة متـراخيـة؛ ظل ينظر لى برهة طويلة، ثم لوى شفتيه مشمئزا وانصرف، أغلقت الباب خلفه ونظرت من العين السـحرية فرأيـته يطرق باب الجيـران فانتظرت حتـى انفتح البـاب وزرق هو إلى الداخل، فخـرجت متـسللا على أطراف أصـابعى كى أسـبقـه إلـى دار الحـاج السنى ؛ فـإذا بى اصطدم بسنيـورة تبارك الخـلاق فيمـا خلق، تفوح منهـا العطور الفاضحة وينكسب الجمال على كعبيـها وردفيها وخصرها وعنقها ووجهـها وجدائل شعـرها الأسود الفاحم، المصـيبة العظيمـة أنها قالـت لى: «أتصبح بالخـير يا حـسن!»، فكأن الدنيا بذاتهـا نطقت باسمى على نـغم القيثـار، وإذا أنا كطفل غرير أندفع صـائحا: «يا مـيت صبـاح النور! أهلا ثم نـزلت السلم أكـاد أتعثـر فى خـجلى وحيرتى فيما هى تلوح لى بيدها مودعة.

يا مثبت العقل فى الدماغ يا رب؛ فالحاج السنى قد زعزع كل أبراج عقلى يا بوى ـ أقصد يا رب ـ وقد طيرها برجا وراء الآخر، إنه متخصص فى سرقة كله من كل أبراجى أنا الآخر، أقصد كل الأفكار فلا تعود إلى ثانية إذ تكون قد ولفت على أبراجه الشامخة التى تجتذب حمام البلاد كلها فإذا هى تولف عليها فلا تعود إلى أصحابها، حتى الحمام النادر الذى يبيعه للغاوين إليه ثانية، الحمام ليس عبيطا يا بوى! كيف يكون عبيطا وهو يرجع إلى مسكنه الأصلى فى وطنه مهما طالت به الأميال أو احتجزته الصحارى والوديان بأسرع مما يتخيل البشر؟ البنى آدم منا قد يتوه عن داره إذا شرب حجرين زيادة أو جرع قرعة بوظة، أما الحمام فلا يغترب أبدا، لابد أن يعود إلى بنانيه فى المساء كما يعود الفلاح بمواشيه إلى داره، تخيل يا بوى أن هذا الحمام يفهم مثلنا فى أمور الحياة، فمثلنا يكره الفقر يهفو إلى العز والنغنغة والعش اللين الطرى، طبعا يا خال، كل الطيور تصنع عشها بنفسها وتتفنن فى صنعه ولا أجدع مهندس، إلا الحمام فإنه من فرط الدلال والكبرياء الخارق يترك أمر عشه لمن يقع فى هواه لمن يغواه، متقنزح آخر قنزحة على قدر الهوى تكون الغية، والغية فى خيال الحمام قصر بلا حدود، وطيرك الذى يولف على غيرك منشؤه الحمام، والحمام سيد من يولف، إنه يموت فى الجماعة يا خال، كلما تزايد فى تجمع مهيب سعى كل فرد للانضمام إليه والالتحام به فى فخامة وشرف ليذهب به الركب الحافل المهيب إلى حيث تشاء طلائعه المتقدمة فى اختراق وشموخ وثقة إلى

هدف لاشك معلوم، إلى مسكن وديع أمين أليف بكثرة الجماعة يملأه بالهديل والغزل حتى يتكاثر ويتكاثر يصير نقوشاً ملائكية فى خيمة السماء. ما حيلة الأبراج الخربة إذا كان الحمام يهفو إلى العز وعزه فى التكاثر والتكاثر دينه وديدنه؟! لابد أن الحاج السنى فيه شئ لله لمس به أبراجه العالية هذه حتى أغرى حمام البر كله بالسكن فيها؟!

اقتادنى خادم إلى بناية بعيدة خلف الدار الكبيرة كأنها ضريح الحسين مضروباً فى عشرين ضعفاً. قل يا بوى إنه مجمع أضرحة فخيمة المنظر ترتفع قبابها وتضيق شيئًا فشيئًا حتى تصير كالمئذنة تشق السحاب، تطل على حوش واسع دائرى، والأبراج والأضرحة ملتحمة كلها ببعضها وإن استقل كل واحد منها مجسداً بكل أضلاعه، فلما صرت فى قلب هذا الحوش خيل لى أننى فى قلب برج هائل خرافى وإذ رفعت رأسى إلى أعلى شعرت بدوخة عظيمة وخيل لى أننى غاطس فى قلب الأرض إلى أعماق بعيدة. عدلت نفسى متطوحاً أتساند على الهواء فرأيتنى وحدى وقد اختفى الخادم شعرت بخوف مفاجئ يا خال، داهمنى شعور كالذى يعترى من يجد نفسه فجأة فى قلب مقبرة. كانت الأبراج السبعة الملتحمة ببعضها فى دائرة محكمة حول نفسها قد دورت لنفسها سقفاً من السماء على قدها، تلقى على فراغ الحوش آلافاً من العيون المفنجلة فى صفوف دائرية من الأرض إلى السقف لا تنتهى، ورمادية، تفصل بينها وبين بعضها شرائح من

الجدران الـبيضـاء كأنهـا الجفـون التى توشك أن تنسـدل. ما إن يسود الهدوء الـساكن برهة إلا وتشرخه انطلاقـة فرخ من إحدى العيـون كرصاصة مـدفع، فى الحال يتبعـه فرخ آخر، سرعـان ما تستجيب لندائهـما أفراخ أخرى كثيرة تندفع من العيـون السامقة، ليلتـئم شمل الجـماعـة على ناصيـة الهواء المتـتاخم. ولقـد يؤدى رقصة سريعة خاطفـة، تتقارب الرءوس تتشاور لتنسلك فى رحلة بعيدة، فيعم الهدوء لبرهة تبدو من عمقها دهراً.

ـ « أنت يا.. هوه! ماذا تفعل عندك؟ مـا وقوفك كاللوح؟!».. كان الخادم واقفا فى باب صغير قمىء. صحت فيه:

ـ « أين أنت يا جدع؟ لقد اختفيت من أمامى!»..

أشار خلفه إلى عمق الباب:

ـ « قلت إنك تريد لقاء الحاج! هـا هو ذا الحاج ينتظرك فادخل» هرولت نحوه، فإذا بالباب الذى كان يبـدو من بعيد كباب الخن قد اسـتطال، وإذا هو باب أحـد الأبراج، وإذا هو من الـداخل دائرة كبـيرة تطل عـلى حوش مثـل الذى كنت واقفـا فيـه؛ وإذا جدران دائرية كلهـا عـيون لا حـصـر لها من الأرض صـعـدا إلى عنان السـماء، وقضـبان حـديدية تنتظم بعـضها الـبعض فى صـفوف متجاورة متقابلة متعاكسة معا تتصل بقضبان عمودية غاطسة فى الأرض تتفرع منها دوائر حديدية بشباك نحو العلو الشاهق بحيث يستطيع أى إنسان أن يصعد بكل راحـة وسلام وأمان لتتمكن يده من الدخول فى العين للحصيد، حصيد الفراخ أو زبل الحمام الذى

هو أغلى من الفراخ نفسها عند من يسمدون به أراضى البطيخ، هذه مملكة أخرى يا بوى ولسوف أنقلها عن الحاج أحمد نور الدين السنى..

كان مندمجا بنفسه فى تنظيف الأعين، وملاعبة الحمام وإغرائه بالمجىء إليه ناثرا أمامه بعض حبوب الدنيبة، إذ هو يعرف أن الحمام يتكفل بكسب قوته بعرق جبينه حيث يسعى إليه زرافات زرافات ولو فى أقاصى الأرض البعيدة قال حين رآنى تسمرت فى مكانى كالأبله منذهلا بإمبراطورية الحمام هذه:

ـ « أين كنت يا ولد يا عكروت؟! لم نرك من زمن!»..

ـ « مشاغل والله يا حاج!».

ـ « آأمر! أى خدمة؟!».

ـ « آأمر أنت يا حاج! ألست تسأل عنى؟!»

ـ « أسأل عنك فى كل وقت! ولكن ما الذى فكرك بى الآن؟!»

ـ « فرغت من انشغالى فجئت!».

قال كأنه يطردنى بصنعة لطافة:

ـ « شرفت وانست! *لكنى الآن مشغول كما ترى!* على كل حال سأفرغ من هذه المشغولية بعد غد فى مدخل الليل! فحاول أن تجىء! لك الآن أن تشرب الشاى فى استراحة البوابة الكبيرة أو تتغدى إن أحببت! اطلب من الولد ما تشاء فى سبيل أن تعذرنى على *انشغالى عنك الآن!!»*..

- « تشكر! تشكر! لا شاى ولا غيره! كنت أحب أن أكلمك كلمتين!». كوم زبل الحمام بسيف كفه:

- « لك أن تكلمنى بدل الكلمة عشرا ولكن بعد غد!».

ثم نفض كفيه فى بعضهما ومد يمناه ليسلم على، إه، أهلا وسهلا، سلمت عليه وانصرفت مدعيا العبط كما قد بدا أنه يدعيه على لكنى قلبى لم يطاوعنى، فارتددت إليه مقدما له الولاعة الأثرية، فإذا هو ينظر إليها فى دهشة قائلا: « ما هذه يا عكروت؟!» نفضتنى رعشة باردة: «هذه هى الولاعة التى ضاعت من محمد بك أبو شناف!» قال الثعلب: « وما شأنى أنا بها؟! قلت: لكى تعطيها له لأنه يبحث عنها!» نظر فى عينى: أين وجدتها؟!» قلت: « فى حجرة البرج عندك يا حاج!» قال: « إذن فخلها معك حتى تسلمها له بنفسك! أنا لا أقبل حفظها عندى لأنها مسئولية! أنت الذى وجدتها وعليك أن تسلمها له يدا بيد!!» أغرقتنى الحيرة: «لكنك بعثت فى طلبها يا حاج!» قال الثعلب: «إنما طلبت رؤيتك فحسب! ولم تجئ سيرة الولاعة أبدا! الولد بسبوسة لعب بعقلك! عل كل حال تعال بعد غد وسترى محمد بك أبو شناف بنفسه!!».

فانصرفت يا خال وأنا من الحيرة فى بلبلة

تمتإلى اللقاء مع الكتاب الثالث من سيرة الأمالى

(وثالثنا الورق)

وثالثنا الورق

تطبيـق

تحلف اليـمين يابوى أن الولد هليل قـد ارتاع حين رآنى فـجأة أمامـه على غيـر انتظار بعد غيـبة طويلة عن البلـدة وفى حالة من التقمش والقنزحة فشر سعادة الباشا النحاس فى عز مجده..

بالحضن يابو العم. فى كلمات قليلة فهم أننى قد اغتنيت صرت من وجوه القوم أسكن على كورنيش النيل مثلـى مثل كبراء مصر، وأننى بعـون الله وفضل من الشيـخة سـعادة قد تبـت عن كل ما يغضب الله. قـال بشىء من الخبث إنه لا يعرف الـشيخة سـعادة هذه ولم يسمع بها من قبل. فلما أخبرته أنها من أسيوط ومعروفة لكبراء البلد نظر لى فى حسد مصـطنع وطلب منى أن أعرفه عليها بحق الأخـوية. ومع أننى لا أعرف عنوانهـا فإنى قلت لـه: إن شاء الله سنصل إليـها معـا إذ أنها لابد أن تبارك مـشاريعى التـجارية التى أنوى إقامتها هنا أو فى مصر..

على أن الارتياع أفـقده توازنه وجعله يضرب كـفا على كف لما حكيت له عـما انـتويتـه فى زيارتى هذه المفـاجئـة للبلدة مـحمـلا بالهدايا من كل لون قلبك يحبه..

ـ «هيه أتريد أن تخطب البنت حنة يا بو العم؟! كلام كالعسل!».

استشعرت فى كلامه نبرة الهزء والاستهجان. كنا نجلس وحدنا فى قاعته المنفصلة وحدها فى جوف الدار مطلة على حوش الدجاج والبط والأوز والأرانب، والمنفتح على السماء مباشرة. فتحنا الشباك الذى يبص على الحوش فهبطت السماء على فتحة الشباك كالخيمة الرمادية يضىء من خلفه فانوس نرى رسمه وضوءه المحجوب خلف الخيمة وذلك كان قرص الشمس الذى لم يكن ميعاد رواحه قد حان بعد؛ مما جعل الأمر يبدو وكأن فى الأمر ثمة مؤامرة غامضة..

وجه هليل نفسه كان هكذا يابوى: فانوس الحق والعدل فى موافقته على ما انتويته يضىء خلف قماشة وجهه الرهيفة لكنه يظهر كما لو أنه جاء بقماش الخيم المشمع السميك فطرحه على وجهه ليطفئ به فانوس الحق. لكننى على ضوء هذا الفانوس الذى استمر يضىء خلف سحابة ظلماء مربدة فى عينى هليل. رحت أحكى عما سأفعله بكل صدق وحرارة؛ فيما هو فاغراً فاه من الدهشة لا ينطق. فلما رآنى قد أنهيت كل ما عندى من كلام هب واقفا؛ سحبنى من يدى:

ـ «قم بنا».

فى صوته خشونة تشى بكثير من الوعيد والتهديد، قلت وأنا متشبث بمكانى:

ـ «دعنا هنا فى أمان الله ياخوى!».

أمسكنى من قفـاى، علامة على شدة استـحقاره لى مع الإنذار بأنه لن يعرف الأدب معـى هذه الليلة بل ربما ضربنى. نعم يابوى هذا ما تـوقعتـه؛ ففى سـبيل مـصلحتى يمكن أن يتـجنن. من هنا حـرصت على أن يتم الكلام والتـشاور ها هـنا فى أمان الله بسـر هادئ بعيـدا عن الذى يسوى والذى لا يسوى، لـكن يظهر يابوى أن قرص الشـمس الأحمر عدل عن الرواح وسـكن فى عينى هليل فصارتا تفحان لهبًا وشـرراً حتى لقد خفت منه والله يابوى فقمت معه فى الحال متمتما.

ـ «اللهم اجعله خيرًا!».

فإذا به يلطمنى بطـرف عباءته الجوخ التى كـان يلفها لحظتـئذ حول كـتفيـه؛ فلم أدر ـ من عنفها ـ أكـان يقصدها أم أنهـا جاءت عفـوا لوقوفى فى طريقها؟ إلا أنه لم يـعتذر ولم يعبـأ بعينى التى دمعت من لسعة اللطمة..

قلبى حدثنى يابوى بأن الأمر فيه شىء غـير طبيعى جعل هليل ينقلب هكذا فجأة فيقع فى حمأة الغضب لهذا الحد. ثم إننى فكرت يابوى: إذا أنا مـشيت مـع سلامـة نيتى بـأنه زعلان على شـانى فالإنسـان لا يزعل على الواحد أكثـر من نفسه. شعـرت فى الحال ياخال أن دودة الغضب بدأت تفقس فى صدرى بل إن فقسـها راح يجرى هنا وهناك فى كل عروقى. مرت برهة وجيـزة شعرت فيها

أننى أحمل الجبل كله فوق صدرى، وأننى أحاول الإفلات من تحته لأفعل فعلاً مجرماً: أضرب هليل مثلاً أو أتف فى وجه الدار كلها وأنصرف. قلة الأصل كانت شبحًا قبيح المنظر واقفا أمام عينى كالجدار؛ فلما انزاح الجبل اختفى وصفت عينى من غبار الغضب. زفرت بشدة وحمدت الله. لكن مخى راح يضرب يقلب. ذلك يابوى أننى تذكرت أن غضب هليل هذا لم يكن فيه مفاجأة، إنما الزعل بدأ يظهر عليه منذ جئت بسيرة البنت حنه، مما جعلنى أتوهم بأنه يحبها وينتوى لها نية معينة فى نفسه. قلت لنفسى: اللهم نجنا من الفتن يارب واحفظ لى صديقى هليل وابق على الصداقة بيننا من أجل خاطرى، احفظه يارب من لسانى المفلوت، من قلبى المسْوَد بهباب العوز والتشرد فى مصر معدومة الرحمة..

- «على كل حال لن نختلف ياهليل! الكلمة كلمتك والشورة شورتك ولن أفعل شيئا إلا بعد رضاك!»

هكذا قلت وأنا أسبقه نحو الباب. لكنه كان مكفهراً وغير راغب فى الكلام بقيت واقفاً شاعراً بالذنب حتى انتهى من لبس حذائه الأستك ولمعه وسحب عصاه ومضى. فتح الباب متنحنحا؛ استدار برأسه نحوى فى نظرة خاطفة تعنى: إتبعنى..

صرت رجلاً أبهة ياهليل ياخوى؛ لبست العباءة مبكرًا وأمسكت بالعصا قبل الأوان، صرت شيخ عرب يملؤه الشباب تنسكب منه الرهبة يتجسد الورع والتقوى على صفحة وجهه ولو أطلقت لحيتك لصدقك القوم إن زعمت لهم أنك أمير المؤمنين.

معك حق ياولْد، فـأنت الآن تعيش رجولتين، رجـولتك ورجولة أبيك التي فاته أن يعيشـهـا في الوقت المناسب مثلك، ذلك المتصابي المهـزار لولاك ياهليل لأصـبح هزأة للقوم إنما الـفضل في النهـاية يرجع لأبيك ياهليل مهما كان؛ لـقد أهمل نفسه ورباك على الغالي، اقـتني وملّكك؛ توارى لكي يظهـرك على القـوم؛ تواضع فألبـسك فكبرك، أكون حماراً إذن لو خسرتك من أجل أي شيء؛ لكن مسألة حنة هذه هي العقبة الصلبة بيننا الآن؛ هي الكلكعة في قلبي فاللهم أذبهـا اللهم اجعله يـوافقني على مـسعـاي الشـريف اجعله يفـهم غرضي فلا يتشدق بكلام عن الأصل والتربية فكلنا أولاد تسعة ثم إن مسألة الأصل هذه يعلمهـا الله وحده ولربما كانت هي من أصل أفضل من أصلنا فالزمن غدار لا يـؤتمن؛ وإذا سلمنا بقول أعمامي بأننا نمتٌ بصلة نسب قديم إلى الإمام الشافعي فأين نحن الآن من الإمام الشافعي؟! كلـنا أولاد آدم وحواء وكلنا خطاة ومكتوب علينا الخوض في الطين.

تفنيط

صرنا فى الشارع نمشى باحتراس واحترام لم أعهده فى نفسى من قبل. وكنت أحس أن احترام هليل لنفسه ينعكس علىّ تلقائيا. كل من مررنا بهم يهبون وقوفا ليسلموا علينا ولابد أن يوجهوا الحديث إلى هليل..

حازينا غابة النخيل مشينا أكثر من نصف ساعة دون أن يفتح أحدنا فمه بكلمة. كانت رياح الغروب تهب علينا كلما اقتربنا من الجبل؛ إذ هى تلطم الجبل فيفتتها يبعثرها علينا فيتلقفها النخيل بالزغاريد، بضجيج فرح خشن؛ والهواء يتلاعب بنا وبخلقاتنا فتبرز الطبنجة فى جيب الصديرى تحت إبط هليل..

بدأ القلق يساورنى ياخال: إلى أين يذهب صاحبى العزيز الغالى ساحبا إياى؟! أيكون قد أصبح فى غيبتى من المطاريد؟! إنه لا يمكن أن يكون منهم أبداً لكن الملعون يخرم بى نحو الجبل. أخذ يدور حوله. رأينا فى سفحه الخلفى غابة كثيفة من البوص والهيش والحلفاء؛ خلفها حقول من القصب؛ بدت فى تلك اللحظة يابوى كشوارع من الرعب المصفوف تتصاعد منه أنفاس كالفحيح

كالزفيف. عجبت والله ياخال كيف يتأتى لهليل المسالم أن يجىء إلى هذه المنطقة فى دخلة الليل؟ صحيح إنه مسلح وقوى وشجاع؛ ولكن كيف يأمن الشجاع على نفسه بينما صفوف الخيانة مرتصة حواليه وإن حوت رحيق القصب السكرى؟! ها هو ذا يتقافز فوق نتوءات الطريق يتجنب عثراتها بمهارة المتودك يخرم من خلال قطعان القصب فى جرأة وثقة كأن كل هذه العيدان التى بلا حصر وبلا نهاية تأتمر بأمره تخضع لهيبته. ظهر كما لو أن المسافة التافهة التى بين العيدان قد اتسعت له مبتلعة ظلالها كى تحتويه، حقول القصب بحر، حين غطسنا فيه رأينا ما فى جوفه مما يطويه الموج من خفايا وأسرار؛ ففى هذه البقعة يعشش المطرود الفلانى؛ وفى هذه الشقى العلانى؛ وهنا قتلوا فلان الفلانى؛ وها هنا ذبحوا فلانة الفلانية.. إلخ إلخ..

صرتُ يابوى - أنا يا المخربشاتى - أمشى وراءه كطفل غرير. لا أقوى حتى على سؤاله عن وجهتنا، زعق فى صدرى صوت يقول لى: ما أنت إلا ولد دعى خلبوص. ما كاد سرداب الليل يحفر عميقا فى الظلام حتى بزغت عين محمرة تتموج فى البعيد تحت أجفان السواد هى الأخرى تتسع خطوة بعد خطوة فرأينا ذبالة ضوء كبيرة، سرعان ما تكررت وتعددت وترادفت، حتى استطعنا أن نتبين على ضوئها أشباح جدران رابضة كسوء المصير الذى ينتظر كل سالك سبل الظلام. لكن هذه الجدران الكالحة سرعان ما وضحت فى دور ذات أبواب وشبابيك تفصلها شوارع وحارات،

هى إذن بلدة صغيرة مجهولة، متى نشأت؟ كيف لم أعرفها من قبل ولم أسمع خبرها؟ هنا تكلم هليل، شوح بذراعه نحوى:

- «هذه بلدة لا اسم لها!! لا أحد يعرفها حتى الحكومة نفسها فالحكومة دائما هى آخر من يعلم!! هنا تقيم طائفة من العبيد والخدم الذين يوفرون للمطاريد كل شىء يطلبونه من الخبز حتى اللحم البشرى! لا شىء يعز عليهم!! سكانها لا يعرفون الله ولا قلب لهم! موتاهم يدفنون تحت دورهم! وعلى كل حال فالمطاريد يسمونها الهيش! لكن فيهم فضيلة: يحترمون الطيب ويهابون القوى! مع القوى يزيدونه قوة إضافية! ومع الطيب يؤكدون طيبته بالإحسان إليه ومساعدته إن طلب العون منهم شرط أن يطلبه بلسانه!!»

قلت من دهشتى:

- «أنا لست من هذه النواحى ياخال أم ماذا؟!»

جذبنى من فتحة طوق جلبابى كصياع المدينة:

- «نعم أنت لست من هنا! هذه البلدة عمرها مئات السنين! ولو مكثت أنت طول عمرك فى بلدتنا ما كنت عرفتها فليس يعرفها سوى مجنون أو ضارب فى التيه على غير هدى!! ومن يلقى به سوء البخت فيها يسلم أمره لله فى الحال يتشهد على روحه!! أما أنا فقد عرفتها لأننى فى الواقع - كما لا أظنك تعرف - مجنون كبير!! نعم نعم يابو العم فالجنون وحده هو الذى جاء بى إلى هنا

ذات يوم والجنون هو الذى لا يزال يحـميـنى من وحشـية أهلهـا الجبابرة! لا يفل الحديد إلا الحديد! فـلأنهم مجانين أصلاء أو كما يقول المتعلمـون بالسليقة فإنهم لا يخافـون إلا من هو أكثر جنونًا شرط أن يتقن الجنون على أصوله!!»

قلبى يا خـال صار بـين أنياب كلب ينـهشـه، من الآن أنا لست مخربشا ولا شىء بالنسبة لهليل..

ـ «ولكن ياهليل هذه البلدة قريبة من بلدتنا و..».

قاطعنى:

ـ «السكينة سـرقـتك! أنت لم تشـعر بعـد أننا سـافرنا!! كـان المفروض أن نركب فـرسين عفيين لـنجىء إلى هنا لكننى لم أفعل خوفا من شيئين اثنين: أن يشـعر أبى وأنت بأننا على سفر فيقلق وتقلق فينفـضـح غرضنا حين يسـمع الجبل وقع حوافر الفـرسين فى الليل فيقذفنا بالأعيـرة النارية من كل مكان!! مشية الفرس فى الجبل فى الليل لا تكون إلا لفارس من فرسان الجبل أو مقتحم من الحكومـة فإن كـان من عيـال الجبل فـالجبل كله على علم بمـوعد سيره كما أن الجبل يميز وقع أفراسـه أما إن كان مقتحما فخطوه معروف مفضوح على أرض الجبل الذى لا يعرفها ولا تعرفه وهنا يتلقى فى كل خطوة عدوانًا !!».

بدأت أشعر لأول مرة فى حيـاتى يابوى أننى وقعت فى قبضة مجنون رسـمي ويظهر أن ليلتنا بإذن الله أسود من قرون الخروب.

جاءنــى يقين بأن دور الدروشــة الذى كان آخـذا بخناق هليل منذ صباه قـد كبر معه فـخلخل توازنه بات يفعل أفعالاً خرقـاء كهذه. هتف بى هاتف أن تشهَّد على روحك يا بطل أو ادع الله أن ينقذكما بمعجـزة كبيـرة لا تقل عن معجـزة موسى عليه السـلام، استللت صوتى من جراب ريق ناشف:

ـ «هليل! صف لى هذه البلدة من حدود بلدتنا!»

شوح بكفـه إشارة إلى أن أخـفض صوتى لحـد الهمس؛ إذ أن الدور المبنية حوالينا كانت قد تراجعت فبدأنا ندخل فى دور أخرى مبنية بصـاج السيارات القديمة وقـوائمها وعجلاتهـا مأخوذة من سيارات الحكومة التى كانت تتوه وتضل فى الجبل، ثمة أخصاص من عيـدان التيل والبوص وأوراق القـصب.. تلونت ذبالات الضوء من فوانيس داخل النوافذ إلى شعلات من لمبة الجاز الصاروخ إلى ركيات نار من خشب مشتعل..

قرب واحدة كهذه توقفنا على جنب. همس هليل فى أذنى:

ـ «هذه البلدة السحـرية فى جيب عميق من جـيوب الجبل! هى معدةُ الجبل التى تهـضم كل فريسة تقع! هى أيضا صندوق زبالة الجَـبل!! الفتـوات الذين خاب أملهـم! الذين انفضــحوا لســبب من الأسـباب فنـفاهم أهل الجـبل الفـوقى عـزلوهم لأنهم أقل من أن يكونوا رجـالا أقل من مـرتبة الفـتـونة!! هنا أيضـا الذين عجـزوا وانهـدت قواهم! الذين خـانوا ولو خيـانة صغـيرة فـانفض عنهم

الرجال! الذين هربوا من واجب ثأر من ذنب من جريمة فقادهم سوء البخت وأحيانا حسن الحظ إلى هذا المدفن الحى!! ويل لمن كان ضعيفاً ويقع هنا! لو كان حلواً فسيأكلونه! أو مُراً فتأكله الكلاب!!»

ثم غمزنى وأردف:

- «لقد جئنا من الطريق السرى الذى كان يغرقه النيل عند الفيضان وتقطعه غابات الهيش والبوص عند الغيض! وهى كما تعرف مأوى لجميع أنواع المفترسات!!»

ومضى خطوة ثم توقف هامسا:

- «ليكن فى معلومك أن الدار هنا أمان بالنسبة لى يعنى تمشى على كيفك كأنك تمشى فى أى بلد آمن!! هم هنا يعلمون عن ثقة ويقين أن شخصًا عاديًا لن يجرؤ على السير ها هنا بثقة واطمئنان إلا إذا كان أهلاً لذلك بالفعل! الويل له إن انكشف أمره وظهر عليه الخوف يكون لقمة طرية شهية يأخذ كل واحد منها نصيبه!! فمهمتك الآن أن تكون صلبًا قوى الأعصاب حتى آخر لحظة فلا تظهر منك نقطة ضعف واحدة فالخوف هنا هو الحكومة الوحيدة التى تفصل فى المنازعات بين الناس!! إن ظهر هنا أنك لست الأقوى من الآخر فإن مهمة الآخر تنصب فى محاولة إضعافك بأى شكل وبكل شكل مهما تذرعت أنت بالقوة دون رصيد حقيقى من القوة!!»

مـضـى خطوة أخـرى وشوح كـأنه تنازل عن كل مـا قـال، ثم استدرك:

ـ «وعلى كل حال فاحسبها حـسبة بسيطة وأرح نفسك: مادام الشيء الوحـيد المضـمون هنا هـو الموت فلتمت شـجاعـاً مرفـوع الرأس حتى لا يكون موتك بالمجـان! من يطلب الموت لا يأتيه الموت هذه هي حكمة الزمان! فكن شجاعـا جدعا حتى آخر لحظة تكسب حتى وأنت ميت!!»

جذبني، فتبعته، وصـلنا إلى ركية النار؛ فتناهى إلينا ـ رحمتك يارب ـ صـوت المغنية صـبـاح تغني: حبـيـبة أمـها ياخـوا.. تي.. ياخوا.. ا.. تيْ.. ياختي ياختي ياختـي!! قبل أن يركبني العفريت فأتسبب في فضيحة قبض هليل على ذراعي وقرصني هامسا:

ـ «اليوم توجـد طرق سرية كـثيرة لا يعـرفهـا سوى قلة من المخربشـين يتولون قـضاء كل الطلبـات من كل مكان في كل وقت فـلا يجرؤ علـى تتبـعـهم أحد لأنهم خـبـيـرون بكيفـيـة تضليله وتوصـيـلـه إلى الجنون ثم التـهلكة!! وحـدهم يـرون في الظلام يعرفون متاهات الظلام وليكن في مـعلومك أن هذه البلدة فيها بيع وشراء وكل شئ كما سترى الآن!!»

صرت أبحث عن عقلي الشاتت يا بوي:

ـ «ولكن بالله كيف سنرجع يا هليل؟ كـيف نعود إلى دارنا في هذه الحلكة؟

ـ «وهل ترانا سنعود حقًا؟!»

بكل هدوء قرصنى فى ذراعى.

ـ «ومن قال إننا سنعـود الليلة؟! سنبقى ها هنا حتى الصـباح ونرجع عند طلعة الشمس إن كان لنا عمر بإذن الله!!».

ابتلعت صرختى:

ـ «ولماذا جئت بنا إلى هنا بحق جاه النبى والمسلمين يا هليل؟

«ظننتك كبرت اليوم على هذه المشاوير اللبط!»

شدد من قبضته، وبلهجة ذات معنى:

ـ «لبط/ لبط يا بو علي؟! فـمـا الذى تفعـله أنت فى مصـر قل لى؟! أنت الآن فى نزهة فاحمد ربك واخرس!!»

ـ «نزهة؟! أهذه نزهة يا بو العم؟! سيـبت ركبى! الواحد لابد أن يجعل لدماغه سقفا يقيه التهور يمنع مخه من المشى بعيدا عنه!»

كتم ضـحكة هازئة:

ـ «بعد قليل سيطير سقف دماغك إلى غير رجعة!!»

ثم أخذ ينقر بطرف العـصا على باب، عبارة عن واجهـة سيارة نقل كبـيرة مركّب على مربـع من أعواد الحديد بمفصل من عـمود حديدى مغروز فى الأرض. فجـأة انخفض صوت الراديو، وصاح من الداخل صوت جهورى لكنه واطىء ومتحرز:

ـ «من الكريم؟!».

صاح هليل فى بساطة آسرة:

ـ «هليل!»

فهتف الصوت فى الحال بترحاب شديد:

ـ «تفضل ياشيخ العرب!».

ثم دوى فى الفراغ صوت نعيب حاد، تيقنت من أنه زيق الباب، الذى هو وجه السيارة الكميون وهو يابوى يحتاج لاثنين عفيين يدفعانه حتى ينصنح. فلما انزاح نحونا يابوى ـ إذ هو ينفتح للخارج ـ كاد يصدمنا، فاضطررنا إلى التراجع عنه بسرعة. وإذا بهلف كبير ينام خلفه ولم يفعل أكثر من أنه دفع الباب بأصابع قدمه كان ممددا كشجرة كافور قطعت جذورها عن الأرض، راقدا على بطنه وماسورة البندقية فى حضنه، يبعث إلينا بعينين لوزيتين مضيئتين فى ظلمة الدهلين، قال هليل وهو يبرز نفسه للهلف:

ـ «معى ضيف عزيز يابو العم قادم لتوه من سيدنا الحسين!! أحببت أن أكرمه كرماً زائدا يعود علينا بخير كثير ينتظرنا حين نفى بالنذر لمولانا!!».

ـ «أهلا وسهلا! مرحبا!».

ذلك ما نطق به الهلف وهو يتلوى كحوت فى محيط الظلام، ينعوج وينكمش ثم ينتفض قائما معلقا البندقية فى كتفه، أقبل

نحـونا ماداً يده. سلم عليـه هليل بحـرارة كبـيرة يابوى كـأنهمـا أحباب بل عشاق أصفياء. سلمت أنا الآخر؛ فما أن احتوت يده يدى حـتى خـيل لى أنـنى أسلم على واحـد من أحب النـاس إلى قلبى، استدار ذلك الهلف الجذاب نحـو الجدار، الذى هو الآخر عبارة عن صاج تخـين من صاج الطائرات التى كثـيرا ما وقـعت فى الجبل، صاج مـعشق فى بعـضه البـعض بشرائح ودوائر من كـاوتشوك السيارات والطائرات..

مدّ الهلف يـده إلى لمبة الجاز نمرة عـشرة المعلقـة على الجدار؛ فرفع شريطها المرمد فاتسعت دائرة الضوء فظهر الهلف رجلا ولا كل الرجال، أحـمر الوجـه مستـديرة كالأوطاية تكاد تخـتفى بين شاربين كبـيرين تحت لبدة كشـاهد القبر؛ لكن الأوطاية نفـسها ـ وجهه ـ عـبارة عن عينين كلوزتين من النوار تنام كل منهـما على طرف شارب. هذا الوجه الدقيق ذو الرأس الصغير ـ رحمتك يارب ـ يقف على كـتفين كـل منهما يصـلح أن يكون ناصيـة حارة من حـوارى مصـر؛ على قوام سـمهـرى مبـروم يخشى الواحـد منا سطوته وهو بعيد عنه بمسافة؛ يرتدى جلبابا من الجبردين الأزرق الداكن ليس تحته ثمة ثياب على الإطلاق.

قطـــع

أقبل علينا الهلف مـسلما من جديد وهو يدعونا لـلدخول، ما أن دلفنا إلى حـيث كـان يرقد حـتى جـذب الباب فـسنكره فى قـائم حديدى بضـبة حديدية كالدرفـيل تبيت فى موضـع لهـا عاشق فى معشوق. أشار هليل نحوى قائلا:

ـ «حـضـرته حـسن أبو على ولد أبو ضب أجـاويـد سـيـدنا الحسين! شـهبندر تجار السمك والفـسيخ! عيبـه أنه ولد خسران وابن ليل ينوى إن شـاء الله أن يفنى ثروة أبيـه التى يقـال إنهـا لا تفنى! يصرف على الهلس والكلام الفاضى مايبنى عمائر ويشترى فـدادين!! لكنه ياعم عـرندس قلبه أبـيض كالبـفـتة! تصـور ياعم عرندس أنه يسـعى فى طلب الحاجة فيـصرف عليها دم قلبـه فلما يحصل عليها ربما لا يذوقها!! يكفيه أن يطلب الشىء فيجده!! يحلم بالمستـحيل! لهذا حيّـرنا وغلبنا الغلب كله! لم يكفه ما هو فـيه من متع وهلس فى أم الدنيا فجاء يطلب مـنى ليلة فى الجبل يتمتع بها حتى الموت!! وقـد صممت الليلة أن أقـتله ياعم عرندس فـجئت به إليك لتسـاعدنى على الخلاص منه ولك الأجر والثـواب عند الله أما عندى فلك المكافأة التى يمكن أن تطلبها!!»

ثم كف عن الكلام مشوحاً كمن خلّص ضميره، وبقيت واقفا في محلى كطفل يرتجف من لعبة مثيرة مخيفة معا يابوى.

يخرب بيتك ياهليل ياولد الحرام: أملعون أنت إلى هذه الدرجة ياولد الأبالسة؟! ما هذا الذى فيك لم أكن أعرفه من قبل؟ يالى من غشيم أهبل. لابد أنك ياهليل تعيش هنا بشخصيتين دون أن أعرف أو يعرف أحد من أهل البلدة الذين يوقرونك ويحترمونك كرجل صالح لا يترك الفرض يجيء على أخيه الفرض..

ظل الملعون هليل واقفا خافض البصر كطفل برىء لم يكذب منذ هنيهة. أما الرجل الهلف، أقصد عم عرندس، فقد جعل ينظر إلىّ بحب وإعجاب واندهاش، تكاد نظراته تعرينى من خلقاتى؛ ولا أكاد أصدق أن كلام هليل عنى بهذه الرسماية الخيالية يمكن أن يدخل هذه الدماغ الصغيرة يابوى؛ فآه من هذه الدماغ الصغيرة يابوى؛ إنها دماغ مختصرة يابوى مثل الراديو المسمى بالترانزستور، ليس فى صندوقها متسع للخوف والكلام الفاضى. على أن هاتين العينين الثاقبتين سرعان ما غرقتا فى بحيرة من العهر والطراوة المخنثة؛ غير أنه ذلك العهر الناعم يابوى، المخيف بشدة نعومته، المنذر بسوء العاقبة ياخال. إنه العهر الخديعة؛ فليس يصدر العهر متقنًا هكذا إلا أن يكون محض خديعة ياخال..

نظرة العهر تلد ابتسامة طرية على شفتى الهلف عم عرندس مفروشة كالبساط الأحمدى؛ وسّعت وجهه سوت رأسه بين

شدقين منبعجين. ثم إنه حول بصره عنى نحو هليل قائلا بكل رقة وحلاوة:

- «خدامينه ياعم! مجيئك عندنا بالدنيا!!».

رفع هليل حاجبيه مشيرا نحوى:

- «هذا السفروت الخلبوص الكحيان لا تستهزىء به فقد ذاق فواكه مصر والبلاد كلها فلم يشبع!! قلت له إن عندنا فواكه لم يذقها فاستهزأ بى ولم يصدقنى فحلفت لأذيقنه طعم الخوخ العرندسى!!».

قال عم عرندس وهو يعاود التفرس فى وجهى بنفس النظرة المنبعجة الشدقين وفى لهجته نبرة ذات معنى:

- «تريد الخوخة بنفسها إذن؟! من حسن حظه أنها الليلة موجودة فى الجبل!! رزقها!!».

دب هليل يده فى جيب الصديرى نزع المحفظة ثم نزع منها ورقة بعشرة جنيهات غمز بها الرجل فى يده:

- «هذه لك أنت وحدك حتى تشوف مزاجنا أولا!!»

ثم نزع ورقتين أخريين غمزه بهما فى يده:

- «وهذا رزق الخوخة!!».

وأشار لى:

- «ولها رزق آخر عنده حين يذوق ويعجبه الطعم!!»

وغمـز بشاربه الكث غـمزة ذات مـغزى وقال لى كـأنه يكشف تمامًا عن جوهر غرضه من هذه اللعبة كلها:

- «لقـد عرفت داءك ياملعـون!! أنت عطشـان تريد أن تعب من مسـتنقع نتن! قلت فى عقل بالى أنك لن ترتوى إلا مـن هنا!! فهنا أشبه ببـئر الساقيـة ماؤه بارد صاف وإن شابتـه بعض الجراثيم المقـدور عليهـا!! هنا سـوف ترتوى جـيدا حـتى تزهد الأمـر كَله وتصـرف النظر عـما فى رأسك!! وقـد أجلت الكلام مـعك فى أى شىء حتى ترتوى وتصـير فى حالتك الطبـيعية وبعـدها أقول لك نصيحتى ومشورتى!!».

صدقته ياخـال؛ منيت النفس بليلة ولا كل الليالى.. بالفعل بانت تباشيرها يابوى. فى جدية قال عم عرندس:

- «على كل حال الخـوخة زمانها قادمـة! هى لابد أن تبيت هنا الليلة! وإلى أن تجىء فـإن صـاحبك أمـامـه التفـاحـة والبرتقـالة والجوفاية كلهن موجـدات تحت أمره وله الحرية مع كل واحدة إن شاء حاسبها بعد الانبساط وإن شاء صرف نفسه عنها إلى غيرها بغير حساب!!».

انقرص قلبى يابوى قرصة موجعة. تسرب الشك من جديد إلى مخى يقول: اصح يامغفل وإلا فالملعوب كبير سيَّما وأن هليل تبدو عليه إمارات تتراوح بين الخبث والبراءة. ثم إنه قال:

- «نريد أن نشـوف مـزاجنـا الآن! دمـاغنا صـفَّـرت من طول الطريق ومشقته!!».

مسح الرجل كفيه فى ركبتيه قائلا: «وجب!» ثم أمسك بالمصباح ومضى أمامنا قائلا: «تعالوا». فمضينا وراءه فى دهليز طويل يشبه القبو المظلم. بقينا نمشى مسافة طويلة حتى مللت يابوى وتوقعت السقوط فى الجبّ الذى لا طلوع منه لكننا وصلنا أخيرا ـ رحمتك يارب ـ إلى واجهة منزل مبنى بالحجارة المسواة، له سلم يصعد إلى الباب بعدة درجات، صعدها عم عرندس فصعدنا وراءه. على الضوء العليل لاحظت وجود أكثر من منزل محندق مبنى بالحجارة أيضا؛ حوالى ثلاثة منازل من طابقين لها شرفات كمساكن علية القوم.

همس هليل فى أذنى:

ـ «هذه المساكن بناها عم عرندس مثل لوكاندات فى الجبل يستأجرها المطاريد الجدد والمبعدون لأسباب مؤقتة وكبار الهاربين من ظرف طارئ ومن يريدون الاختفاء التام لاسترداد الدماغ والتخطيط لعمل!!. يدفعون لعم عرندس أغلى الأثمان ليس لقوته بل لجدعنته معهم إذ هو يكون أستر واحد عليهم أخبث حارس يخادع الجن نفسه!! إحذر أن تستهزئ به وإلا فإن قرصته مسممة لانجاة منها!! أما إن صافيته فإنه يقدم لك المعجزات! عمره الآن مائة عام ولكنه يبدو فى الستين فحسب! وقد ولد فى الجبل ولم يكن بينه وبين الحكومة أية خصومة لكنه عشق الجبل فعاش فيه بمزاجه لمزاجه يكسب منه الذهب!! ولأنه ابن

الجبل فإنه لا يخاف ولا ينكسر!! له أملاك كبيرة فى صدفا والغنايم وله ـ إمسك دماغك ـ ابن من كبار المحامين فى الإسكندرية!! وابن آخر يعيش الآن فى لندن كأستاذ لعلم الآثار فى إحدى أكبر الجامعات الإنجليزية ويتاجر فى الآثار التى يمده بها أبوه!!».

كان عم عرندس قد سبقنا إلى الدخول ليجهز المكان فيما بقينا هليل وأنا فى الشرفة ننظر فى الفراغ المظلم ونميز بين السور العالى المصنوع من الأعواد والأعشاب والفروع وصخور الجبل، وبين ظلال الهضاب العالية البعيدة جداً. لا يظهر من البناء الداخلى أى شىء إذ أن عم عرندس الخبيث الناصح اختار هذا المكان بين لسانين متجاورين من ألسنة الجبل، كل لسان عبارة عن هضبة كبيرة مدببة الرأس كلما ارتفعت لأعلى، فبدت تعريشة عم عرندس جزءاً من اللسانين يملأ الفراغ بينهما. مال هليل على أذنى هامسًا كأنه يخلص ضميره من عبء ثقيل:

ـ «على فكرة يابو العم! ليكن فى معلومك أننى لست ولداً داعراً كما يظهر لك منى الليلة!! الحكاية وما فيها أننى عرفت عم عرندس منذ مدة طويلة لأنه اشترى أرضًا زراعية مجاورة لأرضنا وهو يستعين بالله وبى على إفلاحها!! شخصيتى تعجبه يتصورنى ملاكا من السماء! وهو صاحبى ويعزمنى عزومات كثيرة كهذه كلها أنس ومحبة!! عرفنى بكل سكان هذه البلدة كبرنى فى

أنظارهم فـأحبـوننى كلهم وأعطونى الأمـان وكلهم ينتظر منى أن أطلب منه أى خـدمة لكن الله الغنى عـن خدمـاتهم يابو العم فلست أنوى قتل أحد أو الغدر بأحد! كفانا الله شر الحرام والافتراء!!».

ـ «خشوا يارجال!».

قال عم عرندس مناديا من الداخل. وإذا به قد أنار مصباحًا فى الردهة، وآخـر فى حـجرة على اليـمـين فى المدخل، وبجـوار هذه الحجرة حجـرة أخرى مغلقة. فى المقابل حجـرتان بينهما ممر تفح منه رائحـة الكنيف زاعـقـة، فى الحـجـرة المضـاءة ثلاث كنبـات أسيـوطى؛ أما الأرض فـمفـروشة بحصـير ملون نظيف. شـلتات الكنب مـرصـوصـة على الأرض تتحـلق المنقـد الكبيـر والجـوزة وحـجارتهـا الكثيـرة مع كومـة من باكـوات المعسل. جلسنا فـوق الشلت، فى الحال شرع هليل ينظف الحجـارة ويحشوها بالمعسل. وكان عم عرندس قد اختفى برهة طويلة جدًا حتى انتهى هليل س تعسيل كل الحجارة ثم أخرج من جيبه كلكيعة حشيش كبيرة راح يقتطع منها ويكسو المعسل بعبـاءات من القطيفة الخضراء. ما كاد يعتدل آخذا سمت الانتظار حتى دخل الرجل حـاملاً طاسة كبيرة ملآنة بالخشب المشتعل؛ دلقها فى المنقد. من خلفه دخل غلام أمرد يحـمل صينيـة عليهـا عدة الشـاى وطبقـاً به تشكيلة من الفـواكه النادرة. قلت لنفسى: هذه إذن هى الفواكه المقصودة؟! هليل الملعون قرأ ما دار فى رأسى فانفجر ضاحكا:

- «هذه هى العينة فحسب يابجم! أما الفواكه الحقيقية فإنها آتية لا ريب فيها بعد مجىء الدماغ!!».

ثم مال على عم عرندس فحدثه همسًا بلهجة ذات معنى واضح فى ملامح وجهيهما. ثم علا صوت هليل مشيراً برأسه نحوى:

- «دماغه لا تجىء بسهولة ياعم عرندس! خُش عليه بنية خالصة يكرمك الله! هات داغه!».

نظر الهلف نحوى نظرته العاهرة اللطيفة:

- «سأجىء بداغك الليلة ياحلو! أوقعت بنفسك فى يد من لا يرحم! وقعت أم رماك الهوى؟!».

فى أقل من لمح البصر يابوى كان الرجل الهلف قد وضع بوصة الجوزة فى فمى: «شد يا بطل». قلت: «ليلتك فل» وشددت الحجر كله فى نفس واحد على شفطتين ونفختين، فارتفعت راية النار فوق الحجر، فإن هى إلا لمحة حتى انشال الحجر من فوق البُخْش ووضع مكانه حجر جديد، والحجر السابق ينحنى على الجديد طارحاً فوقه كل ناره، خمس حجارة وراء بعضها فى خيط واحد، ويد عرندس ممسكة بالجوزة وبالماشة وأصابع يمناه تفرفط فوق نار الحجر حشيشًا كالحمص ينزل برداً وسلامًا على النار يصنع مهرجانا من سحائب الدخان الشهى..

بعدها بقليل نسيت أننا فى أمعاء الجبل، لسنا فحسب بين فكى التمساح بل داخل معدته، تلك هى الصورة التى عبرت رأسى

لتتبخر مع الدخان، ثم بدأت الأصـوات والحركة تكثر خارج القاعة تصنع صـخبًـا حلواً ينضح بالأمـان الحمـيم يحـجز بين دمـاغى والسطل المبكر، برهة صغيرة وبدأت أشـعر كما لو كنت فى مندرة دارنا بل إننى سمـعت اسمى يتردد؛ فـأحسست أن البـراح والممر المتاخـمين لهـذه الفيللا التى نجـلس فى قاعة مـنها، والتى تشـبه عشش رأس البر؛ هذا البراح وهذا الممر قد احتشد بحركة مستمرة ومتزايدة بشكل مريب ياخال، حـتى خيِّل لى أننى وقعت فى كمين وأن البلدة كلهـا شـرعـت تنقلب لتـتـفـرج علينا قـبـل أن تمسكنا الحكومة فى تجـريسة كبرى يابوى. المصـيبة ياخال أننى سـمعت بأذنى أصواتا تقتحم علينا القاعة من بعض الشبابيك. ومن الردهة أمام القاعة ميـزت صوت هذه العبارة: «ولد أبو ضب» كيف؟! ولد أبو ضب؟ معـقولة؟!». ثم تزايدت الخطوات والحـركة فى حـيوية. دخلت على الأصـوات أصوات جديدة لنســاء وفتـيات ذوات رنات وجلجلة، مع أصوات آنية يتم غسلها، وطيور يتم ذبحها، قلت لعلها علامات السطل قد هيأت لى كل ذلك فجعلت أنظر حواليّ قائلا:

ـ «هناك زيطة وزمبليطة أم تراها فى رأسى أنا؟!».

قال عم عرندس:

ـ «أنت عندنا لست قليلا يا.. ابن شهبندر التجار!».

صدمتنى العـبارة الأخيرة شعـرت أن فيها تعريضـا بشخصى فتشككت فى الأمر فنظرت لهليل:

ـ «تسمع هذه الزيطة طبعا ياهليل؟!».

قال وهو يسحب نفس الدخان:

ـ «طبعاً! عم عرندس يقول لك إنك لست قليلا عندهم!».

قال عم عرندس بجدية مفاجئة:

ـ «قد زارنا النبى يا ابن شهبندر التجار؟!».

يعرِّض بى ثانية. طوحت ذلك خلف ظهرى؛ قلت:

ـ «لكن يظهر أن البلدة كلها تتجمع حول الدار وتردد اسمى! فكيف ذلك يابوى؟ من أين جاء كل هؤلاء؟!».

صاح عم عرندس مشوحاً نحوى بكفه الكبير وذراعه الطويلة وكمه الواسع:

ـ «وه يابوى! كيف أنت؟! الجبل كله انقلب وجاء يتفرج عليك! أقصد جاء يكرمك ويشوف مزاجك!! لا أعرف كيف وصل الخبر إلى كل هؤلاء؟!».

وانجعص هليل قائلا فى افتتان:

ـ «الأخبار فى الجبل تصل أسرع! هنا سرعة البرق التى يقولون عنها! لكن أنت السبب ياعم عرندس! أنت الذى أذعت الخبر!!».

عم عرندس ضرب الماشة فوق البلاطة صائحاً:

ـ «الخبر أشاع نفسه بنفسه!! أتستهزىء يا بوى بمثل هذا الخبر حين يسمعه الجبل بأذنيه؟ حسن أبو على ولد أبو ضب! ابن

شـهبندر التـجار كله فى الجـبل الليلة؟ لابد أن يرقص الجـبل كله طبعا!! ليلتك فل بإذن الله! ولع!».

قلت لنفـسى: هـذا الرجل مَـيَّـاس أو مـجنون يريد أن يسـرح بدماغى حتى يميِّله قبل الأوان:

ـ «ما حكاية شهبندر هذه؟!».

كانت بوصة الجوزة قد استقرت بين شفتيه، راح يشفط وعيناه اللوزيتان كالبليتين تدوران فى محجريهـما تنسجان أفكارًا عجيبة يرد بها، لكن هسـيسًا مكثفـاً انبثق من الباب فجـأة سبقتـه عيون كثيرة تنظر متلصصـــة تتهامس قائلة: «نعم هو! هو بعينه! الجالس فى الوسط!». وإذا بامـرأة فارعة كـالنخلة كـحورية البحـر داخلة ترفل فى بذلة رقص كـاسية مـشغولة كلهـا بالترتر الأصــفر على أبيض، طويلة الرقـبة طويلة الشـعر تنساب جـدائلها فـوق ظهرها مستوية فوق عجيزتها النافرة..

مـساء الخـير. هكـذا قالت برقـة الحوريـات؛ سلمت على هليل باعتباره فى مواجهة الداخل؛ فسلم عليها بيديه شاملاً إياها بنظرة سـريعة، قـال كأنه يهـم بأكلها: أهلاً وسـهلاً، لـكنه ما لبث حـتى خفض بصـره واعتـدل جالســا فى أدب. أقبلت نـحـوى ياخال، فى كثير من الشوق والرغبة والامتنان فاتحة ذراعيها صـائحة: «هو!»؛ وعم عرندس من خـلفها يؤيد فى تفـاخر: «بل خـياله يافكيـهة!». ارتمت على صدرى قبلتنى فى خـدى. ارتبكت لبرهة طويلة؛ لكننى

مالبثت حتى ضغطتها على صدرى بقوة وقبلتها على خديها وفى شفتيها، إنحطت بجوارى وفخذها كله مستريح على فخدى. قلت: يادار ما دخلك شر، واستبجت لنفسى الضغط بصدرى كله على فخذها بكل قوتى فيما أنا مضطر للميل نحو بوصة الجوزة لأشرب الحجر؛ فإذا هى تنعوج مع حركتى فتضغط صدرها على ظهرى بنفس القوة حتى صار منظرنا أنتيكة. وسرعان ما تلقفت هى بوصة الجوزة وانبرت من مسندها تشد النفس ولا أرجل الحشاشين وصدرها ينتفض فوق ظهرى ياخال. وحين اعتدلنا كان الدخان الكثيف يتصاعد من كلينا مختلطا متداخلا نشواناً..

لحظتئذ ياخال بدأت أصدق أن الشغلة جد فى جد. وقلت: لا مفر من أن أصدق الفرية المزعومة بأننى شهبندر التجار بذات نفسه. ما أن بدأت خياشيم العبد لله تستشعر نكهة هذه النتاية الطايبة كالقشدة حتى غزا القاعة هسيس محوط بشخللة ورنين الأساور الذهبية؛ ثم هبت علينا طلائع من العطر الشهى المثير للقشعريرة فى الدماغ، دخلت نتاية كاللبؤة تضاءلت بجوارها فكيهة. هى الأخرى ترتدى بذلة رقص واسعة الذيل مشغولة بالترتر البنفسجى، غزال ياخال، لا بالطويلة ولا بالقصيرة، إلى النحافة أميل؛ لكن ثدييها بارزان كأرنبين متكورين وبطنها من تحتيهما مشدودة كجلد الطبلة المرتفعة قليلاً يصعد إليها البصر عن ساقين مبرومتين لهما تحت الثياب الشفافة ظلال وخيالات

كعمدان معبد الكرنك تظنها عشرات السيقان المتحاضنة المتجاورة بينهما فراغات تقول لك افرش ونم فى أى منها على ما تهوى، أما الوجه فسبحان الله مثل كوز العسل يابوى وفى لون الشهد بعينين واسعتين كبحيرتين يتوسطهما قاربان والرموش الطويلة مجاديف ينعكس خيالها على الخدين الشاطئين، أما شعرها فجديلة واحدة من الحرير البنى اللون ملفوفة تحت المنديل الحريرى فى لون الفل، كانت ظلال ساقيها تمتد إلى بُعد خلفى ينتصب فوقها ظهر مخروطى مقسوم بالطول، قلت ياسبحان الله؛ إمنحنى يارب كل مدخراتى عندك من القوة التى تنوى أن توزعها على حياتى؛ أعطنيها كلها الليلة فحسب؛ قونى هذه الليلة فحسب وأنلنى بعض غرضى فكل الفضائح أحتملها إلا هذه الليلة يمكن أن أموت فيها..

قالت وهى تقترب منى: «أين هو؟ أين الحبيب الغالى؟!». عرفت مكانى من فكيهة الملتصقة بى. فتبخترت نحوى؛ ثم هوت على وجهى تقبلنى تدفن رأسى فى صدرها وكتفى فى بطنها التى لها ملمس العجين الخمران، قلت للحياء: لا يصح أن يمر على فمى كوز العسل فلا أذوق منه ولو لحسة. أمسكت برأس الغزال ياخال طويته على يمناى فانطوى الجسد كله متكورا على حجرى، فما صدقت اللبؤة أن اقتربت شفتاى من شفتيها حتى فركت وفركت إلى أن دخلت بكاملها فى صدرى وبطنى حتى بللت نفسى وتراخيت عنها قليلاً قليلاً فيما يشبه الندم والسخط الغامض،

لكننى سرعان ما قلت الحمد لله أن سابت الشهوة الآن فنفست عن نفسها حتى تكون متزنة رصينة عند الشغل الجد، رفعتُ وجهى عنها، فاصطدمت عينى بعينى الرجل الهلف عم عرندس وهو يحدثنى بخبث أهتم لئيم حاد السخرية:

«أعجبتك بديعة! سحرتك بديعة! لبؤتى وأعرفها طبعا! الوحيدة التى أتت بداغى فاحذرها إبدأ بها وحلى بالفكيه!!».

جعلت أنظر إلى فكيهة كالمعتذر لها عن نسيانى إياها لكن الهسيس ارتفع من جديد؛ وتبعه موكب حافل من أصوات طروبة متداخلة مختلطة كأصوات التجريب والشد والتسخين: طبلة على سلامية على رق على مزمار، وإذا بالغازية داخلة وقد انضبطت الأنغام فجأة وانتظمها المزمار البلدى رائق المزاج حاد النبرة والإيقاع وإذا بفرقة المزمار تأخذ لنفسها مكانا مقوساً كشق القمر فى مدخل القاعة والغازية قد جعلت من القاعة ملعبًا فسيحًا أخذت تطويه رائحة غادية لافة حول نفسها على أطراف أصابع قدميها كالماشية فوق الأشواك؛ جسدها كله يهتز يرتج يرتجف، يناكح الريح من كل اتجاه؛ يعرض كل قطعة فيه لغم شهوانى خرافى سوف يلقمه يشبع فيه مصمصة وقزقزة. أحلى غازية رأيتها فى حياتى يابوى؛ مهرة عالية الجبهة تزرى بستات مصر المحروسة؛ على شفتيها بسمة فيها من البراعة أضعاف ما فى العينين المكحولتين من عهر أبدى ياخال..

انبرينا جميـعا نصفق للغازية فى ابتهاج لا مـثيل له، انعوج عم عرندس ببوصة الجوزة قائلا:

ـ «خد لك نفس ياديا أنصاف!!».

وكانت أنصاف لحظتها مسطوحة تميل برأسها وجذعها كله إلى الوراء حتى انطوت فارتفع ما بين ساقيها إلى أعلى مثل قبة طاجن اللبن، سلط عم عرندس بوصة الجوزة فى هذه القبة، صائحا: شد، فانفجرنا ضاحكين؛ وبرمت أنصاف جسدها بحرفنة ومرونة حتى جـاء دماغـها مطرح البـوصة بالـضبط، وجـدائل شعـرها تكنس الأرض كذيل الثوب. مـطت شفتيهـا، احتوت بهمـا بوصة الجوزة شدت نفـساً ارتفعت له رايـة النار فوق الـحجـر؛ فصفـقنا جميـعا صائحـين: «قشطة»؛ وزغرد المزمـار مع السلاّمـية طربا وهاصت الدربكة. ففى لمح البصـر برمت أنصاف جسدها كالبـريمة قبل أن تنسحب البوصة. هاجت الثيران كلها فى داخلى قلت:

ما من بدّ، وصرت أتململ فى جلسـتى؛ فقال عم عرندس وهو يثقبنى بنظراته مشيرًا إلى أنصاف برقصة من شفتيه:

ـ «هذا هو الطرشـى عندنا!! نقدمه قبل الأكل!».

وأشار إلى كل من فكيهـة وبديعة عند العبارة الأخـيرة، تغابيت قائـلا: «يعنى ماذا؟!»، فطوقنى عم عـرندس بشواظ عـينيـه وقال مشيراً إلى فرقة المزيكاتية:

ـ «أهل الضرب والنقر سيحرثون دماغهم بحجرين!!».

عندئذ كانت أنصـاف قد انحنت على وجههـا ومشت على أربع كالمهرة، عجيزتها مرتفعة منقـسمة منتفضة تتقابل مع وقع نقرات الطبلة التى تسللت خفيفة ناعمة يصاحبها المزمار فى نشيج شجى مهيِّج للعواطف، تلاصقت الأنغام بالحـركات ياخال، أنصاف مقبلة نحـوى كاللـبؤة المتـوحـشة عـيناها تنذراننى بالـويل الجمـيل إن تخاذلت عنها، فإذا بى يا خال متأهبا لاستقبالها وإذا بى قد صرت مـحمـولاً من تحت الإبطين، وبقـوة رشيـقة تطوحنى المهـرة ـ لا أدرى كيف ـ فـوق ظهرها راكـبًا، وخـصل من شعـرها لجام فى يدى، استدارت زاحفة على أربع، متقافزة متراقصة، راحت المزيكة تزفنا حتى خرجت هـى بى من القاعة فى سرعة خـاطفة كالرمح. عبـرت الردهة، برأسهـا نطحت باب القـاعة المواجـهة فانفـتح عن سرير بعـمدان طويلة من الخـشب الثمين التـحفـة تبينت من أول نظرة أنه مسروق من مقابر الفراعنة بنقـوشه ودقة صنعه وجمال شكله. سرير ملـوكى يابوى، رمتنى المهرة فـوقه، فانخـفضت بى الحشيـة ثم ارتفعت فى الحال، ثم إنها رمت بنفسـها إلى جوارى، فكأن الملكة حتشبسوت نفسها تحتوينى ياخال. ضعت فى حضنها ياخـال لم أعرف بأى جـزء فـيه أبدا مـتـعتـى، ولقد أحـست هى بحيـرتى وضياعى فى هذا الجنون المطبق فـبدأت تسلمنى نفسـها قطعة فـقطعة تقـول ذقهـا على مهلك حـتى تشبع، صـرت كالذى يتقلى على النار يـاخال، وأخيراً قـمت ياخال: تحلف اليمـين تقول

ثورا هائجا من ثيـران أسبانيا. ما كل هذا يـاخال؟ ها أنا ذا أعرف المرأة لأول مرة فى حياتى، لم أكن أظن أننى سأنجح فى شىء مما استمتعت به ما لم تكن هى بنفسها قد أرشدتنى إليه؛ وارتفع صوت الحرمان فى صدرى يقول: إلهط يا ابن أبى ضب يامفجوع.

تفريق

لم أدر كم من الوقت مضى ياخال؛ لكن خيل لى أن دهراً بحاله قد انقضى، وعصراً برمته قد اندحر ولن يعيده الله ثانية يابوى، نعم يابوى إننى أكون هلفا إن لم أعش فى هذا النعيم على طول ما يعطينى الله من عمر مديد بإذنه تعالى..

افقت على نفسى بعد غيبوبة طويلة فإذا أنا فى حلم لذيذ ياخال: وجدتنى عارياً فى سرير الملك والدنيا بحالها ترقد عارية فى حضنى بكل جبالها وهضابها ووديانها السحيقة ورخامها المرمرى، تحيطنا ناموسية من الحرير البنبه، ذات أضلاع وباب كباب الخيمة ذى أربطة من الحرير المجدول يمكن ربطها من الداخل وجمع أطراف الناموسية تحت الحشية فكأننا فى هودج فى الجنة الموعودة..

لفحنى صوت أنصاف يهدر فى أذنى:

ـ «هل انبسطت ياخولى الجنينة ياحسن؟!».

قلت فيما أقضم خوخة طائبة:

ـ «ما أظن المرء يشبع من النعمة!!».

فلاذت بحضنى، ربضت فيه تبخ صهداً شهيا كصهد مرق الضأن، مر بذهنى خاطر سخيف يابوى، فهتفت فجأة كأنى أدوس بقدم خشنة صلبة ملوثة فوق البساط الحرير:

ـ «لو كنت شهبندر التجار بحق وحقيق فلن أقدر على مكافأتكم على هذه السعادة!!».

مررت أصابعها حول أذنى، قالت:

ـ «لو كنت شهبندر التجار بحق وحقيق ما عبرناك ولا جئنا لحد عندك!! ولا جئنا لك بالطبل والزمر!!».

مخى لف يابوى. طار ذهنى فى الشتات مغادرًا سرير الملك إلى متاهات بعيدة غير مفهومة. غرضه يابوى أن أفهم: لماذا إذن يحتفلون بى كل هذا الاحتفال الكبير إن لم يكونوا فى انتظار أن أوسع عليهم بنقودى الكثيرة بعد أن أدخل هليل فى روعهم أننى من أثرياء التجار؟! بكل ما أستطيعه من رقة قلت لأنصاف:

ـ « تفعلون هذا إذن من أجل سواد عيونى؟! أم عيون هليل؟!»

قالت وهى تغمرنى بقبلاتها:

ـ «طبعا ياحسن من أجل سواد عيونك! هل هناك أحسن منك عندنا؟!».

قلت باسما فى ضعف:

ـ «حتى لو اتضح لكم أننى رجل على باب الله؟!».

انفجرت ضاحكة فى جذل وطرب:

ـ «كلنا علـى باب الله يا خـولى الجنينة لـكن الناس مـقـامـات ومقاسات!!».

قلت فى يأس بعد أن أعيتنى الحيل:

ـ «صارحينى بذمـتك ياحلوة! ما سر احتفـالكم بى هكذا كأنى الملك فاروق فى زمانه؟!».

بحلقت فى وجهى صائحة:

ـ «يالك من رجل طيب! أنت مـتواضـع والله يحب المـتواضعـين ومن أحبه الله تواضـع فأحبه الناس!!».

قلت وقد حبكت النكتة:

ـ «إياك أن تكـونى من الإخـوان الهـاربين مـن سـجن ولد الفرطوس!!».

ضحكت حتى دمعت عيناها:

ـ «رضاؤك من رضاء الزعيمة!! ألست الأخ الـشقيق للزعيمة؟! كيف يكون الأخ الشقـيق للزعيمة ضيفا على الجـبل ولا يحتفل به الجبـل؟! إن الجبل إذا لم يفـعل معك الواجب يكون عـيبـا فى حق الزعيمة لا يحتمله الجـبل ولا يرضاه!! خبر وجودك فى الجبل فى مـصـيف عم عـرندس طار إلى كل مـكان فى الجـبل ووصل إلى

الزعيمة بمجرد وصولك أنت وصاحبك!! عيون الجبل من حراس الزعيمة رصدوكما من فوق الهضاب العالية ومن بين عيدان القصب!! كان اصطيادكما وشيكا لولا أن الذى كشف حقيقتكما هى الزعيمة نفسها!!كانت تمضى متنكرة تتفقد الأماكن التى تحبها والناس الذين تحن إليهم! تشم نسمة الدنيا ثم تعود إلى محرابها كما تسميه!! إنها كما تعلم من أهل الخطوة تذهب إلى أى مكان فى لمح البصر خبيرة بالإنسلال كالريح بين أعواد القصب والذرة والأشجار تجرى بجنبها كالحربة مائلة برأسها كى تشق الريح ولا تصطدم به فلا يكون لجريها صوت ولا لوقع قدميها على الأرض حفيف!! مرنة الجسد بسم الله ماشاء الله تتكور حتى تصير قطة صغيرة تسلك من ماسورة ضيقة تفلت من فراغات الأبواب والشبابيك تتسلق قمم الجبل تسقط مدحرجة نفسها كلعب الأطفال تتجنب الصخور الناتئة بذراعيها وساقيها ببراعة وفن!! هذه الجنية الحبيبة اخترعت بين مسالك الجبل تخاريم لم تكن مطروقة من قبل لكن أحداً لا يستطيع السير فيها سواها وحدها وقد جربها غيرها فدقت أعناقهم وتمزقت جثثهم فأكلتها الغربان فقال الجميع إن الله حق ولم يجربوها ثانية فبقيت هى وحدها ملكة أهل الخطوة فى الجبل!! أقرب مشوار عند غيرها مدته ساعتان من الزمان وأكبر وأطول مشوار عندها مدته نصف ساعة مهما طال!! لهم حق يسمونها فراشة الجبل إذ هى لا تلف حول الهضاب والمرتفعات إنما تمر من فوقها كالفراشة!بهذه الموهبة

وغيرها من مـواهبها المتعـددة حق لأختك أن تصبح زعيـمة الجبل وأمه الرءوم واتضح أن الجبل طول عمره كان فى احتياج لها كأم بل كان فى انتظارها!! ياما سارعت هى بنقل الأخـبار والتحذيرات قبل حلول الكوارث بوقت كاف!! وياما جاءت للناس بالدواء النادر من تحت طقاطيق الأرض فى زمن قصـير!! وياما طاردها الأشرار فـزاغت منهم كـمـا تزوغ السـحـليـة فى جـحـرها بكل نعـومـة واطمئنان!! وياما وجـدوها فوق رءوسهم فجـأة لإنقاذهم من شر يحيق بهم أو خطر يحـدق بمراقدهم!! بقيت وفية للمـرحوم خرابة تقيم ذكـراه فى كل عام تقدم للحـاضرين لحم الذبيحـة تقول: إنه يوم عيدى أنا يوم أخذت بثأره فى الحـال من قاتله المتجبر!! ومنذ داست قدمـيها أرض الجـبل حتى اليـوم وهى تعامل الجـميع بكل عدل تنتـصف للمظلوم تحسن للمحـتاج تصلى الفرض بفـرضه!! أتخن مخ فى الجـبل لابد أن يمـيل ويلين إذا هى حـدثتـه لخـمس دقـائق فقط يخـرج من عندها زاهداً فى كل شىء مـتنازلاً عن كل كبريـاء معترفـا لها بالأمومة والشـفافية وبُعـد النظر!! إنها تـحكم الجـبل على طريقة شـيخ الطريقـة وهى فعـلا تقـيم ليالى الذكـر والحضـرة فى أوقات كثـيرة ولا أحد يدرى مـتى ولا كيف تعلمت الكـلام الثمـيـن لدرجـة أنهـا حينمـا تحضر مولـد أحد أعمامـها كعـبد الرحـيم القناوى أو الشـاذلى أو البدوى تتكلم مع المشـايخ المتبحرين فكأنها قرأت جميـع كتب الدنيا والآخرة!! موكبها يرحل قـبلهـا بوقت ليـجـدها مع ذلك فـى المكان الذى اخـتـاروه لنصب

خيمتهم!! ليكن فى معلومك أن الفرقة التى رقصتنى الليلة جزء من الفرقة التى تصاحب الزعيمة فى موالدها!! فُتّك فى الكلام ياخولى الجنينة إن الزعيمة حين رأتكما وعرفتكما من طريقة مشيتك طارت إلى سرايتها فى الجبل فأرسلت ثلاثة من العفاريت الأشقياء من خدمها الذين ورثتهم عن خرابة أمرتهم أن يتفقدوا آثاركما فى مصايف عم عرندس لينذروه بالمحاكمة إن تعرض لكم بسوء!! للزعيمة قضاة علماء تعشقتهم فى رحلاتها وتعشقوها فباعوا الدنيا وجاءوا يقيمون فى خلوة الجبل تحت ظلها لا يكفون عن ذكر الله وقراءة القرآن والأوراد لا يطلبون من أمور الدنيا شيئا سوى النجاح فى هداية وحوش الجبل وإن الزعيمة لتقدم لهم الطعام والشراب والكساء والدواء تعتبر وجودهم بركة حلت بالجبل وهم فى الحق أتقياء أنقياء يحلون أموراً كثيرة كانت تحتاج لحكومة شديدة القبضة يعرفون الله فى كل شىء إلا فى حكمهم على من جاء يقصد الجبل بسوء لكنهم والحق يقال عندهم بصيرة نيرة يميزون بها بين المظلوم والمخدوع والمدسوس والغلبان والأونطجى والخبيث والمكار واللئيم إنهم لا يحكمون بالإعدام إلا على من يستحقه بالفعل ياما كشفوا عن حقيقة ناس استحقوا العفو فعينوهم خدماً وفلاحين وبنائين حتى عمروا رأس الجبل جعلوا منه جنة فيحاء!! من حسن حظى أننى أقوم بخدمتهم فى خلوتهم من غسل الثياب إلى الطبخ والكنس أتفرج عليهم وهم

يتكلمون حتـى تعلمت الكلام وعرفت مالم أعرفـه فى المدرسة فأنا بنت ناس طيبـين علمونى فى المدارس فى أسيـوط وكنت سأدخل الجـامعـة لولا أن ضحك عليّ مـدرس شرير أوقـعنى فى غرامـه فسلمـته شرفى لكنـه سافر إلى بلد بعـيد واختـفى فاختـفيت أنا الأخرى وأتى بى أحدهم إلى الجبل وحتى الآن لم يعرف أهلى عن أخبـارى أى شىء بل نسوا شكلى لدرجة أنى فى الأسـواق ألتقى ببعضـهم فلا يعرفنى!! هل كـنت تتصور أن أحداً يقيم الصلاة فى الجبل؟! الحرية مع ذلك متروكة للجـميع فكل واحد يفعل ما يحلو له فكل شىء ـ كـما يقـول شيخ منهم ـ يمكن فـرضه بالـقوة إلا الإيمان والتقوى!! من يريد أن يغضب الله فذنبه على جنبه وحده!! بات الناس فى اطمـئنان فالشـر كله كان ينشـأ بين أشرار الجـبل خوفا من الخـيانة والغدر! أكبر حاجـة عملتها الزعيمـة أنها كرّهت الجمـيع فى الخيانة والغـدر فبات الكـل فى روقان بال! بات الكل يحـرس الكل وكل واحـد فى الجـبل هو الجـبل بحـاله!! أى طريد جديد لا يكون فى أمان إلا إذا جـاء وقابل الزعيمة واختـبرته فإما جعلتـه من جلاسـها وإما أمـرت له بالعلاج النفـسى فى مسـجد الجبل وحدائقه حتى تتكسر شـوكته وإما حكمت عليه بالإعدام إن تيقنت من فساده التام!! على فكرة! منذ أن راق بال المطاريد كثرت فى الجبل الأفـراح والليالى الملاح! من زواج لطهور لحضـرة ذكر لحضور ضيف عزيز! المزيكة تصدح ليليا فى جميع أنحاء الجبل!!

تجىء الركائب من خيول وحمير وجمال لتنقلنى وفرقتى كل ليلة إلى نجع فى الجبل أو سراية من سراياته التى يملكها أعيان الجبل من قدامى المطاريد الأغنياء الذين كبروا فى السن فتنازلوا عن الزعامة لمن قتلت رأس الحكومة فى عقر دارها!! مساء الخير ياأنس! أنت نورتنا!!».

هكذا أنهت أنصاف كلامها وهى تداعب ذقنى. أما أنا فكنت سبحت فى ملكوت الله ياخال؛ لم أعد أعرف من أنا صرت كفرخ الحمام يلف يحلق يدور من الجبل إلى البلدة إلى مصر محير كيف أحط فى أى مكان. أين تراه يكون عشى الأصلى ياخال؟ أيكون لى كل هذه المحسوبية وأبقى ولداً متشرداً هجاماً فى مصر يسرق الكحل من العين؟!..

سمعنا طرقًا خفيفًا على الباب. رفعت رأسى، رأيت بديعة تدخل علينا فى ربع هدومها تشوح بيديها مستعجلة فى شبق:

- «ستخلصين على الرجل يالبؤة! خل فى عينيك حصوة ملح واتركى شيئا منه لنا!! قومى ياعاهرة!!».

وسحبت أنصاف من حضنى فيما هى متشبثة به فقفزت بديعة إلى السرير من خلفى؛ طوقتنى بشدة وجعلت تشدنى، ثم دخلت فكيهة هى الأخرى متحررة من هدومها فأزاحت أنصاف بقوة واحتلت مكانها. برهة صغيرة ودخل عم عرندس يهتف فى وسط القاعة:

ـ «حيلـك أيتها العـاهرة أنت وهى! تعالـوا كلكم الآن فالعـشاء جاهز! هيا يا ابن شـهبندر التجار!!».

ضـحكت من أعمـاقى يابوى. ذكرت له فرج أم شهـبندر التجار الكبيـر؛ فأعاد ذكـره خلفى مصـحوبـاً بألف زرطة. هـجم علىّ مادًا كفه فى ضـحكة ماجنة؛ فصـافحته واستندت على قبضته قافزا عن السرير الملوكى الذى ودعنى بأنَّة قصيرة وغاية فى الرقة والإثارة يابوى.

أربع فى الأرض

الطبلية الكبيرة توسطت القاعة، بجوارها طبلية أخرى. فوقهما صينيتان نحاسيتان كبيرتان؛ عليهما فضلة خيرك هضاب من اللحم المشوى والمسلوق والمحمر، وأكوام من الحمام المحشو بالفريك، وصدور الدجاج والديوك الرومى وأطباق الثريد والسلطات والمخللات، هجمنا على الأكل؛ الكل يفصص ويرمى أمامى، ومحسوبك يطوح فى فمه، فلما امتلأت وبقيت الصوانى حافلة بالخيرات جىء بالفاكهة والمهلبية، ثم رفعت الأطباق وجىء بالشاى الثقيل، طرأت على القعدة وجوه جديدة تولت خدمة الرص والتكريس والتوليع، وظهرت كلاكيع الحشيش من كل ناحية، غمزنى عم عرندس بكلكيعة كبيرة خضراء.

- «ما رأيك فى هذه الحشيشة؟!».

عجنتها فى يدى فاسترحت للمسها فقلت: طيبة، فهمس:

- «زرع يدى وقطف يدى وصنع يدى!!».

- «الله ينوّر عليك!».

ـ «وأنت ماشى خذ ما تشاء من الكيف لك!».

ـ «تشكر يا عم!».

وزع على كل الجالسين. وكان الزمار قد راح يقسم على المزمار، تسنده الطبلة والسلامية، واستطال نفس الأرغول فى زفرات خشنة خشونة تحرث فى الأعصاب والمشاعر جداول من نغم عميق، سرعان ما قامت النسوان الثلاثة فتحزمن وغطسن فى بحر الرقص يفعلن الأفاعيل..

لاحظت أن صاحبى هليل معتكر المزاج بعض الشىء؛ فانزعجت ياخال؛ خفت أن يقل عقله فيطلب منا الانصراف، أو تركبه غزالة الدروشة فينتبه إلى أن ما نفعله رجس من عمل الشيطان فينكد علينا، فنويت لأخسرنه إن فعل، ملت على أذنه:

ـ «مالك يابو العم؟! طلبت لى السعادة والرضا فما بالك يركبك الهم؟! كلهن تحت أمرك لو أحببت!!».

شوح فى فروغ بال:

ـ «أنت تعرف أن ليس لى فى الحرام! أنا زعلان لأن ما أردته أنا لم يحدث كما أردت!!».

خفت أن يشتت مخى:

ـ «وما الذى أردته أن يحدث يابو العم؟!».

مال على أذنى باسما:

ـ «كان عشمى أن ترى الخوخـة بالذات وتشبع منها إنها أحلى وأمتع منهن جميعا!».

ذكرنى بموضوع الخوخة يابوى:

ـ «آه! نعم! ولكن يابو العم خـوخـة ماذا الآن بعـد هذا التفـاح والقشدة!؟».

بدا كاليائس؛ شوح فى ولولة:

ـ «فماذا لو رأيت الخوخة؟ تقع من طولك فى الحال!!».

بحـثت عن عم عرندس لأسـأله عن السـر فى عدم مـجىء هذه الخوخـة فلم أجده، تذكرت أننـى لاحظت انصرافه ومـجيئـه عدة مـرات، سلمت أذنى لهليل وعـينى لبـحـر الرقص المتـلاطم باللذة والشـهـوة الطافـحة، كنت أحـاول النفـاذ إلى مـا تحت ثيـاب كل راقصة، إلا أن مـوضوع الخوخة وغيابهـا شغلنى؛ فالبنى آدم منا طماع خصوصا فى هذه الشغلة...

فـجـأة دخل عم عـرندس يتـحـاشـى الاصطدام بالراقـصـات المتلويـات تحت قـمـصـان مـن الحـرير الأطلس الأحـمـر اللامع وشراشيب الشيـلان الملتفة حول خصورهن تتطوح بـين السيقان، كان عم عرندس مـتدلى الأذنين فى حرج وخجل كـالمضروب على وجـهه بالصـرمة الـقديمـة، توجست من مـنظره؛ حولت إليـه كل اهتمامى؛ فلما جلس قرَّب وجهه منى ومن هليل قائلا فى أسف:

ـ «البنت الخـوخة بنت الكلب أتعـبتنى! تصور أننى بـعثت بمن أتى بها غصبا عنها؟ لقـد عذبتنى! كل مرة أخرج إليها أهددها بأن الضـيف الذى عندى يقدر أن يحـرقـها! لم أقل لهـا من هو! وهى غشيـمة لا تعرف من أخبار الجبل شـيئا كثيرا! كل مـا طلع عليها قولها إنها قد انخطبت بالأمس لواحـد يعيش فى مصر وإنها كفت عن اللبط وفاءً للكلمـة التى أعطتها لخطيبـها!! بنت الكلب تطلع لنا فى مطلوع جديد تتصور أننا سنصدقـها! إننى أصدق أن الكثيرين يمكن أن يخَطبـوها حتى مع علمهم بسـيرها البطال أمـا أنها تمنع نفسهـا عن السير البطال لمجرد أن شابا ابـن ناس خطبها بالأمس فهـذا لا أصدقه لكنى تعـبت معهـا وهى تهددنى بالصـوات وقتل نفسها إن غصبت عليها!!».

ثم اكتـست عيناه ثوبا من الحـزن الشفيف الأليم. شـعرت أنه يوشك أن يبكى لشدة ورطته بين أن يوضح لى موقفه من إرغامها على المجىء وبين أن يذيع سـراً لا ينبغى أن يذاع. وإذا به يقـترب منى حتى يلاصـقنى متربعـاً؛ هامسا فى أذنى بـصوت أليم يقطع نياط القلوب:

ـ «اللهم ابعد الشر عن بناتنا!! هذه البنت لهـا ظروف صعبية!! مات أبوها ليفـتدى نذلاً كان يحرسه! النـذل نذل لم يرع للمرحوم حـرمة لم يتق اللـه فى عرضـه وأولاده ترك البنيـة نهبـا لأولاده الصبيـان يعبثون بها فـلا يردعهم!! خرقهـا أصغر الأولاد مع أنه

المتعلم الوحيد فيهم بكل أسف!! أجهضوها!! قصوا لسانها! كافأها المفترى الأب بأن تزوجها هو سترة على ابنه زواجا عرفيا!! المسكينة لا تعرف العرفى من الرسمى لكن الله انتقم لها بالعجل فالولد الذى خرقها بعد أن أصبح ضابطاً فى الجيش قتله اليهود فى السويس نزلت على أبيه النقطة والعياذ بالله كسَّحته! شهر واحد ثم اتكل على الله وبقى ولداه الكبيران كل منهما يريد أن يرث البنت كجارية والبنت تصوت وتقول إنها زوجة أبيهم على سنة الله ورسوله لكن نسوان الدار تكفلن بطردها ليلا!! وكنت أمشى فى شوارع البلدة ليلتها حين شفتها تتلكع فى الظلام متنكرة فى زى نفر أجرى من طائفة المعمار يحمل صرة خلقاته!! كشفتها من طراوة مشيتها ضيقت عليها الخناق فبكت! حكت لى ما حكت! جئت بها إلى هنا فخبأتها بعض الوقت ثم صحبتها إلى الزعيمة فوق الجبل حكيت لها حكايتها من طقطق لسلامو عليكم فبعثتنى بها الزعيمة إلى ناس طيبين لهم مهابة المال وعزوة الولاد فشغلوها عندهم خادمة للأطفال وزريبة المواشى!! بصراحة أنا المحقوق فى أمر هذه البنية أنا الذى ميلتها مرة لتبيت مع شيطان من مهربى المساخيط رآها عندى فطار عقله ودفع لى مائة جنيه ولها خمسين مع فرع من الكهرمان الأصلى الأثرى ولولا أننا خدرناها بالحشيش والأفيون ما رضيت أن تفك عظامها!! هذه البنت دون كل البنات أشعر أننى ظلمتها وأننى أنذل من الذى غدر بها فعذبه الله عاجلاً وأشعر الآن أننى لو ضغطت عليها فربما تموت وتجىء لنا بمصيبة!!

ثم ضحك ضحكة هزيلة مكتومة كأنه يريد أن يقول بها: إنس هذه المأساة العارضة وعد إلى ساعة الحظ التي نحن فيها. وجدتني أقول:

- «هذه بنت طيبة وجدعة فلا تضغط عليها! دعها في حالها يا بو العم! ساعدها على التوبة!».

استراح عم عرندس لهذا القول كأنني خلصته من ورطة، وشعرت والله يا خال أنه ميال لترك البنت في حالها، فشعرت أنني قد أحبه ذات يوم. الدور والباقي على هليل الذي بدا كاسف البال كأنك دلقت فوقه برميلا من المياه الباردة، كأن خطته كلها فشلت، فشوحت له قائلا:

- «خلاص يا هليل كل شيء نصيب وأنا مبسوط كل الانبساط فماذا يقلقك يا أخي!».

صار هليل يردد كأنه يبتهل:

- «الحمد لله كل شيء نصيب!!».

ثم أضاف بعد هنيهة:

- «ومادامت الخوخة قد صدقت في وعدها وحفظت شرف خطيبها واحترمته في غيبته واحترمت كلامها معه فإنني متبرع لها بمائة جنيه تنفق في فرحها!».

قال عم عرندس متهللا:

ـ «كلك نظر يا هليل! على كل حال سأجعلها تجيء لتجلس معنا فحسب! هى ليس عندها مانع من الجلوس معنا لزوم الفرفشة أما أمور الدب والضرب فى المليان فلا! والحمد لله أن أمامنا سكك مفتوحة على البهلى!!».

وأشار إلى الراقصات. ولم يتم كلامه، إذ أن فكيهة فعلت مثل أنصاف وزحفت نحوى على أربع ثم اختطفتنى من مكانى بنفس القوة والسرعة والرشاقة. فإذا بى بعد برهة ملقى على السرير الملوكى فى الغرفة المقابلة، وفكيهة تعرينى من خلقاتى وتشخلعنى على نغمات المزيكة وأنا ضارب فى سقف النشوة. ما كدت انتهى حتى قفزت علينا بديعة لكننى صرت خرقة بالية. صارت تداعبنى حتى دبت فى الروح من جديد فقمت كالمفجوع كالمجنون. مزقتها يا خال، أسلت الدماء من وجهها عضا وخربشة وكل ذلك من الملل أو من الشبع لست أدرى..

نزلت عن السرير أجرجر ركبى. فما إن دخلت القاعة الأخرى متجها إلى قعدتى السابقة حتى رأيتها يابوى فتسمرت فى مكانى. تخيلت أن شللا أصابنى يابوى، فانهمرت الدموع من عينى. أما عين هليل فقد جعلت ترقبنى بنظرة حادة جدا وغامضة بما لا أعرف إن كانت شماتة أم إشفاقا يا بوى. ثم إننى دققت النظر فيها لأتأكد أن الأمر حقيقة وليست من التهيؤات إلا أن الحقيقة كانت صادمة، فالتى أمامى هى بعينها «حنة»، حبيبة قلبى حنة، التى خطبتها من نفسها بالأمس، وأخذت الأرض تميد بى يا خال.

بـــاطـــــــه

أدركت الآن فحسب ما الذى قصده هليل بارتكاب هذه المغامرة الفريدة: كان يريد أن يثبت لى - عمليا - أن حنة ليست جديرة بأن أتزوجـهـا إذ هى تمشى فى الطريق الـبطال، وكـان من الممكن ألا أصدقـه لو قال لــى ذلك وكنت على وشك أن أركب رأسى وأجلب لهم العار مـدى الحيـاة بهذه الزيجة، فـإذا به من حيث لا يقـصد يثـبت لى ولنفســه أنها بنت تســتأهل الســلامة وأنهـا كفـيلة بأن تصون شرف زوجها وتحمى عرضها. المشكلة الآن ليست فيها بل فى هذه المفاجـآت التى دهمتنى بخصــوص الزعيمة: ســعدية ولد أبى ضب تصبح زعيـمة فى الجبل، وغرافة يطلبهـا علية القوم من مجلس قيادة الـثورة؛ فيما أنا سواح كحـيان فى بلاد الله! فهل يا ترى ستوافق الزعيمة على أن أمرغ سمعتها فى التراب؟!.

أفقت علــى هليل يسندنى من ناحيـة وعم عرندس من الناحـية الأخرى خشـية وقوعى وأنا أحاول الجلوس. كـانت نظرة حنة قد تسمرت على وجهى فى اندهاش وفزع، لا تنى تردد مأخوذة: «هو أنت؟! هو أنت؟!». وأنا الآخر أردد نفس العبارة. وإذا بها

تنخـرط فى البكاء، فمـا كـان منى إلا أن انهمـرت دموعى غـزيرة كالسيل فيما أردد:

– «ســامحـينى يا حنة! ســامـحـينى يا حنة ! أنا مـا زلت عند وعدى!!».

فلم ترد، إنما تسللت خارجة وهى تـنتفض من البكاء، جزعت يا خال، فطمأننى عم عرندس:

– «اطمئن فــهى تحت يدى فى أى وقت تشاء المهم أن الزعيـمة بعـثـت الآن تريد أن تراك!! الركـائب جــاهزة بعـد أن تســتـحم وتستريح لك ساعتين! لقـد صرفت المرسال على أننا قادمون على وجه الصباح فكن مستعداً وسيكون هليل معنا!!».

لم أعط منطقـا يا خال. مـسـحت دمـوعى وتبسـمت درءاً للكدر المفاجىء، فتبسموا جميعا وقالوا فى نفس واحد:

– «كل شئ قسمه ونصيب!!».

فمـا وجدت قدرة عـلى النظر فى وجه أحد. وأهم شــئ شغلنى آنئذ هو أن أقوم لأرتمى فـوق السرير فأستغـرق فى نوم عميق لا أفيـق منه مطلقا. لكننى مـا كدت أشـرع فى النهوض حـتى دهمنا صوت صراخ ملتـاع؛ وأضاءت الردهة بنور ساطع صــار يقترب؛ وإذا بشـجرة من اللهب المخضـوضــر فى توهج تعبر باب القاعة فى اندفاع مـذهل صارخ، وصـوت باب الشـارع ينفـتح. قمنا فـزعين،

عبـرنا الردهة إلى الشارع. كـانت رائحة احـتراق اللحم البـشرى زاعـقة خـانقة. فـى الشارع كـانت شجـرة اللهب تواصل الجـرى بعشرات الألسنة المدببة وصـرخاتها تمزق جوف الظلام تنداح فى أعالى الجـبل؛ ونحن جـميعـا نجرى وراءها بأقـصى ما فـينا من سرعة؛ والألسنة اللهيبة الممتدة تسود شـيئا فشيئا تحت عباءة من الدخـان الأسـود رأيناها على البـعـد ترتمى فـوق الأرض هامـدة فتبـاطأت خطواتنا فى يأس مرير ثم توقفنا ذاهلين عـاجزين. كان هليل قـبـالتى منكس الرأس صـدره يعلو ويهـبط، فـمـا دريت إلا وذراعى ترتفع ثم تهوى على صدغه بضـربة تقطر حقداً وسخطا، ثم ارتميت على الأرض فانقطعت صلتى بكل شئ.

لعب

الشمس كانت متبرجة على أتم زينتها يابوى فى ملاقاة صبحها الفتى. قد صبغت وجهها وخدودها باللون الوردى. كانت تخادعنا حتى لا نراها وهى تنفرد به تتعشقه إذ هى تزحف نحو جبهة الضوء شيئا فشيئا فتحتويها خلف السحاب، ثم تسقط به خلف هامات الجبل، تقبِّل الضوء ويقبلها، تشحنه بالضحى اللاهب، فيشحنها بذكريات الأمس البعيد. وحين انتهت نعالنا من اللف حول الكثير من الهامات العالية، وصعود القليل من الهضاب القزمية كان الصبح قد شب عن الطوق، فالتقيناه صبيا فتيا على مشارف أعلى هضبة فى الجبل. هضبة مخيفة وساحرة يا خال تحلف اليمين أنك لو كنت جنياً أمك من المريخ وأبوك من الشلال ما استطعت الوصول إليها وحدك بغير دليل تربى هنا منذ الطفولة فأصبح يعرف الفرق بين الشىء وشبيهه، والاسم وسميه. ذلك يا خال أن هذه الهضبة قد مررنا فى الطريق بعشرات منها؛ وإنك أثناء سيرك بجوارها لا تعرف إن كنت تتقدم أم تتأخر؛ لا تعرف إن كنت تمشى بجوار نفس الهضبة أم هضبة أخرى. والشمس أحيانا فى وجهك وبعد دقائق فوقك أو خلف ظهرك أو على يمينك

أو شمالـك وأحيانا لا وجود لهـا فى السماء المرئية لك بين شـقين مرتفعيـن يفصلهما طريق. إنك يا خال تمشى فى مواجـهة الشمس ساعـة أو أكثر وفـجأة ترى الشـمس قد صارت وراء ظهـرك قبل الأوان. حقيقة الأمـر يا خال أنك حودت أثناء السير دون أن تدرى عائداً إلى الخلف، والتحويد يتم ببطء على امتداد طويل؛ حتى لتظل تظن أنك تمشى فى خط مسـتقيم. ونفس الهضبـة ربما كانت على يمينك فإذا هى فجأة قد صارت على يسارك، ولو أن طائراً أراد أن يقطع مـشوارنا ذاك الذى نقطـعه فى أكـثر من سـاعتـين فقـد لا يستغرق بضـع دقائق..

ركض الركائب يدوخ الراكب؛ وللطريق دواره كمـا للبحر أيضا يا خال. هضاب ثم هضاب ثم هضـاب، تمشى فوقها يا خال وأنت متخـيل أنك تمشى بجوارها؛ تصعـدها وأنت متخيل أنك جـاوزتها فتـركتهـا خلفك، إذ أنك كلما اعتليت قـمة طالعتك من فـوقها قـمة أخـرى لهضـبة كـالتى تطالعك وأنت مـاش فى سفح الجـبل على السواء. أما المشى فـوق الهضبة فإنك لن تشـعـر به. هذه الهضاب لابد أن تكون مـسكونة من الأزل يا خـال؛ فلا يـقوى على ضـرب هذه الصـخور واختراقها سـوى الفراعين الأقوياء يا خال، يشقون الحجر بالحجر والسماء بسماء مثلها؛ ولد فتوات يا بوى..

رواغتنا الشمس كثيرا، وتسلطت على أقـفيتنا حتى شوتها. كنا كأننا نجترىء على سلمها الحلزونى فنلف حـولها نبتعد عنها مرة ونقترب منها مرات. وكانت كـأنها تتوارى لتأخذنا من الخلف على حين غرة..

ضؤل خيالنا تماما صار بطشة ظلال تحت أقدامنا. خطو البغال قد ثقل إلى أقصى حد، رقابها صارت قرب صدورنا من فرط الصعود. نزل عم عرندس عن بغلته وجعل يسحبها ماشيا أمامها على رجليه ناظرا إليّ أنا وهليل فترجلنا وفعلنا مثله..

بعد خطوات طويلة إخضر لون الشمس فقلنا إنه اخضرار اللهب فى أوج اشتعاله؛ فمن عجب يا خال أن الأخضر الرطيب كامن فى الأحمر الملتهب الأوار. الله وكيل يا خال، سبحانه جلت قدرته: أن تكون النار هى نفسها الماء الذى يطفئ لهيبها كما سمعت عمى الشيخ ذات يوم وهو يشرح لجلاسه بردة البوصيرى: الماء فى النار، والزرع فى الماء، والشيطان فى الانسان؛ حقا ما عفريت إلا بنى آدم صدقنى يا بوى. كل شئ فى كل شئ ولايفهم معنى الأفكار والخلق وحكمة الله إلا من عاش فى مثل هذا الجبل. شيئان فقط لايجتمعان فى هذه الدنيا فى كيان واحد: الله والشيطان؛ فسبحانك اللهم جلت قدرتك؛ اللهم اغفر لى ما ارتكبته الليلة المنصرمة من ذنوب..

المسافة بين اللون الأخضر وقرص الشمس أخذت تتسع؛ وأخذ قرص الشمس يرفع صدره عن الخط الرمادى الغامق يبتعد ثم يبتعد ـ الخط الرمادى المقوس المنبعج بدأ ينفصل بدوره عن اللون الأخضر يلتحق بموكب الشمس فى السماء. ثم بدأ خط من الخضرة الرمادية الكثيفة يمتد أمامنا طالعًا علينا من بئر الأفق سرعان ما أخذ يتدملج يغلظ يفقد تناسقه. فإذا بنا أمام سور مزروع حول أسلاك شائكة يْمتد فى جميع الجهات امتدادات

لانهاية لها؛ بداخله غابات شديدة الكثافة يا خال. جزورين وكافور وصفصاف وتوت وجميز وفواكه من كل الألوان؛ جميع أنواع الروائح من زهور وورود وثمرات تسطع فى الأفق؛ الكون كله زكى الرائحة يا خال. ولكن، من يا ترى ذلك القلب العظيم الذى يسكن هذه الجنة؟!..

توقفنا برهة نلتقط أنفاسنا التى تركناها فى سفوح الطريق فصرنا نتساند على البغال وننظر فى السفوح خلفنا فنحس كأن أنفاسنا تشدنا قبل أن نشدها العجيب أننا لم نر من تحتنا أرضًا يمكن أن نتهاوى فوقها إذا وقعنا؛ لم يكن أمامنا سوى صخور ناتئة كحراشيف الجبل تزداد رقاعها اتساعا كلما تسافلت..

مشينا بحذاء السور المزروع الذى كان على يدنا اليسرى ولم يكن يظهر لنا أننا فوق هضبة؛ إنما نحن ـ رغم كل هذا العلو الذى صعدناه ـ لانزال فى سفح من السفوح؛ فها هى ذى هضاب كثيرة تبدو قممها الهائلة من جميع النواحى على امتداد مسافات هائلة؛ وكان الطريق يتسع على يميننا شيئا فشيئا إلى أن انقرض من جانبنا تماما وحلت محله أرض رملية عريضة مترامية الأطراف تحوطها الهضاب من ثلاث جهات. وبدا كما لو أن قرص الشمس قد حصرنا فى ركن ظليل من هذه الجنة فعزلنا عن كل ما يربطنا فى الأسافل. وهنا نطق هليل بعد صمت طويل:

ـ «لو كنت أعلم بوجود هذه الجنة لصرت من كبار المطاريد!!».

وقال عم عرندس:

ـ «ليس كل مطرود فى الجنة يا هليل!!»

وقال ولد من الأتباع لا اسم له:

ـ «رحم الله خـرابة! هو الذى اسـتـوطن هذه المدينة وعَـمَّـرها وكانت فى الأصل يحتلها جماعة من العربان الهلالية ذوو الأظافر الطويلة واللحى الخشنة!! كـانوا من أقدم عتاة المطاريد والتـائهين ومجانين الجبل!! لم يتركوا مكانا فى الجبل إلا وذهبوا إليه عربدوا فيه!! وأصل الحكاية أنهم كانوا يصاحـبون القبط يضحكون عليهم بغرض الحماية فـعرفهم القبط على مخارز الجـبل فلما جاءوا إلى هذه السقيفـة وجدوا أشجارًا مزروعة من قـديم الأزل ومن تحتها دير صغـير محنـدق يعيش فيـه بعض الرهبان العـجائز يقيـمون الصلوات!!».

وافق عم عـرندس على كلام الولد وقـال إن هذا الدير موجـود وسوف نراه لكنه تحول إلى مـسجد صغيـر على القد بمثابة خلوة تقـضى فيـها الزعـيمة مـعظم ليـاليهـا مع قضـاتها ومـشايخـها الزاهدين. فقال الولد الذى من الأتباع:

ـ «العـربان الجـبـابرة هدمـوا سـقـيفـه ولم يقـدروا على هدم الجـدران!! ناس شـغلتهـم الهدم أمـا نحن المصـريون أبا عن جـد فشـغلتنا البناء هكذا قال لـهم خرابة!! ولما سكن هنا كـان العربان يخزنون فى الدير سرقاتهم وهم الذين قتلوا الرهبان الثلاثة واحدا بعـد الآخر بحـثا عن كـنز ظنوا أن الرهبان يحـرسـونه لكنهم لم يجدوا شيئا!! وفى ليلة نام فـيه خرابة فجاءه فى المنام هاتف على

هيئة تمـثال رمسيس قال لـه: قم ونظف هذا المكان فإنه آأمن مكان في البلاد كلها لأن زوجة إله الخير جاءت بجـثته التى جمعتها من كل مكان وزعهـا فيه أخوه إله الشـر فدفنتها هنا وبقـيت بجوارها تبكى وتصلى حـتى فاضت من دمـوعها مـياه صنعت نهـر النيل وغطت كل الهضـاب وجرفت المرأة الوفيـة الطيبة وحـملت جثتـها الغريـقة إلى الإسكندرية فـعم الخير فـى الوجه البحـرى كله لأن الجثة ذابت فى المياه فجعلت لونها أحمر كالفخار !! فقام خرابة من وقته فنظف المكان وجـعل منه قعدته ومسكنه فجـاءه الهاتف مرة ثانية فى ليلة جمعة وقال له: قم واحفر الأرض ألم تر الأشجار من حـولك يا خـرابة؟ قـال: بلـى! قـال ألم تعـرف أنه حـيث وجـدت الأشـجار توجـد المياه؟ قال: بلى! قال: قم واحـفر الأرض من تحت رجليك تجد المدد فاسق هذه الأشجار واعلم أن كل شجرة من هذه مدفون تحتها رجل ذكر الله وسبَّح بحمده!! عنها وقام خرابة فجاء بالرجال فظلوا يفحتون فى الرمل أسابيع وأشهر والعربان يرمونه بكل جنون!! خـرابة طول عمـره عفريـت عرف من سهـولة الرمل تحت قدمـيه أن الأرض الصلبة لاتزال بعـيدة جدا فـصمم على أن يلامسها حتى وجدوا تحت ثلاثة أمتار من الرمل أرضا مربعة من الرخام مـجوفة مـن أطرافها الأربعـة تجويفات تتـسع لقبـضة يد كبيـرة لتقبض على يد موصولة مـتينة!! سرعان ما وسـعوا حول هذه الرخامة العريضة وكان الرمل أشبه بعجينة الفخار والمياه تنز حول الرخامة!!».

قاطعه عم عرندس مكملا بلذة:

ـ «جبار طول عمرك يا خرابة! مـا فعله لايجرؤ على فعله أحد! جاء بسـيبـة من الحديد بثـلاث قوائم كـسيـبة الجزار بالـضبط! كمـيزان الـقبـاني! فى أعلاها بكرة من الحـديد مجـوفة وممتلـئة بتكويرات حـبل تخين مـجدول من أربع أطراف من ليف النخـيل! ربط كل طرف فى قـبضـة تجويف من تجويـفات الرخامـة ربطا محكما! وأمسك بطـرف الحبل حوالى خمسين رجلا عـفيا صاروا يشدّون! ورجـال آخرون بأسلحة الكريكات يفززون الرخـامة فى مرقدها يفـصلون شفتها عن شفـة الأرض هيلا هوب! هيلا هوب! الهمة يـا رجال! ما كادت شفـة الرخامة تنفصـل عن شفة الأرض من إحدى الجـهات حتى أسـرع فريق من الرجال بوضـع شـجرة كافـور مقطوعة! صـاروا يرفعون طرف الشـجرة حتى انتـصبت الرخامـة واقفـة على سيـفها فـقلبوها على ظهـرها! أنا على فكرة شاركت فى رفع هذه الرخامـة شاهدت البئر من تحـتها كنت أول من ذاق طعم مياهـه فاستحليتـه كمياه النيل بل أشـد حلاوة! كان مبنيا بالحجارة وقام خرابة ببناء قبة فوقه لها أبواب وشبابيك فى كل شباك دلو مـربوط بحبل متين! وابتنى قـناة موصولة ممدودة فى أعماق المنطقـة حتى آخرها كما ابتنى لنفسـه السراية المجاورة لجدران الدير وجاءت الزعيمة فبنت للجـدران قبة فامتلأت المنطقة بالأنس والخضرة!!».

البـغـال تمهـلت وحـدها يابوى. بدأت نقط بيـضـاء فى بحـر الخضـرة الواسع، برزت فى بيضتـين كبيـرتين متـجاورتين بين

الأشجار فاستطعت أن أميز فيهما قبة البئر السبيل وقبة المسجد الخلوة؛ ومن خلفهما سراية مشرقة مثل سرايات الباشوات. ثم إن الوجوه السمراء الملوحة بدأت تكثر حوالينا داخل جلابيب من البيسة الزرقاء يتفحصوننا بابتسامات بلهاء ويهزرون مع عم عرندس بكلام قبيح جارح وهو يلعب لهم حواجبه سخرية وهزءًا بهم. فما أن وصلنا إلى باب حديدى متين أعلى من قامة الرجل الفلق حتى جوبهنا بعاصفة عنيفة من نباح الكلاب لا ندرى هل ترحب بنا أم تنذر بافتراسنا. انبرى أكثر من هلف يسكت الكلاب فلا تسكت؛ صوت تمردها على الجنازير يصلصل بشدة يصنع ضجيجا مخيفا مثيرا للأعصاب ..

الباب الحديدى مغلق لكن كله عيون مفتوحة، كل عين تطل منها فوهة بندقية أو فوهة عين حارسة. لم نكن نقترب من الباب إنما كان هو الذى يستدير ببستانه ليواجهنا. شرفة السراية تبدو كأن السراية التفت بها وجاءت تواجهنا بباب مشغول بالنحاس. فإذا بهذا الباب ينفتح بدرفتيه فيطل من داخله بستان ضخم زاهى الألوان يا خال، تكاد ألوانه الزاعقة الكثيرة تصيح فى طرب بهيج، برهة وجيزة ثم ظهرت الملكة نفرتيتى بحجمها المحندق ومشيتها الملوكية. ما أن لفظها الباب حتى انغلق من تلقاء نفسه. حاجة تهوس يا بوى. أما الملكة فإنها تهادت نحو سور الشرفة المسقوفة، فى خفر وجلال تلف رأسها بطرحة بيضاء كالفل بدت كالتاج المزين بخصلات من شعرها المتكور فى دوائر مرفقة ببعضها

بالطرحة بدبابيس على هيئة ورود وزهور وأوسـمة وجعارين من ثمين المقـتنيات التى استـورثها خرابة من بطن الجـبل عن أجداده الفراعين: عقـود من الذهب مطعمة بالأحجار الكريمـة مشرقة على صدرها الـعريض الناهد رغم ضـآلة حجـمها؛ أسـاور من الذهب مطعمة بالدر والياقوت ترصع معصميها وهى عاقدة ذراعيها فوق صدرها كوقفة العذراء بنفس الوداعة..

بدت لى الملكة يا خـال على غاية من الوثوق والاطمـئنان تملك فى يديهـا أسرار النيل وخط سـير الكواكب وفى خـزائنها دفـاتر تحوى خرائط محطات الشـمس دقيقة بدقيقة وخـريطة المياه بقعة ببقـعة وجدول الحـياة المقـبلة لحظة بلحظة. أمال يا بوى، حـاجة تهوس والله يابوى. أهذه الملكة بجلالة قدرها، المطلة من شرفة من داخل شرفة من قصرها هى أخـتى سعدية أرملة خرابة؟! حتى لو حظيت بلقب فراشة الجبل أو زعيمة الجبل من أين جاءت بمثل هذه البذلة الوقور التى ترتديها من قطعية واحـدة ملفوفة حول الجسد بحرفنة فـائقة لا تعريه ولا تختـفى معالمه الأساسيـة البارزة بكل وضوح؛ قماشـة داكنة اللون تستقبل ألوان الطيف بلمعـة مزدهية كالمـرآة يظهر من ورائهـا الجسـد مضـاعف القسـمات مضـاعف الجـمـال طاغى السـحر يا خـال. يا خلـق الله، لابد أن تكون هذه البذلة أيضا من مستـورثات خرابة من طول عسّه فى الأرض فكل الأرض الصعيدية مقابر كالضمير الغفل تحوى الكنوز..

قد جـاءك أيتها الملكة من بات مـفتونا بـكل هذا الذى يخرج من بطن أرض الصعـيد يحكى مـا يشيب له الولدان من حكايا. بمـثلها بات الحـاج أحمـد نوار الدين السنى حـاكمًـا على البـر كله تأتمر الحكومة بأمره وهى تدرك أنه محض نصاب ضلالى لا ذمة له ولا دين، نهارك فل أبيض يا فـراشة الجبل يا زعيمـته. لسوف تكونين السبب فى نجاحي؛ لا أنوي نجاحا يجـعلنى مثل الحاج أحمد نوار الدين السنـى بل أرغب فى أن أحكم الحـاج السنــى بذات نفسـه فيصبح من بين خدمى..

تحلف اليـمين يـا بوى أن الله ركب لى جناحـين فى الخفـاء طرت بهما فكلما اقتربـت من الباب الحديدى ازدادت هى التصاقا بسور الشرفة تكاد ترمى نفسها نحوى لولا ما يفصلنا من سور وزرع وقنوات وأسلاك. كانت البسمة على شفتيها تهتف: حسن! حـسن! إن هى إلا برهة حتى انفكت الجنازير عن الباب الحـديد فانفـتح مزيقا، فظهـر عديد من الرجال يحـوطون الكلاب يعلقون البنادق فى أكتافهم. تركنا البـغال لمن تولاها؛ إندفعت أجرى فوق ممر من الزلط الملون صـاعدًا سلمًـا مواجهًـا. ارتمينا، الملكة وأنا، فوق بعضنا؛ فوقعنا سويا على الأرض ننهمر فى بكاء حار عميق تتخلله ضـحكات نزقة يتـبختـر صوتها فى طيـات صوت الذهب واليواقيت.

أكـــــل

باشوات من يابوى؟ ملوك من؟ هذه هى القصور وإلا فلا. البهو طويل واسع على الجانبين أبواب كثيرة مشغولة بالنحاس الأصفر اللامع على هيئة عقود كبرواز صفحة المصحف الشريف لكنه ملىء بالنقوش الفرعونية التى تحكى قصصا يمكن تتبعها منظرا منظرا. المقابض من عاج وفضة، الأرض مفروشة بسجاد ثمين ملون. السقف مشغول بالزخرفة الملونة كأبسطة منقوشة لتوها. تُرى يابوى من الذى قام بشغل هذا السقف وهذه الأبواب وهذه الثريات المتدلية كأفرع الزهور وعراجين البلح، كلها من البللور فى وسطها مصابيخ بللورية كبيرة تضاء بالشموع، هذه الكراسى والمقاعد والمناضد ذات الأرجل المشغولة المرسومة على هيئة وجوه آدمية وأشكال حيوانات وزواحف وطيور جارحة؛ إن رجل الكرسى وحدها تساوى ألوف الجنيهات من كثرة ما فيها من شغل وتطعيم. فوق المناضد الكثيرة المختلفة الأحجام والأشكال أعداد لا حصر لها من تماثيل ومساخيط من جميع المعادن والأحجار الأصيلة. هذا البهو وحده متحف يابوى؛ وإن ما سرقته

أنا من مقبرة الحاج أحمد نوار الدين السنى لا يجىء شيئا بالنسبة لركن واحد من هذه الأركان المتخمة ..

الملكة جعلت ترقبنى يابوى، تكتم ضحكها من كثرة توقفى عند كل خطوة للنظر المنبهر فى هذه الأشياء، قلت لها :

ـ «من أين جاءتك كل هذه الثروات ياأخت السعد» .

انفجرت ضاحكة:

ـ «لا ثروات ولا دياولو !! إنها هنا أكثر من رمال الصحراء يلعب بها الأولاد ويتقاذفون بها عند العراك ويبيعونها بكلمة : شاطر ياولد !! لو لم تكن الحكومة تضبطها وتحاكم حائزها لأعطيتك منها أجولة !! على كل حال إنها تنفعنى أشترى بها أتخن شارب فى الحكومة من صغيرها لكبيرها!!».

قلبى راح يرقص ياخال ؛ لكن الانقباض حل بصدرى بمجرد ذكرها كلمة الحكومة؛ فإن هذه الكلمة اللعينة تصيبنى بحكة الهرش فى دماغى وأجنابى قالت الملكة باسمة :

ـ «ماذا دهاك يا أبا على ؟؟».

اغتصبت بسمة مرة الطعم:

ـ لكن من الذى وضع لكم كل هذه الرسوم والزخارف فى هذا السقف؟! هل جئتم بناس من مصر ؟!».

ضحكت الملكة في صفاء كأنها لم تضحك منذ عمر طويل قالت وهي تغمزني في كتفي:

- «المرحوم هو الذى فعل كل ذلك ألف رحمة ونور تنزل عليه !! كان جباراً قويا ورجلا! كان خسارة فى الموت ولو لم آخذ بثأره لحظة قتله لبقيت طول عمرى فى مستشفى المجانين !! الحكومة لا تستنذل إلا فى اللحظة التى يجب أن تكون فيها محترمة وإنسانة! لحظة وقوع الأصيل بين يديها! إنها تخاف ولا تختشى!!

آه يا حسن لو تعرف الدمامل الوارمة فى قلبى من الحكومة! لقد ضربت رأسها فى الحائط حتى تتمكن من القبض على الفارس الذى قتل ذلك الحكمدار ولم تعرف حتى الآن أننى ذلك الفارس !! نجانى الله لحسن معاملتى لجميع سكان الجبل ولأن الحكومة لا يمكن أن تجد لنفسها مرشدا من أهل الجبل !! وسأبقى ساكنة فى هذه الحكومة !!».

- «الزمن لا أمان له!».

- «سعدية التى تبحث عنها الحكومة لتحقق معها باعتبارها زوجة ثانية لخرابة قد تفيدهم فى شىء ماتت ياحسن وطلعت لها شهادة وفاة وتم دفن جثمانها فى مقبرة العائلة ألم تعلم بهذا ياحسن؟!».

- « لا والله فكيف حدث؟!».

ـ «ما أكثر من يمتن فى الجبل من نساء ليس لهن فى الأصل شهادة ميلاد !! تخيرت واحدة منهن أعطيتها اسمي وصفاتى !! ماتت فى هجمة للحكومة على سفح الجبل !! الحكومة وجدت من مصلحتها أن تقتنع فاقتنعت!!».

ـ يالك من جبارة !».

ـ «لست جبارة ! إنما أعرف كيف أشغل مخى عند اللزوم!!».

ارتفعت حواجبى من الدهشة؛ تحلف اليمين يابوى أن شعر حواجبى رقص، تيقنت لحظتئذ أننى أمام واحدة أخرى لم يسبق لى معرفتها من قبل. نعم يابوى هذه ليست أختى سعدية بل هى شخص آخر لم نكن نفهمه، ولا هى نفسها كانت تعرف نفسها من قبل ياخال ..

رأيتنى أوقف أمامها كالتلميذ المؤدب. أخذت أشوح بيدى متلعثما :

ـ «ولكن ! كيف يا أخت السعد؟ كيف يعنى تعيشين وحدك فى هذا المنفى ؟ وكيف تتصلين بالحياة؟!».

وه ياخال من هذا البريق الذى لمع فى عينيها والذى كدت أجرى من أمامه هاربا لولا أنها كانت ممسكة بكتفى بقبضتها القوية، وتضغط قائلة:

ـ «تجيئنى كل الجرائد هنا !! والراديو والتليفزيون يشتغلان بالبطارية السائلة كما أننا نولد الكهرباء هنا !! قرأت وسمعت

ورأيت مقتل جميع أعدائى بأسمائهم وصورهم !! الواحد منهم كان يجد نفسه فجأة تحت عجلات لورى أو مضروبًا برصاصتين وسط فرح من أفراح أسرته أو مستدرجا للقبض على عصابة أو صفقة حشيش وهمية فما أكثر الطرق التى يمكن أن تتخلص بها من أعدائك ياحسن بأرخص التكاليف !! لكننى بعد الانتقام ممن حكموا علىّ بالترمل فى عز الصبا وعلى أولاد زوجى باليتم فى عز الصغر قنعت بذلك ونذرت عمرى لعبادة الله وعمل الخير !! ألم تعلم بأننى طلعت الحجاز ؟ نعم طلعت باسمى الذى يعرفنى به الجميع : الشيخة سعادة ! هناك قرأت الفنجان للأمراء والمشايخ صدفة أول الأمر ثم ذاعت شهرتى لأننى كنت أجيد قراءة شخصيات الناس وأنسبها للفنجان !! وفى الدير القديم هنا وجدت كتبا كثيرة فى السحر وحساب النجوم وتفسير الأحلام احتفظ بها خرابة فى صحارة كبيرة !! صارت سلوتى ليل نهار بمعاونة بعض المشايخ والفقهاء الذين جئت بهم يعيشون معى هنا فأصبحت بفضلها وبفضلهم شخصا آخر !!».

القشعريرة ركبتنى يا خال ؛ لم أعد قادراً على التحرك من مكانى؛ لم أعد أعرف إن كنت مسحورا بأختى الملكة، أم بسحر هذا القصر المسحور، شعرت بأصابع الملكة وهى تداعب ذقنى التى تعلقت بالسقف:

- «هذا القصر كله كان مدفونا تحت الرمال ويقول أحد أصدقائى الفقهاء إنه كان فى الأصل مقبرة أحد الملوك القدامى !

أما هذا البستان فكان صغيرا ووسعه خرابة وأحاطه بهذا السور!! من حسن الحظ أنه ليلة دخلتى أطلعنى على سر هذه الكراسى بأنها من الذهب !!».

على سبيل المزاح قلت لها :

ـ «أما فكرت فى الزواج يا أخت؟!».

ترقرقت الدموع فى عينيها :

ـ «لم أجد من يملأ مكان خرابة فى قلبى !! فطمت روحى !! لم أعد أشعر برغبة فى حضن الرجال بعد ما زهدت فى كل المباهج !! كلما هاجت عواطفى نحو رجل ظهر خرابة ووقف بيننا ! إنى لن أخونه أبداً لأنه سيظل يعيش معى طول عمرى! ولكن فضك من هذا وتعال نتغدى ! أين هليل ؟!»

تذكرته فتلفت مذعوراً ؛ مضيت خارجاً أبحث عنه وهى من ورائى. استندت على سور الشرفة وسط مظاهرة الكلاب وناديت : يا هليل. وكان هو قد سرح مع عم عرندس يتفرج على أشجار البستان وزهوره ليتركنى مع أختى نفضفض بالأسرار على راحتنا. ها هو ذا آت يرفل فى خلقاته التى علاها الغبار فصار ينفضه عنها بضرب نفسه على كتفيه وصدره. استقبلته الملكة بحرارة شديدة وخجل أشد، مضت بنا فى الشرفة الجانبية فإذا هى ممتدة بحذاء القصر تلف حوله ساير داير، والأشجار المتنوعة

ترمى بأفرعـها وأوراقها وظلالهـا على طول الشرفة صـانعة تندة إضافية يتـمنى المرء البقاء تحتهـا مدى الحياة متفرجـا على جميع أنواع الحـيـوانات الألـيـفـة والطيـور وهى ترتـع فـوق العـشب والحشائش وفى البحيرات والقنوات المصنوعة فى الأرض بهندسة وحـرفنة. دخلنا إلى البـهو مـن باب جانبى فى الخـلف، عبـر ممر مفروش بالسـجاد فى أركانه مناضد عليها تحف ومـساخيط. من البهو عبرنا إلى قـاعة كبيرة فيها ترابيزة مـائدة برخامة بيضاوية الشكل وأرجل مخروطية مشغولة بـالنحاس والفضة وقعداتها من الخـيرزان الشـبيكـة، هنالك بوريه ضخـم بعرض الحـائط فوقـه رخامة ومرآة ضاعفت من عددنا أظهرتـنا كمدعوين فى حفل كبير تقيمه الملكة. سحبت الكرسى لأجلس عليه متوقعا ثقله فإذا هو فى خفة الهواء. ثم إن العبيد أخذوا يتوافدون علينا بالأطباق التي لم أر لها مـثيـلا فى الأسواق. بعد ذلك جيء بالشـاى الأخضـر ـ عشنا وشـفنا ـ ثم خراطيش كـاملة من علب السـجـائر المكن من أشهـر الأصناف. لا ، لا يا خـال، لست أصدق أننى فى الجبل؛ فكمـا أن أختى سـعدية حلت محلها هـذه الملكة فإن الجبل هو الآخر قـصرا من قصور ألف ليلة وليلة ..

ألمحت لنا الملكة إلى أن كل شـيء هنا وفيـر إذ أن الزيارات ترد إليها كل يوم من كل مكان حاملة ما ليس يعرفه الناس فى البلدان، فكل زائر لمعـشوق له فى الجبل يحـرص دائما على نادر الأشـياء

وعزيز الأصناف وثمين الهدايا. ألمحت كذلك إلى أن ماكينات المياه ومواتير توليد الكهرباء تملأ الجبل داخل آبار محفورة لها خصيصا فى أعماق الأرض ومغطاة بأغطية ثقيلة متحركة لينكتم فيها صوت المواتير تمتصها بطن الجبل فلا يشعر بها. حاجة تهوس يابوى ..

طاف بنا صوت الملكة :

ـ «تشوفا مزاجكما الآن أم تتمددا قليلا ؟!»

فى صيحة واحدة خرج صوتى وصوت هليل:

ـ «نشوف مزاجنا بالطبع!».

أشارت بيديها النحيفتين الجميلتين أن قوما، فقمنا، فمشت أمامنا تتبختر كالأوزة. خرجنا من قاعة المائدة عبرنا البهو إلى الممر الذى دخلنا منه ثم هبطنا سلما فى نهايته؛ مشينا فوق الحصباء نحو بناية ملحقة بالقصر محندقة ومخفية بين الأشجار. قلت : «قصر آخر»، قالت :

ـ «هذا هو القصر الحقيقى ! ما كنا فيه مندرة الاستقبال للزوار. أما هذا القصر فهو المربض !المسكن ! متى ما دخله مخلوق لا يستطيع أحد أن يهتدى إليه !!

اقشعر بدنى:

ـ «كسبنا صلاة النبى» .

ضحك هليل فضحكت هى الأخرى، مضت تصعد بضع سلمات؛ فتحت بوابة قصيرة القامة كبوابات السراديب والحانات؛ قالت «بسم الله الرحمن الرحيم ! تفضلوا !». ثم تناولت عصا طويلة من جوار الباب رفعتها دفعت بها السقف دفعة واحدة فانزاحت عن السقف طارة خشبية مشغولة بنقوش تقوم على أربعة أسياخ من الحديد تبيت فى مجار لها، تدفق ضوء الشمس؛ فإذا نحن فى مربع ضيق كالمربعات التى تسبق قاعات الأضرحة غير أنه مفروش بالسجاد الفخم وبه مقاعد من الرخام مثبتة فى الحوائط، وفى المواجهة باب بدرفتين من النحاس المبطن بخشب البندق، دفعته برفق فانفتح عن طاقة من النعيم: باحة عريضة جدا بها أسرة تشبه الكراسى، وكراسى تشبه الأسرة، كلها غارقة فى الناموسيات والملاءات والستائر ذات اللون السماوى بدرجاته المختلفة. هنا ياخال كبس علينا النوم فجأة؛ فابتسمت الملكة وهى ترانا ننتقل من سرير إلى سرير على سبيل التجريب إلى أن استقر كل منا على سرير وغاص فى غيبوبة رائعة، ثم سحبت الباب خلفها برفق وخرجت. وحينما عادت لتوقظنا كنا نظن أن خمس دقائق فقط مرت؛ ولذلك أصابنا الذهول عندما أنبأتنا الملكة أن ظهر اليوم التالى قد أتى وأن الغداء فى انتظارنا.

كان فى نيتى أن أبقى بجوارها فى هذه الجنة لأصبح من رجالها بدلاً من الأغراب؛ لكنها غمرتنى بنظرة دافئة:

ـ «لا تتـعـجل الأمـور ! وجـودك بجـوارى خطر عليـنا كلينا ! ووجودك فى مصـر خير لنا معا ! فامض على بركـة الله تصحبك دعواتى! وأما فكرة الزواج فدعك منها الآن! دعنى أخطط لمستقبلك كما أهوى !!».

وفى طريق عـودتنا من الجبل كـنت كمن قـام برحلة إلى دولة أخرى على شمال السمـاء حقنتنى بدم جديد فكأننى قد صرت أنا الآخر شخصا جديدا كل الجدة ياخال.

أولنا ولد

ذمة ودين يابوى إننى لا أستطيع وصف حبى لصاحبى هليل. إنه العقل الذى يفكر لى ويدبر أمورى دون أو جهة؛ حويط غويط كنهر النيل. فى اليوم التالى لعودتنا من الجبل سألته على سبيل المزاح:

ـ «ألم يعرف الحب طريقه إلى قلبك يا هليل ؟!».

وكنت لا أزال متأثرا بموت حبيبتى التى أحرقت نفسها لما عرفت أننى رأيتها فى وضع غير مستور، ولكن هليل ظهر عليه كأنه لم يسمع سؤالى، فأعدته عليه :

ـ «ألم تعرف الحب أبدا يا هليل؟!».

فأضاء وجهه بإشراقة ناصعة؛ وشملته رجفة كأنى ضبطته فى حالة عرى. ثم راح يهمهم كأنه يكلم نفسه:

ـ «عرفته يا بو العم إن حبى هو الحب المستحيل! إنهم فلست أرضى بأقل منه لكن الحبيب يسجن قلبه فى مكان بعيد لا يعرفه أحد !! لا أظن أن فى الدنيا حبا كحبى يابو العم ! حبكم هذا لعب

عيال أما حبى فهو الحب الحقيقى !وهو يشاغبنى يابو العم ! كلما تخيلته قريبا ابتعد! كلما اقترب اختفى !!».

وزفر زفرة حارة. عاجلته:

ـ «وهل أنا أعرف حبيبك يا هليل ؟! هل هو من البلد أم من مكان بعيد ؟! ولماذا لم تكلمنى فيه من قبل مادمت هكذا محروقا؟!»،

فيشع لى نظرة حرت فى فهمها يا خال ؛ نظرة خيل لى أنها تتهمنى بالغباء، كأنها تقول لى : ألم تره يا أعمى ؟! ألم تشعر به؟!. سرح فى الجبل، سألته:

ـ «وهل يعرف أنك تحبه»

ازدادت رجفته وارتبك ـ شوح بذراعيه:

ـ «دعنا الآن من أمور الحب والغرام يابو العم وتعال نتكلم فى المفيد !!». قلت بشىء كثير من الغضب الدفين:

ـ «دعنى يا هليل ! لم يعد يهمنى شىء بعد الذى حدث بسببك!! ذنب هذه البنت فى رقبتك يا هليل !!».

قال بحدية غريبة:

ـ «إذن فمنى لله ؟ لقد أردت أن أنقذك من الوحل قبل أن تجلب لنا العار! ولكن الله أراد ما أراد! فلا تحملنى الذنب! لا تكن أنت وضميرى وقلبى علىّ يابو العم !! كفانى ما أنا فيه يابو العم !!».

وأخلد إلى صمت مهموم، فأيقنت أنه متأثر جدا، كانت شمس الضحى تفرش نفسها فوق البلدة فنزعت عنها كل الأغطية وألبستها ملاءة من لهب. نظرت فى ساعتى؛ قلت إن الوقت يسمح لى بجمع خلقاتى والتوجه إلى محطة صدفا للحاق بقطار الظهيرة. فإذا بهليل يلوح بإصبعه علامة النفى :

ـ «لا ! لا سفر اليوم يابو العم ! وراءنا شغل كثير !!».

ـ «شغل ماذا ؟!».

ـ «لا تستعجل!»

واستأنف صمته؛ فمضينا نحو دارهم نتطوح من شدة الرهق..

أنهى هليل صلاة المغرب وتربع بجوارى يتمتم بختام الصلاة ويمسح وجهه بكفيه. ثم سحب من جيب الصديرى دفترا مطويا من دفاتر التلاميذ يطل منه قلم كوبيا، فتحه على صفحة مرشقة بنبش أشبه بنبش الفراخ، صار يحسب مستخدما أصابع يديه. أخيرا قال:

ـ «شف يابو العم ! فلوسك عندى كبرت ! كبرت ! ربنا بارك فيها فأصبح القرش الواحد مائة!!».

ـ «الحمد لله ! البركة فيك يا هليل أنت مبروك من يومك ولكن ما الداعى لأن تقول هذا الآن؟ هل صدر منى شيء؟ سألتك عن الحساب؟!».

ـ «لا يا بو العم ! الملكة ربنا يحميهـا رسمت لنا مشروعا ! أصل الحكاية أننـى كنت أتعـشم من مـشـوار الجـبل أن نتـكلم فى هذا المشـروع لكن مـوت البنت حـرقـا عطلـنى عن الكلام تشـاءمت !! الموضوع وما فيه أن الملكة دائما تسألنى عن أحوالك فأحكى لها ما يطمئنها فأوصتنى أن أسـتغل هذه المكاسب فى مـشروع لم يكن يخطر لى على بال !! شف يا بو العم ! أعوذ بالله من قولة أنا وأنت والملكة سنكون شـركاء فى عـملية مريحـة : الملكة سـتـدخل باسم أولاد خرابة ! المشـروع هو ماكينة للطحـين! نعم يا بو العم ! البلد كلها والكفور من حولها تذهب مـشوارا فى سفر طويل لكى تطحن قمـحها فلمـاذا لا يطحنوه فى بلدتهم بنفس الأجـر ؟! أولاد خرابة نصيبهم فى الشركة قطعـة أرض شرقى البلد ليس منها أى منفعة لهم فهى قريبة من الجرن وتقام فيها قمائم الطوب بالمجان! سنبنى فوقها داراً للمـاكينة! أما الأسطى الذى سيشـغلهـا فموجود والملكة تعرفه !! مع ماكينة الطحين ماكينة لتبييض الأرز فما رأيك؟!».

ـ «زين والله زين !! كلام كالعسل!!».

ــ «الحـمد لله ! يبـقى المشروع الـذى تم بالفعل وهو يخـصنا وحدنا !! تـصرفت فيـه من تلقاء نـفسى: اشتـريت ماكـينة للرى ومـاكينة لدرس القـمح وتذريتـه !! مـوعد وصـولهمـا بقى عليـه يومان!! سنسـافر ومعنا الأسطى حامـد العقدة إلى مصـر لشراء ماكينتى الطحين وضرب الأرز!!».

ـ «الله يفـتح عليك يا هليل ! أنا باق مـعك إلى ما تشـاء !! ليس ورائى عيال تـبكى فى مصر ! على بركة الله ! قم بنا الآن نـحتفل بهذه الأخبار الطيبة !!».

ـ « ما شبعت من الاحتفالات يا بو العم؟!».

ـ «نفسى انفتحت!!».

ـ « ربنا لا يجـعلنا صدادين للـنفوس المفـتوحـة ! قم بنا يا بو العم!!».

ـ «عد بنا إلى الجبل!!».

= « لا يا بو العم ! كله إلا الجـبل ! مـا كل مـرة تسلم الجـرة!! مرواح الجبل شغلانه طويلة معقدة دعك منها الآن !! ولا تنسى أن الملكة ترسم لك مـستـقبلا مـزهزهاً وأوصتنى أن أشكمـك حتى لا تجـعل صـورتك مـهزوزة فى نـظر الناس! أنت من الآن من عليـة القوم المحـترمـين فى البلد فكن هكذا فـعلا !! سنحتـفل فى وسط دارنا هذه ! كل شىء موجود والحمد لله !!».

خـيراً مـا أراد. لطشنا هواء وسط الدار المنـعش فرسـمنا دارًا للماكـينة على الأرض بخطوط الأصابع فـوق التراب. هذه حـجرة العدة لابد أن تكون مستطيلة هكذا لأن سيرًا جلدياً طوله عدة أمتار سـوف يلتف على مـجـموعـة من التـروس والطارات المتـجـاورة فـبـدوران الطارة الكبـيـرة تـدور تروس جـوانيـة، وبدوران هذه التـروس تدور أخـرى ملتـحـمـة دورانا عـكسـيا، وهكذا تمضى

مـجمـوعة الطارات والتـروس من أول الحجـرة إلى آخرها حـيث يوجد القادوس فوق قـاعدة خشبية تبنى له تلتـحم بسقف حجرة العدة حـيث يقف أصـحاب الحبـوب الجارى طحنهـا ليدلقـوا فى القادوس حبوبهم. رسمنا قعدة الأسـطى، وغرفة استقبال الزبائن بحـيث تكون كـبيـرة، حددنـا موضـع الميـزان الطبليـة، ومن الذى؟ سيشرف على وزن الحـبوب قبل طحنها لتحديد سـعر الطحين إذ لابد أن يعـرف القـراءة والكتابـة حتى بدون الوزن والـسعـر فى قـصاصــة ورق يتـسلمهـا صــاحب الطحـين ليسلـمهـا للأسطى فيرشقها فى سلك معقـوف بجواره، وفى نهاية اليوم تتم مراجعة هذه القصاصـات على مادون فى الدفتر فنعـرف دخلنا. هنا قررنا فى صيحة واحدة أن يـكون والد هليل هو المدير المسئول عن شغل الماكـينة من الألف للياء، وأن يـتدرب أخى حـسين تحت يديه بعـد خروجـه كل يوم من المدرسـة. أما ماكـينة الرى وماكـينة الدراس فـيتـولاهما هليل بـنفسـه، وأن تبنى لهمـا حظيـرة ملصقـة بدار الطحين. حـتى الخفيـر الذى سيتـولى حراسة مـاكينة الرى أثناء شغلهـا، والأسطى الذى سيـتولى ماكـينة الدراس اختـرناهما فى نفس القـعدة المباركـة بل وحددنا أجـر كل واحد يقوم بـعمل بمن فيهم هليل وأبوه ..

فى الصـبـاح توجـه كل منا فـى طريق، واحـد لشـراء الطوب والآخـر لاكتـراء البنائين. لـم نضيع دقـيقـة واحدة. ويوم جـاء مهندس التركـيب وعماله لتركيب الماكينة كـان يوم عيد على البلدة كلهـا: المزمـار الـبلدى زف الماكـينة من أول دخلـة البلد إلى أن تم

التركيب ثم استكملت السهرة في الجرن أمامها على ضوء الكلوبات. انطلق المنادي في بلاد الناحية كلها ينادي على خدمات أبي ضب وشركاه، فطربت لذلك غاية الطرب يابوي ..

على حس هذه الدعاية يابوي مكثت في البلدة حوالي ثلاثة أشهر أرقب نجاح شغل ماكينتي الري والدراس، وشموخ مبنى دار الطحين، واللافتة الكبيرة بعرض الباب مكتوب عليها : أبو ضب وشركاه ..

يوم سفري من الصعيد هذه المرة كنت بالفعل وجها من وجوه علية القوم حين يسافر : تحف بي الركائب من كل ناحية، الأعيرة النارية تزغرد حول رأسي تحية وتهيبا . سبقني إلى المحطة من قطع تذكرة القطار. ظلت ذراعي تلوح من شباك القطار مسافة طويلة فوق حشد من المودعين. لحظتذاك يا خال ذقت حلاوة أن تكون من وجوه القوم، أن تكون ذا عزوة وسلطة. لحظتذاك يا خال قررت أن أمضي في هذه الطريق حتى نهايتها بكل نفس ذائقة الحلاوة. سوف لن يبعدني عن هذه الطريق عائق مهما كان صعبا. أمال يا بوي، العز حلو يا خال .. اللي تعرف ديته اقتله، الآن فحسب فهمت معنى هذا المثل: فكل شيء وكل شخص في الدنيا له سعر وثمن عليه أن تدفعه لتبلغ ما تريد، والعقبة الوحيدة أمامك هي قلة المفهومية فحسب، والمفهومية هي أن تعرف السعر المناسب للرجل المناسب في الموقع المناسب، الثمن الكفء للعمل الكبير. اعرف هذا وحده جيدًا، واتكل على الله يا بوي.

كومى

استــوى القطار على سكته يشق أرضا زراعـية معظمهـا قاحل جاف. فلـما استـويت بدورى قاعـدا على الكرسى فوجـئت بأننى محــاط بمئات من الناس فكأننى كنت نســيت أنى فى قطار. وقعت نظرتى عليه قاعدا على الكرسى المواجـه لى، ملأنى شعور بالزهو يا خال إذ أننى راكـب في الدرجة الأولى. تفرست فـى الرجل فإذا هو الآخر يتفرس فىَّ. أخـذت أفكر أين رأيته يا بوى ؟ أين رأيته يا بوى ؟ ثم أننى ميلت عليه وعلبة السجائر تسبقنى إليه :

ـ «مرحبا ! إياك أن تكون صعيديا مثلنا ! ».

ابتسم في مودة عن أسنان ذهبية؛ تناول السيجارة شاكرا:

ـ «منذ مدة طويلة لم نرك!».

صحت فى الحال:

ـ «الحاج قدرى ؟ ويا مرحبا يا مرحبا!»

ضــحك لأننى تذكـرته بـعد وقــت طويل. ضــحكت أنا الآخـر؟ فالحــاج قدرى أشـهر مــن نار على علم فى حى الجماليـة، له دكان

كبير فى خان الخليلى يمتلئ معرضه بالمشغولات الذهبية والتحف الثمينة، يتاجر فى العاديات كما تقول لافتة دكانه يعنى يتاجر فى الآثار برخصة؛ ودكانه الكبير يستقبل فى اليوم الواحد مئات من السياح جاءوا له خصيصا بصحبة المرشدين السياحيين. هو الآخر يسافر لهم بين حين وحين، ويراسلونه ويراسلهم، ويعتبر من أغنى أغنياء خان الخليلى ومصر كلها، وبما أننى أضبطه الآن فى قطار الصعيد فقد تأكدت أن هذه العاديات هى الاسم الذى يخفى وراءه كلمة الآثار؛ ولابد أن مشواره اليوم كان لمقابلة بعض مهربى الآثار فى بلاد الصعيد وما أكثرهم، قال مبتسما وهو يضع السيجارة فى مبسم ذهبى :

- «أظن أن اسمك حسن! ».

- «خدامك ومحسوبك حسن أبو ضب!».

- «جلسنا معا كثيرا عند الحاج أحمد نوار الدين السنى!»

- «وجلسنا أكثر فى قعدة المطار فى فاطمة النبوية!»

- «بالضبط! هل أنت من صدفا؟!».

- «أنا من كوم سعيد! هل أنت قادم من سوهاج؟!»

- «كيف عرفت؟!»

- «توقعت ! فأهل العرابة لهم أصدقاء كثيرون فى القاهرة كلهم لا يتخيرون عنك !!»

ـ «الله يكرمك!».

ـ «أنا أيضا أعرف رجالا كثيرين من العرابة!»

ـ «ربنا يجعلنا من بركاتك !نظرة!!»

ـ «أنت تأمر!!»

ـ «لماذا لا تزورنى فى الدكان ؟!»

ـ «ذلك فى بالى ! كل شىء بأوان!»

ـ «عندك شئ ينفعنا ؟!».

ـ «عندى الكثير فضلة خيرك!»

ـ «خش علينا يا رجل!!»

ـ «لا تؤاخذنى ! أنت وأنا أولاد أصل ! يعنى لا نعرف إلا الأصيل ابن الأصيل !! الخسيس لا أحمله إلا أعرفه ولا أقربه !! كل ما عندى أصيل فى أصيل !! التقليد لا !!».

ـ «الفراسة أن تعرف الفرق بين الأصيل والخسيس! لأن هذا يشبه ذاك الخالق الناطق !!»

ـ « كثرة الحزن تعلم البكاء يا ابا الحاج! وهذه شغلتى وشغلة أهلى وأجدادى من قديم الأزل! تستطيع أن تريني ما تشاء لأفرزه لك !!».

ـ «أنا فى انتظارك فى الدكان يوم الأحد القادم! أنا لا أشتغل يوم الأحد لكنى أفتح المكتب من الشارع الخلفى وأجلس فيه طول

النهار لمقابلة أمثالك من الضيوف المهمين! لا تحمل هم شىء ! القهوة تحت المكتب مباشرة تطلع لنا الحجارة وكل المشاريب كما نهوى وكل شىء موجود !!»

ثم دس يده فى جيب السترة الداخلى فأخرج علبة سجائر ذهبية. ثم ظهر عليه أنه تذكر شيئا، فأعادها وأخرج علبة ورقية فتحها فإذا هى ملآنة بسجائر محشوة بالحشيش. أشعل لى وله بالقداحة الذهبية؛ ورفع أصابعه الطويلة الملآنة بالخواتم الذهبية الغليظة فسحب الأنفاس المتلاحقة. وكانت البذلة الفخمة التى يرتديها - رغم اتساقها على جسده - غير لائقة عليه بالمرة؛ فملامح وجهه وشاربه الضخم وأسنانه وخواتمه الذهبية وتطجينه فى الكلام كل ذلك يشى بجلباب بلدى ولباس بحجر ودكة بشراريب. ضحكت فابتسم ظنا منه أن تعميرته سرها باتع إلى هذا الحد السريع.

حرفنة

تلقانى الحاج أحمد نوار الدين السنى عند البوابة بترحاب شديد، فتح لى أحضانه:

ـ «إزيك يا عكروت ! جئت فى وقتك! ابن حلال والله طول عمرك يا عكروت ! تعال !!».

وقادنى إلى البهو فالممر فالحجرة العلوية وهو لاينى يردد:

ـ «ياه ! غير معقول والله! أن يطلب الواحد شخصا فيراه فى الحال! كنت سأضطر للبحث عن ولد من الملاعين الذين كبروا هذه الأيام ربنا أعطاهم ! الله يسهل لعبيده لكن الواجب واجب !! أين كنت يا ولد يا عكروت كل هذه الغيبة ؟ فى الصعيد ؟!»

قلت : نعم . قال :

ـ «الصعيد كله سيكون عندنا فى أول الشهر ! هل تذكر ستك الشيخة سعادة التى أوصتنى بك خيرا؟ عزمناها على العشاء بطلب من شخصية كبيرة جدا عضو بمجلس قيادة الثورة ومستشيخ ويموت فى أمثال الشيخة سعادة !! أول الشهر لابد أن تكون معنا

خل بالك ! إزيك يا ولد يا عكروت ؟! محـمد بك أبو شناف ينتظرك تصور أنه سأل عنك ؟! رجل فيـه الخير والله!! هيا!! اخلع هدومك هذه والبس لبـس الشـغل!! لابد أن تتكـفل الليلة بمحـــمـد بك أبو شناف تعدل رأسه على الآخر! خش خش!!» .

فعلا يا بوى؛ محمد بك أبو شناف ابتهج لما رآنى، لا أدرى لماذا بالضبط صاح بصوت جهورى ووجه باش:

ـ «أهلا يابو على ! عاش من شافك!!»

ومد يده الطويلة نحوى فتلقفتها مسلما بحرارة:

ـ «أهلا سعادة البيه ! واحشنى !»

كـان يرتدى جلبـابا من الحـريـر السكروته الأبيض، تحـتـه صديرى من نـفس القماشـة. عصـاه الأبنوس مركـونة بجواره. لاحظت وجود طـبلية صغـيرة مـشغولة بالأرابيـسك موضـوعة أمامـه فوقهـا عدد من القطع الأثرية الفـاتنة. إرتبك قليلا حـينما رآنى أحدق فيها، حاول أن يـثقبنى بنظرة تكشف له عن أعماقى، فأسدلت السـتار على عينى مدعـيا العبط على الهبـالة، ومضيت أسـتحـضر العـدة؛ فـإذا بالحاج السنى يلحـقنى بهـا قادمـا من المطبخ، دخل على مـحمد بك ومكثت أنا فى وقـفتى أعـيد ترتيب قطع العدة لأقوم بتنظيفها وتعـسيل الحجارة فإذا بى أسمع هذا الحوار يا خال:

قال الحاج :

ـ «هل ستسافر أنت بنفسك يا سعادة البيه أم أن سمسارًا سيأتي ليأخذ البضاعة من هنا ؟!».

فقال محمد بك:

ـ ربما أسافر بنفسي! ولكن اطمئن من هذه الناحية!! فسواء سافرت أو لم أسافر فعندي الأشخاص الذين يقدرون قيمة هذه الأشياء عن خبرة ودراية! إلا أن وجهة نظري أن ما يأخذه السمسار نحن أولى به ! ليس هناك أي مشكلة! لو عندك أضعاف هذه القطع هاتها ولا يهمك!! وأمامك طريقان للاطمئنان: إما أن تبيع لي من هنا وتقبض حقك في الحال وفي هذه الحالة تقبض بالعملة المحلية !!

وإما أن تتركني أسافر لأتصرف هناك بأسعار أعلى وعملة صعبة وفي هذه الحالة آخذ نسبة خمسين في المائة وأقبضك بعد العودة من السفر !!

قال الحاج السني:

ـ «صراحة ربنا ! أنا أفضل البكاء على رأس الميت! فهذه القطع ليست ملكي ولو كانت ملكي فما بين الخيرين حساب!! أما وهي ملك ناس غيري وما أنا إلا وسيط يأكل عيشا من ورائها فأنا ملزم أمامهم برد البضاعة أو دفع ثمنها دون أجل !! فمعذرة إكرامي لك سيكون في أمرين: السعر المستريح أستغني فيه عن عمولتي!

، وضمان أصالة البضاعة!! إنها قطع أصلية مائة فى المائة تأخذها وأنت مغمض العينين!! لن أذكرك بأننى خبير يعتد برأيه! إنما القطع نفسها تقول أنا أصيلة ولست فى حاجة لخبير !!».

قال محمد بك :

ـ «ليكن ! يا دار ما دخلك شر نتفق إذن على الأسعار الآن! أعطيك ما معى وأبعث فى طلب الباقى من البيت! وربما استدعى الآن صاحب مال يدفع ويشيل! أليس يهمك دفع الحق فحسب؟ إذن فسأريحك تماما!!».

قال الحاج السنى:

ـ «أفادك الله ! عدّاك العيب! شف يا سيدى! هذا تمثال لرمسيس الثانى من المرمر الحر! ثمنه لك أنت وحدك وحتى لا تفاصلنى: مائة وخمسة وسبعون ألف جنيه! أنت تبيعه بضعف ذلك وأنت مستريح بالعملة الصعبة!! هذه تسعيرة معروفة لا تنقص مليما واحدا! التمثال نفسه إذا كان من الذهب الخالص فيضاف إلى هذا المبلغ قيمة الذهب بالميزان! وإذا كان من الفضة ينقص نصف المضاف! وإذا كان من البرونز ينقص ثلاثة أرباع المضاف! فإذا كان من الحجر أو الجص أو الفيروز فإنه يبقى على سعره الأول!! وهذا رأس نفرتيتى من الذهب الخالص ثمنه مائتا ألف لك وحدك!! وهذا العجل أبيس من الرخام ثمنه مائة ألف !! وهذا عقد من الفيروز المطعم باللؤلؤ ثمنه ثلاثمائة ألف ! صندوقه وحده تحفة لا تقدر بمال! الواضح أنه عقد ملكى! لأن كل حبة من

حياته ـ على دفتها ـ محفور عليها وجه آلهة الخير !! على فكرة كنت أنوى ادخاره لابنتى لكنى خشيت أن ينكشف أمره فنروح فى سين وجيم! أنظر إلى ما فيه من أبهة وفخامة وفن ! شىء يحير العقل!! لو كنت منك لاحتفظت به لزوجى فأنت بمالك من حصانة تستطيع أن تحمى صدر زوجك !!».

قال محمد بك :

ـ «سنرى ! سنرى! سأتصرف!»

ـ «عندى لزوج سعادتك أسورة من نفس النوع مع حلق وخاتمين !!»

ـ «هاتها فورا!!»

ـ «هى ليست تحت يدى الآن ! سأطلبها من أصحابها حينما أقبضهم فلوسهم !!».

ـ «يبقى شىء : هذه الأسعار أليس من الممكن هزها قليلا حتى يكون لنا من ورائها نصيب؟!»

ـ «وشرف امرأتى! وبنتى التى أتمناها من ربنا ! وحياة محمد بك وعشرتنا الطويلة! وحق صلاتى وصومى وحجى والقرآن المجيد هذه هى تقديرات أصحاب الشأن بالمليم وأنا سأخرج من المولد بلا حمص!! لا تنس أن المبالغ توزع على كتائب من البشر لا حصر لها كلهم شارك فى إيجادها وتهريبها وحراستها وما إلى ذلك ! لكن المصلحة واحدة ! أصحابها جهلة أغبياء لا يتحاورون إلا

بالرصاص خصوصا فى هذه المسائل! وهم أوعى منك ومنى ومن كل الخبـراء ! إنهم جبابرة! والمؤكـد أنهم الآن يراقبون خط سـير البضـاعة دون أن نراهم!! ولو شعـروا أن فى الأمر مكيـدة مدبرة فـإن أى خـارج من هنا سيـلقى حتـفـه فى الحـال!! ربنا يكفـينا شرهم!!».

دخلت عليهم بالعدة فوق الصينية، وضـعتها فى الركن المعتاد. لم التـفت إليهـمـا، أذن من طين وأذن من عجـين، السـرعة كـانت الحجارة مرصوصة وجاهزة. انتبـه محمد بك أبو شناف فتحسس المكان حواليـه ثم رمى لى بقطعة حشيش تزيد عن ربـع أوقية من صنف لم أر مـثله فى حـياتى؛ فـغطيت المعـسل كله بتـعـميـرات عريضة. ثم دارت الجوزة بالصلاة على النبى.

محمد بك أبو شناف يا خـال كمن يشرب فى آخر زاده، شربه يحـرق دمى يا خـال، فأنا المـسك بالجـوزة أقعى أمـامـه لتكون البوصـة فى مسـتوى شـفتـيه، على أن أبقى هكذا مـدة طويلة لا أتحرك ريثمـا يشرب هو على أقل من مِهله. يشـد شدة، ثم ينتظر برهة، ثم يطقطق ثم يشـد شدتين سـريعتـين يخرج الدخـان على أثرهما مندفـقا بغزارة من منخريه، بعـدها يتلمظ قليلا وينفخ فى البوصة كـما ينفخ العامل فى الميكروفون عند تجـريبه ثم يبدأ فى الشد الهادى، السـحب، الذى يزداد قوة وسرعة شيئا فشيئا لينتهى بالسحـبة الأخـيرة التى يشتـعل منها الحـجر فتـرتفع راية النار، فأصيح أنا على سبيل التحية: قشطة. عندها يترك البوصة واضعا

كفه على فمه وأنفه يعتـقل بهما اندفاع الدخان ليرده من جديد إلى منخريه ليستـمتع بوجوده فيها أطول مـدة ممكنة. حاجة تهوس يا بوى ..

ها هو ذا ينكس رأسه مندمـجا فى تفكير عميق؛ أحـيانًا يسحب القلم الذهبى من جـيب الصـديرى ويروح يدون أرقامـا وعمليـات حسابيـة فى نوتة ملحقة بمحفظة جلدية أنـيقة جدا؛ وأحيـانا يعيد التـقليب فى القطع الأثرية فـيمـا يراقـبه الحـاج أحمـد نوار الدين السنى من تحت لتحت بعـينيه الضيقـتين اللتين تشعـان بالشقاوة والمرح والثقـة المطلقة بالنفس، وها أنذا أيضا دمـاغى تضرب تقلب فتتراءى لى أفكار جريئة ترتفع راية اشتعالها فى رأسى: هل يأتى يوم يكون فيه محـمد بك أبو شناف هذا من زبائنى؟ وهل أستطيع أن أبيع له بفلوس كبيرة كهـذه؟ لم لا يا بوى ؟ والعملية كلها قلب جامد وشـخصية ملء هدومـها، ولى فى الحاج السنى مثل يحتذى يا بوى فـهو بمنـظره هذا لو عرضنـاه فى سوق الجـمـعة بثـلاثة مليمات فلن نجد من يشتريـه، ومع ذلك فها هو ذا يعيش فى قصر لا يملكه رئيس البلاد، ويجالس أكـابر القوم، وينطق الأرقام بجرأة وبساطة كـأنه يقول: تشرب شاى؟ ولا يبـدو عليه أنه يفعل شـيئا غـير طبـيـعى. شف يا خـال، الثـقة بالنـفس أولا هى السكة التى يمشيهـا الناس نحو الثقة فيك. هذا ما تعلمـته الليلة يا خال ويجب من الآن أن أتدرب على ذلك. نعم، كيف إذن سأكون مـعلما وحاجا وعضوا فى البرلمان بإذن الله إذا لم تكن شـخصيتى نفسها على قد

الثوب الذى سترتديه؟ والله لأفعلن، الحاج أحمد نوار الدين السنى ليس أجدع منى فى شىء، ولا حتى هذا المحمد بك أبو شناف فإن كان متعلما فى المدارس فالعقل لا تبنيه المدارس وأكبر شهادة هى المأخوذة من كلية الحياة الدنيا يا خال. إن عالم الخربشة الذى التحقت به فى سن المدرسة يمنحنى الأوسمة مادام اللصوص والبلطجية والفتوات هم السائدون. ليس فى هذه المدينة شىء يسمى الأصل يا بوى؛ أصلك وقتك، فالناس هنا لا يهمها معرفة ابن من أنت ولا من أى أصول عريقة تنحدر، إنما يهمها ماذا أنت الآن ماذا تملك ماذا تلبس ماذا تأكل كيف تسكن كيف تركب إلخ إلخ. وأنا بحكم دراستى فى الشارع وفى السجن وفى العراء عرفت جيدا كيف يمكن أن يحترمك الناس يشيلون الأرض من تحتك على رءوسهم: سأتقمش كعمدة أمريكا نفسه، سأعطى البقشيش كلما تيسر، سأعطف على الناس، سأضع على لسانى كل طيب من القول، صحيح أن هذا ليس سهلا يا بوى، والإنسان لا يكون ما يريد بمجرد ما يريد، لا يا خال، الشغلة يلزمها تدريب ولسوف أتدرب فماذا ورائى ؟ ..

وكأى فلاح قرارى دس محمد بك أبو شناف أصابعه فى جيب الصديرى فسحب ساعة الجيب المشبوكة فى كتينة ذهبية فى لون غطاء الساعة المنقوش. ضغط على المفتاح فارتفع الغطاء فنظر فى الساعة ثم قال: أعطنى التليفون. فى ركن الغرفة سماعة تليفون معلقة على مسمار، نزعها الحاج وضغط على زر فيها فسمعنا

صوت الحـرارة عاليـا؛ قدمهـا إلى مـحـمد بك الذى تسلمـها وراح يضـغـط على أزرارها الملومـة فى مربع صـغيـر. سمعـنا صوت الجـرس يرن عند الطرف الآخر، قطـعه صـوت امرأة حـالمة طرية النبرات: هاللو .. و٥٠٠ .. قال مـحمد بك :

ـ «مساء الخير يا مدام !»

إنتعش صوتها:

ـ «أهلا يا مـحمد بك!»

ـ «إدينى الأستاذ!»

ـ «بعد برهة جاء صوت رجالى ممروض:

ـ «أهلا مـحمد بك ! يا للمفاجأة السعيدة!»

صاح فيه :

ـ تعال حالا ومعك فلوس كبيرة! أمامنا لقمة عيش طرية وحلوة بإذن الله !!».

ـ «عملة صعبة ؟!»

ـ «عملة أصعب !! هاها ها .. ى !!»

«يعنى دفتر الشيكات ينفع؟!»

ـ «فى أقل القليل!!».

ـ «تتكلم من أى مكان؟!»

ـ «من القمرة فى مصر عتيقة أنت تعرفها طبعا !!».

ـ «جميل! حالا سأكون عندك ! من كورنيش المعادى ربع ساعة بالكتير! عندك شرب ؟!»

ـ «عندى كل شيء لكن لو عندك الأحسن هاته !!»

ـ «موافق ! إلى اللقاء !»

أغلق محمد بك الزر، فجاء صوت الحرارة، فضغط على الأزرار :

ـ «مساء الخير يا حاج! تعال حالا فى مصر عتيقة ومعك فلوس كبيرة جدا ! إلى لقاء !».

ومكالمة ثالثة:

ـ «مساء الخير يا معلم! تعال حالا فى القمرة فى مصر عتيقة ومعك الشنطة، فاهم طبعا يعنى أيه الشنطة ؟ ! إلى اللقاء !».

وهكذا أنهى عدة مكالمات؛ ثم تفكر قليلا، ثم سلم السماعة للحاج السنى الذى أعادها إلى مكانها ثم نهض واقفا:

ـ «دقيقة واحدة أشوف أخبار العشاء ! سأوصى الطباخ بزيادة الكمية! تشرب شيئا فاتحا للشهية؟! عندى شمبانيا قديمة وعندى نبيذ قبرصى وعندى ويسكى بلاك أندهوايت وعندى كورفوازيه!!»

انتشى محمد بك مقدما:

ـ «نبدأ بالشمبانيا قبل الأكل!!»

أومـأ الحاج برأسـه ومـضى. نزل السلم إلى الطابق التحـتى مباشرة حـيث المطبخ والطباخ والسفرجية، أخـذت أنا أعيد تنظيف الحجـارة وتحصيتـها وتغسيلهـا، وراح محمد بك يعـيد النظر فى القطع الأثرية ثم راح يوزعهـا على جيوبه، وعندمـا أمسك بتمـثال رمسيس المرمرى وجدتنى أندفع مشيرا إليه هامسا:

ـ «على فكرة يا أستاذ! أسـتطيع أن آتيك بأخيه الذهبى وبنفس السعر!

مائة وخمسة وسبعون ألف جنيه !!»

جحظت عينـاه يا خال؛ ظل محملقا فى وجـهى دقائق طويلة لا ينطق؛ ثم قرب وجهه منى هامسا:

ـ «من أين؟!»

ـ «من العرابة القـبلية! نفس الناس الذين يـوردون للحاج نوار الدين السنى! إنهم أقاربى شق الكلوة! ولى عندهم خاطر كبير!!»

ـ «إذن فـهذا السعـر مـبـالغ فيـه ! أظننت أنى سـأقـبل هذه الأسعار؟! الحاج يتكلم كما يحلو له ولكن ساعة الحساب لن يقبض منى سوى السعر المناسب ! أنا لست غشيما كما يتصور!!».

ـ «عـدم المؤاخذة يا أسـتـاذ ! السعـر الذى باع به الحـاج نوار الدين مسـتريح ولن تجده أبدا وهو لن ينزل عنه مليـما واحداً لأن الاتفـاق تم أمـامى والحـاج صـادق إلا فى شىء واحـد هو أنه أن يستفيد! فعمولتـه سيأخذها ولكن بصراحة ستكون قليلة لأن ناس

العرابة القبلية يعتقدون أنه سيضيف عمولة أخرى فوق السعر المتفق عليه لكنه لم يضف وهذا يدل على أنه يريد أن يخدمك ويجعلك تستفيد أنت بهذه العمولة التى كان سيضيفها عليك! لقد باع لك بتراب الفلوس! إننى أعرف كيف يحاسبه أقاربى! لعلم سيادتك يا أستاذ أقاربى ليسوا محتاجين له! إن الخواجات التقال يذهبون إليهم لحد دورهم يدفعون وينصرفون بكل ثقة واطمئنان والبضاعة تصل إليهم بعد ذلك فى العناوين المذكورة أقاربى يا سعادة البيه لا يغلبهم غالب! ألم تعلم يا سعادة البيه أن لى أولاد عم تعلموا تعليما أجنبيا عاليا وأصبحوا الآن يشتغلون فى المتاحف العالمية الكبيرة والجامعات وأنهم أكبر وسطاء بين أقاربى والزبائن؟! إنهم يبيعون للحاج نوار الدين كرامة للنسب! زوجة المرحومة كانت منهم !!».

ـ « أعرف! كل شئ معروف! ولكن إن كانوا ـ أقاربك ـ يحبونك حقا فإنك تستطيع أن تخدمنى فى السعر!»

ـ «أنا غلطان ! إنس ما قلته لك !».

ـ «أتعرف مع من تتكلم يا حسن ؟!»

ـ «يا سعادة البيه إننى أعرف ولهذا أردت أن أكسب صداقتك بهذه التضحية الكبيرة!»

ـ «لماذا لا تحاول!»

ـ «لا أستطيع فتح فمى!»

- «وكيف يتم البيع؟!»

- «شال الحمام حط الحمام! تعطينى الفلوس أسافر بها وأعود لك بالتمثال!».

- «بدون معاينة؟!».

- «معاينة ماذا يا سعادة البيه؟ أنت لا تستطيع أن تعاين الشمس أو القمر لتتأكد إن كانت شمسا وإن كان قمراً !!».

- «ولكن ! مبلغ كهذا ! من أدرانى؟ ربما حدث لك حادث! ربما وقعت فى المصيدة! من يضمن لى رد المبلغ؟ من يضمن لى أن اسمى يظل بعيدا عن الواغش؟!».

- «قبل كل شىء يا سعادة البيه إنها ثقة وأمانة! حكاية أن يحدث لى حادث موت فإنه يكون قضاءً وقدرا وفى هذه الحالة أعطيك ورقة بإمضائى بأننى تسلمت هذه الأمانة لتوصيلها لسين من الناس!! أما أن أقع فى المصيدة فهذا لا يكون أبدا حين ولو كنت مراقبا من الحكومة !! إن تضليل الحكومة شغلتنا وفننا الذى نأكل من ورائه عيشا!! كل ما أنبهك إليه هو أن الحاج نوار الدين السنى لا يجب أن يعرف بهذا الكلام وإلا أفسد كل شئ ! وعلى فكرة ! أنا مبسوط والحمد لله وأسكن فى شقة فى عمارة على النيل فى مواجهة كوبرى الملك الصالح! وعائلتى ضخمة جدا وأنوى أن أرشح نفسى فى الانتخابات القادمة عن دائرة بلدتنا ! وعندى فضلة خيرك ماكينة للطحين وماكينة للرى وماكينة

للدراس وأملك سـراية فى الـبلد! قـصـدى أننى ابن ناس وعـينى ملآنة !!».

ابتـسم، ربت على كـتـفى، صـار فكه الـسـفلى يروح ويجىء كـبندول السـاعـة. خفـت منه يا خـال ولعنت أب الذين خلفـونى لانسحـابى من لسانى، رأيـت فى لمعان عينـيه قاطع طريق يـقتل القـتيـل ويمشى فى جنـازته، خيل لى أن نـهايتى والعـيـاذ بالله ستكون على يديه؛ لكن صوتا لعله صوت أمى نبح فى صدرى! لا تأكل من هذه الحـركـات فهى صـنعة مـتـقنة! تشـجع يا ابن أمك وامكر به مـثلما يمكر بـك لا تضعف لأن ضـعفك قـوة له وهو لن يأكلك إلا إذا تأكد من ضعفك فكن أقوى منه تأكله وتذكر دائما أنه ليس إلها ولا وحشا مفترسًا!!

من خلال سحبه للأنفاس قال :

ـ «اطمئن من هذه الناحية فـأنا أعرفك وأحبك! ثم إننى شخص ذو حيثيـة ولا أحد يستطيع النصب علىَّ مهمـا كانت قوته !! إننى أنظر إلى أبعد !».

ـ «خلاص يا سعادة البيه ! نصرف النظر عن الموضوع !!».

ـ «لا !! فرصة كهذه لا أفوتهـا بسهولة! اسمع! الحل الأمثل أن أرسل معك أخى ومعـه نفر واحد فقط هو الخبيـر المثمن وستكون الفلوس مع أخى سيـريها لك قبل السفر لتطمـئن ! ستركب مـعه سـيارته مـعززا مكرمـا لحد باب الدار ! تـسلمه التـمثـال يسلمك الفلوس ويعود بك إن أردت !! ما رأيك ؟!».

- «ومتى تفعل ذلك يا بو العم ؟!».

- «بكرة ! خير البر عاجله!».

- «عدم المؤاخذة يا أستاذ ! أخ سعادتك يجب أن يلبس الجلباب البلدى مثلى وكذلك الرجل الخبير !! كما أننا لا يجب أن نركب سيارة ملاكى بل لابد أن نروح ونجىء فى تاكسى !!».

- «وما الحكمة» ؟!».

- «الملاكى ستفضحنا! ولبس الأفندية سيلم علينا الواغش ! وافقنى على ما أقول لكى يتم المشوار فى أمان الله !!».

- «ليكن ! نحن نحب البلدى على كل حال !!».

وهكذا كلم أخاه فى الهاتف طالبا منه المجىء بجلباب بلدى مصطحبا معه زاهى بك بجلباب بلدى أيضًا وأن يأتى معه بالفلوس التى تركها عنده أول أمس.

سمعنا صوت خطوات الحاج أحمد نوار الدين السنى على السلم الخشبى فامسكنا عن الكلام. لكن الخطوات تبعتها خطوات كثيرة جعلت السلم يئن ويتوجع. دخل الحاج ومعه ثلاثة من المدعوين التقاهم عند البوابة وهو يتمم على الخفير فى سرادق البضائع ..

دخلوا علينا فتملكنى الذهول يا خال، كان من بينهم الحاج قدرى الذى التقيته فى قطار الصعيد، واتضح لى أن اسمه الحقيقى الحاج دهب وشهرته قدرى. أخذنى بالحضن والسلامات

الحارة مما جعل محمد بك يحدجنى بنظرة متفحصة كأنه يتعرف على حقيقتى لكن شيئًا من الاطمئنان ظهر فى عينيه. بعد دقائق معدودة حضرت صورة من محمد بك أبو شناف ولكنها أضأل حجما بقليل، عرفت أن اسمه حازم وأننى رأيته من قبل فى مكان ما لست أذكره. معه شخص نصفه رجل ونصفه أنثى، شعره طويل مرسل على قفاه كالمرأة؛ خدوده حمراء وكذلك شفتاه لكنه قوى البنية مع ذلك غليظ الصوت يكثر من الكلمات الأجنبية ومن الغمز وترقيص الحواجب. ارتفعت الغاغة: سلامات وصيحات ونكات قديمة لا مناسبة لها فى الظاهر. والحاج أحمد نوار الدين السنى يعبر عن احتجاجه فى صورة عكسية بقوله :

ـ «براحتكم ! البيت بيتكم !!».

ثم نزع غطاء زجاجة الشمبانيا ففارت فاعتقل فورتها فى فوهة الكوب ثم طوح بما فى الكوب فى فمه مكشرا ثم وضع الزجاجة وبقية الزجاجات أمام محمد بك، وصفق بيديه تصفيقة خاطفة فدخل خادم يحمل صينية عليها كئوس كثيرة وضعها وانصرف. دارت الكئوس حتى نفدت الزجاجات. بعد ذلك مباشرة دخل السفرجية فنصبوا المائدة الأرضية واشتغل الأكل كأنهم جميعا كانوا جياعا منذ أعوام. غسلوا أيديهم وهم جلوس فى أماكنهم بواسطة الطشت والابريق. عاد التحشيش مرة أخرى يا بوى. أدمغتهم مصفحة يا خال، قلاع تضرب فيها المدافع والقنابل فلا تتزعزع. ولولا أن خادماً راح يساعدنى بما له من خبرة واضحة لأصابنى الكساح يا بوى ..

الشاهد يا خال؛ لمع الخبث فى عينى الحاج نوار الدين فنظر فى ساعته وخبط على ركبتيه قائلا :

ـ «اسمحوا لى أن أقوم لأتوضأ وأستعد لصلاة الفجر!!»

وكان واضحا يا بوى أنه يريد الانصراف فحسب ليترك لمحمد بك ورجاله فرصة التفاوض فى البيع والشراء على راحتهم. هذا ما نطقت به نظرته الألعبانية الصبيانية الشقية. إنه يفهم شخصياتهم جميعا حق الفهم يا بوى وعلى الأخص محمد بك أبو شناف ولهذا يتعمد أن يتيح له فرصة هبرة كبيرة من هذه الفتة، على سبيل الرشوة، فلابد إذن أنه يستفيد فوائد أخرى كثيرة من وراء علاقته بمحمد بك أبو شناف ورجاله؛ أنهم على الأقل حوائط تصد عنه الرياح. وه يا بوى، ما أكثر ما يجب أن أتعلمه منك يا حاج عفريت .. الرجل الذى شرب الشمبانيا لتوه متعللا بأنها ليست من الخمر مضى يستعد لصلاة الفجر حاضرا فى جامع عمرو. هو أول من يذهب وآخر من ينصرف وهو كذلك نجم من نجوم المسجد العمروى وعضوٌ بمجلس إدارته وأكبر المتبرعين لترميمه وتجديد فرشه.

توقف عند الباب بقامته المحنية قليلا :

ـ «أبعث لكم بأى شىء ؟!».

ـ «شكراً !».

فرحتى بالبقاء خابت يا بوى؛ فسٌت ؛ فقد دار الحوار كله بلغة لا أفهم منها حرفا واحدا؛ أغلب ظنى أنها الفرنسية. صبرت

كالأطرش فى الزفـة. تحلف اليمين كـأننى ثور الله فى برسيـمه. غلى الدم فى عـروقى، جاءنى صوت مـجهـول يدوى فى صدرى قائلا: من لـم يتعلم الكلام بالإنجليـزى أو الفرنساوى يـبقى طول عمره حمارا. ندمت لأننى على كثرة مـعاشرتى لأكثر من ترجمان ولد أعمى لم أتعلم منهم كلام الخواجات؛ قال الصوت المجهول فى صدرى: إن كنت تروم أن تكون بنى آدم يا ولد أبى ضب فـمن غد تتعلم الكـلام بالإنجليزى مهـما كان الثـمن فلربما جاءتك سـفرية فتـستـطيع التكلم مع خلق الله. الله وكـيل يا بوى؛ تحلف اليمـين أننى رغم جهلى التام بكل ما يقـولون تابعت الكلام بشغف كأننى أفهم، مـثلما أتابع فيلمـا أجنبيا وأفهم مـوضوعه بالفـهلوة. كانت فرجة يا بوى، مـعركة حامية بالإنـجليـزى أو لعله الفرنساوى؛ لم يكن ينقصـهم إلا الانقـضاض على بعضـهم ونهش لحـوم بعضـهم، ولكن العجيب أن ذلك يحدث فيـما هم يضـحكون ويتبادلون الأكف على سبيل التحية ..

عدم فهمى للغة الكلام جـعلنى أركز على حركة الأيدى وملامح الوجوه. الحاج قدرى تناول التمثال المرمرى وعرضه للضوء ناظرا فيه بعدسة كعدســة الساعاتى يغرزها بين الحاجب والوجنة. فبدا التمثال فى نظرى أنا فى غاية الجمال يا خال. وه يا بوى وه، بحق الله من هذا الذى حـدد هـذه الملامح فـوق كـتلة من المرمـر حـتى جعلها تكاد تنطق؛ كيف رسم الانفعـال على الوجه والأبهة الملوكية فى وقفة رمـسيس الجامعة بين الكبـرياء والتواضع بين الألوهية والبشرية بين الخيـال والواقع، بحق جلال الله يا خال هذا لا يقدر

بثمن، مجرد النظر فى تمثال كهذا يعلمك معنى الجمال يزرع فى قلبك الحب لمصر ولأهلها القدامى ..

دار التمثال على الجالسين واحدا واحدا مثل قنديل من ألوان الصفاء الوردى بجميع درجاته. كل من أمسكه ود أن يبقيه فى يديه أطول مدة ممكنة، لولا أن يد الآخر تمتد لتقتنصه، تحلف اليمين يا بوى أنه كان له حضور ملكى مهيب لدرجة أننا جميعا انكمشنا فى حضرته. فلما ظهر العقد الفيروزى المنقوش قامت قيامة الجميع وكادوا يقطعون سلسلته من شدة الجذب والتقليب؛ بل إن الأفندى الذى نصفه رجل ونصفه أنثى لم يتورع عن إحاطة عنقه به على سبيل التجريب؛ فلما استوت حباته على صدره انتفض أحليلى فى الحال تهيجا عليه لأن العقد نفى نصف الرجل وضاعف حجم الأنثى فيه بصورة زاعقة يا خال. ثم ظهر العجل أبيس وطائر أبو قردان؛ ما كل هذه الرقة يا خال ؟ لا يمكن أن يكون صانع هذا بشراً مثلنا؛ صدق ولد عمى حين قالوا عنها : المساخيط، إذ هى فى نظرهم مخلوقات غضب عليها الله كما يقولون لشدة افترائها عليه فسخطها هكذا؛ نزع منها الروح فجمدها كل حسب معدنه الأصلى فى الحياة، الحجر حجر والذهب ذهب والطين طين ..

قامت الخناقة يا بوى، بالعربى هذه المرة، بل البلدى والصعيدى والحوارجى. الحاج قدرى مصمم على أخذ التمثال والعقد معا كما اتفقوا فى مبدأ الكلام؛ لقد اشترى قبل أن يرى ووافق على

الأسعار بغير فصال فلا أقل من احترام الاتفاق. وحاج آخر أصفراوى الوجه والعينين كالثعبان من الواضح أنه زير ملآن بالفلوس، يهتف بصوت متحشرج مكتوم متآكل الأحرف بأن لديه زبوناً مهماً جدا وعزيزاً عليه جدا يطلب هاتين القطعتين على وجه التحديد وإنه لهذا طلب من محمد بك أن يبحث له عنهما لدى معارفه فهما إذن فى الأصل باسمه ومن نصيبه، أما مسألة السعر فإنه لن يدقق بل لا يهمه مضاعفة المبلغ فى سبيل أن يظل رجلا فى أعين عملائه الأوروبيين الذين يثقون فى كلمته ..

انجعص محمد بك أبو شناف ملتفتا إليه، وأفتى بأنه يعرف سماسرة المتاحف هؤلاء وأنهم فى نظره أولاد قحبة لأنهم الرابحون فى النهاية، ثم حسم المعركة بأن خير الحاج قدرى بين التمثال والعقد فاختار التمثال، بل بادر بلفه فى منديله الحريرى ودسه فى جيب سترته الداخلى. فى حين مد الحاج الآخر يده فى كثير من الغضب المكبوت والكآبة فسحب العقد ووضعه بإهمال فى سيالته، وبدأ أنه غير راض على الإطلاق. وكانت نظرات محمد بك أبو شناف تحوم حول الحقيبة الجلدية تحت كوع الحاج الأصفراوى. وبحركة تمثيلية، وكأنه يدخر له هدية أنقح من التمثال، أخرج رأس نفرتيتى صار يلوح بها فى وجهه كأب يختبر فرحة ابنه بلعبة جديدة. بالفعل إنفردت أسارير الحاج الأصفراوى وابتسم واختطفها فى الحال كالطفل المنبهر ودسها فى جيبه الداخلى فحدجه الحاج قدرى بنظرة معاتبة ثم أردف:

- «حلال عـليك ! شف كيف أنى لم أزعل الآن رغم أنى بالفـعل كنت أتمنى هذه القطعة بالذات لكثرة الطلب عليها !!».

فى خبث متقن هتف محمد بك :

- «نحن فيها ! خذها وأعطه التمثال !!»

صاح الحاج قدرى :

- «ما داخل جيبى لا يخرج منه ثانية عدم المؤاخذة !!».

- «خلاص ! كل واحد حلال عليه ما أخـذه !! ربنا يجعل سوقها أحلى منها !!».

أما الرجل الثالث، وكان أفنديا غاية فى الاتزان والصمت والرقة فإنه ركن العجل أبيس وطائر أبى قردان فى حـجره فى شكل غير بارز علامـة أنهما من نصـيبـه ولا مجال لعـرضهمـا على أحد أو مشاركته فى شىء منها، بل إنه كان أول من افتتح المنظر البديع يا خال، كـان يحمل كيـسا من الفاكهـة وضعه بجـواره تصورت أنه يحتـوى على تفاح أمـريكى. سحـبه وفتـحه فـإذا هو ملآن برزم الفلوس يا خال، ورق بنكنوت أخضر وأحمر مؤستك فى باكوات . عد لمحمد بك مائتى باكو، فلوس مضـغوطة حتى ليبدو الباكو كأنه علبة من ورق الكوتشينة، انتظر محمد بك برهة ثم قال :

- «ما هذا ؟ ! أنت لم تأت على النصف بعد !!»

أشار له الأفندى بأصـابعه أنا أنتظر؛ ثم سـحب دفتـر الشيكات من جيب سـترته، وحرر شـيكا برقم واحد أمامـه أصفار كثـيرة،

سلمه لمحمد بك. حاولت التقاط الرقم فلم أتمكن لأن محمد بك طواه بسرعة ووضعه فى جيب الصديرى.

ثم جاء الدور على الحاج قدرى، الذى أخرج هو الآخر دفتر الشيكات وحرر شيكا برقم لم أميز على البعد إن كان تسعة أو ستة لكن الأصفار هى الأخرى كانت كثيرة. نظر فيه محمد بك ثم أعاده إليه بنظرة تأنيب فيها شىء من الوقاحة كأنها تكاد تشخر قائلة: «جرى إيه يا روح أمك ؟! . فابتسم الحاج قدرى ومط بوزه كالمغلوب على أمره ثم سحب الشيك فمزقه وكتب شيكا آخر قبله بشفتيه وقدمه لمحمد بك :

- «مالى بركة إلا أنت»

طواه محمد بك وهو يرشقه بنظرة ولد صايع مخربش :

- «طيب يا روح أمك ! تشكر !ربنا يبارك على كل حال !!».

ثم اتجه بكليته إلى الحاج الأصفراوى الذى كان قد سحب الحقيبة وفتحها. مخى شت يا بوى ؛ تحلف اليمين أن دماغى تشعثت: من أين تأتى كل هذه الألوف ؟! فى البلد كل هذه الأموال يا خال وهناك ناس لا تلقى اللضى ويقولون دولة اشتراكية ؟! يظهر أنها اشتراكية فى النهب والسرقة يا بوى. فلوس الحاج الأصفراوى جديدة لم تلمسها يد من قبل، أيكون هو الذى يطبعها بالكميات التى يشاء ؟ غير مؤستكة لكنها مرصوصة فى باكوات محزمة بأحزمة ورقية عريضة عليها أختام وأرقام. خذ عندك يا

بوى : الله واحـــد، مــاله من ثان، العــدد ثلاثة، هب، أربعـــمــائة خمـسمــائة ستمــائة، ثم خلت الحقـيبـة ومع ذلك نزع منها دفـتر الشيكات وحرر شيكا قـدمه لمحمد بك فى لهجة مـشوبة بالاعتذار والرجاء:

ـ «عفـوا ! هذا الشيك يستـحق السداد أول الشهـر القادم يعنى بعد ثـمانية أيام فـقط ! ومن يدرى ! ربما يسـهل ربنا قبل مـوعد الشيك فآخذه وأعطيك المبلغ !! كله على الله ! كله سينصرف بعون الله !!».

قال محمد بك وقد لمعت صلعته الشبيهة بقطعة جرانيت رمادية اللون :

ـ «أعرنى هذه الحقيبة بعد إذنك !!».

ـ «هى لك ! حلال عليك !!».

محمد بك انهمك فى رص البواكى فى الحـقيبة حتى امتلأت عن آخـرها، فـداس على الغطاء بقـوة حـتى وصل لســان الكالون إلى مستقرة المحفور، ثم حرك تروس الأرقام حتى ساواها ببعضـها ثم عاد فلخبطها ثم سلم الحقيبة إلى أخـيه حازم مصحوبة بغمزة من عـينيه، فنهـض حازم مـستـأذنا، ومـضى يهبـط السلم الخشـبى بسرعة. عند ذاك اعـتدل محمد بـك فى قعدته؛ رفع إحدى ركبـتيه أسند فوقها ذراعـيه، وبيده الأخرى مسح وجهه ورقبـته وصلعته بمنديل حريـرى معطر، ثم تنفس كـأنه انتهى من معـركة حـربية خرج منها ظافرا:

ـ «يا .. ه !! كل مـا كان فى رأسى طـار ! طيرتوه ! أفـقت الآن تمامـا !! أين حـسـن ؟ ! شف شـغلك يا أبا علـى ! روقنا قـبل أن ننصرف لنعرف كيف نتصرف !!».

ثم أضاف بلهجة ذات معنى :

ـ «معك حشيش أم تراه نفد ؟!»

شعرت أنه يشجعنى على القـول بأنه نفد، مع أن نصف الكمية لازال مـعى. فهـززت رأسى مؤيدا فكـرة النفاد. فنظر إلى الحـاج الأصفراوى نظرة ذات مـعنى، فقدم هذا قطعة وقـدم الحاج قدرى قطعة. أحـييت النار. دور والثـانى، تناهت إلى أسمـاعنا الخطوات فعرفنا أن صـلاة الفجر قد انتهت. لكن الداخل كان حـازم؛ فتلقاه محمد بك بسرعة : «سلمت الأمانة لأصحابها ؟!» ؛ فقال وهو يخلع حذاءه ليتربع : «حصل !». بعده بقليل أقبل الحاج أحمد نوار الدين السنى يتمتم بختام الصلاة فى جـدية بالغة. وقف بالباب مستردا نظراته الصبيانية الشقية المرحة.

ـ «صباحين وحتة!».

ردوا جميعا :

ـ «قشطة عليه !»

فظل واقفا كأنه يستعجل قيامهم، بل صار يوحى إليهم بذلك :

ـ «كله تمام ؟ أى طلبات تنقصكم ؟!»

عند ذاك نظروا جميعا فى ساعاتهم وقال الحاج الأصفراوى : «نهاركم سعيد !» ونهض واقفا، فسلم عليه محمد بك قائلا: تلفن لى غدا فى العاشرة مساء فى النمرة الثالثة. ثم سلم على الجميع مودعا، وقال لحازم: أسبقنى أنت إلى تحت. من الواضح أنهم جميعا يعرفون مسالك القصر وممراته، خاصة أن الحاج السنى أغلق جميع الأبواب بالمفاتيح فيما عدا الأبواب التى تقود السائر من تلقاء نفسها إلى الطابق الأرضى فالبوابة الخارجية دون أن يخترق بهو المدخل الحافل بالتحف فوق المناضد، جلس الحاج السنى بجوار محمد بك وفى عينيه توق شديد للحساب. قال بلهجة مدببة ذات معنى :

ـ «اتعشينا ؟!»

ـ «اللهم أدمها نعمة واحفظها من الزوال!»

قدم للحاج قصاصة ورق فيها بعض الأرقام:

ـ «الحسبة كانت هكذا فيما أظن ؟! أمامك عدد القطع وأمام كل قطعة حسابها! وأمامك الحسبة مجموعة جاهزة !!»

بنظرة سريعة مدربة استوعب الحاج السنى الحسبة كلها ومع ذلك قال بلهجة دافئة :

ـ «أحسب وراءك ؟ والله عيب !!»

قدم له محمد بك الشيكات واحدا وراء الآخر :

ـ «بكم هذا ؟»

ـ «بكذا»

ـ «وبكم هذا ؟»

ـ «بكذا»

ـ «فيكون المجموع؟»

ـ «كذا»

ـ «وبكم هذا ؟ »

ـ «بكذا»

ـ «إذن فيصبح لى فى ذمتك ثلاثمائة جنيه زيادة تردها لى عندما تصرف الشيكات ! سأظهرها لك فهى محررة لحامله !».

واستدرك:

ـ «اعط المئات الثلاث لحسن بقشيشا ! حقه ! من حضر القسمة فليقتسم !!» كدت أستسلم للفرح لكن الله ألهمنى فرفعت يدى هاتفا فى إباء وشمم:

ـ «لا ! تشكر يا سعادة البيه على كل حال ! ولكن البقشيش بالنسبة لى لا ! أنا لم أفعل شيئا ! مستورة والحمد الله !

ـ «إذن فخذ المبلغ وتصدق به !! لكن لا ترد كلمتى وتكسفنى!!»

ـ «عفوا يا سعادة البيه ما قصدت شيئا !!».

وكان الحـاج السنى يراقبنى بابتـسامة مـرتعشة مـاكرة فيـما تلعب يده فى سيالته. ثم خرجت يده برزمة الفلوس مطوية، وتقدم منى ودسها فى سيالتى:

ـ «أنت الخيـر والبركة !وضعت لك فـوق هدية محمـد بك مائة جنيه من عندى !!»

وقال محمد بك :

ـ «عن إذنك آخذ حسن معى سأكلفه بمشوار !!»

ـ «كلنا ملكك يا سعادة البيه !»

ومضى خلفنا حتى الباب الخارجى؛ وظل واقفا يتمتم والمسبحة تساقط حباتها فى يده حتى سـخن محمد بك سيارته وانطلقت بنا إلى منشية الـبكرى حيث مسكن حازم، وكانـت الشمس تحاول أن تشرق ولكن الضباب الكثيف يكتم أنفاسها بشبورة خانقة، والناس تمشى فى الشـوارع الطافـحـة بالمجارى لاهـثة شـاردة كـئـيبـة، وتتـراص على محطات الأتوبيس، والسيـارات تمرق من أمامـهم لتهيل عليهم الغبار والأوحال.

بصره

السيارة التى استدعاها حازم بالهاتف من موقف سيارات الصعيد حملتنا ثلاثتنا فقط: حازم ورفيقه المشعرانى فى الكنبة الخلفية، وأنا بجوار السائق: مسدسان بارزان فى جيبى صديرى كل من حازم ورفيقه؛ مما أشعرنى بالأمان والخوف معا يا خال، لا أدرى كيف. وعندما فتح حازم حقيبة الأمس المستعارة من الحاج الأصفراوى وأورانى رزم الفلوس الحمراء والخضراء شعرت بضرورة وجود السلاح معنا يا بوى .

الله وكيل يا خال : القلق لم يفارقنى طوال الطريق على الرغم من أن حازم أغرقنا بالسجائر الأجنبية المحشوة بالحشيش، والأفيون، والشاى والقهوة من إبريقين مقفلين قيل لى إنه اختراع حديث يجعل الإبريق يحتفظ للشاي بسخونته كما نزلت من فوق النار، أو ببرودته كما خرج من الثلاجة. حاجة تهوس يا بوى. الرفيق المشعرانى ـ زاهى بك فيما أظن ـ لم يكف عن التنكيت والضحك طوال الطريق؛ نكت سياسية جريئة تسخر من عبد الناصر، ونكت قبيحة عارية. كل ذلك ودماغى فى البر الثانى من

الوادى: كيف ستتصرف ياابن أبى ضب فى هذه الشغلة؟ لا مجال بالطبع لأن تتراجع لكل عليك أن تكون حصيفا كما نبه عليك صوت أبيك . عيناى ذابتا على الطريق يا خال ؛ أمعنت النظر فى كل سيارة حازتنا أو عبرت بجوارنا أو خيل لى أنها تعاكسنا. أنا ربك والحق أشم رائحة الشرطة مهما تخفت فى أزياء وتنكرت فى هيئات؛ أساس الخسة يا بوى أن السلطة مغرية فضاحة لمن يعشقها إذ هو دائما أبدا يحب أن يشعر بأنه فوقك مميز عنك؛ شعوره بالسلطة أقوى من شعوره بالواجب يا خال، أقوي من قدرته على التخفى..

السكة أمان؛ ولم يظهر لى شىء يؤيد قلقى. وصلنا إلى أسيوط بسلامة الله يا بوى. قلت: بس ! هذه فرصتى لأتملك زمام الأمان فى السكة:

- «متشكرين يا أسطى ! مع السلامة أنت !»

قاطعنى حازم باحتجاج حاد الصوت:

- «لماذا ؟! اتفقنا معه من الباب للباب وحاسبناه !!»

صحت فيه باحتجاج أكثر حدة:

- «لو سمحت يا بو العم! دعنى أتصرف كما يتراءى لى !! فالمهمة مهمتى ! إن الأسطى لن يستطيع توصيلنا للمكان المطلوب وسط طرق ضيقة ومزارع وعرة!!».

لحظتها صاح السائق:

- «نعم! لم أكن أعرف هذا عند الاتفاق! اعملوا معروف السيارة لا تتحمل الطرق اللولبية غير المرصوفة!!».

- « معك حق يا بـو العم ! سيارتك هذه رقـيقة مـثلك ونحن لا ينفعنا إلا سيارة صعيدية خشنة !! فاتكل على الله أنت !!».

وملت على حازم موضحا:

- «هذه سيارة بنمـر قاهرية ومنظرها يثير الريبـة حولنا يجعل الناس يخافون منا خاصة أن منظركما غريب على البلد !!»

بينى وبينـك يا خال كـنت أشك فى السـائق أتصـوره من بين الشرطة لقـرب الشبه بينه وبينـهم. فلما أبدى خوفـه الشديد على سيارته لمحت وراء خوفه خوفا أكبر على حياته يعكس استرابة من المشوار كله، فداخلنى كثير من الأمان. صحبتهما إلى سوق أسيوط لنجلس على إحدى مـقاهيه بعض الوقت. تلقيت الـسلام الحار فى كل خطوة ؛ مئات التحيات والشايات انهمرت علينا من كل من رآنا حتى انكمش رفيقاى بعض الشىء. أرسلت صـبيا فى طلب سيارة من الموقف القريب؛ تصادف أن سائق السـيارة يعرفنى؛ بالحضن يا بو على؛ أهلا يا بو العم، بنا إلى الغنايم ...

عندمـا صرنا فى مـدخل البلد توقـفنا عند عشـة تبيع الشـاى والقهـوة، طلبت للسـائق ما شـاء من المشاريب وأعطيـته حـسابه

وجزءا من حساب العودة علـى أن ينتظرنا بقية النهار بالمبلغ الذى يطلبه كى يعيدنا إلى أسيوط ...

كـانت الفكرة قـد عشـشت فى رأسـى يا خـال، رأيت أن أدخل الرعب فى قلب رفـيقـى حتى يتـسنى لى أن أكـون مسـيطرا على الشغلة، لفـفت بهما حول البلدة بـهدف التضليل ثم توجهت بهـما إلى مـقهى المغـارة فى الجبل، تلـك التى دخلتهـا ذات يوم صدفـة وكنت على وشك الضياع فيها لولا ستر الله، ما إن دخلنا من باب المغارة حـتى التقانا صـاحب الكشك فى الحال المقـام فوق المدخل ليخفيه بداخله، عرفنى صاحـب الكشك فوجه لى ولضيوفى تحية مناسبـة، رفيقاى تصـورا أننا دخلنا الكشك لنشترى السـجائر أو نشرب الشـاى: فكانت المفاجـأة صادمـةحينما أشـرت إليهـما أن يتبعانى، هبطت بهما منـحدرا خادعا يظن من يجتازه أنه يؤدى به إلى الطريق الزراعى ثم يفاجأ بأن الانحدار فيه لا نهاية له: ثم تبدأ السماء فى الاخـتفاء شيـئا فشيـئا إلى أن تختفى تمامـا فى القبو المظلم ثم داخل النفق الطويل...

بدأ الرعب يعتـريهما فـعلا يا خال، من خطوة لأخـرى يسـألنى أحدهما فى استرابه واضحة:

- «إلى أين نذهب؟!»

فأرد عليه بخشونة مبطنة بالرقة:

ـ «لا تخف مادمت معى!!»

إلى أن صرنا فى قلب المقهى، فاستقبلت فيها استقبالا حافلا يابوى كأننى من كبار الزوار بل كأننى صاحب بيت، أتخن شنب كان يجرى ليخدمنا، جاء الشاى ذو الرائحة النفاذة، جاءت الجوزة والحجارة، وكانت بقايا حشيش الأمس وأنبوبة زيته فى جيبى، فملأت الحجارة: شربت معهما بعض الأنفاس: ناديت للواقف وراء النصبة فجاء يهرول وكان عملاقا يخيل إليك أنه ضلع من الجبل دبت فيه الحياة، سلم على ضيفى؛ قلت له إنهما من أقاربنا فى مصر، فأعاد السلام عليهما بحرارة أشد قائلا:

ـ «إن شاء الله الغداء عندنا! جئتم فى موعده ولن تخرجوا من هنا قبل الغداء!! ما الذى تحبون أكله؟ رومى؟ بط؟ حمام؟ خرفان؟ جديان؟ كل هذا موجود عندنا ولن نشتريه!!».

استحسنت الفكرة التى لم تخطر لى على بال. قلت:

ـ «جهز الغداء الذى يعجبك أنت! وهذان الرجلان فى عهدتك وحمايتك حتى أعود! سأمكث حوالى نصف ساعة!!».

بإصبعه أشار الرجل الجبل إلى عينيه.

ـ «تحب أن نبعث معك حرسًا؟!».

ـ «لا! الحارس هو الله!»

ـ « ربما احتجت لمن يعاونك!!»

ـ «الشغلة بسيطة!»

ـ «طالع فوق؟!»

ـ «نازل تحت!!»

ـ« بألف سلامه!إتكل!»

استأذنت من ضيفى فأذنا لى بنظرة فيها من الإكبار والرهبة والخوف الممزوج بشجاعة مدعاة خرقاء ما هز قلبى بالفرح والتفاؤل، فقلت عائدا إلى البلدة،،

من فورى توجهت إلى دارى ففتحتها كالمتسلل، أزحت ملة السرير . بسن الكوريك أزحت التراب عن غطاء البئر ثم أخرجت ما فيه فإذا بقلبى يرتعد خوفا وفرحا معا، الثروة كانت أكبر مما قدرت، وه يا بوى، كل هذه الأنتيكات والتماثيل عندى؟ حمدا لله، انقضت يدى على التمثال الذهبى، شملنى الرعب الممزوج بالندم الكبير! كان التمثال أكبر من تمثال المرمر بحوالى خمس قراريط فضلا عن أنه أثقل بكثير يا بوى، هززته فى يدى ففزرت أنه يزيد على الكيلو جرام بكثير! ثم ما هذا الشغل يا بوى؟ تمثال المرمر كان واقفا فحسب أما هذا فواقف فى مدخل بوابة المعبد الكبير وعلى كل من يمينه ويساره حارس بحربة مرسومين على صدغى البوابة أما هو فمجسد بكامل وجها وظهرا فى فراغ البوابة، وه يا بوى، أجننت يا ولد أبى ضب لكى تفرط فى هذه التحفة الثمينة يا

ابن المرة؟! صحيح أن الفلوس كبيرة لكنني كنت أتمنى أن أحتفظ بها وبالتمثال معا، أو على الأقل يعود التمثال إلى مرقده حتى يجيء عدله، أوشكت أن أفعل يا بوى، لكننى بصراحة خفت من بطش محمد بك أبو شناف؛ عزيت نفسى بأنه ربما صار لى نصيرا فى المستقبل؛ يجب أن أضحى كما يفعل الحاج أحمد نوار الدين السنى، وهكذا لففت التمثال فى منديل دسسته فى جيبى؛ أغلقت البئر أهلت عليه التراب دلقت عليه قدرا من الماء دست فوقه حتى بططته أعدت ملة السرير إلى مكانها وخرجت إلى الشارع العمومى..اتخذت طريقى إلى دار هليل فإذا به يلتقينى فى الطريق حيث كان فى طريقة إلى دارى بمجرد سماعه خبر وصولى ومعى ضيوف، فى كلمات قليلة أحطته علما بحقيقة الشغلة من طقطق لسلام عليكم، فدفعنى برفق نحو داره ليغير ثيابه ويأتى بمسدسه، بعد دقائق كنا فى مقهى المغارة..

وجدنا التحشيش قائما على قدم وساق، الصبيان الضخام استقبلوا هليل بما يليق به من الحب والترحيب، تناثرت عليه عبارة مساء النجف على المعلم من كل ناحية. قال الرجل الجبل وهو يقدم لى نصف كوب من الأفيون البلدى المذاب فى الشاى:

ـ« خبر وصولك طلع إلى فوق!!»

هتفت مستاء:

ـ « لماذا؟ لم يكن هناك داع يا بو العم!!».

ـ « كان الخبـر سيصل بنا أو بغيـرنا فليصل بنا من باب أولى فنحن لا نسـتطيع كتمـان خبـر كهذا فكل من يدخـل الجبل يصل خبـره فى الحال قـبل أن يجلس يا ولد عمى!! ولابـد أن نعرف إن كان علينا أن نرحب به أم نطرده أم نتاويه!! الأصول أصول يا ولد عمى لا تزعل منها!!».

ثم استدرك وهو يتناول الكوب منى:

ـ «هات صـحابـك وتعال! عندنـا قاعـة لكبـار الزوار يجب أن تشـرفوها! دعـوا هذا المكان للركش والواغش ربمـا كنتم تحبـون التحدث مع بعضكم فى شىء مهم!!»

أشار إلينا فتبعناه! مضـينا فى القبو الواسع المستطيل مشوارا يقرب من نصف كيلو متر! ثم حودنا فى كوعة حادة بارزة كجدار يعتـرض الطريق، بعد الحـودة مبـاشرة حودة أخـرى أكثـر حدة وبروزا، تليها عـطفة تؤدى إلى تجويف سرعان مـا أفضى بنا إلى تجويف أعـمق على مساحـة كبيرة مـربعة مليئـة بمقاعد حـجرية كالمصـاطب الملتصقة بالجدران وبعض مقاعد صغيرة من القش. ما إن جلسا حتى تبين لنا أننا فى حجـرة مربعة لا باب لها تحيط بنا الجدران من جميع الجهات..

جىء بدكة خشبية كبيرة امـتدت أمامنا كمائدة؛ صار الصبيان الخناشـير يبـزغـون فجـأة من أضلاع القـاعـة حاملين الأطبـاق والأناجر والسلطنيات، رائحة الطعام الدسم فـاحت حملتها نسائم

لا ندرى من أين تهب، وليمة كبرى يا خال، كل يا بو العم وهات معك من يأكل، قال الرجل الجبل إنه سيعطينا قيمة ساعتين نتمدد فيهما للراحة حتى نهضم الطعام وبعدهما يجىء بنفسه ليعيطنا حبسة العصارى..

الضوء النهارى كان منسربا من أماكن مجهولة، هذا بالنسبة للغشيم يا بوى؛ أما بالنسبة لمخربش صايع مثلى اعتاد النظر والتدقيق فى كل خطوة فإننى لاحظت أن هذه القاعة محفورة فى الجبل بطريقة لولبية لتضليل الغريب من ناحية ولإدخال الضوء من ناحية أخرى جاعلا فى كوعة من الكوعات مسقط ضوء مفتوح على السماء فى قلب هضبة عالية. حاجة تهوس يا بوى. ومن الواضح يا خال أن هذه الحجرة المغارة تصفى مشاعر الجالسين فيها وتهدىء نفسه تمنع عنه القلق، طوحت بصرى على القاعدين معى فخيل لى أنهم جميعا من الملائكة الأطهار الأبرار....

تململ هليل فى قعدته:

- «نتكلم فى الشغل يا بو العم!»

انتبه الضيفان فاعتدلا فى شىء من التحفز. قال حازم بفتور أقلقنى:

- «جئت بالأمانة؟!»

أشرت إلى هليل:

- «جئت لك بالمعلم نفسه صاحب الأمانة!!»

ـ «أهلا وسهلا! تشرفنا!!»

فمد هليل يده فى جيب الصديرى، سحبها بالمنديل الملفوف؛ فك المنديل عن التمثال الذهبى أمسكه من قاعدته السفلية رافعا إياه فى الهواء، أصابنا الذهول يا بوى: الأفواه مفتوحة عن آخرها، المشعرانى زاهى بك تناول التمثال بكثير من التقديس كأنه يمسك مصحفا؛ صار يقلب، يمعن النظر فى كل ملمح، ينظر بالعدسة المكبرة، أخيرا سلمه لحازم مع كلمة واحدة:

ـ «تمام! مائة فى المائة!!»

نظر حازم الى هليل:

ـ «على كم يا معلم؟!»

فى معلمنية ثقيلة يحسد عليها قال هليل:

ـ «مائتا ألف من أجل خاطر حسن وضيوفه!!»

قال المشعرانى:

ـ «الاتفاق لم يكن هكذا!!».

قال هليل:

ـ «شف يا بو العم! ما كنت أنوى إظهار هذا التمثال بالذات لكنه حسن سامحه الله دائما مسحوب من لسانه! لهذه التحفة زبائنها يجيئون لحد عندها!!» اعتدل حازم كأنه سيواجه حوتا ضخما؛

ـ « يا معلم! لقد اتفق حسن مع ناس فى مراكز كبيرة فى البلد! وما أنا إلا واسطة خير أسلم المبلغ وأتسلم التمثال!!».

صاح هليل فى احتجاج دقيقى ومتقن:

ـ « والله عال! بعتم واشتريتم وصاحب البضاعة كالأطرش فى الزفة!!

المشكلة يا بو العم أن حسن نسى شكل التمثال فاتفق معكم على تمثال أصغر من هذا!!»

قلت كأننى أخلص ذمتى:

ـ « لم أبع ولم أشتر أنا عرضت فحسب يا بو العم!! والرجل الطيب الذى تكلمت معه عرض أن يدفع الآن خمسة وسبعين ألفا وبعد أيام قليلة يدفع مثلهما فقلت له سأحكم صاحب الشأن فأرسل معى هذين الرجلين الكريمين لإظهار الجدية فى الكلام إن وافقت يدفعان وإن لم توافق يا دار ما دخلك شر!! فماذا قلت؟!»

ـ « قلت لا إله لا الله!»

ونكس رأسه فى الأرض مفكرا، أراد حازم أن يأخذ خطوة عملية لإظهار الجدية، فتح الحقيبة، أفرغ ما فيها عد خمسا وسبعين باكو ملفوفة بأحزمة البنك كومها أمام هليل قائلا فى أريحية:

ـ «هذه هى الفلوس خذها وخذ التمثال! نحن نشتري رجلاً! ومجرد مقابلتكم لنا تساوى فى نظرنا أموال الدنيا كلها».

ثم إن أخى ـ وحسن يقول لك ـ رجل يشترى! رجل بمعنى الكلمة وصاحب صاحبه وينفع فى الزنقة ربنا لا يوقعك ولا يوقعنا فى أى زنقة!! ولا يصح أن أقول لك عنه أكثر من هذا وسأترك لمخك النظيف معرفة من يكون أخى بالضبط!!».

ـ « أنت فى نظرى لا تقل عن أخيك ولا يرضينى أن أقصر رقبتك أمامه! أنت أيضا لا تقصر رقبتى! قلت إن أخاك رجل ولا كل الرجال! جميل يا بو العم! هذا تمثال غير الذى تصوره حسن ولا يمكن التفريط فيه إلا بسعر يساويه! سآخذ مائة وخمسة وسبعين ألفا الآن ويبقى خمسة وعشرون أخذها بعد عشرين يوما! خذ التمثال لتريه لأخيك حتى يقتنع!!».

ـ « معى الآن هذا المبلغ فقط! صدقنى!».

ـ « إذن فأخوك يسلم لحسن المبلغ المائة أو يعود حسن بالتمثال! مع العلم بأننى واثق فيك وفى أخيك وواثق أكثر فى نفسى فما ضاع لى حق أبدا ولن يضيع بإذن الله!!».

واستدرك ناظراً لى نظرة ذات معنى:

ـ « سمعت ما قلته يا حسن؟!».

ـ « سمعت يا بوى!».

فاتجه ببصره لحازم:

ـ «شف يا بو العم! التمثال أمانة معك سأسلمه لك أنت لا لحسن! وعلى قدر ثقتى هذه فيك أتعشم أن تعاملنى بمثلها! فاهمنى يا بو العم؟!».

هز حازم رأسه فى امتنان؛ وبسرعة تناول التمثال فلفه فى منديل ثم دسه فى جيب الصديرى، فقمت أنا بإعادة رص البواكى فى الحقيبة وسلمتها لهليل. طرح المشعرانى علينا طرحة سجائر ملغومة، وإذ مال ليشعل لنا بالقداحة فوجئنا بالرجل الجبل يدخل بالعدة ليسقينا حبسة العصارى..

عند خروجنا اقتادنا الرجل الجبل من سكة بعيدة تخترق أحشاء سفح الجبل وسط فوهات مخيفة وكتل مائلة وأحجار تتعانق فوق فراغات، طريق شديد الوعورة يا خال ملئ ببقايا جثث آدمية أكلتها الثعالب والثعابين والغربان والكلاب الضالة وكنا نتقافز فى مشينا لنتخطى الثعابين والحيات والكلاب الميتة والفئران الجبلية الضخمة، وأكوام قمامة، وإطارات سيارت وهياكل سيارات محترقة ودراجات بخارية متكسرة، وقبعات وطرابيش شائطة وأسمال بالية. صرنا نصعد فوق مدق ترابى محفوف بكتل الصخور الناتئة المدببة، صعودا بدا أنه لا نهاية له حتى تصبب العرق من جباهنا، وقرص الشمس الأحمر المخنوق يصير على مرمى حجر من رءوسنا تارة ويختفى تارات، إلى أن فوجئنا به قابعا فى السفح البعيد وسط بحيرة من الدماء، وكنا قد صرنا نهبط نحوه نكاد ننكفئ من سرعة الهبوط؛ فإذا بصفحة النيل أمامنا قد احتوت قرص الشمس، وإذا بالطريق الزراعى أمامنا، عندئذ سلم علينا الرجل الجبل مودعا وواصل سيره حول

الجبل ليدخل من كشك السجائر فيما واصلنا نحن إلى مدخل البلد من ناحية دارنـا. سلم هليل علينا ومضى بالحقيـبة تحت إبطه إلى داره، ومضيت بالضيفين إلى كـشك الشاى حيث ينتظرنا السائق، الذي وجدناه فى حال من الرضا متربعـا على المصطبة وقد احتفى به كثيرون من عائلة خرابة فقدمـوا له الغداء والحجرين المعتبرين، ولد عتره يا بوى، صمم أن يوصلنا إلى القاهرة و.. طريق السلامة يا عسل..

مكسب

وصلنا إلى القناطر الخيرية فى الخامسة من مساء اليوم التالى بعد أن استرحنا فى شقتى على نيل المنيل ثم ذهبنا إلى شقة حازم فى منشية البكرى حيث أجرى اتصالاته وعرف المكان الذى يجب أن نتجه إليه فركبنا سيارته فاتجهت بنا إلى منطقة نائية بحذاء القناطر بعيدة عن العمران بمسافة طويلة؛ هى عبارة عن غابة كثيفة من الأشجار المنسقة كأنها خارجة من محل الكوافير، والنخيل الملكى ذى الجريد الناعم. الطريق إليها ممهد بإتقان وممتد إلى داخلها يقول للسيارة واصلى سيرك. صارت أشجار الفاكهة تحف بنا من الجانبين، وثمة لمبات كهربية حمراء كعناقيد العنب تتدلى بين الأفرع الكثيفة. على مبعدة قصيرة ظهر باب الفيلا كقطب من الضوء. باب مسيج بالحديد الصلب المصقول اللامع على شكل درابزينات وشبكات ومصدات، يتم الصعود إليها بخمس درجات، ورغم أن المكان يحيطه الهدوء التام، ولا صوت إلا نقيق الضفادع، فإن المرء يحس أن هذا الهدوء ليس خالصا يا خال؛ فثمة نفس ثقيل الوطء يا خال، ثمة حرس رهيب يتفشى فى أحشاء الغابة وحواليها يرصد حركة كل نملة داخلة أو خارجة

ومن الواضح أن لديه علماً بكل من سيأتى ولديه أيضا تعليمات بعدم الكشف عن نفسه إلا عند اللزوم. وهذا ما قد حدث فى الحال يا بوى، ما أن وقفت السيارة ونزلنا منها حتى ظهر من تحت الأرض أفندى محترم فى غاية الرقة والأدب؛ ألقى علينا التحية ثم أشار إلى السائق أن يتبعه. فمضى حازم بالسيارة خلفه على نفس الطريق الممهد العريض وقد كشفت أضواء السيارة عن الأفندى السائر أمامها فظهر المسدس متدليا فوق إليته اليسرى. مالبث حتى توقف وأشار لحازم بذراعه على حودة غير مرئية لنا تقود السيارة إلى طريق الخروج من جانب آخر، ثم اختفى. عاد حازم ليتقدمنا صاعدا الدرج. ضغط على زر فى الحائط، فسمعنا وشيشا صادرًا عن جهاز يشبه الراديو الترانزستور مثبت على صدغ الباب، ثم انطلق صوت فيه خشونة وتوعد : «من بالباب ؟» . رد حازم فى الحال : «أنا حازم أبو شناف ومعى صديقان !». فانفتح الباب من تلقاء نفسه بحركة آلية ذات صوت كأنه يدور فوق تروس ساقية من سواقى الفيوم ...

دخلنا فلم نجد فى استقبالنا أحدا . ردهة كبيرة جدا مليئة بالأبسطة الملونة الناعمة اللامعة على الأرض وفوق الحوائط بين براويز لوحات ومرايا، تحف ثمينة موضوعة على أرفف وطقاطيق عالية. نجف كثير يتدلي من السقف كعراجين البلح الأحمر والاصفر والأسمر والأبيض والأخضر. أشكال وألوان من الكراسى والمقاعد والكنب والشلت والبفات متناثرة فى مجاميع

متـآلفة تفصل بينهـا ممرات ومناضد صغـيرة عليهـا تحف تضاء بالكهرباء. تهنـا فى الردهة يا خال، صرنا نتـخابط يمينا وشـمالا، لكن صوتا رن فـى قلب الردهة صائحا من أعلـى : إطلع يا حازم. فقذفنا بأبصارنا إلى أعلى فإذا بأفـاريز ذهبية لشرفات وبلكونات تلف حول الردهة. وكانت أعيننا قد ألفت الضـوء الخافت فتبين لنا فى الركن البعيد سلم مائل بدرابزين خـشبى مشغول بالأرابيسك ودرجه مفروش بالسجاد. اختـرقنا المقاعد إليه. فى نهايته كان فى اسـتقـبالنا رجل أسـود كالـذين يظهرون فى الأفـلام فى قصـور البـاشوات يرتدون جـلابيب مقـصـبة. اقـتادنا عـبر ممر عـريض مستطيل مفـروش بالسجاد. موسيقى أجنبية خـافتة الأنغام تزفنا منطلقة من كل خطوة. فى آخـر الممر غرفـة بدت مفتوحـة كالملعب فيها أسـرة ساحرة مفروشة بالحـراير، ودواليب وخزنات ومرايا ومقاعد كالحمير المنجـدة. من شدة اتساعها وارتفاع جدرانها بدت كأنها بلا سقف، تمتد حتى مـشارف البصر بلونها الأبيض المزدان بظلال لبنية ونقوش زرقاء وحمراء خافتة، ولها أبواب عديدة لونها أبيض؛ شيش وزجاج وشبك سلكى. لـم نميز الأبواب من الشبابيك إذ أن الأرض المغطاة بالخشب الباركيـه تمتد تحت الأبواب المواجهة لنا على البعد، وفى العمق البعيد سماء متـلألئة مترجرجة تخترقها أشرعة عـملاقة وقزمـية، صرنا نقتـرب منها فنميـز فيها صـفحة النهر المداح ملتحفا بالسماء وكلما اقـتربنا ابتعدت الأشرعة، عبرنا الباب الثانى فإذا بنا فى شرفة ملحقة بالحجرة لا تقل عنها اتساعا مسقـوفة بشرفة مـثلها، مفتـوحة كهذه على شـاطئ النهر نصف

سورها عواميد حديدية منكلة ومتداخلة فى أشكال زخرفية، حاجة تهوس يا بوى...

محـمد بك أبو شناف ملقى فى كرسى خـيزرانى كالأرجـوحة بقاعـدة دائرية تسمح لظهـره بالتراجع حـتى يلامس الأرض كان مضطجـعا وبجواره ترابيزة عليـها زجاجة وكـأس، وعلى ترابيزة شقيـقة مجمـوعة أطباق فيـها جوز ولوز وفسدق، ترابيـزة ثالثة صغيرة عليهـا طاسة نحاسية يرتص فوقها مـا يقرب من عشرين غليونا مما يسمى بالبايب،دفع ساقيه إلى الأمام قليلا وكان يرتدى منامة فـوقهـا روب، اعتـدل به الكرسى، وضع الكأس وأبقى على الغليون بين أسنانه صائحا من فم مقفل:

ـ « سبع ولا ضبع؟! حمدا لله على السلامة أولا!!».

قال حازم وهو يلقى بنفسه على كرسى مماثل:

ـ « سبع طبعا».

جلس المشـعـرانى وجلست، سـحب حـازم المنـديل وفكه عن التمثال، انتقض محمد بك فاتحا فمه من شدة الذهول والرهبة.

ـ « يا سلا..! ..! ...م!!».

واختطفه، صار يقلب فيه، يقربه ويبعده.

ـ « شىء يفوق الوصف! سأحقد على من يقتنيه!!»

عاجله حازم:

ـ « ولكن البيع ليس نهائيا مع الأسف!!»

فرحت بقوله إذ يطرق الحديد وهو ساخن، بدت على محمد بك صدمة من نوع صدمات قطاع الطرق الذين يدعون الأصول وتشى ملامحهم ونبرات صوتهم بأنهم مدربون على اختراقها، نظرته يا بوى قالت ببريقها الجهنمى إنه بيع نهائى ولن تستطيع قوة فى الأرض إلغاءه، لكنه سرعان ما تسربل بإهاب الحكماء المسالمين:

ـ « ما المشكلة؟! لن يكون هناك مشكلة!!»

بكل وضوح وحيدة قال حازم:

ـ « هذا مختلف عن التمثال الذى وصفه حسن! لقد وصف من الذاكرة!! صاحب التمثال لم يقبل بأقل من مائتين: مائة مقدما والمائة الثانية فى ظرف عشرين يوما! وأنا تعهدت له عهد رجال أن التمثال أمانة عندى حتى يأخذ هو حقه كاملا! فإن وافقت حضرتك على هذا المبلغ فإن حسن يجب أن يأخذ الآن خمسة وعشرين ألفا ليعود بها! أو يأخذ التمثال ويرد المبلغ!!».

نظر فيه محمد بك متمعنا باستغراب ودهشة كأنه يريد أن يقول له. أنت معى أم معهم؟! لكنه استبدل هذه العبارة بقوله:

ـ « وأنت! ما رأيك فى هذا الكلام؟ وما رأى الخبير؟!»

بلهجة ذات معنى قال حازم:

ـ « ما رأيته ولمسته أن الرجل كبير الشخصية وقوى جدا وليس من السهل ولا من الحكمة مماطلته فهو واثق من نفسه إلى

حد الجنون لكنها ثقة فى محلها!! وقد عاملنا باحترام وشجاعة وشهامة ولما كلمته عن حضرتك كان مستعدا لرد الفلوس وهو على ثقة بأنها ستعود إليه كاملة ثم إننى وعدته ويهمنى كما يهم حضرتك طبعا أن أكون عند وعدى!! بصراحة لقد أحببته وأحترمته وقررت أن أكسبه صديقا إلى الأبد وأنت أيضا لو شفته ستقربه منك!! هذا ما حدث ولك الرأى فى النهاية!!»

زام محمد بك فى تفكير عميق ثم نظر إلى المشعرانى فهز المشعرانى رأسه فى تأييد لحازم، وأضاف:

ـ « تحفة لا مثيل لها فى العالم كله! لا يقدر على ثمنها إلا دولة!! وهى خسارة فى البهدلة بصراحة وحضرتك تفهم ما أعنى!!»

تناول محمد بك رشفة من الكأس ثم أشعل الغليون بولاعة ثم جذب عدة أنفاس متلاحقة، وضع التمثال بجوار الزجاجة فأشاع فى المكان كله بهجة ذهبية ذات أبهة وأنس، أخيرا قال محمد بك:

ـ « ماشى! أنا أيضا سأشترى هذا الرجل سأنفذ له كلامه فهو لا يجب أن يكون أرجل منا ونحن فعلا يجب أن نحتفظ به! خلاص يا حسن ! الليل وآخره! قوموا شوفوا لنا حجراً نشربه قبل أن يطبق هذا البايب اللعين على صدرى !!».

تقدمنى حازم فى نفس الشرفة التى نجلس فيها. كانت الأشرعة فى مواجهتنا على مرمى رصاصة كما بدا لى؛ لكن

الشرفة انكسرت فجأة إلى اليسار ثم امتدت إلى الأمام فكأننا ذاهبون مباشرة إلى الأشرعة التى بدت كأنها فى متناول اليد، لكننا بينا أن الأشرعة لاتزال بعيدة وأنها تبدو قريبة لأن الفيلا مبنية على أرض منخفضة عن سطح النهر بمقدار الطابق الأرضى كله رغم ارتفاعه . أخيرا صارت الشرفة فوق سطح الماء فيما كانت الأشرعة فى العمق البعيد لاتساع النهر. هذا الجناح من الشرفة كان متكامل الجدران لكنها جدران من الزجاج والألمونيوم وهو زجاج ترى منه كل ما فى الخارج دون أن يراك من بالخارج؛ أخبرنى حازم بذلك لما رآنى متحرجا من أن يرانا من هم على ظهر هذه السفن. حاجة تهوس يا بوى ..

القعدة كانت متكاملة يا خال تقول للخرمان اجلس وانس الدنيا كلها فى هذه الجنة. حشايا ومساند أرضية، حصائر ملونة فى أركان متعددة، طبليات من خشب مصدف. فى أحد الأركان ثلاث جوزات فى قلب دلو كبير ملئ بهضاب ثلج وماء؛ بوتاجاز صغير يشبه الكلوب، براريد وأكواب فوق صوانى من الفضة شكارة ملآنة بفحم من شجر البرتقال أشار إليها حازم قائلا :

- «شوف شغلك يا حسن ! هذا فحم يشتعل بعود كبريت !!»

قامت القعدة يا بوى لا ينقصها سوى الشاربين. نظرت حولى فلم أجد أحداً فبدا الجو موحشا بعض الشئ وخيل لى أن مخلوقات غريبة ستنط من النهر لتنقض علىّ ؛ تراءى لى فى كل

ركن شبح غـامض الهوية. وكانت السـتائر المتراخـة تهتز وتثـير صلصلة وخشـخشة وهسيـسا يختلط بهـدير الموج الذى يبدو مع ذلك ساكنا تماما ؛ وثمة غناء حـزين يقطع القلب يابوى كان الهواء يلعب به يطوحـه هنا وهناك. قمت مـشيت نحـو الأشرعـة؛ كانت كأنها معى فى الشرفة. خيل لـى أنى يجب أن أفعل شيئا ؛ مضيت إلى الداخل كى أنادى علـيهم. الـتقـانى حـازم مـهـرولا لمنعى من مبارحة المكان. غمزنى بقطعة حشـيش كبيرة كالرشوة المفضوحة، وغمز بشفتيه قائلا :

- «شف مزاجك وحدك حتى نجىء فأمامنا دقائق ربما تطول !! اسرح مع نفسك ومع الجو هنا ولا تقلق إن تأخرنا عليك !!».

بقيت وحدى متربعا تحت الشباك أدخن الحجر تلو الحجر حتى تعـبت، صـرت أتسلى بغـناء صـعـيدى آت مـن السـفن، وبمنظر السيـارات رائحة جائية بـأضوائها الشبـيهة برياح مـرئية تكنس الأرض، سئـمت يا خال، شـعرت بالجـوع، تخنت وجهى وقـمت ؛ مضيت على أطراف أصابعى نحو الداخل. عـبر الحوائط الزجاجية الداخلية المتقابلة رأيتهم منهمكين فيـما يشبه العراك الصامت وقد تحلقـوا الترابيـزة الزجاجـية الكبـيرة: مـحمد بك وحـازم وزاهـى الشـعرانى و ... الحـاج الأصفـراوى. عجـبت كيف جـاء دون أن أشعر به. أخذت أقترب على أطراف أصابعى، ارتعت يا خال، كانت رزم الفلوس مكومـة على الترابيـزة كهـرم سقـارة المدرج ، البنك

الأهلى أو بنك مصر لا أظنهما يحتكمان على مثل هذه الكمية من الفلوس. تدهورت رأسى يابوى : كيف يمكن لإنسان واحد ـ مثلى ومثلك يابوى ـ أن يمتلك كل هذه الأموال ؟! كيف استطاع أن يحملها ويمشي بها ؟! وإذا كان لشخص أن يدفع كل هذه الأموال في بيعة واحدة فما الذى يمكن أن يقبضه بعد بيعها وماذا يكون رأسماله ومن يكون ذلك المشترى يا خال ؟!.

أخيرا هب محمد بك واقفا، صار يلم هذه الرزم ويرمى بها فى شكارة من شكائر البريد. نهضوا جميعا واقفين فاستدرت فى الحال عائدا إلى مقر القعدة وركبى تهتز برعشة شملتنى من شال العمة إلى أصابع قدمي استأنفت قعدتى أمام النار لكننى جعلت وجهى تجاههم. رأيت أشباحهم تتحرك. مضى حازم أمام الحاج الأصفراوى فى الممر الذى جئنا منه، ثم سلم عليه وعاد. رأيت محمد أفندى يضع جهازا صغيرا فى جيبه ويعطى آخر مثله للمشعرانى ثم يمسك بلفة من ورق الجرائد منفوخة ثم يقبل نحو فيلحق به المشعرانى وحازم. اقترب منى محمد بك بابتسامة عريضة:

ـ «شف يا حسن يا ابنى نحن لسنا أقل رجولة من قريبك هذا ! سنقسم البلد نصفين فلا نظلم قريبك ولا نظلم أنفسنا ! ستأخذ الآن خمسا وسبعين ألفا مرة واحدة ولا يبقى لكما عندى أى شيء !! هذا هو العدل والإنصاف وأتعشم أن تفلح فى إقناع قريبك بأن يشترينا هذه المرة ويكسب منا فى المرة القادمة !! أليس كذلك ؟!»

وضحك؛ فـرقص قلبى من الفرح لهذه الثـروة التى هبطت على من حيث لا أحتسب. سللت صوتي من جراب صدئ :

ـ « يا سعادة البـيه الصعيد كله ملكك ! نحن جدعـان ونشترى الرجال بأغلى من المال ! وقريبى أرجل منى ! هات المبلغ يا سعادة البيه ودع الباقى لى !!».

ربت على كتفى بيد :

ـ «حازم سيوصلك به إلى بيتك !»

وناولنى اللفة فاحتضنتها بقوة. ووجدتنى أقول دون أن أدرى ـ لكى أسبك الشغلة:

ـ «بهذا أكون طلعت من المولد بلا حمص ٍ باع الـبياع واشترى صاحب المال وضاع السمسـار فى البلموطى !!».

ضحك بصوت مجلجل. التفت إلى حازم :

ـ «أعطه ألفين يا حازم ! وحلال عليه ما سيأخذه من قريبه !!».

أومأ حازم برأسه بحركة : نحن مع بعضنا لآخر الليل؛ فهززت رأسى أن : وماله. ثم دخلت بالبـوصة على محـمد بك ؛ فأمـسكها واقفـا وراح يعزف على ماء الجوزة لحنـا طروبا بعث النشوة فى رأسى يا خال . ثم إنه جلس متربعا على شلتة فوق حصير ملون. وحيثما وقفت لتغيير مـاء الجوزة لمحت على الـبعد فى الـضوء الخافت حازمًا يفتح شنطة السيارة ويضع فيها الشكارة ويغلقها

ثم يكلم الأفندى الواقف فى الحديقة قائلا : دعها هنا قريبة من أعيننا ؛ ثم يرتد عائدًا. دخلت بالبوصة على محمد بك ووجدتنى أقول له على سبيل المزاح:

على فكرة يا سعادة البيه ! نفسى ومنى عينى أن أدخل الانتخابات لأصبح عضوا فى البرلمان !!».

ضحك حتى أبعد البوصة عنه ماسحا عينيه بمنديل :

- «وماله ! وهل تظن من فى البرلمان أحسن منك ؟! رشح نفسك يا رجل واتكل على الله !».

- «هل كل واحد يمكن أن يرشح نفسه ؟!.

- «إلا أصحاب السوابق بالطبع ! وحتى هذه يمكن أن تحلها أنت وشطارتك !!».

- «وكيف يرشح الإنسان نفسه يا بوى ؟!».

- «يذهب إلى البرلمان ويملأ استمارة الترشيح وينتظر أياما حتى يبلغوه على عنوانه إن كان ترشيحه مقبولا أم لا !! فإذا كان مقبولا تذهب إلى دائرتك وتقوم بالدعاية اللازمة لنفسك !!».

- « دعاية كيف يا بو العم ».

- «يعنى تجتمع بالناس وتقول لهم سأفعل لكم كذا وكذا من الخدمات ! ويجىء يوم الانتخاباتِ فيتوجه المواطنون إلى اللجان للإدلاء بأصواتهم ! ويتم الفرز وتظهر النتيجة !!».

- «زين يـا بوى زيـن !! هل يـمكن أن تـخـــدمـنى فـى هذه الاستمارة؟!».

ضحك ، أشار لحازم :

- «حازم يساعـدك إن شاء الله حينما تنوى عندمـا يحين موعد الانتخابات !!».

- «وهل للانتخابات مواسم يابوى كالزراعة ؟!».

ضحك حتى نفذ وقاره:

- «طبعا ! حينما يجىء موعدها سأقول لك !!»

رن صوت كشـقشقة العصـفور . سحب محمـد بك الجهاز من جيبـه، رفع غطاءه فضوعف حجـمه : آلو .. هو تليفـون إذن بغير سلك ولا دياولو . أخذ يردد :

- «نعم ! أيوه ! ومـاله ! هاتـهـا وتعـال ! وحـسن بك أيضـا ؟ ماشى! سنؤجل العشاء حتى تحضروا بسلام !»

وطوى الجهاز ووضـعه فى جيبه :

- «مفاجأة يا حـسن ! الشيخة سعادة آتيـة بعد قليل مع الحاج أحمد نوار الدين السنى وحسن بك !».

- «معقولة ؟!»

«حـسن بك هذا ليس أنت بالطبع ! إنه صـديق لنا من أعضـاء مجلس قيادة الثورة !».

ثم أخذ يصفق كفا على كف، استطرد مندهشا ومتعجبا في نفس الوقت :

ـ «العالم جُن !! تصوروا أن بعض أعضاء السفارة الأمريكية هم الذين دعوا الشيخة سعادة هذه المرة للتعرف عليها والتبرك بها عن طريق صديقنا حسن بك ؟! رجل أعمال سعودى يعمل بالسياسة نقل لهم أخبارها بأنها ساحرة تجيد قراءة الطالع السياسى للأشخاص وللدول !! يعنى تشوف بخت دولة مثلا !! ها ها ها !! عندها تنبؤات خطيرة بالنسبة للعالم كله ولكبار السياسيين والزعماء !! قيل إن معها كتاب سحر فرعون تجيد تفنيط أوراقه وتوزيعها على الأيام والشهور والأبراج لتخرج بنتائج يقولون إنها صادقة ومهمة !! تنبأت لرجل الأعمال السعودى بأشياء حدثت بحذافيرها !! وزميلنا حسن بك يحلف أنها ترى كل ما فى دماغه ودماغ غيره ويتحدث عنها مع كل أعضاء مجلس قيادة الثورة !! حسن بك أرسل من أتى بها من أسيوط كما يفعل دائما ! ذهب معها للسفارة الأمريكية شافت شغلها هناك ثم دعاها لقضاء بقية السهرة هنا !! الحاج نوار الدين يقول الآن إن الأمريكيين فتنوا بها وأكرموها كرما زائدا خاصة أنها لا تتقاضى أى أجر وهذا ما يزيد الثقة فيها باعتبارها ليست محترفة تتكسب !! ليلتنا فل إن شاء الله !! ارفع زجاجة الخمر يا حازم واخفها فى أى مكان حتى لا يصدع حسن بك رؤسنا بالحرام والحلال !!»

سحب الجهاز الثانى من جيبه. ضغط على زر، تصاعد الوشيش بصوت عال ، أصوات طشطشة وغليان ومواتير خلاطات زاعقة، جاء صوت رجل :

ـ «الشيف تحت أمرسعادتك !!»

ـ «مساء الخير يا شيف ! ما أخبار العشاء ؟!»

ـ «تحت الطلب يا أفندم !»

ـ «زاد عدد الضيوف ثلاثة ! وربما أكثر !!»

ـ «الخير كثير بإذن الله !»

ـ «سنطلبك بعد قليل ! شكرا !»

ووضع الجهاز أمامه :

«هذه ليلة المفاجآت السارة ! اسقنا يا حسن طاقما سريعا قبل مجىء الضيوف!!».

ورحت أسقيه بأعصاب مضطربة من الفرح يا بوى.

أوراق السر الأعظم

ما أظن يا خال أننى سأجد شبيها بأختى سعدية التى حققت ما يشبه المعجزات. حقيقة الأمر يا خال أننى لم أكن عرفتها على حقيقتها أثناء الطفولة؛ فطفولتى كانت شريدة شقية، أبعدتنى عن الدار مدداً طويلة يا خال نسيت فيها أشياء ولم أفطن لأشياء. فمما كنت نسيته مثلا يا بوى أن أختى سعدية هذه سعيدة الحظ من يومها تستقطب الحب من القلوب المتصخرة فهى الوحيدة التى اصطفاها عمى الفقيه الكبير أثناء طفولتها لكى يعلمها الكتابة والقراءة ـ رغم أنه ضرير ـ خيرا من كتاب القرية ومدرستها، ولكى تخدمه ـ فى نفس الوقت ـ أثناء انشغاله فى الدرس لمريديه وطلابه وطلاب الفتوى. كل الكتب كانت فى رأسه فحين يجىء من يطلب إليه الفتوى طلب من سعدية أن تأتى بالكتاب الخامس على اليمين من الصف الثالث للرف المجاور للباب، ثم يأمرها بأن تفتح صفحة كذا وتقرأ من بداية السطر السابع مثلا. فتفعل بلهجتها الركيكة المتعثرة ولكن تلويحة العصا القاسية تجعل ذهنها صاحيا يتجنب الخطأ فى نطق الحروف وتشكيلها قدر الإمكان وهو لاينى

يصحح لها. وبعد قراءتها فقرة أو فقرتين ربما صفحة أو صفحتين يطلب كتابا آخر فيستمع منه إلى صفحة أو صفحتين، وقد تدوخ البنت بين عشرة مجلدات رائحة عائدة بها مقلبة صفحاتها لكى يتمكن هو فى النهاية من إصدار فتوى مكونة من خمسة أسطر وربما أقل. ولما كان جميع أبناء عائلة أبى ضب قد فاتهم قطار التعليم فإن جميع كتب عمى الكبير قد اندفنت فى دواليبها العتيقة حتى شاطت أوراقها وأوشك أبناء عمومتى على تبديدها إهمالاً وبعزقة لولا بقية من تقديس موروث للورق المكتوب إكراماً لخاطر القرآن الكريم؛ إلى أن أنقذتها أختى سعدية فأخذتها كلها إلى الجبل استجلابا للبركة والفأل الطيب.

طب ما قولك يا خال إننى أتذكر الآن لحظات طيبة ؛ إذ تحكى لنا سعدية فى الليل كل ما سمعته من عمها الكبير وضيوفه وحول ماذا دارت معارك اليوم بينهم وبينه. والله يا بوى كانت تتكلم مثلهم بالنحوى الفصيح وهى بنت ست سنوات. وفى صباها كانت من اللماضة ومرونة اللسان على درجة كبيرة ...

يالها من امرأة قوية جبارة. تصور يا خال أن رمش عينها لم يطرف حين رأتنى فى القعدة ؟ كل ما هنالك أنها هزت رأسها قائلة كأنها تخاطب شخصا رأته من قبل مرة واحدة عابرة :

- «كيف حالك ؟ طيب ؟ الحمد لله !».

ثم انصرفت عنى بوجهها الذى انسدلت فوقه الطرحة الحريرية البيضاء الشفافة. كان فى صحبتها الحاج أحمد نوار الدين السنى.

وذلك المدعو حسن بك عضو مجلس قيادة الثورة ذو اللحية السكسوكة. تناولنا العشاء الدسم فى حضورها بشراهة دون أن تنفتح لها شهية؛ إنما اكتفت بتمرتين أخرجتهما من حقيبة يدها الشبيهة بالصندوق السحرى قائلة إن هذا هو غذاؤها على الدوام. احتراماً لها أمر محمد بك أبو شناف بإيقاف وإبعاد الشرب بجميع أنواعه جالسا أمامها كالتلميذ المذنب هو وحسن بك والجميع فى حالة ترقب لكل كلمة تخرج من فيها ..

الأضواء يا خال كانت خافتة، هادئة، والهواء الطرى يربت على اكتافنا بيد حريرية حانية. صوت آذان الفجر ارتفع كأن المدينة قد تفجرت بصوت الله أكبر ترجعه مئات المآذن بمكبرات الصوت فى جميع الأنحاء. نهضت الشيخة سعادة لصلاة الفجر، فاقتادها الحاج أحمد نوار الدين السنى إلى ركن بعيد جداً فى آخر الغرفة الواسعة، وعاد فأمَّ الصلاة بمحمد وحسن بك وحازم والمشعرانى الذى ظهر أنه انضم على سبيل المجاملة للمصلين فحسب. وجدت نفسى فى وضع بايخ يابوى، فقمت ـ غفر الله لى ـ وانضممت إلى الصف بغير وضوء، موحيا للجميع بأننى على وضوئى وجاهز للصلاة فى أية لحظة. لكننى ما أن فعلت حتى فوجئت بالشيخة سعادة كالقضا المستعجل تربت على كتفى بخشونة قائلة بحدة :

ـ «أنت ! عيب عليك ! إذهب وتوضأ !!»

ثم فـعلت نفس الفـعل مع المشـعرانى وحـازم ؛ لكنهـا سلطت عـينيهـا على المشعـرانى بنظرة غـاضبـة حارقـة ؛ فارتبك حـتى ارتعش. فقالت له :

ـ « أما أنت فعليك أن تستحم قبل الوضوء !!»

حاول أن يفتح فـمه لينطق فى احتجاج مرســوم على وجهه إلا أنها صفعته بنظرة آمـرة بالسكوت مؤنبة، ثم امسكت بطوق ثوبها وهزته متـأففـة متشـممة. فلـما رأته مصـرا على غبـائه قالت له بصريح العبارة :

ـ «ألا تشم رائحـتك ؟! كيف تمشى هـكذا ؟! من يخطف المتعـة الحرام خطفـا كاللص فيـجرى والنجس عالق بجـسده لا يصح أن يخطف الصلاة !! لقد أفسدت صلاة هذين الرجلين الفاضلين !!».

ثم هتفت برفق فى أذن الإمام :

ـ «إن الله مع الصـــابرين ! أقم الصـلاة من أولهـــا يا مـولانا واسبقها بركعتين للاستغفار !!».

فـفى الحال سلم الإمـام واقفـا ذات اليمـين وذات اليســار، ثم بصوت عال نوى الصلاة ركعتين للاستغفار ، فتبعه كل من حسن بك ومحمد بك. أما ثلاثتنا فقد وقـفنا غارقين فى البلل؛ فيما عادت هى إلى مقر صلاتها. دون أى تردد مضـينا خلف حازم كالتلاميذ الأشقياء إلى دورة المياه كى نتـوضأ. لم يجرؤ أى منا على التبجح

فى وجهها والادعاء بأنه متوضئ ؛ وهتف المشعرانى وهو يخلع ثيابه على باب الحمام فى غير حياء :

ـ «هذه الشيخة نافذة البصر ومن يشكك فيها أخرق عينيه !!».

وقال إن هذا الحمام تاريخى بالنسبة له لأنه لن يكف عن التطهر بعد ذلك مطلقا.

على الضوء الخافت يا خال خرج الكتاب المفصص الأوراق من حقيبة يد الشيخة سعادة محاطا بهالة من الرهبة والتقديس. العيون كلها عمودية عليه. كان عبارة عن رزمة من ورق البردى الأثرى متساوية الأحجام طولا وعرضا ؛ تقريبا فى حجم كف اليد الكبيرة، مربوط بشريط حريرى أحمر. نزعت الشيخة سعادة هذا الرباط، قلبت فى الأوراق بحركة من يفنط ورق الكوتشينه. الورق كله ملىء بالرسوم والنقوش، بعضها أشكال زخرفية ملولبة تتخللها شرط تشبه الأرقام، ورسوم لوجوه وسيوف وآنية ودوائر حاجة تهوس يا بوى ..

راحت ترص الورق على الأرض فى كومتين. فصلت كل كومة عن الأخرى، فإذا بمجموعة كثيرة الورق والأخرى أقل بكثير. محسوبك ـ لا أدرى لم ـ كان يعد الورق وهى ترمى به، فعرفت أن الكومة الكبيرة عددها ست وخمسون ورقة، تقريبا كعدد ورق الكوتشينة الجديدة ؛ أما الكومة الصغيرة فكان عددها اثنتين وعشرين ورقة، ورسومها تختلف عن رسوم المجموعة الكبيرة. فمجموع الورق كله ثمان وسبعون ورقة بالتمام يا خال .

صاح المشعراني وقد اقشعر صوته :

ـ «حازم ! هل تذكر ؟! رأينا مثل هذا الورق فى النمسا !! يوم زرنا العراف النمساوى ليكشف لنا عن حظنا في ذلك المشوار المعقد المؤلم إياه وكنا متشائمين ! نفس هذه الرسوم ولكن على ورق حديث بمطابع حديثة وعليها أرقام لاتينية !!».

ظهر على حازم ومحمد بك كثير من الحرج ، وغمغم حازم :

ـ « نعم ! يبدو هذا ! أظن !».

قالت الشيخة سعادة :

ـ «هذا كتاب التاروت المصرى ! ورثته عن أجدادى ولكن الذى كشفه لى وعلمنى قراءته هو أستاذى العراف المغربى الحسين بن عزيزة لعلكم سمعتم به !!»

هتف حسن بك :

ـ «أنا قابلته شخصيا عند الملك الـ ن ! تكلمت معه ! هو رجل مبروك وجهبذ من جهابذة قراءة الكف والفنجان فى العالم فكيف عرفتيه يا ستنا الشيخة ؟!».

قالت الشيخة سعادة :

ـ «أنا قابلته فى الحجاز عند أحد الأمراء وقام بيننا الود فى الحال حصل اتصال روحى عاجل ! دعوته إلى مصر ليزيدنى من علمه وحينما أورانى نسخة مقلدة من هذا الكتاب مطبوعة حديثا

تذكـرت مـا عندى وجـئت به من صندوق عـمى فكاد يغـمى على الشيخ من شدة المفاجـأة قال إنه الأصل المبارك الذى لم ينزع عنه سحره القديم إذ هو مرسوم باليـد !! فما كاد يفك لى رموزه حتى صرت بعون الله كأننى مؤلفـته ومع ذلك فكل يوم أتعلم منه شيئا جديدا !! لقد ألفه أجدادى المصريون ليـحفظوا فيه سر ما توصلوا إليه من تقدم وعلم وحضارة لكى يحافظ عليها أحفادهم !!».

أمسكت بالمجموعة الكبيرة لوحت بها :

- «هذا مـا تقـول به هذه الأوراق وهى المسمـاة بأوراق السـر الأصغر !!».

منظرها يا خـال وهى تتكلم عن الأوراق شارحـة كل ما يتـعلق بها بفصاحة وطلاقـة لم يكن غريبا علىّ يا خال ، لم يدهشنى على الإطلاق يا خال ؛ فالمنظر مألوف لى تماما يا خال ؛ ومن زار معابد الفراعنة فى الصـعيد فلابد أنه شاهد الكثـيرين من أمثال الشـيخة سعادة. تضم وفود السـياح رجالا وسيدات من المثقفـين المتعلمين تعليما عالميا؛ ومع ذلك يتلقفهم فلاح صعيدى لم يدخل أى مدرسة لا يعرف القراءة ولا الكتابة لكنه يشرح لهم معانى النقوش وصور الحوائط صـورة صورة نقشـا نقشا فى حـدوتة متسلسلة مليئة بالمعلومات الثمـينة المبهرة والأحداث التاريخـية الكبيرة؛ فيـستمع إليـه المتعلـمون دارسـو التـاريخ فى الكتب فـلا يجرؤ أحـدهم أن يتفلسف عليه قائلا كيف علمت هذا لأن الجميع يعلم أن هذا المرشد

الصـعـيـدى الأمى قـد حـفظ هذه النقـوش عن رواده الأوائل من أساتذة التـاريخ وأضاف إلى ما تعلمه مـا أنشاه خياله اسـتكمالا وتصـوراً، فلماذا أفلح فى هذا يـا بوى ؟ لأنه عشق هذه النقـوش عشـقه لما تنطوى عليـه من وقائع وحواديت .. وهـكذا بدت أختى سـعدية يا خـال . ها هى ذى أمـسكت بالمجمـوعة الثـانيـة القليلة الأوراق لوحت بها :

ـ «أما هذه الورقـات فاسمهـا أوراق السر الأعظم !! أثبت فيـها أجدادى ما سيقع فى الحياة وفى البلاد على امتداد واحد وعشرين قرنا من الزمان تبدأ بميلاد المسيح يعنى ألفين ومائة سنة ! مضى منها ألف وتسعمايه وواحد وتسعـون فيبقى عشر سنين ! فكل ما حدث فى السنين الفـائتة وما سيحـدث فى السنين العشر البـاقية مثبوت فى هذه الورقات !!»

بعينين ضيقتين سـألها الحاج أحمد نوار الدين :

ـ «ولكن ما معنى التاروت ياستنا الشيخة ؟!»

بسرعة أجابت :

ـ «يعنى الطريق المصرى بالفرعونية يا مولانا !!»

ـ «أفادك الله !!».

ثم انكمش يستمع فى شغف ؛ واستدركت الشيخة سعادة:

ـ «بعضـهم يقول إنها الطريق الملكى !!»

نظرات حسن بك تتسع ، تعتريه حالة من التحفز المتوتر ، حالة من يريد أن يعـرف كل شيء دفعـة واحدة وفي الحـال . إذا به يا بوي يطرقع بأصبعيه صائحا:

«حلو ! حلو ! مهمتك الليلة يا ستنا الشيخة أن تكشفي لنا نبوءة أوراق السر الأعظـم هذه ! نحن في عرضك ! نريد أن نعـرف ماذا سيجرى لبلدنا في السنين القادمة !!»

رمقه محمد بك أبو شناف بنظرة فيها من الاستغراب والدهشة قدر مـا فيهـا من فضول لمعـرفة ما سـتتنبأ به الشـيخة سـعادة. وحينمـا تقابلت نظرته مع نظرة حسن بك ظهـر كأنهما متـواطئان على شيء خـفي مشتـرك بينهمـا، ثم اتجهـا بالنظر إلى الشيـخة سعادة في شغف واضح واهتمام كبير مغلف بالمرح. قالت الشيخة سعادة :

- «تريد أن تعرف السر الأعظم ؟!».

كانت لهجتها تعكس السؤال والجواب معا، كأنها تريد أن تقول له : أنت تريد ذلك وأنا أيضا أريده. ثم أمسكت بالمجموعة الصغيرة فأعادت النظر في أوراقها واطمأنت إلى ترتيبها ثم وضعت الرزمة مقلوبة على وجهها.

المهرج

تمهلت برهة طويلة يا خال، قلبت خلالها نظرتها الثاقبة في جميع وجوهنا، ثم رفعت الورقة الأولى. وقلبتها على ظهرها أمامنا، فإذا هي رسماية تكاد تكون طبق الأصل من ورقة الكوتشينة المسماة بالجوكر لولا اختلافات طفيفة جدًا يا خال. ربما اختلاف يد الرسام الحديث الذى شذب خطوطه من ظلال خطوط الرسام القديم: رجل كالبلياتشو، يقف فاتحًا صدره العريض مادًا إحدى قدميه إلى الأمام فى حركة شبه راقصة، الفخذان مفتولان مكتنزان بعضل رشيق وكذلك الساقان فكل ساق ملفوفة بما يشبه الجورب الواصل إلى الركبة تتدلى منه شراريب، كل ساق بلون مختلف عن الآخر، فى قدميه حذاء أشبه بحذاء الأطفال كل فردة مختلفة اللون عن الأخرى أما جسده القوى فملفوف بما يشبه العباءة مشغولة عند الصدر بالقصب والكلفة فى شريحة متعرجة تمتد من أسفل العنق إلى أسفل البطن، جانبها الأيمن أزرق، وكذلك جانبها الأيسر *أما المساحة التى تغطى البطن* فما بين الأصفر والزيتى، حتى الياقة التى تحيط بالعنق يتقاسمها اللون الأزرق والزيتى، ذراعاه أيضا كذلك، على رأسه غطاء أشبه بكلبوش

صوفى ذى أذنين طويلتـين مائلتين على أذنيه تبـدو كل منهما فى ميلها كرأس حصان صغيـر، أليمنى زيتية اللون واليسرى زرقاء، بقوة ظاهرة يمسك بيسراه عصـا من عصى الشرطة لكنها مغلولة إلى عنقـه، فى حين فرد كف يـمناه رافعا أصـبعـه السبـابة كمن يتشـهد على شفتـيه ابتسـامة عابثة لا مـبالية، وفى عـينيه نظرة مـرسلة إلى بعـيد فى تفـحص وإن أوحت بأنهـا تعـرف كل شئ سلفًا. قالت الشيخة سعادة مشيرة إلى الورقة.

ـ « المهـرج! الورقة الزائدة! غـير المحـسوبة لا رقم لهـا إذ هى موجودة فى البدء قبل الترقـيم! تطفو دائما فوق الأعداد! رغم أنها لا رقم لها بين الورق فإنها محسوبة فيه يحلو للكثيرين اللعب بها بل هى ورقة الحظ!! فى يمناه العصـا، رمز لقوة الردع والتأديب! وفى أصبع يسراه النذيـر والتحذير والوعيد!! أصـبع يسراه كأنه يقول لنا ربكم الأعلى والعصا فى يمناه تقول هذه قوتى فاتبعونى لهذا فـهو مـهرج وهكذا كان الفـرعون قـبل أن يتعـرف قلب أحد أحفـاده على الواحد الأحد القهـار!! رغم أن الله قد أصبح سـاطعا فى السماء وفى الأرض ووسعت رحمته كل شئ وبيده الملك لا إله إلا هو فـإن هذه الصورة بقـيت فى الحـساب وإن كـانت بلا رقم بقيت رغم الحساب من قبل الحساب وفوق الحساب بقيت لأن ابن آدم جبلتـه الطغيان والتـهريج! بقى كورقة يـلعب بها أولئك الذين فطرت قلوبهم على القسوة والتأله الكاذب فى معاملة خلق الله كما يلعب بهـا الزمن صانع كل الأوراق!! اندسـاس ورقة المهـرج بين

الورق أمـر وارد على الدوام واندســاس المهـرج نفـســه فى لحظة تاريخيـة فاصلة لعـبة خسـيسـة من لعب الزمن الخسيـس لكنها واردة بل هـى فى كثير من الأحيان مرتـقبة!! ظله يبقى زاحفا أمام كل طاغـية ما بقى الـطاغية طاغـوتًا متـسلطا!! إنه ظل الدكـتاتور وجهه الآخر قرينه النقيض!! أرى فى الأفق ظل المهرج يفشو وهذا إيذان بقرب نهاية الطاغـية!! الطاغوت نفسه إذا استـمر سادرا فى غيه ربما انقلب إلى مهرج خطير ! ولـقد امتهنت كرامة النيل ، ألقى فيه بالروث، ركبه الكفرة الفجرة وتلك علامة الانهيار إلى حضيض الحضـيض والأفظع منه أن يتـخلى الطاغيـة باختيـاره عن العبء صراحة أو من وراء ستار وهذا يعنى أنه صـائر إلى رحيل حقيقى مفـاجىء كل الشواهد تشير بعـين قوية إلى قرب رحـيل الطاغوت واعتلاء المهرج ســرير السلطنة وحينئذ تموت البلاد ميـتتها الأولى فـالبلاد لا تموت بنكســة أو هزيمـة إنما تبـدأ الموت حينمـا ينزوى المسئول ويظهر المهرج وقد ظهـر المهرج بالفعل فى الإذاعة واضعا شنبه فى المصـيدة وفى الشوارع ظهر الـفيل فى المنديل والفلة فى الفـانلة والبـغل فى الإبريق وكل ذلك يعـتلى غـداً ســرير السلطنة يصبح التهريج سيد الأخلاق يرقص السكارى فوق بركان الغضب المضغـوط تحت طقاطيق الأرض فـاللهم لا نسألك رد القـضاء بل نسألك اللطف فيه !!».

ألقت بالورقة مقلوبة وتناولت ورقة أخرى.

الساحر

لوحت بالورقة فى وجوهنا كى نـراها جيدا، الرسم نفس المنظر الذى نراه دائما للساحر يا خال، أو الحاوى، هو أقرب إلى الحاوى يا خـال، بل هو الحـاوى بكل حـذافـيـره، رجـل ممسك بالعـصـا السحرية القصـيرة، أدواته موضوعة فوق منضدة صغـيرة أمامه: أربع كور، علبة مستطيلة، بوقان ..

قالت الشيخة سعادة :

ـ «الورقة رقم واحد : الساحـر! أول ورقة محسوبة فى أوراق السر الأعظم البالغ عددها اثنتان وعـشرون ورقة !! الساحر قديم الأزل كـانت له فى العـصور القـديمـة مكانة مرمـوقـة فى قصـر الفـرعون وقـصور السـادة النجب، وقد تطور شـأن كل الأشيـاء فأصبح سلاحا من أسلحة العصر الناجحة فى التأثير على الناس!! الساحر بأبواقه وألاعيبه السحرية المبهرة أصبح ذا شأن عظيم فى عصرنا أصبحت له شاشة فضية فى كل دار كل فندق كل كوخ كل مخيم لسوف يلعب فى السنوات القليلة القادمة أخطر أدواره على

الإطلاق يذيع أنباء انتصارات السلطان الكاذبة يضلل الناس يخفى عنهم عوراتهم العارية يلهيهم عنها ينسيهم أنفسهم يجتث جذورهم من الأرض يستأصل شأفتهم يحولهم إلى قطيع من الدهماء البلهاء المخدرين لا حول لهم ولا قوة ليستمر زبانية الجحيم سادرين فى غيهم تباع الأرض من تحت أقدامهم بالجملة والقطاعى لكل من هب ودب فلا يعترض أحد ولا يأبه أحد كالحمير تلقى إليها بالشعير فتأكل وتتبعك أينما ذهبت بها يصبح شغل الناس الشاغل هو استمرار الجلوس أمام الساحر الذى يبث فى أفئدتهم كل ما تبغيه القوى الشريرة بفعله - بفعلها - يطرأ على البلاد رواج كاذب تكثر الدراهم فى الأيدى وتنعدم فى الحال قيمتها يعز القوت يرخص الآدمى تتدهور الكرامة يتاجر الناس فى شرفهم فى أعراضهم فى دينهم فى تاريخ بلادهم تأكل الأم من فرج ابنتها يموت الشرفاء والوطنيون كمدا وقهرا يرتع اللصوص والقوادون فى جميع الأروقة يعم الفساد يضرب فى نخاع السقف يدب السوس فى أوصال الأسس المتينة الراسخة يزلزلها، والساحر يعرض على الناس كل صنوف الفسق والفجور بذريعة التنبيه والتسلية وهو فى الواقع يكرس لها تكريسا !! المستفيدون من انتشار الفساد يكثرون ومعفرو جباههم تحت أقدام أثرياء النفط يكثر عددهم تحت راية الدين والدين منهم براء!! يضيع الفقراء كل الضياع تنمحى صورة الوطن من الأذهان من القلوب المرهقة!! التلاميذ فى المدارس يتعلمون العهر مبكرا لا يقوى المعلم

على منافسة الساحر الجبار لا يصبح ثمة من معلم يصبح الساحر نفسه بصندوقه السحرى الصغير ملاذا يصبح أفيونا إدمانا ترياقا أسود وحينئذ تموت مصر ميتتها الثانية، فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

ألقت بالورقة مقلوبة فوق زميلتها، وأمسكت بالورقة التالية لها.

الكاهن

مرسوم عليها صورة سيدة تمسك هى الأخرى بالعصا يا خال، لكن العصــا أطول من قامتهــا يا خال كالحربة، الأرض من تحــتها ضيقة يا خال، لونها فاتح تشــير المرأةبيدها اليمنى إلى الأمام، ثمة طاووس واقف تحت قدميها ككلب حــراسة، حاجة تهوس يا بوى، يمــضى الطاووس بجــوارها فى نــفس الاتجــاه، المرأة ترتدى ثوبا أحــمر اللون، بغــيــر كمين فــهى إذن عــارية الذراعين يا بوى وفى خصرها حزام أزرق اللون، أما لون وجههــا وعنقها وساقيها فلون السمن البلدى يــا خال، تغطى رأسهــا ـ فوق شعــرها المرتب حتى عنقها ـ طاقية تشبه التاج وما هى بتاج، لونه أخضر بغرة صفراء، ســاقهــا اليمنى عــارية واليــسرى نصف مــغطاة بما يشــبه بقــايا جورب، يدها اليــمنى تشير إلى الأرض، المرأة جــميلة يا بوى يحلو لك أن تقــبلها فى جيــدها وعنقهــا وسمــانة ساقــها اليســرى التى انحسر عنهــا الثوب، قالت الشيخة ســعادة وهى تنقل بصرها بين الورقة وعيوننا الشاخصة:

ـ « الورقة رقم اثنين! ورقة الكاهن الأعظم هذه السيدة الممسكة بهذه العصا الطويلة كالحربة هى الأم والزوج والعشيقة والأخت والابنة هى أيضا ذلك الطاووس الذى يحازى قدميها!! جسدها كما ترون يتفجر بالأنوثة الطاغية الرزينة السهتانة تلك هى مؤهلات الكيد العظيم إذ هى الفتنة والردع فى آن، بها صارت رمزا للكهانة للفجور فى آن معا وذلك تبعا للمناخ الحاكم ففى عصر التهريج والفتنة يظهر وجهها الفاجر ينمو الطاووس حتى يطاول قامتها إذ المهرج دائما أبدا سعيد الحظ ولهذا فورقته فى لعبة الورق تسمى بالمحظوظ!! ولأنه يعتلى الأريكة عقب فترة من الشدة والقهر فإنه يحظى بالهتاف والتأييد حتى ممن لا يحبونه ولا يحترمونه! لا غرابة فإنه يترك لهم الحبل على الغارب! وغدا أو بعد غد تنفتح كل المنافذ على كل المنافذ تسبح الأشياء فى الأشياء يمارس الجميع الجنون فى لذة فائقة تصير حرائر الوطن عاهرات تتحكم المرأة الطاووس فى رقاب الرجال تمسك دفة الأمور من وراء ظل المهرج باسمه تبيح كل شئ تبيع كل شئ تطول العصا الحربة فى يدها تصل إلى أبعد مكان فى قلب العباد تلك هى سنة الضلال والانحراف! لقد خلقت حواء من الضلع الأعوج فى آدم كما تقول الأمثال فاعوجاجها منسوب لابن آدم وهى لا تطغى وتتجبر إلا فى عصر يخلو من الرجال الحقيقيين يخلو من المعنى الكبير لكنها إن شعرت بالمعنى الكبير حولها مع ندرة الرجال فى نفس الوقت

صارت أعتى وأشجع من بعض الرجال قدمت ما لا يقدرون عليه إلا أن حساب النجوم والأفلاك يشير مع مرسوم الورق إلى أننا مقبلون على أيام بلا معنى فلا مجال بالطبع لأى معنى والمهرج فوق يمسخ لوجوده نفسه كل المعانى كل القيم كل الرجال كل الشجعان فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه !!».

ورمت بالورقة وسط ذهول مطبق من الجميع .

المملكة

الصورة لامرأة أخرى يا بوى لكنها من طراز آخر تبدو كالملكة يا خال بل هى ملكة على رأسها تاج، قد جلست على كرسى العرش ممسكة بيمناها عصا الصولجان، تشير بأصبع يسراها إلى أعلى كأنها تقول إن الله واحد، رشيقة نحيلة الجسد يا خال لكن صدرها محدد تحديدا مثيرا بل إن بقعة سرتها بارزة تحت قميص أحمر، فتحة صدره مشغولة بكلفة صفراء، يلتف حول جيدها عقد من طابقين من فصوص لعلها من اللؤلؤ، للقميص كمان كاسيان حتى المعصم، الكم الأيمن أحمر والأيسر أصفر على أخضر، من حول الخصر النحيل ينساب ثوب سخى كثوب الزفاف، تتداخل طياته فى موجات. ما فوق الردفين المكتنزتين والفخدين يتداخل اللون الأخضر مع اللون الأصفر شاملا مسند الكرسى الأيمن، وما فوق الركبتين حتى الأرض يتداخل الأزرق الغامق مع الأزرق الفاتح منظر فى غاية الجمال يابوى، لا تقل لى الملكة نازلى ولا فريدة ولا نور ولا ناريمان ولا الشاهبانو التى نسمع عنها فى إيران، لا يا بوى، ولا حتى ملكة الإنجليز يابوى، حاجة تهوس

يابوى. قالت الشيخة سعادة وهى تجابهنا بابتسامة مشرقة فياضة بالذكاء اللامع فى عينيها.

ـ « الورقة الثالثة: الملكة ! ترون الحكمة والحشمة على سمتها ولذا لن يكون العصر عصرها إنما هو عصر الملكة الزائفة التى تمتطى ظهر المهرج يصبح الناس جميعا من تحتها حميرًا وحمارين!! الملكة الأصيلة جبلتها العفاف والملكة الزائفة جبلتها الإسفاف!! الملكة الأصيلة برقعها الحياء والملكة الزائفة لا برقع لها!! الملكة الأصيلة تحنو على شعبها والملكة الزائفة تمتص دمه!! الملكة الأصيلة لبست ذاتها يوم عدة الحرب خاضت بحار النار أوقعت بالقياصرة فى شر أعمالهم والملكة الزائفة عما قريب تخوض أنهار المال توقع بالسماسرة الجبابرة فى شر أعمالها هى!! الملكة الأصيلة مفطورة على العطاء والملكة الزائفة سوف تستلب الكحل من العيون !! كل الملكات لسن بقديسات هذا شئ بديهى معروف ولكن ملكة أصلية لديها بعض الانحراف خير ألف مرة من ملكة زائفة تتظاهر بفعل الخير والتقوى والصلاح فالملكة الأصيلة لديها من الروادع والتقاليد ما يحكمها أما الملكة الزائفة فليست محكومة بشئ سوى اهتبال الفرصة المتاحة للثراء واستعباد خلق الله وقانا الله وإياكم شر ما تخبئه لنا الأيام المقبلة من مفاجآت ضارية!!»

ورمت بالورقة فكأنها نزعت من دماغى قطعة من ظلام المخ رمت بها إلى بعيد، ذمة ودين يابوى إن هذه المرأة فيها سر إلهى.

الملك

الصورة كما هو واضح يابوى صورة ملك أو امبراطور يجلس على كرسى العرش آخر أبهة يابوى مرتديا التاج فوق رأسه ، ممسكا بيمناه الصولجان وبيسراه ما يشبه الدرع، أظنه الدرع ياخال، أشبه بالذى أراه فى تصويرة أبى زيد الهلالى وهو راكب على الحصان ممسكا بالسيف وبهذا الشئ الحديدى الذى يتقى به الضربات، لون التاج أزرق على أصفر على أسود على أحمر، وعلى كتفيه وشاح أحمر اللون على الذراعين بشريط أزرق فاتح على الذراع الأيمن. جزء من ظهر الوشاح أسود اللون يغطى الجنب الأيسر للملك أما بطنه كلها فعارية، وبقية الجسد ملفوفة بثوب أزرق فضفاض تمتد ذيوله على الأرض وينحسر عن الفخذين من فوق الركبتين حيث يتضح أن الركبتين ملفوفتان بلفاف يشبه جورب النساء أصفر اللون فاتح . أما الصولجان فلونه بين الأصفر والأخضر فى خطوط طولية وهو عبارة عن عصا تشبه الشمعة فى أعلاها بقايا شعلة لم تنطفئ لونها أحمر، وأما الدرع فلونه كريمى، قالت الشيخة سعادة:

ـ « الورقة الرابعة: الامبراطور!! عقدتنا الأزلية تختلط بدمنا منذ الأزل!! أزلنا الملكية لكننا لم نلغ الملك إنما غيرنا اسمه فحسب ذهب الملك فجاء الامبراطور يسعى لتوسيع ملكه ليشمل أمة محمد!! عيب المصرى منا أنه إذا اعتلى الأريكة صار امبراطوراً فى الحال ونسى كل شئ أمام ذلك الكرسى اللعين مغير النفوس والأحوال!! من يلبس ثوب الامبراطور ويجلس على كرسيه ممسكا بالصولجان لا يكون امبراطوراً صحيحا حتى لو امتلك الجيوش والأموال والأنصار والحاشية والأبهة إنما الأمبراطور الحق هو ما ترونه فى هذه الصورة يمسك الصولجان بيد ودرع الحرب باليد الأخرى: الحكم والمسئولية الشرع والقوة!! يقول الدرع فى الصورة إن الامبراطور فى حالة تأهب مستمر لأن ينزل الميدان بنفسه يخوض الحرب دفاعا عن امبراطوريته حتى لو مات فى سبيلها فالموت هنا شهادة وبطولة واستمرار للتألق والقوة أما من لبس ثياب الامبراطور فقد أمسك الصولجان بيديه الاثنتين والصولجان وحده ليس يحميه! يريد أكل الحلاوة بغير نار! يأكل الحلاوة والنار للمخاليق فسبحان الملك فمن يجعل من نفسه امبراطورا وهو ليس بامبراطور حقيقى شرعى يكون قد حمل نفسه مسئولية جسيمة سوف ينوء بحملها لا محالة كمن يحمل قربة مثقوبة تخر على دماغه!! يقول حساب النجوم وحساب الحياة وكل الحسابات إن القربة خرت كل مائها على دماغ الامبراطور الزائف فأصبح مبلولا وصبر الناس قد فاض مع مياه

هذه القربة المثقوبة!! لقد مات حلم الامبراطور وتدهورت أركانه فمات الامبراطور بالتبعية وهو الآن يجرى ويتنطط من حلاوة الروح وإن هى إلا ساعات ويلفظ بقية أنفاسه بفعل فاعل أو من تلقاء نفسه ! تقول الحسابات أيضا إن الناس لن تحتمل عهدين متشابهين فلا نفس الكلام ينفع ولا نفس الخطب تلهب الحماسة!! تشير الشواهد إلى أن القادم الجديد، وإن جنح إلى الترفيه ورخى الحبال وفتح المنافذ سوف يختار صورة جديدة للامبراطور الذى يكونه سوف يغير شكله فحسب سيكون امبراطورا من بين الشعب وباسم شعبى خالص لكنه سيكون أشد صلفا وغطرسة وتشدداً من أى امبراطور حقيقى لكى يقنع نفسه أولا بأنه على مقاس الكرسى وأن أحداً من رعاياه لن يستهزىء به أو يستهيفه سيجد نفسه مضطرا لإطلاق يديه فى البلاد قتلا وسجنا وتشريدا وتنكيلا، سيطيح بكل من يظنه خصما له فمن الصعب على المهرج أن يتصرف كامبراطور حقيقى يملك صفة العفو عند المقدرة والقدرة على زجر الصغار وردع الكبار بحسن السلوك ومثاليته سيظل دائما أبدا فى حاجة لتأكيد امبراطوريته يتلذذ بطعمها قدر الإمكان ولسوف يذوق حلاوة الكرسى بالطبع فيصير مستعدا للتنازل عن كل شئ والتغاضى عن كثير من الأمور فى سبيل أن يظل امبراطوراً حتى لو استعان بقوة الشيطان !! فى عهده تموت كل الأشياء الجميلة الزهر والنهر ونسمة الدنيا!! يذهب من كان حكم باسم الفقراء يخلفه من يحكم باسم الأغنياء لكن من يظلم

الفـقـراء لا يكسب هذه سنة الحـياة ولا أحـد يملك لسنـة الحيـاة تبـديلا!! ما طار طيـر وارتفع إلا كمـا طار وقع ولسوف يقـصـف ظلمه عمـره لكن كرسى الامبراطور أبدا لا يبطل سـحره فاللهم لا نسـألك رد القضاء بل نسـألك اللطف فيه!!».

ورمت بالورقة كأنها تستعيذ بالله من شرها يا خال.

الحكيم

الصورة مألوفة لى يابوى، إذ هى قريبة الشبه من تصويره رأيتها كثيرا فى كتب التلاميذ وفى المجلات يقولون إنها لأمير الشعراء أحمد شوقى، غير أن هذا الرجل عارى الصدر والذراعين بارز العضلات كالمصارع، يسند رأسه على يده اليسرى كشوقى بك بالضبط يابوى، ويندمج فى التفكير، مطلق اللحية، ولحيته مدببة بشعبتين، وعلى رأسه طاقية فى أعلاها مثلثات زرقاء وصفراء، يجلس على صخرة من صخور الجبل، نصفه الأعلى مغطى بشال كبير أزرق اللون فى أطرافه شراشيب صفراء، يمسك بيمناه عصا برأسين متقابلتين، كأنها تريد أن تقول: سكة الحكمة سالكة من الناحيتين، أمامه نسر رابض تحت قدميه كما لو كان هذا الرجل يشتغل مدربا لهذا النسر يابوى، وها هو ذا قد أمره بالقعود تحت قدميه صاغرا ففعل، ولابد أنه دربه على الرقص وعجين الفلاحة أيضا. النسر لونه أحمر على أصفر على أخضر غامق كلون صخرة الجبل..

قالت الشيخة سعادة :

- «الورقة الخامسة : الحكيم! روح مصـر الباقية ما بقى الدهر! لا يسخرن أحدكم من عيـال مصر الذين يقولون: نحن الذين دهنا الهواء بالدوكو ونحن الذين عبأنا الشمس فى زجاجات فهذا القول فيه من الصحة نصيب كبير!! هاكم هذا الحكيم المصرى الذى فعل مـا لايستطيع فـعله أحـد! فللإنسـان أن يدرب القرد أو الفـيل أو الأسـد أو حتى التـمساح لكن أن يدرب طائرا يخترق الفضـاء فهذا هو المستـحيل سيـما وإن كـان هذا الطائر نسـراً. ولكن ها هوذا النسـر يقعـد بين قـدمى الحكيم المصرى قـعـدة التليمـذ المؤدب!! الحكيم المصـرى لم يدربه بالقـوة ولا بالسحـر ولا بالفـهلوة إنما دربه بالحكمـة وهاهى ذى عـصا الحكـمة فى يمـينه برأسـين إن ذهبت هنا رأت وإن ذهبت هناك رأت يعنـى عصا الحكـمة صائـبة أينما اتجهت أماما أو خلفا يمينا أو شمالا شرقا أو غربا!! ذلك هو صـبر المصـريين على البـلاء. الصـبـر الذى يظنه الأغبـيـاء تبلدا واستسـلاما للعبودية! الصبر الـذى بنى الأهرامات وامتطى النيل وشيـد للعبـادة بيوتا ذات عـمد راسـخـة! الصبـر الذى نقش على الحجر الصوان قصة الخلق والحياة قبل الموت وبعده! الصبر الذى حنط الأجسـاد بعد صـعود أرواحهـا إلى بارئها ! وهو صـبر من الحكمة وحكمة من الـصبر فإن رأيتم المصرى يمشى لاهيا خالى البال غـير معنى بمن يركـبه من يمص دمه من يسـتعبده فـاعلموا

أنكم مخطئون إن تصورتموه هكذا لأنه فى الواقع ويعرف كل شئ يدرك كل شئ إلا أنه حكيم طويل البال جبلته الصبر على الزرع حتى ينمو وعلى الأرز حتى يستوى!! كم فنيت أمم وبادت شعوب وزالت دول إلا مصر بقيت منذ بدء الخليفة وتبقى وحتى يرث الله الأرض ومن عليها بفضل هذا الحكيم الشارد فى ملكوت الله ممسكا بعصا الحكمة يدرب بها النسور الجوارح وما أظن حكامه أشد بأسا من النسور! لقد صبر عليهم وروضهم حتى فنوا جميعا وبقى هو !! يقول لى الورق إن البلاد فى قابل السنين تجتاحها الرياح الهوج من كل ناحية من الداخل ومن الخارج تقلب أعاليها فى أسافلها ترفع الخسيس تخسف الأصيل تشعل النار فى الأخضر واليابس فكأن القيامة قامت فأذهلت كل مرضع عن رضيعها فجرت الأرض بالحمم ولن ينقذها فى النهاية سوى حكمة هذا الحكيم الذى نصت عليه وسجلته خطوط الأولين فى هذا الورق فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!»

ورمت بالورقة كأنها تنفض يدها من ذنب تبرأت منه.

العاشق

الصورة واضحة يا خال: هذا عاشق ومعشوقته يقفان معا فى خلوة. فتى وفتاة أجمل من بعضهما والله يابوى، يقفان متجاورين متقابلين فى آن معا، يمناها فى يمناه، يسراها على صدره ويسراه على ظهرها، هى ترتدى فستانا أزرق فوقه بطانة حمراء كالمعطف مفتوحة يبدو من الفتحة قميص حريرى رقيق أصفر اللون يبرز صدرها فى كرتين متجاورتين، شعرها مصفف إلى الوراء كالوشاح الأسود أما الفتى يابوى فيرتدى ثوبا يشبه الفستان أزرق اللون على كتفيه ظلال حمراء، يصل إلى ما فوق الركبتين حيث يبرز من تحته سروال حابك على الكاحلين، فى قدميه حذاء أحمر اللون كالسروال، فوق رأسيهما يابوى، يحلق ذلك الطفل ذو الجناحين أنت تعرفه يابوى فلابد أنك شاهدته كثيرا مرسوما على دائرة ناموسية السرير يمسك بيديه نبلة يسدد منها سهما فى اتجاه رأسيهما وإذ هما فى هذه الخلوة يا خال يتسلل نحوهما رجل خنيس ينضح شكله باللؤم والخسة والتآمر، شكله غير مريح يا خال، بلا رقبة، رأسه مغروسة فى كتفيه الضيقتين عليه

طاقية كطاقية الخفراء مكبوسة فيه، يرتدى ثوبا أحمر اللون كالدد بكورنيش أزرق، فوقه عباءة برتقالية اللون تخفى ذراعيه فلا يبين منهما سوى يدين، اليسرى تستند على عصا طويلة رفيعة. واليمنى تشير بأصبعها السبابة نحو الفتى والفتاة فى توعد ولوم وتهديد، ويظهر يا خال والله أعلم أنه أب الفتاة جاء يضبطها فى هذه الخلوة المحرجة..

قالت الشيخة سعادة :

- «الورقة السادسة: العاشق! العشق مكتوب علينا وهذه نعمة من نعم الله لا يمن بها إلا على عباده الصالحين الأتقياء! قلوبنا والحمد لله مفطورة على الحب والحب هو باب الحياة وهو الماء الذى يرويها يجعلها تورق تخضر تثمر تعطى!! لكن الله تعالت حكمته ابتلانا دون خلقه جميعا بالعزول لابد من عازل يبعثر القلوب يشتت الحبيبين يفرق بينهما كغراب البين إن لم يكن أبا أو عماً أو خالاً أو أخا أو أما أو ابن عم أو ابن خال فحاسد حاقد محروم من الحب غصبا عنه يا ولداه يطلب أن يسرى الحرمان على غيره إشفاء لمرض فى قلبه!! من تراه يكون مسئولا عن تجريم الحب وتحريمه في بلادنا !! أى شيطان أسود القلب أصاب نفوسنا بالعطب حتى أصبحنا نقف لكل حبيبين بالمرصاد !! أغلب اليقين أنه جاء من القبائل وخرافة الأنساب التى ظن الرجال الواهمون أنهم قادرون على حصار الأرحام حفظا لها مع أنه لا

حافظ للأنساب والأرحام سوى الأرحام نفسها إذ هى مجبولة على الانغلاق من تلقائها دون غير المرغوب غير الجدير غير الشرعى فما بالك بعد الوعى والتربية الصحيحة والثقة فى الأنثى باعتبارها أصل الحياة؟! يقول الورق إن العزول الذى ابتلينا به قد تجدد هذه الأيام فى عزول أكبر لا قبل لعاشق باحتماله: فمن ذا الذى يستسلم اليوم للحب - حتى ولو كان مباحاً - وهو يعلم أن لا جدوى منه ولا نهاية لطريقه المحفوف بالصعاب والأشواك ؟! من ذا الذى يجرؤ على المضى فى طريق الحب الصادق النية وهو لا يدرى، أن يبيت ليله ولا أين توجد لقمته ؟! هج الشباب وطفش إلى بلاد المال يطلب مسكنا ومركبة وهدمة ولقمة فلئن أفاضت عليه بلاد المال فتاتها الكثير نقلته إلى دنيا غير الدنيا أنسته الحبيب الأصيل وضعت نصب عينيه تطلعا جديدا امرأة سلعة لا حبيبة ولا قريبة!! وغدا يرحل كل الشبان لا يبقى فى البلاد سوى العجائز والأرامل والعوانس الجميلات المائسات البائسات لا يبقى على المداود إلا شر البقر!! تتعب البلاد فى الخلفة والتربية لكى ينتفع غيرنا بفلذات أكبادنا !! وقديما قيل لجحا أين وطنك يا جحا؟ قال هو مؤخرة بقرتى!! فلا يغرنكم إذن قول القائلين من المغتربين وراء المال إن الوطن ساكن فى قلوبهم أبد الدهر مهما غاب عنهم بل كلما غاب عنهم !! لا ! ربما كانوا صادقين لكن الأصدق منهم تجارب الزمن القائلة بأن البعيد عن العين بعيد عن القلب يعنى أن بلاد المال شاء هؤلاء أو أولئك أم أبوا استأصلت شأفتهم من أرض

الوطن فلئن عادوا إليه فى خريف العمر متخمين منعمين فى رغد من العيش فإنهم محض سكان لا مواطنين!! لكل قاعدة استثناء بالطبع لكن المرئى لنا دائما أن من يكسب المال من بلاد أخرى ومن طرق سهلة أو ملتوية أو غير مشروعة فإن المال دائما يباعد بين قلوبهم وقلوب حتى ذويهم فما بالك ببنى وطنهم !! حينئذ تموت مصر ميتتها الثالثة فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

ورمت بالورقة فى هدوء وحنو كأنها مستمرة فى مناخ العشق وبنفس الهدوء تناولت الورقة التالية.

العربة

الورقة يا خال مقسومة إلى نصفين بالعرض. النصف الأعلى مبروز بما يشبه ستارة المسرح المفتوحة، وقد وقف في وسطها - كأنما على خشبة المسرح يا خال - رجل يشبه القائد قوى البدن مفتول العضل على صدره رسم يشبه الدرعين فوق الثديين من الواضح أنهما جزء من تفصيلة البدلة التى يرتديها وهى أشبه ببدلة نابليون بالضبط كما أتذكرها فى كتب التلامذة وعلى كتفيه نجمتان كل نجمة عبارة عن دائرة صفراء اللون ببرواز دائرى أزرق كلون الكمين. يتوسط الدائرة شكل دقيق يشبه الهرم. أما البدلة فأعلاها أزرق اللون وأسفلها أحمر فاتح، ومن تحت شكل الدرعين الصغيرين اللذين هما جزء من القماشة ينحدر مثلث أصفر اللون بداخله رقوش مزرقة، يغطى منطقة السرة كلها، شعره كشعر الأنثى منسدل على كتفيه لكنه يلبس فوق شعره هذا طاقية تشبه الطاقية الورقية التى تباع للأطفال فى الموالد. حافتها العليا على شكل مثلثات متجاورة. ذراعه الأيمن مثنى ويده على خاصرته أما ذراعه الأيسر فيمسك بعصا صغيرة شكلها يشبه

ريشة الكتابة وسنها يبدو من بعيد كأنه شعلة، ولونها أحمر فاتح على وجهه عزم وتصميم وإصرار فيما أطلق عينيه بالنظر إلى بعيد. حاجة تهوس يا بوى..

أما نصف الورقة التحتي يا خال فتحتله عربة يجرها جوادان عفيان كل منهما يمضى فى وجهة مختلفة، أى والله يا خال، حيث يجنح الجواد الأيمن إلى الجهة اليمنى، ويجنح الأيسر إلى الجهة اليسرى، غير أنهما ليسا منطلقين إنما يمشيان فحسب فى خطو منتظم متناسق، كل منهما يمد المقدم اليمنى فيما انكسرت لها اليسرى. الجوادان لونهما أصفر أما العربة فلونها أزرق ومقعدها أحمر فاتح. فبدت الصورة يا خال وكأنما القائد واقف فى شرفة قصره يرقب العربة التى صارت تحت بصره تماما..

قالت الشيخة سعادة:

- «الورقة السابعة: العربة! ها أنتم ترون القائد الحكيم واقفا فى شرفة القصر وقد انزاحت عنها وعنه الستار يمد بصره إلى بعيد يكاد يعانق ببصره حدود الوطن يرقب من قد تسول له نفسه الاقتراب من حرمةالحدود المحمية! ذلك واجب لابد منه إذا ما قام وطن فلابد لكل وطن من قائد لابد لكل قـ ـ من هذا الواجب وإلا ما كان قائدًا!! بعصا الحكمة هذه يوجه هذه العربة إلى حيث يفتدى الوطن!! فى الصورة عربةواحدة لكنها بحركة الجوادين مهيأة للسير فى هذا الإتجاه وذاك معا!! حكمة الأولين أنت بورقة

لعربة بعد ورقة العاشق مباشرة في الترتيب لأن الأمور هكذا مرتبة: الوطن موطن العاشق وعشقه! عشق العاشق للمعشوق هو أغنية المواطن للوطن حرارة العشق هي نار القتال في سبيل الوطن قلب العاشق ومنزله العامر!! العربة عند أهلنا القدامى لم يكن لها إلا وظيفة الجرى إلى الدفاع لكننا يا ألف حسرة لم نقرأ هذا الورق فجاءنا قائد غير حكيم توفرت له العربات بكل أنواعها إلا عربة الحكمة لم تتوافر له فأوكل بالمهمة أهل العز والرفاهية الذين أرادوا اغتصاب كل شيء ظنوا الدفاع عن الوطن نزهة يعودوا منها بمغنم شخصي ظنوا الدفاع عن الوطن يعني الدفاع عن الإمبراطور فقط وحماية حياته وحده فكلهم مجند للبحث عن أعدائه يؤلفون له الأعداء من صنع خيالهم وفي هذا السبيل يقضون على كل من لا يروق لهم أو لا ينضوي تحت لوائهم حتى صار الأمن يعني أمنهم الشخصي والجميع تبعا لذلك أعداء لهم فأوقعهم الله في وحل شرورهم لكن العدو حصد فلذات أكبادنا ونور عيوننا وعتادنا وأرضنا وسماءنا!! ولقد يجيء غدًا من يستفيد من الدرس المؤلم فيرد للوطن بعض هيبته المفقودة لكن الواقع ينذرنا بأن القريبين من الكرسي ليسوا من خيرة الرجال وإن كانوا ملء هدومهم ومراكزهم وملء السمع والبصر هكذا شفناهم، عرفناهم، لسعت ظهورنا أسواطهم، حولونا إلى عبيد أذلاء فرقوا بين المرء وبنيه بالرعب بالخوف جعلوا من المرء مخبرا على أمه ! إنقسم المرء على نفسه أضعفوا الناس قتلوا فيهم روح المحبة روح العشق لوطن

ملأوا الهواء بالأكـاذيب وهذا ليس من شيمة الـرجال !! غداً ينزاح الكابوس فـينطلق المارد الحـبـيس لا ليصـنع مجـدا بل ليـعب من الحياة يغني للفوضى وهو معـذور إلا أن هذا هو ما يرجوه أشباه الرجـال الذين يتأهبـون اليوم للوثوب على الكرسـى فممـا يوافق هواهم أن يلهو الجميع فى العب من الحـياة بأثر رجعى لينصرفوا هم إلى تثـبـيت ملكهم بإرضـاء القوى الأجنبـيـة فبـقـاؤهم على الكرسى مرهون برضاء القوى صاحـبة المصلحة فى خير بلادنا!! يقـول الورق: أفيـقوا أيهـا القوم واقـرءوا هذا الرمز لتـعرفـوا أن كرامتكم مرهونة بكرامة هذه البلاد التى تأويكم وتستر أعراضكم وترويكم بنيلها وتدفئكم بشمسها وأن كرامـة هذه البلاد مرهونة ببقـائها قـوية ذات بأس وهيبـة وأن هذه الفتـرة مشروطة بـقائد ممسك بعـصا الحكمة وعـربة حرب تجـرها خيول عـفيـة!! يقول الورق هذا من عـصـور طويلة مـضت لكنـنا قد حـيل بـيننا وبين الأصول فباتت أقدامنا على سلم النزول هابطة فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!». استقرت الورقة فوق زميلاتها.

العدالة

فى الصورة يا خال امرأة ذات صدر ملآن بثديين متخمين بالأمومة يا بوى، يشعر المرء أمامهما بالطفولة يا خال، لكنها عمياء يا بوى، وملامح وجهها فى غاية البراءة يا بوى، تضع على رأسها طاقية صفراء اللون بظلال مزرقة تشبه شكل الهرم، وخصلات من شعرها نافرة فى فوضى متسقة، ترتدى ما نسميه اليوم بالبلوزة: نصف كم زرقاء اللون على كتفيها شارتان صفراوتان برقوش مزرقة، أما لون بشرتها وساعديها فلون الزيت الفرنساوى تقريبا يا بوى، من تحت الإبط الأيمن - مع استدارة الخصر ومن منبت الثديين المتكورين تحت الثوب - تنساب ملاءة حمراء اللون تلف بقية جسدها، تمامًا كبنت البلد المصرية القديمة يا خال حينما تترك الملاءة اللف تنزللق عن كتفيها فى إهمال لتبرز كنوزها المستورة، لكن ساقها اليمنى بارزة من الملاءة، ملفوفة فى جورب يميل إلى الزرقة، وفى قدميها حذاء أصفر اللون، أما ساقها اليسرى بقدمها فمختفية تحت الملاءة يا بوى، تمسك بيدها اليمنى سيفًا مرفوعًا إلى أعلى، وبيدها اليسرى ميزانًا معتدل الكفتين..

قالت الشيخة سعادة.

ـ «الورقة الثامنة: العدالة!! السيف فى يمناها وفى يسراها الميزان متوازن الكفتين: القوة والعدل! فلا عدل بغير قوة تسنده تفرضه، لكنها كما ترون عمياء! يقول ما بينى وبين الورق إن عماء العدالة يأتى حينما يرغمها الإمبراطور على العمل لحسابه الشخصى تحكم بما يراه هو على من يعاديهم هو بالحق أو بالباطل!! ولقد تحققت نبوءة الورق منذ سنوات قليلة يوم هجم البلطجية المدعومون بقوة الإمبراطور على كبير القضاة مشرع القوانين فضربوه فوق منصة الحكم ضربًا مبرحًا أهانوه أهدروا كرامته دهوروا كل هيبة القضاء إنتفت العدالة أصيبت بالعمى ومن غد يسوء الأمر أكثر فأكثر فالمحظوظ الذى سيرث العدالة مفقوء العينين جاهزة سوف يلوى عنق الميزان يحرف سيف القوة ليصبح مسلطًا على رقبة العدالة ذاتها فتتفتح السجون تبتلع الصالح مع الطالح العاطل مع الباطل تحتجز اللصوص الصغار سارقى طعام يومهم لتخلو الساحة لكبار كبار اللصوص سارقى الأقوات والمصائر والأحلام والأفراح والدول يتوه فى المعمعة كل الأبرياء ينمحى صوت الحق تموت روح المقاومة وحينئذ تموت مصر ميتتها الرابعة لكن يبقى فى الجسد ذبالة نبض يغذيها زيت من عرق الفلاحين والصنايعية وصغار الموظفين الشرفاء يبقى الأمل معقودًا على قلة من حاملى ميزان العدالة ممن جرى فى

عروقهم سر مصر ذات الأرواح السبع فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

ورمت بالورقة في شيء كاليأس يا خال، وأمسكت بالورقة التالية ولوحت بها في وجوهنا بتمهل يعطينا جميعًا فرصة تأملها.

الناسك

صورة رجل عجوز كحكوح. شكله يا بوي أقرب لشكل قسيس، يرتدي جبة مقفولة تلف جسده من رقبته إلى قدميه، لها زنط مثل القرطاس يمكن لبسه في الرأس لكنه مطروح على كتفيه أما الرأس فعارية صلعاء من الوسط كجزيرة بيضاء تحيط بها دائرة من الشعر تغزر في مؤخرة الرأس تخف فوق الجبهة فكأنه يلف حول رأسه حبلا أسود، الوجه مشطوف بفك مستطيل يختفي تحت لحية منسقة قصيرة الشعر، أنفه دقيق وفي مستوى الجبهة بالضبط لا بروز له، عيناه ضيقتان كليلتان تدققان بوهن في البعيد، يده اليمنى ممدودة بفانوس منير، ويده اليسرى تتكئ على عصا، الجبة لونها بني فاتح والعصا زرقاء اللون وكذلك الفانوس..

قالت الشيخة سعادة:

ـ «الورقة التاسعة: الناسك!! يمر على البلاد خريف كخريف عمر هذا الرجل الفاقد الهدف في شيخوخته الحائرة تنحني قامة

الوطن!! ها أنتم ترون أنه لا إشارة لـليل أو الظلام فى الصورة بل إن الفـراغ المحيط به كله أبيض فـيـما المصـباح مـشتـعل مع ذلك فالمصباح إذن إشـارة إلى ظلام طغى على نهاره حجب عن بصره كل مرئى!! شىء كهذا سوف يحـدث للبلاد فى قابل السنين حيث تكثر الأموال فى أيدى البعض وتنعدم فى أيدى الكثيرين فمن يكثر المال فى أياديهم ويصـبح لا عمل لهم سوى الإنفـاق تفقد الحـياة مـعناها ومن ينعـدم المال فى أياديهم ويصـبح لا عمل لهم سـوى البحث عنها بغير طائل تفقد الحـياة معناها عندهم أيضا فما أسرع ما يشعر هؤلاء وأولئك بخريف الحياة بغضب الله إذ يصيب البلاد بمن يتحكم فـى مقدراتهـا دون قدرة على بعث الربيع والخـصوبة فيـها!! يلجـأ الناس إلى التنسك فى ظلام البـصيـرة فكأن التعـبد مصباح يسـتهدون بنوره العليل نحو الهداية تصـبح العبادة هدفا وحـيدا فى الحـياة لأنهم جـميـعا بلا هدف ومـا هكذا أرادت لهم السمـاء العادلة فـقد أمـرنا الله بعبـادة كأنهـا العمل وعمـل كأنه العبادة!! يجىء على الناس يوم لا يجدون فـيه ما يفعلونه يحولهم الساحـر ذو الشاشـات الفضـية إلى نسـخة متكررة مـن كائن لا حضور له ولا أثر يشعر الناس بالضـياع التام!! ولما كان الإنسان مجبـولاً على أن يفعل شيئًـا يحقق به ذاته فلسوف تتجـه الأغلبية العظمى إلى الإغراق فى العبادة لا بدافع من قوة الإيمان بل لمجرد تحـقيق الذات على نحـو من الأنحـاء!! فى غد يخـرج دين الله عن

هدفه السامى عن طريقه الفعال يصـبح ميدانًا للصراع لاستجلاب القوة لاستدرار المال باسم الله يتقاتل المسلمون يعم الخراب وسط برك من الدم ومستنقعات من الجيف وحينئذ تموت مصر ميتتها الخامسة فى خريف أجرد بلا ملامح يحيل الوطن إلى عجوز كليل البصر محنى القامة يتوكأ على عصا يبحث فى ضوء مصباح شاحب عن حقيقة ضائعة وهدف مفقود فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

ووضعت الورق بهدوء متجاهلة امتعاض محمد بك أبو شناف، وانذهال الحاج أحمد نوار الدين السنى، وولع حسن بك بما يسمع.

عجلة الحظ

عجلة كعجلة العربة الكارو بالضبط يا بوى، منصوبة بين قائمين من الخشب لهما جذور ضاربة فى الأرض متشعبة كجذور الشجر، للعجلة يد معقوفة يمسك بها ـ بكلتا يديه ـ رجل أشبه بالملاك الطائر البرىء يا خال، عارى الجسد إلا من إزار أزرق اللون يلتف حول سوأته، وقد نبت له فوق ظهره جناحان أشبه بفروة شعر الخروف يا بوى، وها هو ذا منهمك بكل قوته فى تدوير العجلة ذات الإطار الأسود؛ وقد ركب فوق إطار العجلة فتاة ممسكة بشاب مذعور هابط مع دوران العجلة، يده اليمنى متشبثة

بيد الفتاة، ويده اليسرى طليقة فى الهواء ممسكة بقبعة تكاد تطير فى أسفل العجلة ـ قريبا مـن الهاوية يا خال ـ رجل ساقط برأسه فى الهاوية قدمه متشبثة بالعجلة، ومن فوقه هيكل رجل آخر ألقى به دوران العجلـة إلى الفراغ فتـشبث بهذا الفـراغ الساقط تحـته. حاجة تهوس يا بوى....

قالت الشيخة سعادة:

ـ «الورقة العـاشرة: عجلة الحـظ!! هذه هـى الحياة كـما ترون دنيا دوارة كما الكرة الأرضية من يكون فى القمة يصير بعد قليل فى الهاوية يوم لك ويوم عليك فلو دامت لغيرك ما وصلت إليك إلا لكى تتـخلى عنك بعـد حين لكن أحـدًا لا يتـعظ!! من يرى نشـوة الراكب فوق القمة وزهوه وفرحه تـصدمه رؤية المتهاوى فى القاع مدحورًا تعيـسًا!! يقول الورق إننا يجب أن ننتبه إلى هذه الحـقيقة هذا المصير حتى لا يستخف الطرب من فوق القمة فيطغى ويتجبر عليه دائمًا أن يتذكر أن الركوب على القمة إنما هـى برهة من الزمن لحظة خاطـفة مهـما طالت لعلهـا الوهم بعينه أمـا الحقـيقـة فهى السقوط إلى الهـاوية حيث ينتظرنا فى القبر مـا ينتظرنا من عذاب أليم لا ينجـو منه إلا من ظل دائمًـا أبدا يتـذكـر المصيـر النهـائى يحسب حـسابه بالعـمل الصالح فـاللهم لا نسألك رد القـضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

وضمت الورقة إلى أخواتها.

القوة

الصورة لأسد هصور كما يقال يا بوى، شكله مخيف، يكاد يشبه الحصان فى حجمه وقوته يا خال، فى وضع هجوم، ذيله طويل مرتفع لأعلى ومقوس كعلامة الاستفهام، وهناك رجل يماثله فى القوة، مبروم العضلات عارى الجسد إلا من غلالة تحيط خصره القوى، وفى وضع صراع مع الأسد. لا يا بوى هو ليس كمحمد الحلو فى السيرك القومى، فمحمد الحلو مدرب للأسود بالفعل والأونطة من بعيد لبعيد وفى وجود من يقفون قريبا منه فى استعداد لضرب الأسد بالنار أو بالسيف إذا قل عقله وهجم على مدربه، أما هذا الرجل يا بوى فإنه يأخذ الأسد بالباط جسدا لجسد قوة لقوة، وقد أمسك بذراع الأسد وثناها على فخذه يكاد يقطمها قطم الخيارة، والأسد رافع رأسه فاتح فمه يجأر بالصراخ، شعر رقبته الكثيف مهوش متهدل مما يدل على أن الأسد حالته كرب والله يا بوى..

قالت الشيخة سعادة:

- «الورقة الحادية عشرة: القوة!" هذه الورقة يوجهها التاروت المصرى لكل متجبر متسلط على الشعب المصرى لكل مزهو بقوته المأخوذة من قوة الكرسى أو المال أو العزوة" يقول الورق. هذا هو الشعب المصرى فاحذروه ثم احذروه ثم احذروه لا تغرنكم القوة التى منحت لكم فإنه فى الأصل صاحبها مانحها لكم فإياكم إياكم أن تغتروا بها تغلبوها عليه فلو كان الواحد منكم أسدا كهذا الأسد

فالشعب كهذا الفارس الجبار يستطيع أن يلوى ذراعه هكذا يكسرها فوق فخذه يسلبه قوته يجعله غذاء لأمثاله من الوحوش الضارية الشاردة إن المصرى الذى أنشأ هذه الأهرامات وهذه المساجد وهذه الكنائس وهذه الفدادين الزراعية وركب فوق النيل أمسك بلجامه لقادر على ردع كل متغطرس مزهو بقوته!! يقول الورق إن هذا الأسد هو كل قوة غاشمة والرجل القوى كل قوى الجماعة تختزنها مضغوطة مقهورة لتصبها فى واحد يفيض به كيل الهوان الجماعى وما دام الورق قد أثبت هذه الصورة على هذا المرسوم فلابد أن شيئا من هذا سوف يحدث فى السنين القليلة القادمة فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

وفيما كانت ترمى بالورقة يا خال، لاحظت أن ابتسامة شبه ساخرة قد انطبعت على وجه محمد بك أبو شناف إلا أنها كانت ترتعش بالخوف يا بوى لا أدرى أمن رهبة الكلام أم من ذنب ينتوى فعله عما قريب، صار ينظر لحسن بك من تحت لتحت كأنه يتهمه بالتآمر عليه؛ وكانت نظرة حسن بك التى رد بها عليه يا خال كأنها تقول له: اصبر فإن الله مع الصابرين..

المشنوق

حاجة تهوس يا بوى: خشبة المشنقة ممدوة على جذعى نخلتين طويلتين، والعشب الأخضر يملأ الأرض. رجل معلق فى حبل المشنقة لا من رأسه يا خال بل من إحدى قدميه، تمامًا

كالذبيحة يا بوى فى سيبه الجزار؛ رأسه غاطس فى العشب، قدمه اليمنى مربوطة مكسكرة فى خشبة المشنقة. أما قدمه اليسرى فسائبة، ويظهر يا خال أنها مقطوعة حتى الساق، حيث لا يظهر منها سوى الفخذ. يرتدى لباسًا مكونا من قطعتين: قميص أخضر اللون على صدره كلفة صفراء مشرشرة كالزقزاق، وسروال أحمر اللون ، ياقة القميص حمراء حابكة حول رقبته، الرأس واضح أنه ميت مغلق العينين شعره الغزير ـ الأحمر اللون كذلك ـ متهدل على جبينه الملتحق بالحشائش الخضراء..

قالت الشيخة سعادة:

ـ الورقة الثانية عشرة: المشنوق!! هكذا تكون شخصية المواطن المصرى الحق فى القريب العاجل كما يحدث دائمًا حين تتفتح البلاد لكل مغامر أفاق مصاص دم من نفاية العالم وهذا ما يتنبأ به الورق للسنين القليلة القادمة يأتى للبلاد جحافل للنصب والسلب وسط زفة هائلة يقيمها المنتفعون يباركها الجياع الواهمون يصبح ابن البلد معلقا كالذبيحة فى مشنقة من نخيل بلاده الذى جف وفوق عشبها الطرى الأخضر المرتوى بعرق الذبيحة وحدها!! أموال النفط سوف تعيث فسادًا فى البلاد تصل إلى أيدى االتجار الجشعين إلى السماسرة الوكلاء أهل الخور المستعدين لبيع كل شىء تعز السلع تذهب إلى القادرين على ثمنها يصبح المواطن المسكين مستباح الجسد والكل يثرى على حسابه!! المثل الشعبى المصرى ما كذب حين قال: كل واحد معلق من

عرقـوبه! هذه الصورة ترجمـة لهذا المثل كـما أن المثل فى الأصل ترجمـة لها ومـعناه أن كل واحد من الشعب يصـبح مسـئولا عن نفسـه حين تنفض الحكومة يدها من جـميع مسـئولياتهـا تجاهه تتركـه غذاء للغـربان وأكلة لحوم البـشر تبقى سـادرة فى غيـها ناسية أنـها بدونه لن تستطيع العيش فى رفـاهيتها فـالمتكئون فى الأرض لا يقدرون على صنع رفـاهيتهم لوحـدهم ما لم يكن هناك من يهيأها لهم ومن هنا فالحكمة الكامنة وراء هذه الورقة على هذا المرسوم تقول إنـه على الباغى تدور الدواير ولابد أن يجىء الدور على المتكئين فيها ليعلقـوا من عرقوبهم هكذا تأكلهم طيور جارحة تجذبهـا من بعيـد رائحة الجيف فـاللهم لا نسـألك رد القـضـاء بل نسألك اللطف فيه"!».

وسقطت الورقة من يدها دون إرادة منها، فيما نكس محمد بك أبو شناف رأسـه فى الأرض شـاحـبا مـتـفكرا، فى حـين راحت نظرات الحاج أحمد نوار الدين السنى تتـقافز بينه وبين حسن بك فى أشعة من الشقـاوة وحب الاستطلاع الجارف وإن بدا ذلك فى صورة مرح جميل كمرح الأطفال الغفل الأبرياء.

الموت

هيكل عظمى كـامل لجسـد آدمى، نفس الجـمجـمـة التى نرى رسـمهـا دائمًا يا خـال كـعلامـة على الموت، وهكذا بقـية الهـيكل العظمى بالرقبة والقفص الصدرى والذراعـين والإليتين والفخذين

والساقين، مـجرد عظام كالعصى الناشفـة لكن اليد اليَمنى ممسكة بما يشـبه المنجل، شكل بين المنجـل والمنقرة إذ أن يده الخـشبـية طويلة كيـد المقشـة طول قامة الـرجل، لون الـهيكل العظمى أحـمر، وكـذلك لون يد المنجل، أمـا سلاحـه فلونه أزرق. الـهـيكل العظمى واقف منفرج الساقـين جدا، والأرض من تحته حـمراء كلها تلال، لكن منظر الـهرم واضح بين ساقيه يمتـد خياله الأحمر اللون خلفه كجدار أقل احمرارا، المدهش يا خال أن رقم الورقة ثلاثة عشر وأنا أعرف يا خال أن الكثيرين من كل أنحـاء العالم يتشاءمون من هذا الرقم؛ أفـيكون هذا التـشـاؤم راجـعـا لهـذه الورقـة يا بوى؟ أنا شـخصيا أظن ذلك يا خال فهذه الورقة قديمة جدا يا خال..

قالت الشيـخة سعادة:

ـ «الورقـة الثـالثة عـشـرة: الموت!! من هذه الورقـة ارتبط هذا الرقم بالتـشـاؤم يقـول مـرسـوم هذه الورقـة هاكم منجل الموت يترصـدكم ليحصدكم جـميعا لا يفـرق بين أمير وخفـير بين ملك ورعية يقول انتبهوا دائما يعنى اعملوا لآخرتكم كأنكم تموتون غدا واعملوا لدنياكم كأنكم تعيشون أبدا كما هتف بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم!! أجدادنا لم يهـابوا الموت لكنهم احترموه كحـقيقة ماثلة وضعـوه فى حسابهم كمصـير محتوم لا مـفر منه!! لم يكن فى نظرهم نذيرًا بالفناء بل كان منفذًا إلى الخلود حيث تبدأ الحياة الثـانية التى لا تنتـهى ولا تفنى جـعلوا من مـقابرهم كـما يقـول

شيخى المغربى معلمى قصورًا متينة البنيان عامرة بكل نفيس جليل الشأن كى تكون ملائمة لاستقراره فى الحياة الأخرى الحقيقية كانوا بفطرة الله على علم بأن الموت ليس نهاية كل الحياة وأن الإنسان لم يخلق عبثا ولن يضيع سدى أو يذهب هباء إنما لابد له من مثول محقق أمام محكمة إلهية حيث يوضع قلبه بكل حسناته فى كفة الميزان وتوضع أعماله السيئة المنافية للخير والأخلاق فى الكفة الأخرى فإن رجحت كفة القلب السليم استأنف الإنسان حياته فى ظل الخلود وإن رجحت كفة السوء ألقى به فى نار جهنم!! لكن اعلموا أنه ليس لهذا فحسب رسم التاروت هذه الصورة إنما أراد أن يقول لنا شيئًا آخر أشد وأنكى.

إن الحياة على ظهر الأرض ستكون مهددة بالفناء التام فى السنوات العشر القادمة سيفنيها بنو الإنسان سيتحقق قوله سبحانه وتعالى: «يخربون بيوتهم بأيديهم» وإنسان هذه الأيام على ظهر الكرة الأرضية يخترع الأسلحة الفتاكة التى تحول الأرض بكل ما عليها إلى هشيم تذروه الرياح ولقد أدرك أجدادنا القدامى منذ وقت مبكر خطورة ما تسمونه اليوم بالتقدم العلمى القائم على اللعب بالنار والتدخل فى نظام الكون!! لقد أنبأنى معلمى عن القنبلة المسماة بالذرية التى ألقيت على اليابان فدمرتها والتى أصبحت الآن كالكرة يلعب بها الأمريكان والروس فرسم أجدادنا هذه الصورة على هذا النحو كى تصبح وازعًا على الفعل

الصحيح المناسب يعنى أن نستعد بشىء يبطل مفعول الدمار الذى ينشره زبانية الشر من بنى الإنسان فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!». وكان الاقتناع والانبهار واضحين على وجوه الجميع خاصة وجه حسن بك الذى راح يتمتم بكلمات مبهمة أغلب الظن ياخال أنها آيات قرآنية.

الاعتدال

ملاك جميل الصورة يا خال، بجناحين كبيرين كجناحى نسر عفى، لونهما أخضر زرعى مشوب بالأصفر الفاتح، يرتدى الملاك قميصا أحمر اللون بنصف كم، فوق جيبة زرقاء اللون، وقد أمسك فى يده اليسرى آنية أشبه بإبريق من الفخار، وأمسك باليد اليمنى إبريقًا آخر من الفخار أيضا كما يظهر يا بوى، وقد رفعه وراح يصب فى الإبريق سائلا أبيض كاللبن الحليب يا خال، وأغلب الظن أنه لبن. على الأرض تلال فى لون الطمى المحروق وثمة ما يشبه قصرية الزرع ترتفع منها أغصان مخضوضرة مورقة.

قالت الشيخة سعادة:

- «الورقة الرابعة عشرة: الاعتدال!! لعلها كما ترون واضحة وضوح الشمس ومعناها ساطع كالقمر: الملان يكب على الفاضى! بهذا وحده يحدث الاعتدال!! هذا الملاك ذو الجناحين الأخضرين الممسك بالإبريقين هو طيف من عند الله سبحانه وتعالى يشير إلى

أن هذه هى حكمته مقولته عدالته: الملأن يصب فى الفاضى لكى يحدث التوازن فتورق الفروع وتخضر الأغصان ويأتى التمر فتستمر الحياة!! تلك هى كلمة السر التى حفظها لنا أجدادنا فى كتاب التاروت كى نعرف سر ازدهار الحياة واستمرارها زاهرة مشرقة كانوا على علم بأننا مقبلون على زمن صعب يستأسد فيه الشطار يستأثرون بكل شىء فيكثر عدد المحرومين مما يهدد أمن الحياة بالدمار بثورة يشعلها المحرومون فى الأخضر واليابس تهون عليهم كل الأشياء الثمينة والمنابع الخصيبة طالما أنهم محرومون من خيرها!! عدالة التوزيع ليست كل ما تقوله الصورة بل تقول بالاعتدال أيضا وفى كل شىء فى الحياة كما قال ديننا الحنيف «لا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا» إنما أراد الله كما أثبتت هذه الصورة المشعة أن يكون الإنسان لا بخيلا ولا مبذرا وهذا ما كان يقصده سيدنا يوسف الصديق عندما أنبأ فرعون بحقيقة الرؤيا وهى أن يدخر من خير السنوات السمان لينفق منه فى جفاف السنوات العجاف فأصبحت مثلا يحتذى ويلتزم به أجدادنا يحرصون على تبليغه لنا كى نبقى على ما بنوه!! وإنما لحكمة عميقة أن يجىء ترتيب هذه الورقة بعد ورقة الموت فكأنها الجواب على النذير نسأل الله أن ينير قلوبنا كى نواجه بهذه الورقة زمننا الصعب هذا الذى تنبىء الأيام الحاضرة عن أهوال وأهوال يخبؤها لنا فى جوفه المعتم الكئيب فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

وألقت بالورقة وسط همهمة جهيرة تصيح فى ورع يارب عفوك ورضاك.

الشيطان

الصورة بشعة يا بوى، تقول بالفم المليان أنا الشيطان، نفس الصورة التى رسمتها الحواديت القديمة وأظهرتها أفلام السينما، هكذا تراءت لخيال جميع الرسامين: رجل عارى الجسد تمامًا يا بوى، لونه أحمر قاتم وأصابع يديه ورجليه حوافر كحوافر الحيونات الجارحة مدببة معقوفة كالخطاطيف يا خال وله ذيل طويل مبروم كذيل البقرة يتقوس فوق مؤخرته ويلتف على فخذه الأيسر ممتدا فوق إحليله منتهيا بشرابة من الشعر كشرابة الخرج يقترب شكلها من شكل الحوافر فكأنها يد ثالثة تحت يديه. أنفه معقوفاً يا خال كأنف اليهود وعلى وجهه مسحة من الخسة والنذالة والخبث الناعم الأريب، وشعر واقف كالريش المدبب كالخطاطيف المعقوفة كالحوافر. أما يده اليسرى فقد أمسكت بشوكة مستطيلة كحربة بشعبتين مدببتين كالحافر، بينما امتدت يده اليمنى فى الهواء مع امتداد فخذه اليمنى بساقها المتكسرة كأنها أوقفت الخطو فجأة، وقد جلست أمام ركبته اليمنى امرأة تستند بمرفقيها على فخذيها واضعة يديها على عينيها فى خوف وفزع من منظره، مرتدية بلوزة حمراء اللون فاتحة الحمرة وجيبة

زرقاء فاتحة الزرقة وتغطى رأسها بطاقية صفراء فاتحة الصفرة؛ أما زوجها فمختف تماما يا خال، ومن الواضح يا خال أنها ست بيت وأم أولاد ممن نراهن فى الأسواق يتسوقن الخضار والأوطة لغداء أولادهن وأزواجهن الموظفين الغلابة، من خلف ذيل الشيطان ترتفع شواشي نباتات خضراء خشنة صحراوية شائكة كأظافر الشيطان، حاجة تهوس يا بوى..

قالت الشيخة سعادة:

- والورقة الخامسة عشرة: الشيطان!! فصل جديد يكمل الفصول السابقة فمن شبح الموت إلى ملاك الاعتدال إلى الشيطان تتصل حلقات الحكمة واضحة جلية فلكى نتقى الموت الزوال الاضمحلال الفناء علينا أن نقتدى بفعل ملاك الاعتدال وإلا فالشيطان واقف بالمرصاد!! وقد علمنا من قراءة الأوراق الفائتة أن زمنا صعبًا معتم الجوف يخبىء لنا المحن والصعاب والعثرات قد بات فى أعتابنا بالفعل إذن فالمناخ قد بات ملائمًا لذيوع الشيطان ولابد أنكم يا أسيادى قد رأيتم فى المرسوم كيف أنه قد ركز خطوه واهتمامه نحو امرأة مِهيضة مسكينة حائرة مذعورة فما قصد الورق يا ترى؟ قصده واضح لكل ذى عينين: تمر على البلاد محنة الرواج الكاذب تكره البسطاء فى عيشهم البسيط تجعلهم هدفا سهلا للمغريات إذ يدخل الملوك إلى البلاد وهم إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة!! هم ملوك بأموالهم

فحسب وما أموالهم بأموالهم إنما اغترفوها من آبار لا تنفد كان من المفروض أن يحكمها مرسوم ملاك الاعتدال لكن الشيطان المتخفى بأعماق أفئدتهم بث فيهم قوة جبروته فاستأثروا بكل شيء وحدهم ساقهم زهوهم إلى أعشاش الطيور الآمنة!! يجيء هؤلاء إلىَ أرض الحضارات بنسائها الفاتنات يحلمون بارتشاف رحيقهن لا يهمهم أن هذه الأرض كنانة الله فى أرضه ولا أنها أنفقت دم قلبها وفلذات أكبادها لتدفع عنهم الأعداء حتى أضناها الفقر وهدها العوز إنما همهم اهتبال الفرصة بالوثوب على الضحية وهى ساخنة بنار الحرمان فاقدة للمقاومة بضغط الحاجة والعوز!! تمر على البلاد محنة تضربها فى الصميم ينفرد فيها الشيطان بالمرأة يسلط عليها قوته السحرية يوسوس لها يغريها بالسقوط فى الخطيئة مقابل ما بات أمنية لكافة المحرومين المرهقين: لقمة طرية وثوبا زاهيا ومسكنا عامرًا وسيارة مجنحة!! تمر على البلاد محنة تكون فيها المرأة هى الخاسرة والضحية الأولى وبسقوطها تتدهور كل الأبنية إنها الوعاء الذى إن تلوث تحدرت الأجيال نحو المستنقع الآسن ببذرة حرام تملأ الأرض جورًا وانحطاطًا يعكر الرجس مياه النيل وحينئذ تموت مصر ميتتها الخامسة ما لم نحفظ للمرأة شرفها وعلمها وقوت عيالها كى تصد عن نفسها غواية الشيطان المتربص بها لا محالة فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

وكان الجميع قد وضعوا خدودهم على أكفهم كأن صورة المحنة قد تجسدت فى أنظارهم شاخصة دامغة.

المعبد

بناء كبير ضخم مرتفع الجدران، عليه مهابة واضحة يا خال، مبنى هو بالحجارة المخروطة من صخور الجبل خرطات متساوية منسقة، مثل بناء جميع المعابد التى رأيتها فى الصعيد يا خال، والتى قامت بينى وبينها علاقة ود حميمة يا بوى لدرجة أنى إذا دخلتها شعرت بالرجفة والرهبة. تماثله فى البناء مساجد كثيرة فى القاهرة: مسجد قايتباى، مسجد عمرو، مدرسة برقوق، جامع قلاوون، الجامع الأزهر، الجامع الأنور، وكالة الغورى، والظاهر يا خال أن الذين بنوا هذه البنايات كانوا يقلدون معابد الفراعنة الصعيدية. للبناء الذى فى الصورة باب مغلق بضلفتين من الخشب الثمين مدهون بلون بنى غامق، أما الجدران فلونها زيتى غامق وفيها بعض نوافذ لونها أحمر قانى الحمرة، البناء شبه متصدع يا خال، فثمة أصداغ من أضلاعه العليا سابت وانكفأت منهارة، وبعض قطع صغيرة من حجارته تناثرت متطايرة فى الهواء كسرب من عصافير مهيضة يا خال، يوجد رجل منكفىء على وجهه منحدرًا نحو الهاوية رأسه فى اتجاه الأرض وقدماه إلى أعلى ومن الواضح أنه وقع من فوق سطح المعبد أثناء تصدعه

وانهيار واجهـته، يلبس قميصًا أزرق وسروالاً أحـمر. يوجد كذلك رجل آخر قد وصل إلى الهاوية بالفعل مجندلاً على الأرض تناثرت حولـه بعض قطع من الخشب والحـجارة، يرتدى قـميـصا أحـمر وسروالاً أصفـر، الظاهر يا خال أن نفرًا من المارقين قد اعتـصموا بهذا البناء وتبادلوا الحرب مع من بالخارج فـتعرض المبنى لهجوم عنيف زلزله وصدعه..

قالت الشيخة سعادة:

«الورقة السـادسة عشـرة: المعبد!! من أراده بسـوء قصف الله عمره فى الحال! النبوءة فى المرسوم واضحـة: ستجىء أيام كئيبة تختلط فـيها الأمـور نتيجـة لعمـاء البصيـرة لا يعرف فيـها المرء صـديقه من عـدوه يكثر وكـلاء الله على الأرض بغيـر مسـوغ أو قـرينة يمتلىء المعـبد بالـدهماء من الجـهلة ذوى النفوس المعـتمـة يريدون اتخـاذه قلعة يسـتمدون منـها الحصـانة يعتلون منـبرها وهامتها المقـدسة لفرض أنفسـهم على مقـدرات البلاد والعودة بها إلى عصـور الجاهلية الأولى يتخـذون من أنفسـهم حكامًـا وخلفاء بغـير سند حـاملين فى ذلك راية الدين متـذرعين بما أصـبح يعم البلاد من فسـاد وضلال ولسوف يقضى الله فى أمـرهم بقضائه العدل حـيث يسلطهم فى البداية على أهل الـفساد والضـلال حتى يؤرقوا مـضاجعهم يزعـزعوا الأرض من تحتـهم ثم يسلط عليهم زلازله الطبيعية وبراكينه وصواعـقه فيقضى عليهم ذلك أن هؤلاء

وأولئك أبعد ما يكونوا عن الورع والتقوى ويكون الله قد سلط أبدانًا على أبدان لحكمة بالغة ولكن يبقى المعبد شامخًا رغم تصدعه إلى أن يهيىء الله له من يعمره على أساس من النور والخير والمحبة الصافية وتكون مصر قدماتت ميتتها السادسة فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

وكان الجميع قد نكسوا رءوسهم فى الأرض وانشدت جلود وجوههم فصارت الوجوه مسحاء يا بوى.

النجم

ملاك آخر يا بوى، ولكن بدون أجنحة. شكله أقرب إلى الفتاة إن لم يكن فتاة، شعره منسدل الخصل حتى الكتفين العاريين، وقد التف بإزار أحمر اللون غطى الجانب الأيسر من الصدر والبطن تاركًا الذراعين عاريين وكذلك الجانب الأكبر من الصدر حتى الذراع الأيمن متحرر من الإزار، ركبته اليسرى ممدوة من خلال ما يشبه ملاءة زرقاء اللون فاتحة تغطى نصفه السفلى، والساق ممتدة تصنع مع الركبة زاوية حادة حيث استقرت القدم الرقيقة الحافية على شاطىء البحر. فى يده اليسرى قلة فخارية حمراء، وفى يده اليمنى إناء يشبه الكوب أصفر اللون؛ أماله الملاك وجعل يدلق ما فيه من سائل أزرق اللون فى البحر. وهذا شىء غريب ياخال، فحيث تتوقع أنه يغترف بالكوب من البحر ليملأ

القلة إذا هو يفعل العكس كما يظهر فى الصورة يا خال، وإلا فما فائدة أن يكون الكوب فى يمناه والقلة فى يسراه؛ المهم يا خالِ أن السماء من فوق رأسه مباشرة مرصعة بسبعة نجوم، ثلاثة حمراء اللون فى أعلى تشكل هيكل مثلث متساوى الضلعين المتقابلين، وأربعة نجوم آخرون صفراء اللون، اثنان منها فى منتصف الفراغين بين الضلعين المتقابلين، واثنان فى أسفل تحت النجمتين الحمراوتين، ورأس الملاك بينهما، واحدة أمام جبهته والأخرى خلف شعر رأسه، حاجة تهوس يا بوى، مع ملاحظة أن السائل المندلق من الكوب فى البحر رغم تماثله فى الزرقة مع مياه البحر فإنه مشوب بظلال حمراء وصفراء نفس لونى النجوم السبعة والإزار والملاءة وأرض الشاطىء الصفراء تماما يا خال، ولذا فقد صنع السائل المندلق دوامة صفراء وحمراء؛ حاجة تهوس يابوى..

قالت الشيخة سعادة:

ـ «الورقة السابعة عشرة: النجم!! يجىء يوم يعلو فيه النجم فيعم الفيضان يرجع إلى سابق عهده الأول لكنه يكون ملوثا شنيعا قد ألقيت فيه الجثث والجيف والسموم الصفراء قادمة من المنبع الأعلى ذلك الذى كان فيما مضى وقبل خصى النيل بالسد يخط الماء بعرق الأرض السوداء!! فيضان الماء ولو كان ملوثا خير من جفافه وها هنا يهوى النجم بفكرة ملائكية ملهمة على هذا المرسوم فى الورقة ترينا ضرورة وضع مطهر فى الماء ينقيه من

كل السموم وأول دواء علينا اتباعه هو قتل الداء المستشرى فينا نحن أبناء هذه الأيام: نوقف اعتداءنا السافر المتواصل على النيل وإنه لعدوان يصيب أرضنا وأبداننا بالأمراض المستعصية ومهما يكن من أمر فإن هذه الورقة كما يقول معلمى هى ورقة الأمل والرخاء والنجاح ولكن أى رخاء وأى نجاح إنما هو مرهون برفع أيدينا الآثمة عن نهر النيل وعن كل ما يجرى فى البلاد من مياه فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!». إنضمت الورقة إلى زميلاتها..

القمر

الورقة مقسومة إلى نصفين بالعرض، بينهما شريط أبيض ضيق، فى النصف العلوى يلتصق القمر بسقف الورقة؛ هو أشبه بالميدالية مرسوم عليها وجه شاب طفولى الملامح ذكى العينين مضموم الشفتين ينظر فى البعيد، ويظهر يا خال أن القمر يبدو هكذا دائمًا لمن ينظر إليه من بعيد: وجه إنسان بملامح وتقاطيع ناطقة..

على يسار القمر يا بوى شرفة قصر منيف، وعلى يمينه شجرة مورقة لون جذعها بنى غامق وأوراقها خضراء بالطبع، والأرض فى لون الطحينة، تكتنفها بعض نباتات شوكية فى شرفة القصر فتاة يظهر نصفها الأعلى، مرتدية ثوبًا منزليًا بسيطًا بنفسجى

اللون، فوقه مريلة بيضاء، وقد عقصت شعرها، ومدت يدها اليمنى فى دعوة وترحيب، تحت الشجرة يجلس شاب يرتدى قميصا أزرق اللون على سروال أحمر غامق، وغطاء رأس أحمر، وقد أمسك بآلة موسيقية تشبه آلة البزق وآلة السمسمية، راح يعزف عليها وهو فى حالة من الطرب والنشوة؛ والأنغام خارجة على هيئة خطوط ونقط رفيعة جدًا تشكل مويجات متدافعة فى بطء كبقايا دخان السيجارة..

فى النصف السفلى يا خال مساحة زرقاء فاتحة تشبه نسيج الخيش، وتبدو كأنها حوض من أحواض أسماك الزينة، يحدها من اليمين ومن اليسار ضلعان تخينان من اللونين الأحمر والأصفر فى وسطها تمامًا شكل شبح أحمر قان، لرجل متصلب يرفع ذراعيه إلى أعلى كأنه يلعب رياضة الصباح، لكننا لو نزعنا ذراعيه يصير شكله شكل فانوس من فوانيس رمضان، تحت كل ذراع من ذراعيه حشرة حمراء اللون لكنها غامضة الجنسية لا نعرف إن كانت سمكة بذيل أو سلحفاة أو خنفساء، هذه الورقة يا خال من أشد الأوراق غموضًا..

قالت الشيخة سعادة:

- «الورقة الثامنة عشرة: القمر!! يفسرها معلمى نقلا عن علماء التاروت وما أكثرهم فى العالم بأنها ورقة الفضيحة والخطأ والوهم!! يمر على البلاد زمن تنكشف فيه كل الخفايا يصبح مه

كان يسمى بالمستور عريًا كاملاً يصبح العرى سمة عنوانًا على العصر تفقد كل الأشياء جلالها تضيع من كل الكلمات معانيها تغترب مفردات الشرف والأخلاق والكرامة والسؤدد والوطنية والأمانة والأدب والواجب والتضحية والإيثار والعدالة والإنسانية والرحمة تصبح كل هذه الكلمات سيئة السمعة مثارًا للسخرية والهزء والرثاء يتساوى الجميع فى قلة القيمة تنعدم الروادع تضمحل الوزعة تدخل النفوس فى ليل حالك ثقيل الوطء مدلهما يبحث فيه كل صائد عن فريسة شاردة وهنا ينزل القمر بنوره الفضى الفاضح يخترق أعماق البرك والمستنقعات يبرز ما فى جوفها من حشرات وجيف وسموم!! ما القمر هذا إلا إنسان حقيقى مستنير أغلب اليقين أنه عقل الأمة التى بقيت فى أرضها الخصيبة روحها السابعة التى لا تموت مطلقا فهذه الأرض المباركة التى أنجبت الأبطال والفاتحين والمتنبئين والمقرئين والمتقنين والكاتبين والمثالين والنقاشين والبنائين والزارعين الحارثين الحاصدين تحتفظ فى باطنها فى ضميرها الحى بكل بذرة طيبة لا تلبث حتى تطل برأسها بمجرد ما تتهيأ لها الظروف المناسبة!! ومثلما يكتمل البدر فى منتصف الليل منتصف الشهر ومثلما يبزغ الفجر من ذيل عباءة الظلام القاتم يبزغ عقل الأمة من جديد حينما تشتد الحلكة وتنبهم الأعماق فإذا الظلام قد أخذ يتبدد من النفوس بفعل ما يشعه العقل الجديد القديم البازغ من الكمون فتحدث الإفاقة يبدأ الإنسان فى ازدراء نفسه وتلك بداية

القومة التى لا يعلم إلا الله مدى ما تحتويه من مخاطر وأسرار فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

راحت النظرات تتابع يد الشيخة سعادة وهى تضع الورقة بحنو كامرأة تتحسس كتاكيتها يا خال.

الشمس

الدائرة كاملة هذه المرة يا خال، وليست ملتصقة بأى سقف، بل هى معلقة فى الفضاء، تندلع منها أشعة حادة صفراء مخضوضرة؛ فهى الشمس إذن يا خال، لكن الدائرة عبارة عن شكل كالجنيه الذهب محفور فيه وجه رجل مثل وجه القمر لكنه أصفر ذهبى بعينين خضراوتين، والاخضرار يظلل جانب وجهه الأيسر، وهومفتوح العينين بنظرة واثقة تستطلع الأفق البعيد، تكاد تبتسم ابتسامة منشرحة. الأرض من تحتها فى لون القمح بتلال متناثرة، فوق هذه الأرض يا خال - بين شجيرات خضراء منسقة - يجلس فتى وفتاة كأنهما يتناجيان فى خلوة علنية على غاية من الاطمئنان والنزاهة؛ الشاب يرتدى ثوبًا مكونًا من قطعتين، قميص أصفر فاتح يكسو صدره وذراعيه حتى الخصر، بقية الثوب البنفسجى اللون غامق؛ وقد جلس منجعصًا واضعا ساقًا على ساق. أما الفتاة فقد انعطفت عليه، بقميصها الأحمر المحتشم، وجزء من الجانب الأيمن لصدرها ملتصق بكتفه الأيسر،

كل منهما على ركبتيه كتاب مفتوح، منظرهما يا خال أشبه بزميلين فى الجامعة اختليا فى منعطف من حقل بعيد بذريعة المذاكرة واندمجا فى حوار حميم، حاجة تهوس يا بوى..

قالت الشيخة سعادة:

ـ «الورقة التاسعة عشرة: الشمس!! تلك هى التى لا تغرب عن أرض الكنانة وإن طال احتجابها خلف سحب الجهالة والطغيان والغزوات!! يجىء زمن تحتجب فيه الشمس خلف الأبراج العالية خلف مظاهر سفه كذابة من طبقات تأكل السحت والمال الحرام وتنشر على البلاد ظلام جهلها تغسل أمخاخ الشباب الضائع الهفتان تجعله أداة للتخريب وسفك الدماء الزكية لكن القمر العاقل الذى يضىء النفوس بعد ظلامها يكون نذيرًا تباشير صحو ندى عفى سرعان ما تسطع الشمس من ورائه على العرايا البائسين تلهب عقولهم تميت فيهم الخور وجراثيم النكوص تريهم الأشياء على حقيقتها تتمزق أستار الأوهام تسقط حواجز الرهبة بينهم وبين السفاحين القتلة يبدأ الزحف الشامل فى فضاء الحرية نحو إرادة الله التى خلقتهم فى الأصل أحرارًا فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

ترقرقت موجات القلق فى وجوه الجميع.

المحاكمة

صورة مروعة يا خال: ملاك من السماء بجناحين صفراوين، لونه طحيني، يقعد متربعاً فوق كتل من السحاب الثقيل في لون جسده، قد أمسك ببوق طويل راح ينفخ فيه. وفي الأرض أربعة أشخاص: رجلان وامرأتان، الرجلان عاريان تماماً، والمرأتان إحداهما خرجت من هدومها والثانية متشبثة بإزار أزرق اللون تداري سوأتها، الفزع والروع واضحان عليهم، من حركة أياديهم ووجوهم نفهم أنهم في حالة صراخ واستغاثة، أرجلهم مغروزة في الأرض يا خال، والأرض في لون أجسادهم النحاسية، مما يوحي للرائي بأنهم كانوا مدفونين في المقابر وأنهم لبوا نداء البوق فبعثوا إلى الحياة من جديد فرموا بالأكفان، وانبثقوا من باطن الأرض كالسكارى التائهين الفزعين من ملاقاة يوم الحساب حاجة تهوس يا بوى، لابد يا خال أن هذه الصورة ترسم يوم الفزع الأكبر..

قالت الشيخة سعادة:

- «الورقة العشرون: المحاكمة!» تلك هي القومة! قومة الموتى من الأحياء الذين بثت فيهم الشمس حرارتها وشققت لهم الأرض لنهضوا خارجين من شقوقها متلهفين على الإمساك بمن كان السبب في دفنهم أحياء كي يقتصوا منه!! إن علماء التاروت في العالم حين عرفوا أن هذه الورقة اسمها المحاكمة وأنها تعني

الحساب العسير فرقوا بينها وبين الحساب الإلهى النهائى وذلك من واقع المرسوم فى الصورة فها هى ذى إحدى النساء ترفع ذراعها اليمنى صائحة فيمن حولها بحركة تنبيه وتوجيه فلابد أنها تقول لهم ابحثوا عن المسئول عما جرى لنا وها هم الآخرون حولها يتبادلون المشورة سيما وأن الأمر قادم إليهم بإلهام من السماء عبر البوق الملائكى الصائح فيهم أن انهضوا حرروا أنفسكم من الموات من القهر من الذل من عوامل الفناء حاسبوا من ظلمكم أهانكم امتص دماءكم «فلكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب ». ولابد أن المحاكمة ستكون شاملة فضوء القمر وحرارة الشمس يفرزان من بينهم الأصفياء المهتدين القادرين على حقن الدماء فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

وكنا جميعا قد أرهقنا يا خال، فأخذنا نرمق الورقة الأخيرة فى استرخاء لذيذ.

العالم

رجل عارى الجسد يا خال، يمسك بيديه وشاحا أو ربما شالاً مبرومًا كشال العمامة الصعيدية، يتلولب عند طرفيه وفى الوسط يغطى سوأة الرجل، فكأن الرجل ممسك بثعبان كبير مذعور. يقف الرجل وسط طوق من الزهور والورود بيضاوى الشكل، نفس الطوق الذى نراه عند بائعى الزهور فى أيامنا هذه، فى أسفله عقد

شريط حريرى أحمر مـربوط بعقدة وشنيطة، فوق الطوق يا خال، على الزهور أوراق الورد، يقف ثلاثـة من الطيور الجـميلة كأنهـا جزء من فكرة الطوق، الطائر الأوسط بجنـاحين أصفرين كـبيرين مفرودين، لكن شكل الطائر ذى اللون النحاسى أشـبه بالنسر وما هو بنسر، أمـا الطائران الآخران عن يمينه وعن يـساره فرأسـهـما أحمـر وريشـهمـا أصفر مـخضـوضر، وكلاهمـا واقف فى وداعة مضموم الجناحيـن فى تطامن وسلام لاويًا عنقه فى اتجاه الطائر الأوسط. الطائران ربما كـانا حـمامـتـين أو قبـرتين، وأمـا الرأس السفلى لـلطوق فمســتقر بيـن رأسين لحيـوانين شكلهمـا غامض وواضح معا، على اليسار رأس لأسد كـثيف الشعر يظهر جزء من ظهره خلف شعـره، وجهه وجه إنسان تكاد نظرة عينيـه القويتين بما فيـهما من إنسانيـة تدفعانك لأن تمد يدك لكى تسلم عليـه، أما على اليمين فوجه ثور عفى بقرنين مدببـين معقوفين، وجزء كبير من جـسـده ظاهر فى الصــورة لصق ببطن الأســد، الثـور غيـر مذعـور من الأسد يا خــال، وإن كان منظره يوحى بأنه فــى حالة تهيج جنسى، ويظهر يا خال أنه رأى فى المساحـة غير المرئية بقرة أنثى أهاجتـه، لكن سبحـان من جمع الأسد مع الثـور فى مثل هذا الود المسالم يا خال، حاجة تهوس يا بوى..

قالت الشيخة سعادة:

ـ «الورقة الأخيرة: العالم!! تلك هى ورقة الاكتمال كما وصفها علماء التـاروت!! التحقق الكامل والنجـاح المستمر بالعـمل الخلاق

الدءوب هكذا كان حلم أجدادنا الوردى: أن يصل العالم إلى هذه الدرجة من الأمن والسلام والتوافق حيث يعيش الإنسان مطوقا بالزهور والورود محاطا بالطيور الغناء تضمحل العداوات حتى بين الأعداء الألداء من الوحوش المفترسة والحيوانات الأليفة وهكذا يكون كتاب التاروت الذى منه نشأ تعبير: افتح لى الكتاب يعنى اقرأ لى طالعى قد كشف لنا سر استمرار الحياة زاهرة متحضرة مورقة على الأرض يسودها الوئام والسلام ليس بين البشر فحسب إنما بينهم وبين جميع ما فى الكون من مخلوقات يتم التكامل بينهم كما يتم التحقق لهم!! كلمة السر هى العلاقة الخفية بين الورق فى ترتيبه من ورقة إلى التى تليها كل ورقة تحمل مرسوما لمعنى وكل معنى يرشد إلى ما ينبغى عمله كى تستمر الحضارة صاعدة طالعة من أرض مصر الطيبة كى يظل المصريون حملة لواء السلام والوئام إلى العالم أجمع!! إنكم لاشك تعلمون حقيقة الرسم بالنسبة للمصرى القديم فقد كان لا يرسم إلا ما ينتوى فعله فمتى رسمه صار حقيقة نافذة!! أنبأنى معلمى أن جدى القديم كان قبل خروجه للصيد يرسم نفسه وهو يصطاد شيئا محددا هو على وجه التحديد الشىء الذى طلبته نفسه فإن طلبت لحم الغزال رسم نفسه فى كيفية الإيقاع بالغزال فكأنه ينفذ خطة الصيد نقشا وتلوينا على الحائط ثم إذا به قبل خروجه للصيد يضع القدر على النار ثقة مطلقة فى أنه عائد بالغزال لا محالة قبل غليان الماء فى القدر فهو إذ يرسم العالم هكذا إذن

معناه أنه ليس يرسم حلمه الأكبر فحسب بل يضعه موضع التنفيذ يحيله إلى حقيقة واجبة النفاذ يلتزم بها!! اللهم أعنا جميعا على الخلاص من كافة المعوقات. ضع فى قلوبنا بلسم الشفاء وفى عقولنا مشعل الهداية وفى ألسنتنا ذكر الواحد القهار إنك أنت السميع العليم يا مذل يا معز يا واهب النعم! آمين يا رب العالمين!!».

رحنا نتنفس هاتفين فى صيحة واحدة: يارب، فيما راحت الشيخة سعادة تطوى أوراقها، تلفها بالشريط الحريرى، تعيدها إلى محفظتها الجلدية، ثم اعتدلت فى جلستها تجفف عرقها، ثم طلبت كوبًا من الينسون.

بنت

أنا والله يا بوى ما كان مرادى أن أتزوج بعد ما حدث فى تلك الليلة التى احترقت فيها من هزة قلبى فى طلعة الشباب، فى الأول كانت رغبتى فى الزواج منها وعدًا قطعته على نفسى لكنها حينما أشعلت النار فى نفسها انزرع حبها فى قلبى، قد أحرقت نفسها خجلا منى لما رأيتها فى وضع سيىء..

إلا أن بركات الشيخة سعادة تدخلت فى الأمر يا خال، والنصيب غلاب ما فى ذلك شك، فالعبد فى تفكير والرب فى تدبير، الشيخة سعادة ذات السر الباتع كانت تنتوى لى أمرًا، هكذا أوعز الله لها بذلك، وخيرًا ما فعل، وهل كنت أحلم بمثل هذه الزيجة يا بوى؟

فى ليلة استراحة القناطر فكرت ـ من هبلى ـ أننى يمكن أن أعود إلى الصعيد بصحبة الشيخة سعادة فى مواصلة سهلة ميسورة أبهة، لكن الشيخة سعادة ما إن أنهت مهمتها ونهضت واقفة، وكان الضحى يغمر القناطر الخيرية بشمس خضراء حانية ـ حتى نهض الجميع، فمشينا بصحبتها إلى الطابق الأرضى، حيث كان فى انتظارنا سائق وحارسان، فإذا بالشيخة سعادة تلف يدها فى طرف الطرحة وتسلم علينا واحدًا واحدًا بسرعة، ثم تمرق من الباب إلى السيارة السوداء الواقفة أمام الباب مباشرة، حيث فتح لها السائق الباب كأنها الأميرة المتوجة. فلما ركبت أغلق الباب وفتح باب القيادة ودخل، وفى لمح البصر رجعت السيارة بظهرها قليلا ثم زحفت كالبرق ثم ما لبثت حتى اختفت كالفكرة الخاطفة، توقفت أنا مبلولا يا بوى، سلم علينا محمد بك أبو شناف وصعد لينام، أما حازم فتقدمنا نحو سيارته حيث ركب المشعرانى بجواره وركبت أنا والحاج السنى فى المقعد الخلفى، وقفل عائدًا بنا إلى مصر عتيقة..

فكرت فى اللحاق بالشيخة سعادة. لقد أصبحت مفتونا بها يابوى كأنها سيدة لم يسبق لى معرفتها من قبل وهأنذا لا أريد أن أفارق محضرها إلى الأبد لكننى كنت مرهقًا يا خال، معى فلوس كبيرة لا يجب أن أسافر بها فى طريق الصعيد إلا نهارًا وعينى فى وسط راسى، صعدت إلى شقتى لأنام..

نمت أربعًا وعشرين ساعة متواصلة يا بوى، نوما عميقا كالموت؛ لدرجة أنني عندما صحوت ظللت ممددا في السرير أكثر من ربع ساعة أحاول أن أتذكر من أنا وأين كنت قبل النوم وكيف جئت إلى السرير، فلما صارت المسائل تتضح أمامى شيئًا فشيئًا شعرت بسعادة عمرى ما شعرت بها يا بوى، اشتقت للشيخة سعادة في الحال، معلمتى وأميرتى ومصباح طريقى، اشتقت أيضا إلى هليل، قلت لنفسى إن المبلغ الذى زاد هو من حقه سأعطيه له، قمت فأخذت حمامًا ساخنا كأولاد الناس الطيبين ثم لبست ثيابى، حشرت فى جيب الصديرى رزمتين كبيرتين من الفلوس، نزلت يا خال نفسى مفتوحة للشراء، شراء أى شىء وكل شىء. خرمت فى وسط المدينة بجرأة كبيرة، جلست على أكثر من مقهى وفى أكثر من حانة، شربت أرقى أنواع الخمور، اقتحمت المحلات فابتعت كسوات كثيرة من الأصواف والأتيال والحراير والأحذية والجوارب والفانلات والشيلان، لى ولهليل وللشيخة سعادة ولكل إخوتى البنات و أمى وأولاد خرابة.

حلف هليل ألا يأخذ مليما واحدا جزاء خدمته لى، فهو ـ كما قال ـ ليس يعمل سمسارًا على آخر الزمن، يكفيه ما جئت به من هدايا له ولأبيه، فحلفت له مائة يمين أن هذا المبلغ جاء على اسمه من عند الله وأننى لن يتبعنى منه مليم واحد فهو رزقه، ثم أزحت المبلغ نحوه بقوة، فتدفقت صفائح الدم فى وجهه الشفاف وقال إن

المصلحة واحدة على كل حال وإن الله قد بارك فى ماكينة الطحين وماكينة الميـاه وفى زريبة المواشى لدرجة أنه لم يعـد يعرف كيف يشغل كل هذه الفلوس، ثم إذا به يصيح فـجأة وقد طلعت الشمس فى خديه من فرط الفرح:

- «أخذتنا فى دوكة! أنت ابن حـلال وأمك دعت لك فى ليلة قدر ولهذا تجىء دائمًـا فى وقتك يا بو العم!... قبل دخـولك علينا كنت سألبس لأسافر إليك لأجىء بك!».

- «خيرًا إن شاء الله؟!»

- ستتزوج يا عم!! ضاعت منك الجـميلة فأتاك الله بالقمر يا بو العم! قمر ماذا يا بو العم؟ القـمر والشمس والنجوم وكل الكواكب فى كفة وعروسك وحدها فى كفة!

معها الشهادة الإعدادية ومنعـها أهلها من الخروج بتاتًا!! أختك هذه داهية!! انتـقتها لك بالملقاط! حسب ونسب جمـال ومال وكل شىء قلبك يحبه موجود فى عروسك يا بو العم!! أهلها أغنى ناس فى بلدة الدوير يا بو العم! جيراننا فى الأرض أنت تعـرفهم طبعا! أبوها بهى الدين شحاته الذى كان أبوه عمـدة قبل أن نولد! عمها محـام كبـير فى أسـيوط وأخـوال البنت من أعيـان بلدة الشناينة وأخوال أمـها من أولاد إليـاس!! أختـها الكبـرى متزوجـة من ابن عمدة الغنايم!! يعنى عزوة كبيرة يا بو العم بركة ورثك!!».

ركبنى الذهول يا خال. فأنا أعرف هذه العائلة معرفتى لبدلتى، هم بالفعل ناس طيبين على الآخر يا بوى، نسوانهم سناييـر كالحوريات حمر الوجوه كالقشدة بالمربى، الناس يضربون بهم المثل فى الجمال، قلت لهليل:

ـ «وهل وافقوا يا هليل؟!»

تراجع هليل بذقنه على صدره:

ـ «إه! إياك تظن نفسك قليل الشأن! لقد رحبوا يا بو العم ورنت الزغاريد فى الحال!! من الذى لا يرضى بمصاهرة حاكمة الجبل بجلالة قدرها؟ قاهرة الحكومة فى عقر دارها! أم اللسان الحلو والفعال الأحلى! أنسيت يا بو العم أن خيرها على الجميع؟ أنسيت أن الجبل بفضلها أصبح نظيفا لا يأوى سوى الرجال الحقيقيين؟ الجبل اليوم يكاد يكون مسجدًا لولا أنها لذكائها تسمح بشىء من الحرية فيه حتى لا تكون مكروهة من أحد خاصة وأنها تعرف الحياة الخشنة فى الجبل ومدى ما فيها من حرمان!! الجميع يضعون فى أعينهم حصوة ملح فيفسق من يحب الفسق فى السر على خفيف خفيف!!»

ـ «لكن منذ متى حدثت هذه الخطوبة يا هليل؟!»

ـ «من شهور طويلة والمفاوضات دائرة بين الجبل والدوير! لكن الخبر ذاع بالأمس فحسب عقب عودة الملكة من مشوار مهم

حيث مرت على الدوير فى طريق عودتها بسيارة حكومية سوداء! فبعثت من أتي بى وبأختك زوج أبى وأختك الثانية وخالتك تفيده وأمك!! نصبنا مؤتمرا كبيرا يا بو العم واتفقنا على كل شيء ورضيت العروس أن تعيش معك فى مصر أو فى أى مكان يعجبك!! أما وقد بعث بك الله فى الوقت الملائم فغدًا بإذن الله نذهب معا إلى الدوير لنشمط الغدوة التمام وترى البضاعة عن قرب! وبعد غد نمضى بوفد يضمها هى وأمها وأختها وزوج أبى وأبى وأنت إلى أسيوط لنشترى الشبكة على نقاوة عينها!!»..

- «كلام جد يا هليل؟!»

- إه! قالوا الجمل طلع النخلة! هاك الجمل وهاك النخلة يابوالعم تاهت ولقيناها! تجيد ركوب الخيل؟!»

- «طبعا!»

- «تركب حصانى وأركب البغلة ونخطف رجلنا إلى الدوير! فركة كعب بينها وبين بلدتنا! نشرب الشاى عند أصهارك! نتفق معهم على الغداء عندهم غدا!»

- «زين والله زين»

ما دريت إلا وأنا فوق الحصان وهليل بجوارى فوق البغلة نركض تحت خيمة الأصيل الذهبية عبر بلدة أبو حجر فى طريقنا إلى بلدة الدوير، وكان قرص الشمس ينصهر على مرمى البصر

فوق أسطح البيوت فـيصنع كل شيء بلون الذهب، وقد راح الهواء المنعش يصافح صـدري المشدود فيـملؤني زهوا وسعادة فتـبدو الدنيا كلها في ناظري محض حلم من الأحلام يا خال..

عقلي طار يا بوي عندما وقع بصـري على وجه العروس وهي تضع أمامنا صـنية الشربات وتمضي، تحلف اليـمين يا خـال أنها غزال بكل مـعنى الكلمة، أنا الآخر وضـعت في الصنية مـائة جنيه كاملة تعـبيرًا عن رضائي، صممت على الإسراع في إتمام الزواج قـبل أن يرجعـوا في كـلامهم، أكلت عـقلي البنيـة يا بوي، فكلمـا أعجـبها شيء أقـول: ماشي، حـتى خرجت هي من عند الصـائغ مـبرقـشة بالذهب في عنقـها وأذنيـها ومـعصـميـها وأصـابعهـا وصدرها..

في ظرف شهر واحد جهزت داري في البلد كدار أكبر عمدة في الناحية جـعلتها سراي بحق، وانتقلت إلى شـقتي في مصر عتـيقة فدهنتـها بالزيت في ألوان زاهية وفرشـتها فرشـا ملوكيا معـتبرا شاورت الحاج السني فاقتادني إلى محـلات شـهيرة متخصصة في كل مـا يشرح القلـب من المفروشـات، صارت شـقـتي قصـرا من قصور الباشوات تحت إشراف الحاج السني واختياراته.

أقيم الفرح يا بوي، خـذ عندك من لعب الخيل بالمزمار إلى لعب الحطب في ليلة الحنـة، أما ليلة الـدخلة فجـاءتهـا فـرقة من فـرق القاهـرة نصبنا لهـا مسـرحا في السـاحة الكبـيرة، ذبحنا عـجلا

وبضعة أغنام، دعـوت الشلة الوسخة: بسبـوسة وبربش وغزولى وهندى، والحاج السنى ومحمـد بك أبو شناف وحازم والمشعرانى وبعض تجار الأنتـيكات من خان الخليلى، الدعوات كانت مطـبوعة بماء الذهب على ورق ثمـين، وتسهـيلا لهم اسـتأجـرت أتوبيـسا سـياحـيا خـاصا وقف فى مـيدان التـحرير أمـام مبنى الاتحـاد الاشتراكى ووقف هليل بنفسه أمامـه يستقبل القادمين، باسم الله ما شـاء الله حضروا جـميعا مـا عدا محـمد بك أبو شناف أرسل اعتذارا مع حازم..

تمت الدخلة فى سـرايتـى فى البلد وسط دهشـة الجـمـيع من مظاهر الثـراء التى بانت فى الفـرح فى الصبـاحـية انهـالت علينا فلوسا كـبيـرة من أقارب العروس وأقـاربى فأهديتـها جمـيعـها للعروس تشترى بهـا مزيدا من الذهب، مما رفع مقامى فى نظرها ونظر أصـهارى يا خـال، الأهم من ذلك يا بوى أننى ضـمنت قلب البنية فوضعته فى جيبى من أول ضمة.

چوكر

النصيـب غلاب يا بوى كمـا قلت لك. كانت نيـتى أن أمكث فى البلدة عشـرة أيام على الأكثـر ثم أعود بعروسى إلـى القاهرة كى أفرجهـا على كل ما تـحلم برؤيته، ولكن الظروف السعـيدة شاءت أن أبقى فى البلدة أكثر من شهرين، فـبينما نحن لم نفرغ بعد من

البوس والأحضان جاءنا الصويت من بلدة العزايزة ينعى موت سالم أبو حبه عين أعيان البلدة وعضو مجلس الأمة عن الدائرة التى تتبعها بلدتنا، لحظتها يا خال كنا نتأهب للسفر فجرا إلى القاهرة فى سيارة مخصوصة بيتنا عليها وأعطيناها العربون، لكننى تلقيت مرسالا من الجبل ينبه علىّ بعدم الرحيل ويطلبنى غدا للصعود إلى الجبل، رقص قلبى يا خال، تحلف اليمين أننى سمعت طبوله فى صدرى، كنت على علم بأن الملكة ـ الشيخة سعادة ـ سوف تجتمع بى على عجل فى استراحة الجبل السفلية فى نفس المغارة التى جمعت فيها حازم والمشعرانى بهليل يوم بيع تمثال رمسيس الذهبى، كانت الإجراءات الأمنية يا بوى تتفوق على الإجراءات الخاصة بالرئيس جمال عبد الناصر، كان هليل مرافقا لى على طول الخط، وفى اجتماع الملكة بنا تلقينا الخطة كاملة منها، على أن نشرع فى تنفيذها فى الحال..

الولد هليل ـ ربنا يعطيه العافية ويطول لى فى عمره ـ أدار الشغلة جيدا.. ذهب على رأس وفد إلى العزايزة، وأرسل أباه فى وفد إلى الغنايم، وبعث بعدد من رجالات الجبل ووجوهه فى وفود إلى الشناينة وأولاد إلياس وأبو حجر وكل بلاد مركز صدفا، وتكفل أصهارى بإرسال وفود من جانبهم إلى كل البلاد، أما عائلة خرابة بكل ثقلها فقد انتشر رجالها فى كل مكان، ثم جاءت الوفود كلها مبسوطة ملآنة بالفرح تقول إن جميع رجال الدائرة يرحبون

بترشيحى لمجلس الأمة وأن علىّ أن أتقدم بقلب جامد مطمئن إلى أن جميع أصواتهم فى جيبى من الآن، حيث أن الناس يا خال قد زهقوا من المرشحين من الباشوات القدامى والجدد الذين يستعلون عليهم بمجرد نجاحهم، فليجربوا المرشحين المتواضعين من أمثالهم، بل إن بعض العائلات أخذت المبادرة فى الحال فأقامت سرادقات دعتنى لزيارتها فى بلادها، لتقفل باب المفاوضات أمام غيرى، وجاءت تحريات الجبل تفيد بأن من سيرشح نفسه ضدى رجلان اثنان لا حول لهما ولا قوة، أحدهما مسيحى والآخر مسلم، يحترفان ترشيح نفسيهما كلما لاحت الفرصة دون أن يحالف أحدهما النجاح مرة واحدة، وكان هليل يستطيع مفاوضتهما على التنازل لكن الملكة نبهت عليه أن يدعهما وشأنهما..

ذهبت إلى المحامى عم زوجتى وانتدبته لمساعدتى فى القيام بإجراءات الترشيح التى لم أكن أعرف عنها أى شىء والله يا بوى، فبكل ترحيب سافر معى إلى القاهرة بنفسه فمكثنا بها نحو أسبوع كامل على نفقتى خلصنا فيه كل الأوراق والمسوغات؛ وقمنا بعدة زيارات لجهات أمنية لا أدرى من أمرها شيئا ولكن المحامى العقر الذى اتضح لى أنه شخصية كبيرة فى القاهرة وأنه عضو اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى على مستوى أسيوط، أحاطنى علما بأن كل هذه المشاوير ضرورية وأننى يجب من الآن

أن أتعرف على جميع شخصيات الحكام فى مصر وخاصة رجال الحزب ورجال الأمن وكل الجهات التى قال لى إن اسمها الجهات التنفيذية يعنى التى فى يدها تنفيذ القوانين والأعمال.

بدأت الدعاية الانتخابية يا خال بمجرد إعلان قبول ترشيحى الذى سعى وراءه عم زوجتى بجهود طيبة، وآخر ما كنت أتصوره يا بوى أن الجهات المسماة بالأمنية لابد أن تقول رأيها فى المرشح بالقبول أو الرفض؛ ولو كنت أعلم ذلك من قبل لتكسرت مجاديفى خوفا من الشهور التى سبق لى أن أمضيتها فى السجن بسبب تهريبى للأسلحة والذخيرة من معسكر الجيش أيام كنت أبيع القهوة والشاى فيه للعسكر، إلا أن المحامى العقر وفر علىّ متاعب كبيرة يا بوى، ما ألذ هذه اللعبة وما أحلاها يا خال..

هنا العزوة الحقيقية يا بوى والأبهة التى على أصولها: ناس يحملونك فوق أكتافهم يهتفون بحياتك وأنت ماض بينهم كالعريس لا تسعك الأرض من الفرحة، وناس يخطبون أمامك فى الميكرفون بكلام قد لا تفهمه ولكنه ذو وقع حلو فى الأذنين، شعرت ياخال... كأننى مخلوق لهذه الأملة، وأننى يمكن أن أقتل أى مخلوق تسول له نفسه حرمانى من النجاح فى هذا الطريق..

أبرقت إلى غزولى وبربش وبسبوسة وهندى فجاءوا للمساعدة فى الدعاية، منحت كل واحد منهم مائة جنيه كمصروف يد، وكانت هذه الحركة أكبر إلهام لى من الله يا بوى، إذا بى يا بوى

لم أعرف الولـد بربش بالذات على حقـيقتـه! اتضح لى أنه خطيب مفوه يا بوى، ابـن الفرطوس لا أدرى من أين يأتى بكل هذا الكلام الموزون الذى يمـلأ الدمـاغ، وبالنحـوى يا بوى، الولد ابن حـرام، عرف كل مـا يحتاجـه الناس فى بلادنا، وكل ما يفكرون فـيه من مشاكل تؤرقهم وأحلام تؤنسـهم، فصار يضرب على أوتارها فى كل سرادق نزوره وكل دار تستضيفنا، يسرع فى الحال بالوقوف ليـتكلم نيابة عنى قـائلا: إن سـيادة النائب ـ يعنى أنا يا خـال ـ سوف يفعل لكم كـذا وكيت: مستشفيـات، مدارس، سكك حديدية، مواصلات، وظـائف لكل العاطلين، شق ترع ومصارف، مـاكينات رى، إعانات للعاجزين، تمليك أرض للاسـتصلاح.. إلخ إلخ.. وكان يتكلم بجدية كـبيرة يا خـال، وينفعل مثل خطيب المسـجد، والخلق كلهم يصفـقون يهتـفون بحياتـى؛ فيخيل لى يا خـال أننا جميـعا نشارك فى تمثيل مسرحية، وأننا جميعا بمن فينا الجمهور نستحق أكبر جائزة على إتقاننا للأدوار..

طب ما قـولك يا خال إن جدية بربش وانفعـاله فى الخطب هما اللتان جعلتانى آخذ الأمر بجدية؟!

نعم يا بوى، إن اندماج بربش فـى الخطب كأنه المرشح لا أنا، كأنه كان يـنتظر هذه الفرصة من زمان، جـعلتنى أندمج أنا الآخر فى الدور بعـد أن كنت أدارى وجـهى بكمى مـوليا نـحو الجـائط لأضحك من الوضع الـذى صرت فيـه، ثم إن بسبوسـة هو الآخر

كان ولدا جدعا لأقصى حد، لم ينادنى إلا بسيادة النائب، ويكلمنى باحترام كبير، يقول لى سيادتك وحضرتك وجنابك، ويساعدنى فى الرد على بعض الأسئلة التى كانت تنهال علىّ من الناخبين، أما غزولى فكان أشبه بخادم خصوصى معتبر، هو الذى يقدم لى القهوة، ويشعل لى السجائر، وينفض الغبار عن ثيابى، ويحمل عنى بعضها إن شعر أنى ضائق ببعضها، يسرب السجاير الملفوفة بالحشيش سرًا عندما نمتلك الخلاء، وسنة الأفيون، ومن حين لآخر يرش الكولونيا على الأيدى ليخفى فى رائحتها النفاذة رائحة الحشيش، إلى أن ثار فى وجهه أحد الصعايدة ثورة لطيفة مازحة طالبا منه منع هذه الرائحة لأنها تفسد على أنوفهم رائحة هذا الحشيش المعتبر. وكان داء السرحان وراء السطل ينتابنى كثيرا أثناء الخطب والكلام والترحيب، فأتصور أننا نقوم بعملية نصب من عملياتنا لحساب الحاج السنى.. حاجة تهوس يا بوى..

المحامى العقر عم زوجتى لم يستكبر علينا رغم كثرة مشاغله وضيق وقته الثمين، كثيرا ما فوجئت به مقبلا بسيارته الفورد العتيقة، فيشرب معنا فنجان قهوة فى السرادق أو يتعشى، ويقول كلمتين يشجع بهما الناخبين على انتخابى، ملمحا فى كلامه إلى أن نجاحى سوف يريحه ويريح عنه الكثير من المهمات..

الطريف يا خال، والذى لا يمكن أن أنساه أبدا، أننى مدين لخطب بربش وردود بسبوسة وملاحظاته وتعليقاته فى معرفة المهمة الأساسية لعضو البرلمان، نعم يا بوى، فحتى لحظة قيامى

بالدعايه لـم اكن عرفت آى شىء عن هذه المهمـة، إنما كانت المهـمة غـامضـة فى رأسى، فـحد علمى أن عـضويـة البرلمان هذه رتبـة شرفية أو نيشان يأخذه العضو إذا نجح فى الانتخاب، يكون جواز المرور له فى كل مكان فى الجـمهـورية يدخله لتـخليص مصـالح المواطنين، ولكن خطب بربش وتعليقات غـزولى ودروس بسبوسة الصـريحة ونحن نتـأهب للنوم فى سـرايتى آخـر الليل، كل ذلك فهمت منه أن عضو البـرلمان هذا شىء كبـير يا بوى، إنه لابد أن يحضر اجتماعات البـرلمان الدورية حيث يعرض كل عضو مشاكل وأوضـاع أهـل دائرته مطالبا لهم بكذا وكـيت من الخدمـات، ورفـع كـذا وكيت مـن المظالم، وأنه يجب أن يسـتجـوب أى وزير يشـاء وحتى رئيس الوزراء نفسه، وأن يوجـه إليه الأسئلة والانتـقادات حـول مـا لا يعـجبـه من أوضـاع البـلاد كـل وزير فى دائرة اختصاصـه. أما أن يلف العضو على المصالح الحكومـية لتخليص مصالح لأهل دائرته ولنفسه فتلك شـغلة جانبية لن يفلح فيها إلا إذا أفلح فى المهـمـة الأساسـية وبات مـعـروفًا مـشـهورًا بكثـرة اسـتـجـواباته للوزراء وبحـدته وطول لسـانه وجـرأته فى الاستجوابات، ومن النصائح التى لا أنساها للولد بسبوسة الجدع قـوله لى فى وقت مـبكر إننى يـجب أن أبحث عن ثلاثة أو أربعـة ولدان من عيال الصحافة أصاحبهم وأنفق عليهم لكى تظل أخبارى دائماً فى الصـحف، وهذا ما حرصت عليه بالفـعل يا بوى وعملت على تدبيره..

وفيما نحن فى هذه الزيطة إذا بى أفاجأ بحضور حازم والرجل المشعرانى، أتى بهما الرجال إلى السرادق فى الدوير. أخذته إلى المندرة خلف السرادق؛ ملت عليه هامسًا، مستقطبًا من الحفل روحا معنوية:

ـ «تحت أمرك يا حازم بك!»

مال نحوى هو الآخر بادلنى الهمس:

ـ الأمر وما فيه أن محمد بك مطلوب منه بعض الحلى! أفرع! حلقان! أساور! جعارين، ولو أنك كلمت صاحبك المعلم ليبحث له عن رأس نفرتيتى من الذهب أو حتى من المرمر فإنه يشكرك ولا ينسى الجميل!!»

قلت لنفسى: وه يا بوى هذه شبكة ستصطادك يا حسن فخذ بالك ستجىء الضربة من هنا لتفسد عليك كل هذا الحلم، ما دار فى دماغى لحظتها أن أهب فيه وأنكر معرفتى بأى شىء مما يتحدث عنه لكننى عجزت عن الاستندال يا بوى، نقصتنى بجاحة المرأة الداعرة، سيما واننى لم الحظ أية وجوه غريبة أو حركة مريبة قلت لنفسى إن اللباقة هى المنقذ الوحيد من هذه الورطة، ثم فكرت بسرعة فيما عندى من قطع، فتذكرت أن بها بعض هذه الأشياء التى طلبها أما بقية ما طلب فكله موجود عند الملكة، ولكن كيف يتأتى لى الآن استحضار شىء من هذا أو ذاك وكيف نفاصل

ونساوم وعلى أى مثل نقيس الأسعار سيما وأننى غشيم فى المهنة لم أتودك بعد، رحت أبحث فى دماغى عن معنى لكلمة اللباقة التي أسمعها كثيرًا فى مثل هذه المواقف، فإذا بى أقول بنبرة اعتذار فيها قدر كبير من الود:

ـ «حازم بك أنت ترى الآن ما نحن فيه من انشغال! طلبك هذا يمكن أن ألبيه على عينى ورأسى ولكن بعد أن ننتهى من هذه الشغلة فالبلدة كلها ليس عندها وقت تهرش فيه رأسها»..

ابتسم بلطف:

ـ «على فكرة معى حقيبة ملآنة بالفلوس يعنى ما يطلبه المعلم سيأخذه وزيادة!!»

انتصب الخوف في جوفي يا بوى، فهذا إغراء غير مريح فى مثل هذا الظرف الحرج، قلت بشىء قليل جدا من الحدة:

ـ «هذا مستحيل يا حازم بك! ليس من المعقول ولا من المقبول أن أترك الناس وأذهب للبحث عن طلب كهذا!! إنك لست تطلب علبة سجاير أتلقفها من على رف الدكان!!»

شوح بحركة مرحة مازحة:

ـ «إن المرشح لن يغضب منك إذا غبت عن مجاملته يوما أو نصف يوم ولا شك أنه قد رآنى وعرف أن عندك ضيفًا!!»

شوحت بدورى مبتسمًا فى سخرية:

- «إن المرشح هو أنا يا حازم بك! أنا العريس الذى تريد منه أن يترك عروسه فى الكوشة ويهرب!!»

من فرط المفاجأة وقف على حيله يا بوى، مبهوتا:

- «أنت المرشح؟ هذه الدعاية كلها لك إذن؟!»

ثم انفجر فى ضحكة صاعقة:

- «كنت أظنك تمزح يوم حدثتنا فى هذا الأمر ذات ليلة!!»

قلت بزهو كبير!

- «لا يا بو العم لم أكن أمزح!!»

قال بأريحية لم أكن أتوقعها:

- «خلاص يا حسن! أقصد يا حسن بك! متى يكون موعد الانتخاب؟!»

- «بعد غد يا بو العم! نحن الآن نضرب فوق الحديد وهو ساخن! وبعد ساعات معدودة يتحدد مصير العبد لله!!»

تفكر قليلا ثم أشرق وجهه:

- «حلو! أنا إذن جئت فى وقتى! شف يا عم! نحن جدعان كالصعايدة بالضبط! نخدم الصديق نفديه بروحنا! سأقدم لك خدمة العمر فى مقابل أن تكون جدعًا معى وتأتى لى بطلبى من تحت طقاطيق الأرض!!»

ضحكت:

ـ «ستبقى إذن لتساعدنى فى الدعاية؟!»

أومأ برأسه:

ـ «وأكثر من الدعاية!!»

ـ «ومحمد بك الذى ينتظرك؟!»

ـ «سأكلمه فى التليفون وأبلغه بما حدث! وسوف يرحب طبعا! لن يمانع فى أن أبقى هنا يومين أو ثلاثة من أجلك ومن أجل المصلحة!!»

ـ «قلت إنك ستساعدنى بأكثر من الدعاية! كيف؟!»

تراجع بذقنه مستنكرا جهلى بإمكانياته، أضاف:

ـ «يكفى أن أمر معك على اللجان!! مجرد أن يرانى رؤساء اللجان معك!! لو كنت فى ذيل القائمة تصبح على رأسها!!»

ـ «وه! وه! كيف يا بو العم؟!»

ـ «سترى! أنت لم تعرفنا على حقيقتنا بعد يا أبا على!! وهذه فرصة لأريك من نحن!! يجب أن تعرف أننا عائلة كبيرة بمعنى الكلمة وسرها باتع!!»

جعلت أتمعن فى وجهه وقد تصور لى عفريتا من الجن فى هيئة إنسان رقيق، قلت لنفسى: خليك مع الكذاب لحد باب الدار وشف نهايتها، لن تخسر شيئا، قلت له...

ـ «وأنا يا حازم بك لن أنسى لك هذه الخدمة مدى الحياة!»

بلهجة غاية فى العملية علق:

ـ «لا تؤاخذنى! هناك مثل إنجليزى يجب أن تعرفه لكى تتعامل به من الآن خاصة بعد أن تنجح: بزنس إذ بزنس!! ومعناه شغل قصاد شغل! تكسبنى واكسبك!!»

ـ «فهمت! فهمت تماما يا حازم بك! والآن! ما يساوى مائة سأخلصه لك بعشرة فقط! يعجبك هذا؟!»

رفع ذراعه فى تنبيه:

ـ «ليس هذا فحسب يا أبا على!!»

ـ «أأمرنى!»

ـ «وأن تأتى لى بالقطع النادرة!! الأندر! الأهم التى لا نتعب فى تصريفها بسهولة! وفى نفس الوقت تستأهل التعب والمغامرة!!»

لحظتئذ يا خال اطمأن بالى وهدأ بلبالى، أيقنت بإخلاصه للعمل، هو شاطر فحسب يريد أن يكون الغالب فلا بأس، قلت:

ـ «وهوكذلك يا حازم بك! ستكون أغنى واحد فى مصر بإذن الله من ورائى!!»

نهض واقفًا وقد ركبته حماسة مفاجئة:

ـ «على خيرة الله! إتفقنا ما أقرب سنترال هنا؟»

ـ «سأبعث معك مرسالاً إلى مركز صدفا!»

خرجت فناديت واحدًا من الولدان من أصهارى، أمرته أن يركب مع البيك لحد سنترال مركز صدفا ثم يعود به..

عندما دخلت السرادق وحدى استوقفنى هليل على جنب، وكان قلقًا بشكل أزعجنى بل زلزلنى يا خال، قلت له: تشيل طاجن ستك لماذا؟ صار يكح مسلكا صوته، قال بحشرجة قلب واجف:

ـ «يظهر أن الميزان سينقلب يا بو العم! أخشى أن تضيع منا الدائرة!!»

صحت فزعا:

ـ «فال الله ولا فالك! ما الذى جعلك تقول هذا الكلام الماسخ؟!»

قال بجدية غير مريحة:

ـ «أنت مع ضيفك من ساعة لم تسمع الميكروفونات المنافسة لنا!! المهم يا بو العم! أكدت الأخبار أن الرجل المسيحى العضمة الزرقاء تنازل للمرشح الثانى وسلمه كل أصواته! يظهر أنه قبض قرشين! المرشح الآخر يلف على الدور من صبحية ربنا يوزع الأموال باليمين وبالشمال! قرر أن يشترى أصوات الدائرة مهما كلفته! إنه كما تعرف لص كبير طول عمره! ولو نجح فى الشراء فلن يبقى من الأصوات سوى عائلاتنا فى مواجهة سواد الشعب!!»..

فكأنه ضـربنى بالصرمـة القديمـة على وجهى يا بوى. وقـفت مبلمـا يتدفق العرق من جبـينى ويجرى فى قناة ظهرى. صـحوت من الحلم، قلت لنفسى: نعم هكذا تكون الأمور صحيحة طبيعية إذ ليس من الطبيعى أن مثلى يتطاول مرة واحدة إلى مثل هذه الأملة. شعرت أن الغضب قد بدأت ناره ترفـع ألسنتها فى صدرى، وخيل لى أن شخصيتى الحقيقية: الحرامى حسن أبو ضب، رد السجون، قـد أوشكت أن تطل من ثيابى لـتفـسد كل هذه الصـورة البديعـة جاءنى صـوت لعله صوت أبى بحكمتـه الساخرة: أنت لن تخـسر شيـئا يا ولد الناس خليك فى الحلم لـنهايته فـعلى الأقل تستـمتع بالساعات البـاقية بارتفاع صيـتك بدلا من أن تنكد على نفسك من الآن. طغى عليه صوت الملكة فى صـدرى: إثبت فى مكانك يا عبيط يا أحمق فهـذه كلها أخبار ولا أحد يدرى أين يتجـه سهم النصيب المقدور على الخلق فإن كانت هذه الأخبار صـحيحة فإنها تدل على قوتك الواضحـة فدع من يلعب يخسر كل أوراقه واسـتمر أنت فى اتكالك على الله وحـتما لن يخـذلك لأنك ربما كنت أفيـد للناس من غيرك حتى لو كنت جاهلا وهو متعلم نكرة وهو شهير..

قلت لهليل:

«نحن معنا الله يا هليل! نـفعل ما نقدر عليـه والباقى على الله! والعبرة بالخواتيم كما يقول المثل!!».

وسحبته إلى المقعد المخصص له فى السرادق، فرافقنى خطوات ثم ارتد شاردا يباشر استطلاعاته وتحرياته..

تلقفني بربش بنظرات هلعة، تطل من عينين مضيقتين كثقبين مفتوحين على جهنم، لدرجة أنني هربت منها يا خال، فوقعت عيني في عين بسبوسة الواسعتين طويلتي الرموش كبحيرتين من صفاء مريب، فإذا فيهما نظرات ابتهاج مفعم بالتفاؤل والرضا. أما غزولي فقد نكس رأسه في حياء مفتعل وراح يشد خيطا خفيا مدككا في شفتيه مثل استك السروال، يشده فتنكمش الشفتان على بعضهما ليصير شدقاه مثل بك الفلوس الحريمي، ويرخيه فتنفرج الشفتان ببسمة شديدة الخبث تنضح بخسد معلن يكاد يفخر به. قلت في توجس هامس:

ـ «مالكم يا أولاد الفرطوس؟ شكلكم ليس طبيعيًا!!»

قال بربش في حسد واضح:

ـ «لا! لا أمرك صار ملفتا للنظر! هناك سر!!»

ـ «لا حول ولا قوة إلا بالله! لا سر ولا حاجة يا بربش! استهدى بالله ولا تسرح بعقلك بعيدا!!»

ـ «يا ماء من تحت تبن!! أنت يطلع منك كل هذا! إنك إذن لمن الأقوياء الخطرين!! أنت عضمة ثقيلة!!»

ـ «إكشف عن غرضك يا بربش!!»

ـ «كيف وصلت إلى أنور السادات يا عكروت؟!»

ـ «أنور السادات؟!»

وشملني الرعب يا بوى، أمسكت بطوق جلبابى هززته:

ـ «إيش أوصلنى أنا لأنور السادات يا بربش؟! أنا لم أره فى حياتى ولا أستطيع الوصول إليه!!»

ـ «اطلع من دول يا عكروت!! كيف إذن يرسل بأخيه ليقف بجوارك فى الدعاية؟!»

ـ «أخوه حتة واحدة؟!»

ثم ضحكت إذ أدركت حقيقة اللبس:

ـ «هذا الضيف يا بو العم اسمه حازم أبو شناف!!»

انفجرت الضحكة الساخرة من ثلاثتهم، وقال بسبوسة فى ابتسامة جميلة وغمزة أجمل:

ـ «على كل حال الاسم لا يهم! أبو شناف أبو جلمبو!!»

أومأ غزولى بخبث:

ـ «ما يضر!! بالعكس! أبو شناف أحسن!!»

حتى هندى، الذى لم يفتح فمه بكلمة منذ وصوله قال فى تريقة:

ـ «تستغفلنا أم تستغفل نفسك؟! يا راجل عيب!!»

وقال بربش كأنه يخلص ذمته من الله:

ـ «هذا الذى كان هنا منذ دقائق هو أصـغر أخوة أنور السادات النائب الأول لرئيس الجمهورية جمال عبد الناصر!!»

صحت فـيه بقليل من الغـضب، ربما لأستفـزه يا خال، للإدلاء بمزيد من المعلومات:

ـ «من أدراك أنه هو؟! منجم حـضرتك؟ أم تراك تعرف جـميع أبناء الخلق؟!»

نقر بأصبعه على ذراعى فى ثقة:

ـ «إننى أعرفه جيدا! اشتغلنا معه كثيرًا! وهو ولد طيب على كل حال وجدع! وصاحب صاحبه!!»

اغتظت رغم الفرحة الكبيرة يا بوى، صحت فى بربش:

«يا أبا الحـاج! هذا حـازم أبو شناف وهو من مـعارف الحـاج أحمـد نوار الدين السنى وعن طريقه عـرفنى وعرفتـه! جاءنى فى فرحى لكنكم لم تروه لأنه انصرف بعد دقائق!!»

ضحكوا فى نفس واحد، وركز بربش نظراته الثـاقبة فى عينى، نظرات صايع كبير عجوز:

ـ «ولماذا جاء الليلة يا ترى؟!»

ارتبكت قليلا، فانفعلت:

ـ «كان هنا فى مشـوار ورأى أن يفوت ويسلم علىَّ!! أنت قلت إنه ولد جدع وطيب وخدوم! فلمـا علم الآن أننى داخل الانتخابات صمم أن يبقى بجوارى يساعدنى وهو حاليا يتكلم فى التليفون!!»

تبادلوا نظرة ذات معنى غامض، نضحت نفس البسمة على وجوههم. قال بربش:

ـ «هنيئا لك يا عم! اقتنعنا الآن أنك عبقرى زمانك أنت لعبتها صح! ونفعت اللعبة!»

وقال بسبوسة:

ـ «النتيجة بانت فى الحال!!»

ـ «كيف يا بسبوسة؟!»

رد غزولى:

ـ كل من كانوا هنا ساعة دخوله ذهلوا وقالوا لبعضهم أنور السادات بعث بأخيه لتأييدك وتهديد خصومك!! بعضهم قال بإعجاب وفرح: رئاسة الجمهورية بنفسها تؤيد حسن بك وتقف وراءه وهذا المرسال معناه: يا أهل الدائرة هذا الرجل سينجح يعنى سينجح فاجعلوها تجىء من عندكم أحسن!! أنا أراقب الناس من ساعتها وأتنصت عليهم!! كان الواحد منهم يخرج ويعود ومعه عشرة!! ألست تلاحظ أن السرادق ازدحم الآن بشكل غير طبيعى؟! كل هؤلاء جاءوا ليتأكدوا من الأمر!!»

فعلا يا بوى، السرادق ازدحم بصورة لم يسبق لها مثيل، الواقفون أضعاف الجالسين، والمتجمعون خارج السرادق أضعاف هؤلاء وأولئك، آخر نظاكه يا بوى، كلهم عيونهم هائجة تبحث عن

الضيف، قلت لنفسي: منصـورة بإذن الله يا بوى، أيقنت أنه دعاء الوالدين وبركة الشيخة سعادة..

اقتـرب بسـبوسـة منى أكثـر، وأشار بطرف عـينه إلى الرجل المشعـرانى الذى كنت قد نسيتـه تماما يا بوى، وكان جالسًـا قرب باب السرادق فى حالة من حب الاستطلاع الشغوف بالزحمة. قال بسبوسة:

ـ «هذا الشـاب ابن رأس كبيـرة فى مجلـس قيادة الثـورة! من أكابر الضـباط الأحرار! لكنه مخـتف عن الأنظار لا نشاط له!! وأم صاحـبنا هذا شبه مطلقـة حاليا! المهم أنهـا تعيش بأولادها منه ـ وهذا أكبرهم ـ وحدها فى شقتهم القـديمة!! أما الرجل الكبير فإنه مـزواج مطلاق!! يعيش الآن مع زوجـة صـغيـرة السن فى ڤيـلا بعيـدة!! حالته على فكرة ميـسورة يعنى يجد كل طلباتـه والحمد لله!! فلأنه خـائب فى مسائل المـكسب والاستفـادة من المركز لأنه كما يقـولون عنه فى الأصل رجل مبادىء فإن جمال عـبد الناصر يعطف عليه ويرسل له نفـقة شهـرية كبيرة!! وهو من جـانبه كل حـين يفزع فـزعة يثـير بهـا بعض الزوابع حـتى يلهف قرشـين كبيرين من الرياسة أو من أى مكان!! الرياسة تداديه تحمد الله أنه ترك لهم شئـون السلطنة وابتعـد ليعيش حـياته!! هم ربك والحق فرحون بهـذا فليأخذ ما يشاء طالما أنه لا يشـاركهم فى السلطنة!! أما هذا الولد الداهـية ـ ابنه ـ فمن أشطر الشطـار! له نشاط دولى

معـروف! يتاجر فى أشـياء كثـيرة جـدا من الخردة إلى الآثار إلى السلاح للفدائيين الفلسطينيين! وبدون رسمال على شرط!! يعتمد على السمسرة والعمولات! يعيـش عيشة الأمراء الصعاليك كل يوم فى بلد كل ليلة مـعه امرأة جديدة لكـنه هو الآخر طيب رغم ذلك!! غير شـرير بمعنى أصح! ولهذا يتركونه فى حـاله ويخلصونه من كل ورطة وورطة!!»

لأننى أحب بسبـوسة يابوى، وأثق فى كلامـه ومعلوماته، فـقد اقتنعت بكل مـا قاله بربش، لأن بسـبوسة لم ينفـه، فكرت يا خال فى أن أغير مظهرى وطريقة احتفالى بالضيف تبعا لهذه المعلومات المبهـرة، لكى أرسم الوضع كمـا ينبغى يا خال. لـكن صوت الملكة صـاح فى أذنى: دع كل شىء يمـضى كـمـا هو فـلا تتـدخل بأى تصرف قد يفسد عليك الطبخة الإلهية..

رفعت بصرى بعد شرود، فـإذا بهليل على باب السرادق يشير لى أن تعال، انسلخت من الشلة الوسخـة ذاهبًا أتعثر فى الكراسى والأكتـاف والمناكب، وأرد على التحـيات البهـيجة المنهـمرة من كل ناحـية. لاحظت بقـلب واجف فرحـان أن الجمـيع يقـولون لى: يا سعادة البيه، فجعلت أكتم ضـحكتى بقوة خرافية..

سـحبنى هليل إلـى بعيـد جدا، إلى قـلب الطريق الزراعى على شاطىء الترعة. ضـغط بأصابعه على ذراعى فى فرح:

ـ «ما الخـبر؟! البـلاد من حـولنا انقلبت! الطرقات تدلق نـاسا على السرادق!!»

ـ «خير ماذا يا هليل؟!»

ـ «هناك شائعة جرت فى بلدان العب كله كالحريق: أنور السادات بنفسه جاء إلى السرادق لتأييدك!! أين هو؟! ناس من الشناينة ومن العزايزة ومن الغنايم وكله آت يسألنى أضحك وأعمل كأننى أعرف ولا أريد أن أتكلم!! لقد زعق لنا نبى من السماء يا بو العم!!»

ضحكت فى جزل، صرت أعض على نواجذى، أكمل هليل:

ـ «لماذا تضحك هكذا؟!»

ـ «فعلا يا هليل: زعق لنا نبى من السماء! المضحك أنك رأيت الضيف وزميله عدة مرات! من يوم الجبل إلى اليوم!!»

ـ «وه!! نكتة هايلة يا بو العم! الولد فعلا يشبه أنور السادات الخالق الناطق! نفس الدم نفس الصلعة نفس العود!! طويل سرح!!»

اندمج فى الضحك هو الآخر يا بوى. صرنا نروح ونجىء على الطريق، والآتون يهبطون عن الركائب ليسلموا علينا فى حرارة، والسؤال على شفاههم: هل أنور السادات فى السرادق؟ ونكاد نجيبهم بنظراتنا أن: نعم..

بربش و بسبوسة وغزولى وهندى أصبحوا يبيتون عند هليل، وعندما ظهر حازم والمشعرانى أصر أصهارى على استضافتهما فأوعزت إليهم بألا يتقلوا عليهما فى الأسئلة؛ وأخيرا فضلت أن

أبقى معهما، وذهب وفد من نسوان دارنا للمبيت مع العروسة التى فضلت ألا تـترك دارها درءا للفأل الـسىء فى شـهر العـسل. وفى الليل انفـردت بحازم مع كـوبين من الشاى وحـجرين، ثم سـألته مباشرة دون لف أو دوران:

- «قل لى يا بو العم! هل أنت حقا شقيق أنور السادات؟!»

لم تظهر عليه أية مفاجأة يا خال، قال بسرعة:

- «لا بكل أسف! لست شقيقه!!»

- «عجايب! ولكنك صورة طبق الأصل منه!!»»

- «وما الضرر فى ذلك؟!»

- «لا ضرر ولا ضرار يا بو العم!»

- «الجميع هنا طبعًا تصوروا أننى شقيقه!!»

- «طبعًا يا بوى!»

- «مصلحة! دعهم يتصورون!!»

- «ولكننى نفيت لهم ذلك!»

- «لا تنف ولا تؤكد! دع الأمر عائمًا!!»

- «خلاص يا بوى!»

لكنني يا بوى كنت إلى التـأييد أميل: التـأكيـد من خلال النفى، حتى إذا ما جاء يوم الانتخاب صار العبد لله كالامبراطور، يا ربى، ما كل هذه الواجبات التـى فعلتها معى؟ لقد رسمـتنى بعنايتك حقا

حـقا إن من ينصـره الله لا غالـب له. ما كنت أتصـور يا بوى أن سيارة ملاكى تشبه الطائرة بنمر قاهرية سوف تأتينى فى اللحظة المناسـبـة لكى تكون تحت أمـرى وإذ بى أتـنقل بهـا بين اللجـان فتضـفى على مظهرى أناقة وأبهة؛ تلك هى سـيارة حازم. عند كل لجنة من اللجان ننزل وسط احتفال كـبير، نمر على أعضاء اللجان مجرد مرور. كان أصـــهارى قد عينوا فى كل لجنة مندوبًا عنى من طرفهم يراقب العملية الانتخابيـة، كل مندوب مزود بقدر كبير من المال يغدق بـه على أعضاء اللجـنة شايًا وقهـوة ومرطبـات وغداء وسجاير وهدايا غـير مرئية. وقد روعى فى اخـتيارهم أن يكونوا على قـدر كبـير من الذكـاء والتفـتح والوعى والفهلوة مـع إجادة القـراءة والكتـابة. هؤلاء يا خـال لعـبـوا دورًا خطيـرًا فى إرهاب اللجان بصنعة لطافة، أكدوا إشـاعة أن شقيق السادات جاء مندوبًا عن أخيه لتـدعيم مركز مرشح الثـورة الذى هو أنا بل زعموا أننى عضمة كبيرة فى التنظيم الطليـعى الذى كونه عبد الناصر ليضرب به الاتـحاد الاشتراكى. فما يكاد حازم يظهر فى مدخل اللجنة حتى يكون المندوب قد هيأ اللجنة لاستقباله بحرارة ويريه رئيسـها مدى جـدية العـمل وخلوه من أى لبش، وكل من لا يعـرف القـراءة من الناخـبين ـ وما أشـد كثـرتهم ـ ملأت له اللجنـة بطاقته بـاسمى تلقائيًا حتى لو ذكر لهم شخصا آخر غيرى..

سارت الأمور كما ينبـغى يا خال، تم كل شىء بنجاح وسلام. فـما أن أغلقت الصناديق ورحلـت إلى لجنة الفرز حـتى صحـبت

حازم إلى منزلى فجلسنا فى المندرة نستريح استعدادا لملاقاة لجان الفرز. وكنت أثناء تجهيز البيت للزواج قد أجريت تعديلات، فجعلت من حجرة نومى السابقة مخزنا للأشياء الخصوصية وفتحت فى حائطها الداخلى دولابًا سحريًا يتفرع منه نفقان سريان فى قلب الجدار، للأسلحة وللقطع الأثرية، تسللت إليه لأجهز لحازم بعض القطع المطلوبة، فإذا بى أفاجأ برأس نفرتيتى من الذهب الخالص موجودة بين القطع، ففرحت جدًا يا خال،وقلت فلتكن هذه القطعة وحدها هدية لحازم إن جاءنى نبأ النجاح، وفعلا يا خال، تلقيت النبأ كاملا فى اليوم التالى، فارتفعت الطبول والأعلام والزغاريد، عمت البلاد فرحة صاخبة، وبدأت الوفود تتدفق علينا للتهنئة، استدعيت حازم إلى حجرة داخلية، قلت له إن المعلم قد نفذ له طلبه بخصوص رأس نفرتيتى ويعده بتنفيذ كل طلباته بعد أن نفيق من دوشة التهانى. انشرح صدر حازم وهو يتفرج على القطعة بفرح عظيم، قال:

- «كم يطلب المعلم فيها؟!»

قلت بعد تردد قليل:

- «إدفع ما معك وأنا أكمل الباقى من جيبى!»

قال فى شىء من الخجل والتلعثم:

- «والله! صراحة يعنى! محمد بك أعطانى خمسين ألفا فقط!!»

اعتقلت فرحتى الطاغية ورسمت بدلا منها صدمة كبيرة:

ـ «تعرف طبعا ثمنها الحقيقى!»

بقليل من الخبث المفضوح:

ـ «كم تظن أنت؟!»

ـ «مفصول للمعلم بثلاثمائة ألف!!»

ـ «ليس خسارة فيها! ولكنك تستطيع أن تتفاهم مع محمد بك فيما بعد!!»

ـ «خل عنك! خذها ووصلنى ثمنها!»

ـ «قد القول!»

وفتح الحقيبة بغير تردد، عد لى خمسين رزمة مؤستكة. وكان من الواضح أن الحقيبة لا تزال عامرة، وأنه سيسفح مبلغا رهيبًا من وراء هذه الصفقة، لكننى كنت راضيًا تمامًا. عانقنى بحرارة قال إنه وأخيه تحت أمرى فى كل ما أطلب فى كل وقت، ثم انصرف عائدًا إلى القاهرة بشبه مظاهرة أوصلته حتى طريق أسيوط. أما أنا فذهبت إلى هليل لأتناول الغداء عنده مع الشلة الوسخة، فانتابتنى نوبة كرم عاتية، نفحت كل واحد منهم ألف جنيه: مش خسارة فيكم يا أولاد الفرطوس. ثم قلت لهم: أنا الآن عضو بالبرلمان وأنتم من الآن رجالى وباتت مصلحتكم عندى فوق كل اعتبار. وودعتهم على موعد محدد فى القاهرة فى شقتى بعد أيام. أما يوم سفرى أنا والعروس يا خال، فحدث ولا حرج.

شايب

جاءنى المعلم شندويلى يقدم التهنئة الحارة الطالعة من قلبه فعلا يا خال. كانت هذه أول مرة يدخل فيها عمارته منذ أن بارحها إلى مصر الجديدة هربًا من الغازية الساكنة قبالتى. أهلا وسهلا كيف الأحوال، كلمة فى حدوتة عرفت أنه يعمل الآن فى تجارة أراضى البناء، يشترى القطع بأسعار تافهة نظرا لأنها فى أماكن بعيدة عن العمران، ثم يركنها وينساها واثقًا من أن العمران سيمتد إليها إن عاجلا أو آجلا، وعندما يقترب منها العمران يشرع فى بيعها بأسعار خيالية: فى الهرم والجيزة والكيت كات ومصر الجديدة والزيتون والوراق. قلت والله إنها لشغلة مربحة ومكسب مضمون، فقال إنه مستعد لإرشادى إلى الأماكن التى تباع فيها الأراضى. أمهلته شهرا واحدا حتى انتهى من تعلم قيادة السيارات. ذلك أن الولد بسبوسة ـ الله يستره ـ طلعها فى دماغى، وتكفل بالبحث عن سيارة محترمة، ثم اصطحبنى إلى معرض سيارات يدعى السعودى فتفرجنا على عدد من السيارات المعروضة منها الجديد على الزيرو ومنها النصف عمر. توقفنا أمام واحدة ماركة شيفروليه، وهذه كما قال بسبوسة من أشهر وأجود الماركات لا يركبها إلا الناس الأبهة، الدليل على ذلك أن هذه السيارة يملكها مدير الأمن السابق وهو من عائلة صعيدية ثرية مشهورة، يبيعها لأنه يريد أن يركب واحدة جديدة فالعظماء المهمون دائمًا هكذا يا بوى، قلت لبسبوسة:

- «هل السيارة جديدة فى نظرك يا بسبوسة؟ قال: تمام التمام على ضمانة المعرض جئنا بالميكانيكى ففحصها وشهد لصالحها، فانتهينا فيها بثلاثة آلاف جنيه لأن السيارة كانت بحالتها لم يمض على إنتاجها سوى عام واحد، ومزودة بكل الكماليات وفى حقيبتها ثلاجة تنفع للرحلات الطويلة، ثم إن لونها أسود. قلت إنها لا ينقصها سوى الراية لكى تصبح دبلوماسية. فضحك بسبوسة قائلا:

- «دبلوماسية إيه وراية إيه يا عبيط؟! إن حصانتك أقوى بكثير!»

طلبت منه إيضاحًا لهذه الكلمة يا بوى. فلما شرح لى معنى الحصانة التى يتمتع بها عضو مجلس الأمة فردت صدرى من فرح وزهو حتى خيل لى أن البلاد كلها صارت ملكى مسخرة لخدمتى، وحمدت الله الذى لا يحمد على مكروه سواه. ثم إن بسبوسة تكفل بتعليمى فى ظرف شهر واحد حتى أصبحت كأنى ولدت سائقًا..

أول مشوار ركبتها إليه كان إلى منطقة الوراق ومنها إلى أرض اللواء فالهرم، حيث اشتريت مجموعة من القطع تتراوح مساحاتها بين المائتين والثلاثمائة وخمسين مترًا، واخترت بسبوسة ليكون مديرًا لأعمالى، إن عمله فى الحكومة لا يتطلب منه وقتًا طويلاً، فليمكث كل وقته معى، بمرتب شهرى يساوى مرتبه من الحكومة

فى عام كـامل، مما جعله يتفـانى فى خدمتى. ولما كان أشـد واحد فى الشلة حفظًا للأسـرار وكتمانًا فقـد أشركته سرًا فـى العمليات التى تتم بينى وبـين حازم والمشـعـرانى، سيـمـا وأن دائرة هذه العلميات قد اتسعت فأصبـحت أتعامل مباشرة - فى السر أيضًا - مع الحاج قدرى والحاج الأصـفراوى والمعلم عطاطس وهذا الأخير قبطى من أغنى أغنياء الكرة الأرضيـة، تقيم أسرته كلها فى أمريكا يعتبـر أحد ثلاثة فى العالم يتحكمـون فى سعر الذهب، فهـو أكبر تجارة فى مصر والمنطقة العربية كلها ومحلاته منتشرة فى جميع أنحاء البـلاد يديرها أقاربه فى حين يتـفرغ هو لتسـويق النحاس القديم ومشغـولات الذهب والأنتيكات وكل ما هو ذو طابع أثرى . المعلم عطاطس والحـاج قدرى والأصـفراوى وحـازم والمشعـرانى يعرفون أننى مجرد وسيط فـوق العادة، وأنا لبست الدور جيدًا يا خال، فـلا فصال معى ومن هنا انـعدم الفصال من أسـاسه، وكل كلمـة أسمعـها من واحـد منهم لا أرد عليـها فى الحال، بـل أقول: سـأكلم المعلم وأرد عليك وهذا الرد يقلق طالب الشـراء فيـتصـور أننى سـأتنصل من البيع فـيعـمل جهـده لينهى البيـعة على نـحو يرضيـنى. وقد أبرمت اتفـاقًا مع الملكة أنهـا تعطينى القطعة بـثمن معين نحـدده مـعًا، وأبيـعـها أنا بالثـمن الذى يروق لى، وجـيب بسبـوسة هو المخـزن الأمين للقطع حـتى تنتهى المسـاومات وإن استمرت أيامًـا. ولما رأت الملكة أننى أعطيها أسعارًا خيـالية كشفت لى ما أذهلنى يا بوى: لـديها مخزن لا يـنضب أبدًا مدى الدهر من

القطع الأثرية النادرة المتنوعة، من قطع توضع فى الجيب إلى قطع تحتاج لبلدوزر يا بوى، وحتى هذه لم نعدم وسيلة لتفكيكها ونقلها مع الحديد الخردة..

جاءنى بسبوسة ذات يوم يخبرنى أن الراقصة الساكنة قبالتى تزوجت أحد شيوخ النفط فابتنى لها قصرًا فى مصر الجديدة، وترى الآن أن تفوضنى فى بيع الشقة لى. فاشتريتها فى الحال، وسويت الأمر نهائيًا مع المعلم شندويلى بأن اشتريت العمارة كلها بثمن بخس. جهزت الشقة كمكتب لى، وبواسطة بسبوسة تم تركيب خطين تليفونيين فى الشقة والمكتب، وخط ثالث فى دارى بالبلدة..

محب للخير أيضًا هذا الولد، وحبه للشلة الوسخة أكبر من حبه لأى شىء آخر. طلبت منه أن يستأجر لنا شقة صغيرة فى حى شعبى آمن نقضى فيها سهراتنا لزوم شرب الحجرين بعيدًا عن الواغش على أن تكون لنا وحدنا لا يدخلها مخلوق آخر. ففوجئت به يوم كلمته يصطحبنى لمعاينتها. كان يعرف ما سأطلبه فيجهزه قبل أن أطلبه. قال لى ونحن نتفرج على الشقة إننى لا يجب أن أتخلى عن الشلة لأنها ستكون يدى اليمنى فى أى عمل أقوم به، فإذا كان هو قد أصبح المدير التنفيذى لأعمالى فإن بربش فى رأيه يستطيع أن يكون أكثر من عشرين مديرًا فى مدير واحد: ينظم شئون المكتب ومواعيدى مع المسئولين ومواعيد الزوار معى، يكون

حلقـة الوصل بينـي وبين هؤلاء وأولئك، يسـتـمع إلى أصـحـاب المشاكل والطلبات نيابة عني. ثم نبهني إلى شيء لطيف، فثمة فرق كبير بين أن أطلب المسئولين بنفسي وأن يطلب ذلك موظف عندي يقـول للطرف الآخـر: حـسن بك مع حـضـرتك حـسن بك يطلب المقابلة! حسن بك سيكون هنا السـاعة كذا.. إلخ، يستطيع أيضا أن يكون مديرا للدعاية، يتصل بالصحف يبلغها ويرد عليها نيابة عني يجند المحررين للكتـابة عن أعمالي الخـيرية التي ليس من المهم أن أقوم بها فـعلا. أما غزولي فالفـوائد من ورائه لا تحصى ولا تعد، ابتداء من المشاوير البسيطة إلى المهمات الثقيلة، فهو متودك، مدرب على المشي وجمع التحريات، لديه خبـرات كثيرة، وحسن تصرف، ولباقـة، وأمانة، أمـا الولد هندي، صديقي المقـرب من زمن مضى، كيف يتأتى له أن أهمله؟ قلت له:

- «غلبتني يا بسبوسة! وأظنكم جميعا مخلصون لي!!»

تبسم الولد بسمة متألم مندهش:

- «شف يا صاحبي! نحن عيال جدعان نساوي ثقلنا ذهبًا! نحن الذين علمناك التـفتـيح والشغل المربح! عـاشرتنا وعاشـرناك على الحلوة والمرة ولكن الله أعطاك وكبرت! هنيئا لك يا عم! مهمتنا الآن تكبيرك أكـثر وأكثر فـفي تكبيرك مصلحة لـنا! أنت الآن عضو في البرلمان تملك الحصانة! ووقوفنـا معك الآن لا يزيد عن وقوفنا معا في أي عـمليـة قمنا بهـا!! كنا نسـرق ونهـجم ونكسـر الدكاكـين

ضامنين متضامنين لا أحد يفتن على الآخر وإلا فتن على نفسه! لا أحـد يخون الآخـر وإلا خـان نفسـه! نحن الآن وقـد غيـرنا شكل النشـاط وطرقه يصـبح العمل هو هو! كل مـا هناك أننا أصبـحنا نملك الحصـانة! اتسعت السكك أمـامنا!! أنا وإخوانى نعرف لعـبة الحكم والسيـاسة فى بلادنا: إنها أربح تجـارة فى مصر وسـرقة مشروعة غير أنها تحتاج لكلام وشعارات ودعايات وأونطة زائدة! كنا بالأمس لصـوصًا صـغارًا يسـرقون الأفـراد فى جنح الظلام سرقـات صغيـرة أما الآن فقد انـضممنا إلى صف الكبـار لنسرق شعـبًا بـأكمله فى وضح النهـار تحت حمـاية قانونيـة وبموافـقة المعـتدى عليـهم!! فـإذا كنا لم نخنك ونحن صـغار فى عـمل غيـر شرعى فكـيف يمكن أن نخونك ونحن كـبار فى عمـل شرعى أنت رمـــزه ومـــديره؟! لـكننى أحـب أن أخلص لك النـصح ولابد أن تسـمعنى وتعى الدرس الذى ســأقـوله لك جيـدًا! السيـاسة ضـد الأمانة على خط مسـتقيم! ضد الشرف ضد الأخـلاق ضد المبادئ إنهـا تستـخـدم هذه الكلمـات فحـسب لتـحكم باسـمـها! يتـذرع السياسى بالأمانة ليصنع ستارًا سميكًا يخونها من ورائه!! يرفع راية الشرف لكى تظلله وهو يـفقد الشرف فى كل لحظة! يتـشدق بالأخلاق والمبادئ كحلة أنيقة يرتديهـا ليعوض بها غياب الأخلاق والمبادئ من نفسـه!! هم جميعًا هكذا يا صاحبـى والجو السياسى نفســه موبوء واسأل بربش يقول لك أسـراره التى يعرفها جـيدًا! جراثيـمه قـوية لا تصمد أمـامها أى مـقاومـة! وإذا اتضح لها أن

الشخص أمين حقًا شريف حقًا صاحب خلق ومبادئ حقًا فإنها توقعه فى مصيبة!! لابد أن يتكاتف عليه الجميع حتى يطعنوه فى أمانته فى شرفه فى أخلاقه فى مبادئه! لأنه نشاذ بينهم! مرفوض! فى عالم السياسة يا صاحبى لا مستقبل إلا لغير الأمين غير الشريف منعدم الأخلاق والمبادئ! عليك أن تضع هذه النصيحة حقًا فى أذنيك!! تذكره فى كل لحظة فى كل كلمة تقولها فى كل فعل تفعله عند كل من ستتعامل معهم من الأعضاء والوزراء وغيرهم من أصحاب المناصب!! و لكن! وآه من لكن هذه على رأى المكاتبين عليك أن تجيد الأونطة السياسية! أن تجيد الكلام فى الأمانة والشرف والأخلاق والمبادئ ومصالح الجماهير وحماية تراب الوطن وقدسية الرأى العام إلخ إلخ! تجيد هذا بقدر ما فيك من قدرة على التلون والتحول المفاجئ من النقيض إلى النقيض!! إدهن نفسك بالعسل! عليك أن تشعر كل واحد بأهميته! تحدث مع الواحد منهم كأنه سيد الكون!! إياك إياك أن تهاجم أحد الوزراء أو الكبراء هجومًا عدوانيًا يطعن فى كفاءته أو فى شرفه أو فى وطنيته خاصة عند الاستجواب! إبدأ باستجوابك دائمًا بالاعتراف للوزير بكل الأفضال والمزايا فإن كان عندك اعتراض أو نقد فلتقدمه بصنعة لطافة وفى صيغة مدح على أساس أنه تكاملت أفضاله ولم يبق إلا هذا الغبار القليل الذى يجب أن ينفضه عن نفسه!! من ناحية أخرى فإنك إذا رأيت أحد الأعضاء يهاجم أحد الوزراء هجومًا عنيفا فلا تأخذك الحماسة للمشى وراءه! كن آخر

من يتكلم فإن تكلمت فكن محضر خير!! بهذا يحبك الجميع! أعود فأذكرك بأن جميع زملائك من الأعضاء وكذا الحكومة هم جميعًا يلعبون نفس اللعبة كلهم يضع مصلحته الشخصية فوق كل اعتبار لكنه يختار يافطة يقف وراءها فلا تتحمق ولا تنفعل لأن المسألة كلها أهيف مما تتصور!! غيرك إذا انفعل على حس المصلحة العامة فاعلم أنه ينفعل بقدر ما يستفيد من وراء الانفعال!! غدًا تعرف قيمة هذه النصائح! وعلى كل حال ما دمنا معك أنا وبربش بالذات فسوف تعرف كل شيء بسهولة! وربنا معنا جميعا!!».

ربك والحق يا خال! انفتح مخى على كلام الولد بسبوسة وشربته. لكن ورق الشيخة سعادة وما تمخض عنه من نبوءات انتصب فى دماغى واقفًا، وصوت الشيخة يشيلنى ويحطنى، فأشعر بوجع فى عظامى ولحمى. شيئًا فشيئًا راح صوت الشيخة سعادة يواجه صوت بسبوسة كل منهما يحاول أن يعلو فوق الآخر ليسكتّه، إلا أن صوت بسبوسة كان هو الأعلى يا خال، ويظهر أنه كان مسنودًا على شيء فى داخلى يؤيده، نعم يا خال، وكان لهذا الصوت منطقه: هذه فرصتك يا ولد أبى ضب لن تتكرر بسهولة إلا كل دهر، إنها مثل اختناق القمر وكسوف الشمس ولو أنك ضيعتها فذنبك على جنبك، لابد أن تخرج من هذه الفرصة أغنى من المعلم عطاطس ومن الدولة نفسها، توجست من الشيطان الشاطر.. يا خال، خفت أن يحبكها معى فأضيع فى الكازوزة.

لست أقصد الشيطان الشاطر الذى يحرضنا فى العادة على الفسق، إنما قصدت الشيطان الأشطر الذى يحرضنا على الصلاح فى زمن كله فسوق وفجور وظلم وقهر واستبداد. لو كنا فى زمن مبدؤه الصلاح والتقوى لكنه معطوب فى بعض البقع لاستطعت أن أقاوم الشيطان الذى يحرض على الفسق. أما فى زماننا هذا فإننى يجب أن أقاوم الشيطان الذى قد يغرينى بالصلاح يحرضنى على الالتزام بالأمانة والشرف والأخلاق والمبادئ وسط قوم لا يعترفون بشئ من هذا كما قال بسبوسة صادقًا. وجدتنى أقول له وأنا فى غاية الألم:

- «لكننى يا بسبوسة أحب أن أخدم أهل دائرتى الذين وثقوا فى وانتخبونى دون غيرى من الكبراء!!»

ضحك بسبوسة:

- «الشعب المصرى لا تهمه هذه المسائل!! إنه لم يكتب معك عقدًا يحاسبك به فى المحكمة!! إنه ينتخب للمجاملة أو من الخوف!! وتنتهى علاقة الناخبين بالنائب بعد نجاحه!! لم يحدث أن دائرة حاسبت نائبها فى نهاية الدورة! لم نسمع عن ذلك طول عمرنا! بل أنهم ينتخبونه هو نفسه فى دورة جديدة رغم أنه ربما يكون اشتغل ضدهم طوال الدورة السابقة!! شعبنا يا صاحبى طيب وفى حاله ولا يهمه من الذى يحكمه لأنه فى النهاية يفعل ما يشاء والحكومة هى الأخرى تفعل ما تريد!! فى مصر من يركب لا ينزل

أبدًا إلا إذا مات هو أو نفق البعير من تحته! والشعب طول عمره لم ينجح فى إسقاط أحـد عن عرشه!! ثم تعال هنا: الناس انتـخبوك فى آخر لحظة خوفًا وظنًا بأن الثورة تؤيدك وتقف وراءك! اللجان هى التى انتـخبتك!! هى صحـيح لعبـة عيـال وصدفة جـاءت مع العمى طبـات ولكن النتيجة أنـت حصدتها!! ولعلمك فـإن المصائب الكبـيرة والأحـداث الجليلة تحدث فى بلادنا بسـبب أمثـال هؤلاء العيـال الذين لهم أقارب من الحـكام!! وعلى كل حال يا صـاحبى فلن يمنعك أحـد من خدمـة أهل الدائرة! ولكن بصنعة لطـافة! عن طريق الالتماس المهذب! وبالأجر فـثق أن أحدًا لن يخدمك أو يخدم أحدًا من طرفك إلا بالأجر! بالفلوس أو بالخدمة مقابل خدمة! وهنا يجب أن أقدم لك النصيحة أيضا: لا تقدم خدمة بالمجان مهما كانت لاتكلفك شيئًا!! فمجانية الخدمة تقلل من قيمتها فى نظر المخدوم!! تنقلب الآية هنا يا صـاحبى! فـحيث كل الناس يخلصـون أمورهم بالأجر فلا مـصداقية ولا شكر لمن يخلص بـالمجان!! يظن المخدوم أنهـا كانت سـهلة عليك فلا يـكون للخدمـة أى أثر فى نفسـه!! إن المخـدوم فى بلادنا أصـبح لا يشـعر بطـعم الخدمـة أو لذتهـا أو أهميـتها إلا إذا اكـتوى بنارها ودفع ثمنهـا غاليًا!! قـرأت مرة عن شاعر يدعى إبراهيم ناجى مؤلف أغنية الأطلال لأم كلثوم لابد أنك سمعت اسمه! هو فى الأصل طبـيب ذهب إليه أحد الفقراء ليكشف عليـه فى عيادتـه فى شبرا! فكـشف الرجل عليه فـوجده مـصابًا بالأنيميا يعنى سوء التغذية فشعر بفقر الرجل واحتياجه فلم يأخذ

منه أجرًا على الكشف بل أعطاه جنيهًا كاملاً من جيبه مع روشتة كتبها له ببعض الڤيتامينات المقويات وقال له: خذ هذا الجنيه اصرف به هذه الروشتة وتعال بعد أسبوع لأكشف عليك ثانية! فمضى الرجل الغلبان ثم جاءه بعد أسبوع وكان مهزولا: فقال له ناجى: ألم تصرف الروشتة؟ قال: لا! قال: أعطيتك جنيها لتصرفها به فلماذا لم تفعل؟! قال الرجل بسلامة نية: ذهبت بالجنيه إلى طبيب آخر جيد!! فتصور يا صاحبى! الرجل الغلبان فقد الثقة فى الطبيب لأنه تنازل عن أجره وساعده!! هذا هو الشعب المصرى يا صاحبى مع الأسف الشديد: تضربه وتأخذ كراء يديك ومن يحاول خدمته بالمبادئ والأخلاق والضمير قام فى وجهه الفسقة الفجرة وألبوا الشعب المسكين الجاهل ضده فيضربه!!».

الولد لخبط غزلى يا بوى، طمس صوت الشيخة سعادة تمامًا فبدت لى إنسانة طيبة القلب ساذجة. لكننى يا بوى سرعان ما فطنت إلى أنها لم تكن تقدم النصيحة بقدر ما كانت تقدم النبوءة لينتفع بها من يشاء. الواقع يا خال أننى صرت محيرًا فى أمر الشيخة سعادة، فأنا على ثقة أنها تحب الوطن والعدل والإنصاف بقدر ما فى نفسها من ورع وتقوى، فكيف بها هى نفسها تقبل المتاجرة فى الآثار، وتأوى فى مملكتها سفاحين وقتلة ومدمنى إجرام؟! إلا أن صوتًا كصوت الشيخة سعادة نفسه سرعان ما رد علىّ بكلمات من كلام بسبوسة! إنها فعلا تميل إلى فعل الخير

وتتمنى أن يكون كل شىء على ما يرام لكنها لا تستطيع إلا أن تعامل المجتمع بنفس العملة الرائجة فيه وإلا أصابها العطب والبوار يا خال..

موجز القول يا بوى أننى نويت أن أوفق بين صوتين يزعقان فى صدرى بقوة: صوت الشيخة سعادة وصوت بسبوسة: أن أخدم ما استطعت، وأن أكسب ود الحكومة ما استطعت؛ بشرط أن يؤدى هذان السبيلان إلى تكبير مصالحى ووضعها فوق كل اعتبار.

قص

بلدياتى فى القاهرة كثيرون جدًا يا بوى، أكثر من عددالتراب فى جميع أحياء القاهرة الفقيرة والغنية على السواء، بل أكثر من عدد البعوض الذى يملأ ليل الصعيد. فنحن فى الصعيد لا يبارينا فى التكاثر سوى مثل هذه الكائنات السريعة الانتشار. وليس فى الصعيد يا بوى سوى فقر أو غنى، ليس ثمة من وسط يا خال، أنت إما فقير أو غنى. متى ما كبر الولد شد الرحال إلى القاهرة أو الإسكندرية أو أى بلد بعيد، هذا وإلا فمآله الجبل فى نهاية الطراد. ما من بائع سريح يحمل أثواب القماش على ظهره والمتر فى يده يجوب بلدان الوجه البحرى إلا وكان صعيديًا بارز الصعيدية. ما من عامل من فواعلية البناء الذين أقاموا كل عمائر البلاد إلا وكان

صعيديًا صرفًا، لا تني أصواتهم الأسيانة الشقيانة الزعلانة ترن في سمع البلاد كلها أبد الدهر رنينها العذب الشائق الأبدى: يا وابور الساعة اتناشر يا مقبل ع الصعيد، يا بهية وخبريني ع اللى قتل ياسين، وأنا كل ما أقول التوبة يا بوى ترميني المقادير..

آه يا خال مما يصيبني كلما استمعت إلى هذه الأغنيات، يذوب قلبي عشقًا للصعيدى والصعيد. سمعت بعض التلاميذ وهم يذاكرون ويقولون إن رجلا يونانيًا قديمًا اسمه لا أدرى ماذا.. قال إن مصر هبة النيل.. رأيي يا خال أنه رجل حمار لا يفهم حقيقة الأمر، خواجة لف مصر لفتين وراح يفتى في بلده عن مصر، وما هكذا الأمر يا خال، مصر هبة الصعيدى، اللهم إلا أن يكون هذا الخواجة يقصد القول بأن النيل صعيدى وهنا يجب أن أصدقه. ها نحن منجعصون متكئون على الآرائك في شرفة قصرى في حضن المقطم لا نحمل للدنيا همًا طالما يقف صعيدى بعربة الخضار تحت باب القصر، وصعيدى آخر بعربة الفول، وصعيدى ثالث بعربة أنابيب البوتاجاز وصعيدى رابع يكنس الشوارع، وصعيدى خامس يمد قضبان السكك الحديدية، يسوق شاحنات النقل، يسهر في قصر رئاسة الجمهورية يحكم مصر والعرب يهز طرابيش العالم أجمع، فما الذى ننتظر من الصعيدى بعد كل هذا يا بوى؟!..

جميع باعة السمك في جميع أنحاء القاهرة يا بوى هم من بلدياتي كما قلت لك من قبل، من بلدة (كوم اسفحت) المجاورة

لبلدتنا، من متعهد لشيال لبائع سريح. إن قابلك أى سماك فى القاهرة فاعرف أنه من كوم اسفحت. أما ولد بلدتى نفسها والنجوع المتاخمة لها فما أكثرهم فى سوق الخضار وفى شوارع القاهرة وكل حواريها وفى جبل المقطم يفتتون صخوره بالديناميت يحولونها إلى ثريد. كل هؤلاء وأولئك يا بوى يلزمهم مأوى، فالقادرون منهم قلة، معظمهم لا يأبه بالمنظر، ينام فى أى مكان، تحت أى عراء، يأكل أى أكل، يلبس أى لبس، المهم أن يشتغل والسلام يا بوى، فيهم جرأة كبيرة وبساطة، وميل إلى التعشيش، بنفس طويل جدًا يا بوى، يختار الواحد منهم أى ناصية أى ركن أى عطفة، يفرش عليها أقفاص الفاكهة فى شكل يسر الناظرين، يشعل الكلوبات فى الليل يؤنس وحشة الحوارى والأماكن المقطوعة، ينصب خيمة فى أى أرض خلاء شرط أن تكون مملوكة للحكومة. فى تسعة وتسعين فى المائة من هذه الحالات يا بوى ستمر الأيام ويصبح شاغل المكان صاحبه ومالكه. بفلوسه من عرق جبينه يشتريه من تحويشة المليم فوق المليم بصبر أيوب. ما من صاحب محل كشرى أو فول كبير فى البلد إلا وكان صعيديًا يقف بعربة يد بجوار هذا المحل أو فى قلبه، هى الوقفة يا بوى لا يتحول عنها، عشر سنوات عشرون، مائة، المهم لابد أن يجىء اليوم الذى يشترى فيه هذا المكان أو يستولى عليه..

بلدياتي هؤلاء يا بوي كان منهم عدد كبير شغله قريب من المقطم، لاحظوا بفطرتهم أن الجبل كله فضاء يحتاج لتعمير سفوح تمتد هابطة قليلا لتلتحم بصحراء المماليك المتاخمة لحي الدراسة. صعب على بلدياتي أن يروا هذه المساحات الهائلة تصفر فيها الريح وهم بلا مأوى. هم يدركون أن الطريق إلى مكاتب الحكومة مفروشة بالذل والهوان أو بالمال المسفوح، ومن لديه المال يضن به على صنف الحكومة، جنس الحكومة، في نفس الوقت لا يحتمل الذل والهوان من موظف، ولا يثق حتى في أي قاض يعوج الطربوش على ناحية ويحكم بأربع سنين في قضايا الدم. وما الداعي لأن يتطوع الصعيدي بنفسه لينبه الحكومة إلى شيء ينتويه. إنه إذا أراد شيئًا فعله في الحال وليحلها بعد ذلك الحلأل، ثم إن احتياجه للشيء لا يعطيه فرصة لأن يأخذ الإذن من أحد.. وهكذا يا بوي هجموا على فضاء المقطم. منهم من اختار رقعة فسيحة في أحد سفوح الجبل أو صحراء المماليك فحوط عليها بعيدان الحطب والبوص والقش وأقام في وسطها كوخًا يأوي تحت سقفه. ومنهم من كان قادرًا فابتنى حجرة بالطوب وحوط على الباقي بسور يحتاط مساحة تكفي لبيت صعيدي كبير. لا شيء أسرع من التقليد في بلادنا المصرية يا بوي. الناس كلهم كحيتة متشردون بصاصون، ما إن يرى الواحد منهم مشروعًا ناجحًا حتى يأخذ نفس الفكرة وينفذها بحذافيرها، ربما بجوار صاحبها الأصلي بقفا غليظ ووجه كالح، ذريعته في ذلك أن الله

مقـسم الأرزاق ولابد أن يرسل لكل واحـد رزقه. هكذا رأى بقـية الصعـايدة من بلدياتى إخـوانهم قد غنمـوا هذه القطع من الأرض البراح التى لا صـاحب لها ينازعـهم فيهـا، فتواتـروا جميـعا على سفوح المقطم وصحراء المماليك، كل حسب قوته وعزوته واجتهاده وجرأته وذكـائه وخبـرته، منهم من حـوط على فدان وبناه فـعلا، ومن حـوط على ثلاثة أفـدنة بنا بعـضـها وزرع البـعض الآخـر حديقـة. هم يدركون أن الأرض ملك للحكومـة، وفى اعتـقادهم أن يوم الحكومة بعام كامل، فإلى أن تنتبه الحكومة وتطالبهم بالجلاء وينازعـونها وتنازعـهم يكون قد حلهـا الحلال الذى لا يغـفل ولا ينام، يكون الظرف قد تغير وتوافرت الفلوس والإمكانيات لمساومة الحكومة. هم أيضًا أذكياء يا بوى ذكـاء حيوانات الصحراء الماكرة القـادرة على التنكر والزوغـان والهـروب فى عـراء الرمـال. لقـد فهموا من مجريات الأمور أن البلاد فيـها أزمة مساكن تعترف بها الحكومة وتعلن عجزها التام عن حلهـا ومن ثم فإنها تتغاضى عن ناس حلّوا مشكلتـهم بأنفسِهم وبنوا لأنفســهم فى أرض حكومية كـان من المفـروض أن تبنيهـا الحكومـة لهم، يعنى لابد أن الأمـر سيكون فى صالحهم فى النهاية يا بوى..

وقد كان يا بوى. اكتسبوا بطول البقاء شرعية البقاء كأمر واقع منذ سنوات طويلة، فمن يلقى نظرة على هذه الأعشاش يدرك لأول وهلة أن الحيـاة قائمة ها هنا منـذ وقت طويل مضى، بهذا تشـهد

الأرض التى رطبتها المياه المتدفقة باستمرار فاختفت بصمة الصحراء، وبهذا تشهد هذه الأكشاك والدكاكين التى تبيع البقالة والخضراوات والسجائر والحلوى واللحوم، وحلاقين وسمكرية وميكانيكية ونجارون وسباكون وقطع غيار سيارات، كذلك تشهد هذه الهوائيات القائمة فوق الأعشاش وقد علاها الصدأ والتراب وهذه الأشجار الوارفة ونباتات الخروع وأشجار الموز والأسوار المخضوضرة..

إلى أن شرعت الحكومة فى تخطيط مدينة نصر فى الطرف الأقصى من صحراء المماليك. وبدأ المقاولون فى البناء لحساب الأهالى العائدين من ليبيا والعراق والكويت ولصوص القطاع العام وتجار المخدرات وكبار التجار الذين أثروا على حساب أقوات الشعب. الحكومة شجعت على البناء وسهلت أموره، وفرت حديد التسليح والأسمنت بأسعار رخيصة، حتى الأرض باعتها لهم بسعر تكلفة المرافق تقريبًا وبالتقسيط المريح. فى المقابل يا بوى كانت هناك صفوف من عرسان وعرايس واقفين بالمرصاد يتسقطون أخبار أى بناء، فبنت لهم الحكومة بعض المساكن الشعبية. فلما فرغت أراضى التخطيط الرسمى تكالب الأهالى على الأراضى المجاورة، حيث التحويطات الكثيرة بوضع اليد صارت فى حكم الملكية الشخصية. قامت سوق جديدة فريدة: وضعوا أيديهم على الأرض يبيعون قطعًا منها لملاك جدد بأسعار باهظة،

العجـيب يا بوى أن واضـع اليد البـائع يستطيع فى النهـاية ـ بلفة طويلة معقدة في دواوين الحكومـة ـ أن يسجل للمشترى. إلى أن فـرغت هذه المساحـات بدورها فبدأت الأنظار تتجـه إلى سفـوح الجبل فى مواجهة قرافة المجاورين، حيث أفقر الفقراء من واضعى اليـد الذين رغم طول مدة وضع اليـد لم يستطيـعوا إقـامة بنـيان واحد، والأكـادة يا بوى أن الحكومـة التى صهيـنت على الحيـتان الكبـيرة فى صـحـراء المماليـك وطرمخت علـى كل المخالفـات لم تتشطر إلا على هؤلاء، طبـيعًا يا خال، لأنـهم أفقـر من أن يساوموا. وبدأ شـبح البلدوزر يطـل عليـهم فى الظهـيرة يا بوى فـالقـوا بأنفسهم فى طريقه تحت عـجلاته بكل جسارة، داس البلدوزر من داسه يا بوى، ولكن سـيل الدم أعجزه عن المواصلة فتوقف ريثما يتشرب أنفاسه وتتشـرب الأرض دم المجروحين التعساء. وهنا يا بوى تذكروا فجأة، أو ربما جاءتهم الأخـبار مؤخرًا أن حسن ولد أبو ضب، بلدياتهم، الذى طـالما اشتـغل معـهم فى تفـتيت الجـبل بالديناميت وحمل جنبة السـمك على رأسه فى الأسواق، قد أصبح بقدرة قادر عضوًا فى مـجلس الأمة، ويستطيع نقل استغاثتهم إلى سمع الحكومة..

فجأة رأيت المـعلم شندويلى يصعد إلى مكتبى، كـالنبى موسـى عليـه السلام يـجر خلفـه رهطًا من بنى إسـرائيل المطاريد، بتـأثر شديد، وعبـر انفعالات هتماء مليئة بالحروف المكتومـة الصافرة،

حكى لى المعلم شندويلى قصة شعبه المختار، وما نالهم من آلام وخسائر فادحة، صار يردد بصوت يكاد يكون باكيًا - وكأننى المسئول عما حاق بهم يا خال:

- «يروحوا فين دول؟! بنى اسرائيل دول اللى تايهين فى صحراء المماليك وجبل المقطم أكثر من أربعين سنة؟! بقى يعنى الحكومة لا منها ولا كفاية شرها؟! خلاص! تدور لهم على متوى يلمهم! ولا يعنى خلاص ما عادش لهم لازمة فى البلد؟! والله الصعايدة لو روحوا بلادهم القاهرة تنتن وما تلاقى لقمة تاكلها! طب هم بكره يرحلوا على الخليج يعمروه ونبقى ندور على نفر بطلوع الروح ما نلاقيهش!!».

جريت إلى سيارتى الشيفروليه السوداء ذات الستائر الحاجبة. بسبوسة بجوارى، وهندى خلفى مباشرة باعتباره حارسى الخاص حامل المسدس، ناهيك عن مسدسى المرخص باسمى والنائم دومًا تحت إبطى. بجوار هندى كل من بربش وغزولى. ومن خلفنا المعلم شندويلى بسيارته المرسيدس العتيقة المجنحة ملآنة بالخلق من بلدياتى. ومن خلفه سيارة أجرة تحمل الباقين..

ذهبنا من فورنا إلى ذلك الخلاء الرابض فى سفح الجبل، حيث تكون القلعة على الجانب الآخر من الطريق، ومن بعدها حوش العائلة الخديوية الشبيه بقصر من القصور الملكية بحديقته الكبيرة الزاهرة. أمام حوش العائلة الخديوية صفوف من المقابر الخاصة

بعائلات أخرى كبيرة، بعضـها داخل أحواش وبعضها فى العراء ـ مكانها الآن طريق الأوتوستراد وهو وحده قصة سأحكيها فيما بعد ـ أمام هذه الصفوف من المقابر توجد قضبان سكة حديدية خاصة بالقطار الحربى المتخصص فى نقل الأسلحة والذخيرة بجميع أنواعها من حلوان إلى معسكرات العباسية. هو طريق موحش يابوى، لكن بعض سكان حى قايتباى الذى يخدم هذه المقابر ويعيش عليها تخصصوا فى التربص بهذا القطار الحربى من أيام الجيش الإنجليزى، فنظرًا لأنه يمشى ببطء شديد خاصة وهو يجتاز هذه المنطقة فإن مجموعة من الولاد المخربشين يربضون تحت الجسر ثم يقفزون إلى العربات، ليدحرجوا الأسلحة وصناديق الذخيرة وشكائر المؤن والتموين فتتساقط على الأرض، حيث تكون بقية أفراد العصابة قد لاحقوا الجسر لتجميع ما ألقى لهم..

وكنت أعلم منذ مدة أن نفرًا من بلدياتى الذى استولوا على رقع فى هذا المكان الموحش البعيد وحوطوا عليها يتخذون من أكواخهم هذه مرابض ومحطات ومخازن لهذه العصابات، إذ يبادر الواحد من أفراد العصابة بتسريب المسروقات إلى كوخ من هذه الأكواخ بسرعة هائلة ليمشى بعد ذلك بأعصاب مطمئنة يترقب من قد يستوقفه أو يشتبه فيه. قل إن هذه المسروقات مآلها كلها فى النهاية لمن قاموا بإخفائها من بلدياتى. فحينما يقفل الأولاد

عائدين، يتجمعون فى كـوخ من أخفوا عنده هذه المسروقات، حيث يساومهم على شرائها، هو وشطارته، وغالبًا هو الكسبان يا بوى، يأخذها بتراب الفلوس، يبـيعها بأغلى الأثمان للصعـايدة المقتدرين فى القاهرة، أو يصدرها للصعيـد الذى لا يشبع من السلاح، سيما وأن مـعلمى شادر السـمك الذين يقـعون فى ضـديات مسـتمـرة يعلنون الحـرب على بعـضـهم البـعض دائمًـا أبدًا، ولكن دون أن يظهـروا فى الميـدان، إنهم يكتـفـون بشراء الأسـلحة والذخـيـرة وتكديسها تحت أيدى صبيانهم ورجالهم هنا أو فى الصـعيد، لأنهم هم الذين يخـوضـون الحـرب الضروس نـيابة عن المعلمـين، ومن يموت منهم فالمعلم يتكفل بعيـاله، أو يسـجن فالمعلم متكفل به على أكمل وجه..

كنت أعـرف هذا يا بوى بل كنـت فى يوم من الأيام ضـمن من يفعلون هذا. المـهم يا بوى، أوقفنا السيـارات ومشينـا على أقدامنا بين برك ودروب ملتوية. المكان موحش جـدًا ولكنه جميل يا بوى: مجموعة أكواخ متناثرة، بين الكوخ والآخـر مسافة يقطعها السائر فى مشـوار سخن، وبين التحويطة والأخـرى مرتفعات وصـخور وأتربة وقمـامة، ولكن كل كـوخ وكل تحويطة تنبع منه وتحـوطها أشجـار وارفة وتكعيـبات عنب، فوجـئنا بسيـارات ملاكى فخـمة راكنة بحـذاء بعض الأكواخ فـعجـبنا كيف دخلت إلى هنا، رائـحة احتـراق الحشيش تملأ أنوفنا تستـدرجنا للنشوة. حقًـا يا خال إنه

لمنتج عظيم، فأصحاب هذه السيارات الفخمة ناس من علية القوم من كبار الفنانين وكبار الموظفين والرأسماليين، جاءوا إلى هنا لتدخين الحشيش فى أمان الله بعيدًا عن دوشة القاهرة اللعينة. ثمة موسيقى شجية يصحبها غناء أجش لكنه مستساغ ومؤثر. قال واحد ممن يسيرون معنا إن أحد أشهر كبار الملحنين زبون يومى دائم عند صاحب هذا الكوخ، يحشش ويلحن، فقررت يابوى أن أتخذ لى أنا الآخر منتجعًا ها هنا ابتداء من اليوم..

تجولنا فى المنطقة من أقصاها إلى أقصاها، عاينتها جيدًا يابوى، تقابلت مع الكثيرين القاطنين فيها، استمعت إلى المشكلة من جميع أهلها وكيف أنه قد بات من المستحيل عليهم اقتلاع جذورهم من هذا المكان، أكملنا الحديث فى قعدة الملحن نفسها، فتعرف علينا وتعرفنا عليه، كان ضريرًا، وله ألحان كثيرة تذاع فى الإذاعة، واسمه سيد أبو العرب، فى هذه القعدة استراحت أعصابى يا بوى، هفهفت روحى مع النسيم العليل والهواء النقى. حقًا يا خال، أولاد الفرطوس بلدياتى وضعوا أيديهم على أصح وأجمل مكان فى القاهرة كلها. قديمًا حظى الموتى بحى يرم عظامهم، والآن يحظى به بلدياتى بالمجان، فليكن من نصيبهم إن شاء الله..

الولد بسبوسة استأذن وقام بعد حجرين، قال إنه سيلف لفة ويعود. وبعد أن خطا خطوتين أشار إلى غزولى أن يتبعه، فتبعه.

القعدة احلوت يابوى، وسيد أبـو العرب صوته فاتن، وعوده أفتن، والـجو أكثر فـتنة، أما الحشيشة فعلى الكيف البـريمو. بعد حوالى نصف ساعة عاد بسبوسة وغزولى وقد ظهر على وجهيهما تعبير شيطانى وحد بينهما. فملت على بسبوسة هامسًا:

ـ «ما الأمر يا ولد الفرطوس؟!»

قال مبتسمًا فى انتصـار شيطانى:

ـ «سـأقول لك بعد قليل!!»

ثم بدأت ألاحظ أنه يتـململ، ويتعـجل انصرافنا قـبل انصراف ضوء النهـار. عند خروجنا اقتـادنى نحو أعماق بعـيدة على أرض منبسطة مستـوية، يبدو الجبل فى نهايتها كـحائط بارتفاع ناطحة سحاب، وعرض شارع بأكمله. أشار بذراعيه حولنا قائلاً:

ـ «ما رأيك فى هذا المكان؟!»

ـ «ساحر يا بو العم!»

بغمزة من عينيه أضـاف:

ـ «تخيل هنا صـفًا من العمائـر الكبيرة على نظام ڤيـلات فوق بعـضها؛ أو ڤـيلات مـتجـاورة بحدائق! شف مـاذا يمكن أن يدفع فيها!!»

أصابتنى الغمزة فى الصميم يا بوى:

- «كم تبلغ هذه المساحة فى نظرك يا بسبوسة؟!»

- «حوالى سبعة أفدنة!!»

- «يا بو..و..ى! تصلح منطقة سكنية كاملة!!»

- إسكان فاخر على شرط! قرية سياحية! مدينة ملاهى مثلا! مشروع العمر يا حسن بك!!»

لعبت «حسن بك» هذه بأعصابى لعبًا حلو المذاق والله يابوى. ومع أنى شعرت أن بسبوسة يقصد بها بث الحماس فى نفسى وإشعارى بأننى لو نفذت هذا المشروع فإن البكوية تليق بمقامى، فإننى رغم ذلك أحببت اللقب وتمنيته بل اعتبرته فألاً حسنًا يابوى. إن اسمى نفسه حسن، فلقب البكوية وإن ألغته حكومة الثورة لم ينقرض، ويظهر أنه بات قريبًا من اسمى يا بوى. وهكذا رسمت الجدية على وجهى، تقمصتنى روح البكوية الحقة، فأشرت لبسبوسة فى أمر حاسم:

- «من غد يا بسبوسة تبعث بالرجال لتحويط هذه المساحة كلها بالأسلاك الشائكة! ويستحسن أن تقوم ببناء حجرتين ثلاثة لخفير ينام فيها لحراستها! والخفير نفسه يقوم بزراعة السور كله ساير داير بأفرع الفل والياسمين وشجر الموز والخروع! حتى لو اقتضى الأمر أن نرسل لها سيارة بفنطاس الماء كل يوم إلى أن يكرمنا الله ونتمكن من إدخال المياه والنور فى هذه المنطقة كلها!!»

هز بسبوسة رأسه فى اقتناع تام، بثقة من كان متأكدًا من نجاحه فى إغرائى بوضع اليد على هذه المساحة اللقطة،، ثم استدرك بلهجة ذات معنى:

- «هذا رزق جاءنا لحد عندنا! وما يجرى على غيرنا يجرى علينا! لن نكون الخاسرين على كل حال!» انشد عقلى يا خال، انشغلت فى التفكير، رحت أتصور منظر مدينة على الطراز الحديث يؤمها السياح والرواد من علية القوم الأثرياء، ونهر الفلوس الذى يمكن أن يتدفق علىّ وعلى أولادى وذريتى. ويظهر يا خال أن الملعون بسبوسة قرأ أفكارى، فأضاف بلهجة من يضع شرطة اعتراضية:

- «لابد أن يكون لنا من الحب جانب خل بالك!! نحن طبعًا رجالك! تكون لنا مساكن فى هذه المدينة! وعلى كل حال تاهت ولقيناها يا حسن بك! لماذا نكلفك؟! أنا وزملائى من الشلة الوسخة كل واحد يحوط له على مساحة معقولة من هذه الفدادين التى بلا صاحب! مثلنا مثل أى واحد من هؤلاء! نحن لسنا أقل منهم فى شىء! نحن الذين بدعنا الفتاكة والفهلوة والضحك على الحكومة!! أنت تحوط على هذه السبعة الأفدنة! وأنا سأكتفى بهذه المساحة التى ستفصل بينك وبين العشش! وأما غزولى وبربش وهندى والمعلم شنديلى لو أراد فكل منهم أمامه البراح كل واحد يحوط على المساحة التى يرى أنه قادر على الانتفاع بها!!»

قلت برضاء تام:

ـ «عداك العيب يا بسبوسة! وماله! ربنا معنا! من يدرى؟ ربما أكرمنا الله وأصبحت ملكنا فعلا!!»

ـ «هى خلاص أصبحت ملكنا من الآن!!»

هكذا قال بربش بكل ثقة. فنظرنا جميعا إليه فى إعجاب كأنه قد منحنا صك الملكية بالفعل يا خال، وضوعفت حماستى بصورة غير طبيعية. فشوحت بعصبية:

ـ «المهم التنفيذ فورًا يا بسبوسة!!»

شوح بسبوسة مؤكدًا:

ـ «من صبيحة ربنا سيجىء الأنفار بالأسلاك الشائكة والطوب والشتلات! دع الأمر لى! اعتبره قد حصل!!»

ابن الفرطوس نفذ كلامه بالفعل يا بوى من اليوم التالى. فبعد حوالى ثلاثة أيام لا أكثر فوجئت به يقدم لى فاتورة الحساب. كانت كبيرة على عكس ما توقعت، لكننى سرعان ما فطنت إلى أنه قد حملنى تكاليف العملية كلها: مساحتى ومساحاتهم، وبدلا من عشرة أنفار اكترى ثلاثين لكى تنتهى العملية فى زمن قليل وتصبح أمرًا واقعًا. قلت لا بأس فهم رجالى واليد الواحدة لا تصفق. ذهبت فى مشوار سريع خاطف للمعاينة ولتعيين خفير من بلدياتى اختاره المعلم شندويلى على ضمانته، ثم عدت فى ذلك

اليوم فرحًا إلى الشقة التى استأجرها لنا بسبوسة فى حى المنيل فى مواجهة بر الجيزة لنشوف مزاجنا فيها. وكان مقررًا أن نستمع فى تلك الليلة إلى نص الاستجواب الذى كلفت بربش بكتابته لكى أحفظه جيدًا وألقيه فى البرلمان بين يدى الوزير المختص ومحافظ القاهرة. والواقع أننى لم أكلف بربش، بل لم يخطر هذا على بالى يا بوى، إنما خطر على باله هو، إذ رأيته فجأة يسألنى فى اهتمام شديد:

- «هل حضرت الكلام الذى ستقوله فى حضرة الوزير؟ هل عرفت أولا معنى الاستجواب؟! معناه أن تعرض أمام الوزير المختص وزملائك الأعضاء مشكلة كبيرة تخص أهل دائرتك أو أى فئة من الشعب! ثم تطلب من الوزير إيضاحات حولها!! فإذا اقنعك بالوثائق والأرقام والبيانات الصحيحة أن موقف حكومته سليم وأنها غير مقصرة وغير متراخية فى أداء واجبها بالنسبة لهذه المشكلة بالذات! كان بها فتشكره وتعتذر له!! وإذا لم يقنعك فإنك تحاول إقناعه وإقناع البرلمان بسلامة طلبك وبضرورة أن تتخذ الحكومة فيه موقفًا إيجابيًا يعنى تبدأ فى حل المشكلة بالفعل!! وهذا بالطبع يتوقف على مدى استيعابك لحقيقة المشكلة وإلمامك بكل تفاصيلها الواقعية فلربما استطعت أن تثبت كذب الوزير فى بياناته!! أنت وشطارتك وقدرتك على الكلام والتأثير! ولكن! دعنى أكتب لك هذا الاستجواب! سأعرض المشكلة جيدًا من ناحية! ومن

ناحية أخرى سأضع مجموعة من الأسئلة المحرجة لأحاصر بها الوزير حتى يعترف بحقيقة موقف الحكومة من مسألة كهذه تهم عشرات المئات من الأيدى العاملة التى لا غنى للقاهرة عنها وفى نفس الوقت لا يمكن ترحيلها إلى بلادها بعد أن استوطنت هنا عمرًا طويلاً!! المهم الآن يا حلو أن تفتح مخك معى! تصحو! تحفظ الكلام جيدًا! صحيح أنك ستقرأ من الورق ولكن يجب أن تتدرب جيدًا على النطق السليم للكلمات الفنية! سأدربك فى يومين اتنين فلا تحمل همًا!!»

عندما بدأ بربش يقرأ علينا نص الاستجواب يا بوى تيقنت فى هذه اللحظة فحسب أننى بالفعل فى البرلمان. هذا البربش المتشرد المخربشاتى مخزن ثقافة يا بوى، ولاأدرى كيف يكون هكذا ويتشرد؟! يملك كل هذه المعارف والمعلومات ويشتغل لصًا نتنًا بدل أن يكون لصًا محترمًا. وكنت أظن أن حرصه على قراءة الجرائد والمجلات كلها هو الذى علمه السياسة، فإذا هو يخبرنى أن فهمه فى السياسة أصلا هو الذى دفعه لقراءة الصحف من الطفولة حينما كان فى البلاد سياسة حقيقية وساسة حقيقيين وصحف حقيقية لا نشرات إخبارية حكومية. لقد تعلم السياسة فى الشارع وعلى المقاهى وفى البيت لأن جميع الناس كانوا آنذاك يشغلون أنفسهم بالسياسة. وليست الصحف هى كل ما يقرأ بربش، إنما هو لا ينام مطلقًا إلا بعد أن يقرأ فى السرير ساعتين

أو ثلاثة فى كتاب يشتريه أو يستعيره أو يستأجره، مما جعلنى أحسده وأتمنى لو فعلت مثله ليستنير مخى الصعيدى الصرف ما دمت سأشتغل بالسياسة كما نصحنى هو نفسه..

كلام كبير يا بوى، لا تقل لى مرافعات المحامين فى محاكم الجنايات فى الأفلام، لا ولا خطب عبد الناصر نفسه. كلام يهز يا بوى، وفيه معلومات وأرقام وبيانات أتى بها الخربوش من جهات متعددة لم أكن سمعت بوجودها من قبل ولا أعرف طبيعة عملها. صور من الواقع، مقارنات بين المحظوظين والتعساء كيف يعيش هؤلاء وهؤلاء.. إلخ.. إلخ.. صاح غزولى منبهرًا:

- «يا ابن الكا..ا..لب..! كلام عتيق لم نسمعه من أيام سعد زغلول ومصطفى النحاس!!»

وقال بسبوسة:

- «دماغه جوهرة هذا الولد المتعوس!»

وقال هندى:

- «يضرب ويلاقى!»

وعلق بربش فى زهو:

- «الأهم من كل هذا أن الكلام فى النهاية لا يسىء لأحد! كما أنه لا يصلح دليلاً لاتهام قائله بأى قذف أو عيب!! لقد راعيت فيه تجنب المآخذ القانونية المحظورة!! استخدمت لغة السياسة وأصول

الحوار البرلمانى المحترم! كيف أستجلب تعاطف البرلمان كله مع مشكلتى! لقد كنت طول عمرى أحلم بأن أكون سياسيًا وبرلمانيًا ورئيسًا لحزب! هذا الحلم هو الذى ضيع مستقبلى الدراسى وشردنى من السجن مع الوفديين إلى مصر الفتاة إلى السجن مع الإخوان المسلمين ثم مع الشيوعيين!! ضعت بين جميع الأحزاب والفرق السرية فلم أنسجم مع أى أحد!! وأفقت فى النهاية على موت أبى ومن بعده أمى ولم يعد أمامى سوى احتراف الشغب السياسى؛ تستأجرنى الأحزاب والفرق لإثارة الشغب فى أى محفل ومحاولة إفشال أى مؤتمر والقيام ببعض العمليات السرية لكنها كلها أوصلتنى إلى احتقار الجميع والتمرد على الجميع والشغل ضد الجميع لحساب الجميع أو لحساب الشيطان إن دفع لى أجرًا مغريًا!! ثم كسدت هذه السوق فانتميت إلى شلتكم الوسخة! وهأنذا أعود مرغمًا للاشتغال بالسياسة ولو من وراء ستارة الأراجوز ـ لمؤاخذة يا حسن بك!!»

صحت فيه مبتهجًا، متغاضيًا عن نكته الحراقة:

ـ «إعتبر نفسك صرت برلمانيًا يا بربش! فأنا هو أنت! وكل ما تحلم به لقنه لى وأنا أحققه نيابة عنك!!»

ثم إننى أخذت الأوراق منه، انزويت بها فى الكرسى الأسيوطى متربعًا، صرت أقرؤها. كان قد كتبها بخط كبير جدًا، وحروف مشكولة، مما سهل علىَّ نطقها بلذة فائقة. أحببت الكلام يا خال،

عشـقتـه لما فيه من حـلاوة وطلاوة ومعـان كبيـرة فى السيـاسة أتعـرف عليهـا لأول مـرة وأعرف من خـلالهـا معـنى أن يشتـغل الإنسـان بالسيـاسـة وأن يكون برلمانيًا بـالذات، ومعنى البـرلمان، وكيف أنه صـاحب التشريع لكل القـوانين والدستور. من فـرحتى بالكلام وبالاكـتشـافـات،وفرحـتى الأكبـر بالدور الذى وجـدتنى سأمثله، كدت أحفظ اللام بعباراته عن ظهر قلب..

تكررت القراءة خلال يومين آخرين، مـعهم أحيانًا، ومع نفسى أحيـانًا، أمام المرآة تارة، وأمـام زوجتى تارة فكنت كـمن يستـعد لامتحان الكفاءة يا بوى. والغريب المدهش يا بوى أننى يوم قراءتى للاستجواب أمام هيئة البـرلمان كلها فوجئت بأننى أتكلم بطريقتى الصعيـدية البالغة الوضوح دون أن أقـرأ من ورقة، بل أضفت إلى ما فى الورقة ما ألهمنى به اللـه من عبارات مؤثرة، خطبت بها ود الحكومة، وحمـدت لها سهرها الدائم فى خدمـة الشعب، وكيف أن حرصها الشـديد على فئات الشعب العاملة، وخاصـة أبناء الصعيد الذين يقدمون لـنا أجل الخدمات سوف يجعلهـا تمد يد العون لهم، دون أن تكلف نفسـها شيـئًا، فالأرض ملك للـحكومة، وإذا لم تكن الحكومة قادرة على بناء المساكن فعلى الأقل تقدم للناس تسهيلات أهمها الأرض التى لن تكلفها شيئا، وأن الذين سيبنون على نفقتهم يمكن أن يتكفلوا بنفقات المرافق، بل إن الحكومة سـتستفيد بنسبة العوايد المقـررة على المبانى، إن قرارًا حـكيمًا من الحكومـة يسمح

لهؤلاء الناس بالبناء على الأماكن التى عششـوا فيها واستوطنوها كفيل بحل مشاكل سياسية واقتصادية واجتماعية كبيرة، ويساهم فى تدعيم الأمن.. إلخ.. إلخ..

عندما رأيت ملامح التأثر بادية على وجوه المسـتمعين يا خال، وأنهم ينصتون باحـترام كبير، أيقنت أن شخصـية حسن ولد أبى ضب القديم، الحـرامى النتن رد السجون، قد انمحت، وحل مـحلها لص كبير واعر، لص شرعى يحمـيه الشرع يستره القانون يعطيه كل يوم ما يسرقه. عجبت من تصاريف هذه الدنيا العجيبة الغريبة بأوضاعها المقلوبة، لكننى فـرحت مع ذلك يا خال، وقلت لنفسى: مالى أنا؟ هل أنا المسـئول عنها؟ إن اسمهـا دنيا، يعنى من الدناءة. ولا يمكن أن تكون الدنـيا دنيـئـة والزمن خـوان كمـا يقـول المثل الشائع وأكون أنا من دون الخلق نبـيلا أصيلا. ألسنا نحن أولادها وهى أمنا الرءوم؟ خـلاص! دناءة بدناءة فالشـاطر هو الفائـز أما الخاسر فلا عذر له، ولا عزاء للشرفاء التعساء الواهمين يا خال..

بعـد مشـاورات ومناوارات ومداولات بـين البرلمان ومـجلس الوزراء استمرت أيامًـا طويلة صدر قرار مشفوع بموافـقة شفوية من أبى عبـد الناصر بأن تبـاع الأرض لشاغليهـا بأسعـار رمزية تزيد عن تكلفة المرافق بقليل..

هب للنبى، نصبنا معسكرًا هناك، اقمنا احـتفالا من ليالى العمر لا أنساه يا خال، كنت فيه العـريس وصاحب الفرح، أعلنت فيه أن

هذ ه المدينة سيكـون اسمها مـن الآن: منشية ناصـر، تقديرًا لأبى عبـد الناصر على جمـيله مع ولد بلده. وصحيـح أنهم على مرمى حجر منا يقيمون مدينة جديدة اسمها مدينة نصر، إلا أنها من فعل الحكومة أمـا مدينتنا هذه فمن فعـل الشعب تحية لرئيـسنا المفدى، فهـتف ولد بلدى كلهم، ورقص الخيل على نغـم المزمار الصعـيدى العظيم، وانتشى المقطم من أطنان الخمر والحشيش التى دخلت فى نخاع صخوره ليلة كاملة..

دبت فى المنطقـة خليـة نحل عـاملة، حـركـة بناء على جـمـيع المسـتويات يا بوى من حـجـرتين مسـقوفـتـين بعروق الخـشب والبوص، إلى ڤيلات مـتباعدة لا يقدر على تكلفتهـا سوى مليونير ملآن، إلى عـمائر عالية يدفع السكان تكاليـفها مقـدمًا، إلى حظائر للسيـارات، ومخـازن ودكاكـين. ثم ظهر المخبـوء يا بوى، إتضح فجأة أن هذه الأرض الشاسعـة لها ملاك بوضع اليد لا نعرف أين كانوا مـختـفين ولا كيف علمـوا بالتطورات، معظمـهم من مطاريد جبـل الصعـيد القدامى، الـذين تلقوا أوامـر من مبـاحث الصعـيد بالرحيل إلى أى مكـان بدلاً من اغتيـالهم أو سجنهم، فعـاشوا فى مـغارات فى جـبل المقطم يفـرضـون الإتاوات على كل من ينتـفع بالمكان من حولهم، أو يفرضون حمايـتهم على المنشآت والأعمال. وكان كـل واحد منهم قـد خطط للاسـتيلاء على مـساحـة معـينة ينقض عليـهـا فى الوقت المناسب. وإذا بابن خـالتى دياب من بين

هؤلاء يا بوى، وكنت أظنه انقرض من الحياة لكثرة غيبته، فإذا بى أمامه وجهًا لوجه يوم دعونى لفض النزاعات الدامية التى نشأت، فإذا هو يعرف كل أخبارى. بالحضن يا دياب كيفك يا حسن، بينى وبينك فرحت بظهوره واعتبرت أن السماء باركتنى بواحد من صلبى يحمى ظهرى، فكان لابد أن أريحه على الآخر يا بوى، تركته يبيع للخلق أجزاء من المساحة التى زعم أنه واضع يده عليها منذ عشر سنوات. أما كيف يوثق للمشترين عقود البيع فهذا ما لا شأن لى به كما قال. فلما كثر ظهور أمثاله ممن يبيعون للخلق عرفت أنهم يبيعون للمشترين وهمًا، إذ يكتب الواحد منهم للمشترى تنازلاً عن قطعة الأرض - التى يحددها مساحة واتجاهات - مقابل خلو رجل كبير، يعتبره المشترى بمثابة خلو رجل مهما كان يعتبر نوعًا من البقشيش بالقياس لثمن قطعة أرض كهذه فى مكان كهذا. احتفظ دياب لنفسه بقطعة تكفى لبناء عدة بيوت صعيدية واسعة، ثم شرع فى بناء عمارة كبيرة بالمبالغ التى اغتصبها عنوة واستقدارًا أما أنا فقد احتفظت بدياب نفسه، ضممته للخفير وادخرته ليوم قادم بإذن الله..

بسيارتى الملاكى سافرت إلى الصعيد، زوجى بجوارى، وهندى حارسى الخاص فى المقعد الخلفى، وبجواره بربش الذى أصبح سكرتيرى الخاص ومدير مكتبى ومدير أفكارى ومثقفى ومنقذى من كل ورطة طارئة. وقد درب نفسه على نطق حسن بك ودربت

نفسى على نطق الأستاذ محمد. قابلتنا البلاد باحتفال صاخب، واتضح أن خبر بلدياتى مع منشية ناصر قدوصلهم، فارتفعت قامتى إلى عنان السماء وأنا أتلقى المديح والثناء، وأعطى وعودًا مؤكدة بالنظر فى أحوالهم فى القريب العاجل إن شاء الله، وأوزع أنصاف الجنيهات وأرباعها على الفقراء. فى الليلة الأولى لوصولنا نبتت الفكرة فى ذهن بربش فنفذناها فى الصباح، التقينا مع مجموعة من الشبان كانوا تعلموا قيادة السيارات فى الجيش أثناء فترة التجنيد الإجبارى، استكتبناهم طلبات لبنك ناصر ليعطى لكل منهم سيارة بالتقسيط المريح لتشغيلها فى نقل الركاب أو نقل البضائع كل حسب طلبه، أخذ بربش على عاتقه مهمة متابعة هذه الطلبات فى بنك ناصر الإجتماعى، والإلحاح بكل وسيلة حتى يوافق عليها. والحق أنه لم يدخر وسعًا يا بوى، فلم تمض شهور ثلاثة حتى كان الجميع قد تسلموا السيارات ماركة الرينوه والسوزوكى والهوندا والزاستافا، فكان لهذه الحركة دويها الكبير يا بوى.

أما فى الليلة التالية فقد شرفتنا الشيخة سعادة بمرافقتنا إلى مكتب المحامى عم زوجى فى أسيوط، حيث أبرم لنا عقد شركة مساهمة مكونة من العبد لله وهليل وأبيه وأولاد خرابة، لإنشاء مزرعة كبرى للخيول والعجول والماشية مقرها منشية ناصر، يلحق بهامصنع لمنتجات الألبان، وتعتبر مزرعة البلدة فرعًا منها

للتوليد والتسـويق، على أن يتولى إدارة المركز الرئيسى دياب ابن خالتى لأنه يعتبر موسوعة فى علم الخيل طباعه وأنواعه وأسواقه وأمراضه وعلاجه فضلاً عن خبرته الكبيرة فى تدريب الخيل على الرقص والسباق..

أثناء عـودتنا لحق بنا هليل والشـيخـة سـعادة لمعـاينة المكان. بمجرد رؤيتهم له بلغ سرورهم أقصى مداه. اقتطعنا مساحة تقدر بثلاثة أفـدنة خصـصناها للمزرعـة والمعمل، وألحـقنا بها حـديقة تحوى كل نادر أصيل من الأشجار، يتوسطها قصرى هذا الفخيم، الذى انتدبت لإنشائه مهندسا كبيـرا شهيرًا يعرفه بربش بحكم أنه مخطط القاهرة الكبرى ولديه شركة مـقاولات ضخمة وذات فروع دولية. أطلعـنى المهندس على رسومـات كثيـرة وأقنعنى باختـيار واحد منها يشبه القـصور الملكية أعجبتنى فيه شـرفاته وكرانيشه وحليـاته، هو ذلك الذى نجلس الآن فى إحـدى شرفـاته نملى هذه الأمالى، مطـلين على القاهرة من جـميع الاتجاهات فنراهـا بجلالة قدرها مجرد علب صـغيرة كصناديق القمامة مـرمية تحت أقدامنا فى سـفوح سـحيـقة غـائرة فى الأرض. المهندس ـ بارك الله فى صحـته وأولاده وعلمـه ـ هو الذى صمم ونـفذ جمـيع ما يتـعلق بالقصر من مداخل ومنافذ وطرق ومسالك. هذا الطريق المرصوف الذى يبدأ من داخل الحديقة من أمام القصر مباشرة لينتهى خارج الجبل فى السفح الموصل إلى القلعة مـعمول على حسابى يا بوى.

هن قرشك ولا تهن نفسك، فرجل مثلى وفى وضعى سوف يزوره ناس كثار يركبون سيارات فارهة فلابد من تسهيل الدخول عليهم وإيجاد مكان آمن يركنون فيه سياراتهم براحتهم. وقد صح توقعى يابوى، ففى هذا القصر تعشى وتغدى وسكر وحشش وقامر خلق غلاظ يقشعر بدنك إن ذكرتهم لك، ناس من أعلى علية القوم يا بوى، صاحبونى وانتفعوا بمعرفتى وجمعوا من ورائى ثروات طائلة هائلة بارك الله لهم فيها. وفى هذه الحديقة غنى ورقص ومزك أكبر مشاهير المطربين والراقصات والموسيقيين فى حفلات أين منها حفلات أضواء المدينة.. أمال يا بوى.

دودة

استغرق بناء القصــر حوالى نصف عام يا بوى. وكان المهندس الكبيــر قد بدأ بتعبــيد الطريق وتمهيــده وتبطينه بالحجر المبـشور تمهيدًا لرصفه بعد الفــراغ من البناء. وقد سهل ذلك دخول عربات الأسمــنت والحجارة والــزلط والحديد. كـانت الحديقــة قد أقيـمت بالفعل وتولاها بــستانى مــحترف أتى بأشــجار كبـيرة زاهرة ثم رشقها. كـذلك أقيمت المزرعة والمعمل بواسطة خبراء تعـاقد معهم بربش من أسـاتذة كلية الزراعــة. بعدها مــباشرة شــرعنا فى بناء القــصر جـاعلين أبوابــه الأساســيــة تفتح عــلى جهــة القلعــة، مع الاحتفــاظ بممرات مرصوفة بالحصــاء تربطه من الخلف بالمزرعة. وحــينما ارتفع بناء الــقصــر بطوابقه الخــمــسة العــالية الأســقف والشرفات أصبح يحلو لنا السهــر كل ليلة فى الحديقة نتفرج على البناء نتخيل شكله بعد أن يتم دهنه وتلوينه على النحو الذى رأيته فى الماكـيت المجســد، الذى نضعــه أمامــنا كلعبــة أطفال ضــخمــة ونتفرج عليه مسـحورين من جميع جهاته.

كانت زوجتى قد أنجـبت ابننا البكرى أدهم، وكان قد تم فطامه منذ أشهــر قليلة حين علمت بأنها قــد حملت، فأسعـدنى هذا النبأ. صــارت قــعـدتنا على المســاند والشلت تطول فى الحــديقــة أمــام التليـفزيون الذى يعــمل بالبطارية السائلة، فــتروح زوجــتى تحلم بشغل كل غرف القصر التى بلغت ســبعين غرفة بخلاف الردهات ودورات المياه والمطابخ والحمامات المتــعددة. وكنت أداعبها وأقول

لها إن عـيها أن تنجب لى عـيالاً بعدد هذه الغـرف، وكان المهندس أعطانا عددًا من المجلات الأجنبـية الملونة تعرض ألوانًا وأشكالاً من الغرف المؤثثة. فهذه أنماط غـرف السفرة وتلك من غرف الصـالون وثالثة من الاستراحات وهكذا وعلينا أن نختار منها ما يعجبنا لكن المهندس بعث لنا بمهندس آخر يدعى مـهندس الديكور تولى جميع الاختيارات الملائمة لطراز القصر كما قال..

فتك فى الكلام يا بوى. فلابد من الإشارة إلى أن سـر الشيخة سعادة الباتع هو الذى غض عنا بصر المتـطفلين المتجسسين الذين يمكن أن نقدم بـسببـهم إلى المدعى العام الاشتـراكى أو نقع تحت الحراسة. ذلك أن شـخصيات كبيرة جدًا فى الدولة كانت تعتقد فى الشـيخـة سعـادة ولا تكف عن اسـتدعـائهـا لقراءة مـسـتقـبلهم السيـاسى بل ومسـتقـبل البلاد فى ظلهم، وكـثيـرًا ما كنا نفـاجأ بالسـيارة الليـموزين السـوداء بسـائقهـا ذى الملابس الموشومـة تزحف نحونا بـأضوائها، ثم تتـوقف على مقربـة، وينزل السائق مهرولا ليـفتح الباب الخلفى للشيخـة، وكانت توحى لكل المتصلين بها أنها من أصدقائنا، وأننا من عائلة تعد من أغنى أغنياء الصعيد، وأننا كذلك من أصل عربى منسب يمتد إلى الإمام الشافعى رضى الله عنه، سيما وأن لهذه النسبة ادعاء فى شجرة العائلة إن بالوهم أو بالحقيقة وكان أعمامى المشايخ دائمى الترديد لهذه المقولة..

الشيـخة سـعادة كـانت بارعة أشـد البراعـة يا خال فى عـقد الصلات مع الأسر العريقة فى حكم البـلاد سواء من استمر منهم

فى الحكم بعد الثورة أو من ابتعدت عنهم العزوة. كل أسرة تتصل بها يا بوى كانت تدعونى للحضور فى سهراتها كى اختلط بهم أتعلم منهم فنون التعامل مع الحكومة ومع الناس ومع الحياة، حتى لقد أصبحت رغمًا عنى أقلد الدكتور سيد مرعى فى التحدث بصوت عريض مستريح النبرات ملآن بالشبع، وأعتذر عن كل ما يخيل لى أنه إساءة للغير، وأشكر الناس عمال على بطال، بسبب وبدون سبب، وأغدق على كل من ألتقيه من سعاة البرلمان وصغار موظفيه، وأبعث بالهدايا السرية لبيوت كافة المسئولين: أقفاصًا ملآنة بالطيور الداجنة والحمام والفاكهة النادرة وأجولة الأرز الأبيض وأفخاذ الضأن، فى المواسم والمناسبات، حتى باتت أمورى كلها مقضية بعون الله، أصبح هناك من يتطوع للدفاع عنى يا بوى، وتقديم خدمات لم أطلبها يا بوى، وتلك هى الحياة فى مصر يا بوى: تدفع ثمن كل شىء تعيش ملكًا متوجًا يا بوى، ومن يزعم غير هذا فهو فلحاس يضحك على نفسه..

ذات ليلة هلت علينا الشيخة سعادة ونحن جلوس: زوجى وأنا وابننا أدهم يزأط بين الأشجار، والشلة الوسخة شغالة فى رص الحجارة. التليفزيون أمامنا يذيع الأغنيات الوطنية، ويقطع الإرسال من حين لآخر لينتقل الميكرفون إلى إذاعة خارجية من مطار القاهرة، حيث نرى الرئيس عبد الناصر وهو يستقبل وافدًا جديدًا من الملوك والرؤساء العرب، حيث أن اجتماعاً للقمة سوف

يعقد فى القاهرة لإيقاف المذبحة التى يقيمها الملك حسين للفلسطينيين فى الأردن، والتي أطلقت عليها الصحافة مذبحة أيلول الأسود، مما يجعل بعض العامة من بلدياتي يتصورون أن أيلول الأسود هذا رجل أسود القلب يذبح إخواننا المسلمين، فصرخ فى وجهى بانفعال وأسى: كيف يتركون أيلول الأسود هذا يذبح أشقاءنا؟! خذونى إليه وحدى وأنا أطحنه!!..

كان يخيم علينا جو من السكينة أميل إلى الحزن الدفين الغامض. قالت الشيخة سعادة وهى تتابع حركة الرئيس عبد الناصر وهو يستقبل الملوك والرؤساء. جعلت تهمهم بكلمات مضغمة وبصوت فيه رهبة، ثم هتفت فجأة كأنها تلقت خبرًا مزعجًا:

ـ «اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله! اللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!»

وراحت الدموع تنهمر من عينيها بغزارة كأنها تبكى لسنين طويلة مضت يا خال..

انزعجنا بالغ الانزعاج يا خال، تشاءمنا، توقعت أن تكون أشفقت على الرئيس من هذه الدوخة بين الملاعين الذين لا يحلو لهم التشدد إلا مع أنفسهم وأشقائهم ولا يضمر أحدهم للآخر إلا كل شر وضغينة منذ أيام الخطف والهجمات إلى أيام النفط الذى اتضح أن أعماقنا جميعا أسود منه:

ـ «وحدى الله يا ستنا الشيخة! ما الذى استوجب كل هذا البكاء؟!»

كفكفت دمعها المنسوب:

ـ «هذا الرجل ميت! سيعلن موته بمجرد تمدده على أول فراش يقابله!!»

هتفنا جميعً فى رعب حقيقى:

ـ «سبحان الله ولا إله إلا الله! كيف عرفت؟!»

وكانت الكاميرا قد استقرت على وجهه، فأشارت الشيخة إليه كأم يائسة تشير إلى ابنها الكسيح فى الفراش:

ـ «أنظروا إليه!! دققوا فى عينيه!! الموت فيهما ظاهر كالشمس واضح كالموت!! لاشىء أوضح من الموت! أين اختفى بريق هاتين العينين الصقريتين؟! إنطفأ طبعًا!! لم يعد فى حدقتيه سوى بقايا فحم بارد!!»

قال بسبوسة:

ـ «كتر خيره! الرجل من صبيحة ربنا واقف على حيله!!»

قال بربش:

ـ «إنه إرهاق فحسب! مثل هذا الرجل لا يموت بهذه السهولة!! إنه كالقطط بسبعة أرواح!!»

قال غزولى:

ـ «فليمت! النبى محمد نفسه مات!!»

قالت الشيخة سعادة:

ـ «لو مات الآن تبقى مصر فى الوحل زمنًا طويلا! بكائى ليس عليه بل على مصــر! الآن فحسب تذكرت أكبر خطيئـة ارتكبها فى حيـاته! لقد كـتم أنفاس كل الرجـال فلم يعد هـناك رجل حقـيقى يخلفه! لسوف يتدخل فى حكم بلادنا كل من هب ودب من أسافل القوم فى المنطقة!!»

قلت فى استياء:

ـ «على كل حال ربنا عالم بنا!»

زفرت الشيخة سعادة:

ـ «حالنا لا تـسر! أنا التى لم أكن أفـهم فى السياسـة ولم يكن يخطر على بالى أن أفهم شيئًا من أسرارها أصبحت بحكم عشرتى لأهلها أعرف كل شىء فيها!! إننى أقولها ورزقى على الله: كل من يحكمنا اليوم ليس فى دماغه أى نفع للبـلاد!! إنهم لا يعرفون ماذا يفعلون! إننى أقـرأ لهم الطالع جميعًـا! وكل واحد منهم يطلب منى أن أكـشف له عن حقـيـقة شـعور الآخـر بالنسـبة له ومـا الذى يضمـره له وللبلاد؟! إننى لولا التـوفيق من الله لذهبـت طوعًا إلى سراى العباسية من كـثرة ما يصيبنى من الذهول من فراغ هؤلاء الناس!!»

صار قلبى يدق يا خال. وجدتنى أسألها:

- «وبعد يا ستنا الشيخة؟ ما الذى تنصحيننى بفعله فى هذه الظروف الغبراء؟!»

- «ضع عينك فى وسط رأسك! كن مع القوى حتى ولوكان مغلوبًا على أمره فالقوى مهما غلب على أمره سوف ينتصر!! امسك العصا دائمًا من الوسط حتى تكون قريبًا من طرفى النزاع فتعرف أى الكفتين أرجح!! لمصر رب يحميها يا خوى أما أنت فإن لم تكن مراوغًا ذكيًا تجيد اللعب على جميع الحبال فسوف تدهسك أحفر الأقدام!! ولكن أكبر نصيحة أقولها لك يا خوى: إن رآك كلب وأنت تأكل فارم له بلقمة يألفك يصبح حارسك الوفى!! لا تلعب ولا تخاطر بنفسك إلا فى الكبير الكبير وعليك أن تعف عن كل صغير تتركه للصغار! كن كالأسد لا يقبل أكل الجيف ولا يأكل وهو شبعان!!».

حصيفة أريبة والله يا خال. كرامة لها أكاد أصدق أننا نمت بصلة قربى للإمام الشافعى، وإلا فمن أين جاءتها كل هذه الشفافية يا بوى إن لم تكن ورثتها عن جد قديم؟

الشاهد، سافرت الشيخة سعادة فى تلك الليلة لتبيت فى أسيوط فى البيت الذى يطلبها فيه المحافظ حينما يحتاجها القوم حيث يسرع خدمها الموجودون هناك دائمًا إلى الاتصال بها فى الجبل لتبليغها. وقد علمت أنها ليلتذاك ظلت ساهرة حتى الصباح بجوار الراديو، وبقيت فى أسيوط قريبة من الناس والأخبار..

أما نحن، الشلة الوسخة، فقد التقينا فى شقة المنيل عصر اليوم التالى ورحنا نشوف مزاجنا بالحجرين، والتليفزيون مفتوح أمامنا. كنا قد اندمجنا فى الكلام الحماسى حول مشاريعنا التجارية المقبلة وهل تكون - بتعبير بربش - صناعية أم ترفيهية أم استهلاكية؟. كان رأى بسبوسة أن أى مشاريع من أى نوع فى مصر بالذات مهما نجحت لا تساوى عشر معشار مشاريع الأكل الشرب، فإن أردنا ربحًا مضمونًا غير ممنوع ولا مقطوع فعلينا التفكير فى افتتاح مطاعم ومقاه ومحلات بقالة ومحاصيل زراعية أو مخابز للحلويات. كان كلامه صحيحًا تمامًا يا بوى، ولكننا أردنا أن نبحث فى وسيلة لتحقيق مثل هذه المشاريع الأكلوية الشربوية على نطاق واسع وكبير يحقق لنا الأرباح ونحن جلوس فى أعقار دورنا..

وحينما خفتت حدة المناقشة قليلا وبدأنا ننتبه لشد الأنفاس بعمق، لاحظنا أن شاشة التليفزيون ملآنة بفقيه يقرأ القرآن. ثم بدأنا نتذكر أنه بدأ القراءة منذ وقت طويل جدًا يا خال، فالتقت أعيننا على نظرة كأنها نسخة واحدة لمعنى واحد فى نفوسنا جميعا، تنضح بالفجيعة الغامضة يا خال، لأمر ما، نكس غزولى رأسه فى منقد النار فيما يشبه الشعور بالذنب كأن فاله السيء بالأمس قد تحقق. لهذاترك ما فى يديه ونهض إلى التليفزيون، حول المؤشر على القناة الثانية فقيه يقرأ القرآن، قلنا جميعًا: بس جاءك الموت يا تارك الصلاة. فتحنا الراديو: فقيه يقرأ القرآن

يمشى وراء المؤشر على جميع المحطات. نفضنا كل ما فى أيدينا، بقينا مسمرين فى مواجهة الشاشة لا ينطق أحدنا بحرف يا خال. فى لمح البصر يا خال صرنا كالأطفال التعساء ينتظرون صدور الحكم بالإعدام. أغرب وأطرف شىء لا أنساه يا بوى أننا لحظتذاك شعرنا جميعًا بالجوع، فجأة قال بربش: أنا جعت، فقلنا جميعًا فى نفس واحد: ومن سمعك، فهرول هندى إلى المطبخ فى دقائق معدودة تمت تسوية كباب الحلة فنزلنا عليها حتتك بتتك مثل المفاجيع. وفيما نتناول الشاى خرج علينا أنور السادات بنفسه ينعى جمال عبد الناصر للأمة العربية وللعالم. كان وجهه الصدىء صورة بالكربون من محمد بك أبو شناف حتى تحيرت فالحركات هى نفس الحركات، وعوجة الفك السفلى، ونطق الحروف بل والصوت والظل وكل شىء من الملامح حتى الزبيبة على الجبهة واحدة ولا يمكن أن يكون هذا غير ذاك يا خال. مع ذلك فأنا مرغم على الاعتراف بأنهما شخصيتان منفصلتان يا بوى. فإذا كان كل من يعرف الاثنين قد أكد أنهما اثنان فكيف لى أن أزعم أنهما واحد يا بوى؟! هناك من يزعم أنه قابل الاثنين فى جلسة واحدة لكننى أشعر أن القائلين بهذا يكذبون لأنى لاحظت أنهم فشارون يبالغون فى إشعارك بأهميتهم، وأنا لا أدقق مع هؤلاء بل أترك كل واحد يفشر كما يشاء لأنى أستمتع بالفشر، والفشر ينشط خيالى لكى أفشر أحسن منهم، فهكذا الدنيا يا بوى، فشر فى فشر والشاطر من يجعلك تصدقه فى كل ما يقول..

وه يا بوى،كيف أصف وقع الخبر علينا؟ انفجرنا فى بكاء صارخ ولطم خدود، لكن الشرارة التى اندلعت فى الخلاء سرعان ما شملت الكون كله اشعلت فيه الصراخ والجعير واللطم وشق الهدوم ودبدبة الأقدام على الأرض. الكون فى زلزال رهيب يا خال، كأن الدنيا كلها قد تيتمت. نزلنا نمشى فى الشوارع تائهين مسلوبى الإرادة والشعور والعقول يا خال. التحمنا بالجموع الضالة التعسة البائسة، وقد ألقت الجموع ظلالها الكثيفة على الشوارع فسحبت أضواءها واختنق الهواء وخيمت الكآبة كأنما السماء دلقت على الأرض جموعًا بلا جذور بلا أهل، تتعرف أقدامها على الطريق لأول مرة..

عدنا إلى الشقة نفسها فى أواسط الليل، أغلب الظن لنبحث عن شخصياتنا التى فقدناها فى الجموع المتلاطمة. استأنفت الجوزة دورتها. بدأت ظلال من شخصياتنا تتعرف على أجسادنا وتنحاز إليها. وجدتنى أقول لبربش:

ـ «عندك تفسير لكل هذا الهلع الذى رأيناه؟!»

سحب من الحجر نفسًا عميقًا، أتبعه برشفة من كأس البيرة المغرم دوننا بشربها، ثم قال فى هدوء الفلاسفة:

ـ «الجميع يشعر بالفجيعة طبعًا! لأنهم كالأطفال الصغار الذين عودهم أبوهم على أن يفعل كل شىء بنفسه لا يترك لهم أى شىء يشاركون به فى إدارة البيت! فهو رب البيت وكل شىء فيه! هو الذى يمنح ويمنع! لا رجل غيره والجميع عيال حتى ولو كانوا

أفضل منه في كل شـيء لا صوت أعلى من صوته! لا كلمـة لأحد في ظله وكلمتـه تمشى فـوق رقـاب الجمـيع!! لا يقـبل نقـدا ولا مشورة ومن يتقدم بشيء من هـذا فهو عدو يجب إبادته فى الحال أو بتره من شـجرة العـائلة!! وهكذا أراح الجمـيع أنفسـهم تركوه ينفرد بكل صغيـرة وكبيرة حتى الذين اختارهـم ليعاونوه يفعلون ما يأمرهم به فى العلن وينقضونه فى السـر بأفعال مضادة!! فلما يموت فجأة لابد أن يشعر الجـميع بأنهم صاروا فى العراء بعد أن انهدم سقف البيت على رءوسهم!!»

ثم استأنف الشرب وشد الأنفاس كأنه كان يكلم نفسه أو يفكر بصوت عال. قلت له:

ـ «والعمل الآن يا بربش؟!»

قال بتلقائية وبغير انفعال:

ـ «العمل عمل ربنا طبعًـا! جاءت لأنور السادات على الطبطاب!! هو نائبـه الأول! سوف يتـولى رئاسة الجـمهـورية مؤقتًـا إلى أن يحدث الاستـفتاء الشعـبى! المتوقع طبعًا أن الشـعب سوف يوافق على رئاسة أنور السادات! الشعب الذى لم يقل لا طول تاريخه لن يقولهـا فجأة لأنور السادات! وحـتى لو قالها فـإنها لن تصل إلى أسماع القائمين على الاستفتاء!!»

ـ «وما الذى تراه إذن بالنسبة لنا؟!»

ـ «أرى أن نتـصرف على أسـاس أن أنور السـادات هو رئيس الجمهورية إلى الأبد! وأن نبلغه من الآن تأييدنا له بكل الصور! هو

سوف يكون رئيسًا غصبًا عن التخين فى البلد! فخلها بجميلة وأعلن مساندتك له من الآن ضد من سيحاولون منافسته من رجال عبد الناصر الذين كانوا قريبين منه وفى حوزتهم كل أسراره وأسرار الحكم والبلاد والناس!! هؤلاء لن يسكتوا بسهولة خل بالك! ليس لأنهم يحتقرون أنور السادات فحسب بل لأن منصب الرئاسة أجل من أن يفرط فيه القريب منه!! ستحتدم المعركة وهنا يجب أن نكون نحن بعيدًا حتى نتفرج ونتسلى ونستمتع كبقية الشعب المصرى! إنما نكتفى بإظهار ولاءنا لأنور السادات! صدقنى إن الشعب يمكن أن يختاره بالفعل وبدون حاجة لتزوير لأن فى الشعب فئات كثيرة قوية يمتعها أن يكون رجل كأنور السادات رئيسًا للبلاد! وسواء كان هو عبيطًا بالفعل أم هو يستعبط ويتدروش لاكتساب حب الناس فإن الناس يهمها أن يكون الحاكم درويشًا لأنهم حينئذ سيسهل عليهم توجيهه لخدمة مصالحهم!! غدا سأفكرك بأن هذا الثعلب الماكر هو عبد الناصر مضروب فى عشرة ولكن فى الاتجاه المضاد للثورة!! سيقف وراءه الأغنياء القدامى! العائلات التى ضربتها الثورة ستضحى فى سبيله بالكثير وهو سيستجيب من أول نظرة لمغازلتهم لأنه مصاب بعقدة العائلة! كان يتمنى أن يكون من عائلة ذات جاه وعزوة وسلطان كعائلة عبد الغفار مثلاً فى بلدتهم بالمنوفية!! سوف يفتح صدره لتلك العائلات الإقطاعية القديمة ويحتويها يبسط حمايته عليها لكى يشعر بالنشوة من توافق الأقدار إذ يرى هذه العائلات الضخمة ذات التاريخ قد أصبحت

نقف بأعتابه تتمسح فيه تخطب وده وأصبح منها بمثابة السيد ذى اليد العليا والقامة الأعلى!! إسألونى أنا عن أنور السادات فإنى أعرفه جيدًا عجنته وخبزته شاركت فى تهريبه ذات يوم قبل الثورة أنا وممرض بالقصر العينى أصبح الآن كاتبًا مشهورًا فى الإذاعة! وكنا قد عرفناه وصاحبناه عن طريق كاتب مشهور اسمه زكريا الحجاوى لعلكم سمعتم اسمه فى الإذاعة أيضًا! ذلك الذى تزوج خضره محمد خضر المواليدية!! أصبع ما فيكم جميعًا لا يساوى سنة واحدة فى حياة أنور السادات ومن هنا فإنه سيعلم الناس كيف تمشى على العجين فلا تلخبطه!!».

كلام بربش عميق يا خال، إنه ولد مخربشاتى يفهم فى أشياء كثيرة وبالأخص فى أنور السادات. خربشته أهم من خربشتى ومن خربشات بسبوسة وغزولى وهندى لهذا يفيد بعضنا البعض فائدة كبيرةً. صياعة بربش شملت الحوارى والشوارع السياسية منذ وقت مبكر يا خال، فليس فى البلاد كلها سياسى واحد غير معروف لبربش بالاسم الثلاثى والعنوان وتاريخ الميلاد، بل قد يعرف اسم زوجه وأهله وأخباره العائلية الدقيقة، وهو يصدع رءوسنا كل ليلة بهذه الأخبار، وبمشاريعه الشريرة فى استخدام هذه الأخبار ضد أصحابها ذات يوم قريب، يعرف كم صفقة مشبوهة عقدها هذا الوزير، وكم استفاد ذاك من عمولات بحكم منصبه، يعرف لماذا أقيل فلان، وهل أقيل أم أنه استقال. وبهذه المناسبة يا بوى فقد ظللت وقتًا طويلاً لا أعرف الفرق بين الإقالة

والاستقالة إلى أن عرفتها من بربش العفريت هذا. وما أكثر ما عرفت منه يا بوى. على أننى بعد أن كنت أحاول إسكاته عندما يدير شريط مثالب الوزراء وفضائح مجالس الإدارات أصبحت أناشده أن يستأنف الكلام كلما سكت، ذلك أننى قد بدأت أعرف قيمة هذه الأسرار يا بوى ومدى إفادتها لنا فى تثبيت علاقتنا بأنور السادات.

أما صياعة بسبوسة - وهى الأخرى مفيدة جدًا فى هذا المجال - فإنها صياعة فريدة: يعرف أسرار كل نسوان البلد تقريبًا ياخال، وخاصة نسوان الوزراء والكبراء والوجهاء، ذلك لأنه كان مكلفًا بمراقبتهن من بعض أزواجهن أو عشاقهن أو بعض الجهات، يعرف متى تقابلت إحداهن مع أحدهم فى المصيف البعيد جدًا، وعلاقة المساحقة بين هذه وتلك. يعرف أخبار جميع دور اللهو فى شارع الهرم وشارع عماد الدين، فهذه السينما ملك فلانة وهذا الكازينو ملك الراقصة علانة، ومن الذى يسهر فى منزل الراقصة المعتزلة فلانة، ومن الذى يلعب القمار عند من، ومقدار الخسائر. يعرف عدد صناديق الويسكى التى تم تهريبها لملهى كبير بواسطة فلان الفلانى مقابل مبلغ كذا. يعرف من هى الصحفية المجهولة الداعرة التى نظمت حفلا غنائيًا راقصًا للضباط فى أنشاص ليلة أن تم ضرب جميع المطارات المصرية فى النكسة المشهورة، ومن هى الراقصة التى أحيت الحفل شبه عارية، وكيف أنها هى التى جلبت بقية الفنانين للترفيه عن الرجال. يعرف أخبار وأسرار

الخلافات التى نشبت بين المشير أبو عامر وبرلنتى عبد الحميد، وكيف استولى عليها المشير وتزوجها رغم أنف المعترضين وعلى رأسهم عبد الناصر. يعرف الممثلات اللائى أرغمهن صلاح نصر رئيس المخابرات على العمل بالدعارة مع بعض السفراء وكبار الزائرين للحصول على معلومات تفيد البلد فى حربها مع العدو. كل هذا وغيره يا خال يعرفه اللعين بسبوسة، غير أنه أثقل من بربش فى الإفضاء بما عنده، ربما لأن مهنته الأصلية كمخبر فى الآداب علمته الكتمان كصنعة يستفيد بها عند اللزوم، لكنه عندما ينفتح يمكن أن تملأ منه مكتبة شرائط كاملة فى الجلسة الواحدة..

أما غزولى يا بوى فصياعته محدودة لكنها مهمة جدًا يا بوى. يعرف جميع تجار ومهربى المخدرات على أعلى مستوى،معرفة شخصية، بل لديه أسرارهم الخاصة إذ أنه ـ وهو من المفروض أنه عين الحكومة عليهم ـ يصبح عينهم على الحكومة. يعرف جميع اتصالاتهم بل ويقوم فى أحيان كثيرة بمهمة المرسال بين المهربين والتجار وبين ضباط الحدود ومباحث الأقسام، يتفاوض من أجل تمرير صفقة أو غض البصر عن بيعة، ويأخذ عمولته من الطرفين. يعرف كيف يقوم ضباط الحدود بالاستيلاء على بعض الصفقات بتواطؤ مع المهربين ذرًا للرماد فى العيون. يعرف من من كبار مستوردى الأخشاب والسيارات يتخذون من هذه السلعة المستورة ستارًا يخفى الحشيش والأفيون والهيروين. ومن الذى يشاركهم أو يعاونهم من أعضاء البرلمان البارزين. يعرف أن تاجر

المخدرات الكبير فلان الفلاني هو الذى اشترى سيارة أحد المسئولين بمبلغ كبير رغم سوء حالتها لكي يستفيد من حصانتها بقية الشهور المثبوتة فى الرخصة باعتبارها سيارة معروفة لجميع السلطات. يعرف أن محل الأزياء الكبير فى شارع الشواربى تملكه زوجة الوزير فلان وتكتبه باسم خالتها وهى التى تستورد الملابس الأجنبية وتهربها من الجمرك. يعرف ثروات أبناء الضباط الأحرار ورئيس الوزراء وعدد وأنواع المشاريع التجارية المستترة التى تدر عليهم أنهار الفلوس. ولأنه صايع كبير فإنه يعرف مساكن مشاهير الكتاب والصحفيين الكبار ونجوم المسرح والسينما والتليفزيون ويحلف أنه يشاهد الكثيرين منهم عند تجار المخدرات بل إنه كثيرًا ما باع لهم بنفسه. كل هذا وغيره يعرفه غزولى الخلبوص مع أن شكله يبدو كأنه لا يعرف السما من العمى. وربما كانت هذه الموهبة هى سر نجاحه يا بوى..

أما صديقى هندى المجدع فإن صياعته هو الآخر تبدو سطحية لكنها مع ذلك توقفه على الكثير من الأسرار والأخبار المهمة جدًا يا خال. إنه متخصص تقريبًا فى معرفة أخبار اللصوص كبارهم وصغارهم على السواء. يعرف كيف يسرق المحافظون وكبار رجال الدولة الأرض الحكومية بتسهيلات وأوراق ملفقة، وكيف يستغلون الفلاحين فى زراعتها، أو المقاولين فى بيعها للبناء. يعرف كيف يستفيد رجال الأوقاف من أموال الوقف التى بلا صاحب على كثرتها. يعرف مزارع الفاكهة التى استولى عليها

بعض الضباط الأحرار من قدامى الإقطاعيين فى الشرقية والمنوفية والصعيد. يعرف أخبار الاختلاسات في محلات القطاع العام والهيئات والمؤسسات وكيف يتم تلفيقها لصغار الموظفين الغلابة. يعرف حجم المواد الغذائية النظيفة التى تخرج من مخازن الجمعيات الاستهلاكية إلى منازل المسئولين بالمجان فى حين يقف الشعب فى الطوابير طول النهار ينتظر مجيء ما لا يجيء مطلقًا. يعرف الكثيرين جدًا من أمثال الحاج أحمد نوار الدين السنى فى مجالات كثيرة متنوعة، كما يعرف الذين يتعاونون معهم من كبار الموظفين اللصوص، يعرف عدد سيارات الأجرة التى يمتلكها المسئول عن هيئة النقل العام وكيف يتم إصلاحها وتركيب قطع غيارها بالمجان في ورش الهيئة نفسها. ويقول هندى دائمًا إنه كان جديرًا بأن يرأس مباحث الأموال العامة لأنه يعرف جيدًا أين تذهب وكيف يمكن أن يردها للدولة.

حين استعرضنا كل هذه الخبرات يا بوى فى قعدتنا تلك عقب وفاة الزعيم الراحل شعرنا بأننا قوة لا يستهان بها يا خال، وأننا إن فشلنا فى التعامل مع أى رئيس أيًا كانت شخصيته فإننا نكون غير جديرين بالحياة أصلا. معنى الكلام يا بوى أننا يجب أن نعمل بالقاعدة الشعبية الشهيرة: اللى تعرف ديته اقتله، واختها الأشهر اللى تغلب به إلعب به. وبما أننا لدينا الكثير من الكروت الصالحة للعب فإننا يجب أن نعرف كيف نلعب بها فى حرفنة وتودك وإلا خسرناها وخسرنا الجلد والسقط.

وهكذا وضع لنا بربش خطته الجهنمية للالتفاف حول أنور السادات فى وقت مبكر. ولقد أوصانى بادئ ذى بدء بأن أنسى بل أنزع من دماغى مسألة المشابهة بين أنور السادات ومحمد بك أبوشناف، لأنها فى نظره غير مجدية من ناحية، ولأن السياسى عمومًا بحكم طبيعة عمله يمكن أن يكون أكثر من شخص فى وقت واحد، حتى لو ظهر أمامنا بشخصية واحدة من ناحية أخرى. ثم إنه من المصلحة أن نشعر من يعاملنا بشخصيتين أننا لم نفطن للعبته، حتى يتصرف أمامنا بكل حرية..

فوافقته فى الحال يا خال، سيما وأننا ـ كما قال اللعين بسبوسة ـ سنكون المستفيدين فى كل الأحوال، إذ أننا نستفيد من كل شخصية على حدة. وقال هندى إننا جميعًا نعيش بأكثر من شخصية فما الغريب فى ذلك؟ ثم قرأنا الفاتحة على الظالم والمفترى.

حظ

انخرطنا فى خطة بربش المحكمة: برقية عزاء باسمى فى وفاة الزعيم الراحل تحث السادات على حمل الأمانة باعتباره أكثرهم وفاء لبلده وأشدهم خبرة بالسياسة وإلا ما اختاره الزعيم الراحل ليكون نائبه الأول. ثم انهالت البرقيات يا خال بعدد المناسبات التى تفنن بربش فى استقطابها: عيد ميلاد ابنته، ابنه، زوجته، أبيه، عيد زواجه، عيد خروجه من السجن قبل الثورة، عيد عودته إلى

الجيش بعد فصله منه.. الخ أطواق الورد المرسلة لا حصر لها، من أكبر المحلات وأرقى الأنواع يا بوى، وقد نشط بربش فى أمور الدعاية لى بشكل جهنمى يا بوى، فهو تقريبًا يعرف تسعين فى المائة من محررى الصحف المصابين بنقاط ضعف كثيرة، يلتقى بعضهم فى البارات، وغرز الحشيش، فى عموم الأماكن المشبوهة. وما دام قد عرف خصالهم ونقاط ضعفهم فقد عرف بالضرورة أثمانهم: فهذا يحتاج لامرأة، وهذا جائع للفلوس، وهذا يخر أمام زجاجة الويسكى أو قرش الحشيش، وهذا يرضى بقليله، ربما بكلمة يا سعادة البيه، أو بمدح فى عبقريته وشرفه. وهكذا يا بوى انهالت التحقيقات الصحفية معى دون أن أنطق فيها بحرف واحد يا خال، عن مشاريع وهمية يجرى تنفيذها لخدمة دائرتى والنهوض بالصعيد الوسطانى، وعن أعمال البر والخير، والتبرعات للجمعيات الخيرية، وفى كل تحقيق صحفى لابد أن يشار على لسانى بكلمتين حلوتين فى حق أنور السادات وتاريخه السياسى الوطنى المشرف.

كنت قد عينت بسبوسة ـ الذى أصبح أفنديًا على درجة عالية من الأبهة والفخامة ويتكلم فى وعى ولباقة أكثر من وزير للخارجية ـ جاسوسًا لنا فى اللجنة المركزية بالاتحاد الاشتراكى، وكذلك اللجنة المركزية العليا، تلك التى لم أكن أعلم عنها شيئًا بعد أن ثقفنى بربش سياسيًا. ولأن بسبوسة ناعم ولذيذ فقد سهل عليه اختراق جميع الاجتماعات ـ حتى السرية منها، عن طريق

أصدقــاء و أعوان من صغــار الموظفين الذين تئــول إليهم الأوراق والمحاضر فى النهــاية. كان يأتينا كل ليلة بأخبار طازجة ليـفاجأ بأن بربش قد علم بها من مصادره الخاصة وكان ينتظر ـ فقط ـ تأكيدًا لها من بسبوسة..

أبلغنا بســبوســة أن أنور الســادات بعد أن كـان قد أكـد للجنة المركـزية العليا أنه ســيبــقى نائبًا لرئيس الجـمـهـورية إلى أن يتم الانتخاب الحر فى وقته الطبيعى أى بعد أن تتم إزالة آثار العدوان الإسرائيلــى كما أعلن عــبد الناصــر فى خطاب عودته بعــد حادث التنحى، رجع فى كــلامه وطلب اجـتمــاع اللجنة المركزية العلـيا ـ المكتب الســياسى ـ وطالب بضرورة إجـراء الإنتخابــات للرئاسة، وطلب بعــرض اسمه على الشــعب كرئيس للجـمـهـورية. وقد ثار ورثة عبـد الناصر بقيـادة على صبرى، وتحــفظوا على هذا الطلب قائلين إن الشعب لا يحبه وسوف يرفضه لا محالة وحينئذ تسقط هيبــة مجلس قيــادة الثورة وتنتــهى ثورة يوليو، فأصــر الســادات على طلبه وقال إنه لا بأس من المحاولة فإن رفـضه الشعب قدموا مــرشـــحًــا آخر وثــالث ورابع إلى أن يوافق الشــعب. هنا أضــاف بربش أنه علم أن الكثيرين من أعداء عبـد الناصر فى مصر والأمة العربية ـ وخاصة الإخــوان المسلمين ـ هم الذين أوعزوا للسادات بعدم التفريط فى فرصة انتــزاعه للرئاسة من ألاديش عبد الناصر الذين ظهـر أن مــعظم الشــعب يكرههم لكنه يخــاف من بطشـــهم، إضافــة إلى الملوك العرب الذين مــا صدقــوا أن رحل عبـد الناصر

فسعوا لاستئصال شأفته من السياسة المصرية ليعود كل شيء فى المنطقة إلى هدوئه الذى كان قبل الثورة. هذه التيارات قوية يا خال ولا يستهان بها مطلقًا، فمعها الأموال الطائلة يا خال، ومعها القوة الأمريكية الإسرائيلية الكارهة للشيوعية والاشتراكية، وهى تملك الأسلحة والأجهزة الرادعة الكاشفة فى حين لا يملك ألاديش عبد الناصر سوى جهاز المخابرات بجهاز بث الإشاعات، جهاز بث الرعب مع الفقر المادى المدقع يا خال، مع انعدام الأسلحة، ومناورات ومخادعات الاتحاد السوفييتى الجبان الذى لم يكن صادقًا فى دعمه لمصر بقدر ما كان يتخذها مقرًا لمناوأة أمريكا. تلك هى تحليلات بربش الداهية.

يا خال. والحق يا خال لقد لخبط لى مخى بقدر ما أضاءه، فقد كنت أظنه من عشاق الاشتراكية فإذا به ليس من عشاق أى شيء، وإذا به يقول لى:

ـ «ما يهمنى هومستقبلنا السياسى وكيف نكون أقوياء نشوف لنا يومين قبل أن نتوكل على الله!! وعلى فكرة يا حسن! إن ظاهرة الحزن على عبد الناصر التى رأيناها بأعيننا لم تكن حقيقية إلا فى جزء منها!! الأغلبية العظمى وهى الأقوى تكره عبد الناصر كره العمى صدقنى: الإقطاعيون الذين انتزعت أراضيهم! أصحاب الشركات والمصانع والمحلات التى أممت! الأغنياء والرأسماليون الذين وضعوا تحت الحراسة ظلمًا وعدوانًا ليستمتع بخيرهم اللصوص والأفاقون! آباء الجنود الذين قتلوا فى حرب وهمية

قادها ضابط حشاش بتاع نسوان! السياسيون والمثقفون والشرفاء الذين جند أبناؤهم كمخبرين عليهم! الذين ذاقوا مرارة السجن والاعتقال والعزل السياسي! أعضاء الأحزاب التي حلت وكان لها في الشارع حضورًا قويًا من قبل! الطلبة المستنيرون الذين قلمت أظافرهم وحرم عليهم الاشتغال بالسياسة وتم إقصاؤهم وإبطال دور ومفعول الجامعات! حتى التقدميون الذين من المفترض أن عبد الناصر يحقق لهم حلم الاشتراكية يقفون ضده كدكتاتور! وصحيح أنهم اليوم يتزعمون موجة التباكي عليه والإبقاء على تراثه لكن ذلك مؤقت وسببه خوفهم من ضياع ثورة يوليو وعودة البلاد إلى عهد الملكية وهذا بالطبع مستحيل حدوثه!! وإنهم يعملون بمقولة: نار عبد الناصر الثورية الاشتراكية ولا جنة السادات الرجعية! وهذه مقولة غبية لا نفع لها في السياسة والدليل على ذلك أن معظم القوى التي تملك المال والسلاح والنفوذ في مصر مدعومة بالعالم العربي المدعوم بأمريكا هي الان مع السادات وإن لم تظهر على السطح بعد خوفًا من بطش رجال عبد الناصر الذين قد يظهر أنهم يملكون قوة سرية مدخرة!! فلا تنس أن الحكم كان محوطًا بالسرية لأنه حكم الفرد وأذنابه وليس حكم الشعب كما كان المرحوم يزعم!»

- «والخلاصة يا بربش؟!»

- «بكل صراحة كان المرحوم كابوسًا والناس كانت تبكي من الفرح لا من الحزن! أو قل من الحزن على المستقبل الغامض

والورطة المهيبة التى أوقعهم فيها المرحوم بموته المفاجىء! إن الموت فى حد ذاته هزيمة مضاعفة!! هزيمة بهزيمة فمن الأفضل أن يراجع الشعب نفسه فى هذه الثورة من أساسها ويعمل على الخلاص منها! وهذه هى الأرض القوية التى يقف عليها أنور السادات ونحن معه!!»

- «هل سيفرط السادات فى الثورة التى صنعته؟!»

- «الثورة عنده كانت لاستكمال الأبهة كما قلت لك من قبل يحقق بها النفوذ والعزة الشخصية! فإذا كان هذا سيتحقق له من مصادر أخرى فلتذهب ثورة يوليو إلى صفيحة القمامة غير أنه لن يفعل هذا مرة واحدة إنما سيظل مستمسكًا فى الظاهر بشعارات الثورة كأسباب شرعية لبقائه إلى أن يثبت أقدامه!!»

- «وما الموقف الذى يجب أن أتخذه غدًا فى البرلمان؟ ففى جلسة الغد سيجرى الاستفتاء على ترشيحه!»

- «لابد أن تكون على رأس الأصوات المؤيدة له!!»

صدقت نبوءة بربش يا بوى، وتم انتخاب أنور السادات بالإجماع فى السادس عشر من أكتوبر رئيسًا للجمهورية.

وكانت هذه صدمة كبيرة لألاديش عبد الناصر من أمثال على صبرى وسامى شرف وشعراوى جمعه وغيرهم من أعضاء المكتب السياسى الذين تمكنوا من بث الخوف فى دراويش عبد

الناصـر ممن يتـخـذون من الإتحـاد الاشـتراكـى سندًا للنفـوذ والوجاهة.

وقد نـقل لنا بسبـوسة أن أعـضاء المكتب السـياسـى بثـوا هذا الخوف فى الدراويـش والمريدين ليصـبح لديهم ذريعة يواجـهون بهـا السـادات لكى يحكمـوا هـم من خـلاله يحـولوه إلىٰ طرطور وحسبه لقب رئيس الجمهورية يرضى به غروره أما الحكم الفعلى فيكـون للمكتب السيـاسـى. قال بربش إن عـشمهم فى هـذا عشم إبليس فى الجنة.

وقال غزولى: ـ «لى أصدقاء فى مباحث أمن الدولة والمخابرات العـامـة يقولون لى إن ألاديـش عبـد الناصـر يفكرون جـديًا فى اغتيال أنور السادات بخطة جهنمية يجرى الترتيب لها حاليًا».

فاعـتبرنا هذا الكلام مـجرد خرف ولم نعلق عـليه رغم أننى يا بوى شعرت نحوه بشىء من الاهتـمام نظرًا لتزايد خطر السادات والتأييـد الشعبى له وقد يدفـعهم هذا إلى التعجـيل بالخلاص من عدوهم قبل أن تبرد دماء عبد الناصر فى عروق المؤيدين لهم..

سجلنا اسـمنا فى دفتر الزيارات برئاسـة الجمهـورية، تقدمنا بطلب لمقـابلة الرئيس لتـقديم التـهنئـة وللتحـدث معـه فى بعض الأمور. المـفاجـأة كانت عظيـمة يا بوى وافق السـادات على هذه المقابلة وحدد لها موعدًا بعد ساعات قليلة.

فى تلك الليلة سهرت الشلة كلها مـحتاطه بى تلقننى ما ينبغى أن أقوله لـلرئيس وما أرد به إذا سـألنى عن كذا وكيـت. كل واحد من جهة راح يصب فى رأسى أطنانًا من الكلام كأننى سأمكث فى مقـابلة الرئيس عشر سنين، أو كـأننى مطلوب منى مناقشـته فى مستقبل الكون كله يا بوى.

رغم ضيقى بكل ما سمعته وشعورى بعدم قدرتى على تذكره أثناء المقـابلة، فوجـئت فى الصبـاح بأننى استـوعبت كل مـا قيل، فرغم تخـانة مخى الصـعيدى التى يعـيروننى بهـا فهمت جـميع عـبارات بربش ومـصطلحـاته وصرت أرددها بكل طلاقـة ووعى، صـرت أتكلم بأسلوبه ومـفرداته من قـبيـل: بيد أن، مطلقًـا، طرا، حاشا وكلا، عن بكرة أبيها، برمتها، الشارع السياسى أزمة الشرق الأوسط، التـيارات التـقـدميـة الإلحاديـة، ماركس، إنجلز، فـائض القيمـة، الصراع الطبقى، مستقـبل التيتوية، عدم الانحيـاز، التفوق النووى، شد البـساط من تحت الأقدام، سحب الثـقة.. إلخ إلخ، بل أستطيع الهمـبكة بالكثير من الكلام فى شرح هذه العـبارات إذا ما وقعت فى مأزق حرج..

قـابلت الرئيس يا خـال، كـان جـسـدى كله ينتـفض، أحـاول السيطرة عليه بكل قوة. وكنت واثقًـا أن هذه الرهبة مصـدرها الجو المحيط بالزيارة للقـصر وأنها ستنتـهى بمجرد رؤيتى للرئيس لأن الشبـه الكبير بيـنه وبين محمـد بك أبو شناف سيخـدمنى فكأننا أصدقاء قدامى.

كان اللقاء فى بيته بجوار شيراتون، وكان الرئيس يرتدى بذلة فاخـرة كأنه المانيكان يا بوى، شيـاكة لا مثـيل لها يا بوى، عطور نفاذة. وكنت بدورى قد ارتديت بذلة تضارع بذلته فى الفخامة من مجموعة البذلات الفاخـرة التى اشتريتها من شارع الشواربى، مع قـمصـان من الحرير الـطبيـعى وأربطة عنق من أشـهر الماركـات العالمية، ومجموعة أحـذية يستخسر الواحد المشى بها على الأرض ومفروشة بالبساط.

خلعت العـمامـة وصفـفت شعـرى عند الكوافيـر مسـاء أمس، ودربت نفسـى جيدًا على نسـيان الزى الجديد حتى لا أرتبك وأبدو كـمحـدث نعمـة. قالت الشلـة إننى أبدو مثل قـدامى الباشـوات، وذهبوا ينتظروننى فى استراحة الشيراتون..

بعد انتظار حـوالى خمس دقائـق فى الصالون شربت خـلالها جرعـتين من كـوب الليمون المقـدم لى فور دخولى، أقـبل الرئيس نحوى فـانتفضت واقـفًا، هرولت نحـوه لمقابلته مـتوقعـا أن يفتح حضنه لأرتمى فيه. لكنه يا بوى كالنخلة المصلوبة، فيما عدا وجهه المسترخى بابتسـامة عريضة مشرقة، مد ذراعـه الطويلة، فقبضت على يده صـرت أهزها بحرارة، فتـستـجيب يده بحـرارة أشد، ثم أشار لى بالجلوس، فجلست على أقرب كرسى له بعد أن جلس هو أولاً...

من لحظة وقوع بصـرى عليه يا خـال، أيقنت أننى أمام مـحـمد بك أبو شناف الحميم لى. لكن ملامح وجـهه، طريقة سلامه علىّ،

ثم أمره لـى بالجلوس، وقوله: أهلا وسـهلا شرفت، كـل ذلك كان محايدًا تمامًا يا خـال، وصادر عن شخص لا يعرفنى على الإطلاق من قبل. ثم أنه وضع ساقًا على ساق، وأعاد الترحيب:

ـ «تشرب قهوة معى؟!»

ـ «يزيدنى شرف يا سيادة الرئيس!»

ـ «مضبوطة؟!»

ـ «نعم يا سيادة الرئيس!»

فصفق بيديه تصفيقة خفيفة، فظهر السفرجى ذو العمامة المرتفعة جدًا والوجه الأسود. عاجله الرئيسى قبل اقترابه:

ـ «مضبوطتان».

انحنى السفرجى وخرج. قال سيادته:

ـ «هيه! ما الأخبار؟!»

انبريت أخطب خطبـة حسدت نفسى على قـدرتى فى ارتجالها. ويظهر يا خال أن البنـى آدم منا عنده قدرات كبيرة لا يعـرفها ولا تبـين إلا فى الزنقة. هنأته وهنأت الشـعب المصرى والعـرب وكل شـعوب عـدم الانحـياز وكل المقهـورين فى الأرض. أعـربت عن سعادتى وسعادة كل هؤلاء برئاستـه الميمونة. دعوت الله أن يقيه شرور ألاديش ودراويش عبد الناصر. وأن يحميه من الشيوعيين، ومن خبث الصهاينة الأشرار.

كررت أننى بالأصالة عن نفسى وبالنيابة عن أهل دائرتى نتمنى له النصر المؤزر ونضع أنفسنا بكل ما نملك تحت تصرف سيادته.

صار هو يتابعنى بهزة من رأسه فى إعجاب ورضا وامتنان، مع ابتسامة كبيرة والبايب ـ نفس بايب محمد بك أبو شناف ـ بين أسنانه البيضاء الناصعة. ثم فوجئت به يسألنى عن اسم دائرتى وعن موقعها بالضبط من خريطة الصعيد وعن حالة الأمن فيها، وحالتها الاقتصادية والاجتماعية بوجه عام، جعلت أحدثه فى كل ما طلب الاستعلام عنه حديثاً مستفيضًا.

استمع لى فى شغف وهدوء وروية، لم يبد عليه مطلقًا أنه على علم سابق بأى من هذه المعلومات. فأيقنت يا خال أننى بالفعل أمام حضرة الرئيس وليس محمد بك أبو شناف، وأن هذه الشخصية تختلف عن تلك اختلافاً بينًا رغم تطابقهما فى الشكل والطول والصوت والعادات ولهجة الكلام. كدت أعتقد أنهما توأم، لولا أن ذلك ليس موجودًا فى تاريخ السادات.

ثم إنه شكرنى على هذه الروح الطيبة الشجاعة التى تتسم بها شخصية الصعيدى بوجه عام، وفى منتهى الرقة أبدى ملاحظة بسيطة استشفها من كلامى إذ قال إنه يهمه أن يوضح لى نقطة بسيطة كانت غائبة عنى وعن البعض من أبناء شعبنا الطيب الأصيل، تلك هى أنه ـ فى الواقع يحب ويحترم عبد الناصر، وأنه ماض على طريقه بإذن الله، غير أن له طريقته الخاصة فى الحكم

ثم سألنى:

ـ «وبالمناسبة ما هى الأخبار التى تسمعها عن ألاديش عبد الناصر هؤلاء كما تسميهم؟!»

أدليت بكل ما عندى من تقارير سرية وعلنية، جميع ما أخبرنى به بسبوسة وبربش وغزولى وهندى، حتى الإشاعات المتطرفة حكيتها له باعتبارها معلومات.

وسعدت بأنه استمع لى يا خال فى صبر واهتمام. وكان الدفء ينبعث منه حارًا غازيًا، فكأننى جالس إلى أخى الأكبر فعلا، إذ يميل نحوى ويهمس متسائلا أو مستفسرًا عن شىء موحيًا لى بأن أخفض صوتى، فأخفضه إلى حد الهمس الحميم، مما أشعرنى بأننا صديقان فى حالة ود، أوحى لى يا خال أنه يبادلنى الأسرار، والصفاء بمجرد نطقه لعبارات من قبيل: أعرف يا حسن! أنا لست غافلا يا حسن! سوف ترى عاقبة الشر والخيانة يا حسن! ربنا على الظالم يا حسن! المهم أن نضع يدنا فى يد كل الشرفاء يا حسن لخدمة مصر وانتشالها من الكرب! ادع الله يا حسن أن يوفقنا فى خدمة هذا الشعب المسكين! فى إشباع الجياع. وسيادة القانون! خليك على اتصال بى يا حسن! مكتبى مفتوح لك ولكل الناس الطيبين! مع السلامة يا حسن! شرفت!!..

هذه العبارات ياخال أقنعتنى بأننى فى حضرة ولى من أولياء الله الصالحين، وأنه مثلنا يتحدث ويفكر كما نتحدث ونفكر. قل إننى أحببته يا خال، آمنت بزعامته، وعقدت النية على أن أكون من رجاله المخلصين..

أثناء خروجى من البيت متجهًا إلى استراحة الشيراتون لم أفلح فى طرد شبح محمد بك أبو شناف الذى شعرت أنه كثيرًا ما كان يطل من حديث الرجل فى لمحات خاطفة، صار يلطشنى فى راسى فيخيل لى كأن الحرس الجمهورى المبثوث حولى سوف يضبطنى متلبسًا بالمقارنة بين الرئيس وشخصية كهذه.

رأيت الشلة تتحلق مائدة بجوار حمام السباحة. ضحكوا ضحكًا عميقًا لرؤيتى، هتفوا فى نفس واحد الحمد لله، فاستربت فى لهجتهم يا بوى.

صمموا على الغداء هنا، قلت: وماله، حلاوة مقابلتى للرئيس. وفيما أنا منهمك فى دفع فاتورة الحساب الحراقة قال بسبوسة ـ أغلب الظن ليصرف ذهنى عن استهوال المبلغ:

ـ «ألم تر جدول مواعيدك؟!»

ـ «لا!»

قال بربش:

ـ «غدًا بإذن الله نحن مدعوون على العشاء فى منزل ضيفنا القديم الحاج أحمد نوار الدين السنى! أخذتنى المفاجأة يا خال، فهذه أول مرة أدعى فيها إلى بيت الحاج أحمد نوار الدين السنى وأنا فى ثوبى الجديد بشخصيتى الجديدة، فكيف ترانى سأتصرف حيال مأزق كهذا يا بوى؟! قعدة الحاج أحمد نوار السنى عرفتنى كصبى غرزة، مجرد نفر من أنتن اللصوص يقوم بخدمة البكوات يمسك لهم بالجوزة، هذا واقع ماثل لم يمض عليه

وقت طويل، فكيف أذهب إليها الآن وأنا عضو في البرلمان ولي خدم وحاشية وسائق وهيئة مكتب وسيارة ملاكي وبطاقات مطبوعة باسمي!! وهل تراني سأجلس بين البكوات حسب وضعي الآن؟! أم أن أصلي سيغلب ويعود بي رغمًا عني إلى وضعي القديم؟ ومن هم البكوات الذين سيحضرون حفل العشاء يا ترى؟

يظهر يا خال أنني فكرت هكذا بصوت عال، لأن بربش رد في الحال قائلا:

- «المدعوون ليسوا غرباء عنك! إنهم نفس الوجوه التي تعرفها: محمد بك أبو شناف (وانفجرت ضحكة صاعقة لفتت إلينا الأنظار بكثير من الاشمئزاز والاستنكار إذ كانت بالفعل سوقية يا بوي» والشيخة سعادة! وحسن بك عضو مجلس قيادة الثورة! والحاج قدري! والمقدس زخاروس تاجر الآثار والمعلم عطاطس وحازم وأصدقاؤه وبقية الناس الهردبيس! المناسبة طبعًا هي عيد ميلاد ابنته! غير أن الحفل هذه المرة كما يقول سيكون على القد وليس مثل كل سنة!!»

لسنتني هذه العبارة الأخيرة. وجدتني أصيح:

- «آ... آ.... آ.... لماذا على القد هذا العام بالذات؟!»

قال بسبوسة كأنه يفسر شيئا في غير حاجة لتفسير:

- «السبب واضح: الرجل يئس من الحفلات الواسعة!! الهدف منها لا يتحقق أبدًا!! فسلم أمره لله وقال لا داعي للتكاليف الباهظة!!»

- «وما هو هذا الهدف الذى لا يتحقق يا بو العم؟!»

- «البنت عانس كما تعلم! فرغم جمالها الصاروخى ورغم ثراء أبيها الفاحش لم يتقدم لها العريس المناسب!! كانت حفلات عيد الميلاد هذه كمصيدة للإيقاع بعريس ترضى عنه البنت ويوافق مزاج الحاج! فالرجل وابنته لديهما اعتقاد بأن كل من يتقدم لها - وهى الوحيدة - لابد أن يكون طامعًا فى ثروتها الكبيرة التى سترثها!! البنت نفسها تضع شروطًا معقدة فيمن تتزوجه! منها أن تحبه وأن تتأكد من أنه يحبها لشخصيتها كانت النتيجة أن تعقرب أمر زواجها! كثر الخطاب دفعة واحدة وانفضوا دفعة واحدة أيضًا!! على فكرة! هذا هو السر فى أن الشيخ السنى يكثر من دعوة الشيخة سعادة لعلها تنجح فى عمل سحرى يفك عقدة ابنته!!»

- «انتظر هنا يا بسبوسة! كيف تتأكد البنت من حب شخص أو عدم حبه ما دامت هى محبوسة فى البيت وليس لها علاقات كما أنها ليس لها عمل تحتك فيه بالشباب؟!»

شخر بسبوسة شخرة لم يسمعها لحسن الحظ أحد سوانا:

- «من قال إنها محبوسة يا سعادة البك؟! إنها أولا تخرجت فى الجامعة الأمريكية وتجيد عدة لغات إجادة تامة يمكن أن تعيش فى الخارج بدون أى مشاكل!! ثانيا هى عضو بارز فى نادى الجزيرة

وسيارتها البويك مركونة دائمًا أمام النادى! وتنزل حمام السباحة باستمرار! ومشجعة كبيرة لفريق النادى الأهلى لكرة القدم وتدفع للاعبين مكافآت فوز! وتعزمهم فى كل مناسبة! ولها صداقات قوية بين جميع كبار الفنانين بجميع مستوياتهم وألوانهم! ولعلمك فهى على علاقة ووثيقة بكثير من الأميرات العرب تعزمهن ويعزمنها باستمرار وتعرف بدلا من الشاب ألف شاب!! أما أن تعطى مفتاح قلبها ومفتاح خزينة أبيها لأحد فهذا هو بيت القصيدة! فهمت ياسعادة البيه!!»

قال هندى بهدوئه المعتاد، وثلاثة أرباع كلامه دائمًا غمز بالعينين والشفتين والحاجب واليدين، إذ يبدأ العبارة ويكملها بالغمز والحركات:

- «نسى بسبس أن يقول لك: إن بعض نجوم الفن اللامعين جدًا جدًا تقدموا لها! لكنها! كما تقول: إنها هى! هى المشكلة! والمشكلة هى! أخذت بالك؟ العقدة كلها فيها! دماغها! تعرف؟ دماغ مقطوش كدماغ أبيها بالضبط! وللعلم! أقولها ورزقى على الله! هى ليست! أقصد! من ناحية الجمال يعنى! فى مرة قربت وجهى من وجهها أتصدق؟ نفرت منها! أى والله نفرت! فى الأول كنت أتمنى تقبيلها! فلما اقتربت منها من غير قصد طبعًا تصور؟ جاءنى شعور بأننى سأقبل الحاج أحمد نوار الدين السنى فى شفتيه! هى جميلة طبعًا ما قلت فى ذلك شيئًا! إنما دمها! هو نفس دم الحاج! والحاج يمكن أن يكون خفيف الظل ولكن دمه على امرأة؟! إسمح لى!!»

ضحكنا فى مرح. قال بربش بلهجة حكيمة رصينة!

- «سيبك من كل هذا! البنت سوقها واقف لما يشاع عن علاقة محرمة بين أبيها وبينها! أستغفر الله العظيم يا جماعة! أنا شخصيًا لست متأكداً من صدق هذه الشائعة التى سمعتها بأذنى كثيرًا فى نادى الجزيرة مؤخرًا!! وما أستطيع تأكيده هو أن البنت مصابة بعقدة اسمها عقدة إليكترا قرأت عنها كثيرًا وفهمت أنها معروفة للأدباء وأطباء النفس!! مشهورة!! ومعناها أن البنت تعشق أباها أو أخاها نسبة لشخصية فى مسرحية عالمية اسمها اليكترا كانت هكذا والله أعلم!! وفى ظنى أن الحاج وإن كان بريئًا من الانس فإنه مسئول بشكل أو بآخر عن تنمية هذه العقدة فى نفسية البنت فقد أغدق عليها عطفًا مبالغًا فيه لأنها وحيدته ويتيمة من أم كان يقدسها لأنها صاحبة هذا العز الذى هو فيه وهذا البيت فى الأصل بيتها! البنت الآن عمرها فوق الثلاثين ولا ترى غيره أمامها! ومع ذلك تبدو كفتاة فى الإعدادية!!»

علق بسبوسة بخبث شديد:

- «والحاج هو الآخر عنس ولم يجد من تتزوجه رغم أنه حاول كثيرًا من أجل إنجاب ولد يرث ثروته! كل النساء اللائى تقدم لهن أيام الشقاوة كن يقبلنه فى الفراش ويرفضنه كزوج!! إنه فى الفراش دقرم جبار! لكن النساء مدربات على اكتشاف الرجل البسكوته! فالرجل البسكوته أحسن من يضاجع! وذوق الحاج يرميه دائمًا على نوع معين من نساء الذوق القديم اللائى لا

يعجبن ابنته ولا توافق عليهن!! يموت فى اللحم الكثير! والملحمات يفضلن ابتزازه بدلا من وجع الدماغ مع ابنته! فابنته هذه يكفيك شرها! أكبر متسلطة شفتها فى حياتى والحاج لا يخاف إلا منها!!»

قرفت والله يا خال من هذه الشلة الوسخة ولد الأبالسة، صحت فيهم بأعصاب متوترة:

ـ «المهم الآن يا ولد الأبالسة هل سنروح الحفلة؟!»

قال بربش فى حماسة:

ـ «طبعًا! نحن أول من يروح!!»

ـ «حلو! هل سنكون بكوات هذه المرة أم يا ترى سيصر البكوات على معاملتنا القديمة كخدم والاديش؟!»

قال هندى ساخرًا:

ـ «من فات قديمه تاه!!»

وقال غزولى:

ـ «اللهم علِّى مراتبنا ووطى نفوسنا!!»

وقال بسبوسة:

ـ «الناس على دين ملوكهم يا حسن بك! مثلما تفعل سنفعل!!»

وهتف بربش فى انفعال وجدية، مقطب الجبين:

ـ «ما هذا الكلام الفارغ؟ سنحضر كبكوات طبعًا! نضع أرجلنا فى عين التخين ونطلب من يخدمنا! نحن لابد أن نروح لنشعر

ببكويتنا! نفرضها! المثل يقول: أصلك وقتك! ونحن الآن فى وضع مختلف لقد محونا الماضى بأستيكة! والحاج نفسه لابد أن يكون واعيًا بهذا من قبلنا! وإن لم يفطن نفطنه غصبًا عنه!! من فيهم سيكون أشيك منك!؟! سيارتك أفخم!! والأهم من ذلك معك حاشية ورجال! وقابلت رئيس الجمهورية شخصيًا وتحدثت معه كأصدقاء! أنت يجب أن تكون نجم الحفل أنسيت الدرس الذى علمته لك؟ تصرف دائمًا كواحد من كبار رجال الدولة المتمتعين بالحصانة!!»

ـ «تشكر يا بو العم! أنا فعلا يجب أن أتذكر هذا دائمًا!! خلاص يا بو العم! نروح الحفل غدًا كبكوات!!».

فى مساء الغد كنا ـ أنا وولد الأبالسة ـ على سنجة عشرة. لبست بذلة كحلية اللون غامقة من الصوف الهيلد المعتبر على قميص لينوه الشوربجى زهرى اللون بياقة صلبة، ورباط عنق قرمزى اللون عليه رسوم زخرفية رصينة مشبوك بدبوس من الذهب الخالص.

أما الحذاء فإيطالى الصنع يلمع كالمرآة المصقولة رغم سواده الفاحم. كل ما كان يضايقنى هو منظر أصابع يدى بما تتراكم عليها من صدأ خشن لم تفلح الليفة فى تنعيمه. كذلك كانت شياكة الشلة كلها، حتى أن صياع مصر عتيقة الذين يعرفون أصولنا ظهر الانبهار الشديد فى عيونهم فانحنوا لنا فى تبجيل. وتلك هى الدنيا يا بوى، مظاهر فى مظاهر.

أوراق السر الأصغر

الولد بسبوسة الدقرم عينه ثاقبة طول عمره. لاحظ ونحن نقترب من بيت الحاج نوار أن الجو فيه شيء غير طبيعي: ثمة سيارات سوداء تركت في زوايا مظلمة تطل من وراء زجاجها عيون متلصصة متفحصة وشبان في ثياب بسيطة يقفون في زهو ولا مبالاة مفتعلة يقول منظرهم: نحن مهمون، يحتلون النواصي وحول البيت وسرادق البضائع ـ تكاد عين الواحد منهم تستوقفك تشدك من قفاك، لا لتستعلم عن شخصيتك وتستطلع هويتك بل لمجرد أن تقول لك نحن هنا...

في مدخل البيت، ذلك الممر الضيق القصير المؤدي إلى الباب الرئيسي وقف ثلاثة أشخاص لم نرهم من قبل ولانعرف عنهم أي شيء مع أننا نعرف كافة المتصلين بالحاج سواء من العملاء أو اللصوص أو السماسرة أو البلطجية أو الأصدقاء.

كانوا على شيء من اللباقة والمرونة والفهلوة، يوهمون كل داخل أنهم من الاديش الحاج أوقفهم هنا لإدخال المدعوين فحسب ممن يحملون بطاقة مطبوعة باسمهم، واحتجاز كل ذي شكل مريب.

كانوا ـ تقريبًا على وعي بكل داخل ـ ينادون البعض بأسمائهم مسبوقة أو متبوعة بلقب: بك وباشا.

ربك والحق لم أسترح لهذا الجو يا بوي. بالفهلوة شعرت أن ولد الأبالسة من الشلة الوسخة يعرفون حقيقة الأمر ولا يريدون

كشفها لى لسبب من الأسباب، فلربما وقر فى أذهانهم أننى لو عرفت السر الذى يعرفون فقد أرتبك أو تنهار شخصيتى حيث كثيرًا ما يشعروننى بأن لهم الفضل فى تلفيقها بنجاح يشهد ببراعتهم.

كنا نمشى بقوام مشدود ووقار يليق ببكوات أصلاء: بربش على يمينى، وبسبوسة على يسارى، وغزولى وهندى خلفنا لزوم الحرس والتأمين متعمدين إظهار ذلك المظهر للعيان سيما وأن هندى كان بارعًا جدًا فى تقليد دور الياور أو البودى جارد المطلوب منه حماية شخصية كبيرة. همست لبسبوسة:

- «ماذا فى الأمر يا بسبوسة؟! المسألة فيها سر! ويظهر لى أنك تعرفه!!»

فبادر بربش بلهجة من يطمئن طفلاً متوجسًا:

- «بالعكس! الأمر واضح ومفهوم! فمن بين المدعوين عضو وربما أكثر بمجلس قيادة الثورة! ومن المؤكد طبعًا أن محافظ القاهرة ومحافظ الجيزة مدعوان! ولو شغلت مخك الصعيدى فإنه يقول لك إن المدعوين فى مثل هذه الحفلات الكبيرة هم دائمًا أشبه بالمجاميع المرتبطة ببعضها! بمعنى أنك إذا دعوت فلانًا فلابد أن تدعو بقية الطاقم الموازى له فى الأهمية! يعنى سيكون هنا بالضرورة مدير الأمن ومساعدوه ورجاله! وعلى كل ماذا يهمنا؟

راسنا براس الجميع هنا! أنت أيضًا طاقم! فبما أنك عضو فى البرلمان وصاحب أعمال فلابد أن يرافقك رجالك!!»

رفع يده بالتحية العابرة للثلاثة الواقفين، بحركة غاية فى الرصانة المتقنة لا يفعلها إلا كل شخصية خطيرة ذات نفوذ. بذلك ردوا عليه فى احترام وحماسة كبيرين:

ـ «أهلا يا افندى! شرفتم! تفضلوا!!»

تقدمنا أحد الأدلاء إلى الطابق الثانى حيث الردهة الكبيرة المستطيلة العريضة المعدة فى الأصل لمثل هذه الاحتفالات حيث ترتفع أرضها فى ركن منها بما يشكل مسرحًا. جعل الدليل يرشدنا إلى الأماكن المخصصة لجلوسنا وفقًا لترتيب محكم.

المقاعد أفخم من مقاعد سينما الدرجة الأولى، سمعت أن شركة متخصصة تأخذ الحفل من بابه مقاولة، من المقاعد حتى العشاء والحلويات وجميع أنواع المشروبات. جلسنا متفرقين يا بوى، أنا فى مقدمة الصف الثانى بجوار وزير الداخلية مباشرة، فى حين جلس رجالى فى صف يبعد خلف ظهرى بحوالى عشرة صفوف.

أكون كاذبًا يا خال لو قلت إننى لم أرتجف من وزير الداخلية. تصور يا بوى، لم أرتهب من جلستى مع الرئيس وارتعبت من وزير الداخلية وكتفى تلامس كتفه وفخذى يكاد يلتصق بفخذه. كنت أشيك منه بكثير جدًا، ومع ذلك فقد تجمع كل خوفى الأزلى من البوليس وكرهى الشديد له وانتصب واقفًا فى جوفى كعود الحديد فى كير الحداد المشتعل...

تذكرت فى الحال نصيحة بربش: أنت حيث تضع نفسك بشرط أن تكون قـويًا من داخلك. عنـد ذلك اصطنعت كـأننى لم أكن قـد انتبـهت للوزير أثناء جلوسى بحكم التهانى فى الزحـام والأضواء والحركـة الصاخبـة على الحلبة المرتفـعة، وهاأنذا بدأت أتبـين ما حولى، و:

ـ «أهلا يا فندم فرصة سعيدة! لا مؤاخذة! العتب على النظر!!»

بكل أريحية واحترام هز الرجل رأسه فى امتنان:

ـ «أهلا يا حسن بك! احنا الأسعد!!»

أخرجت علبـة السجائر الأجنبـية الطويلة ماركـة دوموريه، ثم قدمتها له:

ـ «سيجارة حضرتك!»

ـ «شكرًا!»

وأطفأ عقبًا كان بين أصبعيه، فى طفاية واقفة بين كل مقعدين، ثم تناول سيجـارة من علبتى. وبسرعة أخرج ولاعـته الرونسون البيضاء و.. تك أشعل لى، ثم له..

فجأة رأيت عبد الحليم حافظ واقفًـا على الحلبة، فضجت القاعة ضجيجًا لا مثيل له يا بوى صياح وصفير وهياج وزغاريد مدوية. شكرهم عبد الحليم ممسكًا بالميكروفـون فى زهو حبيب، وقال إنه رغم مرضـه وانشغاله لم يطاوعـه قلبه فى عدم الحـضور وأنه ـ بعد إذنهم وإذن الآنسة العزيزة ـ سيغنى أغنية واحدة يختارونها

فضج الحضور بالطلب حتى استحال معرفة ما يطلبونه، لكنه هو الوحيد الذى عرف أنهم طلبوا أغنية: زى الهوى، إذ سرعان ما شوح بذراعيه للفرقة الموسيقية فانسابت على أوتار نغمات زى الهوى يا حبيبى زى الهوى وآه م الهوى يا حبيبى آه م الهوى.. يا حبيبى.

صارت القاعة تصاحبه بالتصفيق على الواحدة، وصار هو يعيد ويزيد ويترنم حتى استغرقت الأغنية نصف ساعة كاملة.

لوح بيديه بالتحية فالتقته الآنسة وهو يهم بالانصراف، احتضنته محتفظة بمسافة على قدر الحرج، فقبلته على خديه؛ رشقت على صدره جعرانًا فرعونيًا مطعمًا بالأحجار الكريمة بالغ الجمال، فمال عليها قبلها فى خديها، ثم انصرف وسط تهليل وتصفيق وصفير.. بعده طلعت نجاة الصغيرة فغنت! وصفوا لى الحب وأما غريبة، وتألقت فعلاً يا خال.

ثم توالت النمر، وكلها دسمة مبهجة: محمد رشدى، مع الراقصة سهير زكى، على نغمات عدوية وآه يا ليل يا قمر، محمد قنديل مع الراقصة نجوى فؤاد وأغنيتى جميل واسمر وأبو سمرة السكرة، عبد اللطيف التلبانى وبرج الجزيرة الله على سحرها، ماهر العطار وبلغوه، ومحمد العزبى ومواويله، فايزة أحمد ويا أمه القمر ع الباب، عادل مأمون وياللى مالكش حبيب بعدى تعالى هنينى وحدى، شادية وعلى شط النيل يا حبيبى، عايدة الشاعر أيوا أه، ليلى نظمى وع الزراعية يا رب أقابل حبيبى، أما شكوكو

فقد أكل الجو كله يا بوى. وكان الحاج قد استلمه بمجرد وصوله فأرسله إلى القمرة العليا حيث عجن الصبيان دمه بالحشيش الصافى، ونزل منها مرتديًا الجلابية والطرطور، متحزمًا بشال، وهات يا رقص ويا تنكيت ومواويل فكاهية وحوار مع الأراجوز.. بعده انصرف الكثيرون، صفصفت القاعة على الصفين الأماميين وبدأت فرقة موسيقية أخرى تدوزن أوتارها استعدادًا لوصلة سيد مكاوى..

أثناء ذلك حازانى الحاج نوار الدين ولكزنى، ثم غمزنى بأن أتبعه، فإذا هو يصعد بى إلى القمرة العلوية، فوجئت على آخر سلمة بأننى وحدى، فهممت بالنزول طالبًا رجالى، فلكزنى بلهجة مفحمة حازمة:

ـ «لا تكن مخلولاً!! هذه قعدة سرية وخاصة جدًا!! ولولا علاقتك بالشيخة سعادة وكونك برلمانيًا ما دعوتك إليها!! ولكن اطمئن فرجالك هم أولادى كما تعرف وقد طيبت خاطرهم وشرحت لهم الموقف بوضوح وصراحة فتقبلوه عن طيب خاطر!! هم الآن سابحون مع الويسكى المعتبر وسيد مكاوى! خش خش!!»

دخلت يا بوى. محمد بك أبو شناف ـ تانى؟! فى المواجهة كالعادة. تحلف اليمين يا بوى كدت أهتف صائحًا: أهلا سيادة الرئيس. هو بعينه يا بوى الخالق الناطق، ولولا أن الطاقية الشبيكة على رأسه، والجلباب السكروتة الأبيض، والعصا الأبنوس بجواره، كل ذلك يشهد بأنه فلاح قادم لتوه من العزبة،

لا يمكن أن يكـون هذا العـمـدة الريفى القح هو نـفـسـه ذلك البك المانيكان الذى استـقبلنى بالأمس فى قصره بجـدية هائلة وملامح وجه محايدة تمامًا.

انتعشت ملامح وجـهه بمجرد رؤيتى، وبنفس الصوت المألوف صاح:

ـ «من؟ حسن؟ معقول؟ يا أرض احـفظى ما عليك! ألف مبروك يا سيادة النائب! ألم أقل لك تشجع وافعلها؟ هأنت فعلتها ونـجحت! مليون براوة عليك! لا أحد أحسن من أحد!!»

سلمت عليـه بحرارة، وعلـى ذلك المدعو حـسن بك ذى اللحيـة السكسوكـة والوجه المتـجهم الذى سبق والتـقيـته فى استـراحة القناطر. وكانت الشيـخة سعادة قد راحت ترقبنى من قـعدتها فى الركن من تحت الخـمـار الشـفـاف الذى أمـعن فى إبراز مـلامح وجهها، بأنفها المستقـيم المدبب قليلاً فى شموخ، وخديها البارزين وعينيـها الواسـعتين السـوداوتين الساحرتين ومـع ابتسامـة ثقة وإعـجاب وزهو تضىء ثغـرها فـيمـا هى تتـأمل ـ شبـه ذاهلة ـ شياكتى وبكويتى التى بدت متسقة على هيأتى.

سلمت عليـها ناظرًا فى الأرض، قـبلت يدها الملفـوفة فى قـفاز حريرى، ثم جلست بجوارها متربعًا على الشلتة العالية.

قال محمد بك أبو شناف:

ـ «الليلة يا ستنا الشيـخة أنا مشوق لمعرفـة طالعى!! إفتحى لى الكوتشينـة أقصد إقـرئى لى ورقى عندك!! أنت سـحرتـنى بالفعل

ليلة قرأت لحسن بك طالع البلد ومستـقبلها كدولة! من ليلتها وأنا أحلم بأن تقرئى لى ورقى فأنا فى الحقيقـة أمر الآن بفترة انتقال جذرية وصـعبـة وأحب أن أعرف رأسى من قدمـى!! فمن يدرى؟ ربما استنرت برأيك واستبـصرت حقيقة سككى وحظى معـها كما يرمز له الورق! فابدئى باسم الله!!»

فتحت الشيخة سعادة حقيبتها السوداء، أخرجت حزمة الورق، فكت لفافتها الحريرية الحمراء، فصلت الجزء الصغير الذى مازلت أذكر أن اسمه أوراق السر الأعظم، أعادته إلى الحقيبة، أبقت الجزء الكبير فى يدها وهو المسـمى ـ فيما أذكر بأوراق السـر الأصغر. قالت لمحمد بك أبو شناف:

ـ «كم عمر سيادتك؟!»

قال بنبرة من التفاخر المصطنع:

ـ «ستة وخمسون عامًا على وجه التقريب!!»

صاحت الشيخة فى ابتهاج:

ـ «بعدد أوراق السر الأصغر!! هذا فال سعيد من أولها!!»

ـ «الحمد لله! كله بفضل الله وبركة دعاء الوالدين!!»

هكذا قـال وهو يتلمظ ثم يشعل البـايب فى استـمتاع طـفولى كبير. الشيخة قدمت له الأوراق يا خال:

ـ «قم بنفسك بتقنيط الورق دون أن تنظر فيه!!»

بحركـة لاعب كوتشينة عـريق ومدرب قام بتـفنيط الورق عدة مرات بحيث يضمن أن كل ورقة كـانت تالية للأخرى لم تعد تالية لهـا. ثم قـدمه إليـهـا مـقلوبًا على وجـهه مـثلمـا نفـعل مع ورق الكوتشينة بالضبط يا بوى.

قلبت هى الورق على ظهره فى يدها، نازعة الورقـة ملوحة بها فى غبطـة، ثم أعادتها فـوق الورق، وأزاحت الخمـار عن وجهـها، فأضـافت إلى ضوء الحجرة ضـوءًا جديدًا يا خال حـتى لقد بحلق فيـها الجمـيع منسحرًا بـهذا الجمـال الخمرى الهـادئ الرصين بكبريائه العظيم.

عندئذ قال محمد بك أبو شناف متعمدًا إظهار نبرة الغزل:

ـ «يا أرض احفظى ما عليك!!»

وقال حسن بك فى تحفظ وتحرج:

ـ «ما شاء الله! ما شاء الله!! جوهرة مكنونة!»

وعلق الحـاج أحـمد نوار الدين السـنى وقد برقت فى عـينيـه نظرته الطفولية الشقية المرحة العابثة:

ـ «قل لها يا حـسن بك: حرام إخفاء هذا الجـمال الربانى!! هذا بخل يا ستنا الشيخة!!»

نكست وجهى فى الأرض وقد غلت الدمـاء فى عروقى يا خال، صرت أقـرأ الفاتحة فى سـرى حتى لا تفضـحنى عيونى أو أفـقد توازنى. أما الشيـخة سعادة فقـد احمر وجهها وتحـول إلى بسمة

نضرة، ولما راقبتها من تحت لتحت رأيتها تعيد النظر في الورقة المسحوبة وتنقل بصرها بين الورق وملامح وجه محمد بك أبو شناف. كانت الورقة عبارة عن مجموعة من السيوف المتقاطعة كأنها غابة من السيوف كل سيف يحاول قطع الآخرين من منتصفه.. قالت الشيخة سعادة:

ـ «كنت تنوى السفر فى هذا الأسبوع!!»

شحب وجهه فى الحال يا بوى، دمدمت البوارق فى عينيه حتى كدنا نسمع لنظراته صوتًا يا خال. لكنه قال:

ـ «صح!! أنا أنوى السفر بعد غد إلى مكان ما!!»

ـ «زيارة عمل استطلاعية!!»

ـ «داخل مصر طبعاً!!»

ـ «ينصحك الورق بعدم السفر إلى هذا المشوار!!»

ـ «كذا!!»

ـ «هكذا يقول الورق!!»

نكس رأسه متفكرًا فى عمق وحيرة تدخل حسن بك فى شيء من القلق الذى يخفى رغبة قوية فى معرفة ما وراء هذه النصيحة. قال بلهجة من يعرف حقيقة المشوار المقصود:

ـ «رأيى يا ستنا الشيخة أن تكشفى له الورق أكثر!! صارحيه بما ترينه فى الورق!!»

ـ هزت الشيخة سعادة رأسها بالموافقة:

ـ «واجبى أن أنبهـه إن كان سيادته مصرًا على معـرفة السبب فإننى أقوله!!»

ـ «قوليه طبعًا! ليس هنا من أحد غريب!!»

ـ «هناك نية غدر فى طريقك! مؤامرة لقتلك من ناس متلاحمين بك تلاحم هذه السيـوف ببعضـها! السكة معـقربة تمامًا! سـيوف تتقاطع!!»

زام فى قلق كبير جدًا يا بوى:

ـ «الأمر هكذا إذن! والله قد حـدثنى قلبى بشـىء من هذا صباح اليوم! قلب المؤمن دليله فـعلا!! وبعد يا سـتنا الشيخة؟ مـاذا يقول الورق أيضًا؟!»

ـ «دعنى أرتب أوراق الكشف فى مجـموعاتهـا الأربع لكى أقرأ لك الورق من جميع النواحى!!»

شـخصنا إليها جميـعا يا خال، فيما راحت هى تفرق الورق على الأرض فى أربع مجموعـات متجانسات، كل مجمـوعة أربع عشرة ورقة. أظن أننا جميعا حفظنا شكل الورق، ورقة ورقة..

هذه هى المجمـوعة الأولى: الورقة الأولى منهـا مرسوم عليـها سـيف نتار تمسكـه يد. الورقة الثـانيـة مرسـوم عليـها سـيفـان متـقاطعـان فى حركة التـفاف مـقوسة بيـضاوية يتـوسط الفراغ بينهـمـا وردة حمـراء على بسـاط من زهور وأغـصـان صفـراء

وخضراء. والورقة الثالثة مرسوم عليها ثلاثة سيوف. اثنان منها فى حركة التفاف بيضاوية، والسيف الثالث يخترق هذا الشكل البيضاوى عموديًا، تتفرع من هذا السيف أغصان الزهور بأوراق حمراء وخضراء وصفراء فكأن السيف هو الذى طرحها.

الورقة الرابعة أربعة سيوف متعاشقة فى نفس الشكل البيضاوى كل سيفين يخترقان السيفين المتقابلين من الأطراف، وفى قلب البيضة غصن أخضر على أصفر تتوسطه وردة حمراء، وعند الأطراف المتعاشقة ورد، وأغصان.

الورقة الخامسة تشبه الرابعة فى شكل رسمها إلا أن السيف الخامس يخترق البيضة عموديًا، يلتف حوله غصن بأوراق خضراء، أما مقبض السيف فأصفر على أحمر على أزرق.

الورقة السادسة ستة سيوف،كل ثلاثة تتعاشق أطرافها مع الثلاثة المتقابلة فى شكل بيضاوى يتوسطه غصن بأوراق خضراء وصفراء وحمراء فى نهايته زهرة لوتس متفتحة عن أكمام صفراء. الورقة السابعة تشبه فى رسمها الورقة السادسة إلا أن السيف السابع يخترق البيضة عموديًا، والأرضية تخلو من أى زهور أو أغصان. الورقة الثامنة مرسوم عليها ثمانية سيوف كل اربعة تتعاشق أطرافها مع الاربعة المتقابلة فى شكل بيضاوى، تتوسط الأرضية زهرة على شكل النيشان. والورقة التاسعة تشبه فى رسمها شكل الورقة الثامنة إلا أن السيف التاسع يخترق البيضة، والأرضية بيضاء من كل رسم. الورقة العاشرة تشبه

التاسعة هي الأخرى إلا أن السيفين التاسع والعاشر يخترقان شكل البيضة فى تقاطع من عند الرأس على شكل ميزان القبانى. الورقة الحادية عشرة مرسوم عليها صورة ملك يلبس التاج على رأسه ويمسك بيمناه سيفًا أصفر اللون كلون التاج مسكة تشريفية وسن السيف مرفوع لأعلى، أما بذلة الملك فلونها خليط من الأصفر والأزرق وهى قطعتان عبارة عن سترة ووشاح حول ساقيه جوربان أحمران وفوق الوشاح عباءة حمراء. والورقة الثانية عشرة مرسوم عليها صورة ملكة تلبس التاج على رأسها؛ هى الأخرى تمسك بيمناها سيفًا أصفر اللون مثل تاجها، وإذا كان الملك يمسك السيف جالسًا على كرسى العرش فإنها أمسكته واقفة بحركة من تتأهب لأداء رقصة وقد بسطت كف يسراها كمن يشرح شيئًا لأحد، سيما وأن قوامها رشيق بديع، فستانها ينساب ذيله على الأرض أزرق اللون فوقه مريلة بكتفين أحمرين حتى الجذع أما بقية المريلة فلونها بنى فاتح بكورنيش فيه زخارف زرقاء على أرضية صفراء. الورقة الثالثة عشرة مرسوم عليها صورة فارس بدرع أزرق وعباءة حمراء، يركب فوق حصان جامح مندفع مرفوع القدمين الأماميتين فى حالة انقضاض، فيما أمسك الفارس بيمناه السيف فى حالة من يهم بالضرب، أما الورقة الرابعة عشرة والأخيرة فمرسوم عليها شاب فتى عارى الساقين يرتدى ما يشبه الفستان لونه أزرق بخطوط حمراء، واضعًا يسراه خلف إليتيه في حركة انثناء رشيقة، وبيمناه أمسك السيف مسكة تشريفية خالصة.. حاجة تهوس يا بوى.

تلك هى المجموعة الأولى يا خال. أما المجموعة الثانية فالورقة الأولى فيها مرسوم عليها قطعة نقود دائرية، فوقها نقوش زخرفية، والقطعة موضوعة بين غصنين عموديين على شكل الرسوم الزخرفية التى نراها فى بعض البوابات الحديدية، مما يدل على أن جميع النقوش الزخرفية التى نراها اليوم على البوابات والأبسطة وحوائط الريفيين المدهونة بواسطة الاسطنبة إنما هى مأخوذة من هذه الرسوم وأمثالها يا خال.

الورقة الثانية مرسوم عليها قطعتا نقد كالبريزة الفضية يحتاط بهما شريط طبق الأصل من شريط التصوير السينمائى قبل تحميضه يأخذ شكل علامة استفهام برأسين، وكل قطعة موضوعة داخل رأس من رأس علامة الاستفهام هذه.

الورقة الثالثة مرسوم عليها ثلاث قطع دائرية، والورقة مقسمة نصفان بالطول فى قلب النصف الأول قطعة تحتاط بها الغصون والأوراق. فى قلب النصف الثانى قطعتان متجاورتان تفصل بينهما غصون وأوراق، القطع الثالثة منقوشة بالأصفر والأخضر الزرعى والأغصان زرقاء على حمراء، يفصل بين نصفى الورقة وردة على شكل النيشان.

الورقة الرابعة عليها أربع قطع وهى الأخرى مقسومة نصفين، كل نصف عليه قطعتان متجاورتان بنفس اللونين الأصفر الأخضر، وكل قطعتين يفصل بينهما غصن مهيب قاعدته حمراء وأوراقه زرقاء على الجانبين، وفى الوسط أكمام لوتس صفراء متفتحة.

الورقة الخامسة عليها خمس قطع نقدية، اثنان في اليمين واثنان في الشمال وخامسة في المنتصف، ويفصل بين القطع غصون وأوراق لوتس حمراء.

الورقة السادسة مرسوم عليها ست قطع نقدية بنفس النقوش بنفس الألوان، كل ثلاثة في جانب في وضع مثلث: اثنان وفوقهما واحدة، ويفصل بين المثلثين غصون حمراء على زرقاء تتفرع من شيء شبيه بالنيشان.

الورقة السابعة تشبه هذه الورقة في تشكيلها. كل ثلاث قطع في وحدة ثلاثية الوضع في ناحية أما القطعة السابعة ففي منتصف الورقة تحيط بها الغصون والأوراق.

الورقة الثامنة مقسمة إلى نصفين، في كل نصف أربع قطع متقابلة تشبه في وضعها شكل الصليب كل ضلع من أضلاعه الأربعة تمثله قطعة، أما مركز الصليب عند نقطة التقاطع فيشبه مخدة بنية اللون غائرة من أطرافها الأربعة كأن كل قطعة قد طبعت على طرفها مستقرها المقوس، ولكنك يمكن أن ترى الورقة على شكل آخر بأن ترى ثلاث قطع في كل جانب وبينهما قطعتان متجاورتان يفصل بينهما غصنان متعاكسان.

الورقة التاسعة شكلها أبدع: أربع قطع متجاورة في أعلى الورقة، وأربع قطع متجاورة في أسفلها، والقطعة التاسعة في قلب الورقة كأنها نقطة الربط بين الأربع والأربع، يمتد بالطول من جوار القطعة التاسعة هذه غصن زهرة لوتس مزدوجة متفتحة من ناحية ومضمومة من الناحية الأخرى، والطرفان المتفتحان يفتحان

على القطعة التاسعة من الجهتين، الغصنان لونهما أحمر، وكل غصن يتفرع منه فرعان متقابلان لونهما أزرق.

الورقة العاشرة منقسمة إلى وحدتين، فى كل وحدة خمس قطع، اثنان فى الأعلى واثنان فى الأسفل، والخامسة فى القلب، يفصل بين الوحدتين غصن متفتح أحمر اللون.

الورقة الحادية عشرة مرسوم عليها صورة ملك يلبس التاج على رأسه أصفر اللون ويلتحف بعباءة حمراء غامقة يجلس على كرسى العرش ممسكًا بيسراه عصا صفراء، وبيمناه قطعة نقد كالرغيف، كأنه يهم بقذفها إلى بعيد.

الورقة الثانية عشرة مرسوم عليها ملكة تلبس التاج الأصفر، ترتدى ثوبًا سماويًا فوقه بلوزة فى لون عسل النحل وهى الأخرى تمسك بيسراها عصا صفراء وبيمناها قطعة نقد مشجرة كأنها تعرضها فى المزاد.

الورقة الثالثة عشرة مرسوم عليها صورة فارس فوق حصان فى لون جذوع الشجرة، يمسك بيمناه سيفًا مخفوض الرأس لأسفل، على رأسه خوذة يبزغ من رأسها زر كخصلة من ذيل الحصان ، وخلف رأسه قطعة نقد سابحة فى الهواء كأنها من أضغاث أحلامه.

أما الورقة الرابعة عشرة فمرسوم عليها صورة شاب فتى عارى الساقين على صدره درع مشغول بالقصب، ويرفع بيمناه قطعة نقد ويشير بسبابة يسراه إلى الأرض.. حاجة تهوس يا بوى..

أما المجموعة الثالثة يا خال، فالورقة الأولى منها مرسوم عليها صورة كأس لها غطاء كالسكرية عليه زخارف باللون الأصفر والسمنى والأخضر والبنى فى وسطها رسم صليب واضح ومحدد.

الورقة الثانية يا خال عليها كأسان من شكل مختلف بلا غطاء، أرشق من الأول وأرق يفصل بينهما غصن كشجرة تحتوى الكأسين من الجانبين.

الورقة الثالثة مرسوم عليها ثلاث كئوس، اثنتان فى القاعدة وواحدة فى الأعلى فى منتصف المسافة بين الكأسين، لكن الزهور والأغصان تملأ الفراغ من جانبيه تحفظ للصورة توازنها، يفصل بينه وبين الكأسين، وبين الكأسين وبعضهما غصن مزدوج بعنقودين من العنب.

الورقة الرابعة مرسوم عليها أربع كئوس، اثنتان متجاورتان فى الأسفل، والمساحة الفاصلة بين الاثنتين والاثنتين ملآنة بالزهور المتفتحة، لونها لون الكئوس خليط بين الأحمر والأصفر والأخضر، ويفصل بين الكأسين الأعليين عصاتان متقاطعتان مربوطتان عند التقاطع بشريط حريرى أزرق.

الورقة الخامسة تشبه الرابعة: كأسان فى الأعلى وكأسان فى الأسفل، والكأس الخامس فى المنتصف بين غصنين أحمرين متفتحين.

الورقة السادسة مرسوم عليها ست كئوس، ثلاث متجاورة فى الأعلى وثلاث متجاورة فى الأسفل، والمساحة بينهما ملآنة بغصن يأخذ شكل العقرب، ملون بالأحمر والأزرق، أما الكئوس فكلها صفراء اللون مشوبة بالاخضرار الخفيف ومكرنشة عند القاع بحزام أحمر فاقع كحبات عناب متكومة.

الورقة السابعة تشبه السادسة فى شكلها إلا أن الكاس السابعة فى منتصف الورقة، تحتاط بها زهور ثمار فى لون التمر وشكله.

الورقة الثامنة مقسمة إلى ثلاث وحدات: ثلاث كئوس متجاورة فى الأعلى، ومثلها فى الأسفل، واثنتان متجاورتان فى المنتصف، والمساحات بينهما ملآنة بالزهور والثمار.

الورقة التاسعة مرسوم عليها تسع كئوس: أربع فى الأعلى وأربع فى الأسفل والتاسع فى المنتصف يحف به من الجانبين غصنا زيتون.

الورقة العاشرة تشبهها فى الشكل إلا أن الكاسين التاسع والعاشر فى المنتصف، فوقهما غصن زيتون وتحتهما غصن زيتون.

الورقة الحادية عشرة مرسوم عليها صورة ملك يلبس التاج ويجلس على كرسى العرش يتكئ بيسراه على منضدة سطحها الرخامى مثبت على رقبة حصان وقائم كقدم الحصان طبق الأصل، عصا الملك نائمة على كتفه الأيسر، وقد أمسك بيمناه كأسًا كأنه يقول: فى صحتك.

الورقة الثانية عشرة مرسوم عليها صورة ملكة تلبس التاج الأصفر وتقف ممسكة بيسراها نفس العصا وبيمناها كأس تقدمه لمجهول غير ظاهر.

الورقة الثالثة عشرة مرسوم عليها صورة فارس فوق حصان يخب خببًا ويمسك بيمناه كأسًا كأنه ينادى على من يملؤه له.

الورقة الرابعة عشرة مرسوم عليها صورة شاب فتى كامل اللباس يمسك بيمناه غطاء رأس كالقبعة، وبيسراه كأس فى مستوى وجهه يبحلق فيها بعينيه.. حاجة تهوس يا بوى.

أما المجموعة الرابعة، فالورقة الأولى منها مرسوم عليها صورة عصا غليظة جدًا كفرع مقطوع لتوه من شجرة لا تزال أغصانها وأوراقها عالقة به، تمسكها يد قوية بألوان حمراء وصفراء ومخضوضرة.

أما الورقة الثانية فمرسوم عليها عصاتان متقاطعتان بعلامة إكس، تشبهان أعمدة السرير الفلاحى القديم ذات العساكر النحاسية، وكل الفراغات حول التقاطع من جميع النواحى ملآنة بأوراق شجر كبيرة تأخذ شكل طيور بمناقير، لونها أصفر وأخضر أما العصاتان فالأولى جزؤها الفوقى أحمر ورأس زرقاء فوقها رأس أخرى صفراء، والجزء الوسطى أزرق والجزء السفلى بنفس لون الجزء الفوقى، وكذلك العصا الثانية جزؤها الوسطى أصفر والفوقى والسفلى أزرق ورأسها حمراء وصفراء.

الورقة الثالثة يا خال مرسوم عليها ثلاث عصى، اثنتان منها متقاطعتان والثالثة تخترق التقاطع عموديًا، والفراغ فى الجانبين ملآن بأوراق شجر على شكل طيور مريشة.

الورقة الرابعة مرسوم عليها أربع عصى، اثنتان منها تتقاطعان مع اثنتين، وفراغ الجانبين مشغول بأوراق شجر على شكل طيور تنوعت أجناسها أما الفراغان الفوقى والسفلى ففي كل منهما غصن مورق ينتهى بوردة.

الورقة الخامسة مرسوم عليها خمس عصى، وشكلها يشبه شكل الرابعة إلا أن العصا الخامسة تخترق التقاطع عموديًا، قد طرحت العصى أغصان ورد مورقة وامتلأت الفراغات بأوراق شجر على هيئة طيور.

الورقة السادسة ثلاث تتقاطع مع ثلاث تحتاطها الأغصان المورقة والورود، الورقة السابعة شكلها نفس شكل السادسة إلا أن العصا السابعة تخترق التقاطع عموديًا والفراغات ملآنة بالأغصان المورقة .

الورقة الثامنة أربع تتقاطع مع أربع، والفراغات القليلة تزدان بأغصان ورد مورقة.

الورقة التاسعة شكلها نفس شكل الثامنة إلا أن العصا التاسعة تخترق التقاطع عموديًا مع زهرتين فى موضع التقاطع.

الورقة العاشرة شكلها نفس الشكل إلا أن العصا التاسعة والعاشرة تخترقان التقاطع عموديًا مع زهرتين فى موضع التقاطع.

الورقة الحادية عشرة مرسوم عليها صورة ملك يلبس التاج ويجلس على كرسى العرش ممسكًا بعصا طويلة كالحربة.

الورقة الثانية عشرة مرسوم عليها صورة ملكة تلبس التاج على رأسها وتقف ممسكة بعصا، نفس عصا الملك فى يمناها، وفى يسراها شىء غامض تشير به إلى العصا.

الورقة الثالثة عشرة مرسوم عليها فارس فوق حصان شرس متمرد رافع قدميه الأماميتين فى نكوص وإحجام، والفارس يرفع العصا بيمناه كأنه يهم بضربه لإلزامه حد الطاعة.

الورقة الرابعة عشرة مرسوم عليها شاب فتى يقف فى وضع انتباه، يمسك بيسراه غطاء رأس كالقبعة وبيمناه العصا بمسكة حربة.. حاجة تهوس يا بوى..

كلنا يا خال دفعنا الفضول إلى التفرج على هذه التصاوير وفحصها ورقة ورقة كأننا نبحث خلف تصاويرها الغريبة هذه عن أسرار مهولة غامضة.

وقال محمد بك أبو شناف:

- «شىء فى منتهى العجب! هى بالفعل أوراق سحر! ولابد أن راسمها قصد من ورائها شيئًا رمزيًا!!»

وقال حسن بك ذو اللحية السكسوكية غير المنسقة على شكله كواحد من الضباط الأحرار وعضو مجلس قيادة الثورة كما يزعمون:

- «أوراق السحر هكذا دائما يا محمد بك! سبحانه جلت قدرته يعطى أسراره لمن يشاء ويلهم قراءتها من يشاء! لقد خاطبنا سبحانه وتعالى بالكلمة المصورة فى قرآنه فلا عجب أن يلهم عبيده مخاطبته بالصورة المرسومة الملونة!! يضع سره فى أضعف خلقه يا محمد بك! وأنا وأنت وأمثالنا من المتعلمين تعليمًا عاليًا لا نفقه شيئًا فى مثل هذه الأمور السحرية على سبيل المثال فى حين قد يفقه فيها من لم يدخل المدارس!! ملك يا محمد بك نظمه سيده!! سبحانه تبارك وتعالى!!»

أخذ الحاج أحمد نوار الدين السنى يلوح بأصابعه الطويلة الصدئة المزدانة بخواتم فضية وذهبية غليظة، فى الأصبع الواحد خاتمان وربما ثلاثة.

نظرته الصبيانية العابثة المرحة تتلألأ فى عينه وهو يقول:

- «شف يا حسن بك! والكلام لك أيضًا يا محمد بك! هذه الأوراق مصرية أى نعم لكنها مرسومة فى العصر الرومانى! هذا واضح!! ملامح الوجوه رومانية! حتى الشعر وطريقة تصفيفه! طبعًا!هذا لا يمنع أن تكون الأفكار مصرية فرعونية ولكن..»

قاطعه حسن بك:

- «الله أعلم على كل حال!! ولكن ما قولك أننى كنت على علاقة ذات يوم قريب ببعض الأسياد من الجن من ذوى الجنسية المصرية!!..».

قاطعته الصاعقة، أقصد الضحكة يا خال، التى فجرها محمد بك أبو شناف، فاتسعت فى التو أصواتنا جميعًا فيما راح حسن بك ينظر فينا بحرج شاحب السمات.

وكان محمد بك يهتز من فرط الضحك العميق ويمسح عينيه بمنديل.

قال الحاج أحمد نوار الدين السنى بلهجة اعتراض يشوبها التحفظ الساخر.

- «هذه أول مرة أعرف أن هناك جنيًا مصريًا وآخر سودانيًا وشاميًا وتركيًا!!»

هتف حسن بك فى غضب مشيرًا إلى الشيخة سعادة التى كانت تكتم ضحكها بقوة خرافية:

- «اسأل ستنا الشيخة وهى تقول لك!!»

فى ذكاء منقطع النظير وسرعة بديهة تحسد عليها قالت الشيخة سعادة:

- «عدم المؤاخذة! الجن يتشكل للإنسان فى صور كثيرة! ربما جاء على هيئة امرأة جميلة من أولاد البلد المصريات! فلا تستغرب

يا عم إذا لا سمح الله الشر بره وبعيد ـ ركبك جن إنجليزى أو فرنساوى!!»

بلهجة من لا يريد الدخول فى تفاصيل رغم كل غيه فى عدم اقتناع واضح:

ـ «ممكن على كل حال! كل شيء جايز!!»

ـ «طبعًا يا عم الحاج! ما دمت آمنت بوجود الجن فلابد أن تؤمن بكل ما يفعله وما يظهر به من أشكال وأرواح وشخصيات وكل ما لا يخطر على البال!!»

هكذا أضافت الشيخة سعادة، فعلق حسن بك فى حماسة بالغة:

ـ «أفادك الله يا ستنا الشيخة!! الجن نفسه كان يزورنى فى أوقات عصيبة! أحيانًا وأنا مجتمع بزملائى! ويقول لى كلاماً غريبًا: أنا مصرى وخائف على مستقبل البلاد منكم! يقصد زملائى فى الحكم! وكنت وما زلت أوافقه!!»

كأنما لينهى المناقشة المغرقة فى الفكاهة قال محمد بك:

ـ «المهم يا ستنا الشيخة سعادة! أكملى قراءة ورقى!!»

أشارت الشيخة إلى المجموعات الورقية بعد أن انتهت من ترتيبها ورصها بعد أن عبثت بها أيادينا. قالت:

ـ «تحب أن نبدأ بأى مجموعة من هذه؟!»

أشار محمد بك إلى المجموعة الأولى، أغلب الظن ليدرأ عن نفسه مأزق وشؤم المفاضلة في الاختيار قال:

ـ «هذه!»

قالها بلهجة من يقول: بختك يا بو بخيت. فرفعت الشيخة سعادة المجموعة وأعطتها له قائلة:

ـ «فنطها!»

فنطها وأبقاها في يده. قالت له:

ـ «إختر ورقة لأقرأها لك!!»

هنا ارتعشت أصابعه يا خال، وارتبك. حاول نزع ورقة بطريقة عشوائية عميانية، فالتقطت أصابعه ورقتين مضمومتين على أنهما ورقة واحدة، سلمهما للشيخة، فإذا بها تبتسم قائلة:

ـ «هكذا شاء بختك فالورقتان الآن ورقة واحدة بالنسبة لك والمثبوت فيهما متصل ببعضه وبك في معنى واحد!! نشوف على كل حال!»

وكانت الورقتان مقلوبتين، فعدلت الأولى وعرضتها لنا ثم نظرت فيها.

كانت هي صورة الملك جالسًا على كرسي العرش ممسكًا بالسيف في يمينه. قالت الشيخة سعادة:

- «بسم الله ما شاء الله أنت على كرسى العرش جالس غير أن الحرب مفروضة عليك فرضًا لا مفر من خوضها ولا مهرب يعنى ستحارب ستحارب ندعوا الله سبحانه وتعالى أن ينصرك!!»

فتبسم محمد بك أبو شناف، وشملته رعدة فرح تنضح زهوًا، كأن النبوءة قد أصابت فيه منطقة غرور يحبها، ثم جعل يردد فى تهدج كأنه يختم الصلاة:

- «اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله! اللهم أعنى على قدرى وامنحنى الفطنة!! تمام يا ستنا الشيخة! أفادك الله!!»

قلبت الورقة الثانية التى كانت لصيقة بالأولى. تجهمت فجأة. كانت هى صورة الشاب الفتى ممسكًا بالسيف. قالت متحاشية النظر إلى أحد:

- «ولكن! هذا قضاء الله يا محمد بك! ستفقد فى هذه الحروب واحدًا من ذريتك! ابنك أو أخاك! هذا ما يقوله الورق والله أعلم طبعًا لكن علينا أن نتقبل الضرر والحزن مثلما نتقبل الخير والفرح بروح طيبة!!»

ارتعد محمد بك بالفعل يا خال، ظهر عليه قليل من الاضطراب والتشاؤم، ولكنه قال:

- «ونعم بالله!! أنا مؤمن شديد الإيمان!! وما دمت سأخوض حربًا مقدسة من المحتمل أن أموت فيها فمن باب أولى استشهاد أحد أبنائى فيها!!»

ـ «والآن أى مجموعة تختار؟»

أشار إلى المجموعة الثانية:

ـ «هذه بإذن الله!»

كانت هى مجموعة النقود. فرفعتها الشيخة عن الأرض سلمتها له. صار يفنطها عدة مرات، وبنفس الطريقة العشوائية سحب ورقة فإذا هى الورقة العاشرة ذات القطع النقدية العشرة.

أشرق وجه الشيخة سعادة، فتسربت عدوى الإشراق إلى وجوهنا قالت:

ـ «يعطيك الله مالا بغير حدود فعسى أن تنفقها فى أعمال البر والخير ومهما أنفقت فإن الله يزيدك على الدوام أضعاف ما تنفق ولسوف يضاعف لك حتى لو لم تنفق فى سبيله وهذا حظك مرسوم وناطق بالسعد!!»

رمقه حسن بك فى كثير من الحسد والغيرة، ولكنه سرعان ما عدل النظارة الطبية على وجهه ونكس رأسه فى الأرض مهمهمًا:

ـ «لا إله إلا هو!!»

وتهدج صوت محمد بك:

ـ «اللهم لك ألف حمد و ألف شكر!! اللهم إنى زاهد فى المال وأنت تغرقنى بنعمتك!!»

ثم مد يده تلقائيًا ورفع المجموعة الثالثة وجعل يفنطها بعناية.

كانت هى مجموعة الكئوس يا بوى. وسحب ورقة مسبوقة بالبسملة، فردتها الشيخة سعادة فإذا هى الورقة التاسعة تضم تسع كئوس. صارت تتأملها مقطبة الجبين وقد صرنا جميعا فى حالة ترقب ووجل. هتف محمد بك:

ـ «خيرًا يا ستنا الشيخة؟!»

تنحنحت قليلا ممسكة بصوتها:

«ورق الكئوس يقرأ الحظ بالذات! حظك يا محمد بك ضارب فى السما كما هو واضح والورقة التى اخترتها بنفسك تقول إنك أوتيت والحمد لله جميع كئوس الحظ إلا كأسًا واحدًا ولو أنك اخترت الورقة العاشرة لاختلف الحظ أما وقد كشف حظك عن غياب الكأس العاشر فإنه يبدو أنه الكأس الوحيد الذى تسعى أنت إليه بكل وسيلة وربما دون أن تدرى والله وحده يعلم ماذا سيحتويه ذلك الكأس الغائب لكن المرجح أنك إن لم تسع إليه فسوف يسعى هو إليك وهو بكل أسف فأل ليس حسنًا!!»

ـ «أى كأس سيكون يا ترى؟!»

ـ «الظاهر أنه يمثل شيئًا غاب عن بالك وغير متوقع منك لكننا نطلب الستر من الله على كل حال!!»

ـ «أيكون كأس الموت مثلا؟!»

ـ «ربما!!»

ـ «فهو إذن كأس دائر على كل العباد؟!»

ـ «نعم ولكنه قد يأتى فى ظرف حرج وغير متوقع بل غير مناسب!!»

ـ «مرحبًا به فى كل الأحوال! أنا رجل مؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر بقدر ما أنا مؤمن بواجبى تجاه وطنى!!»

ـ «دعوتى لك بالتوفيق يا محمد بك!»

ثم سلمته المجموعة الرابعة، مجموعة ورق العصى.

راح يفنطها بغير عناية هذه المرة، وقد ظهر فى وجهه لون من الشحوب يعكس قلقًا غامضًا. أخيرًا سحب ورقة للشيخة سعادة التى راحت تتأملها.

كانت الورقة تحتوى على صورة الملكة المتوجة الممسكة بالعصا. قالت له:

ـ «امرأة مقربة إليك ربما كانت زوجك أختك ابنتك أو من نسلك لكنها من أقرب الناس إليك مقدر لها ولك وللناس أن تمسك هى بالعصا فى يدها لتضرب بها كل من ليس على هواها ولسوف تضرب الكثيرين وتسبب الألم للكثيرين ما لم تفطن أنت لها وتوقفها عند حدها فلربما نالتك عصاها أنت نفسك وإنك فى الواقع لمحبوب من الله ولذا فهو يكشف لك الأوراق كلها كى ينبهك إلى الأشياء قبل حدوثها بوقت طويل لتكون منها على بينة فربما استطعت تدارك الأمور ومن المتوقع أنك ستفعل بإذن الله نسأله التوفيق لنا جميعا آمين يا رب العالمين!!»

شاركناها جميعًا فى هذه العبارة الأخيرة يا خال. رغم ما ظهر على وجه محمد بك من زهو وإشراق إلا أن مسحة من القلق كانت واضحة عليه، فيما راح يوجه عبارات الشكر للشيخة سعادة والثناء على بصيرتها النيرة، ويقول لها إنه تحت أمرها فى كل وقت إذا ما احتاجت لأى خدمة.

جعلت هى تدعو له بطول العمر ودوام الصحة وروقان البال، فيما أخذت تجمع ورقها تضمه إلى بعضه تعيد ربطه بالشريط الحريرى تضعه فى حقيبة يدها ناظرة إلى حسن بك نظرة ذات معنى حرت أنا فى تفسيرها يا بوى: أغلب الظن أنها تنبهه إلى رغبتها فى الانصراف.

سألها حسن بك إن كانت فى عجلة من أمرها فيأمر بتوصيلها حالا أم أن عندها فسحة من الوقت لقضاء يوم آخر أو يومين فى ضيافته.

فشكرته ودعت له بأن يظل بيته عامرًا أبد الدهر، ثم نهضت واقفة، فنهضنا فى أثرها. تقدم حسن بك وهى فى أعقابه، ومن خلفها محمد بك، فالحاج أحمد نوار الدين السنى، فأنا. سلمت علينا، وغمزت يدى غمزة دافئة كأنها تبلغنى رضاءها عنى. ثم ركبت الليموزين السوداء فى المقعد الخلفى، وركب حسن بك مع محمد بك فى سيارته، واتجهت أنا إلى سيارتى وقد شعرت أن حركة مفاجئة استيقظت فى الشارع تحيط بنا فى خفاء ظاهر، أى والله يا بوى.

بنط

صحوت ذات عصرية على أحداث غريبة: موجة كاسحة من الاستقالات: رئيس مجلس الأمة، وزير الإعلام، وزير الحربية، وزير شئون رياسة الجمهورية أعضاء من اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي، وأعضاء اللجنة المركزية العليا، كل هؤلاء استقالوا يا خال مرة واحدة في نشرة أخبار واحدة احتجاجًا على قيام أنور السادات برفت وزير الداخلية، حيث قيل إن الرئيس السادات اكتشف أن هذا الوزير تآمر على حياته ووضع خطة لاغتياله أثناء سفره إلى مديرية التحرير، وأن السادات قد حصل على دليل حقيقي في يده..

خيل لنا يا خال أن البلد قد انحلت عقل ظهرها وستقع في الحال مغشيًا عليها.

ربك والحق يا بوى كنا لا نزال خائفين من شبح عبد الناصر القوى الممثل في كل رجاله وألاديشه الذين كانت البلاد كلها في أيديهم يا بوى.

لكن شيئًا من ذلك لم يحصل يا خال، لم يخرج أحد في مظاهرة، ولم يفك أحد فمه بكلمة. الظاهر يا خال أن الشعب أحب أن يتفرج فقد جاءته الفرصة على الطبطاب يا بوى: وقعت الثورة في بعضها ويا حبذا لو فتكت ببعضها وأراحتنا من كابوسها.

لكن السادات العقر انتصر يا بوى، تغدى بهم قبل أن يتعشوا به، كل شيء كان جاهزًا عنده، أعلن التليفزيون إعادة تشكيل

الوزارة، ومضت الحياة يا بوى والناس تضحك وتنبسط فى الشوارع، غرز الحشيش شغالة على سنجة عشرة، والبارات مصهللة، وأم كلثوم فى المقاهى تردح بأعلى صوت، والنغمة التى كانت تتحدث بها الإذاعة مع الصحف عن عبد الناصر هى بنفسها الخالق الناطق التى تحدثت بها عن أنور السادات، أصبح عندنا عهدان بائدان:

عهد ما قبل جمال عبد الناصر وعهد ما قبل أنور السادات.

أجمعت الصحف على أنها ثورة على الثورة واسمها ثورة التصحيح، هى الأخرى لها أغنيات وأناشيد، ومحمد عبد الوهاب جاهز فى الحال ومن ورائه حملة العيدان والآلاتية والشعراء والأصوات.

ذلك هو الشعب المصرى يا بوى: اللى يتجوز أمى أقول له يا عمى، والكتاب والصحفيون ورسامو الصور المشلفطة الذين رفعوا عبد الناصر إلى السماء السابعة رفعوا أنور السادات إلى السماء الثامنة، هات مدح هات يا رقص هات يا تلسين على عبد الناصر وثورته وذمته المالية وتسلطه وتكسيره لكرامة الشعب المصرى مع أن الذى يكسر كرامة الشعب المصرى حقًا يا خال هو هذه الفعال نفسها أكثر من غيرها..

بينى وبينك يا خال أنا لم تكن تعجبنى هذه الفعال، فعبد الناصر مهما كان بلدياتنا، ورافع رأسنا فى البلاد، ومحررنا من الملك والاستعمار، ومهما كانت فعاله فلا يصح أن نجلده وهو ميت

ولكن هل أستطيع أن أقول شيئًا يا بوى؟ لا طبعًا يا بوى، فالعيب فى الشعب المصرى قبل أن يكون فى حكامه وآلاديشهم.

هذه خميرة زرعتها أمم وأجناس شريرة من الذين احتلوا بلادنا فبقيت بذورها فى أرض مصر.

ومادامت مهمتنا ليست إصلاح الكون يا خال فلنعش أيامنا ـ على رأى بربش ـ بقدر ما نستطيع من الفخفخة ولا شأن لنا بالصح والغلط إلا إذا كان الغلط ضد مصلحتنا الشخصية.

إن الفيصل فى حكم مصر يا بوى ـ كما يقول بربش دائمًا ـ هو مدى قدرة الشلة المسيطرة على شكم غيرها من الشلل الطامعة فى سرقة السيطرة، ومدى قدرتها على التبجح وإنكار التهم وإخفاء الحقائق وطمس نور البصر عند الناس ومسح أمخاخهم..

من حسن الحظ يا بوى أننى صار لى رأس بين الرءوس يمكن أن يكون له سعر وثمن، فمالى لا أختار ذهب المعز دون سيفه؟ ثم إننى أحببت الرئيس السادات فعلا يا بوى، أرى أنه ولد فتوات أخذ الكرسى بذراعه من أنياب الأسود الشرسة الغادرة.

فإذا كان ألاديش عبد الناصر بكل جبروتهم المعروف قد سكنوا الجحور منذ أن حدد إقامتهم إلى أن حاكمهم وأودعهم السجون، فهل يستطيع فلفوس مثلى أن يقول تلت التلاته كام؟ لا يا بوى، يفتح الله، أنا لا أعرف شيئًا اسمه تلت التلاته من أصله...

وهكذا يا بوى أصبحت صديقًا للرئيس السادات، يطلبنى كثيرًا فى قعداته الخاصة، فى أماكن غير معروفة، يستأنسنى فأظل

طول السهرة أعمل على اضحاكه والتسرية عنه كأننى بشهادته بعضمة لسانه أكبر ممثل كوميدى فى مصر وليتنى اتجهت للتمثيل إذ حودت به على السياسة رغمًا عنه.

وهذا ما كان يملؤنى زهوًا ونفخة يا بوى إذ هاأنذا أشترك مع الرئيس السادات فى بعض الصفات. كنت أقلد له عبد الناصر وهو يخطب ولكن بكلام هزلى اخترعه فور اللحظة بحكم ما أصبحت أعرفه من معلومات وأسرار، أقلد الوعاظ النصابين الذين ينتشرون فى الصعيد وهم أجهل من أمى، وبكلام هزلى أيضًا، أرفع ذراعى صائحًا فى جدية شديدة وورع مصطنع بإتقان:

أقلد له من أسماهم بمراكز القوى، في كلامهم فى مشيهم فى صورتهم التى تنشرها الصحف. أحكى له أحدث نكتة عن الصعايدة، فيستلقى على قفاه من الضحك.

وكان ضحكه يا بوى هو الشىء الوحيد الذى يقنعنى بأنه يقلد محمد بك أبو شناف لحظة انبساطه فى قعدة المزاج..

النكتة التى عششت فى دماغه،جعلته يطلب منى إلقاءها كلما التقانى، ويضحك بعمق كأنه يسمعها دائمًا لأول مرة، هى نكتة بخيت وبخيتة: بخيت أخذ بخيتة لزيارة سيدنا الحسين، ركبا القطار، بعد قليل صاحت بخيتة: عايزه اعمل زى الناس، فأشار لها على المرحاض فذهبت وأغلقت الباب عليها فاطمأن وجلس ولكنها غابت، حيث خرجت من المرحاض فاختل دماغها فذهبت فى اتجاه آخر فتاهت فى القطار، فقام بخيت إلى المرحاض فوجده لا يزال

مغلقًا من الداخل، فطرقه بقبضة يده، فأتاه من الداخل صوت رجل يصيح: إحم فهتف بخيت فى الحال: بخيتة عندك؟!»..

كان يقول إن هذه النكتة دليل على طيبة قلب الصعايدة وخفة ظلهم، بعكس أهل مدن القناة السواحلية مثلا، فهم فى رأيه لؤماء وخبثاء.

ثم يتباسط معى فيحكى هو الآخر نكتة عن أهل مدن القناة: «كان فى زيارة لمدينة السويس بعد توليه الرياسة وقد دفعه الحنين لزيارة بعض سائقى الكميون الذين صاحبهم أثناء فترة الهروب من الإنجليز حيث اشتغل سواقًا للكميون هو الآخر، فوجد أحدهم على قيد الحياة فقرر أن يزوره فى بيته إمعانًا فى التواضع وحلاوة النفس، فسبقه البوليس والحرس والمخبرون فمشطوا المنطقة كلها فزرق هو إلى البيت فى أمان، وفيما هو جالس يتبادل حديث الذكريات مع السائق العجوز دوى صراخ امرأة تتألم، فقيل له إنها زوج ابن السائق تلد وهذا فأل طيب، فقرر فى الحال صرف إعانة كبيرة عاجلة، بعدها بقليل جاء زوج المرأة ليشكره على هذه الإعانة الشريفة، قال: الحمد لله يا سيادة الرئيس كنت قدم السعد علينا فنتعها الله بالسلامة بعد أن كادت تموت!!

فسأله الرئيس: ولد ولا بنت؟ فقال الرجل: ولد يا سيادة الرئيس! فسأله الرئيس: وناوى تسميه إيه؟! قال الرجل: صراحة بصيت فى شكله لقيته كشر وباين عليه حيطلع مفترى رحت مسميه جمال عبد الناصر!!»

وينفجر ضاحكًا بعمق، وأجاريه في الضحك ولكن بتحفظ، ثم كان يتباسط معي أكثر فيقول لي ـ بما لا أدري إن كان يقصد المدح أم الذم في الشعب المصري:

ـ «الشعب المصري لئيم يا حسن!! ولابد لمن يحكم هذا الشعب أن يكون ألأم وأمكر واحد فيه! لأن أفراد الشعب سيعاملوه بكل لؤم ومكر على أساس أنه أكثر لؤمًا ومكرًا منهم حتى ولو كان هو بريئًا من المكر واللؤم والخداع!! فلابد له إذن أن يكون ألأم وأمكر حتى تتوازن الأمور!!»

الشاهد يا خال، صرت أبرطع في البلاد طولا وعرضًا أفعل كما أشاء، أحقق أية فكرة تطق في راسي مهما كانت مجنونة.

أصبحت أنا الآخر أستعمل سيف المعز وذهبه، فسيف المعز هو معرفة من بيدهم الحل والربط أنني من خلصاء الرئيس وأنني سميره ومضحكه، أما ذهبه فيتمثل في الفرص التي تواتيني بسبب هذه العلاقة، يعني أنا أعيش في خيره يا بوي.

بسيفه انخفضت لي الرءوس وانزاحت العقبات كلها عن سككي، ومن خيره أغدقت على كل من يقدم لي خدمة ولو بسيطة. والشعب المصري ـ عدم المؤاخذة يا بوي ـ يموت عشقًا فيمن يغدق عليه.

مستعد هو لأن يغفر له كل ما تقدم من ذنبه وما تأخر. كن سفاحًا يقتل القتيل ويمشي في جنازته، كن لصًا يسرق الكحل من

العين، وثق أنك واجد من يغطى على سوءاتك ويدافع عنك بحماسة كبيرة ما دمت تدفع، وكلما دفعت تحصد يا خال..

دفعت أمـوالاً طائلة لناس لا يتصور المرء أن الواحـد منهم يمد يده يا خال، ناس على رأسهم الريشة كما يقال: الواحد منهم يفاجأ بى طببت عليه فى الوقت المناسب، حيث يكون غـزولى قد أتى لى بأخباره فعرفت أنه مزنوق فى كذا، فـإذا هو يفاجأ بى قد عزمته على العشاء، فـبعد أن يتعشى وينبـسط أسرب له المظروف المنتفخ حـالفًا بأيمـان المسلمين ألا يفـتح فمـه بأى كـلام، ثم تمر الأيام والشـهور وأنا لا أسـأله شيـئًا، لكنـه يفاجـأ بعد حـين بهندى أو بسبـوسة أو غـزولى يذهب إليه من طرفى يطلب خـدمة مـعينة، تحلف اليمين يا خـال أنه يؤدى الخدمة حتى لو كانت على رقـبته، ولو كان يملك مفتاح المدينة لقدمه لى عن طيب خاطر.

وماذا يكون مفتاح المدينة هذا يا خـال بالنسبة لما قدموه لى من خدمات؟ لقد أعطونى جميع المفاتيح التى يمكن أن تتخيلها يا خال. طبعًا، من ذقنه افتل له حبلا يا بوى.

مجنـونـــة

انتقلنا إلى القصـر يا بوى. يوم افتتاحه جاءت الشيـخة سعادة وكل أصهارى ونفر من عائلة خرابـة. فكان يومًا مشهودًا يا خال. اقـترح هليل أن يقـام أمام القـصر فـرح بالطبل والمزمـار البلدى ترقص فيه خيول المزرعة المرشحة للبيع، فكتب بربش بطاقة دعوة

بعثنا بها إلى عائلات كبيرة كثيرة مشهورة فى الزقازيق والمنوفية والصعيد والبحيرة يدعوهم لمشاهدة ما أسماه بمهرجان الخيل، فجاء نفر كثير، وليلتها باع هليل كثير من المانجو والخوخ والتفاح والبرقوق والبرتقال وهى كلها أسماء يطلقها على الخيل.

الشقتان على الكورنيش في مواجهة النيل حولناهما إلى مكتب للاستيراد والتصدير، استيراد كل شىء يخطر على البال، وتصدير كل ما لا يخطر على البال.

اقترح بربش أن نوظف عندنا فى المكتب شخصيات كبيرة من رجال الإقتصاد ومن أساتذة الجامعات المتخصصين فى التجارة الدولية والمحلية، ومن كافة التخصصات التى تخدم الإدارة، وقام بنفسه بالإرشاد إلى وزراء سابقين، ورؤساء مجالس إدارات أحيلوا إلى المعاش، وضباط أحرار متقاعدين، وضباط شرطة مغضوب عليهم، وما أكثر المغضوب عليهم يا بوى من أعلى الكفايات فى مصر، هذا ما كشفه لى بربش وهو يحكى لى عن عمالقة فى العلم والاقتصاد والسياسة والقانون غضبت عليهم الثورة السوداء فركنتهم وحاربت بعضهم فى رزقه وحريته.

جئنا بهم يا خال، أتى بربش بعناوينهم وأرقام هواتفهم ثم دعونا الجميع وعقدنا معهم لقاءات ومفاوضات ثم إتفاقيات ثم عقود عمل.

إن هى إلا أيام حتى صار المكتب يعج بذوى الرءوس العالية والكفاءات النادرة والأسماء الكبيرة الرنانة ممن كنت أظن أن

مقابلة الواحد منهم مستحيل لعلو شأنه وارتفاع صيته ومقامه، فإذا بالفلوس لها فعل السحر يا بوى، الفلوس فى عصرنا هى القبلة التى أصبح يركع فى اتجاهها أعتى الرجال.

كلهم يا بوى تم توظيفهم عندى بمرتبات شهرية يسيل لها لعاب التخين، أرقام لم يسمعوا بها فى حياتهم خاصة بعد أن كانت الأضواء والخيرات قد انسحبت عنهم.

وأنت تعرف خصلة شعب الثورة يا خال، فمن تغضب عليه الثورة ولو بالإشاعة فإن حياته تصبح جحيمًا، يهرب منه الناس ويتم عزله، ولهذا فلا أستطيع وصف الروح الطيبة والحماسة التى أقبلوا بها على العمل..

هؤلاء يا خال هم الذين نظموا لنا المكتب من الألف للياء، وضعوا هيكله الإدارى والتنظيمى، ملئوه بالعناصر المطلوبة من خريجى كليات التجارة والحقوق والزراعة والعلوم ومعاهد السكرتارية وكلية الألسن، هم الذين فتحوا عيوننا على نوعيات العمل، ما الذى يجب أن نستورده الآن ومن أين؟ وما الذى يجب أن نصدره وإلى أين، وضعوا لائحة مطاطة بحيث يكون للمكتب صلاحيات بلا حدود فى البيع والشراء، حدّدوا حجم الميزانية المطلوبة أشرفوا على فتح حساب لها فى البنك الأهلى.

عينونى رئيسًا لمجلس الإدارة، فضلاً عن كونى المالك، وعينوا بربش - بكثير من نبرة المجاملة مديرًا عامًا وكان بربش من الذكاء والإخلاص لى بأكثر مما قدرت، إذ نشن على واحد يعرفه جيدًا من

أعضـــاء مجلـس الإدارة وطلب منى تعيـينه عضـــوًا منتدبًا يتـولى الإدارة الفـعلية ويتـحمل المســئوليـة كاملة على أن يظل منصـبى شرفيًا ومنصب بربش رقابيًا سريًا..

اشـتغل المكتب يا خـال عقـبال أملتك ربـنا يعطيك ويعطى كل مجتهد. صدق من قال إن أصحاب المال لا قلب لهم يا بوى.

هذا صحـيح مائة فى المـائة، فرأس المال خوان ونـذل لا يعرف أباه ولابد أن يكسب الطاق عـشـرًا وربما ألف ليظل يحـمى نفســه بالتكاثر المســتمـر، فهو إمـا أن يتزايد أو يتناقص وليس من حال وسط.

الانفتاح الذى مشاه أنور السادات فتح علينا أبواب الرزق بغير حساب استوردنـا الجبن ولبن الأطفال والبولوبيف ولحوم الديوك الرومى والفراخ المجمدة وكافة المعلبات من مأكولات ومشروبات.

استـوردنا الأخشاب بجـميع أنواعهـا، العطور، الأدوات المنزلية والكهربائية من سلع معمرة وأخرى غيرمعمرة. دخلنا فى علاقات مع الشركـات المتعددة الجنسية لـبناء القرى السياحـية فى أسوان والأقصر والغردقة ومرسى مطروح.

حصلنا على توكيلات من كبريـات الشركات المنتجة فى العالم: السيـارات ، الموتوسيكلات، والدراجـات وقطع الغيار، والســجائر الأجنبية التى أصبحت أنا وشلّتى من كبار مدمنيها.

ضاق السكان بالسكنى فى العمارة باتوا جاهزين لأى مساومة على الرحـيل، رحلو بالفـعل مقـابل تعـويضات تملأ الـعين لكنهـا

ملاليم بالنسبة لنا، فى ظرف شهر واحد أحال المقاول هذه العمارة إلى عروس تتصل شققها ببعضها فى جميع الطوابق بواسطة مصاعد داخلية صغيرة تنقل الأوراق والتأشيرات، أقمنا خزينة صرف ثانية كبنك صغير بنينا عدة عمارات جديدة فى قطع من الأراضى التى اشتريتها آنفًا، جعلناها مخازن وأفرع إدارية فى وحدات متخصصة، منها وحدة للمتاجرة فى أراضى البناء وإقامة عمائر لشقق التمليك بأسعار خيالية، باتت مجموعة شركات الصفا والمروة أكبر بيت للمال فى مصر.

علمنى الجهابذة والأساتذة من موظفى كيفية إخفاء ثلاثة أرباع الأرباح فى البنوك الأجنبية بعيدًا عن أخطار المفاجآت غير السارة، كما كانوا بارعين فى خلق مشاريع استثمارية تعفى من الضرائب لعدد من السنوات تشجيعاً لها على منتجات تحتاجها السوق المحلية كمصانع للأسمنت وحديد التسليح ولا بأس أن تقوم هذه المصانع بصنع أشياء أخرى.

قمنا بتصدير البطاطس والبصل والخضراوات بجميع أنواعها والفواكه والمنسوجات القطنية من ملابس داخلية وفوط وبشاكير وملاءات وأطقم سراير وسجاجيد يدوية من شغل الكرداسة وكنت أرى الناس تدوخ وراء السلع المحلية فلا تجدها فأعرف أننا قد استنزفنا السوق كلها بل أوقفناها لأننا نتعامل مع المصادر نفسها نشترى الحدائق والحقول قبل نضج الثمر بوقت كاف ليتولى خبراؤنا رعايتها بالطرق العلمية الناجحة، نتعاقد مع المصانع عقود احتكارات طويلة المدى.

ذمة ودين يا خال كان قلبى يوجعنى حينما أرى الناس محرومين من خيرات بلادهم، ولكن ماذا يفيد وجع القلب؟ لقد أصبحت ماكينة العمل دائرة لا تستطيع إيقافها بأى حال، فجميع الموظفين يحصلون على حوافز وإضافيات وإكراميات تكفل لهم الاستغراق التام فى العمل بحماسة.

وكان بربش متألقا فى دفع العملات والرواتب الشهرية لأعداد هائلة من المسئولين فى جيمع الجهات..

البنى آدم منا طماع يا بوى لا يملأ عينيه إلا التراب، هكذا كان كل العاملين فى شركاتى وعلى رأسهم بسبوسة. لم أستطع إيقافهم عند حدهم، فجميعهم ناس يلعبون بالبيض والحجر يا بوى.

سافرت معهم مئات المرات إلى جميع أنحاء العالم، أمال يا بوى: مال وحصانة، شفت لندن وباريس والهند واليابان وألمانيا وأسبانيا وإيطاليا والنمسا والسويد وسويسرا والنرويج ناهيك عن تركيا وإيران وبلاد العرب، أترك المختصين يشوفون شغلهم فى التعاقدات والمعاينات، وأمضى بصحبة زوجتى ومعنا ترجمان خاص من عشرات المترجمين العاملين عندى شغلتهم الترجمة من وإلى العربية وجميع اللغات، نتفرج على دور اللهو والمحلات نشترى كل مبهر من الطلبات نأكل فى أفخم المطاعم نبيت فى أعظم الفنادق، آخر نزاهة يا بوى.

وكنت على يقـيـن من أن المخـتـصـين بأمـور البـيع والشـراء والتعاقد يتـقاضون العمولات الكبيـرة، وأطرمخ، فهذا رزقهم، ويا بخت من نفع واستنفع ولكننى لم أعرف أنهم على هذه الدرجة من الفجور وانعدام الضمير يا خال: ما تكاد البضائع المستوردة تصل حتـى أفاجأ بـأننى مطلوب للذهاب إلى الجمـارك لتخليـص إحدى الرسالات بمعرفتى مستغلا صفتى البرلمانية، لماذا يا ولد؟ يقال لى: هناك مشكلة بسيطة، أذهب يا خال، أفـاجأ بأن الفحص الطبى قد أثبت أن صفـقة الفـراخ المجمدة كلـها غيـر صالحة لـلأكل بعد أن فقدت عمرها الافـتراضى من قبل أن نتعاقد عليهـا، فأبعزق بضعة آلاف من الجنيهـات وبضع مكالمات هاتفـية فيـتم تعديل التـقارير وتغيير الأوراق وأخرج بالصفقة كاملة غير منقوصة.

ما تـكاد أيام قليلة تمر حتى أطلب ثانـية: صفـقة البـولوبيف اتضح أنهـا معـمولـة أصلاً للكلاب ومكتـوب عليـها هذا بصـريح العبارة باللغة الأجنبية طبعًا.

طلب ثالث: لحوم الديوك الرومى هذه ليـست لها صلة بالديوك الرومى إنما هى طيور جارحة اصطيدت من الغابات وأعدت كطعام للكلاب أيضًا. طلب رابع: الجبن والمـكرونة ولبن الأطفال كله ملىء بالإشعاعات الذرية!! ما الحكاية يا بربش؟! إن مديرى المشتريات ـ يقول ـ يسترخصـون ويدخلون فى هذه الصفقات المضروبة وهم على علم بأنها كذلك.

عال عـال، وكيف يا رجل الرقـابة تسمح لهم بهـذا؟! أمن أجل عمولات كبيرة نخرب بيتنا؟!

قـال: بالعكس فـإن الفـروق الهائلـة في الأسـعـار تضـاف إلى مكاسبنا ثم إن البـضـائع فى النهاية تباع فنحن نبـيع لشعب ياكل الزلط ولا يعـتـرض إنما الذى يعـتـرض هـم القـاعـدون للسـاقطة واللاقطة كى يسـترزقوا من حـجة تأدية الواجب! وهؤلاء مـقدور عليـهم فى النهاية! وعلـى كل حال خليك أنت بعـيد وأنا أتصـرف سيكون تصـرفى أقل تكلفة من تصـرفك فأنت تنفق بسـخاء لأنك طيب من ناحـية ولا تعـرف المختـص الرئيسى من ناحـية أخـرى ووصـولك إليه يكلفك إضـافات بـاهظة أما أنا فـأخرم على واحـد بعينه قبل وصول الصفقة فينتهى كل شىء فى ستر وكتمان!!

قلت: «وهل يرضى ضميرك بهذا يا بربش؟!»

قال: «ضمير ماذا يا أبا الحاج؟! هل فى البلاد كلها شىء اسمه الضمـيـر حتى نتمسك نحن به! الناس جعانه وحـياتها أرخص من الأموال بكثـير! اقـتلنى وادفع لى هكذا يقول كل واحـد فى البلد!! الست تدفع عمولات ومرتبات لشخصيات كبيرة جدًا من المفروض أن يحاسـبوك ويحـاكمـوك؟! إنهم إذن يوافقـون على كل شىء! فكيف تحبكها أنت؟! حكامك أنفسهم أباحوا لك هذا بمجرد أن مدوا أيديهم لهبر المـعلوم بركة ورثك ياعبيط استـهدى بالله ولا توقف حالنا بعد أن جاءت الدنيا إلينا فى أواخر العمر!!»

ما أسكتني يا بوى هو أننى ثور الله فى برسيمه فى مسألة الإدارة هذه. ثم إن ماكينة الشغل تضخمت وقويت تروسها وتشعبت وتداخلت فروعها واتجاهاتها وأغراضها أصبحت شيئا منفصلاً عنى يا خال، لم أعد قادرًا على السيطرة عليها فأخذت للراحة والاستمتاع بأطايب النعيم من كل ما قلبك يحبه ويتمناه، صارت مهمتى تنحصر فى عد الفلوس العائدة كقواديس تصب الفلوس فى جيبى بغير توقف ومن كل ناحية وكانت زوجتى - التى شجعتها على مواصلة التعليم الجامعى - تقرأ لى التقارير النهائية وإشعارات البنوك عصر كل يوم فى شرفة القصر المطلة على المقطم، تقول إن ثروتنا باسم الله ما شاء الله لو وضعت فوق بعضها لصارت كهذا الجبل!.

الأرباح فى تزايد أى نعم يا خال، لكن الرائحة فاحت فى كل مكان والأمراض بدأت تنتشر بين الناس من سرطان إلى إلتهاب كبد وبائى إلى فشل كلوى إلى تسمم إلى ارتفاع فى ضغط الدم. كما أن ضبط الرسائل لا يتوقف والبرطيل فى تزايد نشوان، حيث امتدت جهود بعض الكبراء من العاملين عندى فشهدت القاهرة نشاطًا كبيرًا فى الندوات والمؤتمرات حول تلوث ماء النيل الذى يسبب كل هذه الأمراض.

وكنت أرى صور رجالى فى الصحف وهم يتحدثون فى المؤتمرات والتحقيقات الصحفية باعتبارهم أساسًا من أكابر

العلماء، فاندهش من هذه الازدواجية التى تنطوى عليها شخصيات كبار المتعلمين فى بلادنا بحيث يحمل الواحد منهم الضمير ونقيضه معًا.

الدليل على ذلك هذه التقارير المغرضة التى يكتبها بعض أطباء الرقابة الصحية بعد أن يظرفهم بربش بالمعلوم، إذ تقول بكل علمية أن المادة المسممة فى الفراخ المجمدة واسمها السلمونيلا توجد فى جلد الدجاج فقط وأنها تموت على النار ولهذا فمن الأفضل شوى الدجاج بدلا من سلقه، وفى حالة سلقه تنزع قشرة الجلد وترمى.

طب ما قولك يا بوى أننى ياصعيدى ضحكت من هذا التقرير الفكاهى وظننت الطبيب يسخر منا ومن كافة عقول شعبنا الطيب، ومع ذلك حاجة تهوس يا بوى. تناقلت الصحف هذا التقرير بكل احترام وتوقير وردده الناس فى اقتناع.

الناس فعلاً جعانه يا بوى والجائع يمكن أن يصدق كل شىء ويقول ما تطلبه أنت. أذكر كلمة لعمى الفقيه الكبير قالها ذات يوم ورسخت فى بالى: قال الإمام الشافعى رضى الله عنه: «لا تشاور من ليس فى بيته دقيق».

فعلا يا بوى صدق الإمام الشافعى، إذ كيف تنتظر من الجائع أن يعطيك المشورة فى شىء؟ فى انتخاب أو تقرير أو شهادة؟! مستحيل يا بوى وإلا ما ظهر مثل شعبى يقول: «احيينى اليوم وامتنى غدًا».

يبقى ضـميرى أنا يا خال، وخـوفى من نق الشيخة سـعادة لو علمت أن شـركاتى هى المتـسبـبة فى كل هذه المصـائب الكبـيرة. ضغط شـبح الشيـخة على نافوخى ذات يوم فـفكرت فى حل هذه الشركات، فلما صارحت زوجتى بـهذه الرغبة صرخت فى وجهى: لا تكن فـقريًا وتسـد نهرًا سـيروى نسلك الكثـير من بعـدك! هذه فكرة عـبيطة يا أبا أدهم فـالشـركات أصـبحت أشـد رسوخًـا مما تتصور والقائمون على إداراتها لن يمكنوك من هذا وربما اشتروها منك بتـراب الفلوس فـلا أنت أوقفت الغش ولا أبـقيت على نهـرك الفيـاض فاحمد الله واسكت ودع الملك للمـالك ولا تزن على خراب عشك لأن حـل الشركات ربما يـؤدى إلى تقديمك للمـحاكـمة لأنه اعتراف بعدم سلامة العمل!!

طبـعًا يا خال، فـقد باتوا عـصابة قـوية متـماسكة للدفـاع عن مصالحها بكل نذالة، سيما وأنهم جميعا قد ملّينوا وصارت أرصدة لهم خصوصية مثلى فى بنوك العالم.

انفـصلت عنهم ظاهريًا فـحـسب، بمعنى أن شـركـاتى راحت تمارس فسقها فى واد، وأنا فى واد آخـر ذلك الرجل الصالح فعال الخير، الذى يتـبرع بالأموال الطائلة لكل مشاريع البـر والإحسان يقيم فى كل عـام قرعة للسفـر إلى الحجاز على نفقـته يفوز فـيها أكثر من ثلاثين حاجًا، ويخصص عـمارة بين كل خمس عمائر مما تقيمهـا شركاته للعرائس الغلابة، صـحيح أن معظم شـققها يذهب إلى أبناء كبـار رجال الدولة المهمـين ولكن هناك من يأخذ نصيـبه

من العـامه كمـا أن أبناء كبـار رجال الدولة هؤلاء يمكـن إدراجهم ضمن المحتاجين أيضًا يا بوى.

وهكذا ملكت البلاد من أقصاها إلى أقصاها يا بوى.

ملعوبـــه

الرجل الواعـر خـيَّبَ كل تـوقـعـات العـالم يا خـال. ظل ثلاث سنوات يتـذرع بالضـباب الذى يمـلأ الأفق أمـامه، يعـشم الناس بالإصـلاح، يزعم أن الرخاء قـادم لا محـالة يسافـر إلى روسيـا للتفـاوض مع الزعماء السـوڤييت على أسلحـة، زعماء السوڤـييت يظهرون له الاحـترام والتوقيـر وهم فى حقيـقة الأمر يحتـقرونه يسـتهـزءون به، وذلك ـ كمـا يقول بربش ـ لغـبائهم الشـديد فى السيـاسة الخارجيـة، والأخص فى علاقتـهم بمصر والعرب كـما أضاف بسبوسة..

كان المفهوم لنا أن عملاءهم فـى مصر من ألاديش عبد الناصر يوهمـونهم أن السادات لـن يستـمر فى الحـكم أكثـر من شهـور معدودة لأنه غـير محبـوب من جماهير الشـعب العاملة ولأنه من ناحـيـة أخرى غـيـر كفء لحكم دولة كـمـصـر، وأنهم هم الذين ساعدوه على النجـاح فى الانتخابات إنقاذا لثورة يوليو وهيـبتها من الضياع.

وحتى حـينما هزا هو بهم وأودعـهم السجـون ظل السوڤـييت على وهمـهم بأنه غـير باق فى الحكم، فـراحـوا يماطلونه، حـتى

فوجئوا به يفعل بهم ما فعله في مراكز القوى فى لحظة غير متوقعة: طرد خبراءهم من مصر شر طردة.

وبدلاً من الكلام فى الحرب راح يتكلم عن السلام، يقبل المبادرات، ويقترح المبادرات، وهو ماء من تحت تبن يا بوى و.. هب للنبى، فوجىء الناس كلهم بأن قواتنا الباسلة عبرت خط بارليف المنيع..

تصور يا خال أننى ليلة خمسة أكتوبر لبيت طلبه فى الهزيع الأخير من الليل فذهبت إليه فى مكان سرى بعيد لم أتبينه لأن سيارة المخابرات التى أقلتنى إليه كان زجاجها حاجبًا للرؤية إضافة إلى أن الوقت كان ليلاً.

سهرت معه أقلب فى القديم والجديد، ولكى أضحكه كما أراد:

ـ «عاوز أضحك يا حسن! نفسى مفتوحة للضحك الليلة بشكل غريب لدرجة إنى فكرت أبعث أجيب العيال بتوع مدرسة المشاغبين وثلاثى أضواء المسرح يعملوا عرض خاص هنا لولا أن الوقت تأخر والظرف مش مناسب!!»

قلت له:

ـ «مشاغبين وبتاع مين يا سعادة الرئيس؟ وسع لى وسع!»

صرت أتشقلب مثل القرد، وأفعل ما لا يخطر على البال من حركات فكاهية، وهو مستغرق فى الضحك لكن على من يا بوى؟

أنا أعرف الضحك الأصلى من الضحك التقليد. ضحكه ليلتذاك كان ضحكًا برانيًا مغشوشًا، مما جعلنى أفكر فى سكك بعيدة تصورت أنه متخانق مع الجماعة فى البيت ويريد النسيان لكن يظهر أن الخناقة كانت حامية خصوصًا أنه يحب جماعته بشدة والجماعة أشداء بعض الشىء عليه لثقتهم فى مكانتهم عنده. وإذ بهذه الداهية يا بوى قد أمضى قرار الحرب وانتهى الأمر وكان القلق يطارده وهو يحاول الهروب منه بأى شكل.

لم تجىء سيرة الحرب فى سهرتنا إلا بكلمة واحدة عابرة على الماشى حينما سألنى فجأة:

- «إلا قوللى يا حسن! أنت تبرعت للمجهود الحربى ولا لأ؟!»

صحت بصوت جهورى:

- «طبعًا يا سيادة الرئيس! دفعت ثلاثة آلاف جنيه حتة واحدة!!»

تراجع بذقنه فى استنكار:

- «بس؟!»

- «هل هناك من دفع أكثر منى؟!»

- «أوهو.. وه! الناس الطيبون كثار فى مصر! الإخوة المؤمنين بالله والوطن! على كل حال! إدفع خمسة لتتساوى رأسك برأس الكبراء المساهمين! الجيش محتاج لنهر من الفلوس!!»

ترددت بعض الشيء بحثًا عن الرد المناسب، لكنه أسكتني برفع ذراعه:

-«بكرة تذهب إلى إدارة المجهود الحربى وتدفع خمسة آلاف أخرى! حرب الاستنزاف مصت دمانا يا حسن لابد من وقوف كل المؤمنين بالله معنا فهذه حرب مقدسة!!»

- «أمرك يا سيادة الرئيس! هاك دفتر الشيكات إملأ منه شيكًا بالمبلغ المطلوب وأنا أوقعه وتتفضل سيادتك بإرساله للإدارة!»

وكتبت شيكًا باسم المسئول عن المجهود الحربى فنادى سيادته على شخص، سلمه الشيك أمره بتوصيله إلى ادارة المجهود الحربى من صبيحة ربنا..

الحرب قلبت كل الموازين يا بوى. فرحة المصريين لم تكن تقدر بمال وفرحتهم بأنور السادات كانت لا مثيل لها.

فجأة أصبح أنور السادات بطلاً من أعظم أبطال مصر. مع ذلك فإن بربش أعلن سخطه عليه وعلى الصحافة والإذاعة. مالك يا بربش؟ ماذا يغضبك والناس كلها فرحانة؟!..

- «كيف يسمح للإخوان المسلمين بالركوب على هذا النصر العظيم؟! إياك تظن أن أنور السادت هو الذى انتصر فى الحرب!! لا المنتصر الفعلى يا أستاذ هو الشعب المصرى! إذا كان هناك مجموعة من تجار الإخوان المسلمين تبرعوا للمجهود الحربى بمبالغ كبيرة جاءتهم من مشايخ النفط! فإن الذى حارب هو

الجندى المصرى! أبناء الفلاحين والعمال هؤلاء هم الذين حاربوا بغل شديد وانتقموا لأهلهم أرادوا الخلاص من العار! ودماؤهم فى سيناء تشهد على أربع حروب ضارية! فكيف يجىء الإخوان المسلمون ويركبوا على النصر؟ ويقول عملاؤهم فى الصحافة والإذاعة إن هذا النصر تحقق لأن ملائكة من السماء يلبسون الأبيض فى أبيض نزلوا إلى الميدان وشاهدهم الجنود وهم يطيحون فى العدو؟! ما هذا التخريف يا مسلمين؟! هذا معناه يا أستاذ أن هذه الفئة المخرفة ذات العقول الخربة تحرم الشعب المصرى من الشرف الوحيد طول تاريخهم الحديث! معناه أن المصريين ليسوا أقوياء ولا يحزنون والنصر جاءهم على الطبطاب!! غلطة أنور السادات أنه سمح لهذا الكلام المضحك أن يتردد فى الصحف والإذاعة بحجة أنهم يريدون جذب الناس إلى الإيمان كأنهم يريدون القول إن ثورة يوليو الاشتراكية الشيوعية جلبت علينا الهزائم فلما تخلصنا منها كافانا الله بالنصر كلمة حق يراد بها باطل! والحقيقة إن الإخوان المسلمين طلعوا من جحورهم بدأو نشاطهم بالركوب على نتائج حرب أكتوبر العظيمة ومن الآن فصاعدًا يجرون الناس إلى البلاهة والدروشة حتى تسترد إسرائيل أنفاسها وتهجم علينا ونحن حينئذ نجرى لنصلى صلاة الاستسقاء وصلاة النصر ننتظر نزول الملائكة لتحارب نيابة عنا كما فعلت!! سننصرف كلية للتعبد وعلى الله أن يكافانا بإرسال الملائكة تدافع عنا!! لا يا استاذ أنور السادات لم يعجبنى فى هذه النقطة وفى نقاط كثيرة أخرى! إنه الآن يعتبر متحالفًا مع التيار

الإسلامى المتطرف وهو يتحالف فى نفس الوقت مع أمريكا لصالح إسرائيل ألم يوقف إطلاق النار حتى تمكنت إسرائيل من الاختراق وتطويق الجيش الثالث والوصول إلى السويس؟! لا يا أستاذ! المسألة غامضة وفيها أسرار كثيرة وربنا يستر!!»

بينى وبينك يا بوى اغتظت من بربش ومن كلامه المسموم هذا، لقد سمم فرحتى يا بوى. لكننى تعودت دائمًا أن أتشرب كلامه وأستنير به إذ هو يفهم فى السياسة ربما أكثر من أنور السادات. وهذا ما جعلنى أشعر أن شخصيتى كثيرًا ما تنقسم على نفسها حتى أصبحت أومن بالشىء ونقيضه معًا، وأصبحت غير قادر على البَت النهائى فى أى مشروع من المشاريع دون وجوده.

فعلا يا خال صدقت نظرة بربش، فوقف إطلاق النار نكد علينا قطم فرحتنا قطم الخيار، نصف الفرحة بقى، النصف الآخر أكلته الثغرة التى فتحها الجيش الإسرائيلى فى قلب جيشنا ما كسبناه فى الحرب خسرنا أضعافه فى هذه الثغرة يا بوى..

أمواج السخط بدأت ترتفع يا خال منذ بدأ السادات يتكلم عن السلام والصلح مع إسرائيل. أنصاره يقولون إن الصلح هنا لا عار فيه لأنه يتم بعد الانتقام ورد الهزيمة فهو إذن صلح من منطق القوة.

والحكماء ممن أقابلهم من أبناء الشعب يقولون إنه فى النهاية صلح مع العدو، والصلح مع العدو قبول للعدو وتسليم بكل

شروط عيشه فى المنطقـة إلا أن أنور السادات فاجأنا بقوله بأعلى صوت أنه مستعد فى سبيل السلام ـ أن يسافر إلى إسرائيل.

كلنا تصورنا أنه يمزح يا بوى، ولعله شرب حجرين من صنف ردىء هيأ له مـثل هذه التخـيلات الضارة. قـامت قيامـة البعض، وانكتم البعض كـتمة العدس، وهاجت الأغلبـية المسماة بالمنســحقة صــار الشــارع يغلى بالتناقـضــات: شــتـائم صـريحـة فى أنور السادات، مدح كبير فى أنور السادات.

المهلبـاتية وتجار المخـدرات وثعالب الأســواق والحراميـة كلهم كانوا مـبسوطيـن من السادات آخر انبـساط، يقولونــها لبعـضـهم البعض صراحــة: من لا يعمل ثروة كبيرة فى عـهد أنور السادات سيـحكم على عـياله بالجـوع مدى الحيـاة وهذا صحـيح يا بوى: عـصــر أنور الســادات عصــر ســبـهلله، عـصــر يا بخت من نفع واستنفع انهب واسرق وكوم ثروة كما تشاء بأى شكل تشاء، فلن تجد من يحاسبك ما دمت تلحلحت وفـتحت مخك فأعطيت للجميع من «الحب» جانبًا..

لكن ولد الأبالــسـة من كـارهى الســادات يريـدون قطع رزقنا صـارت الجرائد كل يوم تطالعنا بأخـبار القبض على تنظيم سرى، شيوعى أو إسلامى متطرف، تحلف الـيمين يا خال أنه لا يمر يوم واحـد دون خبـر اكتـشاف تنظيم ســرى يعـمل لقلب نظام الحكم ضبطت فى حـوزته منشورات وأسلحـة وأموال وخـرائط وقوائم

شخصيات عامة مرشحة للاغتيال، حتى ذعرت، فلو كان صحيحًا يا خال فإن الشعب كله يكون قد تحول إلى تنظيمات سرية تعمل على قلب نظام الحكم في البلاد، إذن فالحكومة في هذه الحالة غير شرعية، وتعتبر مغتصبة للسلطة.

جاء علينا وقت نكاد نستورد فيه وكلاء نيابة بأعداد هائلة تكفى للتحقيق مع كل هذه الأعداد المهولة من التنظيمات السرية المعادية للحكومة لأن جميع وكلاء النيابة باتوا يستنزلون اللعنات على النبوى اسماعيل الذى يستكردهم كل يوم بتنظيم يحتاج التحقيق فيه إلى جهاز كامل وهم ـ على كثرتهم ـ أقل عددًا من حجم هذه التحقيقات والقضايا، والمحاكم ازدحمت بمئات الألوف من المشتبه فيهم لأسباب واهية بلهاء، وحتى لقد خيل لى يا بوى أن النبوى اسماعيل عقد اتفاقًا مع أحد مقاولى الأنفار، أو موردى الكومبارس، لتزويده بكل هذه المجاميع التعسة ليشتغلوا متهمين كعمال موسميين..

كنت أرى هذا وأغتاظ من غباء الحكومة التى لا تريد أن تدعنا نشوف شغلنا فى ستر وهدوء بال، وتخلق لنا التوترات المزعجة بتلفيق القضايا وتنشرها فى الصحف والإذاعات.

فلتقبض على من تشاء يا بوى فهى حرة ولكن لماذا الفضيحة؟ تريد أن تطلع الرأى العام كى تكسبه فى صفها؟ رأى عام ماذا يا خال؟ هل بقي هناك رأى عام ولا زفت؟! الحكومة تفعل ما تشاء

وصحفها شغاله فى التسبيح بحمدها ومن يتمرد يأخذ بالحذاء على أم رأسه فعلام الفضائح والشوشرة التى تقلق راحتنا وتلفت الانتباه إلينا؟!..

أصبحت أعتقد أن الحكومة ظلت تلفق وتلفق حتى صدقت نفسها، وصدقها الواقع هو الآخر، أصبحت هناك تنظيمات سرية بالفعل تعمل على قلب نظام الحكم، وأخشى ما أخشاه أن تضطر الحكومة ذات يوم للقبض على الشعب كله. مجنونة وتفعلها. ولكن هل ترانى استطيع الجهر بهذا الرأى ولو من باب الحرص على مصالحها؟ حاشا وكلا ستنظرون الى نظرة استرابه والنبوى اسماعيل جاهز فى كل لحظة لاكتشاف كل ما ورائى من تنظيمات سرية، ولديه الوثائق الدامغة على الدوام وفى الحال.

فهل أنا مجنون يا بوى؟! من يحمل قربة مثقوبة تخر على دماغه. مع ذلك فأنا أدعو ليل نهار: يا رب احفظ لنا أنور السادات.

- ١ -

ما كنت أتـصور مطلقًا يـا خال، وما كـان يدور لى بخلدى، أن الشيخـة سعادة بجلالة قـدرها ـ شقيقـتى من لحمى ودمى وبنت أبى وأمى ـ يمكن أن تقـاطعنـى، بله أن يصل الأمـر بيننا إلى حـد الصدام. أكثر ما كنت أخشاه أن تعاتبنى مثلاً أو تلومنى بشدة على ما تفعله شركاتي في البلاد من نهب وهبر وتسفيح. وهذا ما حدث كثـيرًا بالفعل يا خـال ربك والحق، غير أننـى ظننت أن الأمر يقف عند هذا الحد، ولم يكن ذلك الظن إلا قلة مفهومية من جانبى..

فذات ليلة عصيبة ـ والبلاد كلها مقلوبة بحادث اختطاف الشيخ الذهبي واغتياله بأيدى جماعـة التكفير والهجرة التى أعلنت ـ لأول مرة فى تاريخ مصر ـ مسئوليتها عن الحادث ـ فوجئت بالشيخة سعادة تزورنى على غير انتظار كعـادتها دائما، يرافقها هليل هذه المرة، وهو الذى قـاد سيـارتها المرسـديس الخاصة الـسوداء ذات الستـائر والزجاج الحـاجب. كان من الواضح أن العـلاقة بينهـما دخلت فى طور جـديد يا خال، صار الحب القـوى الجارف بينهـما معلنًا سـافرًا مبطنًا بالاحترام والمـعزة والفضيلة التى أعـرفها فى

كليهمـا. بدا لى أنه لم يبق إلا أن يعلنا عقد القـران ولكن بعد قليل، ربما انتظارًا للـوقت المناسب. ولم يكن ذلك ليـقـلقنى يا خـال، بل لعلنى على يقين تام بأنه لو تم يكون أنجح قصة حب حقيقى على ظهـر الأرض، ويكون أعـدل زواج تم بين اثنين كـلاهمـا يتـبـتل ويتفانى فى حب الآخر كما لمست بنفسى يا بوى..

إنما القلق جـاءنى من حالة التـجهـم الشديد التى شـملتهـا فى زيارة تالية، لدرجة عدم الاستجابة للفرحة المعلنة بقدومها ، والتى ترددت أصداؤها الصـاخبة من أول الخفـير فالحـارس فالجناينى فالتشريفاتى الذى صحبهـما من مدخل الحديقة حتى منتجعنا فى الطابق الثـالث، وما أبديناه جـميعًـا من مظاهر الحـفاوة، إذ نودى على الطباخ والسفرجية فى الحال لـتجهيز العشاء. كل ذلك لم يلق منهما أى بادرة اهتمام أو امتنان أو انبسـاط، مما بعث فينا توجسًا كبيرًا..

من سـذاجتى يا خـال تصـورت أنهـما مـأخوذان مـثلنا بهـذا الحـادث الجليل. فما إن جلست قبالتى فى الركن المضاء فى الردهة الكبيرة حتى بادرتها قائلا:

ـ «البقية فى حياتكما! ربنا يـستر على مصر من هذه العصابة السوداء العمياء القلب! أفينبغى أن نعامل شيخًا تقيًا ورعا بكل هذه الوحـشيـة! نضربه بالرصـاص فى رأسـه؟ الذى امتـلأ بعلم الله والقرآن والسنة والحـديث! تلك والله علامة من علامات السـاعة!!»

فكأنني لم أقل شيئًا يا خال. لم يبد عليهما أدنى تأثر، كلاهما جالس في أدب واحتشام وتزمت كضيف غريب غير آمن غدر مضيفه. حينما جاء السفرجي الأسود اللطيف بملابسه الزرقاء المزركشة بالقصب الأحمر، ووضع أمامهما عصير المانجو صائحًا في غبطة ومرح كالعادة: «مرحبًا ستنا الشيخة»، لم تبتسم له كالعادة أو تلاطفه؛ إنما اكتفت بهز رأسها بوجه مقطب، بلهجة من يريد قول: إخرس. فارتد الرجل مأخوذا ومضى يتصبب عرقًا. أبدًا ليست هذه هي الشيخة سعادة يا خال؛ وليس هذا هو هليل الفياض بالدفء والمودة. فسرت ذلك أيضًا بأنه ربما كان شدة تأثر بالحادث الأليم، فاستطردت:

- «لابد أن يأخذوا هذه العيال بالشدة!! لابد من تعليقهم في المشنقة في ميدان عام وإلا عمت الفوضى وخربت البلاد!»

فإذا بها تصيح في غضب من بين أنيابها:

- «لم لا يعلق غيرهم: قبل أن تطلب هذا لعيال أبطال مجاهدين كهؤلاء لا يعجبهم الحال المائل وحالة الكفر التي تفشت في البلاد إطلبه للمجرمين الأصلاء الذين يتاجرون في قوت الشعب وفي أرواح الناس يبيعون البلاد للأعداء!!»

دُشٌ بارد انفتح فوق دماغي فأغرقني يا خال، برد كل شيء في جسدي حتى صرت أقاوم الرعشة، تملكتني حمى مفاجئة فغامت الأشياء في نظري وخيل لي أنني صرت عاريًا في مهب

ريح عاصفة. لذت بالصمت طويلاً، رشفت جرعة من كوب المانجو أبل بها ريقى الذى جف كالعصا، ثم أشرت لهما على الأكواب:

ـ «تفضلا!»

ـ «شكرًا!»

نطقاها فى نفس واحد بصوت مشروخ من شدة الصمت، حاسمة باترة تعنى رفض الشرب بصريح النبرة!. اعتقلت دموعى شعرت بها تنزل فى صدرى:

ـ «ما الأمر يا جماعة؟ حالكما لا يسر!!»

لحظتها كانت زوجتى قد أنهت ارتداء ثيابها الرسمية وجاءت تجرى من الطابق الرابع معلنة الترحيب بصوت يسابق صوت خطواتها على السلم الخشب الجعجاع:

ـ «ما كل هذا النور؟ من العصر وأنا أشعر أن طيفًا من الجنة فى طريقه إلينا!»

لمَّا اندفعت نحو الشيخة سعادة لكى تأخذها بالحضن فوجئت بها ترتد قليلاً، وتمد يدها الملفوفة فى الطرحة لتسلم عليها من بعيد فى أنفة وتأفف. أما هليل فقد لف يده هو الآخر فى منديل قبل أن يسلم. غلت الدماء فى عروقى يا بوى. غرقت زوجتى فى الحياء والخجل وقد انطفأت فرحتها؛ لكنها جلست على كرسى مجاور للشيخة سعادة مستأنفة الترحيب بها كان شيئًا لم يكن:

- «أهل البلد كلهم بخير؟!»

- «الحمد لله!»

ملت على هليل:

- «ما الأمر يا هليل؟!»

صوت جديد وغريب في حنجرة هليل أجاب:

- «يستحسن يا بو العم أن نتكلم في حجرة مقفلة بعيدًا عن الخدم والسفرجية!! هناك أمور جئنا لتصفيتها!!»

- أهي أمور تستدعي أن يكون منظركما هكذا؟ أنظر بجوارك في المرآة لترى غضب الله على وجهك ووجهها! عمرك ما كنت هكذا ولا هي! ما الحكاية بالضبط يا هليل؟!»

نكس هليل رأسه؛ وردت الشيخة سعادة:

- «بعد قليل تعرف كل شيء!!»

- «هل زوجتي ممن لا يجب حضورهم؟!»

- «لتبق إذا أرادت! هي وشأنها!!»

تقدمتهم إلى الطابق الخامس والأخير، حيث توجد حجرة مزنوقة في جدار المقطم بشرفة عريضة تشبه المحراب أو الخلوة كنت أحب الصلاة فيها بل كنت قد أعددتها خصيصًا من أجل الشيخة سعادة تختلي فيها حينما تكون في ضيافتنا وأسميناها محراب الشيخة سعادة. جلسنا متربعين فوق الشلت:

ـ «خير يا ستنا الشيخة؟!»

ـ «شف يا خوى! لقد نصحتك كثيرًا لكنك تصر على أن تستمر فى الضلال!! أنت بكل صـراحة تعتبـر فى نظرى ونظر شرع الله من أكابر المجرمين فى البر المصرى! كـل ثروتك التى جمعتها من وراء شركاتك المتعددة هى حـرام فى حرام! أنت تقبل الحرام على نفـسك وأولادك أما أنا وهلـيل فلا! سننفق كل مـا نملكه فى البـر والإحسان!!»

ـ «كسبنا صلاة النبى!»

ـ «لا تذكر اسم النبى على لسانك لأنك تفعل كل ما يغضب الله ويغضـبه! لقـد حاولت أنا أن أطهـرك أنقلك من الوحل الذى كنت فيه! بذلت كل ما أستطيع لأجعل منك كبير قوم لعلك تعود إلى الله مؤمنًا كـامل الإيمان لكنك مع الأسف الشـديد كبـرت فى الضلال أيضًا! وبعد الانحراف أصبحت غارقا لأذنيك فى الرذيلة!! صلاتك باطلة من أساسـها إن كنت لا تزال تركعها!!»

ـ «اللهم طولك يا روح!»

ـ «جئتك الليلة لأضـع حدًا لهذا الكفر الذى تجره علينا أنا وهليل بغـير ذنب جنيناه! ولكن كـيف؟! أقول بغـير ذنب فى حـين أننى المذنبة الـكبرى؟! ليتنـى تركتك مجـرد لص صغـير يسـرق أفرادًا لكننى مع الأسف كـبـرتك لتـسـرق شعـبًـا بأسـره! الناس الذين انتخبـوك نسيت أمرهم لم تقدم لهم أية خدمة حـتى كرهوك! أما

هذه الأموال التى تدفعها كما تقول الصحف لأعمال البر والإحسان فخير لك - إن كنت تدفعها بالفعل - أن توفرها على نفسك لأن حسنة واحدة لن تكتب لك بسببها فهى من الحرام!! عذرى عند الله - إن قبله سبحانه وتعالى - أننى قصدت الخير يوم وقفت معك كما أننى نصحتك مرات ومرات فلم تهتد ومن الواضح أن الله لم يكتب لك الهداية بعد!!»

انسحبت زوجتى من لسانها غاضبة:

- «هذا كثير علينا يا ستنا الشيخة! الإنسان لا يجب أن يهان فى بيته إلى هذا الحد حتى ولو من أخيه ابن أمه وأبيه!!»

سلقتها الشيخة بنظرة حارقة:

- «لو كنت مكانك لهجرت هذا البيت سكنت فى عشة فراخ أطهر منه وأشرف!! هذا القصر المبنى بجماجم الفراعين القدامى! ودم الغلابة المساكين الذين ماتوا بأغذية مسممة يستوردها زوجك هذا والشقق السكنية التى تكلفت الملاليم وبيعت بشقاء عمر كامل فى الغربة! إن الذين ماتوا فى النكسة وفى الحرب الأخيرة لا يستاهل أهلهم أكل الفراخ الفاسدة وبولوبيف الكلاب ولا أن يشرب أطفالهم حليبًا ملوثًا بالإشعاع الذرى!!».

تفجر الغضب على وجه زوجى وانسابت الدموع على خديها غزيرة مهانة:

ـ «هذا ما لم أكن أنتظره منك أبدًا يا ستنا الشيخة!! طول عمرك لسانك لا يعرف العيبة فكيف يطول علينا هكذا مرة واحدة؟!»

قلت على سبيل المزاح لأطيب خاطرها:

ـ «يظهر أن ستنا الشيخة انضمت إلى جماعات التكفير والهجرة وها هى ذى تتشطر علينا وتكفرنا فى عقر دارنا!»

قالت بجفاء:

ـ «أنا لا أنضم لأحد ! الناس هى التى تنضم لى وأنت تعرف! إن كان ولابد من الانضمام فاعتبرنى منضمة لطريق الجهاد فى سبيل الله طول عمرى ولا يصح أن أكون مجاهدة ويكون أخى فى هذا الفسق والضلال تحت سمعى وبصرى! وقد قال الرسول عليه السلام من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان!! ولما كنت غير ضعيفة الإيمان فإنى نويت أن أغير هذا المنكر بالوسائل الثلاثة: اليد واللسان والقلب!!»

رمقتنى زوجى بنظرات مشحونة بالانفعال، فيها فضول وتحريض. وكنت قد غضبت بالفعل وتعبت من نزيف كرامتى؛ قلت بلا مبالاة وبرود:

ـ «زين والله زين! أرينى كيف ستفعلين!!»

قالت ببرود أشد:

ـ «أما باللسان فقد فعلت! وأما باليد فهو ما جئت من أجله اليوم أنا وهليل لنقول لك إن محامينا الخاص سيمر عليك ليفض الشركة التى بيننا!! إما أن تبيع لنا وإما أن تشترى ولكننا فى الواقع نحب أن نشترى لأننا حرّمنا فلوسك الملوثة ولا يصح أن نمسكها أو نخلطها بفلوسنا!! سنشترى منك وقد نبيع لغيرك أو لا نبيع هذا شأننا!!»

ـ ما بينى وبينكما هى المزرعة فحسب!! خذاها إذن بكاملها ووصلنى ثمنها! إنك فى نهاية الأمر شقيقتى وهليل صديق عمرى!

بعد صمت طويل نطق هليل:

ـ «كنت صديقك فيما مضى! أما الآن فلا!!»

خبطت زوجتى على صدرها فى هلع وقد عراها التوتر والخوف فانتفشت صارت كالبالونة الموشكة على الفرقعة. أردفت الشيخة سعادة:

ـ «شقيقتك هذه لم يعد لها وجود! انتهت رسميًا وعمليًا من الحياة! اختفت! الجالسة الآن أمامك هى الشيخة سعادة!!»

ـ «حتى علىَّ أنا الآخر هذا الكلام؟ لقد دفناه سويًا!! أنا تسترت عليك وهذا يكفى!!»

ـ أنا لم أدفن معك شيئًا! الماضى هو الذى اندفن بإرادتى وبفعلى أنا وقدرتى أنا! ولو أنك حاولت كشفى فلن يصدقك أحد!

أما أنا فلو تكلمت فأنت تعرف جيدًا ما تفعله كلمتى فى أكابر الرءوس!! التى تكلمك الآن هى الشيخة سعادة بمعنى الكلمة!! أقصد التى تغير قلبها من ناحيتك!!»

كدت أبكى يا خال، لكنى أدركت أن أوان البكاء لم يحن بعد، واننى يجب أن أعالج هذه الأزمة الداهمة بأقصى ما أستطيع من هدوء أعصاب. إنغلق دماغى واسودت الدنيا كلها فى عينى، فلو أنا بعت لها المزرعة فلست أضمن أن تبيعها لجار سيىء ينازعنى فى ملكيتى يصبح شوكة فى جنبى، قد يهد المزرعة ويبنيها محلات أو ورش؛ فى نفس الوقت هى رافضة قبض فلوسى فهى إذن تريد أن تضايقنى والسلام. فى قلب هذه الحيرة نط بربش فى راسى فتشعلقت به.

***

دخل بربش علينا كمانيكان يستعرض الأبهة والفخامة بملابس اشتراها من أشهر بيوت الأزياء فى العالم.كانت رائحة الخمر واضحة مع أنه كان فى غاية الاتزان. أجلسته بجوارى. لم يكن قد دخل هذه الخلوة من قبل، ولذا راح يتلفت حواليه فى شغف مستطلعًا جمال زخرفتها ومشغولات سقفها المقبب الملىء بالمنحوتات والبروازات. وكانت الشيخة سعادة ترمقه فى تأفف واحتقار ظاهرين، إضافة إلى أنها لم ترد عليه السلام لكنه لم يكن من النوع الذى يتأثر بسهولة بل هو يتلذذ باللامبالاة فى مثل هذه المواقف إمعانًا فى الكيد للطرف الآخر. فى أثره مباشرة جاءت

صينية القهوة التى طلبها وهو يصعد السلم: قال بربش بروحه العملية السريعة الإيقاع فيما يرشف القهوة والدخان معًا بشراهة:

ـ «شغلتنى يا رجل! أنا تحت أمرك!»

تفكرت قليلاً قلت له:

ـ «جاءتنى الآن برقية عاجلة من الصعيد من شركائى فى المزرعة يطلبون بيع نصيبهم بشرط ألا أشتريه أنا لأنهم يستحرمون فلوسى وأنا أخشى أن أبيعها لهم فيبيعونها بدورهم لواحد غير مضمون السيرة يكون شوكة فى جنبى فبماذا تشير علىّ لحل هذه الورطة البايخة؟ السخيفة؟ مع ملاحظة أن محاميهم سيصل صبح الليلة للتخليص!!»

بلا مبالاته الخفيفة الظل قال:

ـ «يعنى شركاؤك هؤلاء يعتبرون أن أموالك ملوثة كأموال تجار المخدرات والقوادين؟!

صاح هليل على غير انتظار:

ـ «بالضبط يا بو العم! هم يرونها أسوأ من هذا إذا لم يعجبك!!»

لم يلتفت إليه بربش، لم يعره أدنى التفات، بل رشف ما تبقى فى الفنجان ثم جعل يهز الفنجان بهدوء وجسده يتراقص ليذيب

البن المترسب فى قـاع الفنجان للرشفة الأخيـرة التى طوح بها فى فمه ثم وضع الفنجان فى الصينية وجذب نفسًا من السيجارة.

ـ «الحل بسيط: إغسل أموالك الملوثـة هذه قبل أن تعطيها لهم! نظفها جيدًا!!»

ولم يضحك، بل كان وجهه جاد المـلامح ورصينًا، فصحت فيه بغيظ وألم:

ـ «الأمر لا يقبل الهزار! ما معنى هذا الكلام الفارغ الذى نطقت به؟ نضع الأموال فى الغـسالة؟ بالرابســو أم بالصابون؟ يا رجل قل كلامًا ينسمع!!»

جذب بربش نفسًـا عميقًـا بكل هدوء ثم التفت لى فى اندهاش عظيم:

ـ «أصبـحت بنكيرًا كـبيـرًا ولا تعرف أن الأمـوال هى الأخرى تنغسل وتتطهر؟! ألم تعرف كيف يودع تجار المخدرات أموالهم فى بنوك ويسـحبونهـا من بنوك أخـرى بتـرتيـبات بـنكية مـعـينة ومعروفة؟! على كل حال هذه فكرة وسوف أشـرحها لك فيما بعد! أما الخـروج من هذه الورطة التافهـة التى تحيرك الآن فـالخروج منهـا يتم على النحـو التـالى: دياب ابن خـالتك يشتـرى نصـيب شـركائك ويدفع لـهم من جيـبـه وبهذا يقـبض شـركاؤك أمـوالاً طاهرة: ثم يقوم دياب بالبيع لك!!»

الفكرة على بساطتها وبدهيتها كانت مشرقة فعلاً فنظرت إليهما أتكشف رأيهما، أقصد هليل والشيخة سعادة، فلم ينطقا؛ فسألتهما:

- «يرضيكما هذا الحل؟!»

قال هليل دون أن ينظر إلىّ:

- «يرضينا يا بو العم»

- «اتفقنا إذن! فليأت المحامى للتنفيذ من صبيحة ربنا وسيجد محامىَّ الخاص جاهزًا!»

خبط بربش على ركبتيه فى استعجال:

- «انتهت مهمتى؟!»

- «شكرًا»

ونهضت مسلمًا عليه فجذب يدى بغمزة خفيفة فمضيت بجواره لأوصله إلى السلم. فهمس لى بعبارات مضغمة بأننى من الغد يمكن أن أضع مبلغًا فى البنك لحساب دياب ابن خالتى وأن أكتب معه عقد بيعه لى قبل أن يكتب هو عقد الشراء، ولا بأس من تكسيب دياب مبلغًا معقولاً يشجعه. ثم هبط السلم مهرولاً..

وقد تم التنفيذ فى السر والكتمان، وبهدوء تام، وفى أقل من ساعتين؛ ولكننى لم أستطع مداواة جرحى يا خال؛ شعرت أننى

خسرت خسارة فادحة؛ إذ كـيف تصل الأمور بيني وبين شقيقتي إلي حد العداء هكـذا؟ وهليل صديق عمرى الوحيـد كيف يتنكر لى هكذا؟! ما الـذى جرى فى الدنيا يـا خال؟ ما ســر هذا العطب الذى أصاب الناس فى مقتل فأتلف قلوبهم؟..

الحياة أصبحت ماسخـة. وأنا يا بوى ما كان مرادى أن أخسر أختى وصديق عمرى، لكن هل أفرط فى مستقبل عيالى ومستقبلى فى سبيل إرضائهما؟ من يقول هذا؟ من يقول أن الإنسان يحاسب أخاه على الإيمان أو عدم الإيمان؟ لم نسمع من قبل يا خال أن الله قد عين شرطة للإيمان تتحرى عن قلوب الناس.

- ٢ -

باعتـبارى من ألاديش الرئيـس السادات بطل الحـرب والسلام على سن ورمح، فإننى كنت أتبعـه كظله. نعم، وعن عشق والله يا خال بصرف النظر عن المصلحـة الشخصية فـأنا والحمد لله كنت قد أصبحت قادرًا على الاستغناء عنه بل أصبح بإمكانى الاستغناء عن مصـر كلها، أستطيع أن أعـيش فى سويسرا، فى النمـسا، فى باريس فى أى مكان فى أفخم القصــور فى أجمل الجزر، لدىّ من الأموال مـا يكفينى ويكفى نسلـى لعشرة أجـيال قادمـة على أقل تقدير..

ولما بلغتنى أخبار تحركات التيارات الإسلامية المتطرفة منذ وقت مبكر، وأن الإخوان المسلمين يدبرون لاغتيال الشخصيات العامة تسهيلاً لوصولهم إلى حكم البلاد وأنهم قد اخترقوا معظم الأجهزة وصار لهم رجال فيها، فكرت جيدًا فى الهجرة التامة إلى الخارج وإدارة أعمالى من أى عاصمة عالمية! سيما وأننى قد أصبحت أجيد التكلم بالإنجليزية إلى حد يكفل لى التعامل مع الناس والبنوك،كما أصبحت زوجتى تجيد الفرنسية والألمانية قراءة وكتابة بل وكانت تؤلف شعرًا بالفرنسية لأنها باسم الله ما شاء الله تخرجت فى الجامعة الأمريكية ودخلت فى سباق مع سيدة مصر الأولى جيهان السادات قائلة لنفسها ولى: إذا كانت السيدة جيهان وهى الأكبر منها سنًا وفى مركز يحقق لها كل شىء وقد أصرت مع ذلك على مواصلة التعليم والحصول على الدكتوراه ودراسة الشعر الإنجليزى فمن باب أولى - وهى الشابة الصغيرة لا تزال - أن تفعل ذلك هى وفى العمر أمامها متسع لتحقيق درجات علمية تنفعنا فى الحياة.

بتشجيع منها قمت - فى نوبة شبه جنونية - بشراء مجموعة من القصور فى بعض العواصم العالمية: لندن وباريس وروما. لعلمك يا خال إن كنت تستهول هذا الأمر فإنه لم يكلفنى إلى حد الإبهاظ، بل إننى لم أشعر بالإرهاق مطلقاً، فثمن قطعة أرض واحدة من الأراضى التى سبق أن اشتريتها بتراب الفلوس، والتى ركنتها فلم أدخلها فى حساب ثروتى المتزايدة، كان يشترى قصرًا

بكامل مفروشاته فى واحدة من هذه العواصم الكبيرة. فى البداية يا خال فكرت فى الإقامة الدائمة فى باريس الساحرة، ليكون قصرى استراحة جيدة لاصطياد السياسيين المصريين الوزراء والأمراء العرب؛ فمنها أستطيع إدارة أعمالى أفضل من القاهرة؛ ومنها أحقق خلوة تمكننى من شراء أى رأس يشكل نتوءًا في طريقي. فسيف الدولار هو أمضى سيف لكشط أى نتوء يضايق حركتك. أنت فى الخارج ـ كما عرفت يا بوى ـ تستطيع امتلاك جميع المسئولين إذا كان عندك شقة للمبيت والصهللة فما بالك لوكنت تملك قصرًا فخيمًا ونهر فلوس لا ينفذ؟!..

إلا أن بربش العفريت نصحنى بالابتعاد عن لندن وباريس بالذات لأنهما تحويان الواغش. فهناك ثلاث جهات تعيث فسادًا فى المثقفين المصريين بالذات والعرب عامة، تنفق عليهم الأموال الطائلة ليكونوا جنودًا يخدمون سياستها بالدعاية لها وإضفاء الرهبة عليها من ناحية أخرى ولتسخيرها لضرب الحاكم المصرى وإشاعة البلبلة والقلاقل فى مصر من ناحية أخرى بأوهام وشعارات اشتراكية وحدوية فهلوية ثورية من ناحية أخرى. هذه الجهات هى العراق ومنظمة التحرير الفلسطينية وليبيا. ما من واحد من مثقفى الناصرية والشيوعية المصرية إلا ويعيش مليونيرًا أو على الأقل لورداً فى بلهينة من العيش على نفقة واحدة من هذه الجهات الثلاثة بعضهم متسق مع نفسه لأنه يعمل فى إطار المبادىء التى آمن بها بصرف النظر عن القوة المادية المسيطرة التى توجهها فى خير أو فى شر؛ وبعضهم يعرف جيدًا

أنه مجرد لاعب على الحبال بهلوان يرغب فى تجميع ثروة طائلة فى زمن محدود ولذا فهو يجيد القفز على التناقضات القائمة دائمًا بين الأنظمة السياسية العربية! ليضع نفسه فى خدمة أى منها إلى أن تواتيه فرصة أكبر للوثوب على تناقض أكثر ثراءً؛ منهم المراسل الصحفى، والكاتب المتفرغ، والمدمن إصدار مجلات وصحف تتلقى التمويل من كل حدب وصوب مقابل السكوت عن الشوشرة أو توجيهها فى اتجاه آخر؛ ومنهم السياسى المعزول فى بلده وقد أوهم إحدى هذه الجهات بزعامته وقدرته على إقامة تنظيم مصرى فى الخارج يستطيع القفز على الحكم فى الداخل؛ ومنهم الجاسوس المحترف ذو الوجوه السبعة، ومنهم الشاب المخدوع بأوهام الثورة والاشتراكية والقومية.. إلخ؛ ومنهم المذيع الحنجورى المتخصص فى تدبيج وإلقاء البيانات ضد مصر وأنور السادات خائن العروبة. لكل هولاء - يقول بربش روافد وقنوات داخل القاهرة؛ والدولار النفطى فى يدها يستقطب كل من يجيد الإمساك بالقلم ممن يلزمهم مسكن وزوج وسيارة ومصروف جيب يقاوم به الارتفاع الجنونى للأسعار بعد حرب أكتوبر، ولذا فإن الصحافة النفطية هى صاحبة الصوت الأعلى الآن بل هى صاحبة الصهوة والصولجان فى مصر، ثقافة معلبة لا تخدم قضية ولا تبنى شعبًا، تفح منها رائحة الجاز؛ كل ذلك يتم طبخه فى لندن وباريس أكبر سوقين فى العالم لتجارة السياسة والفنون وصنع الأبطال المزيفين والإرهابيين والمفكرين الأدعياء..

ولو أننى أقمت فى باريس أو لندن يا بوى فإن هذه القوى الجهنمية ستتخطفنى بأى شكل على الأقل تورطنى فى أشياء قد تغضب الرئيس السادات منّى، خاصة وأن المثقفين المصريين هناك يسببون له كثيرًا من الضيق والإزعاج، وهومحق فى الثورة عليهم والتنديد بهم فى خطبه وأحاديثه، لأن الفرق بين محاربة الرئيس المصرى فى الخارج وبين محاربة مصر نفسها شعرة رفيعة ينسى المحاربون المحترفون دائمًا أنها كثيرًا ما تنقطع رغمًا عنهم فإذا هم يحاربون بلادهم فى الصميم تحت علم الجهاد فى سبيل مصلحتها فى حين أن مصلحتها فى سكوتهم. وجودى بين هؤلاء خطر يا خال كما نصحنى بربش، مجرد اتصالى بهم أو اتصالهم بى قد يجر علىّ الإشاعات والوشايات خاصة إننى لست هاربًا من شىء فى مصر، وبالأخص لأنى صديق لأنور السادات مؤمن مثله ومقتنع بأنه السياسى الوحيد الذى يمكن احترامه بين جميع زعماء العرب على الإطلاق، والعمل معه أشرف بكثير جدًا من العمل مع أى ديكتاتور عربى لا يملك إلا السيف والذهب؛ فى نفس الوقت أنا لست محتاجًا للمال أو الشهرة أو المركز لكى أعمل مع أى قوة عربية مضادة لأنور السادات؛ الأهم من ذلك أننى أعشق تراب مصر ولا أطيق من يسىء إليها أو إلى رئيسها فى الخارج، أى أننى باختصار يا بوى سأخلق لنفسى من المشاكل ما هو أشد خطورة من بقائى فى مصر. ثم إننى عضو فى مجلس الشعب يا خال، وعضويتى أصبحت مضمونة فى كل دورة يعنى ناجح

ناجح غصباً عن الجميع مهما حوربت من خصومى فى الدائرة بل أصبح عندى دائرة احتياطية مضمونة فى جيبى هى منطقة منشية ناصر والجمالية والدرب الأحمر، وهى منطقة لو سحبت منها أموالى الشغالة فيها لخربت ثلاثة أرباع تجارتها..

قل إننا نحينا فكرة الهجرة جانبًا.. ونصحنى بربش بتوجيه اهتمامى إلى المظاهر الإسلامية الزاعقة حتى أصبح رمزًا من رموز الإسلام ترضى عنه جميع التيارات المؤيدة والمعارضة على السواء، فبدأت أتجه لبناء المساجد وإقامة المستوصفات فى الأحياء الشعبية الفقيرة تعمل بالمجان وتسمى بأسماء إسلامية: الصفا، مكة، الريان.. إلخ. ولم يكن ذلك يكلفنى كثيرًا يا بوى، بل على العكس كان يفيدنى؛ ذلك أن تكاليف هذه المستوصفات كانت تخصم من الضرائب المستحقة على شركاتى ثم أن بربش وبسبوسة وغزولى أقنعونى أن عدوان جماعات التكفير والهجرة منصب فى الأساس على الشرطة، وحدها وإلى أن يمتد عدوانها إلى الشخصيات العامة يكون قد حلها الحلال.

***

كنت قد انضممت إلى حزب مصر الذى كونه الرئيس السادات. صرت أفخر بأننى عضو بالهيئة التأسيسية مما أتاح لى أن أصبح عضوًا بلجنته المركزية العليا. دفعت أكبر مبلغ تبرعت به فى حياتى لتأسيس الحزب، ثم مبلغًا آخر لتأسيس جريدة مصر.

وحينما انقلب الرئيس السادات على الحزب لسبب لست أدريه ولم أعن بسؤال بربش تفسيرًا له؛ تبعته في الحال يا خال؛ وفسرت انقلاب الرئيس بيني وبين نفسي أن الرئيس قد أدمن الانقلابات؛ وقلت لنفسي:

ما دمت قد أحببته وآمنت به ولد فتوات فيجب أن تكون بجواره أينما ذهب..

شاركت في تأسيس الحزب الوطني يا بوي؛ دفعت مبلغًا أكبر من السابق تبرعًا لميزانية الحزب،؛ قدمت شركاتي كل خدمات ممكنة تحتاجها مقار الحزب وجريدة الحزب ووسائل انتقالاته..

بعد ذلك انضم كل من بسبوسة وغزولي إلى حزب الوفد لأنهما يحبان هذا الحزب بحكم الميراث. أما هندي فقد انضم إلى حزب العمل لأنه قرأ ذات يوم مقالة عن أحمد حسين فأحبه واعتقد أن هذا الحزب يشبه أحمد حسين وأيامه!! أما بربش - وهذا هو المثير المدهش يا خال - فقد انضم إلى حزب التجمع الوحدوي الناصري. ظننته يمزح يا بوي؛ لكنه صفعني بإبراز بطاقة العضوية؛ ثم بدأ يكتب في جريدة الأهالي من حين لآخر وعلى حس الأهالي صار يكتب في صفحات الرأي في الجرائد المسماة بالقومية والأهرام والأخبار والجمهورية، بشكل متواصل، لا يمر أسبوع إلا وتقرأ زوجتي عليّ مقالة بقلمه في جريدة من الجرائد أومجلة من المجلات؛ كما أنه صار يلمع نفسه بالأخبار

الدائمة في كل الصحف معتزمًا دخول الحقل السياسى من جميع أبوابه عن طريق الحزب وجريدته. قلت له:

- «ولكنك يا بربش من ألد أعداء عبد الناصر والاشتراكية والشيوعية وغير مؤمن بفكرة الوحدة العربية وإمكانية تحققها فى العصور القليلة القادمة على الأقل! ورأيك إن الاتحاد السوفييتى نصاب بل أشد وساخة من أمريكا فكيف تنضم إلى الحزب الذى ينادى بكل ما أنت ضده؟!»

قال ببساطته ووضوحه المعهودين:

- هذه هي الشلة التى أعرفها جيدًا فى الحقل السياسى كما أعرف نفسي!! ليس من شخص فيها لم أختلط به فى السراء والضراء وأعرف نقاط ضعفه ومكامن قوته! إنها المجموعة التى أستطيع التعامل معها فى يسر وسهولة لما بيننا من لغات مشتركة وتفاهم سريع سهل! فهى إذن مجموعتى! فريقى الذى أستطيع أن ألعب به أية مباراة سياسية ولا تنس أنهم أكثر وعيًا بالسياسة وأكثر قيمة فى معظمهم بصرف النظر عما يصيب بعضهم أوكثرتهم من عطب وعفن وضمر فى عضلة الضمير وجروح غائرة بسبب ما أصابهم من تعذيب داخل السجون!! إنهم أكثر السياسيين مدعاة للاحترام!! إننى أشعر بينهم بالتوائم! لقد انتهت المبادىء في نظرى منذ سنوات!! وبحكم سفرياتى العديدة فى السنوات الأخيرة إلى كل العواصم الاشتراكية كتاجر وكسائح

وكمثقف يلوح لى أن المسألة الاشتراكية هذه أصبحت على حافة بركان لابد أن ينفجر عما قريب!! فالشعوب ضائقة مخنوقة ومستوى الحياة والمعيشة يؤكد أن درجة القهر الاجتماعى والسياسى بلغت الحلقوم ولم يبق إلا الانفجار!! ومعظم من نادوا بالاشتراكية والشيوعية فى مصر عرفوا هذا وتأكدوا منه لكن أصبح من العسير أن يتحولوا هكذا ببساطة عن أشياء آمنوا بها عمرًا طويلاً وقدموا فى سبيلها زهرات شبابهم! إن أكبر سلطة فى العالم الآن هى سلطة النفط حتى وإن كان مالكوه ضعافًا جهلة متخلفين إنما العبرة فيمن يسيطرون عليه!! أموال النفط مثل طبيعة النفط تمامًا عندما يكشف عن نفسه بالفيض إذ أنه ينتشر فى بقع عشوائية تأخذ فى الاتساع والتشعب حسب درجة صلابة التربة!! هكذا أمواله أيضًا تزحف على سطح المجتمعات العربية والنامية على شكل رقع عشوائية حتى تصبح الطبقات العاملة والفقيرة من صغار الموظفين والفلاحين معرضة للثراء الفاحش بغير مناسبة !! حينئذ تبدأ مقتنيات التكنولوچيا فى الانتشار فى الأحياء الشعبية وتكثر مظاهر الرفاهية فتبطل بالتالى كل دعوة للمبادىء السياسية المسماة بالاشتراكية والشيوعية لأن الطبقات المقصودة بالخطاب السياسى لم يعد لديها أذن تصغى ولا وقت تضيعه فى عمل سياسى منظم!! كل البطولات السياسية تصبح وهمًا أخرق فى ظل سوق نفطية عارمة تبعثر الأموال بغير حساب على كل من ينضم إلى قافلة الزيت أو يحتك بها مجرد الإحتكاك إننا مقبلون

على العصـر الذى يسميه حـسنين هيكل بالعصر السعـودى حيث تسعى السعودية بقوتها المادية والدينية إلى أن تكون مركزًا للحكم فى العالم الإسلامى وتصبح مصر بجلالة قدرها إيالة سعودية أو إسلامـية كما كـانت من قبل إيالة عثـمانية! كـان من المفروض أن أنضم إلى حزب موال للمد السعـودى أو أشارك فى اليغمة الكبرى لكننى فى هذ المسألة حنبلى! لـقد تعلمت الوطنية الحقـة من كبار الشيوعيين وما دام الله قد أعطانى المال فى أواسط العمر فلا داعى للنذالة فى المسألة الوطنية!! أنا مصرى قح! وعربى ثانيًا! ولا أقبل أن تصير مصر بجلالة قدرها مجرد إيالة لا سعودية ولا حتى جن أزرقية!!»

ذلك هو بربش يا خـال، معلمى ورائدى وصـاحب أكبـر فضل فى بزوغ نجـمى؛ ولولا نصـائحـه وتوعيـاته وخططه وعـلاقـاته الواسعة ولباقته فى الحديث وقدرته على إتقـان شخصية محبوكة منضبطة تقنع من يراه بأنه زعيم سياسى بالسليقة والفطرة؛ لولا كل ذلك لتعثرت فى أول الطريق يا خال..

فليقل بربش وليفـعل ما يشاء فإنى أحببتـه. وإذا كان هو كما وصـف لى نفسه ذات يوم فى شقـة المنيل ـ نتاج عصره المضطرب الملىء بالتناقـضات والحـروب والخـوف والرعب والتطلع المجنون والطموح الأخرق؛ فإننى بدورى نتـاج بربش إضافة إلى كونى من نفس العجينة التى ديست فى قعر المجتمع..

صرنا خصومًا سياسيين فى الظاهر يا خال بحكم انتماء كل منا إلى حزب مختلف، أنا فى الحزب الحاكم وهو فى الحزب المعارض لكنه أصبح يسبب لى الكثير من البلبلة يا خال، بل الكثير من الحرج أمام سيادة الرئيس والهيئة البرلمانية للحزب التى أنا عضو فيها. كنا نسهر كل ليلة معًا فى شقة المنيل أو فى قصرى أو فى استراحة خارج القاهرة؛ وأثناء السهرة يؤكد لى مجددًا أهمية اتفاقية كامب ديفيد للسلام التى عقدها الرئيس السادات مع إسرائيل؛ ويؤكد لى بكل اقتناع أن السادات بها وحدها دخل التاريخ كبطل للحرب والسلام معًا؛ وهو ليس يستحق جائزة نوبل فقط بل يجب أن نقيم له تمثالاً من الذهب فى قلب كل مصرى. المدهش أنه هو الذى قرأ لى بنود الاتفاقية بندًا بندًا، حتى ما خفى منها، وفى اللغات التى كتبت بها يا خال، وفور صدورها، بل فى مسوداتها الأولى قبل إعلانها على الملأ؛ وتولى شرح البنود على حدة، وتعليقات الأجانب المحللين وأصداء ذلك فى وكالات الأنباء العالمية، وردود الفعل الاقتصادية والتوقعات لما ستسفر عنه هذه الحركة العدائية الناشبة ضد مصر بين العرب فيما عرف بجبهة الصمود والتصدى بقيادة صدام حسين الذى أوهمه المثقفون المصريون المحترفون بأنه الوريث الشرعى لعبد الناصر فى المنطقة أو لعله النسخة المحسنة المعدلة منه وأنه لا محالة واصل بالعرب إلى بر الأمان؛ وكيف أن هذه الحركة ستأكل نفسها بنفسها، ستغرقها بحيرات البترول الأكثر تدفقا فى بقع من بقاع الجبهة

المزعومة؛ مصلحة البترول الحاكم ستكون هى فصل الخطاب، هى التى لابد أن تسود. إن البترول - يقول يا خال - الذى سيطرت عليه القوة الأجنبية الشيطانية سينضم تلقائيًا لخدمة سادته أصحاب الهيمنة وبالتالى فغدًا أو بعد غد تتشرذم هذه الجبهة الهشة من حالها، التى لا يجمعها سوى الشعارات والانفعالات ولا تملك من أسباب التلاحم الحقيقى سببًا واحدًا؛ سرعان ما تنفتح لكل منها جبهات داخلية مدمرة تستهلك كل قواها فلا يبقى من جبهة الصمود والتصدى سوى فراغ المنطقة من أى جبهات على الإطلاق؛ تظل كما كانت وكما ستبقى لدهور مجرد سوق للنفط يستهلكه السادة إياهم ونحن مجرد حرس وخدم نعيش على الفتات الفوضوى، ولسوف تؤوب المسائل فى النهاية إلى سريان ما خطط له السادة إياهم وأرادوا. وإن عشنا لسنوات قليلة قادمة فسيفكرنى حينما أرى بعينى أن الجميع يسعون للصلح مع إسرائيل لأنهم لا خيار أمامهم سواه بعد أن تفتتت كل الجبهات واضمحل شأنها. كل طرف سيمنى النفس ولو بربع ما حصل عليه أنور السادات فى اتفاقيته؛ وما حصل عليه السادات ليس بالقليل فى الواقع؛ يكفيه استرداد الأرض المغتصبة منه شبرًا شبرًا. ثم إنه لم يلجأ لهذه الاتفاقية إلا بعد أن تركه أشاوس الصمود والتصدى وحده فى مهب الريح يتراخون فى دفع أنصبتهم فى تكاليف المعركة هم يريدون استمرار الحرب مع إسرائيل حتى آخر جندى مصرى وآخر قرش فى خزانة مصر

فهل هـذا حلال أم حرام؟ تقـولون بأن المعـركة عربيـة؟ نعم؟ إذن فليكن الجيش عربيًا والسلاح صفـا والقيادة واحدة؛ أما أن يكتفى البـعض برمى الفتـات كتـعويضـات مادية دون مـشاركـة فعليـة صارمـة حاسمة، شـراءً لخواطر سادتهم المهـيمنين على نعيـمهم النفطى فهذا مـحض تهريج وتخريف وتخلف؛ ولا جناح على أنور السادات إن هو ولى وجهـه نحو إنقاذ ما يمكن إنقاذه من مـصير بلاده قبل تفاقم الخسائر ووصـول الأمور إلى المراحل الصعبة ثم المستحيلة.

ذلك هو رأى بربش يا خال وبكل حذافيره كما شرحه لى مرارًا وتكرارًا فى سهراتنا إبان القلق العـام والدوار الذى أصـاب الجميع بصدمـة الاتفاقـية المفـاجئة؛ بل إنه صـاحب التعـبير الـقائل بأن المستـحيل أصبح ممكنًا بـهذه الاتفاقـية فلِمَ لا يعيش الجـميع من سكان المنطقة فى وئام وحذر طالما إنه أمر واقع ومفروض بإجماع العالم ولا مفر منه؟

إلا أننى أفـاجأ ـ ربما فى صـباح نفـس الليلة يا خال ـ بمقـال بتوقيعه منشور فى جريدة الأهالى يهجم فيه على السـادات يصفه بأشنع الأوصـاف يا خـال؛ يمزق اتفاقـية كامب ديڤيـد شر تمزيق واصفًا إياها بأنها اتفاقية الخـيانة والهزيمة والخور وبيع التاريخ كله بنصف خـردة!! ثم يصف الحـزب الوطنى الحاكم بأنه حـزب التـجار وأغنيـاء الحرب والصدفـة، والسمـاسرة والوكـلاء الذين لايعنيهم مستقبل الوطن فى كثير أو قليل.

تكررت هذه الحركات النص كم يا خـال من بربش حتى فهمت إنه حينمـا يريد أن يكيل اللعنات للسادات فـإنه يرفع اسم الرئيس ويضع بدلاً منه الحزب الوطنى الحاكم؛ و حينما يكيل اللعنات على الحزب الوطنى الحاكم فإنه يضـربنى أنا تحت الحزام يا خال. أما حيـن أعاتبـه يضحك؛ وفى ضـحكه - يا عجـبًا - صـفاء الطفـولة وبكارة الأبرار، ثم يقول:

- «هذا شغل سياسة لابد منه يا صـاحبى!! أنا حينما أكتب فى جريدة الحـزب فلأننى عـضو فى هيـئة كبـيرة تمثل الحـزب أمام جـمهـور السيـاسيـة وأعـضاء الحـزب!! إن الحزب الذى أشـرف بالانتماء إليه يـرفض الاتفاقية شكلاً ومضمونًا بـل لا يعترف بها من الأسـاس فكيف أخـالف الحزب بـإجمـاعـه؟! إننى إذن لمنشق ويحق له طـردى منه!! أنت يجب أن تفـرق بين بربش صـديق عمـرك وبربش عضو الحـزب السياسى! أنا مـع الاتفاقيـة بقناعة شخصية لكننى مع حزبى بالموقف والمساندة بجميع أنواعها!! هذه أصول حزبية لابد من مراعاتها!!»

- «ولكنك يا بربش يا خوى تشهر بنا! تحـرض الجماهير علينا تحريضًـا صريحًا تهـيج مشاعـر الرأى العام! خاصـة وأن القراء المهمين انصرفوا عن الجرائد القـومية إلى الجرائد النفطية اللندنية ونشرات المعارضة!! فما معنى أن تكون صديقى وعدوى فى نفس الوقت؟!»

ـ هذه هى السياسة يا صاحبى! انتم بالفعل خصومى السياسيين فى الواقع! ولسنا وحدنا، خصومكم الشعب كله فأنا إذن أقف فى صف الشعب! لقد رضى الشعب بالحرب وقدم أولاده ولف الحزام على بطنه جاع تعرى أهين فى المواصلات سكن فى المقابر كل ذلك فى سبيل الخلاص بالحرب فلما تحقق النصر ساءت الأوضاع واسودت عيشة الناس بدلاً من الرخاء المنتظر!! اشتعلت الأسعار عزت المساكن انعدمت السلع نضبت المرتبات والمهايا!! سنوات الضباب التى تذرع بها الرئيس لم تمطر بالذهب والفضة بل أمطرت البلاوى السوداء والعياذ بالله!! قيل السلام قرين الخير! فرضى باتفاقية السلام ودم أبنائه لم يجف بعد فإذا بالأوضاع تزداد سوءًا حتى أولادنا الذين كفونا مئونتهم بالعمل فى بلاد النفط أصبحوا يتعرضون للذل والهوان والطرد بسبب الاتفاقية!! حتى الذين رضوا بالذل والهوان هربًا مما هو أمر منه فى بلادهم خفضت أجورهم إلى أدنى حد عنوة واستقدارًا!! إن البلاد يا صاحبى تغلى غليانًا مخيفًا وأنت لا تدرى!! الفرق بينى وبينك أننى شوارعى أصيل استمرت علاقتى بنبض الشارع حتى وأنا فى رحلة فى الخارج أما أنت فاستمرأت النعيم!!»

تصور يا خال، بربش يقول هذا الكلام. عندئذ يا خال أيقنت أننا فى عصر التبجح البهلوانى المتقن، إذ يحق لبربش أن يفعل ما

فعل ويرتكب مـا ارتكب ضد الناس فى إدارته لشركـاتى ثم يقول مثل هذا الكلام الوطنى الحار!! هذا درس آخر مما تعلمته فى شغل السياسـة يا خال: أن تكون محبـوك الشخصيـة قادرًا على الإقناع بالكلام المسبـوك فـهذا يكفيك وافـعل خلف ذلك مـا تشـاء من الأفعال.

- ٣ -

كـان فرح سـمـاسم بنت بسـبوسـة ـ الذى أقـمناه فى فندق المريديان ـ على وشك الانتهاء حينما انزويت مع بسبوسة فى ركن قصى فى الاستراحة فوق مياه النيل، نستروح النسمات ونستنشق ذكريات الماضى الأليم. وإذا به يقول فى شىء من الزهو:

ـ «ضيوف بربش الليلة كانوا أضعاف ما توقعت!! الولد اتسعت علاقاته! كـان معه الليلة ناس مهـمون من سفارات العراق وليـبيا والجزائر ومنظمة التحرير الفلسطينية وتونس واليمن والسعودية! كُتّـاب وصحفـيون ودبلوماسـيون ومناضلون! رحبت بهم طبـعًا حينما قدمهم لى بالواحـد، ملأت موائدهم بزجاجات الويسكى من أرقى نوع بخـلاف ما أتى به بربش! جـلست معـهم بعض الوقت فاستكملوا حديثهم أمـامى! جننت! ليس هذا بربش الذى أعرفه! ما كل هذا الكلام الفـخيم الرنان؟ هذه الثـقة؟ هذه القـضايا الكبـيرة التى تكلم فـيهـا؟ لو رأيته لحظتـها يـخيل إليك أنه يسـعى لمنصب رئيس الجمهورية!! مجنون ويفعلـها!! فاجر! والله كان يتكلم كأنه المهدى المنتظر! المذهل أن ضيوفه كانوا يعاملونه هكذا!!»

ـ «ماذا كان يقول مثلا يا بسبوسة؟!»

ـ «أنت تعرف أننى لست مائى المزاج وإن كنت أشرب!! لكننى شربت الليلة بمعنى الكلمة فلعب الويسكى برأسى لولا أننى قرقشت ليمونة يخيل لى أنه كان يتكلم عن جريدة يومية باسم الفيضان تكون سياسية انتقادية حادة! وتكلم عن شىء اسمه الميليشيات! لم أعرف معنى الكلمة ولكن ربطها بالعمل الفدائى جعلنى أفهم أنها ربما كانت تعنى الفدائيين المقاتلين! وأن يديرها بنفسه متصديًا بها لفرق التيارات المتطرفة يصفيها جسديًا قبل استفحال خطرها الزاحف بقوة! وأشياء من هذا القبيل! وأظنه تكلم أيضًا عن حزب سياسى سيتقدم بطلب لإنشائه بعد أن يجمع النصاب القانونى من الأعضاء سيسميه باسم الجريدة: الفيضان! فيضان الخير فيضان الغضب فيضان النيل كله داخل فى بعضه كما قال!! يبدو أن الولد قد ركبه جنون العظمة بعد أن شبع وعمل القرشين!! لا تستهن به على كل حال!! ابنه من زوجته القديمة ـ وهو طالب فى الجامعة ـ عنده سيارة بى إم دبليو! مثل سيارة زوجته الجديدة!! أما زوجته القديمة فسيارتها بيجو ٥٠٤، لابنته الطالبة بدبلوم التجارة سيارة فيات ١٢٨!! اللهم لا حسد ولكنه بدأ يفجر فجورًا لامثيل له وعلينا أن نحذر منه كل الحذر! لا نخسره وفى نفس الوقت لا نأمن جانبه!!».

- «ربنا يعمل مـا فيه الطيب يا بسـبوسة! ربنا يهـديه فأنا فى الواقع لا أستغنى عنـه أبدًا وأنت تعرف مدى ارتباطى بكم جمـيعًا فأنتم أهلى وناسى!»

- «أنا لا أطعن فيه لعلمك! ولا أوقع بينه وبينك فـأنا أيضًا أحبه وهو قطعـة عزيزة من حـياتى إنما أقول مـا لاحظته عليـه! ولأننى مخلص لك وله فإننى يجب أن أقول لك إنك لن تستـفيد منه الكثير بعد الآن فـى شغل السـياسة! لقـد بدأ عصـره الآن!! هو لعب فى السياسة من خلالك! لبس وجهك وثيـابك حتى حقق ما كان يتمناه أصبح يوصف برجل الأعـمال المصرى الكبيـر أصبحت له شعـبية فى النادى الأهلى ويرشح نفسه لمجلس الإدراة فينجح ويتزوج من نجمة سينمائية صاعدة ويقنعـها بالتخلى عن طموحها السينمائى من أجله!! هو الآن يشتغل فى السـياسة لحسابه! باسمـه! بوجهه! ولسوف ينجح بالتأكيد!!»

- «وما العمل فى رأيك يا بسبوسة؟!»

- «أنت لا تزال الأقـوى طبعًا بـحكم موقعـك فى السيـاسة فى الحزب الحاكم ومركزك المالى الضـخم! ولا أظن أنه سيصارعك فى يوم من الأيام لأنه يحبك من جهة! ومن جـهة أخرى فإن حزبه لن يصل إلى الحكم أبدًا لأنه مجرد أنقاض عـهد مضى وكرهه الناس كرهًا شـديدًا!! كل ما فى الأمر أن بـعض الأذكياء من أمـثال بربش يمكن أن يقـفوا فوق هـذه الأنقاض فيـحقـقوا مكاسب شـخصـية كبيرة!!»

- «ما رأيك يا بسبوسة لو أننى فضضت جميع شركاتى أرحت نفسى من وجع الدماغ وهاجرت إلى بلد أوربى أقضى فيه بقية عمرى بعيدًا عن المخاوف أربى عيالى تربية راقية وأعيش عيشة راقية؟»

- «تكون جننت بالفعل!! إياك أن تفكر فى هذا مجرد التفكير! إن الرأسماليين المصريين المتجنسين بالجنسية الأمريكية بدأوا يتوافدون اليوم على مصر لإنشاء المشاريع الاستثمارية المربحة! فجأة تذكروا مصريتهم التى تركوها أيام الحرب غرقانة فى الوحل وعادوا الآن يتمسحون فيها يظهرون فى برامج التليفزيون يقولون كلامًا يرفع ضغط الدم من كثرة النفاق، والزيف والكذب: جئت لأخدم بلدى الحبيبة مصر العزيزة فى القلب.. إلخ!! الأحرى بالواحد منهم أن يقول: جئت لأنهب وأستغل فأنا أولى من الغريب!! ماضيك كله فى التجارة والاستثمار كوم والأيام القادمة كوم آخر!! المكسب الحقيقى سيبدأ!! القطاع العام سيتم بيعه لا محالة لأن معظم أعضاء مجلس الشعب والوزراء من كبار الرأسماليين وأصحاب المشاريع والحزب الوطنى كله كما تعلم ضدَ القطاع العام ومجانية التعليم ومكاسب العمال والفلاحين وتحالف قوى الشعب العاملة؟! أكبر تناقض فى حياتنا السياسية الآن هو أن الحزب الحاكم يحكم باسم ثورة ٢٣ يوليو وهو نفسه الذى يقوم بتدميرها ومحو آثارها من الوجود!! ذهب عصر حكومة العمال والفلاحين وانقضى عصر حكومة المهندسين وعصر حكومة التجاريين المحاسبين وبدأ عصر حكومة رجال

الأعـمال! وتجيء أنت بسـلامتك لتـفكر في الإنسـحاب؟ مـا الذى أصابك في عقلك يا رجل؟! توقف نهر الفلوس؟!»

- «بصـراحة يا بسـبوسـة أصبـحت أخـشى التيـار المتطرف! أسلوب الخطف والاغتيال والتفجـير قد بدأ وعيونهم الآن على كل من أيد الاتفاقـية أو سـافر إلى إسرائيل مع الرئيس!! أنـت بنفسك نقلت لى أخـبارًا سرية تقـول إن إيران والسعـودية ينفقـان أموالاً طائلة علي التيـار الإسلامى لخلخلة النظام المصرى وتعـجيزه كى يصل الإخـوان المسلمون إلى الحكـم فإمـا أن يكون التيـار الموالى لإيران هو الأقـوى فتكـون مصـر ممرًا لإيران إلى السـيطرة على السـعودية! وإمـا أن يكون التـيـار الموالى للسـعودية هو الأقـوى فتكون مـصر سلاحًـا في يد السعودية لضـرب إيران وتبقى هى زعيمة العالم الاسلامى الكبير!!»

- «لعلك تذكر أن بريش شرح لنا ساعتها أن ذلك سيبقى مجرد حلم تسعى إليه الدولتان وهو غير قـابل للتحقيق بسهولة وإن ظل مـصـدرًا للقـلاقل! إن أوربا التـى تسـتنزف الآن بتـرول البـلاد! وأمريكا التى تدلل السعودية وتبغدد الخليج لتضـمن حراسًا أمناء على مصالحـهم في المنطقة بدلاً من الشاه وحتى تـصبح إسرائيل قوية بالدرجة الكافية!! هؤلاء لن يتركوا لا السعودية ولا إيران ولا الباكسـتـان ولا حتى مصـر تقيم إمـبراطورية إسلامـية تتنازعـها وتهدد أمنها بعد أن تخلص العالم من الإمبراطورية العثمانية!! وإذا

كانت أمريكا تركـز جهودها الآن للقضاء على الاتحاد السـوفييتى كي تستقل هى بحكم العـالم فإنها ليست من الغبـاء بحيث تسمح للتيار الإسلامى بأن يصل إلى أبعد من الحـدود التى رسمتها له!! إنه هو الآخر سلاح فى يدهـا تلعب به فى المنطقة من بعيد لبـعيد ولكنها عند اللزوم يمكن أن تدكه دكًـا!! هذا ما شرحه بربش وإنى أتذكره جيدًا!»

كـان بربش قد انصـرف مع ضـيوفـه إلى حـيث يسـتأنفـون السهـرة فى صحـارى سيـتى؛ وهندى وغزولى تطوعـا باقتـياد سيـاراتنا مزوقة بالورق الكريشـة للمشاركة فى مـوكب توصيل العـروس إلى شقـتهـا التى احتـجزناها فى واحـدة من عمـاراتى الفاخرة فى مدينة نصـر كهدية مجانية لها وكسرًا لـعين عريسـها ضابط الشـرطة، فيـما جلست أنا وبسـبوسـة نشرب القـهوة فى انتظار ولد الفـرطوس بالسيارات. وكـنت أهز رأسى بالتحـية لكل من يفوت علينا ملقـيًا السلام، كأننى أحد نجوم الـسينما يلاطفنى الكثيرون بل إن بعضهم يصـر على أن يبعث لى فنجان قهوة على حسـابه، بصراحـة يا خال كرهت بربش لحظتـها لأنه أضـر بهذه الناس وأطعمـهم الفراخ الفاسـدة وطعام الكلاب باسم شـركاتى. عاد حب القـاهرة يلعلع فى قلبى؛ قلت لنفسى: كـيف طاوعك قلبك على التفكير فى الرحـيل بعيدًا عن هذه العزوة الدافئـة لتعيش فى بلاد لا يعرفك فيها أحد؟.

واستدرك بسبوسة:

ـ «علي فكرة! الناس تلوم أنور السادات لأنه أفرج عن الإخوان المسلمين وترك لأشبالهم حرية العمل في الجامعة فانقلبوا عليه!! قيل إنه أراد أن يلعب بهذه الورقة لكسب شعبية دينية كبيرة من ناحية وليخلصوه من الشيوعيين والناصريين من جهة أخرى فخانه الحظ في هذه الورقة لأن من يربي وحشًا لابد أن يستدير عليه!! وأنت بنفسك شفت محاورة السادات مع عمر التلمساني ساعة أن دعا عليه التلمساني على الملأ في الجلسة قائلاً بالفم المليان: شكوتك لله! وشفنا في التليفزيون أنور السادات وهو مرعوب من هذه الشكوى ويطلب من التلمساني سحبها فلا يسحبها فكأنه أهدر دمه بين القبائل المتطرفة وها هم يتآمرون عليه علنا!! بصراحة لا تدخل دماغي فكرة الديمقراطية هذه! وفي ظني أن السادات أفرج عن الإخوان نتيجة ضغط عليه من جهة معينة زينت له فكرة الحصول على الشعبية الدينية! الله أعلم أن تكون هذه الجهة هي السعودية أو أمريكا! المهم الآن أنه خلق لنفسه عدوًا ليس سهلاً! فالإخوان بينهم وبين ثورة يوليو تار بايت! وهم أصحاب العمل السياسي المسلح طول عمرهم! وكل هذه التنظيمات الشبابية الجديدة من أبنائهم وتحت توجيههم ومخططاتهم يسخرونهم لتمهيد الطريق حتى تظهر الرءوس الكبيرة في الوقت المناسب! إنه تنظيم دولي خطير يمتلك بدلاً من سيف المعز وذهبه كل السيوف وكل الذهب بل يمتلك المعز نفسه!!»

ـ «هذه التنظيمات الشبابية هى ما أخشاه على نفسى وأولادى يا بسبوسة يا خوى! خاصة أن تصرفات بربش وشركائه فى شركاتى سوأت سمعتى!! المسئولية مسئوليتى طبعًا لأنى كان يجب أن أقطم رقبته من الأول لكنى بكل صراحة عجزت يا بسبوسة! الله وكيل يا بسبوسة! أنا أيضًا طمعت فى المكسب الكبير! من ناحية أخرى حسبتها فرأيت أننى حتى لو منعتهم رسميًا من التلاعب فى البضائع فإنهم كانوا سيفعلون ذلك من وراء ظهرى!! ضميرى يأكلنى يا بسبوسة ولا أدرى ماذا أفعل!»

ـ «على كل حال يا حسن بك ما حصل حصل وانتهى الأمر! وعلى فكرة! الشعب المصرى أسرع شعب ينسى الإساءة ويغفرها! أنظر حواليك فى أى مكان فى مصر! فى مكان كهذا مثلاً! تجد على الأقل عشرة رجال ممن كانوا سياسيين ذات يوم من وزراء وحكام سقونا المر أشكالاً وألوانًا بل وقتلوا منا المئات باعونا للذى يسوى والذى لا يسوى بتراب الفلوس، وها هم كما تراهم يبرطعون فى البلاد بالطول وبالعرض يعيشون عيشة الملوك! هل تعرض لهم أحد؟ هل انتقم منهم أحد؟ أبدًا وشرفك!! الكثيرون منهم سيبقون فى هذه الأيام سوف يظهرون من جديد فى صورة ملائكة أطهار جاءوا لإنقاذ الشعب من أزماته الاقتصادية!! يا حسن بك ضع فى بطنك بطيخة صيفى وضع ضميرك هذا فى الثلاجة! وعند اللزوم إذا وضعك أمام المساءلة فأنت لا دخل لك فيما حدث لأنك لست المدير المسئول إنما أنت صاحب مال فحسب!!»

ـ «صدقت يا بسبوسة يا خـوى ولكن التسفيح فى تزايد!! إننا أصبحنا نبـيع الشقة التمليك بمائة ضعف مـا تكلفته وهى مع ذلك مجرد حجـرة واحدة قسمنا مساحتهـا على ثلاث حجرات وصالة وعفشة مياه!! شفت بعـينى نوعية المونة وطريقة الكلفتة فى البناء والبخل بوضع أساس متين مع أن الأرض رخوة! فى ظنى أن هذه العمائر لن تعمر أكثر من عشر سنوات على أحسن الفروض!! إننى مرعوب يا بسبوسة يا خـوى! الله نجانى من لبخة المواد الغذائية أما هذه العمائر المبنية على قشر بيض فلا أظن أن الله ينجينا منها بسهولة!! الكوابيـس بدأت تطلع لى فى الليل وبربش يخطط لحزب الفيضان!!»

ـ «صدقنـى إن كل شىء سيـمضى فى سـلام كما يحـدث فى مصـر دائمًا!! لا أحـد ينتبـه لشىء مما يدور فى ذهنك! الناس فى لهو يا حسن بك!!»

ـ «لا بك ولا زفت! الواحد مـا عاد قادرًا على الاسـتمتـاع بهذه البكوية! جئـت لنفسى بالوجع المؤلم حتى فـى الرقاد! فى الماضى كنت أفرح بأنى وجدت شيئًا طلبتـه ولو كان صغيرًا! اليوم كل ما لا أطلبه تحت أمرى لعلنى أطلبه فى حين أنى لم أعد أطلب شيئًا لم أعد استلذ شيئًا حتى هذه القـصور التى أمتلكها فى عواصم عالمية كبـيرة أراها مـوحشـة ولا أطيق البقـاء فى واحد منـها أكثـر من أسبوع!!»

- «أولادك يا رجل سوف يستمتعون بها قريبًا وسوف تتلقى دعواتهم بغزارة!!»

- «لا أظن يا بسبوسة يا خوى! إن من يولد ويرى كل شىء ميسرًا حوله لن يشعر بالامتنان والشكر لأحد!! لا يشعر بالامتنان مطلقًا إلا من كان فى احتياج لشىء وعثر على من عاونه فى تحقيقه أو حققه له!! أما المولود بغير احتياجات على الإطلاق فإنه لو شكر الله يكون عملة نادرة!!»

- «هل أنت فى هذه الحالة منذ وقت طويل؟!»

- «تصور يا بسبوسة يا خوى أن أقرب الناس لى هزأنى وقاطعنى بسبب نشاط شركاتى؟! أنت تقول:الناس فى لهو ولا أحد يدرى شيئًا! غير صحيح يا بو العم! إن شقيقتى وصديق عمرى سيحا دمى فما بالك بالغريب؟!»

- «هذا هو السبب إذن!! قل هذا من الصبح وخلصنى يا رجل! المسألة كلها أنك أخذت على خاطرك من سوء تفاهم حصل بينك وبين أختك وصديقك! صعبت عليك نفسك فوصلتك إلى الحال التى أنت فيها! هذه هى الفولة! ما رأيك إذن فى كأسين من الويسكى؟! على الأقل مجاملة لى فى فرح ابنتى أخرج عن عادتك مرة واحدة الليلة! جرب الويسكى ربما اكتشفته أحسن من الحشيش والأفيون وأحسن من البودرة التى ابتلى الله بها كل من فى يده فلوس!!»

- «كفانا الله شر البودرة! وهذا على فكرة مما يطمئن بسبوسة! لو كانت فلوسى هذه حرام لابتلانى الله بشم البودرة مثل كل من أعـرفهم فى ســوق المال والتجـارة ورأيى يا بو العم أن فلوســهم حرام فى حـرام ولهذا سلط الله عليـهم هذا البلاء ليخـرب بيوتهم أولاً بأول ويكتب عليهم العرى والفضيحة فاللهم استرها يارب!!»

- «طب علىَّ الطلاق أنت مـحتاج لـكأسين!! بسْ! بسْ! يا مـتر! إتنين دوبل هنا من فضلك تبع الفـرح! فيه قزايز جـوه تبعنا ليلتك فل يا بو على!!»

- «إخز الشيطان يا بسبوسة!»

- «إخزه أنت! جـرب وستدعو لى بالسـتر بعدها! ستـعرف أنك من حين لآخر يجب أن تدواى نفسك بكأسـين لكى تجدد مشاعرك وأفكارك! سوف تحب قصور أوربا ونسوان أوربا! هل جربتهن؟!»

- «أعوذ بالله!»

- «يا رجل شـوف لك شـوية عيـال العب مـعـاهم! الغنى لمثلك حرام! ما فائدة العز إن لم تستمع به؟! غـير دمك! غير العتب! غير النفس! غـيــر السـرير وقـمـيص النوم والعـطر والملاءات! غـيـر الأحضان يا بقف يا مقـفول! ليس من الضرورى أن يكون ذلك فى الحرام! تزوج! اليوم ظهر فى بلادنا شىء اسمه زواج المتعة! لماذا تنتظر؟ حتـى يضمك التراب؟! مـثلك ليس له راحة إلا فى الهـموم

والمشاكل والأزمات وإن لم توجد أوجدها لنفسه بنفسه!! أرح نفسك واستمتع!!»

بعد الكأس الأولى يا بوى بدأ كلام بسبوسة فى هذا الاتجاه يحلو فى نظرى. وحين نسيت عدد الكئوس كان كلام بسبوسة قد أحيانى بالفعل يا خال، جدد نشاطى ونفسيتى وضعنى فى حالة اهتياج لم أعهدها فى حياتى من قبل. كدت أعض بنان الندم على ما فات من العمر بغير استمتاع كنت قادرًا عليه؛ شعرت كأن الرغبة الجامحة تكاد تأخذنى من لحظتى إلى مطار القاهرة لأكمل بقية الليل فى الطريق إلى سويسرا أو باريس أو روما. فى آخر الليل أقبلت على زوجى بشهية أذهلتها، فلما تشممت رائحة فمى دفعتنى بعيدًا عنها، وانزوت إلى بعيد تبكى وتندب حظها العاثر، فنكدت على بقية الليل يا خال.

- ٤ -

عقد السادات لقاءًا في النادى السياسى مع أعضاء اللجنة المركزية وأعضاء الهيئة البرلمانية. كان من المفروض أنه سيناقش معنا خطة الحزب في النهوض بالاقتصاد المصرى، ورأى الحزب في أداء تجربة القطاع العام. لكننى من لحظة ما جلس بيننا، أيقنت من منظره وشروده أنه يخفى توتراً عصبياً شديداً وإن بدا أنه بارد الأعصاب هادئ البال..

كان مشتت الأفكار ياخال، يوأوأ كثيراً حتى يعثر على الكلمة المناسبة؛ يقفز من فكرة إلى فكرة، ومن موضوع إلى موضوع كفرس النبى، يمزج بين أزمنة ماضية وأخرى حاضرة وقادمة، بلا تركيز، يستعيدك السؤال مرتين ليعطى نفسه فرصة تجميع الإجابة..

لاحظت أنه كثيراً ما يتلفت حواليه في شيء من الاسترابة، يتفحص كل من يدخل أو يهم بالخروج، بعين ممدودة كالمثقاب؛ يكاد ينتفض خوفاً إذا سمع طرقعة مفاجئة أو انكسار كوب في

البوفيه البعيد. لحظتئذ يا خال أيقنت أن السادات لم يكن فى حاجة لاجتماع مباحثات ومناقشات، بل كان فى حاجة لدفء الجماعة الكبيرة الموالية له، ليشعر معها بشىء من الأمان. لهذا قد انقلب الاجتماع إلى دردشة تتخللها نكات مصطنعة سقيمة لا تضحك ومع ذلك تجد من يضحك فى صخب.

وزير الداخلية كان حاضراً بالطبع سمعته يطمئن السادات بأن «هؤلاء الأولاد» ليسوا سوى مجموعة شراذم لا وزن لها ولا أهمية، وأنه إذا كان قد وفقه الله فى تشريد عصابات الشيوعية من لابسى قميص عبد الناصر فإنه بالأحرى قادر على قطع دابر هذه الجماعات المتطرفة بإذن الله. أما ذلك الضابط العسكرى المدعو بعبود الزمر فإنه بات على بعد خطوات من الفخ المنصوب لاصطياده، فعلى السادات أن يقر عينًا ويهدأ بالا من ناحية الأمن الداخلى، لأن «هؤلاء الأولاد» إن كانوا نارًا فلن يحرقوا مطرحهم. ثم راح يتكلم عن ذلك التنظيم الجديد المسمى بتنظيم الجهاد وكيف أنه لعب عيال فى لعب عيال، ولسوف يلقنهم درسًا لا ينسى..

السادات يتابعه بهزات من رأسه، وقد ارتسم على وجهه شىء شبيه بما يظهر على وجه أى أب يبد الإعجاب بشجاعة ابنه رغم يقينه بأنها مجرد حماسة مرتفعة وكان من المفروض أن الرئيس سيلقى خطابًا يشرح فيه ظروف الحالة الأمنية التى اضطرته للقبض على عدد هائل من العناصر الدينية المتطرفة، من كبار

الكتاب والصحفيين أمثال محمد حسنين هيكل صفيه القديم ومرشده إلى الكثير من القرارات المهمة؛ ومنهم ذلك الشيخ السكندرى المدعو بالمحلاوى الذى اتخذ من أحد المساجد السكندرية مقرًا لوعظه السياسى صار يواصل هجومه على أنور السادات والحكومة الكافرة التى تبيع البلاد وتتصالح مع العدو. البلد ياخال فى حالة غليان وفوران حتى فاضت المياه المغلية واندلقت: خطباء بألسنة طويلة ينددون بجميع المصريين المحدثين، صحف المعارضة الحزبية كلها استحلت اللعبة الديمقراطية المزعومة وهات يا شتائم من أعنف وأقذع ما سمعت فى حياتى؛ الجامعات فى حالة اضطرابات أشد عنفًا وشراسة حيث تغولت الجماعات الإسلامية سيطرت على اتحادات الطلاب صادرت كل الأنشطة الثقافية والفنية دخلت فى حوار وحشى بالسنج والجنازير والمطاوى فرضت سلطتها بالقوة الجبرية على الطالبات. الناس فى الشوارع غاية فى السخط يا بوى وكأن حالة الرواج المادى التى أحدثتها قوانين الانفتاح وما تبعها من جريان المال فى كثير من القنوات التى كانت بعيدة عن المصبات من قبل قد أيقظت الغالبية العظمى على أحقيتها فى المال الكثير السايب كغيرها من الفئات القريبة من الأنهار والمصبات المالية. ثم إن الفلوس كثرت أى نعم ولكنها رخصت يا بوى قلت قيمتها، فطالب المال فى طلب مستمر لا يتوقف، والفقير فى فقر مستمر ينزل به إلى قاع القاع بدون رحمة. حدث انقلاب مروع فى المجتمع، القوالب نامت والانصاص

قامت؛ من يستحقون العيش الكريم داسهم المجتمع ونكلت بهم الأسعار والطبقات الطالعة؛ ومن يستحقون الحرق والرمى فى القمامة أصبحوا بفضل النهب والسرقة ملوكًا وأباطرة يكفى أنا يا خال والشلة الوسخة، شف ماذا كنا وكيف أصبحنا. غير أننا فى نهاية الأمر اشتغلنا وتعبنا وفكرنا وبعنا أشياء محدودة؛ الدور والباقى على من تاجروا فى أوهام وباعوا لنا الهواء والشمس وربحوا من خيانة الوطن بالانضمام إلى قافلة النفط المعادية. وكما قال لى بربش ذات يوم قريب: سقطت كل الهيبات على الإطلاق بفعل هذه القافلة النفطية التى سربت جراثيم أمراضها وإحنها الحضارية إلى لفيف من مثقفى مصر فصاروا - تحت ستار زائف من البحث العلمى والدراسات الأدبية والتاريخية المغرضة - يشوهون كل القيم الوطنية الجميلة، حتى فوجئنا ذات يوم بأن جميع زعماء مصر ورجالاتها من كبار المفكرين والسياسيين والكتاب خونة وعملاء شواذ وتافهون ونمور من ورق. سارت هذه الموجة وعمت وأصابت حتى الذين حركوها واستفادوا منها لبعض الوقت بالذين شوهوا آباءهم ورموزهم لن يكونوا إلا شائهين. جبلة الجراثيم التفشى، وهكذا انحطت قيمة العرب جميعًا سقطت هيبتهم فمرغت اسرائيل كرامتهم فى الوحل أدخلتهم جحور العز والفخفخة الكاذبة محبوسة فى مخزن طعام شهى. صرنا فى عصر الصبية؛ وها هو ذا السادات يتلقى تهديداً مباشراً من أحدهم تمكن من الهرب من الجيش والكمون فى مأمن.

كل هذه الخـواطـر دارت فى ذهنى ياخـال وأنا مـنزو فى ركن مهمل من اجتماع النادى السـياسى. وكنت أشعر أن الله قد أمسك بقلبى وصار يهزه كأنما يقول لى: أفق يا هذا وعـد كما كنت مـجرد مواطن يكسب لقمـة عيشه بشرف! اسـمع نصيحة أختك الشـيخة سعادة فـهى أقرب إلىَّ منك أيها الضال المارق! أنتـما من دم واحد فكيف صلحت هى وفسدت أنت؟! ألم تسمع قـراءتها للورق فتتعظ كما اتعظت هى؟! إن الطريق للتوبة مـفتوح أمامك فدعك من هؤلاء وعد إلىَّ فـأنا الذى يحميك ويرفـعك وليس بين البشر قـوة تعادل قوتى وهؤلاء الذين تحتمى فيهم أضعف منك!!..

انتفـضت يا خال مـرتعش الأوصال. نظرت حـولى؛ كان وزير الداخلية ماثلاً فى ناظرى أكثر من غـيره. طب ما قولك يا خال أنه رغم مظهـر القوة والثـقة والصـلابة؛ ورغم مظاهر القوة المسلـحة التى أحاطـت بالنادى السياسى إحـاطة السوار للمـعصم وامـتدت ذيولها وتفرعت إلى جمـيع النواصى والتقاطعات؛ رغم كل ذلك بدا لى أخوف من جرذ..

عدم المؤاخذة أنا أصيع واحد فى المجتمـعين كلهم أعرف حقيقة شعور المـسك بالمطواة؛ من نظرة واحدة فى عينيـه أعرف إن كان سيضرب بها حقًا أم أنه مجرد هواش أونطجى. الوزير كان يغطى خوفه بقناع سـميك من اللامبالاة والثـقة الزائدة عن الحد يا بوى؛ مما جـعلنى ـ ربك والحق ـ أصيـر أشد منه خـوفًا يصل إلـى حد

الارتعاد رغم ربع قرش الأفيون الخام الذى استحلبته قبل المجىء إلى هنا من أجل التطامن وهدوء الأعصاب. شعرت بالهول يا بوى. قال صوت فى أعماقى لعله صوت الشيخة سعادة: أنت وأمثالك سبة فى جبين النظام السياسى الساداتى! أنتم من أقوى الأسباب التى عجلت بهذه الفورة العنيفة التى كانت نتيجة متوقعة لمن يقرأ الأوضاع جيدًا. وقال صوت لعله صوتى: لو أن السادات كان جادًا فى إقامة نظام سياسى وطنى طاهر حقًا لطهر بلاده من أمثالنا فهل هذه هى غلطته السياسية الخطيرة؟ فرد عليه صوت يشبه صوت بربش: ولكن هذه هى العناصر التى التفت حوله ومكنته من الاستقرار واستتباب الكرسى فأمثالنا هم الصواميل والمسامير التى أحكمت متانة المقاعد المستتبة كلها فهل رأى السادات خيرًا منا ولم يقبل؟ فتسلل صوت كصوت بسبوسة على شىء من الخبث يقول: ولماذا لا تقول إن هذه العناصر هى التى عرف السادات كيف يتواءم معها من وقت بعيد؟ ولم لا تقول إن ميوله الشخصية موالية لهذه الفئات الحوتية المطبوعة على النهم والرغبة فى الثراء السريع السهل؟.

اختلطت الأصوات التى تطلع من صدرى بالأصوات التى تصخب فى الاجتماع. بدا لى الاجتماع يا خال كاجتماع أسرة ذات عزوة وصيت وأبهة لكنها من عتاة قطاع الطرق وقد اجتمعت لتبحث موضوع أمنها الشخصى وهى تعرف مقدمًا أن مصالحها

تتعارض مع مصالح بقية العائلات وأن هذه العائلات من حقها أن تثور وتغضب وتهدد لكن أن تتعدى هذه الأسر حدودها فقد وجب أن تلقن درسًا قاسيًا وعاجلاً. راح كل من يضع نفسه في مقام الأخ الأكبر يشحن كبير العائلة بعبارات حماسية هوجاء تستجلب سخطه وغضبه على المتطاولين من أبناء هاتيك الأسر وتحرضه على إنقاذ هيبة العائلة ببالغ السرعة وبكل قوة وحزم حاجة تهوس يا بوى..

العجيب يا بوى، إن الرجل قد تسرب إليه شيء من الاطمئنان. يظهر يا خال أن هذا الجمع الملتف حوله ينهش في لحم المشكلة قد أحال المشكلة إلى هيكل عظمى متفتت، فخف حملها عن الرجل، فإذا به قد خفت توتراته العصبية التي جاء بها، قلت استجابته للأصوات المفاجئة الصاخبة، بدأ يرى من حواليه كأفراد؛ بدأ اتصال عينيه بالأفراد يذكره بملاطفات كانت غائبة، وتحيات كانت واجبة، لمحات كانت خافية. نحى الغليون أشعل سيجارة خفيفة، رشف من فنجان القهوة رشفة، ركز بصره على وجهي ثم ابتسم، لمعت في عينيه نظرة من عثر على شيء كان غائبًا عن ذهنه رغم أهميته؛ فإذا به يعتدل في جلسته ناظرًا لي في إمعان:

- «ما أخبارك يا حسن؟ لعلك بخير!!»

- «الحمد لله يا سيادة الرئيس! طالما حضرتك بخير فأنا في أسعد حال! إن شاء الله منصور على الدوام! إن النصر من صفاتك! وإن ينصركم الله فلا غالب لكم!!».

أشار إلي جواره:

ـ «تعال هنا! أريدك في أمر!»

ـ «انتفضت واقفًا والجميع ينظر لي في حسد وغبطة؛ فإذا بالذي كان جالسًا بجواره يتطوع بالقيام متخليًا عن مقعده لأجلس عليه: فلما جلست مائلاً برأسي في اتجاه وجهه الذي مال نحوي قليلاً، وضع يده فوق يدي الموضوعة على مسند الكرسي، ثم همس في كثير جدًا من الخبث:

ـ «قيل لي إنك تعرف تلك العرافة التي اسمها الشيخة سعادة! أظن أنكما بلديات أو أقارب!»

أسقط في يدي يا بوي؛ فالسؤال يلخبط اللخبطان خاصة أنه مفاجيء. ترددت قليلاً نكست رأسي في الأرض مرددًا كأني أحاول التذكر:

ـ «الشيخة سعادة! الشيخة سعادة!!»

فازداد ضغط يده على يدي، فنظرت إليه؛ فإذا في عينيه نظرة أذهلتني والله يا بوي. تحلف اليمين يا خال كأنها تنطق قائلة: «جرى إيه يا ابن ...؟! نعم الشيخة سعادة التي نعرفها معًا أم أنك تستعبط علي؟! ففي الحال هتفت بصوت خفيض:

ـ «نعم! أعرفها إننا بالفعل بلديات لكني لم أرها منذ وقت طويل!!»

ـ «أنا محتاج إليها!! رح لها برسالة منى قل لها إننى أوافق على أن تقابلنى فى أسـرع وقت!! قل لها إن سيـادة الرئيس يطلبك فى خدمة ضرورية فلابد أن تجىء!!»

صرت أكتم الرعشة من خوف جديد غامض:

ـ «ولكن! أنا دائمًا كنت أقابلها صـدفة! هنا فى القاهرة عند أحد أصدقائى وكـانت أحيانًا تحضـر فجأة إلى بيتى وسـيادة المحافظ يعرف عنوانها فى أسيوط وهى يمكن أن تجىء بالأمر»

ـ «لا يا حسن! مثلها لا يمتثل للأوامـر! فيجب أن نعاملها برقة! لقد أرسلنا لاستـدعائها بالفعل ولكن اتضح أن شقتـها فى أسيوط يسكنهـا الآن ناس غـيـرها يقولون إنـها عـزلت إلى مكان آخـر لا يعرفونه!!»

وقع قلبى يا خـال؛ فـهـذه مـعلومـة جـديدة تشى بكثـيـر من التطورات الجديدة فى حياة الشيخة سعادة. قلت:

ـ «هذا يزيد مهمتى صعوبة يا سيادة الرئيس!»

قال بلهجة أمر حاسمة لكنها مغلفة بالود:

ـ «تصرف يا حسن! هذه مهـمتك تنفذها من بكرة إن شاء الله! لابد أن أهل دائرتك يمدونك بأخبـار عنها!! وجودها الآن ضرورى بالنسبة لى!! لابد أن تأتى بها من تحت طقاطيق الأرض! اتفقنا»

ـ «أمرك يا سيادة الرئيس!»

ثم شعرت فى الحال يا خال كأننى صرت جالسًا فى العراء تتخطفنى الرياح من جميع الجهات. زحف نحوى شبح رعب غامض مقبض للقلب يا خال، وانزاح كل الصخب من حولى، ليحل محله فى أدنى صوت كصوت صفير البوم فى بيوت خربة مهجورة ليلتها يا خال ظللت حتى الصباح أقلب جميع الأمور على وجوهها، أتوقع احتمالات يقف لها شعر الرأس، ومفاجآت تسقط من عنقها الحبلى. صرحت لزوجى بكل شىء فقالت:

ـ افعل ما أمرك به! هاتها له من تحت الأرض! فمن يدرى؟ ربما كان محتاجًا لها بالفعل فى هذه المحنة؟ وربما تكون هذه المهمة سببًا فى انصلاح العلاقة بينك وبين أختك فالظفر لا يخرج من اللحم بسهولة والدم ليس ماء!!»

أراحنى هذا الكلام بعض الشىء يا خال. من صبيحة ربنا ركبت سيارة من سياراتى القوية المعدة لمثل هذه المشاوير؛ واتكلت على الله وحدى وليس فى صحبتى سوى حارسى الخاص هندى، على سبيل التحوط والونس. ولم أكن فى قرارة نفسى مستريحًا لهذا المشوار يا خال.

ـ ٥ ـ

وصلت إلى أسيوط فى أذان الظهر بالضبط، فصليت فى جامع سيدى جلال، اتخذت طريقى إلى شقة الشيخة سعادة فى عمارة حديثة البناء في أعماق الحقول. استقبلنى فى أول وصلة الطريق الداخلة إلى العمارة رجل ممسك بمسبحة وملتح يلبس جلبابًا أبيض قصيرًا، صار يمد خطوه ليسابق زحف السيارة البطىء. لم أعره التفاتًا، حتى وصلت إلى باب العمارة، فنزلت من السيارة تاركًا هندى فيها فلما هممت بدخول العمارة اعترضنى ذلك الرجل ولكن فى شىء من الرقة والدماثة:

ـ «تريد مَن حضرتك؟!»

أزحته برفق ومودة وابتسام، وواصلت الدخول، بدأت أصعد السلم قائلاً فى غير صلف:

ـ «هذه عمارتنا يا أبا الحاج: أنا المالك وأختى هنا فى الدور الثالث!»

ـ «يا مرحب! و لكن من تكون أختك إن شاء الله؟!»

اغـتظت، لكننى لم أشا الصـدام من أول الطريق قلت فى مـزيد من الرقة:

ـ «ليس من حـقك هذا السؤال وقـد عرفـتك بنفسى فـأنا الذى يجب أن أسألك من تكون حضرتك؟!»

ـ «أنا من السكان! أقـوم بـدور البـواب هنا مـؤقـتًـا! عـينتنى صاحبة العمارة»

ـ «الشيخة سعادة عينتك؟! منذ متى؟!»

ـ «الشـيخـة سعـادة تبـرعت بالعمـارة كلهـا لجمـعيـة السنة المحمـدية! هـى على كل حال لم تعـد تقيم هنا منذ شـهور طويلة!! وجمـعية السنـة المحمدية تقـوم بتأجيـر العمارة لـطلبة الجامـعة المغتربين نظير أجر رمزى كمساعدة لهم فى طلب العلم!!»

وكان قد جعل يرافقنى فى الصعود خطوة بخطوة كأنه يشوف آخرتها معى، إلى أن توقفت أمـام باب الشقة وطرقت بابها برفق. فإذا به يقول:

ـ «يا سعـادة البيه العمـارة كلها يسكنها طلبـة فى حالهم أبناء ناس غلابة مجتهدين فى العلم لا شأن لهم بالسياسة!!»

ارتعبت، لكننى قلت:

ـ «وأنا مثلهم بالضبط لا شأن لى بالسـياسة إنما جئت لزيارة أخـتى التى لم أرها مـنّ وقت طويل لأنى كنت فـى سـفـر فى الخارج!!»

جعل يعيد النظر فى ملامحى بتدقيق شديد، ولاحظت أن مشاعر الاسترابة قد بدأت تزايل وجهه شيئًا فشيئًا،

فازدادت ابتسامته تحفظًا وتحسبًا. قال برقة دافئة:

- «ملامحك بالفعل قريبة منها! الدم واحد على كل حال! تدويرة الفم! العينان! طول الرقبة! لكنك أسمر منها وأطول قليلا! صوتك فيه نفس نبرات صوتها ولكن على رجالى! يمكننى أن أصدق أنك شقيقها أو ابن عمها!!»

- «أنت تعرفها جيدًا إذن!!»

ثم طرقت الباب بعصبية. فقال:

- «مساها الله بالخير! صاحبة أيادى بيضاء علينا كلنا! ربنا يكرم أصلها!!»

- «الله يكرمك! فلماذا تعترض طريقى؟!»

وطرقت الباب بعصبية أشد. فإذا به يتقدم بينى وبين الباب قائلاً فى تهدئة:

«لا عليك فلن يفتحوا لك! لهم عذرهم يا سعادة البيه فالبوليس لا يترك لهم فرصة للمذاكرة! كل يوم والثانى يهجم على العمارة يفتشها ركنًا ركنًا! ويأخذ بعض الولد للتحرى ثم يتركهم! هؤلاء ولد غلابة عندهم امتحانات! وعلى كل حال لن يفتحوا إلا على خبطاتى أنا!!»

ويظهر يا خال أنه رأى الغضب في عيني، فعالجني بهزة من يده في الهواء قائلا:

ـ «سأثبت لك!!»

ثم طرق الباب بعقلة بنصره مرة ثم مرتين متتاليتين ثم ألحقهما بثالثة منغمة بعدها جاءنا صوت واهن متوجس بعد نحنحة:

ـ «من بالباب؟!»

ـ «أنا البواب! إفتح يا خالد!»

إتفتح الباب نصف فتحة، ظهر شاب في حوالي الثانية والعشرين من العمر، ملتح، يلبس نفس الجلباب الأبيض القصير، ملامحه غلبانة جدا، من الواضح أنه من طلبة الأرياف المجتهدين بتفان وسهر، شاحب الوجه قليلا، أسمر البشرة كالرغيف المحروق، بعينين حادتين فيهما قليل من العدوان وكثير من التحدي، طويل القامة ناشف العود، جعل يصب على وجهي النظرات القلقة المستطلعة. أشار البواب نحوي قائلا:

ـ «يقول إنه شقيق الشيخة سعادة!!»

برقت نظرات الشاب واختفى منها العدوان في الحال، تغيرت ملامحه إلى مسحة من الترحيب الشجاع هتف:

- «آه! أهلا وسهلا! حضرتك عضو مجلس الشعب! أعرفك! رأيت صورك في الصحف كثيرًا! تابعت أخبارك لكنني لم أكن أعلم أنك شقيق للشيخة سعادة! تفضل على كل حال!!»

وسّع فتحة الباب، وأومأ للبواب المزعوم أن ينصرف، فتلكأ هذا قليلا ثم انصرف..

العفش والفرش هو نفسه كما رأيته آخر مرة زرت فيها الشيخة هنا. نفس الأنتريه في مدخل الصالة، وترابيزة السفرة بكراسيها ونيشها المليء بالأطباق في نهاية الصالة تحت الشباك المطل على المزارع. حجرة الصالون هي الأخرى كما هي، مفتوحة على كراسيها المذهبة ذات التاج المرتفع، وسجادتها، وعلى حوائطها سور قرآنية على لوحات مبروزة، كل ما أصاب الحجرة من تغيير أن أضيف إلى أرضها بعض الوسائد، وثمة ملتح ينام مستغرقًا على ظهره كميت يتنفس، فلما عوجت رقبتي قليلا تبين أنهم ثلاثة بين الكراسي، كلهم ملتحون بجلابيب بيضاء قصيرة، لكنهم غليظو الوجوه والملامح ولحاهم أطول وأغزر من أن تستريح لها العين يا بوي، أقدامهم خشنة متشققة الكعوب، الطُرقة المؤدية إلى المطبخ والحمام وغرفة النوم منظرها كئيب يفح منها الظلام أرضها مبطشة بآثار الأقدام؛ رائحة النوم والعرق الزنخة والسجاير تملأ الشقة. ليس ثمة من كتب أو كشاكيل أو أية أدوات تدل على أنهم يذاكرون بالفعل، اللهم إلا مثلث كبير من الخشب

ومسطرة طويلة، وعدد هائل من الصحف والمجلات وكتاب تلبيس إبليس، وكتاب الفقه على المذاهب الأربعة، مصحف بتفسير الجلالين..

فتحت الشباك على مصراعيه طلبًا لتجديد الهواء.

قال الشاب:

ـ «راحت علينا نومة! تعبنا جدا مساء أمس وأول أمس في قسم الشرطة! يصرون على أن لنا صلة بالجماعات الإرهابية المتطرفة مع أنهم يعرفون جيدًا أن جمعيتنا لا شأن لها بالإرهاب أو بالسياسة إنما نحن أهل ذكر وعبادة وصلاح! بهدلونا من التفتيش عن عبود الزمر وغيره!!»

ألهمني الله الفطنة، فنافقته قائلا في غضب متقن الصنع:

ـ «حكومة تستحق الحرق! وبوليس يستحق قطع رقبته! ماذا يريدون من عبود الزمر وأمثاله؟! والله وبعقد الهاء لو كان الله يحب هذه البلد أعطاها كثيرين من أمثال عبود الزمر.الشجعان! إن مستقبل الإسلام في خطر وهو أمانة في عنق أمثالكم من الشباب الناهض! نريد أن نعيد مجد الإسلام! ولكي نعيده لابد أن يكون عندنا أمثال عمر بن الخطاب وأبي بكر وطارق بن زياد وخالد بن الوليد الأبطال المقاتلين! لابد من رفع السيف في وجه الطاغوت طالما أن المعارضة بالقول لم تعد تفيد الطغيان يتفشى!! الانحلال

يستشـرى وكلمه لا إله إلا الله مهددة بالانقـراض!! اسمع يا بنى! حلفتك بالله وقـرآنه وسنة رسوله إن كنت تعرف شيـئًا عن الزمر أو غـيره فـلا تتفـوه به حـتى لو قطعـوك إربًا!! نحن لا نساعـد الحكومة على ضـربنا! لقد اختـرنا صف الله ومن وقف فى حزب الله لا يضام لا ينكسر! اللهم وفقنا جميعًا لما فيه خير للإسلام!!»

ويظهر يا خـال أننى كنت أعنى ما أقـوله بالفعل وليس مـجرد تمثيل. وقف الشاب وقد عادت إليه بوادر من تلقائيته:

ـ «أعمل لحضـرتك الشاى!»

ـ «وماله!»

خطا نحو الطرقة. استوقفته:

ـ «لو سمـحت! كانت هنا صورة مـبروزة بالحجم الكبـير لأبى وعمى الشيخ أحمد! هل أخذتها الشيـخة سعادة؟!»

طرقع الشـاب بأصبـعـيه وقـد ظهر عليـه الاطمـئنان إلى أننى أعرف الشقة جيدًا. قال:

ـ «بالضبط! أرسلت مرسالا منذ أيام قليلة بطلبها فأعطيناها له! إن الشـيخة بمـثابة أم لنا جـميـعًا! تنفق علينا من تبـرعاتهـا التى لاتنفد! كـما ترى تترك لنا الشقـة لنقيم فيـها بالمجان! إنها سـيدة عظيمة من عظماء مصر الآن!!»

ـ «أنتم طلبة فى الجامعة طبعا!»

- «أنا خـالد فى كليـة الهندســة! ومعى وائل وهمـام فى كليـة الطب! ويـاسـر فى كلية أصول الدين! وطـلعت فى كلية الصـيدلة! وسهير فى كلية الصيدلة أيضًا!!».

- «فتاة تعيش معكم هنا؟!»

- «هى زوجة طلعت! تزوجـا حديثا! ولذلك أمرت أمنا الشـيخة سعادة بأن نترك لهما حجرة نوم الشـيخة! هما الآن نائمان فيها! أما نحن فننام فى أى مكان هنا كما ترى!!»

أخرجت مـحفظتى الكبيـرة، سحبت منها رزمـة فلوس، عددت منها ثلاثمائة جنيه، ذهبت بها للشاب:

- «أنا أخ كبير لكـم! بما أننى شقيق الشيخة سعـادة فأنا بمثابة خالكم! حـالتى ميـسورة والحمـد لله كما تعـرف! هذا المبلغ هدية منى لتعاونكم على شظف العيش! أنتم ستة أفراد فلكل واحد منكم خـمســون جنيهـا! وإن شاء الله ســأترك لك عنوانى فى القـاهرة لتطلب منى أية مساعدة تحتاجها!!»

بُهت الولد يا خال، طاف بنظراته الذاهلة على كل أنحاء جسدى كمن يرى كائنا أسطوريا غريبا. وقبل أن يفـتح فمه بكلمة اقتربت منه ودسست المبلغ فى جيب صدره. لحظتها قال:

- «الآن فـقط اقتنـعت بأنك شقـيق مـامـا سعـادة! نفس روح العطاء! نفس نبرة الدفء فى صوتها!!»

- «لا تشكرني! فهذه النفحة من باب الله جاءت لأبناء الله! ففي ميزانـيتي بند ثابت لأعمال البـر والخير! بفضل الله بنيت أكـثرمن مسجد ومستوصف ومستشفى!!»

- «أعرف الكـثير من هذه المـعلومات! كلنا نقـرأ الصحف جـيدا ونقليهـا!! ماما سـعادة أيضًا كلمـتنا عنك كثيـرا بمناسبة تحـقيق صحفى مـعك يوم افتتاح مـستوصف الدِّراسة بجـهودك الذاتية!! لكن ماما سعادة بصراحة لم تقل إنك شقيقها لكننى أتذكر الآن أن حماسـها كان يقول ذلك!!»

- «أنا يا بو العم شقيقها الشقيق لحما ودمًا أما وأبًا! كل ما فى الأمـر أن مامـا سعـادة ذات كبـرياء عظيم! لا تحب أن يظن الناس أنها تتمـسح فى شقيقها! بل تحـب أن يحترمها الناس لشخـصـها! تكره المظاهر! على فكرة! آخر مرة زرتها هنا كـان البوتاجاز خربًا وكانت تنوى إصلاحه لكننى اقترحت عليها تغييره بطراز أحدث!!»

هتف فى مرح واطمئنان:

- «بالضبط! اشترت بالفـعل واحدًا جديدًا لكن من نفس الطراز! تركتـه لنا وأخذت القديم تصلحـه لنفسهـا! إنها لا تطمع فى شىء أبدًا!! إنها أم بمعنى الكلمة! هى التى زوجت صـديقنا من صديقتنا على سنة الله ورسوله! هى تعـول ما لا يقل عن ألفين من الطلاب تدفع لبعضـهم مصاريف التـعليم وحتى الدروس الخصوصية ولا شرط لـها إلا أن يكونوا أعـضاء فى جـمعـية الكتـاب والسنة!! إن

الجـميع حـتى الأكبـر منهـا سنًا يقولون لهـا يا مـاما عن اقـتناع حقيقي! يقبلون يدها! منهم عيـال على ثقافة عالية إذا قالت للواحد منهم إرم نفسك فى البـحر فلن يجعلها تكررها قـبل أن يفعل!! إن فى ماما سحرًا لا يستطيع أحد مقاومته مهما كان جامد القلب لابد أن يخر صريعًا أمـامها!! أعرف عيالاً فلاسفة مـتبحرين فى علوم الدين حين يتناقـشون معهـا يكتشفـون أنهم بجوارها لاشىء مع أنها لم تستق العلم من كتب!! مـاذا أقول لك! نحن هنا فى أسيوط كلها نسـميهـا أم المؤمنين! بعضنا يسـميهـا أميرة المـؤمنين وإنها لأميـرة بالفعل! والله يا أسـتاذ لو أنهـا حكمت البلاد لجـعلت البر المصرى قبلة المسلمين قاطبة!!».

زحفت معه تلقائيًا حـتى وصلنا إلى المطبخ، فرأيته كما كان لم يتغـير باسـتثناء البـوتاجاز الجـديد، إلا أن منظر الحلل والأوانى والأكواب القذرة كان مثيرًا للقرف كريه الرائحة.

مع ذلك وقفت بجـواره واضعًا إحدى يدى فى جـيب السروال، ممسكًا المسـبحـة بالأخرى، وفيـما يغـسل الأكواب ويضع الـبراد فوق النار استدرك متذكرًا:

ـ «ولكن منذ متى لم تر ماما سعادة؟!»

ـ «منذ شهـور طويلة! أنت لست غـريبًا الآن! بل أنت فى مـقام ابنى طالما أن أخـتى بمثـابة أم لك! لقـد حـدث بيننا سـوء تفـاهم بسـيط! هى كـانت مـحـقـة حيـنما طـلبت منى أن أصـفى بعض

شركـاتى لأنها غيـر راضية عنها وأصـرت على ذلك لكنى ترددت فهـذه الشركـات تفتح بيـوتًا كثيـرة! المهم يا بو العم غـضبت هى ومشت! فتركتها حـتى تروق وتتصل بى فلم تتصل! فأخذت على خاطرى منهـا ولم أتصل! إلى أن راقت نفسـيتى اقتنعت بكلامـها فنفذته أرسلت لها تلغرافًا بذلك لتـحضر فرجع التلغراف! فأرسلت مـرسـالاً من رجالى فـلم يستـدل على عنـوانها فـجـئت بنفـسى لأصالحـهـا فصدمت بخبـر عدم وجودها! فإن كنت تعـرف مقرها الجديد فإنها سوف تشكرك شكرًا كبيرًا إن دللتنى عليه!!»

راح يصب الشـاى مقطبًـا فى تفكير عـميق، ثم نظر فى عـينى نظرة ذات معنى وهو يلقى بورقة الاختبار الأخيرة قائلا فى شىء من المراوغة:

ـ «هى فى الواقع لم تأخذ مقرًا جـديدًا!! هى رجعت إلى مقرها القديم!!»

ـ «فى الجبل؟!»

فى الحال انـبسطت ملامـحه، أشـرق وجهـه ببسـمة عـريضة مطمئنة:

ـ «أنت فعلا تعرف كل شىء عنها!!»

ـ «قل لى: هل تزوجت هليل أم لا؟!»

أشرق وجهه:

ـ «يا..ه! تعرف هليل أيضا؟!»

ـ «أعرف هليل؟! إنه صديق عمرى الوحيد!! فى حياتى كلها لا أعوض صداقته!!»

ـ «هو الآن أمير كبير! هو الآخر عملة نادرة فى هذا الزمان! يا..ه! هليل!»

ـ «أمير على من؟!»

ـ «علينا كلنا! جماعتنا!!»

ـ «ما شاء الله.. ما شاء الله! هو يستاهل! طول عمره أبيض القلب مؤمن نقى الإيمان! يده مبروكة تخر ذهبًا!! اللهم قربنى من مكانته عندك يا رب!!»

ـ «بالضبط يا أستاذ! هذا هو الشيخ هليل بكل دقة! لخصته حضرتك فى كلمة! هو فعلا مبروك! يوم يوزع علينا اللحم فى عشوة يشبع الجميع ويفيض مهما كانت الكمية قليلة! المشاريع التى يقيمها بفلوس الجمعية تتضاعف فى كل ساعة وبالحلال!!»

ـ «المهم هل تزوج ماما سعادة أم لا؟!»

ـ «لا مع الأسف!! اقتنع كلاهما بأنه منذور من يومه لخدمة الطريق!! كل منهما أزهد من الآخر فى متع الدنيا كل منهما مع ذلك يحب الآخر حبًا جنونيًا لكن حب الله والإسلام عندهما أكبر وأجلّ من أن ينشغل الإنسان عنه بحب آخر دنيوى! أو بمتعة أخرى غير متعة الانتصار على الشهوات!!»

ـ «هى إذن تقيم الآن فى الجبل؟!»

ـ «تعرف المقر طبعًا!»

ـ «طبعًا! رحته مئات المرات!!»

ـ «أنت تقصد قصر الجبل العتيق! ببستانه الفسيح! ومسجده المحندق!!»

ـ «طبعا هو ما أقصده!»

ـ «هذا الذى تقصده هو مقر الشيخ هليل الآن! تركته ماما له! البستان الآن منذور لمن يريد التدريب من الشباب يقيم فيه تحت رعاية هليل إقامة دائمة لا ينعي للدنيا هم أكل أو شرب أو كساء أو دواء!!»

ـ «التدريب على ماذا عدم المؤاخذة؟!»

ـ «على! على المجاهدة! جهاد النفس والرياضة النفسية والبدنية! وذكر الله فى خلوة!!»

ـ «ذكر الله موجود فى البستان طول عمره! ماما سعادة كانت تأوى وتعول الكثيرين من مجاهدى الأمة الإسلامية!!»

ـ «الآن أصبح البستان مملكة ثانية! حاجة تفرح القلب حقًا! مئات من الشبان المتعلم وغير المتعلم ممن أفاقوا من الغفلة على يدى ماما! خريجو جامعة أطباء ومهندسون وضباط جيش وكيميائيون زهدوا فى وظائف الحكومة واحتقروا العلم الدنيوى

فمسحوه من عقولهم واتجهوا إلى العلم الدينى الآلهى يستنبطونه من الحياة من القرآن من الحديث الشريف من السنة المحمدية من الآيات البينات فى الكون!! هناك أيضا شباب ممن لم يكملوا تعليمهم عن رغبة وممن لم يتعلموا أصلا! حرفيون عمال نجارون خياطون فلاحون كلهم تمت هدايتهم للسنة المحمدية خلصت نيتهم للتبليغ والدعوة!! اللهم قربنى منهم! أمنيتى أن أكتسب قوتهم فاهزم نفسى الأمارة بالسوء أذهب لأعيش بينهم فى هذه الجنة الحقيقية لعل الله يتقبل منى يسامحنى فى ذنوبى أيام جاهليتى! لكن كل شىء بأوان! الشيخ هليل هو الذى سيحدد لى متى أكون أهلاً للانتقال إلى البستان والصمود فيه بقوة لا تتزعزع!!»

- «ربنا يا ولدى يبلغك ما تتمنى! اللهم اهدنا جميعا إلى ما فيه الخير والصواب"!»

ثم إن دموعى تفجرت من فرط الروع يا خال، انثالت بغزارة هائلة حتى أغرقت ياقة القميص ورباط العنق ولم أكن أعرف علام أبكى بالضبط فعمرى ما بكيت هكذا يا خال.

بكائى كان عنيفًا صامتًا، مما أثر فى الولد تاثيرًا شديدًا، بل تالقت الدموع فى عينيه يا خال، صار يقول بصوت مرتعش النبرات:

- «صلى على النبى يا أستاذ! لا داعى لهذا!»

- «مما يبكيني أنني لن أستطيع رؤيتها وقلبي ينفطر عليها!! روحي ستطلع من أجلها!! ذمة ودين يا ولدي لو كنت تتصل بها في وقت قريب قل لها إني أخشى أن أموت قبل أن أراها!!».

هتف في شجاعة عظيمة:

- «ومن قال إنك لن تراها؟! ستراها بإذن الله! أعرف أنني أرتكب مغامرة حمقاء! غير مضمونة العواقب من كل النواحي! لكنني سأتحمل المسئولية لأنني اقتنعت بصدقك تماما ومن أول لحظة لولا ذلك ما صرحت بكل ما صرحت! إن أي معتوه ينظر في عينيك بالذات لابد أن يعرف صلتك الوثيقة بماما!! لا تظن أني عبيط أو مغفل!!»

- «لا سمح الله يا ولدي! لن أنسى لك هذا الجميل وهي أيضًا لن تنساه!»

- «معك سيارة طبعا!»

- «طبعا!»

- «انحلت المشكلة!!»

- «لا تؤاخذني يا ولدي! المشتاق متعجل دائمًا!! فاقدالصبر! فلو لحقنا وقتنا مبكرًا يكون أفضل!»

- «اهدأ وأرح أعصابك على الآخر فالأمر يلزمه ترتيب! سنفعل كل شيء حالا فاطمئن!»

حمل كوبى الشاى فى يديه، تقدمنى إلى الردهة وأنا وراءه كطفل تعيس شقى. ترك الكوبين على المنضدة مطرقعا أصابعه من شدة اللسع:

- «بعد إذنك دقيقة واحدة!!»

اختفى فى الغرفة الداخلية المجاورة لغرفة النوم، وكانت معدة فى الأصل كغرفة للمسافرين وللمعيشة معها.. ما إن رشفت بعض الرشفات وأشعلت سيجارة حتى رأيته مقبلا وقد ارتدى قميصًا افرنجيا وسروالاً من الچينز الملطخ بالعرق والوسخ.

سحب من تحت المجلات كراسة (بلوك نوت) كبيرة، وقلمًا من الرصاص..انخرط فى الكتابة بسرعة شديدة.. كتب أكثر من صفحتين، نزعهما من الكراسة رشقهما بدبوس إبرة فى الستارة الفاصلة بين الطرقة والردهة مرددًا:

- «كتبت خط سيرى لزملائى حتى لا يقلقوا!!»

بخفقة قلب صادقة وجدتنى أعترض بانفعال شديد:

- «خطر يا ولدى عليكم! ما دام البوليس ينط هنا كل ساعة والثانية! ورقة كهذه ربما جعلتهم يتشككون فى سيركم وسلوككم! انزعها يا ولدى! وعود نفسك على الحرص الشديد طالما أنكم مستهدفون من الحكومة!!»

أومأ برأسه علامة أنه يعرف كل هذا، أضاف:

- «من يقرأها لم يفهم منها أى شىء يدعو لأى استرابة! أنا أقول لهم جاء أخى الأكبر من القاهرة وذهبنا سويًا لرؤية أمى فى البلد ربما أتأخر! قلت لهم أيضًا إن أخى أقرضنى مبلغًا قدره كذا تركته لكم على رخامة المطبخ لتشتروا طعامًا كثيرًا للثلاجة الفارغة! كلام عادى لا يحتمل أى لبس!!».

أيقنت يا خال أننى أمام عيال لا يستهان بهم على الإطلاق، وإنهم ليسوا مجرد محبين للسُنة المحمدية، لا يا خال إنهم أكثر وأكبر من مجرد هذا الغرض. إن وراءهم لترتيبًا وتدريبًا وأهدافًا جد خطيرة..

ما إن رآنى هندى حتى نزل من السيارة مقدمًا طقوس الاستقبال المتبعة. وكان البواب المزعوم قد ارتكن على حافة نافذة السيارة وراح يتبادل حديثًا وديًا ودودًا تتخلله الضحكات. جرى هندى مهرولًا، فتح الباب لى فدخلت إلى مقعد القيادة، ثم استدار بنفس الحفاوة والاحترام ففتح الباب المجاور لسيده الجديد، الذى تقدم فركب بجوارى، فأغلق هندى الباب وركب فى المقعد الخلفى متأهبًا لكى ينقض من الخلف على هذا الرجل بمجرد إبداء بادرة عدوان تجاهى، كسكست إلى الوراء قليلًا، ثم اعتدلت على الوصلة. فلما صرت فى الطريق الزراعى قال مرافقى:

- «دخلنا فى طريق الغنايم!»

قلت: طيب. ونزعت من الخرطوشة الموضوعة أمامي علبة سجائر مددتها له:

- «ولع! خلها معك!»

أخذها مرددًا:

-«متى يتوب الله عليّ منها؟! إنها من الاسباب التى تحول بينى وبين البستان! شرط البستان أن أبطل كل المكيفات لا أتعلق بشئ يكون سببًا فى أن أضعف أمامه!!»

فتح العلبة وأشعل منها ثلاثة وزعها علينا، صرنا ندخن والسيارة تهدهدنا على الطريق الزراعى.

- ٦ -

عمرى ما تصورت يا خال أننى يمكن أن أتوه فى الجبل.

ويظهر يا خال أن هذه الخصلة تنتاب كل من يكون على اتصال بهذا الجبل مدمن للتجوال بين دروبه ومسالكه.

إذ يتوهم أنه قد أصبح خبيرًا به وبشعابه ومنعطفاته السرية، هؤلاء سرعان ما يهزأ بهم الجبل، هذا المكان السحرى الكبير، إذ يبقى دائمًا أبدا أكبر من كل الكائنات المتطفلة عليه، يحتويها فى جوفه البعيد فلا يظهر له ثمة من أثر..

وأنت يا خال تستطيع أن تمضى فى الجبل رائحا غاديا ليل نهار، أو تنظر إليه من طائرة هليوكبتر مثلا تمسحه بنظراتك ونظارتك المعظمة كيفما شئت، فتتيقن بالدليل البصرى أن الجبل خال تماما من كافة السكان لأنك لا ترى شيئًا إلا الوحشة ودروب الظلام والسفوح والوديان الملساء.. فى حين أن الجبل يشغى بكائنات لا يشملها حصر، وتقوم فيه حيوات أشد نشاطا وحيوية مما فى المدائن والقرى..

الواقع أن ميزة الجبل يا خال لا تتمثل فى دروبه ووديانه ومغاراته ودرواته الكثيرة الآمنة، ولا فى كونه متاهة تعطل المطاردين وهم يتعقبون المطاريد، فحسب إنما تتمثل ميزته الكبرى فى أنه خيمة من الصخور تحجب طرقا وبلاداً تقوم تحت بطن الأرض وتتصل ببعضها وبخارجها فى سهولة وسلاسة.

نعم يا خال، فتحت الجبل طرق كاملة ووديان وممرات سرية وسراديب لا يمكن اكتشافها إلا صدفة، أو السيطرة عليها إلا صدفة أيضا.. هذا كما قلت آنفًا لا يكون إلا من شغل الفراعين قاهرى الصخور والموت والفيضانات..

كنا قد تركنا السيارة على الطريق الزراعى فى مدخل الغنايم ومشينا ـ حسب رغبة الولد ـ مشية من يستروح نسمات العصارى. منظرى كان قد تغير بطبيعة الحال منذ سنوات لدرجة أن الكثيرين ممن كانوا يعرفوننى من قبل بالعمة والجلباب لم يعد من الممكن أن يعرفوننى بالبذلة الفاخرة والشعر المصفف والنظارة الريبان ذات الإطار الذهبى. ولأن الجبل يلتحم بالأرض كثيرا فى التحامات خادعة، تتصور معها أنك لا تزال بعيدا عن الجبل فى حين أنك فى الواقع تمشى فوقه وأن هذه البقاع الزراعية هى الجزء الذى كان مغمورا منه دائمًا تحت الفيضانات المتكررة فاكتسب خصوبة فسرعان ما حوله الأهالى إلى أرض زراعية وتملكوها؛ فإننى ظللت لمسافة طويلة أتوهم أننا بعيدون عن الجبل. قلت لمرافقى بلهجة ودودة حانية:

ـ «هل تعرف الجبل جيدًا يا خالد؟!»

ابتسم ابتسامة ذات معنى:

ـ «أنا من ديروط الشريف! عمي من مشاهير المطاريد أنت تعرفه وهو يعرفك! حكى لنا كثيرا عن أيام شقاوتك وأنت صبي!! تظن أن الأجيال الجديدة لا تعرف ماضيك الحافل؟ بالعكس! الكثيرون من جيلي يعرفونك جيدا ومنهم من يراك مثله الأعلى في النجاح!! منهم من يراك أسطورة من أساطير النجاح الساحق في الصعايدة المحدثين!! حتى الذين يدينونك بعض الإدانات السياسية والسلوكية يفعلون ذلك من باب الاحترام أيضًا!! عمي هو محمود بخيت الذي وقف بجوارك في المعركة الانتخابية الأولى دون أن تدري به شيئًا!! قد كبر في السن! بفضل الله تمكنت ماما سعادة من هدايته! هو الآن من أكبر مساعديها في استعمار الجبل! طبعا أنا أقصد كلمة الاستعمار بمعناها الأصلي لا بمعنى الاحتلال!! إن ماما تقوم الآن فعلا بتعمير الجبل والنفوس معا!!».

ـ «ما أظن يا خالد يا ولدي أننا جئنا لنتفسح وسط الحقول ونحكي الذكريات! الوقت يسرقنا خل بالك! وأخشى على السيارة وحدها في الطريق!!».

ـ «السيارة في أمان! لن يجرؤ مخلوق عفريت على الاقتراب منها! لأن هذه الأرض ملك لستنا الشيخة اشترتها وأوقفت ريعها على خدمة شباب الإسلام!! أنت الآن في مسكن ستنا الشيخة

بالضبط وها نحن في الطريق إليها فلا تكن عجولا فالأمر لو تدرى شائك وخطير!!».

لاح لنا على القرب كوخ مبنى بالطوب الأحمر مسقوف بالخشب والبوص، من تلك الأكواخ التى تقام لخفارة ماكينات المياه. صرنا نقترب منه؛ دخلناه. هو بالفعل هكذا، ماكينة المياه موجودة وشغالة، بجوارها خفير فى حوالى الخمسين من عمره، متغضن الملامح ذابل العينين من فرط السهر والإرهاق، نظراته متلبكة بكتل من العماص اللزج. كان متربعا على حشية مستطيلة من الخيش المحشو بالقش، بجواره مخدة وبطانية وبندقية وخريطة ملآنة بالذخيرة، ووابور جاز وعدة شاى، وحلة وسلة خبز..

- «سلام عليكم يا عم القط!»

هكذا قال مرافقى وهو يدلف داخلا ويشير لنا بالدخول أكثر فاقتربنا من الفرشة. رمقنا الرجل بكثير من التوجس المتزن ثم نهض واقفا:

- «عليكم السلام ورحمة الله وبركاته».

سلم علينا باليد:

- «يا مرحب! تفضلوا».

وانزاح عن الحشية موسعا لنا. قال مرافقى:

- «فلنتربع!»

تربعنا بالفعل. تذكرت في الحال أيام أبي وخفارته الطويلة لمثل هذه الماكينة وكيف كنت أبيت معه في كوخ كهذا بالضبط إن لم يكن هو نفسه، ونستقبل المطاريد في الليل الحالك نقدم لهم الأكل والشاي، توجه الخفير إلى وابور الجاز فسحبه وأعطاه نفسا. عاجله مرافقي:

- «اترك هذا الأمر لي واخطف رجلك إلى أمي! قل لها: خالد كلية الهندسة ابن بيتك في أسيوط قد حضر برسالة فحواها كما يلي: أخوك حسن يبلغك أنه قد تاب وأناب ونفذ لك شرطك عليه وجاء من القاهرة يطلب عفوك ويضع نفسه تحت أمرك من الآن فهل ترضين بمقابلته؟!»

تمعن الرجل فيّ أنا وهندي بتدقيق شديد كأنه يريد أن يعرينا من ثيابنا ليعرف ما تحتها. تردد قليلا، لكنه ترك الوابور ونهض واقفًا:

- «حاضر!».

ومضى، ثم ارتد في الحال وأخذ البندقية والخريطة علقهما في كتفيه، ومشى بخطو بطيء متمهل. راقبناه وهو يبتعد، منحرفًا في طريقه نحو الغرب قليلا، حيث يوجد كوخ آخر مشابه تماما لما نجلس فيه. تذكرت أنني كثيرا ما انزعجت من هذا الكوخ في طفولتي، فقد كان مصدر رعب لا ينتهي؛ إذ هو مغلق منذ سنوات بعيدة جدا، تسكنه العفاريت والشياطين وأرواح القتلى من كل

المطاريد. قيل إن كثيرين دخلوه فلم يخرجوا منه مطلقا؛ وأن إحدى النساء اللعوبات كانت تلتقى بعشيقها فيه؛ وذات ليلة راقبها زوجها فتبعها خطوة بخطوة حتى فتحت باب الكوخ ودخلت؛ كانت تفصله عن الباب خطوات قليلة قطعها على مهله ليضمن ضبط زوجه متلبسةً بأحضان عشيقها؛ فلما فتح الباب ودخل لم يجد أحدًا على الإطلاق؛ أشعل علبة ثقاب كاملة عودًا وراء عود، لف جميع أركان الكوخ، لم يجد أحدًا؛ رجع إلى داره فلم يجد زوجه فهى إذن لم ترجع؛ فظل طول الليل يهذى؛ ثم استمر الهذيان إلى أن أدى به إلى العباسية لأن زوجه لم تعد حتى الآن.

كان مرافقى وهو يشعل الوابور ويغسل عدة الشاى يفتعل كلامًا كثيرًا لم أركز الانتباه عليه لانشغالى فى مراقبة خط سير الخفير، وكان يتصنع الإتيان بإبريق الماء من ركنه البعيد فيستكمل الكلام واقفا؛ مما أشعرنى بأنه يحتجز بصرى عن مراقبة الخفير. لكننى أوهمته بأنى معه ونظراتى تخالسه وتخطف خطوات الخفير أخرج من جيبه مفتاحًا فتح به قفلا كبيرًا على الباب، ثم فتح الباب ودخل، وأغلقه من الداخل..

شربنا الشاى ثلاثة أدوار. دخنًا كومة هائلة من السجائر. قمت لأصلى العصر الذى فاتنى، فانضم الاثنان ورائى: مرافقى وهندى. صلينا عصرين، فأربع ركعات لله، فاربع أخرى لكى يوفق الخفير فى مشواره، فأربع لكى يعود بسرعة، لكنه لم يعد،

وازداد اصفرار الشمس واغمق لون الخضرة فى الأرض؛ حتى تخيلت أن الأساطير المشاعة عن هذا الكوخ لا تزال قائمة وأنها حقيقية. قلت هذا لخالد على سبيل التسرية عن نفسى ولتبرير ما اعتورنى من قلق ممض. فقال الولد إن الطريق طويلة وليست سهلة كما أتصور..

فى اللحظة التى فقدت فيها الأمل يا خال، لحظة الغسق، واختناق الشمس على صليب الأفق فوجئت بالخفير يدخل منهكًا لاهثًا:

ـ «تقول لك هاته وتعال!!»

فانتفضت واقفًا يا خال. كأننى تلقيت أمرًا بالإفراج بعد سجن طويل. نهض خالد:

ـ «أنت وحدك عدم المؤاخذة!!»

ـ «طبعا يا ولدى! هندى هو حارسى الخصوصى وسوف يبقى هنا فى انتظارى! هيا بنا!!».

وأشار خالد بأصابعه إشارة من يضغط على زر؛ فاستل الخفير من جيبه الداخلى كشافًا يعمل بالبطارية، سلمه له. فمضى خالد أمامى نحو الكوخ الذى كان الخفير قد دخله. كوخ الأساطير المرعبة يا خال.

ـ ٧ ـ

وجد القفل موضوعًا في الرزة لكنه غير مقفل؛ رفعه فتح الباب ودخل. دخلت وراءه؛ وضع القفل فوق عرق خشب من العروق المثبت فوقها لوح الباب؛ ثم أغلق الباب من الداخل بالترباس، وأضاء الكشاف وسلمه لي. لم يكن في الكوخ ثمة من أحد؛ اللهم إلا ماكينة مياه قديمة صدئة معطلة، والأرض من تحتها ناشعة بالزيت والشحم المتجلد..

لف خالد حول الماكينة، أزاحها كثيرًا؛ ثم تقرفص، سرب أصابعه فثبتها في حافة بلاطة كبيرة أشبه بغطيان البالوعات. وبقوة انتفخت لها عروق رقبته رفع البلاطة حتى أوقفها على سيفها وقال لي:

ـ «انزل!!».

نظرت في الفتحة التي ينبعث منها الظلام والمجهول المرعب، ترددت. قال بحسم قاطع:

ـ «انزل! لا تخف!!».

انحنيت ناظرًا فى أعماق الفتحة مسلطا ضوء الكشاف فى قلبها؛ فإذا هو بئر ساقية مبنى بالحجارة لكنه جاف تماما؛ فى الحوائط الأربع المتقابلة قضبان حديدية مثبتة فى الحجر وبارزة كالمساكات، وهى نفسها درجات نزول وطلوع قال:

- «انزل!!»

زررت السترة؛ وضعت رجلى السروال فى الجورب، نزلت، ليست هذه أول مرة أنزل فيها داخل بئر كهذا، فقد سبق ونزلت فى شبيه له أوصلنى إلى مقبرة العز التى يملكها الحاج أحمد نوار الدين السنى. جعلت أهبط درجة وراء درجة فى حرص وحذر، حتى وصلت إلى ما يشبه الأرض؛ فتوقفت؛ رأيت خالد يهبط ساحبا بكلتا يديه مقبض البلاطة التى راحت تميل فوق الفتحة شيئًا فشيئًا حتى غطت الفتحة، تبعها صوت شئ صلب يفر ثم يتك تكة مكتومة، كصوت الأكره الخشنة الفسدانة. قلت واجفا: ما هذا؟ قال إنه صوت الماكينة تعود إلى مكانها إذ إنها مثبتة فى البلاطة ببكرة وزنبرك خفى، تزيحها البلاطة وهى ترتفع، وتشدها لمكانها وهى تهبط ثانية: تكنولوچيا عتيقة يا خال فكر فيها الحفاة العراة من أهلنا. هكذا قال خالد وهو يتأبطنى آخذًا الكشاف منى. كنا فى قلب ما يشبه فسقية المقبرة، وهى عبارة عن صحن كبير مربع يجده النازل فى مواجهته بعد النزول مباشرة.

مشينا فيها يا خال. العجيب أنها كانت ممتلئة بالهواء ولا أدرى من أين أتاها يا خال. لففنا حول الجدار المواجه ثم مشينا فى

سرداب متعرج، أرضه مبلطة بالحجارة العريضة الجافة، طوله حوالى نصف كيلو متر، تتخلله على الجانبين فتحات مظلمة كأنها دواليب منحوتة فى الحائط الصخرى بأطوال وأعراض هندسية مدروسة، حوّد بنا السرداب فجأة إلى الجنة. لا أجد وصفا آخر يا بوى، ما كل هذا السحر المذهل؟ أكاد أقع مغشيًا علىّ من فرط الذهول والمفاجأة الصادمة. لابد أن هذا هو الطريق الملكى فعلا: طريق عريض رصعت طاقاته على الجانبين بالشموع، آلاف الشموع المضيئة على امتداد نهاية البصر، الشموع وحدها تحتاج لفريق من العمال كل وظيفتهم إضاءة الشموع واستبدال الفاقد منها ليس هذا هو المدهش مع ذلك يا خال؛ فأى واحد فى مركز الشيخة سعادة وأهميتها يستطيع فعل هذا، ولكن ما ليس فى طاقة البشر، حتى فى عصر التكنولوچيا المتطورة، أن ينقش هذا الشارع الضخم على الجانبين بهذه النقوش ذات الألوان الزاهية الملعلطة ليس فحسب من أول الجدران لآخرها بل والسقف أيضا تحلف اليمين يا خال كأن هذه الألوان الزاهية خارجة لتوها من تحت يد النقاشين، رسوم، رجال ونساء بالزى الفرعونى البسيط الشبيه بملابس الإحرام، حيوانات، صقور وكباش وأغربة وسباع وعصافير ودجاج وثعابين وحيات، شموس وأقمار، أهرامات مثلثة ومدرجة، مفتاح الحياة بشكله القريب من شكل الصليب، يتخلل كل هذه الرسوم حروف هيروغليفية، نفس النقوش التى رأيتها كثيرًا فى كثير من المعابد الفرعونية الظاهرة فوق الأرض؛ غير أن

هذه التى تحت الأرض هربت من الزمن قـهرته نفسته بعـيدًا عنـها فكأنها تولد كل يوم مرة. والله العـظيم إنه لشئ يلحس المخ فعلا، تصور يا خال أننى بعد خطوات قليلة تبينت أن عشرات الآلاف من الشمـوع المضاءة لم تكن فى الواقع إلا عـددًا قليلا جدا، وأنهـا قد ضوعفت إلى ملايين من أمثالها، لانعكاسها على السقف والحوائط اللامعة المصقولة كأنها المرآة؟! هل هو ما نسميه اليوم بالسيراميك أو الزليـزلى؟ هل تم نقش هذه النقـوش فوق الأرض ثم جئ بهـا لتركـيبـها فى حـوائط وسقف هذا السـرداب الصخرى العريض الممتد إلى مـا لا نهاية ظاهرة؟! وسواء كان قـد تم نقشه على قطع فـوق الأرض أو على الحوائـط نفسـهـا والسقف فـإن العـمل فى الحـالتين مـستـحيل يا خـال؛ ليس لطول المسـافة وعظم الشـغل فحـسب، بل كيف يتـسنى لهم فعل هذا داخل سـرداب مظلم بهذا الطول وهذا العـرض إلا أن يكون أجـدادنا قـد عـرفـوا الكهـرباء وسلطوا على مكان العمل أضـواء ساطعة كالنهـار؛ وحتى فى ظل الكهـرباء فكيف يتـم نقش الجـدران والسقـف هكذا دون أن تخلو عـقلة أصبع واحـدة من نقش وتلوين، بل كـيف تم نقش السـقف وحده يا خال؟ هل كان الفنان ينام على ظهره فوق سلم كبير ذى عجل ليتمكن من نقش السقف بهذه الرسوم الدقيقة؟ حاجة تهوس يا بوى..

الدواليب المنحـوتـة فى الحـوائط بأطوال وأعـراض مـوحـدة، والطاقـات الـصـغـيـرة، كلهـا مـزدانة هى الأخـرى بـالنقـوش

والألوان،وفى كل منهـا تمـثـال من الواضح أنه قـد تم نحـتـه فى الصـخـر أولا ثم نحتت له هذه المقـصورة من حوله. تماثيل كـبـاش وصقور وثعالب وأعضاء تناسل رجـالية عظيمة الحجم، ومسلات. ما بين الشرفة والشرفة ما يقرب من نصف كيلو متر.

مـرقت بجـوارنا ظلال أجـسـام بشـريـة تماوجت على الأرض وانعكست فى لمعـان الحوائط والسـقف. كركـبت بطنى وأمعـائى؛ خيل لى أن التـماثيل تتـحرك، حيث يتـمخض عنهـا ناس يظهرون فجأة يقطعون الطريق علينا لابسين الجلاليب البيضاء والمسدسات فى أيديهم. صرخت من الرعب؛ فضـحك خالد بل ضـحكت الأشباح قال خالد:

- «لتوك شاعر بهم؟!»

- «بينى وبينك أشعـر بوجود أنفاس بشـرية من أول ما دخلنا لكنى لم أر أحدًا إلا الآن!»

- «كـأنك لم تر الذين كـانوا فى السـرداب المظلم؟! إنك بمجـرد نزولك من الفـتـحة مـرصـود بوضـوح خطوة خطوة! وهى خطة جهنمية مدروسة بحيث لا تمكنك من رؤية راصدك فى حين تمكنه من كشفك جيدا!! من يتـولون هذه المهمة مدربون على ترك النازل يمشى كـيف يشاء مـؤجلين الصدام به حتى يـصير فى الأعـماق البعيدة حيث يتم افتراسه إن كان غازيًا مهاجمًا أو احتواءه إن كان أخًا زائرًا! مع العلم بأنهم يعرفون مقدمًا من سيجئ ومن سيخرج..

تعبت من المشى يا خـال فبعـد ما يزيد على ثلاثة كيلو مـترات طلبت الجلوس قليلا فى إحـدى هذه الشرفات. لكن خـالد قال إننا قـد وصلنا. ثم دخل بى فى شـرفـة على اليمـين، تبـين لى بعـد دخولها أن حـائطها المنقوش وراء التمثال إنما هو جـدار صخرى، يراه المار فيظنـها مجـرد شرفة منحـوتة فى الحائط؛ فـإذا دخلها فوجئ بفراغ مستتر فى أحد صدغيها. مرقنا فى هذا الفراغ المظلم. ما كدنا نخطو حـتى انبعث ضوء كشاف آت من بعـيد مسلط على وجـهـينا؛ ثم تبـعـه كشـاف ثان من الجنـب؛ ثم ثالث من الجنب المقابل؛ ثم رابع من أعلى؛ فعرفـت أننا قد وصلنا إلى عرين الأسد، وسط ما يشبه ساحة عريضة يشرف عليها فى المواجهة درج سلم رخـامى كبـير، مـا إن وصلنا إليه حـتى تحول ضـوء الكشافـات فـاستـقـر على هذا الدرج؛ فـإذا بنا فى مدخل بـوابة مهـولة ذات واجهـة منقوشـة الاعمـدة. دخلنا. الارض مبلطة بالرخـام الملون، والشموع كثيرة فى ردهة مستطيلة على جانبيها عدة أبواب. ضوء وشـيش كلوب يأتى من البـاب الاخـيـر على اليـمـين فى الردهة. حودّنا إليه. دخلنا..

الشيـخة سعادة جـالسة فى صدر الغرفـة على كرسى ملوكى قـريب الشكل من السرير، بقـوائم ومـساند من الواضح أنهـا من الذهب. حـولهـا مـجـمـوعة مـن الرجـال والنسـاء كلهم يرتدون الجلاليب البـيضاء يجلسون على مـقاعد مشـابهة فوق سجـاجيد ومصليات مفـروشة على الارض. كان من الواضح أنهم فى خلوة

روحيــة عمــيقة؛ وكــان ثمة من يتكلم فلمــا دخلنا كف عن الكلام ونظر فينا مستطلعًا..

سلام عليكـم، فردوا السلام وهـم جلوس. خـيل لى أنهم تماثيل منحوتة هى الأخرى فى الصــخر دبت فيها الروح قليـلا. اخترقت الطريق إلى الشيــخة مبــاشرة؛ ارتميت فى صدرها وهى جـالسة؛ إندفعت فى البكاء يا خال، صــرت أنتفض على صدرها وهـى تربت فوق ظهرى قائلة:

ـ «ظاهرة غير مطمئنة! اجلس على كل حال!!».

نهض أحدهم تاركًا لى مقعده بـجوارها. كان شابًا يافعًا ناضـج الملامح. قال:

ـ «إسمحى لى يا أم»

التفتت إليه:

ـ «ستنصرف يا ناجح؟!».

ـ «حان وقت انصرافى فاعطنى الإذن!».

ـ «بسلامة الله!»

ومـدت له يدها، فطبع على ظــهرها قـبلة، ثم قـدم لهـا خـديه، فطبعت فوقهما قبلتين أموميتين:

ـ «وفقك الله يا ناجح!»

مضى الولد خارجًا. نادته:

ـ «ناجح!».

فتوقف فى الباب مستديرًا إلينا. وهتفت به.

ـ «إذا لم تجد الظرف مناسبًا فارحل! وإذا التقاك أحد من صحابك عند الرحيل فأنت لست تعرفه ولا تود أن تعرفه!!».

ـ «فاهم يا أم!!»

ـ «فى رعاية الله!»

فاختفى، وساد الصمت برهة. قلت:

ـ «هل عطلتكم عن شئ؟!»

ـ «نعم! كان فضيلة الشيخ يلخص لنا فلسفة ابن تيمية فى معاملة الحاكم! اللهم قربنا منه فعلمه غزير وخيره وفير منير! بصره حديد ورأيه سديد!!».

ـ «إذن فأنا آسف!»

فلم تعلق، بل أشارت إلى ذلك الرجل.

ـ «تفضل يا مولانا أكمل حديثك!»

رفعت يدى بسرعة:

ـ «لا تؤاخذينى فقد...»

قاطعتنى:

ـ «ضيفك الآن فى الرعاية الكاملة! سـيأكل ويشرب ويبيت فى أحـسن مكان! سـيارتك أيضًـا فى أمـان! أنت لكى تخـرج من هنا يلزمك وقت طويل! السكة سـالكة بإذن الله ولكنهـا طويلة طويلة فاهدأ واتركنـا الآن نكمل هذا الغرض الملح! نسـتقبل علمًـا كنا فى حاجة إليه منذ وقت طويل لكى نسلك سلوك المسلمـين الحقيقيين!! استفد معنا لعل الله يغفر لك شيئًا من ذنوبك!!».

وانصـرفت عنى إلى الاسـتماع، وبدأ الـرجل يتنحنح مـسلكًا صوته، وأخـيرًا تكلم بعد أن تصفح أوراقًـا فى كتاب أصفـر قابع بين ركبـتيه على حـامل خشبى. لم أفهـم من كلامه شيـئًا، وربما لأننى لا أعـرف اللغـة التى يتكلمـون بهـا. كل مـا بقى فى رأسى كلمات عن التتار والمغول والصليبيين والأتراك والمماليك والطاغوت وفريضة الردع والمقومات الحقيقية للمسلم الكامل الإيمان، والغزو اليهودى وعذاب القبر، كل كلمة من هذه الكلمات تنحشر بين أعداد هائلة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. صار دماغى من فرط التعب يسـتسلم للنعاس لحيظات خـاطفة يسقط فيهـا دماغى على صدرى فـأسترده مـأخوذًا. مع ذلك بقيت فى ذهنى بعض إسـماء الجالسين الذين كانوا يحاورون الرجل فيرد عليهم بأسمائهم: عبد السلام، خالد، همام، فرج، عبد الجواد، ياسر.. إلخ.

أنقذنى مـن الكابوس رجل فى حوالى السـتين من العـمر وقف بالباب هاتفًا:

ـ «العشاء يا أم!!».

نهضت الشيخة سعادة واقفة:

ـ «يكفى هذا الآن!»

ومشت، فنهض الجميع؛ فخيل لى أنى مندهش من قيامهم. مشينا خلف الشيخة عائدين إلى باب مجاور للبوابة فإذا هى كلها مفروشة بالحصائر الملونة وقد ارتصت فوقها مجموعة من الطبالى حفلت بأناجر الفتة وهبر اللحم والشوربة والسلطات والفجل والجرجير. جلست الشيخة أولا ثم جلسنا جميعًا؛ وكانت جلستى بجوارها فلم تولنى أى اهتمام بالمرة، فلما فرغنا من الطعام وشرب الشاى نهضت الشيخة قائلة:

ـ «سأذهب إلى محرابى لأنظر فى أمر هذا الضيف ولسوف يرجع إليكم بعد قليل ليمكث معكم حتى الصباح!!».

ثم دفعتنى أمامها برفق، ثم تقدمتنى. اتجهت بى يسارًا، إلى الحجرة المواجهة للحجرة التى كانوا فيها عندما دخلت عليهم. حجرة مربعة صغيرة بعض الشئ؛ حوائطها وأرضها مغطاة بالسجاجيد المنقوش عليها صورة الحرمين بخيوط النسيج. يوجد بعض الشلت بمختلف الأحجام؛ الشموع مشتعلة فى طاقات محفورة فى الحوائط؛ جلست متربعًا شاردًا فاقد القدرة على الكلام.

- ٨ -

انقبض قلبى يا خال وشعرت بأخطار غامضة. تمثلت لى الشيخة سعادة فى شكل مارد من الجن أكاد أحترق بسعيره المتطاير شررًا من جسدها، لحظتئذ فحسب يا خال أنكرتها بكل معنى الكلمة؛ فرطت فى أخوتها، سلمت أمرى لله فيها. كانت فى غاية القسوة رغم رقتها الظاهرة. كانت شخصية رابعة أشد هولاً وخيالاً من الشخصيات الثلاث السابقات: سعدية زوج خرابة قاطع الطريق؛ زعيمة الجبل الملكة عليه؛ الشيخة سعادة العرافة قارئة الكتاب السحرى والكف والفنجان؛ أم الرجال الحصيفة الحادة النارية. أى دماء تجرى فى عروق هذه الكتلة الضئيلة من اللحم؟ أى شيطان تلبسها يا خال؟ أهى طبيعة الجبل زرعت فيها روح العصابة ودستور العمل السرى فى الخفاء ضد عدو إذا لم يكن موجودًا أوجدته؟! أهى اللوثة الدينية التى أصابت البلاد فى مقتل؟ ولكن كيف تسربت جرثومة القسوة والعمل الدينى المسلح ليس ضد الدولة فحسب بل ضد الناس كلهم صالحين وفاسقين معا؟! ومن يدريها يا خال إن كان هذا أو ذاك من البشر فاسقا أم

صالحًا؟! وما مقياس الفسق ومقياس الصلاح فى نظرها؟! هذه اللوثة جرثومة وفدت علينا من خارج البلاد يا خال. فأنا على يقين من أن الشيخة سعادة على علاقة وثيقة بأمراء ومشايخ نفط أثرياء وشيوخ دين مصريين أكثر ثراء يعيشون فى قلب أمريكا وأوربا. رأيت الكثيرين من أمثال هؤلاء وأولئك عندها كثيرًا فى الجبل وفى أسيوط. رأيت عندها فى الجبل حقائب سفر ملآنة بالفلوس: دولارات على فرنكات على إسترلينى على كويتى وسعودى وعراقى أنها بنك من البنوك؛ مما يدل على أن هذه الأموال قادمة إليها من كل هذه البلاد. أذكر أنى سألتها ذات يوم مازحًا: هل تتاجرين فى العملة؟! فسلقتنى بنظرة أحرقت فى صدرى روح النكتة وقالت إنها لا تتاجر فى شئ وإن هذه نفحات من باب الله لباب الله؛ والآن جاء الوقت الذى أعرف فيه أى باب من أبواب الله تنفق فيه هذه الأموال الطائلة..

تأملتنى طويلا، ثم صاحت:

- «أراك صامتا! فهل هو شعور بالذنب؟!»

والواقع يا خال أنى لم أكن عرفت كيف أبدأ حديثى؛ فما رأيته قد صعب مهمتى ووضعها فى جراب المستحيل ففى أى شئ أتكلم الآن؟

سمعنا طرقا خفيفـا على الباب. صاحت الشيخة في أمر: ادخل. فانفـتح الباب الثـقيل ودخل شـاب غليظ الوجه والصـوت، ملتح، توقف على عتبة الباب:

ـ «دقيقة واحدة لو تكرمت يا أم!»

كان يبدو عليه الاضطراب والشحـوب. فنهضت هى ذاهبة إليه؛ فى طريقها وجهت لى نظرة استرابة غـير مريحة ثم سحبت الباب وراءها واختفت. بقيت وحدى يا خال أضرب أخماسًا فى أسداس. ماذا أقول؟ ماذا أفعل؟ لقـد أرهقت أعصابى يا خال، وخيل لى أنى كبرت خمسين عامًـا من شدة القهر والغيظ. طال الوقت جدًا فكأنه يأكل فى لحـمى أكلا ينهـشه بأسنان ثالمة، مـضى ما يقـرب من ساعة كـاملة، كثرت خلالها الخطوات فى الردهة رائحـة جائية فى توتر مصـحوب بأصـوات تكتكة أقرب إلى صـوت تزييت البنادق وتجريب مـحركـاتها. ثم إن الباب انـفتح أخيـرًا ودخلت الشيـخة سعادة وأغلقت الباب وراءها..

كـان وجهـها ركـية نار في قلبـهـا ثقبـان يفحـان لونا أزرق مخضـوضرًا. تربعت فى مواجهـتى صامتة تتحدانى بنظرات حادة فيـها لوم واحتـقار وغضب ونذر وانتـقام شيطانى مـروع. قالت أخيرًا:

ـ «أراك انكتمت! فماذا وراءك أيها الكافر الفاجر! يا من تستحق السحل! خيـر لى أن ألقى بك حيًا فى قلب النار وأستـمتع برؤيتك وهى تسلقك وتشويك!!».

راحت الدماء من عروقى يا خـال، طفش عقلى، صرت أردد فى خوف:

ـ «يه.. يه! لماذا؟ ما الذى جرى لأستحق هذا؟!»

ـ «ظننتك جئت تائبًا توبة نصوحا! فـإذا بك عميل جـاسوس! حيوان قذر!!»

ـ «سامـحك الله! أنا على كل حال جئـتك برسالة رسميـة وما على الرسول إلا البـلاغ! حرصى على مصلحـتك هو الذى جعلنى أقبل المجئ إليك لتبليغ الرسالة!!

ـ «رسالة؟! ورسمية؟! ممن يا ترى؟!»

ـ «من أنور السادات بـذات نفسه! هو لم يعـرف أننى شقـيقك لكنه يعرف أنى أعرفك كما قيل له!!».

ـ «قيل له؟! يا لها من صفاقة!!»

ـ «كلمنى! قال إنه محتاج لك فـى أمر مهم! وقد طلبك المحافظ لمقابلته فقيل له إنك بعت البـيت وعنوانك غير معروف! فطلب منى السادات شـخصـيًا أن أجئ بك بأى شك نظرًا لاحتـياجـه الشديد إليك فى مهمة لم يكشف لى عنها فربما كانت مهمة شخصية!!»

انفجرت ضاحكة ضحكًا جنونيًا يمتلئ بالحقد والكراهية بشكل ضاعف من فزعى . أخيرًا قالت:

ـ «هذه وحدها خطيئة تستحق القتل عليها!! الخطيئة الثانية هى ما ترتب على قبولك لهذه المهمة المشبوهة السافلة!! أتعرف ماذا حدث أيها الجاسوس الجبان؟!»

مات قلبى، صحت فى حشرجة:

ـ «استر يا رب!»

ـ «قتل أولادى ثلاثة ضباط من مباحث أمن الدولة كانوا يراقبونك خطوة خطوة، اشتبه فيهم الخفير فراقبهم وهو يحومون حول الكوخ الذى دخلته فتركهم وخرج إلى الخلاء أطلق بفمه صفيرًا معينًا! فلما عاد وجدهم فى كوخه يتحدثون مع رفيقك الذى ينتظرك! سألهم عما يريدون فقالوا إنهم اشتبهوا فى نمر السيارة المركونة على الطريق فجاءوا يبحثون عمن يكون صاحبها! فأيقن أنهم أعداء قال سأنادى لكم صاحبها! وخرج فالتقاه الشباب الذين هبوا لصفيره لنجدته ثم تسللوا إلى نافذة الكوخ وأطلقوا الرصاص عليهم من مسدس كاتم للصوت!! أجهزوا عليهم بطبيعة الحال ومات رفيقك معهم وكان يجب أن تموت أنت أيضًا!!»

ـ «قتلوا هندى؟! لا حول ولا قوة إلا بالله!!»

وانفجرت باكيًا ألطم خدى كالنسوان، لكنها بكل برود قالت:

ـ «العقبى لك!! الجثث تمت تعبأتها فى أجولة! حملتها الحمير فى الظلام، وألقت بها فى النيل! ولكن الشبان أبنائى حماهم الله

ارادوا أن يخدموك بإبعادك عن القضية فأشعلوا النار فى سيارتك فصارت كتلة من الصفيح الخـردة! لا يمكن الإستدلال عليها! رأيى أنك لا تستحق الخدمة بل إن قرار قتلك قد اتخذته منذ وقت مضى لكنى أرجأت تنفـيذه لعلك تثوب إلى رشـدك وتعفينى من عـتاب الدم ومن شبح الـعظام النائمة فى قبـرها!! أما الآن فـإننى صرت مقـتنعة بأن قتلك أصـبح واجبًا وحلالاً!! غـير أنى ساتركك حـيًا لسبـبين: الأول أن تبلغ رسالتى لأنور الســادات! والثانى لأنه هو الذى سيقتلك بنفسه!! لقـد عرف أنك شقيقى منذ وقت طويل وهو يضـعك تحت الاخـتـبـار! وعـرف أنى أحـاربه فـارسلك طعـمًـا ليــصطادنى بك! لكنــه نسـى أن مــخـــابراتى أنشط وأقــوى من مـخابراته!! ولدنا العزيز خالد الذى أتــى بك إلى هنا شغلته التخابر وجمع المعلومات وتبليـغـها أولا بأول!! لابد أن توصل رســالتى لأنور السادات كى يمتد عمرك أيامًا فهل أنت مستعد لتوصيلها؟!»

- «ماذا أقول له؟!».

- «قل له إن الكـتــاب لا يكـذب!! إن الورق لا يخـــون أهله ولا يخدع نفسه!! النبوءة لابد من حدوثها!! لقد قرأت لك الورق فكأنى أقرأ التاريخ الذى رأيت أحداثه المقبلة مجسدة أمام عينى!! قرأت له الورق أى أنى أنذرته! وقـد أعذر من أنذر لكنه لم يرعـو! بل ازداد جهالة على جــهالة وكرر صورة الطاغوت مـضروبًا فى مائة!! إن الله الذى ألهمنى قراءة الورق هو سبحانه الذى ألهمنى مهمة تنفيذ

النبوءة!! حينما كنت أقرأ له الورق كنت فى الواقع أقرأ عهدًا وميثاقًا أبرمته روحى مع الله سبحانه وتعالى!! قل لأنور السادات كل هذا!! قل له إن أم الرجال أم المؤمنين لقادرة على تخليص البلاد من رأس الفساد! وإن الله لناصرها عما قريب! وإن الموت أقرب إليه ـ وإليك ـ من حبل الوريد! وإن جميع قواته وحرسه وسلاحه وأسواره كل ذلك لن يعصمه من مصير اختاره له الله والدليل على ذلك اقتناع الملايين من المسلمين بهذا القصاص!! والآن فلتذهب إن ولدى الذى أتى بك هو الذى سيخرج بك من هنا! هذه آخر مرة أراك فيها!!».

تنفست الصعداء بمجرد علمي بانى سأخرج من هنا إلى الخلاء ثانية؛ مع أن منظر الشيخة وملامحها المسمومة الحادة كانت تشككنى فى صدق عفوها؛ فالراجح عندى أنها وصلت إلى المرحلة القصوى فى الانفصال عن كل المشاعر الإنسانية من فرط يقينها بكفر الآخرين، وبوجود كل هذا الرعيل من الشبان وهذا العدد الهائل من المريدين من جميع فئات المجتمع مثقفين ومهنيين وحرفيين وعسكريين وطلاب دراسات عليا كل هؤلاء بعثوا فى فؤادها غطرسة القوة الغاشمة القاسية التى لا ترحم، لقد تقمصتها روح زعيمة العصابة على نطاق أوسع، حيث يصبح القتل وقطع الطريق وقطع الأرحام عملا بطوليًا شرعيًا فى خدمة الإسلام والله..

قل إنني كنت مرتابًا في عفوها وأظنه تمويهًا وخداعًا، وإنني - كما صار مرتبًا لي - ستؤخذ بناصيتي في الخلاء بعيدًا عنها. إلا أنني يا خال تذكرت شيئًا خطيرًا في كلامها أردت أن أراجعها فيه على أمل واه بأن تغير رأيها أو على الأقل تخفف من حدته. قلت:

- «ولكن يا ست الكل أنت تقولين إنك قرأت الورق لأنور السادات! والصحيح أنك قرأته لمحمد بك أبو شناف! فكيف حدث هذا الخلط! تحملين رجلاً أوزار رجل آخر؟! ما لمحمد بك أبو شناف بأنور السادات؟! هذا رجل كان من الضباط الأحرار ذات يوم واعتزل السياسة واشتغل في البزنس أما هذا فرئيس جمهورية بعد تاريخ سياسي كبير!!».

فضحكت ضحكة عمري ما سمعت في غرابتها يا خال، سعدية الرقيقة الشقيانة في مكتبة عمها الفقيه وخدمة ضيوفه، والتي انتقمت لزوجها خرابة من قاتله في التو واللحظة محققة العدالة بنفسها على الحكومة في عقر دارها؛ سعدية زعيمة الجبل مطهرته ناشرة الود والسلام والعدالة بين المطاريد الأشقياء؛ سعدية الشيخة سعادة ربيبة العلماء والمتصوفين والصالحين من أنحاء العالم الإسلامي قارئة الكف والورق لرجالات الثورة في مصر، سعدية هذه بكل وجوهها لم يحدث أن صدرت عنها مثل هذه الضحكة النحاسية الصدئة السمجة الشريرة؛ ضحكة خلفت على وجهها شحوبًا أصفراويًا مرعبًا يا خال. قالت بنبرة تخلو من أية مشاعر:

ـ «كيف تريد أن تفرض علىَّ غباءك الذى لا مثيل له بين الحمير؟! أنا لم أقرأ ورق محمد بك أبو شناف أنا قرأت ورق الحاكم المصرى!! سيان عندى أن يكون الجالس أمامى محمد بك أبو شناف أو أنور السادات!! محاولة التفريق بين الشخصيتين لم تشغلنى لم أفكر فيها أصلا!! لكننى مذ وقع بصرى عليه ليلة القراءة وعند تفنيط الورق اعتبرت كلا منهما قرينا للآخر!! أنا التقيت صاحب البزنس كما تسميه لكنى قرأت فى الورق صورة قرينه بصاحب البزنس الأكبر!! كلاهما يوضع فى مكان آخر دونما فرق يذكر عندى!! كلاهما آثم فى نظرى!! كلاهما قنطرة يعبر فوقها الفساد لتخريب ديار الإسلام ويفتح الباب للكفر حتى يصبح الإسلام غريبًا فى بلده!! كلاهما خائن للأمانة وأنت نفسك أكبر دليل وأوضحه على فسادهما معًا!!».

وصفقت بيديها؛ فانفتح الباب وأطل منه الوجه الغليظ. صاحت فيه:

ـ «المهندس خالد!».

فمضى الغليظ. وبعد برهة جاء خالد. صاحت فيه:

ـ «اصحبه إلى الخلاء من سكة لا يتذكرها!!».

ولم أكن أقوى على الوقوف يا خال من شدة الرعب والخور فتقدم خالد منى ووضع يديه تحت إبطى، ثم أوقفنى، ثم سحبنى

فمضيت بجـواره كالمنوم مغناطيسيًا؛ مـجرد هيكل عظمى لا حول له ولا طول..

ظللت منتبـهًا إلى أن غادرنا السـاحة أمام البـوابة إلى سرداب متـفرع من الشـرفة التى دخلنا منهـا. سرداب مظلم تمامًـا، ضيق لدرجة أن أكتافنا كانت تحتك بجداريه. من حسن الحظ أنه لم يطل أكـثر من حـوالى ربع سـاعة. فـمـا إن شعـرت بأننا حـودنا إلى سرداب أوسع كثيرًا، تهاويت على الأرض فاقد الوعى يا خال..

أفـقت بـعـد وقت طويل، عـلى يد تدلك قلبى وتحـــرك ذراعى كحركـة ذراع الطلمبة فطنت إلى أنى استفـرغت كل ما فى جوفى. صار خـالد ينظف لى مـلابسى، يجفف عـرقى. ثم جذبنى بـقوة فأوقفنى. اسـتأنفنا السير. كانـت الساعة فى معصـمى تشير إلى التاسعة صـباحًا حينما نظرت إليهـا فى ضوء الولاعة وأنا أشعل سـيـجارتين لـى ولخالد. طـلبت الجلوس قليـلا؛ فـجلسنا. أبديت دهشتى من تقدم الوقت إلى هذا الحـد فهل مشينا كل هذا الوقت؟ فقال خالد إن فترة الإغماء قـد امتدت حوالى خمس ساعات، وأنه ظن أنى مت وبدأ يفكر فى كيفية التخلص من جثتى لكنه من شدة الارهاق تمدد بجوارى حتى يمر بنا أحـد من الرجال يساعده على التصـرف، فنام نومًا عـميقـا فلم يوقظه إلا شخـيرى الذى ارتفع فجـأة يدمدم ويزلزل كقـصف الرعد؛ فحـمد الله وانتفض جـالسًا يمسح القيئ عن صدرى ثم يجـرى لى عملية تدليك للقلب لتنشيط الدورة الدموية.

مشينا يا خال، والسرداب يتسع شيئا فشيئا والضوء يتسع معه، فكأننا نمشي في ميدان مسقوف تتفرع منه سراديب ضيقة لا حصر لها كجيوب يختبئ فيها الهول والمجهول. توقف خالد وصار يستطلع حواليه ويعد السراديب التى على يساره ثم يسحبني إلى السرداب الثالث؛ دخلناه بقامة محنية قليلا؛ مشينا بالقامة المحنية حوالى عشر دقائق صعبة خانقة؛ إلى أن دهمنا جدار يسد علينا السرداب. فلما اقتربنا منه رأينا فراغا على الجنبين عبارة عن شق هائل بالطول في الجبل؛ شق ليتسع لجسدين فقط؛ والسماء ظاهرة لأول مرة، بشمسها ونورها الساطع. ثمة صخور وأحجار كثيرة تسد الطريق من الجهتين؛؛ تسلقناها بصعوبة. لفت بنا الصخور عبر مدق ينحدر من أعلى، صرنا نصعد فوق الجبل تحت قرص الشمس مباشرة، مشينا تحت الشمس حوالى نصف ساعة؛ ثم دهمتنا مغارة ذات بوابة تستطيع ابتلاع عمارة شاهقة. دخلناها؛ كانت مليئة بالضوء، متعرجة، واسعة؛ ما إن تضيق حتى تتسع، وما إن تتسع حتى تضيق مشينا في قلبها حوالي ساعة كاملة يا خال، والضوء يقترب ويزداد ابيضاضًا ونصوعًا. ثم ظهر الأفق من بعيد جدًا، كشريط أخضر؛ ومن خلفه بيوت كعلب من الكبريت. لفظتنا المغارة إلى أرض مستوية، ثم تبين لنا أن الأرض الزراعية والمساكن في سفح واطئ، وأننا أعلى منها بنحو قامة رجلين. صرنا كأننا نقف فوق سطح أحد المنازل، والناس تروح وتجئ من تحتنا..

كان ثمة منحدر علـى اليمين فمضينا إليه. صـار يهبط بنا. بعد قليل صـرنا فى قلب أرض زراعـيـة، وبعـد قليل صـرنا فى قلب المساكن. قال خالد:

ـ «أتعرف أين أنت الآن؟!»

صرت أراجع كل منظر حولى. قلت:

ـ «البلد مألوفة لى!»

ثم تبينت فى الحـال أننا فى قرية «دُرُوْنكه». هتفت من أعـماق خاوية:

ـ «يا.. !...ه! كيف وصلنا إلى درونكه؟ يا لها من رحلة عـصيبة مـضنيـة!! إنى آسف يا ولدى! لقـد سبـبت لك المتـاعب دون ذنب ودون فائدة!!».

قال بتلقائية:

ـ «بل أنا الذى يأسف لكل ما حدث! لكنه مكتـوب! والمكتوب ما منه مهروب! المهم الآن أن صلاة الجمعة وجبت! بالكاد نتوضأ!».

ـ «إذن فاتجه بنا إلى جامع درونكه!».

توضأنا؛ دخلنا إلى المصلى. كان المصلون فى حالة غير طبيعية؛ يمـيلون على بعضـهم البعض يتـهامـسون فى قلق، يكاد الهـمس ينقلب إلى شجار، وهم بين مؤيد ومعارض، راض وساخط. كانت

عيونهم تشير إلى المنبر وتستأنف الهمس والعراك الصامت. نظرت فى الخطيب الواقف على المنبر؛ أصابنى الذهول يا خال؛ إنه ذلك الشاب المدعو ناجح، الذى رأيته بالأمس فى حضرة الشيخة سعادة. ميلت على خالد وسألته:

ـ «ناجح هذا من زملائكم طبعا!!».

ـ «نعم! أظنك رأيته بالأمس مع ماما!!».

ـ «أهو من درونكه؟!».

ـ «لا! ولكنه يجول بين المساجد فى بلاد الصعيد! إنه من أنشط العناصر وأقواها فى الإقناع والتأثير! هو خطيب جيد!».

ـ «ولكنى أرى فى الأمر شيئًا غير طبيعى!!».

ـ «طبعًا! فأتباعه هنا قلة قليلة جدًا أو غير قادرين على إقناع الآخرين فاستضافوه ليخاطب أهلهم من فوق المنبر! ولأنه معروف بالاسم هنا فبعضهم متوجس من ظهوره وبعضهم مرحب به!!».

ثم خطب ناجح. كان فصيحًا بليغًا سريع البديهة قوى البيان، يربط بين الماضى والحاضر بأفكار جزئية مبهرة براقة يرصد فيها مظاهر الفسق والفساد فى كل مكان، يحمل الناس مسئولية ظهورها ومسئولية استمرارها؛ ينذرهم بعذاب الجحيم إذا لم يقاوموها ويستأصلوا شأفتها من أرض الإسلام. أشهد أن ناجح نجح فى تخدير جميع الصفوف، وفى التأثير عليهم إلى حد ارتفاع

البكاء بين المصلين. ثم أقام الصلاة؛ فما أن سلم ذات اليمين وذات الشمال، وصافح المقربين منه، حتى تلقفه مضيفوه، واختفوا به في لمح البصر..

توجهت بصحبة خالد إلى الطريق الزراعي، حيث تلقفتنا إحدى سيارات النقل لتلقي بنا في أسيوط. كنت أجرر ساقي شاعرًا بالقهر والحزن العميق، أكتم الدموع في صدري، أمشي ذاهلاً. قال خالد:

ـ «تركب القطار؟!».

قلت: لا. وعزمته على الغداء، توجهت به إلى مطعم للأسماك، فتناولنا وجبة سريعة. ثم ودعته على باب المطعم ومضيت إلى موقف السيارات فركبت واحدة: على مصر يا أسطى، ثم استرخيت متمددًا على المقعد الخلفي كله، واستغرقت في نوم عميق كأنه الموت يا خال.

- ٩ -

بُهتت زوجى حين رأتنى يا خال، أنكرتنى، أعدت الحمام الساخن فغطست فى الحوض لساعات طويلة وأنا فى حالة لا تركيز فيها على الإطلاق. تناولت العشاء فى صمت، وأويت إلى الفراش فنمت. أيقظتنى زوجى فى اليوم التالى لأتناول الغداء، فدخلت الحمام الساخن وخرجت منه فاقد القدرة على التركيز تمامًا. أين طفش عقلى؟ إنى غير شاعر بوجوده يا بوى، لا أقوى على التفكير فى أى شئ؛ لا أعرف شيئا مما يدور حولى؛ تكلمنى زوجى بالساعات فلا أفقه شيئًا مما قالت، فأعاود النوم، وأصحو لأتعشى وأنام، ولا أقوى على صلب حيلى يا بوى، ولا الوقوف على قدمى..

ذعرت زوجى؛ استدعيت طبيبى الخاص. فحصنى جيدًا؛ قال إنها حمى أدت إلى فقدان الذاكرة مؤقتًا. لم توافق على نقلى إلى المستشفى. كانت المكالمات التليفونية تنهال على البيت من جهات مختلفة تسأل عنى، فترد عليهم بلباقة، وتتابع العمل مع بربش دون أن تخبره بشئ عن حالتى الصحية وكانت الرئاسة قد

اتصلت بى أكثر من مرة ؛فأبلغتهم بحالتى الصحية، فاتصل السادات بنفسه وسألها عن حقيقة الأمر فشرحت له الحال كلها؛ فأرسل مندوبًا طبيًا من طرفه ليرانى على الحقيقة. أيقظونى. لم أقو على النهوض؛ لم أع شيئًا مما يقال حولى؛ إنما أبحلق فيهم كأنهم جميعًا غرباء، وحينما أعود للنوم يستغرقنى الهذيان..

بدأ الانزعاج الحقيقى. جاء السادات بنفسه ليعودنى فصرت أنظر إليه ولا أقوى على مواصلة النظر بل تعاودنى الحمى وينكسر رأسى فوق صدرى. نقلونى إلى المستشفى العسكرى. مكثت فى غرفة العناية المركزة عشرين يومًا؛ ثم انتقلت إلى حجرة استشفاء فمكثت فيها عشرة أيام. فى هذه الأيام العشرة الأخيرة بدأت أفيق شيئًا فشيئًا، بدأت أعى ما حولى؛ أتذكر ما حدث، أرد على الهاتف، أتبادل الحديث مع الزوار بتركيز طبيعى، أناقش مع بربش تقارير الوضع فى الشركات، أحكى لزوجى حقيقة ما ألمّ بى..

جاءتنى وفود من المباحث الجنائية، ومباحث أمن الدولة. سألونى عما يكون قد حدث لى فى الصعيد. راوغتهم، زعمت أن بعض مطاريد الجبل قد اختطفونى ظنًا منهم أننى أحمل فلوسًا كبيرة فأرهقونى بالتعذيب والتهديد بالقتل ثم فتشوا سيارتى فلم يجدوا بها شيئا فأحرقوها ونقلونى معصوب العينين ليلا إلى أسيوط فتركونى عند المحطة ولاذوا بالفرار؛ رجحت أن يكون ما حدث لى من فعل الجماعات الإرهابية لأن الجناة كانوا ملثمين..

كان عدم التصديق والاستنكار واضحين فى أعين الذين حققوا معى، لكنهم مع ذلك لم يرهقونى. بعد عودتى إلى البيت بأيام قليلة طلبنى السادات فذهبت إليه. طلب منى تقريرًا وافيًا عما حدث لى فى المشوار المشئوم؛ حكيت له نفس ما حكيته من قبل ولكن بشكل محبوك هذه المرة إذ أضفت بأن الذى قادنى للخطف أوهمنى بأنه سيوصلنى إلى المقر الجديد للشيخة سعادة وأنه اختفى فى شعاب الجبل ليمسك بى الملثمون..

نظراته كانت نظرات ثعلب ماكر تبدى الاقتناع بما أقول لكنها تفلت منها بوارق تتوعدنى تقول إن كلامى مفكك بل متهافت لايدخل الدماغ. لكنه قال:

- «على كل حال! حمدًا لله على سلامتك!!».

ونهض واقفا إيذانا بانتهاء المقابلة. وحينئذ انتبهت إلى أنه يرتدى الجلباب والطاقية الصوفية الفلاحية ويمسك بالعصا، ولولا منظر القصر الجمهورى وحشود الحرس المتنوع الأزياء لايقنت أنه محمد بك أبو شناف بلحمه ودمه. وعندما سلمت عليه تأهبًا للانصراف شعرت بيده رخوة باردة؛ فدوى قصف الرعد فى بطنى، وقفلت عائدًا إلى بيتى أعض بنان الندم لأنى لم أعترف بكل ما حدث جملة وتفصيلا؛ ولشدة غيظى لم أفهم لماذا أعترف يا خال.

لحقت بى زوجى إلى المرحاض مهرولة متوجسة يشملها الكثير من الاضطراب، بقيت واقفة على باب المرحاض المورُوب قليلا؛

صارت تحدثني بصوت مضطرب؛ وأنا أشد منها اضطرابًا أرد عليها بصواريخ من الضراط الراعد، المطرطش، ومخى كله مركز في بطني. فلما هدأت بطني قليلا استعدتها ما قالت، فحكت لى أنها لاحظت شيئا غريبا مقلقا: هناك من يراقب البيت منذ بضعة أيام، حوالى خمسة رجال كل منهم يتمركز في جهة يظل يحوم حولها طول النهار فإذا دخل المساء انصرف وتسلم المكان بدلا منه شخص آخر؛ كما أنها لاحظت أن هناك من يلاحقها في الخفاء أثناء توجهها إلى أى مشوار وأن إحدى صديقاتها نبهتها إلى ذلك لكى تأخذ حذرها وأني يجب أن آخذ حذرى أيضًا إذ لابد أنى مراقب كذلك.

قدمت لى كوب الليمون على السرير وهى تقول:

ـ «لابد من الرحيل! السفر هو الحل! بقاؤنا هنا يجر علينا متاعب لا تتخيلها بسبب أختك!!».

ـ «ومصالحنا؟!».

ـ «نبيعها ولو بالخسارة! آن الأوان لأن نستريح من القلق والمسئولية التى نقع فيها بسبب غيرنا! فلوسنا فى بنوك الخارج تكفى لنعيش من أرباحها السنوية! ومن يدرى؟ ربما وفقنا الله فى عمل مشاريع جديدة فى البلد التى نستقر فيها!!».

ـ «تظنين أنهم يسمحون لنا بالسفر؟!».

ـ «سأتصرف! البلد كلها شرقانة وكل شئ يمكن شراؤه بالفلوس حتى الرجال! سأتصرف!!».

- «وعملية بيع الشركات أتظنيها سهلة؟!».

- «سأتصرف أيضًا هى سهلة عندى!!».

- «دبور يزن على خراب عشه! أخاف أن نخسر ما تعبنا فى تأسيسه وفى نفس الوقت نُمنع من السفر!!».

- «أنا متأكدة أننا لو انتظرنا سنوضع تحت الحراسة لسبب من الأسباب! فدعنى أتصرف!!».

- «خلاص يا أم أدهم ! تصرفى!!»

وفطنت ياخال إلى أن زوجى التى تخرجت فى الجامعة الأمريكية بعد الزواج، خدمها جمالها الفطرى الصارخ عندما أصبحت ترتدى أحدث الأزياء من أشهر وأغلى بيوتها فى باريس، فأصبحت معدودة بين أشيك نساء مصر؛ صارت شخصية لها ثقلها واحترامها وخطرها، صارت صديقة حميمة لجميع نساء الوزراء والكبراء والرءوس التخينة فى البلد ناهيك عن الرءوس التخينة فى شركاتى. كل يوم عزائم وضيوف، وهدايا ثمينة متبادلة، وحضور أفراح، وحضور ندوات، ولقاءات فى نادى الجزيرة والنادى الأهلى وهليوبوليس. كانت هذه ملحلحة وذكية ومحبوبة، وعطوفة..

اشتغلت التليفونات عدة أيام، ثرثرة النساء ترتب عليها لقاءات متكررة وعاجلة بين محامين ومحاسبين، مستشارين ووكلاء،

تكونت شركة مساهمة من مجموعة الإداريين الكبار المهيمنين على نشاط شركاتى من رجال الإدارة المركزية الأم، تقوم هذه الشركة بشراء أصول شركاتى كلها، على أن يتم التعاقد مع بنكنا الرئيسى فى سويسرا، الذى أعطيناه توكيلاً وتفويضًا بذلك. ولما كانوا جميعا من ذوى الأرصدة فى الخارج فقد تم التحويل بالعملة الصعبة من بنك إلى بنك، وتم كل شئ فى يسر وسهولة بواسطة المندوبين الوكلاء والمحامين والمحاسبين، فيما نحن جلوس فى بيتنا».

سافرت زوجى إلى فرنسا وحدها لتعرض نفسها على أحد كبار أطباء التجميل ليريحها من شئ تافه كان يزعجها مع أنه كان يعجبنى. ذلك هو أنفها الذى كان طويلا حادًا مدببًا فى عوجة أمامية صغيرة كمنقار الديك الشركسى».

بعد سفرها بساعات جاءنى الخبر من أسيوط بأن أمى قد ماتت منذ عدة أيام وتم دفنها تحت إشراف زوج ابنتها أبو هليل. أتانى بالخبر واحد من السماكين الذين يوردون السمك لقصرى كل أسبوع، وهو فى الأصل من بلدنا. قال إن أمى ماتت من الخضة، إذ فوجئت بقوة مسلحة من رجال الشرطة تقتحم عليها منزل خرابة القديم لتفتش عن أخى حسين اذى إنضم للجماعة الإسلامية فى كلية الطب وأصبح من أنشط وأبرز عناصرها. قال إنه كان أميرًا للجماعة وإنه هارب منذ وقت طويل فى مكان

مجهول بعد أن هجر الدراسة تماما. بكيت مُرَّ البكاء يا خال، فهو أخي الوحيد الذى كنت أدخر له مستقبلاً عظيمًا فى السنين القليلة القادمة من سفر للخارج إلى فتح عيادات ومستشفيات خاصة. يعلم الله يا خال كيف تلقيت هذه الطعنة النجلاء فى قلبى. اعتبرته قد مات، ولعنت الشيخة سعادة وسنينها السوداء وطافت بذهنى فكرة السفر إلى أسيوط لأقرأ الفاتحة على قبر أمى وأتسقط أخبار أخى حسين لعلنى أظفر به وأحاول إنقاذه من هذا الجنون..

لحظة أن هممت بارتداء ثيابى وقعت عينى على شاشة التليفزيون فرأيت ملابس عسكرية ودبابات فى الميدان وجنود تحمل المدافع والكورس الغنائى يصيح مغنيًا: الله أكبر! الله أكبر! فتذكرت أن غدًا هو اليوم السادس من أكتوبر، وأننى مدعو لحضور الاحتفال السنوى بالعرض العسكرى فى مدينة نصر مع الرئيس السادات والوزراء وكل رجال الدولة المهمين؛ ولابد أن أحضر يا خال؛ فصرفت النظر عن السفر إلى ما بعد الاحتفال؛ ثم ما لبثت حتى صرفته نهائيًا. فلأول مرة يا خال أشعر أن الصعيد فقد حميميته تمامًا بالنسبة لى، أصبح غابة عدوان بشعة مخيفة مشبعة بالظلام. وتلك كانت أكبر خسارة منيت بها فى حياتى يا خال.

ذهبت إلى مقر الاحتفال يا خال. كنت منقبض الصدر بصورة أخافتنى، والهواء الذى أتنفسه يبدو مشبعًا بالمؤامرات والخسة

والقرف، وكل المرئيات رمادية كابية قاتمة. عزوت ذلك إلى القلق الذى أقض مضجعى حتى الصباح، فى نوم متقطع ملئ بالكوابيس المزعجة..

رأيت فيما يرى النائم أن أنور السادات أشبه بفلاح ممسك بفأس ومقطف يعلقها فى كتفه. وكان يبدو أننى عزمته على الغداء فى دارنا القديمة فى البلد. ولم أكن أعرف لماذا عزمته مع أنه فى المنام لم يكن صديقى بل كان يظهر كما لو كان آتيًا يصطحبنى لنعمل سويًا فى العزيق تبع مقاول أنفار يعرفه. لكنه كان يبدو عليه التوجس والخوف لا تكف عينه عن التلصص. ثم إذا به ينتفض واقفا فى خوف صائحًا:

- «خبئنى يا حسن! شف لى ركنًا اختفى فيه! المقاول سيقتلنى يا حسن مع أننى مظلوم! والله مظلوم يا حسن ولست أكره الأنفار كما صور لهم المقاول اللعين!!».

ثم اندفع يجرى داخل الدار يبحث عن منفذ يهرب منه؛ فالتقاه فى منتصف الحوش ملثم انسلخ من الحائط وفى لمح البصر شج رأسه بالفأس واختفى. جعلت أصوت وألطم حتى صحوت؛ فأخذت أتشهد وأقرأ الفاتحة وسورة يس؛ ثم نمت؛ فرأيته ثانية، يجلس معى فى شقة مصر عتيقة مرتديًا لباسه العسكرى ممسكًا بكوباية شاى صغيرة؛ فإذا بالسقف ينهار فوقنا فاختفى هو تحت الهديم أما أنا فرأيتنى طائرًا فى الهواء كأنى بأجنحة خفية،

والدم يسيل من رأسي، وعيني في الأرض تبحث عن رقعة آمنة لأهبط فيها، والأرض كلها أوحال وبرك ومنحدرات جبلية وعرة..

وكنت أحوم في الفضاء حول هذه المنحدرات الوعرة حينما صكت أذني أصوات جلبة العرض العسكري؛ فأفقت، فتحت عيني، فإذا بي جالس في المنصة في مدينة نصر ثالث صف وراء الرئيس السادات. تحلف اليمين يا خال ما إن فتحت عيني حتى رأيت إحدى السيارات المصفحة تمر أمامنا في العرض ثم تتوقف؛ و من فوقها جنود يصوبون المدافع نحونا. ظننت ذلك من ضمن العرض يا بوي؛ لكنني فوجئت بالرصاص ينطلق في وجوهنا، مصوبًا على رقبة الرئيس السادات نفسه. جمدنا الذهول يا خال، وإذا بشاب ضخم الجثة يقبل مهرولاً نحو أنور السادات يصب الرصاص في صدره مع الصرخات الآمرة المتشفية - هبطنا كلنا تحت الكراسي كالأرانب المذعورة، حدثت دربكة هائلة؛ فر من فر، ووقع من وقع امتلأت الدنيا بالصراخ المذعور مختلطًا بطلقات الرصاص. عيني جاءت في عين الشاب الضخم الذي اقترب من المنصة؛ تحلف اليمين يا خال أنني رأيته بنفسه بعينيه في مخبأ الشيخة سعادة. تعرفت عليه وعلى شاب آخر ممن لاذوا بالفرار.

منذ ذلك اليوم المشئوم يا خال كمشت في منزلي لا أبرحه، أعاني من مرض في معدتي وأمعائي، وصداع مزمن، ورعشة في أطرافي مستمرة لا أقوى معها على الإمساك بشيء. كرهت

السياسة طلقتها بالثلاثة جمدت عضويتي بالحزب الوطنى منعت نفسى عن مجلس الشعب نهائيًا أصبحت أخاف من خيالى تعودنى أشباح تتربص بى لتغتالنى. صرت أقضى النهار والليل فى الصلاة أضرع إلى الله أن يسامحنى وينجينى..

وكانت زوجتى قد علمت بالخبر فور وقوع الحادث، فأبرقت لى تطلب النصح، فأبرقت إليها بأن تبقى لأنى قادم إليها لأعرض نفسى على الأطباء. وبالفعل سافرت إليها فتقرر إبقائى فى أحد مستشفيات سويسرا مدة تحت العلاج. تركتنى زوجى وعادت إلى مصر، جهزت أوراق العيال، سرحت جميع الخدم إلا واحدة عجوز؛ أغلقت أبواب القصر، جاءت بالعيال، ألحقتهم بأرقى المدارس فى سويسرا. استقر بنا المقام فى هذه العاصمة البديعة، صار بيتنا بفضل زوجى مزارًا للجالية المصرية كلها؛ اختفى الشعور بالوحشة؛ لكننى ما لبثت حتى وجدت نفسى تلقائيًا ذات يوم أجلس فى الطائرة المتجهة إلى مصر. إن مصر هى الداء والدواء يا خال. لقد كنت فى الغربة أتمنى أن أعود إليها ولو كان الثمن كل ما أملك. وها أنذا قد عدت يا خال كما كنت أول مجيئى إلى القاهرة، مجرد رجل من جملة الناس، مع الناس، بلا وجع للدماغ، من البيت للجامع، ومن الجامع للبيت، وكل بضعة أيام يقتادنى الشوق إلى العيال فأركب سيارتى إلى مطار القاهرة، أقضى مع العيال ما أشاء من أيام، ثم ألتفت للسائق بأن ينتظرنى

فى المطار،يوم كذا الساعة كذا، وحـدى أو مع العيال أحيانًا. وهكذا لم يعد يقلقنى فى الدنيا شئ سوى مـا يحتدم فى بطن الجبل فى أسيـوط من براكين مـروعة تعـود بمصر والعالم العـربى كله إلى عصور الجاهليـة الأولى. إن الحياة فى مصر اليوم أصـبحت شبه مستحيلة يا خال، ولكنها فى الخـارج بالنسبة لى أكثر استحالة يا خال. على كل حال ربنا على الظالم.. مساء الفل.

الفهــــرس

في عين العدو خمسة

أيام الخلق ستة

أيام الاسبوع سبعة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤٧٧٠ / ١٩٩٧

I.S.B.N 977 - 01 - 5168 - 8

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين. أما بعد فهذه أمالى الحاج «حسن أبو على» ولْد خالى «عبد الباسط عواد»، الشهير بأبى ضب. أملاها علىّ فى بضع ليال ونحن جلوس على مصطبة من الحشيات الثمينة المبطنة بالفرو، ومن خلفنا المساند القطيفة الملونة، فى شرفة شقته المقامة فى الدور السابع فوق سطح عمارته المهيبة الواقفة كالعروسة الحورية فوق أعلى قمة من جبل المقطم الأغر، حيث يتربع «حسن أبو على» ولد خالى فى غاية من الاطمئنان بعد اذ لم يعد مطلوبا منه أى شىء على الاطلاق، وبعد أن تغلغل فى كل شىء فى البلاد، وبات حاكما بامره يخطب الجميع ودّه ويتملقونه ويمسحون له الجوخ فى كل مكان، وبعد أن زهد فى كل شىء منذ أن توفرت له كافة السلطات، ولم يعد يطلب من الله غير الستر ومغادرة هذه الحياة الفانية فى ستر هادىء يمكنه من النظر فى أمر الحياة الباقية، تلك التى لم يعطها من قبل نظرا على الإطلاق إلا فى أواخر أيامه.





مطابع الهيئة المصرية العامة